



# نَفْحَاتُ الرَّحْمَنِ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النمازى

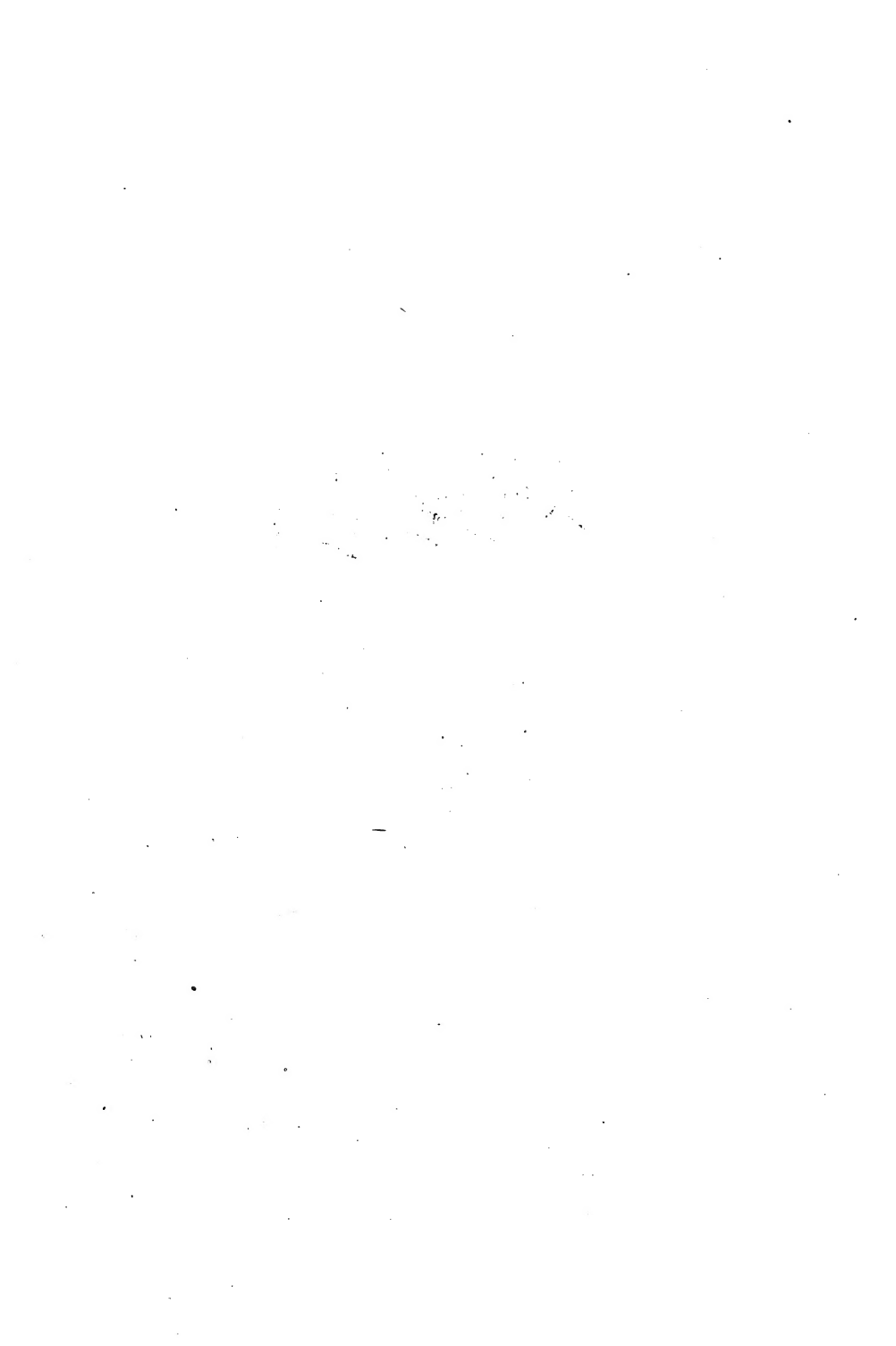
تحقيق قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة قم

المجلد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ







# نفحات الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي

(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الأول

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

نهاوندی، محمد ۱۲۵۲ - ۱۳۳۰  
نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن/تالیف محمد بن عبدالرحیم النهاوندی؛

تحقیق

قم: موسسه البعثة، مرکز الطباعة و النشر ۱۳۸۶

ج۶

دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴، ج۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴، ج۲: ۹-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴، ج۳: ۷-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴، ج۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴، ج۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴، ج۶: ۱-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴

۹۶۴-۳۰۹

فیبا

عربی

کتابنامه

تفاسیر شیعه - قرن ۱۴

بنیاد بعثت، واحد تحقیقات اسلامی

بنیاد بعثت، مرکز چاپ و نشر

۷۹/ن۹۸/۹۸

۲۹۷/۱۷۹

۸۴۴/۳۷۴۹۰م



## مرکز الطباعة و النشر فی موسسه البعثة

نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن ج۱

الشیخ محمد بن عبدالرحیم النهاوندی

تحقیق: قسم الدراسات الاسلامیة - موسسه البعثة - قم

الطبعة الاولى ۱۴۲۹ق.

الکمية: ۲۰۰۰ نسخه

التوزيع: موسسه البعثة

طهران - شارع سمیه - بین شارعی الشہید مفتح و فرصت - الرقم ۱۰۹

هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاکس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة لموسسه البعثة

شابک ج۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴

شابک دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴

## مقدمة المؤسسة

إن تأسيس مؤسسة البعثة تعود الى الشهور الاولى بعد إنتصار الثورة الاسلامية حيث بدأت نشاطاتها فى مدينة طهران أولاً و كان الهدف من وراء إنشاء هذه المؤسسة تجميع كافة البرامج الثقافية و الخدمية الاجتماعية التى كنت نظمتها و أنجزتها قبل إنتصار الثورة ضمن مؤسسة موحدة، و بفضل من الله سبحانه و تعالى و رعاية بقية الله الأعظم المهدي الموعود عجل الله فرجه الشريف فقد تم انجاز خطوات هامة جداً فى الأقسام المختلفة من المؤسسة لا أرى أن الفرصة سانحة لذكرها الآن.

و من نشاطاتها، قسم الدراسات الإسلامية، فقد نشط هذا القسم فى مدينة طهران أولاً، ثم انتقل إلى مدينة قم، و باشر ادارته سماحة العلامة حجة الاسلام و المسلمين الحاج الشيخ جعفر الخراسانى. و خلال اربعة عشر عاماً من النشاط المستمر حسب الخطة المرسومة تم انجاز أكبر حجم من البحوث و الدراسات حول تراث، متقدمى أعلام الامامية و التى تدور حول موضوعين أساسيين هما القرآن و العترة و كذا ترجمة آثار فارسية مفيدة للقارىء العربى.

و من جملة كتب التفسير التى تم تحقيقها بأسلوب علمى فنى تفسير البرهان و تفسير آلاء الرحمن و تفسير العياشى و تفسير نفحات الرحمن، و كما تم تحقيق كتاب الأمالى للصدوق و أمالى للشيخ الطوسى و دلائل الإمامة، و من الكتب التى قام قسم الترجمة فى المؤسسة مجموعة طيبة من المؤلفات الفارسية الحديثة التى يستفيد منها القارئ العربى كـ«تفسير الأمثل فى كتاب الله المنزل» و ترجمة مؤلفات الخطيب المعروف الشيخ الفلسفى رحمته الله و الكاتب الاسلامى الشهير الشهيد مطهرى رحمته الله و كتب قيمة أخرى.

و من ضمن التحقيقات التى اجريت بشأن التفاسير، نشير هنا إلى التفسير المروى عن أهل البيت عليهم السلام حيث جمعت كافة الروايات التفسيرية المنتشرة فى ما يقارب من مئتين مصدر من المصادر المعتمدة، و تم تصنيفها و تبويبها فى كتاب بعنوان «معجم تفسير أهل البيت عليهم السلام» و هو

جاذب للطبع. وقد جاز كل الروايات التفسيرية في الاقراص CD المظبوطة لتكون الكتاب في تناول ايدي المحققين و يسهل الرجوع اليه.

فقد توقف عمل المؤسسة بصورة مؤقتة بسبب بعض مشاكل و أملنا كبير بأن نباشر العمل من جديد و من جملة البرامج التي نحاول اعادة العمل بها و تنشيطها هي نهضة الترجمة، لأن اللغة العربية هي اللغة الأولى للعالم الإسلامي، و نعتقد أن أي تأليف مفيد للمجتمع الإسلامي يجب أن ينشر باللغة العربية أولاً و من ثم باللغة الفارسية و اللغات الأخرى.

و في الوقت الذي نسعى إلى تنشيط و تفعيل هذه الوحدة من جديد، يعصر قلوبنا ألماً لفقد صديقنا العزيز و الغالي الذي كان محور الحركة في المؤسسة ألا و هو الشيخ الخراساني، فقد لقي ربه، و ندعو الله بأن يمطر على روحه شأبيت رحمته و رضوانه، و يكون نهجه مستمراً و ماثلاً أمام أعين تابعيه و محبيه. آمين رب العالمين.

علي الاسلامي

مؤسسة البعثة



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على محمد الأمين وآله الهداة الميامين.  
وبعد:

لقد حدث الله تعالى عباده على تدبر آيات الكتاب الكريم وفهم معانيه السامية وألفاظه الدقيقة، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾<sup>١</sup> وقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ بَاطِلًا وَيُذَكِّرَ أَهْلَ الْآيَاتِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾<sup>٢</sup>.

وكان الرسول الاكرم ﷺ هو الذي تحمّل خلال حياته المباركة عبء تفسير آيات الكتاب الكريم وبيان مضامينه المتعلقة باقامة الدلائل على أصول الاعتقاد وأحكام الشريعة وتنظيم حياة المجتمع الاسلامي وشؤون الدولة الإسلامية وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾<sup>٣</sup> وكان بيان الرسول ﷺ وما صدر عنه من التنزيل والتأويل وحياً من الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾<sup>٤</sup>. وتوجهت رجالات الأمة منذ عصر الصحابة وإلى يومنا هذا جيلاً بعد جيل إلى تفسير أي القرآن الكريم، وتدبر آياته، والبحث في إعجازه وعلومه المختلفة، مما أدى إلى إيجاد نهضة فكرية قيّمة، وبناء تراث علمي قد زخرت به حياة الأمة في مختلف فروع العلم والمعرفة.

ولكي تتجّه صوب تحقيق البناء الفكري السليم والتحصين العقائدي الصحيح، لابد أن نعيّن بين التفسير الخالص لوجه الله المجزّد عن الهوى والميول، وبين التفسير العقيم الذي يميل بكلام الله حيثما شاء هوى المفسر وميوله وأغراضه. فإذا كان الأول يسهم في بناء الذات أخلاقاً وعقائداً، وفي بناء المجتمع أفراداً وأسرّاً، فإن الثاني من أشدّ عوامل الهدم والانحراف.

ومعاً لا ريب فيه أنَّ التفسير القويم تجده عند أهله، أولئك الذين نزل في بيوتهم، واقتربوا به إلى قيام الساعة، فقد تواتر عند جميع المسلمين أنَّ الرسول الأعظم ﷺ قال: «إني تارك فيكم، ما إن تمسكتُم به لن تضلوا بعدي؛ كتاب الله جبل معدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»<sup>١</sup>. فقرن ﷺ بين الكتاب وعترته المعصومين منذ فجر الرسالة وحتى يوم القيامة.

فأهل البيت عتره النبي المصطفى صلوات الله عليهم هم الأجدر بإدراك مضامين الكتاب الكريم وفهم دقائقه، وأبعاد مضامينه العالية، وتصاريف أغراضه ومراميها، وقولهم الصدق، وتفسيرهم عين الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾<sup>٢</sup>. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً طلقاً سؤلاً»<sup>٣</sup>.

وقال الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام): «إن رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم، فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه إياه، وأوصياؤه بعده يعلمونه كله»<sup>٤</sup>.

وقال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله»<sup>٥</sup>. وعليه فإنَّ حديث أهل البيت (عليهم السلام) من أهمِّ مفاتيح فهم كتاب الله تعالى، ولا يتيسر للمفسر أن يفهم القرآن الكريم على وجه الصحيح إذا لم يستأنس بأحاديثهم (عليهم السلام) في فهم دقائق مضامينه وإدراك معانيه، وإذا لم يضع أمامه تصوراً عن المنهج الذي اتبعه أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير القرآن الكريم والخطوط الأساسية التي رسموها لفهم الكتاب العزيز.

من هذا المنطلق نهض قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة ومنذ فجر تأسيسه بمهمة إعداد وتحقيق ونشر سلسلة من التفاسير التي تصبُّ في هذا الهدف السامي، فكان حاصل الجهود الخيرة العاملة في هذا الحقل هو إعداد (معجم تفسير أهل البيت (عليهم السلام)) والذي يضمُّ ما تفرَّق من حديثهم (عليهم السلام) الوارد في التفسير من مصادر الحديث والرواية المعتبرة باستثناء كتب التفسير. ومن نتائج أعمال قسم الدراسات الإسلامية في هذا المجال تحقيق ونشر (تفسير العياشي)

١. سنن الترمذي ٥: ٣٧٨٦/٦٦٣ و٣٧٨٨ - كتاب المناقب، مستدرک الحاكم ٣: ١٤٨.

٢. الأحزاب: ٣٣/٣٣. ٣. كنز العمال ١٣: ١٢٨/٣٦٤٠٤.

٤. تفسير القمي ١: ٩٦، تفسير العياشي ١: ٦٤٦/٢٩٣. ٥. الكافي ١: ١/١٦٦، تفسير العياشي ١: ٢٣٩/٦٤٨.

لمحمد بن مسعود العياشي المتوفى نحو سنة ٣٢٠ هـ، وكتاب (البرهان في تفسير القرآن) للسيد هاشم البحراني المتوفى سنة ١١٠٧ هـ، وكتاب (آلاء الرحمن في تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد البلاغي المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ، وغيرها من التفاسير والدراسات التي صدرت، أو لا تزال قيد الطبع أو التحقيق وتنتظر دورها في النشر والتوزيع باذن الله وتوفيقه.

والكتاب الذي بين يديك (نفحات الرحمن في تفسير القرآن) واحد من سلسلة التفاسير التي تبنى قسم الدراسات الاسلامية تحقيقها وإخراجها بشكل أنيق يناسب مكانة مؤلفيها وجلالتهم، وهو من تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي أحد أعلام الطائفة الحقة وشيوخها المبرزين قدس الله روحه ونور ضريحه، نرجو من الله تعالى أن ينفع به الاخوة المؤمنين سيما طلبة القرآن وعلومه السامية.



## ترجمة المؤلف

هو الشيخ محمد بن الميرزا عبد الرحيم بن الميرزا نجف المستوفي بن الميرزا محمد علي الشيرازي النهاوندي<sup>١</sup>.

ولادته ونشأته ورحلاته

ولد الشيخ محمد النهاوندي في الخامس عشر من شهر رجب سنة ١٢٩١هـ في النجف الأشرف، فنشأ منذ طفولته المبكرة في بيئة علمية ووسط يزخر بالفضيلة والمعرفة، حيث أمضى نحو ثلاث سنوات من أيام طفولته في النجف الأشرف مهد العلم والورع والتقوى، وعاش في كنف أبيه العالم المتبحر والفقيه البارع الميرزا عبد الرحيم النهاوندي نحو ثلاثة عشر عاماً (١٢٩١-١٣٠٤هـ) نهل خلالها من فيض علمه ومعرفته واكتسب معالم تقواه وزهده.

وعندما لبى أبوه نداء الحق في التاسع من ربيع الثاني سنة ١٣٠٤هـ توفّر الشيخ محمد على الأخذ عن أخيه الميرزا محمد حسن النهاوندي الذي كان عالماً عاملاً وفقياً بارعاً، وأخذ عن مدرسي المدرسة الفخرية (مدرسة الخان مروي) في طهران والتي كان والده مدرساً بها.

وفي سنة ١٣١٧هـ تشرف الشيخ محمد مع أخيه الميرزا محمد حسن بزيارة مشهود الامام الرضا عليه السلام وجاور هناك مدة أخذ فيها عن فضلاء عصره المعروفين كالحاج الشيخ حسن علي الطهراني ومير سيد علي الحائري اليزدي وغيرهما.

وفي نحو سنة ١٣٢٤هـ توجه الشيخ محمد إلى العراق لزيارة العتبات المقدسة وإدامة الدرس

---

١. ترجم له الشيخ آقا بزرك في نقباء البشر: ١٢٨ (مخطوط)، وفي الذريعة ٩: ١٠٠٦ عند ذكر ديوانه، و ١٢: ١٦٣ عند ذكر كتابه (سراج النهج) و ١٥: ١٢٢ عند ذكر كتابه (ضياء الأبصار) و ٢٤: ٢٤٧ عند ذكر كتابه (نفحات الرحمن). وذكره في أثناء ترجمة والده الميرزا عبد الرحيم النهاوندي في نقباء البشر ٣: ١١٠٨، فوائد الرضوية: ٢٢٨، ريحانة الأدب ٦: ٢٦٦، الذريعة ٩: ٦٨٧ عند ذكر ديوان والده.

٢. وذكر الشيخ آقا بزرك في نقباء البشر ٣: ١١٠٩ (ترجمة الشيخ عبد الرحيم النهاوندي) أن ولادته كانت في سنة ١٢٨٩هـ وهي السنة التي عاد فيها والده من النجف إلى إيران، وما أتبناه بناءً على ما رواه في الذريعة ٩: ٦٨٧ عن الشيخ محمد النهاوندي في تاريخ ولادته وبعض تفاصيل حياته. وما أتبناه موافق أيضاً للذريعة ٩: ١٠٠٦ و ١٢: ١٦٣، ونقباء البشر (القسم المخطوط): ١٢٨ - ترجمة الشيخ محمد النهاوندي.



والتحصيل، فتلمذ في كربلاء للسيد إسماعيل الصدر الأصفهاني، وتوفرت له فرصة التلمذة في الفقه والأصول والعقائد والأخلاق عند فضلاء ذلك العصر وأعلامه المعروفين حيث حضر أبحاث الملا كاظم الخراساني، والسيد محمد كاظم البزدي، والحاج ميرزا حسين الخليلي، والشيخ عبدالله المازندراني، والملا لطف علي، وحضر في سامراء دروس آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي، وغير هؤلاء من جهابذة العلم والمعرفة حتى وصل إلى كمال الاجتهاد في العلوم النقليّة والعقليّة.

وعاد إلى خراسان على أثر وفاة أخيه الميرزا محمد حسن وذلك نحو سنة ١٣٢٩ هـ وجاور المشهد الرضوي المقدس، وقام مقام أخيه في التصدي لشؤون الزعامة الدينية وتولي شؤون المرجعية والافتاء في المسائل الشرعية والأحكام، واشتغل أيضاً خلال مدة إقامته في مشهد بالتدريس والبحث والتأليف.

وفي سنة ١٣٦٠ هـ توجه إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وفي هذه الرحلة زار العتبات المقدسة في العراق ثم عاد إلى مشهد وبقي هناك حتى وافاه الأجل.

وفاته:

توفي الشيخ محمد النهاوندي في الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ ودفن في الحرم الرضوي الشريف في مشهد<sup>١</sup>.

#### أسرته العلمية

##### ١ - جدّه أبيه

كان جدّه أبيه محمد علي الشيرازي حاكماً في نهاوند من قبل السلطان محمد شاه القاجاري، واستوطن أولاده وأحفاده بها، ومنهم والد المؤلف الميرزا عبدالرحيم النهاوندي.

##### ٢ - والده

كان والده الميرزا عبدالرحيم النهاوندي<sup>٢</sup> عالماً متبحراً وفقياً بارعاً وزاهداً تقياً، ولد في نهاوند سنة ١٢٣٧ هـ، واشتهر في أول أمره بحسن الخطّ وتجويده حتى بلغ الكمال فيه، ثمّ توجه إلى تحصيل العلوم الدينية، فهاجر من موطنه إلى بروجرد، فقرأ على علمائها المعروفين آنذاك، ثمّ توجه إلى العراق فتلمذ للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر حتى توفي الأخير سنة ١٢٦٦ هـ، فقرأ بعده على

١. راجع نقباء البشر (مخطوط): ١٢٨، الذريعة ٩: ١٠٠٧ و ١٢: ١٦٣.

٢. راجع ترجمته في أعيان الشيعة ٧: ٤٧٠، نقباء البشر ٣: ١١٠٨، الفوائد الرضوية: ٢٢٨، ربحانة الأدب ٦: ٢٦٦.

الذريعة ٩: ٦٨٧.

الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري، وتصدى خلال ذلك للتدريس، فحظي بتأييد أستاذه الشيخ الأنصاري وتقديره.

وبعد وفاة الشيخ الأنصاري في سنة ١٢٨١ هـ تفرغ للتدريس في النجف، وأصبح من مشاهير علمائها وأعلامها المحققين وتخرج عليه جمع من الفضلاء.

وغادر الشيخ عبد الرحيم النهاوندي أرض العراق بعد إقامة استمرت نحو ثلاثين عاماً، وذلك سنة ١٢٩١ هـ، وهي السنة التي ولد فيها ابنه محمد صاحب النفحات، وتشرف بزيارة مرقد الامام الرضا (عليه السلام) في مشهد، وأقام لمدة سنة مجاوراً للمشهد الرضوي المقدس، ثم غادر بعدها ماراً في طهران، وهناك ألح عليه جماعة من فضلائها وعلمائها لطلب الإقامة بها وتولي التدريس في المدرسة الفخرية (المعروفة بمدرسة مروي) فأقام في طهران ملياً طلبهم، وفوض إليه الحاج ملا علي الكني مهمة التدريس في المدرسة المذكورة، وتولى أيضاً مهام المرجعية والافتاء وإقامة صلاة الجماعة حيث كان يقتدي به عامة متديني المدينة وأعلامها، لما يتصف به من زهد وتقوى وما يحظى به من وجاهة تامة. يمكنه مرموقة.

وتخرج عليه جماعة من الأعلام كالْحاج ميرزا علي تقي سبط السيد محمد المجاهد، والسيد محمد الطباطبائي، والحاج ميرزا مهدي كلستانه وغيرهم.

وبقي الشيخ عبد الرحيم مقيماً في طهران حتى وافاه الأجل في يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الثاني سنة ١٣٠٤ هـ وحمل جثمانه إلى قم<sup>٢</sup> فدفن في أول حجرة من حجرات الصحن الجديد للسيدة فاطمة بنت موسى بن جعفر (عليه السلام) على يسار الداخل من الباب الشرقي.

وترك الشيخ عبد الرحيم مجموعة من الآثار العلمية منها في الأصول مقدار من أصل البراءة، وحاشية القوانين، وفي الفقه: كتاب العتق، وكتاب الوقف، وديوان شعر فيه مجموعة من أشعاره في كراريس بخطه كانت عند ولده الشيخ محمد.

### ٣ - أخوه

١. قيل أيضاً: سنة ١٢٨٩ هـ كما في نقباء البشر ٣: ١١٠٩ (ترجمة الشيخ عبد الرحيم النهاوندي) وريحانة الأدب ٦: ٢٦٨، وما أثبتناه موافقاً لرواية الشيخ آقا بزرك عن الشيخ محمد النهاوندي. في الذريعة ٩: ٦٨٧. وراجع أيضاً: نقباء البشر (مخطوط): ١٢٨ ترجمة الشيخ محمد، والذريعة ٩: ١٠٠٦ و ١٢: ١٦٣.

٢. ذكر الشيخ آقا بزرك في نقباء البشر ٣: ١١٠٩ أنه حمل جثمانه إلى النجف، وهو وهم. فقد ذكر في الذريعة ٩: ٦٨٧ أنه دفن في قم، وهو مطابق لحقيقة الحال ولكافة المصادر التي ترجمت له. راجع الفوائد الرضوية: ٢٢٩. ربحانة الأدب ٦: ٢٦٨.

أكبر إخوته الشيخ الميرزا محمد حسن<sup>١</sup>، وكان عالماً عاملاً وفقياً بارعاً، تشرف بعد وفاة أبيه سنة ١٣٠٤هـ بزيارة الامامين العسكريين في سامراء، ومكث هناك مدة حضر فيها دروس المجدد الشيرازي، ثم عاد إلى طهران ومنها إلى مشهد، فأقام بها متولياً شؤون التدريس والمرجعية والافتاء حتى وفاته في نحو سنة ١٣٢٩هـ<sup>٢</sup> فقام مقامه بالتدريس والامامة أخوه الشيخ محمد صاحب النفحات.

مصنفاته:

ذكر الشيخ آقا بزرك في الذريعة أربعة مصنفات تركها الشيخ محمد النهاوندي، وهي:

١ - ديوانه، قال الشيخ آقا بزرك: له ديوان شعر ... وقد استكتبت منه قصيدته المستزاد في رثاء الحسين الشهيد عليه السلام<sup>٣</sup>.

٢ - سراج النهج في مسائل العمرة والحج، قال الشيخ آقا بزرك: استدلالي مبسوط، يقرب من ثلاثة آلاف بيت<sup>٤</sup>.

٣ - ضياء الأبصار في مباحث الخيار، قال الشيخ آقا بزرك: تكلم [فيه] على الخيارات السبعة وبحث في كل منها في سبعة مقامات، وبحث في الخاتمة عن أحكام الخيار في تسع كراريس، يقرب من ٨٠٠٠ بيت<sup>٥</sup>.

٤ - نفحات الرحمن في تفسير القرآن، وهو هذا الكتاب، قال الشيخ آقا بزرك: ملّعت عربي وفارسي، للمحدث النهاوندي محمد بن عبد الرحيم الطهراني النهاوندي، نزيل مشهد خراسان، المجلد الأول منه طبع سنة ١٣٥٧هـ على الحجر في ٤٩٦ صفحة مع مقدمة تشتمل على ٤٠ طرفة فيما يتعلق بالقرآن، والمجلد الثاني إلى آخر سورة الاسراء<sup>٦</sup>، وطبع الرابع سنة ١٣٧٠هـ في ٥٠٤ صفحة<sup>٧</sup>.

١. راجع ترجمته في نقباء البشر ١: ٤٠٦، ٣: ١١٠٩.

٢. كذا في الذريعة ٩: ٦٨٧ و ١٠٠٧، ونقباء البشر ٣: ١١٠٩، لكن في نقباء البشر ١: ٤٠٦ أُرْخ وفاته في حدود سنة ١٣٢٨هـ وكلا التاريخين ليس فيهما جزم وتحديد.

٣. الذريعة ٩: ١٠٠٦.

٤. الذريعة ١٢: ١٦٣.

٥. الذريعة ١٥: ١٢٢.

٦. وطبع الجزء الثالث في النصف من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٦٣ هـ.

٧. الذريعة ٢٤: ٢٤٧.

## هذا الكتاب

هو تفسير مزجي متوسط بين البسط والايجاز، كتبه المؤلف بأسلوب واضح وعبارة سائغة خالية من التعقيد والابهام، وسمّاه في المقدمة حيث قال: وسمّيته بد(نفحات الرحمن في تفسير القرآن) وهكذا جاء اسمه في الذريعة على ما تقدّم، لكنّه جاء بزيادة (وتبيين الفرقان) كما في صدر الجزء الأول والثالث والرابع من الطبعة الحجرية، المذكورة. وفرغ منه في آخر سنة ١٣٦٩هـ.

### منهجه في التفسير

رسم المؤلف في أوّل مقدمته الخطوط العامة التي اتبعها في تفسيره، وهي بمجموعها تمثل طريقته التي نهجها في تفسير القرآن، ويمكننا أن نحصرها في سبع نقاط اعتماداً على ما ذكره حيث قال:

- ١- اصطفت من التفاسير ما هو لبابها.
- ٢- اكتفيت من الوجوه بما هو صوابها.
- ٣- بالغت في الجدّ بنقل ما وصل إلي بطرق الخاصة والعامة من الروايات.
- ٤- استفرغت الوسع في بيان وجه النظم بين السور والآيات.
- ٥- صرفت الهمّ في التعرض لأسباب النزول الواردة في الآثار.
- ٦- بذلت الجهد في الاسفار عن وجوه بعض النكت والأسرار.
- ٧- كففت عن التكلم في أعراب الكلمات وبيان وجوه القراءات التي كانت مخالفة للقراءة المشهورة، إلّا التي وجدتها عن أهل الذكر ماثورة.

### طُرف الكتاب

قبل أن يشرع المؤلف في التفسير مهّد لتفسيره بأربعين طرفة وخاتمة، وقد تضمّنت الطرف بحوثاً مهمة في علوم القرآن كاعجاز القرآن ودلائله، ونزوله، وترتيبه وجمعه، وأسمائه، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وسلامته من التحريف، وثواب تعلّمه وتعليمه، وآداب تلاوته وحفظه، وفصائل السور والآيات وغيرها من البحوث والتحقيقات المهمة في علم التفسير.

### مصادر الكتاب

وجعل المؤلف خاتمة طرفه الأربعين في ذكر المصادر التي اعتمدها في تفسيره، وهي عشرة من

مصادر التفسير والحديث:

- ١ - جوامع الجامع في التفسير، لأمين الاسلام الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي.
- ٢ - بحار الأنوار، للعلامة محمد باقر المجلسي.
- ٣ - حواشي على كتاب أنوار التنزيل، للشيخ محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي المعروف بالشيخ البهائي.
- ٤ - الصافي في تفسير القرآن، للمولى محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني.
- ٥ - مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي.
- ٦ - الالتقان، لجلال الدين السيوطي.
- ٧ - تفسير أبي السعود.
- ٨ - أنوار التنزيل، للبيضاوي.
- ٩ - روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي البروسوي.
- ١٠ - تفصيل وسائل الشيعة، للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.

طباعاته

طبع هذا التفسير طبعة واحدة في أربعة أجزاء على الحجر في حياة مصنفه؛ وذلك في الفترة الواقعة بين سنة (١٣٥٧ - ١٣٧٠ هـ) وهذه الطبعة نادرة الوجود عزيزة الحصول فضلاً عن أنها تزخر بكثير من التصحيح والتحريف والعيوب الطباعية، ولهذا عدم قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة إلى تجديد طباعته بعد تحقيقه وفقاً لأساليب التحقيق العلمي المعروفة، ليأخذ حيزه في المكتبة الاسلامية، ويكون أكثر فائدة لمريدي التفسير ومحبي الكتاب العزيز.

منهج التحقيق

اتبعنا أسلوب التحقيق الجماعي المعمول به في قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة، أي تقسيم العمل ثم انجازه خطوة خطوة من قبل مجاميع متخصصة ومتدربة في هذا الفن. وقبل أن نذكر خطوات العمل في هذا التفسير المبارك، لابد من الاشارة إلى مسألتين:

١ - إننا قد اعتمدنا في تحقيقنا هذا على الطبعة الحجرية المشار إليها آنفاً، بعد تخليصها من عيوب الطباعة القديمة.

٢ - إن المؤلف قد ذكر مختصراً من التفسير باللغة الفارسية في تلك الطبعة، ولم نورد في طبعتنا هذه، لأن المؤلف لم يمزجه أثناء تفسيره العربي بل جعله منفصلاً عنه بحيث يمكن جعله كتاباً



مستقلة، وإذا تمّ طبعه بشكل مستقلّ سيكون أسهل تناولاً وأكثر فائدة لقراء اللغة الفارسية.

أما خطوات العمل في هذا التفسير فيمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

١ - تخريج النصوص القرآنية والحديثية وأقوال المفسرين وغيرهم من المصادر التي اعتمدها المؤلف أو من مصادرها الأولية، وقد لاحظنا أنّ نقول المصنف من مصادر الحديث كالتهديب والكافي ومصنفات الشيخ الصدوق وغيرها، منقولة بالواسطة عن (تفسير الصافي) وذلك لكثرة الفوارق بين نصوص (نفحات الرحمن) ونصوص المصادر المشار إليها مع تطابقها تماماً مع (تفسير الصافي) ولذلك خرجنا مثل هذه الأحاديث عن مصادرها الأولية وعن (تفسير الصافي) أيضاً، ليتضح للقارئ مدى التفاوت بين الروايتين.

٢ - مقابلة النصوص والمتون المنقولة بالمصادر التي نقل عنها المصنف أو بمصادرها الأولية مع الإشارة في حال الاختلافات الضرورية أو في حال اعتمادنا نسخة المصدر.

٣ - ترقيم الآيات الواردة في متن التفسير ليكون أسهل تناولاً.

٤ - تقويم النص بتخليصه من التصحيف والتحريف الوارد في طبعته الحجرية الأولى، وشرح الغريب، ووضع الحركات الضرورية في مواضع الحاجة.

٥ - وضعنا ما أثبتناه لاقتضاء السياق بين معقوفتين إشارة إلى عدم وجوده في نسخة التفسير، وكذلك ما رأيناه ضرورياً من المصادر.

٦ - صياغة هوامش الكتاب بالاعتماد على سلسلة الخطوات السابقة.

٧ - الملاحظة النهائية وتتضمن مراجعة متن الكتاب وهوامشه بدقة للتأكد من سلامة النصّ وضبطه.

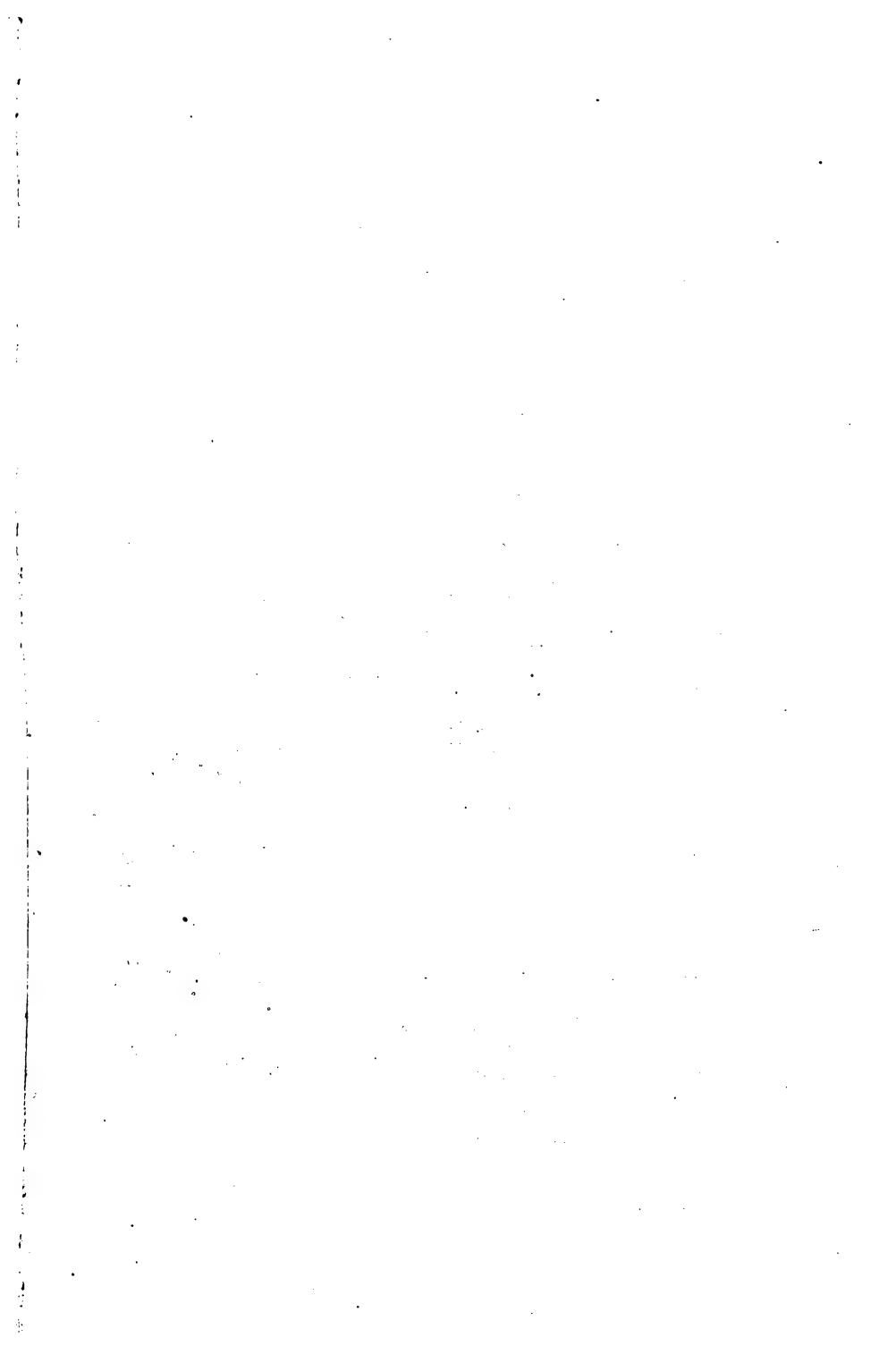
تقدير وثناء

نقدّم وافر الشكر ومزيد الامتنان للاخوة العاملين في (قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة - قم) على جهودهم القيمة التي بذلوها لانجاز تحقيق هذا السفر المبارك، ونخصّ بالذكر منهم الاستاذ المحقق الاخ علي الكعبي دام فضله، والسادة الأفاضل عبدالحميد الرضوي وموسى دانشمند محولاتي وعصام البدري وفقهم الله لمراضية.

ولله سبحانه الفضل والمنة ومنه نستمد العون والتوفيق.

قسم الدراسات الاسلامية

مؤسسة البعثة - قم







## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نَزَلَ الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأنزَلَ الكتابَ ولم يجعلَ له عِوَجاً قَيِّماً لِيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بأنَّ لهم من الله فضلاً كبيراً، وجعله في ظلماتِ الأرضين شمساً مُضِيئَةً وقَمَراً منيراً، وأبْلَغَ به عن هدى رسوله، وأوضح به الحقَّ وأرشدَ البريةَ إلى سبيله، وذكرهم به تذكيراً، تحدَّى الجاحدين في إتيانِ سورةٍ من مثله فلم يفعلوا وَلَنْ يفعلوا ولو كان بعضهم لبعضِ ظهيراً، وتَجَلَّى فيه بظهورِ قدرته، وبهورِ حكيمته، وسطوعِ نورِ عظمته، حتى رآه بقلبه مَنْ كَانَ بصيراً.

والصلاة والسلام على مَنْ أرسله برحمته وفضله إلى الناس بشيراً، وختمَ به الرسالة، وبشّر به المرسلون أُمَّهُمْ تبشيراً، وشرفَ الملائكةَ الْمُقَرَّبِينَ بأن جعلهم له ظهيراً ونصيراً.

وعلى ابن عمه، وكاشفِ غمِّه، وزوجِ ابنته، والمَخْصُوصِ بِأُخُوَّتِهِ، الذي وهبَ الله له وصياً ووزيراً، وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتِهِ الَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرُّجْسَ وَظَهَّرَهُمْ نُصَيْراً.

أَمَّا بعد: فقد طال ما جال فكري في أن أَكْتُبَ لِلكِتَابِ الكَرِيمِ تفسيراً، كي يكونَ دُخْرِي لِحِينِ فُكْرِي ونَجَاتِي في يومٍ يكونُ شرُّهُ مُسْتَطِيراً، وإن كان لِقُصُورِ باعِي وقَلَّةِ اِطِّلاَعِي عليَّ عسيراً، إلا أنَّ شَوْقِي الأَكِيدَ هَاجَ رُوعِي، وكَلَّفَنِي السَّعْيَ فوق ما في رُشْعِي، فشعرتُ لِلْغَوْصِ في هذا البَحْرِ العَمِيقِ، فشرعتُ فيه سائلاً من الله الإعانةَ والتوفيقَ.

فاصطَفَيْتُ من التَّفاسِيرِ ما هو لُبَّائِها، واكتَفَيْتُ من الوجوه بما هو صَوَائِبُها، وبألَغْتُ في الجِدِّ بِتَقَلِّ ما وَصَلَ إلَيَّ بِطَرِيقِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ من الروايات، واستفَرَّغْتُ الوُشْعَ في بَيَانِ وَجْهِ النِّظْمِ بين السُّورِ والآيات، وصَرَفْتُ الهَمَّ في التَّعَرُّضِ لأسبابِ التَّزْوِيلِ الْوَاردَةِ في الأَثَارِ، وبَذَلْتُ الجُهدَ في الإِسْفَارِ عن وجوه بعضِ النكتِ والأسرار، وكَفَّفْتُ عن التَّكَلُّمِ في أَعَارِبِ الْكَلِمَاتِ، وبيَّانِ وجوه القراءات التي



كانت مخالفة للقراءة المشهورة، إلا التي وجدتها عن أهل الذكر مأثورة، وسميته بـ (نفحات الرحمن في تفسير القرآن).

ثم إني رأيت أن أهدي للمهتدي البصير، قبل الشروع في التفسير، طرائف بارعة، ولطائف نافعة، تثبتاً للقلوب، وتمهيداً للمطلوب، وتثقيداً للأذهان، وتنبهاً للوسنان، فهيات مع قلة البضاعة، وعدم التدرب في الصناعة، ببذل الجهد وتحمل الكلفة، من المطالب المرتبطة بعلم القرآن أربعين طرفة، وجعلتها مقدمة، وجئت لها بخاتمة<sup>١</sup>، راجياً من الله أن يجعل ذلك لي وإخواني المؤمنين نعمة دائمة، وأن ينعم علي بالاعتصام في مزال الأقدام.

---

١. في النسخة: خاتمة.

## الطَّرْفَةُ الْأُولَى

### في أَنَّ الكتاب العزيز

#### أعظم معجزات خاتم النبيين ﷺ

لا رَيْبَ في أَنَّ الكتابَ العزيز كان من أعظم معجزات خاتم النبيين ﷺ حيث إنه كانت جهة الإعجاز فيه أظهر من المعجزات الباهرة التي كانت لسائر الأنبياء العظام، وتأثيره في النفوس أشد من تأثيرها؛ لبداهة أَنَّ المؤمنين به ﷺ من العرب مع عرافتهم بشدة العصبية واللجاج، كانوا في زمانه أكثر من المؤمنين بسائر الأنبياء في زمانهم، وكان إيمان أتباعه به، وانقيادهم لأمره - مع كونهم أشد الخلق تكبراً، وأكثرهم تفاخراً - أقوى وأزهد من إيمان سائر الأمم بأنبيائهم، وانقيادهم لأوامرهم. وكان حُبُّ العرب له، وشغفهم به - مع كونهم أفسى الناس قلباً، وأقلهم رافةً - أشد وأكثَر من حُبِّ بني إسرائيل لموسى بن عمران عليه السلام مع كونه صاحب تسع آيات بينات، ومن حُبِّ الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام مع كونه محيي الأموات، ومبرئ الأكف والأبرص.

حيث إن المؤمنين بنبينا ﷺ كانوا يتسابقون إلى بذل المهج، والغور في اللجج، ويتسارعون إلى معانقة السيوف، وشُرْب الخُتوف، تحفظاً لسلامته، وترويحاً لشريعته، وينو إسرائيل كانوا أحفظ لأنفسهم من نفس موسى عليه السلام حيث إنه لما قال لهم ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾<sup>١</sup> ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾<sup>٢</sup> و﴿إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>٣</sup>.

ولم ينقل عن حواري عيسى عليه السلام فرع شديد حين رآه على الصليب، ونقل أنه لما مات نبينا ﷺ عزيزاً في فراشه غشي على بعض المؤمنين من شدة الحزن، وجئ آخر، وصار يوم موته مثلاً في شدة البكاء والحزن، ولم يكن جميع ذلك إلا لكون إعجاز كتابه الكريم أشد تأثيراً في

٤. في النسخة: من.

٣. المائدة: ٢٤/٥.

٢. المائدة: ٢٢/٥.

١. المائدة: ٢١/٥.

نفوسهم من آيات نبوة موسى وعيسى عليه السلام في نفوس أتباعهما.

مع أن القرآن العظيم أوجد في نفوس العرب آثاراً لم تُوجد لها معجزات سائر الأنبياء، حيث إنه أخرجهم بسماعه من ظلمات الجهالة وعمرات الضلالة، بعد تماديهم فيها وتعمُّدِهم عليها، إلى نور الهداية وأوج الحكمة، وصيرهم بعد أمييتهم علماء حُكماء، بل كادوا أن يكونوا من الحكمة والمعرفة أنبياء، وبلغوا من العلم إلى أن صاروا بعد وحشيتهم أساتيد الأمم، وسادة العجم.

أنظر إلى حوارتي عيسى مع كونهم أكمل من آمن به، وأعلم بما جاء به، قالوا: ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾<sup>٢</sup> وأطفال أمة نبينا عليه السلام في زمانه كانوا يقولون: إن الله على كل شيء قدير، ولا يعجز الله شيء في الأرض ولا في السماء.

والحاصل أن العاقل المتأمل في آيات القرآن المجيد، لا يرتاب في أنها كلام الله، وأنها أعظم المعجزات، وقد أفرد جمع كثير من علماء الاسلام إعجاز القرآن بالتصنيف، ومع ذلك حاروا في كشف حُجب البيان عن وجوه إعجازه بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان.

فالمصنف يرى القرآن في الهداية والبيان كالروح في الجسد، يعرف بمظاهرة وأثاره، ويعجز العارفون عن بيان حقيقته وكُنهه. فإن قريشاً كانت أفصح العرب لساناً، وأعذبهم بياناً، وأخلصهم لغةً، وأرفعهم عن الرداء لهجةً، ومع ذلك كان النبي عليه السلام يحتج عليهم بالقرآن صباحاً ومساءً، ويحثهم على أن يعارضوه بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقرعاً عليهم، كشف عجزهم عن نقصهم ما كان مستوراً<sup>٣</sup>، وظهر منهم ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجةً، قالوا: أنت تعرف أخبار الأمم، ولذا تقدر على ما نعجز عنه، فقال: جئوا بها بمفتريات، ولذا لم يأت بمثل أريب عن معارضة، ولم يُبرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولا تكلفه طبع فصيح ماهر، ولو تكلفه لظهر ذلك، فدل ذلك على عجز القوم عن معارضته مع كثرة كلامهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاء منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أتباعه.

ومن الواضح أنهم لو جاءوا بسورة واحدة أو آيات يسيرة بدل الهجاء ومعارضة الشعراء، لكان

١. في النسخة: يوجد لها.

٢. المائدة: ١١٢/٥.

٣. في النسخة: الآيات.

٤. في النسخة: القریش.

٥. كذا، ولا تخلو العبارة من اضطراب. ولعلها: كشف عجزهم ما كان مستوراً من نقصهم.

أَنْقَضَ لِقَوْلِهِ، وَأَفْسَدَ لِأَمْرِهِ، وَأَضَرَّ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ، مَعَ أَنَّ الْكَلَامَ سَيِّدَ عَمَلِهِمْ وَقَدْ احْتَجَّاجُوا إِلَيْهِ، وَالْحَاجَةُ تَبَعَتْ عَلَى الْفِكْرِ وَالْجِدِّ فِي الْأَمْرِ الْغَايِضَ الْمُشْكِيلَ، فَكَيْفَ بِالسَّهْلِ الْجَلِيلِ الْمُنْفَعَةِ وَالْعَظِيمِ الْفَائِدَةِ

روي عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقْلٌ، فبلغ ذلك أبا جهلٍ فأتاه، فقال: يا عم، إِنْ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا لِيُعْطَوْكَه لِأَنْ لَا تَأْتِيَ<sup>١</sup> مُحَمَّدًا، وَلِتُعْرَضَ لِمَا قَالَهُ<sup>٢</sup>. قال: قَدْ عَلِمْتُ فَرِيضَ أَتَيْ مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قال: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ كَارَةٌ لَهُ. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أَعْلَمَ بِالشَّعْرِ مِنِّي، وَلَا بِرَجَرِهِ، وَلَا بِقَصِيدِهِ، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِرِّ، وَالله ما يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَالله إِنْ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُهُ حَلَاوَةٌ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ<sup>٣</sup>، وَإِنَّهُ لَمُتَمِرٌ أَعْلَاهُ، مُعْذِقٌ<sup>٤</sup> أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يعلَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ. قال: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قال: فَدَعْنِي حَتَّى أَفْكَرَ. فَلَمَّا فَكَرَ قَالَ: هَذَا<sup>٥</sup> سِحْرٌ يُؤَثِّرُ، يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ<sup>٦</sup>.

روي أَنَّ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَّلِ حِمِّ السَّجْدَةِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾<sup>٧</sup> نَزَلَ فِي شَيْبَةَ وَعُتْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ، وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَأَبِي جَهْلٍ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ بَعَثُوا هُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنْ وَجْهِه قَرِيضَ بَعِثَةَ بْنِ رَبِيعَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُكَلِّمَهُ، وَكَانَ حَسَنَ الْحَدِيثِ، عَجِيبَ الشَّأْنِ، بَلِغَ الْكَلَامِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا عِنْدَهُ. فَقَرَأَ النَّبِيُّ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ سُورَةَ حِمِّ السَّجْدَةِ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾<sup>٨</sup> فَوُتِبَ مَخَافَةَ الْعَذَابِ، فَاسْتَحْكَمُوا مَا سَمِعَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَلَا اهْتَدَى لْجَوَابِهِ<sup>٩</sup>. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِمْ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ وَجْهَ الْاِحْتِجَاجِ وَالرَّدِّ.

قال عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ: وَالله، لَعَلِمُوا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا لْجَوَابِهِ<sup>١٠</sup>.

وروي أَنَّ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ وَرَدَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي خَلِيفٍ لَهُ أَرَادَ أَنْ يُفَادِيَهُ، فَدَخَلَ وَالنَّبِيُّ صَلَوَاتِ

١. في الالتقان وحياة الصحابة: فانك أنيت.

٢. الطلاوة: الحسن والرواق.

٣. في حياة الصحابة: إن هذا إلا.

٤. فصلت: ٤/٤١.

٥. فصلت: ١٣/٤١.

٦. في النسخة: بجوابه، وكذا في المورد المتقدم.

٧. في الالتقان وحياة الصحابة: لما قتلته.

٨. في الالتقان وحياة الصحابة: مغدق.

٩. الالتقان في علوم القرآن ٤: ٥، حياة الصحابة ١: ٦٣.

١٠. الدر المنثور ٧: ٣٠٩.

الله عليه يقرأ سورة ﴿وَالطُّورُ﴾ \* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ<sup>١</sup> في صلاة الفجر، قال: فلمَّا انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ \* مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ<sup>٢</sup> قال: خَشِيتُ أَنْ يُدْرِكَنِي الْعَذَابُ فَأَسْلَمْتُ<sup>٣</sup>.

وروي أن ابن أبي العزَّاء وثلاثة نفر من الدهرية<sup>٤</sup> اتفقوا على أن يُعارض كل واحد منهم رُنع القرآن، وكانوا بمكة، وعاهدوا على أن يجيئوا بمعارضته في العام القابل، فلمَّا حال الحَوْلُ، واجتمعوا في مقام إبراهيم عليه السلام قال أحدهم: إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ قَوْلَهُ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾<sup>٥</sup> كَفَفْتُ عن المعارضة.

وقال الآخر: وكذلك أنا، لَمَّا وَجَدْتُ قَوْلَهُ: ﴿فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾<sup>٦</sup> أَيْسْتُ عن المعارضة. وكانوا يُسِرُّونَ بذلك، إذ مرَّ عليهم الصادق صلوات الله عليه فالتفت [إليهم] وقرأ عليهم: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾<sup>٧</sup> فَبُهِتُوا<sup>٨</sup>. وأمثال هذه الروايات كثيرة جداً.

ومما يشهد على أنَّ القرآن العظيم فوق طَوْقِ البشر، أنَّ مَنْ قَائِسَ بين آيَاتِهِ وكلمات رسول الله ﷺ وخطبه البليغة، وَجَدَ التَّفَاوُتَ بَيْنَهُمَا تَفَاوُتَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، والواجب والممكن، مع أنَّه صلوات الله عليه كان أفصح مَنْ نَطَقَ بالصاد، ولم يُسمع بكلام أحسن أسلوباً، وألطف لفظاً، وأعدل وزناً، وأجمل مذهباً، وأحسن موقعاً، وأسهل مخرجاً، وأفصح بياناً، وأبين فحوى، وأكرم مطلعاً من كلامه ﷺ.

والحاصل: أنَّ الكتاب العزيز في لسان العربية بلغ مبلغاً من الفصاحة والبلاغة وحسن النظم والأسلوب لا يمكن للبشر أن يدانيه بالفطرة والعقل والاكساب. وقد صدق الصادق صلوات الله عليه حيث قال: «لقد تجلَّى الله تعالى لخلقه في كلامه، ولكنهم لا يبصرون»<sup>٩</sup>.

وعن النبي ﷺ في وصف القرآن قال: «ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ، وبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تُحْصِي عَجَائِبُهُ، وَلَا تُبْلِي غَرَائِبُهُ»<sup>١٠</sup>.

١. الطور: ١/٥٢. ٢. الطور: ٧/٥٢. ٣. الكشف: ٤: ٤٠٩.

٤. رجل دهري؛ ملحد لا يؤمن بالآخرة، يقول ببقاء الدهر. المعجم الوسيط ٢: ٢٩٩.

٥. هود: ٤٤/١١. ٦. يوسف: ٨٠/١٢. ٧. الإسراء: ٨٨/١٧.

٨. الخرائج والجرائع ٢: ٥٧١٠. ٩. أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٤٠.

١٠. تفسير العياشي ١: ١/٧٤، الكافي ٢: ٢/٤٣٨.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا تَنْقُضِي عَجَائِبَهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَلْبَثِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالَتْ: «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا \* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ»<sup>٢</sup>.  
وسياتي - إن شاء الله - عند تفسير قوله عز وجل: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»<sup>٣</sup> مزيد بيان لذلك والتعرض لوجوه إعجازه بمقدار فهمي القاصر.

## الطرفة الثانية

### في تعريف المعجزة وأن القرآن العظيم معجزة عقلية

المُعْجَزَةُ: هي الأمرُ الخارقُ للعادة، المقروءُ بالتحدي السالم عن المعارضة من مدعي النبوة عند احتمال صدقه في الدعوى، وهي قسمان: حسية؛ كصيرورة العصا ثعباناً، وإحياء الموتى، وإطعام الجوع الكثير بالطعام اليسير. وعقلية؛ كإعجاز القرآن المجيد.

قيل: كانت معجزات أنبياء بني إسرائيل أكثرها حسية، لِبِلَادَةِ أَسْمِهِمْ، وَقِلَّةِ ذَكَائِهِمْ، بِخِلَافِ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّ عُمْدَتَهَا عَقْلِيَّةٌ لَفَرْطِ ذَكَاءِ أُمَّتِهِ، وَكَمَالِ فَهْمِهِمْ، وَلَأنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ وَنُبُوَّةَ هَذَا النَّبِيِّ بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ مَدَى الدَّهْرِ، وَأَحْكَامُهُ مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَخَصَّ نَبِينَا بِأَنْ أَعْظَمَ مُعْجَزَاتِهِ عَقْلِيَّةٌ بَاقِيَةٌ لِيَرَاهَا ذَوُو الْبَصَائِرِ قُرْآنًا بَعْدَ قُرْنٍ، كَالشَّمْسِ تَجْرِي مَا اسْتَقَرَّتِ الْأَرْضُونَ وَدَارَتِ السَّمَاوَاتُ.

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطيت ما يمثله آمن<sup>٥</sup> البشر، وإنما كان الذي أوتيته<sup>٦</sup> وخياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»<sup>٧</sup>.

قال بعض العلماء: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة. وخرقه العادة في فصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه وإخباره بالمغيبات باقٍ إلى آخر الدهر، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه

١. في تفسير العياشي: لم تكنه.

٢. تفسير العياشي ١: ٢/٧٥، والآيتان من سورة الجن: ١/٧٢ و٢.

٣. في النسخة: ذو. ٤. في صحيح البخاري: ما مثله آمن عليه.

٥. في صحيح البخاري: أوتيت. ٦. صحيح البخاري ٦: ٣/٣١٣، وزاد فيه: يوم القيامة.

٣. البقرة: ٢٤/٢.

سيكون<sup>١</sup>، وكلّ مَنْ سَمِعَهُ في القرون المُتَطَوِّلة، وكان عارفاً بكلام العرب وأسلوب بيانهم، تَبَيَّنَ عليه الحُجَّةُ بِسَماعه، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾<sup>٢</sup> وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾<sup>٣</sup> فَإِنَّ الْآيَتَيْنِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الحُجَّةَ بِتِلَاوةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ تَبَيَّنَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْعَارِفِينَ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ.

روي أَنَّ رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام: مَا بَالُ الْقُرْآنِ لَا يَزْدَادُ عَلَى النَّشْرِ وَالدَّرْسِ<sup>٤</sup> إِلَّا غَضَاضَةً؟<sup>٥</sup> فقال عليه السلام: «لَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَجْعَلْهُ لَزْمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ، فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ، وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>٦</sup>.

وفي خطبة طويلة لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يُخْبِرُ نَوْقُهُ، وَبَحْرًا لَا يَدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَا جَأٌ لَا يُضِلُّ نَاهِجُهُ<sup>٧</sup>، وَشُعَاعٌ لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفِرْقَانًا لَا يُخْصِمُ بُرْهَانُهُ، وَبِنْيَانًا لَا تُهْذِمُ أَرْكَانُهُ»<sup>٨</sup>.

وفي روايةٍ عَنِ الرِّضَا عليه السلام: «لَا يَخْلُقُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَغِيثُ<sup>٩</sup> عَلَى الْأَشْيَةِ، لِأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لَزْمَانٍ دُونَ زَمَانٍ، بَلْ جُعِلَ دَلِيلُ الْبُرْهَانِ، وَحُجَّةٌ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾»<sup>١٠</sup>.

وفي خطبة فاطمة عليها السلام في أمرٍ فَدَكَ: «لِلَّهِ فِيكُمْ عَهْدٌ قَدِّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ: كِتَابُ اللَّهِ، بَيِّنَةٌ بِصَانُوهَا، وَأَيٌّ مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرَهُ»<sup>١١</sup>، وَبُرْهَانٌ مُتَجَلِّيةٌ ظَوَاهِرُهُ، مَدِيمٌ لِلْبَرِيَّةِ اسْتِيعَامَهُ، وَقَائِدٌ إِلَى الرِّضْوَانِ أَتْبَاعَهُ، وَمَوْذُّ إِلَى النَّجَاةِ أَشْيَاعُهُ، فِيهِ تَبْيَانٌ حُجَجِ اللَّهِ الْمُنِيرَةِ، وَمَحَارِمِهِ الْمُحْرَمَةِ، وَفَضَائِلُهُ الْمُدَوَّنَةِ، وَجَمَلُهُ الْكَافِيَةُ، وَرُخْصَتُهُ الْمَوْهُوَّةُ، وَشُرَائِطُهُ الْمَكْتُوبَةُ، وَبَيِّنَاتُهُ الْجَالِيَّةُ»<sup>١٢</sup>. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرِّوَايَاتِ.

- 
١. ففتح الباري ٩: ٥. ٢. المنكبوت: ٥١/٢٩. ٣. التوبة: ٦/٩.
  ٤. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: عند النشر والدراسة. ٥. الغض: الطوي، والغضاضة: الطراوة والنضارة.
  ٦. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: لم ينزله.
  ٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٣٢/٨٧، أمالي الطوسي: ١٢٠٣/٥٨٠.
  ٨. في النهج: نهجه.
  ٩. نهج البلاغة: ٣١٤ الخطبة ١٩٨.
  ١٠. خلق الثوب: بلي، وغث حديث القوم: ردو وفسد.
  ١١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩/١٣٠، والآية من سورة فصلت: ٤٢/٤١.
  ١٢. في النسخة: سرائرها.
  ١٣. بلاغات النساء: ٢٥، دلائل الإمامة: ١١٣، الاحتجاج: ٩٩.

هذا في حقِّ العارِف بِلِسَانِ العَرَبِ، وأما غيرِ العارِف فتتمُّ عليه الحُجَّةُ بِتَصْدِيقِ أَهْلِ اللِّسَانِ إعْجازه، كما تَمَّتْ الحُجَّةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الجَاهِلِينَ بِعِلْمِ السَّحَرَةِ بِتَصْدِيقِ السَّحَرَةِ إعْجَازَ العَصَا، وَعَلَى الجَاهِلِينَ بِعِلْمِ الطَّبِّ بِتَصْدِيقِ الْأَطْبَاءِ إعْجَازَ إِبْرَاهِيمَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَإِحْيَاءَ الْمَوْتَى.

## الطَّرْفَةُ الثَّالِثَةُ

فِي أَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ

عَنْ وَجْهِهِ إعْجَازُهُ دَلِيلُ صَدَقِ النَّبِيِّ ﷺ

لَا شُبْهَةَ أَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ مَعَ غُضِّ النَّظَرِ عَنْ وَجْهِهِ إعْجَازُهُ، يَكُونُ مِنْ أَقْوَى دَلَائِلِ صَدَقِ نَبِيِّنَا ﷺ لَوْجُوهٍ، مِنْهَا:

[١] - أَنَّهُ ﷺ أَعْلَنَ فِي النَّاسِ بِصَرِيحِ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ ﷺ بَشَّرَ أُمَّتَهُ بِظُهُورِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَبِعِثَّتِهِ، وَأَخْبَرَ بَعَلَاتِهِمْ وَنُعُوتَهُ، وَأَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ﷺ بَشَّرَ مَعَ ذَلِكَ بِاسْمِهِ السَّامِيِّ، حَيْثُ قَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾.

فَلَوْلَمْ يَكُنْ نَبِيُّنَا ﷺ صَادِقًا فِي دَعْوَاهُ، وَعَلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَاهُ، مَا كَانَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ، وَشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ لَهُ ﷺ وَلَجَاجِهِمْ فِي مَلَّتِهِمْ، سَاكِنِينَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ إِدْحَاضِ حُجَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِمْ عَلَى إِطْلَالِ دَعْوَتِهِ، وَلِبَادَرِهِ إِلَى تَكْذِيبِهِ، وَلِتَسَارُعِهِ إِلَى تَفْضِيحِهِ وَتَنْكِيهِهِ بِأَنَّ كَانَتِ الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ لِحِفْظِ رِيَاسَتِهِمْ وَمَلَّتِهِمْ حَزَمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الرُّقَادَ، وَتَنَادَوْا بِأَعْلَى أَصْوَاتِهِمْ فِي الْبِلَادِ، وَأَحْضَرُوا النَّاسَ فِي الْمِيعَادِ، وَأَتَوْا بِكُتُبِهِمْ فِي مَخْضَرِ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي، وَفَتَحُوهَا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَالزَّمُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَنْ يُرِيَهُمْ مِنْهَا آيَةً فِيهَا اسْمُهُ أَوْ نَعْتُهُ، وَيُخْرِجَ مِنْهَا عِبَارَةً فِيهَا عَلَامَتُهُ وَصِفَتُهُ فَيُظْهِرَ عِنْدَ ذَلِكَ بَعْجَرَهُ، إِفْحَامَهُ وَيَهْتَهُ، فَلَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَخْضَرَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَوْدٌ، وَلَمْ يَثْمَ لَهُ عَمُودٌ، فَلَمَّا لَمْ يَظْهَرْ تَطَاهُرُهُمْ فِي رَدِّهِ - وَلَوْ كَانَ لَبَانَ - عَلِمْنَا بِثُبُوتِ نُعُوتِهِ فِي كُتُبِهِمْ، وَثَبَّتْنَا بِصِدْقِهِ فِي إِنْخِبَارِهِ.

إِنْ قِيلَ: قَدْ نَطَقَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى حَرَّفُوا الْكِتَابَيْنِ، وَغَيَّرُوا



الآياتِ المبشّراتِ ببعثته، الدالات على نُعوته، واتفق المسلمون عليه، ولازِمُ ذلك أنّه لم يكن في ذلك الوقت في الكتّابين آيةٌ دالّةٌ على نُعته، ولم يكنِ النبي ﷺ قادراً على إثباتِ بشارَةِ موسى وعيسى ﷺ بمجيئه ورسالته، ولذلك لم يؤمن أكثر أهلِ الكتّابين بنُبوته، ولو كان في الكتّابين ذِكْرُ علائمه المُنطَبِقة عليه، لم يَبَيِّقْ لَهُمْ عُدْرٌ في عدم الإيمان والتسليم.

قلنا: نعم، ولكنه لم يَقَعِ التحريف في جميع النُسخِ الموجودة في ذلك العصر من الكتّابين، وأنما وقع في عدّة كتب كانوا يُظهِرونها لعوامهم، ويَتَلَوْنَهَا عليهم إضلالاً لهم، وحِفْظاً لرياستهم في السِرِّ والخفاء، ولم يَقْدِرُوا على التّجاهر بالمُعارضة لكون النُسخ غير المُحرّفة كثيرة الوجود، وكانت عدّة من المسلمين من عُلماء الفَرِيقَيْنِ مُطْلَعَيْنِ على الآيات غير المُحرّفة، قَادِرِينَ على إفحام المُعارضين الجاحدين، فلم يَجْسُرْ أَحَدٌ على التّظاهر بالتكذيب والإنكار، بل سَلَكَ المَتمَرِدُونَ مع النبي والمسلمين سَبِيلَ الْيُفَاق.

[٢] - ومنها: أنّ العادة قاضيةٌ بأنَّ كُلَّ من يُريد أن يُثَبِّتَ لِنَفْسِهِ بين الناس مَرْتَبَةً من الكَمالِ التي ليست له، ويدّعي كونه في مرتبةِ الواجدين أو فوقهم، وكان لتلك المرتبة من الكمال آثارٌ في الأَظْهَارِ، لا بُدَّ لذلك المدّعي الكاذب من السَّعي في إلقاء الشُّبُهَاتِ في مُلازمة تلك الآثار لتلك المرتبة من الكمال، وإزالة اعتقاد الناس بها، ومن المُبالغة في تَنْقِيسِ مَنْ عُرِفَ بهذه المَرْتَبَةِ وتكذيبه في دعوى وَجْدَانِهِ الآثار، وتكذيب نَقْلَتِهَا عنه، ومن الجَدِّ في الإِرْزَاءِ به حتّى تَحْصُلَ لَهُ رِفْعَةُ القَدْرِ وسماعُ الدَّعْوَى.

مثلاً إذا ادّعى مُدَّعٍ كاذبٌ لِنَفْسِهِ مَرْتَبَةَ النُّبُوَّةِ، وكانت في اعتقاد الناس مُلازمةً لإثباتِ المُعْجِزَةِ وعَمَلٍ خارقٍ للعادة، وكان المُدَّعي عاجِزاً عن ذلك، فلا بُدَّ له من إنكارِ مُلازمةِ النُّبُوَّةِ للإعْجَاز، ومن السَّعي في إلقاء الشُّبُهَاتِ في أَذهَانِ المُتَعَبِّدِينَ بِصُدُورِ الإعْجَازِ وخوارق العادات من الأنبياء ﷺ، ومن حَطِّ رُتَبِهِمْ وَقَدَرِهِمْ، وَمِنْ سَلْبِ الْعِصْمَةِ عَنْهُمْ حتّى يُمَكِّنَهُ دعوى التساوي معهم أو التّعالى عليهم.

كما ترى ذلك من الفُرْقَةِ الضَّالَّةِ الْبَابِيَّةِ، حيث إنَّهم على ما نُقِلَ عَنْهُمْ أنكَرُوا جميع المُعْجِزَاتِ

١. البابيّة: فرقة أسسها علي محمد، الملقب بالباب، المولود بشيراز سنة ١٢٣٥ هـ والمقتول سنة ١٢٦٦ هـ في تبريز بإيران، وادّعى أنّه الباب الذي لا يجوز الدخول إلّا منه، وقال بنسخ فرائض الإسلام. وإنه أفضل من الرسول الأكرم ﷺ، وإن أفرانه أفضل من الصحابة، وإن البشر يعجز عن الإتيان بقرّانه، وسَمَّى كتابه (البيان) وكان يقول إنه المهدي. معجم الفرق الإسلامية: ٤٨.

وَنُسَبِّحُهَا إِلَى الْكَذِبِ وَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُرْهَأُ عَلَى صِدْقِ دَعْوَى مَدْعِي النَّبُوءَةِ إِلَّا نَفْوذُ قَوْلِهِ وَتَأْثِيرُهُ فِي  
النَّفُوسِ وَقَبُولِ النَّاسِ.

وكما نرى من أهل الشَّنة من القول بعدم لزوم عصمة الإمام، حتَّى يَمْشَى من الفرقة الأولى دعوى  
النُّبُوَّةِ أو مرتبة فوقها، ومن الفرقة الثانية دَعْوَى إمامةِ أئمَّتهم مع اتفاق المسلمين على أنَّهم كانوا  
مُشركين في المدة المديدة من عُمرهم.

ولمَّا رأينا أنَّ نبيَّنا ﷺ بالغ في كتابه العزيز في تعظيم سائر الأنبياء أكثر من تعظيم أئمَّهم لهم،  
وأثبت لهم من المعجزات وخوارق العادات أزيد ممَّا اعتقد بها المؤمنون بهم، كتكلَّم عيسى ﷺ  
في المَهْد، وعُروجه حيًّا إلى السَّماء، والقاء شَبَّهه على غيره، ثم ادَّعى لنفسه النُّبُوَّةَ، بل ادَّعى أنَّه  
أَفْضَلُ وأَعْظَمُ شأنًا من الأنبياء الذين هم ذُوو المعاجز الباهرة، ثم عَلِمْنَا أنَّه آمن به كثير من العقلاء  
وجنَّع من أئمَّ سائر الأنبياء كاليهود والنصارى وغيرهم من مشركي العرب مع نهاية افتتانهم بآلِهِمْ  
وكمال ثباتهم في مِلَّتِهِمْ، علِمْنَا أنَّ هذا المدَّعي للنُّبُوَّةِ كان قادرًا على ما كان سائر الأنبياء قادرين عليه  
من المعجزات، وأتى بخارق عادةٍ دالٍّ على صدقه كما أتى غيره من الأنبياء، وكان له من العلم ما كان  
لهم، ومن الأخلاق والأعمال ما يُشبه أخلاقهم وأعمالهم، وإلا لم يكْد يُمكن أن ينظَّم آخره، ويَهر  
نوره، ويَرْدَاد على الشَّمْس ظُهوره.

إن قيل: إنَّ كتابه ناطقٌ أنَّه لم يكن له مُعجزة من معاجز موسى بن عمران ﷺ حيث قال سبحانه:  
﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُتِيَ بِمِثْلِ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾<sup>٢</sup> بل فيه آياتٌ دالَّةٌ على أنَّه لم  
يكن له معجزة أصلاً كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾<sup>٣</sup> ثم لم  
يُجِبه الرسولُ بأنَّي قد جئتكم بما جاء به موسى أو: أتيتكم بعدِّه، أو: أتيتكم بمِثْل ما أتى به سائر  
الأنبياء والرسل، بل أجابهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾<sup>٤</sup> أو قوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا  
الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أو قوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾<sup>٥</sup> وأمثال ذلك.

قلنا: إنَّه يكفي في إثبات النُّبُوَّةِ إتيانُ أمرٍ خارقٍ للعادة بحيث يكون إيجادُ الله له بِبَدِّ ذلك النَّبِيِّ  
تَصَدِيقاً منه تعالى لِدَعْوَاهِ، وإن لم يكن من أنواع إعجاز سائر الأنبياء، كما أنَّه كان لكل واحدٍ من أنبياء

١. في النسخة: على. ٢. القصص: ٤٨/٢٨. ٣. يونس: ٢٠/١٠. ٤. القصص: ٤٨/٢٨.

٥. العنكبوت: ٥٠/٢٩.

بني إسرائيل نوعٌ خاصٌّ من الإعجاز، أو أنواعٌ مخصوصةٌ، ولم يكونوا متوافقين على نوع واحدٍ أو أنواعٍ خاصةٍ، فإن موسى ﷺ كان له معجزة العصا، واليد البيضاء، وفلق البحر، وسائر الآيات اليسع، لاقتضاء زمانه لها وعدم اقتضائه لغيرها، ولم يظهر من عيسى ﷺ هذه الأنواع من المعجزات، بل ظهر منه ما ناسب زمانه من إحياء الأموات وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك.

فلازم النبوة إتيان جنس المعجزة كي يكون دليلاً على صدق الدعوى، فإذا أتى مدعي النبوة بمعجزة دالة على صدق دعواه، وجب الإيماء به، والتصديق بنبوته، واتباع أحكامه، ولو لم يكن من الأنواع التي كانت لغيره.

نعم إذا توقف هداية شخص على الإتيان بمسؤوله، وكان سؤاله عن إرادة الاهتداء لا عن التعنت واللجاج، كان على النبي إجابة مسؤوله وإزالة شبهته، وأما إذا كان السؤال عن تعنتٍ ولجاجٍ بعد وضوح الحق، فلم يحسن إجابة السائل المتعنت، بل يجب جوابه بما يدل على تعنته، كما أجابه الله بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾<sup>١</sup>.

والغرض من التقرير السابق، هو علمنا من الأمانة القاطعة بأنه كان له ﷺ معجزة ظاهرة دالة على صدقه إجمالاً، ولو لم يكن من أنواع معجزات سائر الأنبياء ﷺ بل كان أقل، كتحريك الشجر من مكانه بأمره، أو تسبيح الحصاة في يده، أو أعظم كانشقاق القمر، وإحياء الرمم، فبعد ثبوت إتيانه بما كان مشتركاً مع معجزات سائر الأنبياء في جنس الإعجاز، وإن كان مغايراً لها بالنوع، يظهر صدقه ويجب اتباعه.

ولا ينافي هذه الآيات ما ادعيناها حيث إن الظاهر أن الكفار سألوا إتيان الأنواع المعهودة من سائر الأنبياء كموسى وعيسى، لا أنهم سألوا صدور جنس المعجزة منه ﷺ بل الكتاب العزيز دالٌّ بالصراحة على أنه كان له معجزة وآية حيث قال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾<sup>٢</sup> وقال في تفريع معارضته: ﴿وَإِنْ يَزُوا آيَةً يَغْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾<sup>٣</sup> وأمثال ذلك.

ولما كان سؤالهم تعنتاً لم يحسن إجابة مسؤولهم، ولذا لم يُجبههم إلا بالتفريع والتبكيث كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾<sup>٤</sup>، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾<sup>٥</sup>، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>٦</sup>، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾<sup>٧</sup> إلى غير ذلك.

[٣] - ومنها: أَنَّ العاقل المُنْصِف، البصير ببيانات الأنبياء والمرسلين، وكلمات الأولياء المُقَرَّبِينَ، والحُجَج المعصومين، إذا تأمل في الكتاب العزيز ومطالبه، وتدبّر في مضامينه وجوانبه، عَلِم أَنَّ هذه المطالب المهمة الشافية، بهذه البيانات اللطيفة العالية الوافية، لا يمكن أن تصدر إلّا من لسان النبوة، وَأَنَّ هذه الدُرَر الثمينة لا تخرج إلّا من معدِن الرسالة، وهذه الأنوار الباهرة لا تُشْرِق إلّا من عالم الربوبية، حيث إِنَّه ليس فيه إلّا بيان التوحيد بأنواعه، من الذاتيّ والصفاتي والأفعالي، وبيان الصفات الجلالية السلبية، والجمالية الثبوتية، والْحَثّ على القيام بالعبودية، والدعوة إلى المُحَسِّنَات العقلية كالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين والجاري ذي القربى وابن السبيل، وصلة الرحم، والوفاء بالعقود والعهود وغير ذلك، والزجر من المُنْكَر والفَحْشَاء والبُغْي، وبيان أحكام العبادات والمعاملات، وقوانين السياسات، والترغيب إلى تهذيب الأخلاق، والزهد في الدنيا، والتوجّه إلى الآخرة، وبيان العِزِّ والموَاعِظ، وذكر حُكْم بعض الأحكام، وقَصَص الأنبياء السالفة، وعظْمة شأنهم وتفصيل معاجزهم وكيفية دَعْوَتهم وشرح معاملة أُمَمِهِمْ معهم، واستئصال مَنْ خالفهم بالعذاب، وبيان المُعَاد، وإقامة الأدلة عليه وكيفية الحُشْر والصراط والميزان والجِساب، والتلطّف والعتاب، وبيان الجَنَّة وكيفية نِعْمِهَا، وبيان النَّار وتفصيل شدائدها.

وقال بعض: إِنَّ القرآن العظيم قد اشتمل على كلّ شيء، أمّا أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلّا وفي القرآن ما يدلّ عليها، ولا يَعْلَمُهَا إلّا الراسخون، وفيه الأمرُ والنهي، والوَعْدُ والوَعِيدُ، ووُضِفَ الجَنَّة والنَّار، وتعليمُ الإقرارِ بالله وبصفاته وأفعاله، وتعليمُ الاعترافِ بإنعامه، والشُّكْر عليها، والاحتِجَاجُ على المخالفين، والرَّدّ على المُلْجِدِينَ، وبيانُ الرِّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، والخير والشر، والحَسَن والْقَبِيح، ونُفُت الحِكْمَةِ، وفَضْل المعرفة، ومدح الأبرار وذمّ الفُجَّار، والتسليم والتحسين، والتوكيد والتفريع، وبيان الأخلاق الذميمة، وشرف الأداب.

وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى وتحت السُّرى، وبُذء الخلق، وأسماء مشاهير الأنبياء والرُّسُل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة، وقِصَّة آدم مع

إبليس في إخراجهم من الجنة، ورفع إدريس إلى السماء، وإغراق قوم نوح، وقصة عاد الأولى والثانية، وثمود والناقة، وقوم يونس، وقوم شعيب، وقوم لوط، وقوم ثبع، وأصحاب الرُّس، وقصة إبراهيم في مجادلة قومه ومناظرته نمرود، وقصة ابنه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة الذئب، وقصة يوسف بطولها، وقصة موسى في ولادته ولقائه في اليم، وقتل القنطي، ومسيره إلى مدين وتزوجه بنت شعيب، وكلامه تبارك وتعالى معه بجانب الطور، ومجيئه إلى فرعون، وخروجه مع بني إسرائيل من مصر، وإغراق عدوه فرعون وجنوده، وقصة العجل، والقوم الذين خرج بهم إلى الطور وأخذتهم الصاعقة، وقصة القتل من بني إسرائيل، وذبح البقرة، وقصته مع الخضر<sup>٢</sup>، وقصته في قتال الجبارين، وقصة القوم الذين ساروا في سرب<sup>٣</sup> من الأرض إلى الصين، وقصة طالوت وداد مع جالوت، وقصة سليمان وفنتته وخبره مع ملكة سبأ، وإتيان عرشها<sup>٤</sup>.

وقصة القوم الذين خرجوا فراراً من الطاعون، فأماهم الله ثم أحياهم، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مغرب الشمس ومطلعها، وبنائه السد، وقصة أيوب، وذي الكفل، وإلياس، وقصة أصحاب الرقيم، وقصة بخت نصر<sup>٥</sup>، وقصة الرُّجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة، وقصة مؤمن آل ياسين، وقصة أصحاب الفيل.

وفيه من شأن النبي ﷺ دعوة إبراهيم به، وبشارة عيسى بمجيئه، وبعثته، وهجرته، ومن عززواته سرية ابن الحضرمي في سورة البقرة، وعزوة بدر في سورة الأنفال، وغزوة أحد في سورة آل عمران، وقصة بدر الصغرى فيها، وغزوة الخندق في سورة الأحزاب، وقصة الحديبية في سورة الفتح، وقصة بني النضير في سورة الحشر، وغزوة حنين وتبوك في سورة البراءة، وحجة الوداع في سورة المائدة، ونكاحه زينب بنت جحش في سورة الأحزاب، وتحريم سريره ونظاير أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود إياه.

وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت وقبض الروح وما يفعل بها بعده، وعودها إلى السماء، وفتح باب السماء للروح المؤمنة، والقاء الكافرة في النار، وعذاب القبر والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشراف الساعة الكبرى؛ وهي نزول عيسى، وخروج الدجال، وأجوج ومأجوج، ودابة

١. في النسخة: وأخذهم.

٢. في النسخة: خضر.

٣. السرب: الحفير تحت الأرض.

٤. في النسخة: عرشه.

٥. في النسخة: بخت النصر.

الأرض، والدُّخَان، وَرَفَعَ الْقُرْآنَ، وَخَسَفَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَعَلَّقَ بَابَ التَّوْبَةِ، وَأَحْوَالَ  
الْبُعْثِ مِنَ النَّفْثَاتِ الثَّلَاثِ: نَفْثَةُ الْفَرْعِ، وَنَفْثَةُ الصُّعْقِ، وَنَفْثَةُ الْقِيَامِ، وَالْحَشَرِ وَالنَّشْرِ وَأَهْوَالَ  
الْمَوْقِفِ، وَشِدَّةَ حَرِّ الشَّمْسِ، وَظِلَّ الْعَرْشِ، وَالْمِيزَانِ، وَالْحَوْضِ، وَالصِّرَاطِ، وَالْحِسَابِ لِقَوْمِ نَجَاةٍ  
آخَرِينَ مِنْهُ، وَشَهَادَةَ الْأَعْضَاءِ، وَإِتْيَاءَ الْكُتُبِ بِالْإِيمَانِ وَالشَّمَائِلِ وَخَلْفَ الظَّهْرِ، وَالشَّفَاعَةَ وَالْمَقَامَ  
الْمَحْمُودِ، وَالْجَنَّةَ وَأَبْوَابَهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْمَارِ وَالْخَلْيِ وَالْأَوَانِي وَالْقُصُورِ وَالْحُورِ  
وَالدَّرَجَاتِ وَمَقَامِ الرِّضْوَانِ، وَالتَّجَلِّيَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالنَّارِ وَأَبْوَابَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَوْدِيَةِ وَالسَّلَاسِلِ  
وَالْأَغْلَالِ وَأَنْوَاعِ الْعِقَابِ وَأَلْوَانِ الْعَذَابِ وَالزُّقُومِ وَالصَّرِيعِ وَالْحَمِيمِ.

وفيه جميع أسماء تعالَى الْحُسْنَى كما ورد في حديث<sup>١</sup>، وَجُمْلَةُ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ.

وفيه شُعَبُ الْإِيمَانِ، وَمَقَامَاتُ الْمُتَّقِينَ، وَشُرَائِعُ الْإِسْلَامِ، وَأَنْوَاعُ الْكِبَائِرِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الصَّغَائِرِ، وَغَيْرُ  
ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ.

وقد أفرَدَ جَمْعُ مِنَ الْعُلَمَاءِ كُتُبًا فِيمَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ جَمِيعَ مَا تَضَمَّنَهُ ظَاهِرُ الْكِتَابِ  
تَحْتَ ثَلَاثَةِ عُنَاوِينَ:

التَّوْحِيدُ: وَيَدْخُلُ فِيهِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَمَعْرِفَةُ أَنْبِيَائِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

والتَّذْكِيرُ: وَفِيهِ قَصَصُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْمَعَادِ، وَالْوَعْدِ، وَالْوَعِيدِ، وَالْجَنَّةِ، وَالنَّارِ.

وَالْأَحْكَامُ: مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ.

قِيلَ: وَلِذَلِكَ وَدَّ أَنْ الْفَاتِحَةَ أَمَّ الْقُرْآنَ لِأَنَّ فِيهَا الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ، وَسُورَةَ الْإِخْلَاصِ ثُلُثُهُ لِأَنَّ فِيهَا  
التَّوْحِيدَ كُلَّهُ، فَهَلْ يَأْتِي بِمِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَهَلْ يَكُونُ الْغَرَضُ مِنْ بَعْثِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا  
تَكْمِيلُ النَّفُوسِ بِمَعْرِفَةِ الْمُبْدَأِ وَالْمَعَادِ وَالْحِكْمَةِ النَّظَرِيَّةِ وَالْحِكْمَةِ الْعَمَلِيَّةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ  
وَالسِّيَاسَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَتَرْبِيَةِ النَّفُوسِ بِالْقِيَامِ بِهَا؟ وَهَلْ يُقَاسُ الْقُرْآنُ بِسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي  
لَيْسَ فِيهَا عَشْرُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحُكْمِ؟ فَإِنْ كَانَ سَائِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمُنْتَسِبًا  
إِلَى اللَّهِ، فَهَذَا الْكِتَابُ الْكَرِيمُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِالِاتِّسَابِ مِنْهَا، فَإِنَّ جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَا فَهُوَ ظَاهِرُهُ، وَأَمَّا بَاطِنُهُ  
فَبِحَرِّ لَا يَنْزِفُ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ  
كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾<sup>٢</sup>.

١. راجع التوحيد للصدوق: ٨/١٩٤.

٢. لقمان: ٢٧/٣١.

نُقل أنه قيل لموسى بن عمران: يا موسى، إنما مثل كتاب أحمد في الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن، كلما مَخَضْتَهُ أَخْرَجْتَ زُبْدَتَهُ.

## الطَّرْفَةُ الرَّابِعَةُ

في بيان سرّ نزول القرآن جملة

إلى البيت المعمور في ليلة القدر

قد اتفقت الأمة من الخاصة والعامة، وتطافرت بل تواترت نصوصهم على أن الكتاب العزيز نزل أولاً في ليلة القدر مجموعاً من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور الذي يكون في السماء الرابعة، أو إلى بيت العزة في سماء الدنيا إلى السفرة الكرام البررة، ثم نزل به جبرئيل تَجُوماً على خاتم النبيين ﷺ في مدة عشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين سنةً على حسب اختلاف العلماء في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد بعثته وقبل هجرته.

وقيل في سرّ إنزاله جملةً أولاً إلى سماء الدنيا أو إلى البيت المعمور: إنه تفخيمٌ أمر القرآن وأمر النبي الذي أنزل إليه، وذلك لأن فيه إعلام سُكَّان السماوات السبع بأن هذا الكتاب آخر الكتب، مُنزَّل على آخر الرُّسل وخاتمهم لأشرف الأمم، قد قرّنه إلههم لِتَنْزِلَهُ عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وُصوله إليهم مُنجماً بحسب الوقائع لَنَزَلْنَاهُ إلى الأرض جملةً كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل لهذا النبي الكريم الأمرين: إنزاله جملةً، ثم إنزاله مُفَرَّقاً، تشریفاً للمُنزَّل عليه.

وقيل: إن السرّ هو تسليمه تبارك وتعالى لهذه الأمة ما كان أبرز لهم من الحظ من الرحمة التي استحقوها لأجل مبعث محمد ﷺ، وذلك أن بعثة محمد ﷺ كانت رحمةً، فلما خرجت الرحمة وفتح بابها جاءت بمحمد ﷺ وبالقرآن معاً، فوضع القرآن ببيت العزة في السماء الدنيا ليدخل في حدّ الدنيا، ووضعت النبوة في قلب محمد ﷺ، وجاء جبرئيل ﷺ بالرسالة ثم بالوحي، كأنه تعالى أراد أن يُسلم إلى الأمة الرحمة التي كانت حظها من الله.

وقيل: إن السرّ في نزوله جملةً إلى سماء الدنيا، تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعرفهم عناية الله بهم ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر الله سبعين ألف ملك أن يُشيّعوا سورة

الأنعام، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جَبْرِئِيلَ بِإِمْلَاقِهِ عَلَى السَّفَرَةِ الْكَرِيمِ وَإِنْسَاجِهِمْ إِيَّاهُ وَتِلَاوَتِهِمْ لَهُ.

وفيه أيضاً التسوية بين نَبِيِّنَا ﷺ وبين موسى بن عمران وعيسى بن مريم ﷺ في إنزاله كتابه جملةً كما أنزلَ كِتَابَيْهِمَا جُمْلَتَيْنِ، والتفضيلُ لمحمد ﷺ في إنزاله عليه مُنْجِماً لِحُكْمٍ كَثِيرَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ.

أقول: يمكن أن يكون السِّرُّ تكميلُ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ ووجود الرُّوحَانِيَيْنِ بإيجاد الكتاب الكريم فيهم، وتقريره أن يقال: المراد من إنزاله إلى سماء الدنيا أو إلى البيت المعمور هو إيداعه تعالى وإيجاده كتابه الكريم بوجوده الجوهرى وصورته النورية في ملكوت السماء وعالم الأنوار، بعد وجوده في مكنون علمه المعبر عنه بالعَرْشِ تَارَةً وبِاللُّوحِ الْمَحْفُوظِ أُخْرَى.

ولمَّا كَانَ وجود خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، حَصَلَ بِبَرَكَاتِهِ اسْتِعْدَادُ الْكَمَالِ لِجَمِيعِ الْعَوَالِمِ الْمَلَكِيَّةِ وَالْمَلَكُوتِيَّةِ، وكما كان للكتاب العظيم تأثير عظيم بوجوده اللَّفْظِي وَالْكُتُبِي فِي تَكْمِيلِ النُّفُوسِ الْمُسْتَعِدَّةِ فِي عَالَمِ الْمُلْكِ، كان لوجوده الْجَوْهَرِيِّ التَّوْرِيِّ فِي عَالَمِ الْمَلَكُوتِ تَأْثِيرٌ فِي تَكْمِيلِ وجود الذوات الْمُسْتَعِدَّةِ الْمَلَكُوتِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ، وبُحْصُولِ رُتْبَةٍ مِنَ الْكَمَالِ الْوُجُودِيِّ لِعَالَمِ الْوُجُودِ صَارَ مُسْتَحَقًّا لِتَزْيِينِهِ بِوجود خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وتكميله بِبَعْثِهِ، فَشَمِلَتْهُ هَذِهِ الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ فِيهِ.

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْفَيْضِ حَصَلَ لَهُ اسْتِعْدَادُ قَبُولِ فَيْضٍ آخَرَ، وَاسْتِحْقَاقُ رَحْمَةٍ أُتِمَّ مِنْ إِنْزَالِ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ الَّذِي هُوَ تَجَلِّي صِفَاتِهِ التَّامَّةِ فِي الْعَوَالِمِ، وَكَانَ إِيْجَادُ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ فِي عَالَمِ الْمَلَكُوتِ تَكْمِيلٌ لِّلرَّحْمَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ الْمَلَكِيَّةِ وَالْمَلَكُوتِيَّةِ بِبَرَكَةِ وجود نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ﷺ وَإِرْسَالِهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

ولعلَّ هَذَا الْوَجْهَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، أَوْجَهٌ فِي الْوَاقِعِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْأَذْهَانِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْفَيْضُ ﷺ فِي مَقَدِّمَاتِ (الصَّافِي) فَإِنَّهُ بَعْدَ تَعْلِيلِ الرِّوَايَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُزُولِ الْقُرْآنِ جَمْلَةً إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، قَالَ: كَأَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ نُزُولُ مَعْنَاهُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ﴾<sup>١</sup> ثُمَّ نَزَلَ فِي طَوْلِ عَشْرِينَ سَنَةً تُجُومًا مِنْ بَاطِنِ قَلْبِهِ إِلَى ظَاهِرِ لِسَانِهِ



كلّما أتاه جَبْرِئِيلُ بِالْوَحْيِ وقرأه عليه بالفاظه.

إلى أن قال ﷺ: وبهذا التحقيق حصل التوفيق بين نزوله تدريجاً ودفعاً، واسترخنا من تكلفات المفسرين<sup>١</sup>، انتهى.

مع أنه ليس فيما ذكرناه حمل الروايات على خلاف ظاهرها، إذ من الواضح أنه ليس المراد من القرآن الذي نزل في البيت المعمور الأصوات المعتمدة على المخارج، المعبر عنها بالحروف والكلمات، ولا النقوش المنطبعة في الأوراق والصفحات، بل وجوده الجوهري، فإن له صورة في عالم الملكوت مغايرة لصورته في هذا العالم، واستعمال لفظ الإنزال في معنى الإيجاد غير عزيز كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾<sup>٢</sup> أي أوجد لكم.

نعم في خير المفضل إشعار بتوجيهه ﷺ حيث قال: قال الصادق عليه السلام: «يا مفضل، إن القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة، والله تعالى يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾»<sup>٣</sup>، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَازِغَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ \* فيها يفرق كل أمر حكيم \* أمراً من عندنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»<sup>٤</sup>، وقال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾<sup>٥</sup>.

قال المفضل: يا مولاي، فهذا تنزيله الذي ذكره الله في كتابه، فكيف ظهر الوحي في ثلاث وعشرين سنة؟

قال: «نعم يا مفضل، أعطاه الله القرآن في شهر رمضان، وكان لا يبلغه إلا في وقت استحراق الخطاب، ولا يؤذيه إلا في وقت أمر ونهي، فهبط جَبْرِئِيلُ عليه السلام بالوحي فبلغ ما يؤمر به [وهو قوله: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾]]»<sup>٦</sup>.

فقال المفضل: أشهد أنكم من علم الله علمتم، وبقدرة قدرتم، وبحكمه نطقتم، وبأمره تعملون<sup>٧</sup>. ويمكن حمله على ما ذكرنا من الوجه، أو إيقاؤه على ظاهره إن كان له ظهور فيما ذكره ﷺ من

في بيان أسرار نزول التوجيه والقول بنزوله في البيت المعمور وفي قلب النبي ﷺ ولا منافاة بينهما.

القرآن العظيم وأما سير نزوله نجوماً، فكثير منه:

نجوماً على النبي ﷺ [١] - أنه ﷺ بنزوله نجوماً كان يتحدّى بكل نجم من آية أو سورة تنزل عليه، ومن

٣. البقرة: ١٨٥/٢.

٢. الزمر: ٦/٣٩.

١. تفسير الصافي: ٥٧.

٧. بحار الأنوار ٩٢: ٣٨.

٦. القيامة: ١٦/٧٥.

٥. الفرقان: ٣٢/٢٥.

٤. الدخان: ٣/٤٤ - ٥.

الواضح أن عَجَزَ الفُصْحَاءِ عن الاتيان بمثل كل واحد من التجوم أظهر في الإعجاز من عَجَزِهِم عن إتيان مثل المجموع إذا كان نزوله جملة واحدة إذا كان تحدى به.

[٢] - ومنه: أن في إنزاله نجومًا كان لطفًا على المؤمنين، حيث إنه كان ينزل نجم يزداد فرحهم ويقتنهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾<sup>١</sup>.

[٣] - وأيضاً: كان بنزول الآيات في مواقع الجهاد يزداد نشاطهم ورغبتهم وجدهم فيه، وإذا نزلت بهم بليّة ثم نزلت في شأنهم آية، كان يهون عليهم تلك البليّة، وإذا وقعوا في تعب وعناء، كان نزول الآيات يزيل تعبهم وعناءهم بتكميل بصيرتهم ويقتنهم.

[٤] - ومنه: أن مناسبة الوقائع، وخصوصيات المقامات، وانضمام القرائن الحالية، كانت موجبة لزيادة البلاغة.

[٥] - ومنه: أن نزول بعض الآيات ردّاً على الكفار في مواقع معارضتهم، أو إلقاء شبهاتهم، أو تهديداً لهم عند صدور استهزاءاتهم والطعون منهم على الاسلام والمسلمين، أو زجراً لهم عند إرادتهم الفساد في الدين، كان أشد تأثيراً في تثبيتهم وتقريعهم وزجرهم وهدايتهم وتبعهم إلى الايمان والانقياد للحق.

[٦] - ومنه: أن نزوله مفرقاً أَدْعَى لِقَبُولِهِ وتحمل إطاعة أحكامه، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان يثقل قبوله على كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي.

روي عن عائشة أنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل<sup>٢</sup> فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً<sup>٣</sup>.

وعن الباقر عليه السلام قال: «ليس أحد أرفق من الله تعالى، فمن رقيقه تبارك وتعالى أنه نقلهم من خضلة إلى خضلة، ولو حمل عليهم جملة واحدة لهلكوا»<sup>٤</sup>.

وفي رواية عنهم عليه السلام: «أن الله تعالى إذا أراد أن يفرض فريضة أنزلها شيئاً بعد شيء، حتى يوطن

١. التوبة: ١٢٤/٩.

٢. قيل: المفصل: مجموعة سور تبدأ من سورة محمد ﷺ إلى آخر القرآن، سميت بذلك لكثرة الفواصل بينها.

تفسير الصافي ١: ١٨، وراجع: الطرفة (١٣).

٣. صحيح البخاري ٦: ٣١٨/١٤.

٤. الكافي ٦: ٣٩٥، التهذيب ٩: ١٠٢/٤٤٣.

الناس أنفسهم عليها، ويسكنوا إلى أمر الله ونهيه [فيها]، وكان ذلك من [فعل الله عز وجل على وجه] التدبير فيهم أصوب وأقرب لهم إلى الأخذ بها، وأقل لينارهم منها<sup>١</sup>.

أقول: ولعلّه إلى جميع الوجوه المذكورة أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾<sup>٢</sup>.  
روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أخذ موسى الألواح بعد ما سكن<sup>٣</sup> عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فتقلت عليهم وأبوا أن يقرّوا بها حتى تنق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأقرّوا بها<sup>٤</sup>.

أقول: لعلّه من الأصار التي كانت على بني إسرائيل أنه نزلت التوراة على موسى دفعة، وحمل عليهم جميع التكاليف بذوا، فصار ثقيلاً عليهم، فأبوا عن قبولها.

## الطَّرْفَةُ الْخَاصَّةُ

في أن جمع القرآن كان

في عصر النبي ﷺ وبأمره

الحق الذي لا ينبغي أن يعرض عنه، هو أن جمع القرآن كان في عصر النبي ﷺ وبأمره لشهادة الأثار، وحكم العقل، ومساعدة الاعتبار.

[أولاً]: أمّا الأثار فقد روي عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: ما حملكم [على] أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرّنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ووضعتموهما في السبع الطوال؟<sup>٥</sup>

فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه [السور] ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فلننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرّنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر

١. الكافي ٦: ٢/٤٠٧. ٢. الإسراء: ١٧/١٠٦. ٣. في الانقان: سكت.

٤. الإنقان في علوم القرآن ١: ١٥٤.

٥. قيل: السبع الطوال هي السبع الأول بعد الفاتحة، والمئين من سورة الإسراء إلى سبع سور، سميت بذلك لأن كل منها على نحو مائة آية، والمثاني بقية السور. تفسير الصافي ١: ١٨، وراجع: الطرفة (١٣).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعتهما في السبع الطوال، انتهى<sup>١</sup>.  
فدلّت هذه الرواية على أن كتاب الوحي كانوا يكتبون السور والآيات في عصر النبي ﷺ مجموعة مرتبة بأمره.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: يا علي، القرآن خلف فراشي في الصُحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه، ولا تضيّعوه كما ضيعت اليهود الشّورة. فانطلق علي عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر وختم عليه في يته، وقال: لا أرتدي حتى أجمعه قال: كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء، حتى جمعه<sup>٢</sup>.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «لو أن الناس قرءوا القرآن كما أنزل، ما اختلف اثنان»<sup>٣</sup>. فإن الظاهر منه عدم تأخير أمير المؤمنين عليه السلام في أمثال أمر النبي ﷺ وأنه جمعه في حياته.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص<sup>٤</sup>، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب»<sup>٥</sup>.

وعن قتادة، قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي<sup>٦</sup>.

وعن ابن حجر: قد ذكر ابن أبي داود في من جمع القرآن قيس بن أبي صغصعة<sup>٧</sup>.  
وروي عن غيره أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه قيس بن السكن، إلى أن قال: ومات ولم يدع عقيبا، ونحن ورثناه<sup>٨</sup>.

وعن ابن أبي داود: أنه مات قريبا من وفاة رسول الله ﷺ فذهب علمه ولم يؤخذ عنه<sup>٩</sup>.  
وقال أبو أحمد العسكري: لم يجمع القرآن من الأوس غير سعد بن عبيد<sup>١٠</sup>.

١. مستدرک الحاكم ٢: ٢٢١.

٢. تفسير القمي ٢: ٤٥١.

٣. تفسير القمي ٢: ٤٥١.

٤. في النسخة: عبيد الله بن عمر بن العاص، تصحيف، انظر تهذيب الكمال ١٥: ٣٥٧.

٥. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٤.

٦. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٤.

٧. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٩.

٨. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٥٠.

٩. في النسخة: سعيد بن عبيد، تصحيف، انظر الطبقات الكبرى ٢: ٣٥٥.

وقال محمد بن حبيب: سعد بن عُبَيْد أحد من جَمَعَ القرآن على عهد النبي ﷺ.<sup>١</sup>  
وعن قتادة، عن أنس قال: افتخر الحيَّانُ: الأوس والخزرج، فقال الأوس: منا أربعة: من اهتزَّ العرش له: سعد بن مُعاذ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين: خزيمة بن ثابت، ومن غسَلته الملائكة: خنْظلة بن أبي عامر، ومن حمَّته الدُّبُرُ<sup>٢</sup>: عاصم بن ثابت. فقال الخزرج: منا أربعة جَمَعُوا القرآن لم يجمعه غيرهم<sup>٣</sup>.

وروي البخاري عن أنس، قال: مات رسول الله ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومُعَاذ بن جَبَل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد<sup>٤</sup>.

قال بعض الفحول: قد استنكر جماعة الحَضَر في الأربعة<sup>٥</sup>.

وقال المازني: لا يلزم من قول أنس: لم يجمعه غيرهم، أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك، إلى أن قال: وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة، ولا متمسك لهم فيه، فإننا لا نُسَلِّمَ حَمْلَهُ على ظاهره<sup>٦</sup>.

وعن القُرطبي: قد قُتِل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقُتِل في عهد النبي ﷺ بِئْرُ مَعُونَة مثل هذا العدد. قال: وإنما خَصَّ أنس الأربعة بالذكر لِشِدَّةِ تعلقه بهم<sup>٧</sup>.

أقول: الظاهر أنَّ القراء مع حفظهم لجميع القرآن كان عندهم مكتوباً جميعه، فإذا طعنت الملاحدة على القرآن، وأنكروا ثواتره، تمسكاً برواية أنس، فكيف لم يطعنوا ولا يطعنون على من اعتقد أنَّ القرآن لم يكن مجموعاً في زمان النبي ﷺ بل كانت آياته وسوره متفرقة عند الناس ثم تصدى لجمعه بعد وفاة النبي ﷺ أبو بكر وعمر، مع عدم علمهما بجميع القرآن حتى جمعه - على ما قيل - بشهادة شاهدين؟

وعن النسائي، عن عبدالله بن عمر، قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي ﷺ فقال:

١. المحبر: ٢٨٦، الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٩.

٢. الدُّبُر: التَّحِل، وعاصم بن ثابت. يسمَّى حَمَى الدُّبُر، وذلك لأنه لما أصيب يوم الرجيع أراد المشركون أن يأخذوا رأسه، فبعث الله سبحانه عليه مثل الظلة من الدُّبُر فحمته منهم، وكان قد عاهد الله تعالى أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك. أسد الغابة ٣: ٧٣.

٣. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٧.

٤. صحيح البخاري ٦: ٣٢١/٢٥.

٥. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٥.

٦. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٥.

٧. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٤٥.

«إقرأه في شهر»<sup>١</sup>.

وعن محمد بن كعب القرطبي<sup>٢</sup>، قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبداد بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري<sup>٣</sup>.

وعن ابن سيرين، قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة لا يختلف فيهم: معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وأبو زيد، واختلفوا في رجلين من ثلاثة: أبو الدرداء وعثمان، وقيل: عثمان وتميم الداري<sup>٤</sup>.

وعن الشعبي، قال: جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ستة: أبي، وزيد، ومعاذ، وأبو الدرداء وسعد بن عبيد، وأبو زيد، ومجمع بن جارية قد أخذه إلا سورتين أو ثلاثة<sup>٥</sup>.

وعن أبي عبيد في كتاب (القراءات) أنه ذكر القراء من أصحاب النبي ﷺ فعُدَّ من المهاجرين: الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم. وعُدَّ ابن أبي داود من القراء: تميم الداري، وعقبة بن عامر<sup>٦</sup>. قال: وممن جمعه أيضاً أبو موسى الأشعري<sup>٧</sup>.

وروى في (الطبقات): أن امرأة من الصحابات جمعت القرآن. وروى عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث: أن رسول الله ﷺ كان يزورها ويسمّيها الشهيذة رحمها الله، وكانت قد جمعت القرآن<sup>٨</sup>. أقول: العجب كل العجب أن أحداً من هؤلاء لم يُعَدَّوا في من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أمير المؤمنين عليّ، بل روى ابن حجر وغيره من علماء العامة أن علياً عليه السلام جمع القرآن على ترتيب النزول بعد وفاة النبي ﷺ<sup>٩</sup>.

إن قيل: إن المراد من جمع القرآن في الروايات السابقة هو حفظ جميعه لا تدوينه في القراطيس. قلنا: هذا الاحتمال في غاية البعد، إذ لا يمكن عادة أن ينحصر في زمان النبي ﷺ حفظ جميع القرآن في أربعة أو خمسة من الصحابة مع وضوح اشتياق المؤمنين إلى تلاوة القرآن، وكمال قوة

١. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.

٢. في النسخة: القرطبي.

٣. الطبقات الكبرى ٢: ٣٥٦.

٤. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.

٥. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.

٦. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٤٨.

٧. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٤٩.

٨. الطبقات الكبرى ٨: ٤٥٧، الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٥٠.

٩. الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٨، الصواعق المحرقة: ١٢٨.

حفظهم، وكون تلاوة القرآن وتعلمه من أهم مشاغلهم، وأفضل عياداتهم، بل الظاهر أن المراد من جمع القرآن هو تدوينه مع ما أفاده النبي ﷺ من تفسير آياته، وبيان مضمونه، وكيفية قراءته وسائر العلوم الراجعة إليه.

وعلى هذا النحو من الجمع يُحمَل ما روته العامة من أنه لما بويح أبو بكر، وتخلّف عليّ عليه السلام عن بيعته، وجلس في بيته، بعث إليه أبو بكر، وقال: ما أبطأك عني، أكرهت إمارتي؟ قال عليّ عليه السلام: ما كرهت إمارتك، ولكن أليّ أن لا أرثدي بردائي إلا للصلاة حتى أجمع القرآن<sup>١</sup>. وكذا ما روي في (الاحتجاج) عن أبي ذر رضي الله عنه أنهما توفّي رسول الله ﷺ جمع عليّ عليه السلام القرآن، وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم، لما قد أوصاه بذلك رسول الله ﷺ، فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: أردده يا علي، فلا حاجة لنا فيه. فأخذ عليّ عليه السلام وانصرف<sup>٢</sup>.

فإن خروج فضائح القوم فيما جمعه عليّ عليه السلام لذكره شأن نزول الآيات، فإن كثيراً منها نزلت بسبب عصيان أصحابه، كما روت العامة أنه بعد ما أجبر عمر زوجته على المواقعة في ليلة الصيام حراماً، نزل قوله تعالى: ﴿أَجَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾<sup>٣</sup>، وأنه بعد ما أبى أبو بكر وعبدالرحمن بن عوف وجمع من الصحابة عن قبول آية محاسبة ما في النفس، نزل قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>٤</sup>، وأنه بعد ما شرب جمع من الصحابة الخمر وتكلم بعضهم في حال السكر بالكفر نزلت آية تحريم الخمر<sup>٥</sup>، أنه بعد ما قتل أسامة مسلماً ألقى إليه السلام بطمخ الغنيمية نزلت آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>٦</sup> إلى غير ذلك مما ذكر في مواقعها.

والحاصل: أن الكتاب الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه بيان شأن نزول الآيات، وأسماء الذين نزلت فيهم وأوقات نزولها، وتأويل مناسباتها، وتعيين ناسخها ومنسوخها، وذكر عامها وخاصها، وبيان العلوم المرتبطة بها، وكيفية قراءتها.

٢. الاحتجاج: ١٥٥.

١. الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٨، الصواعق المحرقة: ١٢٨.

٣. الدر المنثور ١: ٤٧٧، والآية من سورة البقرة: ١٨٧/٢.

٤. تفسير الرازي ٧: ١٢٥، والآية من سورة البقرة: ٢٨٦/٢.

٦. الدر المنثور ٢: ٦٣٤، والآية من سورة النساء: ٩٤/٤.

٥. أسباب النزول: ٨٧.

ويؤيد ذلك أنه يُقَالُ عن ابنِ سيرين أنه قال: بلغني أنه كتبه على تنزيله، ولو أُجِيبَ إلى ذلك الكتاب لوجد فيه علم كثير<sup>١</sup>.

ونقل عنه أيضاً أنه قال: كَتَبَ عليّ ﷺ في مُصَحِّفِهِ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ<sup>٢</sup>.

بل يشهد لذلك ما رَوَاهُ الطَّبْرَزِيُّ في (الاحتجاج) في جملة احتجاج أمير المؤمنين ﷺ على جماعة من المهاجرين والأنصار أن طَلَّحَهُ قال له في جملة مسائله عنه: يا أبا الحسن، أريد أن أسألك عن مسألة، وأنتك خرجت بثوبٍ مَخْتُومٍ، فقلت: «أيتها الناس، إني لم أزل مُشْتَغَلاً برسول الله ﷺ بَعْسِلِهِ وَكَفَنِهِ وَدَفْنِهِ، ثُمَّ اشْتَغَلْتُ بِكِتَابِ اللَّهِ حَتَّى جَمَعْتُهُ، فَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ عِنْدِي مَجْمُوعاً، لَمْ يَسْقُطْ عَنِّي حَرْفٌ وَاحِدٌ».

إلى أن قال: فما يمنعك أن تُخْرِجَ كِتَابَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ، وَقَدْ عَهَدَ عُثْمَانُ حِينَ أَخَذَ مَا أَلْفَ عَمَرَ فَجُمِعَ لَهُ الْكِتَابُ، وَحُمِلَ النَّاسُ عَلَى قِرَاءَةِ وَاحِدَةٍ، فَمَزَقَ مُصَحِّفَ أَبِي بَنِي كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَحْرَقَهُمَا بِالنَّارِ؟

فقال له عليّ ﷺ: «يَا طَلَّحَةُ، إِنَّ كُلَّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ [عِنْدِي] بِإِمْلَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَطَّ يَدِي [وَتَأْوِيلَ كُلِّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَكُلِّ حَرَامٍ وَحَلَالٍ أَوْ حَدٍّ أَوْ حَكَمٍ أَوْ شَيْءٍ إِلَيْهِ تَحْتَاجُ الْأُمَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٍ بِإِمْلَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَطَّ يَدِي] حَتَّى أَزْشِ الْخُدُشَ»<sup>٣</sup>.

قال طَلَّحَةُ: كُلُّ شَيْءٍ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، أَوْ خَاصٍّ أَوْ عَامٍّ، كَانَ أَوْ يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهُوَ عِنْدَكَ مَكْتُوبٌ<sup>١٩</sup>.

قال: «نعم، وسوى ذلك أن رسول الله ﷺ أُسْرِيَ إِلَيَّ فِي مَرَضِهِ يَفْتَحُ أَلْفَ بَابٍ [مِنَ الْعِلْمِ يَفْتَحُ مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ] وَلَوْ أَنَّ الْأُمَّةَ مُنْذُ قُبُضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اتَّبَعُونِي وَأَطَاعُونِي، لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ».

إلى أن قال: ثُمَّ قَالَ طَلَّحَةُ: لَا أَرَاكَ - يَا أبا الْحَسَنِ - أَجَبْتَنِي عَمَّا سَأَلْتُكَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْقُرْآنِ، أَلَا تُظْهِرُهُ لِلنَّاسِ؟ قَالَ: «يَا طَلَّحَةُ، عَمْدًا كَفَفْتُ عَنْ جَوَابِكَ».

٢. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٠٤.

١. الاستيعاب - المطبوع بهامش الإصابة ٢: ٢٥٣.

٣. الأرض: دية الجراحات.



قال: فأخبرني عما كُتِبَ عُمر وعثمان، أقرأنَّ كلَّه، أم فيه ما ليس بقُرْآن؟ قال: «يا طَلْحَة، بل قُرْآنُ كلَّه». قال: «إِنْ أَخَذْتُمْ بما فيه نَجَوْتُمْ مِنَ النَّارِ وَدَخَلْتُمْ الْجَنَّةَ، فَإِنْ فِيهِ حَجَّتُنَا وَبَيَّانٌ حَقًّا وَفَرَضٌ طَاعَتِيَا». قال طَلْحَة: حَسْبِي إِذَا كَانَ قُرْآنًا فَحَسْبِي.

قال طَلْحَة: فأخبرني عما في يَدَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ، وتأويله، وعلم الحلال والحرام، إلى مَنْ تَدْفَعُهُ، وَمَنْ صَاحِبُهُ بَعْدَكَ؟ قال عليه السلام: «إِنَّ الَّذِي أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَيْهِ وَصِيَّتِي وَأَوْلَى النَّاسِ بَعْدِي بِالنَّاسِ ابْنِي الْحَسَنِ، ثُمَّ يَدْفَعُهُ ابْنِي الْحَسَنِ إِلَى ابْنِي الْحَسَنِ، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ بَعْدَ وَاحِدٍ [مَنْ وَلَدَ الْحَسَنِ] حَتَّى يَرِدَ آخِرُهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَوْضُهُ [هَمَّ مَعَ الْقُرْآنِ] لَا يَفَارِقُونَهُ وَالْقُرْآنُ مَعَهُمْ لَا يَفَارِقُهُمْ»<sup>١</sup>.

وعن جابر عن أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْعِيَ أَنَّهُ جَمَعَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ غَيْرَ الْأَوْصِيَاءِ عليهم السلام»<sup>٢</sup>.

وعنه أيضاً، قال: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ [إِنَّهُ] جَمَعَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ كَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا كَذَّابٌ، وَمَا جَمَعَهُ وَمَا حَفِظَهُ كَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَالْأَنْعَمُ مِنْ بَعْدِهِ عليه السلام»<sup>٣</sup>.

ومما يؤيد ما ذكرنا من كَوْنِ الْقُرْآنِ مجموعاً على عهد النبي ﷺ، بل يدلُّ عليه، أَنَّ اسْمَ الْكِتَابِ لَا يَصِحُّ إِطْلَاقُهُ عَرَفًا إِلَّا عَلَى الْمَطَالِبِ الْمُجْتَمِعَةِ الْمُرتَبَةِ الْمُدَوَّنَةِ فِي أَوْرَاقٍ مُنْصُودَةٍ لِعَرَضٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا كَانَتْ مَطَالِبٌ مُتَفَرِّقَةٌ غَيْرَ مُدَوَّنَةٍ أَوْ مُدَوَّنَةٍ فِي أَوْرَاقٍ مُتَشَتَّتَةٍ، لَا يُسَمَّى كِتَابًا، وَلَا شُبْهَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ سَمَّى جَمِيعَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كِتَابًا بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾<sup>٤</sup>.

وكذا النبي ﷺ أَطْلَقَ عَلَى مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ لَفْظَ الْكِتَابِ عَلَى مَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمَعْتَبَرَةِ، بَلِ الْمُتَوَاتِرَةُ، مِنْهَا الرِّوَايَةُ الْمُتَّفَقَةُ عَلَيْهَا بَيْنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «إِنِّي مُخَلَّفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي» الْخَيْرُ<sup>٥</sup>. فَإِنَّهُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ

٣. بصائر الدرجات: ٢/٢٣.

٢. بصائر الدرجات: ١/٢١٣.

١. الاحتجاج: ١٥٣.

٤. البقرة: ٢/٢.

٥. معاني الأخبار: ١/٩٠، ٥، صحيح مسلم ٤: ١٨٧٣ و ١٨٧٤، سنن الترمذي ٥: ٣٧٨٦/٦٦٢ و ٣٧٨٨/٦٦٣، مسند أحمد ٣: ١٤، ١٧ و ٤: ٣٦٧، ٣٧١ و ٥: ١٨٢، ١٨٩، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، مصابيح السنة ٤: ٤٨٠٠/١٨٥ و ٤٨١٦/١٩٠.

آياتٍ وسُور مدوّنة مستحقّة لإطلاق اسم الكتاب عليها، ولا يمكن القول بأنّ هذا الإطلاق كان من باب المشاركة حيث<sup>١</sup> إنه كان يعلم أنّ بعد وفاته ﷺ يُجمَع ما أنزل عليه ويكون كتاباً، [لأنّا] نعلم أنّ التسمية كانت بعد تدوين مقدار من السُور والآيات المُنزلة وتحقّق مصداق الكتاب، ولذا لم يذكر في السور القصار المكّيّة التي كانت من أوائل ما نزل لفظ الكتاب.

والحاصل: أنّ لفظ الكتاب بعد ثبوت كونه حقيقة عرْفية في مطالب مرتبة مجموعة مدوّنة ظاهر في أنّ كلّ آية تضمّنته كقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أو ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أو ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أو ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾<sup>٢</sup> نزلت بعد تحقّق مصداقه وتدوين سور وآيات مرتبة مجموعة في أوراقٍ وصفحاتٍ أو أكثافٍ أو عُشبٍ مجتمعة، ولا يلزم الالتزام بنزول جميع الآيات والسُور قبل هذا الإطلاق حتّى يعترض عليه بأنّه خلاف الإجماع والمُتواتر من الأخبار من أنّ القرآن نزل متدرّجاً إلى قُبيل وفاته بأيّامٍ أو ساعاتٍ.

نعم، يلزم القول بتغيير مصداق الكتاب صُغراً وكُبراً، بسبب انضمام ما ينزل فيما بعد التدوين إليه تدريجاً، فيرجع الكلام إلى أنّ جميع القرآن في كلّ زمانٍ، وكتاب الله في كلّ وقتٍ، كان مقداراً من هذا المجموع الذي بأيدينا، وبضمّ الآيات شيئاً فشيئاً بلّغ ما بلّغ.

فما ذكره المرتضى رضوان الله عليه من أنّ القرآن كان عهد رسول الله ﷺ مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن، وأن جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدّة ختمات<sup>٣</sup>، حقّ غير مخدوش، فإنّ المُراد جمعه وختمه بمقدار المنزل في وقتٍ الختم والجمع، فإنّ تمام القرآن كان في وقتٍ الختم ذلك المقدار الذي ختموه، وليس مُراد ختم جميع ما أنزل إليه إلى حين وفاته.

ولَيْتَ شعري، كيف قال عمر في مرض النبي ﷺ بعد أمره بإحضار الدواة والكتف: إنّ الرجل ليُهْجَر، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ<sup>٤</sup> مع كون آيات الكتاب متفرقة بين الأصحاب، وعدم علم أحد غير أمير المؤمنين عليه السلام بجمعها، وعدم معرفة مثل زيد بن ثابت بها، حتّى نُقل عنه أنه جمعها بشهادة الشهود

١. في نسخة: بملاحظة. ٢. البقرة: ٢/٢، السجدة: ٢/٣٢، الزمر: ٤١/٣٩، يونس: ١/١٠.

٣. مجمع البيان ١: ٨٤.

٤. راجع: صحيح مسلم ٣: ١٢٥٧/١٦٣٧، مسند أحمد ١: ٢٢٢، مسند أبي يعلى ٤: ٢٤٠٩/٢٩٨، البداية والنهاية ٥:

٢٠٠، تاريخ الطبري ٣: ١٩٣، تاريخ ابن خلدون ٢: ٤٨٥.

إلا آية من سورة الأحزاب، فإنه لم يجدها إلا عند خزيمة بن ثابت، فأدخلها في القرآن بشهادته وحده، ولم يكن غيره مطلقاً عليها!

وكيف لم يعترض أحد على عمر بأنك لا تدري أين آيات الكتاب وعند من تكون؟ فعلم أن الكتاب كان جميعه معتمداً معلوماً مشهوراً بين الأصحاب.

[ثانياً]: وأما حكم العقل فيبانه: أنه لا شبهة أن جمع الآيات كان من أهم الواجبات لأن فيه حفظ أصلها من الضياع، وحفظ ترتيبها ونظمها من الاختلال مع أن عليها مدار شرع الإسلام، وأساس الدين والأحكام، ولم يكن للنبي ﷺ والمسلمين شغل واجب أهم منه إلا الجهاد، ولم يكن مزاحماً به في أغلب الأوقات مع كون أمير المؤمنين ﷺ وكثير من الصحابة الخلفين غالب الحضور، وعنده ﷺ، وكان جمع القرآن وترتيبه في غاية السهولة، فكيف يمكن القول بالتسامح والتساهل والتسويق من النبي ﷺ وأمر المؤمنين ﷺ والخلفين من الصحابة في مدة عشرين سنة، وتأخير أمير المؤمنين ﷺ هذا الواجب إلى بعد وفاة النبي ﷺ حتى يقع كثير من الآيات معرضاً للتغيير والضياع؟

والحاصل: أن جمع الكتاب وترتيب كل ما نزل منه في كل وقت وتدوينه ونشره، كان من أوجب الواجبات وأهم الأمور، لو صرح أنه كان من أعظم معجزات النبي ﷺ وأتم الدلائل على صدق النبوة وأساس الشريعة، ومأخذ الأحكام الإلهية، ولم يكن مزاحماً بأهم منه في أغلب الأوقات، مع أننا نعلم أنه كان أغلب أوقات النبي ﷺ والمؤمنين الصادقين مصروفاً في العبادات، وأي عبادة كان أهم من جمع القرآن الذي كان يجمعه وحفظه وحفظ الإسلام مع علمهم بكثرة المنافقين والمعاندين للذين مع إقدامهم في مشاق الأمور لحفظ الاسلام.

وكان جمع القرآن عليهم في غاية السهولة، خصوصاً على النبي ﷺ مع ملازمة أمير المؤمنين ﷺ لخدمته في الليل والنهار، فالتأمل المنصف يقطع بوقوع الجمع متدرجاً بتدرج النزول بأمر النبي ﷺ وخط أمير المؤمنين صلوات الله عليه، يقطع بجمع كثير من المؤمنين له وتأليف نسخ كثيرة منه، وعرضها على النبي ﷺ وعدم تساهل كثير منهم فيه، حيث لم يكن في زمان النبي ﷺ علم غير علم القرآن، ولم يكن للصحابة حظ وعبادة أكثر من تلاوة القرآن.

[ثالثاً]: وأما العادة والاعتبار فيبانه: أنه كان لعدة من أصحاب النبي ﷺ منصب كتابة الوحي، فلا بد

لهم بحسب العادة [من] تهينة لوازم الكتابة من القلم والعداد والأوراق، أو غير ذلك من الأشياء القابلة للكتابة، حتى لا يكون لهم تعطيل في موقع الحاجة والقيام بالوظيفة وحفظ الترتيب وإيراد كل سورة أو آية في محلها ومواريدها، حتى لا يحصل لهم تحيز وكلفة في الكتابة، وبعيد غاية أنهم كانوا يكتبون الآيات في أوراق متفرقة غير منسجمة، بحيث إذا أمرهم النبي ﷺ أن يضعوا آية كذا في موضع كذا، كانوا يدورون<sup>١</sup> تلك الأوراق ويفتشون الصفائف المُنشئة حتى يجدوا موقعها.

والحاصل: أن التأمل الصادق قاض بأن الكتاب الذين كان منهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد جمعوا جميع الآيات المنزلة على الترتيب الذي كان يأمرهم به النبي ﷺ، ولم يكونوا غير معتنين بجمعه وترتيبه، ولا يمكن القول بأنهم كتبوا الآيات في أشياء متفرقة من غير ترتيب ونظم إلى أن دعا الله نبيه ﷺ إلى جواره، وتقصص أبو بكر خلافته، وأتفق قتل كثير من القراء باليامة، ولم تكن في جميع المدة نسخة مجموعة من الكتاب العزيز بين المسلمين، وكان أربعة أو خمسة من الصحابة حافظين لجميع القرآن، وتالين له عن ظهر القلب، وغيرهم لم يكونوا مطلقين إلا بقليل من آياته، وكان عند كل منهم جزء قليل منه حتى صمم أبو بكر وعمر ليخوف ذهاب القرآن، على جمعه وترتيبه وكتابة نسخة منه، كما رواه بعض العامة.

روى البخاري عن زيد بن ثابت، قال: أرسل [إلي] أبو بكر بعد مقتل أهل اليامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحز<sup>٢</sup> يوم اليامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحز بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير. فلم يزل [عمر] يراجعي حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك [رجل] شاب عاقل لا تهتمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن واجمعه. قال زيد: فوالله لو كلموني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ. قال: هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعي حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع

٢. استحز القتل: اشتد.

١. كذا. ومراده يبحثون، والكلمة عامية عراقية تؤذي هذا المعنى.

القرآن أجمعه من الغضب والخاف<sup>١</sup> وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»<sup>٢</sup> حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر<sup>٣</sup>.

وعن الليث بن سعد، قال: أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشهادة عدلين، وإن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع خزيمة بن ثابت، فقال: اكتبوها، فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين، فكتب. وإن عمر أتى بأية الرجم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما بما قضيا من اللذة نكالا من الله والله عزيز حكيم)<sup>٤</sup> فلم يكتبها لأنه كان وحده<sup>٥</sup>.

وعن ابن أبي داود، قال: قديم عمر وقال: من [كان] تلقى شيئا من القرآن من رسول الله ﷺ فليأت به. وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والغضب، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شيهان<sup>٦</sup>.

وعن [ابن] أبي داود: أن عمر سأل عن آية من كتاب الله، فقيل: كانت مع فلان، قُتل يوم اليمامة. فقال: إنا لله، وأمر بجمع القرآن، فكان أول من جمعه<sup>٧</sup>.

أقول: لعمري، إن في هذه الأخبار تضعيف الثقل الأكبر وثوهم نبوة خاتم النبيين ﷺ وتخریب أساس الدين، وتلقين المُلحدين الحجة في إنكار تواتر الكتاب المبين، وليس ببعيد من

١. الغضب: جمع العصب، وهي جريدة التخل المستقيمة، يُكشط خوصها، واليخاف: جمع اللخفة: وهي حجر أبيض عريض رقيق. ٢. التوبة: ١٢٨/٩.

٣. صحيح البخاري ٦: ٨/٣١٤، الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٠٣.

٤. من الثابت أن القرآن الكريم نقل إلينا بالتواتر، وقد نقلته الجماعة عن الجماعة وذلك مقطوع به عند جميع أهل الإسلام، وآية الرجم المزعومة منقولة بالأحاد، بدليل قوله في آخر الحديث (فلم يكتبها لأنه كان وحده) والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وعليه فإن أمثال هذه الروايات لا يؤخذ بها في إثبات القرآن الكريم، فإن أمكن حملها على أحد وجوه الحمل وإلا فليضرب بها الجدار.

وقد حمل ابن حزم في (المحلى) آية الرجم على نسخ التلاوة، أي مما نسخ لفظه وبقي حكمه. هو حمل باطل، لأنها لو كانت منسوخة التلاوة لما جاء عمر ليكتبها في المصحف. وفي برهان الزركشي ٢: ٤٣ أن ابن ظفر أنكر في (البيين) عدها مما نسخ تلاوة وقال: لأن خبر الواحد لا يثبت القرآن. وحملها أبو جعفر النحاس على السنة حيث قال: ليس حكمها حكم القرآن الذي نقله الجماعة عن الجماعة، لكنها سنة ثابتة. راجع: سلامة القرآن من التحريف: ٦٤.

٥. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٠٦. ٦. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٠٥.

٧. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٠٤.

المُسْتَضْعَفِينَ لِلثَّقَلِ الْأَصْغَرِ وَالْمُنْكَرِينَ لِإِمَامَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُعْرِضِينَ عَنْ أَهْلِ الذِّكْرِ وَالْحُجَجِ الْمَعْصُومِينَ.

وَلَيْتَ شِغْرِي، مَا أَلْجَأَ عَمْرَ وَأَبَا بَكْرٍ إِلَى التَّوَسُّلِ بِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ الشَّابِّ الْحَدَّثِ فِي جَمْعِ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْآيَاتِ، وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَهُوَ بِاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ أَعْلَمُ النَّاسِ بِكِتَابِ اللَّهِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٩

وَمَا السَّبَبُ فِي اعْتِمَادِهِمْ بِشَهَادَةِ شَاهِدَيْنِ فِي كَوْنِ شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا فِي آيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ بَرَاءَةِ فَاتَكُونُوا فِيهِ بِشَهَادَةِ خُزَيْمَةَ وَلَمْ يُرَاجِعُوا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مَعَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ جَمِيعُ الْقُرْآنِ، وَكَانَ أَصْدَقَ وَأَوْثَقَ مِنْ خُزَيْمَةَ وَسَائِرِ الْأُمَّةِ؟

وَكَيْفَ قَالَ عَمْرُ بَعْدَ سُؤَالِهِ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَاطَّلَاعِهِ عَلَى كَوْنِهَا عِنْدَ قَتِيلِ الْيَمَامَةِ: إِنَّا لِلَّهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْآيَاتِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ آيَاتِ الْكِتَابِ مِنَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ؟

## الطَّرْفَةُ السَّادِسَةُ

فِي أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ جُمِعَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ

أَحَدُهَا كَانَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ الْحَاكِمُ فِي (الْمُسْتَدْرَكِ): جُمِعَ الْقُرْآنُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَحَدُهَا بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَدَلَ بِحَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ<sup>١</sup>.

الثَّانِيَةُ: بِحَضْرَةِ أَبِي بَكْرٍ - وَأَسْتَدَلَ بِرَوَايَةِ الْبُخَارِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، مِنْ بَلُوغِ خَبَرِ مَقْتَلِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، وَقَوْلِ عُمَرَ: أَنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ .. إِلَى آخِرِهِ<sup>٢</sup> - وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الطَّرْفَةِ السَّابِقَةِ.

وَعَنِ الْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ فِي كِتَابِ (فَهْمُ السَّنَنِ): كِتَابَةُ الْقُرْآنِ لَيْسَتْ بِمُحَدَّثَةٍ، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُ بِكِتَابَتِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُفَرَّقًا فِي الرِّقَاقِ وَالْأَكْتِافِ وَالْعُسْبِ، فَإِنَّمَا أَمَرَ الصَّدِيقَ بِتَشْخِيجِهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، مَجْتَمِعًا، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ أَوْرَاقٍ وَجِدَتْ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا الْقُرْآنُ مُتَشَرِّعًا فَجَمَعَهَا جَامِعًا،

وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء.

قال: فإن قيل: كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال؟

قيل: لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ونظم معروف، قد شاهدوا تلاوته من النبي ﷺ عشرين سنة، فكان تزوير ما ليس منه مأموناً، وإنما [كان] الخوف من ذهاب شيء من صُحفه.

وقد تقدّم في حديث [زيد] أنه جمّع القرآن من العُشب والخِفاف. وفي رواية: والرقاع، وفي أخرى: من قطع الأديم، وفي أخرى: والأكتاف، وفي أخرى: والأضلاع، وفي أخرى: والأفتاب<sup>١</sup>.

قال الحاكم: والجمع الثالث هو ترتيب السور في زمن عثمان<sup>٢</sup>.

روى البخاري عن أنس، أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرك [هذه] الأمة قبل أن يختلِفوا [في الكتاب] اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد ابن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّحط القرشيّين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كلّ أفق بمُصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مُصحف أن يُحرق.

قال زيد: ففقدت آية من الأحزاب حين نسَخنا المُصحف، قد كنتُ أسمعُ رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتَمَسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾<sup>٣</sup>.. الآية، فالتَحَنَّاها في سورتها في المُصحف<sup>٤</sup>.

وقال جمع من العامة: إن جمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مُصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، مُحْتَجّاً بأنّه

٢. مستدرک الحاكم ٢: ٢٢٩.

١. الإتقان في علوم القرآن ١: ٢٠٦.

٣. الأحزاب: ٢٣/٣٣. ٤. صحيح البخاري ٦: ٣١٥/٩.

نَزَلَ بَلَّغْتِهِمْ<sup>١</sup>.

وقال الحارث المَحَاسِبِي: المشهور أنَّ جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنَّما حَمَلَ عثمان الناس على القراءة بوجهٍ واحدٍ على اختيار وَقَعَ بيْنَهُ وبين من شَهِدَهُ من المُهاجرين والأنصار لَمَّا خَشِيَ الْفِتْنَةَ عند اختلاف أهل العراق والشَّام في حروف القراءات<sup>٢</sup>.

أقول: الظاهر من بعض الروايات، وجمع من العلماء، أنَّ الجمعَ الذي وَقَعَ في زمان النبي ﷺ كان مُشْتَبِلاً على العلوم المرتبطة بالقرآن، من بيان شأن نزول الآيات، ومن التفسيرات والتأويلات المأخوذ من النبي ﷺ ووجوه القراءات، كما نقل عن ابن سيرين أنَّه قال: بلغني أنَّه كَتَبَهُ عليّ ﷺ على تَنزيله، ولو أُجِيبَ إلى ذلك الكتاب لوجد فيه علمٌ كثير<sup>٣</sup>. وقال: إنَّه كَتَبَ في مُصَحِّفِهِ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ<sup>٤</sup>.

وقال بعض العامة: قد كان بعض الصحابة يَدْخُلُونَ في قراءتهم شيئاً من التفسير إيضاحاً، لأنَّهم مُحَقِّقُونَ فيما تَلْقَوُهُ من رسول الله ﷺ قرأنا، فهم آمنون من أن يَلِيسَ بعضُ ذلك ببعض، وربما كان يَكْتُبُهُ بعضهم<sup>٥</sup>، كقراءة ابن عباس: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ»<sup>٦</sup> ثمَّ يزيد<sup>٧</sup> (في مواسم الحج)<sup>٨</sup>.

أقول: ولعلَّ قراءة بعض الآيات المنسوبة إلى عبد الله بن مسعود من هذا القبيل، كقراءته قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» فَأَخْتَلَفُوا «فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»<sup>٩</sup>. ثمَّ إنَّه لَمَّا كَانَ في هذا الجمع فضائح القوم؛ أَسْقَطَ أَبُو بَكْرٍ شَأْنَ نَزُولِ الآيات وتفسيرها وتأويلها، وجمعه ثانياً مع إثبات وجوه القراءات، ثمَّ في زمانِ عُثْمَانَ لَمَّا كَثُرَ الاختلاف جمعه ثالثاً على قراءة زيد بن ثابت، وحمل الناس على قراءته، وأسقط سائر القراءات وأحرق مصاحف الكُمَّلِينَ من قراء الصحابة كعبد الله ابن مسعود وأَبِي بَن كَعْبٍ وغيرهما.

ونُقِلَ عن ابن مسعود ما يَقْرُبُ من هذا المضمون: لو كان لي مثل ما لهم لَفَعَلْتُ بِصُحُفِهِمْ مثل ما

١. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢١١.

٢. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٠٤.

٣. البقرة: ١٩٨/٢.

٤. صحيح البخاري ٦: ٤٤/٥٩.

١. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢١٠.

٢. الاستيعاب - المطبوع بهامش الإصابة ٢: ٢٥٣.

٣. النشر في القراءات العشر ١: ٣٢.

٤. أي بعد الآية للتفسير والايضاح.

٥. البقرة: ٢١٣/٢.



فعلوا بصحيفتي، ولقد قرأت على رسول الله ﷺ سبعين سورة، وكان زيد بن ثابت في صلب أبيه الكافر - أو قال: - كان يلعب مع الصبيان<sup>١</sup>.

## الطَّرْفَةُ السَّابِعَةُ

### في أن ترتيب سور القرآن وآياته كان بأمر الله ووحيه

لا ريب في أن آيات الكتاب العزيزة وسوره ترتيباً مَرَضِيّاً عند الله، ثابتاً في اللوح المحفوظ، مُنْزَلاً على النبي ﷺ بواسطة جبرئيل عليه السلام، لأنَّ حُسْنَ التَّرتيب والنَّظْمِ مِمَّا له مَدْخَلٌ تامٌّ في حُسْنِ الكتاب، وفي القرآن المجيد الذي هو أَحْسَنُ الكُتُبِ، ومُطَالِيَتُهُ أَحْسَنُ الحديث، والعلومُ الْمُنْطَوِيَّةُ فيه أَشْرَفُ العلوم وأَعْلَاهَا، وَيَبَيِّنُهُ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فَوْقَ طَوَقِ الْبَشَرِ، لَأَبْدَ مِنْ أَنْ يَكُونَ تَرْتِيبُهُ عَلَى أَحْسَنِ الوجوه، وَنَظْمُهُ أَحْسَنَ النِّظَامِ، بَلْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ حُسْنَ نَظْمِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَسُورِهِ مِنْ وجوه إعجازه، وَمِنْ بَدَائِعِ أَسْلُوبِهِ، وعلى هذا لا بَدَّ أَنْ يَكُونَ نَظْمُهُ وَتَرْتِيبُهُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ مِنَ الْبَشَرِ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ إِلَى ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ.

ومن الواضح أنَّ الْكِتَابَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْمَطَالِبِ الْمُرْتَبَةِ الْمُنْظَمَةِ، فإِذَا أُلْفَ أَحَدُ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَيُؤَيِّدُهَا وَرَتَّبَهَا فِي دَفْتَرٍ، أَوْ جَمَعَ شَخْصٌ حُطْبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي دِيْوَانٍ، مَنْظُماً وَمُرْتَبّاً، لَا يُنسَبُ ذَلِكَ الدَّفْتَرُ وَالِدِيْوَانُ إِلَى النَّبِيِّ، وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، بَلْ يُضَافُ إِلَى الْمُؤَلِّفِ وَالْجَامِعِ، وعلى هذا يَدُلُّ إِبْطَالُ كِتَابِ اللَّهِ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، وَالرَّوَايَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الْمُرْتَبَةِ الْمُنْظَمَةِ، عَلَى أَنَّ عِلْمَهَا وَعِبَادَاتَهَا وَنَظْمَهَا وَتَرْتِيبَهَا وَتَأْلِيفَهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا مِنْ خَلْقِهِ.

ويدلُّ على ذلك ما روي عن عثمان بن أبي العاص، قال: كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ إِذْ شَخَّصَ بَصَرَهُ ثُمَّ صَوَّته، ثُمَّ قَالَ: أَتَانِي جَبْرَائِيلُ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعُ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا الْمَوْضِعَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾<sup>٢</sup> إِلَى آخِرِهَا<sup>٣</sup>.

٢. النحل: ١٦/٩٠.

١. مستدرك الحاكم ٢: ٢٢٨.

٣. مسند أحمد ٤: ٢١٨، الإتيان في علوم القرآن ١: ٢١٢.

وما روي من أن جبرئيل عليه السلام لما أتى بآية: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ قال: ضَعَهَا بَيْنَ آيَتِي الرِّبَا وَالَّذِينَ. وفي رواية: ضَعَهَا بَعْدَ مَائَتَيْنِ وَتَمَانِينَ آيَةً مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.<sup>٢</sup>

وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَعْطَيْتُ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّنْعَ الطَّوَالَ»<sup>٣</sup>، وغير ذلك من الروايات. ومِمَّا ذَكَرْنَا ظَهَرَ أَنَّهُ بَعْدَ مَا ثَبَتَ أَنَّ جَمْعَ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ كَانَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَأَمْرُهُ، لَا بَدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِكَوْنِ تَرْتِيبِ جَمِيعِ آيَاتِهِ وَسُورِهِ مُطَابِقًا لِلتَّرْتِيبِ الَّذِي أَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم، وَمُوَافِقًا لِمَا نَزَلَ بِهِ جِبْرِئِيلُ عليه السلام، فَكَلَّمَا نَزَلَ مِنَ الْآيَاتِ وَالسُّورِ كَانَ يَأْمُرُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم كِتَابَ الْوَحْيِ بِكِتَابَتِهَا فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي يَأْمُرُ جِبْرِئِيلُ بِوَضْعِهَا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَمَا كَانَ مَأْمُورًا بِتَبْلِيغِ أَصْلِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ إِلَى الْأُمَّةِ، كَانَ مَأْمُورًا بِتَبْلِيغِ نَظْمِهَا وَتَرْتِيبِهَا إِلَيْهِمْ، وَلَا يُمْكِنُ مِنْهُ التَّقْصِيرُ فِي التَّبْلِيغِ وَأَدَاءِ وَظِيفَةِ الرِّسَالَةِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ حَافِظًا لِلآيَاتِ وَالسُّورِ، كَانَ عَالِمًا بِتَرْتِيبِهَا وَنَظْمِهَا، وَكُلُّ مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ فِي عَصْرِهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ جَمَعَهُ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمَأْمُورِ بِهِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَعْرِضُونَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كُلَّ مَا حَفِظُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ جَمَعُوهُ، فَلَوْلَمْ يَكُنْ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُنَزَّلِ لَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُعَيِّرُهُ.

فَتَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَا كَتَبَهُ كِتَابُ الْوَحْيِ، وَكُلُّ مَا جَمَعَهُ الصَّحَابَةُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، لَا جَرَمَ كَانَ مُوَافِقًا فِي النِّظْمِ وَالتَّرْتِيبِ لِمَا كَانَ لَهُ مِنَ النِّظْمِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ الزَّيْنَرِ، قَالَ: قُلْتُ لِعِثْمَانَ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾<sup>٥</sup> قَدْ نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى فَلَمْ تَكْتُبْهَا أَوْ تَدْعُهَا؟ قَالَ: يَا بَنَ أَخِي لَا أُعَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ.<sup>٦</sup>

وَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ عُمَرَ، قَالَ: مَاسَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْكَلَالَةِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ»<sup>٨</sup> الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ.<sup>٩</sup>

١. البقرة: ٢٨١/٢. ٢. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢١٧.

٣. تفسير الرازي ٧: ١٠٤. ٤. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢١٨.

٥. البقرة: ٢٤٠/٢. ٦. في المصدر: ولم. ٧. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢١٣.

٨. قال الجزري في شرح الحديث: أي التي نزلت في الصيف، وهي الآية التي في آخر سورة النساء، والتي في أولها

نزلت في الشتاء. النهاية ٣: ٦٨. ٩. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢١٣.

وما رَوَتْهُ عائشة من أن النبي ﷺ كان يقرأ في الليل سورة البقرة، وآل عمران، والنساء.<sup>١</sup>  
وقال السيد المرتضى رضوان الله عليه: إن القرآن كان يُدرس ويُحفظ جميعه في ذلك الزمان، أي عصر النبي ﷺ - إلى أن قال: - وإن جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات، وكل ذلك يدلُّ بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مبتور ولا مبثوث.<sup>٢</sup>  
أقول: كل ذلك يورث القطع بأن ترتيب الآيات والسور لم يكن بأهواء الصحابة وسلاقتهم، بل كان بوحي الله وأمر رسوله ﷺ.

## الطَّرْفَةُ الثَّامِنَةُ

في أن ترتيب القرآن ليس بترتيب

النزول بل لمناسبات لطيفة

لا شُبْهَةٌ في أن الترتيب المُقرر عند الله، المُنزَل على النبي ﷺ بين الآيات والسور لمناسبات لطيفة، وروابط مُتينة، ونُكَّتْ بديعة، وحِكَمٌ بليغة لا يعلمُ جميعها إلا الله والراسخون في العلم، ولا يُدركها إلا مَنْ نَوَّرَ الله قلبه، وخَصَّ بالانقياد رؤيه، وهَبَ له فَهْمُ القرآن، وباشَرُ روحه روح الإيمان.  
قال بعضُ العُلَمَاء: أَكْثَرُ لَطَائِفِ القرآن مُودَعَةٌ في الترتيبات والروابط.<sup>٣</sup>  
وقال آخر: من تأمل في لَطَائِفِ نَظْمِ السور<sup>٤</sup> وفي بدائع ترتيبها عَلِمَ أن القرآن كما أنه مُعْجَزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وشَرَفِ مَعَانِيهِ، فهو أيضاً مُعْجَزٌ بِسَبَبِ تَرْتِيبِهِ ونَظْمِ آيَاتِهِ.<sup>٥</sup>  
وقال آخر: ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة مُتَسِقَةً المَعَانِي، مُنْتَظِمَةً المَعْنَى، عَظِيمٌ.<sup>٦</sup>

هذا، ولعمري أن ما ذكرته بالنظر إلى حكمة الله البالغة، وعدم إمكان وضعه الشيء في غير موضعه، وترجيحه أمراً بلا مُرْجَح، من أَوْضَحِ الواضحات وأَيِّنِ البَيِّنات، غني عن الاستدلال والتأييد بأقوال

١. مسند أحمد ٦: ٩٢. ٢. مجمع البيان ١: ٨٤. ٣. الإبتقان في علوم القرآن ٣: ٣٦٩.

٤. في الإبتقان: وقال الإمام الرازي في سورة البقرة: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة.

٥. الإبتقان في علوم القرآن ٣: ٣٧٠. ٦. الإبتقان في علوم القرآن ٣: ٣٦٩.

الرجال، والعجب مع ذلك من بعض حيث قال<sup>١</sup>: عِلِمُ الْمُنَاسِبَةِ عِلْمٌ حَسَنٌ، لكن يُشْتَرَطُ فِي حُسْنِ ارتباطِ الكلامِ أَنْ يَقَعَ فِي أَمْرِ مُتَّحِدٍ، مُرْتَبِطٍ أَوَّلُهُ بِآخِرِهِ، فَإِنْ وَقَعَ عَلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، لم يقع فيه ارتباط، وَمَنْ رَبطَ ذلكَ فهو مُتَكَلِّفٌ بما لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِرَبْطِ رَكِيكٍ يُصَانُ عَنْ مِثْلِهِ حُسْنُ الْحَدِيثِ، فَضْلاً عَنْ أَحْسَنِهِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ فِي ثِيَفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فِي أَحْكَامٍ مُخْتَلِفَةٍ شَرَعَتْ لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، وما كان كذلك لا يَتَأْتِي رَبْطُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ<sup>٢</sup>، انتهى.

فإن مثل هذا الكلام في ترتيب كلام الله لا ينبغي صدوره من عاقل، فَضْلاً عَنْ فاضِلٍ، إذ من الواضح أَنَّ كُلَّ مَنْ أَلَفَ كِتَاباً مُشْتَبِهاً عَلَى مَطَالِبٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقَضَايَا مُتَشَتِّتَةٍ، يلاحظ البتة في ترتيبها مناسبةً وارتباطاً، فكيف بالحكيم المُتَعَالِ!

فإنَّ الْمُنَاسَبَاتِ بَيْنَ الْقَضَايَا الْمُتَفَرِّقَةِ وَالْأَحْكَامِ الْمُخْتَلِفَةِ كَثِيرَةٌ جَدّاً خصوصاً في نَظَرِ مَنْ كَانَ عَالِماً بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَجِهَاتِ الْأُمُورِ، نعم فَهَمُّ غَيْرِ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ الرَّبَّانِيِّينَ قَاصِرٌ عَنْ ذِكْرِ جَمِيعِ الْمُنَاسَبَاتِ اللَّطِيفَةِ الْمَنْظُورَةِ لِلطَّيْفِ الْخَبِيرِ، ولذا لم يَحْمِ حَوْلَهُ الْمُفَسِّرُونَ، ولم يَخْضُ فِيهِ الْمُتَبَحِّرُونَ.

نعم، تَكَلَّفَ قَلِيلٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَامَّةِ لِيَبَانِهَا، وَأَجَالُوا الْفِكْرَ فِي هَذِهِ الْعَرِصَةِ مَعَ عَدَمِ كَوْنِهِمْ مِنْ فُرْسَانِهَا، وَأَيْنَ لَهُمُ التَّمَكُّنُ فِي هَذَا الْقَصْرِ الْمَشِيدِ، وَأَيْنَ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ؟ حَيْثُ إِنَّهُمْ مَا تَقَفُوا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتَيْنِ، وَمَا اتَّخَذُوا سَبِيلاً مَعَ الْهَدَاةِ الرَّاسِخِينَ.

وَأَيْنِ وَإِنْ سَلَكَتُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ الزَّلَيقَ، وَغَضَضْتُ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْعَمِيقِ، وَخُضَّضْتُ كَالَّذِي خَاضُوا، وَأَفْضَضْتُ مِنْ حَيْثُ أَفَاضُوا، غَيْرَ أَنِّي لِمَعْرِفَتِي بِقُصُورِي مَا غَضَضْتُ عَلَى مَا نَلَيْتُ بِضُرْسٍ قَاطِعٍ، وَمَا حَكَمْتُ فِيمَا قُلْتُ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْوَاقِعُ، بَلْ أَبَدَيْتُ مَا يَلِيقُ بِالظَّنِّ وَالْاحْتِمَالِ لِثَلَايَئِهِمْ فِي تَرْتِيبِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مَا تَوَهَّمَهُ هَذَا الْبَعْضُ مِنَ الْأَمْرِ الْمُحَالِ.

قال الشيخ ولي الدين الميولي: قد وَهِمَ مَنْ قَالَ: لَا يُطَلَّبُ لِلآيِ الْكَرِيمَةِ مُنَاسِبَةٌ، لِأَنَّهَا عَلَى حَسَبِ الْوُقَائِعِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَفَصَلَ الْخُطَابِ أَنَّهَا عَلَى حَسَبِ الْوُقَائِعِ تَنْزِيلاً، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيباً وَتَأْصِيلاً، فَالْمُصَحِّفُ عَلَى وَفْقِ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مُرْتَبَةً سُورُهُ كُلُّهَا وَأَيَّاتُهُ بِالتَّوْقِيفِ كَمَا أُنْزِلَ جَمْعاً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ، وَمِنْ الْمُعْجَزِ الْبَيِّنِ أَسْلُوبُهُ وَنُظْمُهُ الْبَاهِرُ، وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْحَثَ أَوَّلُ

١. هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

٢. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٣٧٠.

كل شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جَمٌّ، وهكذا في السور، يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له<sup>١</sup>.

قال بعض العلماء: سورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الاسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وإقامة الدليل عليه، وآل عمران مكتملة لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها ذكر المُتَشَابِه لما تمسك به النصارى، وفي البقرة ذكر أن الحَجَّ مشروع وأمر باتمامه بعد الشروع، وأوجب الشروع فيه في آل عمران<sup>٢</sup>.

وكان خطاب النصارى في آل عمران أكثر، كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر؛ لأن التوراة أصل والانجيل فرع لها، والتبى ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب، ولهذا كانت السور المكينة فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء، فخطب به جميع الناس، والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخطبوا بها أيها الذين آمنوا، ويا أهل الكتاب، ويا بني إسرائيل.

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس، وهي نوعان: مخلوقة لله ومقدورة لهم كالنسب والصهر، ولذا افتتحت بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخْلَقُكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾<sup>٣</sup> فانظر هذه المناسبة العجيبة في الافتتاح وبراعة الاستهلال حيث تضمنت الآية المفتتح بها، ما أكثر السورة في احكامه، من نكاح النساء ومحرّماته والموارث المتعلقة بالأرحام، فإن ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم، ثم خلق زوجته منه، ثم بثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء كثيرة.

وأما المائدة فسورة العقود، تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين، والوفاء بعهود الرُّسل، وما أنجز على الأمة، وبها تم الدين، فهي سورة التكميل لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذي هو [من] تمام الإحرام، وتحريم الخمر الذي هو [من] تمام حفظ العقل والدين، وعقوبة المعتدين من

١. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٣٧٠.

٢. في الإنفاق: النصارى، وأوجب الحج في آل عمران، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر باتمامه بعد الشروع

٣. النساء: ١/٤.

فيه.

السُّرَّاق والمُحَارِبِينَ، الذي هو من تَمَامِ حِفْظِ الدِّمَاءِ والأَمْوَالِ، وإِحْلَالِ الطَّيِّبَاتِ الذي هو من تَمَامِ عِبَادَةِ اللَّهِ، ولهذا ذَكَرَ فيها ما يَخْتَصُّ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كالْوُضُوءِ، وَالتَّيَمُّمِ، وَالحَكْمِ بِالْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ ذِي دِينٍ.

ولهذا أَكْثَرَ فيها من ذِكْرِ الإِكْمَالِ والإِتِمَامِ، وَذَكَرَ فيها أَنَّ مَنْ ارْتَدَّ عَوَّضَ اللَّهُ بِخَيْرٍ مِنْهُ، وَلَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ كَامِلًا، ولهذا وَرَدَ أَنَّهَا آخِرُ سُورَةِ نَزَلَتْ، وَفِيهَا مِنْ إِيَّاهُ الْخَتْمُ وَالتَّمَامُ، وَهَذَا التَّرْتِيبُ بَيْنَ هَذِهِ السُّورِ الْارْبَعِ الْمَدَنِيَّاتِ [مَنْ] أَحْسَنَ التَّرْتِيبِ<sup>١</sup>.

وَقَالَ بَعْضُ آخَرٍ: إِذَا عَتَبْتَ إِفْتِاحَ كُلِّ سُورَةٍ وَجَدْتَهُ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا خَتِمَ بِهِ السُّورَةُ قَبْلَهَا، ثُمَّ هُوَ يَخْفَى تَارَةً وَيُظْهَرُ أُخْرَى، كَافْتِتَاحِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِالْحَمْدِ، فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخَتَامِ الْمَائِدَةِ مِنْ فَصْلِ الْقَضَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>٢</sup>.

وَكَافْتِتَاحِ سُورَةِ فَاطِرٍ بِالْحَمْدِ، فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخَتَامِ مَا قَبْلَهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾<sup>٣</sup> كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَطَّعَ ذَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>٤</sup>.

أَقُولُ: الْغَرَضُ مِنْ نَقْلِ هَذِهِ الْعِبَائِرِ وَالْوُجُوهِ هُوَ التَّأْيِيدُ، وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْمُدْعَى لِيُضَوِّحَهُ غَنِيٌّ عَنْهُ.

## الطَّرْفَةُ التَّاسِعَةُ

### فِي أَسَامِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ

### وَوَحْيِهِ وَمُنَاسَبَةِ تَسْمِيَّتِهِ بِالْقُرْآنِ

قَالَ بَعْضُ<sup>٥</sup>: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى كِتَابَهُ الْعَزِيزَ بِخَمْسَةِ وَخَمْسِينَ اسْمًا<sup>٦</sup>. كَالْقُرْآنِ، وَالدَّكْرِ، وَأَحْسَنَ الْحَدِيثِ، وَغَيْرِهَا. وَالظَّاهِرُ أَنَّ جَمِيعَهَا أَلْفَابٌ وَأَوْصَافٌ لَهُ، إِلَّا الْقُرْآنَ فَإِنَّ الْأَقْوَى وَالْأَظْهَرُ أَنْ يَكُونَ عَلَمًا لَهُ بِوَضْعِ اللَّهِ تَعَالَى.

٣. سِبَا: ٥٤/٣٤.

٢. الزمر: ٧٥/٣٩.

١. الإِنْفَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ٣: ٣٨١.

٤. الإِنْفَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ٣: ٣٨٠، وَالْآيَةُ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ٤٥/٦.

٥. الْقَائِلُ: هُوَ الْقَاضِي أَبُو الْمُعَالِي عَزِيزِي بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَعْرُوفُ بِشَيْذَلَةَ، صَاحِبُ كِتَابِ (الْبِرْهَانِ فِي مَشْكَلَاتِ الْقُرْآنِ) وَالمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٩٤. رَاجِعْ: شَذَرَاتُ الذَّهَبِ ٣: ٤٠١، كَشَفُ الطُّنُونِ ١: ٢٤١.

٦. الْبِرْهَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ١: ٣٤٣، الإِنْفَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ١: ١٧٨.

٦٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

وقد ذكروا في اشتقاقه، ووجه مناسبه وجوهاً، والأظهر الأشهر أن يكون القرآن مَهْمُوزاً، مِنْ الْقَرْءِ بمعنى الجَمْع، ومنه: قَرَأْتُ المَاءَ في الحَوْضِ: أي جَمَعْتُهُ، وعلى هذا يكون وَجْهٌ مناسبٌ التَّسمية كونه جامعاً لِمُمرات جميع الكتب السالفة المُنزلة<sup>١</sup>.

قالوا: إن الله جَمَعَ جميع الكتب السماوية في التَّوراة والإنجيل، وجمع جميع ما في التَّوراة والإنجيل في القرآن<sup>٢</sup>.

ويشهد له ما روي عن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيَتْ السُّورَ الطَّوَالُ مكانُ التَّوراة، وأُعْطِيَتْ المِثْنِ مكانُ الإنجيل، وأُعْطِيَتْ المِثْنِ مكانُ الزَّبُور، وَفُضِّلَتْ بِالْمُقْصَلِ ثَمَانِ وَسِتُونَ<sup>٣</sup> سورة»<sup>٤</sup>.

والأوفى والأنسب كونه جامعاً لجميع أنواع العلوم كلها، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ<sup>٥</sup>﴾، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ<sup>٦</sup>﴾. وعنه ﷺ: «مَنْ فَهِمَ الْقُرْآنَ فَسَّرَ [به] جَمَلَ الْعِلْمِ»<sup>٧</sup>.

وقال ﷺ في وَصَفِ الْقُرْآنِ: «ظَاهِرُهُ حُكْمٌ، وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ، ظَاهِرُهُ أَيْقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَهُ ثُخُومٌ<sup>٨</sup>، وَعَلَى ثُخُومِهِ ثُخُومٌ، لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ، فِيهِ مَصَابِيحُ الْهُدَى وَمَنَارُ الْحِكْمَةِ»<sup>٩</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «[قد] وَلَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَعْلَمُ كِتَابَ اللَّهِ، وَفِيهِ بَدْءُ الْخَلْقِ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ خَبَرُ السَّمَاءِ وَخَبَرُ الْأَرْضِ، وَخَبَرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَخَبَرُ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، أَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفِّي، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ<sup>١٠</sup>».

وعن ابن عباس، قال: لَوْ ضَلَّ مِنَّا عِقَالٌ كُنَّا نَجِدُهُ بِالْقُرْآنِ<sup>١١</sup>، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْبَارِ.

١. الالتقان في علوم القرآن ١: ١٨٢.

٢. في تفسير العياشي: سبع وستين.

٣. النحل: ٨٩/١٦.

٤. الأنعام: ٣٨/٦.

٥. إحياء علوم الدين ١: ٣٤٢.

٦. التَّخُم: منتهى كل قرية أو أرض، يقال: فلان على تخم من الأرض، والجمع ثُخُوم، مثل: فُلْسٍ وفُلُوسٍ.

٧. في العياشي: ومنازل.

٨. في العياشي ١: ١٠. تفسير العياشي ١: ١٧٤.

٩. الكافي ١: ٨/٥٠ والآية من سورة النحل: ٨٩/١٦.

١٠. نحوه في الالتقان في علوم القرآن ٤: ٣١٣٠.

١١. نحوه في الالتقان في علوم القرآن ٤: ٢٨.

١٢. الكافي ٢: ١٠/٤٣٩، تفسير العياشي ١: ١٠٢/١٠٧.

## الطَرْفَةُ الْعَاشِرَةُ

فِي أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي بَأْيَدِينَا هُوَ الْكِتَابُ الْمَنْزَلُ  
الْمَجْمُوعُ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِلا تحريف  
وتغيير وزيادة ونقصان.

الحَقُّ أَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ الَّذِي بَأْيَدِينَا، هُوَ ذَلِكَ الْكِتَابُ الْمَنْزَلُ، الْمَجْمُوعُ، الْمُرتَّبُ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَصْرِهِ بِلا تحريفٍ وتغيير، وزيادةٍ ونقصان، لِنَوَاتِرِهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كُلًّا وَأَبْعَاضًا وَتَرْتِيبًا وَقِرَاءَةً، وَنِهَايَةً اهْتِمَامِ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً، خُصُوصًا عُلَمَاءَهُمْ وَقُرَّاءَهُمْ، فِي حِفْظِهِ، وَتِلَاوَتِهِ، وَالبَحْثِ عَنْهُ، لِأَنَّهُ أَسَاسُ الْإِسْلَامِ، وَأَعْظَمُ مُعْجِزَاتِ سَيِّدِ الْأَنَامِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَأْخَذُ الْأَحْكَامِ، وَمَنْشُورُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ، وَنُورُهُ الْمُبِينُ فِي أَرْضِهِ.

عَنْ السَّيِّدِ الْمُتَرْضَى، عَلَى مَا حَكِي عَنْهُ فِي جَوَابِ مَسَائِلِ الطَّرَائِيسِيَّاتِ: أَنَّ الْعِلْمَ بِصِحَّةِ نَقْلِ الْقُرْآنِ، كَالْعِلْمِ بِالْبُلْدَانِ وَالْحَوَادِثِ الْكِبَارِ، وَالْوَقَائِعِ الْعِظَامِ، وَالْكَتُبِ الْمَشْهُورَةِ، وَأَشْعَارِ الْعَرَبِ الْمُسْطُورَةِ، فَإِنَّ الْعِنَايَةَ اشْتَدَّتْ، وَالدَّوَاعِي تَوَفَّرَتْ عَلَى تَقْلِيدِهِ وَجِرَاسَتِهِ، وَبَلَغَتْ حَدًّا لَمْ يَبْلُغْهُ فِيهَا ذِكْرُنَا، لِأَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزَةُ النَّبُوَّةِ وَمَأْخَذُ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ، وَعُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ بَلَغُوا فِي حِفْظِهِ وَجَمَافِيَةِ الْغَايَةِ، حَتَّى عَرَفُوا كُلَّ شَيْءٍ اخْتَلَفَ فِيهِ، مِنْ إِعْرَابِهِ وَقِرَاءَتِهِ وَخُرُوفِهِ وَأَيَاتِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُغَيَّرًا أَوْ مَبْقُوصًا مَعَ الْعِنَايَةِ الصَّادِقَةِ وَالضَّبْطِ الشَّدِيدِ؟

وَقَالَ قُدْسُ اللَّهِ رُوحَهُ أَيْضًا: إِنَّ الْعِلْمَ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَأَبْعَاضِهِ فِي صِحَّةِ نَقْلِهِ كَالْعِلْمِ بِجُمْلَتِهِ، وَجَرَى ذَلِكَ مَجْرَى مَا عُلِمَ ضَرُورَةُ مِنَ الْكَتُبِ الْمُصَنَّفَةِ، كَكِتَابِ سَبِيئِيهِ، وَالْمُزْنِيِّ، فَإِنَّ أَهْلَ الْعِنَايَةِ بِهَذَا الشَّأْنِ يَعْلَمُونَ مِنْ تَفْصِيلِهِمَا مَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ جُمْلَتِهِمَا، حَتَّى لَوْ أَنَّ مُدْخِلًا أَدْخَلَ فِي كِتَابِ سَبِيئِيهِ بَابًا فِي النُّحُولِ لَيْسَ مِنَ الْكِتَابِ لَعَرِفَ وَمُيِّرَ وَعُلِمَ أَنَّهُ مُلْحَقٌ وَلَيْسَ مِنْ أَصْلِ الْكِتَابِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي كِتَابِ الْمُزْنِيِّ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِنَقْلِ الْقُرْآنِ وَضَبْطِهِ أَصْدَقُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِضَبْطِ كِتَابِ سَبِيئِيهِ وَدَوَاوِينِ الشُّعْرَاءِ.

وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ الْقُرْآنَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَجْمُوعًا مُؤَلَّفًا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ، وَاسْتَدْلَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَانَ يَدْرُسُ وَيُحْفَظُ جَمِيعُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، حَتَّى عَيَّنَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي حِفْظِهِمْ لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يُعْرَضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُتْلَى عَلَيْهِ، وَأَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلَ



عبدالله بن مسعود، وأبى ابن كعب وغيرهما، ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مبتور، ولا مبثوث، وذكر أن من خالف في ذلك [من] الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحتها<sup>١</sup>.

ولعمري، إنه رضوان الله عليه أبان الحق وأجاده، وأتى بما فوق المراد، وإن قال الفيض ﷺ بعد نقله: لقائل أن يقول: كما أن الدواعي كانت متوفرة على نقل القرآن وحراسته من المؤمنين، كذلك كانت متوفرة على تغييره من المنافقين المبذلين للوصية، المغيرين للخلافة، لتضمينه ما يضاد رأيهم وهواهم<sup>٢</sup>.

أقول: نعم، ولكن كان توفر دواعيهم على التغيير، كتوفر دواعيهم على إطفاء نور النبي ﷺ وإبطال أمره، فكما لم ينالوا بمقصودهم في أمر النبوة لحفظ الله وتأيدته، وقوة المسلمين وكثرتهم بحيث صار المنافقون بينهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض، لم ينالوا من القرآن ما كان في قلوبهم من الغرض، بل كان دون نيلهم إليه خرط القتاد.

ثم قال الفيض ﷺ: والتغيير فيه إن وقع، فإثماً وقع قبل انتشاره في البلدان، واستقراره على ما هو عليه الآن، والضبط الشديد إنما كان بعد ذلك، فلا تنافي بينهما<sup>٣</sup>.

أقول: قد ثبت أن القرآن كان مجموعاً في زمان النبي ﷺ وكان شدة اهتمام المسلمين في حفظ ذلك المجموع بعد النبي ﷺ وفي زمان احتمل بعض وقوع التحريف فيه، كاهتمامهم في حفظ أنفسهم وأعراضهم، ومن الواضح أنه لم يتشتر الإسلام في بقاع الأرض وأقطارها إلا بانتشار الكتاب المجيد فيها، حيث إن إعجاز القرآن دعا الناس إلى الإسلام والإيمان بخاتم النبيين ﷺ، بل كان نشر الكتاب وشيوعه بين الناس أكثر من نشر الإسلام، إذ الكفار المعاندين للدين، لشدة إعجابهم بآيات الله وسور القرآن، كانوا يحفظونها ويثقلونها أكثر من حفظهم وقراءتهم لقصائد شعراء العرب كأمريء القيس وأضرابه، وخطب الفصحاء، مع شيوع قوة الحافظة في أهل ذلك العصر بحيث كان كثير منهم يحفظون الخطب الطوال بسماعها مرة واحدة، ولذا كانت العادة مقتضية لأن تكون كل آية وسورة في

١. مجمع البيان ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٤٧.

٢. تفسير الصافي ١: ٤٨.

٣. في النسخة: بشدة. ٤. في النسخة: من قصائد.

٥. في النسخة: من قصائد.

حِفْظُ جَمْعٍ كَثِيرٍ كَانَ عَدَدُهُمْ فَوْقَ حَدِّ التَّوَاتُرِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ حِفْظُ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتُهُ مِنْ أَعْظَمِ عِبَادَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَالْعَادَةُ تَقْضِي أَنْ يَكُونَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ حَافِظِينَ لِجَمِيعِ الْقُرْآنِ.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ كَانَ اهْتِمَامُهُمْ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّغْيِيرِ، وَصِيائَتُهُمْ لَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ؛ كَاهْتِمَامِهِمْ بِحِفْظِ الْإِسْلَامِ وَحِفْظِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَنْ تُصِيبَهُ آفَةٌ وَجِرَاحَةٌ، حَيْثُ إِنَّهُمْ كَانُوا يَفْدُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ دُونَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ.

وَمِنَ الْغَرَائِبِ، قَوْلُهُ ﷺ: بَلْ لِقَاتِلٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ إِنَّمَا لَا يَتَغَيَّرُ<sup>١</sup> فِي نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا التَّغْيِيرُ فِي كِتَابَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَتَلَفُّظُهُمْ بِهِ، فَإِنَّهُمْ مَا حَرَفُوا إِلَّا عِنْدَ تَسْنِيهِمْ مِنَ الْأَصْلِ، وَيَقِي الْأَصْلُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ عِنْدَ أَهْلِهِ؛ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ بِهِ، فَمَا هُوَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِهِ لَيْسَ بِمُحَرَّفٍ، وَإِنَّمَا الْمُحَرَّفُ مَا أَظْهَرَهُ لِأَتْبَاعِهِمْ<sup>٢</sup>. انْتَهَى.

فَإِنَّ هَذَا الْإِحْتِمَالَ مَبْنِيٌّ عَلَى فَرَضِ كَوْنِ الْقُرْآنِ الْمَوْجُودِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَعْدَهُ، نُسخَةً وَاحِدَةً أَوْ تُسَخِّتَيْنِ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَوْ اثْنَيْنِ، ثُمَّ اسْتَنْسَخَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَافِقِينَ مَعَ عَدَمِ إِطْلَاعِ أَكْثَرِ الْمُسْلِمِينَ بِهِ وَبَيَّاتِهِ، ثُمَّ خَفِيَ الْأَصْلُ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَانْتَشَرَ الْمُحَرَّفُ فِي الْأَقْطَارِ، وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي انْقِدَاحُهُ فِي ذِهْنٍ أَحَدٍ، حَيْثُ إِنَّ الْقُرْآنَ كَانَ بِآيَاتِهِ وَسُورِهِ أَظْهَرَ مِنَ الشَّمْسِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ يَبِينُهُمْ عِلْمٌ غَيْرُ عِلْمِ الْقُرْآنِ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ عَدَمَ إِطْلَاعِ أَغْلَبِهِمْ بِآيَاتِهِ وَسُورِهِ وَمَحَلِّ آيَاتِهِ وَكَيْفِيَّةِ قِرَاءَتِهِ!

وَقَالَ شَيْخُ الطَّائِفَةِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الطُّوسِيُّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ: وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي زِيَادَتِهِ وَنُقْصَانِهِ فَمِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، لِأَنَّ الزِّيَادَةَ فِيهِ مُجْمَعٌ عَلَى بُطْلَانِهَا، وَالنُّقْصَانُ مِنْهُ فَالظَّاهِرُ أَيْضاً مِنْ مَذْهَبِ الْمُسْلِمِينَ خِلَافُهُ وَهُوَ الْأَلْبَقِيُّ بِالصَّحِيحِ مِنْ مَذْهَبِنَا، وَهُوَ الَّذِي نَصَرَهُ الْمُتَرَتِّضِيُّ، وَهُوَ الظَّاهِرُ فِي الرِّوَايَاتِ، غَيْرَ أَنَّهُ رُوِيَ رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جِهَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ بِنُقْصَانٍ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، وَنَقْلٍ شَيْءٍ مِنْهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، طَرِيقُهَا الْأَحَادُ الَّتِي لَا تَوْجِبُ عِلْماً [وَلَا عَمَلاً] فَالْأَوَّلَى الْإِعْرَاضُ عَنْهَا، وَتَرْكُ التَّشَاغُلِ بِهَا، لِأَنَّهُ يُمَكِّنُ تَأْوِيلَهَا<sup>٣</sup>.

وَقَالَ شَيْخُنَا الصَّدُوقُ ﷺ فِي (اعْتِقَادَاتِهِ): اعْتِقَادُنَا أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ هُوَ مَا بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ [هُوَ] مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، لَيْسَ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ نَسَبَ إِلَيْنَا أَنَّا نَقُولُ إِنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ

٢. تفسير الصافي: ١: ٤٨.

١. في تفسير الصافي: إنه ما تغير.

٣. تفسير النبيان: ١: ٣.

كاذب علينا، انتهى.

والعجبُ مع هذا الكلام من الصدوق أنه نسب إلى الكليني رضوان الله عليه الذي هو من مُجَدِّدي المذهب الجعفرِي القول بِتَحْرِيف القرآن<sup>٢</sup>، مُسْتَبِدًّا إلى نقله بعض الروايات التي وردت في هذا المعنى، وعدم تعرُّضه للمقدح فيها، مع ذكره في أوَّل الكافي أنه كان يَتَّقِي بما رواه فيه، فإنه لا دلالة لقل الروايات والثبوت بِصُدُورها على اعتقاد الناقل بِمُضْمُونِها أو إفتائه به، لإمكان حَمْلِها على مُحامِل، كالتيقُّة أو غيرها، أو رَدَّ الناقل عِلْمَها إلى الرايِسين في العلم، مع أنَّ الصدوق عليه السلام كان أعرف بمذهب الكليني عليه السلام من غيره، وكيف يُمكن تكذيبه نسبة التحريف إلى الإمامية مع قول شيخه به.

والظاهر أنَّ الصدوق عليه السلام لعلمه بإجماع الإمامية، ودلالة روايات كثيرة، بل الكتاب المجيد على عدم تحريفه، وملاحظة لزوم الوُهن من القول به في أساس الإسلام، وتوَأثر الكتاب أعرض عن الروايات الكثيرة الدالة على وقوع التَّحْرِيف فيه، مع أنَّه لِيَاغَةِ تَعْبُدَه بظواهر الأخبار ذهب إلى القول بِجَوَاز السُّهُو على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نعم، نسب السيّد المرتضى عليه السلام الخِلاف في ذلك إلى قوم من أصحاب الحديث من الإمامية مع تَخْطِئَةٍ لهم قال: إنَّ مَنْ خَالَفَ في ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتدُّ بِخِلافهم، فإنَّ الخِلاف في ذلك مُضَافٌ إلى قومٍ من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفةً ظَنُّوا صِحَّتَها لا يَرْجِعُ بِمِثْلِها عن المعلوم المقطوع على صَحَّتِه<sup>٣</sup>.

ولعلَّ في قوله: (مضاف إلى قوم) دلالة على عدم ثبوت النسبة عنده، والمراد من (أصحاب الحديث) عليّ بن إبراهيم القمي عليه السلام ومن حَذَا حَدُّوَه.

قال القمي عليه السلام في تفسيره: وأما ما كان خِلاف ما أنزل الله، فقولُه تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

١. اعتقادات الصدوق: ٩٣.

٢. لم نجد في سائر مصنفات الشيخ الصدوق أي تصريح أو تلميح بنسبة القول بالتحريف إلى ثقة الاسلام الكليني، كما لم نجد أحداً نقله عن الشيخ الصدوق، وقد استند بعض المحدثين الذين نسبوا إلى الشيخ الكليني القول بالتحريف (كالفيض في الصافي ١: ٤٧) على جملة من روايات الكافي، مع أنه لا توجد في الكافي رواية واحدة تدلُّ دلالة صريحة على التحريف، ولكن اشبه عليهم حال بعض الروايات، وهي إحدى وستون رواية فقط بجمع أجزاء الكافي، لظهورها باختلاف القراءة أو التفسير، فعُدَّوا ذلك من أصل المصحف، وقد بيَّنت بعض الدراسات الحديثة ذلك بكل تفصيل. راجع: دفاع عن الكافي ٢: ٢١٩ - ٥٠١.

٣. مجمع البيان ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٤٧.

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ<sup>١</sup> فقال أبو عبدالله عليه السلام لقارىء هذه الآية: «خير أمة [يقتلون] أمير المؤمنين والمؤمنين بن علي عليه السلام»<sup>٢</sup>.

ف قيل له: كيف نزلت يا بن رسول الله؟ فقال: «إنما نزلت: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ألا ترى مدح الله لهم في آخر الآية: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾»<sup>٣</sup>.

ومثله: أنه قرىء على أبي عبدالله عليه السلام: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾<sup>٤</sup> فقال أبو عبدالله عليه السلام: «لقد سألوا [الله] عظيماً أن يجعلهم للمتقين إماماً».

ف قيل له: يا بن رسول الله، كيف نزلت؟ فقال: «إنما نزلت: (واجعل لنا من المتقين إماماً)».

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾<sup>٥</sup> فقال أبو عبدالله عليه السلام: «يحفظ الشيء من أمر الله وكيف يكون المعقب من بين يديه؟»

ف قيل له: [أو] كيف ذلك يا بن رسول الله؟ فقال: «إنما نزلت: (له معقبات من خلفه ورفيق من بين يديه يحفظونه بأمر الله)» ومثله كثير.

وأما ما هو محذوف عنه<sup>٦</sup> فهو قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ - فِي عِلِّي كَذَا نَزَلَ - أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾<sup>٧</sup> وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ - فِي عِلِّي - وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾<sup>٨</sup> وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا - آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ - لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾<sup>٩</sup> وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا - آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ - أَيَّ مَقْلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾<sup>١٠</sup> وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ - آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ - فِي عَمَزَاتِ الْمَوْتِ﴾<sup>١١</sup> ومثله كثير نذكره في مواضعه إن شاء الله.

قال: وأما التقديم والتأخير فإن آية عِدَّة النِّسَاءِ النَّاسِخَةُ التي هي أربعة أشهر وعشر، قُدِّمَتْ على الْمَنْسُوخَةِ التي هي سَنَةٌ، وكان يجب [أولاً] أن تُقرأ الْمَنْسُوخَةُ التي نزلت قبل، ثم النَّاسِخَةُ التي نزلت بعد.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾<sup>١٢</sup> وإثماً هو: (ويتلوه شاهد منه إماماً ورحمةً ومن قبله كتاب موسى).

١. آل عمران: ١١٠/٣. ٢. آل عمران: ١١٠/٣. ٣. الفرقان: ٧٤/٢٥. ٤. الرعد: ١١/١٣.  
٥. في المصدر: محرف منه. ٦. النساء: ١٦٦/٤. ٧. المائدة: ٦٧/٥. ٨. النساء: ١٦٨/٤.  
٩. الشعراء: ٢٢٧/٢٦. ١٠. الأنعام: ٩٣/٦. ١١. هود: ١١/١١.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾<sup>١</sup> وإنما هي (نَحْيَا وَنَمُوتُ) لَأَنَّ الدَّهْرَةَ لَمْ يَفْرُوا بِالْبَيْتِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: نَحْيَا وَنَمُوتُ، فَقَلَّمُوا حَرْفًا عَلَى حَرْفٍ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ.

قال: وأما الآيات التي هي في سورة وَتَمَاتْهَا فِي سُورَةِ أُخْرَى؛ فَقَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾<sup>٢</sup> وَقَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾<sup>٣</sup> فَنِصْفُ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَنِصْفُهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

وقوله: ﴿اُكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾<sup>٤</sup> فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابُ الْقُطُوبُ﴾<sup>٥</sup> فَنِصْفُ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، وَنِصْفُهَا فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ<sup>٦</sup>، انْتَهَى كَلَامُهُ رُفِعَ مَقَامُهُ.

أقول: إلى هذه الأخبار الضعاف أشار الشيخ رحمه الله بقوله: أَنَّهُ وَرَدَتْ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جِهَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ بِتَقْصَانِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ وَتَقْلِيلِ شَيْءٍ مِنْهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، طَرِيقُهَا الْأَحَادُ الَّتِي لَا تُوجِبُ عِلْمًا، فَالْأَوْلَى الْإِعْرَاضُ عَنْهَا وَتَرْكُ التَّشَاغُلِ بِهَا، لِأَنَّهُ يُمْكِنُ تَأْوِيلُهَا.

إلى أن قال: وروايانا مُتَنَاصِرَةٌ بِالْحَدِّ عَلَى قِرَاءَتِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِمَا فِيهِ، وَرَدَّ مَا يَرِدُ مِنْ اخْتِلَافِ الْأَخْبَارِ فِي الْفُرُوعِ إِلَيْهِ، وَعَرَضَهَا عَلَيْهِ، فَمَا وَافَقَهُ عَمِلَ عَلَيْهِ، وَمَا خَالَفَهُ يُجْتَنَّبُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ<sup>٧</sup>.

أقول: أخبار العَرَضِ عَلَى الْكِتَابِ مُتَضَافِرَةٌ، بَلْ مُتَوَاتِرَةٌ مَعْنَى أَوْ إجمالاً، وَأَخْبَارُ وَقُوعِ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ مُخَالِفَةٌ لِلْكِتَابِ الْعَزِيزِ، فَيُسْمَلُهَا قَوْلُهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ زُخْرُفٌ» أَوْ «بَاطِلٌ» أَوْ «فَاضِرُهُ عَلَى الْجِدَارِ» أَوْ «لَمْ نَقْلُهُ»<sup>٨</sup>.

فَإِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>٩</sup> دَالٌّ عَلَى تَشْرِيفِ الْقُرْآنِ وَتَفْضِيلِهِ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ بِضَمَانِهِ تَعَالَى بِحِفْظِهِ مِنَ الْإِنْدِرَاسِ وَالْإِنْطِمَاسِ، وَتَعَاهْدِهِ عَلَى صِيَانَتِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكَمَا أَنَّ ذَهَابَ جَمِيعِ الْقُرْآنِ وَمَحْوُهُ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَجَعَلَ كِتَابٍ آخَرَ فِيهِمْ يُنَافِي ضَمَانَهُ تَعَالَى لِحِفْظِهِ، كَذَلِكَ إِسْقَاطُ آيَةٍ أَوْ سُورَةٍ، أَوْ تَغْيِيرُ كَلِمَةٍ مِنْهُ أَوْ هَيْئَتِهِ الْمُنْزَلَةُ

١. المؤمنون: ٣٧/٢٣. ٢. البقرة: ٦١/٢. ٣. المائدة: ٢٢/٥. ٤. الفرقان: ٥/٢٥.

٥. العنكبوت: ٤٨/٢٩. ٦. تفسير القمي ١: ١٠. ٧. تفسير البيان ١: ٣.

٨. الكافي: ١/٥٥ باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب. ٩. الحجر: ٩/١٥.

ينافي ضَمَانَهُ تعالى لحِفْظِهِ، لأنَّ كُلَّ آيَةٍ مِنْهُ قرآنٌ، وَمَخُوشِيٌّ مِنْهُ مَادَّةٌ أَوْ كَيْفِيَّةٌ مَخُوشٌ للقرآن. وتقرّبه بَيَانٌ أَوْضَحُ: أَنَّ اللهَ تعالى فَضَّلَ دِينَ الإسلامِ على سائرِ الأديانِ بِوَعْدِهِ بِظُهُورِهِ على الدُّينِ كُلِّهِ، وَمِنْ الواضِحِ أَنَّ ظُهُورَ هَذَا الدِّينِ المُبِينِ بِظُهُورِ القرآنِ المُبِينِ، وَهُوَ بِقَائِهِ بَيْنَ النَّاسِ مَحْفُوظًا مِنْ التَّغْيِيرِ وَالتَّحْرِيفِ وَالاِنْدِرَاسِ وَالاِنْطِمَاسِ، فَلِذَا تَعَهَّدَ سُبْحَانَهُ وَتعالى بِحِفْظِهِ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ، وَفَضَّلَهُ على سائرِ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ بِضَمَانِ صِيَانَتِهِ مِنْ كَيْدِ الْمُعَانِدِينَ وَدَسِّ الْمُلْجِدِينَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ تعالى هَذَا التَّعَهُّدُ وَالضَّمَانُ فِي سَائِرِ الكُتُبِ، وَلِذَا وَقَعَ فِيهَا التَّحْرِيفُ وَالتَّغْيِيرُ، وَسَقَطَتْ عَنِ الحُجِّيَّةِ وَالاعتبارِ كَسَائِرِ الأديانِ، فَلَوْ قُلْنَا بِوُقُوعِ التَّحْرِيفِ فِي القرآنِ - وَلَوْ مِنْ جِهَةِ التَّرْتِيبِ - لَنَافَى الضَّمَانُ مِنْهُ تعالى، وَارْتَفَعَ بِمَزِيَّتِهِ على الْكِتَابَيْنِ وَفَضِيلَتِهِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ مِنَ الْبَيِّنِ.

إِنْ قِيلَ: حِفْظُهُ تعالى النُّسخَةَ الَّتِي جَمَعَهَا وَكَتَبَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَأَوْدَعَهَا عِنْدَ أَوْصِيَائِهِ الْمُعَصُومِينَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَبَقَاؤُهَا عِنْدَ خَاتَمِهِمْ إِلَى الآنَ، وَإِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، كَافٍ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الضَّمَانِ.

قُلْنَا: لَيْسَتْ هَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الحِفْظِ مَزِيَّةً وَفَضِيلَةً لَهُ، لَكُونِهَا مُشْتَرَكَةً بَيْنَ القرآنِ وَسَائِرِ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، حَيْثُ إِنَّ مِنَ المَقْطُوعِ أَنَّهُ كَانَتْ نُسْخَةٌ وَاحِدَةٌ غَيْرَ مُحَرَّفَةٍ مِنْ سَائِرِ الكُتُبِ مَحْفُوظَةً عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ، وَلَعَلَّهَا مِنْ مَوَارِثِهِمْ الْمَوْجُودَةِ الآنَ عِنْدَ خَاتَمِ الْوَصِيِّينَ وَوَارِثِ عُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ، فَلَا يَكُونُ وَجُودُ هَذِهِ النُّسخَةِ الصَّحِيحَةِ غَيْرَ الْمُحَرَّفَةِ مِنْهَا الَّذِي يَكُونُ كَوُجُودِهَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَزِيَّةً وَفَضِيلَةً لِلْكِتَابِ الْكَرِيمِ.

قَالَ فِي (كَشَفِ الْغَطَاءِ)<sup>١</sup> فِي كِتَابِ القرآنِ، الْمُبْتَحَثُ الثَّامِنُ فِي نَقْصِهِ: لَا رَيْبَ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ مِنَ النُّقْصَانِ بِحِفْظِ الْمَلِكِ الدِّيَّانِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ صَرِيحُ القرآنِ، وَاجْتِمَاعُ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَلَا عِزَّةَ بِالنَّادِرِ، وَمَا وَرَدَ مِنْ أَخْبَارِ النُّقْصِ تَمَنُّعُ الْبَدِيهَةِ مِنَ الْعَمَلِ بِظَاهِرِهَا، إِلَى أَنْ قَالَ: فَلَا بَدَّ مِنْ تَأْوِيلِهَا بِأَحَدٍ وَجْهًا<sup>٢</sup>.

وَعَنِ الشَّيْخِ الْبَهَائِيِّ عليه السلام فِي تَغْيِيرِ القرآنِ، قَالَ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ القرآنَ الْعَظِيمَ مَحْفُوظٌ عَنْ ذَلِكَ، زِيَادَةً كَانَ أَوْ نَقْصَانًا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>٣</sup> وَمَا اشتهَرَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ إِسْقَاطِ اسْمِ

٢. كَشَفِ الْغَطَاءِ: ٢٩٨.

١. للشَّيْخِ جَعْفَرِ الْمَعْرُوفِ بِكَاشَفِ الْغَطَاءِ الْمَتَرَفِيِّ سَنَةِ ١٢٢٨ هـ.

٣. الْحَجَرِ: ٩/١٥.

أمير المؤمنين عليه السلام منه في بعض المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ - فِي عَلِيٍّ -﴾<sup>١</sup> وغير ذلك فهو غير معتبر عند العلماء<sup>٢</sup>.

وعن الشيخ علي بن عبد العالي عليه السلام أنه صنّف في نفى النقيصة في القرآن رسالةً مستقلةً، وذكر كلام الصدوق المتقدم، ثم اعترض بما يدلّ على النقيصة في الأحاديث، فأجاب عنها بأن الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة أو الإجماع، ولم يُمكن تأويله ولا حمله على بعض الوجوه، وجب طرحه<sup>٣</sup>.

وبالمجملّة: أخبار التحريف مع مخالفتها للكتاب الكريم، ووهن سند كثير منها، وإعراض أعيان الأصحاب عنها، ومخالفتها لحكم العقل والعادة والاعتبار، غير قابلة لأن يعتد بها عاقل، فضلاً عن فاضل، بل نقل كثير من الأصحاب الإجماع على خلافها كما ظهر من كاشف الغطاء، والشيخ البهائي وغيرهما قدس الله أسرارهم.

وعن القاضي نور الله عليه السلام في كتاب (مصابب النواصب): ما تُسبب إلى الشيعة الإمامية من وقوع التغيير في القرآن، ليس ممّا قال به جمهور الإمامية، إنّما قال به شريحة قليلة منهم لا اعتداد بهم فيما بينهم<sup>٤</sup>.

وعن المفيد عليه السلام أنّه قال: قال جماعة من أهل الإمامية إنّهم لم يُنقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حُذِف ما كان مُثبتاً في مُصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله<sup>٥</sup>.

وعن المُقدّس البغدادي قدس الله روحه في (شرح الوافية)<sup>٦</sup>: وإنّما الكلام في النقيصة، والمعروف بين أصحابنا - حتّى حكى عليه الاجماع - عدم النقيصة أيضاً<sup>٧</sup>، انتهى.

مع أنّ ما ذُكر في الروايات من الساقطات كآية رَجَمَ الشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ وَأَمثالها، وكلمة (من خلفه وورقيب) من قوله: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾<sup>٨</sup> وغير ذلك، بعيدٌ من فصاحة الكتاب العزيز وأسلوبه، بل يدفعها السنة المتواترة من خبر الثقلين.

٤. آلاء الرحمن ١: ٦٤.

١. المائدة: ٦٧/٥. ٢. آلاء الرحمن ١: ٦٥.

٥. أوائل المقالات: ٨١.

٦. الروافية في الأصول: للمولى عبدالله بن محمد، المشهور بالفاضل التونسي، المتوفى سنة ١٠٧١ هـ.

٧. آلاء الرحمن ١: ٦٥. ٨. الرعد: ١١/١٣.

قال الشيخ عليه السلام: وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله رواية لا يدفعها أحد، أنه قال: «إني مُخَلَّف فيكم الثقلين، ما إن تمسكتكم بهما لن تفصلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإني ما لن يفتريقا حتى يردا علي الحوض» قال: وهذا يدل على أنه موجود في كل عصر، لأنه لا يجوز أن يأمرنا بالتمسك بما لا نقدر على التمسك به، كما أن أهل البيت ومن يجب اتباع قوله حاصل في كل وقت، وإذا كان الموجود بيننا مجتمعا على صحته، فينبغي أن نشاغل بتفسيره وبيان معانيه ونترك ما سواه<sup>١</sup>.

وحمل كلامه عليه السلام على وجوده جميعا عند أهله كما صدر عن الفيض عليه السلام خلاف نصه<sup>٢</sup>، فإن القرآن الذي فيه جميع الأحكام، حتى أرش الخدش، غير مقدور التمسك به<sup>٣</sup>، ولا يستتقص بعدم إمكان التمسك بالعترة في زمان العتية، فإن المراد بالتمسك بهم توليهم والأخذ بأقوالهم، وهذا ممكن لكل أحد في كل عصر لوجود رواياتهم، وإن لم يمكن التشرف بحضرتهم، واكتساب الفيوضات الخاصة من زيارتهم، واقتباس الأنوار ببركة صحبيهم.

فيتبين من جميع ما فضلناه عدم المجال لاحتمال وقوع التحريف في القرآن الشريف بوجه من الوجوه، فضلا عن القول به من كل وجه.

## الطرفة الحادية عشرة

### في عدد سور القرآن، وبيان الاختلاف فيه

المشهور بين الإمامية رضوان الله عليهم أن عدد سور الكتاب العزيز مائة واثناعشر، لعدهم الضحى والانشراح سورة واحدة، والقليل وقريش أيضا سورة واحدة، بل ادعى بعض الأساطين الإجماع عليه<sup>٤</sup>، وعليه النصوص المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام<sup>٥</sup>.

ونقل جماعة من العامة أن في مصحف أبي أن سورة الفيل وسورة لايلاف واحدة<sup>٦</sup>.  
ونقل عن طائوس وغيره من مفسري العامة، على ما في (إتقان السيوطي): أن الضحى وألم تُشرَح

١. تفسير التبيان ١: ٣. ٢. راجع تفسير الصافي ١: ٤٩.

٣. علمه يريد به القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام وهو لا يختلف عن الكتاب الذي بين أيدينا إلا في الترتيب، حيث إنه عليه السلام جمعه على ترتيب النزول، وقدم فيه المنسوخ على الناسخ، وكتب فيه تأويل بعض الآيات وتفسيرها.

٤. اعتقادات الصدوق: ٩٣.

٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٠٤.

٥. مجمع البيان ١٠: ٧٦٩ و٨٢٧.



سورة واحدة<sup>١</sup>.

وخالف في ذلك أكثرهم، وذهبوا إلى أن عدد السور مائة وأربع عشرة، وادّعوا عليه إجماعهم<sup>٢</sup>. نعم، قال بعضهم بكونه مائة وثلاث عشرة، بجعل الأنفال والبراءة واحدة، لعدم البشّملة بينهما، ولما روي عن مجاهد وشفيان وأبي رزق<sup>٣</sup>، وهو بمكان من الضعف لاشتياز تعددهما وتعدد اسمهما بين المسلمين، ولرواية المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَمْ يَنْزَلْ بِإِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» على رأس سورة براءة؛ لأنَّ «بِسْمِ اللَّهِ» للأمان والرحمة، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف<sup>٤</sup>.

وعن ابن عباس، قالت: سأنت علي بن أبي طالب: لِمَ لَمْ تَكْتُبْ فِي بَرَاءَةِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»؟ قال: «لأنّها أمان، وبراءة نزلت بالسيف»<sup>٥</sup>.

وقال: قلت لعثمان: ما حَمَلَكُم على أن عَمِدْتُم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثني، ففَرَّقْتُم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ووضَعْتُموها في السَّبْع الطُّوَال؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذات<sup>٦</sup> العدد<sup>٧</sup>... الخبر، وقد مرَّ تمامه في بعض الطرائف<sup>٨</sup> السابقة<sup>٩</sup>.

وروى الصدوق رحمته الله في (ثواب الأعمال)، والعياشي، عن الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأنْفَالِ وسورة البراءة في كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يَدْخُلْ نِفَاق أَبَدًا»<sup>١٠</sup>.

فمن جميع ذلك، ومن عدم ظهور شُبْهَةٍ في تعددهما بين الأصحاب، مع تعرّضهم لاثحاد بعض السُّور كما مرَّ، لا يَنْبَغِي الإشكال في تعدد البراءة والأنفال، وإنَّما رواه الطَّبْرَسِيّ والعياشي عليهما الرّحمة عن الصادق عليه السلام: «الأنفال وبراءة واحد»<sup>١١</sup> مؤوَّل أو مطروح.

١. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٨.

٢. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٥.

٣. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٥.

٤. مجمع البيان ٥: ٤. ٥. مستدرک الحاكم ٢: ٣٣٠.

٦. في المستدرک: رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات.

٧. مستدرک الحاكم ٢: ٣٣٠.

٨. كذا، والطرائف جمع طريفة، أما الطرفة فجمعها طَرْف.

٩. تقدم في الطرفة الخامسة.

١٠. ثواب الأعمال: ١٠٦، تفسير العياشي ٢: ١٧٦٨/٢١٣.

١١. مجمع البيان ٥: ٤، تفسير العياشي ٢: ١٧٧٠/٢١٣.

## الطَّرْفَةُ الثَّانِيَّةُ عَشْرَةٌ

في بيان معنى السورة، وأنَّ اسمَ كلِّ سورةٍ

كان بتوقيف من النبي ﷺ

السُّورَةُ: اسمٌ لطائفةٍ من القرآن ذاتِ فاتِحَةٍ وخاتِمةٍ، مُسمَّاةٌ باسمِ خاصٍّ بتوقيفٍ من النبي ﷺ، وقد نصَّ النبي ﷺ بأسماءِ السُّورِ في الأحاديث والآثار. روي عن عكرمة، قال: كان المُشْرِكُونَ يقولون: سورة البقرة، وسورة العنكبوت، يستهزون بها، فنزل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾<sup>١</sup>.

ووجهُ التَّسمِيَةِ بالأسماءِ المعيّنة المعروفة ظاهر، فإنَّ سورةَ الحَمدِ سُمِّيَتْ بالفاتِحَةِ لافتتاح القرآن بها، وسورة البَقَرَةِ لذكرِ قصَّةِ البَقَرَةِ فيها، ولم تذكر في غيرها، وسورة آلِ عِمْرَانَ لِذِكْرِ آلِ عِمْرَانَ فيها، وهكذا سائرُ السُّورِ، وأما وَجْهُ تسميةِ كُلِّ قِطْعَةٍ معيّنة بالسورة لارتفاعِ مَنزِلَتِها وشأنِها لأنَّها كلامُ الله. وتُطلَقُ السورة على المَنزِلَةِ الرِّفِيعَةِ، وقيل: إنَّها مأخوذة من سُورِ البَلَدِ لإحاطَتِها بآياتِها، واجتماعِها كاجتماعِ البيوت بالسور، ومنه السَّوار لإحاطَتِهِ بالسَّاعِدِ.

## الطَّرْفَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةٌ

في أنَّ عدَّةَ سورٍ من القرآن سُمِّيَتْ بالطوال

وعدَّةٌ منها بالمئين وعدَّةٌ بالمئاني

وعدَّةٌ بالمفصل ووجه التَّسمِيَةِ

كما سُمِّيَتْ كلُّ سورةٍ باسمِ خاصٍّ، سُمِّيَتْ عدَّةُ سُورٍ باسمِ مخصوص.

عن (الكافي): بإسناده عن سَعْدِ الإسْكَافِ، عن أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قال: «قال النبي ﷺ: أُعْطِيَتْ السُّورُ الطَّوَالُ مكانَ التَّوَرَةِ، وأُعْطِيَتْ المِئِينَ مكانَ الإنجِيلِ، وأُعْطِيَتْ المِئَانِي مكانَ الزَّبُورِ، وفُضِّلَتْ بالمُفْصَلِ ثَمَانٌ وستون سورة، وهو مُهَيِّمٌ على سائرِ الكُتُبِ، فالتَّوَرَةُ لموسى، والإنجِيلُ ليعسى، والزَّبُورُ لداود»<sup>٢</sup>.

ثمَّ اعلم أنَّه يُستفاد من الرواية الشريفة أمور:

٢. الكافي ٢: ٤٣٩/١٠.

١. الإنفان في علوم القرآن ١: ١٨٧، والآية من سورة الحجر: ٩٥/١٥.

الأول: أن جميع سور القرآن يكون داخلاً تحت العناوين الأربعة، لا تخرج منها سورة.

الثاني: أن الطوال مقدم في الترتيب على المئين، والمئين على المثاني والمثاني على المفصل.

الثالث: أن الطوال أفضل من المئين، لكونها بمنزلة التورة التي هي أفضل من الإنجيل، والمئين أفضل من المثاني لكونها بمنزلة الإنجيل الذي هو أفضل من الزبور، ويمكن الاستفادة كون المفصل أفضل من المثاني، لأنها مما فضل به النبي ﷺ.

قيل: الطول قصرد. وفي بعض روايات العامة: الطوال، قيل: سمي به لكثرة طولها، وسمي ما بعدها مئين لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها، وسمي ما ولي المئين بالمثاني، لأنها تنها أي كانت بعدها، فهي لها ثوان والمئون لها أوائل.

وقال الفراء: المثاني: هي السور التي آيها أقل من مائة، لأنها تثنى أكثر مما يثنى الطول والمئون.

وقيل: لتثنية الأمثال فيها بالخير والخبر، أو لتثنية القصص فيها.

وسمي ما ولي المثاني من قصار السور بالمفصل لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة. وقيل:

لقلة المنشوخ منه، ولهذا يسمى بالمحكم أيضاً<sup>١</sup>.

في تعيين السور الطوال والمئين والمثاني والمفصل  
روي عن سعيد بن جبير، قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم، وآخره سورة الناس بلا نزاع<sup>٢</sup>.

ثم لا إشكال في أن عدد الطوال سبعة، لرواية وإثالة عن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع

الطوال مكان التوراة»<sup>٣</sup>.

وعن ابن عباس رضيه الله: أن السبع الطوال<sup>٤</sup>: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف<sup>٥</sup>. قال الراوي: فذكر السابعة فنسيها. وفي رواية أخرى عنه: أنها الكهف<sup>٦</sup>.

وعن مجاهد وسعيد بن جبير: أنها يونس<sup>٧</sup>.

وقال الفيض رحمه الله: الطوال<sup>٨</sup> السبع بعد الفاتحة، على أن تعد الأنفال والبراءة واحدة، لنزولهما جميعاً

١. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٠.

٢. في الإنفاق: الطول.

٣. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٠.

٤. في تفسير الصافي: الطول.

٥. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٠.

٦. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢١٨.

٧. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٠.

٨. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٠.

في المغازي، وتسميتهما بالقرينتين<sup>١</sup>.

وفيه: أنه بعد ما ثبت أن الأنفال وبراءة سورتان، كيف يمكن عدُّهما واحدة، إلا أن يُحمَل ما روي عن الصادق عليه السلام من قوله: «الأنفال وبراءة واحد»<sup>٢</sup> على تنزيلهما منزلة الواحد من هذه الجهة، مؤيداً بالإشعار النبوي على تقدّم السبع الطوال على غيره.

ثم قال: والمئين: من بني إسرائيل إلى سبع سور [سميت بها] لأنّ كلّاً منها على نحو مائة آية. والمفصل: من سورة محمد إلى آخر القرآن، سميت به لكثرة الفواصل [بينها]<sup>٣</sup>.

أقول: هذا مبني على عدّ الضحى، والانشراح، والفيل، وقرش، أربع سور، وهذا خلاف الأخبار والمعروف بين الأصحاب، وعليه فلا بدّ أن يُعدّ المفصل من الجائية حتى تتم ثمان وستون سورة إلى آخر القرآن على ما في الرواية الشريفة.

ثم قال عليه السلام: والمثاني بقية السور، وهي التي تقصّر عن المئين، وتزيد على المفصل<sup>٤</sup>.

أقول: كان عليه أن يكتفي في تعيين المثاني بذكر بقية السور، إذ بعض المثاني لا تزيد على بعض سور المفصل على ما حدّه، لأنّ عدد آيات سورة الرحمن التي جعلها في المفصل ثمان وسبعون، وسورة الواقعة ست وتسعون، وليس في المثاني بعد الكهف سورة تكون آياتها بهذا العدد إلا قليلاً كطه، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والصفّات.

ونقل عن جرير بن عبد الحميد أنّه قال: تأليف مصحف عبد الله بن مسعود، الطوال<sup>٥</sup>، البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنعام، والأعراف، والمائدة، ويونس.

والمئين: براءة، والنحل، وهود، ويوسف، والكهف، وبني إسرائيل، والأنبياء، وطه، والمؤمنون، والشعراء، والصفّات.

والمثاني: الأحزاب، والحجّ، والقصاص، والتّمل، والتّور، والأنفال، ومريم، والعنكبوت، والروم، ويس، والفرقان، والججر، والرعد، وسبأ، والملائكة، وإبراهيم، وص، والذين كفروا، ولقمان، والزمر. والحواميم: حم المؤمن، والزخرف، والسجدة، وحمعسق، والأحقاف، والجائية، والدخان.

٢. مجمع البيان ٥: ٤، تفسير العياشي ٢: ٢١٣/١٧٧٠.

٤. تفسير الصافي ١: ١٨.

١. تفسير الصافي ١: ١٨.

٣. تفسير الصافي ١: ١٨.

٥. في الإنفاق: الطول.

٧٤ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

والممْتَحَنَاتُ: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ، وَالْحَشْرُ، وَتَنْزِيلِ السَّجْدَةِ، وَالطَّلَاقِ، وَنَ وَالْقَلَمِ، وَالْحُجُرَاتِ، وَتَبَارَكَ، وَالتَّغَابُنِ، وَالْمَنَافِقُونَ، وَالْجُمُعَةِ، وَالصَّفِّ، وَقُلْ أَوْحَى، وَإِنَّا أَرْسَلْنَا، وَالْمُجَادَلَةِ، وَالْمُمْتَحَنَةِ<sup>٢</sup>.  
وَالْمُفْضَلُ: مِنَ الرَّحْمَنِ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ<sup>٣</sup>.

أقول: الظاهر من هذا الخبر أَنَّ الممْتَحَنَاتِ وَالْحَوَامِيمِ عند ابن مسعود قِسْمَانِ خَارِجَانِ مِنَ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، وَأَنَّهُ كَانَ تَرْتِيبُ السُّورِ فِي مُصَحِّفِهِ عَلَى خِلَافِ الْمُصَحَّفِ الَّذِي بَأْيَدِنَا، إِلَّا أَنَّهُ لَا عَتَبَارَ بِهَذَا النَّقْلِ.

## الطَّرِيقَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ

في فوائد تقطيع القرآن سوراً، واختلافها

في الطول والقصر والتوسط

قال الرُّمَحْشَرِيُّ: الْفَائِدَةُ فِي تَفْصِيلِ الْقُرْآنِ وَتَقْطِيعِهِ سُوراً كَثِيرَةً، وَكَذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ، وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ مَسُورَةً، وَيُوبِ الْمَصْنُفُونَ فِي كُتُبِهِمْ أَبْوَاباً مَوْشَحَةً الصُّدُورِ بِالتَّرَاجِمِ. مِنْهَا: أَنَّ الْجِنْسَ إِذَا انْطَوَتْ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ وَأَصْنَافٌ كَانَ أَحْسَنَ وَأَفْخَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَاباً وَاحِداً. وَمِنْهَا: أَنَّ الْقَارِئَ إِذَا خَتَمَ سُورَةً أَوْ بَاباً مِنَ الْكِتَابِ، ثُمَّ أَخَذَ فِي آخَرٍ كَانَ انْشِطَ لَهُ وَأُبْعَثَ عَلَى التَّحْصِيلِ مِنْهُ لَوْ اسْتَمَرَ عَلَى الْكِتَابِ بِطَوْلِهِ، وَمِثْلُهُ الْمُسَافِرُ إِذَا قَطَعَ مَيْلاً أَوْ فَرَسَخاً، نَفَسَ ذَلِكَ مِنْهُ وَنَشِيطَ لِلسَّيْرِ. وَمِنْ ثَمَّ جُزِّيَ الْقُرْآنُ أَجْزَاءً وَأَخْمَاساً. وَمِنْهَا: أَنَّ الْحَافِظَ إِذَا حَفِظَ<sup>٤</sup> السُّورَةَ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ طَائِفَةً مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا، فَيَعْتَظُمُ عِنْدَهُ مَا حَفِظَهُ.

وَمِنْهُ حَدِيثُ أَنَسٍ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا، وَمِنْ ذَلِكَ<sup>٥</sup> كَانَتِ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ بِسُورَةِ أَفْضَلَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ التَّفْصِيلَ بِسَبَبِ تَلَاخُقِ الْأَشْكَالِ وَالنَّظَائِرِ وَمِلَاتِمَةِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ، وَبِذَلِكَ تَتَلَحَّظُ

١. (والممْتَحَنَاتِ) ليست في الإتيان. ٢. زاد في الإتيان: وبأ أيها النبي لم تحرم.

٣. الإتيان ١: ٢٢٣. ٤. في المصدر والإتيان والبرهان: حذو.

٥. في المصدر: ثمة، وفي الإتيان والبرهان: ثم.

المعاني والنظم، إلى غير ذلك من الفوائد، انتهى<sup>١</sup>.  
وقيل: إن الحكمة في تسوير القرآن سُوراً تحقيق كون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله، والإشارة إلى أن كل سورة نَمَطٌ مُسْتَقِلٌّ، فسورة يوسف تُترجم عن قصته، وسورة براءة تُترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم، إلى غير ذلك.  
وأما حكمة اختلاف السُور طُولاً وقِصَراً، التنبية على أن الطول ليس من شرائط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.  
وأما الحكمة في جعلها مختلفة المراتب في الطول والقصر والتوسط بينهما سهولة التعليم والتعلم وتدرج الأطفال والمتعلمين من السُور القصار إلى ما فوقها حتى يتَهَوَّنوا إلى الأوساط ومنها يتدرجون إلى الطوال على اختلاف مراتبها، وتيسير الله على عباده في حفظ كتابه<sup>٢</sup> وفي قراءة سورة في أضيئ الأوقات وأوساطها وطوالها في الصلوات وغيرها، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

## الطرفة الخامسة عشرة

في أن البسلة جزء من كل سورة،

بل هي أعظم آياتها

لا شبهة أن البسلة آية من آيات القرآن، وجزء من الفاتحة، وغيرها من السُور عدا براءة، بل هي أعظم الآيات وأفضلها، حيث روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بيانها<sup>٣</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «سرقوا آية من كتاب الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»<sup>٤</sup> الخبر.  
والعياشي، عن الصادق عليه السلام قال: «مالهم؟ - يعني العامة - قاتلهم الله، عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بذعة إذا أظهرها [وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾]»<sup>٥</sup> إلى غير ذلك من الروايات.  
وأما كونها جزءاً من الفاتحة، فلما روي في الصحيح عن محمد بن مسلم، قال: سألت أبا

١. الكشف ١: ٩٧، الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٩، البرهان في علوم القرآن ١: ٣٣٤.

٢. التهذيب ٢: ٢٨٩/١١٥٩.

٣. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٢٢٨.

٤. تفسير العياشي ١: ١٠٣/٨٩.

٥. تفسير العياشي ١: ٧٧/١٠٠.

عبدالله ﷺ عن السَّبْعِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، أَهِيَ الْفَاتِحَةُ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

قُلْتُ: «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» مِنْ السَّبْعِ الْمَثَانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ»<sup>١</sup>، أَفْضَلُهُنَّ<sup>٢</sup>.

وعن الحسن العسكري، عن آبائه عليه السلام، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال في حديث:

«يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» آية من فاتحة الكتاب، وهي سَبْعُ آيَاتٍ تَمَامُهَا «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ»<sup>٣</sup>.

وفي (عيون الأخبار) قال: قيل لأمر المؤمنين عليه السلام: أخبرنا عن «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ»، أهِيَ مِنْ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ؟ قَالَ:

فَقَالَ: «نَعَمْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرُؤُهَا وَيَعْدُهَا آيَةً مِنْهَا وَيَقُولُ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي»<sup>٤</sup>.

وعن أُمِّ سَلَمَةَ - بِالطَّرِيقِ الْعَامِّيِّ -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ: «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ \* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»<sup>٥</sup> إِلَى أَنْ قَالَتْ: وَعَدَّ «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» آيَةً، وَلَمْ يَعُدَّ: «عَلَيْهِمْ»<sup>٦</sup>.

وعن علي عليه السلام أنه سُئِلَ عَنْ السَّبْعِ الْمَثَانِي، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّمَا هِيَ سِتُّ آيَاتٍ فَقَالَ: «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» آيَةٌ<sup>٧</sup>.

وعن ابن عباس، قال: السَّبْعُ الْمَثَانِي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ. قِيلَ: فَأَيُّ السَّابِعَةِ؟ قَالَ: «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ»<sup>٨</sup>.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَرَأْتُمُ الْحَمْدَ، فَاقْرَأُوا»، «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» فَإِنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، إِحْدَى «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» آيَاتِهَا<sup>٩</sup>.

وَأَمَّا كَوْنُهَا كَجُزءٍ مِنْ سَائِرِ السُّورِ، فَلَيْمَّا رَوَى عَنْ معاوية بن عمار، قال: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِذَا قُمْتُ لِلصَّلَاةِ، أَقْرَأُ «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» فِي فَاتِحَةِ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قُلْتُ: فَلِإِذَا قَرَأْتُ فَاتِحَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ «يَسْمِ اللَّهُ الرَّخْمَنِ الرَّحِيمِ» مَعَ السُّورَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»<sup>١٠</sup>.

١. التهذيب: نعم، هي. ٢. التهذيب ٢: ٢٨٩/١١٥٧.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٠/٢٩.

٤. الفاتحة: ١/١ و ٢.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/٣٠١، ٥٩.

٦. سنن الدار قطني: ١/٣٠٧، ٢١.

٧. سنن الدار قطني: ١/٣١٢، ٣٦.

٨. السنن الكبرى ٢: ٤٥.

٩. سنن الدار قطني: ١/٣١٢، ٣٦، السنن الكبرى ٢: ٤٥، وفيهما: إحداها، بدل: إحدى آياتها.

١٠. الكافي ٣: ١/٣١٢، الاستبصار ١: ١١٥٥/٣١١.

وعن يحيى بن أبي عمران، قال: كتبْتُ إلى أبي جعفر عليه السلام: جُعِلَتْ فداك، ما تقول في رجلٍ ابتدأ بِ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في صَلَاتِهِ وحده في أَمِّ الْكِتَابِ، فَلَمَّا صَارَ إلى غيرِ أَمِّ الْكِتَابِ من السُّورَةِ تَرَكَهَا، فقال العباسي: ليس بذلك بأس؟ فَكُتِبَ بِحُطَّاهُ: «يُعِيدُهَا مَرَّتَيْنِ عَلَى رَغَمِ أَنْفِهِ» يعني العباسي<sup>١</sup>. والظاهر أن إيجاب الإعادة لعدَمِ تَمَامِيَةِ السُّورَةِ، لَا يَكُونُ الْبِسْمَلَةُ وَاجِباً مُسْتَقْلاً. ومن طَرُقِ الْعَامَّةِ، ما روي عن ابنِ عَبَّاسٍ قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَعْرِفُ فَضْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وزاد البرزاز: فإذا أنزلت، عَرَفَ أَنَّ السُّورَةَ [قَدْ] حُتِمَتْ، وَاسْتَقْبِلَتْ، أَوْ ابْتَدِئَتْ سُورَةٌ أُخْرَى<sup>٢</sup>. وعن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: كَانَ الْمُسْلِمُونَ لَا يَعْلَمُونَ انْقِضَاءَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزِلَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فَإِذَا أَنْزِلَتْ عَلِمُوا أَنَّ السُّورَةَ قَدْ انْقَضَتْ<sup>٣</sup>. وعنه أيضاً أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا جَاءَهُ جَبْرِئِيلُ فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، عَلِمَ أَنَّهَا سُورَةٌ<sup>٤</sup>. وعن ابنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ إِذَا جَاءَنِي جَبْرِئِيلُ بِالرُّوحِ، أَوَّلَ مَا يُلْقِي عَلَيَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»<sup>٥</sup>.

وعنه أيضاً، قال: «نَزَلَتْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فِي كُلِّ سُورَةٍ»<sup>٦</sup>. وعن أَنَسٍ، قال: بَيَّنَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقَالَ: «أَنْزِلَتْ عَلَيَّ أَنْفَاءُ سُورَةٍ، فَقَرَأَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ \* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثُرَ»<sup>٧</sup>. وَلَا يَخْفَى أَنَّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا اتَّفَقَتِ الْإِمَامِيَّةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَأَمَّا الْعَامَّةُ فَقَدْ اخْتَلَفُوا عَلَى أَقْوَالٍ شَتَّى، مِنْهُمْ مَنْ انْكَرَ كَوْنَهَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَآلِيهِ أَشَارَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِقَوْلِهِ: اسْتَرَقَ الشَّيْطَانُ مِنَ النَّاسِ

١. الكافي ٣: ٢/٣١٣، الاستبصار ١: ١١٥٦/٣١١، والمراد بأبي جعفر الجواد عليه السلام، والعباس هو هشام بن إبراهيم، وكان يعارض الرضا والجواد عليهما السلام، وقوله «يعيدها مَرَّتَيْنِ» يمكن أن يكون متعلقاً بكتب، فيكون من تنمة كلام الراوي، وقال الفيض: «يعيدها» يعني الصلاة أو البسملة، والأول أظهر، «مرتين» متعلق بقوله: «فكتب» لا بقوله: «يعيدها» إذ لا وجه لتكرار الإعادة.

٢. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٦٨.

٣. مستدرک الحاكم ١: ٢٣٢.

٤. سنن الدارقطني ١: ١٣/٣٠٥، الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٧٠.

٥. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٧٠.

٦. صحيح مسلم ١: ٥٣/٣٠٠، الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٧٠، والآتيان من سورة الكوثر: ١/١٠٨.



أَعْظَمَ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»<sup>١</sup>.

ويقوله: أَغْفَلَ النَّاسَ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَمْ تُنْزَلْ عَلَى أَحَدٍ سِوَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»<sup>٢</sup>.

وفي ذيل كلامه إشارة إلى ما روي عن النبي ﷺ قال: «لَا أُخْرَجُ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِآيَةٍ لَمْ تُنْزَلْ عَلَى نَبِيٍّ بَعْدَ سُلَيْمَانَ غَيْرِي» ثُمَّ قَالَ: «بِأَيِّ شَيْءٍ تَفْتَتِحُ الْقُرْآنَ إِذَا افْتَتَحْتَ الصَّلَاةَ؟» قُلْتُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قَالَ: «هِيَ هِيَ»<sup>٣</sup>.

وما عن الباقر (عليه السلام): «سَرَقُوا أَكْرَمَ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»<sup>٤</sup> وَيَنْبَغِي الْإِتْيَانُ بِهَا عِنْدَ افْتِتَاحِ كُلِّ أَمْرٍ عَظِيمٍ أَوْ صَغِيرٍ لِيُبَارَكَ فِيهِ.

ومنه من قال إنها آية مستقلة ليست جزءاً من سورة.

ومنه من قال إنها جزء من الفاتحة دون غيرها من السور.

واستدل مَنْ قال منهم بأنها جزء من جميع السور بأنه يكفي في إثبات تواتر كونها من جميع السور إثباتها في مصاحف الصحابة فمن بعدها بخط المصحف مع منعهم أن يُكْتَبَ في المصحف ما ليس منه كأسماء السور، وآمين، وغير ذلك، فلو لم تكن قرآناً لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز، لأن ذلك يحول الناس على اعتقادها قرآناً فيكونون مُعَزِّزِينَ بِالْمُسْلِمِينَ، حامِلِينَ لَهُمْ عَلَى اعْتِقَادِ مَا لَيْسَ بِقُرْآنٍ قُرْآنًا، وهذا مما لا يجوزُ اعتقاده في الصحابة.

إِنْ قِيلَ: لَعَلَّهُ أُثْبِتَ لِلْفَضْلِ بَيْنَ السُّورِ. أَجِيبَ: بِأَنَّ هَذَا فِيهِ تَغْيِيرٌ، وَلَا يَجُوزُ ارْتِكَابُهُ لِمُجَرَّدِ الْفَضْلِ، وَلَوْ كَانَتْ لَكُنْتَيْنِ بَيْنَ بَرَاءَةِ وَالْأَنْفَالِ.

## الطَّرْفَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ

فِي أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ

بَيْنَ مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ وَفِي تَعْرِيفِ كُلِّ مِنْهَا

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ قِسْمَانِ: مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ

١. الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ١: ٢٦٨.

٢. تَفْسِيرُ الْعِبَاشِيِّ ١: ٧٧/١٠٠.

٣. الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ١: ٢٦٨.

٤. الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ١: ٢٦٨.

هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ<sup>١</sup>، واختلفت في تعريفهما الروايات وكلمات العلماء. والحقُّ أنَّ المراد بالمُحكَّم: هو الكلام الواضح الدلالة بحيث لا يكون للعرف - ولو بملاحظة القرائن المُكتَنفة به - تحيُّز في استفادة المراد منه، ولا يحتاج في تعيين المقصود منه إلى الرجوع إلى العالم أو إلى القرائن المنفصلة والأدلة العقلية والنقلية الخارجية.

والمراد بالمتشابه: هو الكلام المُجَمَّل أو المُتَنَبِّه الَّذِي يَشْتَبِه المراد منه على الشرف، بحيث لا يكون له بالوضع أو بالقرائن المتصلة حقيقة أو حُكماً ظهورٌ في المراد منه، بل لابدٌ في الاستفادة منه من الرجوع إلى العالم الخبير بمراد المتكلم، أو إلى الاجتهاد في تحصيل القرائن المنفصلة عن الكلام من حُكم العقل المُستقل، أو سائر كلمات المتكلم.

ولعله إلى ما ذكرنا يرجع ما عن العياشي رحمته الله عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن المُحكَّم والمتشابه فقال: «المُحكَّم ما يُعمَلُ به، والمتشابه ما اشْتَبِه على جاهله»<sup>٢</sup> فَإِنَّ الظاهر أنَّ المراد من قوله: «ما يعمل به»، هو الكلام الَّذِي لا يتوقَّف العرف في فهم المراد منه والعمل به، وهو جميع آيات الأحكام.

كما روي عن ابن عباس، قال: المُحكَّمات: ناسِخه، وحَلَاله، وحَرَامه، وحُدُوده، وفرائضه، وما يُؤْمَن به ويُعمَل به، والمتشابهات: منسوخه، ومقدّمه، ومؤخّره، وأمثاله، وأقسامه، وما يُؤْمَن به ولا يُعمَل به<sup>٣</sup>.

وعن مُجاهد، قال: المحكمات: ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك منه مُتشابه يصدّق بعضه بعضاً<sup>٤</sup>.

وعن الربيع، قال: المُحكَّمات: هي أوامره وزواجره<sup>٥</sup>. إلى غير ذلك من التعريفات، فَإِنَّ جميعها بيانٌ لموارد التنصيص والظهور، وهي جميع الأحكام دون غيرها، فَإِنَّ في غير آيات الأحكام كثيراً ما يكون الإجمال والإهمال. ثمَّ إِنَّه قد غلط من قال باختصاص العلم بتأويل المُتشابهات بالله سبحانه، وإنه ممّا استأثر به ذاته المقدسة، ولا يَعْلَمُه النبي صلّى الله عليه وآله وأوصياؤه المعصومون صلوات الله

في أَنَّ النبي صلّى الله عليه وآله والمعصومين من ذريّته عليهم السلام عالِمون بتأويل المتشابه، وفي تغليب القائلين باختصاص علمه بالله تعالى

١. آل عمران: ٧/٣. ٢. تفسير الصافي ١: ٢٩٥، تفسير العياشي ١: ٣٨/٨٧ «نحوه». ٣. تفسير الطبري ٣: ١١٥. ٤. تفسير الطبري ٣: ١١٥، الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٤. ٥. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٥، وفيه: هي الأمرة الزاجرة.

عليهم أجمعين، فإن فائدة الكلام تفهيم الغير، فلو خلا عن هذه الفائدة، ولو بالنسبة إلى الواحد، كان لغواً، والحكيم تعالى مُزَنَّةٌ عنه، مع أن النبي ﷺ كان يتحدّى بكل آية من الكتاب العزيز، ولا يمكن أن يتحدّى بما لا يعرف المراد منه، ولا يفهم معناه، مع أنه تعالى استثنى عن جميع الخلق غير العالمين بتأويل المُشابهات الراسخين في العلم، وقرنهم بذاته المقدسة في العلم بتأويلها، والمراد بالراسخين في العلم النبي ﷺ وأوصياؤه من بعده صلوات الله عليهم كما في رواية. [عن أحدهما عليه السلام] قال: «فرسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يُعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله»<sup>١</sup>.

وعن أمير المؤمنين - في حديث - قال: «إن الله جلّ ذكره بسعة رحمته ورافته بخلقه، وعلمه بما يُحدّثه المُبدّلون من تغيير كلامه»<sup>٢</sup>، قسّم كلامه ثلاثة أقسام؛ وجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه، ولطف حسه، وصحّ تميزه، ممّن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلا الله وأنبياءه<sup>٣</sup> والراسخون في العلم»<sup>٤</sup>.

وعن العياشي: عن الصادق عليه السلام - في حديث - قال: «نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلّم تأويله»<sup>٥</sup>.

وعن ابن عباس بطريق عامي في قوله: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»<sup>٦</sup> قال: أنا ممن يعلم تأويله<sup>٧</sup>.

وعن مجاهد، في قوله: «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» قال: يعلمون تأويله، و«يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ»<sup>٨</sup>. وعن الضحّاك، قال: الراسخون في العلم يعلمون تأويله، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه ومنسوخه<sup>٩</sup>، ولا حلاله ولا<sup>١٠</sup> حرامه، ولا مُحْكَمه عن<sup>١١</sup> مُشابهه<sup>١٢</sup>.

وعن النووي على ما نقله السيوطي عنه، أنه قال في (شرح مسلم): إنه الأصح؛ لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته<sup>١٣</sup>.

ثم أن منشأ غلط أكثر أهل السنّة في المقام، توهم كون الواو في «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» استئنافاً

١. الكافي ٢/١٦٦. ٢. في الإحتجاج: كتابه. ٣. في الإحتجاج: وأماؤه.

٤. الإحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٥. ٥. تفسير العياشي ١: ٦٤٨/٢٩٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.

٦. آل عمران: ٧/٣. ٧. والإتقان في علوم القرآن ٣: ٦. ٨. في الإتقان: من منسوخه.

٩. في الإتقان: من. ١٠. والإتقان في علوم القرآن ٣: ٦. ١١. والإتقان في علوم القرآن ٣: ٦.

و[ما]بعده مبتدأ وقوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾<sup>١</sup> خبره، وهو بمكان من الضعف لِقُوَّة ظُهور الواو في العطف، وعدم وجود قرينة في المقام تليق أن تكون صارفاً عنه.

وأضعف منه تأييد بعضهم هذا التوهم بأن الآية دلّت على ذمّ متبوعي المتشابه، ووضفهم بالزيف وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله، وسلّموا إليه، حيث إنّ الآية دالّة على ذمّ أهل الزيف غير العالمين بتأويل المتشابه، بأنهم مع جهلهم بتأويله يؤوّلونه ويتبعونه لا طلباً للحق، بل ابتغاءً للفتنة، ففيهم جهات عديدة الذمّ.

وأما الراسيخون في العلم فإنهم ليعلمهم بتأويله، ومعرفتهم بالعلوم المُندرجة في المُتشابهات، يتجَاهرون بالإيمان بها، ويشهدون على رؤوس الأشهاد بأنّها كلام الله كالمُحكّمات.

ولو كان أهل الزيف والعلم مشاركين في الجهل بالتأويل مُتفاوتين في الإيمان واليُفاق لم يحسن توصيف المؤمنين بالعلم، بل كان الأنسب أن يقال: (وأما الرّاسيخون في الإيمان يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا) مع أنّ التأييد المذكور لا يقاوم البرهان الذي قلّمناه من لزوم اللغو على الحكيم، وهو محالّ عند العدليّة، ومُستبعدٌ عند من يُجَوِّز القبيح على الله من الأشاعرة.

وأما استدلالهم بما رَووه بطرُقهم، عن الأعمش، قال: إنّ في قراءة ابن مسعود (إنّ تأويله إلّا عند الله والراسيخون في العلم يقولون آمنا به)<sup>٢</sup> فهو هوّ سنداً ودلالةً لعدم كون ما نُقل عنه قرآناً يقيناً، بل هو تفسيرٌ له، ولعلّ مراده أنّ الراسيخين لا يؤوّلون المتشابه من قِبَل أنفسهم وأهوائهم، بل بتعليم الله إيّاهم.

فالعلم به أولاً عند الله، ثمّ بإفاضته يعلمه الراسيخون ويقولون: آمنا به كلّ من المُحكّم والمُتشابه من عند الله، كاشفاتٌ عن العلوم غير المُتناهية الإلهيّة، وبهذا يُجمع بين الرواية السابقة عن ابن عباس، وما روي عنه من قراءته: (وما يعلم تأويله إلّا الله ويقول الراسيخون في العلم آمنا به)<sup>٣</sup> وما روي عن أبيّ بن كعب أنّه قرأ: (ويقول الراسيخون)<sup>٤</sup>.

ومثله في الوهن استدلالهم بما روي عن أبي مالك الأشعري أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمّتي إلّا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتلوا، وأن يُفتَح لهم الكتاب

١. آل عمران ٣: ٧. ٢. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٧. والآية من سورة آل عمران: ٧/٣

٣ - ٤. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٥

٣. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٦

فيأخذه المؤمن، يبتغي تأويله وما يعلم تأويله إلا الله<sup>١</sup>. حيث إن المراد من الأمة المخوف عليهم التأويل، غير الراسخين في العلم، كما أن المراد من الذين يخاف عليهم التحاسد والمقاتلة غير المعصومين منهم، ولا دلالة لعدم ذكر بقية الآية على شيء.

كما أن الخطاب فيما روي عنه ﷺ أنه قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به»<sup>٢</sup> متوجه إلى غير الراسخين في العلم العالمين بتأويله من لدن حكيم عليم، فإنهم الذين لا يجوز لهم إلا الإيمان والتعلم من أهل العلم والذكر.

وكذا ما عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وأمير، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأجلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا»<sup>٣</sup>.

فحاصل مدلول هذه الروايات، أن وظيفة غير الراسخين من الناس السكوت عن تأويل المتشابهات، وعدم القول فيه من قبل أنفسهم، والإيمان بها، والإقرار بأنها من عند الله، كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: نؤمن بالمحكم وندين به، ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به - أي لا نعمل به - وهو من عند الله كله<sup>٤</sup>.

وأعجب من جميع الاستدلالات، استدلالهم بصنيع عمر بن الخطاب، حيث روي أن رجلاً يقال له عبدالله بن صبيح<sup>٥</sup> قديم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبدالله صبيح، فأخذ [عمر] عرجوناً فضربه حتى أدمى رأسه<sup>٦</sup>.

وفي رواية: فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبزة ثم تركه حتى برى، ثم عاد [إليه] ثم تركه حتى برى، ثم دعاه ليعود فقال: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، فأذن له الرجوع إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: ألا يجالسوه أحد من المسلمين، انتهى<sup>٧</sup>.

فإن الاستدلال بهذا الخبر على الطعن في عمر وأنه أظلم الظالمين، أولى من الاستدلال به على

٣. الدر المنثور ٢: ١٤٩. ٤. الإقناع في علوم القرآن ٣: ٨.

٥. في النسخة: صنيع (بضع)، وما أثبتناه من المصادر.

٦. تفسير القرطبي ٤: ١٤، الدر المنثور ٢: ١٥٢، الإقناع في علوم القرآن ٣: ٨.

٧. الإقناع في علوم القرآن ٣: ٨.

عدم العلم بتأويل المُتشابهات حتَّى للرَّاسخين، لأنَّ فعله لا يكون حِجَّةً إلَّا على ظُلمه، ولعلَّ ارتكابه له في حقِّ هذا السائل المتعلِّم، من جهة أنَّ سؤاله هذا كان سبباً لاهتدائه إلى باب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وشدَّة ظهور فضله على النَّاس، وجَهل غيره.

وكانَ ذهابُ أكثر شيعته إلى القول بجَهل النَّبي ﷺ بالكتاب الَّذي أنزل عليه، لِتلازُم اعترافهم بعلم النَّبي ﷺ اعترافهم بعلم أمير المؤمنين عليه السلام به، واضطرار الخلق إلى بابه، لأنَّه ﷺ باتِّفاق الأُمَّة مدينةُ العلم، وعليَّ بآئها، وإليه أشار أمير المؤمنين صلوات الله عليه في حديث بيان المُتشابه حيث قال: «إنَّما فعل [الله] ذلك لئلاَّ يدَّعي أهلُ الباطل من المُستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب مالم يجعله لهم، وليُقودهم الاضطرار إلى الائتمار بمن ولَّاه أمرهم فاستكبروا عن طاعته تعزُّزاً وافتراءً على الله عزَّ وجل...» الخبر<sup>١</sup>.

## الطَّرْفَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ

في حكم كون كثير من الآيات متشابهاً،

وعدم كون جميعها محكمات

لا يخفى أنَّ فوائدَ جَعَل كثيرٍ من آياتِ القرآنِ مُتشابهاتٍ، وعدم جَعَلِ كُلِّها مُحكمات كثيرةٌ وحِكْمَةٌ وفيرةٌ:

منها: ما أشار إليه أمير المؤمنين صلوات الله عليه في الرواية السابقة من اضطرار النَّاس إلى الرَّجوع إلى الرَّاسخين في العلم، والائتمار بأوامرهم، فإنَّهم إذا حضَّروا في مجالسهم لاستِفادة علم القرآن، عرفوا شأنهم وعُلُوَّ مقامهم، وازدادوا [في] موالاتهم ومحبتهم، واقتدوا بأعمالهم، واكتسبوا من أخلاقهم.

ومنها: تَبَيَّن فَضْل العلماء على سائر النَّاس واختلاف مراتبهم.

ومنها: اضطرار أهل الإيمان إلى التدبُّر والتفكُّر في القرآن، فبالدَّبُّر فيه تَظَهَّر دِقائقه، وتُكشِف حقائقه، ويحصل كمالُ التَّوْحِيد، وتَمَامُ المعرفة، وقوَّةُ اليقين، وتَبَّات الإيمان، ولو كان كُلُّهُ مُحكمًا لتعلَّقوا به لسهولة مأخذه، وأعرضوا عن الغُور في غوامضه.

ومنها: شدة الاهتمام بحفظه، وزيادة الحبِّ بمضامينه، إذ الإنسان إذا تحملَ المشقة في تحصيل شيء، كان له أحبُّ وأحفَظ.

ومنها: زيادة عظم القرآن في الأظفار، حيث إنَّ العادة قاضية بأنَّ كلَّ كتابٍ كان فهُم مطالبه أشكَل، كان قَدْرُه عند النَّاس أعظم.

ومنها: فتنَةُ الخلْقِ وامتحانهم بها، وتبيين الصادقين في الإيمان من الكاذبين، فإنَّ الحكمة البالغة مقتضية لأن لا يَسُدَّ على أحدِ بابُ الغيِّ والضلال في حالٍ من الأحوال، ولا يكون لأحدٍ إجماعٌ وقهرٌ على الالتزام بالحقِّ وقبول الرُّشاد، وإذا كانت جميع الآيات مُحكَّمات لم يكن لأهل الزَّيغ مجال ابتغاء الفتنَةِ والفَساد مع إتمام الحجَّة عليهم بالأمر بالرجوع فيها إلى الحُجج البالغة، والزَّجر عن التكلم فيها، وابتغاء تأويلها بالأهواء الزائغة.

والحاصل: أنَّ الحكيم المُتعال جعل كتابه التدويني مطابقاً لكتابه التكويني، وكما أنَّه جعل غالب آياتِ الكتابِ التكويني من موجودات العالم مُتشابهاتٍ، حيث جعل الطبائع فيها، والأسباب والمؤثرات لها، حتَّى يبقى للدُّوات الخبيثة وذوي الأهواء الفاسدة والعقول المغلوبة الكاسدة مجالاً للقول بخالقِية الطبيعة، وألوهية الشَّمس وسائر الأجرام الفلكية، وإنكار الصانع الحكيم لعدم علمهم بتأويلها، وقصور نظرهم عن رؤية ما وراء طبائعها وأسبابها، وزَيغ قلوبهم عن إدراك مُسبب الأسباب وخالقها، مع إتمام الحجَّة عليهم بإرسال العقل، العالم بتأويل تلك المُتشابهات إليهم، وجعله هادياً لهم، وتأييده بالأنبياء المرسلَةِ والكتب المُنزلة.

فالدُّواتُ الخبيثةُ بِزَيغ قلوبهم يؤوِّلون تلك الموجودات المُتشابهات التكوينية من قِبَل أنفُسهم، ويتَّبِعون ما تشابه ابتغاء الفتنَةِ، وأمَّا الدُّوات الطيبة، والنفوس الزكية، فيبصِّرون قلوبهم يراجعون إلى العقل السليم الذي هو الإمام الرايخ في العلم، ويتعلَّمون منه التأويل، ويتمسكون بالبرهان من عدم إمكان كَوْن المَخْلوق خالقاً، والمتغيِّر واجباً، فعند ذلك يقولون: أمَّا، كلُّ من المُحكَّمات الواضحات الدلالات على خالقها، والمُتشابهات من الموجودات بالأسباب والمؤثرات التي جميعها آياتُ كتابِ التكوين، من عند ربِّنا.

كذلك جعل كثيراً من آيات كتاب التدوين وهو القرآن المبين مُتشابهات، ليمتاز أهل الزَّيغ واليغافق من المُتظاهرين بالإيمان بالكتاب، عن أهلِ الصِّدق والإخلاص، فلو لم يكن في موجودات العالم

تُشابهه، ولم يكن في كتاب التكوين مُشابه، بل كان كُلُّها مُحكَّمات، لم يحصل الامتحان والاختيار، وكان إيمانُ المؤمن شُبْهَ الإلْجاء والإجبار، وكذلك لو لم يكن في القرآن مُشابهات لم يحصل للمُقرِّين به الفِئْنة والامتحان ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾<sup>١</sup>.

## الطَّرْفَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ

في أَنَّ الحروفَ المَقْطَعَةَ التي تكون في أوائل السُّور  
من أبين مصاديق المُتشابه، وبيان المراد منها

من أبين مصاديق المُتشابه في القرآن، الحروفُ المَقْطَعَاتُ التي تكون في أوائل السُّور، ولا شُبْهَةٌ أنَّها رموزٌ وأسرارٌ بين الله تعالى والرَّاسخين في العلم، لا يَطْلُعُ عليها غيرُهم. عن الشعبي، أنه سُئِلَ عن فَوَاتِحِ السُّور، فقال: إِنَّ لِكُلِّ كتابٍ سِرًّا، وإنَّ سِرَّ هذا القرآن فَوَاتِحُ السُّور<sup>٢</sup>.

واختلَفَت الأخبارُ في بيان المراد منها، وأكثرها تدلُّ على أَنَّ كُلَّ حرفٍ منها رمزٌ من اسمٍ من الأسماء الحُسنى، كما عن السَّدي، قال: فَوَاتِحِ السُّور أسماءٌ من أسماءِ الرَّبِّ جَلَّ جلاله، فُرِّقَتْ في القرآن<sup>٣</sup>.

وقال الزَّجاج: إِنَّ العَرَبَ كانوا يَنْطِقُونَ بالحرف الواحد، كنايةً عن الكلمة التي هو منها<sup>٤</sup>. وقال القاضي أبو بكر ابن العربي في الحروف المَقْطَعَات: إِنَّه لولا أَنَّ العَرَبَ كانوا يَعْرِفُونَ أَنَّ لها مدلولاً مُتداوِلًا بينهم، لكانوا أَوَّلَ من أنكَر ذلك على النبي ﷺ بل ثَلَا عليهم حَمَّ فَصَلَّتْ وَصَّ وغيرهما، فلم يُنْكَروا عليه ذلك، بل صرَّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تَشَوُّقهم إلى عثرته، وحِزْصِهِم على زلته، فدَلَّ على أَنَّهُ كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار لهم فيه، انتهى<sup>٥</sup>.

أقول: كان يكفي تداوُلُ التكنية والإرماز بالحروف المَقْطَعَةَ في عدم تمكنهم على الإنكار والاعتراض، ولا يلزم معرفتهم بخصُوص المعنى تَفْصيلاً، ولَعَلَّ مُرادَه المعرفة الاجمالية. وقد تظافرت رواياتُ الخاصَّة والعامة على أَنَّها رموزٌ وكِناياتٌ عن أسماءِ الله تعالى وتَعيينها وتَبَيُّنها.

١. العنكبوت: ٢٩/٢. ٢. الإنشقاق في علوم القرآن ٣: ٢٤.

٣. الإنشقاق في علوم القرآن ٣: ٢٦. ٤. الإنشقاق في علوم القرآن ٣: ٢٧.

٥. الإنشقاق في علوم القرآن ٣: ٣٠.



عن (المجمع): عن الصادق عليه السلام: «أَنْ (صَ) اسمٌ من أسماء الله تعالى، به أَقَسَمَ الله»<sup>١</sup>.  
وعن ابن عباس، قال: (أَلَمْ) و(طَسَمَ) و(صَ) وأشباهها قَسَمَ أَقَسَمَ الله به، وهو من أسماء الله تعالى<sup>٢</sup>.  
وعن أبي العالية في (أَلَمْ) قال: هذه الأحرف الثلاثة من الأحرف التسعة والعشرين، دارت بها الألسن، ليس منها حرفٌ إلَّا وهو مفتاح اسمٍ من أسمائه تعالى<sup>٣</sup>.  
أقول: يدلُّ على ذلك ما وراه الصدوق عليه السلام في (أماليه) من تفسير المعصوم: «كُلُّ حرفٍ من حروف (أَبْجَد) باسمٍ من أسماء الله تعالى»<sup>٤</sup>.  
وعن تفسير ابن ماجة، من طريق نافع، عن أبي نُعَيْم القارئ، عن فاطمة بنت علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أنها سمعت علي بن أبي طالب يقول: «يا كَهَيْعَصَ اغفر لي»<sup>٥</sup>.  
وعن (المجمع): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال في دعائه: «[أَسْأَلُكَ يَا كَهَيْعَصَ]»<sup>٦</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام في حديث: «وَأَمَّا (أَلَمْ) في [أَوَّلِ] آلِ عِمْرَانَ فمعناه: أنا الله المجيد»<sup>٧</sup>.  
وعنه عليه السلام في حديث: «و(المَصَّ) معناه: أنا الله الْمُقْتَدِرُ الصادق»<sup>٨</sup>.  
ومن طريق العامة عن الضحاك مثله<sup>٩</sup>.  
وقيل: معنى (المَصَّ): الْمُصَوِّرُ<sup>١٠</sup>.  
وعن محمد بن كَعْبِ القُرْظِي، قال: (المَصَّ) الألف: من الله، والميم من الرحمن، والصاد: من الصَّمَدِ<sup>١١</sup>.

وعن ابن عباس: معنى (المَصَّ): أنا الله أَفْصِلُ<sup>١٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في «كَهَيْعَصَ»: «معناه أنا الكافي، الهادي، الولي، العالم، الصادق الوعد»<sup>١٣</sup>.  
وعنه عليه السلام أيضاً: «كافٍ لشعبتنا، هادٍ لهم، وليٌّ لهم، عالمٌ بأهل طاعتنا، صادقٌ لهم وعده حتَّى يبلغ

١. مجمع البيان ٨: ٧٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.

٢. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٣٠.

٣. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٢٨.

٤. معاني الأخبار: ١/٢٢.

٥. الدر المنثور ٣: ٤١٣.

٦. معاني الأخبار: ١/٢٢.

٧. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٢٧.

٨. انظر أمالي الصدوق: ٥٠٨/٣٩٥.

٩. مجمع البيان ٦: ٧٧٥، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.

١٠. معاني الأخبار: ١/٢٢.

١١. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٢٥.

١٢. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٢٤.

[بهم] المَنْزِلَةُ الَّتِي وَعَدَهُمْ إِيَّاهَا فِي نَصِّ الْقُرْآنِ<sup>٢</sup>.

وعن ابن مسعود وناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿كَهَيَّعَصَ﴾<sup>٣</sup>: قالوا هو هِجَاءٌ مَقْطَعٌ؛ الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من الْمُصَوِّرِ<sup>٤</sup>. وفي نقل آخر: والصاد من الصُّمْدِ<sup>٥</sup>.

وعن أمّ هاني، عن رسول الله ﷺ قال: «كافٍ، أمينٌ، عالمٌ، صادق»<sup>٦</sup>.  
أقول: الظاهر أنه سَقَطَ من الرواية تفسير الهاء، كما أنَّ الظاهر سقوط تفسير الياء أو العين ممَّا نقل عن ابن مسعود.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿كَهَيَّعَصَ﴾ قال: الكاف: الكافي، والهاء: الهادي، والعين: العالم، والصاد: الصادق<sup>٨</sup>.

وعن عِكْرِمَةَ في قوله: ﴿كَهَيَّعَصَ﴾ قال: يقول: أنا الكبير، أنا الهادي، أنا عليّ أمينٌ صادق<sup>٩</sup>.  
وعن ابن عباس، قال: الكاف من كريم، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق<sup>١٠</sup>.

وعنه أيضاً: كافٍ، هادٍ، أمينٌ، عزيز، صادق<sup>١١</sup>.  
وعن محمد بن كَعْبٍ، في قوله: ﴿طَهَ﴾<sup>١٢</sup>، قال: الطاء من ذي الطَّوْلِ<sup>١٣</sup>.  
أقول: وفي عدَّةٍ من روايات الخاصَّة والعامة، أنَّ ﴿طَهَ﴾ اسمٌ من أسماء النبي ﷺ، وفي بعضها: معناه: يا طالبَ الحَقِّ<sup>١٤</sup>.

وعن محمد بن كَعْبٍ، في قوله: ﴿طَسَّمَ﴾<sup>١٥</sup>، قال: الطاء من ذي الطَّوْلِ، والسين من القدُّوس، والميم من الرحمن<sup>١٦</sup>.

---

١. في المعاني والصافي: بطن.  
٢. معاني الأخبار: ٦/٢٨، تفسير الصافي: ٣: ٢٧٣.  
٣. مريم: ١/١٩. ٤. الدر المنثور: ٥: ٤٧٨.  
٥. في الإنشقاق: كافٍ، هادٍ، أمينٌ، وفي الدر: كافٍ، هادٍ.  
٦. الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٦، الدر المنثور: ٥: ٤٧٨.  
٧. الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٦، الدر المنثور: ٥: ٤٧٨.  
٨. الدر المنثور: ٥: ٢٥.  
٩. ٣. والإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٥.  
١٠. طه: ١/٢٠. ١١. الدر المنثور: ٥: ٥٥١.  
١٢. معاني الأخبار: ١/٢٢، وزاد فيه: الهادي إليه.  
١٣. الشعراء: ١/٢٦، القصص: ١/٢٨.  
١٤. الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٦.

وعن الصادق عليه السلام: «أما ﴿حَم﴾<sup>١</sup> فمعناه: الحميد المجيد»<sup>٢</sup>.

وعن سعيد بن جبّير، في قوله: ﴿حَم﴾ قال: الحاء اشتقت من الرحمن، والميم اشتقت من الرحيم<sup>٣</sup>.

وعن محمد بن كعب، في قوله: ﴿حَم \* عَسَى﴾<sup>٤</sup> قال: الحاء والميم من الرحمن، والعين من العليم، والسين من القدوس، والقاف من القاهر<sup>٥</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «أما ﴿حَم \* عَسَى﴾ فمعناه: الحكيم، المغيث<sup>٦</sup>، العالم، السميع، القادر، القوي»<sup>٧</sup>.

وقال بعض العامة: إن القاف هنا اسم الجبل المحيط بالأرض وهو مروّي عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله: ﴿ق﴾<sup>٨</sup>.

وحكي عن الكرمان في قوله: ﴿ق﴾ أنه حرف من اسمه قادر وقاهر<sup>٩</sup>.

وقال بعض في قوله: ﴿ن﴾<sup>١٠</sup>: إنه مفتاح اسمه تعالى: نور وناصر<sup>١١</sup>.

وروي عن الصادق عليه السلام: «إنه اسم النبي ﷺ»<sup>١٢</sup>.

أقول: يمكن أن يُستفاد من مجموع الروايات واختلافها أن كل حرف من الحروف المُقطّعات رمزٌ عن الأسماء الحُسنى التي تضمّت ذلك الحرف، فالقاف رمزٌ عن اسم القاهر، والقادر، والقيوم، وغير ذلك، والصاد: رمزٌ عن المصوّر، والصمد، والصادق، وغير ذلك، والعين: رمزٌ عن العزيز، والعالم، والعليم، وأمثال ذلك.

وفي روايات عديدة: أن مجموع الحروف المُقطّعات رمزٌ عن اسم الله الأعظم.

عن القمي، عن الباقر عليه السلام، في بيان الحروف المُقطّعات: «هو حروف من اسم الله الأعظم المُطوَّع،

١. غافر: ١/٤٠، ..... ٢. معاني الأخبار: ١/٢٢.

٣. الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٦. ٤. الشورى: ١/٤٢.

٥. الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٦. ٦. في المعاني: الحليم المنيب.

٧. معاني الأخبار: ١/٢٢.

٨. معاني الأخبار: ١/٢٢، الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٣٣، والآية من سورة ق: ١/٥٠.

٩. الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٦. ١٠. القلم: ١/٦٨.

١١. الإنشقاق في علوم القرآن: ٣: ٢٦.

١٢. مختصر بصائر الدرجات: ٦٧، الخصال: ٢/٤٢٦ عن الباقر عليه السلام.

يؤلفه النبي ﷺ والامام ﷺ، فيكون الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب<sup>١</sup>.  
وعن المعاني: عن الصادق ﷺ: «الْم» هو حرف من حروف اسم الله الأعظم [المقطع في القرآن الذي] يؤلفه النبي والامام، فإذا دعا به أُجيب<sup>٢</sup>.

وعن ابن مسعود، بسند صحيح عند العامة: هو اسم الله الأعظم<sup>٣</sup>.  
وعن ابن عباس، قال: «الْم» اسم من أسماء الله الأعظم<sup>٤</sup>.  
ونقل ابن عطية عن بعض القول: بأنها الاسم الأعظم، إلا أن لا نعرف تأليفه منها<sup>٥</sup>.  
ومقتضى بعض الروايات أن الراشدين في العلم يستفيدون من تأليفاتها ومن أعدادها بحساب الجمل وعلم الحروف، علوماً كثيرة، كما عن الباقر ﷺ: «علم كل شيء في عَسَق»<sup>٦</sup>.  
وعن (المجمع) عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال: «لكل كتاب صَفْوَةٌ، وصفوة هذا الكتاب حروفُ التَّهَجِّي»<sup>٧</sup>.

وعن (المعاني) و(العياشي): عن الصادق ﷺ أنه أتاه رجل من بني أمية وكان زنديقاً، فقال له: قول الله عز وجل في كتابه: «الْمَص»<sup>٨</sup> أي شيء أراد بهذا، وأي شيء فيه من الحلال والحرام، وأي شيء فيه مما يتفجع به الناس؟

قال: فاغتاض ﷺ من ذلك، فقال: «أَمْسِكْ ويحك؛ الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، كم معك؟» فقال الرجل: مائة وإحدى وستون. فقال ﷺ: «إذا انقضت إحدى وستون ومائة ينقضي ملك أصحابك».

قال: فنظر الرجل فلما انقضت إحدى وستون<sup>٩</sup> ومائة يوم عاشوراء دخل المسودة الكوفة، وذهب ملكهم<sup>١٠</sup>.

وفي رواية أبي كبيد المخزومي، عن أبي جعفر ﷺ قال: «إن لي في حروف القرآن المقطعة لعِلماً

٢. معاني الأخبار: ٢/٢٣.

٤. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٢٧.

٦. تفسير القمي ٢: ٢٦٨، والآية من سورة الشورى: ٢/٤٢.

٨. الأعراف: ١/٧.

٩. كذا في العياشي، وفي معاني الأخبار: سنة إحدى وثلاثون، وهو الصحيح الموافق لتاريخ سقوط دولة بني أمية، وللعلامة المجلسي رحمه الله تأويل للتاريخ المذكور (١٦١). راجع بحار الأنوار ١٠: ١/١٦٣.

١٠. تفسير العياشي ٢: ١٥٤٤/١٣٥، معاني الأخبار: ٥/٢٨.

١. تفسير القمي ٢: ٢٦٧.

٣. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٢٧.

٥. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٢٧.

٧. مجمع البيان ١: ١١٢.

جَمْعًا إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ ﴿الْم﴾ \* ذَلِكَ الْكِتَابُ<sup>١</sup> فقام محمد ﷺ حَتَّى ظَهَرَ نُورُهُ، وَثَبَتَتْ كَلِمَتُهُ، وَوُلِدَ يَوْمَ وَلِدَ، وَقَدْ مَضَى مِنَ الْأَلْفِ السَّابِعِ مِائَةَ سَنَةٍ وَثَلَاثَ سِنِينَ.

ثُمَّ قَالَ: «وَتَبَيَّنَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ إِذَا عَدَدْتَهَا مِنْ غَيْرِ تَكَرُّارٍ، وَلَيْسَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ حَرْفٌ تَنْقُضِي أَيَّامَهُ إِلَّا وَقَائِمٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ عِنْدَ انْقِضَائِهِ».

ثُمَّ قَالَ: «الْأَلْفُ وَاحِدٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، وَالصَّادُ تِسْعُونَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ وَاحِدٌ وَسِتُّونَ، ثُمَّ كَانَ بَدْوُ خُرُوجِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ﷺ ﴿الْم﴾ \* اللَّهُ<sup>٢</sup> فَلَمَّا بَلَغَتْ مَدَّتُهُ قَامَ قَائِمٌ وَلَدَ الْعَبَّاسِ عِنْدَ ﴿الْمَصِّ﴾ وَيُقَوْمُ قَائِمُنَا عِنْدَ انْقِضَائِهَا بِ﴿الْمَرِّ﴾ فَافْهَمَ ذَلِكَ وَعُدُّ<sup>٣</sup> وَاكْتُمُهُ<sup>٤</sup> الْخَبِيرُ<sup>٥</sup>.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الرِّوَايَةَ مِنَ الْمَشْكَلَاتِ الَّتِي يَجِبُ رَدُّ عِلْمِهَا إِلَيْهِمْ ﷺ وَإِنْ تَصَدَّى لَشَرْحِهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَعَلَّهُ يُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَنْزَلَ ﴿الْم﴾ \* ذَلِكَ الْكِتَابُ» فقام محمد ﷺ، وَجَهٌ تَقْدِيمُ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى سَائِرِ السُّورِ، حَيْثُ إِنَّ فِيهَا إِشَارَةً إِلَى قِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَيَذْوِ بَعْتِهِ.

وَمِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِيَابٍ، قَالَ: مَرَّ أَبُو يَاسِرَ بْنِ أَخْطَبَ فِي رَجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَتْلُو فَاتِحَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿الْم﴾ \* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» فَأَتَى أَخَاهُ حَبِيبَ بْنَ أَخْطَبَ فِي رَجَالٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَقَدْ سَمِعْتُ مُحَمَّدًا ﷺ يَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿الْم﴾ \* ذَلِكَ الْكِتَابُ» فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَمَشَى حَبِيبٌ فِي أَوْلَئِكَ النَّفَرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَلَمْ تَذْكُرْ أَنَّكَ تَتْلُو فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ ﴿الْم﴾ \* ذَلِكَ الْكِتَابُ؟ فَقَالَ: «بَلَى».

فَقَالُوا: لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءَ مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ نَبِيِّ مِنْهُمْ مَا مَدَّةُ مُلْكِهِ وَمَا أَجَلُ أَمَّتِهِ غَيْرُكَ؛ الْأَلْفُ بَوَاحِدٍ، وَاللَّامُ بِثَلَاثِينَ، وَالْمِيمُ بِأَرْبَعِينَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً، أَفَنْدَخُلُ فِي دِينِ نَبِيِّ إِنْمَا مَدَّةُ مُلْكِهِ وَأَجَلُ أَمَّتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً؟

ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، ﴿الْمَصِّ﴾». قَالَ: هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْأَلْفُ بَوَاحِدٍ، وَاللَّامُ بِثَلَاثِينَ، وَالْمِيمُ بِأَرْبَعِينَ، وَالصَّادُ بِتِسْعِينَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسِتُّونَ وَمِائَةُ سَنَةٍ، هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟ [قَالَ: «نَعَمْ، أَلَرَّ»، قَالَ: هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالرَّاءُ مِائَتَانِ، هَذِهِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَمِائَتَانِ سَنَةً. هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ؟] قَالَ: «نَعَمْ، أَلَمَرِّ». قَالَ: هَذِهِ أَثْقَلُ وَأَطْوَلُ، الْأَلْفُ بَوَاحِدٍ، وَاللَّامُ

١. البقرة: ١/٢. ٢. آل عمران: ١/٣. ٣. في العياشي والبحار: وعه.

٤. تفسير العياشي ٢: ١٣٦/١٥٤٥، تفسير الصافي ١: ٧٧، بحار الأنوار ٩٢: ٢٣٣/٢٣٣.

بثلاثين، والميم بأربعين، والراء بمائتين، هذه إحدى وسبعون ومائتا سنة.

ثم قال: لقد لبس علينا أمرك حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً. ثم قال: قوموا عنه.

ثم قال أبو ياسر لأخيه ومن معه: ما تدريكم، لعلّه قد جُمع هذا كله لمحمد؛ إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة. فقالوا: لقد تشابه علينا أمره. فیزعمون أن [هؤلاء] الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾<sup>١</sup>.

وعن (الكمال) عن الحجة القائم عجل الله فرجه في حديث أنه سئل عن تأويل ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فقال: «هذه الحروف من أنباء الغيب، أطلع الله [عليها] عبده زكريّا ثم قصّها على محمد ﷺ، وذلك أن زكريّا سأل ربه أن يعلمه أسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبرئيل فعلمه إياها، فكان زكريّا إذا ذكر محمداً ﷺ وعليّاً وفاطمة والحسن ﷺ سريّ عنه همّة وانجليّ كرتّه، وإذا ذكر الحسين ﷺ خنقته العبرة، ووقعت عليه البهرة»<sup>٢</sup>.

فقال ذات يوم: النهي، ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم تسليّت بأسمائهم من همومي، وإذا ذكرت الحسين ﷺ تدمع عيني، وتثور زفرتي؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته، فقال: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد لعنه الله، وهو ظالم الحسين ﷺ والعين عطشّه، والصاد صبرّه. فلمّا سمع ذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة أيّام، ومنع فيها الناس من الدخول عليه، وأقبل على البكاء والنحيب»<sup>٣</sup> الخبر.

ثم لا يذهب عليك أنه لا منافاة بين الأخبار لإمكان أن تكون ذات الحروف المقطعة كتابة ورمزاً عن أمور، وتركيبها عن أمور، وعددها إشارة إلى أمور.

ويستفاد بعض أنحاء استفادتهم ﷺ العلوم من الكتاب، من الرواية الواردة عن الباقر ﷺ في تفسير الصمد حيث سأله عن مسائل وأجابهم، ثم سأله عن الصمد، فقال: «تفسيره فيه، الصمد خمسة أحرف: فالإلف دليل على إتيته وهو قوله عز وجل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾<sup>٤</sup>، وذلك تنبيه

١. تفسير الطبري ١: ٧١، الإنقان في علوم القرآن ٣: ٢٩، والآية من سورة آل عمران: ٧/٣.

٢. البهرة: تنابع النفس وانقطاعه من الأعياء. ٣. كمال الدين: ٢١/٤٦١.

٤. آل عمران: ١٨/٣.

وأشارة إلى الغائب عن ذَرَكِ الحَوَاسِ، واللام دليل على الهيته وأنه هو الله، والألف واللام مُدْعَمَانِ لا يظهران على اللسان ولا يقَعان في السمع، ويظهران في الكتابة، دليلان على أن الهيته بَلُطْفِهِ خافية لا تُدْرِك بالحَوَاسِ، ولا تَقَع في لسانِ واصِفٍ، ولا أُذُنِ سامِعٍ، لأن تفسير الإله: هو الذي أَلِهَ الخَلْقَ عن ذَرَكِ ماهيته وكيفيته بحسٍّ أو بَوْهَمٍ، لأنه مُبدِع الأروهام، وخالق الحَوَاسِ، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة دليل على أن الله تعالى أظهر ربوبيته في إيداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم يَرِ روحه، كما أن لَمْ الصَّمَدَ لاتبين<sup>١</sup> ولا تدخل في حاسة من الحواس الخمس، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولُطِفَ، فمتى تفكر العبد في ماهية الباري وكيفيته أله فيه وتحير ولم تحط فكرته بشيء يتصور له، لأنه عز وجل خالق الصُّور، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عز وجل خالقهم ومركب أرواحهم وأجسادهم<sup>٢</sup>.

وأما الصاد فدليل على أنه عز وجل صادق، وقوله صادق، وكلامه صادق، ودعا عباده إلى اتباع الصِّدْق [بالصدق و] وعد بالصدق دار الصِّدْق.

وأما الميم فدليل على ملكه وأنه المَلِكُ الحق، لم يزل ولا يزال [ولا يزول] ملكه. وأما الدال فدليل على دوام ملكه، وأنه عز وجل دائم متعالٍ عن الكون والزوال، بل هو عز وجل مكوّن الكائنات، الذي كان بتكوينه كل كائن<sup>٣</sup>.

ثم قال ﷺ: «لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حَمَلَةً لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصَّمَد، وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين ﷺ حَمَلَةً لعلمه، حتى كان يتنفس الصُّعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني، فإن بين الجوانح مني علماً جعاً، ها هاه، ألا لا أجد من يحمله، ألا وإني عليكم من الله الحجة البالغة» الخبر<sup>٤</sup>.

ثم اعلم أن ما ذكرناه من الفوائد للحروف المقطعة مختص بالحَوَاسِ، وهم الراسخون في العلم، وأما فائدتها لعامة الناس فهي على ما قيل: إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه، فأنزل الله تعالى هذا النظم البديع ليعجبوا منه، فيكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده، فترقِّ القلوب وتلين الأفئدة<sup>٥</sup>.

١. في التوحيد: لا تبتين.

٢. في التوحيد: لا تبتين.

٣. في التوحيد: لا تبتين.

٤. في التوحيد: لا تبتين.

٥. في التوحيد: لا تبتين.

وقيل: إنه ذكرت هذه الحروف المقتطعة إشعاراً بأن القرآن مؤلف من الحروف التي هي (ا، ب، ت) ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها ويتداولونها في ألسنتهم، فيكون ذلك تقريباً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله بعد أن علموا أنه منزل بالحروف التي يعرفونها وينون كلامهم منها<sup>١</sup>.

والى هذا الوجه أشار العسكري رحمته في التفسير المنسوب إليه<sup>٢</sup>.

## الطرفة التاسعة عشرة

في بيان معنى التفسير والتأويل، وعدم كون بيان

المراد من الظاهر تفسيراً منهياً عنه، واختصاص

العلم بالتأويل بالراسخين في العلم

التفسير: هو كشف القناع عن المعنى، وتوضيح المقصود من الكلمة أو الكلام.

والتأويل: هو أول الكلام وإرجاعه إلى بعض المعاني البعيدة المحتملة منه. وقيل: هما واحد.

والظاهر أن بيان المراد من المحكمات، نصاً كان المحكم أو ظاهراً، ليس من التفسير أو من المنهي عنه، لثواتر الأمر بالتمسك بالكتاب والعمل به، وعرض الأحاديث عليه، وترجيح المتعارضات منها به، وتمييز الشروط الصحيحة عن الفاسدة بموافقتها له، وسيرة المسلمين والأصحاب على التمسك بظواهره، فضلاً عن نصوصه.

وأما غير المحكمات فلا شبهة أن العلم به مخصوص بالراسخين في العلم، وأنه لا يجوز لغيرهم التكلم فيه برأيه ومن قيل نفسه عن جزم وبث، وعليه تحمل الروايات الناهية عن تفسير القرآن

بالرأي، أو عليه وعلى القول في المحكمات من دون فحص في الأخبار المعتمدة عن الهداة صلوات الله عليهم عن ناسخها ومقيدها ومخصصها ومبينها.

وقال بعض في وجه الحاجة إلى تفسير الكتاب بالرجوع إلى الراسخين في العلم بالرجوع إلى زائداً على ما ذكرنا: إن من المعلوم أن الله تعالى خاطب خلقه بما يفهمونه، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه، وأنزل كتابه على لغتهم، ومع ذلك يحتاج إلى التفسير

في نقل تحقيق بعض العامة في وجه الحاجة إلى تفسير الكتاب بالرجوع إلى الراسخين في العلم

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٢.

١. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٣١.



لَوْجِهٍ يَظْهَرُ بَعْدَ تَقْرِيرِ قَاعِدَةٍ، وَهِيَ أَنَّ كَلَامَ مِنَ الْبَشَرِ إِذَا وَضَعَ كِتَابًا فَإِنَّمَا وَضَعَهُ لِيُفْهَمَ بِذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْحٍ، وَإِنَّمَا احْتِيجَ إِلَى الشُّرُوحِ لِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: كَمَالُ فَضِيلَةِ الْمُصَنَّفِ، فَإِنَّهُ لِقُوَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ يَجْمَعُ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ فِي اللَّفْظِ الْوَجِيزِ، فَرُبَّمَا عَسَرَ فَهْمُ مُرَادِهِ، فَقَصِدَ بِالشَّرْحِ ظُهُورَ تِلْكَ الْمَعَانِي الْخَفِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ شَرْحُ بَعْضِ الْأَثْمَةِ تَصْنِيفَهُ أَذَلَّ عَلَى الْمُرَادِ مِنْ شَرْحِ غَيْرِهِ لَهُ.

وِثَانِيهَا: إِغْفَالُهُ بَعْضَ نَتِيجَاتِ الْمَسْأَلَةِ، أَوْ شَرْطٍ<sup>١</sup> لَهَا اعْتِمَادًا عَلَى وَضُوحِهَا، أَوْ لِأَنَّهَا مِنْ عِلْمٍ آخَرَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الشَّارِحِ لِبَيَانِ الْمَحْذُوفِ وَمِرَاتِبِهِ.

وِثَالِثُهَا: احْتِمَالُ اللَّفْظِ لِمَعَانٍ، كَمَا فِي الْمَجَازِ وَالِاسْتِثْنَاءِ وَدَلَالَةِ الْإِتِّزَامِ، فَيَحْتَاجُ الشَّارِحُ إِلَى بَيَانِ غَرَضِ الْمُصَنَّفِ وَتَرْجِيحِهِ، وَقَدْ يَقَعُ فِي التَّصَانِيفِ مَا لَا يَخْلُو عَنْهُ بَشَرٌ مِنَ السَّهْوِ وَالْغَلْطِ، أَوْ تَكَرَّرِ الشَّيْءِ، أَوْ حَذَفِ مَبْهَمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَيَحْتَاجُ الشَّارِحُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى ذَلِكَ.

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ فِي زَمَانٍ أَفْصَحَ الْعَرَبُ، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ ظَوَاهِرَهُ وَأَحْكَامَهُ، أَمَّا دِقَاقُ بَاطِنِهِ فَإِنَّمَا كَانَ يَظْهَرُ لَهُمْ بَعْدَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ مَعَ سُؤَالِهِمْ<sup>٢</sup> النَّبِيَّ ﷺ فِي الْكَثِيرِ، كَسُؤَالِهِمْ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَلَيْسُوا إِيمَانَهُمْ يَظْلَمُ﴾<sup>٣</sup> فَقَالُوا: وَأَيْنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسُهُ! فَفَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالشُّرْكِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>٤</sup>، وَكَسُؤَالِ عَائِشَةَ عَنِ الْحِسَابِ الْيَسِيرِ، فَقَالَ: «ذَلِكَ الْعَرَضُ»، وَكَفَصَّةِ عَدِّي بْنِ حَاتِمٍ فِي الْخِيَطِ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَأَلُوا عَنْ أَحَادٍ مِنْهُ، وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَى مَا كَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ الظَّوَاهِرِ، لِقُصُورِنَا عَنْ مَدَارِكِ أَحْكَامِ اللُّغَةِ بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ، فَنَحْنُ أَشَدُّ النَّاسِ احتِياجًا إِلَى التَّفْسِيرِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَفْسِيرَ بَعْضِهِ يَكُونُ مِنْ قِبَلِ [إِسْط] الْأَلْفَاظِ الْوَجِيزَةِ وَكَشَفِ مَعَانِيهَا، وَبَعْضُهُ مِنْ قِبَلِ تَرْجِيحِ بَعْضِ الْاحْتِمَالَاتِ عَلَى بَعْضٍ، انْتَهَى<sup>٥</sup>.

وَقَالَ بَعْضُ آخَرٍ: عِلْمُ التَّفْسِيرِ عَسِيرٌ يَسِيرٌ، أَمَّا عَسَرُهُ فَظَاهِرٌ مِنْ وَجْهِهِ، أَظْهَرُهَا أَنَّهُ كَلَامٌ مُتَكَلِّمٌ لَمْ يُصِلْ إِلَى مُرَادِهِ بِالسَّمَاعِ مِنْهُ، وَلَا أَمَكْنَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، بِخِلَافِ الْأَمْثَالِ وَالْأَشْعَارِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُمْكِنُ عِلْمُهُ بِهِ إِذَا تَكَلَّمَ بِأَن يَسْمَعَ مِنْهُ أَوْ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْهُ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَتَفْسِيرُهُ عَلَى وَجْهِ الْقَطْعِ لَا يَعْلَمُ

٢. فِي النُّسخَةِ: وَالسُّؤَالُ عَنْ، وَمَا أُثْبِتَهُ مِنَ الْإِتِّفَاقِ.

٥. الْإِتِّفَاقُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ٤: ١٩٥.

١. فِي الْإِتِّفَاقِ: أَوْ شُرُوطٍ.

٤. لِقَمَان: ١٣/٣١.

٣. الْإِنْعَام: ٨٢/٦.

إِلَّا بِأَنْ يُسْمَعَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ<sup>١</sup>.

أقول: ولذا ورد: «إِنَّمَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ مَنْ خُوِطِبَ بِهِ» كما عن الباقر عليه السلام في رواية (الكافي): بإسناده عن زَيْدِ الشَّحَامِ، قال: دَخَلَ قَتَادَةَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فقال: «يَا قَتَادَةَ، أَنْتَ فقيه أهل البصرة؟» فقال: هكذا يَزْعُمُونَ.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «بَلَّغْنِي أَنْتَ تَفْسِرُ الْقُرْآنَ!» قال له قَتَادَةُ: نعم.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «بِعِلْمٍ تُفَسِّرُهُ أَمْ بِجَهْلٍ؟» قال: لا، بل بعِلْمٍ.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «فَإِنْ كُنْتَ تَفَسِّرُهُ [بِعِلْمٍ] فَأَنْتَ أَنْتَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ» قال قَتَادَةُ: بسلني.

قال: «أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سَبَأٍ: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوهَا لِيَأْتِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾<sup>٢</sup>؟» فقال قَتَادَةُ: ذلك: مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بِزَادٍ وَرَاحِلَةٍ وَكِرَاءٍ حَلَالٍ يَرِيدُ هَذَا الْبَيْتَ، كَانَ آمِنًا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «نَشُدُّكَ بِاللَّهِ يَا قَتَادَةَ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ يَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ بِزَادٍ وَرَاحِلَةٍ وَكِرَاءٍ حَلَالٍ، يَرِيدُ هَذَا الْبَيْتَ، فَيَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ، فَتَذْهَبُ نَفَقَتُهُ وَيَضْرِبُ مَعَ ذَلِكَ ضَرْبَةً فِيهَا اجْتِيَا حَهُ؟» قال قَتَادَةُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا فَسَّرْتَ الْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ فَقَدْ هَلَكْتَ وَأَهْلَكَتَ، وَإِنْ كُنْتَ أَخَذْتَهُ مِنَ الرِّجَالِ فَقَدْ هَلَكْتَ وَأَهْلَكَتَ.

وَيَحْكُ يَا قَتَادَةَ، ذَلِكَ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بِزَادٍ وَرَاحِلَةٍ وَكِرَاءٍ حَلَالٍ يَوْمُ<sup>٣</sup> هَذَا الْبَيْتِ عَارِفًا بِحَقِّنَا، فَهَوَانًا<sup>٤</sup> قَلْبُهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾<sup>٥</sup> وَلَمْ يَغْنِ الْبَيْتَ فَيَقُولَ: إِلَيْهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مِنْ هَوَانَا قَلْبُهُ قَبِلَتْ حِجَّتَهُ، وَالْأَفْلَا يَا قَتَادَةَ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ آمِنًا مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال قَتَادَةُ: لَا جَرَمَ وَاللَّهِ، لَا فَسَّرْتُهَا إِلَّا هَكَذَا.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «وَيَحْكُ يَا قَتَادَةَ، إِنَّمَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ مَنْ خُوِطِبَ بِهِ»<sup>٦</sup>.

وعنه عليه السلام: «لَيْسَ شَيْءٌ أَبْعَدَ مِنْ عُقُولِ الرِّجَالِ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، إِنْ الْآيَةُ لِيَكُونَ أَوَّلُهَا فِي شَيْءٍ،

١. الإِنْفَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ٤: ١٩٦.

٢. سَبَأٌ: ١٨/٣٤.

٣. فِي الْمَصْدَرِ: يَوْمٌ.

٤. فِي الْمَصْدَرِ: يَهْوَانًا. ٥. إِبْرَاهِيمَ: ٣٧/١٤.

٦. الْكَافِي ٨: ٤٨٥/٣١١.

وَأَخْرَجَهَا فِي شَيْءٍ، وَهُوَ كَلَامٌ مُتَّصِلٌ يَنْصَرَفُ عَلَى وَجْهِهِ<sup>٢</sup>.

في أنه لا يجوز العمل بالقرآن إلا بعد الفحص عن النبي ﷺ أو أحدٍ من وُزَرَاتِ عِلْمِهِ من أوصيائه المعصومين عليهم السلام.

بل قد ظهر مما قلناه أن في القرآن المجيد ناسخاً، ومَنسوخاً، وعاماً أريد به الخاص، ومُطلقاً أريد به المُقَيَّد، وكذا العكس، فلا يجوز العمل بمُحكَماته إلا بعد الرجوع إلى العلماء بها وهم الأئمة المعصومون عليهم السلام، فإنَّ العِلْمَ بِجَمِيعِهَا عندهم، ولا حَظَّ لأحدٍ غيرهم فيها إلا من قَتَلَهُمْ، كما روي (الكافي): بإسناده عن سَلِيمِ بْنِ قَيْسٍ، عن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث - قال: «ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرانيها، وأملأها عليّ، فكُتِبَتْها بخطي، وعَلِمَني تأويلها، وتفسيرها، وناسخها، ومَنسوخها، ومُحكَمها، ومُتَشَابِها [وخاصها، وعامها]، ودعا الله أن يُعَلِّمَني<sup>٣</sup> فَهَمَّها وحَفِظَها، فما نَسِيتُ آيةً من كتاب الله، ولا عَلِمْتُ أملاًه عليّ فكُتِبَتْه منذ دعا، وما ترك شيئاً علَّمَهُ الله من حلالٍ ولا حَرَامٍ ولا أمرٍ ولا نَهْيٍ، كان أو يكون، من طاعةٍ أو معصيةٍ إلا علَّمَنِيه وحَفِظْتُهُ، فلم أنْسَ حَرْفًا واحدًا.

ثم وضع يده على صدره ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمةً ونوراً. فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأُمِّي، مَذَّ دَعَوْتُ الله لي بِمَا دَعَوْتُ لِمِ أَنْسَ شَيْئاً، وَلَمْ يَغْنُنِي شَيْءٌ لِمِ اكْتَبَهُ، أَوْ تَخَوَّفَ عَلَيَّ النِّسْيَانُ فِيمَا بَعْدَ؟ فَقَالَ: [لَا] لَسْتُ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ نِسْيَاناً وَجَهْلًا<sup>٤</sup>.

وفي ذيل رواية أخرى قريبة من هذه: «وقد أَخْبَرَنِي رَبِّي أَنَّهُ قَدْ اسْتَجَابَ لِي فِيكَ وَفِي شُرَكَائِكَ الَّذِينَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ شُرَكَائِي مِنْ بَعْدِي؟ قَالَ: الَّذِينَ قَرَنَهُمُ اللهُ بِنَفْسِهِ وَبِي، فَقَالَ: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾<sup>٥</sup>.

فقلت: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْأَوْصِيَاءُ مِنِّي إِلَى أَنْ يَرِدُوا [عَلَيَّ] الْخَوْضُ، كُلُّهُمْ هَادُونَ مُسْهِدُونَ<sup>٦</sup>، لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ، هُمْ مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَهُمْ، لَا يُفَارِقُهُمْ وَلَا يُفَارِقُونَهُ، بِهِمْ تُنْصَرُ أُمَّتِي وَبِهِمْ تُمَطَّرُ<sup>٧</sup>، وَبِهِمْ يُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءُ، وَبِهِمْ يُسْتَجَابُ دَعَاؤُهُمْ.

٢. تفسير العياشي ١: ٣٩/٨٧.

٤. زاد في المصدر: ولا كتاب منزل على أحدٍ قبله.

٧. في العياشي: هاد مهتد.

١. في العياشي: يتصرف.

٣. في المصدر: يعطيني.

٥. الكافي ١: ١/٥٢.

٦. النساء: ٥٩/٤.

٨. في العياشي: يمطرون.

فقلت: يا رسول الله، سمُّهم لي. فقال: ابني هذا - ووضع يده على رأس الحسن عليه السلام - ثم ابني هذا - ووضع يده على رأس الحسين عليه السلام - ثم ابن لي<sup>١</sup> يقال له علي، وسيولد في حياتك فأقرأه مني السلام، ثم تكلمة اثني عشر من ولده<sup>٢</sup>.

فقلت له: بأبي أنت وأمي، سمُّهم لي. فسَمَّاهم رجلاً رجلاً. فقال: «فيهم والله - يا أبا بني هلال - مهدي أمه محمد، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والله إنني لأعرف من يُبايعه بين الركن والمقام، وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم»<sup>٣</sup>.

وفيه، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما يستطيع أحد أن يدعي [أن] عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الأوصياء»<sup>٤</sup>.

وبإسناده، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»<sup>٥</sup> قال: «هم الأئمة عليهم السلام»<sup>٦</sup>.

وفي (العلل) بإسناده، عنه عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة: «أنت فقيه أهل العراق؟» قال: نعم. قال: «فيم ثقتهم؟» قال: بكتاب الله وسنة نبيه.

قال: «يا أبا حنيفة، تعرف كتاب الله حق معرفته، وتعرف الناسخ والمنسوخ؟» فقال: نعم. فقال: «يا أبا حنيفة، لقد أذعيت علماً، وملك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزله عليهم، وملك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا، وما أراك تعرف<sup>٧</sup> من كتابه حرفاً، فإن كنت كما تقول، ولست كما تقول، فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّاماً آمِينَ﴾<sup>٨</sup> أين ذلك من الأرض؟» قال: أحسبه ما بين مكة والمدينة.

فالتفت أبو عبدالله عليه السلام إلى أصحابه، فقال: «تعلمون أن الناس يقطع عليهم ما بين المدينة ومكة فتؤخذ أموالهم، ولا يأمنون على أنفسهم، ويقتلون؟» قالوا: نعم. فسكت أبو حنيفة.

فقال: «يا أبا حنيفة، أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا﴾<sup>٩</sup> أين ذلك من الأرض؟» قال: الكعبة. قال: «أفتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في

١. في العياشي: له. ٢. في العياشي: من ولد محمد عليه السلام.

٣. تفسير العياشي ١: ٥٢/٩١. ٤. الكافي ١: ٢/١٧٨. ٥. العنكبوت: ٤٩/٢٩.

٦. الكافي ١: ٢/١٦٧. ٧. في المصدر: ما ورنك الله. ٨. سبأ: ١٨/٣٤.

٩. آل عمران: ٩٧/٣.

الكعبة ففتله، كان آمناً فيها؟<sup>١</sup> فسكت، الخبر<sup>١</sup>.

وروى العامة أنه قال علي عليه السلام لقاض<sup>٢</sup>: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟» قال: لا. قال: «هل كنت وأهلكت؟»<sup>٣</sup>.

إن قلت: يلزم مما ذكرت عدم جواز العمل بمحكمات القرآن، لسقوط جميع نصوص الكتاب وظواهره عن الحجية، للعلم الإجمالي بنسخ بعض أحكامها، وتخصيص بعض عموماتها، وتقييد بعض مطلقاتها، وإرادة المجاز من بعض ظواهرها، مع أنك ادعيت جواز العمل بالمحكمات للدلالة المتقدمة من الأوامر الواردة بالتمسك بالكتاب وعرض الشروط والأخبار المتعارضة عليه، وسيرة المسلمين.

قلنا: بعد الفحص في الروايات المروية عن المعصومين عليه السلام وتحصيل الناسخ، والمختصص، والمؤمنين، والمقيدين، بمقدار ينطبق عليه المعلوم بالإجمال يتحل العلم الإجمالي وتبقى أصالة الظهور وأصالة الحقيقة على حجيتهما في البقية بلا إشكال.

## الطريقة العشرون

في تعريف النسخ وإمكان وقوعه

في أحكام الله تعالى، وبيان الآيات الناسخة

النسخ: هو رفع الحكم الثابت في الزمان السابق وإزالته، ولا شبهة في حكم العقل بإمكان وقوعه في أحكام الله، وليس من البداء المحال على الله، ولا يلزم منه الجهل الممتنع عليه، ولا التجهيل القبيح منه.

وقد اتفقت الشرائع على وقوعه، إذ لم تكن شريعة إلا وهي ناسخة لبعض أحكام الشرائع السابقة، وإنما المقصود هنا بيان الآيات الناسخة، وهي قسمان:

[١] إما ناسخة لأحكام الشرائع السابقة، أو الأحكام الجاهلية التي لم يردع عنها النبي صلى الله عليه وآله في بدو بعثته لمعاداة الناس، ولم ينزل فيها قرآن، وهي كثيرة جداً.

[٢] وإما ناسخة لأحكام نزلت بها آيات قرآنية، فكانت الناسخة والمنسوخة في القرآن، ففي هذا

١. علل الشرائع: ٥/٨٩. ٢. في الإنفاق: لقاض. ٣. الإنفاق في علوم القرآن: ٣/٦٦.

القسم اختلف كثير من الخاصة والعامة، وأفرده جمع كثير منهم بالتصنيف.

ولا يذهب عليك أن المصطلح في النسخ هو إزالة الحكم الذي يكون ظاهر دليله استمراره بحكم آخر، وعلى هذا يكون عد بعض الآيات التي نزلت في الوعد والوعيد خارجة عن المصطلح والحقيقة، فعُد آية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾<sup>١</sup> ناسخة لقوله: ﴿إِنَّ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدَهَا﴾<sup>٢</sup> كما عن بعض، ليس على حقيقته، وكذا عد الحكم المعايير للحكم السابق المعنى بغاية معينة بعد بلوغ غايته، كقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾<sup>٣</sup> فإن حكم وجوب الجهاد ليس ناسخاً لحكم وجوب العفو والصفح، بل هو أمر الله الذي كان غاية له.

والحاصل: أنه بعد ملاحظة القيود المعتبرة في المعنى الحقيقي للنسخ، وملاحظة المقصود منه، من كون الناسخ والمنسوخ كليهما في القرآن، كان عدد الأحكام المنسوخة فيه قليلاً. منها: أربعة أحكام في سورة البقرة:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾<sup>٤</sup>.

عن (التهذيب) و(الخصال): عن الصادق عليه السلام، وعن العياشي عن الباقر عليه السلام: «أنها نزلت في أهل الذمة - أي أهل الكتاب - ثم نسختها قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾<sup>٥</sup>.

وعن القمي عليه السلام: أنها نزلت في اليهود، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾<sup>٦</sup>.

وأورد عليه بأن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ حكاية للحكم الذي أخذ الله الميثاق من بني إسرائيل على العمل به، لأنه في ضمن آية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

١. هود: ١١٨/١١ و ١١٩.

٢. مريم: ٧١/١٩.

٣. البقرة: ١٠٩/٢.

٤. البقرة: ٨٣/٢.

٥. التهذيب: ٤: ٣٣٦/١١٥، الخصال: ١٨/٢٧٥، تفسير العياشي: ٢: ١٨٠٩/٢٢٨، والآية من سورة التوبة: ٢٩/٩.

٦. تفسير القمي: ١: ٥١، والآية من سورة التوبة: ٥/٩.

الرَّكَاءَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ<sup>١</sup>. فليس هذا الحكم من أحكام هذه الأمة حتى يُعدَّ من المنسوخ.

ويمكن دفعه بأن أخذ الميثاق والعهد المؤكد من بني إسرائيل على هذه الواجبات التي يحكم العقل بحسنها، دالٌّ على جريانه في جميع الأعصار على جميع الأمم، ولما كان المراد من الناس في مخاطبة بني إسرائيل خصوص قبيلتهم، لأنهم كانوا مأمورين بالجهاد مع غيرهم من الكفار، كانوا مخصوصين في هذه الأمة المرحومة بحسن القول والمخاطبة معهم، وسيجيء عند تفسير الآية الكريمة بعض الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَكِبْخُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ<sup>٢</sup>﴾.

عن القمي، والنعمان رحمهما الله وكثير من العامة، أنها منسوخة بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ<sup>٣</sup>﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ<sup>٤</sup>﴾.

قال القمي رحمه الله: وترك قوله: ﴿وَلَا تَتَكِبْخُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا<sup>٥</sup>﴾ ولا يخفى أنه قد اختلفت رواياتنا في النسخ منهما، وليس في المقام مجال البسط في الكلام.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ<sup>٦</sup>﴾.

روى العياشي والطبرسي رحمهما الله عن الصادق عليه السلام: «كان في يَدِ الإسلام إذا مات الرجل أنفق على امرأته من صلب المال حولا، ثم أخرجت بلا ميراث، ثم نسختها آية الرِّيع والثَّمَن<sup>٧</sup>».

وعنه، وعن الباقر عليه السلام: «هي منسوخة، نسختها: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَزْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا<sup>٨</sup>﴾ ونسختها آيات الميراث<sup>٩</sup>».

أقول: يعني نسخت المدة بآية الترتيب، والنفقة بآيات الميراث، وهي وإن كانت متقدمة في

١. البقرة: ٨٣/٢. ٢. البقرة: ٢٢١/٢.

٣. تفسير القمي ١: ٧٢، تفسير النعماني: ٢٨، تفسير الطبري ٢: ٢٢١، والآية من سورة المائدة: ٥/٥.

٤. تفسير القمي ١: ٧٣، والآية من سورة البقرة: ٢٢١/٢. ٥. البقرة: ٢٤٠/٢.

٦. تفسير العياشي ١: ٥٣٠/٢٤٧، مجمع البيان ٢: ٦٠٢، تفسير الصافي ١: ٢٤٨. ٧. البقرة: ٢٣٤/٢.

٨. تفسير العياشي ١: ٥٢٩/٢٤٧، ومجمع البيان ٢: ٦٠٢ عن الصادق عليه السلام.

الترتيب والتلاوة، إلا أنها متأخرة في النزول، ويأتي بعض الكلام فيه عند تفسيرها إن شاء الله.  
ورابعها: قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾.

في (الاحتجاج) عن الكاظم، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر مناقب النبي صلى الله عليه وآله قال: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى \* فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»<sup>١</sup> فكان فيما أوحى إليه الآية التي في سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>٢</sup>. وقد كانت الآية عُرِضَتْ على الأنبياء من لَدُنْ آدم إلى أن بعث الله تبارك اسمه محمداً صلى الله عليه وآله، وعُرِضَتْ على الأمم فأبوا أن يقبلوها من ثقلها، وقيلها رسول الله صلى الله عليه وآله وعرضها على أمته فقبلوها، فلما رأى الله عز وجل منهم القبول علم أنهم لا يطيقونها، فلما صار<sup>٣</sup> إلى ساقِ العرش كرَّر عليه الكلام ليفهمه فقال: «آمَنَ الرَّسُولُ»<sup>٤</sup>.

إلى أن قال الكاظم عليه السلام: «ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَمَا إِذَا قِيلَتِ الْآيَةُ بِتَشْدِيدِهَا وَعِظَمِ مَا فِيهَا، وَقَدْ عُرِضَتْهَا عَلَى الْأُمَمِ فَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوهَا وَقَبِلْتَهَا أَمْتُكَ، فَحَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَرْفَعَهَا عَنْ أَمْتِكَ، وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾»<sup>٥</sup> الخبر.

وروى الفخر الرازي في تفسيره، عن ابن عباس، أنه قال: لما نزلت [هذه] الآية جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وناس إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله، كُلُّفْنَا مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا نَطِيقُ، إِنْ أَحَدُنَا لَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمَا لَا يُحِبُّ أَنْ يَتَّبِعَ فِي قَلْبِهِ، وَأَنْ لَهُ الدُّنْيَا.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «فَلْعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾»<sup>٦</sup> قولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. واشتدَّ ذلك عليهم فمكثوا في ذلك حَوْلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَلَّتْهُوَ أَنْفُسُهُمْ مَا لَمْ يَعْمَلُوا وَيَتَكَلَّمُوا بِهِ»<sup>٧</sup>. أقول: قد دلت هذه الرواية أنَّ الزهطَ الذين شكَّوا إلى النبي صلى الله عليه وآله شِدَّةَ الْآيَةِ لَمْ يَكُونُوا دَاجِلِينَ فِيمَنْ قَبْلِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «فَلْعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا قُولُوا: سَمِعْنَا

١. النجم: ٩/٥٣. ٢. البقرة: ٢٨٤/٢. ٣. في المصدر: فلما أن سار.

٤. البقرة: ٢٨٥/٢. ٥. الاحتجاج: ٢٢٠، والآية من سورة البقرة: ٢٨٦/٢. ٦. البقرة: ٩٣/٢.

٧. تفسير الرازي ٧: ١٢٥.



وأطعنا». وليس في الرواية أنهم قالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا بعد [أن] أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بهذا القول.

ومنها: في سورة آل عمران، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾<sup>١</sup>.

عن العياشي: عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عنها، فقال: «منسوخة». قيل: وما نَسَخَهَا؟ قال: «قول الله:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾»<sup>٢</sup>.

ومن طُرُق العامة: عن ابن عباس عليه السلام قال: لَمَّا نَزَلَتْ [هذه] الآية، شَقَّ ذلك على المسلمين، لأنَّ حَقَّ تَقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى طَرْفَةً عَيْنٍ، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، والعباد لا طاقة لهم بذلك، فَأَنْزَلَ الله تعالى بعد هذه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ونَسَخَتْ هذه الآية أولَهَا، وَلَمْ يُنْسَخْ آخِرُهَا<sup>٣</sup>.

أقول: المراد من قوله: «والعباد لا طاقة لهم بذلك» هي الطاقة والقدرَةُ العرفية، وهي عدم العُسْر والحرَج في العمل مع بقاء القدرة العقلية، فيكون حاصلُ كلامه أَنَّ الله أَمَرَ عِبَادَهُ بالتَقْوَى التي فيها العُسْر والحرَج، ثُمَّ خَفَّفَ عنهم بَأْنَ أَمَرَهُمُ بالتَقْوَى التي اسْتَطَاعُوا بها بالاستِطاعة العرفية، وهي ما لا حَرَجَ فيه، فلم يكن في المنسوخ التكليفُ بغير المقدور حتَّى يُسْتَدَلَّ به على جَوَازِهِ، كما ذَهَبَ إليه المشهور من أهل السُنَّة.

ومنها: في سورة النساء، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَمْ فَاستَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾<sup>٤</sup>.  
عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عن هذه الآية، قال: «هي منسوخة». قيل: كيف كانت؟ قال: «كانت المرأة إِذَا فَجَرَتْ عليها أَرْبَعَةُ شُهَدَاءٍ، أُدْخِلَتْ بَيْتًا وَلَمْ تُحَدِّثْ وَلَمْ تُكَلِّمْ وَلَمْ تُجَالَسْ، وَأُوتِيَتْ بِطَعَامِهَا وَشَرَابِهَا حَتَّى تَمُوتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا»، قال: «جعل السبيل الجَلْدَ والرَّجْمَ»<sup>٥</sup>.

وعن العياشي: عنه عليه السلام: «هي منسوخة، والسبيل [هو] الحدود»<sup>٦</sup>.

وعن القمي عليه السلام فيها وفي الآية التي بعدها: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأُصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾<sup>٧</sup>.

١. آل عمران: ١٠٢/٣. ٢. تفسير العياشي ١: ٧٦٠/٣٣٣، والآية من سورة النغبان: ١٦/٦٤.

٣. تفسير الرازي ٨: ١٦١. ٤. النساء: ١٥/٤.

٥. تفسير العياشي ١: ٩٠٣/٣٧٧. ٦. تفسير العياشي ١: ٩٠٢/٣٧٧.

٧. النساء: ١٦/٤.

قال: كان في الجاهلية إذا زنى الرجل يُؤذى، والمرأة تُحبس [في بيت] إلى أن تموت، ثم تُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾<sup>١</sup> الآية.

أقول: لا يبعد أن يكون إطلاق النسخ بالنسبة إلى الآية الأولى على خلاف المصطلح، لأن الحكم فيها معني بجعل السبيل، فلا يكون جعل السبيل، وهو الحدود، ناسخاً.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾<sup>٢</sup>.

عن العياشي، عن الباقر والصادق (عليه السلام): «نسخها آية الفرائض»<sup>٣</sup>.

وعن القمي (عليه السلام): هي منسوخة بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾<sup>٤</sup>.

وفي رواية عن الباقر (عليه السلام) أنه سئل: أمسوخة هي؟ قال: «لا، إذا حضروا»<sup>٥</sup> فأعطاهم<sup>٦</sup>.

أقول: نسخها بإحاط حكم الوجوب، وعدم نسخها باعتبار الاستحباب.

ومنها: في سورة الأنفال، قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾<sup>٧</sup>. فإنه نسخ بقوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾<sup>٨</sup>.

عن (الكافي): عن الصادق (عليه السلام) في حديث ذكر فيه الآية، فقال: «نسخ الرجلان العشرة»<sup>٩</sup>. وعن القمي ما يقرب منه<sup>١٠</sup>.

ومنها: في سورة الأحزاب، قوله تعالى: ﴿لَا يَجِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾<sup>١١</sup> فإنه حكى بعض أصحابنا قولاً بأنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿تُزْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ﴾<sup>١٢</sup> ولم أظفر على رواية دالة عليه.

ومنها: في سورة الممتحنة، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجِيتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ

١. تفسير القمي ١: ١٣٣، تفسير الصافي ١: ٣٩٨، والآية من سورة النور: ٢٤/٢. ٢. النساء: ٨/٤.

٣. تفسير العياشي ١: ٨٧٦/٣٧١ و٨٧٨، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.

٤. تفسير القمي ١: ١٣٢، تفسير الصافي ١: ٣٩٣، والآية من سورة النساء: ٤/١١.

٥. في العياشي: حضرك، وفي الصافي: حضروك. ٦. تفسير العياشي ١: ٨٧٧/٣٧١، تفسير الصافي ١: ٣٩٣.

٧. الأنفال: ٦٥/٨. ٨. الأنفال: ٦٦/٨. ٩. الكافي ٥: ١/٦٩، تفسير الصافي ٢: ٣١٣.

١٠. تفسير القمي ١: ٢٨٠، تفسير الصافي ٢: ٣١٤. ١١. الأحزاب: ٥٢/٣٣.

١٢. تفسير الصافي ٤: ١٩٨، والآية من سورة الأحزاب: ٥١/٣٣.

نَجَوَاكُمْ صَدَقَةٌ<sup>١</sup>.

عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «قَدَّمَ عَلِيٌّ بِنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بَيْنَ يَدَيَّ نَجَوَاهُ صَدَقَةٌ، ثُمَّ نَسَحَهَا قَوْلُهُ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ...﴾»<sup>٢</sup>.

وقد استدللَّ الخاصَّة والعامة بهذه الآية على فَضِيلَةِ أمير المؤمنين عليه السلام على غيره من الصحابة<sup>٣</sup>، وتقريره أنه سبقَ سائرُ الصَّحابة إلى العملِ بمضمونها، وبعدَ عملِهِ بها نُسِخَتْ، فكان نُزولُها بياناً لأفضليَّته عليهم، لمُسارعتِهِ إلى قَبولِ أوامرِ الله تعالى والعملِ بها قبلهم فكان أفضلَ منهم.  
وقال بعضُ أصحابنا: فيه تكذيبٌ لِمَنْ يدَّعي من أهلِ السُّنَّة أنَّ أبا بكرٍ ذامال، وكان يصرفُ أمواله في سبيلِ الله، حيث إنَّ مَنْ يَخْلُ بِصَدَقَةِ ذَرِّهَمٍ أَوْ ذَرِّهَمَيْنِ بَيْنَ يَدَيَّ نَجَوَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَضِيَ بِفُتُورَتِهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ وَتَرَكَ مَكَالَمَتَهُ، كَيْفَ يَرْضَى بِإِنْفَاقِ الْمَالِ الْكَثِيرِ<sup>٤</sup>.

ومنها: في سورة المَزْمَل، قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنَضَعُ<sup>٥</sup>﴾.  
عن القمي، عن الباقر عليه السلام في هذه الآية: «فَعَمِلَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَشَّرَ النَّاسَ بِهِ، وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ [وقوله]: «عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُخْصَوْه» وكان الرجلُ يقومُ ولا يدري متى يَنْتَصِفُ اللَّيْل، ومتى يكونُ الثَّلَاثان، وكان الرجلُ يقومُ حتَّى يُصْبِحَ مَخَافَةً أَنْ لَا يَخْفَظَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: [﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى قوله]: «عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُخْصَوْه»<sup>٦</sup> يقول: متى يكونُ النُّصْفُ والثَّلَاثُ، نَسَخَتْ هذه الآية: «فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ»<sup>٧</sup>.

وأما ما عدَّه العامة من الآيات المنسوخة مضافاً إلى ما ذكر، فأيات:

منها: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ<sup>٨</sup>﴾ قالوا: كان الرجلُ يَعَاقِدُ الرجلَ فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك<sup>٩</sup>، وسلمي سلمك، وحربي حربك، وترثني وأرثك، وتُعَقِّلُ عني وأعقلُ عنك، فيكونُ للحليفِ السُّدُسُ من ميراثِ الحليف، فنسخَ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا

١. المجادلة: ١٢/٥٨. ٢. تفسير القمي ٢: ٣٥٧، والآية من سورة المجادلة: ١٣/٥٨.

٣. تفسير الطبري ٢٨: ١٤، الكشف ٤: ٤٩٤، الدر المنثور ٨: ٨٤، تفسير القمي ٢: ٣٥٧.

٤. المزمّل: ٢٠/٧٣. ٥. المزمّل: ٢٠/٧٣. ٦. تفسير القمي ٢: ٣٩٢، تفسير الصافي ٥: ٢٤٣.

٧. النساء: ٤: ٣٣.

٨. الهَدْمُ - بالفتح -: المُهْدَر من الدماء، يقال: دمه هَدَمٌ، أي هَدَرَ، والهَدْمُ - بالكسر -: كساء من صوف، والظاهر أنَّ المراد الأوّل.

الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ...»<sup>١</sup>.

وعن القمي رحمه الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ...﴾ نسخت قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ﴾<sup>٢</sup>.

وفي (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «إذا وإلى الرجل الرجل فله ميراثه وعليه مَعَقَلته»<sup>٣</sup>. يعني دية جناية خطأ، فتدل هذه الرواية على أنها غير منسوخة على الإطلاق، ويُجمع بينها وبين الروايات السابقة بأن آية أولوا الأرحام نسخت إطلاق حكمها وقيدتها بصورة فقد أولي الأرحام، كما عليه الأصحاب.

وقال بعض العامة: معناه أعطوهم نصيبهم من النُصْر، والعقل، والرِفْدُ، ولا ميراث<sup>٤</sup>. وعلى هذا فلا تكون أيضاً منسوخة.

ومنها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾<sup>٥</sup> فكان يحرم عليهم الجماع في الليل، مطلقاً على قول، أو بعد صلاة العشاء، أو بعد النوم، وهذا حكم صوم أهل الكتاب، فنسخ بقوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾<sup>٦</sup> وبإلي أن به قال النعماني من أصحابنا.

وفيه: أنه لا دلالة في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ على حرمة الرفث في الليل للصائم، ولم يرد في أخبار أهل البيت عليه السلام ما يدل على إرادة هذا الحكم من التشبيه، بل فيها ما يدل على خلافه، حيث إنه فُسر بأن الصوم واجب عليكم كوجوبه على سائر الأمم أو على خصوص الأنبياء السلف.

وظاهر هذا التفسير تشبيه الوجوب بالوجوب، لا تشبيه الواجب بالواجب، مع أنه لم يثبت أن من أحكام صوم الذين من قبلهم حرمة الجماع عليهم بالليل، حتى يدخل في كفايات الصوم الذي هو في الشرع الإمساك في النهار عن الأمور المعينة.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فِذْيَةَ طَعَامٍ مِّنْكَ﴾<sup>٧</sup>.

قال بعض العامة: كان المسلمون مخيرين بين الصوم والفيذية في أول الأمر، ثم نسخت بقوله

١. تفسير الطبري ٥: ٣٤، الدر المنثور ٢: ٥١٠، تفسير الصافي ١: ٤١٤، والآية من سورة الأنفال: ٧٥/٨.

٢. تفسير القمي ١: ١٣٧، تفسير الصافي ١: ٤١٤، والآية من سورة النساء: ٣٣/٤. ٣. الكافي ٧: ٣١٧١.

٤. في تفسير الطبري: والرفادة. ٥. تفسير الطبري ٥: ٣٥.

٦. البقرة: ١٨٣/٢. ٧. البقرة: ١٨٧/٢. ٨. تفسير النعماني: ١٠. ٩. البقرة: ١٨٤/٢.

تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾<sup>١</sup>.

والمروني عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْحَامِلُ الْمُقَرَّبَ، وَالْمُرْضِعَةُ الْقَلِيلَةُ اللَّبَنِ، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ»<sup>٢</sup>.

وفي رواية: «المرأة التي تخاف على ولدها، والشيخ الكبير»<sup>٣</sup>.

وعن الباقر عليه السلام قال: «الشيخ الكبير، والذي يأخذه العطاش»<sup>٤</sup>.

أقول: على هذه الروايات ليست الآية منسوخة.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾<sup>٥</sup>.

قال بعض العامة: إنها نُسِختْ بآية الميراث<sup>٦</sup>.

وأنكر النسخ بعض أصحابنا<sup>٧</sup>. وقد وردت أخبار كثيرة ببقاء حكمه، وإن روى العياشي عن أحدهما عليه السلام أنها منسوخة بآية الموارث<sup>٨</sup>، إلا أنها محمولة على التقية لموافقتها مذهب العامة<sup>٩</sup>.

ويحتمل بعيداً حملها على نسخ الوجوب مع بقاء الاستحباب والرجحان.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾<sup>١٠</sup>.

قال بعض العامة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾<sup>١١</sup>.

وفيه: أن الآية الأولى مخصصة للثانية لا منسوخة.

وعن (المجمع): إنها لم تنسخ، لأنه لا يجوز أن يبتدأ المشركون في الأشهر الحرم بالقتال<sup>١٢</sup>.

ومنها: قوله تعالى في المائدة: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ...﴾<sup>١٣</sup>.

١. صحيح البخاري ٦: ٣٤/٥٥، سنن أبي داود ٢: ٢٣١٥/٢٩٦ و٢٣١٦، سنن النسائي ٤: ١٩٠، والآية من سورة البقرة:

١٨٥/٢. ٢. تفسير الصافي ١: ٢٠١.

٣. تفسير العياشي ١: ٢٨٦/١٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٠٢.

٤. تفسير العياشي ١: ٢٨٥/١٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٠٢.

٥. البقرة: ١٨٠/٢.

٦. تفسير الطبري: ٦٨/٢، تفسير الرازي ٥: ٦١. ٧. مجمع البيان ١: ٤٨٣.

٨. تفسير العياشي ١: ٢٧٣/١٨٠. ٩. تفسير الصافي ١: ١٩٨.

١٠. البقرة: ٢١٧/٢. ١١. الإتيان في علوم القرآن ٣: ٧٣، والآية من سورة التوبة: ٣٦/٩.

١٢. مجمع البيان ١: ٥٥٢. ١٣. المائدة: ٢/٥.

قال بعض العامة: إن هذا الحُكْمَ مَنسُوخٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ<sup>١</sup>.

وفيه: أنه روي عن الباقر (عليه السلام) «أنه لم يُنسخ من سورة المائدة شيء...»<sup>٢</sup> الخبر. مع أنه لا وَجْهَ للقول بالنسخ مع إمكان التخصيص كما ذكرنا في الآية السابقة.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾<sup>٣</sup>.

قالوا: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾<sup>٤</sup>.

وفيه: أنه روي في (التهذيب) عن الباقر (عليه السلام): «أن الحاكم إذا أتاه أهل التوراة وأهل الإنجيل يتحاكمون إليه، كان ذلك إليه إن شاء حكم بينهم، وإن شاء تركهم»<sup>٥</sup> انتهى، وعليه لا تكون منسوخة. ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾<sup>٦</sup> قالوا: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾<sup>٧</sup>.

وفيه: أن التخصيص أولى من النسخ، وقد اتفق النُصّ والفقوى على جواز شهادة أهل الكتاب إذا كانوا عدولاً في دينهم في خصوص الوصية في السفر إذا لم يجد الموصي مسلماً<sup>٨</sup>.

ومنها: قوله تعالى في سورة البراءة: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾<sup>٩</sup>.

قالوا: هي منسوخة بآيات العذر<sup>١٠</sup>.

وفيه: أنها مخصصة لا ناسخة، كما يشهد عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>١١</sup>.

ومنها: قوله تعالى في سورة التور: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>١٢</sup>.

١. تفسير الطبري ٦: ٣٩، الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٧٤.

٢. المائدة: ٤٢/٥.

٣. الكشف ١: ٦٣٥، الدر المنثور ٣: ٨٣، الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٧٤، والآية من سورة المائدة: ٤٩/٥.

٤. التهذيب ٦: ٨٣٩/٣٠٠، المائدة: ١٠٦/٥.

٥. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٧٥، والآية من سورة الطلاق: ٢/٦٥.

٦. الكافي ٧: ٨٣٩٩، التهذيب ٦: ٦٥٥/٢٥٣، التوبة: ٤١/٩.

٧. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٧٥.

٨. النساء: ٩٥/٤.

٩. التور: ٣/٢٤.

قالوا: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾<sup>١</sup>.

وفيه: أن ظاهر الآية الأولى يدل على جواز نكاح الزاني المسلم للمشركة، وجواز نكاح المشرِك الزانية المسلمة، والظاهر أن هذا الحكم لم يكن في وقت من الأوقات، فلا بد من حمل الآية على الزاني والزانية الكافرين، بقرينة قوله: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن الواضح أن حرمة نكاح الزاني الكافر والمشرِك للمؤمنة ونكاح الزانية الكافرة والمشرِكة للمؤمن غير منسوخة، وروايات أهل البيت وإن كانت متعارضة في جواز نكاح الزانية قبل التوبة، إلا أن الأخبار المانعة غير معمول بها عند المشهور من أصحابنا، فلا بد من حملها على الكراهية.

والحاصل: أنه لم يثبت من طريق أهل البيت عليه السلام نسخ الحكم الآية الأولى، بل الظاهر من الروايات العديدة عدمه، وتفسيرها بالمشهورات بالزنا<sup>٢</sup>.

ومنها: قوله تعالى في تلك السورة: ﴿لَيْسَ بِنُكْحِ الْإِيمَانِ الْمَلَكَاتِ يُدْرِكْنَ الْإِيمَانُ بِمَا كَانَ الْمُلْكُ الْمَلَائِكَةُ فَقَدْ أَغْلَبَ ظَنُّكَ فَذَرْهَا وَلِهَا لَهْوٌ وَمَا يَمُوتُ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنكَرَ بَعْضٌ الْآخَرُ. وَلَمْ يُظْهَرْ فِي رَوَايَاتِنَا مَا يَدُلُّ عَلَى نَسْخِهَا<sup>٣</sup>.

قال بعضهم: إنها منسوخة، ولم يذكر الناسخ، وأنكره بعض آخر<sup>٤</sup>. ولم أظفر في رواياتنا ما يدل على نسخها.

ومنها: قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ<sup>٥</sup>.

قالوا: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَرْوَاحَ اللَّائِي﴾ الآية<sup>٦</sup>. وفيه: أنه لم أفهم له وجهها، ولم يرِد فيه خبر.

ومنها: قوله تعالى في الممتحنة: ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِثْلَ مَا أَتَقُوا<sup>٧</sup>.

قال بعض منهم: إنها منسوخة بآية السيف<sup>٨</sup>، وبعض آخر: بآية الغنيمه<sup>٩</sup>.

ومنها: قوله تعالى في سورة المنافقون: ﴿وَأَتَّقُوا مِنَ مَا رَزَقْنَاكُمْ<sup>١٠</sup>.

٢. راجع: الكافي ٥: ٦/٣٥٥.

٥. الأحزاب: ٥٢/٣٣.

٧. الممتحنة: ١١/٦٠.

٨. هي الآية الخامسة من سورة التوبة: ﴿فَإِذَا أَنسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ...﴾.

٩. ١٠. المنافقون: ١٠/٦٣.

١. الإتيان في علوم القرآن ٣: ٧٥، والآية من سورة النور: ٣٢/٢٤.

٣. النور: ٥٨/٢٤.

٤. الإتيان في علوم القرآن ٣: ٧٦.

٦. الإتيان في علوم القرآن ٣: ٧٦، والآية من سورة الأحزاب: ٥٠/٣٣.

٩. الإتيان في علوم القرآن ٣: ٧٦.

قالوا: مَسْخُوخَةٌ بِآيَةِ الزُّكَاةِ<sup>١</sup>.

ومنها: قوله تعالى في سورة التين: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾<sup>٢</sup>.

قالوا: مَسْخُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ<sup>٣</sup>، وفي هذه الآيات الثلاث، وإن كان احتمالُ النسخ قريباً، إلا أنه لم يرد به نص من طرق أصحابنا.

## الطَّرْفَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ

### في إبطال عدّ نسخ القلاوة من أقسام النسخ

قد عدّ جمع من العامة من أقسام النسخ نسخ القلاوة، وذكروا لذلك أمثلة من عبارات مروية عن عمر وابنه عبدالله وعائشة وغيرهم من الصحابة<sup>٤</sup>، وهذا من الأغلاط المشهورة بينهم، والعبارات المنقولة التي قالوا إنها من الآيات المَسْخُوخَةُ القلاوة لا تشبه كلمات فصحاء العرب فضلاً عن آيات القرآن المجيد. والمتأمل المنصف يقطع بأنها مما اختلقت المنافقون لتخريب أساس الدين، وتوهين الكتاب المبين، ويؤيد ذلك بل يشهد عليه أنه لم يُنقل عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس والمعتددين من أصحاب الرسول رضوان الله عليهم أمثال هذه الروايات، مع كونهم أعرف بآيات القرآن من غيرهم.

والعجب من بعض العامة حيث إنهم أنكروا هذا القسم من النسخ، ونفوا كون هذه العبارات المنقولة من القرآن، مستدلّين بأن الأخبار الواردة أخباراً أحادي، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار أحادي لا حجة فيها، مع أن العبارات الباردة المنقولة التي أكثرها رواية ما سمّوه آية الرّجم، من قولهم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فاجلدوهما البتة بما قضيا من اللذة نكالا من الله والله عزيز حكيم) مما يتبادي عند كل ذي مسكة بأنه ليس من كلام الله المنزل للإعجاز.

بل يستفاد مما رواه بعضهم عن عمر أنه قال: لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله، لكنبئها - يعني آية الرّجم -<sup>٥</sup> أنه لم يكن أحد مطلعاً على هذه العبارة التي سمّوها آية، مع أن مقتضى كثير من

٢. التين: ٨/٩٥.

٤. راجع: الإنفان في علوم القرآن ٣: ٨١ - ٨٤.

١. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٧١.

٣. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٧١.

٥. مسند أحمد: ٢٩. الإنفان في علوم القرآن ٣: ٨٥.



رواياتهم أنه كان يكتب آيات القرآن بشهادة شاهدين<sup>١</sup>.

فلعل عدم اجترائه على كتابتها في القرآن لعلم جميع الناس بأن مثل هذه العبارة ليس بكلام الله ولا من آيات القرآن، وأنه ليس إضافتها إلى الكتاب العزيز إلا فريضة وبهتان.

## الطَّرْفَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْعِشْرُونَ

### في أَنَّ للقرآن المجيد ظهراً وبطناً، وبيان المراد منهما

قد تضافرت أو تواترت الروايات من طرق الخاصة والعامة في أَنَّ للقرآن العظيم ظَهْرًا وَبَطْنَاً. عن الباقر عليه السلام أَنَّهُ قال في حديث: «يا جابر، إِنَّ للقرآنِ بَطْنَاً، وَلِلْبَطْنِ بَطْنٌَ وَظَهْرٌ، وَلِلظَّهْرِ ظَهْرٌ»<sup>٢</sup>. وعنه، في رواية أخرى: «ما في القرآن آية إلا ولها ظَهْرٌ وَبَطْنٌ»<sup>٣</sup>. وعن النبي صلى الله عليه وآله بسند عامي: «إِنَّ للقرآنِ ظَهْرًا وَبَطْنَاً وَحَدًّا وَمُطْلَعًا»<sup>٤</sup> إلى غير ذلك من الروايات. والظاهر أَنَّ المراد من ظَهر القرآن ظَوَاهِرُ آيَاتِهِ التي يَفْهَمُهَا كُلُّ أَحَدٍ من مَدلولاتها الْمُطَابِقَةِ والالتزامية الظاهرة، ومن باطنه دلالاته الالتزامية الخفية وإشاراته الإيهامية، ولطائفه ودقائقه، وما يُستفاد منه بِعمومِ الْعِلَّةِ أو أَقْوَانِيَةِ الْمَلَائِكَةِ<sup>٥</sup> أو خصوصية الكلمات والحروف، أو بعلم الحساب والأعداد، فَإِنَّ كُلَّ واحد من هذه الطُّرُق مِمَّا يُستفاد به من الآيات علومٌ وفيرة وتكون له بطون كثيرة، كما روي «أَنَّ للقرآنِ ظَهْرًا وَبَطْنَاً، وَلِبَطْنِهِ بَطْنٌ إِلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ»<sup>٦</sup>.

وقد يُطْلَقُ على ظَهره: التَّنْزِيلُ، وعلى بطنه: التَّوْبِيلُ، كما روي عن الباقر عليه السلام قال: «ظَهْرُهُ تَنْزِيلُهُ، وَبَطْنُهُ تَأْوِيلُهُ»<sup>٧</sup>. وإلى ما ذكرنا من معنى الظَّهْرِ وَالْبَطْنِ أشارَ الصَّادِق عليه السلام بقوله في رواية: «كَتَبَ اللهُ على أربعة أشياء: العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»<sup>٨</sup>.

١. الإتيان في علوم القرآن ١: ٢٠٥، كنز العمال ٢: ٤٧٥٩/٥٧٤.

٢. تفسير العياشي ١: ٣٩/٨٧، تفسير الصافي ١: ٢٧. ٣. تفسير العياشي ١: ٣٦/٨٦.

٤. إتحاف السادة المتقين / للزبيدي ٤: ٥٢٧، تفسير الصافي ١: ٢٨/١. ٥. أي قوة الملاك.

٦. تفسير الصافي ١: ٥٢. ٧. بصائر الدرجات: ٧/٢١٦، تفسير الصافي ١: ٢٧.

٨. الدرة الباهرة: ٣١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من ما من آية إلا ولها أربعة معانٍ: ظاهرٌ، وباطنٌ، وحَدٌّ، ومُطْلَعٌ، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد هو أحكام الحلال والحرام، والمُطْلَع هو مُراد الله من العبد بها»<sup>١</sup>.

والظاهر من قوله: «والباطنُ الفهم» فهم ما وراء الظاهر من العلوم الكثيرة بالطرق المذكورة المعلومة عندهم.

بل يُستفاد من بعض الأخبار أن علوم النبي صلى الله عليه وآله وأوصيائه صلوات الله عليهم في بيان أن علوم النبي والأنمة عليه السلام جميعاً مستفادة من القرآن  
قال الصادق عليه السلام: «لقد تجلّى الله تعالى [لخلقه] في كلامه، ولكن الناس لا يُبصرون»<sup>٢</sup>.

وروي عنه عليه السلام أنه سُئل: هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وآله شيء من الوحي سوى القرآن؟ قال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا أن يُعطى عبد فهماً في كتابه»<sup>٣</sup>.

والظاهر أن المُراد من إعطاء الفهم إنارة قلب العبد وتقوية عقله، وجودة ذهنه، وتكميل قوته النظرية، وتعليمه طرق الاستفادة.

وتوضيح المقام بمقدار يسعه الأفهام أنه لا شبهة أن لكل موجود وجودات مختلفة في عالم الألفاظ، وعالم الذهن، وعالم المثل والصُور، وعالم الحقائق، على اختلاف مراتبها ودرجاتها قوة وضعفاً وسعةً وضيقاً، وقد حَقَّق في محله أن كلَّ عالمٍ مرتبطٌ بالعوالم الأخرى وقِشْرٌ لما فيه مُستترٌ، ولكلٍّ وجودٌ أثارٌ في عالمه، ولكلٍّ أثرٌ ملاك وأثرٌ وحكم ومُصالح بلا عدٌّ ومرٌّ، فمن رَكَت نفسه، وكَمَلَتْ جودته، يتَّكِلَ ذهنه من عالمٍ إلى عالمٍ، ومن مُناسِبٍ إلى مُناسِبٍ، ومن مُلزومٍ إلى لازمٍ، ومن مؤثِّرٍ إلى أثرٍ، ومن أثرٍ إلى أثرٍ ما شاء الله، فمن رَزَقَه الله فهمَ كتابه، يَصِلُ من ظاهره إلى لبّائه، ومنها إلى دقائقه، ومنها إلى حقائقه، حتّى يبلُغَ إلى درجةٍ لا يخفى عليه خافية، ويُحِيطُ بحقائق الأشياء في عوالمها كما هي.

وقد حكى الفيض رحمته الله عن بعض أهل المعرفة ما ملخصه: إن العلم بالشيء إما يُستفاد من الحس

٢. أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٤٠.

١. تفسير الصافي ١: ٢٨.

٣. تفسير الصافي ١: ٢٩.

برؤية أو تجربة أو سماع خبر أو شهادة أو اجتهاد أو نحو ذلك، ومثل هذا العلم لا يكون إلا فاسداً متغيراً محسوراً<sup>١</sup> متناهياً غير محيط، لأنه إنما يتعلق بالشيء في زمان وجوده علم، وقبل وجوده علم آخر، وبعد وجوده علم ثالث وهكذا، كعلوم أكثر الناس.

وأما ما يُستفاد من مبادئه وأسبابه وغاياته كان<sup>٢</sup> علماً واحداً كلياً بسيطاً محيطاً<sup>٣</sup> على وجه عقلي غير متغير، فإنه ما من شيء إلا وله سبب ولسببه سبب، وهكذا إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب. وكل ما عُرف سببه من حيث يقتضيه ويوجبه فلا بد أن يعرف ذلك الشيء علماً ضرورياً دائماً، فمن عرف الله تعالى بأوصافه الكمالية وتوحيده الجلالية، وعرف أنه مبدأ كل وجود وفاعل كل فيض وجود، وعرف ملائكته وعلم ملائكته<sup>٤</sup> المقربين، ثم ملائكته المدبرين المسخرين للأغراض الكلية العقلية بالعبادات الدائمة والنشك المستمرة من غير فتور ولغوب، الموجبة لأن يترشح عنها صور الكائنات، كل ذلك على الترتيب السببي والمُسببي، فيحيط علمه بكل الأمور وأحوالها ولواحقها علماً بريئاً من التغير والشك والغلط، فيعلم من الأوائل الثواني، ومن الكليات الجزئيات المترتبة عليها ومن البسائط المركبات، ويعلم حقيقة الإنسان وأحواله، وما يكملها ويكملها ويسعدها، ويضعدها إلى عالم القدس وما يذئسها ويؤديها ويُسقيها ويهيئها إلى أسفل سافلين، علماً ثابتاً غير قابل للتغيير، ولا مُحتمل لطرق الرُب، فيعلم الأمور الجزئية من حيث هي دائمة كلية ومن حيث لا كثرة فيه ولا تغير، وإن كانت هي كثيرة متغيرة في أنفسها بقياس بعضها إلى بعض.

وهذا كعلم الله سبحانه بالأمور، وعلم ملائكته المقربين، وعلوم الأنبياء والأوصياء بأحوال الموجودات الماضية والمستقبلية، وعلمهم بما كان وما سيكون إلى يوم القيامة من هذا القبيل، فإنه علم كلي ثابت غير متجدد بتجدد المعلومات، ولا متكرر بتكررها، ومن عرف كيفيه هذا العلم، عرف معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾<sup>٥</sup> ويصدق بأن جميع العلوم والمعاني في القرآن الكريم عرفاناً حقيقياً وتصديقاً يقينياً على بصيرة لا على وجه التقليد والسمع ونحوهما، إذ ما من أمر من الأمور إلا وهو مذكور في القرآن، إما بنفسه أو بمقوماته وأسبابه ومبادئه وغاياته، ولا

١. في تفسير الصافي: محسوراً.

٢. (كان) ليس في تفسير الصافي.

٣. (محيطاً) ليس في تفسير الصافي.

٤. (وعلم ملائكته) ليس في تفسير الصافي.

٥. النحل: ٨٩/١٦.

يتمكن من فهم [آيات] القرآن وعجائب أسرارها وما يلزمها من الأسرار<sup>١</sup> والعلوم التي لا تنتهي إلا من كان علمه بالأشياء من هذا القبيل، انتهى<sup>٢</sup>.

وعن معلّى بن خنيس، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «ما من أمرٍ يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»<sup>٣</sup>.

عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إن الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء، حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد حتى [لا] يستطيع عبده يقول: لو كان هذا نزل في القرآن، إلا وقد أنزله [الله] فيه»<sup>٤</sup>. ولا شبهة أن العلم بطون القرآن بالغاً ما بلغ مختص بالأئمة الطاهرة، وهم بالقرآن يعلمون، لما كان وما يكون وما هو كائن، وما يمكن أن يعلمه البشر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن ها هنا - وأشار إلى صدره - لعلماً جماً لو وجدت له حكمة»<sup>٥</sup>.

وروى الغزالي في (الإحياء) والحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن ابن مسعود عليه السلام قال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهْر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن<sup>٦</sup>.

وروى النقاش في (تفسيره) عن ابن عباس ما يقرب مما قال ابن مسعود<sup>٧</sup>.

في نقل كلام الغزالي وعن الغزالي قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «إن رسول الله ﷺ أدخل لسانه في فمي، فانفتح في قلبي ألف باب من العلم، مع كل باب ألف باب إلى أن قال الغزالي: وهذه المرتبة لا تنال بمجرد التعلم<sup>٨</sup>، بل يتمكن المرء في هذه المرتبة بقوة العلم اللدني<sup>٩</sup>.

وقال علي عليه السلام لما حكى عهد موسى على نبيينا وآله وعليه السلام: «إن شرح كتابه كان أربعين جملاً، لو أذن الله ورسوله لي لا تسرع<sup>١٠</sup> في شرح معاني ألف الفاتحة حتى يبلغ مثل ذلك، يعني أربعين قرأ أو جملاً<sup>١١</sup>.

١. في تفسير الصافي: من الأحكام.

٢. المحاسن: ٣٥٥/٢٦٥، الكافي ١: ٦/٤٩.

٣. الخصال: ٢٥٧/١٨٦، نهج البلاغة: ١٤٧/٤٩٦.

٤. مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٤٣.

٥. كذا في النسخة والبحار والظاهر: لأشعر.

٦. تفسير الصافي: ١: ٥٠.

٧. الكافي ١: ١/٤٨.

٨. حلية الأولياء ١: ٦٥.

٩. في البحار: العلم.

١٠. بحار الأنوار ٩٢: ١٠٤.

وذكر أبو عمر<sup>١</sup> الزاهد أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «يا بن عباس إذا صليت العشاء الآخرة فالحقني إلى الجبان». قال: فصليت ولحقته وكانت ليلة مقمرة.

قال: فقال لي: «ما تفسير الألف من الحمد؟» قال: فما علمتُ حزناً أجيئه. قال: فتكلم في تفسيرها ساعة تامة.

قال: ثم قال لي: «فما تفسير الكلام من الحمد؟» قال: فقلت: لا أعلم. فتكلم في تفسيرها ساعة تامة.

ثم قال: «فما تفسير الميم من الحمد؟» فقلت: لا أعلم. قال: فتكلم في تفسيرها ساعة تامة.

قال: ثم قال: «ما تفسير الدال [من الحمد]؟» قال: قلت: لا أدري. قال: فتكلم فيها حتى برق عمود الفجر. قال: فقال لي: «يا بن عباس، قم إلى منزلك وتأهب لفرضك».

قال أبو العباس عبدالله بن عباس: فقممتُ وقد وعيتُ كل ما قال، ثم تفكرتُ فإذا علمي بالقرآن في علم علي كالقراءة في المُنْعَتَجِر<sup>٢</sup>، انتهى<sup>٣</sup>.

قالوا: القراءة: الغدير، والمُنْعَتَجِر: البحر.

وعن علي عليه السلام قال: «لو شئتُ لأوقرتُ سبعينَ بغيراً من تفسير فاتحة الكتاب»<sup>٤</sup>.

وعن الباقر عليه السلام قال: «لو وجدتُ لِعَلَمِي الذي آتاني الله عز وجل حَمَلَةً، لنشرتُ التوحيد والإسلام [والإيمان] والذين والشرائع من الصُّمَد»<sup>٥</sup>.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إني لأعلمُ خبرَ السَّماءِ، وخبرَ الأرضِ، وخبرَ ما كان وما هو كائن، كأنه في كَفِّي».

ثم قال: «من كتاب الله أعلمُهُ، إن الله يقول: (فيه تبيان كل شيء)»<sup>٦</sup>.

وفي رواية عن أبي عبدالله، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ليس شيء أبعد عن عقول الرجال من تفسير القرآن، وفي ذلك تحيّر الخلائق أجمعون إلا ما شاء الله، وإنما أراد الله بتعميته في ذلك أن

١. في النسخة: أبو عمرو، وهو أبو عمر الزاهد، محمد بن عبد الواحد اللغوي المشهور بغلام ثعلب، المتوفى سنة ٣٤٥هـ. راجع: فهرست ابن النديم: ١١٣، تاريخ بغداد ٢: ٣٥٦، لسان الميزان ٥: ٢٦٨، وفيات الأعيان ٤: ٣٢٩.

٢. المُنْعَتَجِر: الماء وسط البحر وليس في البحر ماء يشبهه، والسيل الكثير، والقراءة: القاع المستدير يجتمع فيه الماء، يقال: علمي إلى علمه كالقراءة في المُنْعَتَجِر، أي مقيساً إلى علمه كالقاع الصغير موضوعاً في جنب البحر.

٣. بحار الأنوار ٩٢: ١٠٤.

٤. إحياء علوم الدين ١: ٣٣٤ و ٣٤١، أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٣٨.

٥. التوحيد: ٦/٩٢.

٦. في المحاسن: شيء أبعد من قلوب.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٤١٥/١٨.

يَتَّبِعُوا إِلَى بَابِهِ وَصِرَاطِهِ، وَأَنْ يَعْبُدُوهُ وَيَسْتَهْوُوا إِلَى طَاعَةِ الْقَوَامِ بِكِتَابِهِ، وَالنَّاطِقِينَ عَنْ أَمْرِهِ، وَأَنْ يَسْتَنْبِطُوا مَا<sup>١</sup> احتاجوا إليه من ذلك عنهم لا عن أنفسهم. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾<sup>٢</sup>. وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَيْسَ يَعْلَمُ ذَلِكَ أَبَدًا، وَلَا يَوْجَدُ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ وِلَاةَ الْأَمْرِ، إِذَا لَا يَجِدُونَ مَنْ يَأْتَمِرُونَ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْ يُبَلِّغُونَهُ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ، فَجَعَلَ [اللَّهُ] الْوِلَاةَ خَوَاصًّا لِيَقْتَدِيَ بِهِمْ [مَنْ] لَمْ يَخْصَصْهُمْ بِذَلِكَ. فَافْهَمْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَإِيَّاكَ وَتَأْوِيلَ الْقُرْآنِ بِرَأْيِكَ، فَإِنَّ النَّاسَ غَيْرَ مُشْتَرِكِينَ فِي عِلْمِهِ كَاشِرَاتِ رَأْيِهِمْ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَا قَادِرِينَ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى تَأْوِيلِهِ، إِلَّا مَنْ حَدَّثَهُ وَبَابَهُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ، فَافْهَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَاطْلُبِ الْأَمْرَ مِنْ مَكَانِهِ تَجِدْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ<sup>٣</sup>.

### الطَّرْفَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ

فِي أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ فِي الْأَثْمَةِ وَوَلَايَتِهِمْ  
وَوُجُوبِ اتِّبَاعِهِمْ وَشُؤْنُونَهُمْ وَشُؤْنُونَهُمْ  
أَوَّلِيَانَهُمْ وَأَعْدَائَهُمْ، وَتَوْضِيحِهِ

قَدْ اسْتَفَاضَتْ الْأَخْبَارُ عَنِ الْأَثْمَةِ الْأَطْهَارِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ فِيهِمْ، وَفِي وَلَايَتِهِمْ، وَوُجُوبِ اتِّبَاعِهِمْ، وَشُؤْنُونَهُمْ وَشُؤْنُونِ أَوَّلِيَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَدِيثٍ ذَكَرَ فِيهِ مُحَامِدٌ أَهْلَ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - قَالَ: «نَحْنُ مَعْدِنُ التَّنْزِيلِ، وَمَعْنَى التَّأْوِيلِ»<sup>٤</sup>.

وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا رَوَى عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ ذَكَرَ فِيهِ صِفَاتُ الْإِمَامِ<sup>٥</sup>. وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْأَصْبَغُ بْنُ ثُبَاتَةَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ، قَالَ: «الْقُرْآنُ نَزَلَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْبَاعٍ: رُبْعٌ فِينَا، وَرُبْعٌ فِي عَدُونِنَا، وَرُبْعٌ سُنَنٌ وَأَمْثَالٌ، وَرُبْعٌ فَرَائِضُ وَأَحْكَامٌ، وَلَنَا كِرَامُ الْقُرْآنِ»<sup>٦</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّهُ نَزَلَ أَثْلَاثًا: ثُلُثِي الْقُرْآنُ فِينَا وَفِي شِيعَتِنَا، فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ فَلَنَا

٢. النساء: ٨٣/٤.

١. في النسخة: يستنبطوا لما، وفي المحاسن: يستنبطوا ما.

٣. المحاسن: ٣٥٦/٢٦٨. بحار الأنوار ٩٢: ١٠٠/٧٢. ٤. مشارق أنوار اليقين: ٤٠، بحار الأنوار ٢٥: ٢٢/٣٨.

٥. مشارق أنوار اليقين: ١١٤. ٦. تفسير فرات: ٢/٤٦.

ولشيعتنا، والثُلث الباقي اشركنا فيه الناس، فما كان من شُرِّ فليعدونا<sup>١</sup>.

فإن الاختلاف بين الأخبار راجع إلى اختلاف اللّحاظ والاعتبار، فباعتبار يكون جميع ما ذكر فيه من مدح المؤمنين وثوابهم، وذم الكفار وعقابهم راجعاً إلى شيعتهم وأعدائهم، وجميع الفرائض والأحكام مرتبطاً بولايتهم، وجميع ما ذكر فيه من قصص الأنبياء وأمهم جارياً فيهم.

عن الكاظم عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾<sup>٢</sup> قال: «القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرّم الله في الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحلّ الله في الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الحق»<sup>٣</sup>.

وعن أبي بصير، قال: قال الصادق عليه السلام: «يا أبا محمد، ما من آية تقود إلى الجنة وتذكر أهلها بخير إلا وهي فينا وفي شيعتنا، وما من آية نزلت تذكر أهلها بشرًا وتسوق إلى النار، إلا وهي في عدونا ومن خالفنا»<sup>٤</sup>.

وفي (التوحيد) بأسانيد: عنه عليه السلام أنه قال: «ما من آية تسوق إلى الجنة إلا وهي في النبي والأئمة عليهم السلام وأشياهم وأتباعهم، وما من آية تسوق إلى النار إلا وهي في أعدائهم ومخالفهم»<sup>٥</sup>. وعن الصادق عليه السلام وكثير من الصحابة والتابعين «أنه ما من آية أولها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعليّ بن أبي طالب أميرها وقائدها وشرقيها وأولها»<sup>٦</sup>.

وعن (الاحتجاج) عن الباقر عليه السلام قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله في خطبة يوم الغدير: معاشر الناس، هذا عليّ أحقكم بي، وأقربكم إليّ»<sup>٧</sup>، والله عز وجل وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضاء إلا فيه، وما خاطب [الله] الذين آمنوا إلا بدأ به، وما نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه»<sup>٨</sup>.

معاشر الناس، إن فضائل عليّ عند الله عز وجل، وقد أنزلها عليّ في القرآن أكثر من أن أحصيتها في مكان<sup>٩</sup> واحد، فمن نبأكم بها وعرفها فصّدقوه»<sup>١٠</sup>.

أقول: لاريب في أن كلّ ما نزل من الآيات في فضائل عليّ عليه السلام فهو جارٍ في أوصيائه

١. بصائر الدرجات: ٢/١٤١، بحار الأنوار: ٩٢/٨٥.

٢. الكافي: ١/٣٠٥. ٣. الكافي: ٨/٣٦. ٤. اعتقادات الصدوق: ٩٥.

٥. تفسير فوات: ٤٨ - ٤/٥١ - ٦ - ٩، مناقب الخوارزمي: ١٩٨، ذخائر العقبى: ٨٩.

٦. زاد في المصدر: انصرمك لي و. ٧. زاد في المصدر: وأعزكم عليّ.

٨. في المصدر: مقام. ٩. الاحتجاج: ٦٦.

١٠. الأعراف: ٣٣/٧.

المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أيضاً، كما روي عن الباقر عليه السلام في حديث، قال: «ظهر القرآن للذين نزل فيهم، ويطئنه للذين<sup>١</sup> عملوا بمثل أعمالهم»<sup>٢</sup>.

وفي رواية أخرى: عنه عليه السلام قال: «ولو أن الآية إذا نزلت في قوم، ثم مات أولئك [القوم] مائت الآية، لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض»<sup>٣</sup>.

وعنه عليه السلام في رواية، قال في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾<sup>٤</sup> «علي الهادي، ومن الهادي [اليوم]؟» فقلت: أنت جعلت فذاك الهادي. قال: «صدقت، إن القرآن حي لا يموت، والآية حيّة لا تموت. فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا مائت الآية لمات القرآن<sup>٥</sup>، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين»<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «إن القرآن حي لا يموت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا»<sup>٧</sup>.

وبالجملة: الروايات التي تدل على أن جميع القرآن في شأن الأئمة عليهم السلام وإيجاب ولايتهم كثيرة جداً، بل وردت روايات في آيات ظاهرها بيان الأحكام، وباطنها بيان شأنهم، كما روي عن عبدالله بن سنان، قال ذريح المحاربي: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾<sup>٨</sup> فقال: «المُرَاد لِقَاءُ الإمام عليه السلام».

[قال عبدالله بن سنان]: فأتيت أبا عبدالله صلوات الله عليه وقلت له: جعلت فذاك، قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾؟ قال: «أخذ الشارب وقص الأظفار وما أشبه ذلك» فحكيت له كلام ذريح، فقال عليه السلام: «صدق ذريح، وصدقت [أنت]، إن للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح»<sup>٩</sup>.

قال الفيض: إن جماعة من أصحابنا صنفوا كتباً في تأويل القرآن على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام في تأويل آية آية، إما بهم أو بشيعتهم أو بعدوهم على ترتيب القرآن، وقد رأيت منها

١. في تفسير العياشي: الذين.

٢. تفسير العياشي ١: ٣٤/٨٦.

٣. تفسير العياشي ١: ٣١/٨٥، بحار الأنوار ٩٢: ٤/١١٥.

٤. الرعد: ١٣/٧.

٥. تفسير العياشي ٢: ٣٧٩/٢١٨٥.

٦. في العياشي: في الأقوام ماتوا فمات القرآن.

٧. معاني الأخبار: ١٠/٣٤٠.

٨. الحج: ٢٢/٢٩.

٩. تفسير العياشي ٢: ٣٧٩/٢١٨٥.



كتاباً كاذباً يقرب من عشرين ألف بيت<sup>١</sup>.

وقد ذكر أصحابنا لذلك أسراراً، أحسنها أنه تعالى لما جعل الأنوار المقدسة في الخلق مظاهراً لصفاته الجلالية والجمالية بهم عرف الله بهم عبد، فلا يحصل لأحد قرب إلى الله إلا بالقرب إليهم، ولا الإيمان بالله إلا بالإيمان بهم، ولا يعرف الله إلا بمعرفتهم، ولا ينال أحد درجة عند الله إلا بولايتهم.

فكل أمر في القرآن بالإيمان بالله ويعرفانيه وبالقرب إليه، يكون أمراً بالإيمان بهم ويعرفانيهم وبالقرب إليهم، وكل تكليف يجعل مقرباً إلى الله، يكون مقرباً إليهم، وكل مدح يكون للمؤمنين، يكون لهم ولشيعتهم، وكل ذم ووعيد يكون للكفار ولأعداء الله، يكون في الواقع راجعاً إلى الكافرين بهم وإلى أعدائهم، وكل ما هو راجع إلى الله، راجع إليهم، فهم صلوات الله عليهم مع الله، والله معهم، لا يفارقونه في شيء ولا يفارقهم.

ويشهد لما ذكر الأخبار الواردة في أن ولايتهم قرينة ولاية الله وتوحيده، وأنهم علة غائية لخلق العالم، وأن جميع الأنبياء من أول الخلق، كما كانوا مأمورين بدعوة أممهم إلى التوحيد، كانوا مأمورين بدعوتهم إلى الإقرار بولايتهم ومعرفة حقوقهم.

في (تفسير الإمام عليه السلام) أنه قال: «ولاية محمد وآل محمد صلوات الله عليهم هي الغرض الأقصى والمراد الأفضل، ما خلق الله أحداً من خلقه، ولا بعث أحداً من رسله إلا ليدعوهم إلى ولاية محمد وعلي وخلفائه صلوات الله عليهم، يأخذ عليهم العهد ليقبضوا عليه، ولتعلما به<sup>٢</sup> سائر عوام الأمم<sup>٣</sup>». وعن (أمالى الشيخ): عن محمد بن عبد الرحمن، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبي قط إلا بها»<sup>٤</sup>.

وفي (الكافي): عن عبد الأعلى، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ما من نبي جاء قط إلا بمعرفة حقنا، وتفضيلنا على من سوانا»<sup>٥</sup>.

وفيه أيضاً: عن أبي الحسن عليه السلام قال: «ولاية علي صلوات الله عليه مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولم يبعث الله رسولا إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله ووصية علي عليه السلام»<sup>٦</sup>.

١. تفسير الصافي ١: ٢٣، منها تأويل الآيات لشرف الدين النجفي، وكتاب الهداية القرآنية إلى الولاية الإمامية للسيد هاشم البحراني. ٢. في التفسير: وليعمل به.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٩/٣٦٤.

٤. أمالي الطوسي: ١٤١٢/٦٧١.

٥. الكافي ١: ٣٦٢.

٦. الكافي ١: ٣٦٣.

وعن (تفسير العياشي)<sup>١</sup>: عن الحسن بن علي عليه السلام أنه قال: «مَنْ دَفَعَ فَضْلَ أمير المؤمنين صلوات الله عليه [على جميع من بعد النبي صلى الله عليه وآله] فقد كَذَبَ بالتَّوراةِ والانجيل والزبور وصُخِّفَ إبراهيم وموسى وسائر كُتُبِ الله المُنزلة، فإنه ما نَزَلَ شيءٌ [منها] إلَّا وأهمُّ ما فيه بعد الإقرار<sup>٢</sup> بتوحيد الله عزَّ وجلَّ والاقرار بالنبوة، الاعتراف بولاية عليٍّ والطَّيِّبِ من آلِهِ عليه السلام»<sup>٣</sup>.

[وعن (أمالى الشيخ): عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن جدِّه عليه السلام]، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما قبُضَ الله نبيًّا حتَّى أمرَه أن يُوصيَ إلى [أفضل] عشيرته من عَصَبَتِهِ، وأمرني أن أوصي، فقلت: إلى مَنْ يا رَبِّ؟ فقال: إلى ابنِ عمِّك عليٍّ بن أبي طالب، فإنِّي قد أثبتُّه في الكُتُبِ السالفة، وكتبْتُ فيها أَنَّهُ وصيُّك، وعلى ذلك أخذتُ ميثاقَ الخَلِيقِ، ومَوثِيقَ أنبيائي ورُسلي، أخذتُ مَوثِيقَهُمْ لي بالنبوة، ولك يا محمد بالنبوة، ولعلي بالولاية»<sup>٤</sup>.

وعن (كتاب سليم بن قيس الهلالي): عن المقداد رضي الله عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: «والذي نفسِي بيده، ما أَسْئُوجِبُ آدمَ أن يخلُقَه الله ويُنْفِخَ فيه من روحه، وأن يتوبَ عليه ويرُدَّهُ إلى جَنَّتِهِ إلَّا بنبوتي والولاية لعلِّي بعدي.

والذي نفسِي بيده، ما رأى إبراهيم ملكوت السماوات<sup>٥</sup>، ولا اتَّخَذَه الله خَلِيلًا إلَّا بنبوتي ومعرفة عليٍّ بعدي. والذي نفسِي بيده، ما كلَّم الله موسى تكليمًا ولا أقام عيسى آيةً للعالمين إلَّا بنبوتي والإقرار لعلِّي بعدي. والذي نفسِي بيده، ما تَنَبَّأ نبي قطَّ إلَّا بمعرفتي<sup>٦</sup> والإقرار لنا بالولاية، ولا استأهل خَلْقَ من الله النظرَ [إليه] إلَّا بالعبودية له والإقرار لعلِّي بعدي»<sup>٧</sup>.

وعن جابر الجعفي، عن الباقر عليه السلام - في رواية طويلة - قال: «فَنَحْنُ أَوَّلُ خَلْقِ الله، وأَوَّلُ خَلْقِ عَبْدِ الله وسُبْحِهِ، ونَحْنُ سَبَبُ خَلْقِ الله الخَلْقَ، وسَبَبُ تَسْبِيحِهِم وعبادتهم مِنَ الملائكة والآدميين، فبِنا عَرَفَ الله، وبِنا عُبِدَ الله، وبِنا وُحِّدَ الله، وبِنا أَكْرَمَ الله من أَكْرَمَ من جميع خَلْقِهِ، وبِنا أَثَابَ الله [مَنْ

١. لم نجد في تفسير العياشي، والظاهر أَنَّهُ وهمٌ، فقد ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام وتأويل الآيات.

٢. في تفسير العسكري وتأويل الآيات: الأمر.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٤٦/٨٨، وتأويل الآيات ١: ٤٣/٣٣.

٤. أمالي الطوسي: ١٦٠/١٠٤، بحار الأنوار ٣٨: ٤٤/١١١.

٥. في المصدر: ما أرى.

٦. زاد في المصدر: والأرض.

٧. في المصدر: بمعرفته.

٨. كتاب سليم: ٢٠٦.

أثاب،] وينا عاقب من عاقب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾<sup>١</sup>، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾<sup>٢</sup> فرسول الله ﷺ أول من عبد الله، وأول من أنكر أن يكون له ولد أو شريك، ثم نحن بعد رسول الله ﷺ الخير<sup>٣</sup>.  
فظهر من جميع ما ذكر أن حقيقة الدين وروح الأحكام؛ معرفتهم وولايتهم، وجميع الخلق راجع إليهم، فجميع آيات الكتاب تكون فيهم وما يتعلق بهم.

### الطريقة الرابعة والعشرون

في دفع توهم استلزام أمر اشتغال القرآن  
على البطون استعمال اللفظ في أكثر من معنى

قد يتوهم المتوهم أنه يلزم من إرادة المعاني الظاهرية، والبطون الكثيرة من الآيات، إرادة المعاني الكثيرة من اللفظ الواحد في استعمال واحد، وقد تقرر في علم الأصول عدم جوازه، بل امتناعه، وبعد الإحاطة بما ذكرنا سابقاً من اختلاف جهات الدلالة واستنباط المعاني منها، يتدفع هذا التوهم، فإن الانتقال من اللفظ إلى المعنى، واستيفاد المطلب من الكلام، ليس منحصراً في الدلالة بجهة واحدة ووجه فارد، بل كلما استعملت الجملة المركبة من المفردات تركيباً مفيداً، فهي تدل على معانيها الظاهرية مطابقة، وعلى أجزائها العقلية والخارجية تضمناً، وعلى أجزائها علىها وشرائطها، إلى أن ينتهي إلى مبدأ المبادئ، وعلة العلل ومعلولاتها، إلى ما شاء الله التزاماً.  
هذا بالنسبة إلى الجملة الواحدة بالنظر إلى الدلالات الثلاث مع قطع النظر عن انضمامها إلى الآيات الأخرى، وعن الدلالات غير الكلامية من كيفية الألفاظ وأعداد حروفها وسائر طرق الاستفادة منها، التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم.

فبتلك الوجوه يكون لكل آية ظاهر، وظاهرها ظاهراً وباطناً وباطن إلى ما شاء الله، وبها يُجمع بين الأخبار المتنافية الواردة في تفسير بعض الآيات كالمختلفات في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ في آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾<sup>٤</sup> ففي بعضها أن المراد منه

٣. بحار الأنوار ٢٥: ٣١/٢٠.

٢. الزخرف: ٨١/٤٣.

١. الصافات: ١٦٥/٣٧ و١٦٦.

٤. آل عمران: ٢٠٠/٣.

التوقف في الثُغور، وربط الخيل للتهيؤ للجهاد<sup>١</sup>. وفي بعضها الآخر: أن المراد الانتظار للصلاة بعد الصلاة<sup>٢</sup>. وثالث: أنه لقاء الإمام<sup>٣</sup>.

فليس التعارض بين الروايات المختلفة الواردة في تفسير آية من قبيل التعارض الذي يجب الرجوع فيه إلى المُرَجَّحات المنصوصة أو غير المنصوصة، وعند فقديها يلتزم بالتوقف أو التخيير، فإن الجمع الدلالي ممكن فيها، ومقدم على المُرَجَّحات السندية.

وكذا الروايات المختلفة الواردة في شأن نزول الآيات، فإنها محمولة على تَفَارُقِ الوقائع، وإن جميعها كان سبباً للنزول، أو على أن النزول كان متكرراً، فإنه ممكن، بل واقع، أو على أنها نزلت عند أول واقعة، ثم وقعت وقائع أخرى كل واحد منها مناسِبٌ لمضمون الآية، فقرأها النبي ﷺ عنده فتوهم الراوي نزولها فيه.

نعم، يكون اختلاف الروايات في كيفية القراءة من التعارض الذي ليس فيه جمع دلالي بناءً على ما هو الحق المحقق من بطلان القول بتعدد القراءات التي نزل بها جبرئيل، وفساد القول بأن القراءات السبع متواترة عن النبي ﷺ.

وإن الحق أن القرآن نزل على حرف واحد من عند إله واحد، كما نطقت به بعض الروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام)، ولكن لا يمكن إثبات كيفية القراءة بخبر الواحد، كما لا يمكن إثبات الآية به، نعم يترتب عليه على تقدير استجماعه شرائط الحجية الحكم الشرعي الذي يكون لمؤداه، إن لم تكن القراءة المشهورة متواترة، وإلا فلا بُدَّ من طرح تلك الروايات والقراءة، والعمل بالقراءة المشهورة، وعند ذلك لا فائدة في تلك الأخبار خصوصاً مع قولهم صلوات الله عليهم «اقرأ كما يقرأ الناس»<sup>٥</sup>.

فلا يجوز قراءة السور بالقراءات غير المشهورة في صلاة الفريضة، ولو كانت مروية عن الأئمة المعصومين (عليهم السلام) بسند صحيح معتبر.

١. الكشف ١: ٤٦٠، تفسير روح البيان ٢: ١٥٧.

٢. تفسير الطبري ٤: ١٤٨، مجمع البيان ٢: ٩١٨، تفسير القرطبي ٤: ٣٢٣، تفسير روح البيان ٢: ١٥٧.

٣. راجع: الكافي ٢: ٣/٦٦، غيبة النعماني: ١٣/١٩٩، تفسير القمي ١: ١٢٩، مختصر بصائر الدرجات: ٨.

٤. راجع: الكافي ٢: ١٢/٤٦١، تفسير الصافي ١: ٥٣.

٥. راجع: الكافي ٢: ٢٣/٤٦٢.

## الطَّرْفَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ

### في عدم حجّية الأمارات الدّالة على تفسير الآيات غير المرتبطة بالأحكام الشرعية العملية

لا شبهة في عدم حجّية الأمارات الشرعيّة في موردٍ ليس له بتفسيه أو بتوسط اللوازم العقليّة أو العاديّة حكمٌ شرعيّ عمليّ، حيث إنّ الحجّية إمّا عبارة عن حكمٍ شرعيّ تكليفيّ طريقيّ بترتيب الأحكام العمليّة الواقعيّة على مؤدّى الأمانة الدّالة عليها أو على وجود موضوعها عند جهل المكلف بها أو بموضوعها، أو حكمٍ وضعيّ وجعلٍ إنشائيّ يَمُنُّ له الحكم.

والجَعْلُ يكونُ منشأً لاعتبارٍ عقلائيّ يستتبع الآثار العقليّة من تنجيز الأحكام الشرعيّة الواقعيّة التي تكون مؤدّاها أو العقلائيّة كذلك ولو بالوسائل العقلية أو العاديّة عند الإصابة والعذر عند الخطأ و الموافقة والتجزي عند المخالفة، فلا يتصوّر تحقّق مفهوم الحجّية وجعلها إلاّ لأمانة كان مؤدّاها حكماً عملياً، أو موضوعاً<sup>١</sup> ذا حكم ولو بواسطة أمور غير شرعيّة، فلا معنى لحجّية الأخبار غير العمليّة الواردة في بيان شأن نزول الآيات أو تفسيرها أو بطونها وتأويلها إذا لم يترتب عليها حكمٌ شرعيّ ولم يكن لها دُخُل في فهم الآيات الدّالة على الأحكام التكليفيّة أو الوضعيّة، ولا يجوز ترتيب أثر العلم على تلك الأمارات المَجعولة.

ولو كان العلم مأخوذاً فيها على جهة الكشف والطريقة، فعلى المكلف أن يرتّب على الأمارات آثار المعلوم، لا آثار العلم، فعلى هذا لا يجوز الإخبار بتحقيق مؤدّاها لأنّ جواز الإخبار بالواقع من آثار العلم به لا من آثار نفسه، فإنّ دليل الحجّية لا يفيّ بإثبات آثار العلم للأمانة، وأنما يُثبِت لها أثر الكشف عن الواقع الذي للعلم، إلاّ أن يقومَ دليلٌ غير دليل الحجّية على جواز ترتيب أثر العلم على الأمانة.

فعلى هذا لا يجوز الارتيماس في الماء للصائم، ولا يجوز الإخبار بأن الارتيماس مُبطلٌ للصوم في حكم الله الواقعي، لأنّه كَذِب على الله وعلى رسوله إذا كان الكَذِب هو الإخبار بشيء لا يعلم به. نعم، له أن يقول: رأيي، أو رأيي مُقلّدي عدم جواز الارتيماس حال الصّوم، أو يقول: مقتضى الأخبار كذا، إلاّ أن يُقال: إنّ أقوى دليل حجّية الروايات هو بناء العقلاء وسيرتهم على العمل بالخبر الموثوق

١. في النسخة: حكم عمليّ أو موضوع.

به، وكما أن سيرتهم قائمة على جواز العمل، كذلك قائمة على جواز الإخبار بالواقع الذي يكون مؤداه.

فإذا أخبر أحد بشأن نزول آية، أو تفسيرها، أو تأويلها، أو بحكم من أحكام الله الواقعية، ثم سُئِلَ عن مدرك إخباره، فأجاب بأنه ورد خبرٌ معتبر به، لا يلام عند العقلاء على إخباره، مع عدم علمه به، وتأييده الرواية في جواز الشهادة على الملك الواقعي بالاصحاب واليد<sup>١</sup>.

والحاصل: أن في الحجج العقلية من خبر الثقة وظواهر الألفاظ وغيرها سيرتين منهم، إحداهما: على جواز العمل بمؤداهما على أنه الواقع. وثانيتها: على جواز الإخبار بالواقع الذي تكون أمارة عليه.

## الطرفة السادسة والعشرون

### في دفع توهم التناقض والتعارض

#### بين الآيات الكريمة

قد توهم الجاهلون التناقض في جملة من آيات الكتاب العزيز، والتعارض بين كثير منها، مع بدهية أن كلامه تعالى منزلة عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>٢</sup> وقد تعرض جمع من العلماء لذكر الآيات المؤهمة لذلك، ولبيان وجه الجمع بينها ودفع التوهم فيها. روي عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنه فقال: رأيت أشياء تختلف علي من القرآن. فقال ابن عباس: ما هو أشك؟ قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك.

قال: أسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>٣</sup> وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾<sup>٤</sup> فقد كتموا. وأسمعه يقول: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾<sup>٥</sup> ثم قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾<sup>٦</sup>. وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ حتى بلغ ﴿طَائِفِينَ﴾<sup>٧</sup> ثم قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾<sup>٨</sup> ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ

١. وسائل الشيعة ٢٧: ٣٣٦ - باب ١٧.

٢. النساء: ٨٢/٤.

٣. الأنعام: ٢٣/٦.

٤. النساء: ٤٢/٤.

٥. المؤمنون: ١٠١/٢٣.

٦. الصافات: ٢٧/٣٧، الطور: ٢٥/٥٢.

٧. فصلت: ٩١/٩ - ١١.

٨. النازعات: ٢٧/٧٩.

بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا<sup>١</sup>. وَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: ﴿كَانَ اللَّهُ<sup>٢</sup> مَا شَأْنُهُ يَقُولُ: وَهَكَذَا كَانَ اللَّهُ؟<sup>٣</sup>﴾

فقال ابن عباس رضي الله عنه: «أما قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَنَتْنَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَلَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبُ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَلَا يَغْفِرُ شُرَكَاءَ، جَحَدَهُ الْمُشْرِكُونَ رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فخنم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا.

وأما قوله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فَإِنَّهُ إِذَا تُفِيحَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ تُفِيحَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ.

وأما قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَإِنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَكَانَتِ السَّمَاءُ دُخَانًا فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ.

وأما قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يَقُولُ: جَعَلَ فِيهَا جِبَلًا، وَجَعَلَ فِيهَا نَهْرًا، وَجَعَلَ فِيهَا شَجَرًا، وَجَعَلَ فِيهَا بَحْرًا.

وأما قوله: ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ وَهُوَ كَذَلِكَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ أَقُولُ: الظاهر أن المراد من الجواب الآخر أن الزمان ليس بداخل في مفهوم الفعل وُضْعًا، أو يكون داخلًا، ولكن صار منسليخًا من الزمان هنا بالقرينة القطعية.

ثم قال: فما اختلف عليك من القرآن فهو يُشَبِّهُ<sup>٤</sup> ما ذكرت لك. وإن الله لم يَنْزِلْ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ<sup>٥</sup>.

وعن [ابن] أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس رضي الله عنه عن ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾<sup>٦</sup> وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾<sup>٧</sup> فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما<sup>٨</sup>.

٤. في النسخة: يشبهها.

٥. المعارج: ٤/٧٠.

٦. السجدة: ٥/٣٢.

١. النازعات: ٣٠/٧٩. ٢. آل عمران: ١٧٩/٣.

٣. ٨٨. ٤. الإتيان في علوم القرآن ٣/٣٨.

٥. ٨. الإتيان في علوم القرآن ٣/٩٣.

وزاد في رواية أخرى: ما أدري ما هما وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم<sup>١</sup>.

قال ابن [أبي] مليكة: فضربت البعير حتى دخلت على سعيد بن المسيّب، فسئل عن ذلك، فلم يذّر ما يقول. فقلت له: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ فآخبرته، فقال ابن المسيّب للسائل: هذا ابن عباس قد اتقى أن يقول فيهما وهو أعلم مني<sup>٢</sup>.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: إن يوم الألف هو مقدار سير الأمر وعُروجه إليه، ويوم الألف في سورة الحجّ هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات، ويوم الخميس ألفاً هو يوم القيامة<sup>٣</sup>. وعن عكرمة، عنه عليه السلام أن رجلاً قال له: حلّثني ما هؤلاء الآيات ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ و﴿يَذْبُذُّ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَفْجُرُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾؟<sup>٤</sup> فقال: يوم القيامة حساب خمسين ألف سنة، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، كل يوم يكون ألف سنة. و﴿يَذْبُذُّ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَفْجُرُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ذلك مقدار السير<sup>٥</sup>، انتهى<sup>٦</sup>.

وقال بعض: إن المراد من اليوم في جميع الآيات يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار اختلاف حال المؤمن والكافر<sup>٧</sup>.

وقيل: إن المراد من ألف سنة سنين الآخرة، ومن خمسين ألف سنة سنين الدنيا<sup>٨</sup>. ونقل: أنه سأل رجل بعض العلماء عن قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾<sup>٩</sup> فأخبر الله أنه لا يقسم به، ثم أقسم به في قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾<sup>١٠</sup>. فقال: أيما أحب إليك، أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ فقال: بل أقطعني ثم أجبني.

فقال: أعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحضرة رجال وبين ظهرائي قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمراً وعليه مطعناً، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالردة عليه، ولكن القوم عليموا وجعلت ولم ينكروا ما أنكرت.

ثم قال له: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها، وأنشد فيه أبياتاً<sup>١١</sup>.

١. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٩٣.

٢. الحج: ٤٧/٢٢. ٣. في الإنفاق: المسير.

٤. في الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٩٣. ٥. مجمع البيان ٧: ١٤٢.

٦. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٩٤. ٧. التين: ١٠/٩٥.

٨. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٩٩. ٩. البلد: ١/٩٠.



وعن بعض العلماء: في المقام كلامٌ ملخصه: أن للاختلاف أسباب.

أحدها: وقوع المخبر به على أحوال<sup>١</sup> مختلفة وتطورات شتى، كقوله في خلق آدم مرة: ﴿مِنْ تَرَابٍ﴾<sup>٢</sup> ومرة: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾<sup>٣</sup> ومرة: ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾<sup>٤</sup> ومرة: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾<sup>٥</sup> فهذه ألفاظ مختلفة، ومعانيها في أحوال مختلفة، إلا أن كلها يرجع إلى أصل واحد وهو التراب. وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تُغْبِطُ مُبِينٌ﴾<sup>٦</sup> في موضع و﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾<sup>٧</sup> في موضع، والجاء: الصَّغِير من الحيَّات، والثعبان: الكبير منها، وذلك الاختلاف بلحاظ أن خلقها خلق الثعبان العظيم، وحركتها وخفتها كحركة الجان وخفته.

وثانيها: اختلاف الموضوع<sup>٨</sup>، كقوله: ﴿وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾<sup>٩</sup> وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>١٠</sup> مع قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾<sup>١١</sup>. وذلك يلحاظ اختلاف الأماكن، لأن في القيامة مواقف كثيرة، ففي موضع يسئلون، وفي آخر لا يسئلون. وقيل: إن السؤال المثبت سؤال تبييت وتوبيخ، والمنفي سؤال المعذرة وبيان الحجة. وقيل: إن السؤال الأول عن التوحيد وتصديق الرُّسل. والسؤال الثاني عما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه.

وكقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُغَدِّلُوا فَوَاحِدَةً﴾<sup>١٢</sup> مع قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُغَدِّلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾<sup>١٣</sup> فمن الأولى يفهم إمكان العدل، وممن الثانية عدم إمكانه، فالأولى في توفية الحقوق، والثانية في الميل القلبي، وليس في قدرة الإنسان.

أقول: وقرب من هذا الوجه مروي عن الصادق عليه السلام<sup>١٤</sup>.

قال: وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾<sup>١٥</sup> مع قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾<sup>١٦</sup> فالأولى في الأمر التشريعي، والثانية في الأمر التكويني، بمعنى القضاء والتقدير.

١. في الاتقان: أنواع. ٢. آل عمران: ٥٩/٣. ٣. الحجر: ٢٨/١٥. ٤. الصافات: ١١/٣٧.

٥. الرحمن: ١٤/٥٥. ٦. الأعراف: ١٠٧/٧. الشعراء: ٣٢/٢٦.

٧. النمل: ١٠/٢٧. القصص: ٣١/٢٨. ٨. في الإنفاق: كاهنزاز. ٩. في الاتقان: الموضوع.

١٠. الصافات: ٢٤/٣٧. ١١. الأعراف: ٦/٧. ١٢. سورة الرحمن: ٣٩/٥٥.

١٣. النساء: ٣/٤. ١٤. النساء: ١٢٩/٤.

١٥. راجع: تفسير القمي ١: ١٥٥، تفسير العياشي ١: ٤٤٨/١١٣٠. ١٦. الأعراف: ٢٨/٧.

١٧. الإسراء: ١٦/١٧.

وثالثها: الاختلاف في جهتي الفعل، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾<sup>١</sup> أضيف القتل إليهم والرمي إلى النبي ﷺ على جهة المباشرة، ونفاه<sup>٢</sup> عنهم وعنه ﷺ باعتبار الأسباب<sup>٣</sup>.

ورابعها: الاختلاف في الحقيقة والمجاز، كقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ أي من الأهوال مجازاً، وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾<sup>٤</sup> أي من المسكر حقيقة.

امسها: اختلاف الوجه والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ آلِيَوْمَ حَدِيدٌ﴾<sup>٥</sup> مع قوله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ مِنَ اللَّهِ يُنْظَرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾<sup>٦</sup> فالأول باعتبار زوال المانع، والثاني باعتبار الخوف. وكقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾<sup>٧</sup> مع قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾<sup>٨</sup> فيظن أن الوجل خلاف الطمأنينة، وجوابه أن الطمأنينة بانسراح الصدر بمعرفة الله، والوجل من خوف الزيف والذهاب عن الهدى<sup>٩</sup>.

أقول: وكقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾<sup>١٠</sup> مع قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾<sup>١١</sup> فإن النسيان في الأولى بمعنى ترك إثابهم وعدم الأمر لهم بخير، وفي الثانية بمعنى عدم الذكر.

وكقوله تعالى: ﴿وَجُودَةٌ يُؤْمِزُ نَاصِرَةٌ﴾ إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ<sup>١٢</sup> مع قوله: ﴿لَا تُذِرْكُمُ الْأَبْصَارُ﴾<sup>١٣</sup> فإن النظر في الأول النظر إلى ثوابه، أو إلى ربهم كيف يثيبهم.

وكقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِزُ لَمَحْجُوبُونَ﴾<sup>١٤</sup> وكقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّئِينَ﴾<sup>١٥</sup> وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾<sup>١٦</sup> مع قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾<sup>١٧</sup> [فإنما يعني بقوله ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ أي عن ثواب ربهم يوم القيامة] وإن الذهاب في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ بمعنى التوجه والعبادة، وإتيان الله بمعنى إرسال العذاب، وكذلك إتيانه بنبائهم [في قوله

١. الأنفال: ١٧/٨. ٢. في النسخة: وبنفا. ٣. في الإنفاق: باعتبار التأثير.  
٤. الحج: ٢/٢٢. ٥. سورة ق: ٥٠/٢٢. ٦. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٩٥، والآية من سورة الشورى: ٤٥/٤٢.  
٨. الأنفال: ٢/٨. ٩. الإنفاق في علوم القرآن ٣: ٩٦. ١٠. الأعراف: ٥١/٧.  
١١. مريم: ٦٤/١٩. ١٢. القيامة: ٢٢/٧٥ و٢٣. ١٣. الأنعام: ١٠٣/٦.  
١٤. المطففين: ١٥/٨٣. ١٥. الصافات: ٩٩/٣٧. ١٦. الحشر: ٢٥/٥٩. ١٧. الحديد: ٤/٥٧.

تعالى: ﴿فَأَتَىٰ اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾<sup>١</sup> [بمعنى إرسال العذاب عليهم.  
وكقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾<sup>٢</sup> مع قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>٣</sup> وقد يسمّى الإنسان سمياً  
وبصيراً، فإنما عني بالأولى: هل تعلم أحداً اسمه الله غير الله؟  
وكقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾<sup>٤</sup> مع  
قوله: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾<sup>٥</sup> فالأولى في موطن من مواطن القيامة، والثانية في موطن آخر.  
روي: أَوَّلًا يَفْرُغُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ، وفي موطنٍ آخَرَ يُسْتَنْطَقُونَ فِيهِ، فيقولون: ﴿وَاللَّهِ  
رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيُخْتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُسْتَنْطَقُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ وَالْجُلُودُ فَتَشْهَدُ بِكُلِّ مَعْصِيَةٍ  
كَانَتْ مِنْهُمْ، ثُمَّ يُرْفَعُ عَنْ أَلْسِنَتِهِمُ الْخَتَمُ، فيقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾<sup>٦</sup> إلى آخر الآية.  
وببالي أن جميع ما ذكرت مروى عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في رواية طويلة.

## الطَّرْفَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

### في أفضلية الكتاب العزيز

### على سائر الكتب السماوية

لا يُداني الكتاب العزيز شيء من الأشياء وكتاب من الكتب في الفضيلة والشرف، فإنَّ فَضْلَهُ على  
سائر الكتب كَفَضْلِ اللَّهِ على سائر خلقه، حيث إنَّه كلامه الناطق، ونوره الساطع، مُضَافاً إلى أنَّ فضيلة  
الكتاب بِفَضْلِهِ ما اشتمل عليه من العلم، والكتاب المجيد مشتمل على أفضل العلوم، من علم المبدأ  
والمعاد والمعارف الإلهية، وبيان حقائق الأمور والحكم الكامنة في الأشياء والأحكام الشرعية  
والآداب الدنيوية.

عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه): خير الحديث كتاب الله<sup>٨</sup>.

١. النحل: ٢٦/١٦. ٢. مريم: ٦٥/١٩. ٣. الشورى: ١١/٤٢. ٤. النبأ: ٣٨/٧٨.

٥. الأنعام: ٣٣/٦. ٦. فصلت: ٢١/٤١.

٧. الرواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل أجاب فيه (عليه السلام) الزنديق الذي ادعى التناقض في بعض آي القرآن الكريم بجواب مفضل يزيل الوهم والشك، رواه الشيخ الصدوق في التوحيد: ٥/٢٥٤ والطبرسي في الاحتجاج: ٢٤٠، وعنه العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٩٣: ١/٩٨ و ٢/١٢٧ والظاهر أنَّ المصنف أورد طرفاً منها بالمعنى لا باللفظ، يشهد له قوله (وببالي). ٨. الإتيان في علوم القرآن ٤: ١٢٢.

وعن ابن عمر، مرفوعاً: القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض ومن فيهن<sup>١</sup>.  
وعن (تفسير الإمام عليّ) قال: «قال رسول الله ﷺ: إن هذا القرآن هو التور المئين، والحبل المتين، والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى، من استضاء به نوره الله، ومن عقد به أموره عصمه الله، ومن تمسك به أنقذه الله، ومن لم يفارق احكامه رفعه الله، ومن استشفى به شفاه الله، ومن أثره على ما سواه هداه الله، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله، ومن جعله شيعاره وديناره أسعده الله، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوّله الذي ينتهي إليه أذاه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم»<sup>٢</sup>.

عن الحارث الأعور، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه - في رواية - قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتاني جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمد ستكون في أمك فتنة. قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله، فيه بيان ما قبلكم من خبر، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفضل ليس بالهزل، من وليه<sup>٣</sup> من جبار فعّيل بغيره قصمة الله، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، لا تزيغ الأهوية، ولا تلبس الألسنة، ولا يخلق على الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، هو الذي لم تلبث<sup>٤</sup> الجن أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا \* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾<sup>٥</sup>.

من قال به صدق، ومن عمل به أجز، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾<sup>٦</sup>.  
ومن طرق العامة، عن الحارث، عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يقرب منه<sup>٧</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، إذا هم بشخص قد أقبل، لم ير قط أحسن صورة منه، فإذا نظر إليه المؤمنون - وهو القرآن - قالوا: هذا منّا، هذا أحسن شيء رأيناه. فإذا انتهى إليهم جازهم، ثم ينظر إليه الشهداء حتى إذا انتهى إلى آخرهم جازهم، فيقولون: هذا القرآن،

١. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٢٠، كنز العمال ١: ٢٣٦٣/٥٢٨.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٩٧/٤٤٩.

٣. في العياشي والبحار: لم تكنه.

٤. الجن: ١/٧٢ و٢.

٥. تفسير العياشي ١: ٢/٧٥، بحار الأنوار ٩٢: ٢٥/٢٤، والآية من سورة فصلت: ٤٢/٤١.

٦. سنن الدارمي ٢: ٤٣٥، سنن الترمذي ٥: ٢٩٠٦/١٧٢.

٣. في النسخة: ولاه.

فيجوزهم كلهم، حتى إذا انتهى إلى المرسلين، فيقولون: هذا القرآن، فيجوزهم ثم ينتهي حتى يقف عن يمين العرش، فيقول الجبار: وعزتي وجلالي، وارتفاع مكاني لأكرمك اليوم من أكرمك، ولأهين من أهائك<sup>١</sup>.

أقول: قد وردت أخبار كثيرة في تمثل القرآن يوم القيامة بأحسن صورة<sup>٢</sup>.

وقال بعض المحققين: إن للقرآن وجوداً كتيبياً بين الدفتين، ووجوداً لفظياً للقارئ منا ومن المعصومين عليه السلام، بل يمكن أن يقال: من الملائكة كجبرئيل عليه السلام، ووجوداً علمياً في لوح النفس مكتسباً من المرتبتين الأوليين، ووجوداً علمياً من إلقاء الروح الذي من عالم الأمر إياه في القلب بأمر الله سبحانه، كما لعله يرشد إليه قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾<sup>٣</sup> أو من انتقاش الألفاظ الغيبية في لوح القلب عند مواجهته لها ومقابلته إياها، ولعله يؤمى إليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾<sup>٤</sup>، ووجوداً عينياً كتيبياً في لوح غيبي هو المبدأ لهذه النقوش الواقعة في لوح القلب، وبه يصير القلب مصحفاً لوجه أوارقه، وتلك النقوش كتابته، ولعل إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ \* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾<sup>٥</sup> ووجوداً لفظياً عينياً هو كلام الله سبحانه الذي أوجده وأسمعه من شاء من عبادته من الملك والنبي، ولعل إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾<sup>٦</sup> ووجوداً إجمالياً قبل التفصيل، ولعل إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾<sup>٧</sup>.

وهو الأصل، والباقي تنزلاته ومراتبه وشؤونه، كأصل الشجرة بالنسبة إلى ساقها واغصانها، ولعل إلى هذه المقامات الإشارة بإطلاق الإنزال والتنزيل على القرآن في مواضع كثيرة.

ثم إن لنا صعوداً أيضاً، فإن القرآن اللفظي الصادر منا، يتمثل بمثال ويتشكل بصورة جوهرية في عالم أرفع من هذا العالم على ما تحقق وثبت في محله بالآيات والأخبار الكثيرة الواردة في الموارد الكثيرة، المعتصدة بالاستيصارات العقلية وغيرها من أن الأعمال الحسنة والسيئة تتجسم وتمثل وتبقى في عالم البرزخ مع الميت، وقراءة القرآن منها بل من أولى أفرادها بهذا الحكم، وكتابة القرآن أيضاً عمل يتجسم كذلك، فيتحقق في القرآن قوسان: قوس نزول ينتهي إلى وجوده اللفظي والكتبي

١. الشعراء: ١٩٣/٢٦ و ١٩٤.

٢. راجع الكافي ٢: ٤٣٩/١١.

٣. الكافي ٢: ٤٤٠/١٤.

٤. هود: ١١/١.

٥. الزمر: ٣٩/٢٣.

٦. الواقعة: ٥٦/٧٧ - ٧٩.

٧. العنكبوت: ٢٩/٤٩.

الواقع في هذه النشأة، وقوس صعود واقع في عالم البرزخ، كما هو الحال في حقيقة الإنسان. ثم إن حقيقة القرآن ليست مقصورة على عالم الألفاظ والنقوش الواقعة في عالم الملك والملكوت، بل مداليل الكلمات القرآنية أولى بالدخول في حقيقة القرآن منها، ولها وجود في عالمها، فهي أيضاً تصبح أن تعدّ مقاماً آخر له، ومراتبه المعنوية تنتهي إلى حقيقة الاسم الإلهي الذي هو المبدأ للقرآن، ويُسببه أن يكون هو حقيقة اسم الهادي والنور الذي ربّعا أطلق اسمه على القرآن في مواضع.

ثم إن عالم القيامة الكبرى لما كان يوم الجمع بين العوالم، ويوم إبلاء السرائر، وإظهار المكنونات، وإبراز الأمور الغيبية بصور حسية مطابقة لها حتى تتوافق النشآت والعوالم لتبينهم بما عملوا، ولتُبلى كل نفس ما كسبت، ويحصّد كل زارع ما زرع، والزرع تابع للبذر، لزمه أن ينزل القرآن من عالم الغيب إلى ظاهر عالم القيامة مصوراً بصورة حسنة حتى يوافق حسنة المعنوي، لأنه أحسن ما يكون، وله بهاء وجمال ونور حسّي، كما أن هذه الصفات اليوم في عالم الغيب على وجه غيبي، فإن الدنيا بمنزلة الأم للأخرة.

ثم إنه لا يبد وأن يمرّ على صفوف المؤمنين كما يمرّ على قلوبهم ونفوسهم في دار الدنيا ليُطابق الظاهر الباطن، والقالب الروح، والصورة المعنى، مبتدئاً المروء من الأدنى إلى الأعلى، لأنه سالك في الاستكمال متوجّه إلى ربّ العزة، فيلزمه الكون مع النازل قبل الكون مع الكامل، وأن يكون مع كل صنف منهم بصورة ذلك الصنف، لأنه عند كل منهم واقع في مرتبتهم بزيادة بهاء وجمال ونور، لعدم مخالطته بما يضادّ هذه الصفات من ظلمة وكدورة، ولأنهم لا يدركون منه إلا المقدار الذي كان لهم في الدنيا، ومنه الشأن المتعلّق بصفتهم ومقامهم وحالهم، كما أن كلّاً منهم حال قراءته للقرآن يشاهد المعنى الموافق لمقامه من الظاهر والباطن وباطن الباطن.

وإن كان الكامل مستملاً على الناقص فلا بد وأن يظنّ كل صنف منهم أنه مقامهم كما كانوا يظنون في الدنيا أنه بيان طريقته وصفة حالهم، وأن يعرفه كل منهم بتعبته وصفتيه عند المواجهة، كما كان يعرف ذلك المقدار في دار الدنيا من القرآن ومعانيه، إذ القدر الظاهر منه في كل مقام يساوي ذلك المقام. ولو لم يعرف أهل الصنف ذلك القدر الظاهر، لم يكونوا من أهل ذلك المقام، إلى أن ينتهي إلى

رَبِّ الْعِزَّةِ إِلَى آخِرِ قَوْمِهِ الصُّعُودِيِّ، فَيَسْجُدُ صُورَةً كَمَا سَجَدَ بِالْخُضُوعِ الْمُطْلَقِ وَالْفَنَاءِ مَعْنًى، وَقَدْ كَانَ مَصِيرُ الْقُرْآنِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي الشَّأْنِ الْأَوَّلِيِّ.

## الطَّرْفَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ

فِي أَفْضَلِيَّةِ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ

عَلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ

قَدْ ظَهَرَ مِمَّا ذُكِرَ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ أَنَّ تَعْلِيمَهُ وَتَعَلُّمَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ مُضَافاً إِلَى رَوَايَاتٍ كَثِيرَةٍ دَالَّةٍ عَلَى فَضْلِهِمَا وَكَرَّةِ الثَّوَابِ عَلَيْهِمَا.

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَيُكْسَى أَبْنَاهُ خُلَّتَيْنِ إِنْ كَانَا مُؤْمِنَيْنِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمَا: هَذَا لِمَا عَلَّمْتُمَا الْقُرْآنَ»<sup>١</sup>.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: لِأَنَّ تَعْدُو فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: مَا مِنْ رَجُلٍ يُعَلِّمُ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ إِلَّا تُؤْتَجِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتَاجٍ فِي الْجَنَّةِ<sup>٣</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ عُثْمَانَ: إِنْ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ<sup>٤</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «مَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُ حَرْفاً ظَاهِراً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ».

قَالَ: «لَا أَقُولُ بِكُلِّ آيَةٍ، وَلَكِنْ بِكُلِّ حَرْفٍ بَاءَ أَوْ يَاءَ أَوْ شِبْهِهِمَا»<sup>٥</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: مَنْ تَعَلَّمَ كِتَابَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبَعَ مَا فِيهِ، هَدَاهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ<sup>٦</sup>.

وَعَنْ سَعْدِ الْخَفَافِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا الْخَلْقُ - إِلَى أَنْ قَالَ -: حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ فَيُخْرِجُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُنَادِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا حُجَّتِي فِي الْأَرْضِ، وَكَلَامِي الصَّادِقَ النَّاطِقَ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلِّ تَغْطِ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ [فَيُرْفَعُ رَأْسُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: كَيْفَ رَأَيْتَ عِبَادِي؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مِنْهُمْ مَنْ صَانَتْنِي وَحَافِظَ عَلَيَّ وَلَمْ

١. الكافي ٢: ٤٤١/٣. ٢. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٤.

٣. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٣. ٤. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٣. وفيه: القرآن وعلمه.

٥. الكافي ٢: ٤٤٨/٦. ٦. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٤.

يُضَيِّعُ شَيْئاً، وَمِنْهُمْ مَنْ ضَيَّعَنِي وَاسْتَحَفَّ بِي<sup>١</sup> وَكَذَّبَ بِي، وَأَنَا حَجَّتْكَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ. فيقول الله عز وجل: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعُ مَكَانِي لِأَتُبَيِّنَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الثَّوَابِ، وَلَأَعاقِبَنَّ عَلَيْكَ الْيَوْمَ أَلِيمَ الْعِقَابِ<sup>٢</sup>. الخبر<sup>٣</sup>.

قيل: إِنَّ سَجْدَةَ الْقُرْآنِ كُنَايَةً عَنْ فَنَائِهِ فِي اللَّهِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ كُنَايَةً عَنْ بَقَائِهِ بِهِ بَعْدَ فَنَائِهِ فِيهِ، وَكَمَا أَنَّهُ كَانَ فِي الدُّنْيَا مَقْرَباً لِلْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ، وَسَبَباً لَشُعُولِ رَحْمَتِهِ لَهُمْ وَدَفْعِ عَذَابِهِ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، يَكُونُ شَفِيعاً لَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَوَسِيلَةً وَسَائِلاً لثَوَابِهِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ، وَدَفْعِ عَذَابِهِ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

عن الشيخ، بإسناده: عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَالَ: خِيَارُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ<sup>٤</sup>.  
وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمَّارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «لَا يُعَذَّبُ اللَّهُ قَلْباً وَعَى الْقُرْآنَ»<sup>٥</sup>.

وَعَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: «أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدِبَةٌ لِلَّهِ، فَتَعَلَّمُوا مَا دُبَّتْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ، وَهُوَ التَّوْرُ الْمُبِينُ»<sup>٦</sup>.

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «إِذَا قَالَ الْمُعَلِّمُ لِلصَّبِيِّ: قُلْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالَ الصَّبِيُّ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، كَتَبَ اللَّهُ بَرَاءَةً لِلصَّبِيِّ، وَبَرَاءَةً لَوَالِدَتِهِ وَبَرَاءَةً لِلْمُعَلِّمِ مِنَ النَّارِ<sup>٧</sup>.

وَعَنِ (الْمَجْمَعِ): عَنْ مُعَاذٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ عَلَّمَ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ إِلَّا تَوَجَّ اللَّهُ أَبْوَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتَاجِ الْمُلْكِ، وَكُتِبَتْ لَهُ خَلَّتَيْنِ لَمْ يَزِ النَّاسُ مِثْلَهُمَا»<sup>٨</sup>.

وَفِي (نَهْجِ الْبَلَاغَةِ) عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ فِي خُطْبَتِهِ لَهُ: «وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ [فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَتَفْهُوَاهُ] فَإِنَّهُ رَيِّعُ الْقُلُوبِ»<sup>٩</sup>.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَمُوتَ حَتَّى يَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي تَعْلِيمِهِ»<sup>١٠</sup>.

والظاهر من جميع هذه الروايات تَعَلُّمُ عِبَارَاتِ آيَاتِهِ وَكَيْفِيَّةِ قِرَاءَتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يُحْتَمَلُ شُمُولُ كَثِيرٍ مِنْهَا تَفَاسِيرُهَا وَتُطَوْنَهَا، وَجَمِيعُ الْعُلُومِ الرَّاجِعَةِ إِلَيْهَا، فَإِنَّ تَعَلُّمَ جَمِيعِهَا تَعَلُّمُ الْقُرْآنِ، وَقَدْ صَرَّحَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا بِوُجُوبِ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ كَفَايَةً، وَهُوَ الْحَقُّ، لَا أُحْتَمَلُ فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

٢. الكافي ٢: ٤٣٦، بحار الأنوار ٧: ١٦/٣١٩.

١. في الكافي: واستحَفَّ بحقي.

٤. أمالي الطوسي: ٧/٦.

٣. أمالي الطوسي: ٣٥٧، بحار الأنوار ٩٢: ٢/١٨٦.

٧. مجمع البيان ١: ٩٠.

٥. مجمع البيان ١: ٨٥، كنز العمال ١: ٢٣٥٦/٥٢٦.

٩. الكافي ٢: ٣٧٤٤٤، عدة الداعي: ٧/٢٨٧.

٨. نهج البلاغة: ١٦٤ الخطبة ١١٠.



## الطَّرْفَةُ التاسعة والعشرون

### في أَنَّ حفظ القرآن من أهمِّ العبادات

حِفْظُ الْقُرْآنِ مِنْ أَهَمِّ الْعِبَادَاتِ، وَأَوْكَدَ الْمُسْتَحَبَّاتِ، فِي (الْوَسَائِلِ): عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَمَّارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَعْذِبُ اللَّهُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ»<sup>١</sup>.

وَعَنْهُ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى يَسْتَظْهِرَهُ وَيَحْفَظَهُ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَشَفَّعَهُ فِي عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، كُلِّهِمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ النَّارُ»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ، اخْتَلَطَ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ، وَجَعَلَهُ اللَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَكَانَ الْقُرْآنُ حَجِيزًا عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>٣</sup>.

أَقُولُ: لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ اخْتِلَاطِ الْقُرْآنِ بِاللَّحْمِ وَالدَّمِ حِفْظُهُ، كَمَا قَالَ عليه السلام فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «حَافِظُ الْقُرْآنِ الْعَامِلُ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ»<sup>٤</sup>.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ حِفْظَ الْأَفْظَاءِ مَعَ حِفْظِ مَعَانِيهِ، وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ، وَالتَّخَلُّقِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْأَدَابِ الشَّرْعِيَّةِ، فَيَكُونُ أَهْلُ الْقُرْآنِ، كَمَا فِي رِوَايَةِ الْكَلِينِيِّ، بِسَنَدِهِ عَنْ السَّكُونِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ فِي أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، فَلَا تَسْتَضَعِفُوا أَهْلَ الْقُرْآنِ حُقُوقَهُمْ، فَإِنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ لِمَكَانًا عَظِيمًا»<sup>٥</sup>.

وَمَا رَوَاهُ الطَّبْرَسِيُّ: عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»<sup>٦</sup>.

وَفِي حَدِيثِ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ: «لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَكَلَتْهُ النَّارُ».

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ<sup>٧</sup>: أَرَادَ بِالْإِهَابِ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَجُوفَهُ الَّذِي قَدْ وَعَى الْقُرْآنَ<sup>٨</sup>.

وَفِي حَدِيثِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاسْتَظْهِرَهُ فَأَحْلَلَ حَلَالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَشَفَّعَهُ فِي عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، كُلِّهِمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ النَّارُ»<sup>٩</sup>.

أَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: فَاسْتَظْهِرَهُ حِفْظُهُ وَجَعَلَهُ فِي ظَهْرِ قَلْبِهِ، كَمَا أَنَّ الظَّاهِرَ مِنْ حَمَلِ

١. أمالي الطوسي: ٧/٦. ٢. مجمع البيان: ١: ٨٥. ٣. الكافي: ٢: ٤٤١/٤. ٤. الكافي: ٢: ٤٤١/٢.

٥. الكافي: ٢: ٤٤١/١. ٦. مجمع البيان: ١: ٨٤.

٧. في النسخة: أبو عبيدة، وهو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة ٢٢٤هـ.

٨. الإتيان في علوم القرآن: ٤: ١٢١. ٩. الإتيان في علوم القرآن: ٢: ١٢٣.

القرآن ذلك.

عن الصدوق، بإسناده: عن النبي ﷺ أنه قال: «أشراف أمتي حَمَلَةُ القرآن وأصحاب الليل<sup>١</sup>». والظاهر أن المراد بأصحاب الليل الذين يَسْهَرُونَ اللَّيْلَ بِتِلَاوَةِ القرآن والقيام بالعبادة. وعن (تفسير الإمام عليه السلام): عن النبي ﷺ أنه قال: «حَمَلَةُ القرآن المَخْصُوصُونَ بِرَحْمَةِ الله، المُلَبَّسُونَ نُورَ الله، المُعَلَّمُونَ كلامَ الله، المُقَرَّبُونَ عند الله، مَنْ والأهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله» الخبر<sup>٢</sup>.

أقول: لما كان حِفْظُ القرآن عن معرفة وإيمانٍ مُورثاً لنورانية القلب وانسراح الصدور وانسباط الروح وتهذيب النفس، كان أجره مُساوياً له في القيامة من كون الحافظ مغموراً في نور الله، مخصوصاً برحمة الله، مَوْسُوماً بكلام الله، مقرباً عند الله.

ثم لاشبهة أن حِفْظَهُ بِمَشَقَّةٍ وكُلْفَةٍ أعظم أجراً من حِفْظِهِ بِسَهُولَةٍ، لعموم قوله: «إِنَّ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا»<sup>٣</sup> ولخصوص ما روي عن الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ الَّذِي يُعَالِجُ الْقُرْآنَ وَيَحْفَظُهُ بِمَشَقَّةٍ مِنْهُ، وَقِلَّةٍ حِفْظٌ، لَهُ أَجْرَانِ»<sup>٤</sup>.

ومن الأسف أن هذه العبادة الفاضلة صارت متروكة في زماننا هذا بعد شُيُوعِهَا فِي الْأَزْمِنَةِ السَّابِقَةِ، بحيث كان غيرُ الحافظ له موهوناً بين المسلمين على ما قيل.

## الطَّرْفَةُ الثَّلَاثُونَ

### في ثواب تلاوة القرآن العظيم

لتلاوة الكتاب الكريم ثوابٌ عظيمٌ وفَضْلٌ جسيم.

عن الصادق عليه السلام في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام قال: «وعليك بتلاوة القرآن على كُلِّ حالٍ»<sup>٥</sup>. وعنه عليه السلام في حديث: «وَمَنْ قَرَأَ نَظْرًا فِي غَيْرِ صَلَاةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ حَسَنَةً وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَةٌ، وَرَفَعَ لَهُ دَرَجَةً» - إلى أن قال: - «وَمَنْ قَرَأَ حَرْفًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي صَلَاةٍ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهِ خَمْسِينَ حَسَنَةً وَمَحَا عَنْهُ خَمْسِينَ سَيِّئَةً، وَرَفَعَ لَهُ خَمْسِينَ دَرَجَةً. وَمَنْ قَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ فِي صَلَاتِهِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ مِائَةَ

١. الخصال: ٢١/٧. ٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١/١٣.

٣. النهاية: ١: ٤٤٠، وأحمرها: أي أقواها وأشدها. ٤. الكافي: ٢: ١/٤٤٣. ٥. الكافي: ٨: ٣٣/٧٩.

٦. في الكافي: من غير صوت.

١٣٦ ..... نفعات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

حَسَنَةً ومَحَافِظَهُ مِائَةَ سِنِينَ، وَرَفَعَ لَهُ مِائَةَ دَرَجَةٍ. وَمَنْ خَتَمَهُ كَانَتْ لَهُ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، مُؤَخَّرَةٌ أَوْ مُعَجَّلَةٌ.

قال: قلت: جُعِلَتْ فِدَاكَ، خَتَمَهُ كُلُّهُ؟ قال: خَتَمَهُ كُلُّهُ<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في رواية، قال: «يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَاحِبُهُ فِي صُورَةِ شَابٍّ جَمِيلٍ، شَاحِبِ اللَّوْنِ، يَقُولُ لَهُ: أَنَا الْقُرْآنُ الَّذِي كُنْتَ أَشْهَرْتَ لَيْلَكَ وَأَظْلَمْتَ هَوَاجِرَكَ، وَأَجْفَقْتَ رِيقَكَ، وَأَسْبَلْتَ دُمْعَكَ<sup>٢</sup>». إِلَى أَنْ قَالَ: - فَأَنْشِرُ فَيُتَوَى بِنَاجٍ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، وَيُعْطَى الْأَمَانُ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدُ فِي الْجَنَانِ بِبِيسَارِهِ، وَيُكْسَى خُلَّتَيْنِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقُ، فَكُلَّمَا قَرَأَ آيَةً صَعِدَ دَرَجَةً<sup>٣</sup>. الْخَبَرُ<sup>٤</sup>.

وعن الكليني عليه السلام بسنده: عن حَنْفِصٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ فِي حَدِيثٍ: «إِنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ. يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقُ، فَيَقْرَأُ ثُمَّ يَرْقَى<sup>٥</sup>».

وعن الصادق عليه السلام قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ عَلَى عَدَدِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، فَلِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقُ، فَكُلَّمَا قَرَأَ آيَةً رَقِيَ دَرَجَةً<sup>٦</sup>» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَلَعَلَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ آيَةٍ عِلْمًا وَنُورًا وَمَعْرِفَةً وَهِدَايَةً وَدَعْوَةً إِلَى اللَّهِ، فَبِالْتِمَسْكِ بِكُلِّ مِنْهَا، وَبِالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّخَلُّقِ بِمَوْجِبِهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا، يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ دَرَجَةٌ فِي كَمَالِ النَّفْسِ وَالْقُرْبِ إِلَى اللَّهِ، وَبِالْتِمَسْكِ بِجَمِيعِهَا نَهَايَةَ الْكَمَالِ وَمُنْتَهَى الْقُرْبِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَلَمَّا كَانَتْ دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِ كَمَالِ الْعَبْدِ وَقُرْبِهِ، وَمُطَابَقًا لَهَا، بَلْ هِيَ مَعَانِيهَا وَأَرْوَاحُهَا، وَالْأَثَارُ الْمُرْتَبَةِ عَلَيْهَا، كَانَتْ دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ بَعْدَ الْآيَاتِ.

عن الزهري، قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْحَالُ الْمُتَرَجِّلُ».

قُلْتُ: وَمَا الْحَالُ الْمُتَرَجِّلُ؟ قَالَ: «فَتَحَ الْقُرْآنَ وَخَتَمَهُ، كُلَّمَا جَاءَ بِأَوَّلِهِ ارْتَحَلَ بِآخِرِهِ<sup>٧</sup>».

وعن الصادق عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ يُصَلِّيَ بِهَا فِي لَيْلَةٍ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا قُنُوتَ لَيْلَةٍ. وَمَنْ قَرَأَ مِائَتِي آيَةٍ فِي غَيْرِ صَلَاةٍ [لَمْ يَحَاجْهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ قَرَأَ خَمْسَمِائَةَ آيَةٍ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي صَلَاةِ النَّهَارِ وَ] اللَّيْلِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ فِي اللُّوحِ [الْمَحْفُوظِ] قِنْطَارًا مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَالْقِنْطَارُ أَلْفٌ وَمِائَتَانِ أَوْ قِيَّةٌ،

٣. الكافي ٢: ٤٤١/٣.

٦. الكافي ٢: ٤٤٢/٧.

٢. في الكافي: وَأَسْلَمْتُ دُمْعَكَ.

٥. أمالي الصدوق: ٥٨٦/٤٤٠.

١. الكافي ٢: ٤٤٨/٦.

٤. الكافي ٢: ٤٤٣/١٠.

وَالْأَوْقِيَّةُ أَعْظَمُ مِنْ جَبَلٍ أَحَدٍ<sup>١</sup>.

وعن علي بن بابويه، بسنده، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ مائة آية لم يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قرأ مائتي آية كُتِبَ مِنَ الْقَائِتِينَ، وَمَنْ قرأ ثلاثمائة آية لم يحاجه القرآن»<sup>٢</sup>.

وعن (المجمع) عن النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»<sup>٣</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه صلوات الله عليهم - في رواية - : «وَمَنْ قرأ القرآن ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَتَفَقُّهُ فِي الدِّينِ، كَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلُ مَا أُعْطِيَ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ»<sup>٤</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ مِنْ شِيعَتِنَا يَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ قَائِماً، إِلَّا وَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَلَا قرأ في صَلَاتِهِ جَالِساً، إِلَّا وَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ خَمْسُونَ حَسَنَةً، وَلَا فِي غَيْرِ صَلَاةٍ إِلَّا وَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرٌ [حَسَنَاتٍ]»<sup>٥</sup>. إلى غير ذلك من الروايات.

ولعل اختلاف مراتب الثواب باختلاف مراتب الإيمان والمعرفة والتدبر، ففي مرتبة يكون ثواب كل حرف حسنة، وفي مرتبة عشر حسنات، هذا مضافاً إلى أن لذة تلاوة كتاب الله للمؤمن العارف المتدبر أعلى وأنم من كل لذة، فإنه يرى نفسه حاضراً في مجلس القرب، فيخاطبه ربه ومليكه ويشافيه بأحسن كلام، وألطف بيان، ثم إن لكل سورة من السور ثواباً خاصاً وفضيلةً مخصوصةً، سنذكره إن شاء الله بعد إتمام تفسير كل منها.

## الطرفة الحادية والثلاثون

في آداب تلاوة الكتاب الكريم

آداب تلاوة الكتاب العزيز كثيرة:

أحدها: أن يكون التالي متطهراً حال التلاوة، عن ابن فهد رحمه الله قال: قال الله ﷻ: «لِقَارِئِ الْقُرْآنِ بِكُلِّ حَرْفٍ يقرأ في الصلاة قائماً مائة حسنة، وقاعداً خمسون [حسنة]، ومتطهراً في غير الصلاة خمس وعشرون حسنة وغير متطهر عشر حسنات» الخبر<sup>٦</sup>.

ولعل السر أن المتطهر أقرب إلى الاستيفاضة بأنوار القرآن من المحدث، كما أن طاهر القلب أقرب

٣. مجمع البيان ١: ٨٤.

١. الكافي ٢: ٩/٤٥٥. ٢. معاني الأخبار: ٩٦/٤١٠.

٥. عقاب الأعمال: ٢٩٣.

٤. في عقاب الأعمال: مثل جميع ما يُعطى.

٦. الكافي ٨: ٢٦٠/٢١٤. ٧. عدة الداعي: ٨/٢٨٧.

لغير ضاتي.

ثانيها: أن لا يكون غريانا، لما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه نهى عن قراءة القرآن غريانا<sup>١</sup>.

ثالثها: الاستعاذة قبلها، عن (تفسير العياشي) عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن التَعَوُّذِ مِنَ الشَّيْطَانِ عِنْدَ كُلِّ سُورَةٍ يَفْتَحُهَا؟ قال: «نعم، فتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»<sup>٢</sup>.

أقول: مقتضى إطلاق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾<sup>٣</sup> استحبابه قبل تلاوة آية أو بعض آية.

رابعها: التسمية قبل التلاوة، عن الصادق عليه السلام: «أغلقوا أبواب المعصية بالاستعاذة، وافتحوا أبواب الطاعة بالتسمية»<sup>٤</sup>.

خامسها: التلاوة في المصحف، وإن كان التالي حافظاً، عن أبي عبد الله عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي الْمُصْحَفِ [نَظَرًا] مُتَّعٍ بَبَصَرِهِ، وَخَفَّفَ عَلَى يَدَيْهِ وَإِنْ كَانَ كَافِرِينَ»<sup>٥</sup>.

وعن إسحاق بن عمار، عنه عليه السلام قال: جُعِلَتْ فِدَاكَ، إِنِّي أَحْفَظُ الْقُرْآنَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِي، فَأَقْرَأُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِي أَفْضَلُ، أَوْ أَنْظُرُ فِي الْمُصْحَفِ؟

قال: فقال عليه السلام لي: «بل اقرأه وانظر في المصحف، فهو أفضل، أما علمت أن النظر في المصحف عبادة»<sup>٦</sup>.

وعن أبي ذر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «النَّظَرُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بِرَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ فِي الصَّحِيفَةِ - يَعْنِي صَحِيفَةَ الْقُرْآنِ - عِبَادَةٌ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ»<sup>٧</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي الْمُصْحَفِ نَظَرًا»<sup>٨</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ فِي الْمُصْحَفِ تُخَفِّفُ الْعَذَابَ عَنِ الْوَالِدَيْنِ وَإِنْ كَانَ كَافِرِينَ»<sup>٩</sup>.

ولعل السر في كون النظر إليه عبادة، أن النظر إلى كتابته يُورِثُ نورانية في القلب، بل النظر إلى جميع المقدسات الإلهية وإلى وجه العالم والمؤمن، له هذا الأثر، كما أن النظر إلى وجه الكفار

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٧/٢٣.

١. بحار الأنوار ٩٢: ١٩/٢١٦.

٥. ثواب الأعمال: ١٠٢.

٤. دعوات الراوندي: ١٣٠/٥٢.

٣. النحل: ٩٨/١٦.

٨. أعلام الدين: ٣٧/٣٦٨.

٧. أمالي الطوسي: ١٠١٦/٤٥٤.

٦. عدة الداعي: ٢٩٠.

٩. الكافي ٢: ٤/٤٤٩.

والعصاة، وما هو مَبْغُوضٌ عند الله كالخمرِ والمَيْسِرِ والأصنام، بل الزَّخارفِ الدُّنيوية، يؤثر ظلمةً في القلب، وكُدُورَةٌ في النُّفس، كأنَّه يَفْقِسُ الروح من هذه الخَبَائِثِ خبائِثَ وشقاوَةٍ، كما يَفْقِسُ من الطَّيِّبَاتِ والمُقَدَّسَاتِ طَيِّباً وقَدَاسَةً وسعادةً، مع أنَّ في النَّظَرِ الى المُصْحَفِ زيادةً توجُّه القلب إليه، وصَرْفُ النُّفسِ عن شُغْلِهَا بغيره.

سادسها: تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَةُ بُمَكْثٍ وَبِطَاءٍ بِلا عَجَلَةٍ وَسُرْعَةٍ، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾<sup>١</sup> قال: «قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: يَبْنِي تَبْيَاناً ولا تَهْذُه<sup>٢</sup> هَذَا الشَّعْرُ، ولا تَنْثُرُه نَثْرَ الرَّمْلِ، ولكن أَفْرِعُوا به قُلُوبَكُمْ القاسية، ولا يَكُنْ هُمْ أَحَدُكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»<sup>٣</sup>. وعن ابن عباس، في تفسير الآية: يَبْنِي تَبْيَاناً<sup>٤</sup> وأقرأه على هَيْتِكَ<sup>٥</sup>، ثلاث آيات، وأربعاً، وخَمْساً<sup>٦</sup>. وقيل: التَّرتِيلُ هو أن يقرأه على نَظْمِهِ وتَوَالِيهِ، ولا يَغْيِرُ لَفْظاً ولا يَقْدَمُ مؤخراً<sup>٧</sup>. سابعها: تحسِينُ الصَّوْتِ به، عن الصادق عليه السلام في تفسير التَّرتِيلِ قال: «هو أن تَتِمَكَّثَ فيه، وتَحُسِّنَ به صَوْتَكَ»<sup>٨</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «قال النبي ﷺ: لِكُلِّ شَيْءٍ حَلِيَّةٌ، وَحَلِيَّةُ الْقُرْآنِ الصَّوْتُ الْحَسَنُ»<sup>٩</sup>. وعن الرضا عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: حَسَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتِ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا»<sup>١٠</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «كَانَ عَلِيٌّ بنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْتاً بِالْقُرْآنِ، وَكَانَ السَّقَاوُنُ يَمْرُؤُونَ فِيَقْفُونَ بِبَابِهِ يَسْمَعُونَ قِرَاءَتَهُ»<sup>١١</sup>.

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: ذَكَرَ الصَّوْتُ عنده، فقال: «إِنَّ عَلِيَّ بنَ الْحُسَيْنِ كَانَ يَقْرَأُ، فَرُبَّمَا مَرَّ بِهِ الْمَارُّ فَصَعِقَ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ»<sup>١٢</sup>.

ثم لا يذهب عليك أنَّ حُسْنَ الصَّوْتِ مُغَايِرٌ لِلْغِنَاءِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْمُطْلَبَةِ الْمُطْرِبَةِ الْمُعْهَدَةِ عِنْدَ الْعَرَفِ، وَيُرْجَحُ فِي تَمْيِيزِهَا إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ، خُصُوصاً فِي الْقُرْآنِ.

عن رسول الله ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ بِالْحَانِ الْعَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا، وَإِتَاكُم وَلُحُونِ أَهْلِ الْفِئْتَقِ وَأَهْلِ

١. المزمّل: ٧٣/٤. ٢. هَذِهِ: قَطْعُهُ سَرِيعاً، وَهَذَا الْقُرْآنُ: أَسْرَعُ فِي قِرَاءَتِهِ، وَهَذَا قِرَاءَتُهُ: إِذَا أَسْرَعَ فِيهَا.

٣. الكافي ٢: ٤٤٩/١. ٤. فِي الْمَجْمَعِ: بَيَاناً. ٥. الْهَيْئَةُ: السَّكِينَةُ. ٦. (٨٦) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ١٠: ٥٦٩.

٧. الكافي ٢: ٤٥٠/٩. ٨. عَيَّنَ أَخْبَارَ الرِّضَا عليه السلام ٢: ٣٢٢/٦٩. ٩. الكافي ٢: ٤٥١/١١.

١٢. الكافي ٢: ٤٥٠/٤.

١٤٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

الكباير، فإنه سيجي من بعدي أقوامٌ يُرجعون القرآن ترجيعَ الغناء والتسوح والرهبانية، لا يجوزُ تراقيهم، قلوبهم مقلوبة وقلوبٌ من يُعجبه شأنهم<sup>١</sup>.

ثامنها: القراءة بالحنن، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن القرآن نزل بالحنن فاقروه بالحنن»<sup>٢</sup>.

تاسعها: التلاوة: كأن التالي يُخاطب إنساناً، عن حفص: ما رأيت أحداً أشدَّ خوفاً على نفسه من موسى بن جعفر عليه السلام - إلى أن قال: - فإذا قرأ فكأنه يُخاطب إنساناً<sup>٣</sup>.

عاشرها: التفكير في معاني القرآن، والاعتبار والاتعاظ بما يقتضي الاعتبار والاتعاظ والتأثر.

عن (الكافي) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن هذا القرآن فيه منارُ الهدى، ومصابيحُ الدجى، فليخجل جالٍ بصره، ويفتح للضياء نظره، فإن التفكير حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالتور»<sup>٤</sup>.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ألا أخبركم من الفقيه حقاً - إلى أن قال: - ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه»<sup>٥</sup>.

حادي عشرها: ختم سورة شرع فيها، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لبلال عليه السلام: «إذا قرأت السورة فأنفدها»<sup>٦</sup>.

ثاني عشرها: عدم خلط بعض سورة ببعض سورة أخرى، عن سعيد بن المسيب: أن رسول الله صلى الله عليه وآله مرَّ ببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة، فقال: «يا بلال، مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة» قال: أخلطت الطيب بالطيب. فقال: «اقرأ السورة على وجهها» - أو قال: «على نحوها»<sup>٧</sup>.

ثالث عشرها: أن يقرأ السورة من أولها مستقيماً إلى آخرها، لا من آخرها منكوساً إلى أولها.

عن ابن مسعود، أنه سُئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً قال: ذاك منكوس القلب<sup>٨</sup>.

رابع عشرها: حفظ الآداب العرفية، كترك الضحك، والعيب، ومكالمة الناس، والنظر إلى ما يلهيه.

١. الكافي ٢: ٤٥٠/٣. ٢. الكافي ٢: ٤٤٩/٢. ٣. الكافي ٢: ٤٤٣/١٠. ٤. الكافي ٢: ٤٣٨/٥.

٥. معاني الأخبار: ١/٢٢٦. ٦. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٣٧٩.

٧ و ٥. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٣٧٨.

قال بعض العلماء: يكره قطع القراءة لمُكالمَةِ أحدٍ، لأنَّ كلامَ الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلامٌ غيره<sup>١</sup>.  
خاميس عَشْرًا: تَزَكُّ الإفراطُ في مقدار القراءة، على ما يظهر من جملة الأخبار.  
عن الكليني رحمه الله بسنده عن محمد بن عبد الله، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أقرأ القرآن في ليلة؟ قال: «لا يعجبني أن تقرأه في أقل من شهر»<sup>٢</sup>.

وعن الحسين بن خالد، عنه عليه السلام: قال: قلت له: في كم أقرأ القرآن؟ فقال: «إقرأه أحياناً، إقرأه أسبوعاً، أما إن عندي مَصْحَفًا مجزئاً أربعة عشر جزءاً»<sup>٣</sup>.

عن علي بن أبي حمزة، قال: سألت أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر، فقال له: جُعِلَتْ فداك، أقرأ القرآن في ليلة؟ فقال: «لا». فقال: في ليلتين؟ فقال: «لا» حتى بلغ ست ليالٍ، فأشار بيده فقال: «ها».  
ثم قال [أبو عبد الله عليه السلام]: «يا أبا محمد، إن من كان قبلكم من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله كان يقرأ القرآن في شهرٍ وأقل، إن القرآن لا يُقرأ هَذَرَةً، ولكن يُرْتَلُّ ترتيلاً، إذا مررت بأية فيها ذكر النار وقفت عندها وتعوذت بالله من النار».

فقال له أبو بصير: أقرأ القرآن في رَمَضَانَ في ليلة؟ فقال: «لا». فقال: ففي ليلتين؟ فقال: «لا». فقال: «ففي ثلاث؟» قال: «ها» وأومأ بيده «نعم، شهرُ رَمَضَانَ لا يشبهه شيءٌ من الشهور، له حقٌّ وحُرمةٌ، أكثر من الصلاة ما استطعت»<sup>٤</sup>.

سادس عَشْرًا: استشعار الرقعة، واللِّين، والوَجَل، والدِّمعة، دون إظهار الغشية.  
عن (مصباح الشريعة) عن الصادق عليه السلام، أنه قال: «مَن قرأ القرآن ولم يخضع لله، ولم يرق قلبه، ولا يُنشئ حزناً ووجلاً في سره، فقد استهان بعظم شأن الله، وقد خسر خسراناً مُبيناً، فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلبٌ خاشع، ويدان فارغان، وموضع خال»<sup>٥</sup>.

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام: قال: قلت: إن قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حلدثوا به، صَعِقَ أحدهم حتى ترى أن أحدهم لو قُطعت يده ورجلاه لم يشعر بذلك؟ فقال عليه السلام: «سبحان الله! ذلك من الشيطان، ما بهذا نُجتوا، إنما هو اللِّين، والرقعة، [والدمعة] والوَجَل»<sup>٦</sup>.

٢. الكافي ٢: ١/٤٥١.

١. الإنتان في علوم القرآن ١: ٣٧٧.

٤. الكافي ٢: ٥/٤٥٢.

٣. الكافي ٢: ٣/٤٥٢. وفي النسخة: أربعة عشر أجزاء.

٧. الكافي ٢: ١/٤٥١.

٥. مصباح الشريعة: ٢٨. ٦. في الكافي: أو رجلاه.



## الطَّرْفَةُ الثَّانِيَّةُ وَالثَّالِثُونَ

في بيان ما يستحب أن يقال

بعد تلاوة بعض الآيات الكريمة

يُسْتَحَبُّ سَوَالُ الْجَنَّةِ بَعْدَ تِلَاوَةِ آيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ، وَالتَّعَوُّذُ مِنَ النَّارِ عِنْدَ تِلَاوَةِ آيَةٍ فِيهَا ذِكْرُهَا، وَالتَّسْبِيحُ عِنْدَ آيَةٍ فِيهَا الْأَمْرُ بِهِ، وَالسَّوَالُ عِنْدَ آيَةٍ فِيهَا الْأَمْرُ بِهِ، وَالدُّعَاءُ بَعْدَ آيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الدُّعَاءِ، وَذِكْرُ قَوْلِ كَأَنَّ فِي الْآيَةِ الْأَمْرُ بِهِ.

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قُمْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِآيَةٍ رَحْمَةً إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّذَ<sup>١</sup>.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِلًا، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا سَوَالُ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَعَوُّذٌ تَعَوَّذَ<sup>٢</sup>.

وَعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾<sup>٣</sup> الْآيَةَ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَمَرْتُ بِالْدُّعَاءِ وَتَكَلَّمْتُ بِالْإِجَابَةِ، لِيُكَ لَكَ اللَّهُمَّ لِيُكَ، لِيُكَ لَشَرِيكَ لَكَ لِيُكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ، لَا شَرِيكَ لَكَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ فَرَدُّ أَحَدٌ صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفْوًا أَحَدٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ وَلِقَاءَكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنْتَ تَبَعْتَ مَنْ فِي الْقُبُورِ»<sup>٤</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾<sup>٥</sup> قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»<sup>٦</sup>.

وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع: «إِذَا قَرَأْتُمْ مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ الْأَخِيرَةِ، فَقُولُوا: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»<sup>٧</sup> الْخَبَرُ<sup>٨</sup>.  
وَعَنْ رَجَاءِ بْنِ [أَبِي] الصُّحَّاحِ، قَالَ: كَانَ الرُّضَا ع فِي طَرِيقِ خِرَاسَانَ يُكْثِرُ بِاللَّيْلِ فِي فِرَاشِهِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ بَكَى وَسَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَتَعَوَّذَ بِهِ مِنَ النَّارِ.

١. السنن الكبرى ٢: ٣١٠، الإنشاق في علوم القرآن ١: ٣٦٩.

٢. الإنشاق في علوم القرآن ١: ٣٦٩.

٣. البقرة: ١٨٦/٢.

٤. الإنشاق في علوم القرآن ١: ٣٧٠.

٥. الأعلى: ١/٨٧.

٦. الإنشاق في علوم القرآن ١: ٣٦٩.

٧. في الخصال: ٨.

٨. الخصال: ١٠٦/٢٩.

إلى أن قال: وكان إذا قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال سرّاً: «الله أحد» قال: ولما فرغ منها، قال: «كذلك الله ربّي ثلاثاً».

وكان إذا قرأ سورة الجحد، قال في نفسه سرّاً: «يا أيها الكافرون» فإذا فرغ منها قال: «ربّي الله، ودينّي الإسلام» ثلاثاً.

وكان إذا قرأ ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ قال عند الفراغ منها: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».

وكان إذا قرأ ﴿لَا أَقْسِمُ بِبَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، قال عند الفراغ منها: «سبحانك اللهم بلى»<sup>٢</sup>.

وكان يقرأ في سورة الجمعة ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ﴾ للذين اتَّقَوْا<sup>٣</sup> «والله خَيْرُ الرَّازِقِينَ»<sup>٤</sup>.

وكان إذا فرغ من الفاتحة، قال: «الحمد لله رب العالمين».

وإذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال سرّاً: «سبحان ربّي الأعلى».

وإذا قرأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: «لبيك اللهم لبيك» سرّاً<sup>٥</sup>.

أقول: لا يبعد أنه وقع في الرواية سهو من الراوي، فإن قوله: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» بعد قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أنسب من ذكره بعد اللهو والتجارة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فقال: «سبحان ربّي الأعلى» وهو في الصلاة، فقيل له: أتزيد في القرآن؟ قال: «لا، أمرنا بشيء فقلته»<sup>٦</sup>.

أقول: يُستفاد من هذه الرواية أن كل أمر في القرآن بقول من إقرار بإيمان، أو تسبيح، أو تحميد، أو توكل، أو تسليم، أو ذكر أو دعاء، كقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾<sup>٧</sup> أو قوله: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ﴾<sup>٨</sup> وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>٩</sup> وقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾<sup>١٠</sup> وغير ذلك، يستحب أمثاله عند تلاوة آيته بأن يقول القارئ: آمنت بالله وبما أنزل إلينا، وسبحان الله، والحمد لله، وسلام على عبادة الذين اصطفى، وتوكلت على الله.

١. في العيون: ربنا. ٢. (بلى) ليس في عيون أخبار الرضا عليه السلام.

٣. الظاهر أن هذه الزيادة محمولة على التوضيح والبيان لا على أنها من القرآن، لثبوت سلامته من الزيادة والنقصان.

٤. الجمعة: ١١/٦٢. ٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨٣/٥.

٦. الدر المنثور ٨: ٤٨٢، كنز العمال ٢: ٣١٧/٤١١٤. ٧. النمل: ٥٩/٢٧. ٨. الأحزاب: ٤١/٣٣.

٩. إبراهيم: ١١/١٤، التغابن: ١٣/٦٤. ١٠. البقرة: ١٣٦/٢.

ولا ينحصر مورد استحباب التسبيح بسورة الأعلى، بل يستحب عند قوله: ﴿تَسْبِحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾<sup>١</sup> بل يستحب عند ذكر التسبيح والتحميد كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِكَ﴾، وقوله: ﴿تَسْبِحْ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾<sup>٢</sup> للرواية المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام. وكذا يستحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله عند تلاوة آية فيها الأمر بها، للرواية المذكورة، ولما روي عنه عليه السلام في رواية: «وإذا قرأتم ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾<sup>٤</sup> فصلوا عليه، في الصلاة كنتم أو في غيرها»<sup>٥</sup>.

وكذا يستفاد من الروايات أن كل سؤال يناسب جوابه من التالي أن يجيبه، كقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ كَتَفَرُوا بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾<sup>٦</sup>، وكقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾<sup>٧</sup> بأن يقول: لا نكفر، بل نؤمن باليسئنا وقلوبنا، أو ما أشبه ذلك من العبارات التي تدل على الإيمان واعتقاد الحق.

عن جابر، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على الصحابة فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾<sup>٨</sup> قالوا: ولا بشيء من نعمتك<sup>٩</sup> ربنا تكذب، فلك الحمد»<sup>١٠</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية: «وإذا قرأتم (والثين) فقولوا في آخرها: ونحن على ذلك من الشاهدين»<sup>١١</sup>.

وعن الترمذي [في حديث]: «من قرأ ﴿وَالثَّيْنِ وَالرَّيْثُونَ﴾ فأنتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾<sup>١٢</sup> فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»<sup>١٣</sup>. ومن قرأ: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فأنتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾<sup>١٤</sup> فليقل: بلى ومن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ إلى قوله<sup>١٥</sup>: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>١٦</sup> فليقل: آمناً بالله»<sup>١٧</sup>.

١. الحجر: ٩٨/١٥. ٢. الإسراء: ١/١٧. ٣. البقرة: ٣٠/٢. ٤. الأحزاب: ٥٦/٣٣.

٥. الخصال: ١٠/٦٢٩. ٦. فصلت: ٩/٤١. ٧. آل عمران: ١٠١/٣. ٨. الرحمن: ١٣/٥٥ ...

٩. في الإنفاق: نعمك. ١٠. الإنفاق في علوم القرآن: ٣٦٩. ١١. الخصال: ١٠/٦٢٩.

١٢. التين: ٨/٩٥. ١٣. الترمذي: ٣٣٤٧/٤٤٣. ١٤. القيامة: ٤٠/٧٥.

١٥. في النسخة: فبلغ بقوله. ١٦. المرسلات: ٥٠/٧٧.

١٧. الإنفاق في علوم القرآن: ١: ٣٦٩.

وكذا يستحب قول (أمين) بعد آية فيها الدعاء للمؤمنين، عن أبي ميسرة: أن جبرئيل لقن النبي ﷺ عند خاتمة البقرة أمين<sup>١</sup>.

وعن معاذ بن جبل، أنه كان إذا ختم سورة البقرة، قال: «أمين»<sup>٢</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا هذه الآية «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»<sup>٣</sup> وقف ثم قال: «اللهم آتِ نفسي تقواها [أنت وليها ومولاها وخير من زكاها]»<sup>٤</sup>.

وعن أبي هريرة سمعت النبي ﷺ يقرأ «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» قال: اللهم آتِ نفسي تقواها [وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها] قال: هو في الصلاة<sup>٥</sup>.

أقول: إن هذه الروايات إما عامية أو إمامية ضعيفة لا يمكن أن يعتمد عليها في إثبات حكم شرعي حتى يجوز قصد التعبد والورود بما تضمنته<sup>٦</sup>، خصوصاً في الصلاة، إذا لم يكن من ذكر الله، أو من الدعاء، كقول: (يا أيها الكافرون) بعد قوله: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»<sup>٧</sup>.

نعم، يمكن الحكم بالاستحباب بضميمة الروايات الدالة على أن من بلغه شيء من الثواب فعمله رجاء ذلك الثواب إلى آخره بناءً على إفادتها الاستحباب الشرعي كما هو الظاهر، فعليه، لا إشكال في ذكرها في الصلاة بقصد التعبد والورود، ولو لم يكن من الذكر والدعاء.

## الطرفة الثالثة والثلاثون

في كراهة ترك تلاوة القرآن لحافظه

حتى يؤدي إلى النسيان

ذهب بعض العامة إلى أن ترك تلاوة القرآن لحافظه حتى يؤدي إلى نسيانه معصية كبيرة، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبٌ أَمْتِي فَلَمْ أَرُ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أَوْتِيَهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا». وما روي أنه «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْذَمًا»<sup>٨</sup>.

وفي (الصحيحين): «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبْلِ فِي

١. الإنان في علوم القرآن ١: ٣٧٠.

٢. الإنان في علوم القرآن ١: ٣٧٠.

٣. الشمس: ٧/٩١. ٤. الدر المنثور ٨: ٥٢٩. ٥. الدر المنثور ٨: ٥٢٩. ٦. في النسخة: تضمنتها.

٧. الكافرون: ١/١٠٩. ٨. الإنان في علوم القرآن ١: ٣٦٣.

عُقلها<sup>١</sup>.

وعن (أمالى الصدوق رضوان الله عليه) في مناهي النبي ﷺ أنه قال: «ألا ومن تعلم القرآن ثم نسيه مُتَعَمِّدًا، لقي الله [يوم القيامة] مَغْلُولًا، يُسَلِّطُ الله عليه بكل آية منه حية تكون قرينه إلى النار، إلا أن يغفر له»<sup>٢</sup>.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُوهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَغْمَى﴾ \* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا \* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى<sup>٣</sup>.  
هذا ما يمكن أن يُستدل به لحرمة النسيان، ولم يحضرني في المسألة قول من أصحابنا، والأظهر كراهة التزك المذكور لضعف سند ما عدا رواية المناهي، وعدم دلالة بعضها إلا على الكراهة، كقوله: «القي الله يوم القيامة أجدم» بل دلالة ما في (الصحيحين) على الارشاد بقرينة ذيله، وعدم ربط الآية بالمقام، لأن المراد بالنسيان في قوله: ﴿فَنَسِيَتْهَا﴾ هو ترك الاعتناء بها، كما أن المراد من قوله: ﴿تُنْسَى﴾ ترك الإجابة، مع معارضة جميعها بما روي عن الهيثم بن عبيد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سأله عن رجل قرأ القرآن ثم نسيه، - فرددت عليه ثلاثاً - : أعليه فيه حرج؟ قال: «لا»<sup>٤</sup>.

وبما رواه عبدالله بن مسكان، عن يعقوب الأحمر، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك، إنه قد أصابني هموم وأشياء لم يتق من الخير إلا [وقد] تفلت مني منه طائفة، حتى القرآن، لقد تفلت مني طائفة منه. قال: ففرع عند ذلك حين ذكرت القرآن، ثم قال: «إن الرجل لينسى السورة من القرآن فتأتيه يوم القيامة حتى تُشرف عليه من درجة من بعض الدرجات فنقول: السلام عليك، فيقول: وعليك السلام، من أنت؟ فنقول: أنا سورة كذا وكذا، ضيعتني وتركتني، أما لو تمسكت بي بلغتك بك هذه الدرجة» الخبر<sup>٥</sup>، فإن دلالة على عدم الحرمة، لدلالته على دخول الناسي في الجنة، وسلام القرآن عليه وجرمانه عن الدرجات العالية واضحه.

وأما رواية المناهي فهي محمولة على تقدير صحة السند أو وثاقته على النسيان المُسبب عن الإعراض عن القرآن والتهاون وعدم الاعتناء به والاستخفاف بشأنه، وهو من أشد المعاصي، بل هو في معنى الكفر.

٢. أمالي الصدوق: ٥١٣/٧٠٧.

٥. الكافي: ٥/٤٤٦.

١. الإنقان في علوم القرآن: ١/٣٦٣.

٤. الكافي: ٥/٤٤٥. طه: ١٢٤/٢٠ - ١٢٦.

٥. الكافي: ٥/٤٤٥.

وعليه يُحْمَلُ أيضاً إن لم يكن ظاهراً فيه، ما رواه في (البحار) من كتاب (الإمامة والتبصرة): عن سهيل بن أحمد، عن محمد بن محمد بن الأشعث، عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الذُّنُوبُ فَلَمْ أَصِبْ أَعْظَمَ مِنْ ذَنْبِ رَجُلٍ حَمَلَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَرَكَهُ»<sup>١</sup>.

ويؤيده أنه إذا كان حِفْظُ الْقُرْآنِ مستحباً، فالظاهر أن يكون كَثْرَةُ تَعَاهُدِهِ وإِقَانِهِ فِي الْحِفْظِ مستحباً، وبعيد غايته أن يكون واجباً إلا أن يَدُلَّ دَلِيلٌ مَعْتَبَرٌ عَلَيْهِ من إجماع أو نص، ولو كان ذلك الدليل لَعَدَهُ الْفُقَهَاءُ فِي الْوَاجِبَاتِ، ولم أجد في كُتُبِ أَصْحَابِنَا رضوان الله عليهم مَنْ تعرَّضَ لَهُ.

## الطَّرْفَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ

فِي كِرَاهَةِ خَتْمِ الْقُرْآنِ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ

لِمَنَافَاتِهِ لِلتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ

قد مرَّ في آداب التِّلَاوَةِ كِرَاهَةُ الْإِفْرَاطِ فِي سُرْعَةِ التِّلَاوَةِ، وَقَالَ جَمْعٌ بِكَرَاهَةِ خَتْمِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ<sup>٢</sup>.

عن ابن مسعود، قال: لا تَقْرَءُوا الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ<sup>٣</sup>.

وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ<sup>٤</sup>.

وعن النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَقَعُّهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»<sup>٥</sup>.

أقول: مقتضى هذه الروايات عَدَمُ الْكَرَاهَةِ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَمَا فَوْقَهَا.

وعن سعيد بن المنذر، قال: قلت لرسول الله ﷺ: أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت»<sup>٦</sup>.

وعن إبراهيم بن العباس، قال: كان الرضا عليه السلام يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ ثَلَاثِ، ويقول: «لو أردت أن

أُخْتِمَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ لَخْتِمْتُهُ، ولكن ما مررتُ بِآيَةٍ قَطُّ إِلَّا فَكَّرْتُ فِيهَا، وَفِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ، وَفِي

أَيِّ وَقْتٍ نَزَلَتْ، فَلِذَلِكَ صِرْتُ أُخْتِمُ فِي [كُلِّ] ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»<sup>٧</sup>.

ثمَّ اعْلَمْ أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الرِّوَايَةِ أَنَّ تَطْوِيلَ الْمُدَّةِ لِرِعَايَةِ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ حَيْثُ إِنَّ تِلَاوَتَهَا

١. جامع الأحاديث: ١٨، بحار الأنوار ٩٢: ١٤/١٨٩، ولم نعثَر عليه في كتاب الإمامة والتبصرة.

٢. الإنشاق في علوم القرآن ١: ٣٦١.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤/١٨٠.

٤. الإنشاق في علوم القرآن ١: ٣٦١.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤/١٨٠.

٦. الإنشاق في علوم القرآن ١: ٣٦١.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤/١٨٠.

من غير تدبّر وتفكّر فيها قليلة النفع، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾<sup>١</sup> فإنه تعالى جعل التدبّر غاية للإزالة، وقال تعالى توبيخاً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾<sup>٢</sup> إلى غير ذلك من الآيات.

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً قال له: إنني أقرأ المفصل في ركعة واحدة. فقال: هذا كهذا الشعر، إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع<sup>٣</sup>.  
وعنه رضي الله عنه: قال: لا تنثروه نثر الدقل<sup>٤</sup>، ولا تهذوه هذ الشعر، فقرأ عند عجائبه، وحركوا إليه [القلوب]، ولا يكون هم أحديكم آخر السورة<sup>٥</sup>، وقد مر ما يقرب من ذلك<sup>٦</sup>. ولذا روي عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «لا يعجبني أن يقرأ القرآن في أقل من شهر»<sup>٧</sup>.

فتبين من جميع ذلك أن مقدار فضيلة تلاوة القرآن على مقدار تدبّر القارئ، فإن تلاوة جزء بتدبّر وتفكّر فيه أفضل من قراءة جزءين أو أكثر في قدر ذلك الزمان بلا تدبّر وتفكّر وترتيل.  
وحينئذ لو فرضنا قدرة القارئ على ختم القرآن في ليلة واحدة مع حق التدبّر فيه، كان فضيلته أزيد من ختمه في ليّلتين، فالأخبار الناهية عن ختمه في ليلة أو ليّلتين ناظرة إلى حال نوع المؤمنين، فإنهم عاجزون عن أداء حق تلاوته في أقل من ثلاث، وعلى هذا تختلف المدة باختلاف قدرة التالي على الختم مع التدبّر، ولذا اختلفت الأخبار في تقدير المدة على حسب اختلاف الأشخاص.  
عن عبد الله بن عمر، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إنني أجد قوة. قال: «اقرأه في عشر». قلت: إنني أجد قوة. قال: «اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»<sup>٨</sup>.

وفي رواية أخرى: قال: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال: «في خمسة عشر». قلت: إنني أقوى من ذلك. قال: «اقرأه في جمعة»<sup>٩</sup>.

فيل: كان للسلف في قدر القراءة عادات مختلفة، فأكثر ما ورد في كثرة قراءتهم من كان يختم في اليوم والليلة ثمان ختمات؛ أربعاً في الليل، وأربعاً في النهار، ويلى من كان يختم في اليوم والليلة

١. سورة ص: ٣٨/٢٩. ٢. محمد صلى الله عليه وآله: ٢٤/٤٧.

٣. الإتيان في علوم القرآن ١: ٣٦٧. ٤. الدقل: زويء التمر وبإشبه.

٥. الإتيان في علوم القرآن ١: ٣٦٧. ٦. تقدّم في الطرفة الحادية والثلاثين.

٧. إقبال الأعمال: ١١٠. ٨. الإتيان في علوم القرآن ١: ٣٦١.

٩. الإتيان في علوم القرآن ١: ٣٦١.

أربعاً، ويليهِ ثلاثاً، ويليهِ خُتْمَتَيْنِ، ويليهِ خُتْمَةٌ، وقد دُعِتْ عائِشَةُ ذلك.

نُقل عن مسلم بن مِخْرَاق، قال: قلت لعائِشَةَ: إِنَّ رِجَالاً يقرأ أحدهم القرآن في ليلةٍ مَرَّتَيْنِ أو ثلاثاً؟ فقالت: قرءوا ولم يقرءوا، كنْتُ أقومُ مع رسول الله ﷺ ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء، فلا يُمَرُّ بآيةٍ فيها استِشْبارٌ إلّا دعا ورغب، ولا بآيةٍ فيها تخويفٌ إلّا دعا واستعاذ<sup>١</sup>.

وقال بعضُ العامة: إِنَّهُ يكره تأخير خُتْمِهِ أَكْثَرَ من أربعين يوماً بلا عُدْرٍ، حيثُ روي أنُ عبد الله بن عمر سأل النبي ﷺ: في كم أخْتِمُ القرآن؟ قال: «في أربعين يوماً»<sup>٢</sup>.

## الطَرْفَةُ الْخَامِسَةُ وَالثَّلاثُونَ

في أَنَّ لِمَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ دَعْوَةَ مُسْتَجَابَةٍ

قد ظهر ممَّا سَبَقَ من بعض الروايات أَنَّ لِمَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ دَعْوَةَ مُسْتَجَابَةٍ.

كما روي عن النبي ﷺ من طُرُقِ العامة: «مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فَلَهُ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ»<sup>٣</sup>. فعلى المؤمن أن يُبَالِغَ في الدُّعَاءِ بعد الخُتْمَةِ، وأن يسألَ أهمَّ الحوائجِ وهو عُفْرانُ الذُّنُوبِ والنَّجاةِ من النَّارِ. عن أنس بن مالك [مرفوعاً] «مَنْ قرأ القرآن وَحَمِدَ الرَّبَّ وَصَلَّى على النَّبِيِّ ﷺ واستغفرَ رَبَّهُ، فَقَدْ طَلَبَ الْخَيْرَ [مكانه]»<sup>٤</sup>.

وقد ورد من طُرُقِ أصحابنا (رضوان الله عليهم) ادعية كثيرة، منها:

ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «حبيبي رسول الله ﷺ أَمَرَنِي أن أدعو عند خُتْمِ الْقُرْآنِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أسألك إِبْخَابَ الْمُخْتَبَيْنِ، وإِخْلَاصَ الْمُوقِنِينَ، ومُرافَقَةَ الْأَبْرارِ، واستِحْقاقَ حَقائِقِ الْإِيمَانِ، والغَنِيمةَ من كُلِّ بَرٍّ، والسلامةَ من كُلِّ إِثْمٍ، ووجوبَ رَحِمَتِكَ، وعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، والفوزَ بِالْجَنَّةِ، والنَّجاةَ من النَّارِ»<sup>٥</sup>.

روي عن عاصم، عن زُرِّ بْنِ حُبَيْش، قال: قرأت القرآن من أوْلِهِ إلى آخِرِهِ في مسجد جامع الكوفة على أمير المؤمنين عليه السلام - إلى أن قال: - فلَمَّا بَلَغْتُ رَأْسَ الْعِشْرِينَ من (حَمَّ \* عَسَقَ): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾<sup>٦</sup> بكى

٢. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٣٦٢.

٤. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٣٨٤.

٦. الشورى: ٢٢/٤٢.

١. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٣٦٠.

٣. الإنفاق في علوم القرآن ١: ٣٨٤.

٥. مكارم الأخلاق: ٣٤٢.



أمير المؤمنين عليه السلام حتى ارتفع نحيبه، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: «يا زِرُّ، أُمِّنْ على دُعائي» ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيحَابَ الْمُخْتَبِينَ...» إلى آخر الدعاء.

ثم قال: «يا زِرُّ، إِذَا خَتَمْتَ فَادِّعْ بِهِ، فَإِنَّ حَبِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ أَدْعُو بِهِمْ عِنْدَ خَتَمِ الْقُرْآنِ»<sup>١</sup>.

أقول: يُستفاد من قوله: «يا زِرُّ، أُمِّنْ على دُعائي» استحباب حضور المؤمنين عند الدعاء وتأمينهم له، خصوصاً عند ختم القرآن، ويؤيده ما روي عن أنس: أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا<sup>٢</sup>. وعن الحكم بن عتيبة<sup>٣</sup>، قال: أُرْسِلَ إِلَيَّ مُجَاهِدٌ وَعِنْدَهُ ابْنُ أَبِي أُمَامَةَ، وَقَالَا: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ لِأَنَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْتِمَ الْقُرْآنَ، وَالدُّعَاءُ يَسْتَجَابُ عِنْدَ خَتَمِ الْقُرْآنِ<sup>٤</sup>.

وعن مجاهد، قال: كانوا يجتمعون عند ختم القرآن، ويقول: عنده تَنْزِيلُ الرَّحْمَةِ<sup>٥</sup>. ومن الأدعية الماثورة: ما روي عن الصادق عليه السلام: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ قَرَأْتُ مَا قَضَيْتَ مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ الصَّادِقِ عليه السلام، فَالْحَمْدُ رَبَّنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِمَّنْ يُجَلُّ حَلَالُهُ وَيَحْرُمُ حَرَامُهُ وَيُؤْمِنُ بِمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، وَاجْعَلْ لِي أُنْسًا فِي قَبْرِي، وَأُنْسًا فِي حَشْرِي، [وَأُنْسًا فِي نَشْرِي] وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ تُرْقِيهِ بِكُلِّ آيَةٍ قَرَأْتُهَا دَرَجَةً فِي أَعْلَى عِلِّيْنِ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ<sup>٦</sup>.

والظاهر أنَّ هذا الدعاء ليس مختصاً بختم القرآن، بل يُستحبُّ عند الفراغ من القراءة، ولو كانت قراءة بعضه من سورة أو آيات.

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه كان إذا ختم القرآن، قال: «اللَّهُمَّ اشْرَحْ بِالْقُرْآنِ صَدْرِي، وَاسْتَعْمِلْ بِالْقُرْآنِ بَدَنِي، وَنُورْ بِالْقُرْآنِ بَصْرِي، وَأَطْلِقْ بِالْقُرْآنِ لِسَانِي، وَأَعِنِّي عَلَيْهِ مَا أَبْقَيْتَنِي، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»<sup>٧</sup>.

ثم لا يذهب عليك أنه كما تُدبُّ إلى الدعاء بعد ختمه تُدبُّ إليه حين الشروع في تلاوته. روي عن الصادق عليه السلام أنه كان إذا قرأ القرآن قال قبل أن يقرأ حين يأخذ المصحف: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا كِتَابُكَ الْمُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِكَ عَلَى رَسُولِكَ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، وَكَلَامُكَ النَّاطِقُ عَلَى

١. بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٠٦. ٢. الإنفان في علوم القرآن ١: ٣٨٢.

٣. في النسخة: الحكم بن عيينة، راجع: تهذيب الكمال ٧: ١١٤.

٤. الإنفان في علوم القرآن ١: ٣٨٢. ٥. الإنفان في علوم القرآن ١: ٣٨٢.

٦. الاختصاص: ١٤١، بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٠٧. ٧. بحار الأنوار ٩٢: ٦/٢٠٩.

لسانِ نبيِّك، جعلته هادياً منك إلى خَلْقِكَ وَحَبْلاً مُتَّصِلاً فيما بينَكَ وبين عبادِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي نَشَرْتُ عَهْدَكَ وكتابَكَ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ نَظْرِي فِيهِ عِبَادَةً، وقراءتي فِيهِ فِكْراً، وفِكْرِي فِيهِ اعتياداً، واجْعَلْني مِمَّنْ أَعْظَمَ بَيَّانِ مَوَاعِظِكَ فِيهِ، واجْتَنِبْ مَعَاصِيكَ، ولا تَطْعِنْ عِنْدَ قِراءَتِي عَلَى سَمْعِي، ولا تَجْعَلْ عَلَى بَصْرِي غِشَاوَةً، ولا تَجْعَلْ قِراءَتِي قِراءَةً لا تُدَبِّرُ فِيهَا، بَلْ اجْعَلْني أَتَدَبِّرُ آيَاتِهِ وَأَحْكامِهِ، أَخْذاً بِشَرَائِعِ دِينِكَ، ولا تَجْعَلْ نَظْرِي فِيهِ غَفْلَةً، ولا قِراءَتِي هَذْراً [إِنَّكَ] أَنْتَ الرُّؤُوفُ الرَّحِيمُ<sup>١</sup>.

## الطَّرْفَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلاثُونَ:

فِي أَنَّ لِبَعْضِ سُورِ الْقُرْآنِ فَضِيلَةً عَلَى بَعْضِ

مَقْتَضَى كَثِيرٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ لِبَعْضِ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَضِيلَةً عَلَى بَعْضٍ، وَإِنْ أَنْكَرَهَا قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ.

عَنْ أَنَسٍ: «أَفْضَلُ الْقُرْآنِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»<sup>٢</sup> أَيِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ<sup>٣</sup> بْنِ الْمُعَلَّى: «أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»<sup>٤</sup>.

وَعَنْ أَبِي بَنْيَّ بْنِ كَعْبٍ، مَرْفُوعاً: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ مِثْلَ أَمِّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي»

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ تَعْدِلُ بِثُلْثِي الْقُرْآنِ»<sup>٥</sup>.

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: «أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَاماً، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، مِنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَاراً لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلاً لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَ لَيَالٍ»<sup>٦</sup>.

وَعَنْ بُرَيْدَةَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنْ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ وَتَزَكَّيْهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»<sup>٧</sup>، تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَأَلَّ عِمْرَانُ فَإِنَّهُمَا الزُّهْرَاوَانِ، تُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ»<sup>٨</sup>.

١. بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٠٧.

٢. في النسخة: سعيد، تصحيف، انظر تهذيب الكمال ٣٣: ٣٤٨.

٣. الإفتان في علوم القرآن ٤: ١٢٥.

٤. الإفتان في علوم القرآن ٤: ١٢٥ وفيه: تعدل ثلثي القرآن، الدر المنثور ١: ١٥.

٥. الإفتان في علوم القرآن ٤: ١٢٦.

٦. الإفتان في علوم القرآن ٤: ١٢٦.

٧. البَطَلَةُ: السحرة أو الشياطين.

وفي رواية: «الأنعام من نواجِب القرآن».<sup>١</sup>

وعن معقل بن يسار: «يس قلب القرآن، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، إقرءوها على موتاكم».<sup>٢</sup>

وعن أنس: «أن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن لكل شيء لباباً، ولباب القرآن الحواميم».<sup>٣</sup>

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «الحواميم ديباج القرآن».<sup>٤</sup>

وفي رواية: «في تنزيل السجدة وتبارك الملك فضل ستين درجة على غيرهما من سور القرآن».<sup>٥</sup>

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الكل شيء عروس، وعروش القرآن الرحمن».<sup>٦</sup>

وعن أنس: «من قرأ إذا زلزلت عُدلت له بنصف القرآن».<sup>٧</sup>

وفي رواية: «والعاديات تعدل نصف القرآن».<sup>٨</sup>

وفي رواية: «ألا أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ «الملك التكاثر»؟<sup>٩</sup> والظاهر أن المراد أن سورة «أَلْهَا كُمُ التَّكَاثُرُ» تعدل ألف آية.

وعن أنس: «قل يا أيها الكافرون رُبِّع القرآن».<sup>١٠</sup>

وعن ابن عباس: «أنها تعدل ربع القرآن».<sup>١١</sup>

وعن أنس: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ رُبِّع القرآن».<sup>١٢</sup>

وعن أبي هريرة: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تعدل ثلث القرآن».<sup>١٣</sup>

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعقبة: «ألا أعلمك سوراً ما أنزل في الثوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في

١. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٨، ونواجِب القرآن: أفاضل سوره.

٢. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٩. ٣. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٩.

٤. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٣٠. ٥. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٢٩.

٦. الدر المنثور ٧: ٦٩٠. ٧. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٣٢.

٨. ١٠-١١. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٣٢. ٩. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٣٣.

الفرقان<sup>١</sup> مثلها؟ قلت: بلى. قال: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»<sup>٢</sup>.

## الطَّرْفَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلاثُونَ

في أَنَّ لِبَعْضِ الْآيَاتِ فَضِيلَةً عَلَى بَعْضٍ

مفاد كثير من الروايات أَنَّ لِبَعْضِ الْآيَاتِ فَضِيلَةً عَلَى بَعْضٍ:

عن العياشي<sup>٣</sup> في «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» عن الصادق<sup>٤</sup>، قال: «ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أَنَّها يذعة إذا أظهروها»<sup>٥</sup>.

وفي رواية: «هي الآية التي قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخِذْهُ وَلَوْ عَلَى أَذْيَارِهِمْ تُفَوْرًا﴾»<sup>٦</sup>.

وعن الرضا<sup>٧</sup>: «إنَّها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر<sup>٨</sup> العين إلى بياضها»<sup>٩</sup>. لعل المراد أَنَّ الاسم الأعظم هي الأسماء المباركات في هذه الآية، أو أَنَّهُ يُسْتَخْرَج منها.

وعن جابر، عن النبي<sup>١٠</sup> - في حديث - : «قال الله تعالى: وأعطيت لك ولأمتك كنزاً من كنوز عرشي؛ فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة»<sup>١١</sup>.

وعن أبي بن كعب: «أعظم آية في كتاب الله آية الكرسي»<sup>١٢</sup>.

وعن أبي هريرة: «أَنَّ سَيِّدَةَ أَيِّ الْقُرْآنِ آيَةُ الْكَرْسِيِّ»<sup>١٣</sup>.

وفي رواية مرسله: «أفْضَلُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَأَعْظَمُ آيَةٍ فِيهَا آيَةُ الْكَرْسِيِّ»<sup>١٤</sup>.

وفي حديث أنس: «آيَةُ الْكَرْسِيِّ رُبْعُ الْقُرْآنِ»<sup>١٥</sup>.

وروي عن النبي<sup>١٦</sup>: «أَنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكَرْسِيِّ وَآيَتَيْنِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾»<sup>١٧</sup>.

١. في النسخة: القرآن. ٢. الإتيان في علوم القرآن ٤: ١٣٣.

٣. تفسير العياشي ١: ١٠٣/٨٩.

٤. تفسير العياشي ١: ١٠٠/٧٩، والآية من سورة الإسراء: ١٧/٤٦.

٥. تفسير العياشي ١: ١٠٢/٨٦.

٦. علل الشرائع ١: ١٢٨/٣، الخصال: ١٤٢٥/١، معاني الأخبار: ١/٥٠.

٧. الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٧. ٨. الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٧.

٩ و ١٠. الاتقان في علوم القرآن ٤: ١٢٧.

إِلَّا هُوَ» إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ﴾<sup>١</sup> و﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَغْنَبُ حِسَابٍ﴾<sup>٢</sup> مَعْلَقَات، ما بينهما وبين الله حجاب، قلن: يا رَبِّ أَتُهَيِّطُنَا إِلَى أَرْضِكَ وَالِى مَنْ يَعْصِيكَ؟ قال الله عزَّ وجلَّ: إِنِّي حَلَفْتُ لَا يَقْرُوكُنْ أَحَدٌ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ إِلَّا جَعَلْتُ الْجَنَّةَ مَوَاهِى عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَأَسْكَنْتُهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بَعَيْنِي كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً، وَقَضَيْتُ لَهُ سَبْعِينَ حَاجَةً أَدْنَاهَا الْمَغْفِرَةُ، وَأَعْدَتُهُ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ وَحَاسِدٍ، وَنَصَرْتُهُ عَلَيْهِمْ»<sup>٣</sup>.

وفي حديث مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ: «مَنْ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآخِرَهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَدَمِهِ إِلَى رَأْسِهِ»<sup>٤</sup>.  
وفي رواية: من قرأ في ليلة: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾<sup>٥</sup>. الآية، كان له نور من عَدَنَ إِلَى مَكَّةَ حَشْوُهُ الْمَلَائِكَةُ»<sup>٦</sup>.

وفي رواية عن النبي ﷺ في الْمُسْتَبَحَاتِ يقول: «فِيهِنَّ آيَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ»<sup>٧</sup>.  
قال بعض العلماء: هي قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>٨</sup>.  
وفي حديث: «مَنْ قَرَأَ حِينَ يَصْبِحُ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ وَكُلَّ اللَّهِ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمَسِّي، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمَسِّي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ»<sup>٩</sup>.

وفي حديث: «مَنْ قَرَأَ خَوَاتِيمَ الْحَشْرِ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَمَاتَ فِي يَوْمِهِ أَوْ لَيْلَتِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ»<sup>١٠</sup>.

أقول: لا ريب أن فضيلة الآيات بفضيلة ما تَضَمَّتْهُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ آيَةٍ يَكُونُ فِيهَا بَيَانُ التَّوْحِيدِ وَالْصِّفَاتِ الْجَلَالِيَّةِ وَالْجَمَالِيَّةِ وَعِلْمُ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ تَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهَا، وَعَظَمَةُ آيَةِ الْكَرْسِيِّ لَكُنْهَاشْمَلٌ، وَبِهَذَا الْمَلَكِ يُمَكِّنُ الْحَاقُّ بَعْضَ الْآيَاتِ الَّتِي تُقَارِبُهَا فِي الْمَضْمُونِ بِهَا، وَاللَّهُ الْعَالِمُ.

- 
١. آل عمران: ١٨/٣ و ١٩.
  ٢. مجمع البيان: ٢، ٧٢٤.
  ٣. الكهف: ١١٠/١٨.
  ٤. آل عمران: ٢٦/٣ و ٢٧.
  ٥. الإنفاق في علوم القرآن: ٤، ١٢٩.
  ٦. الإنفاق في علوم القرآن: ٤، ١٣٠.
  ٧. الإنفاق في علوم القرآن: ٤، ١٣٠.
  ٨. الإنفاق في علوم القرآن: ٤، ١٣٠، تفسير ابن كثير: ٤، ٣٢٤، والآية من سورة الحديد: ٥٧/٣.
  ٩. الإنفاق في علوم القرآن: ٤، ١٣٠.
  ١٠. الإنفاق في علوم القرآن: ٤، ١٣١.

## الطَّرْفَةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ

### فِي أَنَّ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ خَوَاصًّا وَأَثَارًا دُنْيَوِيَّةً مُضَافًا إِلَى الْأَثَارِ الْآخِرِيَّةِ

مُضَافًا إِلَى أَنَّ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَضَائِلَ وَأَنَارًا كَثِيرَةً آخِرِيَّةً، لَهُ خَوَاصٌّ وَأَثَارٌ دُنْيَوِيَّةٌ.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءِ مِنَ: الْعَسَلِ، وَالْقُرْآنِ»<sup>١</sup>.

وَعَنْ وَائِلَةَ بْنِ أَسَقَعٍ: أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَجَعَ حَلْقِهِ. قَالَ: «عَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي اسْتَكَيْتُ صَدْرِي. قَالَ: «اقْرَأِ الْقُرْآنَ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾»<sup>٣</sup>.

وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «الْقُرْآنُ مَأْدِبَةٌ لِلَّهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدِبَةِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّهُ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، تَعَلَّمُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ يُشَرِّفُكُمْ بِتَعَلُّمِهِ»<sup>٤</sup>.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ خُلْفٍ، قَالَ: شَكَا رَجُلٌ إِلَى مُحَمَّدَ بْنِ حُمَيْدِ الرَّازِيِّ الرُّمَدَ، فَقَالَ لَهُ: أَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ، فَإِنَّهُ كَانَ بِي رَمَدٌ فَشَكَّوْتُ ذَلِكَ إِلَى جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ فَقَالَ لِي: أَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ، فَإِنَّهُ كَانَ بِي رَمَدٌ فَشَكَّوْتُ ذَلِكَ إِلَى الْأَعْمَشِ، فَقَالَ لِي: أَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ، فَإِنَّهُ كَانَ بِي رَمَدٌ فَشَكَّوْتُ ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لِي: أَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ، فَإِنَّهُ كَانَ بِي رَمَدٌ فَشَكَّوْتُ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «أَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ، فَإِنَّهُ كَانَ بِي رَمَدٌ فَشَكَّوْتُ ذَلِكَ إِلَى جَبْرِئِيلَ، فَقَالَ لِي: أَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ»<sup>٥</sup>.

وَمَرَّ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ «أَنَّهُ الشِّفَاءُ الْأَشْفَى»<sup>٦</sup>، وَمُقْتَضَى إِطْلَاقِهِ أَنَّهُ شِفَاءٌ لَجَمِيعِ الْأَمْرَاضِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، بَلْ كَمَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ أَشْفَى مِنْهُ فِي الْأَمْرَاضِ الْقَلْبِيَّةِ، لَا يَكُونُ شَيْءٌ أَشْفَى مِنْهُ فِي الْأَمْرَاضِ الْجِسْمَانِيَّةِ.

عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ مَاتَ مِنْ بَيْنِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَمَا اسْتَوْحَشْتُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مَعِي»<sup>٧</sup>.

١. الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ٤: ١٥٨.

٢. الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ٤: ١٥٨.

٣. الدَّرُ الْمُنْتَوَى ٤: ٣٦٦ والآية من سورة يونس: ٥٧/١٠.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَام: ٣١/٦٠.

٥. المسلسلات: ١٠٩.

٦. الكافي ٢: ٤٤٠/١٣.

٧. تَقَدَّمَ فِي الطَّرْفَةِ (٢٧) ص ٢١٢.

١٥٦ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ يَزِدُّنَ فِي الْحِفْظِ، وَيُزِيدُنَّ بِالْبَلْغَمِ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَالْحَسَلُ، وَاللُّبَانُ»<sup>١</sup>.

وعنه صلوات الله عليه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: «اجْعَلُوا لِيُؤْتِكُمْ نَصِيبًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْبَيْتَ إِذَا قُرِئَ فِيهِ الْقُرْآنُ يُسْرَ عَلَى أَهْلِهِ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَكَانَ سُكَّانُهُ فِي زِيَادَةٍ، وَإِذَا لَمْ يُقْرَأْ فِيهِ ضَيَّقَ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَلَّ خَيْرُهُ، وَكَانَ سُكَّانُهُ فِي نُقْصَانٍ»<sup>٢</sup>.

وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَهُوَ غَنِيٌّ، وَلَا فَقْرَ بَعْدَهُ، وَالْأَمَّا مَا بِهِ غِنًى»<sup>٣</sup>.

وفي رواية ما يقرب من هذا المضمون: «مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أُوتِيَ خَيْرًا مِنْهُ، فَقَدْ حَقَّرَ عَظِيمًا، وَعَظَّمَ حَقِيرًا»<sup>٤</sup>.

أقول: لأن القرآن جامع لجميع الخيرات الدنيوية والأخروية.

عن ابن عباس، قال: إذا فقدنا عقلاً كنا نجدّه بالقرآن<sup>٥</sup>.

## الطَّرِيقَةُ التَّاسِعَةُ وَالْثَّانِيون

فِي أَنَّ لِبَعْضِ سُورِ الْقُرْآنِ خَوَاصًّا مَخْصُوصَةً

قَدْ رُوِيَتْ خَوَاصُّ خَاصَّةٌ لِبَعْضِ سُورِ الْقُرْآنِ:

عن العالم عليه السلام: «مَنْ نَالَتْهُ عِلَّةٌ فَلْيَقْرَأْ فِي جِيبِهِ أُمَّ الْكِتَابِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّ سَكَنَتْ وَالْأَمَّا فَلْيَقْرَأْهَا سَبْعِينَ مَرَّةً، فَإِنَّهَا تَسْكُنُ»<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ مَوَالِيهِ وَقَدْ وَعَكَ، فَقَالَ لَهُ: «مَا لِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ؟» فَقَالَ: جَعِلَتْ فِدَاكَ، وَعَكَتْ وَعَكَأً شَدِيداً مِنْ شَهْرٍ، ثُمَّ لَمْ تَنْقَلِحِ الْحُمَى عَنِّي، وَقَدْ عَالَجْتُ بِكُلِّ مَا وَصَفَهُ لِي الْمَتَرَفَعُونَ فَلَمْ أَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُ الصَّادِقُ عليه السلام: «حُلْ أَزْوَاجَ قَمِيصِكَ، وَأَدْخِلْ رَأْسَكَ فِي قَمِيصِكَ، وَأُذُنْ وَأَقِمِ وَأَقْرَأْ سُورَةَ

١. مكارم الأخلاق: ١٦٥.

٢. عدة الداعي: ٦/٢٨٧.

٣. الكافي: ٢/٤٤٣.

٤. الإتيان في علوم القرآن: ٤/٣٠ «نحوه».

٥. معاني الأخبار: ٢٧٩ «نحوه».

٦. مكارم الأخلاق: ٣٦٣.

الحمد سبع مرّات». قال: ففعلتُ ذلك فكأنّما نشطتُ من عقال<sup>١</sup>.

وفي رواية جابر، عن النبي ﷺ: «أنّها شفاء من كلّ داءٍ إلّا السّام» يعني الموت<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كسل أو أصابته عينٌ أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوذتين، ثمّ يمسح بهما وجهه، فيذهب عنه ما كان يجد»<sup>٣</sup>.

وعن سلّمة بن مخرز، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «من لم تُبرئه سورة الحمد و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لن يبرئه شيء، وكلّ علّة يبرئها هاتان السورتان»<sup>٤</sup>.

عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لو قرئت الحمد على ميت سبعين مرّة ثمّ رُدّت فيه الرّوح ما كان ذلك عجبا»<sup>٥</sup>.

وعنه عليه السلام: «مَنْ نالته علّة فليقرأ في جنبه الحمد سبع مرّات، فإن ذهب العلّة وآلا فليقرأها سبعين مرّة، وأنا الضّامن له العافية»<sup>٦</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «مَنْ لم يبرئه الحمد لم يبرئه شيء»<sup>٧</sup>.

وعن أبي بكر الحضرمي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا كانت لك حاجة فاقرا العثاني وسورة أخرى، وصل ركعتين، وادع الله». قلت: أصلحك الله، وما العثاني؟ قال: «فاتحة الكتاب»<sup>٨</sup>.

وعن العالم عليه السلام أنّه قال: «إذا بدت بك علّة تخوّفت على نفسك منها فاقرا الأنعام، فإنّه لا يتألك من تلك العلّة ما تكره»<sup>٩</sup>.

وعن سلامة بن عمرو الهمداني، قال: دخلت المدينة فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت له: يا بن رسول الله، اعتلّكت على أهل بيتي بالحجّ، وأتيتك مستنجراً مستسراً من أهل بيتي من علّة أصابني، وهي الداء الخبيثة، قال: «أقيم في جوار رسول الله ﷺ وفي حرّيه وأمنه، واكتب سورة الأنعام بالعسل واشربه، فإنّه يذهب عنك»<sup>١٠</sup>.

١. طب الأئمة عليه السلام: ٥٢، يقال: كأنما أنشط من عقال، أي حلّ، ويقال ذلك للآخذ بسرعة في أي عمل كان.

وللمريض إذا برئ. ٢. تفسير العياشي ١: ٨٢/١٠١.

٣. طب الأئمة عليه السلام: ٣٩. ٤. طب الأئمة عليه السلام: ٣٩.

٥. الكافي ٢: ٤٥٦/١٦.

٦. تفسير العياشي ١: ٨٣/١٠١. ٧. أمالي الطوسي: ٥٥٣/٢٨٤.

٨. تفسير العياشي ١: ٨٤/١٠١. ٩. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٣٤٢.

١٠. طب الأئمة عليه السلام: ١٠٥.



وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: «من قرأ سورة يوسف في كل ليلة بعثه الله يوم القيامة وجماله على جمال يوسف إلى أن قال: «وأؤمن في الدنيا أن يكون زانياً [أو] فحاشاً»<sup>١</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «من أكثر قراءة سورة الرعد لم يصبه الله بصاعقة أبداً ولو كان ناصيباً»<sup>٢</sup>.  
وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة النحل في كل شهر كفي المغرم في الدنيا وسبعين نوعاً من أنواع البلاء، أهونها الجنون والجذام والبرص»<sup>٣</sup>.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة المائدة في كل خميس، لم يلبس إيمانه بظلم، ولم يشرك به أبداً»<sup>٤</sup>.

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الأنفال وسورة براءة [في] كل شهر، لم يدخله نفاق [أبداً]، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام»<sup>٥</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين»<sup>٦</sup> الخبر.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة، لم يمُت حتى يدرك القائم عجل الله فرجه فيكون من أصحابه»<sup>٧</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «من قرأ سورة الكهف كل ليلة جمعة لم يمُت إلا شهيداً»<sup>٨</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أدام قراءة سورة مريم، لم يمُت حتى يصب منها ما يغنيه في نفسه وماله وولده»<sup>٩</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «من قرأ سورة الأنبياء حباً لها كان ممن يرافق النبيين أجمعين في جنات النعيم، وكان مهيباً في أعين الناس في الحياة الدنيا»<sup>١٠</sup>.

وعنه عليه السلام: «من قرأ سورة الحج في كل ثلاثة أيام، لم تخرج سنة حتى يخرج إلى بيت الله الحرام»<sup>١١</sup> الخبر.

وعن ابن مسكان<sup>١٢</sup>، عنه عليه السلام: «من قرأ سورة المؤمنون ختم الله له بالسعادة، إذا كان يدين قراءتها

١. تفسير العياشي ٢: ٣٣١/٢٠٧٣.

٢. ثواب الأعمال: ١٠٦.

٣. ثواب الأعمال: ١٠٧.

٤. ثواب الأعمال: ١٠٥. ٥. ثواب الأعمال: ١٠٦.

٥. ثواب الأعمال: ١٠٧.

٦. ثواب الأعمال: ١٠٨. ٧. في ثواب الأعمال: كمن رافق.

٨. ثواب الأعمال: ١٠٨.

٩. في ثواب الأعمال: الحسين بن أبي العلاء.

١٠. ثواب الأعمال: الحسين بن أبي العلاء.

١١. ثواب الأعمال: ١٠٨.

١٢. ثواب الأعمال: ١٠٨.

في كُلِّ جُمُعَةٍ<sup>١</sup> الخبير.

وعنه عليه السلام قال: «حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ وَفَرَّجُوا بَتْلَاوَةَ سُورَةِ النَّوْرِ، وَحَصَّنُوا بِهَا نِسَاءَكُمْ، فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَتَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَوْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ لَمْ يَزِنْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَدًا حَتَّى يَمُوتَ»<sup>٢</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ الطَّوَاسِينَ الثَّلَاثَةَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ، كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَفِي جِوَارِ اللَّهِ وَكَتَفِهِ، وَلَمْ يُصِبْ فِي الدُّنْيَا بَوْشٌ أَبَدًا»<sup>٣</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ الْحَمْدَيْنِ: حَمْدَ سَبَأٍ وَحَمْدَ فَاطِمَةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، لَمْ يَزَلْ فِي لَيْلَتِهِ فِي حِفْظِ اللَّهِ وَكَلَامَتِهِ، وَمَنْ قَرَأَهُمَا فِي نَهَارِهِ لَمْ يُصِبْ فِي نَهَارِهِ مَكْرُوهٌ، وَأَعْطِيَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَخَيْرِ الْآخِرَةِ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِهِ وَلَمْ يَلْبُغْ مَنَاهُ»<sup>٤</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَسُّ، مَنْ قَرَأَهَا قَبْلَ مَنَامِهِ، أَوْ فِي نَهَارِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، كَانَ فِي نَهَارِهِ مِنَ الْمُحْفَظِينَ وَالْمَرْزُوقِينَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ وَكُلَّ اللَّهِ بِهِ أَلْفَ مَلَكٍ يَحْفَظُونَهُ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ»<sup>٥</sup> الخبير.

وعن أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي رِوَايَةٍ ذَكَرَ ثَوَابَ تِلَاوَةِ يَسٍّ إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَمْ يُصِبْ فَقْرٌ وَلَا غَرَمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا جُنُونٌ وَلَا جَذَامٌ وَلَا وَسْوَاسٌ وَلَا دَاءٌ يَضُرُّهُ» إِلَى أَنْ قَالَ: «وَكَانَ مَعْنَى يَضْمَنُ اللَّهُ لَهُ السَّعَةَ فِي مَعِيشَتِهِ وَالْفَرَجَ عِنْدَ لِقَائِهِ»<sup>٦</sup>.

وَرَوَى «أَنَّ يَسَّ تَقْرَأُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِلْحِفْظِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَبَلِيَّةٍ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ، وَإِنَّ مَنْ كَانَ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ قُرِئَ عَلَيْهِ، أَوْ كَتَبَ وَسَقَاهُ، وَإِنْ كَتَبَهُ بَمَاءِ الزَّعْفَرَانِ عَلَى إِنْاءٍ مِنْ زُجَاجٍ فَهُوَ خَيْرٌ فَإِنَّهُ مَبْرَأٌ»<sup>٧</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَلِيُّ، اقْرَأْ يَسَّ فَإِنَّ فِي يَسٍّ عَشْرَ بَرَكَاتٍ: مَا قَرَأَهَا جَائِعٌ إِلَّا شَبِعَ، وَلَا ظَمَأَنٌ إِلَّا رُوِيَ، وَلَا عَارٍ إِلَّا كُتِيَ، وَلَا عَزَبٌ إِلَّا تَرَوَّجَ، وَلَا خَائِفٌ إِلَّا أَمِنَ، وَلَا مَرِيضٌ إِلَّا بَرِئَ، وَلَا مَحْبُوسٌ إِلَّا أُخْرِجَ، وَلَا مُسَافِرٌ إِلَّا أُعِينَ عَلَى سَفَرٍ، وَلَا يَقْرَأُونَ عِنْدَ مَيِّتٍ إِلَّا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا قَرَأَهَا رَجُلٌ لَهُ ضَالَّةٌ إِلَّا وَجَدَهَا»<sup>٨</sup>.

١. ثواب الأعمال: ١٠٨. ٢. ثواب الأعمال: ١٠٩. ٣. ثواب الأعمال: ١٠٩.

٤. ثواب الأعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٥٨٨. ٥. ثواب الأعمال: ١١١.

٦. مكارم الأخلاق: ٣٦٤. ٧. جامع الأخبار: ٢٤٥/١٢٦، وفيه: إِلَّا وَجَدَ طَرِيقَهَا.

وفي رواية عن النبي ﷺ في سورة يس، قال: «وتدفع عن صاحبها كل سوء، وتقضي له كل حاجة» إلى أن قال: «ومن كتبها ثم شربها أدخلت جوفه ألف دواء، وألف نور، وألف يقين، وألف بركة، وألف رحمة، ونزعت عنه كل غل وداء»<sup>١</sup>.

وعن عطاء بن أبي رباح<sup>٢</sup>، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ يس في صدر النهار قضيت حوائجه»<sup>٣</sup>.

وفي رواية عامية، قال: «ما من ميت يقرأ عنده سورة (يس) إلا هون الله عليه»<sup>٤</sup>.

وعن أبي قلابة، قال: من قرأ يس غفر له، ومن قرأها وهو جائع شبع، ومن قرأها وهو ضال هدى، ومن قرأها وله ضالة وجدها، ومن قرأها عند طعام خاف قلته بورك فيه، ومن قرأها عند ميت هون عليه، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها الوضع، سهل عليها<sup>٥</sup>، الخبر.

وعن ابن عباس رضيهما الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس والصفات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤلته»<sup>٦</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الصفات في كل يوم جمعة، لم يزل محفوظاً من كل آفة، مدفوعاً عنه كل بلية في الحياة الدنيا، مرزوقاً في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، ولم يصيبه الله في ماله ولا وليه ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم ولا [من] أجبار عنيد»<sup>٧</sup>، الخبر.

وفي رواية: «أنها تقرأ للشرف والجاه في الدنيا والآخرة»<sup>٨</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة الزمر استحقها» من لسانه، أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة، وأعزّه بلامال ولا عشيرة حتى يهايته من يراه»<sup>٩</sup>، الخبر.

عن أبي عبد الله عليه السلام: «من قرأ سورة حم السجدة، كانت له نوراً يوم القيامة مد بصره وشروره، وعاش في الدنيا محموداً مقبوطاً»<sup>١٠</sup>.

١. الدر المنثور ٧: ٣٨. ٢. في النسخة: عطاء بن أبي رباح، انظر: تهذيب الكمال ٢٠: ٦٩.

٣. سنن الدارمي ٢: ٤٥٧، الدر المنثور ٧: ٣٨. ٤. الدر المنثور ٧: ٣٨. ٥. بحار الأنوار ٩٢: ٢٩٢/٦.

٦. الدر المنثور ٧: ٧٧. ٧. ثواب الأعمال: ١١٢، بحار الأنوار ٩٢: ٢٩٦/١.

٨. مكارم الأخلاق: ٣٦٤، بحار الأنوار ٩٢: ٢/٢٩٦. ٩. في البحار: استخفها.

١٠. ثواب الأعمال: ١١٢، بحار الأنوار ٩٢: ١/٢٩٧. ١١. ثواب الأعمال: ١١٣.

وروي في حَمِّ الدُّخَانِ مَا يَقْرُبُ مِنْ خَوَاصِّ سُورَةِ يَسَّ<sup>١</sup>.  
وعن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾<sup>٢</sup> لَمْ يُذِيبْ أَبَدًا وَلَمْ يَدْخُلْ شَكٌّ فِي دِينِهِ [أَبَدًا] وَلَمْ يَنْتَلِهِ اللَّهُ بِقَفَرٍ أَبَدًا، وَلَا خَوْفٍ مِنْ سُلْطَانٍ أَبَدًا، وَلَمْ يَزَلْ مَحْفُوظًا مِنَ الشَّكِّ وَالْكَفْرِ أَبَدًا حَتَّى يَمُوتَ»<sup>٣</sup> الْخَبَرِ.  
وَعَنْهُ عليه السلام: «حَصَّنَا أَمْوَالُكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَمَمْلَكَتُكُمْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الثَّلَفِ بِقِرَاءَةِ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾»<sup>٤</sup> الْخَبَرِ.

وَعَنْهُ عليه السلام قَالَ: «مَنْ أَدَمَّنَ فِي فَرَائِضِهِ وَتَوَافَلَهُ قِرَاءَةُ سُورَةِ (ق) وَسَمِعَ اللَّهَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ»<sup>٥</sup> الْخَبَرِ.  
وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ فِي يَوْمِهِ أَوْ فِي لَيْلَتِهِ، أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ مَعِيشَتَهُ، وَأَتَاهُ بَرَزُقٍ وَاسِعٌ»<sup>٦</sup> الْخَبَرِ.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالطُّورِ﴾ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»<sup>٧</sup>.  
وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «مَنْ كَانَ يُدْمِنُ قِرَاءَةَ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَوْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، عَاشَ مَحْمُودًا بَيْنَ النَّاسِ»<sup>٨</sup> الْخَبَرِ.  
وَعَنْهُ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ جُمُعَةَ الْوَاقِعَةِ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَأَحَبَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَلَمْ يَزَلْ فِي الدُّنْيَا بَوْسًا أَبَدًا وَلَا فَقْرًا وَلَا فَاقَةً وَلَا آفَةً مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا»<sup>٩</sup> الْخَبَرِ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «مَنْ قَرَأَ الْوَاقِعَةَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لَمْ يَزَلْ [فِي الدُّنْيَا] بَوْسًا»<sup>١٠</sup> الْخَبَرِ.  
وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَدِيدِ وَالْمُجَادِلَةِ فِي صَلَاةٍ فَرِيضَةٍ<sup>١١</sup> لَمْ يُعْذِبْهُ اللَّهُ حَتَّى يَمُوتَ أَبَدًا، وَلَا يَرَى فِي نَفْسِهِ وَلَا فِي أَهْلِهِ سُوءًا أَبَدًا، وَلَا خِصَاصَةً فِي بَدَنِهِ»<sup>١٢</sup>.

وَعَنِ الثُّمَالِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُتَمَتِّنَةِ فِي فَرَائِضِهِ وَتَوَافَلَهُ

١. الدر المنثور ٧: ٣٩٧، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٠/٣.  
٢. أي سورة محمد صلى الله عليه وآله.  
٣. في ثواب الأعمال: يرتب.  
٤. ثواب الأعمال: ١١٥، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٣/١.  
٥. ثواب الأعمال: ١١٥، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٤/١.  
٦. ثواب الأعمال: ١١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٤/١.  
٧. ثواب الأعمال: ١١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٥/١.  
٨. ثواب الأعمال: ١١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٥/١.  
٩. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٣٤٣، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٧/١.  
١٠. زاد في ثواب الأعمال والبحار: أدامتها.  
١١. ثواب الأعمال: ١١٧، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٧/١.

امتحن الله قلبه للإيمان، ونور له بصره، ولا يصيبه فقرٌ أبداً ولا جنونٌ في بدنه ولا في ولده<sup>١</sup>.

وفي رواية أخرى: «يكون محموداً عند الناس»<sup>٢</sup>.

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قرأ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ في المكتوبة قبل أن

ينام، لم يزل في أمان الله حتى يُصْبِحَ، وفي أمانه يوم القيامة حتى يدخل الجنة»<sup>٣</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله في فضائل تلك السورة المباركة وقراءتها عند النوم، قال: «وبعث الله إليه ملكاً من

الملائكة يسبط عليه جناحه ويحفظه من كل سوء حتى يستيقظ»<sup>٤</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «مَنْ قرأ سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ في فريضة أو نافلة آمنه الله عز وجل [من] أن

يُصِيبَهُ فَقْرٌ أبداً، وأعاده الله إذا مات من ضمة القبر»<sup>٥</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «أكثرُوا من قراءة الحاقة، فإن قراءتها في الفرائض والنوافل من الإيمان بالله

ورَسُولِهِ، لأنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام ومعافاة لعنه الله، ولم يُسَلَب قارئها دينه حتى يلقى الله عز

وجل»<sup>٦</sup>.

وعنه عليه السلام: «مَنْ أكثر من قراءة ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ﴾ لم يُصِبه في الحياة الدنيا شيء من أعيُن الجن ولا

نَفْسِهِمْ، ولا من سِخْرِهِمْ ولا من كَيْدِهِمْ»<sup>٧</sup> الخبر.

وعنه عليه السلام في رواية في فضل تلاوة سورة المزمل في العشاء الآخرة وفي آخر الليل، قال: «وأحياء

[الله] حياة طيبة، وأماته ميتة طيبة»<sup>٨</sup>.

وعن الباقر عليه السلام في فضل قراءة سورة المدثر في الفريضة، قال في جملته: «ولا يدركه شقاء أبداً

إن شاء الله»<sup>٩</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في تلاوة سورة ﴿عَمَّ﴾ في كل يوم، قال: «لم تخرج سته<sup>١٠</sup> حتى يزور البيت»

وفي تلاوة سورة ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ قال: «لم يمُتْ إلَّا رباناً»<sup>١١</sup>.

١. ثواب الأعمال: ١١٨، مكارم الأخلاق: ٣٦٥، بحار الأنوار: ٩٢: ٢/٣١٠.

٢. مكارم الأخلاق: ٣٦٥، بحار الأنوار: ٩٢: ٢/٣١٠. ٣. ثواب الأعمال: ١١٩، بحار الأنوار: ٩٢: ١/٣١٣.

٤. الدر المنثور: ٨: ٢٣٣، بحار الأنوار: ٩٢: ٤/٣١٦. ٥. ثواب الأعمال: ١١٩، بحار الأنوار: ٩٢: ١/٣١٦.

٦. ثواب الأعمال: ١١٩. ٧. ثواب الأعمال: ١٢٠، مكارم الأخلاق: ٣٦٥. ٨. ثواب الأعمال: ١٢٠.

٩. زاد في ثواب الأعمال: في الحياة الدنيا. ١٠. ثواب الأعمال: ١٢٠.

١١. زاد في المصدر: إذا كان يدمنها كل يوم. ١٢. ثواب الأعمال: ١٢١.

وفي رواية أخرى، قال: «لا يُدرِكُه شَقَاءٌ أَبَدًا».<sup>٢</sup>

وعنه عليه السلام في قراءة «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ» و«إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ»: «من قرأهما وجعلهما نُصْبَ عينه في صلاة الفريضة والنافلة لم يُحِبِّه الله من حاجة».<sup>٣</sup>

وفي رواية: «مَنْ شَقِيَ سَمًا، أَوْ لَدَعَتْهُ ذُو حُمَةٍ<sup>٤</sup> من ذَوَاتِ السَّمُومِ يقرأ على الماء «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ» وَيُسْقَى فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».<sup>٥</sup>

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه أوصى أصحابه وأولياءه: «مَنْ كَانَ بِهِ عِلَّةٌ فَلْيَأْخُذْ قُلَّةً<sup>٦</sup> جَدِيدَةً، وَلِيَجْعَلْ فِيهَا الْمَاءَ وَلِيَسْقِ الْمَاءَ بِنَفْسِهِ، وَلِيَقْرَأْ عَلَى الْمَاءِ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» عَلَى التَّرْتِيلِ ثَلَاثِينَ مَرَّةً، ثُمَّ لِيَشْرَبْ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، وَلِيَتَوَضَّأَ، وَلِيَمْسَحَ بِهِ، وَكَلَّمَا نَقَصَ زَادَ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا وَيُعَافِيهِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ الدَّاءِ».<sup>٧</sup>

وعن إسماعيل بن سَهْلٍ، قال: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنِّي قَدْ لَرَمَيْ دِينَ فَادِحٍ؟ فَكَتَبَ: «أَكْثَرُ [مِنْ] الْاسْتِغْفَارِ، وَرَطْبُ لِسَانِكَ بِقِرَاءَةِ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»».<sup>٨</sup>

وروي أنه: «مَنْ أَخَذَ قَدْحًا وَجَعَلَ فِيهِ مَاءً وَقَرَأَ فِيهِ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» خَمْسًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَرَشَّ ذَلِكَ الْمَاءَ عَلَى ثَوْبِهِ، لَمْ يَزَلْ فِي سَعَةٍ حَتَّى يَبْلَى ذَلِكَ الثَّوْبُ».<sup>٩</sup>

وفي رواية: «مَنْ قَرَأَهَا حُبَّبَ إِلَى النَّاسِ، فَلَوْ طَلَّبَ مِنْ رَجُلٍ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ مَالِهِ بَعْدَ قِرَاءَتِهَا حِينَ يُقَابِلُهُ لِفَعْلٍ، وَمَنْ خَافَ سُلْطَانًا فَقَرَأَهَا حِينَ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَلَبَ لَهُ، وَمَنْ قَرَأَهَا [حِينَ] يَرِيدُ الْخُصُومَةَ أَعْطَى الظَّفَرَ، وَمَنْ يَشْفَعُ بِهَا إِلَى اللَّهِ شَفَعَهُ وَأَعْطَاهُ سَوْلَهُ».<sup>١٠</sup>

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «رَجِمَ اللَّهُ مَنْ قَرَأَ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» إِلَى أَنْ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ عَوٌّ وَعَوُّ الضُّعْفَاءِ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»، وَلِكُلِّ شَيْءٍ يَسْرٌ وَيُسْرُ الْمُعْسِرِينَ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِصْمَةٌ وَعِصْمَةُ الْمُؤْمِنِينَ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»، وَلِكُلِّ شَيْءٍ هُدًى وَهُدًى الصَّالِحِينَ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»»<sup>١١</sup> الخبر.

١. زاد في مكارم الأخلاق: في الدنيا. ٢. مكارم الأخلاق: ٣٦٥.

٣. ثواب الأعمال: ١٢١. ٤. الحُمَةُ: الإبرة التي تضرب بها العقرب والزنبور ونحوهما.

٥. مكارم الأخلاق: ٣٦٥ «نحوه»، بحار الأنوار ٩٢: ٣٢١/٢.

٦. القُلَّةُ: إناء من الفَخَّار يشرب منه. ٧. طب الأئمة عليهم السلام: ١٢٣.

٨. الكافي ٥١/٣١٦. ٩. مكارم الأخلاق: ١٠٢.

١٠. مصباح الكفعمي: ٥٨٧، بحار الأنوار ٩٢: ٣٣٠/١٠.

١١. مصباح الكفعمي: ٥٨٨، بحار الأنوار ٩٢: ٣٣١/١٠.

وعنه صلوات الله عليه في رواية أخرى: «هي نِعَمَ رفيقِ المرء، بها يقضى دينه، ويُعظم دينه، ويظهر فلجه، ويطول عمره، ويحسن حاله»<sup>١</sup> الخبر.

وفي رواية: «أبى الله أن يسخط على قارئها ويسخطه». قيل: فما معنى يسخطه؟ قال: «لا يسخطه بمنعه حاجته». إلى أن قال: «وأبى الله أن ينام قارئها حتى يحفنه بألف ملك يحفظونه حتى يصبح، وبألف ملك حتى يمسي»<sup>٢</sup> الخبر.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا تملوا [من] قراءة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ فَإِنَّ مَنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُ فِي نَوَافِلِهِ لَمْ يُصِبهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِزُلْزَلَةٍ أَبَدًا، وَلَمْ يَمُتْ بِهَا وَلَا بِصَاعِقَةٍ وَلَا بِأَفَةٍ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا»<sup>٣</sup> الخبر.

وعنه عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ فِي فَرَاغِهِ نَفَثَ عَنْهُ الْفَقْرُ، وَجَلَبَتْ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، وَتَدَفَعَ عَنْهُ مِثَّةُ السُّوءِ»<sup>٤</sup>.

ونقل عن خطِّ الشهيد رضوان الله عليه: عن الصادق صلوات الله عليه أنه قال: «يقرأ في وجه العذر سورة الفيل»<sup>٥</sup>.

ونقل عن الراوندي عليه السلام في (أخبار المعتمرين) أنه ذكر بعضهم أن والده كان لا يعيش له ولد. قال: ثم وُلِدَتْ لَهُ عَلَى كِبَرِهِ، فَفَرِحَ بِهِ ثُمَّ مَضَى وَلِي سَبْعِ سِنِينَ، فَكَفَلَنِي عَمِّي، فَدَخَلَ بِي يَوْمًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا ابْنُ أَخِي، وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ، فَعَلَّمْنِي عَوْدَةً أُعِيدُهُ بِهَا. فَقَالَ: «أَيُّنَ أَنْتَ عَنْ ذَاتِ الْقَلَاقِلِ؟» قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَ«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلْهِ»، وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ». وفي رواية: «قُلْ أُوْحِي».

قال المعتمر: وأنا إلى اليوم أتعوذ بها، ما أصبْتُ بولدٍ ولا مالٍ، ولا مَرَضْتُ، ولا افتقرْتُ. وقد انتهى بي السن ما تزوون<sup>٦</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ. قال: لعن الله العقرب لا تدع مُصَلِّيًا ولا غيره، ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾،

١. مصباح الكفعمي: ٥٨٨، بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣١.

٢. مصباح الكفعمي: ٥٨٨، بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣٢.

٣. ثواب الأعمال: ١٢٤.

٤. بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣٨.

٥. بحار الأنوار ٩٢: ١٠/٣٣٧.

٦. دعوات الراوندي: ٢١٦/٨٥.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾<sup>١</sup>.

وعن جُبَيْر بن مطعم، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَتَحِبُّ يَا جُبَيْرُ إِذَا خَرَجْتَ سَفَرًا أَنْ تَكُونَ أَمَثَلُ أَصْحَابِكَ هَيْئَةً وَأَكْثَرَهُمْ زَادًا؟» فقلت: نعم، بأبي أنت وأُمِّي قال: «فَأَقْرَأْ هَذِهِ السُّورَ الْخَمْسَ» ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وافتتح كل سورة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ واختم قراءتك بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

قال جُبَيْر بن مطعم: وكنت غنيًا كثير المال، فكنت أخرج في سفر فأكون من أبلههم<sup>٢</sup> هَيْئَةً، وأقلهم زادًا، فما زلت منذ علمنيهن رسول الله ﷺ وقرأت بهن، أكون من أحسنهم هَيْئَةً، وأكثرهم زادًا، حتى أرجع من سفري<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ في نافلة أو فريضة، نصره الله على جميع أعدائه، إلى أن قال «ويُفْتَحْ لَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ مَا لَمْ يَتَمَنَّ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِهِ»<sup>٤</sup>. وفي رواية أخرى: «نصره الله على جميع أعدائه، وكفاه المَهْم»<sup>٥</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أوى إلى فراشه فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إحدى عشرة مرة حفظ في داره، وفي ذُيُورَاتِ حَوْلِهِ.

وعنه عليه السلام قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع [أن يقرأ] في دُبُرِ الْفَرِيضَةِ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنه من قرأها جمع [الله] له خير الدنيا والآخرة».

وعنه عليه السلام قال: «من مضت له جُمُعَةٌ ولم يقرأ فيها بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ مَاتَ عَلَى دِينِ أَبِي لَهَبٍ»<sup>٦</sup>. وعن رجل سمع أبا الحسن عليه السلام يقول: «من قَدَّمَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بينه وبين جَبَارِ مَعَهُ اللهُ عَنْهُ، يقرأها بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فإذا فعل ذلك رزقه الله خير، ومنعه شر»<sup>٧</sup>.

وعن مفضل بن عمر، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا مفضل، أحتجج من الناس كلهم بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أقرأها عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك

١. الدر المنثور ٨: ٦٥٨. ٢. يَدُّ يَبْدُ بَدَاً، وَبَدَاةٌ: سَاءَتْ حاله، ورثت هَيْئته.

٣. الدر المنثور ٨: ٦٥٨، بحار الأنوار ٩٢: ٧/٣٤٢. ٤. ثواب الأعمال: ١٢٧.

٥. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٣٤٤. ٦. ثواب الأعمال: ١٢٨. ٧. ثواب الأعمال: ١٢٩.



ومن فوقك ومن تحتك، فإذا دخلت على سلطانٍ جائرٍ فاقراها حين تنظر إليه ثلاث مرّات، واعقد بيدك اليسرى، ثم لا تفارقها حتى تخرج من عنده»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «مَنْ قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفث عنه الفقر، واشتدت أسأس دوره، ونفعت جيرانه»<sup>٢</sup>.  
وعن أبي جعفر عليه السلام: «مَنْ لم يبرأ سورة الحمد و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لم يبرأ شيء، وكلّ علّة تبرأها هاتان السورتان»<sup>٣</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾ نظر الله إليه ألف نظرة بالآية الأولى، وبالآية الثانية استجاب الله له ألف دعوة، وبالآية الثالثة أعطاه الله ألف مسألة، وبالآية الرابعة قضى الله له ألف حاجة، كلّ حاجة خير من الدنيا والآخرة»<sup>٤</sup>.

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: قال: «مَنْ أراد سفراً فأخذ بعِضَ أدنَى منزله فقرأ إحدى عشرة مرة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان الله تعالى له حارساً حتى يرجع»<sup>٥</sup>.

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرةً بورك عليه [ومن قرأها مرتين بورك عليه] وعلى أهل بيته، ومن قرأها ثلاث مرّات بورك عليه وعلى أهل بيته وجيرانه»<sup>٦</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ أتى منزله وقرأ ﴿الْحَمْدُ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفى الله عنه الفقر، وكثر خير بيته حتى يفيض على جيرانه»<sup>٧</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «كان سبب [نزول] المَعُودَتَيْنِ أَنَّهُ وَعَكَ رسول الله صلى الله عليه وآله فنزل عليه جبرئيل عليه السلام بهاتين السورتين، فعَوّذه بهما»<sup>٨</sup>.

وعن الرضا عليه السلام أَنَّهُ رأى مَصْرُوعاً، فدعاه بقَدَحٍ فيه ماء، ثم قرأ عليه (الحمد) و(المَعُودَتَيْنِ) ونفث في القَدَحِ، ثم أمر بصبِّ الماء على وجهه ورأسه فأفاق، وقال [له]: «لا يعود إليك أبداً»<sup>٩</sup>.

## الطَرِيقَةُ الْأَرْبَعُونَ

في أَنْ لبعض الآيات خواصاً وآثاراً دنيوية

قد نطقت الروايات ببيان خواص وآثارٍ لكثيرٍ من الآيات.

١. الكافي ٢: ٤٥٧/٢٠. ٢. المحاسن: ٧٣/٦٢٣. ٣. طب الأئمة عليهم السلام: ٣٩.

٤. جامع الأخبار: ٢٣٣/١٢٣. ٥. الدر المنثور ٨: ٦٧٥. ٦. الدر المنثور ٨: ٦٧٦.

٧. الدر المنثور ٨: ٦٧٧. ٨. تفسير القمي ٢: ٤٥٠. ٩. طب الأئمة عليهم السلام: ١١١.

عن النبي ﷺ: «من حزنه أمرٌ تعاطاه، فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وهو مُخْلِصٌ لله ويُقْبَلُ بقلبه [إليه]، لم يَنْفَكْ من إحدى اثنتين: إمَّا بلوغ حاجته في الدنيا، وإمَّا يعدُّ له عند ربِّه ويدخر لديه، وما عند الله خيرٌ وأبقى للمؤمنين<sup>١</sup>.

وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن النبي ﷺ عن الله عزَّ وجلَّ: «كلَّ [أمرٍ] ذي بَالٍ لم يَذْكُرْ فيه بِسْمِ اللَّهِ» فهو أبتَرُ<sup>٢</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يقرأ أو يعمل عملاً فيقول بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يُبَارَكُ لَهُ فِيهِ»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في رواية: «ولربما ترك بعض شيعتنا في افتتاح أمره بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فيمتحنه الله بمكروه لينبئه على شكر الله»<sup>٤</sup> الخبر.

وروي أنه سُئِلَ النبي ﷺ: هل يأكل الشيطان مع الإنسان؟ قال: «نعم، كلٌّ مائدةٍ لم يَذْكُرْ بِسْمِ اللَّهِ» عليها، يأكل الشيطان معهم، ويرفع الله البركةَ عنها<sup>٥</sup>.

وعن أبي بن كعب، قال: كنتُ عند النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله، إن لي أماً وبه رجح قال: «وما رجحه؟» قال: به لَمَمٌ. قال: «فأتني به» فوضعه بين يديه فعوذ النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة، وهاتين الآيتين: «وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»<sup>٦</sup> وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»<sup>٧</sup> وآية من الأعراف: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ»<sup>٨</sup> وآخر سورة المؤمنون: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ»<sup>٩</sup> وآية من سورة الجن: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا»<sup>١٠</sup> وعشر آياتٍ من أول الصافات، وثلاث آياتٍ من آخر سورة الحشر، و«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» و«الْمُعَوَّذَتَيْنِ» فقام الرجل كأنه لم يشك قط<sup>١١</sup>.

وعن ابن مسعود عليه السلام موقوفاً: «من قرأ أربع آياتٍ من أول سورة البقرة، وآية الكرسي، وأيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر سورة البقرة، لم يقرئته ولا أهله يومئذٍ شيطانٌ ولا شيء يكرهه، ولا يقرأن

١. التوحيد: ٢٣٢/٥. ٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٥/٧.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٥/٧، بحار الأنوار ٩٢: ٢٤٢. ٤. التوحيد: ٢٣١/٥.

٥. جامع الأخبار: ٢٢٠/١٢٠. ٦. البقرة: ١٦٣/٢. ٧. آل عمران: ١٨/٣.

٨. الأعراف: ٥٤/٧. ٩. المؤمنون: ١١٦/٢٣. ١٠. الجن: ٣/٧٢.

١١. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٥٩.

على مَجْنُونٍ إِلَّا أَفَاقُ<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، عَلَّمَنِي شَيْئاً يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ. قال: «اقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّهُ يَنْفَعُكَ<sup>٢</sup> وَدُورَتِكَ، وَيَحْفَظُ دَارَكَ، حَتَّى الدُّرَيْرَاتِ حَوْلَ دَارِكَ<sup>٣</sup>».

وروي أَنَّهُ «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْبَقَرَةِ عِنْدَ مَنَامِهِ لَمْ يَنْسَ الْقُرْآنَ، أَرْبَعٌ مِنْ أَوَّلِهَا، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ وَآيَتَانِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثٌ مِنْ آخِرِهَا<sup>٤</sup>».

وعن الباقر عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً، صَرَفَ [الله] عَنْهُ أَلْفَ مَكْرُوهٍ مِنْ مَكْرُوهِ الدُّنْيَا، وَأَلْفَ مَكْرُوهٍ مِنْ مَكْرُوهِ الْآخِرَةِ، أَيْسَرُ مَكْرُوهِ الدُّنْيَا الْفَقْرُ، وَأَيْسَرُ مَكْرُوهِ الْآخِرَةِ عَذَابُ الْقَبْرِ<sup>٥</sup>».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: مَنْ قَرَأَ أَرْبَعَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْبَقَرَةِ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا، لَمْ يَزَلْ فِي نَفْسِهِ [وَأَهْلُهُ] وَمَالِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ، وَلَا يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ وَلَا يَنْسِيَ الْقُرْآنَ<sup>٦</sup>».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَيَقْرَأَ أَحَدُكُمْ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ الْآيَاتِ مِنْ [آخِرِ] آلِ عِمْرَانَ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَ«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»، وَآمَ الْكِتَابِ، فَإِنْ فِيهَا قَضَاءُ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>٧</sup>».

وعن الرضا عليه السلام يقول: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ عِنْدَ مَنَامِهِ لَمْ يَخَفِ الْفَالِجَ، وَمَنْ قَرَأَ دَهْرَ كُلِّ صَلَاةٍ لَمْ يَضُرَّهُ ذُو حُمَةٍ<sup>٨</sup> أَيْ ذُو سَمٍّ».

وفي حديث، قال النبي ﷺ: «يَا عَلِيُّ، مَنْ كَانَ فِي بَطْنِهِ مَاءٌ أَصْفَرُ فَكُتِبَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَشَرِبَ ذَلِكَ الْمَاءَ، يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللهِ<sup>٩</sup>».

وعن الصادق عليه السلام في رواية: «إِذَا عَايَنْتَ الَّذِي تَخَافُهُ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ<sup>١٠</sup>».

وعنه عليه السلام قال: «فِي سَمَكٍ<sup>١١</sup> الْبَيْتُ إِذَا رُفِعَ فَوْقَ ثَمَانِيَةِ أَذْرُعٍ صَارَ مَسْكُونًا، فَإِذَا زَادَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَذْرُعٍ فَلْيَكُتَبْ عَلَى رَأْسِ الثَّمَانِيَةِ أَذْرُعٍ آيَةُ الْكُرْسِيِّ<sup>١٢</sup>».

وعن أبي جعفر عليه السلام: «أَنَّ الْعَقَارِيَّتِ مِنْ أَوْلَادِ الْأَبَالِيسَةِ تَتَخَلَّلُ وَتَدْخُلُ بَيْنَ مُحَامِلِ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَنْفَرُ

١. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٦٠.

٢. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٦١.

٣. تفسير العياشي ١: ١٠٨/١٠٤.

٤. دعوات الراوندي: ٤٤٣/١٦٠.

٥. السَّمَكُ: السَّقْفُ. ١١. المحاسن: ١١/٦٠٩.

٦. الإنفاق في علوم القرآن ٤: ١٦٠.

٧. أمالي الصدوق: ١٥٨/١٥٥.

٨. ثواب الأعمال: ١٠٥.

٩. الخصال: ١٠/٦٢٣.

١٠. المحاسن: ١١/٦٠٩.

عليهم إيلَهُم، فتَعَاهَدُوا ذلك بآية الكرسي<sup>١</sup>.

ونقل من خطّ الشهيد رضوان الله عليه رواية عن الحسن عليه السلام: «أنا ضامِنٌ لِمَنْ قرأ عشرين آية أنْ يَعِصِمَهُ الله من كل سلطانٍ ظالمٍ، ومن كل شيطانٍ ماردٍ، ومن كل لصٍّ عادٍ، ومن كل سُبُعٍ ضارٍ، وهي: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ إلى ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>٢</sup> وَعَشْرٌ من أوّل الصّافات، وثلاث من الرّحمن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ إلى ﴿تَنْتَصِرَانِ﴾<sup>٣</sup> وثلاث من آخر الحشر: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي﴾<sup>٤</sup> إلى آخرها<sup>٥</sup>.

وفي رواية: «و ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ \* وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ \* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»<sup>٦</sup>.

وأخرج ابن السني عن فاطمة صلوات الله عليها: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما دنا ولادها أمر أم سلمة وزَيْنَب بنت جَحْش أن تأتياها فتقرأ عندها آية الكرسي ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾<sup>٧</sup> الآية، وتُعَوِّذُها بالمعوذتين<sup>٨</sup>.

وعن أحدهما عليه السلام قال: «أَيُّمَا دَابَّةٍ اسْتَصْعَبَ عَلَى صاحبها من لجامٍ وَنِغَارٍ فليقرأ في أذنيها أو عليها: ﴿أَفْغَيْرِ دِينِ اللهُ يَبْنُوْنَ وَلَهُ أَسْلَمٌ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَلِئِهِ تَرْجَعُونَ﴾»<sup>٩</sup>.

وروي أن زَيْنَ العابدين صلوات الله عليه مرّ برجلٍ وهو قاعد على باب رجلٍ فقال له: «ما يَقْعِدُكَ على باب هذا الرجلِ الْمُتَرَفِّعِ الْجَبَّارِ؟» فقال: البلاء. فقال: «قُمْ، فأرشدك إلى بابٍ خير من بابي، وإلى ربِّ خير لك منه» فأخذ بيده حتّى انتهى إلى المسجد، مسجد النبي صلى الله عليه وآله [ثم] قال: «استَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وصل ركعتين، ثم ارفع يديك إلى الله عز وجل فائتني عليه، وصل على رسوله صلى الله عليه وآله ثم ادعُ بآخر الحشر، وست آيات من أوّل الحديد، وبالأيتين في آل عمران، ثم سَلِ الله فإنك لا تسأل [شيئاً] إلا أعطاك»<sup>١٠</sup>.

أقول: الظاهر أن المراد بالآيتين في آل عمران، آية ﴿شَهِدَ اللهُ﴾<sup>١١</sup> وآية ﴿قُلِ اللّهُمَّ﴾<sup>١٢</sup>.

١. المحاسن: ١٥٩/٣٨٠. ٢. الأعراف: ٥٤/٧. ٣. الرحمن: ٣٥. ٤. الحشر: ٥٩/٢٢. ٥. بحار الأنوار: ٩٢/٢٧١. ٦. دعوات الراوندي: ٣٢٨/١٣٢، بحار الأنوار: ٩٢/٢٧١، والآيات من سورة الصافات: ١٨٠/٣٧ - ١٨٢. ٧. الأعراف: ٥٤/٧. ٨. الإنشقاق في علوم القرآن: ٤/١٦١. ٩. الكافي: ٦/٥٣٩، والآية من سورة آل عمران: ٨٣/٣. ١٠. دعوات الراوندي: ١٣٨/٥٥. ١١. آل عمران: ١٨/٣. ١٢. آل عمران: ٢٧/٣.

وعن النبي ﷺ: «يا علي، أماناً لأمتي من السُّرْقِ» ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾<sup>١</sup> إلى آخرها  
﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾<sup>٢</sup> إلى آخرها.

وفي رواية: «مَنْ قرأ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ حين يأخذُ مضجعه، لم يَزَلْ في حِفْظِ الله من كلِّ شَيْطَانٍ مرِيدٍ وَجَبَّارٍ عَنِيدٍ إلى أن يُصْبِحَ»<sup>٣</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إِذَا دَخَلْتَ مَدَخَلاً تُخَافُهُ، فَاقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾»<sup>٤</sup>.

وعن الرضا صلوات الله عليه قال: دَخَلَ أَبُو الْمُنْذِرِ هِشَامُ بْنُ السَّائِبِ الْكَلْبِيُّ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فقال: «أَنْتَ الَّذِي تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ؟» قال: نعم.

قال: «أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾»<sup>٥</sup> ما ذلك القرآن الذي كان إذا قرأه رسول الله ﷺ حُجِبَ عَنْهُمْ؟ قال: لا أدري.

قال: «كَيْفَ قُلْتَ إِنَّكَ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ؟» قال: يا بن رسول الله، إِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تُنْعِمَ عَلَيَّ، وَتُعَلِّمْنِيهِمْ؟

قال عليه السلام: «آيَةٌ فِي الْكَهْفِ، وَآيَةٌ فِي النُّحْلِ، وَآيَةٌ فِي الْجَاثِيَةِ، وَهِيَ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾»<sup>٦</sup> وفي النُّحْلِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾<sup>٧</sup> وفي الكهف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾»<sup>٨</sup>.

قال الكيسرِيُّ: «فَعَلِمْتُهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ هَمْدَانَ وَكَانَتْ الدَّيْلَمُ اسْمَ رَجُلٍ، فَمَكَثَ فِيهِمْ عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ الثَّلَاثَ آيَاتٍ. قَالَ: فَجَعَلْتُ أَمْرًا عَلَى مُحَالِّهِمْ وَعَلَى مَرَاصِدِهِمْ فَلَا يَرَوْنِي، وَلَا يَقُولُونَ شَيْئًا حَتَّى خَرَجْتُ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ.»

قال أبو المنذر: وَعَلِمْتُهَا قَوْمًا خَرَجُوا فِي سَفِينَةٍ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى بَغْدَادَ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ سَبْعُ سَفُنَ

١. الإسراء: ١٧/١١٠. ٢. التوبة: ٩/١٢٨. ٣. دعوات الراوندي: ٤٤٣/١٦٠.

٤. عدة الداعي: ٣/٢٩٣. ٥. المحاسن: ١١٨/٣٦٧، والآية من سورة الإسراء: ٨٠/١٧.

٦. الإسراء: ٤٥/١٧. ٧. الجاثية: ٤٥/٢٣. ٨. النحل: ١٠٨/١٦. ٩. الكهف: ١٨/٥٧.

فقطع على سَتٍّ وَسَلِمَتِ السفينة التي قرئ فيها هذه الآيات<sup>١</sup>.

وعن الحسين بن علي عليه السلام عن النبي ﷺ - في حديث - : «أَمَّا لَا أُمْتِي مِنَ الْغَرَقِ [إذا ركبوا] أَنْ يقرءوا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»<sup>٢</sup> و«مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» الآية<sup>٣</sup>.  
وعن الليث، قال: بلغني أَنَّ هؤلاء الآيات شفاء من السُّحْرِ، تقرأ على إناء فيه ماء ثُمَّ يُصَبُّ على رأسِ الْمَسْحُورِ الآية التي في سورة يونس: «فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِعُ عَمَلَ الْفَاسِقِينَ \* وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ»<sup>٤</sup> وقوله: «فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»<sup>٥</sup> إلى [آخر] أربع آيات. وقوله: «إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى»<sup>٦</sup>.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «ما لَزِمَنِي<sup>٧</sup> أمرٌ إِلَّا تَمَثَّلَ لي جَبْرِئِيلُ، فقال: يا مُحَمَّدُ، قل: تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» و«قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّةِ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا»<sup>٨</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: هذه الآية أَمَّا مِنَ السَّرَقِ: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا \* وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّةِ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا»<sup>٩</sup>.  
وعن زَرِّ بْنِ حُبَيْشٍ [قال]: مَنْ قرأ آخر سورة الكهف لساعة يُريدُ أَنْ يَقومَها مِنَ اللَّيْلِ قامَها: «قُلِ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»<sup>١٠</sup>.

قال عبدة: فجزئناه فوجدناه كذلك<sup>١١</sup>.

وعن سعد بن أبي وقاص: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا بِهَا فِي بَطْنِ الْحُوتِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

١. عدة الداعي: ٩/٢٩٥. ٢. هود: ٤١/١١.

٣. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٦، والآية من سورة الأنعام: ٩١/٦.

٤. يونس: ١٠/٨٢ و٨١/٨٢.

٥. الأعراف: ١١٨/٧. ٦. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٢، والآية من سورة طه: ٦٩/٢٠.

٧. في الإنشقاق: كربني. ٨. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٢، والآية من سورة الإسراء: ١١١/١٧.

٩. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٢، والآيات من سورة الإسراء: ١١٠/١٧ و١١١. ١٠. الكهف: ١١٠/١٨.

١١. سنن الدارمي ٢: ٤٥٤، الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٢.

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»<sup>١</sup> لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»<sup>٢</sup>.  
وفي رواية عن النبي ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرُجَ عَنْهُ، كَلِمَةٌ أَخْبَى يُونُسَ: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»<sup>٣</sup>.  
وعن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّهُ قَرَأَ فِي أُذُنِ مُبْتَلَى فَأَفَاقَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ؟» قَالَ: «أَفْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمُ الْيَنَّا لَا تُزْجَعُونَ \* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ \* وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ \* وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ»<sup>٤</sup>. فقال: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُؤْمِنًا قَرَأَ بِهَا عَلَى جَبَلٍ لَرَأَى»<sup>٥</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ دَخَلَ عَلَى سُلْطَانٍ يَخَافُهُ، فَقَرَأَ عِنْدَمَا يَقَابِلُهُ: (كهيعص) وَيَضُمُّ يَدَهُ الْيُمْنَى، كُلَّمَا قَرَأَ خَرْفًا ضَمَّ إصْبَعًا، ثُمَّ يقرأ (جمعسق) وَيَضُمُّ أَصَابِعَ يَدِهِ الْيُسْرَى كَذَلِكَ، ثُمَّ يقرأ: ﴿وَعَبَّتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾<sup>٦</sup> وَيَفْتَحُهَا فِي وَجْهِهِ كُنْفَى شَرًّا»<sup>٧</sup>.

وعن النبي ﷺ: «مَنْ اشْتَكَى ضُرَّه فَلْيَضَعْ إصْبَعَهُ عَلَيْهِ وَلْيَقْرَأْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ سَبْعَ مَرَّاتٍ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾»<sup>٨</sup> و﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَاتَشْكُرُونَ﴾<sup>٩</sup> فَإِنَّهُ يَرَى بِإِذْنِ اللَّهِ»<sup>١٠</sup>.

وعن ابن عباس موقوفًا في المرأة تَغْشَرُ عَلَيْهَا وَلَا دَهْنَهَا، قَالَ: «يَكْتُبُ فِي قِرْطَاسٍ [ثُمَّ تَسْقَى:] بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْخَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَزُونَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾»<sup>١١</sup> «كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَزُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ»<sup>١٢</sup>.

وعنه عليه السلام: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا - يَعْنِي الْوَسْوَةَ - فَقُلْ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ

١. الأنبياء: ٨٧/٢١. ٢. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٣.

٣. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٣، والآية من سورة الأنبياء: ٨٧/٢١.

٤. المؤمنون: ١١٥/٢٣ - ١١٨.

٥. طه: ١١١/٢٠. ٦. عدة الداعي: ٧/٢٩٤. ٧. الأنعام: ٩٨/٦. ٨. الملك: ٢٣/٦٧.

٩. النازعات: ٤٦/٧٩. ١٠. مكارم الأخلاق: ٦ - ٤ «نحوه».

١١. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٤، والآية من سورة الاحقاف: ٣٥/٤٦.

وَالْبَاطِلُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ<sup>١</sup>.

وعن أنس بن مالك: ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال ولا ولد، فيقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾<sup>٢</sup> فيرى فيه آفةً دون الموت<sup>٣</sup>.

ولا يذهب عليك أن تأثير القرآن العظيم وسوره وآياته في الآثار والخواص المروية، ليس على نحو العلية التامة بحيث لا يمكن تخلفها عنها، بل هو على نحو الاقتضاء الذي يعتبر فيه وجود الشرائط وعدم الموانع، كالدعاء الذي اتفقت الآيات والروايات بل العقل على أنه مؤثر في قضاء الحوائج وحصول المطلوب، وكالأدوية المجربة المسطورة في كتب الطب، وكغالب مؤثرات العالم، ولا شبهة في أن من شرائطه الإيمان بالله وبرسوله، واليقين بأن القرآن نازل من قِبل الله، وأنه كلامه.

ومن الموانع عن التأثير القضاء الختمي وعصيان العبد وغير ذلك، فلا ينبغي للمؤمن أن يضعف اعتقاده بتلك التأثيرات عند مشاهدته التخلف، والله العاصم.

## خاتمة

### [في مصادر هذا التفسير]

كل ما أودعته من الروايات في كتابي هذا طرائفه وتفسيره فمأخوذ من الكتب التي في غاية الاشتهار، كالشمس في رائعة النهار.

[١] منها: كتاب (جوامع الجامع) في التفسير، للشيخ الأجل البارع المؤتمن أمين الإسلام، الفضل بن الحسن الطبرسي.

[٢] ومنها: كتاب (بحار الأنوار) للعلامة المتبحر المولى محمد المدعو بالباقر المجلسي.

[٣] ومنها: (حواشي على كتاب أسرار التنزيل)<sup>٤</sup> للشيخ الجليل الكبير، والفاضل القليل النطير، المؤيد المستد، محمد بن حسين بن عبد الصمد، المدعو ببهاء الدين.

[٤] ومنها: كتاب (الصافي) للمحدث المتيقن، المولى محمد، المدعو بالمحسن، المعروف بالفيز، والمحدث الكاشاني قدس الله أسرارهم وأدام في العالمين آثارهم.

٢. الكهف: ١٨/٣٩.

١. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٤، والآية من سورة الحديد: ٣/٥٧.

٣. الإنشقاق في علوم القرآن ٤: ١٦٢.

٥. بريد أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) وسيأتي لاحقاً ضمن مصادر المؤلف.

٤. في النسخة: رابعة.



١٧٤ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

[٥] ومنها: كتاب (مفاتيح الغيب) للبحر القمقام المعروف بين العامة بالإمام محمد الرازي، الملقب بفخر الدين.

[٦] ومنها: كتاب (الإتقان) للقاضي جلال الدين السيوطي.

[٧] ومنها: كتاب (التفسير) للعلامة أبي السعود.

[٨] ومنها: كتاب (أسرار التنزيل) للقاضي ناصر الدين أبي الخير عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الفارسي البضاوي.

[٩] ومنها: كتاب (روح البيان) للشيخ إسماعيل المدعو بحقي أفندي.

[١٠] ومنها: كتاب (تفصيل وسائل الشيعة) للشيخ الأمجد، والمحدث المعتمد، محمد بن الحسن بن علي بن محمد، الحر العاملي رضوان الله عليه.

## في تفسير الاستعاذة

فها أنا أشرع في المقصود، مستمداً من الله الودود، مُبتدئاً بالاستعاذة وتفسيرها، امتثالاً لأمر الله الأكيد عند الشروع في كل أمر، سيما القرآن المجيد.

فأقول وأنا العبد الأثيم محمد بن المحقق النحرير عبد الرحيم النُّهاوندي عاملهما الله بَلْطَفِهِ الْعَمِيمِ، وإحسانه القديم:

### أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «(أعوذ بالله) أمتنع بالله (السميع) لمقال الأخيار والأشرار، ولكل المسموعات من الإعلان والإسرار (العليم) بأفعال الأبرار والفجار، وبكل شيء مما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون (من الشيطان الرجيم) البعيد من كل خير المَرْجُوم باللعن والمطرود من بقاع الخير»<sup>١</sup>

أقول: الظاهر أن تفسير كلمة (أعوذ) بأمتنع تفسير باللائم، حيث إن صيغة أعوذ مشتقة من العوذ، وله في اللغة معنيان: الالتجاء، والاتصاق، وعليه يكون المعنى: ألتجىء بالله، وألوذ بحضنه وعِصْمَتِهِ، أو ألتصق بفضله الله ورحمته، فيحصل بهذا الالتجاء والاتصاق التحفظ والامتناع من وساوس الشيطان المانع من كل خير، المطرود من إقامته ومَحَالِّهِ؛ من الجنة، ومقام القرب، وساحة الفضل والرحمة. وذكر اسم الجلالة هنا لاختصاص المقام إظهار عظمة المستعاذ به وقدرته وسطوته، وتوصيفه باسم السميع العليم ليلحاظ أن للمستعِذَّ إلتجاء قولي وقلبي، إذ حقيقة الاستعاذة والالتجاء لا تحصل للعبد إلا بعد أن يرى العدو - وهو الشيطان - قوياً قادراً على إضراره، ونفسه في غاية العجز عن دفع شره، ويعلم أن الله قادر على دفع كل شر، مانع من كل ضرر، مُجِيبٌ لِمَنْ اسْتَجَارَ بِهِ، مأوئٌ لِمَنْ التَجَأَ إِلَيْهِ، مُجِيبٌ لِمَنْ دَعَاهُ، رَحِيمٌ بِمَنْ نَادَاهُ، كريمٌ لِمَنْ قَصَدَهُ وسأله، جوادٌ لِمَنْ رَجَاهُ وأمله، عند ذلك

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣/١٦.

يحصل له اليقين بأنه لا حيلة له في التخلص من كيِّد الشيطان وحيلِهِ، والنجاة من أيدي ذلك العدو وحباله، مع شدة بطشه وكثرة خيله ورجله، إلا التحصن بحصن الله الحصين والاستجارة بركنه الركين، فعند حصول الاتجاه بجناحه، يتضرع إليه بلسانه، ويقول: يا إلهي السميع لمقالي، العليم بضري وعجزتي واستصالي وضعف قوتي وسوء حالي، احفظني وامنني من بأس الشيطان وشره، واحرمني من كيده وشره، فعند ذلك تسمُّله العناية فيحصل له الامتناع من وساويه، والسلامة من دسايسه.

ثم أعلم أن للشيطان في القرآن أسماء مشوومة، وألقاباً مذمومة، وإنما وُصف هنا بالرجيم لكونه أجمع لمساوئه، فإنه جامع لجميع ما يقع عليه من العقوبات، لأن المطرودية من مقام الرحمة من أشدها، ومستتبع لجميع الذركات.

وأما عداوته للإنسان، فمع أنها معلومة بدلالة كثير من الآيات، والمتواتر من الروايات، يظهر تفصيلها مما روي عن ابن عباس، قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم من المسجد، فإذا هو بـإبليس، فقال له النبي ﷺ: «ما الذي جاء بك إلى باب مسجدي؟» قال: يا محمد، جاء بي الله. قال: «فلم ذا؟» قال: لئأساني عما شئت.

فقال ابن عباس عليه السلام: [فكان] أول شيء سأله الصلاة. فقال [له]: «يا ملعون لِمَ تمنع أمتي عن الصلاة بالجماعة؟» قال: يا محمد، إذا خرجت أمتك إلى الصلوات تأخذني الحمى الحارة، فلا تندفع حتى ينفروا.

قال عليه السلام: «لِمَ تمنع أمتي عن الدعاء؟» قال: عند دعائهم يأخذني الصمم والعمى، فلا يندفع حتى ينفروا.

قال عليه السلام: «لِمَ تمنع أمتي عن القرآن؟» قال عند قراءتهم أذوب كالرصاص.

قال عليه السلام: «لِمَ تمنع أمتي عن الجهاد؟» قال: إذا خرجوا إلى الجهاد يوضع على قدمي قيد حتى يرجعوا، وإذا خرجوا إلى الحج أسلسل وأغلل حتى يرجعوا، وإذا هموا بالصدقة توضع على رأسي المناشير فتشترني كما ينشر الخشب<sup>١</sup>.

أقول: الظاهر أن الحمى والصمم، والعمى، والذوب، والقيد، والتغلغل، والتششير، جميعها كنايةات

عن حالات سيئة وآلام شديدة تعرض للشيطان عند اشتغال العبد بهذه العبادات لكمال اشغرازه عنها.

ونقل أنه من استعاذ بالله على وجه الحقيقة وعن صميم القلب، جعل الله بينه وبين الشيطان ثلاثمائة حجاب، كل حجاب كما بين السماء والأرض<sup>١</sup>.

وقيل: إن التعوذ بالله رجوع من الخلق إلى الخالق، ومن الحاجة التامة التي تكون للنفس إلى الغنى التام بالحق، ومن العجز إلى القدرة في كل الخيرات، واكتساب البركات، ودفع جميع الشرور والآفات، ففيه سر قوله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾<sup>٢</sup>.

ومن الواضح أن لكثرة فوائد الاستعاذة كثرت الروايات في الترغيب إليها عند الشروع في كل أمر من الأمور الدينية والأعمال الخيرية التي من أهمها تلاوة القرآن العظيم والكتاب الكريم.

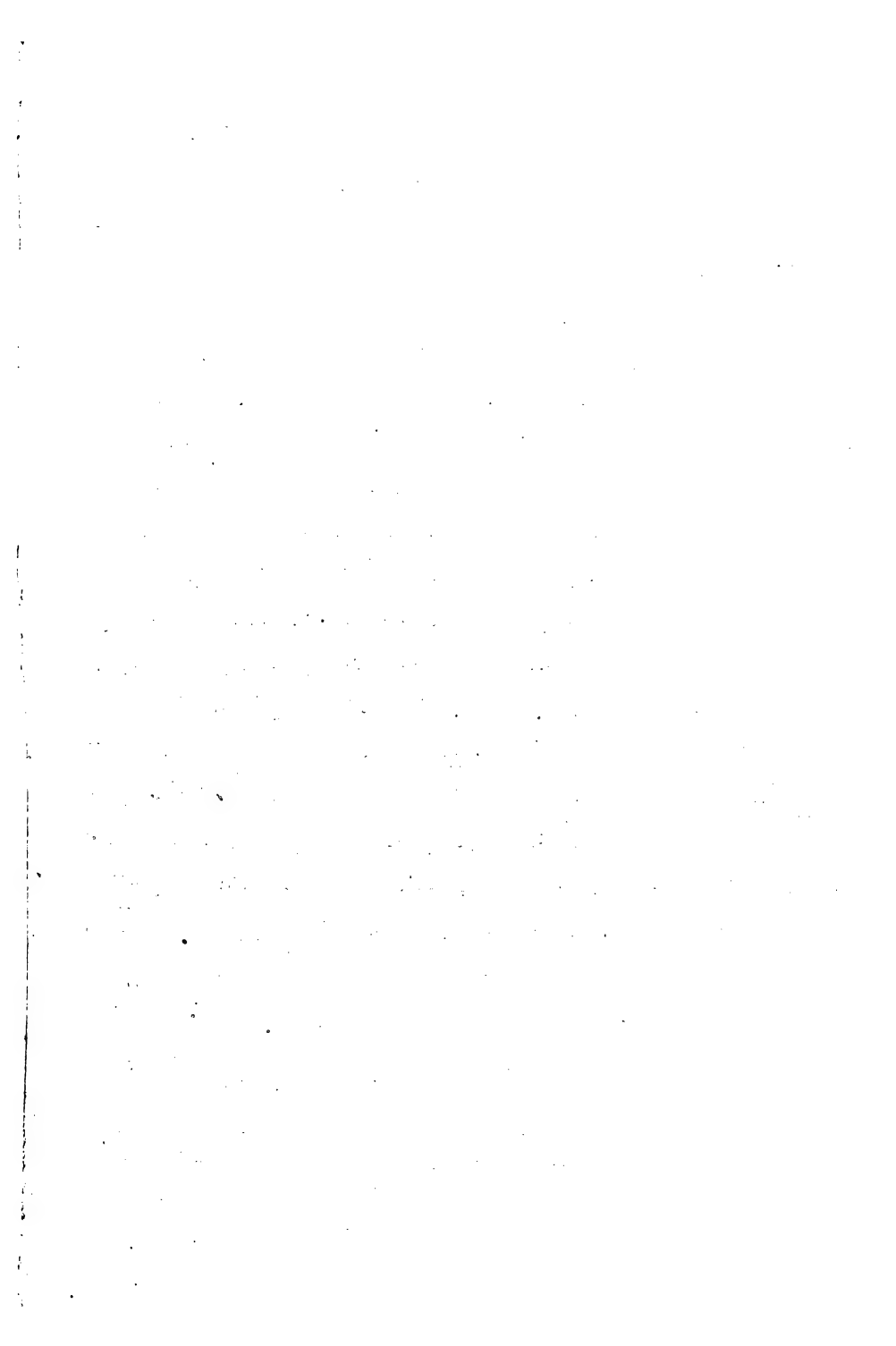
قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾<sup>٣</sup> فإن التأدب بأدب الله مؤد إلى الفلاح الدائم والسعادة اللازمة، ثم إنه بعد ما التجأ العبد إلى الله تعالى بالجنان واللسان، وتمكن في حصن الرحمن، وامتنع من مكائد الشيطان، وحصل له الأمان، ينبغي أن يستمد من ربه، ويقتبس نوراً لقلبه، حتى يقوى على العمل، ويفوز بما رجاه وأمل من غير ملل ولا فتور ولا كسل، بل بحضور القلب والانسياط، وكمال الشوق والنشاط، وطمانينة النفس وانسراح الصدر، وليس ذلك إلا بذكر الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾<sup>٤</sup> فإن بالذكر بعد الاستعاذة تحصل نورانية معنوية للروح، كما أن به تحصل طهارة ظاهرية جسمانية للحيوان المذكّي، وترتب الذكر على الاستعاذة من جهة تأخر رتبة التخليّة على التخليّة، والإقبال على الله على الانقطاع عما سواه، إذ إنه ليس للمؤمن حال يكون فيه أقرب إلى الله من حال يكون ذاكرة.

١. تفسير روح البيان ١: ٥.

٢. تفسير روح البيان ١: ٥، والآية من سورة الذاريات: ٥١/٥٠.

٣. النحل: ١٦/٩٨.

٤. الرعد: ٢٨/١٣.



## فِي تَفْسِيرِ

### ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام «أنه مكتوب في التوراة التي لم تُغيّر: أن موسى سأل ربه، فقال: يا رب أقرب أنت مني فأناجيك، أم بعيداً فأناذك؟ فأوحى الله عز وجل [إليه]: يا موسى أنا جليس من ذكرني<sup>١</sup>. ولما كان الكفار والمشركون يبدؤون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات والعزى، فعلم الله المؤخدين أن يقولوا عند شروعهم في أمر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾». قيل: إن الله تعالى افتتح كتابه الكريم بأول ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، وأول ما نزل على آدم<sup>٢</sup>. وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «أول كل كتاب نزل من السماء ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»<sup>٣</sup>. وعن الرضا عليه السلام: في تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ قال: «يعني أَسِم [على] نفسي بِسْمِ من سمات الله، وهي العبادة» قيل له: ما السمة؟ قال: «العلامة»<sup>٤</sup>.

تحقيق بالتفكير أقول: توضيح ذلك أن حقيقة العبودية وهي الفناء والعجز والحاجة والتبعية والانقياد، فيه حقيق وهي علامة الربوبية التي هي كمال الوجود والوجوب والغنى والجود والسلطنة والمولوية، فإذا حصل في العبد نور العبودية، ظهرت فيه آية الربوبية، فمن سَم نفسه بِسْمِ العبودية - وهي حالة العجز والحاجة والرجاء والفقر والعدم والفناء - فقد سَم نفسه بِسْمِ الله، حيث إن المخلوق ليس من جهة نفسه وذاته إلا العدم والقابلية لقبول فيض الحق وفعله وعطائه وإنعامه، ويُعتبر عن هذه الحيثية بالذات والماهية، وما سواها ليس إلا فيض الوجود وهي آية الحق وتجليه. وكما أن جهة ذاته جهة الأنانية، ومناط الاحتياج، ومبدأ كل شر، يكون فيض الوجود - وهو جهة الربوبية - مبدأ كل خير، فكلما اشتدت فيه هذه الجهة كملت الذات وكثرت منها الخيرات، لأن كل خير من آثار الوجود الذي هو بإفاضة الله وجوده، فعلى العبد أن يسأل حين إرادة القيام بوظائف

١. عبون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢٧/٢٢٨ «نحوه»، الكافي ٢: ٤/٣٦٠ عن الباقر عليه السلام. ٢. تفسير روح البیان ١: ٦.

٣. الكافي ٣: ٣١٣/٣. ٤. معاني الأخبار: ١/٣.

العبودية من التلاوة وسائر الطاعات، كمال وجوده وقوة نفسه، بقوله بقصد الإنشاء والدعاء: «أَسْمُ

نفسِي بِسْمَةِ اللَّهِ، أَيِ اللَّهِ أَعْلَمُ نَفْسِي بِغَلَامَتِكَ، وَأَكْمِلُ فَيْضَ الْوُجُودِ فِيْ بِجُودِكَ وَفِيْاضَتِكَ.

وهذا السؤال والطلب ملارم للاستيعانة ومساو لها، كما أن إفاضة الفيّاض عليه إجابة منه وإعانة، فتكون الاستيعانة باسم الله مدلولاً التزامياً لقوله: أَسْمُ نَفْسِي بِسْمَةِ اللَّهِ.

ولعله لكون مفهوم الاستيعانة أقرب إلى أفهام العامة، فسر «بِسْمِ اللَّهِ» في بعض الروايات بقوله: أَسْتَعِينُ بِاللَّهِ<sup>١</sup>، ثم يمكن على هذا التفسير أن يكون وجه تعليق الاستيعانة بالاسم مع أنها في الواقع بالمُسَمَّى، وهو ذاته سبحانه وتعالى، أن فيه نوع تأدّب في التعبير، أو الإشارة إلى أن أسماء الله تعالى من جهة حكايتها عن الذات المقدسة وأحادها معها اتحاد الكايف مع المكشوف، لها قوة نورانية وكمال وجودي به تكون مؤثرات في الوجود، وكفي العبد أن يستعين بها ويطلب القوة على العمل بذكرها.

وعن (التوحيد): عن الباقر عليه السلام في تفسير لفظ الجلالة، قال: «الله معناه المعبود الذي أَلِهَ الْخَلْقُ عَنْ دَرْكِ مَا هَيْتِهِ وَالْإِحَاطَةَ بِكَيْفِيَّتِهِ، وَيَقُولُ الْعَرَبُ: أَلِهَ الرَّجُلُ، إِذَا تَحَيَّرَ فِي الشَّيْءِ فَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْماً. وَوَلَّهَ إِذَا فَرَعَ إِلَى شَيْءٍ مِّمَّا يَحْذَرُهُ وَيَخَافُهُ»<sup>٢</sup>.

وروي أن رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ما معناه؟ فقال: «إِنَّ قَوْلَكَ: اللَّهُ أَعْظَمُ [اسم] من أسماء الله عز وجل، وهو الاسم الذي لا يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بِهِ غَيْرُ اللَّهِ، وَلَمْ يَسْمُ بِهِ مَخْلُوقٌ».

فقال الرجل: بما يفسر قوله: الله؟ قال عليه السلام: «هو الذي يَتَأَلَّهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشَّدَائِدِ كُلُّ مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ جَمِيعٍ مِنْ [هو] دُونِهِ»<sup>٣</sup> الخبر.

في أن اسم الجلالة أقول: وإن كان الظاهر من الروايتين أن معنى اللفظ المبارك معنى اشتقاقياً إلا أن الحق عليم لذاته تعالى أنه عليم للذات المقدسة، لعدم استيعماله وصفاً، بل هو في جميع الاستيعمالات يكون موصوفاً، ولعدم صراحة دلالة كلمة الإخلاص - وهي: لا إله إلا الله - على التوحيد إلا إذا كان لفظ الجلالة علماً، ولبعد أن يكون للذات المقدسة في سائر اللغات علم مخصوص دون اللغة العربية التي هي أوسع من سائر اللغات وأكملها وأشرفها.

وعلى هذا فلا بد من حمل الروايات على بيان وجه مناسبة المعاني الاشتقاقية لوضعه العليم، وإن

الواضح كان هو الله تعالى أو غيره لاحظ حين الوضع العلمي هذه المناسبات، وإن كل واحد من المعاني الاشتقاقية الكلية حقيقتها ومصادقها منحصرون في الذات المقدسة، حيث إن المعبودية المطلقة والمقرّنة لجميع الموجودات حتى الجمادات لا يكون إلا له تبارك وتعالى، ولا يتصور لمُشرك أن يدّعي هذه المرتبة من المعبودية والألوهية لما اتخذ معبوداً والنهأ.

والحاصل: إن العبادة عبارة عن الخضوع التام، والقول بأن الصنم أو الكواكب أو غيرهما معبود لجميع الموجودات حتى الجمادات غير متصور من ذي مُسكّة وشعور، وأما الواجب تعالى فجميع ما سواه خاضع له، فازع إليه، ضارع لديه، سائل منه.

وتوضيحه أنه قد حقق في محله أن الوجود ملازم للشعور، وكل ماله حظ من الوجود، له بمقدار حظه حظ من الشعور، وكل ما كان حظه من الوجود أكثر كان حظه من الشعور أوفر، ويشهد لذلك ما يُشاهد من أثر الإدراك في كثير من النباتات فضلاً عن الحيوانات.

وأقل مراتب الشعور أن الموجود يدرك أنه معلول للعلّة، وموجود بالغير، وإدراك هذه الجهة مقتضى لنهاية الخضوع لعلته وموجده، والآيات والروايات ثوابتنا على أن للجمادات تسبيحاً وخوفاً وتضرعاً إلى الله، بل لها معرفة وطاعة للنبي والولي.

فعلى هذا، فجميع الموجودات متوجهون إلى خالقهم، خاضعون له، سائلون فيضه ودوامه، خائفون من انقطاعه، فهو المعبود المطلق، والمقرّع لجميع الموجودات، والمألوه لجميع المخلوقات عند الشدائد والحاجات، وهو المحجوب عن إدراك الممكّنات، المستور عن العقول بحقيقة الذات وكُنّه الصفات.

ويؤيد ما ذكرنا من حمل الروايات أنه لولاه يلزم استعمال المشترك اللفظي في أكثر من معنى، أو إرادة بيان أن لمُسْتَعْمِل لفظ الجلالة أن يريد منه كل واحد من المعاني المختلفة، والأول محال، والثاني بعيد غايته.

وفي رواية (التوحيد) المتقدم صدرها في تفسير «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» قال عليه السلام: «الذي يرحم بَسْطُ الرِّزْقِ علينا، الرَّحِيمُ بنا في أدياننا وديننا وآخرتنا، خَفَّفَ علينا الدين، وجعله سهلاً خفيفاً، وهو يرحمنا بتمييزنا عن أعاديهِ»<sup>١</sup>.

وفي رواية أخرى: «الرَّحْمَنُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَالرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً»<sup>٢</sup>. أقول: لا ريب أن هذين الاسمين المباركين بحسب اللغة صفتان مُشبهتان من الرحم: وهو التعطف



إلى الغير بالإحسان إليه، ودَفَع المَضَار عنه، الناشيء عن مبدأ في الذات، كان هو الرِّقَّة أو الحكمة، والظاهر أنه لا وَجْه لتخصيصه بِرِقَّة القلب حتَّى يكونَ معناه الحقيقي مُتَخَصِّصاً بِالْمَخْلُوقِينَ، ويكون إطلاقهما على الله مجازاً.

ولعلَّه دلالة (الرحمن) بهيئته على المُبالغة والشِّدَّة دلَّ على الرَّحمة العامَّة الشاملة لجميع الموجودات من الخلق والرِّزق وسائر الإِنعامات، فجميع الموجودات في جميع العوالم من المَلَك والمَلَكُوت والْبَرَزْخ والآخرة، وجودها ويقاؤها بِشُمُول الرَّحمة الرَّحمانية.

وأما (الرَّحِيم) فلعلَّه لعدَم دلالة على المُبالغة والشِّدَّة، اختَصَّ بِالرَّحمة الخاصَّة بالمؤمنين من الهداية إلى الحقِّ والتوفيق للإيمان والأعمال الصالحة وحُسن العاقبة والجنَّة والنِّعَم الأخرَوِيَّة الدائمة، ولتقدِّم الرَّحمة العامَّة على الرَّحمة الخاصَّة قدَّم اسمَ الرَّحمن على الرَّحيم، وإن اقتضت إفادة الشِّدَّة تأخره عنه لتأخُّر مرتبة الشِّدَّة عن الضَّعْف.

في نكتة الاختصار ولعلَّ وجه الاختصار في المقام على ذِكْر الأسماء الثلاثة المُباركات جامعيتها لجميع في البسملة بذكر الخيرات والبركات، حيث إنَّ اسمَ الجَلالة مبدأ فَيُضِ الخَلْق والإِيجاد، واسم الرَّحمن مبدأ فَيُضِ التَّربِيَّة والنِّعَم الدنيويَّة، واسم الرَّحيم مبدأ فَيُضِ الهداية والتوفيق وسائر التَّفَضُّلات الأخرَوِيَّة على المؤمنين.

قيل: إنَّ لله تعالى ثلاثة آلاف اسم، ألف منها عرفها الملائكة لا غير، وألف منها عرفها الأنبياء لا غير، وثلاثمائة في التَّوراة، وثلاثمائة في الإنجيل، وثلاثمائة في الزُّبور، وتسعة وتسعون في القرآن، وواحد استأثر الله به نفسه، ومعنى هذه الثلاثة آلاف مُتَطَوِّية في هذه الأسماء الثلاثة، فمن عَلِمَها وقالها فكأنَّما ذكَّر الله تعالى بِكُلِّ أسمائه<sup>١</sup>.

وروي عن النبي ﷺ في فضيلة هذه الآية المباركة، أنه قال: «ليلة أُسري بي إلى السَّماء عَرَضَ عليَّ جميع الجنان، فرأيتُ فيها أربعة أنهار: نهرًا من ماء، ونهرًا من لبن، ونهرًا من خَمَرٍ، ونهرًا من عَسَل. فقلتُ: يا جَبْرِئِيل، من أين تجيىء هذه الأنهار وإلى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر، ولا أدري من أين تجيىء، فادع الله تعالى لِيُعَلِّمَكَ، أو يُرِيكَ. فدعا ربِّي، فجاء مَلَكٌ فسَلَّمَ على النبي ﷺ ثم قال: يا محمد، غَمِضْ عينيك. قال: فغَمَضْتُ عيني، ثم قال: افتح عينيك، ففتَحْتُ فإذا أنا عند

شَجَرَةٌ ورأيت قُبَّةً مِنْ دُرَّةٍ بِيضاء، ولها بَابٌ مِنْ ذَهَبٍ أَحْمَرٍ وَقَفْلٌ، لو أَنَّ جميع ما في الدُّنْيَا مِنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ وَضِعُوا عَلَى تِلْكَ القُبَّةِ لَكَانُوا مِثْلَ طَائِرٍ جَالِسٍ عَلَى جَبَلٍ، فرأيت هذه الأنهار الأربعة تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ القُبَّةِ. فلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ قال لي ذاك المَلِكُ: لِمَ لَا تَدْخُلُ القُبَّةَ؟ قُلْتُ: كَيْفَ أَدْخُلُ وَعَلَى بابِها قَفْلٌ لَا مِفْتَاحَ لَهُ عِنْدِي. قال: مِفْتَاحُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنَ القَفْلِ وَقُلْتُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» انْفَتَحَ القَفْلُ، فَدَخَلْتُ فِي القُبَّةِ، فرأيت هذه الأنهار تجري من أربعة أركانِ القُبَّةِ، ورأيت مكتوباً على أربعة أركانِ القُبَّةِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ورأيت نَهْرَ الماءِ يَخْرُجُ مِنْ مِمْ بِسْمِ اللَّهِ، ورأيت نَهْرَ اللَّبَنِ يَخْرُجُ مِنْ هَاءِ اللَّهِ، وَنَهْرَ الخَمْرِ يَخْرُجُ مِنْ مِمْ الرَّحْمَنِ، وَنَهْرَ العَسَلِ يَخْرُجُ مِنْ مِمْ الرَّحِيمِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ أَصْلَ هذه الأنهار الأربعة مِنَ البِسْمَلَةِ. فقال الله عز وجل: يا مُحَمَّدُ، مَنْ ذَكَرَنِي بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنْ أَمَتِكَ بِقَلْبٍ خَالِصٍ مِنْ رِيَاءٍ، وَقَالَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» سَقَيْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ.<sup>١</sup>

في بيان فضيلة <sup>عليه السلام</sup> وروي عن النبي <sup>صلى الله عليه وآله</sup> عن جَبْرِئِيلَ، عَنْ مِيكَائِيلَ، عَنْ إِسْرَافِيلَ <sup>عليه السلام</sup>: قال الله تعالى: «يا إِسْرَافِيلُ، بَعْزْتِي وَجَلَّالِي، وَجُودِي وَكَرَمِي، مَنْ قَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» مُتَّصِلَةً بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ مَوْءَةً وَاحِدَةً، فَاشْهَدُوا عَلَيَّ أَنِّي قَدْ غُفِرْتُ لَهُ، وَقَبِلْتُ مِنْهُ الْحَسَنَاتِ، وَتَجَاوَزْتُ لَهُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَلَا أُحْرِقُ لِسَانَهُ بِالنَّارِ، وَأُجِيرُهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ وَعَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْفَرْعُ الْأَكْبَرُ»<sup>٢</sup>. ثَوَّلَ عَنْ عَارِفٍ أَنَّهُ كَتَبَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وَأَوْصَى أَنْ يُجْعَلَ فِي كَفِّهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِلَهِي، أَنْزَلْتَ كِتَاباً وَجَعَلْتَ عُنْوَانَهُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَعَامِلِنِي بِعُنْوَانِ كِتَابِكَ<sup>٣</sup>.

ففي البسملة مآثر صفات الحُبِّ والحَيَاءِ والرَّجاءِ والخَوْفِ التي هي أصولُ التَّقْوَى والعبودية، ولا ينفكُ العابدُ مِنْ أَحَدِ هذه الأحوالِ.

وقيل: إِنَّ البِسْمَلَةَ تِسْعَةٌ عَشَرَ حَرْفاً، والزَّيْنَةُ تِسْعَةٌ عَشَرَ، فالْمَرْجُوُّ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَدْفَعَ بَلِيَّتُهَا بِهَذِهِ الْحُرُوفِ التَّسْعَةِ عَشَرَ<sup>٤</sup>.

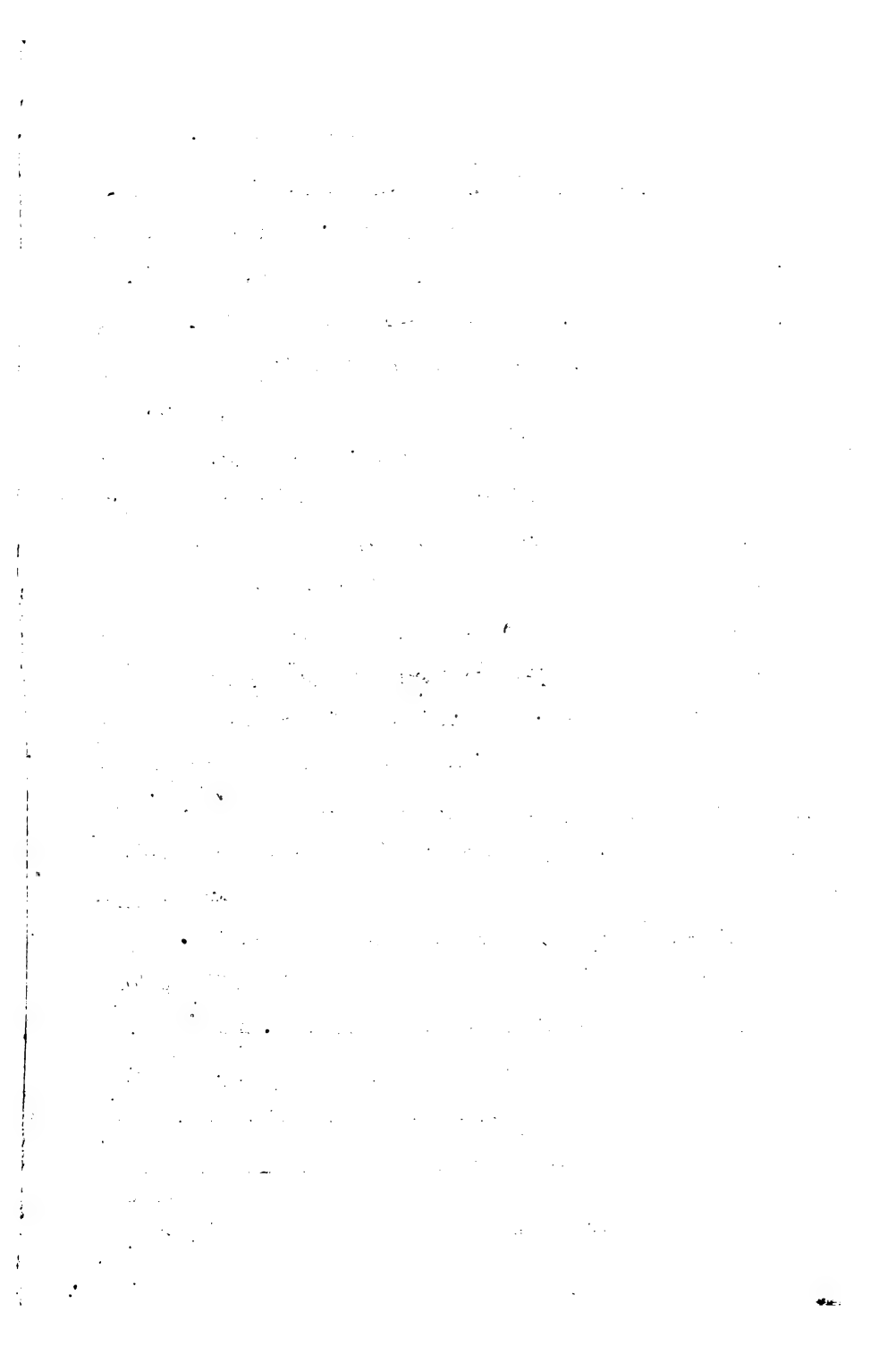
روي أَنَّهُ لَا يُرَدُّ دَعَاءُ أَوَّلِهِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» الْخَبَرُ<sup>٥</sup>.

٣. تفسير الرازي ١: ١٧٢.

٥. تفسير روح البيان ١: ٩.

١. ٢. تفسير روح البيان ١: ٩.

٤. تفسير الرازي ١: ١٧٢ «نحوه».



## في تفسير فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \*  
 مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ \* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ \* أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \*  
 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [١-٧]

ثم شرع في الكتاب بقوله: ﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الجميل - بجنسه أو بجميع أفراده، وتَمَام مَرَاتِبِهِ وأنواعه من القولي والقلبي، والحالي والأفعالي - خاص ومُلك ﴿الله﴾ لا شريك له فيه، لاختصاصه بحسن الفعل من جميع الجهات، ليس فيها شائبة القبح والنقص، فالقولي منه: هو إظهاره باللسان، والقلبي: هو استيعار القلب به، والحالي: هو الرضا بجميع ما يصدر منه تعالى، والأفعالي: هو القيام بطاعته وعبادته عن محبة وشوق ونشاط.

وأيضاً في تخصيص الحمد به تعالى إشعاراً بأنَّ حُسن أفعال مَنْ سواه راجع إليه تعالى، وحمد غيره على فعله يكونُ حمدَه، بل لا يجوز حمدُ غيره إلا بإذنه لأنه هو مستحقُّه ومالكه، ثم لا يمكن لأحدٍ حقَّ حمدِه لعدم إمكان إحصاء نعمائه والإحاطة بحقيقة حُسن أفعاله، ولذا قال النبي ﷺ ليلة المعراج، لما أمره الله بالثناء عليه: «لا أحصي ثناءً عليك»<sup>١</sup>.

في بيان فضيلة      وفي افتتاحه تعالى كتابه المجيد بالبسملة والتحميد إشعاراً بأنه لا ينبغي الشروع في حمده تعالى      أمرٍ إلا بعد البسملة والحمد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَثَّنِي عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ: كُلُّ ذِي بَالٍ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فهو أبتَر<sup>٢</sup>.  
 وفي رواية: «كُلُّ أَمْرِ ذِي بَالٍ لَمْ يَبْدَأْ فِيهِ بِالْحَمْدِ لَهُ فَهُوَ أَقْطَعُ»<sup>٣</sup>.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٧/٢٥.

١. تفسير روح البيان ١: ١١.

٣. كنز العمال ١: ٢٥٠٩/٥٥٨.

وعن تفسير الإمام عليه السلام: عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه سُئِلَ عن تفسيره، فقال: «هو أن الله عَزَّ وَجَلَّ عِيَادَهُ بعضَ نِعَمِهِ عليهم جَمَلًا إِذْ لَا يَقْدِرُونَ على معرفة جَمِيعِهَا بالتفصيل لِأَنَّهُ أَكْثَرُ من أن تُحصى أو تُعرَف، فقال [إلهم]: قولوا: الْحَمْدُ لله على ما أَنْعَمَ به علينا»<sup>١</sup>.

وعدم ذِكْر ما يُحَمَدُ عليه في الآية، لِعَدَم الاحتِياج في المَقام، ثُمَّ وَصَف ذاته المقدَّسة بقوله: «رَبِّ الْعَالَمِينَ»: للإِشعار بعِلَّةِ اسْتِحْقاقه الحَمْدَ واختِصاصه به، وهو كونه مُرتَبِي جميع الكائنات والموجودات.

وفي (العيون) و(تفسير الإمام عليه السلام): عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «يعني مالك الجَماعات من كُلِّ مخلوق وخالِقهم وسائق أَرْزاقهم إليهم من حيث يَعْلَمُونَ ومن حيث لا يَعْلَمُونَ، يُقَلِّبُ الحيوانات في قُدْرَتِهِ، وَيَغْذُوها من رِزقه، وَيَحْطِئُها بِكفِّه، وَيُدَبِّرُ كُلَّها مِنْها بِمُضْلِحَتِها، وَيُمسِكُ الجَمادات بِقُدْرَتِهِ، [و] يُمسِكُ ما اتَّصل مِنْها من الثَّهاتِ، والمُتْهاتِ مِنَ الثَّلاثِ وَالسَّماءُ أن تَفْعَ على الأرضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، والأَرْضُ أن تَنْخَسِفَ إِلَّا بِأَمْرِه»<sup>٢</sup>.

قيل: إِنَّ الرَّبَّ هُنَا بِمعنى المَالِك. وقيل: إِنَّ المُرادَ بِالْعالمِينَ عَالَمُ المُلْك، وعالمُ الإنسِ وعالمُ الجِنِّ، وعالمُ الأفلاك، وعالمُ الثَّبات، وعالمُ الحيوان، وقد اختلفت الأخبار في عددِ العوالم.

نسي ذكر عدد عن الصَّدوق في (الخصال) أَنَّهُ روي عن الباقر عليه السلام أَنَّهُ ذَكَرَ في قولهِ تعالى: «يَبْلُغُهُمُ الْعِوَالِمُ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»<sup>٣</sup>: «إِنَّ اللهَ قَدْ خَلَقَ أَلْفَ أَلْفَ عَالَمٍ، وَأَلْفَ أَلْفَ آدَمَ، وَنَحْنُ فِي آخِرِ الْعوَالِمِ وَآخِرِ الْأَدَمِيِّينَ»<sup>٤</sup>.

تُقالُ عن الهيئة الجديدة التي أَسَّسها أَهْلُ الإِفْرَنْجِ أَنَّ كُلَّ كَوَكِبٍ مِنَ الكواكبِ السَّيَّارةِ، غيرِ القمرِ والشمسِ، أرضٌ كأَرْضِنا تَدورُ حَولَ الشمسِ، والشمسُ كالمَرْكَزِ لَها، وَزادوا على السَّيَّاراتِ المعروفةِ سَيَّارَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ تُسمَّى إِحداهما أورانوس والأخرى نبتون.

وَيُقالُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا سَيَّاراتٍ صِغاراً كَثيرةً يَمْتَنِعُ إِدراكُها إِلَّا بِالآلاتِ المُعَدَّةِ لِهَذا الشَّأنِ، واعتقدوا [أَنَّ] كُلَّ واحِدٍ مِنَ السَّيَّاراتِ الأوَّلِ ثمانية أَعمارٍ وأَقَلُّ إلى واحِدٍ، تَدورُ تلكُ الأَعمارُ على تلكِ

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١١/٣٠.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/٢٨٢، ٣٠/١١، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ١١/٣٠، تفسير الصافي: ١/٧١.

٣. سورة ق: ١٥/٥٠. ٤. الخصال: ٥٤/٦٥٢.

الأراضي، كما أنَّ لأرضنا هذه قمراً يخصها، وأنَّ لكلِّ كوكبٍ من الكواكب الثابتة شمساً كشمسنا هذه في فضاءٍ غير مُتناهٍ مع اختلافها في القُرب من شمسنا والبُعد منها، وكلّما كان أبعد كان جُزؤه في أبصارنا أصغر، فاستظهروا من ذلك أنَّ لكلِّ كوكبٍ منها أراضي كألأراضي التي لشمسنا هذه، وحيثُ تكون الأراضي خارجة عن حدِّ الإحصاء، والله تعالى ربُّ جميعها.

فظهر أنَّ معنى هذه الكلمة وحقيقتها شاملٌ لجميع الموجودات، محيطٌ بها، مُعطٍ لكمالها، ولكون مرتبة هذا الاسم المبارك تحت مرتبة اسم الجلالة، لكونه مظهر الآثار الألوهية، قرّنه به في الآية وأخره عنه في الذكر، ولدلالته على أنَّ كلَّ خيرٍ منه تعالى، ودفع كلِّ شرٍّ إليه، كان فيه غاية التأثير في تهيج حُبِّ العارفين، وتحريك رجاء الرّاجين، ولهذا السرّ كان ثناؤه تعالى في الأدعية بهذا الاسم المبارك أكثر من ثنائه بسائر الأسماء، ومن عرفه بالربوبية وعرف نفسه بالربوبية المطلقة من كلِّ وجهٍ واعتبار، عرف ما يُناسب شأنه من الذلّة والاستكانة، وقام بوظائفه من الطاعة والعبادة.

ثمّ لما كان مجال توهم القاصرين أن يكون تربيته للممكنات كترية الأجرام الفلكية والمؤثرات الكونية بغير إرادة واختيار وحكمة ولحاظ صلاح، أشار بتوصيف ذاته المُقدّسه بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ إلى أنَّ تربيته العامة بمبدأ صفة الرحمانية. ويقول: ﴿الرَّحِيمُ﴾ إلى أنَّ تربيته الخاصة للنفوس القابلة وتكملها بمبدأ صفة الرحيمية، ومن الواضح أنَّ هاتين الصفتين مُلازمتان للعلم والاختيار والارادة والحكمة.

وقيل: إنَّ تكثّر تكرار هذين الاسمين هي كمال مدخليتهما في استحقاق الحمد، أو شِدّة الاهتمام ببسْطِ رجاء العباد إلى رحمته.

وفي حديث معراج النبي ﷺ في عالم الملكوت: «ثمّ قال له: احمّدي. قال: الحمد لله ربّ العالمين، فقال النبي ﷺ: [في نفسه] شكراً، فقال الله تعالى يا محمّد، قطعْتَ حمّدي فسمِّ باسمي، فمن أجل ذلك جعل في الحمد ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ مرّتين<sup>١</sup>.

أقول: لعلَّ وجه كون الشكر قاطعاً للحمد أنَّ في الشكر التوجّه إلى النعم، وهو مُلازمٌ للتوجّه إلى النفس، وليس في الحمد إلّا التوجّه إلى مقام الألوهية والربوبية، فلزم تكرار اسم الحقّ سبحانه، وحضّر التوجّه فيه، وإنهاء ملاحظة النفس.

ثم وَصَفَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لتكميل النفوس بعد إيقاظها بالرجاء بإنعاشها بالخوف بتبنيها بالسلطنة المطلقة في يوم الحساب والجزاء، وأنه الحاكم فيه ليس لغيره فيه حكم وسلطان كما كان لغيره في الدنيا بظواهر الأنظار.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «يعني القادر على إقامته، والقاضي فيه بالحق والدين والحساب»<sup>١</sup>.  
وقيل: إن في هذه الآية إشعاراً بأن الحمد علّة تلي الرحمة في الدنيا والآخرة، ويؤيده ما روي من أن آدم لما نفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، وأجيب: يرحمك ربك، ولذلك خلقتك<sup>٢</sup>.

فدلّت الآيات الثلاث على أنه سبحانه منبع الخلق ومبدأ الوجود، وبقيضه وإرادته تربية الكائنات، وتكميل الموجودات، وأن رجوع جميع الخلق إلى حكمه وأمره وسلطانه في الآخرة. فإذا تذكّر العبد هذه الصفات، وتأمّل في أن وجوده وتربيته وبقائه وتعيشه في الدنيا به تعالى، وارتقاه من خضيب الحيوانية إلى أعلى مدارج القرب وكمال الانسانية بلطفه سبحانه، وتفكر في أن مرجعه ومعه في الآخرة إلى حكمه تعالى وسلطانه، علّم أن من كان إحسانه إليه في زمان بُعِدَ عنه واحتياسه في عالم الطبيعة وانغماره في ظلمات الجهل والغفلة بمقدار لا يمكن عدّه ولا يدرك حُدّه، لا يمكن منع فيضه ولطفه وإحسانه وإنعامه حين وروده عليه ووفوره لديه.

فعند ذلك تتكامل معرفته، وتحيط بالقلب محبته، فيرتفع حجاب غفلته، وتتنور عين بصيرته، وتجلى أنوار جمال ملكه في ضميره، ويرى نفسه شاخصة بحضرته، فيعترف بالاخلاص في عبوديته، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولك خاصة نخضع وننقاد ونتذلّل.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «قال الله تعالى: قولوا يا أيها الخلق المنعم عليهم: إِيَّاكَ نَعْبُدُ أَيُّهَا الْمُنْعِمُ عَلَيْنَا، نُطِيعُكَ مُخْلِصِينَ مُؤَحِّدِينَ، مع التذلل والخضوع، بلا رياء ولا سمعة»<sup>٣</sup>.

وعن ابن عباس: أن جبرئيل قال للنبي ﷺ: قل يا محمد: إِيَّاكَ نَعْبُدُ. أي إِيَّاكَ نأمل ونرجو ولا غيرك<sup>٤</sup>.

وفي رواية عامية عن الصادق عليه السلام: «يعني لا نريد منك غيرك، ولا نعبدك بالعيوض والبذل كما

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٤/٣٨، تفسير الصافي ١: ٧١.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٤ «نحوه».

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٥/٣٩، تفسير الصافي ١: ٧١.

٤. تفسير روح البيان ١: ١٧.

يَعْبُدُكَ الْجَاهِلُونَ بِكَ الْمُتَعَبِّينَ عَنْكَ<sup>١</sup>.

أقول: الظاهرُ أنَّ المراد من قوله: «لا نريد منك غيرك»، أنه لا نريد بعبادتك تَنَلَّ مطلوبٍ من نِعَمِ الدُّنْيَا أو ثَوَابِ الآخِرَةِ، ولا دَفْعَ مكروهٍ صوريٍّ أو معنويٍّ، ذُبُوبٍ أو أُخْرُوبٍ، بل نريد بها أداءَ حَقِّكَ حيثُ إنَّكَ مستَحِقٌّ لها بوجوب الذات وكمال الصفات والنُّعم السابغات، وهذه هي العبادة الحقيقية، وغيرها من سائر الغايات المنظورة هي عبادةٌ غيره، والتعبير بصيغة مع الغير لإدراج عبادته في عبادة الحَقِّظَةِ أو حاضري صلاة الجماعة أو سائر العبادات المُوَحَّدِينَ المُخْلِصِينَ، استِحْقاقاً لعبادة نَفْسِهِ وإشعاراً بأنَّ عبادته غير قابلة بأنْ تُذكر أو يُنظر إليها إلا بِتَبَعِ عبادة المُخْلِصِينَ.

ثمَّ لَمَّا كَانَ العبد مخلوقاً من الضَّعْف، فلا قُوَّةَ له على العَمَلِ إلا بِحَوْلِ تعالى، ولا حَوْلَ له إلا بِعَوْنِهِ، ولا يَرْجى منه خيرٌ إلا بِتَسْدِيدِهِ وتوفيقه، وكان في إسناد العبادة إلى نَفْسِهِ إيهامُ العجب بقدرته واستِقلاله في فِعْلِهِ وعَمَلِهِ، أمرُ بأنْ يسأل الإعانة من الله عليها، بقوله: ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتِكَ وعبادَتِكَ والعَمَلِ بِمَرْضَاتِكَ، وعلى دَفْعِ شُرُورِ أعدائك وردِّ مكائِدِهِمْ، وتَخْصِيصِ الاستِيعانة به نتيجة التوحيد ومعرفة رُبوبيَّةِ تعالى ومربوبية نَفْسِهِ، حيثُ إنَّ فيه إشارةً إلى أنَّه القَادِرُ الْمُطْلَقُ، وأنَّ قُدْرَةَ غيره مُتَنَهِيَةٌ إليه، وأنَّه الكافي لِجَمِيعِ ما سِوَاهُ، ولا كافيٍّ غيره، وفي إدخال استِيعانِهِ في ضَمَنِ استِيعانة المُوَحَّدِينَ استِيجَابَ بَرَكِهِمْ.

ثمَّ لَمَّا كَانَ أَهَمُّ المَقاصِدِ وأعظَمُها هو الهداية إلى عباداتٍ مُوصِلَةٍ إلى رِضوانِهِ، مُحْصِلَةٍ لِلسَّعادات الأبدية من قُربِهِ وجَنانِهِ، خَصَّ طَلَبَ الإعانة بها، فكأنَّه قال تعالى: كيف أَعِينُكَ فيقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ودَلَّنَا على التُّهَجِ الحَقِّ القَوِيمِ.

نبي ذكر معني عن (تفسير الإمام): عن الصادق صلوات الله عليه: «يعني أرشدنا ليلزوم الطريق الصراط والجمع المؤدِّي إلى محبتك، والمبلغ إلى جنتك، والمانع من أن نبتع أهواناً فتَغْطَبَ، أو أن بين الأخبار نأخذُ بآرائنا فنَهْلِكَ<sup>٢</sup>».

وعن (المعاني) عنه عليه السلام: «هي الطريق إلى معرفة الله، وهما صيرطان: صراطٌ في الدُّنْيَا، وصراطٌ في الآخرة، فأما الصِّراطُ في الدُّنْيَا فهو الإمام المُفْتَرَضُ الطَّاعَةُ، مَنْ عَرَفَهُ في الدُّنْيَا واقتدى بهداه مَرَّ على

١. تفسير الصافي ١: ٧٢.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٠/٤٤، تفسير الصافي ١: ٧٢.



الصُّرَاط - الذي هو جِسْرُ جَهَنَّمَ - في الآخرة، وَمَنْ لم يَعْرِفه في الدُّنْيَا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنِ الصُّرَاطِ فِي الآخِرَةِ فَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ<sup>١</sup>.

وفي رواية أخرى: «نحن<sup>٢</sup> الصُّرَاطُ المُسْتَقِيم»<sup>٣</sup>.

وفي أخرى: «الصُّرَاطُ المُسْتَقِيم: هو أميرُ المؤمنين عليه السلام ومعرفته»<sup>٤</sup> الخبر.

أقول: لعل وجه الجمع، أنَّ حقيقة الصُّرَاط والطريق المؤدِّي إلى رِضْوَانِ اللَّهِ هي الشريعة المقررة المُركَّبة من العقائد الحقَّة، والمعارف الإلهيَّة، والأعمال الصالحة، والأخلاق المرصِيَّة، والهداية إليها في هذا العالم لها أنحاء، أظهرها وأجلها بحسب العادة هو الهداية إليها بوسيلة هادٍ من جنس بني آدم وهو النبي والإمام، بل الهداية إليهما هي الهداية إليها، إذ لو كان للشريعة المُطَهَّرة صورة مجسَّمة لكانت هي الإنسان الكامل، وهو الإمام والحجَّة، إذ هم المُبَيَّنون بكلامهم وأخلاقهم وأعمالهم حقيقة الدِّين والشرع المتين بهداية العبد إلى الدِّين [و] تعريفه إيَّاهم، فَمَنْ كان بهم أعرف كان إلى الصُّرَاط أهدى، فمعرِفَتُهُمْ عَيْنُ معرفَةِ الصُّرَاط، والمقتدي بهم مارٌّ عليه في الدُّنْيَا والآخرة وَمُنْتَهَى إلى رِضْوَانِ اللَّهِ، واصلٌ إلى الجنة ونعيم دار القرار، والمتخلف عنهم زالٌّ عن الصُّرَاط، وهارٍ في النار، ومن الواضح أنَّ هذه الهداية من أظهرِ شؤونِ الرُّبوبيَّة، وأجلِّ آثارِ صِفة الرِّحيميَّة.

ثمَّ اعلم أنَّ الهداية الحقيقية إليهم ليست بالاطلاع على الأدلَّة الدالَّة على إمامتهم وجوب اتباعهم وطاعتهم، بل تكون بالنور الَّذِي يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ بحيث يؤثر في مُلازمتهم والافتداء بهم وبتقوية القوة العاقلة بحدِّ يورث قَطْعَ التعلُّقات الجِسمانيَّة، وقمع الشَّهوات النفسانيَّة، والاستِغراق في ملاحظة أسرار الكمال ومطالعة أنوار الجلال.

روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَسَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ فَقَدْ ضَلَّ»<sup>٥</sup>. والظاهر أنَّ المراد من الظلمة ظلمة الجهل، ومن النور العلم والعقل.

ثم لا يذهب عليك أنَّ في الآية دلالة ظاهرة على نفْي الجبر والتفويض، وإثبات الأمرين،

١. معاني الأخبار: ١/٣٢، تفسير الصافي ٧٢: ١.

٢. في النسخة: عن.

٣. معاني الأخبار: ٥/٣٥، منابع المودة: ٤٧٧، تفسير الصافي ٧٣: ١.

٤. معاني الأخبار: ٣/٣٢.

٥. تفسير روح البيان: ١/٢٣.

حيث إن الظاهر من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُكَ﴾ أن الإرادة والعمل والقدرة من العبد، ومن قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُكَ﴾ أن الإعانة بالهداية والتوفيق من الله.

ثم أنه لما كان لإظهار فائدة المطلوب والمسؤول وتذكير مزار فواته تأثير عظيم في شدة حرص الطالب على الطلب، وتسهيل رحمة المطلوب منه في الإعطاء والإجابة، وصف الصراط وبينه بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وطريقة جماعة خصصتهم بكمال اللطف وتمام الفضل عليهم من العظمة عن الخطأ والزلل، والمعرفة بحقائق الأمور واليقين بالمبدأ والمعاد لنورانية طبيعتهم، وقوة عقولهم، وانسراح صدورهم، وهم النبيون، ثم الأوصياء، ثم الأولياء.

ثم وصف المهديين المتعم عليهم بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب خبث طبيعتهم وفساد عقائدهم وأعمالهم، للتعريض على أن الجاحدين للحق المعاندين له من اليهود والنصارى وأضرابهم في غضب الله، ويقول: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم الذين أعرضوا عن الحق لتقصيرهم وجهلهم من غير عناد كالنصارى الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾<sup>١</sup> وكالشاكين الذين لم يجهدوا في تحصيل معرفة الحق للتعريض على أنهم في ضلال.

عن الصادق، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: قَسَمْتُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فنصفها لي ونصفها لعبدي [ولعبدي] ما سألت، فإذا قال العبد: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال الله جل جلاله: بدأ عبدي باسمي، وحق علي أن أئتم له أموره، وأبارك له في أحواله.

وإذا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قال جل جلاله: حمدي عبدي، وعلم أن النعم التي له من عندي، وأن البلاء التي اندفعت<sup>٢</sup> عنه فبتطوُّلي، أشهدكم أنني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، وأدفع عنه بلاء الآخرة كما دفعت عنه بلاء الدنيا.

وإذا قال: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» قال الله جل جلاله: شَهِد لي بأنِّي الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، أشهدكم لأَوْفَرُ من نعمتي<sup>٣</sup> حظّه، ولأَجَزَلُ من عطائي نصيبه.

فإذا قال: «مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ» قال الله تعالى: أشهدكم كما اعترف بأنِّي أنا المَلِكُ يوم الدين،

١. المائدة: ٨٢/٥. ٢. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: دفعت.

٣. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: رحمتي.

لَأَسْهَلَنُ يَوْمَ الْحِسَابِ حِسَابَهُ، وَلَا قَبْلَنَ حَسَنَاتِهِ، وَلَا تَجَاوَزُنَّ عَنْ سَيِّئَاتِهِ.

فإذا قال العبدُ: ﴿إِنِّيَاكَ نَعْبُدُ﴾ قال الله عزَّ وجلَّ: صدَّق عبدي، إِنِّيَايَ يَعْبُدُ، أَشْهَدُكُمْ لَأَعِيبَنَّ عَلَى عِبَادَتِهِ ثَوَابًا يَغِيبُهُ كُلُّ مَنْ خَالَفَهُ فِي عِبَادَتِهِ لِي.

فإذا قال: ﴿وَأِنِّيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: بِي اسْتَعَانَ، وَإِلَيَّ التَّجَاءُ، أَشْهَدُكُمْ لَأَعِيبَنَّ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَأَعِيبَنَّ فِي شِدَائِهِ، وَلَأُخَذُّنَّ بِيَدِهِ يَوْمَ ثَوَابِهِ. فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَقَدْ اسْتَجَبْتُ لِعَبْدِي وَأَعْطَيْتُهُ مَا أَمَلَ، وَأَمَنَّتُهُ مِمَّا مِنْهُ وَجَلَّ<sup>١</sup>.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِبْلِيسُ رَزَّ رَتِينًا لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَحِينَ نَزَلَتْ أُمُّ الْكِتَابِ»<sup>٢</sup>.

قيل: إِنَّهَا أَوَّلُ سُورَةِ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ وَهِيَ:

## في تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم \* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ  
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [١ و ٣]

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قد مرّ تفسيره في أول الفاتحة، وتفسير:  
﴿الْم﴾ في طرفه بيان أظهر مصاديق المُتَشَابِهَات<sup>١</sup>.

ثم إن وجه النظم بين هذه السورة وسورة الفاتحة، أن في تلك السورة سؤال الهداية، وفي هذه  
السورة إجابته بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ القرآن المجيد هو ﴿الْكِتَابُ﴾ المعهود الذي بشر الأنبياء به أممهم،  
ووعدك الله يا محمد أنه منزله عليك.

عن (تفسير الإمام عليّ عليه السلام): «يعني القرآن الذي افشح به (الْم) هو ذلك الكتاب الذي أخبرت به موسى  
ومن بعده من الأنبياء، وأخبروا بني إسرائيل أنني سأنزله عليك يا محمد كتاباً عربياً ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ  
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾<sup>٢</sup> الخبر.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا مجال لشك يعتريه، إنه منزل من الله تعالى لظهور آيات الصدق فيه، فالشاك فيه  
كالشاك في ضوء الشمس إذا كانت في راحة<sup>٣</sup> النهار، ويكون الشك في قلبه لا في الكتاب.  
روي عن الصادق عليه السلام: «كتاب علي لا ريب فيه»<sup>٤</sup> فإن صدره الشريف مرآة اللوح المحفوظ.  
ثم وصف الله الكتاب بأنه ﴿هُدًى﴾ ودليل إلى الرشاد، وبيان من الضلالة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهم  
المُحْتَزِّزون<sup>٥</sup> عن العقائد الفاسدة والأعمال القبيحة العقلية، الطالون<sup>٦</sup> لمدارج التقوى.

١. راجع: الطرفه (١٨).

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٢/٦٢، والآية من سورة فصلت: ٤٢/٤١.

٣. في النسخة: رابعة. ٤. تفسير العياشي ١: ١٠٨/١٠٥.

٥. في النسخة: المحترزين. ٦. في النسخة: الطالين.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «الذين يتقون المؤيقات ويتقون تسليط السُّفَه على أنفسهم، حتى إذا عَلِمُوا ما يجب عليهم عَمَلُهُ، عَمِلُوا بما يُوجِبُ لهم رضا ربهم»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام أيضاً، قال: «هَذَيْنِ» بيان وشيْء للمُتَّقِينَ من شيعة مُحَمَّد وعليّ عليهما وآلهما السلام أَنَّهُمْ اتَّقَوْا أنواع الكُفْرِ فتركوها، واتَّقَوْا الذُّنُوبَ المؤيقات فرفضوها، واتَّقَوْا إظهار أسرار رسول الله ﷺ وأسرار أَرْكَيَاء عبادِهِ الأوصياء بعد مُحَمَّد ﷺ فَكَتَمُوهَا، واتَّقَوْا سَنَرِ العُلُومِ عَنْ أَهْلِهَا المستَحَقِّينَ لها، وفيهم نَشْرُوهَا<sup>٢</sup>.

نبي بيان مراتب الهداية أقول: هذا التفسير مُوَافِقٌ لما قيل من أَنَّ المُرادَ بالمتقين الكاملون في التَّقْوَى، فَإِنَّهُمْ الْمُتَّقِعُونَ به حَقَّ الانْتِفَاعِ ويتوصلون به إلى أعلى درجاته الذي يتلو مرتبة العصمة،

فلا يرد عليه أَنَّ هداية الكاملين في التَّقْوَى تحصيلُ الحاصل، وتوضيحُ الدَّفْعِ أَنَّ الهداية لها مُراتب ثلاثة: هداية عامة، وهي الهداية إلى الإسلام لجميع الناس، وهداية خاصة لأهلِ الإيمان إلى مرتبة التَّقْوَى، وهداية أَخَصَّ للكاملين في الإيمان والتَّقْوَى إلى مقام المُقَرَّبِينَ.

عن الصادق عليه السلام: «الْمُتَّقُونَ شِيعَتُنَا»<sup>٣</sup>.

أقول: لَأَنَّهُمْ عليهم السلام أَصُولُ شجرة التَّقْوَى، والدُّعَاءُ إليه، وشيعتهم فروع تلك الشجرة، والمُجِيبُونَ للدُّعَاءِ. ثُمَّ عَرَفَهُمُ الله بِأَنَّهُمْ «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» وَيُصَدِّقُونَ بما لَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ الظاهرة من التَّوْحِيدِ والبَعْثِ والحِسَابِ وَجْزَاء الأَعْمَالِ وقيام القائم المنتظر.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ الله عَنْهُمْ - في حديثٍ - قال: قال رسول الله ﷺ: «طُوبَى لِلصَّابِرِينَ فِي غَيْبَتِهِ، طُوبَى لِلْمُقِيمِينَ عَلَى مُحَبَّتِهِ»، أَوْلَئِكَ مَن وَصَفَهُمُ الله فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ»<sup>٤</sup> الخبير.

في بيان اختلاف مراتب اليقين واختلاف الأعمال باختلافها ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الإيمان الظاهري هو الإقرار باللسان، والحققي منه هو الاعتقاد القلبي واليقين الذي لَا يَسُوْهُ قَلْقٌ واضطراب وشكٌّ، فَإِنَّهُ مُقَابِلُ الرِّيبِ الذي هو الاضطراب في القلب، وَلَا رِيبَ أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ مُرَاتِبَ كَثِيرَةً ضَعْفًا وَشِدَّةً، وَأَعْلَى مُرَاتِبِهِ ما لَوْ كُشِفَ

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٢/٦٢.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٣/٦٧.

٣. تفسير العياشي ١: ١٠٥/١٠٨.

٤. في كفاية الأئمة: للمتقين على محبتهم.

٥. كفاية الأئمة: ٦٠، بحار الأنوار ٥٢: ٦٠/١٤٣.

الغطاء عن الموقنين ما ازداد يقيناً.

ولا شبهة أن العمل يختلف باختلاف مراتب اليقين، حيث إنه نورٌ ساطعٌ في القلب، سارٍ شعاعه إلى الجوارح، فيحسب انبثاث شعاعه ينفذ روح الإيمان في الأعضاء وتقوى وتتحرك للقيام بوظائفه، فينفوذ نور الإيمان وروحه في كل جراحة يظهر أثره فيه، فأثر إيمان القلب المعرفة والانقياد والخضوع، وأثر إيمان الدماغ التفكير والتدبر في آيات الله ودلائل المبدأ والمعاد، وأثر إيمان العين الغص عن المحرمات، والنظر إلى الآيات، وأثره في سائر الجوارح أداء كل جراحة وظيفتها.

نعم، بعض الأعمال يشترك فيه جميع الجوارح كالصلاة، ولذا سماها الله بالإيمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾<sup>١</sup> وأراد به الصلاة، ولذا خصها بالذكر بعد الإيمان بقوله: ﴿وَيُؤَيِّمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ويتمزنون لأدائها وحفظ أوقاتها وتعديل أركانها ورعاية فرائضها وسننها وآدابها.

ويمكن أن تكون الصلاة لكونها أهم الفرائض البدنية كناية عن جميع فرائضها في مقابل الفرائض المالية، أو تكون كناية عن جميع الأعمال التي يرجع صلاحها إلى عاملها من غير تعدد إلى غيره، ويكون قوله تعالى: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ومتعناهم به في الدنيا ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويتبدلون، كناية عن جميع الفرائض المالية، أو جميع الأعمال التي فيها صلاح الغير من بذل المال، وتعليم العلم، وإعانة الغير بالقوى البدنية والجاه، وغير ذلك مما يحتاج إليه غيره ويتفجع به.

عن الصادق عليه السلام: «وَمَا عَلَّمْنَاهُمْ يَتُونَ»<sup>٢</sup>.

وفي رواية: «وَمَا عَلَّمْنَاهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ يَتْلُونَ»<sup>٣</sup>.

والظاهر أن المراد أنهم يتلونه لغيرهم حتى يتعلموا، وقد جمعت الآيتان جميع الوظائف القلبية والجوارحية والمالية، فإن كلها من لوازم التقوى. قيل: إن هذه الآية نزلت في مؤمني العرب<sup>٤</sup>.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ \*  
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٥ و ٤]

٣. تفسير المقيمي ١: ٣٠.

٢. مجمع البيان ١: ١٢٢.

١. البقرة: ١٤٣/٢.

٤. تفسير روح البيان ١: ٤٠.

ثم بالغ في توصيفهم ومدحهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ وَيُصَدِّقُونَ تصديقاً حقيقياً لسانياً وَجَنَانِيّاً ﴿بِمَا أُنزِلَ﴾ من السماء متدرجاً ﴿إِلَيْكَ﴾ من القرآن وجميع أحكام شريعتك، أنه كلام الله، ودينه المَرْضَى عنده، وهذا الإيمان مُستلزمٌ للإيمان بالرسالة ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ من الكتب على سائر الأنبياء ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أن جميعها كانت حجةً من الله على أمتهم وإن نُسيخت.

ولعلَّ ذِكْرَ الإيمان بالكتب بعد الإيمان بالغيب، لتزيله منزلة الإيمان بالمحسوس لوفور دلائل صِدْقِهَا وَحَقَانِيَّتِهَا ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ والمعاد لجزاء الأعمال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لا يدخل في قلوبهم شك ولا ريب.

قيل: نزلت في مؤمني أهل الكتاب<sup>١</sup>، وتخصيصُ اليقين بالآخرة بالذكر مع كونه داخلياً في الإيمان بالغيب لكمالِ مَدَحِئِهِ في تكميل النفس واستقامة العمل، فإن ثَمَرَةَ اليقين بالآخرة الاستعداد لها. في أن المغرورين قيل: عشرة من المغرورين: من أيقن أن الله خالقه ولا يعبدُه، ومن أيقن أن الله رازقه عشرة ولا يطمئن به، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه ويجمع لهم، ومن أيقن أن الموت آتٍ ولا يستعده، ومن أيقن أن القبر مَرَزَلٌ ولا يعمره، ومن أيقن أن الدُّنْيَا يحاسبُه ولا يصحح حجته، ومن أيقن أن الصراط ممره ولا يخفف ثقله، ومن أيقن أن النار دارُ الفجَارِ ولا يهرب منها، ومن أيقن أن الجنة دارُ الأبرار ولا يعمل لها<sup>٢</sup>.

قال بعض: إن اليقين بالآخرة داعٍ إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يُورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب<sup>٣</sup>.

وفي الآية تعريضٌ على أهل الكتاب حيث إنهم يثبتون أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وإن قولهم به ليس عن إيقان، وإنَّ اليقين ما عليه المُتَّقُونَ من المؤمنين بخاتم النبيين ﷺ. وبإلالي فإن في رواية: «ما قُسم بين العباد شيء أقل من اليقين»<sup>٤</sup>.

في بيان الملازمة ثم لا يذهب عليك أن اليقين بالمعاد مُستلزمٌ لليقين بالمبدأ، كما أن اليقين بالمبدأ مُستلزمٌ لليقين بالمعاد، لأنَّ اليقين بالصانع يُلازم اليقين بحكمته، والحكمة مقتضية الإيمان بالمعاد لأن يكون بعد هذا العالم عالم آخر يثاب فيه المؤمن، ويُعاقب فيه العاصي، وإلا يلزم

٢. تفسير روح البيان ١: ٤٢.

٤. الكافي ٢: ٦/٤٣.

١. تفسير روح البيان ١: ٤٠.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤٢.

الْعَبَثِ فِي الْخَلْقِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>١</sup>، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾<sup>٢</sup> إلى غير ذلك.

ثم يبين سبحانه ثمره تقواهم وصفاتهم الكريمة، بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الكريمة مختصون بالركوب ﴿عَلَى﴾ طريق ﴿هُدًى﴾ كامل، ويبيان<sup>٣</sup> مقام المقرئين بتفضل كائني ﴿مِنْ﴾ قَبْلِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ حيث إنه أرشدتهم إلى الحق، ووفقهم للطاعة، وأعانهم على تحصيل مرضاته ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الكاملون في المكارم ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الْمُخْتَصُّونَ بِالنَّجَاةِ وَالنَّجَاحِ، الفائزون بالْبُغْيَةِ والدَّرَجَاتِ.

وإنما أشار إليهم بما يُشار إلى البعيد، للإشعار بعلو منزلتهم ورفعة مقامهم، وتبعدهم عن غيرهم في الأخلاق.

في معنى الفلاح وفي رواية، في ترجمة الأذان: «فأما قوله: حي على الفلاح، فإنه يقول: أقبلوا إلى بقاء لا فناء معه، ونجاة لا هلاك معها، وتعالوا إلى حياة لا ممات معها، وإلى نعم لا نفاد له، وإلى ملك لا زوال معه، وإلى سرور لا حزن معه، وإلى أنيس لا وخشة معه، وإلى نور لا ظلمة معه، وإلى سعة لا ضيق فيها، وإلى بهجة لا انقطاع لها، وإلى غنى لا فاقة معه، وإلى صحة لا سقم معها، وإلى عز لا ذل معه، وإلى قوة لا ضعف معها، وإلى كرامة يالهان كرامة، وعجلوا إلى سرور الدنيا والعقبى، ونجاة الآخرة والأولى.

وفي المرة الثانية: حي على الفلاح، فإنه يقول: سابقوا إلى ما دعوتكم إليه، وإلى جزيل الكرامة، وعظيم المنة، وسني النعمة، والفوز العظيم، ونعيم الأبد في جوار محمد ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر<sup>٤</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [٧٦]

١. المؤمنون: ١١٥/٢٣. ٢. سورة ص: ٢٧/٣٨. ٣. كذا، وتقرأ أيضاً: وتبيان.

٤. معاني الأخبار: ١/٤٠، التوحيد: ١/٢٤٠.



ثم بالغ في توصيفهم ومدحهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ وَيُصَدِّقُونَ تصديقاً حقيقياً لسانياً وَجَنَانِيّاً ﴿بِمَا أُنزِلَ﴾ من السماء متدرجاً ﴿إِلَيْكَ﴾ من القرآن وجميع أحكام شريعتك، أنه كلام الله، وديته المرؤسي عنده، وهذا الإيمان مُستلزم للإيمان بالرسالة ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ من الكتب على سائر الأنبياء ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أن جميعها كانت حجة من الله على أممهم وإن نُسخَت.

ولعل ذكر الإيمان بالكتب بعد الإيمان بالغيب، لتزيله منزلة الإيمان بالمحسوس لوفور دلائل صديقها وحَقَائِقُهَا ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ والمعاد لجزاء الأعمال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لا يدخل في قلوبهم شك ولا ريب.

قيل: نزلت في مؤمني أهل الكتاب<sup>١</sup>، وتخصيص اليقين بالآخرة بالذكر مع كونه داخلياً في الإيمان بالغيب لكمال مدخله في تكميل النفس واستقامة العمل، فإن ثمرة اليقين بالآخرة الاستعداد لها. في أن المغرورين قيل: عشرة من المغرورين: من أيقن أن الله خالقه ولا يعبد، ومن أيقن أن الله رازقه عشرة ولا يطمع به، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه ويجمع لهم، ومن أيقن أن الموت آت ولا يستعده، ومن أيقن أن القبر منزله ولا يعمره، ومن أيقن أن الديار يحاسبه ولا يصحح حجته، ومن أيقن أن الصراط ممره ولا يخفف ثقله، ومن أيقن أن النار دار الفجار ولا يهرب منها، ومن أيقن أن الجنة دار الأبرار ولا يحفل لها<sup>٢</sup>.

قال بعض: إن اليقين بالآخرة دأب إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب<sup>٣</sup>.

وفي الآية تعرض على أهل الكتاب حيث إنهم يثبتون أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وإن قولهم به ليس عن إيقان، وإن اليقين ما عليه الموثقون من المؤمنين بخاتم النبيين ﷺ.

وبإلالي فإن في رواية: «ما قُسم بين العباد شيء أقل من اليقين»<sup>٤</sup>.

في بيان الملازمة ثم لا يذهب عليك أن اليقين بالمعاد مُستلزم لليقين بالمبدأ، كما أن اليقين بالمبدأ مُستلزم لليقين بالمعاد، لأن اليقين بالصانع يلزم اليقين بحكمته، والحكمة مقتضية الإيمان بالمعاد لأن يكون بعد هذا العالم عالم آخر ثابت فيه المؤمن، ويُعاقب فيه العاصي، وإلا يلزم

٢. تفسير روح البيان ١: ٤٢.

٤. الكافي ٢: ٤٣/٦.

١. تفسير روح البيان ١: ٤٠.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤٢.

الْعَبَثُ فِي الْخَلْقِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>١</sup>، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾<sup>٢</sup> إلى غير ذلك.

ثم يبين سبحانه ثمره ثنواهم وصفاتهم الكريمة، بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الكريمة مختصون بالركوب ﴿عَلَى﴾ طريق ﴿هُدًى﴾ كامل، ويبيان<sup>٣</sup> مقام المقرئين بتفضل كائني ﴿مِنْ﴾ قِطْلٍ ﴿رَبِّهِمْ﴾ حيث إنه أرشدهم إلى الحق، ووفقهم للطاعة، وأعانهم على تحصيل مرضاته ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الكاملون في المكارم ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المختصون بالنجاة والنجاح، الفائزون بالثبوتية والدرجات.

وإنما أشار إليهم بما يشار إلى البعيد، للإشعار بعلو منزلتهم ورفعة مقامهم، وتوحيدهم عن غيرهم في الأخلاق.

في معنى الفلاح وفي رواية، في ترجمة الأذان: «فأما قوله: حي على الفلاح، فإنه يقول: أقبلوا إلى بقاء لا فناء معه، ونجاة لا هلاك معها، وتعالوا إلى حياة لا ممات معها، وإلى نعيم لا فناء له، وإلى ملك لا زوال معه، وإلى سرور لا حزن معه، وإلى أنس لا وحشة معه، وإلى نور لا ظلمة معه، وإلى سعة لا ضيق فيها، وإلى بهجة لا انقطاع لها، وإلى غنى لا فاقة معه، وإلى صحة لا سقم معها، وإلى عز لا ذل معه، وإلى قوة لا ضعف معها، وإلى كرامة يالهان كرامة، وعجلوا إلى سرور الدنيا والعقبى، ونجاة الآخرة والأولى.

وفي المرة الثانية: حي على الفلاح، فإنه يقول: سابقوا إلى ما دعوتكم إليه، وإلى جزيل الكرامة، وعظيم المنة، وسني النعمة، والفوز العظيم، ونعيم الأبد في جوار محمد ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر»<sup>٤</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [٧٦]

١. المؤمنون: ١١٥/٢٣. ٢. سورة ص: ٢٧/٣٨. ٣. كذا، وثقرا أيضاً: وتبيان.

٤. معاني الأخبار: ١/٤٠، التوحيد: ١/٢٤٠.

ثم أنه لما كان من دأب الله تعالى في الكتاب العزيز أنه كلما ذكر المؤمنين والمتقين بخير ذكر الكافرين والفايقين بسوء، وكلما وعد المؤمنين بالثواب والرحمة أوعد الكفار بالعذاب والشقمة، أُرِدَ هنا ذكر المتقين وتوصيفهم بأحسن صفاتهم، ووعدهم بالفلاح والنجاح بذكر الكفار الجاحدين للحق، المُصرِّين على الكفر، وتوبيخهم بأخبث أخلاقهم، وتوعيدهم بالعذاب والنكال، بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله كأبي جهل وأبي لهب وأضرابهما من رؤساء الضلال الذين كانوا في ذلك العصر مُصرِّين على التمرد واللجاج والعناد للحق.

ويُحتمل أن يكون المراد من الموصول كل من صمم على الكفر تصميماً لا يزعوِي بعده، دون غيرهم من الذين لم يُلغوا ذلك الحال، بقرينة قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولا يتفاوت حالهم ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ وخوفتهم من عذاب الله ودعوتهم إلى الإيمان وعظمتهم ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ فإن قلوبهم في أعلى مرتبة الفسادة، خارجة عن قابلية التأثير، ولذا سبق في علم الله أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبكبابك، فلا تُتعب نفسك في دعوتهم، ولا تطمع في إيمانهم حيث إنه ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ وطبع ﴿على قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخل فيها شيء من المواعظ، ولا ينفذ فيها نور الهداية كما كانوا يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾<sup>١</sup>.

﴿و﴾ ختم ﴿على سمعهم﴾ لا يدخل فيه كلمات الوعد والوعيد والإنذار والتهديد كما كانوا يقولون: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾<sup>٢</sup> ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ كأنه ﴿غِشَاوَةٌ﴾ وغطاء لا يخرج منها نور يزور به آيات الحق.

روي عن الرضا عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ قال: «الختم هو الطبع على قلوب الكفار، عقوبة على كفرهم، كما قال الله عز وجل: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾»<sup>٣</sup>.

وعن العسكري عليه السلام: في تفسير ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أنه قال: «وسمها بسمه يعرفها من شاء من ملائكته وأوليائه إذا نظروا إليها، بأنهم الذين لا يؤمنون»<sup>٤</sup>.

١. فصلت: ٥/٤١. ٢. فصلت: ٥/٤١.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/١٢٣، والآية من سورة النساء: ١٥٥/٤.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٣/٩٨.

ولعلَّ المراد من الخُتم والسِّمة الظَّلْمة المُحيطة بقلوبهم بسببِ تَماديهم في الكُفر وإصرارهم على العِصيان، يراها كلُّ مَنْ له بصيرةٌ نافذة، وإسناده إلى الله لكونها بخِذلانه إِيّاهم، وهو من أشدَّ العقوبات، فإذا انتهى حَال قلوبهم إلى أعلى مرتبةِ القساوة والظَّلْمة فلا يُمكن إيمانهم إلّا بالقسر والإلْجاء المُنافيين للتكليف، وفي تَنْكير الغشاوة إشعارٌ بأنّها ليست من الغشاوات العاديّة.

في بيان معنى الاختيار وحقيقته إن قيل: على هذا كان تكليفهم بالإيمان بعد الخُتم تكليفاً بغير مقدور وهو محال. قلنا: مع ذلك كونهم مكلفين بالإيمان قادرين عليه مختارين فيه، من أوضح الواضحات، وأبدّه البديهيّات.

وتوضيحه أنّ القدرة عبارةٌ عن قوّة في الجوارح، وخصوصيّات فيها، لو أراد صاحبها عملاً تمكّن بها من إيجاد ذلك العمل، ولذا لا تُضاف إلّا إلى الأفعال الجوارحيّة الإراديّة بالبداهة. فكلُّ عملٍ يكون من مبادئ وجوده الإرادة، يكون من مبادئ وجوده الإرادي القُدرة، وكلُّ ما لا يكون من مبادئ وجوده الإرادة، لا يكون مقدوراً، فالقُدرة بوجودها العِلْمي أو الاحتمالي من شرائط تحقّق الإرادة، وصدور الفعل عن الاختيار.

وعلى هذا لا تكون نفس الإرادة ومبادئها من العزم والجزم ممّا يُضاف إليها القدرة، لعدم كونها إراديّة، لوضوح أنّ الإرادة لا توجد بأعمال الجوارح، بل هي معلولة للدّاعي، وهو علم الفاعل بصلاح الفعل، وهذا يختلف باختلاف الأنظار الناشئ من اختلاف مراتب العقول والشّهوات، ومن البديهيّ أنّه لا يُعتبر في صحّة التكليف أن يكون عقلُ المكلف في أعلى مرتبة الكمال، بحيث لا يصير مغلوباً للشّهوة أبداً، فإنّ هذه مرتبة العِصْمة.

والحاصل: إنّ الدّاعي المؤثّر في الإرادة تابع لقوّة العقل وضّعفه، والعلم بالصلاح في المراد يكون بنظر الفاعل، والدّواعي الحسنة معلولة لقوّة العقل وطيب الطّينة وجودة النّظر وكمال البصيرة، والدّواعي السيئة مُنبِئة من ضّعف العقل وخُبث الطّينة وغلبة الشّهوة وقصور النّظر وعدم البصيرة. فإذا كان الطّبع مجبولاً على رذائل الأخلاق والصفات، والنفس معيوبة ومغمورة في الظُّلمات، والعقل ضعيفاً مغلوباً للشّهوات؛ فلا محالة يصير القلب مغلوباً لا يستقرّ فيه جواهر الحكم، والبصر محجوباً لا يميز النور من الظلم، فعند ذلك يبيّنه مَنْ هذا حاله في وادي الجَهْل والغواية، ولا يرجى منه الرُّشد والهداية، ولا ينقّذ في قلبه إرادة الخير والصلاح، ولا يصدر منه خيرة الفوز والفلاح، ويكون

أَصْلَ من الأنعام، ويتألف من الانقياد للملك العَلَم، ويفتخر بعبادة الأصنام، وتكون لذته في الشر والفساد، وشوقه إلى الظلم على العباد.

ومن الواضح أن جميع ذلك بقدرته وإرادته، إذ القدرة كما قلنا ليست إلا التمكن من إيجاد ما أراد فعله أو ترك ما أراد تركه، وتناسب جوارحه لصدوره من غير ضعف وقصور، والإرادة هي انبعاث النفس إلى إيجاد ما فيه صلاح بنظره، وإن كان الانبعاث ناشئاً من الدواعي الشهوانية وخبت الذات والطينة، أو بإيجاد الله تلك الدواعي في قلبه.

إن قيل: على هذا يلزم الجبر، ويستغنى الاختيار.

في أن تعلق الإرادة  
التكوينية بأفعال  
المباد لا يستلزم  
الجبر ولا ينافي  
الاختيار

قلنا: لا شبهة أن الاختيار في اللغة هو طلب الخير، كالاكتساب والاختيار، وإنما أطلق على الإرادة بليحاظ أنها معلولة من العلم بالخير والصلاح في الفعل المراد، ومؤثرة في إيجاده، إذ ليس وجودها الخارجي ومصداقها الحقيقي إلا توجه النفس إلى فعل لاحظ الفاعل فيه خيره، أو ترك شيء لاحظ في فعله شره، فإذا وجد الفعل وكان

الجزء الأخير من علته تلك الإرادة فهو اختياري، أي منسوب إلى الاختيار ومعلول له، ولا معنى لاختيارية الفعل غير كونه موجوداً بالإرادة، ولا يعتبر فيها أن تكون إرادته موجودة بإرادة أخرى، بل يستحيل أن تكون الإرادة للتالي إرادية، للزوم التسلسل، وإن أمكن أحياناً وعلى حسب الاتفاق كون بعض مبادئها إرادياً إلا أنه لابد من انتهائه إلى ما لا يكون بالإرادة.

وبالجملة لا يعتبر في اختيارية الفعل إلا إرادة واحدة معلولة للعلم بالصلاح في المراد، وإن كان ذلك العلم حاصلًا من غير المبادئ الاختيارية أو بإرادة الغير، فإن جميع التسييبات يكون بإيجاد الداعي في ذهن المباشر. مثلاً إذا أراد أحد تحريك غيره وبغته إلى قتل نفس محترمة بالإرادة التكوينية، لابد له من إيجاد الداعي لمن يريد بغته، وهو يكون بغته بما يشاق إليه، ويجعل بوعده الملازمة بين ذلك الفعل وتبلي مطلوبه من مالٍ أو جاهٍ، فإن الوعد في الحقيقة جعل الملازمة بين الموعود والموعود عليه، فإذا علم من اشتاق إلى مالٍ أو جاهٍ بأنه يكون في قتل النفس الوصول إلى ذلك المال أو الجاه، فعند ذلك يؤثر ذلك العلم في تعلق إرادته بالقتل، فإذا انقذ في قلبه إرادته تحركت جوارحه نحو القتل، ولكون فعله معلوماً عنده بغوانه وموجوداً بإرادته وقدرته، يستحق اللوم والعقاب، وإن لم يكن وجود الداعي المؤثر في إرادته بفعله وإرادته، بل بفعل غيره والوعد

الحاصل من مُحَرَكِه.

وبالجُملة لا شُبْهَةٌ أَنَّهُ يَكْفِي فِي كَوْنِ الْفِعْلِ اخْتِيَارِيًّا تَحَقُّقَ إِرَادَةِ وَاحِدَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ، مَعْلُولَةٌ لِدَاعِ مَوْجُودٍ بِالْأَسْبَابِ الْإِثْقَائِيَّةِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى إِرَادَاتٍ طَوِيلَةٍ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ أَعْمَالَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اخْتِيَارِيَّةٌ بِالصَّرُورَةِ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَيْسَ إِلَّا لَكَوْنِهَا صَادِرَةً عَنْ إِرَادَتِهِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ عِلْمِهِ بِالصَّلَاحِ النَّامِ، وَهَذَا الْعِلْمُ هُوَ عَيْنُ ذَاتِهِ؛ لَيْسَ مَوْجُوداً بِعِلْمٍ آخَرَ مُتَعَلِّقٍ بِصَّلَاحِ ذَلِكَ الْعِلْمِ.

فَتَحْصُلُ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ الْفِعْلُ إِذَا كَانَ الدَّاعِي إِلَيْهِ بِاقْتِضَاءِ الذَّاتِ، أَوْ بِإِجَادِ الْغَيْرِ، أَوْ بِإِفَاضَةِ اللَّهِ، عَنْ كَوْنِهِ اخْتِيَارِيًّا، وَلَا يَكُونُ فَاعِلُهُ بِالْإِرَادَةِ مُجْبُوراً، لِبِدَاهَةِ التَّضَادِّ بَيْنَ كَوْنِ الْفَاعِلِ مُرِيداً وَكَوْنِهِ مُجْبُوراً، إِذْ مِنَ الْوَاضِحِ قُبْحُ السُّؤَالِ عَمَّنْ أَخْبَرَ أَنَّهُ فَعَلَ فِعْلاً بِإِرَادَتِهِ: أَكُنْتُ مُجْبُوراً أَمْ مُخْتَاراً فِيهِ؟ وَلَوْضُوحِ أَنَّهُ لَيْسَ الْفَارِقُ بَيْنَ حَرَكَةِ الْمُخْتَارِ وَالْمُرْتَعِشِ إِلَّا أَنَّ الْمُرْتَعِشَ لَا تَكُونُ حَرَكَتُهُ بِالْإِرَادَةِ، بِخِلَافِ الْمُخْتَارِ فَإِنَّهَا بِالْإِرَادَةِ وَالِدَّاعِي.

فِي أَنَّ خَتَمَ الْقَلْبِ	وَلَيْسَ تَعْرِيفُ الْفِعْلِ الْإِخْتِيَارِيِّ وَحَقِيقَتُهُ عِنْدَ الْوُجْدَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَوْ شَاءَ فَعَلَ، وَلَوْ لَمْ
وَصُدُورُ الْكُفْرِ	يَشَأْ لَمْ يَفْعَلْ، وَلَيْسَ فِي تَعْرِيفِهِ وَحَقِيقَتِهِ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ شَاءَ، وَلَا شُبْهَةٌ أَنَّهُ إِذَا كَانَ شَخْصَ
وَالْمَعَاصِي بِخِذْلَانِ	بِهَذِهِ الصِّفَةِ صَحَّ تَكْلِيْفُهُ وَعَقُوبَتُهُ.
اللَّهُ وَإِرَادَتُهُ	ثُمَّ لَا مَجَالَ لِلِإِشْكَالِ عَلَى صِحَّةِ الْعُقُوبَةِ بِأَنَّهُ مَعَ حَصُولِ الْخَتْمِ فِي الْقَلْبِ وَاسْتِنَادِ
التَّكْوِينِيَّةِ لَا يَنَافِي	الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ إِلَى الْإِرَادَةِ الْمُسْتَنِدَةِ إِلَى الدَّاعِي غَيْرِ الْإِخْتِيَارِيِّ يَكُونُ الْعِقَابُ
صِحَّةُ الْعُقُوبَةِ عَقْلاً	عَلَيْهِمَا عِقَاباً عَلَى مَا لَا بِالْإِخْتِيَارِ، وَهُوَ ظَلَمٌ وَقَبِيحٌ.
عَلَيْهَا	

إِذْ بَعْدَ ثَبُوتِ كَوْنِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ بِالْإِرَادَةِ، وَتَأْثِيرِ قُدْرَةِ الْكَافِرِ وَالْعَاصِي فِي كُفْرِهِ وَعِصْيَانِهِ، يَحْكُمُ الْعَقْلُ بِحُسْنِ الْعُقُوبَةِ وَالذَّمِّ عَلَيْهِمَا، إِذْ لَا مَدْخَلَ لَغَيْرِ الْإِثْفَاتِ إِلَى عُتْوَانِ الْفِعْلِ وَوَجْهِ كَوْنِهِ قَبِيحاً وَصُدُورِهِ عَنِ الْإِرَادَةِ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعُقُوبَةِ وَحُسْنِهَا، وَقَدْ تَحَقَّقَ أَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الْحَاكِمُ بِالِاسْتِقْلَالِ فِي الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ فِي الْمَقَامِ.

وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ حُسْنَ الْعُقُوبَةِ وَالْمُتَوَبِّةَ لَيْسَ إِلَّا مُلَاءَمَتُهَا لِمَذَاقِ الْعَقْلِ، وَالْعَقْلُ يَجِدُ الْمُتَلَاءِمَةَ بَيْنَ الْعُقُوبَةِ وَصُدُورِ الْقَبِيحِ إِذَا كَانَ مُتَبَّهًا إِلَى مَبْدَأِ الْإِرَادَةِ وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْإِرَادَةُ بِالْإِرَادَةِ، وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ، وَلَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَحْكُمُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَالظَّلْمُ هُوَ الْعُقُوبَةُ الَّتِي لَا يَحْكُمُ الْعَقْلُ بِحُسْنِهَا، وَلَا يَجِدُ لَهَا

وقدّرتَه وميّله وشهوته، بلا قسْرٍ ولا قَهْرٍ ولا جَبْرٍ، مع أنّه قد يكون أكلُ ذلك الطعام قبيحاً بالنسبة إلى الأكل لكونه غُصْباً، وإيجاده بالمقدمات الإرادية حَسَناً من الله تعالى لكونه مُرتَبطاً بالنظام الأتمّ. ثمّ اعلم أنّ من العناوين القابلة للوجود المرتبطة بالنظام، عنوان الطاعة والعبودية، وعنوان الطغيان والمَعْصِيَةِ، حيث كان الغرض من إيجاد المَوجودات معرفته تعالى بأسمائه الحُسنى، وصفاته الجماليّة والجَلالِيّة، فلو لم توجد الطاعة والعبوديّة، لم تظهر صِفَةُ لُطْفِهِ ورحمته ورأفته، ولو لم يوجد عنوان الطغيان والكُفْرِ، لم تظهر صِفَةُ قَهَارَتِهِ، ولو لم يوجد عنوان المَعْصِيَةِ لم تظهر صِفَةُ عَفْوِهِ وَغُفُورَتِهِ، فعلى هذا تتعلّق الإرادة التكوينيّة بإيجادها بتوسّط إيجاد أسبابها ومقدماتها.

ومن الواضح أنّ من جُملة مقدماتها جعل الأحكام التكليفيّة والوُضعية، وإرسال الرُسل وإنزال الكتب، والوعد بالثواب، والوعيد بالعقاب، فتنشأ الأحكام طبقاً للإرادات التشريعيّة التي هي عين العلم بخُسن بعض الأفعال وصلاحه بالنسبة إلى المكلف، وقبح بعضها وفَساده، بالإضافة إليه على اختلاف مراتبهما من الحُسن والقبح المُلزِمين وغير المُلزِمين، وعلى اختلاف درجّات الصّلاح والفساد من المهمّ وغيره، فبالإنشاء البعْثيّ والرُّجْريّ الناشئ من تلك الإرادة التشريعيّة يحدث الوجوب والاستِحباب، والحُرمة والكراهة.

فظهر من ذلك الفرق بين الإرادة التكوينيّة والتشريعيّة، وأنّ الأولى: هي العلم بخُسن الإيجاد، وارتباط المَوجود بصّلاح النّظام الأتمّ. وأنّ الثانية: هي العلم بخُسن صدور الفعل من فاعله وقُبْحِهِ، وصلاحه أو فساده بالنسبة إليه، وأنّه لا تنافي بين قُبْحِ صدورهِ من مُباشره وحُسن التسبّب إليه من سببه، وأنّه لا تنافي بين كونه اختيارياً بالنسبة إلى المُباشرة واستحقاقه الثواب أو العقاب عليه، وبين انتهاء وجوده بعلّله الطوليّة إلى إرادة الله، وأنّه لا تنافي بين كون إيجاده وصدوره متعلّقاً بالإرادة التشريعيّة، وتُركه متعلّقاً للإرادة التكوينيّة، لِما ذكرنا من أنّ الإرادة التشريعيّة في طول الإرادة التكوينيّة، ومن مبادئ إنفاذها، حيث إنّهُ لو لم تكن الإرادة التشريعيّة، لم توجد الطاعة والمَعْصِيَةِ اللّتان تُكوّنان متعلّقتين للإرادة التكوينيّة.

<p>ففي وجه الحاجة إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب وإظهار المعجزات وفوائدها.</p> <p>ثمّ لما كانت الأحكام التكليفيّة مُقربات إلى المحسّنات العقليّة، ومُبعّدات عن ألطاف من الله تعالى</p>	<p>واتّضح أيضاً وجه الحاجة إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب وإظهار المعجزات وفوائدها.</p> <p>ثمّ لما كانت الأحكام التكليفيّة مُقربات إلى المحسّنات العقليّة، ومُبعّدات عن ألطاف من الله تعالى</p>
--	---

قبايحها، لكونها دَواعي الى إتيان ما يأمر به العقل لحُسينه أو صلاحه، وإلى تَرْك ما ينهى عنه العقل لُفجحه وفَساده، كانت جميعُها ألطافاً من الله، والتَّوفيق للقيام بها رحمة وعُطوفة منه<sup>١</sup>؛ لأنَّ العمل بها مؤثِّر في كمال النَّفس، ونورانيَّة القلب، والطَّهارة من الأخلاق الرَّذيلة السيِّئة، والتَّحلِّي بالملَكات الجميلة الحسنة، ويكون الإنسان بها كاملاً في الجهات الانسانيَّة، ومظهراً للصفات الإلهيَّة، وهذا الكمال والمظهرية هو حقيقة القُرب إلى ساحة الرُّبوبيَّة، والفوز بالمَقصد الأعلى من التَّمحُّص في العبوديَّة، والاستغراق في بحار الأنوار، والإرتقاء إلى درجة لا تَرُقِّي إليها العقول والأفكار.

ثم إنَّه تعالى بعد بيان تعذيب الكُفَّار بالطَّعن والخِذلان، هدَّدهم بقوله ﴿وَلَهُمْ﴾ خاصَّة في الآخرة أو في الدُّنيا والآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يَدْرِكُ شدَّته وعظمتَه إلاَّ الله، أمَّا في الدُّنيا فبالآلام الواردة عليهم من الأخلاق السيِّئة والدَّلة والمَسَكَنَة والطُّرد والشُّرد والقَتْل وسائر البَلَّيات، وأمَّا في الآخرة فبِنارٍ سجَّرها القهار بغَضَبِه، لا يَقْضِي عليهم فيموتوا، ولا يَخَفُّ عنهم ساعة وهم فيها خالِدون.

ثم لا يَخْفَى أَنَّ عِلَّةَ تعذيب الكُفَّار والعصاة لا تكون إلاَّ استحقاقهم الذي يَحْكُمُ بِهِ	في أَنَّ وجه صَحَّة
العقل عند عِصْيَان العَبِيد مَوَالِيهِم الَّذِينَ تَجِبُ طَاعَتُهُمْ، فَإِذَا تَحَقَّقَ اسْتِحْقَاقُ يَجِبُ	تعذيب العصاة
عَلَى الْحَكِيمِ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ، إِذِ الْحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِعْطَاءُ	وإثابة المطيعين هو
الشَّيْءِ مَا يَسْتَحِقُّهُ.	الاستحقاق العقلي
	وحسنهما في حكمه.

إِنْ قِيلَ: لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الْعُقُوفَ عَنْ عَقُوبَةٍ مَن يَسْتَحِقُّهَا حَسَنٌ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ، فَيَجِبُ عَلَى اللَّهِ بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَكَرَمِهِ.

قلنا: قد تكون المَعصِيَةُ مِنَ التَّجَبُّعِ بِمَرْتَبَةٍ لَا يَحْسُنُ الْعُقُوفُ عَنْ عَقُوبَتِهَا، وَيَكُونُ الْعُقُوفُ عَنْهَا مُخَالَفَةً لِلْحِكْمَةِ، حَيْثُ إِنَّهُ كَمَا يُعْتَبَرُ فِي الْإِحْسَانِ قَابِلِيَّةُ الْمَحَلِّ، كَذَلِكَ يُعْتَبَرُ فِي الْعُقُوفِ، مَثَلًا إِذَا رَأَى كَرِيمٌ أَجْنَبِيًّا مَعَ زَوْجَتِهِ أَوْ بَعْضَ مُحَارِمِهِ وَتَوَامِسِهِ كَأَمِّهِ وَبَنَتِهِ فَتَجِبُ الْعُقُوفَةُ، إِذِ الْعُقُوفُ فِي الْمَقَامِ كَاثِلٌ عَنْ عَدَمِ الْغَيْرَةِ. وَلِذَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا بِقَتْلِ جُرَيْجِ الْقَيْطِيِّ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ رَمِيهِ بِمَرَاوِدَةٍ مَارِيَةٍ عَنْ نَفْسِهَا، وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «كَانَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ غَيْرًا، وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ»<sup>٢</sup>.

ولنُوضِّحَ الْمَقَامَ بَيَانًا مُقَدِّمَةً، وَهِيَ أَنَّ فِعْلَ الْقَبِيحِ عِنْدَ الْعَقْلِ وَالْعُقْلَاءِ مُقْتَضٍ لاسْتِحْقَاقِ اللَّؤْمِ، وَالْعِصْيَانِ مِنَ الْعَبْدِ مُقْتَضٍ لاسْتِحْقَاقِ الْعُقُوبَةِ مِنَ الْمَوْلَى، وَالْمُرَادُ مِنَ الْاسْتِحْقَاقِ حُسْنَ اللَّؤْمِ



والعقوبة في الموضعين، وحقيقة الحُسن والقبح هي الموافقة لمذاق العقل والمُنافرة له، ولا شبهة أن لكل منهما مراتب في الشدة والضعف باعتبار قوة مناهما وضعفه، فقد يكون الحُسن في فعلٍ بمرتبة لا يزاحمه حُسن آخر إذا دار الأمر بينهما، ولا قبح إذا استلزمه فيحسُن ارتكابه، وإن لزم منه وجود قبح آخر أو قوت حُسن آخر، وقد تساوى جهة حُسنه جهة ضده الذي لا يُجامعه في الوجود، أو جهة قبح لا زمه، فتخيّر الفاعل بين الضدين في الأول وبين المُقبضين من الفعل والثرك في الثاني، وقد تترجح إحدى الجهتين على الأخرى رُجحاناً غير لازم الرعاية، فتكون رعايتها أحسن وأفضل.

إذا تمهّد ذلك نقول: لا شبهة في أن المعصية منشأ لانتزاع حُسن اللوم والعقوبة من حيث إنهما كاشفة عن خبث النفس وسوء السيرة، ثم إنه قد يُندرك بالتوبة أو بطاعة مقبولة فينتفي بوجود أحدهما منشأ انتزاع حُسن العقوبة.

وبعبارة أخرى التوبة أو الطاعة المقبولة في حكم العقل مُزاحمان لمقتضى الاستحقاق ومزيلان له، ومع عديهما قد يكون حُسن العقو مساوياً لحُسن العقوبة، وقد يترجح عليه برُجحان غير ملزم فيما لم يكن مقتضى العقوبة في غاية القوة، مثلاً الكُفر والشِرْك يكونان في اقتضاء العقوبة بدرجة يُخرجان صاحبهما عن قابلية العقو، حيث إنهما يُورثان ظلمة مُحيطَة بالقلب، بحيث لا تبقى فيه شائبة النور، ويخرج عن مسانحة عالم الأتوار، ويصير مناسيباً لعالم الظلمات، ويكون كالشجر اليابس لا يُلقي إلا للإحراق بالنار، وكالشيطان لا ينبغي إلا أن يكون قريناً للشياطين في دار البوار، وليس إسكانه في الجنان إلا كإسكان الكلب الأجرَب العقور على سرير السلطان.

والحاصل: إن العفو عنه، والرحمة عليه، والإحسان إليه، خلاف الحكمة، ومن قِيلَ  
 عن الكافر خلاف  
 الحكمة ووضع  
 الشيء في غير  
 موضعه  
 وضع الشيء في غير موضعه  
 الرّاحمين في موضع العقو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والقيمة.<sup>١</sup>  
 فإن من الواضح أن الشقاوة ملازمة للبُعد والهلاك، وإنما الوعد بالعذاب في الحقيقة

إخبار بوجود الملاك.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ \* يُخَادِعُونَ  
اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [٨ و ٩]

ثم إنَّه تعالى بعد ذكر المتقين ومدحهم بالصفات الحسنة وعوذهم بالهدى والفلاح، وذكر الكفار وذمهم بالأخلاق السيئة وتوعيدهم بالعذاب العظيم، شرع في بيان حال القسم الثالث من الناس، وهم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ بلسانه ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والحال أنَّهم كاذبون فيما يقولون ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولا معدودين في زميرتهم لعدم دخول الإيمان في قلوبهم.

عن القمي رحمه الله: أنها نزلت في قوم منافقين أظهروا الرسول الله ﷺ الإسلام، وكانوا إذا رأوا الكفار قالوا: إنا معكم. وإذا لقوا المؤمنين قالوا: نحن مؤمنون<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الْحَكَمَ بْنَ عُثَيْبَةَ مَنَّ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فَلْيَشْرُقِ الْحَكَمَ وَلْيَغْرُبْ، أَمَا وَاللَّهِ لَا يُصِيبُ الْعِلْمَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَزَلَ عَلَيْهِمْ جِبْرِئِيلُ ﷺ»<sup>٢</sup>.

وعن (تفسير الإمام علي عليه السلام): عن موسى بن جعفر صلوات الله عليهما - في رواية طويلة ذكر فيها قضية يوم الغدير، ونُصِبَ رسول الله ﷺ علياً ﷺ للخلافة، وأمره الصحابة ببيعته بإمرة المؤمنين - إلى أن قال: ثم إنَّ قوماً من متمردي جبابرتهم تَوَاطَؤُوا بينهم إن كانت لمحمد كائنة لندفعن هذا الأمر عن علي، ولا يتركونه [له]، فعرف الله ذلك في قلوبهم. وكانوا يأتون رسول الله ﷺ ويقولون له: لقد أقمعت علياً أَحَبَّ خَلَقِ الله إلى الله وإلىنا، كَفَيْتُنَا به مُؤَنَةَ الظُّلْمَةِ والجَبَابَةِ، وسياستنا<sup>٣</sup>.

وعلم الله في<sup>٤</sup> قلوبهم خلاف ذلك ومواطأة<sup>٥</sup> بعضهم لبعض أنهم على العداوة متقيمون، ولدفع الأمر عن مؤثره<sup>٦</sup> مؤثرين، فأخبر الله تعالى محمداً ﷺ عنهم، فقال: يا محمد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الذي أمرتك بنصب علي إماماً وسائساً لأمتك ومدبراً ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك ولكنهم مواطئون على هلاكك وهلاكه<sup>٧</sup> الخبر.

١. تفسير القمي ١: ٣٤. ٢. الكافي ١: ٣٢٩/٤. ٣. في المصدر: والجائرين في سياستنا.  
٤. في المصدر: من. ٥. في المصدر: ومن مواطأة. ٦. في المصدر: مستحقه.  
٧. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام ٥٨/١١٢. وفيه: ولكنهم يتواطئون على إهلاكك وإهلاكه.

أقول: الظاهر - بالنظر إلى الروايات - أن شأن نزول الآية جماعة المنافقين الذين كانوا من أصحابه ﷺ ولكنها جارية على سائر المنافقين في سائر الأزمنة إلى يوم القيامة، وفيها دلالة على أنه لا ينبغي الوثوق بإيمان كل من كان داخلاً في الصحابة وعمله وقوله حسناً في الظاهر، كما هو مبنى مذهب العامة، وفيها إشعار أيضاً بأن أهم أركان الإيمان هو الإيمان بالمبدأ والمعاد.

ثم قرعهم الله بقوله: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ بمعاملتهم مع رسوله معاملة المخادع، ولكونه ﷺ خليفة الله ومظهر صفاته وعينه الناطقة ويده الباسطة وأذنه الواعية نزل مخاطبته منزلة مخاطبة الله.

عن ابن بابويه: عن الصادق عليه السلام عن أبيه «(أن رسول الله ﷺ) [سئل: فيما النجاة غدأ؟ فقال: إنما النجاة في أن لا تحادعوا الله فيخدعكم، فإنه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر. فقيل له: وكيف يخادع الله؟ فقال: يعمل بما أمره الله عز وجل به ثم يريد به غيره، فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فإنه شرك بالله عز وجل، إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر»<sup>١</sup> الخبر.

وفيه دلالة على أن مخادعة الله لا تختص بالمنافق المعروف، بل تعم كل من يظهر شأناً ومقاماً من الدين وهو ليس بواجده، وكل من يظهر حقاً لا يوافق ظاهره باطنه ﴿و﴾ يخادعون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن ضرر مخادعتهم راجع إلى أنفسهم لا إلى المؤمنين ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يخديعهم وينفاقهم يضرون على أنفسهم، بل يحسبون أنهم يجلبون النفع، أو لا يشعرون أنه لا يمكنهم الخديعة بالنسبة إلى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، فإن الخدعة فعل ما هو مضر على الغير مع إخفاء ضرره وإظهار صلاحه، والله مطلق على خفايا أمورهم، وكفر باطنهم، وهو يطلع نبيه والمؤمنين، ويأمرهم بلعنهم، فيكون الأمر بخلاف ما تخيلوا، حيث إن نفاقهم مضر عليهم مع خفاء ضرره عنهم، وفي سلب الحواس الحيوانية عنهم دلالة على انحطاطهم عن مرتبة البهائم.

وَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ \*  
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ \* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ  
الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ [١٠-١٢]

ثمَّ كَانَهُ يَقَالُ: مَا سَبَبُ نِفَاقِهِمْ مَعَ وَضُوحِ الْحَقِّ؟ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ عَظِيمٌ مِنَ الْحَسَدِ وَالْكِيرِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالْعِيَادِ لِلْحَقِّ، فَأَوْرَثَ فُسَادَ أَوْرَاجِهِمْ وَهَلَاقَهُمُ الْأَبَدِيَّ، وَأَيُّنَ هَذَا الْمَرَضُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي غَايَةُ شِدَّتِهَا أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْمَوْتِ وَفُسَادِ الْجَسَدِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ فِيهِ نِفَاقٌ وَإِيمَانٌ، إِذَا أَدْرَكَ الْمَوْتُ صَاحِبَهُ عَلَى نِفَاقِهِ هَلَكَ، وَإِنْ أَدْرَكَهُ عَلَى إِيْمَانِهِ نَجَا، وَقَلْبٌ مَنَكُوشٌ وَهُوَ قَلْبُ الْمُشْرِكِ، وَقَلْبٌ مَطْبُوعٌ وَهُوَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَقَلْبٌ أَزْهَرُ أَجْرَدٌ وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، فِيهِ كَهَيْثَةُ السَّرَاجِ، إِنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ شُكْرًا، وَإِنْ ابْتَلَاهُ صَبْرًا» الْخَبَرِ. ﴿فَرَادَهُمُ اللَّهُ﴾ بِسَبَبِ ظُهُورِ الْآيَاتِ، وَتَوَافُرِ الْمُعْجَزَاتِ، وَزِيَادَةِ حِشْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقُوَّةِ الْإِسْلَامِ ﴿مَرَضًا﴾ وَحَسَدًا زَائِدًا عَلَى حَسَدِهِمْ، وَتَغَضًُّا وَعِيَادًا أَشَدَّ مِنْ بَغْضِهِمْ وَعِيَادِهِمُ السَّابِقِ، فَإِنَّ الْأَمْرَاضَ الْقَلْبِيَّةَ تَتَزَايَدُ، وَالصِّفَاتُ اللَّعِيمَةَ تَشْتَدُّ إِذَا لَمْ تُعَالَجْ عِنْدَ الْأَطْبَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ.

ثُمَّ هَذَا هَدَاهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بِالْعِ الْغَايَةِ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فِي قَوْلِهِمْ: أَمَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَوْ قَوْلِهِمْ: إِنَّا عَلَى السَّيِّئَةِ وَالْعَهْدِ مُقِيمُونَ. ثُمَّ بِالْعِ سَبْحَانَهُ فِي بَيَانِ غَايَةِ خُبْنِهِمْ وَقَسَاوَتِهِمْ بِبَيَانِ عَدَمِ قَبُولِهِمُ النَّصْحَ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ نَصَحُوا وَوَعظًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْقَاتِلَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطَّلِعِينَ عَلَى فُسَادِ نِيَّتِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

قِيلَ: كَانَ فُسَادُهُمْ فِيهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُعَايِلُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِإِفْشَاءِ أَسْرَارِهِمْ إِلَيْهِمْ، وَإِغْرَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ مِمَّا يُؤْدِي إِلَى هَيِّجِ الْفِتَنِ بَيْنَهُمْ.

وَقِيلَ: هُوَ مُدَارَاتُهُمُ الْكُفَّارَ وَمُخَالَطَتُهُ إِيَّاهُمْ، حَيْثُ يُؤْهِمُهُمْ ذَلِكَ مَعَ تَظَاهُرِهِمُ بِالْإِيمَانِ، ضَعْفَ أَمْرِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ، فَيَصِيرُ سَبَبًا لَطَمَعِ الْكُفَّارِ فِيهِمْ فَتَهِيجِ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ بَيْنَهُمْ. وَقِيلَ: كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي السَّرِّ إِلَى تَكْذِيبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُلْقَوْنَ الشُّبُهَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِفْسَادِ إِظْهَارَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ٢. فَإِنَّ الشَّرَائِعَ سُنَنَ مَوْضُوعَةٍ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَإِذَا تَمَسَّكَ الْخَلْقُ بِهَا زَالَ الْعُدْوَانُ وَلَزِمَ كُلُّ شَأْنِهِ، فَحَقَّقَتِ الدَّعَاءَ، وَضَبَطَتِ الْأُمُورَ، وَخَفِظَتِ الْفُرُوجَ، فَكَانَ ذَلِكَ صَلَاحَ الْأَرْضِ وَأَهْلِهَا، أَمَّا إِذَا أَهْمِلَتِ الشَّرِيعَةُ وَأَقْدَمَ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى مَا يَهْوَاهُ، اسْتَعْلَتِ نَوَازِرُ

الْفِتْنِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَخَلَّفْتُ الْمَقَامِئِدُ.

وعن العالم موسى بن جعفر عليه السلام: «أَنَّهُ إِذَا قَبِلَ لِهَؤُلَاءِ النَّاكِثِينَ لِلْبَيْعَةِ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِإِظْهَارِ نَكْثِ الْبَيْعَةِ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَتَشَوُّشُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَتَحْيِرُوهُمْ فِي دِينِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ»<sup>١</sup>. الخبر.

أقول: الظاهر إرادة جميع أنحاء الفساد للإطلاق، وعدم ما يدل على إرادة فساد خاص، بل الظاهر من حالهم أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزْكُونُ شَيْئاً مِمَّا يَوْجِبُ الْفَسَادَ فِي الدِّينِ وَأَمْرُ نُبُوَّةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وكذا في أمر خلافة أمير المؤمنين عليه السلام عند قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهِ، وَيُسْرِهِ لَهُمْ.

ومع ذلك «قَالُوا» جَوَاباً لِلنَّاصِحِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَدّاً عَلَيْهِمْ: لَنَسْنَا مُفْسِدِينَ، بَلِ «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ» بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ بِالْمُدَارَاةِ مَعَهُمْ، أَوِ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ كَانَ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ مِنَ الْكُفَرِ: إِنْ يِقَاقُنَا وَإِلْقَاءَ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِلْقَاءَ الشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَخْضُ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، حَيْثُ إِنَّا بِنَظَرِ الْأَعْمَالِ نَحْفَظُ دِينَنَا مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَدِمَائِنَا وَأَعْرَاضِنَا وَأَمْوَالِنَا بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ.

وعن موسى بن جعفر عليه السلام: «قَالُوا - يَعْنِي النَّاكِثِينَ لِبَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام - إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ لِأَنَّا لَا نَعْتَقِدُ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا غَيْرَ دِينِ مُحَمَّدٍ، وَنَحْنُ فِي الدِّينِ مُتَحَيِّرُونَ، فَنَحْنُ نُرْضِي فِي الظَّاهِرِ مُحَمَّدًا بِإِظْهَارِ قَبُولِ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَنَقْضِي فِي الْبَاطِنِ عَلَى شَهَوَاتِنَا، فَتَمْتَنِعُ وَتُرْفَقُ وَنَعْتِقُ أَنْفُسَنَا مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ وَنَكْفُهَا مِنْ طَاعَةِ عَلِيٍّ لِكَيْلَا نَذَلَّ فِي الدُّنْيَا»<sup>٢</sup>. الخبر.

فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «أَلَا» تَنْبَهُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ» فِي الْأَرْضِ، لَا مُفْسِدٍ أَفْسَدَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ عَمَلَهُمْ عَيْنَ الْفَسَادِ وَمَخْضُهُ، حَيْثُ إِنَّهُ تَشْيِيدٌ لِلْبَاطِلِ، وَتَضْعِيفٌ لِلْحَقِّ، وَإِثَارَةٌ لِلْفِتْنِ، وَسَبَبٌ لِكَثْرَةِ الْحَرْبِ وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ، مَعَ غَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ.

أَوِ الْمُرَادُ «أَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ أُمُورَ أَنْفُسِهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْرِفُ نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِفَاقَهُمْ، فَهُوَ يَلْعَنُهُمْ وَيَأْمُرُ الْمُسْلِمِينَ بِلَعْنِهِمْ أَيْضاً، وَلَا يَبْقَى بِهِمْ أَعْدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَنَافِقُونَهُمْ أَيْضاً

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦١/١١٨.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦١/١١٨.

كما يَنَافِقُونَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا تَرْتَفِعْ لَهُمْ عِنْدَهُمْ مَنْزِلَةٌ، وَلَا يَحْلُونَ عِنْدَهُمْ بِمَحَلِّ الْيَقَةِ،<sup>١</sup> هكذا مروى عن المَعصوم.

ثم استدرك الله تعالى، بقوله ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مُفْسِدُونَ، لِلإِذَاذِ بِأَنْ تَمَحْضَهُمْ فِي الْإِفْسَادِ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ، لكن لا حِسَّ لَهُمْ حَتَّى يَدْرِكُوهُ، أَو الْمُرَاد أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِعَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْإِنْفَاقِ، بَلْ يَتَضَرَّوْنَ بِهِ أَشَدَّ الضَّرَرِ، لَوْ الْمُرَاد أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ صَلَاحَ أَمْرِهِمْ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ فِي الْإِيمَانِ وَالْتَسْلِيمِ وَالْوَفَاءِ بَبَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ.

قيل: فِي الْآيَةِ إِشْعَارٌ بِشَرَفِ الْمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ تَوَلَّى اللَّهُ عَنْهُمْ جَوَابَ الْمُنَافِقِينَ<sup>٢</sup>.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ \* وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ \* اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رَجِحتَ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [١٦-١٣]

ثُمَّ أَكَّدَ اللَّهُ بَيَانَ خَصْلَتِهِمُ السَّيِّئَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ مِنْ طَرَفِ الْمُؤْمِنِينَ، بِطَرِيقِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ عَقِيبَ تَهْنِئِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، إِمَامًا لِلنُّضْحِ وَإِكْمَالًا لِلإِشْرَادِ: ﴿آمِنُوا﴾ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَنَبِؤَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ إِيْمَانًا حَقِيقِيًّا لَا يَشُوْهُ شَكٌّ وَلَا يَفَاقُ ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ الْمُخْلِصُونَ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، كَسَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ وَالْمِقْدَادِ وَأَصْرَابِهِمْ ﴿قَالُوا﴾ لِأَصْحَابِهِمُ الْمُطَّلَعِينَ عَلَى سِرِّهِمْ، الْمُوَافِقِينَ لَهُمْ فِي كُفْرِهِمْ، إِنْكَارًا وَتَعَجُّبًا: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَدِينِهِ ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الَّذِينَ هُمْ لِيُضَعِّفَ عَقُولَهُمْ رَفَضُوا دِينَ آبَائِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْ أَرْحَامِهِمْ وَأَقْرَبَانِهِمْ، وَتَرَكُوا جَاهَهُمْ وَثَرَوَتَهُمْ، وَرَضُوا بِالذُّلَّةِ وَالْمُسْكَنَةِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَاتَّبَعُوا هَذَا الرَّجُلَ الضَّعِيفَ، وَعَنْ قَرِيبٍ يَتَهَاجَمُ عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ وَيَقْتُلُونَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، فَيَنْقَطِعُ خَبَرُهُمْ، وَيَتَمَحَّى أَثَرُهُمْ.

فَرَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا﴾ تَنْهَوُا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ الْقَاصِرُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مَنْصُورٌ، وَأَنَّ دِينَهُ يَقْوَى وَيَدُومُ مَرَّ اللَّيَالِي وَاللَّهْوَ، وَأَنَّهُ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَأَنَّ الَّذِينَ

اتَّبِعُوهُ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ يُضْرَبُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ الذَّلُّ وَالْهَوَانُ، وَأَنَّهُ بَابُ اللَّهِ الْجَارِي مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَذَلِكَ وَاضِحٌ لِمَنْ عَلِمَ تَارِيخَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقَةِ، وَالْأَمَمِ السَّالِفَةِ ﴿وَلَنَكُنَّ﴾ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ ﴿لَا يَغْلَمُونَ﴾ أَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ وَتَأْيِيدَاتِهِمُ الْغَيْبِيَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ وَلَا يَطْلَعُونَ عَلَى تَوَارِيخِ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ.

أَو الْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَا يُحِيطُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِإِيمَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ يَتَعَدُّونَ عَنِ السُّفَهَاءِ وَالْجَهْلَةِ رَاغِبِينَ<sup>١</sup> فِي الْعِلْمِ وَطَلَبِ الْحَقِّ.

ثُمَّ أَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ نِفَاقِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَصَادَفُوهُمْ ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا ﴿أَمَّا﴾ بِمَا آمَنُوا بِهِ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ وَاجْتَمَعُوا فِي الْخَلْوَةِ مَعَ سَائِرِ الْمُتَنَافِقِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ لَهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ وَتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ وَمُخَادَعَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنَّمَا نَخْنُ﴾ بِتَصَدِيقِ النَّبِيِّ وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ، سَاخِرُونَ مِنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْطِرَ بِيَالِنَا الْإِيمَانُ، وَإِنَّمَا نَظْهَرُ مُوَافَقَتَهُمْ لِثَأْمِنٍ مِنْ شَرِّهِمْ، وَنُطْلِعُ عَلَى سَرِّهِمْ وَنُكَيِّجُ بَنَاتِهِمْ، وَنُشَارِكُهُمْ فِي غَنَائِهِمْ وَصَدَقَاتِهِمْ.

مِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوا، فَاسْتَقْبَلَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِيهِمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لِأَصْحَابِهِ: أَنْظَرُوا كَيْفَ أَرَدَ<sup>٢</sup> ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، وَسَيِّدِ بَنِي هَاشِمٍ خَلَا<sup>٣</sup> رَسُولُ اللَّهِ.

فَقَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَتَقِي اللَّهَ وَلَا تُتَافِقُ، فَإِنَّ الْمُتَافِقَ شَرُّ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، وَاللَّهِ إِنْ إِيْمَانُنَا كإِيْمَانِكُمْ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لِأَصْحَابِهِ: كَيْفَ رَأَيْتُمْ مَا فَعَلْتُ؟ فَأَنْزَلُوا عَلَيْهِ خَيْرًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الْآيَةَ<sup>٤</sup>.

قَالَ مَوْفَّقُ بْنُ أَحْمَدَ رَاوِي الرِّوَايَةِ: فَذَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى إِيْمَانِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَعَلَى قَطْعِهِ مَوَالَاةِ الْمُتَنَافِقِينَ، وَإِظْهَارِ عِدَاوَتِهِمْ<sup>٥</sup>.

وَعَنْ ابْنِ شَهْرٍ أَشُوبٍ: عَنْ الْبَاقِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَلَاثَةِ لَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْبُلَايَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَظْهَرُوا الْإِيْمَانَ وَالرِّضَا بِذَلِكَ، فَلَمَّا خَلَوْا بِأَعْدَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إِنَّمَا

١. فِي النُّسخَةِ: رَاغِبُونَ. ٢. فِي الْمَنَاقِبِ: أَرَادَ. ٣. فِي الْمَنَاقِبِ: خَتَنَ. ٤. مَنَاقِبُ الْخَوَارِزْمِيِّ: ١٩٦.

٥. مَنَاقِبُ الْخَوَارِزْمِيِّ: ١٩٦.

نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ»<sup>١</sup>.

وعن تفسير الهذيل، ومقاتيل: عن محمد بن الحنفية - في خبر طويل - «إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ»<sup>٢</sup> بعلي بن أبي طالب فقال الله تعالى شأنه: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» يعني يُجازيهم في الآخرة جزاء استهزائهم بأمر المؤمنين ﷺ<sup>٣</sup>.

وقيل: إن المراد أن الله يُعامل معهم في الدنيا والآخرة مُعاملة المُستهزئين، أمّا في الدنيا فإن جعل لهم أحكام الاسلام في الظاهر، فيحسبون أن لهم عند الله كرامة، وهم في غاية الهوان لكفرهم. وأما في الآخرة: فقد روي عن محمد بن الحنفية، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله الخلق بالجزاز على الصراط، فيجوز المؤمنون إلى الجنة، ويسقط المنافقون في جهنم [فيقول الله: يا مالك استهزئ بالمنافقين في جهنم] فيفتح مالك باباً من جهنم إلى الجنة، ويُناديهم: معاشر المنافقين، ها هنا ها هنا، اصعدوا إلى الجنة فيسبح المنافقون في بحار<sup>٤</sup> جهنم سبعين خريفاً حتى إذا بلغوا إلى باب الجنة وهموا بالخروج أغلقه دونهم، وفتح له باباً من الجنة من موضع آخر، فيناديهم: اخرجوا إلى الجنة، فيسبحون مثل الأول، فإذا وصلوا إليه أغلق دونهم ويُفتح من موضع آخر، وهكذا أبد الأبد<sup>٥</sup>.

وفي حديث: يُؤمر بنقر من الناس يوم القيامة إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها واستشققوا رايحتهم، ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله تعالى لأهلها ثودوا أن انصرفوا<sup>٦</sup> عنها لا نصيب لكم فيها. فيرجعون بحسرة وندامة ما رجع الأولون والآخرين بمثلها، فيقولون: يا ربنا، لو أدخلتنا النار قبل أن تُربنا ما أربنا من ثواب ما أعددت لأوليانك فيقول: ذلك أردت بكم، كنتم إذا خلوتكم بي بارزتموني بالعظام، فإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبيين<sup>٧</sup>، تراؤن الناس، وتظهرون خلاف ما انطوت قلوبكم عليه، هيتم الدنيا ولم تهابوني، وأجلتكم الناس ولم تجلوني، وتركتم للناس ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم ألم عذابي مع ما حرمتكم.

قيل: في الآية إشعار بكرامة المؤمن على الله، حيث تدل على أنه سبحانه يستهزئ بمن استهزا

١. تفسير البرهان ١: ١٤٥/٣٣٧.

٢. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٤.

٣. في المناقب: في نار.

٤. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٤، بحار الأنوار ٨: ٣٠١/٥.

٥. في النسخة: اصرفوا.

٦. أي خاشعين متواضعين.



بالمؤمن، كأنه ينوب عن المؤمن في الاستهزاء بالمستهزئ به، ويجازيهم بالهوان والخيبة في الدنيا، ويتعذيب يضحك به المؤمن في الآخرة.

ثم أخذ الله تعالى تهديدهم، بقوله: ﴿وَيَمْدُدْهُمْ﴾ ويزيدهم ويقويهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ ويتجاوزهم عن الحد في العناد والإصرار على الكفر والعصيان، وإنما إمداده تعالى لهم يكون بالإمهال والخذلان في الدنيا بسبب منع الألفاظ عنهم، حتى يتراد في المدة الطويلة من أعمارهم الرئس والظلمة في قلوبهم، فيستحقون زيادة العذاب والنكال في الآخرة.

ولذا فسر القمي رحمه الله: المدة، بالمدّة، حيث قال: أي يدعهم<sup>١</sup>، حال كونهم في مدة تعيشهم في الدنيا ﴿يَمْتَهُونَ﴾ ويزدادون في الضلالة عمى القلوب، حيارى، لا يذكرون أين يتوجهون، وفي أي طريق يسلكون، إذ لا يمكنهم الجمع بين الإسلام والكفر، وصحبة الأبرار والفجار، فهم ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾<sup>٢</sup> بل هذا حال كل من أراد الجمع بين الدنيا والآخرة مع أنهما ضرتان. ثم بين الله تعالى غاية سفاهتهم، وضعف عقولهم، بقوله: ﴿أُولَئِكَ الْمُتَأَفِّفُونَ الْمُتَمَيِّزُونَ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ بِأَفْبَحِ الصِّفَاتِ، الْبَعِيدُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، هُمُ الَّذِينَ أَشْتَرَوْا﴾ وبادلوا ﴿الضَّلَالَةَ بِالْهُدًى﴾ واختاروا لأنفسهم الكفر بعوض الإيمان، والباطل بعوض الحق الذي جاءهم من قِبَلِ اللَّهِ، وكأنهم تملكوه ثم رفعوا اليد عنه، وأخذوا الكفر بدله فكانهم عاوضوه به، فأى صفة أحسر من هذه؟

ثم كأنه يقال: فما يكون حال المشتريين؟ فيقال: إذا اشتروا ﴿فَمَا رِبَحْتَ تِجَارَتَهُمْ﴾ بل خسرت خساراً مبيناً، حيث فاتهم نعيم الأبد، ولازمهم العذاب المخلّد ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة وما كانوا عالمين بصلاح المعاملة، ولذا ابتلوا بغاية الخسارة حيث إن المقصود من التجارة سلامة رأس المال مع حصول الربح، وهم لجهلهم وغباوتهم أتلّوا رأس المال من الفطرة السليمة والعقل المستقيم، والعمر الطويل في متجر الدنيا وسوقها المعدّ لتحصيل الربح الدائم والثواب العظيم، بهذا المتاع الذي أعطاهم الله إياه.

عن العالم القمي رحمه الله: «وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب»<sup>٣</sup>.

وعن القمي رحمه الله في تفسير الضلالة والهدى، قال: الضلالة هاهنا: الحيرة، والهدى: البيان. فاختاروا

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٢٦.

١. تفسير القمي ١: ٣٤. ٢. النساء: ١٤٣/٤.

الْحَيَرَةُ وَالضَّلَالَةُ عَلَى الْهُدَى وَالْبَيَانِ<sup>١</sup>.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ  
وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ \* صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَزُجُّونَ \* أَوْ كَصَيِّبٍ  
مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ  
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ \* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ  
أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ  
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٧ - ٢٠]

ثم إنه تعالى بعد بيان حقيقة حال المنافقين، عقبها بضرب مثل لها، زيادة في التوضيح والتقرير -  
حيث إن التمثيل أطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي حقائق  
الأمور. قيل: إن أمثال القرآن العزيز من أعظم علومه، والناس في غفلة عنه - فقال: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وحالهم  
العجيبة ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ مثل حال من طلب إيقادها وارتفاع لها حتى ينتفع بضوئها  
وسائر منافعها ﴿فَلَمَّا﴾ توقدت و﴿أضاءت﴾ تلك النار الموقدة أطراف المستوقد و﴿ما حوله﴾ من  
الاشياء خمدت وذهب نورها وضياؤها بريح أو مطر، فحرم المستوقد من نفعها، وبقي عليه التعب.  
وهذا الجواب المقدر لِمَا يَعْلَمُ من بيان حال المشبه، وهم المنافقون في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ﴾  
وأخذ ﴿بِنُورِهِمْ﴾ وهو الإسلام الصوري الظاهري بتفويضهم على لسان رسوله أو بإمامتهم، فحرموا  
من منافعها في الدنيا من شريكهم في الغنائم والصدقات والمناكحة وسائر أحكام الإسلام ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾  
الله، وطردهم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ متراكمة شديدة غاية الشدة، من ظلمة الكفر والطغيان والحسد  
والعصيان، كما أنهم في الآخرة في ظلمة القيامة، وظلمة الغي، وظلمة سخط الله، فلا يبقى لهم من  
النور في الدارين شيء أبداً.

فإذن حالهم أنهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ طريق الحق وشيئا من آياته، ولا يزورون سبيل الخلاص من ضرر  
المسلمين في الدنيا، كما أنهم لا يجدون المناص من أهوال القيامة وعذابها في الآخرة.  
ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ﴾ وما بعده جواباً للمّا، وإفراذ ضمير ﴿حواله﴾ العائد إلى

المستوقد باعتبار لفظه، وجمع سائر الضمائر الراجعة إليه باعتبار معناه، حيث إنه جنس صادق على كثيرين.

عن ابن بابويه عليه السلام: بإسناده، عن إبراهيم بن أبي محمود، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَتَرْكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يوصفُ بالتَّركِ كما يوصفُ خلقه، ولكنه متى عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ عن الكُفْرِ والضلال، مَنَعَهُمُ الْمُعَاوَنَةَ واللُّطْفَ، وَخَلَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اخْتِيَارِهِمْ»<sup>١</sup>.

أقول: لعل المراد أَنَّ التَّركَ بمعنى العَدَمَ لا يُنسَبُ إلى الله تعالى، فهو هنا بمعنى الكَفِّ والمَنع الذي هو فعلٌ وجوديٌّ قابلٌ لأن يَتَصِفَ الله به.

ثم بالغ سبحانه في تبيين غاية ضلالة المنافقين، بقوله: ﴿صُمٌّ﴾ مُسَدِّدُو الْمَسَامِيعِ، لَا يَسْمَعُونَ الْمَوْاعِظَ وَأَيَّاتِ الْقُرْآنِ وَتَرَاهِينَ الْحَقَّ ﴿بُكْمٌ﴾ خُرُسُ الْأَلْسِنِ، لَا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ، وَلَا يَقْرَأُونَ بِهِ ﴿عُمَى﴾ فَاقِدُو الْأَبْصَارِ، لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْمُعْجِزَاتِ وَالْعِبرِ التي تُوذِيهِمْ إِلَى الْهَدَايَةِ، وَلَا بَصِيرَةَ لَهُمْ حَتَّى يُمَيِّزُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلِذَا يُحْشَرُونَ فِي الْآخِرَةِ عُقْمًا [وَبُكْمًا وَصُمًّا] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُقْمًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾<sup>٢</sup>.

﴿فَهُمْ﴾ لَا تُصَافِهِمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ وَلَا يَنْصَرِفُونَ مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ إِلَى سَبِيلِ الْهَدَايَةِ، مَعَ كَوْنِهِمْ بِحَسَبِ الْخَلْقَةِ وَالْفِطْرَةِ قَادِرِينَ عَلَى الرَّجُوعِ، وَلَكِنْ لَمَّا ضَيَّعُوا فِطْرَتَهُمْ وَأَفْسَدُوا عَقُولَهُمْ صَارَ فِي حَقِّهِمْ مُنْتَعِبًا بِالْاخْتِيَارِ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانُوا لَا مُحَالَةَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَنْفَعُهُمْ.

قال بعضُ العارفين: الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مَعَن يَهْرَبُ مِمَّا لَا أَنْفِكَاهُ عَنْهُ، وَهُوَ مَوْلَاةُ الَّذِي مَرُّ عَلَيْهِ بِكُلِّ خَيْرٍ وَأَوْلَاةُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ، وَهُوَ مَا يُوَافِقُ النَّفْسَ مِنْ شَهْوَتِهِ وَهَوَاهُ<sup>٣</sup>، وَيُعْرِضُ عَنِ الْآخِرَةِ وَهِيَ الدَّارُ الْبَاقِيَةِ.

ثم بالغ سبحانه وتعالى في توضيح حالِ المنافقين وشِدَّةِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ بِضَرْبِ مَثَلٍ آخَرَ أبلغ

١. تفسير القمي ١: ٣٤.

٢. في النسخة: يحشرون في الآخرة أعمى كما قال تعالى: ونحشرهم يوم القيامة أعمى، والآية من سورة الإسراء:

٣. تفسير روح البيان ١: ٦٨.

بقوله: ﴿أَوَ﴾ مَثَلُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَتَنُورُ الْأَبْصَارِ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِثْلَ حَالِ ذِي صَيِّبٍ وَصَاحِبِ مَطَرٍ شَدِيدٍ، نَافِعٍ لِلْحَيَوَانَاتِ وَنَبَاتِ الْأَرْضِ، بَلْ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ، نَازِلِ ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ وَهُوَ السَّقْفُ الْمُطْلَى، أَوْ جِهَةُ الْعُلُوِّ، وَذَكَرَ هَذَا الْقَيْدَ بِنَاءً عَلَى إِرَادَةِ السَّمَاءِ الْمَعْرُوفَةِ، لَعَلَّهُ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ أَوَّلَ جَمِيعِ الْأَمْطَارِ نَازِلٍ مِنْهَا، كَمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ خِلَافاً لِمَنْ يَقُولُ بِأَنَّهَا تَتَكَوَّنُ مِنَ الْأَبْجَرَةِ<sup>١</sup>، وَأَمَّا بِنَاءٌ عَلَى إِرَادَةِ جِهَةِ الْعُلُوِّ فَلَعَلَّهُ لِإِظْهَارِ إِحَاطَتِهِ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ، سَهْلِيهَا وَجَبَلِيهَا حَالِ كَوْنِهِ مُسْتَقَرّاً، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ ثَلَاثٌ: ظُلْمَةُ السَّحَابِ، وَظُلْمَةُ الشَّدَّةِ وَالتَّكَاثُفِ، وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ، ﴿وَوَ﴾ فِيهِ ﴿رَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾.

ثُمَّ كَأَنَّهُ يَقَالُ: مَا يَكُونُ عَمَلُ أَصْحَابِ الصَّيِّبِ فِي هَذِهِ الْحَالِ؟ فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾ جَمِيعَهَا وَيَدْخُلُونَهَا ﴿فِي أَذَانِهِمْ﴾ مِنْ شِدَّةِ الدَّهْشَةِ وَالْوَحْشَةِ، وَلَا يَكْتَفُونَ بِجَعْلِ الْأَنَامِلِ، كَمَا هُوَ الْمُعْتَادُ وَالْمُمْكِنُ، وَفِيهِ غَايَةُ الْمُبَالِغَةِ فِي حِرْصِهِمْ عَلَى سَدِّ مَسَامِعِهِمْ خَوْفاً ﴿مِنْ الصَّوَاعِقِ﴾ قِيلَ: هِيَ رُعُودٌ هَائِلَةٌ تَنْقُضُ مِنْهَا شُعْلَةٌ نَارٌ مُحْرِقَةٌ ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وَتَحْزَنُ مِنَ الْهَلَاكِ بِسَبَبِ انْشِقَاقِ قُلُوبِهِمْ، وَطَلَباً لِلسَّلَامَةِ مِنْهُ ﴿وَاللَّهُ﴾ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ الْعَالِمُ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ ﴿مُحِيطٌ﴾ وَمُخَدِّقٌ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمُهُ ﴿بِالْكَافِرِينَ﴾ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، عَالِمٌ بِأَسْرَارِهِمْ، قَادِرٌ عَلَى عِقَابِهِمْ.

ثُمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ حَالُ أَصْحَابِ الْمَطَرِ حِينَ لَمَعَانِ الْبَرْقِ؟ فَقَالَ تَعَالَى ﴿يَكَادُ﴾ وَيَقْرُبُ ﴿الْبَرْقُ﴾ اللَّامِعُ مِنَ السَّحَابِ ﴿يَخْطَفُ﴾ وَيَسْتَلِبُ بِسَبَبِ شِدَّةِ ضَوْئِهِ ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ وَنُورُ نَظِيرِهِمْ. ثُمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَا يَكُونُ عَمَلُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ؟ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ الْبَرْقُ ﴿لَهُمْ﴾ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَنَارَ طَرِيقَهُمْ وَمَسْلَكَهُمْ ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ وَخَطَاوَا خُطُوبَاتٍ بَسِيرَةً. قِيلَ: عَبَّرَ عَنْ سَيْرِهِمْ بِالْمَشْيِ دُونَ السَّغْيِ وَالْعَدْوِ اللَّذَيْنِ فَوْقَ الْمَشْيِ لِلإِشْعَارِ بِشِدَّةِ دَهْشَتِهِمْ، بِحَيْثُ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا ﴿وَإِذَا﴾ خَفِيَ الْبَرْقُ ﴿وَأَظْلَمَ﴾ الطَّرِيقُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَصَارَ مَسْلَكَهُمْ مُظْلِماً ﴿فَنَامُوا﴾ وَرَقَعُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْهَيْئَةِ، مُتَحَرِّينَ مَتَرَضِّدِينَ لِحِظَّةٍ أُخْرَى، عَسَى أَنْ يَتَبَسَّرَ لَهُمُ الْوَصُولُ إِلَى الْمَقْصَدِ، أَوْ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى مُلْجَأٍ عَاصِمٍ لَهُمْ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وَأَرَادَ ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فَيَتَّقُوا فِي تِلْكَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ مَا خُوداً عَنْهُمْ أَسْبَابَ التَّخَلُّصِ، إِذَ الْمَبْدَأُ لِلخَّلَاصِ هُوَ الْإِدْرَاكُ،

١. قوله تعالى: ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ إشارة إلى جهة نزول المطر، أي يأتي من جهة السماء، وليس فيه إشارة إلى أن السماء مبدأ تكوّنه، بل الثابت علمياً أن مبدأ تكون المطر من الأبخرة.

وَالْعُنْدَةُ فِي أَسْبَابِهِ هُوَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ ﴿إِنَّ آتَاهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُمْكِنًا قَابِلًا لَتَعْلُقَ الْإِرَادَةُ بِوُجُودِهِ﴾ قَدِيرٌ بِذَاتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَنَةٍ غَيْرِهِ، وَلَا يُزَاجِمُهُ شَيْءٌ فِي أَمْرِهِ.

كَذَلِكَ حَالُ الْمُتَافِقِينَ، حَيْثُ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، وَأَشْتَدَّ نُورُ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِي أَنْظَارِهِمْ، بِحَيْثُ لَمْ يَتَّقْ لَهُمْ مَجَالٌ لِلشُّكِّ وَالرَّيْبِ، وَهُمْ بِشِدَّةِ حُبِّهِمُ الدُّنْيَا، كُلَّمَا كَانَ فِي الْأَقْرَارِ بِالْآيَاتِ وَإِظْهَارِ تَبَعِيَّتِهَا نَفَعَ لَهُمْ مِنَ الْعِزَّةِ وَالشُّرْكَاءِ فِي الْعَنَانِ وَسَائِرِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ النَّافِعَةِ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ، أَقْرَبُوا بِهَا، وَأَظْهَرُوا اتِّبَاعَهَا وَالانْقِيَادَ لَهَا. وَإِذَا كَانَ فِيهَا ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ، كَوُجُوبِ الْجِهَادِ، وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَرْكِ مَوَادَّةِ الْأَرْحَامِ وَالْأَقْرَابِ، تَرَكُوا اتِّبَاعَهَا وَأَعْرَضُوا عَنْ مُوَافَقَتِهَا.

وَحَاصِلُ الْآيَتِينَ أَنَّهُ تَعَالَى شَبَّهُ الْقُرْآنَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْحِكَمِ الَّتِي هِيَ مَدَارُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ بِالضَّبَبِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ، وَمَا عَرَّضَ لَهُمْ بِتَزْوِيلِهَا مِنَ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ وَانْكِسَافِ الْحَالِ بِالظُّلُمَاتِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِالرَّغْدِ وَالْبَرْقِ، فَيَخَافُ صَوَاعِقُهَا فَيَسْتَدْأُذْنَهُ، وَاهْتَزَّازَهُمْ لَمَّا يَلْمَعُ لَهُمْ مِنْ رُشْدٍ يُدْرِكُونَهُ أَوْ رَفْدٍ يُحَرِّزُونَهُ بِمَشْيِهِمْ فِي مَطَرٍ ضَوْءِ الْبَرْقِ، وَتَحْيِرُهُمْ فِي أَمْرِهِمْ حِينَ عَنْهُمْ مَعْصِيَةٌ أَوْ رَأَوْا فِي التَّكَالِيفِ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَوْ يَخَالِفُ هَوَاهُمْ بِوُقُوفِهِمْ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ.

فِي أَنَّ الْمُنَافِقَ أَسْوَأُ وَفِي الْاِقْتِصَارِ فِي ذَمِّ الْكُفَّارِ وَتَهْدِيدِهِمْ بِآيَتَيْنِ، وَالْإِكْتِثَارِ فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ وَتَهْدِيدِهِمْ حَالًا مِنَ الْكَافِرِ  
بِثَلَاثِ عَشْرَةِ آيَةٍ، إِشْعَارًا بِأَنَّ الْمُنَافِقَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْكَافِرِ، وَالْاِعْتِبَارُ بِسَاعِدِهِ لَكُونِهِمْ

أَشَدَّ ضَرَرًا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \*  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ  
مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٢١ و ٢٢]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا بَيَّنَّ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هَادٍ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنَّ الْمُتَّقِينَ هُمُ الْمُتَتَّبِعُونَ بِهِ الْمَوْفِقُونَ بِسُلُوكِهِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ هُمُ الْمُنْخَرِفُونَ مِنْهُ، شَرَعَ بِطَلْفِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي دَعْوَةِ جَمِيعِ

المكلفين إلى السلوك في طريق الهداية والقيام بوظائف العبودية.

ولما كان مهمماً في الغاية وشاقاً على نفوس العامة بأشْر بذاته المقدسة مخاطبتهم بطريق المشافهة لتَجِبِر المشقة بلذَّة المُخاطبة، وترتفع بحلاوة النداء مرارة الصبر على التعب والعناء، وتتوجه القلوب نحو التلقي والإصغاء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾ وأطيعوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ وأخضعوا له.

وفي ذكر صفة الربوبية دلالة على أنها مقتضية لنهاية العبودية، وأن نعمه غير المتناهية موجبة لغاية الشكر، ومؤثرة في كمال المحبوبة، ولذا عدَّ بعد توصيف نفسه بها وإضافتها إليهم جملةً من نعمه الفائقة، أسبغها وأتمها وأعلها نعمة إيجاد العبد، ولذا قدمها في الذكر بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وقدركم وأنعم عليكم نعمة الوجود التي هي أصل النعم، ومن الواضح أن هذه النعمة أعظم العيول الموجبة للعبادة الخالصة، ولو مع قطع النظر عن كونها نعمة.

ثم أَرَدَها بذكر نعمة خلق الأصول التي هي دون الأولى وفوق سائر النعم، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الآباء والأمهات، حيث إنَّ خَلْقَهُمْ من مقدمات خلقِ المُخاطبين، مع أنَّ النعمة على الآباء والأمهات من موجبات الشكر على الأبناء والأولاد، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾<sup>١</sup> مع أنَّ في ذكر هذا الوصف دلالة على تفرده تعالى بخلقِ المُخاطبين، إذ لو لم يكن خالقاً لأصولهم، بل كان خالقاً لأصولهم غيره، لم تنحصر شؤون الخلق - وهي العبادته تعالى، بل شاركه من هو خالقُ الأصول، أو من كان له في خلقهم نصيب.

ويحتمل أن يكون المراد بالموصول جميع السابقين، لكون خلقهم من مقدمات وجود اللاحقين، وليكون في الدلالة على كمال القدرة أتم.

ثم بين تعالى فائدة العبادة المأمور بها، بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سَخَطَ الله وعذابه، وتَحَرَّزُونَ منه بسبب عبادته، ويحتمل أن تكون هذه الجملة بياناً لغرض خلقِ الناس، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>٢</sup>.

عن (تفسير الإمام عليّ) في هذه الآية، أنه قال: «لها وجهان:

أحدهما: [خلقكم] وخلق الذين من قبلكم لعلكم تلتقون، أي ليتقوا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والوجه الآخر: اعبدوا الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، أي اعبدوه لعلكم تتقون النار، (ولعل) من الله واجب، لأنه أكرم من أن يُعْتَبَى عبده بلا منفعة، ويُطْعِمه في قُضْلِهِ ثم يُخَيِّبه، ألا ترى كيف قبح من عبده إذا قال لرجل: اخدمني لعلك تتقني بي، ولعلِّي أنفعك. فيَحْلِمُهُ ثم يُخَيِّبه ولا ينفعه؟ فالله عز وجل أكرم في أفعاله، وأبعد من القبيح في أعماله من عباده.

في بيان أن كلمة لعل قول: لا يُعْتَد أن تكون كلمة لعل موضوعة للدلالة على صلاحية متعلقه وشأنيته، لأن لعل في كلام الله مستعمل في معناها الحقيقي

الرجاء الذي هو ملازم التريُّد والشك، يكون من اللوازم الغالبة<sup>١</sup> في النفوس البشرية، ثم فيه تنبيه على أن التقوى مُتَنَهَى درجة الكمال، وتخصيص الموجودين بالخطاب مع محبوبية التقوى من كل أحد إلى الأبد لأجل التغليب.

ثم بعد ذكر النعم الداخلية من الخلق والتربية، ذكر مهمات النعم الخارجية التي كل واحدة منها كافية في وجوب العيادة، بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وبساطاً.

عن ابن بابويه: عن العسكري، عن آبائه، عن السجّاد عليه السلام في تفسير الآية: «جعلها ملائمة لطباعكم، موافقة لأجسادكم، ولم يجعلها شديدة الحمي والحرارة فتُحْرِقُكُمْ، ولا شديدة البرودة فتُجْعِدُكُمْ، ولا شديدة طيب الريح فتَصْدَعُ هَامَاتِكُمْ، ولا شديدة الثَّني فتُغْطِيكُمْ، ولا شديدة اللين كالماء فتُغْرِقُكُمْ، ولا شديدة الصلابة فتَمْتَنِعُ عليكم في دوركم وأبينتكم وقبور موتاكم، ولكنه عز وجل جعل فيها من المنة ما تَتَّقِعُونَ به وتَمَاسِكُونَ، وتَمَاسِكُ عليها أبدانكم ويُنِيَانُكُمْ، وجعل فيها ما يَنفَادُ به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم، فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ وسقفاً من فوقكم محفوظاً يُدِيرُ فيها شَمْسَهَا وقَمَرَهَا ونُجُومَهَا لِمَنَافِعِكُمْ.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر، يُنْزِلُهُ من علٍّ لِيَبْلُغَ قُلُلَ جِبَالِكُمْ وَيَلْأَكُمُ وهضابكم وأرواحكم، ثم فرقه رذاذاً وإِبِلًا وهَطلاً وطَلًا، لِنَشْفِهِ أَرْضَكُمْ، ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد أراضيكم، وأشجاركم وزروعكم وأثماركم.

ثم قال عز وجل: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني ممَّا يُخْرِجُهُ من الأرض رِزْقاً لكم<sup>٢</sup>.

١. كذا، ولعله تصحيف الغالبة.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣٧/٣٦.

وَمَعَاشاً مَأْكُولاً وَمَلْبُوساً.

فانظر إلى حُسْنِ ترتيب استدلاله سبحانه على استحقيقه العبادة ووجوبها، فإنه استدلل أولاً بأقرب نعمه إلى العبد، وهو إيجاده وتربيته، ثم الأقرب وهو خلق الأصول من الآباء والأُمّهات، ثم الأقرب وهو نعمة المقرّ والمسكن وهو الأرض، ثم بعدها بنعمة السماء التي تكون سقفاً ومداراً للكواكب، ومبدءاً لنزول الخيرات، ثم بنعمة الثمرات الحاصلة من بركات السماء والأرض لتكون معاشاً لهم.

ومن الواضح أن كل واحد من هذه النعم [هي] آيات وحدانيته وقدرته وعظمته وحكمته، ولذا رتب عليها النهي عن التشريك، بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ ولا تتخذوا ﴿لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ وشركاء في الخلق والرزق والعبادة ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها العقلاء ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أن الأجسام التي اتخذتموها آلهة لا يقدرُونَ على شيء، والقول الباطل من العالم ببطلانيه أقبح وأفضح.

قيل: من تأمل في هذا العالم وجده كالبیت المعدّ، فيه كل ما يحتاج إليه ساكنه، الأرض بساطه، والسماء سقفه، والتجوم مصايحه، والإنسان ساكنه، وضروب النباتات والحيوانات والمعادن مهيات لمنافعه، مصروفة في مصالحه، فتدل هذه الجملة على أن هذا العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل، وقدره غير متناهية، وحكمة بالغة.

ومن لطائف ما قيل: إن الله تعالى لما خلق السماء والأرض، أوقع بينهما شبه عقد النكاح، فالسماء مطلة على الأرض، فينزل الماء من المطلة على المقلّة المفترشة، فيخرج من بطنها الحيوانات شبه النسل، ثم تربيها في جحرها كالأم، وتطعمها، وتلبسها من ثمارها، وتحفظها من الحرّ والبرّد، فهي رؤوفة بنا حين نعيش في جحرها وتربي بربيتها، فاذا انتقلنا من جحرها إلى بطنها تكون أراف بنا بشرط أن ندخل في بطنها كما خرجنا من بطن أمنا طاهرين من الذنوب، مهذبين من الرذائل والعيوب.

نسي أن للشرك ثم اعلم أن للشرك مراتب كثيرة، قلما يكون الانسان بريئاً منه، روي: «أنه أخفى في مراتب كثيرة وقلما يخلو الإنسان منه. أمّتي من قبيل الثملة على الصخرة الصماء»<sup>١</sup>.

وفي حديث طويل، عن معاذ: «ويصعد الحفظة بعمل عبد من زكاة وصوم وصلاة وحج وعمرة وخلق حسن، وذكر لله، ويشيعة ملائكة السماوات حتى يقطعوا الحجب كلها إلى الله

١. تفسير الفمي ١: ٢١٣ «نحوه».



عَزَّ وَجَلَّ يَفْقَهُوا بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَشْهَدُوا لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُخْلِصِ لَهُ. فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنْتُمْ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلٍ عَبْدِي، وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى قَلْبِهِ، إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهَذَا الْعَمَلِ وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلِيهِ لِعَتِّي. فتقول الملائكة: عليه لعنتك وَلَعْنَتْنَا، فتلعنه السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ<sup>١</sup>.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [٢٣ و ٢٤]

في إثبات رسالة خاتم النبيين ﷺ بكتابه الذي هو من أعظم معجزاته وتحذيره به.

ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بعد الدعوة إلى توحيده واستحقاقه العبادة وإقامة البرهان عليهما، شرع في الدعوة إلى الإيمان بكتابه الذي هو من أعظم الأدلة على النبوة بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ وَشُكٍّ ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ نُجُوماً وَتَدْرِيجاً من القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ مع أَنَّهُ لَا مَجَالَ لِلرَّيْبِ فِي أَنَّهُ حَقٌّ وَنَازِلٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، لَكُونِهِ فِي أَعْلَى

درجة الإعجاز ﴿فَاتُوا﴾ وَهَاتُوا أَيُّهَا الْمَاهِرُونَ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ﴿بِسُورَةٍ﴾ وَلَوْ كَانَتْ قَصِيرَةً، وَقِطْعَةً كَلَامٍ وَلَوْ كَانَتْ مَخْتَصَرَةً كَانَتْ ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ وَعَلَى صِفَةٍ مَا نَزَّلَاهُ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، أَوْ مِنْ مِثْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَكْتُبْ وَلَمْ يَتَعَلَّمْ مِنْ أَحَدٍ فِي مَدَّةِ عُمُرِهِ، وَكَلَّمَكُمْ مُطَّلِعُونَ عَلَى أَمْرِهِ ﴿وَادْعُوا﴾ مَعَاشِرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ وَأَصْنَامَكُمْ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهَا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَتَسْمِيَةِ الْأَصْنَامِ شُهَدَاءَ بِمَلْحَظَةٍ أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ يَشْهَدُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِعِبَادَتِهِمْ، وَيَشْفَعُونَ لَهُمْ، وَيُغَيِّثُونَهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَيُنَجِّنُهُمْ مِنَ الْبَلَايَا وَالشَّدَائِدِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ شَامِلًا لِجَمِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَيْضًا، وَيَكُونُ شَهِدَاؤُهُمْ شَيَاطِينُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَنْصَارُهُمْ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ حَاصِلُ الْمَعْنَى: ادْعُوا - أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، وَمَعَاشِرُ أَهْلِ الْكِتَابِ - أَصْنَامَكُمْ وَشَيَاطِينَكُمْ الَّذِينَ هُمْ أَنْصَارُكُمْ لِيَعِينُوكُمْ عَلَى إِيَّانِ مِثْلِهِ، وَيَشْهَدُوا لَكُمْ أَنَّكُمْ أَتَيْتُمْ بِعِدْلِهِ فِي حُسْنِ الظَّنِّ وَفَصَاحَةِ الْبَيَانِ وَالْأَسْلُوبِ الْبَدِيعِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي قَوْلِكُمْ: إِنَّ مَا أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ قَوْلَ الْبَشَرِ وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ الْأَكْبَرِ، وَإِنَّهُ يَقُولُ فِي مَا أَتَى بِهِ وَبَهْتَهُ عَلَى اللَّهِ وَافْتَرَاهُ ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمُعَارِضَةِ، وَلَمْ تَأْتُوا بِمِثْلِهِ بَعْدَ التَّظَاهُرِ وَالسَّعْيِ وَالْجِدِّ وَالتَّفَكُّرِ ﴿وَلَنْ

تَفْعَلُوا، أبدأ، ولا يكون ميسوركم ومقدوركم ولو جئناكم بالإنس والجن مدداً ﴿فَاتَّقُوا﴾ بالإيمان برسالة محمد ﷺ وتصديق كتابه أنه كلام الله المنزل عليه ﴿النَّارَ آتَى وَقُودَهَا﴾ وما به اشتعالها ﴿النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: هي حجارة الكبريت لأنها أشد حرّاً، وبه رواية<sup>١</sup>. وقيل: حجارة الأصنام الممنوعة، لأنهم أحبّوها في الدنيا، وقد روي: «مَنْ أَحَبَّ حَجَرًا حَشَرَهُ اللهُ معه»<sup>٢</sup>.

قيل: إنهم لما قرّنوا أنفسهم في الدنيا بها وظنّوا أنّ بها نجاتهم في الآخرة، كان اقتنائهم بها في العذاب موجباً لزيادة الحسرة عليهم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾<sup>٣</sup>. وهذه النار «أُعِدَّتْ» وهيت في الآخرة «لِلْكَافِرِينَ» بالله ورسله والذين مرضى عنه. ثم أعلم أنّ التحدي من مدعي النبوة بما يعجز الناس عن الإتيان بمثله دليل صدقه، وقد جاء في القرآن على وجوه من البيان:

أحدها: قوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾<sup>٤</sup>.

وثانيها: وهو أقرع من الأول، قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾<sup>٥</sup>.

وثالثها: وهو أشدّ تقريباً وتبكيثاً، هذه الآية المباركة، فترتيب هذه الأنحاء من التحدي نظير تحدي مُصنّف كتاب بقوله: اتنوني بمثل هذا الكتاب، فإن لم تقدروا فينصفه، وإن لم تقدروا فيباب أو مسألة منه.

ثم أعلم أنّ الله تعالى كما جعل مُعْجَزَ موسى في إلقاء العصا للبلوغ علم السحر في زمانه كماله، ومُعْجَزَ عيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى للبلوغ علم الطب في زمانه نهايته، جعل مُعْجَزَ خاتم النبيين ﷺ في فصاحة الكتاب العزيز وبلاغته وحسن أسلوبه للبلوغ علم البيان في عصره أعلى درجته.

فلما عجز العرب وفُرسان ميدان البيان بعد هذه التقرّيعات عن المعارضة بالكلمات والحروف، وبادروا إلى المبارزة بالأسنة والسيوف، وحملهم العناد والعصيّة على شرب كأس الحُتوف، أو

٢. أمالي الصدوق: ٣٠٨/٢٧٨.

٥. هود: ١٣/١١.

١. مجمع البيان: ١/١٥٩.

٣. البقرة: ١٦٧/٢. ٤. الاسراء: ٨٨/١٧.

مفارقة العشيرة والوطن المألوف، ولو قدروا على إتيان سورة ثمائله في الفصاحة والبلاغة لأتوا بها، مع شدة عداوتهم وجرصهم على معارضة وإبطال أمره، وكمال جدّهم في إطفاء نوره، وهم مهرة فنّ المحاورة والكلام، ولم يُدانيهم أحد من الفُصحاء مدّ الدهور والأيام، عَلِمْنَا أَنَّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ، وَأَنَّ كُلَّ سُورَةٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مُعْجَزَةٌ قَاهِرَةٌ، وَتَصْدِيقُ دَعْوَاهُ مِنَ اللَّهِ الْأَكْبَرِ.

نفي إثبات كون القرآن معجزاً وبيان وجه إعجازه والحاصل: أَنَّهُ لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَحَدَّى الْعَرَبَ، بَلِ الْعَالَمِينَ بِالْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلتَّهْكُمِ بِأَلَيْهِمْ يَقُولُهُ: ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وتقرّيعهم بقوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ وتوعيدهم بالعذاب الشديد بقوله: ﴿فَاتَّقُوا آلَنَارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ ونسبتهم إلى الكفر بقوله: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

وَلَا شُبْهَةَ أَنَّ أَهْلَ ذَلِكَ الْعَصْرِ مَعَ بُلُوغِهِمْ فِي عِلْمِ الْفَصَاحَةِ غَايَتَهُ، وَفِي فَنِّ الْكَلَامِ نَهَايَتَهُ، بَحِثْ لَمْ يَأْتِ الزَّمَانُ بِمِثْلِهِمْ، وَلَمْ يَتَيَسَّرْ لِلدَّهْرِ تَرْبِيَتُهُ عِدْلَهُمْ، وَفَاقُوا الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ، وَقُضِّلُوا عَلَى الْمَاضِي وَالْغَايِرِ، لَمْ يَعَارِضُوهُ بِالْمِثْلِ فِي شِدَّةِ عَدَاوَتِهِمُ لِلرَّسُولِ، وَنَهَايَةِ تَأْنِفِهِمْ عَنْ تَلْقَائِهِ قَوْلُهُ بِالْقَبُولِ، حَتَّى هَاجَرُوا الْأَوْطَانَ، وَفَارَقُوا الْأَوْلَادَ وَالْإِخْوَانَ، وَهَجَرُوا الْعِشَائِرَ، وَأَسْلَمُوا السُّفُوسَ وَالْمُهْجَ لِلْأَيْسَةِ وَالْبَوَاتِرِ، وَلَوْ كَانَ فِي وَسْعِهِمْ إِتْيَانُ مِثَالٍ لِأَقْصَرِ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ مُقَابِرٍ لَهُ فِي حُسْنِ النُّظْمِ وَمَلَاحَةِ الْبَيَانِ، لَأَتَوْا بِهِ وَلَمْ يَتَحَمَّلُوا الشِّدَّةَ وَالْعُتْبَ<sup>١</sup>، وَأَفْخَمُوهُ وَفَضَّحُوهُ بِلَا نَصَبٍ، وَأَبْطَلُوا أَمْرَهُ، وَأَطْفَأُوا نَوْرَهُ، وَأَخَذُوا بِتَفْسِيهِ، وَاسْتَرَاخُوا مِنْ بَاسِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ يَخْضِرُّ لَهُ عَوْدٌ، وَأَنْ يَقُومَ لِدِينِهِ عَمُودٌ.

فَلَمَّا رَأَيْنَا أَنَّهُ قَدْ غَلَبَ نَوْرُهُ الظُّلَامَ، عَلِمْنَا بِعَجْزِ جَمِيعِ فُصَّاحِ عَصْرِهِ عَنْ مَعَارَضَتِهِ بِالْكَلَامِ، كَمَا أَنَا لَمَّا عَلِمْنَا بِعَجْزِ سَحْرَةِ مُوسَى عَنْ مَعَارَضَتِهِ وَإِتْيَانِ مِثَالٍ لِمَا أَتَى بِهِ مَعَ تَحْدِيِّ مُوسَى بِالْقَاءِ عَصَاهُ وَصِيْرُوتِهَا تُعْبَانًا، عَلِمْنَا بِكَوْنِهِ صَادِقًا فِي دَعْوَاهُ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ عَارَضُوهُ بِسُورَةٍ ثُمَائِلِهِ لَوْصَلَتْ الْبِنَا بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ، وَأُنْبِتَتْ فِي الزُّبُرِ وَالْذَفَاتِرِ، لَتَوَفَّرَ الدَّوَاعِي فِي ثَقْلِهِ كَمَا تَوَفَّرَتْ فِي ثَقْلِ الْقُرْآنِ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَ اعْتِرَافُهُمْ بِالْعَجْزِ، وَدَلَّ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾<sup>٢</sup>، وَ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾<sup>٣</sup>، وَ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا

١. كذا، ولعلّها تصحيف التعب.

٢. المائدة: ١١٠/٥، الأنعام: ٧/٦.

٣. المدثر: ٢٤/٧٤.

حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتَيْنَا بِكَ دَآبِ أَلِيمٍ<sup>١</sup> ولا مجال لاحتمال كَذِب نسبة هذه الأقوال إليهم، لاشتهار هذه الآيات بين جميع الطوائف والطبقات، فلو كانت كَذِباً كَفَّاه في إبطال دَعَوَتِهِ ووضوح فَضِيحَتِهِ وانفصام عُرْوَتِهِ.

ثُمَّ عَلَّمَ أَنَّ وجه إعجازِ القرآن لعامة الناس هو فصاحته وبلاغته وحُسْنُ أسلوبه ونُظْمِهِ، وهذا الوجه يُعَلِّمُ من وجوه:

منها: نهاية فصاحة كل آية وسورة في نفسها، مع قَطْع النَّظَر عن غيرها.

ومنها: بالنَّظَر إلى سائر الآيات والسُّور، وهذا أيضاً من وجوه:

منها: أننا قد استغرنا كلمات فَصحاء العرب فرأيناهم مختلفين في صناعة الفصاحة، وأن كل واحد منهم له مهارة في فنِّ الكلام دون فنٍّ آخر، منهم فصيح في الحماسة، ومنهم فصيح في المدح، ومنهم فصيح في الهجاء، ومنهم فصيح في التطريب والتعشُّق، إلى غير ذلك، والقرآن العظيم في غاية الفصاحة في جميع الفنون من الكلام.

ومنها: أن مضامين القرآن كلها في المعارف، وعلم الأخلاق، والحث على الزهد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، وبيان أحكام العبادات والمعاملات والسياسات، ومن الواضح أن في هذه الأمور ليس مجال الفصاحة وميدان البلاغة، والقرآن العظيم في أعلى درجتها في جميعها.

ومنها: أن حُسْنَ الكلام وملاحة البيان موقوف على الكَذِب والاغراقات والمبالغات، والقرآن العظيم مع عرائه وتنزهه عن جميعها في غاية الحُسْنِ والملاحة.

ومنها: أنه ما رُئِيَ فصيح من الفُصحاء أتى بكلام طويل إلا كان بعض قضاياه أو بعض كلماته خارجاً عن حدِّ الفصاحة، أو كان بعضها أفصح من بعض، والقرآن العظيم مع أنه كتابٌ مُطَوَّل لم تنزل آية منه من أعلى مرتبة الفصاحة فضلاً عن خروجها عن حُدِّها، وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>٢</sup>.

وأما وجه إعجازه من غير جهة الفصاحة والبلاغة، فأمور:

منها: أنه لا شبهة أن النبي ﷺ كان أمياً، لم يتعلَّم من أحد، ولم يقرأ كتاباً، وهذا الكتاب العزيز الذي جاء به جامع لجميع العلوم، ما من علمٍ إلا وفيه أصله بالمعنى الذي مرَّ في الطَّرْفَةِ الثالثة، مثل علم

المعارف الإلهية، فإن من نظر في سائر الكتب السماوية، وزُيِّر العرفاء الربانية، عرف أن ما في جميعها من المعارف بالنسبة إلى ما في القرآن المجيد كالقطرة بالإضافة إلى البحر المحيط، ومثل علم الحكمة والكلام، وعلم الأخلاق، وعلم الزهد في الدنيا، وتفاصيل الآخرة، ومثل علم الفقه من العبادات والمعاملات والسياسات.

ومنها: اشتيماله على الإخبار بالمُعْجَبَات عن جزمٍ و يقينٍ، كقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَنْ تَقْعُلُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ﴾<sup>١</sup> وقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾<sup>٢</sup> وقوله تعالى: ﴿عَلَيْتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَیْهِمْ سَیْغِلُونَ﴾<sup>٣</sup> وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾<sup>٤</sup> وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُبْلُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾<sup>٥</sup>. إلى غير ذلك، فإن هذه الآيات ونظائرها إخبارٌ بأمورٍ قبل وقوعها، ثم وقعت مطابقة لها.

ومنها: شدة تأثير القرآن العظيم في النفوس، فإنه ما من كتابٍ سماويٍّ أو معجزة من معجزات الأنبياء السلف له تأثير في القلوب كتأثيره. ثم أنه تعالى بعد ما استدلل على وجوهه وكماله ووجوب عبادته بمخلوقاته، وعظيم نعمائه، وعلى رسالته عبده وإعجازه كتابه، بخبر جميع الخلق عن إتيان سورة مثله، شرع بقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية، في ذكر المعاد وبيان عقاب الكفار في الآخرة.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٢٥]

ثم أردفه بذكر ثواب المؤمنين بقوله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالسيتم وقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بالاستحقاق والتفضل ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين عديدة، إذ في التعدد حظٌ ليس في الانفراد.

١. آل عمران: ١٢/٣. ٢. البقرة: ١٣٧/٢. ٣. الروم: ٢/٣٠ و ٣. ٤. الفتح: ٤٨/٢٧.

٥. آل عمران: ١١١/٣.

قيل: عدّها ثمان: دارُ الجلال كلها من نور، ودارُ القرار كلها من مَرَجَان، ودارُ السّلام كلها من الياقوت الأحمر، وجنّة عَذْنِ كلها من زَبَرْجَد وهي مُشْرِقة على الجنان كلها، وجنّة المأوى كلها من الذهب الأحمر، وجنّة الخلد كلها من الفضة، وجنّة الفيّز دوس كلها من اللؤلؤ، وجنّة النعيم كلها من زُمُرّد.

وروي أن المؤمن إذا دخل الجنّة رأى سبعين ألف حديقة في كلّ حديقة سبعون ألف شجرة، على كلّ شجرة سبعون ألف ورقة، وعلى كلّ ورقة: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله، أمّة مديّنة وربّ غفور، كلّ ورقة عزّضها ما بين المشرق والمغرب<sup>١</sup>.

ثمّ وصف الجنّان وأشجارها، بأنّها «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» لازدياد صفائها وطراوتها وحسّنها بها.

قيل: إنّ المراد بالأنهار جنّسها.

وقيل: إنّ المراد الأنهار الأربعة: نهْرٌ من ماءٍ غير آسن، ونهْرٌ من لبنٍ لم يتغيّر طعمه، ونهْرٌ من خمرٍ لذّةٍ للشّاربين، ونهْرٌ من عسلٍ مصفّى.

ثمّ بعد ذكر مشكّكهم وشّرّابهم، ذكر طعّامهم بقوله: «كُلَّمَا رُزِقُوا» وأطعموا «منها من» نوع «ثمرةٍ رزقاً» وطعاماً «قالوا لهذا» الثمر من جنس الثمر «الَّذِي رُزِقْنَا» وطعمنا «من قبل» في الدّنيا.

في بيان حكم جعل ثمرات الجنّة من نوع ثمرات الدّنيا لزيادة شوق المؤمنين إليها بعد معرفة جنّسها وطعمها، حيث إنهم إذا لم يعرفوا طعمها وخاصّيتها، ولم يشّتاقوا إليها في الدّنيا، لم يبادروا في الجنّة إلى تناولها، ولم يفرّحوا بها في بذو رؤيتها، وأما إذا كانوا مطّلعين على طعمها فرّحوا برؤيتها، وعلموا أنّها مما رزقوا في الدّنيا وإن كان التفاوت بينها وبين ما رزقوا في الدّنيا كتفاوت الدّنيا والآخرة، ولا يستحيل أخذها إلى ما يستحيل به ثمرات الدّنيا.

قيل: إنّ الله جعل ثمرات الجنّة من نوع ثمرات الدّنيا لزيادة شوق المؤمنين إليها بعد معرفة جنّسها وطعمها، حيث إنهم إذا لم يعرفوا طعمها وخاصّيتها، ولم يشّتاقوا إليها في الدّنيا، لم يبادروا في الجنّة إلى تناولها، ولم يفرّحوا بها في بذو رؤيتها، وأما إذا كانوا مطّلعين على طعمها فرّحوا برؤيتها، وعلموا أنّها مما رزقوا في الدّنيا وإن كان التفاوت بينها وبين ما رزقوا في الدّنيا كتفاوت الدّنيا والآخرة، ولا يستحيل أخذها إلى ما يستحيل به ثمرات الدّنيا.

روي أنّه جاء رجلٌ من أهل الكتاب إلى النّبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم، تزعم أنّ أهل الجنّة يأكلون ويشربون؟ فقال: «نعم»، والذي نفس محمّد بيّده، إنّ أحدهم ليُعطى قوّة مائة رجل في الأكل والشّرب

والجماع».

قال: فإن الذي يأكل له حاجة، والجنة طيبة ليس فيها أذى؟ قال ﷺ: «حاجة أحدهم عرق ريقه كريح المسك»<sup>١</sup>.

ثم قال تعالى في وصف رزق الجنة: «وَأَتُوا بِهِ» وجئوا بذلك الرزق «مُتَشَابِهًا» ومتمثلاً في الحسن والكمال واللذة والنضج والطيب، ليس فيها غير منضوج ولا فاسد ولا قليل اللذة، بل كلها في الصفات الكمالية في أعلى درجة.

«وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ» طهرهن الله من الأدناس والأرجاس الجسمانية، من الخنيز والنفاس والاستحاضة، ومن الأخلاق الرذيلة والصفات الخسيسة.

قيل: فيه إشارة إلى نهاية كرامة المؤمنين، حيث إن الله تعالى بذاته المقدسة باشر تزيين أزواجهم. عن ابن عباس: خلق الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأنهب - أي الأبيض - ومن عنقها إلى رأسها من الكافور، إذا أقبلت يتلألأ نور وجهها كما تتلألأ الشمس لإهل الدنيا<sup>٢</sup>.

قيل: إنه بعد ملاحظة قوله تعالى: «الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ»<sup>٣</sup> يعلم أنهن لا يكن إلا للمطهرين من المعاصي والأخلاق السيئة والصفات الذميمة وحب الدنيا الدنيئة، المزينين بالملكات الحسنة والصفات الكريمة.

ثم أنه قد وردت روايات بأن زوجة المؤمن في الدنيا إذا كانت مؤمنة صالحة، تختص بزوجه في الجنة، وتنفق على حور العين في الحسنة والجَمال والثور والبهاء.

ثم اعلم أنه لما كان أصول النعم في الدنيا المسكن الطيب، والشراب الهنيء، والطعام اللذيذ، والزوجة الجميلة المحبوبة، بشر الله المؤمن بأن له هذه النعم في الآخرة.

ثم لما كان خوف زوال النعمة من متغصات العيش، بشر الله تعالى المؤمنين بدوام النعمة وبثباتهم في الجنة، بقوله: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» مقيمون أبداً، لا يخرجون منها ولا يموتون، فلا يخطر ببالهم احتيماً زوال النعمة وعوذة البلى والمحن الدنيوية.

٢. تفسير روح البيان ١: ٨٤.

١. تفسير روح البيان ١: ٨٤.

٣. النور: ٢٤/٢٦.

عن عكرمة، أنه قال: أهل الجنة ولد ثلاث وثلاثين سنة رجالهم ونساؤهم، وقامتهم سبعون ذراعاً على قامة أبيهم آدم، جرداً مكحلون، عليهم سبعون حلة، لكل حلة في كل ساعة سبعون لوناً، لا يبرقون ولا يتمخطون، وما كان فوق ذلك من أذى فهو أبعد، يزدادون كل ساعة حسناً وجمالاً كما يزداد أهل الدنيا هرمًا وضعفًا، لا يفتنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم<sup>٣</sup>.

في إثبات المعاد ثم أعلم أن المعاد الجسماني من ضرورات دين الإسلام، بل وسائر الأديان، والعقل القاطع والنقل الساطع حاكمان على إمكانه وقوعه، أما إمكانه عقلاً فلوضوح أن إيجاد عالم آخر، وإعادة الناس، ليس من الممتنعات الذاتية كشريك الباري، ولا من المحالات العرضية لعدم استلزامه لتقيح أو مُحالٍ، والقول بأن الزائل لا يمكن أن يعود - على فرض تسليمه - فإنما هو العود بعينه وبجميع مشخصاته الزمانية والمكانية وغيرهما.

وأما تصوير مادته بصورة مماثلة لصورتها السابقة، بحيث يقال: هذا هو، فليس من الإعادة التي قالوا بامتناعها، وهذه نظير لبنة سُويت أولاً بتراب مخصوص وقالب خاص، ثم كسرت وفتشت، ثم سُويت ثانياً بذلك التراب وذلك القالب، بحيث كل من رأى اللبنة الثانية قال: هي اللبنة الأولى<sup>٤</sup>. وأما قدرته تعالى فلا يتصور ولا يعقل فيها قصور عن الإعادة، وقد استدلل في مواضع من كتابه العزيز على قدرته على الإعادة بقدرته على الإبداء، قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمُتْ يَخْلُقْ بَقَادِرِ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَى﴾<sup>٥</sup> وقال: ﴿قُلْ يُخَيِّقُ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾<sup>٦</sup>.

بل لا شبهة أن الإعادة أهون من الإبداء لكونه بلامثال سابق كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾<sup>٧</sup> فلينظر العاقل إلى بدو خلقه، فإن مادة تطفئه كانت ذرات متفرقة في أطراف العالم، فجمعها الله تعالى في لئمة واحدة، ثم فرق فضلة الهضم الرابع منها كالذرات في جميع أعضائه بدن الرجل، ثم جمعها الله تعالى بالقوة الشهوية في وعاء المني، ولذا تلتد جميع الأعضاء بالوقوع، لحصول انجلال ذرات المني عنها، ثم أخرجها الله ماءً دافقاً إلى قرار الرحم، فمن هو قادر

١. في تفسير روح البيان: ستون.

٢. في تفسير روح البيان: ٨٤.

٣. وقد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المضمون راجع: الاحتجاج: ٣٥٤.

٤. الأحقاف: ٣٣/٤٦. ٥. يس: ٧٩/٣٦. ٦. الروم: ٢٧/٣٠.

٧. في تفسير روح البيان: آدم، شباب جرد مرد.



على جَمْعِ الذَّرَاتِ المتفرقة في اللُّقْمَةِ الواحدة، ثم تفريق ذرات فضلتها في جميع أعضاء الجسد، ثم جَمْعُهَا من تلك الأعضاء في وعاءٍ واحد، ثم خَلَقَهَا شخصاً عاقلاً بصيراً سميعاً، كيف يَعِجُزُ عن جَمْعِ أجزاءِ ثَرَابِهِ المتفرقة بالموت، وخَلَقَهَا مرةً أخرى بصورتها الأولى ١٩ بل هو سبحانه بالقُدْرَةِ على هذا الجَمْعِ والخَلْقِ أخرى وأولى، وقد نطَقَ الكتابُ العزيز بهذه الحُجَّةِ في مواضع:

منها: في سورة الحج قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِذَةً﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾<sup>١</sup>.

ومنها: قوله في الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ \* أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾<sup>٢</sup> إلى غير ذلك من الآيات.

ثم تفكَّر في قدرة الله في خَلْقِ الأشجار والزرع كما نبّه الله عليه بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾<sup>٣</sup> حيث إنَّ للأشجار نَوَاتٍ، وللزروع حُبُوباً، ولكلٍّ من النواة والحبوب أقسامٌ وأشكال، منها مَطْوُولٌ مشقوق كنواةِ الشَّعْرِ وَحَبُّ الجِنَطَةِ والشَّعِيرِ، ومنها غير مشقوق كالأرز، ومنها مُثَلَّثٌ، ومنها مُرْتَعٌ، ومنها مُدَوَّرٌ إلى غير ذلك من الأشكال.

فإذا وَقَعَ الحَبُّ في الأرض واستولت عليه الرطوبة، مع أنَّ مقتضى الطبيعة أن يتعفن ويفسد، ومع ذلك يحفظه الله ويُرَبِّيهِ بَيْنَ الْمُفْسِدَاتِ، ثم إذا ازدادت الرطوبة يظهر في رأس الحَبِّ الطَّوِيلُ ثَقْبٌ تَخْرُجُ منه رَقَّةٌ طَوِيلَةٌ كزَرْعِ الجِنَطَةِ والشَّعِيرِ وأمثالهما، وأما الحَبُّ غير الطَّوِيلِ فَيَنْفَلِقُ فِلَقَتَيْنِ فَيَخْرُجُ مِنْهُ رَقَّتَانِ، وأما النَّوَاءُ فَمَعَ ما فيها من الصَّلابة التي يَعِجُزُ عن فَلَاقِهَا أَغْلَبُ النَّاسِ فَتَنْفَلِقُ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا شَجَرَانِ: أَحَدُهُمَا صَاعِدٌ إِلَى السَّمَاءِ، لَهُ أُرَاقٌ وَغُصُونٌ وَثِمَارٌ، لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ لَوْنٌ وَطَعْمٌ وَطَبِيعَةٌ مُغَايِرٌ لِسَائِرِ الْأَجْزَاءِ، والشَّجَرُ الْآخَرُ هَابِطٌ غَائِصٌ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، مع اتِّحَادِ طَبِيعَةِ النَّوَاءِ وَغُضْبَرِهَا الْمَاءَ وَالْهَوَاءَ وَالثَّرَابَ.

ثم انظر كيف أودعت القُدْرَةُ في تَبْنِيكِ الشَّجَرَتَيْنِ الْأَجْزَاءِ النَّارِيَةِ التي تُبَايِنُ ما استقرت فيه من جميع الجهات، فَإِنَّ الشَّجَرَتَيْنِ هَابِطَانِ كَبِيفَاتٍ رَطْبَانِ بَارِدَتَانِ ظُلُمَانِيَّتَانِ، وَالنَّارُ صَاعِدَةٌ لَطِيفَةٌ

يَابِسَةً حَارَةً نَّورَانِيَّةً، وإليه أشار سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ \* ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾<sup>١</sup>.

والحاصل: أَنَّ مَنْ أَدْعَنَ بِإِمْكَانِ الإِعَادَةِ ذَاتًا وُوقِعَا، وَأَيَقَنَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ، لَا يَبْقَى لَهُ رَيْبٌ وَاشْكَالٌ، وَإِنَّمَا اِكْتَفَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي مَقَامِ الاسْتِدْلَالِ عَلَى الإِمْكَانِ بِالْمَقْدَمَةِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ كَمَالُ سَعَةِ قُدْرَتِهِ وَشُمُولِ حِكْمَتِهِ الظَّاهِرَانِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَارْسَالِ الرِّيحِ، وَإِنْشَاءِ السَّحَابِ، وَإِنزَالِ الْأَمْطَارِ، وَخَلْقِ الْأَشْجَارِ وَجَعْلِهَا بُيُوتَ النَّارِ، وَإِخْرَاجِ الثَّمَرِ، وَخَلْقِ الطُّفْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ولم يتعرَّضْ للمَقْدَمَةِ الْأُولَى لِعَدَمِ رَيْبٍ لِمُنْكَرِ الْحَشْرِ فِيهَا، نَعَمْ أَضَافَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ الاسْتِدْلَالَ بِوُقُوعِ نَظَائِرِ الْحَشْرِ فِي الدُّنْيَا، كإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِإِنزَالِ الْأَمْطَارِ، وَإِحْيَاءِ الْقَتِيلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِضَرْبِهِ بِجُزْءٍ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَإِحْيَاءِ الْأُلُوفِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَجَمْعِ الْأَعْضَاءِ الْمَتَفَرِّقَةِ مِنَ الطُّيُورِ الْأَرْبَعَةِ وَإِحْيَائِهَا لِإِبْرَاهِيمَ، وَإِحْيَاءِ النَّبِيِّ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا فَقَالَ: أَنْتَى يَحْيَى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، وَإِحْيَاءِ حِمَارِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ اَعْلَمَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْثَرَ فِي كِتَابَةِ الْعَزِيزِ مِنَ الاسْتِدْلَالِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ وَإِمْكَانِ الْمَعَادِ، لَوْضُوحِ عَدَمِ إِمْكَانِ التَّعْبُدِ فِيهَا، وَوُضُوحِ حُكْمِ الْعَقْلِ بِهَا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي أَقَامَهَا سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا اِكْتَفَى فِي وَقُوعِ الْمَعَادِ بِضَرْفِ الدَّعْوَى لِكِفَايَةِ إِمْكَانِهِ وَثُبُوتِ النَّبُوَّةِ وَإِخْبَارِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِوُقُوعِهِ فِي ثُبُوتِهِ، وَالْيَقِينِ بِهِ، فَإِنَّ الْيَقِينَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِخْبَارِهِ بِوُقُوعِهِ مُسْتَلَزِمٌ لِلْيَقِينِ بِهِ، مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ حَاكِمٌ بِوُجُوبِ وَقُوعِهِ لَوُجُوبِ:

[١] منها: أَنَّ حِكْمَةَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ غَيْرُهُ مِنْ عَالَمِ الْأَجْسَامِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْمَعَادِ، بَلْ لَوْلَا الْمَعَادُ لَكَانَ خَلْقُهُ وَخَلْقُ الْعَالَمِ عَبَثًا لَا يَلِيقُ صُدُورُهُ مِنَ الْحَكِيمِ تَعَالَى شَأْنُهُ.

أَمَّا قَوْلُنَا: إِنَّ غَيْرَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ خُلِقَ لَهُ، فَلَأَنَّ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْأَجْسَامِ بَلْ جَمِيعِ الْعَوَالِمِ مَرْتَبُطَاتٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كَأَعْضَاءِ شَخْصٍ وَاحِدٍ، وَجَمِيعُهَا مُحْصَلَاتٌ لِفَرْضٍ وَاحِدٍ وَمَقْدَمَاتٌ لِنَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ، كَشَجَرَةٍ غَرِسَتْ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَتِهَا.

وَمِنِ الْوَاضِحِ أَنَّ النَتِيجَةَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنِ الْمَقْدَمَاتِ، وَالثَّمَرَةُ مُتَأَخِّرَةٌ وَجُودًا عَنِ الشَّجَرَةِ، لِأَنَّ الْعِلَّةَ

الغائية وإن كانت بوجودها العلمي بتقدمة على معلولها ولكن بوجودها الخارجيّ متأخرة عنه.  
فعلى هذا، لما عَلِمْنَا أَنَّ وجود السَّمَاوَاتِ بما فيها من الكواكب والأرض وما فيها من الجبال والبحار، سابقٌ على وجود الإنسان، عَلِمْنَا أَنَّ جميعها مَقْدَمَاتٌ لوجوده ومخلوقاتٌ له، وأما النباتات وسائر الحيوانات فلما رأينا أَنَّ الإنسان قاهرٌ على جميعها، متفَعٌّ بأغلبها، أَكْمَلُ مِن كُلِّها، عَلِمْنَا أَنَّهُ عِلَّةٌ غَائِيَّةٌ لَجَمِيعِها، لأنَّ الأَشْرَفَ الأَكْمَلُ لا يُمكن أن يكون مَقْدَمَةً للأَخْسَ الأنْقَص، ولا يُعَقَّلُ أن يكون الأَخْسَ عِلَّةً غَائِيَّةً لوجود الأَشْرَف، فثبت أَنَّ غير الإنسان من المَوْجُودَاتِ الجسمانيَّة مخلوقٌ له، وهو عِلَّةٌ غَائِيَّةٌ لِإِبْجَادِ غَيْرِهِ.

وأما قولنا: إِنَّه لولا المَعَادُ لكانَ خَلَقَ الإنسانَ عَبَثًا، فَلأنَّه لا يَجِدُ أن يكونَ لِخَلْقِ الإنسانِ الذي هو أَعْجُونَةُ الكَوْنِ، وَآيَةُ عَالَمِ المُلْكِ والمُلْكُوتِ مِن غَرَضٍ مُهِمٌّ لائقٍ بالحَكِيمِ، وصَلاحٍ مُلْزِمٍ في نَظَرِ العقلِ السَّليمِ، ولا يُمكن أن يكونَ الغَرَضُ والمَصْلَحَةُ في خَلْقِهِ هو التَّعْيِشُ في هذا العَالَمِ مَدَّةً قَلِيلَةً، والتمتُّعُ بِأَمْتِعِها الخَسيَّةِ الرَّذيلَةِ، مع شُوقِها بِالآلَامِ الكَثِيرَةِ والأسقامِ الوَفيرَةِ، والبَلايا والمَنايا، والهُمُومِ والغُومِ، والمُضَارِّ والمُشاقِّ، أَضعافُ ما يُصيبُ مِنَ اللَّذَّةِ والتمتُّعِ، ثُمَّ يكونُ مَوْتٌ وانْعِدَامٌ، لِبَدَاهَةِ عَدَمِ صَلاحِيَّتِهِ لأن يكونَ غَرَضًا للحَكِيمِ في هذا الخَلْقِ القَوِيمِ الذي أمرَ ملائِكَتَهُ بالسُّجُودِ له<sup>١</sup> الذي هو أَعْلَى مُراتِبِ التَّعْظِيمِ.

فإِذْ لا يُتَصَوَّرُ غَرَضٌ آخَرُ في خَلْقِهِ إِلاَّ تَحْصِيلُهُ الكَمالاتِ النَفسانيَّةِ، واكتسابُهُ المَلَكاتِ الجَميلَةِ الرُوحانيَّةِ وارْتِقاؤُهُ إِلى دَرَجَاتِ القُرْبِ والعبوديَّةِ بالمَعَارِفِ الإلهيَّةِ والأَعْمالِ الصالِحَةِ، ولا يَنِمُّ إِلاَّ بِجَعْلِ التكاليفِ والأحكامِ المُولَوِيَّةِ وإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، فلو لم يَكُنْ عَالَمٌ آخَرُ يُجْزَى وَيُثابُ فِيهِ المُطِيعُ، وَيُعْزَى وَيُعاقَبُ فِيهِ العاصي، لَزِمَ كونهما مُتساوِيَيْنِ، وعَدَمُ المَزيَّةِ في البَيِّنِ، بل كَوْنُ العاصي أَحْسَنَ حالًا مِنَ المُطِيعِ لئلَذَّةِ بالمُشْتَهياتِ النَفسانيَّةِ واستِيفادَتِهِ بِالأمْتِعةِ الدُنيويَّةِ أَزِيدَ مِنَ المُؤْمِنِ المُطِيعِ، لكَوْنِهِ مَدَّةَ عُمُرِهِ في تَعَبِ الطَّاعَةِ ومُشَقَّةِ الرُّهْدِ والرياضَةِ.

فثبتَ أَنَّهُ لا يَجِدُ مِنَ عَالَمٍ آخَرٍ يَجِدُ المُطِيعُ فِيهِ ثَوَابَ طاعَتِهِ، والعاصي ثِباتٍ مَعْصِيَتِهِ، قال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾<sup>٢</sup>.

[٢] ومنها: أَنَّهُ لا شُبْهَةَ أَنَّ الإنسانَ خَلِقَ مَدَنِيًّا بِالطَّبيعِ، بِمعْنى أَنَّهُ لا يُمكن لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُ التَّعْيِشُ إِلاَّ

بالاجتماع مع غيره والاستعانة بسائر بني نوعه لكثرة حوائجه وعدم إمكان قيام كل واحد بجميعها، ثم أنه من البديهي أن طياع بني آدم باقتضاء الجهة الحيوانية مجبولة على الظلم والعدوان، ولذا نرى الغالب منهم بين ظالم ومظلوم، وشاتم ومشتوم، وقاتل ومقتول، وغار ومغرور، وحاصر ومحصور، وكثيراً ما لا يقدر المظلوم في هذه الدنيا على الانتصار من ظالمه، ويبقى الظلم في هذا العالم بلا مكافأة ومجازاة، ومقتضى العدل والحكمة انتصاره تعالى من الظالم للمظلوم، فلو لم يكن عالم آخر يؤخذ الظالم فيه بظلمه، ويُجزى المظلوم على صبره وكظمه، لزم خلاف العدل وعدم قيامه تعالى في عباده بالقسط، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

[٣] ومنها: أن من الواجب في النظام الأتم بعث الرسل وجعل التكليف على العباد، لأنهما من اللطف الواجب على الله تعالى، ومن الواضح أنه لولا جعل المجازاة على موافقة التكليف ومخالفتها، والوعد بالثواب والوعيد بالعقاب على طاعتها وعصيانها، لكان البعث والتكليف لغواً، لعدم إمكان اتباع الأتم رسلهم، وتحمل الناس مشقة الطاعة والتزامهم بالقوانين الإلهية، لعدم الداعي في النفوس إلا الخوف والطمع، فلا بد في الحكمة والنظام الأتم من جعل الثواب والعقاب على الطاعة والمعصية، إما في هذا العالم، أو في عالم آخر، ولما لم يكن في الدنيا، فلا بد من الحشر في عالم آخر حتى ينال فيه المستحق ما استحقه من الجزاء، ولذا لم يبعث رسول إلا وأخبر بالحشر والنشر بعد الموت، والثواب والعقاب في عالم الآخرة.

في إثبات وجوب      ثم اعلم أن هذه الوجوه وإن كانت لا تفي بإثبات أزيد من المعاد في الجملة،  
كون المعاد      والمنتقن منه المعاد الروحاني، ولذا قال جمع بأنه لا طريق للعقل إلى الجسماني منه،  
جسمانياً بالأدلة      بل طريق إثباته منحصر بالنقل، إلا أن الحق أنه أيضاً مما يحكم به العقل لوجوه:  
العقلية

[١] منها: أنه لا شبهة أن حد استحقاق الثواب والعقاب لا بد أن يكون في حكم العقلي على حد حسن العمل وقبحه، ولا ريب أن مشأهما قد يكون في نفس العمل مع قطع النظر عن الجهات الخارجية الطارئة، كحسن العدل والإحسان، وقبح الظلم والعدوان، وقد يكون بالنظر إلى الجهة الخارجية الطارئة، وقد يكون للجهتين معاً كصيرورة عمل قبيح متعلقاً لنهي المولى، لبداية أن حق المولى على العبد إطاعة أوامره ونواهيه، فإذا خالف حكمه كان ظالماً عليه.

ثم لا شبهة أنه تنفاوت الجهات الأولية في مشيئتها لانزعاج الحسن والقبح شدة وضعفاً، لبداية

إقوائته منشأ قُبْح الرِّزَا مِنْ مِّنْشَأ قُبْح النَّظَرِ وَالْقُبْلَةِ، وَمِنْشَأ حُسْنِ الْعَدْلِ مِنْ مِّنْشَأ حُسْنِ الْإِحْسَانِ، وَكَذَلِكَ تَنَفَّاهُتِ الْجِهَاتُ الْخَارِجِيَّةُ الطَّارِئَةُ عَلَى الْعَمَلِ لَوْضُوح تَقَاوُثِ مَرَاتِبِ عَظَمَةِ الْمَوْلَى وَمَقْدَارِ حَقْوَقِهِ وَنِعَمِهِ، وَدَرَجَاتِ تَأَكُّدِ طَلَبِهِ وَأَهَمِّيَّةِ غَرَضِهِ، وَتَقَاوُثِ قُبْحِ مَغْضَبِيهِ وَحُسْنِ طَاعَتِهِ بِذَلِكَ التَّفَاوُثِ، فَإِنَّ فِي ارْتِكَابِ مُخَالَفَةِ الْمَوْلَى هُنَاكَ حُرْمِيَّةَ وَالْجَزَاءُ عَلَيْهِ وَتَضْيِيعِ حَقِّ مَسْئُولِيَّتِهِ وَكُفْرَانَ نِعَمَتِهِ، وَفِي طَاعَتِهِ تَعْظِيمَهُ وَحِفْظَ حُدُودِهِ وَأَدَاءَ حَقِّهِ وَشُكْرَ نِعَمَتِهِ، فَكَلَّمَا أَزْدَادَ الْمَوْلَى عَظَمَةً وَنِعْمَةً أَزْدَادَ عَصِيَانَتِهِ قُبْحًا وَطَاعَتَهُ حُسْنًا.

إِذَا تَمَّهَدَ ذَلِكَ نَقُولُ: لَا شُبْهَةَ أَنْ عَظَمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِلَا نِهَآيَةٍ، وَنِعَمَتُهُ غَيْرُ مَعْدُودَةٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شِدَّةُ قُبْحِ مُخَالَفَتِهِ وَحُسْنِ طَاعَتِهِ وَكَذَا اسْتِحْقَاقُ الْعَبْدِ الْعَقُوبَةَ عَلَى الْأُولَى وَالْمَثُوبَةَ عَلَى الثَّانِيَةِ غَيْرِ مُتَنَهِِيَيْنِ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ غَيْرِ الْمُتَنَهِِيَيْنِ شِدَّةً وَكَيْفِيَّةً غَيْرِ مُمَكِّنِ الْوُجُودِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْوَاقِعُ مَحْدُودًا وَإِنْ كَانَ الْاسْتِحْقَاقُ فَوْقَهُ.

وَلَا شُبْهَةَ أَنْ الْعَذَابَ الْجِسْمَانِيَّ زَائِدًا عَلَى الْآلَامِ الرُّوحَانِيَّةِ مُمَكِّنِ الْوُجُودِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْحُكْمِ بِاسْتِحْقَاقِهِ، وَكَذَلِكَ الثَّوَابِ، فَإِذَا ثَبَتَ الْاسْتِحْقَاقُ فَلَا بُدَّ أَنْ تُكْسَى الرُّوحُ كُشُوءَ الْجَسَدِ لِيَصِيرَ قَابِلًا لِدُورِ الْعَذَابِ الْأَشَدِّ.

إِنْ قِيلَ: إِعَادَةُ الْجِسْمِ وَاجِبَةٌ إِذَا كَانَ الْعَذَابُ الْجِسْمَانِيَّ وَاجِبًا، وَأَمَّا مَعَ حُسْنِ الْعَفْوِ فَلَا. قُلْنَا: مِصْدَاقُ الْعَفْوِ عَنِ الْعَذَابِ الْجِسْمَانِيَّ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا مَعَ إِمْكَانِ الْعَذَابِ وَهُوَ مَوْقُوفٌ عَلَى وَجُودِ الْجِسْمِ.

إِنْ قِيلَ: سَلَّمْنَا وَجُوبَ إِيجَادِ جِسْمٍ تَتَعَلَّقُ بِهِ الرُّوحُ لِإِمْكَانِ الْعَذَابِ الْجِسْمَانِيَّ أَوْ الْعَفْوِ عَنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ لَا تُسَلَّمُ وَجُوبَ إِعَادَةِ الْجِسْمِ الَّذِي كَانَ الرُّوحُ مُتَعَلِّقًا بِهِ فِي الدُّنْيَا.

قُلْنَا: لَا بُدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِوُجُودِ مَرْجِعٍ فِي الْخَلْقِ الْأَوَّلِ لِعَرُوضِ الصُّورَةِ الْمَخْصُوصَةِ عَلَى مَادِّيَّهَا الْخَاصَّةِ، وَلِحُلُولِ الرُّوحِ الْخَاصِّ فِي الْجَسَدِ الْمَخْصُوصِ لِثَلَا يَلْزَمُ التَّرْجِيحُ بِلَا مُرْجَحٍ، وَلَيْسَ إِلَّا التَّنَاسُبُ وَالسِّنْخِيَّةُ بَيْنَ الْعَارِضِ وَالْحَالِ، وَبَيْنَ الْمَعْرُوضِ وَالْمَحَلِّ الْمَخْصُوصَيْنِ وَعَدَمُهُمَا مَعَ غَيْرِهِمَا، وَهَذَا الْمَرْجِعُ وَالْمُقْتَضَى مَوْجُودٌ فِي الْخَلْقِ الثَّانِي، وَعَلَى هَذَا لَا يُمَكِّنُ تَعَلُّقُ الرُّوحِ الْمَخْصُوصِ إِلَّا بِذَلِكَ الْجَسَدِ الَّذِي كَانَ مُتَعَلِّقًا بِهِ، فَيَجِبُ إِعَادَتُهُ.

[٢] وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ مُقْتَضَى لُزُومِ سِنْخِيَّةِ الرُّوحِ مَعَ جَسَدِهِ الْخَاصِّ بِهِ، لُزُومُ تَعَلُّقِ الرُّوحِ

الْخَيْثُ بِالْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ مِنَ الطِّينَةِ الْخَبِيثَةِ، وَحَيْثُ لَا بَدْ مِنْ تَأْثِيرِ كُلِّ مِنْهُمَا بِعَلَاقَةِ الْمُجَاوِرَةِ فِي  
ازدياد خَبَائِثِ الْآخِرِ، فَإِذَا كَانَا شَرِيكَيْنِ فِي التَّلَذُّذِ بِالْمُسْتَهْجَاتِ وَالْخَبَائِثِ وَدَحِيلَيْنِ فِي ازديادها، لَا بَدْ فِي  
حُكْمِ الْعَقْلِ مِنْ اشْتِرَاكِهِمَا فِي لَوَازِمِ الْخَبَائِثِ وَالْمَعْصِيَةِ وَهِيَ الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يُعَادِ الْجَسَدُ لَا  
زدياد عَذَابِ الرُّوحِ.

[٣] ومنها: أَنَّهُ بَعْدَ مَا عَرَفْتَ أَنَّ الْوَعْدَ بِالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ مِنْ مُتَمَمَّاتِ حِكْمَةِ التَّكْلِيفِ، وَمِنْ  
الوَاجِبَاتِ فِي النِّظَامِ الْأَتَمِّ، لَا بَدْ مِنَ الْقَوْلِ بِوُجُوبِ الْوَعْدِ بِالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ الْجِسْمَانِيَيْنِ، لِقُصُورِ فَهْمِ  
عُمُومِ النَّاسِ عَنْ ذَلِكَ الرُّوحَانِيَيْنِ مِنْهُمَا، فَوُجِبَ عَلَى اللَّهِ إِعَادَةُ الْجِسْمِ حَتَّى يُمَكِّنَ إِنْجَازَ الْوَعْدِ، أَوْ  
يَصْحَ الْعَفْوُ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا  
فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا  
مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ \* الَّذِينَ  
يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ  
فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ \* كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ  
ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ  
جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ [٢٦-٢٩]

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ الْعَدِيدَةَ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، تَعَرَّضَ لِدَفْعِ شُبُهَاتِ  
الْكُفَّارِ فِي ضَرْبِهِ الْأَمْثَالَ فِي الْقُرْآنِ.

رَوَى أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِي كِتَابِهِ، وَضَرَبَ لِلْمُشْرِكِينَ الْمَثَلَ بِهِمَا، ضَحَكَتِ الْيَهُودُ  
وَقَالُوا: مَا يُشَبِّهُ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ<sup>١</sup>، وَكَانَتْهُمْ اعْتَرَضُوا عَلَى الْكِتَابِ الْمَجِيدِ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَمْثَالِ الَّتِي لَا  
تَلِيقُ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ لِتَوْهُمِهِمْ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الدَّنِيَّةَ الصَّغِيرَةَ لَا تُنَاسِبُ أَنْ يَذْكُرَهَا الْعَظِيمُ الْمُتَعَالِ

في كلامه.

وقيل: إنهم قالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فرّد الله عليهم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ فِي نَهَايةِ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّانِهِ ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ وَلَا يَرَى عَلَى ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ عَيْنًا مِنْ «أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا» مِنْ الْأَمْثَالِ، وَأَيُّ مَثَلٍ كَانَ، كَانَ الْمُثَلُّ بِهِ «بَعْوَضَةً» قِيلَ: هِيَ أَصْغَرُ مِنَ الْبَقِّ، وَفِيهَا مِنْ ظُهُورِ قُدْرَةِ اللَّهِ مَا لَا يَكُونُ فِي الْفِيلِ؛ لِأَنَّهَا مَعَ صِغَرِ حَجْمِهَا لَهَا جَمِيعُ أَعْضَاءِ الْفِيلِ مَعَ زِيَادَةِ جَنَاحَيْهَا، وَخُرُطُومِهَا مَعَ كَوْنِهِ مُجَوَّفًا وَفِي غَايَةِ الصِّغَرِ يَغْوُضُ فِي جِلْدِ الْفِيلِ وَالْجَامُوسِ عَلَى ثَخَانِيَّتِهِ كَمَا يَغْوُضُ إصْبَعُ الرَّجُلِ فِي الْخَبِيصِ، وَذَلِكَ لِمَا رَكَّبَ اللَّهُ فِي رَأْسِ خُرُطُومِهَا مِنَ السَّمِّ.

وقيل: إنها تحيا ما جاعت، وتموت إذا شبعَتْ<sup>١</sup>.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ وما هو الأكبر منها كالذباب والعنكبوت وغيرهما، فَإِنَّ الْمَنْظُورَ مِنَ التَّمَثِيلِ تَوْضِيحُ الْمَقْصُودِ وَكَشْفُ الْمَسْتَوْرِ بِالظَّاهِرِ الْمَحْسُوسِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَى حَقَارَةِ الْمُثَلِّ بِهِ وَجَلَالَتِهِ وَصِغَرِهِ وَكِبَرِهِ، وَلَا إِلَى ذِنَافَتِهِ وَشَرَفِهِ، بَلْ يُنْظَرُ إِلَى مُطَابَقَةِ الْمَثَلِ لِلْمُثَلِّ لَهُ، وَهُوَ حَاصِلٌ فِي أَمْثَالِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّحْوِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ.

وقيل: إن كلمة (فوق) من الأضداد، تُطْلَقُ عَلَى الْأَعْلَى وَالْأَدْنَى وَعَلَى هَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ (مَا فَوْقَهَا) بِمَعْنَى: مَا دُونَهَا، وَمَا هُوَ أَصْغَرُ مِنْهَا.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَكُتِبَ لَهُمْ «فَيَعْلَمُونَ» بِسَبَبِ سَلَامَةِ عُقُولِهِمْ، وَيَصِيرَةِ قُلُوبِهِمْ، وَطَهَارَةِ نَفْسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْعِيَادِ وَحُبِّ الدُّنْيَا حِينَ يَسْمَعُونَ الْمَثَلَ «أَنَّهُ الْحَقُّ» الثَّابِتُ «مِنْ رَبِّهِمْ» لَا مَجَالَ لِانْكَارِهِ وَالاعتِرَاضِ عَلَيْهِ، لَكَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَالْبَلَاغَةِ، وَكَشْفِهِ عَنِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ الْكَثِيرَةِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْأَمْثَالِ جَاءَ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ كَالْإِنْجِيلِ وَغَيْرِهِ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ وَعَادُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَجَحَدُوا بِكَابِهِ «فَيَقُولُونَ» عِنْدَ سَمَاعِ الْمَثَلِ، اسْتِحْقَارًا لَهُ، لِقُصُورِ عُقُولِهِمْ، وَقِلَّةِ أَفْهَامِهِمْ، وَعَمَى قُلُوبِهِمْ، وَفَسَادِ أَخْلَاقِهِمْ: «مَآذًا» وَأَيُّ شَيْءٍ «أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا» الْمَثَلِ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ «مَثَلًا»؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ نَفْعٌ فَضَرُّهُ يُسَاوِي نَفْعَهُ، لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» مِنَ النَّاسِ لِجَهْلِهِمْ بِمَوْقِعَةِ الْأَمْثَالِ «وَيُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» لِأَعْيُنِهِمْ كَمَالِ حُسْنِهِ وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» الْخَارِجِينَ عَنْ حُدُودِ

العقلي وشؤون الانسانية وطريق الحق والصواب.

ثم كانه قيل: من الفاسقون؟ فعرفهم أولاً بفساد العقائد بقوله: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ» ويخالفون «عَهْدَ اللَّهِ» الذي أخذ منهم على توحيدهم ورسالة رسوله وولاية علي والمعصومين من ذريته عليه السلام، وجوب طاعتهم، ومحبة المؤمنين وموَدَّتْهم في عالم الدُّر، بقوله: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ» وفي هذا العالم بإقامة الحجج القاطعة والبراهين الساطعة التي هي في حكم العهد «مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» وإحكامه، وإتقانه.

ثم ذمهم ثانياً بالإساءة إلى الأقارب بقوله: «وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» من الأرحام والقربات النسبية الجسمانية بتزك تعاهدتهم ومنع حقوقهم، ومن القربات الروحانية وهم الأنبياء والأوصياء الذين هم آباء أممهم وأشياعهم لتوليدهم روح الإيمان في قلوبهم، ولكون طيبتهم من سحالة طيبتهم الطيبة، والمؤمنون الذين هم إخوة حقيقة في الدنيا والآخرة، لكونهم بجهة إيمانهم أولاد آب واحد وهو نبينهم، وفي تربية مرب واحد هو الإمام والوصي، وكون جميعهم مخلوقين من أصل واحد وطينة واحدة، ولذا جعل الله بينهم حقوق الإخوة.

في الحديث: «إِذَا أَظْهَرَ النَّاسَ الْعِلْمَ وَضَيَّعُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَتَحَابُّوا بِاللَّسَنِ وَتَبَاغَضُوا بِالْقُلُوبِ، وَتَقَاعَطُوا الْأَرْحَامَ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَصْبَحُوا أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ»<sup>٢</sup>.

ثم ذمهم ثالثاً بفساد الأعمال بقوله: «وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» بقبض الحقوق، وتشبيد الكفر، وتضعيف الإسلام، والصد عن سبيل الحق، وإلقاء الشبه في قلوب المؤمنين «أُولَئِكَ» الموصوفون بتلك الصفات النعمية «هُمْ الْخَاسِرُونَ» في تجاربتهم، المغبونون في معاملتهم، كانه لإغاية خسارتهم لا يكون خاسر سواهم، حيث إنهم حرّموا الجنات والنعم الأبدي، ولزمهم التيران والعذاب المخلد.

ثم لما حكى الله تعالى مقالة الكفار وتهكمهم بالقرآن، وشدة كفرهم، ونهاية طغيانهم وعيانيهم، وجه الخطاب إليهم بالتوبيخ والتعريض بقوله: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ» ويؤخذانيتهم، «وَالْحَالُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا» لا حياة لكم، وتطفأ في أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم «فَإَحْيَاكُمْ» بخلق الأرواح ونفخها في أجسادكم بلا مزاج، فبدأ الله بتذكيرهم ما هو الأصل لجميع النعم، وهو نعمة الحياة، لأنه



كَلَمَّا عَظُمَت نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَى الْعَبْدِ عَظُمَت مَغْصِبُهُ إِيَّاهُ.

ثُمَّ ذَكَرَهُمْ زَوَالَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي صَارَتْ سَبَباً لَغُرُورِهِمْ بِقَوْلِهِ: «ثُمَّ» بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْإِحْيَاءِ وَتَعْمِيرِكُمْ فِي الدُّنْيَا «يُعَيِّنُكُمْ ثُمَّ» بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الْإِمَامَةِ الَّتِي فِيهَا تُجَهِّزُونَ وَتُقْبَرُونَ «يُخَيِّبُكُمْ» فِي الْقُبُورِ لِلسُّؤَالِ وَلِلنَّعْمِ الْمُطِيعِ وَلِلْعَذَابِ الْعَاصِي «ثُمَّ» بَعْدَ الْإِمَامَةِ فِي الْقَبْرِ «إِلَيْنِ» وَإِلَى سُلْطَانِهِ وَحُكْمِهِ «تَرْجِعُونَ» وَتُخَيَّنُونَ ثَالِثاً لِلتُّشُورِ.

وَقِيلَ: أَيُّ تَرْجِعُونَ إِلَى مَا وَعَدَكُمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِكُمْ، لَا إِلَهَ فِي مَكَانٍ كَمَا تَوْهَّمُهُ الْمُجَسِّمَةُ.

إِنْ قِيلَ: كَيْفَ اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمُ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَامَةِ فِي الْقَبْرِ، ثُمَّ بِالْإِحْيَاءِ فِي الْمَخْشَرِ مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ؟

قُلْنَا: تَمَكَّنْهُمْ مِنْ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ جَعَلَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَالَمِينَ.

ثُمَّ أَرَدَفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نِعْمَةَ الْحَيَاةِ بِذِكْرِ سَائِرِ النِّعَمِ الْجَسِيمَةِ الَّتِي خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَوْلِهِ: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ» بِقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ «مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» مِنَ الْأَشْيَاءِ كَيْ تَتَفَعَّلُوا بِهَا فِي دُنْيَاكُمْ وَدِينِكُمْ، بَأَن تَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى خَالِقِكُمْ، وَتَعْتَبِرُوا بِهَا وَتَتَوَصَّلُوا إِلَى رِضْوَانِهِ، وَتُصْلِحُوا بِهَا أَبْدَانَكُمْ، وَتَتَّقُوا بِهَا عَلَى طَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَتُقْبِرُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ بَعْثِكُمْ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ خَلَقَ عَالَمَ الْأَجْسَامِ لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ وَتَبِيعِهِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ جَوْهَرَةً طَوَّلَهَا وَعَرْضُهَا مَسِيرَةُ أَلْفِ سَنَةٍ فِي مَسِيرَةِ عَشْرَةِ أَلْفِ سَنَةٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا بِالْهَيْبَةِ فَذَابَتْ وَاضْطَرَبَتْ، ثُمَّ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَارْتَفَعَ وَاجْتَمَعَ زَبَدٌ فِقَامُ فَوْقِ الْمَاءِ، فَجَعَلَ الزَّبَدُ أَرْضاً وَالدُّخَانُ سَمَاءً<sup>١</sup>.

«ثُمَّ أَسْتَوَى» وَتَوَجَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْإِرَادَةِ وَالْإِجَادِ، وَقَصَّدَ قَصْداً سَوِيّاً لَا يَلُوبُهُ عَنْهُ شَيْءٌ «إِلَى» خَلَقَ «السَّمَاءَ فَسَوَّاهُنَّ» وَخَلَقَهُنَّ مُعْتَدِلَاتٍ «سَنَعَ سَمَاوَاتٍ» طِبَاقاً لَيْسَ فِيهَا خَلَلٌ وَلَا فَطُورٌ وَلَا اعْوِجَاجٌ.

عَنْ سُلَيْمَانَ: اسْمُ الْأَوَّلَى رَفِيعٌ<sup>٢</sup> وَهِيَ [عَنْ] زَمْزَمَةَ خَضِرَاءَ، وَاسْمُ الثَّانِيَةِ أَرْفَلُونَ وَهِيَ مِنْ فَضَّةٍ

٢. في تفسير روح البيان: رفيع.

١. تفسير روح البيان ١: ٩١.

بيضاء، والثالثة قِيدُون<sup>١</sup> وهي من ياقوتة حَمراء، والرابعة ماعون وهي من دُرَّة بيضاء، والخامسة دِفَاء<sup>٢</sup> وهي من ذهب أحمر، والسادسة وفناء وهي من ياقوتة صَفراء، والسابعة عَرُوباء وهي نورٌ يَتَلَا<sup>٣</sup>.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من حقائق الموجودات واستعداداتها ومنافعها ومصالحها الرجعة إلى العالم ﴿عَلِيمٌ﴾ مُحِيطٌ، لا يَعْزُبُ عنه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ.

وفي التذييل به دلالة على أن عِلَّةَ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ على هذا النَمَطِ الأكْمَلِ، عِلْمُهُ بِكُنْهَيْهَا ومصالحها، كما أن هذا النَسَقَ الْعَجِيبَ، والترتيب الأثيق في الخَلْقِ دَالٌّ على كَمالِ عِلْمِهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ.

في بيان أن خلق الأرض قبل السماء ثم أعلم أن المُسْتَفَادَ من هذه الآية وغيرها أن خَلَقَ الْأَرْضَ وما فيها كَانُ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، ومُقْتَضَى قوله تعالى في (النازعات): ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾<sup>٤</sup> أن خَلَقَ الْأَرْضَ كَانُ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ.

وقيل في الْجَمْعِ بَيْنَهَا: إنَّ ﴿ثُمَّ﴾ في تلك الآيات ليس للترتيب، بل إنما هو على جِهَةٍ تَعْدِيدِ النِّعَمِ، كما يقول الرَّجُلُ لغيره: أليس قد أعطيتك النِّعَمَ الْعَظِيمَةَ، ثُمَّ رَفَعْتُ قَدْرَكَ، ثُمَّ دَفَعْتُ الْخُصُومَةَ عَنْكَ؟ ولعلَّ بعض ما أُخِّرَ ذِكْرَهُ قد تَقَدَّمَ<sup>٥</sup>.

وقيل: إنَّ كلمة ﴿بَعْدَ﴾ في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بمعنى (مع) مثل كلمة (بَعْدَ) في قوله ﴿عَتَلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمَ﴾<sup>٦</sup>.

وقيل: إنَّها على أصلها، وإنَّ خَلْقَ الْأَرْضِ كان قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، وذَوَّهَا بَعْدَهُ، لِمَا رَوَى عن ابن عباس قال: خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ولم يَدْحُهَا، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهَا<sup>٧</sup>.

في اعتراض الفخر الرازي على قول ابن عباس وجوابه  
وردَّ هذا القول بوجهين:  
الأول: أن الأرض جسمٌ عظيم لا يُمكن انفكاكُ خَلْقِهَا عن التَّدْحِيَةِ، فإذا كانت التَّدْحِيَةُ متأخرة، كان خَلْقُهَا متأخراً.

١. في تفسير روح البيان: قِيدُون.

٢. تفسير روح البيان ١: ٩١.

٣. تفسير الرازي ٢: ١٥٥.

٤. في تفسير روح البيان: دِفَاء.

٥. النازعات: ٣٠-٢٧/٧٩.

٦. القلم: ١٣/٦٨.

٧. الدر المنثور ٨: ٤١٢.

وفيه: **أَنَّ التُّدَجِيَّةَ تُسَوِّئُهُ سَطْحُهَا لَا تَوْسَعُهَا.**

والثاني: **أَنَّ آيَةَ ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ خَلْقَ مَا فِي الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَخَلْقَ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يَبْدَأُ أَنْ يَتَكُونَ بَعْدَ التُّدَجِيَّةِ .**

وفيه: **أَنَّ خَلْقَ مَا فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْمَعَادِنِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِهَا، وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَلْزِمُ تَسْطِيحَ وَجْهِ الْأَرْضِ، إِلَّا أَنَّ الْإِنْفَاعَ بِهَا مَتَوَقَّفٌ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ الْعَالِمُ.**

إِنْ قِيلَ: **مَقْتَضَى الْآيَةِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعٌ، وَأَهْلُ الرُّضْدِ قَائِلُونَ بِهَا تِسْعَةً.**

قُلْنَا: **إِنْ صَحَّ قَوْلُ الرُّضْدِيِّينَ، يُحْمَلُ السَّبْعُ عَلَى مَا سَوَى الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ.**

**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ \* وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [٣٠-٣٢]**

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ نِعْمَةِ الْحَيَاةِ وَنِعْمَةِ خَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ وَنِعْمَةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، ذَكَرَ النِّعْمَةَ الرَّابِعَةَ وَهِيَ خَلْقُ آدَمَ وَتَعْظِيمَةُ إِيَّاهُ، وَتَشْرِيفُهُ بِالْعِلْمِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَكُلُّهَا مِنَ النِّعَمِ الْجَارِيَةِ فِي دَرْجَتِهِ، وَبِمَكْنِ أَنْ يَكُونَ وَجْهَ النُّظْمِ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ عِلْمَهُ وَإِحَاطَتَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ فِي قَضِيَّةِ خَلْقِ آدَمَ شَهَادَةً عَلَى كَمَالِ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ بِخَفَائِقِ الْمَوْجُودَاتِ وَحُكْمِهَا قَبْلَ إِبْجَادِهَا، شَرَعَ فِي بَيَانِهِ بِقَوْلِهِ: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾** وَتَذَكَّرَ حِينَ أَوْحَى **﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾** جَمِيعَهُمْ، أَوِّلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ طَرْدِ بَنِي الْجَانِّ مِنْهَا **﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾** بِالْخَلْقِ أَوِ النَّصْبِ **﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** وَبَدَلًا مِنْكُمْ وَمِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فِيهَا، وَرَافِعُكُمْ إِلَى السَّمَاءِ، هَكَذَا قِيلَ ٢.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَلِيفَةِ هُوَ الْحُجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ مِنَ اللَّهِ، إِذِ الْجَعْلُ أَظْهَرَ فِي النَّصْبِ مِنَ الْخَلْقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾** ٣ وَقَالَ مُخَاطِبًا لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي**

٢. تفسير روح البيان ١: ٩٣.

١. تفسير الرازي ٢: ١٥٥.

٣. البقرة: ١٢٤/٢.

الأرض»<sup>١</sup> وعلى هذا التفسير جمع من العامة. وقال بعضهم: إن الله يحفظ العالم بالخليفة كما يحفظ الخزائن بالختم<sup>٢</sup>.

قيل: إن حكمة إظهار هذه الإرادة للملائكة تعليم العباد المشاورة في الأمور، أو سؤال الملائكة عن حكمة الجعل حتى يظهر لهم شرف آدم وفضله عليهم، فلما سمعت الملائكة ذلك الخطاب «قَالُوا» استفيهاً لحكمة جعل الخليفة، لا اعتراضاً على الله: «أَتَجْعَلُ» يا رب، وتنصيب للخليفة «فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» بالعصيان والطغيان شأنًا واستعداداً «وَيَسِفُكُ الدِّمَاءَ» المحترمة، كما كان بنو الجان يفعلون فيها «وَتُخْرَجُ» أولى وأحق بالخليفة، لأنه ليس فينا شائبة الفساد والظلم، بل نحن مَجْبُولُونَ على عبادتك، وشغلنا أنا «نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ» ونُزَكِّهِكَ عما لا يليق بك، مقرونًا بشنائك الجميل على نعمك «وَتُقَدَّسُ» الأرض وتُطَهَّرُها «لَكَ».

قيل: الفرق بين التسييح والتقدس، أن التسييح: تنزيهه تعالى عما لا يليق به. والتقدس: إثبات ما يليق<sup>٣</sup>.

فاستخفروا آدم وذريته، ولم يعلموا أنه أحق بخلافة الله منهم، لأنه مجمع عوالم النفوس والعقول والأجسام، وفيه انطوى العالم الأكبر، ولعله ليكون سؤالهم عن حكمة الجعل بصورة الاعتراض - إذ كان حق السؤال أن يقولوا: ربنا علمنا حكمة هذا الجعل - طردهم الله عن حول العرش، وجعل البيت المعمور توبة لهم على ما روي عن المعصومين (عليه السلام)<sup>٤</sup>. ولا يخفى أن هذه الروايات تنافي كون المراد من الملائكة الملائكة الذين كانوا سكان الأرض.

وعلى أي تقدير، «قَالَ» الله في جوابهم: «إِنِّي أَعْلَمُ» من الحكم والمصالح في هذا الخلق «مَا لَا تَعْلَمُونَ».

وفي رواية، قال: «إِنِّي أَخْلَقْتُ خَلْقًا يَتَذَكَّرُونَ» وأجعل في ذريته الأنبياء والمرسلين، وعبادي الصالحين، وأئمة مهديين، أجعلهم خلفائي في أرضي، على خلقي يهدونهم إلى طاعتي، وينهونهم عن معصيتي، وأجعلهم حجة لي عليهم<sup>٥</sup>.

أقول: في خلق هذا النوع كمال قدرته وكمال رحمته وفضله وبعضاتهم ظهور صفة عفوهِ

٣. تفسير روح البيان ١: ٩٥.

١. سورة ص: ٢٦/٣٨. ٢. تفسير روح البيان ١: ٩٣.

٦. تفسير القمي ١: ٣٧.

٥. في النسخة: التي.

٤. تفسير القمي ١: ٣٧، تفسير العياشي ١: ١١٠/١١٤.

وَقَهَّارِيَّتِهِ.

ثُمَّ خَلَقَ «وَعَلَّمَ» بِإِفَاضَتِهِ «آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

عن السَّجَّادِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهِ أَيْضاً أَسْمَاءُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَعُتَاةُ أَعْدَائِهِ»<sup>١</sup>.

وعن القَمِّيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: أَسْمَاءُ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ<sup>٢</sup>.

في بيان المراد من  
الاسماء التي  
علمها الله آدم

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْمَاءِ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، لَكُونَ الْعِلْمُ بِهَا أَنْسَبُ بِمَقَامِ التَّفْضِيلِ عَلَى  
الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِاللُّغَاتِ. وَلَعَلَّ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الظَّاهِرُ مِمَّا رَوَى عَنْ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

حَيْثُ سُئِلَ: مَاذَا عَلَّمَهُ؟ قَالَ: «الْأَرْضِينَ، وَالْجِبَالِ، وَالشُّعَابِ، وَالْأَوْدِيَةِ» ثُمَّ نَظَرَ إِلَى

بَسَاطِ تَحْتَهُ، فَقَالَ: «وَهَذَا الْبَسَاطُ مِمَّا عَلَّمَهُ»<sup>٣</sup>.

وعلى هذا، لا بُدَّ مِنَ التَّقْدِيرِ فِي الْآيَةِ أَنَّ يَكُونُ التَّقْدِيرُ مَسْمُومَاتِ الْأَسْمَاءِ، أَوِ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْاسْمَ عِبَارَةٌ  
عَمَّا هُوَ الدَّالُّ عَلَى الذَّاتِ، وَكَمَا أَنَّ الْأَعْلَامَ اللَّفْظِيَّةَ دَالَّةٌ عَلَى الذَّوَاتِ، كَذَلِكَ جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ دَالٌّ  
وَكَاشِفٌ عَنْ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ دَلَالَةَ الْمَعْلُولِ عَلَى عَلَّتِهِ.

فَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، أَوِ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَسْمَاءِ عِلَلُ  
الْمَوْجُودَاتِ وَأَسْبَابُهَا وَأَرْبَابُ أَنْوَاعِهَا، وَإِطْلَاقُ الْأَسْمَاءِ عَلَيْهَا فِي الْأَدْعِيَةِ وَكَلِمَاتِ الْمَعْصُومِينَ غَيْرِ  
عَزِيزٍ.

وَالْأَقْرَبُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَسْمَاءِ هُوَ الْأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى الْمُسَمَّيَاتِ وَاللُّغَاتِ الْمَوْضُوعَةُ  
لِلْمَعْنَى، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ وَالرَّوَايَتَيْنِ الْمُتَقَلِّمَتَيْنِ، وَظَاهِرٌ مَا يَبَالِي مِنْ عِبَارَاتِ التَّوْرَةِ فِي  
سِفْرِ التَّكْوِينِ، وَعَلَيْهِ جُلُّ مُفَسَّرِي الْعَامَّةِ لَوْلَا الْكُلُّ<sup>٤</sup>.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ أُسَامِي الْمَوْجُودَاتِ بِحَيْثُ لَوْ رَأَى مَوْجُوداً عَرَفَ اسْمَهُ مُسْتَلْزِمٌ لِمَعْرِفَةِ جَمِيعِ  
الْمُسَمَّيَاتِ بِخُصُوصِيَّاتِهَا وَتَشَخُّصَاتِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا أَنَّ مَنْ عَرَفَ أُسَامِي الْأَوْدِيَةِ، بِحَيْثُ لَوْ  
أَحْضَرَ دَوَاءً أَوْ مَعْجُونٌ عِنْدَهُ، قَالَ: هَذَا اسْمُهُ كَذَا، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ تَشَخُّصَاتِهَا مِنْ طَعْمِهَا وَلَوْنِهَا  
وَأَجْزَائِهَا، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِطْلَاقُ عَلَى أُسَامِي الْمَوْجُودَاتِ مُلَازِماً لِمَعْرِفَتِهَا بِمَاهِيَّاتِهَا وَحَقَائِقِهَا

١. تفسير الصافي ١: ٩٦.

٢. تفسير القمي ١: ٤٥، تفسير الصافي ١: ٩٦.

٣. مجمع البيان ١: ١٨٠، تفسير الصافي ١: ٩٦.

٤. الكتاب المقدس: ٥ - الإصحاح الثاني من سفر التكوين، وراجع: روح البيان ١: ١٠١، تفسير أبي السعود ١: ٨٤، تفسير الرازي ١: ١٧٥.

ومشخصات أفرادها إلى يوم القيامة، وللإطلاع على جميع المصنوعات والمخترعات التي تحدث إلى آخر الدهر كما قال الصادق (عليه السلام): «وهذا البساط مما علمه».

فتعليم الأسماء يدل على تعليم التسميات بالدلالة الالزامية، ويدل عليه ما روي من أنه لما نفخ فيه من روحه علمه أسماء التسميات - أي ألهمه - فوقع في قلبه، فجرى على لسانه ما في قلبه بتسمية الأشياء، فعلمه جميع أسماء التسميات بجميع اللغات بأن أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية، وعلمه أسماء الملائكة وأسماء ذريته كلهم، وأسماء الحيوانات والجمادات، وصنعة كل شيء، وأسماء المدن والقرى، وأسماء الطير والشجر وما يكون، وكل نسمة يخلقها إلى يوم القيامة، وأسماء المطعومات والمشروبات، وكل نعيم في الجنة، وأسماء كل شيء حتى القطعة والقصبة، وحتى الجفنة والمخلب<sup>١</sup>.

وفي الخبر: لما خلق الله آدم بآدم فيه أسرار الأحرف، ولم يثبت في أحد من الملائكة، فخرجت الأحرف على لسان آدم بثنون اللغات، فجعلها الله صوراً له، ومثلت له بأنواع الأشكال<sup>٢</sup>. وفي خبر آخر: علمه سبعمائة ألف لغة، فلما وقع في أكل الشجرة سلب اللغات إلا العربية، فلما اصطفاها بالنبوة رد الله عليه جميع اللغات<sup>٣</sup>.

أقول: هذا كمال علمي وإحاطة بالمغيبات لا يليق بها الملائكة، حيث إنه متوقف على استعداد تام وكمال وجودي كان لأدم والطيبين من ذريته.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي أشباح الموجودات، وفي الحديث «أنه عرضهم أمثال الذر»<sup>٤</sup> ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ وإرجاع ضمير ذوي العقول إليهم، إما لأن أشباح الموجودات في عالم الملكوت جميعها ذوو الأرواح والعقول، وإما لتغليب جانب ذوي العقول منهم.

فقال الله تعجبوا لهم: ﴿أَتَبْهَوْنَ﴾ وأخبرني أيها الملائكة ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ الأشباح والصور المثالية للموجودات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أفضليتكم على ما أردت خلقه، وأولويتكم بخلافتي منه، حيث كان الدعوى مستفاداً من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

٢. تفسير روح البيان ١: ١٠٠.

٤. تفسير روح البيان ١: ١٠١.

١. تفسير روح البيان ١: ١٠٠.

٣. تفسير روح البيان ١: ١٠٠.

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿ وَلَمَّا كَانَ مُطَافٍ لَّاعْتِقَادِهِمْ، وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لِلوَاقِعِ، لَمْ يَكُنْ كَذِبًا مُنَافِيًا لِعِصْمَتِهِمْ.

﴿ قَالُوا ﴾ تَزَيَّيْنَاهُ عَنْ فِعْلِ مُنَافٍ لِلْحِكْمَةِ أَوْ تَعْجِيبًا مِنْ أَمْرِهِ بِمَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ وَسْعِهِمْ مِنْ إِبْنَانِهِمْ بِالْأَسْمَاءِ مَعَ عِلْمِهِ بِجَهْلِهِمْ بِهَا: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ بِشَيْءٍ ﴿ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ بِإِفَاضَتِكَ عَلَيْنَا ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ ﴾ الْمَحِيطُ بِجَمِيعِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِكَ، لَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَّا مَا فِيهِ الصَّلَاحُ الْأَتَمُّ. قِيلَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ بَعْدَ اطِّلَاعِهِ عَلَى قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَتَأَنَّفَ عَنْ قَوْلٍ لَا أُدْرِي وَلَا أَعْلَمُ<sup>١</sup>.

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ  
غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ [٣٣]

ثُمَّ ﴿ قَالَ ﴾ اللَّهُ: ﴿ يَا آدَمُ ﴾ أَظْهَرُ سَعَةً عَلَيْكَ لِلْمَلَائِكَةِ وَ﴿ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أَيِ أَسْمَاءِ الْأَشْبَاحِ. ﴿ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ ﴾ وَأَخْبَرَهُمْ ﴿ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَقْرِيرًا لَهُمْ: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَخَفِيَّاتِ أَسْرَارِهِمَا وَحُكْمَ جَمِيعِ مَا خَلَقْتَهُ فِيهَا قَبْلَ خَلْقِهِ ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ مِنْ قَوْلِكُمْ: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾<sup>٢</sup> إِلَى آخِرِهِ ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ وَتُخْفُونَ فِي ضَمَانِكُمْ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، أَوْ اعْتِقَادِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ اللَّهَ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مَا كَتَمَ إِبْلِيسُ مِنْ تَعَرُّدِهِ لِأَمْرِ اللَّهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ.

وفي الآية دلالة على أفضلية العلم من جميع الكمالات النفسانية، حيث احتجَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كَمَالِ حِكْمَتِهِ بِظَهْوَرِ عِلْمِ آدَمَ، وَلَوْ كَانَتْ صِفَةً أُخْرَى أَفْضَلَ مِنْهُ لاحتجَّ بِهَا.

في حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حُضِرَ مَجْلِسَ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ، وَعِبَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ، وَشُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «وَهَلْ يَنْفَعُ الْقُرْآنَ إِلَّا بِعِلْمٍ»<sup>٣</sup>.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

٢. البقرة: ٣٠/٢.

١. تفسير روح البيان ١: ١٠١.

٣. تفسير روح البيان ١: ١٠٢.

## الْكَافِرِينَ [٣٤]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَعَةُ عِلْمِهِ وَحِكْمَةُ خَلْقِ آدَمَ وَتَشْرِيفِهِ بِالْعِلْمِ وَتَنْبِيهِ الْمَلَائِكَةَ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ جَمْلَةً مِنْ قَضَايَا بَذَرِ خَلْقَتِهِ، حَيْثُ إِنَّ مِنْهَا فَوَائِدَ عَظِيمَةً مِنْ وَجُوبِ تَعْظِيمِ الْعَالِمِ وَذَمِّ الْكِبَرِ وَالْحَسَدِ، وَوُخَامَةِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَأَثَارِ التَّوْبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بَعْدَ خَلْقِ آدَمَ وَتَشْرِيفِهِ بِالْعِلْمِ ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ كَافَّةً وَفِيهِمْ يَلِيسُ: ﴿اسْجُدُوا﴾ تَعْظِيماً وَإِكْرَاماً ﴿لِآدَمَ﴾ أَوْ طَاعَةً لَهُ وَتَعْظِيماً لِلْأَنْوَارِ الطَّيِّبَةِ الْمُودَعَةِ فِي صُلْبِهِ.

قال علي بن الحسين صلوات الله عليهما: «حَلَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَا عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ آدَمَ لَمَّا رَأَى النُّورَ سَاطِعاً مِنْ صُلْبِهِ - إِذْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى [قَدْ] نَقَلَ أَشْبَاحَنَا مِنْ ذُرْوَةِ الْعَرْشِ إِلَى ظَهْرِهِ - رَأَى النُّورَ وَلَمْ يَتَبَيَّنِ الْأَشْبَاحُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْأَنْوَارُ؟ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْوَارُ أَشْبَاحِ نَفَلْتُهُمْ مِنْ أَشْرَفِ بِقَاعِ عَرْشِي إِلَى ظَهْرِكَ، وَلِذَلِكَ أَمَرْتُ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَكَ إِذْ كُنْتُ وَعَاءً لَتِلْكَ الْأَشْبَاحِ.

فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ لَوْ بَيَّنَّتْهَا لِي. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: انظُرْ يَا آدَمُ إِلَى ذُرْوَةِ الْعَرْشِ، فَنَظَرَ آدَمَ وَوَقَعَ نُورُ أَشْبَاحِنَا مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَى ذُرْوَةِ الْعَرْشِ، فَانْطَبَعَ فِيهِ صُورُ أَنْوَارِ أَشْبَاحِنَا الَّتِي فِي ظَهْرِهِ، كَمَا يَنْطَبِعُ وَجْهُ الْإِنْسَانِ فِي الْمِرْآةِ الصَّافِيَةِ، فَرَأَى أَشْبَاحَنَا، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْأَشْبَاحُ يَا رَبِّ؟

قال الله: يَا آدَمُ، هَذِهِ أَشْبَاحُ أَفْضَلِ خَلَاتِقِي وَبِرِّيَّاتِي، هَذَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ فِي فِعَالِي، شَقَّقْتُ لَهُ اسماً مِنْ اسْمِي، وَهَذَا عَلِيٌّ وَأَنَا الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، شَقَّقْتُ لَهُ اسماً مِنْ اسْمِي، وَهَذِهِ فَاطِمَةُ وَأَنَا فَاطِمَةُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَاطِمَةُ أَعْدَائِي عَنْ رَحْمَتِي يَوْمَ فَصَلِّ قَضَائِي، وَفَاطِمَةُ أَوْلِيَائِي عَمَّا يَعْرِوهُمْ، وَهَذَا الْحَسَنُ وَهَذَا الْحُسَيْنُ، وَأَنَا الْمُحْسِنُ الْمُجْمَلُ، شَقَّقْتُ اسْمَيْهِمَا مِنْ اسْمِي، هَؤُلَاءِ خِيَارُ خَلِيقَتِي، وَكِرَامُ بَرِيَّتِي، بِهِمْ أَخَذْتُ وَبِهِمْ أُعْطِي، وَبِهِمْ أَعَاقِبُ، وَبِهِمْ تُقِيبُ، فَتَوَسَّلْ بِهِمْ إِلَيَّ.

يَا آدَمُ، وَإِذَا دَهَنَتْكَ دَاهِيَةٌ فَاجْعَلْهُمْ إِلَيَّ شَفْعَاءَكَ، [فَإِنِّي] أَلَيْتُ عَلَى نَفْسِي قَسْماً حَقّاً أَنْ لَا أُخَيِّبَ بِهِمْ أَملاً، وَلَا أَرْدُّهُمْ سَائِلاً، فَلِذَلِكَ حِينَ زَلَّتْ مِنْهُ الْخَطِيئَةُ، دَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ فَتَابَ عَلَيْهِ، وَغُفِرَتْ لَهُ.



﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم من غير رَيْثٍ لكونهم مخلوقين من التور، واقتضاء التور الطاعة والانقياد ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فإنه كان من الجنّ مخلوقاً من النار.

قيل: اسمه حارث، واستثناؤه من الملائكة باعتبار أنه كان معهم يعبد الله حتى ظنوا أنه منهم، فشمله الأمر بالسجود، فلما عصى الله تعالى وتمرد، علموا أنه لم يكن منهم.

وإنما سُمّي إبليس لكونه مبليساً من رحمة الله، فلذلك ﴿أَبَى﴾ وامتنع من السجود حسداً ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ على آدم.

عن القمي، عنه عليه السلام: «الاستكبار أول معصية عصي الله بها». قال عليه السلام: «فقال إبليس: رب اعفني عن السجود لآدم، وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرب ولا نبي مرسل. فقال جلّ جلاله: لا حاجة لي في عبادتك، إنما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تريد»<sup>١</sup>.

﴿وَكَانَ﴾ من أجل تمرده عن طاعة أمر الله وتكبره على آدم معدوداً ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بالله، ومن زمرة الطاغين عليه.

في (العيون): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه أول من كفر وأنشأ الكفر»<sup>٢</sup>.

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ \* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ [٣٦و٣٥]

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ وأسكن ﴿وَأَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ حواء ﴿الْجَنَّةَ﴾ قيل: إنها جنة عدن.

وعن (الكافي) و(العلل) و(القمي) : عن الصادق عليه السلام: «أنها كانت من جَنَاتِ الدُّنْيَا، تَطْلُعُ فِيهَا الشَّمْسُ والقمر، ولو كانت من جَنَاتِ الْخُلْدِ ما خَرَجَ منها أبداً»<sup>٣</sup>.

وزاد (القمي) عليه السلام: ولم يدخلها إبليس<sup>٤</sup>.

﴿وَكَُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً بلا تقثير ولا تضييق ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ بلا تعب ولا نصب ﴿وَلَا تَقْرَبَا

١. تفسير القمي ١: ٤٢. ٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤٤/١.

٣. الكافي ٣: ٢٤٧/٢، علل الشرائع: ٥٥/٦٠٠. ٤. تفسير القمي ١: ٤٣.

هَذِهِ الشَّجَرَةُ» كَي تَنَالُوا مِنْ ثَمَرِهَا.

قِيلَ: إِنَّهَا شَجَرَةُ الْبَرِّ. وَقِيلَ: شَجَرَةُ التَّيْنِ. وَقِيلَ: شَجَرَةُ الْكَزْمِ. وَقِيلَ: شَجَرَةُ الْكَافُورِ<sup>١</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهَا شَجَرَةُ الْحَسَدِ.

وَفِي تَفْسِيرِ الْإِمَامِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّهَا شَجَرَةُ عِلْمِ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَثَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ»<sup>٢</sup>.

فِي بَيَانِ حُكْمِ تَسْلِطِ الشَّيْطَانِ عَلَى آدَمَ  
وَعَنِ (الْعَيُونِ) عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ صَالِحِ الْهَرَوِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِلرَّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ): يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنْ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَكَلَ مِنْهَا آدَمُ وَحَوَّاءُ مَا كَانَتْ فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَوِي أَنَّهَا الْجِنَّةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَوِي أَنَّهَا الْعَيْنَبُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَوِي أَنَّهَا شَجَرَةُ الْحَسَدِ؟ فَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «كُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ».

قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى هَذِهِ الْوُجُوهِ عَلَى اخْتِلَافِهَا؟ فَقَالَ: «يَا أَبَا الصَّلْتِ، إِنَّ شَجَرَةَ الْجَنَّةِ تَحْمِلُ أَنْوَاعًا، وَكَانَتْ شَجَرَةُ الْجِنَّةِ وَفِيهَا عَيْنَبٌ لَيْسَتْ كَشَجَرَةِ الدُّنْيَا، وَإِنَّ آدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِسْجَادِهِ مَلَائِكَتَهُ لَهُ وَادْخَالَهِ الْجَنَّةَ، قَالَ فِي نَفْسِهِ: هَلْ فِي خَلْقِي اللَّهِ بَشَرٌ أَفْضَلُ مِنِّي؟ فَعَلِمَ اللَّهُ مَا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ، فَنَادَاهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا آدَمَ، وَانْظُرْ إِلَى سَاقِ عَرْشِي، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَى سَاقِ الْعَرْشِ، فَوَجَدَ [عَلَيْهِ] مَكْتُوبًا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَزَوْجَتُهُ فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: هَؤُلَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، وَهُمْ خَيْرٌ مِنْكَ وَمِنْ جَمِيعِ خَلْقِي، وَلَوْلَاهُمْ مَا خَلَقْتُكَ وَلَمَّا خَلَقْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا السَّمَاءَ وَلَا الْأَرْضَ، فَإِنَّكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِمْ بَعَيْنَ الْحَسَدِ [فَأَخْرَجَكَ عَنْ جَوَارِي، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ بَعَيْنَ الْحَسَدِ] وَتَمَتَّنَى مَنَزِلَتَهُمْ، فَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَ عَنْهَا، وَتَسَلَّطَ عَلَى حَوَّاءَ لِنَظَرِهَا إِلَى فَاطِمَةَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) بَعَيْنَ الْحَسَدِ حَتَّى أَكَلَتْ مِنَ الشَّجَرَةِ كَمَا أَكَلَ آدَمُ، فَأَخْرَجَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ جَنَّتِهِ، وَأَهْبَطَهُمَا مِنْ جَوَارِهِ إِلَى الْأَرْضِ»<sup>٣</sup>.

أَقُولُ: الْمُرَادُ مِنَ الْحَسَدِ هُنَا: الْغِيظَةُ اللَّائِقَةُ بِمَقَامِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمَّا كَانَ فِي اغْتِيَاظِ آدَمَ بِمَقَامِ آلِ

١. مجمع البيان ١: ١٩٥.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ١٠٣/٢٢١.

٣. عيون أخبار الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ١: ٦٧/٣٠٦.

محمد ﷺ - مع كونه بعيداً عنه بمراحل - ظهور نقصه وقلة معرفته بنفسه وبمقامهم، حيث إن استدعاء من كان رتبته في باب السلطان خدماً الحضور أن يجعله السلطان رئيس وزرائه، كما شئف من نقص إدراكه وعدم معرفته بشأن نفسه وشأن رئاسة الوزراء، فافتضت الحكمة تسلط الشيطان عليه حتى يعرف أن من يغره الشيطان لا يليق أن يتمنى المقام الشامخ الذي لمحمد وآله صلوات الله عليهم، ولعل هذا هو المراد من القرب إلى شجرة علم آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، وتسلط الشيطان عليهما إيكالهما إلى نفسيهما وعقلهما والتخلي بينهما وبين الشيطان، وترك حفظهما عن كيده، فصارت الزلة سبباً لعلمه بنقصه وباعثاً له إلى تكميل نفسه الشريفة.

ثم إنه تعالى لم يقتصر على نهيهما عن الأكل من الشجرة، بل أكد ببيان سوء عاقبة عصيانه تميماً للطف بقوله: ﴿فَتَكُونَا﴾ بعصيانِي ومخالفة نهيي ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسكم حيث إنكم تحرمون من النعم وتبتعدون عن جوار الله وتبتلون بمشاق المعيشة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ بوسوسته، وأوقعهما في الخطب عن الجنة بخديعته.

روي «أن أبلِس دخل بين لحيي الحية فأدخلته الجنة، وكان آدم يظن أن الحية هي التي تُخطئها، وبدأ بآدم، فقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ إن تناولتما منها تعلمان الغيب وتقديران على ما يقدر عليه من خصه الله بالقدرة، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ لا تموتان أبداً، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ وحلف لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾<sup>١</sup> فرد آدم على الحية، فقال: أيتها الحية، هذا من غرور إبليس، كيف يخوننا ربنا، أم كيف تُعظمين الله بالقسم به وأنتِ تنسبينه إلى الخيانة وسوء النظر، وهو أكرم الأكرمين؟ أم كيف أروم التوصل إلى ما منعني منه ربي وأعطاه بغير حكمه؟

فلما أيس إبليس من قبول آدم منه، عاد ثانية بين لحيي الحية، فخطب حواء من حيث يوهبها أن الحية هي التي تُخطئها، وقال: يا حواء، أرايت هذه الشجرة التي كان الله عز وجل حرماً عليها عليكم؟ لقد أحلها لكم بعد تحریمها لما عرف من حسن طاعتكمَا له، وتوقيركمَا إياه، وذلك أن الملائكة - الموكلين بالشجرة - التي معها الجراب، يدفعون عنها سائر حيوانات الجنة، ولا تدفك عنها إن رميتها، فاعلمي بذلك أنه قد أحل لك، وأبشيري بأنك إن تناولتها قبل آدم كنتِ أنتِ المُسلطة عليه الأميرة الناهية فوقه.

فَقَالَتْ [حواء]: سَوْفَ أُجْرَبُ هَذَا، فَرَامَتْ الشَّجَرَةَ، فَأَرَادَتْ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَدْفَعَهَا عَنْهَا بِجَرَابِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا: إِنَّمَا تَدْفَعُونَ بَجَرَابِكُمْ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ يَزْجُرُهُ، فَأَمَّا مَنْ جَعَلْتَهُ مُتَمَكِّنًا مُمَيِّزًا مُخْتَارًا، فَكَلِمَةُ إِلَى عَقْلِهِ الَّذِي جَعَلْتَهُ حُجَّةً عَلَيْهِ، فَإِنْ أَطَاعَ اسْتَحَقَّ ثَوَابِي، وَإِنْ عَصَى وَخَالَفَ أَمْرِي اسْتَحَقَّ عِقَابِي وَجَزَائِي. فَتَرَكُوها وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لَهَا بَعْدَمَا هَمُّوا بِمَنْعِهَا بِجَرَابِهِمْ. فَظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ نَهَاهُمْ عَنْ مَنَعِهَا لِأَنَّهُ قَدْ أَحَلَّهَا بَعْدَمَا حَرَّمَهَا. فَقَالَتْ: صَدَقَتِ الْحَيَّةُ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْمُخَاطَبَ لَهَا هِيَ الْحَيَّةُ، فَتَنَاولَتْ مِنْهَا وَلَمْ تُنْكِرْ مِنْ نَفْسِهَا شَيْئًا؛ فَقَالَتْ لِآدَمَ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الشَّجَرَةَ الْمُحَرَّمَةَ عَلَيْنَا قَدْ أُبَيِّحَتْ لَنَا، فَتَنَاولَتْ مِنْهَا وَلَمْ يَمْنَعْنِي أَمْلَاقُهَا، وَلَمْ أَنْكِرْ شَيْئًا مِنْ حَالِي؟ فَلِذَلِكَ اغْتَرَزَ آدَمُ وَغَلَطَ وَتَنَاولَ<sup>١</sup>. الْخَبَرِ.

إِنْ قِيلَ: كَيْفَ دَخَلَ الشَّيْطَانُ الْجَنَّةَ وَلَمْ تَمْنَعَهُ الْحَزَنَةُ، مَعَ أَنَّهُ أُخْرِجَ مِنْهَا وَكَانَ مِنْهَا عَنْ الدُّخُولِ فِيهَا؟

قُلْتُ: لَعَلَّهُ كَانَ مِنْهُ عِصْيَانٌ آخَرٌ، وَإِنَّمَا لَمْ يَمْنَعَهُ الْحَزَنَةُ لِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ ابْتِلَاءَ الْحَيَّةِ وَآدَمَ. وَمَا قِيلَ فِي رُذْهٍ مِنْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهَا عَنْ الدُّخُولِ بَارِزًا لَا مُخْتَفِيًا، فَفِيهِ: أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ هُوَ حُرْمَةُ الدُّخُولِ عَلَيْهِ مُطْلَقًا، بَارِزًا وَمُسْتَتِرًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ وَجْهَ اخْتِفَائِهِ بَيْنَ لَخْيِي الْحَيَّةِ الشَّحْرُزِ - بِزَعْمِهِ - عَنْ إِطْلَاعِ الْحَزَنَةِ عَلَيْهِ، وَعَنْ مَعْرِفَةِ آدَمَ وَحَوَاءَ إِيَّاهُ، حَيْثُ إِنَّمَا مَعَ عِلْمِهِمَا بِكَوْنِهِ عَدُوًّا لِهَمَّا؛ لَمْ يَكُونَا مُعْتَنِينَ بِقَوْلِهِ.

إِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ الشَّيْطَانُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَدْخُلَ بَيْنَ لَخْيِي الْحَيَّةِ، كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ بِصُورَتِهَا. قُلْتُ: لَعَلَّ وَجْهَ دُخُولِهِ بَيْنَ لَخْيَيْهَا قَصْدُ إِغْوَائِهَا وَإِقَاعِهَا فِي الْخَطِيئَةِ وَتَبْعِيدِهَا عَنْ سَاحَةِ الرُّحْمَةِ، حَيْثُ كَانَ هَمُّهُ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ.

إِنْ قِيلَ: إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْحَيَّةِ عَقْلٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا تَكْلِيفٌ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ وَقُوعُهَا فِي الْخَطِيئَةِ؟ قُلْتُ: لَعَلَّهُ كَانَ لَهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ وَذَلِكَ الْعَالَمُ مَرَبِّةٌ مِنَ الْعَقْلِ يَصِحُّ مَعَهَا تَكْلِيفُهَا بِبَعْضِ الْأُمُورِ، فَكَانَتْ إِعَانَتُهَا لِإِبْلِيسَ عَلَى دُخُولِهِ فِي الْجَنَّةِ وَمَوَادَّتِهَا لَهُ خَطِيئَةً وَمَعْصِيَةً.

إِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ أَكَلُ آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ الشَّجَرَةِ لاعتقاد إباحتها لهما ونسخ النهي والتَّحْرِيمِ أَوْ الْكَرَاهَةِ وَالتَّنْزِيهِ، كَانَا مَعذُورَيْنِ فِي الْمُخَالَفَةِ، فَكَيْفَ عُوتِيَا وَعُوقِيَا عَلَيْهَا؟

قُلْتُ: لَعَلَّهُ كَانَ اعتقادهما مستندًا إِلَى التَّقْصِيرِ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَاشَرَ بِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةَ مُخَاطَبَتَهُمَا

بالتَّهْيِ عن قُرب الشَّجَرَةِ، وأخْبَرَهُمَا أَنَّ الشَّيْطَانَ لهُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ، فَإِذَنْ كَانَ عَلَيْهِمُ التَّخَتُّبُ وَانْخِلَاطَارُ الإِذْنِ الصَّرِيحِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا الْاعْتِمَادُ بِقَوْلِ الْحَيَّةِ وَالْأَمَارَاتِ الظَّنِّيَّةِ، فَلَمَّا اعْتَمَدَا بِقَوْلِ مَنْ لَا حُجَّةَ فِي قَوْلِهِ، وَعَمِلَا بِالظَّنِّ النَّاشِئِ عَنِ الطَّمَعِ وَالْهَوَى كَانَ ذَلِكَ خِلَافَ الْعَزْمِ وَالْحَزْمِ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ آدَمَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾<sup>١</sup> فَقَوْلُ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ: إِنَّ هَذِهِ الرَّوَايَةَ مِمَّا لَا يُتْلَفَتُ إِلَيْهَا<sup>٢</sup>، لِتَوْهْمِهِ وَرُودِ بَعْضِ هَذِهِ الْأَشْكَالَاتِ عَلَيْهَا، مِمَّا لَا يُتْلَفَتُ إِلَيْهِ.

وَعَنْ (الْعِيُونَ) عَنِ الرِّضَا عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُمَا: «لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» وَأَشَارَ لَهُمَا إِلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُمَا: لَا تَأْكُلَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَلَا مِمَّا كَانَ مِنْ جَنْسِهَا، فَلَمْ يَقْرَبَا تِلْكَ الشَّجَرَةَ، فَأَكَلَا مِنْ غَيْرِهَا لَمَّا أَنَّ وَسْوَاسَ الشَّيْطَانِ إِلَيْهِمَا<sup>٣</sup> الْخَبْرَ. وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ كَانَ الْأَوَّلَى أَنْ يُرَاجِعَ آدَمَ عليه السلام رُفَّهُ فِي إِبَاحَةِ مَا كَانَ مِنْ جَنْسِهَا أَوْ يَحْتَاطُ، فَوْسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَأَوْهَمَهُ نَسْخَ حُرْمَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْخَاصَّةِ لِتَرْتِفِعَ جِهَةٌ الْإِحْتِيَاظِ، وَعَلَيْهِ كَانَ جِهَةُ الْقُبْحِ فِي أَكْلِهِ أَوْهَعُ، وَمُخَالَفَتُهُ أَهْوَنُ. «فَأَخْرَجَهُمَا» الشَّيْطَانُ «مِمَّا كَانَا فِيهِ» مِنَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا «وَقُلْنَا» لآدَمَ وَحَوَّاءَ وَالْحَيَّةِ وَلَيْلِيسَ: «أَهْبِطُوا» وَتَنَزَّلُوا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ فِي حَالِ «بَغْضِكُمْ» مَعَ نَسْلِهِ «لِبَغْضِي» آخَرَ وَلِذَرَارِيهِ «عَدُوٌّ» وَمُبْغِضٌ.

قِيلَ: كَانَ إِهْبَاطُ الشَّيْطَانِ بَعْدَ إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ إِهْبَاطًا مِنْ حَوَالِيهَا.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانَ آدَمُ فِيهَا كَانَتْ فِي السَّمَاءِ، وَمُقْتَضَى مَا مَرَّ مِنْ قَوْلِ الصَّادِقِ عليه السلام: «إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ جَنَّاتِ الدُّنْيَا تَطْلُعُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْأَرْضِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ الْإِهْبَاطِ الْإِنْتِقَالَ مِنْ أَرْضِ الْجَنَّةِ الْأَرْضِيَّةِ إِلَى أَرْضِ غَيْرِهَا، كَقَوْلِهِ

نَسِي بَيَانِ حِكْمَةِ تَعَالَى: «أَهْبِطُوا مِضْرًا»<sup>٥</sup>.

إِنْ قِيلَ: مُقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»<sup>٦</sup> أَنَّ خَلْقَ آدَمَ كَانَ لِلْمُسْكُونَةِ<sup>٧</sup> فِي الْأَرْضِ، فَلَيْمَ أَسْكَنَهُ فِي الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: لَعَلَّهُ لِإِظْهَارِ أَنَّ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ بِالْخَطِيئَةِ وَتَبْعِيدِهِ

١. طه: ١١٥/٢٠. ٢. تفسير الرازي ٣: ١٥. ٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٦/١.

٤. تقدّم في أول تفسير الآيتين (٣٥ و ٣٦) من هذه السورة. ٥. البقرة: ٦١/٢.

٦. البقرة: ٣٠/٢. ٧. كذا ومقتضى الاشتقاق أن يكون للسكن أو السكنى.

إن قيل: لأي حِكْمَةٍ ابتلاه الله بالذنب؟

قلت: كان ابتلاؤه بالذنب لطفًا عليه، حيث إن فيه تَنْبِيهَهُ على نَفْسِهِ، وَبَعَثَهُ إلى تكميل نَفْسِهِ، حيث إن من لا يطلع على مرضه لا يهتم بعلاجه، فكان في تَبْعِيده تكميله وتَقْرِيْبِهِ. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ وَمَحَلُّ إِقَامَةٍ وَمَوْضِعُ تَعِيشٍ ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وانْتِفَاعٌ بها وبما فيها من الْأَمْتَةِ ﴿إِلَى حِينٍ﴾ الموت. وعن الْقَمِّي: إلى يوم القيامة<sup>١</sup>. وهذا إما بالنظر إلى ما رُوي من أَنَّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ<sup>٢</sup>. وإما إلى أَنَّ أَهْلَ الْبَرْزَخِ أَيْضاً مُتَمَتِّعُونَ فِي أَرْضِ الدُّنْيَا، فإذا كانت الْقِيَامَةُ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ.

عن الْعِيَّاشِي: عن الصادق عليه السلام «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفَخَ فِي آدَمَ رُوحَهُ بَعْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ بَرَأَ زَوْجَتَهُ مِنْ أَسْفَلِ أَضْلَاجِهِ [ثم اسجد له ملائكته] وَأَسْكَنَهُ جَنَّةً مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ، فَمَا اسْتَقَرَّ فِيهَا إِلَّا سِتُّ سَاعَاتٍ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ حَتَّى عَصَى اللَّهَ، فَأُخْرِجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَصَبَّرَا بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ حَتَّى أَصْبَحَا، وَبَدَتْ لِهَمَا سَوَاتُهُمَا، فَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ؟ فَاسْتَحْيَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ وَخَضَعَ، وَقَالَ: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَاعْفُ رُبَّنَا. قَالَ اللَّهُ لَهُمَا: اهْبِطَا مِنْ سَمَاوَاتِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَا يُجَاوِرُنِي فِي جَنَّتِي عَاصٍ وَلَا فِي سَمَاوَاتِي».

ثم قال عليه السلام: «إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ذَكَرَ مَا نَهَاها اللَّهُ عَنْهَا فَتَنِدِمَ، فَذَهَبَ لِيَتَنَحَّى عَنْ الشَّجَرَةِ، فَأَخَذَتِ الشَّجَرَةُ بِرَأْسِهِ فَجَرَّتْهُ إِلَيْهَا، وَقَالَتْ لَهُ: أَفَلَا كَانَ فِرَارَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْكُلَ مَتًى؟»<sup>٣</sup>. والقَمِّي عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ آدَمَ هَبَطَ عَلَى الصُّفَا، وَخَوَّاهُ عَلَى الْمَرْوَةِ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً سَاجِداً، يَبْكِي عَلَى خَطِيئَتِهِ وَفِرَاقِهِ لِلْجَنَّةِ»<sup>٤</sup>.

قيل: وقع آدم بأرض الهند على جبلٍ سرنديب، ولذا طابَّت رائحة أشجار تلك الأودية، لِمَا مَعَهُ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ، وَوَقَعَتْ حَوَّاءُ بِجَدَّةٍ وَبَيْنَهُمَا سَبْعُمِائَةِ فَرْسَخٍ، وَالطَّارُوسُ بِمَرْجِ الْهِنْدِ، وَالْحَيَّةُ بِسِجِسْتَانَ أَوْ بِأَصْفَهَانَ، وَإِبْلِيسُ بَسَدٌ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجٌ<sup>٥</sup>.

وعن ابن عباس: بكى آدم حواء مائتي سنة، ولم يأكلَا ولم يشربا أربعين يوماً، ولم يقرب آدم

١. تفسير القمي ١: ٤٣. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٧.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٥٥٣/١٣٩. ٤. تفسير القمي ١: ٤٣، تفسير الصافي ١: ١٠٧.

٥. تفسير روح البيان ١: ١١١.

وحذاء مائة سنة<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «نَزَلَ جَبْرَيْلُ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: يَا آدَمُ أَلَمْ يَخْلُقَكَ اللَّهُ بِيَدَيْهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: وَأَمَرَكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَلِمَ عَصَيْتَهُ؟ قَالَ: يَا جَبْرَيْلُ، إِنَّ إِبْلِيسَ حَلَفَ لِي بِاللَّهِ أَنَّهُ لِي نَاصِيحٌ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحْدًا خَلَقَهُ اللَّهُ يَحْلِفُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَاذِبًا. فَقَالَ لَهُ جَبْرَيْلُ: يَا آدَمُ تُبِّ إِلَى اللَّهِ»<sup>٢</sup>.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [٣٧]

«فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ» في (الكافي): «عن أَحَدِهِمَا عليه السلام: «إِنَّ الْكَلِمَاتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاعْفُ لِي وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاعْفُ لِي وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَتُبَّ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وفي رواية: «بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ»<sup>٣</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أَنَّ آدَمَ عليه السلام قَالَ: بِحَقِّ مُحَمَّدٍ أَنْ تَغْفِرَ لِي»<sup>٤</sup>.

«فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» بالتائبين، وفي ذكر الوُضُفَيْنِ وَعَدَّ بَلِغٌ بِالْإِحْسَانِ مَعَ الْعَفْوِ وَالْعُفْرَانِ.

ثم اعلم أن من ضروريات مذهب الإمامية الاثني عشرية عصمة الأنبياء والأئمة  
في بيان عصمة  
الأنبياء بدلالة العقل  
والنقل والضرورة  
والأوصياء، من بدو تولد لهم في الدنيا إلى خروجهم منها، بمعنى امتناع صدور  
المعاصي الكبيرة أو الصغيرة والقبائح العقلية عنهم عليه السلام عمداً أو خطأ أو سهواً أو  
نسياناً، والدليل عليه مضافاً إلى الضرورة حكم العقل وتوابع النقل.

أما حكم العقل فتقريره: أنه لا شبهة في أن اللطف على الناس بتقريبهم إلى الطاعة والمحسنات  
العقلية وتبعيدهم عن المعصية واجب على الله، لكونه حسناً غير مزاحم بجهة قبح، وكما أن من

٢. تفسير القمي ١: ٤٣، تفسير الصافي ١: ١٠٧.

٤. تفسير روح البيان ١: ١١٣.

١. تفسير روح البيان ١: ١١٤.

٣. الكافي ٨: ٤٧٢/٣٠٤، تفسير الصافي ١: ١٠٥.

اللطيف نَضَبَ الخليفة والسانس والمُرْتَبِي والأمر والتأهي لهم، كذلك من كمال اللطيف تَزْيِينُهُ بالصفاتِ الحَسَنَةِ والمكارِمِ الجميلة، وتَزْيِينُهُ عن الأخلاق السيئة وما يُوجِبُ نفرة الطباع واشمئزاز القلوب عن تَبِعِيَّتِهِ وانقياده، حيث إنه لا رَيْبَ أَنَّ صُدُورَ القبايح والمعاصي - ولو كان عن سَهْوٍ ونِسْيَانٍ - مُوجِبٌ لَانْحِطاطِ قَدْرِهِ وسقوطه عن الأنظار، والاستِنْكَافِ عن تَبِعِيَّتِهِ وَقَبُولِ طَاعَتِهِ، وعدم تأثير نُصْحِهِ ومَوْعِظَتِهِ، بخلاف ما إذا كان من بدو أمره وأوّل عَمَرِهِ مُنْزَهاً عَنِ الرَّذَائِلِ، مُزَيَّنًا بالأخلاق الحميدة والفضائل، مُحْتَرِزًا عن قبايح الأعمال مَكْتَرِثًا عن دَعَائِمِ الخِصَالِ، فَإِنَّ لَهُ وَقَعًا فِي الْقُلُوبِ، وعِظَمَةً فِي الْأَنْظَارِ، ومَهَابَةً فِي الصُّدُورِ، وَلِكَلَامِهِ أثر في النفوس، فيكون الناس إلى اتِّبَاعِهِ أَرْغَبَ، ولأوامره ونَوَاهِيهِ أَطْوَعَ.

ولمّا لم يَكُنْ فِي قُدْرَتِهِ تعالى قُصُورٌ عن إِبْجَادِ مَنْ هو وَاحِدٌ لِهَذِهِ الخِصَالِ، فَالحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالرُّحْمَةُ الشَّامِلَةُ مُقْتَضِيَةٌ لِإِبْجَادِهِ واصطِفائه للهداية والرسالة، وَالْأ فَهُوَ مُنَاقِضٌ لِحُكْمَتِهِ، مُخَالِفٌ لَشُؤْنِ لَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، تعالى الله عن ذلك علُوًّا كَبِيرًا.

وَأَمَّا التَّفَلُّ فَلِتَرَاكُمُ الْآيَاتِ وَتَوَاتُرِ الرِّوَايَاتِ عَلَى اعْتِبَارِ الْعِصْمَةِ بِالدَّلَالَةِ الْمُطَابِقَةِ أَوِ الْإِتِّزَامِيَّةِ، حَتَّى إِنَّ الْأَشَاعِرَةَ الْمُتَكَبِّرِينَ لَوْ جُوبِ الْأُطْفِ، وَالْجَاحِدِينَ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، مُتَلَتِّزُونَ بِوُجُوبِ عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِلدَّلَةِ الثَّقَلِيَّةِ.

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ ثُمَّ لَا يَذْهَبُ عَلَيْكَ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ امْتِنَاعِ صُدُورِ الْمَعَاصِي وَالْقَبَائِحِ عَنْهُمْ عَدَمُ الْعِصْمَةِ وَمَلَكَهَا قُدْرَتُهُمْ عَلَيْهَا، أَوْ عَدَمُ وُجُودِ مُقْتَضِيَّهَا مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ فِيهِمْ، بَلِ الْمُرَادُ وَجُودُ

الْمَانِعِ عَنْ إِرَادَتِهَا فِيهِمْ، وَهُوَ كِمَالُ عَقْلِهِمْ، وَشِدَّةُ يَقِينِهِمْ بِعِظَمَةِ اللَّهِ، وَوُفُورُ عِلْمِهِمْ بِحَقَائِقِ الْمَعَاصِي وَقَبَاحَتِهَا وَسُوءِ أَثَارِهَا، كَمَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْعَاقِلِ الْكَامِلِ الْعَالِمِ بِحَقِيقَةِ النَّارِ وَمُضَرَّاتِهَا إِقَاءَ نَفْسِهِ فِيهَا، أَوْ مِنَ الْمُتَلَفِّتِ بِشِدَّةِ قُدَارَةِ بَعْضِ الْأَقْدَارِ أَكْلَهُ مِنْهَا، بَلْ لَا يَخْطِرُ بِخَاطِرِهِ، بَلْ يَتَغَيَّرُ حَالُهُ مِنْ تَصَوُّرِهِ.

فَالْعِصْمَةُ مِنْ أَثَارِ قُوَّةِ الْعَقْلِ وَكِمَالِ الْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ وَنُورَانِيَّةِ الْقَلْبِ وَالطَّيْنَةِ الْمَأْخُودَةِ مِنْ أَعْلَى عِلْمَيْنِ، إِذَا عُرِفَتْ ذَلِكَ فَكُلُّ مَا يَكُونُ فِي الْآيَاتِ وَالرِّوَايَاتِ الْعَامِيَّةِ وَالْإِمَامِيَّةِ مِنْ ظُهُورِ نِسْبَةِ الْخَطَأِ وَالْعِصْيَانِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالْهَدَاةِ الْمَعْصُومِينَ، مُحْمُولٌ عَلَى مَا لَا يَنَافِي عِصْمَتَهُمْ مِنْ فِعْلٍ مَا يَكُونُ تَرْكُهُ أَوَّلَى وَتَرْكُهُ مَا يَكُونُ فِعْلُهُ أَحْسَنَ، كَمَا أَنَّ مَا ظَاهِرُهُ نِسْبَةُ الْعِصْيَانِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ



معصومون باتفاق الأمة وإجماع المسلمين، محمولٌ على ذلك للقرينة العقلية القطعية.

مُضافاً إلى ما ورد من الروايات الكثيرة عن أئمتنا صلوات الله عليهم في تأويل عصيان آدم، وخطيئة داود، وظهور قول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَذَا رَبِّي﴾<sup>١</sup> في الشرك، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾<sup>٢</sup> في الكذب، وقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى﴾<sup>٣</sup> في الشك في المعاد، وسؤال موسى عليه السلام رؤيته تعالى في اعتقاده بالتجسّم، وظهور قوله تعالى في حق يوسف: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾<sup>٤</sup> في قضيه عليه السلام الفاحشة، وأمثال ذلك.

وأما ما في رواية (العيون) عن الرضا عليه السلام من «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُمَا: لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» إلى أن قال: «وكان ذلك من آدم قبل النبوة، ولم يكن ذلك بذنب كبير استحقَّ به دخول النار، وإنما كان من الصغائر التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي إليهم. فلما اجتنباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يُذنب صغيرة ولا كبيرة، قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ \* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»<sup>٥</sup> فمحمولٌ على الثقة لأنه قول العامة، أو مطروح.

قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٣٨]

ثم أنه تعالى لما أمرهم أولاً بالهبوط إجمالاً، كرّر الأمر ثانياً به لبيان كيفية بقوله: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ لا يتقدّم بعضكم بعضاً أو لبيان تحتم مقتضاه.

وقيل: إن الأمر الأول بالهبوط لبيان أن الغرض المعادة والبليّة، والأمر الثاني لبيان غرض التكليف والامتحان، ويؤيده قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ وجاءكم من قبلي رشدٌ وشرعةٌ ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ وأفقدى بشرعيتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ممّا ينزل من البلايا والمحن بالتوكل على الله والتقوى إليه ويذكر الله ظمئاً قلوب المؤمنين، وفي الآخرة من العذاب، ببشارة الملائكة لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>٦</sup>.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الدنيا على ما فاتهم من الفوائد الدنيوية لحقارتها في نظرهم، وفي الآخرة

١. الأنعام: ٧٧/٦. ٢. الأنبياء: ٦٣/٢١. ٣. البقرة: ٢٦٠/٢. ٤. يوسف: ٢٤/١٢.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٦/١، والأيتان من سورة طه: ١٢١/٢٠ و ١٢٢. ٦. فصلت: ٣٠/٤٢.

على انحطاط درجتهِم عَمَّنْ هو أعلى منهم، لِكَمالِ شُورِهِم بما آتاهُم الله مِنْ فَضْلِهِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٣٩]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَعَدَ مُتَّبِعِي الْهُدَى بِالْأَمْنِ مِمَّا يُخَافُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْفِرَاقِ مِنَ الْحُزَنِ، عَقَّبَهُ بِذِكْرِ مَنْ أَعَدَّ لَهُ الْعَذَابَ الدَّائِمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِرُسُلِنَا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وَمَلَأَ مَوْحَاها غَيْرَ مُنْفَكِّينَ عَنْهَا وَ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دَائِمُونَ.

يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ [٤٠]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا دَعَا عَمُومَ النَّاسِ إِلَى الْاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَالِاتِّقَاءِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ مُسْتَدِلًّا بِخَلْقِ نِعْمَةِ الْعِظَامِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَمْطَارِ وَالْثُمَارِ وَخَلْقِ الْأَصُولِ وَنِعْمَةِ الْحَيَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، حَيْثُ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا دَالٌّ عَلَى وُجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ الْعِبَادَةَ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِعَادَةِ وَالتَّعْذِيبِ عَلَى الشُّرْكِ وَالْعِصْيَانِ، خَصَّ خُصُوصَ طَائِفَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُمْ بِالْخُطَابِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِتَوْحِيدِهِ وَرِسَالَةِ رُسُولِهِ وَتَصْدِيقِ كِتَابِهِ، لِكُونِهِمْ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ مَتَخَصِّصِينَ بِاللَّجَاجِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَشِدَّةِ الْمُعَانَدَةِ لِلْحَقِّ، مُسْتَدِلًّا بِنِعْمَةِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ وَبِآبَائِهِمْ، حَيْثُ إِنَّ فِيهَا مَعَ ذَلِكَ اسْتِمَالَةً قُلُوبِهِمْ، وَكَسْرَ لَجَاجِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَبَدَأَ سَبْحَانَةَ بِتَذْكِيرِهِمُ النِّعَمَ الْخَاصَّةَ بِهِمْ إجمالاً بِقَوْلِهِ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ فِي الْمَدِينَةِ وَحَوْلَهَا.

روي أَنَّ إِسْرَائِيلَ لَقَّبَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعْنَاهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ: عَبْدُ اللَّهِ، لِأَنَّ إِسْرَءِيلَ: هُوَ الْعَبْدُ. وَتَبَيَّنَ: هُوَ اللَّهُ.<sup>١</sup>  
وقيل: إِسْرَءِيلُ: هُوَ الْإِنْسَانُ، فَالْمَعْنَى: رَجُلُ اللَّهِ.<sup>٢</sup> وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: إِسْرَءِيلُ: هُوَ الْقُوَّةُ.<sup>٣</sup>

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وَهِيَ نِعْمَةُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى مَدِينَتِهِمْ وَوُضُوحِ عِلَامَاتِ نُبُوَّتِهِ وَدَلَائِلِ صِدْقِهِ، أَوْ هِيَ مَعَ سَائِرِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى آبَائِهِمْ، فَإِنَّهَا إِنْعَامٌ عَلَى أُنْبَائِهِمْ.  
﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الَّذِي أَخَذَهُ أَنْبِيَائُكُمْ مِنْ أَسْلَافِكُمْ وَأَمْرُؤُهُمْ أَنْ يُؤَدُّوهُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى أَخْلَافِكُمْ، وَهُوَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ الْعَرَبِيِّ الْقُرْشِيِّ الْمَوْصُوفِ فِي كُتُبِهِمْ.

روي عن ابن عباس أن الله تعالى كان عهد إلى بني إسرائيل في التوراة: أتني باعث من بني إسماعيل نبياً أميناً، فمن تبعه وصدق [بالنور] الذي يأتي به - أي بالقرآن - غفرت له، إلى آخره.

إن قلت: لو كان هذا العهد ثابتاً، فكيف يمكن جحده من جماعتهم؟

قلت: يمكن أن يكون العلم بذلك كان حاصلاً عند علمائهم فأخفوه عن العوام حفظاً لراستهم، أو أولوا عبارة العهد كما أول العامة نص الولاية.

«أوف بعهدكم» من التعم الأبدي، وأعطكم الذي وعدتكم جزاء لإيمانكم به «وإيتاي فازهون» في مخالفة محمد ﷺ والخروج عن طاعته.

وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي  
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ \* وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ [٤١ و ٤٢]

ثم بعد تذكيرهم النعمة ومطالبة الوفاء بالعهد وبيان جزائه، فسر العهد بقوله: «وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ» من القرآن، حيث إنكم تزونه «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» من التوراة، فإن التوراة تشهد بأنه حق، لأنها مبشرة ببغته محمد ﷺ وكتابته، فالإيمان بالتوراة مستلزم لتصديق محمد ﷺ وكتابته، وتكذيب القرآن تكذيب التوراة، وفي نسبة التصديق إلى القرآن إظهار لشرفه وفضيلته على التوراة، وتوصيفه بكونه مُصَدِّقًا إقامة الحجة عليهم في وجوب الإيمان بمحمد ﷺ، لوضوح أن شهادة الكتب السماوية لا تكون إلا حقاً مضافاً إلى أن إخبار النبي ﷺ بكون القرآن مُصَدِّقاً لما في التوراة من الإخبار بالمُعْجِبَاتِ لتسالم الكل على عدم اطلاعه بما في التوراة بالقراءة والتعلم.

ثم أردف الأمر بالإيمان الذي هو من المعروف، بالنهي عن الشك، بقوله: «وَلَا تَكُونُوا» أيها اليهود «أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ» مع أن اللائق بكم أن تكونوا أول مؤمن به، فيتبعكم سائر اليهود وغيرهم من أهل الكتاب، لما تزكون من صفات محمد ﷺ وصفات أصحابه وصفات كتابه مطابقاً لما في التوراة، وأنتم مع ذلك عالمون بشأنيه وأهل النظر في معجزاته والمستفتحون به.

«وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي» وَلَا تَأْخُذُوا بَدَلًا مِنْهَا «ثَمَنًا» وَعَوَاضًا «قَلِيلًا» من الحطام الدنيوية، ولا

تُحَرِّفُوا الْآيَاتِ بَعُوضَ الْأَمِيعَةِ الدُّنْيَةِ وَالْهُدَايَا الْقَلِيلَةِ، وَفِي التَّوْصِيفِ بِالْقَلَّةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا يَأْخُذُونَ مِنَ الْأَثْمَانِ وَلَوْ كَانَ كَثِيرًا فِي جَنْبِ النِّعَمِ الْأُخْرَوِيَّةِ قَلِيلٌ غَايِبٌ.

عن الباقر عليه السلام: «إِنَّ حُبِّي بِنِ اْأَخْطَبِ، وَكُتُبُ بِنِ الْأَشْرَفِ وَأَخْرَجَ مِنَ الْيَهُودِ كَانَ لَهُمْ مَأْكَلَةٌ عَلَى الْيَهُودِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، فَكُفِّرُوا بِطُلَانِهَا، فَحَرَّفُوا لَذَلِكَ آيَاتِ مِنَ التَّوْرَةِ فِيهَا صِفَتُهُ وَذِكْرُهُ، فَذَلِكَ الثَّمَرُ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ فِي الْآيَةِ»<sup>١</sup>.

﴿وَإِنِّي أَنَا فَاتَّقُونَ﴾ فِي كَيْمَانٍ أَمْرٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَصِيهِ عَلَيْهِ السَّلَام.

قيل: الفرق بين الرهبة والاثناء، أَنَّ الرهبة: الخوف في معرض الضرر وعند إمكان وقوعه، والاثناء: في مورد تيقن الضرر.

﴿وَلَا تَلْسَبُوا الْحَقَّ﴾ الْمُنَزَّلَ فِي التَّوْرَةِ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الَّذِي تَخْتَرِعُونَهُ، أَوِ الْمُرَادُ: لَا تَلْسَبُوا نَبِيَّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودلائلها بالشبهات الباطلة الَّتِي تُلْقُونَهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ بِالسَّغْيِ فِي أَنْ لَا يُطْلَعَ أَحَدٌ عَلَى دَلَالَتِهِ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بِأَنَّ مَا تَفْعَلُونَهُ كَيْمَانٌ لِلْحَقِّ وَمُكَابَرَةٌ لِعُقُولِكُمْ، أَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِي اضْلالِ الْخَلْقِ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ، وَفِعْلُ التَّبْيِيعِ مَعَ الْعِلْمِ بِقُبْحِهِ أَقْبَحُ. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِهِ وَلَا يَمْنَعُهُ التَّقِيَّةَ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ»<sup>٢</sup>.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآزَكُوا مَعَ الزَّائِكِينَ [٤٣]

ثم بعد مادعاهم إلى الإيمان بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الْمَكْتُوبَةَ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ زَكَاةَ الْمَالِ وَالنَّفْسِ وَالْفِطْرَةِ ﴿وَآزَكُوا﴾ وَتَوَاضَعُوا لِعَظَمَةِ اللَّهِ ﴿مَعَ الزَّائِكِينَ﴾ الْمُتَوَاضِعِينَ لَهُ. وَالْمُرَادُ: صَلُّوا مَعَ الْمُضَلِّينَ جَمَاعَةً وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الصَّلَاةِ بِالرُّكُوعِ لِاخْتِصَاصِهِ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ دُونَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

أَتَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيرِّ وَتَسْتَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [٤٤]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ دَأْبُ عِلْمَانِهِمْ أَنْ يَأْمُرُوا بِالْبِرِّ وَالْعِبَادَاتِ وَالصَّدَقَاتِ، مَعَ تَرْكِهِمُ لِلْعَمَلِ بِهَا، وَتَعْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَرَعَهُمْ بِقَوْلِهِ: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَاتِ وَالْعِبَادَاتِ» وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» تَغْفُلُونَ عَنْ حَقِّهَا، كَأَنَّكُمْ نَسِيتُمُوهَا «وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ» وَتَقْرءُونَ «الْكِتَابَ» وَهُوَ الثُّورَةُ الْأَمِيرَةُ بِالْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ، النَّاهِيَةُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ «أَفَلَا تَغْفُلُونَ» أَنْ أَنْفُسَكُمْ أَحَقُّ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَعِقَابُكُمْ مَعَ عِلْمِكُمْ أَشَدَّ مِنْ عِقَابِ الْجُهَالِ

روى عن أنس، قال: قال النبي ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضٍ مِنَ النَّارِ، فَقُلْتُ: يَا أَخِي جَبْرِئِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ خُطْبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ».

إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ.

وروي عن الصادق عليه السلام قال: «مَنْ لَمْ يَنْسَلِخْ عَنْ هَوَايَسِهِ وَلَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْ آفَاتِ نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهَا وَلَمْ يَهْزِمِ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَدْخُلْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَأَمَانَ عِصْمَتِهِ لَا يَصْلُحُ لِلْأَمْرِ<sup>٢</sup> بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَكُلُّ مَا أَظْهَرَ [أَمْرًا] يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ، وَلَا يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» وَيَقَالُ لَهُ: يَا خَائِنُ، أَتُطَالِبُ خَلْقِي بِمَا حُخِّنْتُ بِهِ نَفْسُكَ وَأَرْخَيْتَ عَنْهُ عَنَّاكَ»<sup>٣</sup>.

وَلَا يَذْهَبُ عَلَيْكَ أَنَّ هَذِهِ الزَّوَايَا لَا تَكُونُ مُقَيَّدَةً لَوْجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِأَنَّهُمَا وَاجِبَانِ مُطْلَقَانِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ.

كَمَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهَوْا عَنْهُ»<sup>٤</sup>.

بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَحْصِيلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَلَوْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ لِعَدَمِ وَجُودِ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِيهِ، لَكَانَ مُعَاقِبًا عَلَى تَرْكِ الْعَمَلِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ، كَمَا أَنَّ مَنْ تَرَكَ الْعَمَلَ بِالْوَاجِبَاتِ لِعَدَمِ الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْعَمَلِ، كَانَ مُعَاقِبًا عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ.

٣. مصباح الشريعة: ١٨.

١. تفسير الرازي ٤٧: ٢. في مصباح الشريعة: له الأمر.

٤. تفسير روح البيان ١: ١٢٣.

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ \* الَّذِينَ يَظُنُّونَ  
أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ رَاجِعُونَ [٤٥ و ٤٦]

ثم إن اليهود لما كانوا مُبتَلين بمرض حب الدنيا، والغفلة عن الله والدَّار الآخرة - ولذا كان تحلُّل تكاليف الإسلام، وترك الرئاسات، والإعراض عن الجاه والمال شاقاً عليهم - بيَّن الله دَوَاءَ مَرَضِهِمْ بقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ على تحلُّل مُشَاقِّ التَّكَالِيفِ، ومُخَالَفَةِ الْهَوَى ﴿بِالصَّبْرِ﴾ وكَفِّ النَّفْسِ عنها، أو بالصَّوْم الذي هو كَاسِرٌ لِلشَّهَوَاتِ ومُضَفِّ لِلنَّفْسِ ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ التي هي نَاهِيَةٌ عَنِ الْفَحْشَاءِ، ومِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهَا مَوْجِبَةٌ لِنُجُوهِ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَعِظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَحَقُوقِ بَعْمِهِ وَقَهْرِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَتُسَهِّلُ طَاعَتَهُ وَتُرَكِّبُ مَعَاصِيَهُ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا أَقْبَلَ الْقَلْبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا وَلَذَائِهَا، وَكُلَّمَا اسْتَنَارَ الْقَلْبُ بِذِكْرِ اللَّهِ خَرَجَ مِنْ ظُلُمَاتِ هَوَى النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا، وَكُلَّمَا تَفَكَّرَ فِي خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ شِدَائِدُهَا وَمُصِيبَاتُهَا.

روي عن الصادق عليه السلام: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمٌ من غُموهِ الدُّنْيَا أَنْ يَتَوَضَّأَ ثُمَّ يَدْخُلَ مَسْجِدَهُ فِيرْكَعَ رَكَعَتَيْنِ فَيَدْعُو اللَّهَ فِيهِمَا؟ أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ..﴾»<sup>١</sup>.  
روي عن النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ<sup>٢</sup> أَمَرَ فَرَعَ إِلَى الصَّلَاةِ<sup>٣</sup>.

وعن ابن عباس، أَنَّهُ نَعِيَ لَهُ بَنَتْ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَاسْتَرْجَعَ، وَقَالَ: عَوْرَةٌ سَتَرَهَا اللَّهُ، وَمُؤَنَّةٌ كَفَّاهَا اللَّهُ، وَأَجَزٌ سَاقَهُ اللَّهُ. ثُمَّ تَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ وَصَلَّى، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾<sup>٤</sup>.

﴿وَأَنَّهَا﴾ أَيِ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِمَا، أَوْ أَنَّ الصَّلَاةَ ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ وَثَقِيلَةٌ شَاقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ ﴿إِلَّا عَلَى﴾ نَفْسِ ﴿الْخَاشِعِينَ﴾ الْخَائِفِينَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَسَطَوَاتِهِ، فَإِنْ خَوْفُ الْعِقَابِ يُهَيِّئُ عَلَى الْعَبْدِ مُشَقَّةَ التَّكَالِيفِ. ثُمَّ وَصَفَ الْخَاشِعِينَ بِأَنَّهُمْ ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ وَيَعْتَقِدُونَ ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ مُحْضَرُونَ فِي مُحَضَّرٍ عَذْلِهِ وَحُكُومِهِ ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ وَإِلَى حُكْمِهِ ﴿رَاجِعُونَ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ أَوْ بَعْدَ الْحَشْرِ، لَا يَمْلِكُ أَمْرَهُمْ غَيْرُهُ، وَالتَّعْبِيرُ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِ مَعَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْرُجُ فِي آتٍ مِنَ الْآنَاتِ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ حَتَّى

١. تفسير العياشي ١: ١٣٣/١٤٣، مجمع البيان ١: ٢١٧.

٢. حَزَبَهُ الْأَمْرُ: نَابَهُ وَاسْتَدَّ عَلَيْهِ.

٣. تفسير روح البيان ١: ١٢٤.

٤. تفسير روح البيان ١: ١٢٤.

يرجع إليه، لأنه كان قبل ولادته تحت سُلْطَنَةِ الله في الظاهر والواقع، فلما تولد دخل في تربية والديه وغيرهما، وكان لهما ولغيرهما ولنفسه سُلْطَنَةٌ عليه في الظاهر، ثم يرجع بعد الموت إلى سُلْطَنَةِ الله وحُكْمِهِ كما كان قبل ولادته.

وقيل: إنَّ الظَّنَّ هُنَا بمعناه، والمراد أَنَّهُمْ يَظُنُّونَ مُلَاقَاةَ رَحْمَةِ الله والرجوع إلى رِضْوَانِهِ حيث إنَّ المؤمن لا يعلم الوصول إلى رحمة الله إلا حين الموت ولا يزال خائفاً من سوء العاقبة حتَّى يأتيه اليقين.

يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْسَى فُضِّلْتُكُمْ عَلَى  
الْعَالَمِينَ \* وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ  
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ [٤٧ و ٤٨]

ثم كرر الله تذكير النعم تأكيداً للحجة وتحذيراً من ترك اتباع النبي ﷺ بقوله: «يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا» وَأَشْكُرُوا «نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» قيل: هي النعمة التي أنعمها على أسلافهم من بَنِي مُوسَى وهَارُونَ فيهم وهدايتهم إلى نبوة مُحَمَّدٍ ﷺ ووصاية عليٍّ عليه السلام وإمامة عِشْرَتِهِ الطَّيِّبِينَ صلوات الله عليهم فإنها فوق النعم وأولى بالامتنان عليهم، ثم بعدها ما أشار إليه بقوله: «وَأَنْسَى فُضِّلْتُكُمْ» بسبب تفضيل آبائكم الأقدمين «عَلَى الْعَالَمِينَ» وجميع أهل زماينهم بقبول ولاية مُحَمَّدٍ وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ويَظْلِيلُهُمُ الْعِمَامَ، وإنزالِ الْمَنِّ وَالسُّلُوى، وتخصيصهم بسائر النعم العظام<sup>١</sup>، حيث إنَّ الإِنْعَامَ على الآباء وتشریفهم بالنعماء موجبٌ للشكر على الأبناء وتشریفهم، ثم قرَّب الله تعالى الدَّعوة بالوَعْدِ.

وقيل: إنَّ الْيَهُودَ كانوا يقولون: نحنُ أولاد إبراهيم الخليل وإسحاق الذَّبِيح، وهما يُشْفَعُونَا في القيامة عند الله، فردَّهم الله بقوله: «وَأَتَّقُوا» يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ واحترزوا «يَوْمًا» فيه حَشْرُكُمْ وَجِسَابِكُمْ وَجَزَاؤُكُمْ، فإنه يومٌ لا «تَجْزَى» ولا تكفي «نَفْسٌ» مؤمنة كانت أم كافرة «عَنْ نَفْسٍ» كافرة «شَيْئًا» يسيراً من الإجزاء كما قال الله: «لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ»<sup>٢</sup> بل قال: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ»<sup>٣</sup> الآية.

روي أن الوالد يتعلّق بولده يوم القيامة فيقول: يا بُنَيَّ، إني أنا أبوك في الدنيا، وقد احتججتُ إلى مثقال حبة من حسناتِكَ لعلِّي أنجو بها ممّا ترى. فيقول له ولّده: إني أتخوّف مثل الذي تخوّف أنت، فلا أطيق أن أعطيك شيئاً. ثمّ يتعلّق بزوجته فيقول لها: يا فُلانة، إني زوج لك في الدنيا، والخبر، وحاصل السؤال والجواب قريبٌ ممّا بينه وبين ولّده.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ وفي مَورِدِها إذا كانت كافرة ﴿شَفَاعَةٌ﴾ من الشُّفَعاءِ ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وفداء من مالٍ ومتاعٍ لو قُرضَ إمكائه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وَلَا يُعَاوَنُونَ في دَفْعِ العَذابِ وَلَا يُحَامُونَ. والحاصل: أن جميع وُجوه التخلّص من المكاره الدنيوية. مُنقَطِعٌ عنهم، حيث إنها مُنحصرة في أربع:

أحدها: نيابة الغير عنه في تحمّلها.

وثانيها: التَّفديّة بالمال.

وثالثها: شفاعَةُ الشُّفَعاءِ.

ورابعها: نصرة الأنصار ودِفَاع الأُحبة، فلا يَبقى للعاصي طمعُ النجاة في الآخرة.

إن قيل: مُقتَضَى هذه الآية أنه لا تنفعُ شفاعَةُ شَفيعٍ للعصاة يوم القيامة، مع أن ضرورة المسلمين؛ أن النبي ﷺ يَشْفَعُ للعصاة من أمته، وأنه الشافعُ المُشَفَّع، وضرورة الإمامية أن فاطمة ؑ والأنمة يشفعون لعصاة شيعتهم، بل مُقتَضَى كثير من الروايات أن العُلَماء أيضاً يشفعون لِمَن استفاد علمهم، بل المؤمنين يشفعون لبعضهم لبعض.

قلنا: لا بد من تخصيص هذه الآية وأمثالها بالكفّار ومَن في حُكْمهم من مُنكري الولاية وأهل البدع.

وفي رواية عن الصادق ؑ في تفسير الآية: «هذا يومُ المَوتِ فإنَّ الشَّفاعَةَ والفِداء لا يُغني عنه، فأما في القيامة فإنّا وأهلنا نَجزي [عن] شيعتنا كُلَّ جزء، ليكونَ على الأعراف بين الجنة والنار محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والطّيّون من آلهم، فنرى بعضَ شيعتنا في تلك العرصات، فمن كان منهم مُقصرًا، وفي بعض شدائدِها، فنبعثُ عليهم خيَارَ شيعتنا كسَلْمان والمِقْداد وأبي ذرٍّ وعَمّار



ونظرائهم في العصر الذي يليهم، ثم في كل عصر إلى يوم القيامة، فيقعون<sup>١</sup> عليهم كالبرءاء والصقور، ويتناولونهم كما تتناول البرءاء والصقور صيدها، فيزفونهم إلى الجنة زفاً، وأنا لنبتع على الآخرين من محبتنا خيار شيعتنا كالحمام فيلقطونهم من العرصات كما يلقط الطير الحب، وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا.

وسيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في أعماله بعد أن حاز الولاية والتقية وحقوق إخوانه، ويوقف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك، إلى مائة ألف من الثصاب، فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة، وأولئك الثصاب النار، وذلك ما قال الله عز وجل: ﴿وَبِمَا يَوْزُ الْأَذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بالولاية ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾<sup>٢</sup> يعني في الدنيا متقادين للإمام<sup>٣</sup>، ليجعل مخالفتهم فداءهم من النار<sup>٤</sup>.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ  
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [٤٩]

ثم شرع الله تعالى في تعديد نعمه العظام عليهم وعلى آبائهم مفضلاً بقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ واذكروا حين خلصنا أسلافكم ﴿مِنْ﴾ تعدييات ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وظلم أشراف قومه. قيل: كان فرعون لقب ملك العمالة، كما أن كسرى لقب ملك الفرس، وقبصر لقب ملك الروم، وخاقان لقب ملك الترك، والنجاشي لقب ملك الحبشة<sup>٥</sup>.

وقيل: اسم فرعون [موسى: هو] الوليد بن مضعب بن ريان، وكان من القبط، وعمر أكثر من أربعمائة سنة<sup>٦</sup>، وكان اسم فرعون يوسف ريان، وبينهما أربعمائة سنة<sup>٧</sup>.

ثم بين سبحانه أولاً شدة ظلم فرعون وآله إجمالاً، بقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ وتعذبونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وشديده، ثم فصله ثانياً بقوله: ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ويكثرون القتل فيكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾

٢. الحجر: ١٥/٢.

١. في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: فينقضون.

٣. في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: للإمامة.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١١٩/٢٤١.

٦. تفسير روح البيان ١: ١٢٨.

٥. تفسير روح البيان ١: ١٢٨.

٧. تفسير روح البيان ١: ١٢٨.

وَيَقُولُونَ «نِسَاءكُمْ» لِحَدِيثِهِمْ وَلِيَكُنْ إِمَاءٌ لَهُمْ «وَفِي ذَلِكَكُمْ» الْقَتْلُ وَاسْتِحْيَاءُ النِّسَاءِ «بَلَاءٌ» وَمِحْنَةٌ شَدِيدَةٌ كَانَتْ «مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» وَكَبِيرٌ عَلَيْكُمْ.

وقيل: إن المراد من البلاء هنا العطاء والنعمة، والمعنى أن في ذلكم الإنجاء نعمة عظيمة عليكم من ربكم<sup>١</sup>.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ \* وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ \* ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٥٢-٥٠]

ثم ذكر النعمة الثانية بقوله: «وَإِذْ فَرَقْنَا» وَشَقَقْنَا «بِكُمْ» وَلَاجِلِ غُيُوبِكُمْ «الْبَحْرَ» الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْقَلْزُومُ، أَوْ اسَافَ، وَفَضَّلْنَا فِيهِ اثْنِي عَشَرَ مَسْلَكًا جَافًا «فَأَنْجَيْنَاكُمْ» مِنَ الْقَتْلِ وَالْغَرَقِ «وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ» وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» إِلَىٰ غَرْقِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ.

ثم ذكر النعمة الثالثة بقوله: «وَأَذْكُرُوا» إِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ «وَأَمْرَانَهُ أَنْ يَأْتِيَ الْمِيقَاتِ وَيَقِفَ فِيهِ» «أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» بِأَيَّامِهَا.

في نكتة تعيين عدد قيل: وجه تعيين عدد الأربعين، اختصاصه بالكمال، لأن مراتب الأعداد أربع: الأحاد، والعشرات، والمئات، والألوف، وعدد العشرة في نفسها عدد كامل، كما قال الله

تعالى: «تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ»<sup>٢</sup> وإذا ضَعُفَتِ الْعَشْرَةُ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ يَكُونُ أَرْبَعِينَ، ففيه كمال فوق كمال<sup>٣</sup>.

فذهب عليه السلام بأمر ربه إلى الميعاد واستخلف هارون، «ثُمَّ» بَعْدَ ذَهَابِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ «اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ» إِلَهًا «مِنْ بَعْدِهِ» وَفِي غَيْبِيهِ «وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ» عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ حَيْثُ اعْتَقَدْتُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ حَلٌّ فِي الْعِجْلِ، وَصَارَ الْعِجْلُ حَاوِيًا لَهُ، مَعَ أَنَّهُ مُتَعَالٍ عَنْ أَنْ تَسَعَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، بَلْ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ.

وفي هذه الحكاية تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِمَّا كَانَ يُشَاهَدُ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ

٢. البقرة: ١٩٦/٢.

١. تفسير روح البيان ١: ١٣٠.

٣. تفسير روح البيان ١: ١٣٦، وفيه: وإذا ضَعُفَتِ الْعَشْرَةُ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ وَهُوَ كَمَالٌ مَرَاتِبُ الْأَعْدَادِ تَكُونُ أَرْبَعِينَ وَهُوَ كَمَالُ الْكَمَالِ.

الخلاف، ومما كان يعلم من أمر الخلافة بعده، فإن إعراض الأمة عن وصيه وخليفته بعد استخلافه إياه وتخصيصه على رؤوس الأشهاد بولايته وإمامته ووصايته، ثم إقبالهم وتبعيتهم لمن لم يكن له حظ من العلم والسبب والحسب، ليس بأعجب وأفضع من اتخاذ قوم موسى العجل إلهاً مع مشاهدة الآيات والمعجزات الظاهرات.

«ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ» أي عن أسلافكم «مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» الفعل الشنيع، وهو عبادة العجل «لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ» لنعمة العفو التي أنعمنا بها على آبائكم، فإنها كانت نعمة عليكم، إذ لو عجل في عقوبتهم لم يبق لهم نسل.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَمَلَكُمْ لَتَهْتَدُوا [٥٣]

ثم ذكر النعمة الرابعة بقوله «و» اذكروا «إِذْ آتَيْنَا» وأعطينا «مُوسَى الْكِتَابَ» وهو التوراة «و» أعطيناه «الْفُرْقَانَ».

روي أنه عهد الإيمان بمحمد ﷺ وأوصيائه صلوات الله عليهم أجمعين، فمن آمن بهم بقلبه ظهر نور في جنته<sup>١</sup>.

وقيل: الفرقان: هي المعجزات الباهرات الفارقة بين الحق والمنطل<sup>٢</sup>.

وقيل: الكتاب والفرقان واحد، فإن التوراة جامعة بين [كونها كتاباً] وبين الحجية والتفريق بين الحق والباطل<sup>٣</sup>.

«لَمَلَكُمْ تَهْتَدُونَ» إلى الحق بالنظر في الآيات والتدبر في الكتاب.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْغِجْلَ فَنُتَبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [٥٤]

ثم ذكر النعمة الخامسة بقوله: «و» اذكروا يا بني إسرائيل «إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ» الذين عبدوا العجل، شفقة عليهم: «يَا قَوْمِ» اعلموا «إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ» وأضررتم «أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْغِجْلَ»

إلها، إِذْ حَقَّتْ عَلَيْكُمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ.

ثُمَّ كَانَهُمْ قَالُوا: فَمَا نَصْنَعُ إِذْنُ؟ قَالَ: إِنْ أَرَدْتُمْ الْعِلاجَ ﴿فَتَوْبُوا﴾ وَأَرْجِعُوا ﴿إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ وَخَالِقِكُمْ الَّذِي بَرَأَكُمْ مِنَ الْعَيْبِ وَالتُّفَاؤُتِ.

ثُمَّ كَانَهُمْ قَالُوا: كَيْفَ نَتُوبُ؟ فَقَالَ: إِنْ عَزَمْتُمْ عَلَى التَّوْبَةِ ﴿فَأَقْتُلُوا﴾ أَيُّهَا الْعَابِدُونَ لِلْعِجْلِ ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، أَوْ غَيْرِ الْعَابِدِينَ الْعَابِدِينَ، فَإِنَّ خَالِقَكُمْ وَمُوجِدَكُمْ وَمُبْرِئَكُمْ مِنَ الْعُيُوبِ فِي الْخَلْقِ أَمْرُكُمْ بِالْقَتْلِ، وَرَضِيَّ بِإِعْدَائِكُمْ لَتَبْرُؤُوا مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّ ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْقَتْلَ وَإِنْ كَانَ فِيهِ ذَهَابُ الْحَيَاةِ وَزَوَالُ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ مِنْ ابْتِلَاكِكُمْ بِالْعَذَابَاتِ الْآخِرَوِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ.

ثُمَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ وَفَّقَكُمْ حَتَّىٰ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبْلَ فَنَاءِ جَمِيعِ أَسْلَافِكُمْ، وَالْأَلَمِ يَتَّقُ وَالِدَ وَلَا وَلَدَ ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ وَسَرِيعُ الْقَبُولِ لِلْإِجَابَةِ، وَهُوَ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِعِبَادِهِ، لَا يَرْضَىٰ بَضْرَرِهِمْ وَقَتْلِهِمْ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ خَيْرٌ وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا إِذَا لَمْ يَكُونُوا لِلْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ أَهْلًا. قِيلَ: كَانَ عَدَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ سِتْمِائَةَ أَلْفًا. وَقِيلَ: سِتْمِائَةَ وَعِشْرُونَ أَلْفَ مَقَاتِلَ، لَا يَتَذَدُّونَ مِنْهُمْ ابْنُ الْعِشْرِينَ لَصِغَرِهِ، وَلَا ابْنُ السِّتَيْنِ لَكِبَرِهِ<sup>٢</sup>. وَكَانَ عَدَدُ عَابِدِي الْعِجْلِ سَبْعِينَ أَلْفًا. وَقِيلَ: كَانَ عَدَدُ غَيْرِ الْعَابِدِينَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا<sup>٣</sup>.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ

وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ \* ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٥٥ و ٥٦]

ثُمَّ ذَكَرَهُمُ النِّعْمَةَ السَّادِسَةَ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ وَلَنْ نُصَدِّقَكَ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ وَفِي أَنْ التَّوْرَةَ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يُكَلِّمُكَ ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ﴾ رُؤْيَةً ﴿جَهْرَةً﴾ وَظَاهِرَةً ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ وَأَصَابَتْكُمْ النَّارُ الْمُحْرِقَةُ النَّازِلَةُ مَعَ الصَّوْتِ الْهَائِلِ ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إِلَىٰ نُزُولِهَا إِلَيْكُمْ.

قِيلَ: كَانَ الْقَانِلُونَ [غَيْرِ] السَّبْعِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ مُوسَىٰ ﷺ لِأَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الطُّورِ لِلاعتذارِ عَنْ

٢. تفسير روح البيان ١: ١٣١.

١. في النسخة: بالعذاب.

٣. تفسير الرازي ٣: ٨٢.

عبادة العجل<sup>١</sup>.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمُ﴾ وأحييناكم ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وهلاككم<sup>٢</sup> بالصاعقة، وفي هذه الآية دلالة صريحة على إمكان الرجعة إلى الدنيا بعد الموت ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بإقراركم بالتوحيد، وقيامكم بالطاعة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الحياة بعد الموت.

قيل: ماتوا يوماً وليلة ثم بعثهم الله<sup>٣</sup>، وفيها ردٌ على مَنْ يقول إنَّ نُعوت محمد ﷺ لو كان مُخبراً [عنها] في التوراة، لم يُمكن إنكارها من أهل الكتاب، فإنَّ أسلافهم مع مشاهدة المعجزات الباهرات قالوا: يا موسى لن نؤمن لك .. إلى آخره.

وفيها أيضاً دلالة على امتناع الرؤية، وكُفر المُجسِّمة.

وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلتها مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [٥٧]

ثم ذكرهم النعمة السابعة بقوله: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وجعلناه يظلمكم من الشمس، وذلك في التَّيِّه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾ قيل: هو التَّرنجيب، كان ينزل عليهم بالليل، أو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأكلونه ﴿وَالسَّلْوى﴾ وهو السَّمانى. قيل: هو أطيب طير، فيصطادونه، أو كان يقع على موايدهم مشوياً، فاذا أكلوا وشبعوا طار عنهم.

فقلنا لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولا تدخروا منها شيئاً، فكفروا وظلموا وما أدوا حقَّ النِّعم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم وادخارهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث ابتلوا بضُرِّ سيئاتهم، من استيجاب العذاب، وسلب النِّعم، حيث قطع عنهم الرِّزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا، ولا حساب في الآخرة، ولم يضروا الله شيئاً.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ قال: «إنَّ الله أعظم وأعزُّ [وأجل] وأمنع من أن يظلم، ولكنه خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾<sup>٤</sup> يعني الأئمة<sup>٥</sup>. الخبر. وتوضيحه: أنَّ الله قرَن ولاية المؤمنين -

٢. في النسخة: وهلاكهم.

١. تفسير روح البيان ١: ١٣٩.

٥. الكافي ١: ١١٣/١١.

٤. المائدة: ٥٥/٥.

٣. بحار الأنوار ١٣: ٢٤٧.

وهم الأئمة - الكاملين في الإيمان بولايته بشهادة الآية.

وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ  
سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ \* فَبَدَّلَ الَّذِينَ  
ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا  
كَانُوا يَفْسُقُونَ [٥٨ و ٥٩]

ثم ذكرهم النعمة الثامنة، بقوله: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ بتوسط يوشع بن نون وصي موسى،  
لأسلافكم من بني إسرائيل حين خروجهم من التيه: ﴿أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾.

قيل: هي مدينة بيت المقدس وقيل: قرية أريحا<sup>١</sup> من بلاد الشام قريبة من تلك المدينة، فإذا دخلتم  
القرية ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا تعب ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً هيناً ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ﴾ الذي للقرية.  
قيل: كان لمدينة بيت المقدس سبعة أبواب، وقد أمروا أن يدخلوا من الثاني المعروف الآن بباب  
حِطَّة حال كونهم ﴿سَجْدًا﴾ لله، شكراً على نجاتهم من التيه.

وقيل: إن المراد الدخول راكعين متواضعين لله.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ولعل المعنى أن مسألتنا من الله أن يَحُطَّ ذُنُوبَنَا، فإن دخلتم بهيئة الركوع أو  
السجود، وقلتم هذا القول ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ونشتر عليكم ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ السالفة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾  
ثواباً. قيل: هم الذين لم يفارقوا الذنوب.

﴿فَبَدَّلَ﴾ وغير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعصوا أمر الله ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فلم يسجدوا ولم  
يركعوا، بل رفعوا أستاذهم، أو لم يقولوا: حِطَّة، وقالوا: حِنطة حمراء، سخريّة واستهزاء.  
قال الفخر في تفسيره: ذكره نعمة قبول التوبة في مقام الامتنان منافع لكونه واجباً على الله عقلاً،  
لأنه لا امتنان في الواجبات العقلية<sup>٢</sup>.

وفيه: أن وجوب التفضل والاحسان عليه لكونه جواداً لا يجوز عليه البخل، ومنع التفضل غير  
منافع للامتنان عقلاً.

﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ عقيب ذلك التبديل ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بتبديل كلام الله، أو بفعلهم خلاف

أمر الله ﴿رِجْزاً﴾ وَعَذَاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويسبب خروجهم عن طاعة الله.  
 قيل: مات بالطاعون مائة وعشرون ألفاً في بعض اليوم، وهم الذين كانوا في علم الله أنهم لا  
 يؤمنون، ولا يتوبون.<sup>١</sup>

عن (العباشي): عن الباقر عليه السلام قال: «نَزَلَ جَبْرَائِيلُ بِهِدَ الْآيَةِ: ﴿قَبَدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ آلَ مُحَمَّدٍ  
 حَقَّهُمْ ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ ﴿رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا  
 يَفْسُقُونَ﴾».<sup>٢</sup>

والمراد بانزال جبرئيل هذه الآية هكذا، بيان تأويلها حين نزلها على النبي صلى الله عليه وآله وانطباقها على  
 ظالمي حق آل محمد، لأنه كان جزءاً للآية، فيكون مؤداها كما في الرواية السابقة: إِنَّ اللَّهَ خَلَطْنَا  
 بِنَفْسِهِ فَجَعَلَ ظَلَمَنَا ظُلْمَةً.

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا أَصْرَبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا  
 عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي  
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [٦٠]

ثم ذكرهم النعمة التاسعة، بقوله: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ حين عطشوا في التِّيه  
 وَضَجُّوا إِلَيْهِ بِالْبُكَاءِ ﴿فَقُلْنَا﴾ له بالخوي ﴿أَصْرَبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ المعهود الذي جاء به جبرئيل  
 من الجنة، وكان قِرْبَ بَعِيرٍ، على ما في الرواية.<sup>٣</sup>

قيل: كان عصاً من آس الجنة، طولها عشرة أذرع على طول موسى، ولها شُعْبَتَانِ تَتَّقِدَانِ فِي الظُّلْمَةِ  
 نوراً، حملها آدم، فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شُعَيْبٍ، فأعطاها موسى، فضر به بها داعياً  
 بمحمد وآله الطيبين، كما في الرواية.<sup>٤</sup>

﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ وَأَنْشَقَّتْ ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾. قيل: كانت الْحَجَرُ مُرْبِعاً، وانفجر من كل طرف  
 منه ثلاثة عُيُونٍ، لكل سبط عين.<sup>٥</sup>

٢. تفسير العباسي ١: ١٣٥/١٥٣.

١. تفسير الصافي ١: ١٢١.

٣. الكافي ١: ١٨٠/٣. ٤. تفسير روح البيان ١: ١٤٦.

٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٢٩/٢٦١.

٦. تفسير الرازي ٣: ٩٥.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ وَسَيَبْطِ ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ لَا يُزَاجِمُ الْآخِرِينَ، وقال الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ الذي آتاكموه مِنَ الْمَنْ وَالسَّلَوى، والماء الْعَذْبُ ﴿وَلَا تَغْتَوُوا﴾ وَلَا تَعْتَدُوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كُونِكُمْ ﴿مُفْسِدِينَ﴾ عاصِينَ لِأوامِرِ اللَّهِ، أَوْ مُفْسِدِينَ بِالْمُبَالِغَةِ فِي التَّنَازُعِ عَلَى قِسْمَةِ الْمَاءِ، فَإِنَّ لِكُلِّ سَبْطٍ يَخْرُجُ بِقَدَرِ حَاجَتِهِمْ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ يَنْقَطِعُ.

وكان من مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا ﷺ أَيْضاً أَنَّهُ اسْتَسْقَى لِقَوْمِهِ، رَوَى أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتِ الْكِرَاعُ وَالْمَوَاشِي، وَأَجْدَبَتِ الْأَرْضُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَسْقِيَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا، قَالَ أَنَسُ: وَالسَّمَاءُ كَأَنَّهُا زُجَاجَةٌ لَيْسَ بِهَا قَرْعَةٌ، فَنشأت سَحَابَةٌ وَمَطَرَتْ إِلَى الْجُمُعَةِ الْقَابِلَةِ<sup>١</sup>.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ  
الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ  
عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ  
اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ [٦١]

ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى كَمَالِ لُطْفِهِ بِهِ بِإِجَابَةِ مَسْئُولِهِمْ مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ غَايَةِ السَّفَهِّ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كُفْرَانَكُمْ لِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ أَيْ قَالَ أَسْلَافُكُمْ: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَغِذَاءٍ وَوَاحِدٍ﴾ بِالنَّوعِ مِنَ الْمَنْ وَالسَّلَوى، بَلْ لَا بَدَلَنَا مِنْ خَلَطٍ مَعَهُ، أَوْ تَبْدِيلٍ. وَلَعَلَّهُ لِمَلَالَةِ طِبَاعِهِمْ مِنَ الطَّعَامِ الْوَاحِدِ بِسَبَبِ مُدَاوَمَتِهِمْ عَلَيْهِ، أَوْ لِتَوَهُّمِ أَنَّ الْبَقَاءَ عَلَى التَّهَجُّجِ الْوَاحِدِ مُوجِبٌ لِاخْتِلَالِ مِزَاجِهِمْ. وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِمْ: لَنْ نَصْبِرَ، هُوَ الْوَجْهَ الْأَوَّلُ.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ كَالْكُرْثِ وَغَيْرِهِ، ﴿وَمِنْ قِثَّائِهَا﴾ قَبِيلُ: هُوَ أَخْضَرٌ<sup>٢</sup> شَبِهُ الْخِيَارِ ﴿وَمِنْ فُومِهَا﴾. عَنِ (المجمع): عَنِ الْبَاقِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هُوَ الْجِنَّةُ»<sup>٣</sup>. وَقِيلَ: هُوَ الثُّومُ، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ حَيْثُ إِنَّ الْعَدَسَ يُطْبَخُ بِالثُّومِ وَالْبَصَلَ. وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى تَعَجُّبًا وَاسْتِثْكَارًا مِنْهُمْ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ وَتُعَاوِضُونَ الطَّعَامَ ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾



وأذون، ولعله من حيث المجموع، وإن كانت الجِنَّةُ أشرف ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع في الدنيا والدين، لأن ما اختاره الله لهم من الطعام لا بد أن يكون أصلح من جميع الجهات، وعدم رضاهم بما رزقهم الله، واتباعهم شهوة أنفسهم، كان من مذام أخلاقهم.

ومع ذلك أجاب الله برحمته مسألتهُم وقال: إن كنتم تريدون هذه الأشياء ﴿أَهْطُوا﴾ وأنزلوا ﴿مِضْرًا﴾ مِنَ الْأَمْصَارِ ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فيه ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ مِنَ الْبَقُولِ وغيرها ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ بعد هذه الأنطاف ﴿الذَّلَّةُ وَالْهُوانُ بِالزَّامِيمِ بِالْجِزَةِ﴾، وشملتهم ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ ولازمهم الفقر والفاقة. قيل: إنهم ولو كانوا أغنياء، يعيشون عيش الفقراء.

﴿وَبَاءُوا﴾ وَرَجَعُوا أَوْ التَّجَاؤا ﴿بِغَضَبٍ عَظِيمٍ﴾، ولعنة دائمة كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾.

ثم بين سبحانه سبب ذلك العذاب واللعنة وهو أمران، أعظمهما ما فعلوه في حق الله، ولذا بدأ بذكره بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ النكال والغضب معلل ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ دائماً ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الباهرة، ويُنكرون معجزات موسى، وقرآن محمد ﷺ، ثم بعده ما فعلوه في حق الأنبياء، ولذا ثناه بقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كشعيب وذكرياً ويحيى وغيرهم، وهم يعلمون أن قتلهم يكون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ المُوجب له.

عن ابن عباس: أنه لم يقتل قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، ومن أمر بقتال نُصِرَ.

ثم ذكر سبب وجود الكُفر والطغيان منهم، بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الكُفر والقتل ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ الله في أفعالهم الراجعة إلى أنفسهم ﴿وَمَا كَانُوا يَغْتَدُونَ﴾ في حقوق غيرهم، ويظلمون الناس، فبأن عصيانهم أحكام الله واعتدائهم على عباده جرهم إلى الكُفر بآيات الله وقتل النبيين لوضوح أن صغار الذنوب تؤدي إلى كبارها.

عن (الكافي) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام أنه تلا هذه الآية، فقال: «والله ما ضربوهم بأيديهم، ولا قتلوهم بأسيا فيهم، ولكن سمعوا أحاديثهم فأضاعوها، فأخذوا عليها فقتلوا، فصار قتلاً واعتداءً ومعصيةً»<sup>٢</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ [٦٢]

ثم إنه لما ذكر الله تعالى ما حلَّ بكفرة أهل الكتاب من النكاح والغضب والعقوبة، أرففه بذكر ما للمؤمنين من الأجر والثواب العظيم، على عادته الجارية في الكتاب العزيز بأن كلما ذكر العقوبة للكفار، ذكر المثوبة للمؤمنين حتى يُعلم أنه كما يجزي المسيء بإساءته، يجزي المحسن بإحسانه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ﷺ وَبِمَا جَاءَ بِهِ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وَاتَّخَذُوا دِينَ الْيَهُودِيَّةِ.

قيل: سموا بذلك لأنهم بعد عبادة العجل وتوحيدهم منها، قالوا: إنا هُنا، أو ليسبيهم إلى يهودا<sup>١</sup>.  
﴿وَالنَّصَارَى﴾ قيل: أُقيوا بذلك لأنهم كانوا يزعمون أنهم يتناصرون في الله.  
وعن (العيون) عن الرضا عليه السلام: «أنهم من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام نزلها مريم وعيسى بعد رجوعهما من مصر»<sup>٢</sup>.

﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ القمي عليه السلام: إنهم ليسوا من أهل الكتاب، ولكنهم يعبدون الكواكب والنجوم<sup>٣</sup>.  
قيل: إنهم سموا بالصابغين لأنهم زعموا أنهم صباؤا وخرجوا إلى دين الحق.  
روي أنه جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: لم سمي الصابغون صابغين؟ فقال عليه السلام: «لأنهم إذا جاءهم نبي أو رسول أخذوه وعمدوا إلى قِدرٍ عظيمٍ فأغلوه حتى إذا كان محمي صبوه على رأسه حتى يتفسخ»<sup>٤</sup>، الخبر.

فخصوص «مَنْ آمَنَ» منهم «بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا» مرضيًا «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» في الآخرة حين يخاف الفاسقون، ويحزن المخالفون.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ\* ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٦٣ و ٦٤]

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٠/٧٩.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٥٣.

٣. تفسير الرازي ٣: ١٠٥.

٤. تفسير القمي ١: ٤٨، تفسير الصافي ١: ١٢٣.

ثم ذمهم سبحانه بغاية العصيان والتمرد بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَالْعَهْدَ الْوَثِيقَ مِنْكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِالتَّوْرَةِ الَّتِي أُعْطِيتُهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَنْتُمْ قَبُولَ ذَلِكَ ﴿وَوَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾.

قيل: أمر الله جبرئيل أن يقلع قطعة من جبل فلسطين، فرسخاً في فرسخ على قدر عسكر بني إسرائيل، فقطعها وجاء بها فرفعها فوق رؤسهم.

وقيل: الطور: هو الجبل المعروف الذي ناجى موسى عليه ربه، فقال لهم موسى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ ويجد وعزيمة.

عن (المحاسن): عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية، بقوة في الأبدان أم بقوة القلوب؟ فقال: «فيهما جميعاً»<sup>١</sup>.

ونقل أنه قال لهم موسى عليه السلام: إما أن تأخذوا بما أمرتكم به فيه، وإما أن ألقى عليكم هذا الجبل. فالتجوا إلى قبوله كارهين إلا من عصمه الله عن العناد، فإنه قبله طائعاً مختاراً، ثم لما قبلوه سجدوا وعفروا، وكثير منهم عفر خديه لا لإرادة الخضوع لله، ولكن ينظر إلى الجبل هل يقع أم لا<sup>٢</sup>.

قيل: إن موسى جاءهم بالأنواح فرأوا ما فيها من الأخبار<sup>٣</sup> والتكاليف الشاقة، فكثرت عليهم وأبوا قبولها، وكان ذلك بعد النجاة من الغرق وقبل التيه، فأمر جبرئيل فقطع الطور من أصله ورفع وزلله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وألألقى عليكم، فلما رأوا أن لا مهزب لهم منها قبلوا وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجدون لئلا ينزل عليهم، فصارت عادة [في] اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم<sup>٤</sup>.

وقد من الله على أمة محمد ﷺ أن حمل عليهم فرضاً بعد فرض، ولم يفرض عليهم جملة، فإذا استقر في قلوبهم فرض عليهم الفرض الآخر، وأما بنو إسرائيل فقد فرض الفرائض عليهم دفعة واحدة، فسق عليهم فلم يقبلوا.

قال بعض: إن هذا غير جائز، لأنه يجري مجرى الإلجاء بالإيمان، وهو يتنافى التكليف. قلنا: الإلجاء الذي يوجب سلب الإرادة والاختيار يتنافى التكليف، وهذا الإلجاء غير موجب لسلب

١. المحاسن: ٣١٩/٢٦٦.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٣٤/٢٦٦، تفسير الصافي ١: ١٢٤.

٣. في تفسير روح البيان: الأصار. ٤. تفسير روح البيان ١: ١٥٤.

الاختيار، بل هو تخويف، كالتخويف بالعذاب النُبيوي والأخروي، بل هذا الانقياد كإيمان قوم يونس عليه السلام لما رأوا العذاب.

﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ عن (المجمع): عن الصادق عليه السلام: «واذكروا ما في تزكته من العقوبة»<sup>١</sup>.  
 ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المخالفة ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني تولئ أسلافكم وأعرضوا عما في التوراة وعن الميثاق ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ العهد الوثيق، بأن كانوا يخالفون موسى عليه السلام ويعترضون عليه ويتلقونه بكل أذى، حتى عوقِبَ بعضهم بالخسف، وبعضهم بالطاعون، وبعضهم بالنار، مع مشاهدتهم المعجزات الباهرات.

ثم فعل متأخروهم ما فعلوا من تحريف التوراة، وقتل الأنبياء، وعبادة الأصنام، فلا عَجَب في إنكارهم ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله من الكتاب والمُعْجِزَات، وجحودهم لحَقِّهِ.  
 ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أيها الحاضرون في هذا العصر، بإمهالككم للتوبة، وعدم أخذكم بالعذاب بَغْتَةً ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالِكين المَعْبُونِينَ البائعين أنفسهم بنار جهنم.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ \*  
 فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ [٦٥ و ٦٦]

ثم لِمَزِيد تنبيههم بِفَضْلِ الله عليهم، نَبِّهَهُمْ بِقِصَّةِ بعض الخاسرين الذين لم يُمهِّلَهُم الله، بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ حال ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ وَعَصَوْا ﴿مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ لما اصطادوا السَّمُوكَ فيه، حيث أخذتهم بَغْتَةً ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ وكونوا ﴿خَاسِئِينَ﴾ صاغرين مطرودين، وهذا الأمر أمرٌ تكويني لا تكليف، وقد يعبر عن الإرادة التكوينية في مقام الحكاية بالأمر.

نقل أنه لما أبى المجرمون قبول النُضْح، قال النَّاهُونَ: والله لا نُسَاكِتُكُمْ في قرية واحدة. فقسَمُوا القرية بحدادٍ وصبروها بذلك ثنتين، فلعنهم داود وغَضِبَ الله عليهم [لإصرارهم على المعصية]، فمَسَّحُوا لَيْلًا. فلما أصبح النَّاهُونَ أَوَّأُ أبوابها فإذا هي مُغْلَقَةٌ لا يُسَمِعُ منها صوت، ولا يعلو منها دُخَانٌ، فسَوَّروا الجِيطَانَ ودخلوا فرأوهم قد صار الشَّبَابُ قِرَدَةً، والشَّبُوحُ خَنَازِيرَ لها أذنان، يَتَعَاوَنُونَ<sup>٢</sup>.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٥٦.

١. مجمع البيان ١: ٢٦٢.

ثم أشار سبحانه إلى حكمة تلك المسخة بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة ﴿نَكَالًا﴾ وعقوبة ﴿لِمَا بَيَّنَّ يَذْنِبَهَا﴾ من ذنوبهم الموبقات، أو عبرة للأمم، بأن صارت الأمة الممسوخة عبرة للسالفة، حيث أخبر بها أنبيائهم، وجعلناها رادعة ﴿وَمَا خَلَقَهَا﴾ من الذين شاهدوهم بعد مسخهم، ومن الذين يسمعون القضية والمسخة من بعدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهذه العقوبة كانت لهذه المصالح لا للتشفي.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ \* قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بِكْرَ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا مَا تَأْمُرُونَ \* قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوثُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ \* قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنِ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ \* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا آلَآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ \* وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ \* فَقُلْنَا اضْرِبُوهَ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٦٧- ٧٣]

ثم ذكرهم بنعمة عظيمة أخرى على أسلافهم، وهي أنه قتل قتيلاً فيهم ولم يعلموا قاتله، ولما كانت هذه الواقعة عظيمة عندهم، وعاراً وعزماً على أكثرهم، سألوا موسى عليه السلام أن يدعو الله فيكشف عن القاتل، فدعا الله عز وجل، ثم أخبرهم بما حكاه الله تعالى، بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وتضربوا ببعضها المقتول بين أظهركم ليقيم حياً ويخبركم بقاتله ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً وتعجباً: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وتسخر منا؟ كيف يمكن أن يحيا ميت بضرب ميت به؟

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ وأستجير به من ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ﴾ زمرة ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ فإن السخرية من السفه والجهل، والافتراء على الله من عمل الجاهل بعظمته وسطوته.

فلما علموا أنهم قد أخطأوا فيما توهموا من الهزة ﴿قَالُوا﴾: يا موسى ﴿آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ﴾ ويوضح ﴿لَنَا﴾ أن البقرة التي أمرنا بذبحها ﴿مَا هِيَ﴾ وما صفتها حتى تبين لنا؟ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام،

بعد ما سُئِلَ، وراجع ربه وجاءه الوحي من الله: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا هِيَ «فَارِضٌ» كَبِيرَةٌ قَاطِعَةٌ عُمْرَهَا «وَلَا يَكْزُرُ» صَغِيرَةٌ، بَلْ «عَوَانٌ» وَوَسَطٌ «بَيْنَ ذَلِكَ» الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَحْوَالِهَا. وَتَذَكِيرُ الْإِشَارَةِ وَإِفْرَادُهَا مَعَ تَأْنِيثِ الْمَرْجِعِ وَتَعَدُّدِهِ، لَكُونِهِ إِشَارَةً إِلَى الْمَذْكُورِ.

ثُمَّ قَالَ: إِذَا عَلِمْتُمْ صِفَتَهَا «فَاعْمَلُوا» وَامْتَلُوا «مَا تُوْمَرُونَ» بِهِ. فَلَمَّا عَرَفُوا السَّنَّ سَأَلُوا عَنِ اللَّوْنِ، وَ«قَالُوا»: يَا مُوسَى «أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا» مِنَ الْأَلْوَانِ، وَمَا كَيْفِيَّةُ لَوْنِهَا؟ «قَالَ» مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ هَذَا أَصْلُ اللَّوْنِ، وَأَمَّا كَيْفِيَّتُهُ فَإِنَّهُ «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» شَدِيدَةٌ صَفَرْتُهَا «تَسْرُ النَّاطِرِينَ» إِلَيْهَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِهَا.

قِيلَ فِي كَيْفِيَّةِ لَوْنِهَا: إِنَّهَا كَانَتْ إِذَا نَظَرَ أَحَدٌ إِلَيْهَا خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهَا. ثُمَّ سَأَلُوا مُوسَى زِيَادَةَ تَوْصِيفٍ لِلْبَقَرَةِ حَتَّى يَكُونُوا أَهْدَى إِلَيْهَا، وَ«قَالُوا»: يَا مُوسَى «أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنَ لَنَا مَا هِيَ» وَيَزِيدُ لَنَا فِي صِفَتِهَا، حَيْثُ «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا» وَلَمْ يَتَّضَحْ عِنْدَنَا كِمَالُ الْوُضُوحِ «وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ» بَعْدَ التَّيْسِينِ «لَمْهُتَدُونَ» إِلَيْهِ.

وَفِي [الْحَدِيثِ] النَّبَوِيِّ: «لَوْ لَمْ يَسْتَشُوا لَمَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَجْدِ»<sup>١</sup>. وَ«قَالَ» مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ مَرَاجَعَةِ رَبِّهِ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ لِلْكِرَابِ كِي «تُثِيرُ الْأَرْضَ» وَتُقَلِّبُهَا لِلزَّرَاعَةِ «وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ» وَالْبُسْتَانَ بِالذُّوَالِي وَالنَّوَاعِيرِ، وَصِفَتُهَا الْأُخْرَى أَنَّهَا بَقَرَةٌ «مُسَلَّمَةٌ» مِنْ جَمِيعِ الثُّيُوبِ، وَالْأُخْرَى أَنَّهَا «لَا شِيَةَ» وَلَا لَوْنَ غَيْرَ الصُّفْرَةِ «فِيهَا» رَوِيَ أَنَّهَا كَانَتْ صَفْرَاءَ الْأُظْلَافِ وَالْقُرُونِ<sup>٢</sup>.

فَاقْتَصَرُوا بِهَذَا التَّعْرِيفِ، وَ«قَالُوا أَلَا نَجِثُ بِالْحَقِّ» وَحَقِيقَتِهِ، وَتَبَيَّنَتِ الْبَقَرَةُ. عَنْ (الْعِيَّاشِيِّ) عَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ عَمِدُوا إِلَى أَيِّ بَقَرَةٍ أَجْزَأَهُمْ، وَلَكِنْ شَدُّوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»<sup>٣</sup>. «فَذَبَحُوهَا» بَعْدَ اسْتِزْنَائِهَا «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» لِعَلَاءِ ثَمَمِهَا، وَلِخَوْفِ الْفَضِيحَةِ بِالْقَتْلِ، وَلَكِنْ الْجَبَاحُ وَجِرَ صَهِمَهُمْ عَلَى اتِّهَامِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَهُمْ عَلَى فِعْلِهِ.

«وَأَذَقْتُمْ نَفْسًا» قِيلَ: كَانَ شَيْخًا مُوسِيرًا، قَتَلَهُ بَنُو عَمِّهِ طَمَعًا فِي مِيرَاثِهِ - وَفِي رِوَايَةٍ: حَسَدًا<sup>٤</sup>، كَمَا

١. تفسير البضاوي ١: ٦٨، تفسير الصافي ١: ١٢٧.

٢. تفسير الرازي ٣: ١٢١، وفيه: صفراء القرون.

٣. تفسير العياشي ١: ١٦١/١٣٧، تفسير الصافي ١: ١٢٧.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٧٤.

يأتي - فطرحوه على باب المدينة، أو حملوه إلى قرية أخرى وألقوه بفنائها، ثم جاءوا يطالبون بديده، كذا قالوا. وتأخير ذكر القتل والتنازع فيه مع كونه مقلماً على الأمر بذبح البقرة، لكونه المقصود المهم من الحكاية.

﴿فَادَارَأْتُمْ﴾ وَتَنَازَعْتُمْ فِيهَا﴾ وَأَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا الْقَتْلَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿وَأَفَّاكٌ مَخْرَجٌ﴾ وَمُظْهِرٌ لَكُمْ ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وَتَسْتَرُونَ مِنْ أَمْرِ قَاتِلِهِ لِرَفْعِ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ.

قيل: إن الأمر بذبح البقرة مع قدرة الله على إحياء الموتى بغير الأسباب، كان لمصالح، منها: امتحان بني إسرائيل ببذل مالٍ كثير. حيث روي أن البقرة لم تُوجد إلا عند شاب من بني إسرائيل، فقالوا له: بِكَمْ تبيع بقرتك؟ قال: بدينارين، والخيار لأمتي. قالوا: رَضِينَا بِدِينَارٍ. فسألها، فقالت: بأربعة. فأخبرهم، فقالوا: نُعْطِيكَ دِينَارَيْنِ. فأخبر أمه، فقالت: ثمانية. فما زالوا يَطْلُبُونَ [على النصف] مِمَّا تَقُولُ أُمُّهُ، ويرجع إلى أمه تُضْعِيفُ الثَمَنَ، حَتَّى بَلَغَ ثَمَنُهَا مِائَةً مَسْكٍ ثَوْرٍ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ مِائَةُ كَنَانِيرٍ، فَأَوْجِبَتْ لَهُمُ الْبَيْعَ ثُمَّ ذَبَحُوهَا<sup>٢</sup>.

ومنها: وصول مالٍ كثيرٍ إلى الشاب المطيع لوالده أو والدته.

ومنها: أن الحجة على بني إسرائيل بهذا النحو من الإحياء تكون أؤكد.

فَنَقَلْنَا أَضْرِبُوهُ﴾ أَيِ الْمَيْتِ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أَيِ بَعْضِ الْبَقَرَةِ، فَضَرَبُوهُ بِهَا، فَقَامَ الْمَيْتُ	في إحياء القتيل
سَوِيًّا سَالِمًا، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَتَلَنِي ابْنَا عَمِّي، حَسَدَانِي عَلَى بِنْتِ عَمِّي، فَقَتَلَانِي	بضربه ببعض
وَالْقِيَانِي فِي مُحَلَّةٍ هَؤُلَاءِ لِيَأْخُذَا دِيْنِي، فَأَخَذَ مُوسَى ﷺ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُمَا، هَكَذَا	البقرة، والاستدلال
رَوَى <sup>٣</sup> .	بتلك القضية على
	صحة الخبر في
	الأخرة.

وقال بعض في قوله تعالى: ﴿فَنَقَلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ تنبيه على أن من أراد إحياء

قلبه لم يتأت له إلا بإماتة نفسه، فمن أماتها بأنواع الرياضات، أحيا الله قلبه بأنوار المشاهدات<sup>٤</sup>.  
عن (العياشي): عن الرضا عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَحْتَاجُونَ لَذَنبَهَا [فشددوا] فشدد الله عليهم»<sup>٥</sup>.

١. في النسخة: ملاء، وما أثبتناه من تفسير العسكري عليه السلام.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٧٨.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٧٨، تفسير الصافي ١: ١٢٩.

٤. تفسير روح البيان ١: ١٦٣. ٥. تفسير العياشي ١: ١٣٨/١٦٢.

﴿كَذَلِكَ﴾ الإحياء الذي علم به المنكرون للحشر في هذا الميت في الدنيا ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ في الآخرة، وهذا من أتم الدلائل على صِحة الحشر والإعادة بعد الموت، حيث إنه بضرب الميت بالميت، إذا حَيِيَ الميت<sup>١</sup>، فبإزالة مَطَرٍ يكون طبعه طَبَعُ التُّفْطَةِ على تَرَابِ الأجساد كانت الحياة أولى كما حيي في بَدْوِ الخِلْفَةِ.

فإن قيل: هذا الاستدلال لا يتم على المشركين المنكرين للبعث إلا إذا ثبتت عندهم هذه الواقعة. قيل: يتم بكونها متواترة، وكونها مدلولة لهذه الآيات الباهرات، فلا مجال لهم لإنكار وقوعها، فكان عليهم أن يعترفوا بإحياء جمع كثير من الأولين والآخرين بعد علمهم بوقوع إحياء ميت واحد بقدرية الله سبحانه، ويحتمل أن بعد إحياء الميت قال الله لبني إسرائيل: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فاستدل به على ما حكمت به العقول، وأخبر به الرسول من إمكانه ووقوعه، كما وقّع نظير ذلك لإبراهيم عليه السلام بعد سؤاله ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة، من هذه الآية وغيرها، على التوحيد والنبوة والمعاد، بل هذه الآية بمنزلة الآيات المتعددة لدلائلها على جميع ما ذكر، أما بالنسبة إلى بني إسرائيل ونبوة موسى عليه السلام فواضح، وأما بالنسبة إلى نبينا محمد ﷺ فليكون إخباره بهذه الواقعة إخباراً بالغيب، لوضوح كونه أمياً غير مطلع على الكتب إلا بالوحي.

﴿لَمَلَكُمْ تَفْقَلُونَ﴾ وتفتكرون أن من هو قادر على إحياء نفس واحدة، قادر على إحياء الأنفيس الكثيرة، أو لكي يكمل عقلكم فتعلموا ذلك.

ثُمَّ نَسَسْتُ قُلُوبَكُمْ مِنْ نَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَابَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَابَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْهَازٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [٧٤]

﴿ثُمَّ نَسَسْتُ﴾ وغلظت ﴿قُلُوبَكُمْ﴾ أيها اليهود، حتى خرجت عن قابلية التأثير بمطالعة الآيات والدلائل، بسبب شدة العناد واللجاج، وغاية التوغل في الكفر والفساد، بعد أن كانت قابلة لقبول كل

١. كذا، ولعل في العبارة تقدماً وتأخيراً، هكذا: حيث إنه إذا حيي الميت بضرب الميت بالميت، ...

٢. البقرة: ٢٦٠/٢.



حق، والانقياد لكل خير.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ المذكور من إحياء الميت، ومسح القردة، ورفع الجبل، وغيرها من الآيات في زمن موسى عليه السلام والمرئي من المعجزات الباهرات من محمد ﷺ.

﴿فَهِيَ﴾ في الغلظة واليبوسة ﴿كالحجارة﴾ لا يرجى منها خير، ولا يترشح منها نفع ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وغلظة، ولعل الإبهام على السامعين لاختلاف قلوبهم في المساواة، أو لأن الحكم بعد التردد والتبيين بهذا الإبهام أشد تأثيراً في قبول السامع، فكأنه قال: أحكم بأن قلوبهم أشد قسوة.

قيل: هذا التعبير أدل على فزط القسوة من التعبير بأن قلوبهم أقسى<sup>١</sup>.

ثم أنه سبحانه علل حكمه بكون قلوبهم أشد قساوة وأصلب، بأن للحجارة منافع متعددة بخلاف قلوبهم، وذكر أولها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ وينفتح منه الماء الكثير الذي فيه كل خير من حياة الحيوان والنبات.

وذكر ثانيها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ القليل، ولا يرجى من قلوبكم الخير الكثير ولا القليل.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ أي من الحجارة، إذا أقسم عليها باسم الله ﴿لَمَا يَهِيْطُ﴾ وينزل من العالي إلى السافل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وخوفه، وقلب الكفار مع شعور الانسانية لا يتأثر بالخوف من الله وعقابه، مع الإبلاغ في الإنذار والوعظ والتوعيد والتهديد من الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُتَصَدَّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾<sup>٢</sup>.

في أن الوجود والظاهر من هذه الآية وعدة آيات أخر، وكثير من الروايات، كرواية تسبيح الحصة ملازم للشعور، في كف النبي ﷺ وتسليم الجمادات عليه<sup>٣</sup>، وخنين الجذع، أن للجمادات مرتبة ولكل موجود شعور وخشية وتسبيح وتمجيد من الشعور والإدراك والخوف من الله وعقابه، بل لكل خضوع وتسبيح وانقياد لله، ومعرفة واعتراف به وبأوليائه، وقد مر أنه لا يتعد عند العقل أن يكون الوجود ملازماً

للإدراك، كما نرى في كثير من النباتات.

والحاصل: أن مراتب الإدراك تختلف باختلاف مراتب الوجود، كلما قوي قوي، وكلما ضعف

١. تفسير روح البيان ١: ١٦٤. ٢. الحشر: ٥٩/٢١.

٣. الخرائج والجرائح ١: ٤٦ - ٥٨/٤٧ و ٥٩ و ٦٠، البداية والنهاية ٦: ١٣٨.

ضَعُفٌ، وَأَوَّلُ الْمَرَاتِبِ مَا يُدْرِكُ بِهِ صَانِعُهُ وَمَفْرَعُهُ وَالمُهِمِّنُ عَلَيْهِ، فَيَحْصُلُ لَهُ خُضُوعٌ وَانْقِيَادٌ وَخَشْيَةٌ مِنْ سُلْبِ النِّعْمَةِ وَانْقِطَاعُ الْفَيْضِ عَنْهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُسْتَفَادَ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ حَجَرٍ يَسْقُطُ مِنْ مَكَانٍ بِلَا سَبَبٍ ظَاهِرٍ، يَكُونُ سَقُوطُهُ بِتَأْثِيرِ خَشْيَةِ اللَّهِ فِيهِ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي رِوَايَةٍ، قَالَ: «إِنْ أَبْعَدَ النَّاسُ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبَ الْقَاسِي»<sup>١</sup>.

وَحَاصِلُ مَدْلُولِ الْآيَةِ، أَنَّ الْحَجَرَ تُحْرَكُهُ الْخَشْيَةُ، وَالْقَلْبَ الْقَاسِي لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِالْإِذَارِ وَالْخَوْفِ.  
«وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ أَعْمَالِكُمْ يَا مَعَاشِرَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ.

أَفْتَنَّمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ  
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [٧٥]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَرِيصِينَ عَلَى إِيمَانِ النَّاسِ خُصُوصاً يَهُودَ، وَهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ اللَّجَاجِ مَعَ تِلْكَ الْحُجْجِ الْبَاهِرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْلِيَةً لِقَلْبِ حَبِيبِهِ ﷺ، وَقَطْعاً لَطَمَعِ الْمُؤْمِنِينَ فِي إِيمَانِهِمْ: «أَفْتَنَّمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا» هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ «لَكُمْ» وَيَنْقَادُوا لِدَعْوَتِكُمْ، وَصَدَّقُوكُمْ بِقَوْلِهِمْ «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ» فِي زَمَانِ مُوسَى ﷺ «يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ» فِي طُورِ سَيْنَاءَ «ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ» وَيُغَيِّرُونَهُ «مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ» وَفِهِمُوهُ «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي تَقْوِيلِهِمْ، مَعَ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا خِيَارَهُمْ، فَكَيْفَ حَالُ بَقِيَّتِهِمْ أَمَعَ أَنَّهُمْ فِي اللَّجَاجِ وَالْعِنَادِ لَا يَقْصُرُونَ مِنْهُمْ، بَلْ يَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ، فَلَا تَحْزَنُوا مِنْ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ.

رَوَى أَنَّ فَرِيقاً مِنَ السَّبْعِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ مُوسَى ﷺ لِمِيقَاتِ رَبِّهِ، سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ حِينَ كَلَّمَ مُوسَى ﷺ بِالطُّورِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى ﷺ، وَمَا نَهَى عَنْهُ، ثُمَّ قَالُوا: سَمِعْنَا اللَّهَ يَقُولُ فِي آخِرِهِ: إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعَلُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فافْعَلُوا، وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا فَلَا بَأْسَ<sup>٢</sup>.

فَإِذَا كَانَ أَسْلَافُهُمْ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ مِنَ الْخَبَائَةِ وَالْأَخْلَاقِ اللَّعِيمَةِ، فَأَخْلَافُهُمْ مُمَاتِلُونَ لَهُمْ، وَلَا يَتَأَنَّى مِنْهُمْ إِلَّا مَا أَتَى مِنْ أَسْلَافِهِمْ، فَلَا يُرْجَى مِنْهُمْ الْإِيمَانُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ لِدَعْوَتِكُمْ.

١. سنن الترمذي ٤: ٢٤١١/٦٠٧، تفسير روح البيان ١: ١٦٥.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٦٦.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ  
بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ  
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِظُونَ \* وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيً  
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ [٧٦-٧٨]

ثم أخذ سبحانه غايَةَ حُجَّتِهِمْ وَلَجَّاجِهِمْ بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ وضادفوا هؤلاء المُنافِقون المَطلِعون على التَّوراةِ الأشخاصَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ عن صميم القلب، كسلمان وأضرابه ﴿قَالُوا﴾، نفاقاً ﴿آمَنَّا﴾ بنبوَّة محمد ﷺ كإيمانكم، لما اطلعنا على نُعوته في كتبنا.

﴿وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ﴾ بعد ما نافق المؤمنين بإخبارهم بما في التَّوراة من علام محمد ﷺ ونُعوته إلى بغضٍ، لم يعترف بذلك، وكَم نُعوته فيها، اعترض الساكبون على المُنافقين و ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً عليهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ وتُخبرونهم ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ﴾ وكشَفَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من صفات محمد ﷺ وعلائمه في التَّوراة ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ يوم القيامة ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ويقولوا: إنَّ عَلِمْتُمْ بدلائل صدقه، فلمَ لَمْ تؤمنوا به؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ما في التَّوراة من أوصاف محمد ﷺ حجة عليكم؟

ثم ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَلْمُوهُنَّ عَلَى التَّحْدِيثِ﴾ ولا يَعْلَمُونَ ﴿اللاتِمُونَ لِمُخَافَةِ الْمُحَاجَّةِ﴾ أن الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ من الكُفر وعداوة محمد ﷺ ﴿وَمَا يُغْلِظُونَ﴾ من الإيمان به، فلا ينفعهم اللُّومُ والعِتَابُ والسُّرُّ والكتمان.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ الذين لا يعرفون الكتابة والقراءة، ولأجلِ أُمِّيَّتِهِمْ ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ من التَّوراة وغيرها ﴿إِلَّا أَمَانِيً﴾ وما يسمعون من مُفتريات علمائهم.

في جواز تقليد العالم الصائغ لدينه نسي الفروع دون الأصول

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ كونه حقاً بتقليد علمائهم المحرفين لكلمات الله، المُعتبرين لأحكامه، ومع عدم يقينهم يتدينون به، مع أنَّ التقليد محرمٌ عليهم في أصول العقائد، لأنَّه لا يقيد إلا الظنَّ، والظنُّ لا ينعني من الحق شيئاً، مع أنَّهم كانوا يعرفون علماءهم بالتحريف والتغيير والكذب، فيكون إيمان علمائهم وعوامهم بالحق في غايَةِ البُعد، أمَّا علمائهم فلا يخمارهم في محبة الرئاسة والمال، وأما عوامهم فلا يلتزمهم بتقليد هؤلاء.

روي عن الصادق عليه السلام أنه قال، له رجلٌ: فإذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعون من علمائهم، لا سبيل لهم إلى غيره، فكيف ذمهم بتقليدِهِم والقَبول من علمائهم؟ وهل

عوامَ الْيَهُودِ إِلَّا كَعَوَامِنَا يَقْلِدُونَ علماءهم؟ فإن لم يُجَزْ لأولئك القبول من علمائهم، لم يُجَزْ لهؤلاء القبول من علمائهم.

فقال ﷺ: «بين عوامنا وعلمائنا، وبين عوامَ الْيَهُودِ وعلمائهم فرق من جهة، ونسوية من جهة. أما من حيث استؤوا فإن الله قد ذمَّ عوامنا بتقليدِهم علماءهم كما ذمَّ عوامهم، وأما من حيث افترقوا، فلا. قال: بين لي ذلك يابن رسول الله.

قال ﷺ: «إن عوامَ الْيَهُودِ كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وبأكل الحرام والرُّشا وتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يُفارقون به إيمانهم<sup>١</sup>، وإنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه، وأعطوا مالا يستحقه من تعصبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم [بأنهم] يُفارقون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أن من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يصدق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله.

فكذلك ذمهم لما قلدوا من قد عرفوا ومن قد علموا أنه لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه في حكايته ولا العمل بما يؤذيه إليهم عمن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في [أمر] رسول الله ﷺ إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى وأشهر من أن لا تظهر لهم<sup>٢</sup> إلى آخره.

فإن قيل: كيف أمر الله أهل الكتاب في مقام الحاجة عليهم بالسؤال عن علمائهم بقوله في غير موضع من كتابه: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>٣</sup> مع كون علمائهم معاندين للحق، مُحَرِّفِينَ للكتاب؟

قلت: لم يكن جميعهم بهذه الأوصاف، بل أغلبهم كانوا كذلك، وأما الأمر بالسؤال في الاحتجاج، فإنما هو عن المأمونين عن الكذب، المعروفين عندهم بالصلاح والسداد.

إن قيل: إن السؤال منهم ليس إلا التقليد المفيد للظن الذي لا يغني في الأصول، بل هو محرم إجماعاً؟

قلت: إنما السؤال المأمور به هو ما يكون مقدمة لحصول العلم واليقين، فإنه لا شبهة أن إخبار

١. في تفسير العسكري ﷺ: أدبانهم.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ: ١٤٣/٢٩٩.

٣. الأنبياء: ٢١/٧.

جماعة من أهل العلم المأونين عن الكذب بأمر، سيما مع انضمامه بأمارات آخر مورث للعلم به، واليقين بتحقيقه. وهذا في الحقيقة من الاجتهاد اللازم في الأصول.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [٧٩]

ثم شرع الله تعالى في تهديد المخرفين للتوراة بقوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ وهو وادٍ في جهنم - كما عن النبي ﷺ، وعذاب أليم كما عن ابن عباس<sup>١</sup> - مُعَذِّبٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ الْمُحَرَّفَ بِأَيْدِيهِمْ وبمباشرتهم بحيث لا يمكنهم إنكاره ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾: لعوامهم ﴿هَذَا﴾ المكتوب من جملة التوراة النازلة ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

روي أن أجبار اليهود خافوا ذهاب ما كلهم وزوال رئاستهم حين قديم النبي ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان، فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة، وكانت فيها: حَسَنُ الْوَجْهِ، جَعْدُ الشَّعْرِ، أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، رَنَّةٌ - أي متوسطة القامة - فغيروها، وكتبوا مكانها: طَوَالٌ، أَزْرَقُ، سَبُطُ الشَّعْرِ، فإذا سألهم سَفَلَتَهُمْ قرءوا عليهم ما كتبوا<sup>٢</sup>. وقالوا: إِنَّ صِفَاتِ النَّبِيِّ الْمَوْعُودِ مُغَايِرَةٌ لَصِفَاتِ مُحَمَّدٍ.

وفي رواية: قالوا: إِنَّهُ عَظِيمُ الْجَنَّةِ وَالْبَطْنِ، أَصْهَبُ الشَّعْرِ، وَمُحَمَّدٌ بِخِلَافِهِ، وَإِنَّهُ يَحْيَى بَعْدَ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ<sup>٣</sup>.

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من المال والرياسة على الضعفاء، ولأن لا يتحملوا مؤنة خدمة النبي ﷺ، وهذا من نهاية شقاوتهم، وغاية ذنابهم حيث رَضُوا بتحمل العذاب الشديد الدائم الأجل، لأجل حب المال القليل الزائل، والجاه الوَيْلِ العاجِل.

ثم أنه تعالى بعد ما ذكر استحقاقهم الويل لكتابة الكتاب وتحريفه، وافتراءهم على الله، وأخذهم الأموال، وكان مجال توهم أن الاستحقاق يكون بسبب مجموع الأمور، أعاد ذكر الويل لكل واحد

٢. في تفسير أبي السعود: حسن.

٤. زاد في تفسير العسكري عليه السلام: طويل.

١. تفسير الرازي ٣: ١٤٠.

٣. تفسير أبي السعود ١: ١٢٠.

٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٤٥/٣٠٢.

منها، وبين أن كلاً منها سببٌ مستقيلٌ لاستحقاقه، بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ حيث إنه سببٌ لإضلال الناس، باقي في الدنيا ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ به من المال الحرام والرئاسة الباطلة، والمعاصي العظيمة.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلَفَ  
 اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ \* بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ  
 خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٨٠ و ٨١]

ثم أشار سبحانه إلى بعض مفترياتهم الذي صار سبباً لجرائهم على الله بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ قليلة.

قيل: المراد بها الأيام التي عُبد فيها العجل، وهي سبعة أيام على قول<sup>١</sup>، أو أربعون على آخر<sup>٢</sup>. وقالوا: ثم نصير بعدها في النعمة الدائمة، فلا ينبغي أن نتحمل مكررة تبعية محمد وذلها في الدنيا للاحتراز عن العذاب في الأيام القليلة التي تُفنى وتُنقضي.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً﴾ أن عذابكم على الكفر مُنْقَطِعٌ غير دائم، فإن اتَّخَذْتُمْ هذا العهد ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ أبداً، لأن خُلِفَ العهد والوعد قبيل لا يصدر من الحكيم إلا مع الحاجة والضرورة أو الجهل بقبحه، وكلها نقص وعيب، والذات القادرة المحيطة بجميع الكائنات مبررة من جميع النقائص ومستجميع لجميع الكمالات بلا شك وريب، فإن ادَّعَيْتُمْ أن الله تعالى عهد إليكم بهذا فأنتم كاذبون.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله. روي أنهم إذا مضت المدة عليهم في النار، يقول لهم خزنة جهنم: يا أعداء الله، ذهب الأجل، وبقي الأبد<sup>٣</sup>، فأيقنوا بالخلود.

﴿بَلَى﴾ العذاب الدائم ثابت لكم، حيث إن: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وخطيئة ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ﴾ واشتملت عليه ﴿خَطِيئَتُهُ﴾ بظلمتها وتكبيها، واستولت على قلبه ولسانه وجميع جوارحه حتى

٢. جوامع الجامع: ١٨، الدر المنثور ١: ٢٠٧.

١. تفسير الرازي ٣: ١٤١.

٣. أسباب النزول الواحدي: ١٨.

أَخْرَجَتْهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ، وَنَزَعَتْهُ عَنْ وِلَايَتِهِ تَعَالَى، وَأَبْعَدَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَوْقَعَتْهُ فِي خُذْلَانِهِ، وَهُوَ الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْكُفْرُ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَوَلَايَةِ أَوْصِيَائِهِ الْمَعْصُومِينَ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الْمُحَاطُونَ بِتِلْكَ السَّيِّئَةِ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وَمُلَازِمُوهَا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لَا خَلَاصَ لَهُمْ مِنْهَا أَبَدًا، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَصْرِفًا، فَإِنْ مُلَازِمَةُ الْكُفْرِ مُسْتَلَزِمَةٌ لِمُلَازِمَةِ الْعَذَابِ.

عن (التوحيد): عن الكاظم عليه السلام: «لَا يُخْلَدُ اللَّهُ فِي النَّارِ إِلَّا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، وَأَهْلُ الضَّلَالِ وَالشُّرْكِ»<sup>١</sup>.

وعن (الكافي) عن أحدهما عليه السلام، قال: «إِذَا جُحِدُوا إِمَامَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»<sup>٢</sup>.

فإن قيل: كيف يجوزُ تعذيبُ الكافرِ بالعَذَابِ الدائمِ لِكُفْرِهِ مدَّةً قليلةً من العمرِ، بل الكافرُ أبداً لكفره  
في المدَّة القليلة  
جائز وليس بظلم  
ساعة، وهل هذا الظلمُ، تعالى عن ذلك؟  
قلت: قد مرَّ سابقاً أنَّ عَظَمَةَ الْمَعْصِيَةِ بِمِقْدَارِ عَظَمَةِ الْمَغْصِيَةِ وَكَثْرَةِ حُقُوقِهِ وَنِعَمِهِ،

فإذا كانت عَظَمَةُ الْمَغْصِيَةِ وَنِعْمَتُهُ بِلَا نِهَايَةٍ، فَعِظَمُ مَعْصِيَتِهِ وَلَوْ كَانَ بِغَيْرِ الْكُفْرِ بِلَا نِهَايَةٍ، وَمِقْدَارُ الْعَذَابِ وَاسْتِحْقَاقُهُ بِمِقْدَارِ عَظَمَةِ الْمَغْصِيَةِ.

فلو عَذَّبَنَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَصْغَرِ مَعَاصِيهِ بِالْعَذَابِ الدائمِ مَا ظَلَمَ وَمَا تَعَدَّى عَنْ حَدِّ اسْتِحْقَاقِنَا، فَكَلَّمَا خَفَّفَ أَوْ عَفَا فَيَقْضِيهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَمَّا حَسَنُ الْعَفْوِ فَيُعْتَبَرُ فِيهِ قَابِلِيَّةُ الْمُحَلِّ، فَإِذَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِخُلُودِ الْكَافِرِ، عَلِمْنَا بِخُرُوجِهِ عَنْ قَابِلِيَّةِ الْعَفْوِ، فَلِذَا يُعَذَّبُ بِالْعَذَابِ الدائمِ، بِخِلَافِ سَائِرِ الْمَعَاصِي فَإِنَّهُ يَبْقَى مَعَهَا قَابِلِيَّةُ الْعَفْوِ إِمَّا ابْتِدَاءً أَوْ بَعْدَ التَّوْبَةِ، أَوْ مَعَ الشَّفَاعَةِ، أَوْ بَعْدَ بَعْضِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

وفي بعض الروايات: أَنَّ الْخُلُودَ فِي النَّارِ بِسَبَبِ نَيْتِهِ الْكَافِرِ أَنْ لَوْ خُلِدَ فِي الدُّنْيَا أَبَدًا لَعَصَى اللَّهَ، فَالْكَفَّارُ بِنَيْتِهِمْ خُلِدُوا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٨٢]

ثم أنه سبحانه لما بين حال الكفار في الآخرة بأنهم أصحاب النار، أردفه بذكر حال أهل الإيمان، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورُسُلِهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ الْآخِرُ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من التجنب عن المعاصي وارتكاب العبادات والواجبات، حيث إن الإيمان الواقعي غير منفك عن العمل في الجملة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُتَّعَمُونَ لَا يَخَافُونَ زَوَالَ النِّعَةِ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ [٨٣]

ثم أنه تعالى بعد ذكر نعمة أخذ الميثاق من بني إسرائيل على العمل بالثورة إجمالاً، ذكر نعمة أخذ الميثاق على العمل بتعام ما لا بد منه في الدين تفصيلاً، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ والعهد المؤكد الذي وجب أن يكون جارياً في أخلافهم قرناً بعد قرن، وفي الأمة المرحومة إلى يوم القيامة، وهو أمور، أهمها وأعظمها أنه ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بقلوبكم وجوارحكم ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تجعلون له شركاء من الأصنام والشيطان وهوى النفس وسائر الخلق.

عن الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله عز وجل على عبد أجل من أن لا يكون في قلبه مع الله تعالى غيره»<sup>٢</sup>. وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ شَغَلَتْهُ عِبَادَةُ اللَّهِ عَنْ مَسَائِلِهِ، أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مَا يُعْطَى السَّائِلُونَ»<sup>٣</sup>.

في وجوب  
الاحسان بالوالدين  
الروحانيين و  
الجهانيين و  
حكمته

﴿وَوُتِّحِينَ﴾ بِأُولَئِكَ إِحْسَانًا﴾ مكافأة عن إنايهم وإحسانهم، فإن حقهما بعد حقوق الله، وحق الأنبياء والأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين أعظم من حق كل ذي حق، لأنهما أصلان في وجود الولد في هذا العالم، متعيمان عليه بالتغذية والتربية والحفظ عن المحبة والمودة، بلا طمع في أجر وعوض ولا ملال ولا كلال، ولا يقطعان عنه الإحسان وإن كان مسيئاً بهما وعاقاً لهما، ويؤثرانه على أنفسهما ولو كانت بهما خصاصة، فحق لهما أن يعظماهما ويطلب رضاهما، ولا يؤذيهما وإن كانا كافرين.

عن (الكافي): سئل الصادق عليه السلام: ما هذا الإحسان؟ قال: «أن تحبين صحتهم، وأن لا تكلفهما أن

١. كذا والظاهر وأداء. ٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٨٢/٣٢٨.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٧٥/٣٢٧.



يسألك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مُستغنيين. أليس الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾<sup>١</sup>

ثم إذا كان حقّ الوالدين الجِسْمَانِيَيْنِ بهذه الدَّرَجَةِ من العِظَم، فما أعظم حقّ الوالدين الروحانيّين من النبيّ والوصي! فإنّ إحسانَهُما وإنعامَهُما بأولادِهِما المؤمنين لا يُقاسُ بالوالدين الظاهريّين الجِسْمَانِيَيْنِ، فإذا كانا أفضل وأحقّ بمَراتِبٍ لا تُحصى، كانا بالشُّكرِ أحقّ وأولى.

عن (تفسير الإمام عليّ): قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ والديكم وأحَقُّهُما بشُكرِكُم مُحَمَّدٌ وعليّ»<sup>٢</sup>. وعن عليّ عليه السلام قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: أنا وعليّ أبوا هذه الأُمّة، ولَحَقْنَا بِهِم أعظمُ من حقّ أبوي ولادَتِهِم، فإنّا نُتَقِدُهُم إن أطاعونا من النار إلى دارِ القَرار، ونُلْجِئُهُم من العبوديّة بخيار الأحرار»<sup>٣</sup>.

ثم أمر بالإحسانِ بذِي القُرْبَى بقوله: ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ وهم الذين يَعُدُّون في العُرْفِ أرحاماً وأقرباء للشَّخص، وإنّما أردف الأمر بالإحسانِ إليهم بإحسانِ الوالدين لأنَّ حقَّهُم تابعٌ لحَقَّهُما، حيث إنّ الإنسان مُتَّصِلٌ بهما.

أمّا السببُ الأعظم في التأكيد في رعاية هذا الحقّ، أنّ الارتباط النُسَبِيَّ مقتضى للاتِّحادِ والألفةِ، ومنشأً لزيادة حُسْنِ الرِّعَايَةِ والتَّضَمُّرَةِ، فلو لم يحصل لكان أشقَّ على القَلْبِ وأبلغ في الإيْلامِ، وكلّما كان مُوجب التألُّم أقوى كان دَفْعُهُ أوجب.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ راعَى حقَّ قراباتِ أبويه، أعطِي في الجَنَّةِ ألف ألف درجة»<sup>٤</sup> ثم فسّر الدَّرَجَات، ثم قال: «مَنْ راعَى حقَّ قُرْبَى مُحَمَّدٍ وعليّ أوتِي من فضائل الدَّرَجَاتِ وزيادة الثَّوابِ على قَدَرِ زيادةِ فَضْلِ مُحَمَّدٍ وعليّ على أبوي نُسَبَهُ»<sup>٥</sup>.

﴿وَأَلْيَتَايَ﴾: وهم الصُّغار المُتَقَطِّعون عن آبائِهِم الكافلين لأُمُورِهِم. ووجه إردافِ الإحسانِ بهم للإحسانِ بالأقارب، أنّ في حِفْظِ الصُّغار وتديبِ أُمُورِهِم وَصَحْبَتِهِم مع كمال الرِّعَايَةِ لهم مشقَّةٌ

١. الكافي ٢: ١٢٦، والآية من سورة آل عمران: ٩٢/٣.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٨٩/٣٣٠.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١٩٠/٣٣٠.

٤. في تفسير العسكري عليه السلام: ألف درجة.

٥. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٠٢/٣٣٣.

عظيمةً ورياضةً ثقيلة على النفس، ولذا وعد الله عليه الأجر العظيم، وأنهم لضعفهم وقصورهم أولى بالرعاية من غيرهم بعد الأقارب.

ثم لا ريب أن الإحسان والتكفل لتمام آل محمد ﷺ وهم المنقطعون عن إمامهم، الجاهلون بشرائعهم وتكليفهم، أعظم أجراً منه، كما روي عن العسكري عليه السلام: «أَنْ مَنْ هَدَاهُ [وأرشده] وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيع الأعلى»<sup>١</sup>.

ثم الأولى بعدهم بالرعاية والإحسان الفقراء «وَالْمَسَاكِينَ» الذين أسكتهم الفقر عن الحركة.

روي: «أَنْ مَنْ واساهم بحواشي ماله، وسع الله عليه جنانه، وأناله غفرانه ورضوانه»<sup>٢</sup>.

ثم قال: «إِنْ مِنْ محبي محمد ﷺ مساكين موائسهم أفضل من موائس مساكين الفقراء، وهم الذين سكنت جوارحهم وضعفت قواهم عن مقابلة أعداء الله الذين يُعبرونهم بدينهم ويُسفّهون أحلامهم، ألا فمن قواهم يفيقه وعلمه حتى أزال مسكتهم، ثم سلطهم على الأعداء الظاهرين من النواصب، وعلى الأعداء الباطنين إبليس ومردته حتى يهزمهم عن دين الله ويردّهم عن أولياء آل رسول الله ﷺ، حوّل الله تعالى تلك المسكنة إلى شياطينهم وأعجزهم عن إيصالهم، وقضى الله بذلك قضاءً حقاً على لسان رسول الله ﷺ»<sup>٣</sup>.

ثم بعد ذكر الطوائف الأربع الذين تجب رعايتهم مالا وعشرة، بيّن وجوب الإحسان إلى غيرهم بقوله: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ» الذين لا مؤنة لهم عليكم، سواء كانوا من المؤمنين أو من مخالفيهم من اليهود وغيرهم «حَسَنًا» وعاملوهم وواجهوهم بالبشر وتخلّق جميل.

عن الباقر عليه السلام: «قولوا للناس [أحسن] ما تُحبّون أن يقال لكم»<sup>٤</sup>.

وفي رواية: «أنكم لئن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم»<sup>٥</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «قولوا للناس كلهم حسناً مؤمنينهم ومخالفينهم، أما المؤمنون فييسط لهم وجهه

١. في تفسير العسكري عليه السلام: الرفيق.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢١٤/٣٣٩.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٢٦/٣٤٥.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٢٧/٣٤٦.

٥. تفسير العياشي ١: ١٦٧/١٣٩، الكافي ٢: ١٠/١٣٢، مجمع البيان ١: ٢٩٨.

٦. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٣٥/٢٨١.

وَبَشَّرَهُ، وَأَمَّا الْمُخَالِفُونَ فَيُكَلِّمُهُم بِالْمُدَارَاةِ لَا جَبْدَابِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ، فَإِنْ يَبْسُ مِنْ ذَلِكَ يَكْفُ شُرُورَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ وَ[عَنْ] إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>١</sup>.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنَّ مُدَارَاةَ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنْ أَفْضَلِ صَدَقَةِ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ وَإِخْوَانِهِ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَنْزِلِهِ إِذَا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلُولٍ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَبْسُ أَخُو الْعَشِيرَةِ، ائْذَنْوَالَهُ، [فَأُذِنُوا لَهُ] فَلَمَّا دَخَلَ، أَجْلَسَهُ وَبَشَّرَ فِي وَجْهِهِ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ فِيهِ مَا قُلْتَ، وَفَعَلْتَ فِيهِ [أَمِنْ الْبَشَرِ] مَا فَعَلْتَ!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عُوَيْشُ، يَا حُمَيْرَاهُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يُكْرِمُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ<sup>٢</sup>.

فِي أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ<sup>٣</sup>...) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ<sup>٤</sup>.  
 (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ<sup>٣</sup>) وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ، ثُمَّ نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ<sup>٣</sup>...﴾»<sup>٥</sup>.

وَالْقَمِّيُّ ﷺ قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، ثُمَّ نُسِخَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ...﴾<sup>٥</sup>.

وَقَالَ الْفَيْضُ ﷺ: التَّوْفِيقُ بَأَن يُقَالَ: نُسِخَتْ فِي حَقِّ الْيَهُودِ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ الْمَأْمُورِ بِقِتَالِهِمْ، وَيَقَى حُكْمُهَا فِي حَقِّ سَائِرِ النَّاسِ<sup>٦</sup>.

أَقُولُ: مَا نُسِخَتْ فِي حَقِّ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَيْضاً مُطْلَقاً، بَلْ فِي مَوْقِعٍ أَقْتَضَتْ الْمَصْلَحَةَ الْجِهَادَ مَعَهُمْ، وَأَمَّا فِي مَوْقِعِ الْهَدَنَةِ وَمَوْقِعِ تَحْكِيمِ دَعْوَتِهِمْ وَاجْتِلَابِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْمُجَادَلَةِ الْحَسَنَةِ، فَحُكْمُ الْآيَةِ بَاقٍ فِي حَقِّهِمْ أَيْضاً، وَأَمَّا قَوْلُهُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ أَوْ فِي الْيَهُودِ، مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ الْمَوْرِدُ فَلَا يُنَافِي عُمُومَ الْحُكْمِ لِغَيْرِهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: الرِّوَايَتَانِ مُتَعَارِضَتَانِ، حَيْثُ إِنَّ فِي إِحْدَاهُمَا قَالَ: نُسِخَتْ بِ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وَفِي الْآخَرَى بِ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ؟

قُلْتُ: يُعْكِسُ الْجَمْعُ أَنَّ كِلَتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِمَضْمُونِهِمَا، نَاسِخَتَانِ لِعُمُومِيَّتِهِمَا. حَيْثُ إِنَّ الْيَهُودَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِمْ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَالتَّصَارِي بِقَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، أَوْ قَوْلِهِمْ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَقَّ الْإِيمَانِ.

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ: ٢٤٠/٣٥٣.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ: ٢٤١/٣٥٤.

٣. تفسير العياشي ١: ١٧٠/١٤٠، عن الصادق ﷺ.

٤. تفسير القمي ١: ٥١، والآية من سورة التوبة: ٥/٩.

٥. تفسير الصافي ١: ١٣٧.

ثم أنه بعدما بين كيفية حفظ رابطة الوداد بين خلقه، وهو بتدليل المال وحسن الكلام والأخلاق، بين ما به يحفظ الرُّبُط بين العبد وذاته المقدسة، وهو بالعبادات البدنية والمالية:

أما البدنية، فلما كان أهمها الصلاة، قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بحفظ مواعيتها وإتمام ركوعها وسجودها وأداء حقوقها وشرائطها.

وأما المالية، فلما كان أهمها الزكاة الواجبة، قال: ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ وفيه دلالة على أن المراد من الإحسان بذي القربى واليتامى والمساكين، غير الزكاة.

ثم لما كان بيان هذه التكاليف التي هي من المحسنات العقلية وأخذ الميثاق على العمل بها نعمة من الله عليهم حيث إنه تربية وهداية، ذمهم بأنهم أساءوا على أنفسهم بجعلهم وعدم تلقّيهم هذه النعمة العظيمة بالقبول بقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أيها اليهود عن الوفاء بالعهد الذي آذاه إليكم أسلافكم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن العهد غير متعتين به.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ \* ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [٨٤ و ٨٥]

ثم بعد المنة عليهم بنعمة هدايتهم إلى الأعمال الحسنة، بين منته عليهم بنعمة نهيهم عن الأعمال القبيحة التي أقبحها الإضرار بالمرتبطين إليهم بالنسب والدين، فإن جميع المتسبين بالنسبين، بمنزلة شخص واحد، والإضرار عليهم أقبح من الإضرار على النفس، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ والعهد الأكيد منكم حيث حكمتنا عليكم التزمتم بإيمانكم بالعمل به، وهو أنه ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ ولا تهرقون، ظلماً ﴿دِمَاءَكُمْ﴾ ولا تقتلون بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي بعضكم بعضاً.

﴿مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ فإن سفك الدماء وإخراج المؤمنين من ديارهم من أشد الظلم وأقبح الفساد. ﴿ثُمَّ﴾ بعد الميثاق ﴿أَقْرَزْتُمْ﴾ والتزمتم به عند أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلك الالتزام والعهد

على رؤوس الأشهاد.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أيها اليهود الحاضرون ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الملتزمون بميثاق الله وعهده المؤكد، المقيمون به، الشاهدون عليه، والآن نقضتموه ليخيبكم وطغيانكم، حيث إنكم ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتُهْرَقُونَ دِمَاءَ بعضكم في الحروب مع أنها كلياتكم ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ قَهْرًا عَلَيْهِمْ ﴿وَتَظَاهَرُونَ﴾ أنتم وأعداؤهم من المشركين، أو أنتم أنفسكم تتعاونون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متلبسين ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ من القتل والإخراج، وفيه دلالة على حُرمة الإعانة على الظلم والعضيان.

﴿وَأَنْ﴾ كان الفريق المخرجون ﴿يَأْتُوكُمْ﴾ بأن جاء بهم الأعداء إليكم، حال كونهم ﴿أَسَارَى﴾ ومشدودين بقيد الأعداء ﴿تَقَادُّوهُمْ﴾ وتغطوا العوض عنهم من أموالكم لتخلصوهم من الأسر ﴿وَهُوَ﴾ أي الشأن أو الإخراج ﴿مَحْرُومٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ﴾ تبين لمرجع ضمير الشأن والقصة، أو تأكيد له.

ثم أنكر عليهم بقوله: ﴿أَفْتَوَيْتُونَ﴾ أيها اليهود ﴿بِبَغْضِ الْكِتَابِ﴾ من وجوب التفتية، وتعملون به ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَغْضِ﴾ آخر من حُرمة القتل والإخراج، مع أن قضية الإيمان بالكتاب، الإيمان بكلمة، لأن كلّه من عند الله ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ التبعيض في الإيمان والكفر بالكتاب ﴿مِنْكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ وذُلٌّ مع الفضيحة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من القتل والأسر والإجلاء [عن] الوطن وضرب الجزية عليهم.

نُقِلَ أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ أَلَّا يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَا يُخْرِجَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَإِيمَا عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ وَجَدْتُمُوهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَاشْتَرَوْهُ وَأَعْتَقُوهُ، وَكَانَتْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ أَخَوَيْنِ، وَكَذَا الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ، وَهُمْ أَهْلُ شِرْكَ يَعْْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَلَا يَعْرِفُونَ الْقِيَامَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَافْتَرَقُوا فِي حَرْبٍ شَمْرٍ، وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ عداوةٌ، فَكَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ معنية للأوس وحلفائهم، والنضير معية للخزرج وحلفائهم، فكانوا إذا خرجت الأوس والخزرج للقتال خرجت بنو قُرَيْظَةَ مع أوس، والنضير مع خزرج، فظاهروا حلفاءهم. وإذا غلبوا خربوا ديارهم، فإذا انقضت الحرب افتدت قُرَيْظَةَ ما كان في أيدي خزرج منهم، وافتدت النضير ما كان في أيدي الأوس منهم من الأسارى. فَعَبَّرَ عَنْهُمْ الْعَرَبُ بِذَلِكَ، فَقَالُوا: كَيْفَ تَقْتُلُونَهُمْ وَتَفَادُونَهُمْ؟ قَالُوا: أَمَرْنَا أَنْ نَقْدِيَهُمْ، وَحَرَمَ

علينا قتالهم. قالوا: فَلِمَ تَقَاتِلُونَهُمْ؟ قالوا: إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ نَسْتَدِلَّ حُلَفَاءَنَا<sup>١</sup>.  
 ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لَأَنْ عَصَيْنَاهُمْ - وهو الكُفْرُ - أَشَدُّ الْمَعَاصِي، وَلَا يُنَافِي  
 ذلك كون عذاب مَنْ هو أَكْفَرُ مِنْهُمْ<sup>٢</sup> كَالْذَّهْرِيَّةِ أَشَدَّ مِنْ عَذَابِهِمْ، لِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ الْأَشَدِّيَّةِ ﴿وَمَا اللَّهُ  
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لَأَنَّ الْغَفْلَةَ مُمْتَنِعَةٌ عَلَيْهِ، فَيُقَدِّرُهَا الْكَامِلَةَ وَاسْتِحْقَاقُكُمْ الْكَامِلَ يُجَازِيكُمْ عَلَى  
 أَعْمَالِكُمْ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ  
 يُنصَرُونَ [٨٦]

ثم أَعْرَضَ سُبْحَانَهُ عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ، وَأَعْلَنَ فِي النَّاسِ بِذَمِّهِمْ بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْجَمَاعَةُ الْمُذْمُونُونَ  
 بِغَايَةِ الذَّمِّ، هُمْ ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوْا﴾ وَاسْتَبَدَّلُوا، وَاسْتَارُوا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَمَتَاعَهَا الدُّنْيَا الزَّائِلَةَ  
 ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وَيَعْوِضُ نِعْمَهَا الدَّائِمَةَ، وَأَثَرُوا اللَّذَاتِ الْفَانِيَةَ عَلَى الْجَنَّةِ وَحُظُوظِهَا الْبَاقِيَةِ ﴿فَلَا  
 يَخَفُفُ﴾ إِذَنْ ﴿عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ لَا كَيْفِيَّةً وَلَا مَدَّةً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا يُعَاوَنُونَ عَلَى  
 دَفْعِهِ.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ  
 الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ  
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ \* وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ  
 بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ \* وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ  
 وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ  
 فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ [٨٧-٨٩]

ثم ذَكَرَهُمُ اللَّهُ نِعْمَةً أُخْرَى وَكَفَّرَانَهُمْ لَهَا بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وَأَعْطَيْنَا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ جُمْلَةً  
 وَاحِدَةً ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وَاتَّبَعْنَاهُ ﴿مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالشَّرِيعَةُ وَاحِدَةٌ إِلَى زَمَانٍ

١. تفسير أبي السعود ١: ١٢٥، تفسير روح البيان ١: ١٧٥.

٢. كذا، والقياس: أَشَدَّ كُفْرًا مِنْهُمْ.

عيسى عليه السلام ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ الآيات ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات، وافراد عيسى عليه السلام بالذكر بعد الرسل؛ لاستقلاله بالشرعة، فإن شريعته ناسخة لشرعة موسى عليه السلام.

نبي رجه تسمية جبرئيل عليه السلام بروح القدس  
﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ وأعانه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قيل: هو جبرئيل عليه السلام<sup>١</sup>. حيث إنه خلق بنفسه ورؤي بتريبيه ورفع إلى السماء معه.

واطلاق الروح على جبرئيل عليه السلام لأنه واسطة إفاضة العلم الذي به حياة القلوب، ولذلك سمي القرآن من بين الكتب السماوية بالروح؛ لاستيماله على المعارف الإلهية بمقدار لا يتحمل فوق البشر، وعلى علوم يحتاج إليها الخلائق إلى يوم القيامة.

قيل: إن إضافة الروح إلى القدس إضافة الموصوف إلى الصفة<sup>٢</sup>، والمعنى: الروح المقدسة من الذنب.

ثم بعد ذكر النعم العظيمة عليهم ذمهم بكفرانها، وقال تقريباً وتوبيخاً لهم: ﴿أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿رَسُولٌ بِمَا لَمْ تَهْتَوْ أَفَنَسُكُمُ﴾ وأناكم بعهود وأحكام تحالف مثل خاطركم من وجوب اتباع الكاملين وبذل الأنفس والأموال لئضرة الدين، والإيمان برسالة خاتم النبيين ﷺ ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ واستغفلتم ما جاءكم به أو أخذكم الكثير ﴿فَفَرِقَا﴾ من الرسل ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى ﴿وَفَرِقَا﴾ آخر منهم كنتم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى، كما أنكم كنتم محمداً ﷺ وأردتم قتله. قيل: سمّوه في خير.

وروي عنه عليه السلام قال عند موته: «ما زالت أكلة خبير تعاودني»<sup>٣</sup>.

﴿وَقَالُوا﴾ كناية عن نهاية تأنيبهم عن الإيمان ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ومغشاة بأغشية مائة من دخول ما جاء به محمد ﷺ فيها، فلا نفهم ما يقول. فردّ الله عليهم بأن قلوبهم لم تخلق كذلك ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وخذلهم ﴿بَكُفْرِهِمْ﴾ بالله ورسوله، فأبطل استعدادهم.

أو المراد: أن قلوبنا أوعية العلم، ومع ذلك لا نرى لك خبراً في الكتب السماوية، ولا على لسان أحد. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم عن رحمته بسبب كفرانهم النعمة ﴿فَقَلِيلًا مَّا﴾ أي إيماناً قليلاً ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أو ببعض قليل في غاية القلة من أحكام الله يصدقون ويلتزمون. قيل: أراد

٢. تفسير الجلالين ١: ١٣.

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٦٠/٣٧١.

٣. تفسير الرازي ٣: ١٧٨، تفسير أبي السعود ١: ١٢٧.

بِالْقِلَّةِ الْعَدَمِ<sup>١</sup>.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وَنَزَلَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْحَاضِرِينَ ﴿كِتَابٌ﴾ عَظِيمُ الشَّانِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بِشَهَادَةِ أَنَّهُ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي بَيَّنَّ فِيهَا أَوْصَافَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَنَّهُ نَبِيُّ أُمِّيٍّ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى كَانُوا يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَنْ يَظْهَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالرَّسَالَةِ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ مِنَ اللَّهِ وَيَسْأَلُونَهُ الْفَتْحَ وَالظَّفْرَ بِهِ ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَكَانَ اللَّهُ يُجِيبُهُمْ وَيَفْتَحُ لَهُمْ، أَوِ الْفَرَادَ أَنَّهُمْ يُعْرِفُونَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنْهُمْ نَبِيًّا وَقَدْ قَرُبَ زَمَانُهُ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ ﴿مَا عَرَفُوا﴾ بُنْعُوته وَعَلَاتِمُهُ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وَجَحَدُوا نَبُوته حَسْداً ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بِهِ.

بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ  
عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ  
مُهِينٌ [٩٠]

ثُمَّ بَالَعَ فِي ذَمِّهِمْ وَتَعْيِيبِهِمْ عَلَى فِعْلِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ﴾ مِنْ الْهَدَايَا وَالرَّاسَةِ الْبَاطِلَةِ ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ وَأَعْرَضُوا عَنِ النَّفْعِ الدَّائِمِ، وَرَضُوا بِالْعَذَابِ الدَّائِمِ لَهَا بِعَوَضٍ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَمَّا تَمَلَّكُوا أَنْفُسَهُمْ وَخَلَّصُوا مِنْ تَبِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَوَضٍ كَفَرُوا بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَكَانَتْهُمْ اشْتَرَوْا أَنْفُسَهُمْ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى فَسَّرَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْكُفْرِ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا أَنَّ الْإِقْرَارَ بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ إِقْرَارٌ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ كُفْرَهُمْ لَمْ يَكُنْ جَهْلًا وَقُصُورًا، بَلْ كَانَ ﴿بَغْيًا﴾ وَحَسْداً عَلَى ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ﴾ نَصِيْباً ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَهُوَ النَّبُوَّةُ وَالْكِتَابُ ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَيَخْتَارُ مِنْ بَرِيَّتِهِ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي أَبَانَ بِالْقُرْآنِ نَبُوته، وَأَظْهَرَ بِهِ آيَتَهُ.

وَعَنِ (الْكَافِي) وَ(الْعَبَّاسِي): عَنْ الْبَاقِرِ ع قَالَ: «بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي عَلِيٍّ بَغْيًا»<sup>٢</sup> الْحَدِيثُ، وَهَذَا تَارِيْلٌ

١. تفسير أبي السعود ١: ١٢٨.

٢. الكافي ١: ٢٥/٣٤٥، تفسير العباسي ١: ١٤٣/١٧٥.



وَيُطْن.

﴿فَبَاءُوا﴾ وَرَجَعُوا مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِعَصَبٍ﴾ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ جَعَلُوا نَبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَاتِنٍ ﴿عَلَىٰ عَصَبٍ﴾ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَهُ حِينَ أَنْكَرُوا نَبُوَّةَ عِيسَى ﷺ فَصَارُوا مُسْتَحَقِّينَ اللَّعْنَةِ مُرَادِفَةً لِلْعَنْتَةِ حَيْثُ اقْتَرَفُوا كُفْرًا أَثَرَ كُفْرٍ.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، كَانُوا يَهُودًا أَوْ غَيْرِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حَيْثُ أَهَانُوا اللَّهَ بِمُعَارَضَتِهِ وَرُسُلِهِ بِالْكَذِبِ، فَنَاسَبَ أَنْ يَشْتَمِلَ عَذَابُهُمْ عَلَى نِهَايَةِ الْإِهَانَةِ زَائِدًا عَلَى مَا يُلَازِمُ مُطْلَقَ الْعَذَابِ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا نُنَزِّلُ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٩١]

ثُمَّ بَالَعَ سُبْحَانَهُ فِي تَوْبِيخِ الْيَهُودِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نُضْحًا وَمَوْعِظَةً ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي أَشْرَفُهَا الْقُرْآنُ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ النَّازِلُ مِنَ اللَّهِ، وَالنَّاسِخُ لِلتَّوْرَةِ، حَالُ كَوْنِهِ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي بَشَّرَتْ بِمَجِيئِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالرَّسَالَةِ وَالْكِتَابِ.

وَلَمَّا كَانُوا كَافِرِينَ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ بِهَا، رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ زِدًا لِدَعْوَاهُمْ الْإِيمَانَ بِالتَّوْرَةِ ﴿فَلِمَ﴾ كُتِّمَ ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِالتَّوْرَةِ، فَإِنَّ التَّوْرَةَ حَرَّمَتْ قَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِ وَفِعْلُهُ مُوَافِقًا.

عَنِ الْعِيَّاشِيِّ: عَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «إِنَّمَا نَزَلَ هَذَا فِي قَوْمٍ [مِنَ الْيَهُودِ] كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَقْتُلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِأَيْدِيهِمْ، وَلَا كَانُوا فِي زَمَانِهِمْ، وَإِنَّمَا قُتِلَ أَوَائِلُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ<sup>١</sup>، فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَأَضَافَ إِلَيْهِمْ فِعْلَ أَوَائِلِهِمْ بِمَا تَبِعُوهُمْ وَتَوَلَّوْهُمْ<sup>٢</sup>».

١. تفسير العياشي ١: ١٤٣/١٧٧.

٢. زاد في المصدر: فنزلوا بهم أولئك القتل.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ \*  
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا  
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَأُ يَأْمُرُكُمْ بِهِ  
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٩٢ و ٩٣]

ثم أنه لما كانت عبادتهم العجل واتخاذهم إلهاً من أفتح أعمالهم، وفيها نهاية فضيحتهم وظهور  
كمال حماقتهم كرر الله ذكره بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ  
ظَالِمُونَ﴾.

ويمكن أن يكون تكراره وتكرار أخذ الميثاق ورفع الطور والأمر بأخذ ما في التوراة من الأحكام  
بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ سماع  
قبول وطاعة؛ توطئة لحكاية قولهم الشنيع بقوله: ﴿قَالُوا﴾ جواباً: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾  
أمرك، وليان رُسوخ حب العجل في قلوبهم بقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قيل: إنهم  
بسبب كفرهم أُمروا يشرب الماء الذي دُرِيت فيه شحالة العجل حتى وصل ما شربوه إلى قلوبهم،  
حتى تداخلها حبه، ورسخ فيها صورته لفرط شغفهم به.

نقل أن موسى ﷺ لما خرج إلى قومه أمر أن يبرز العجل بالميزد ثم يذري في النهر، فلم يبق نهر  
يومئذ إلا وقع فيه منه شيء ثم قال لهم: إشرَبُوا منه، فمن بقي في قلبه شيء من حب العجل ظهرت  
شحالة العجل على شاربيه.<sup>١</sup>

وروي عن الباقر عليه السلام قال: «لما ناجى موسى ﷺ ربه، أوحى الله إليه: يا موسى، قد فتنك قومك.  
قال: بماذا يا رب؟ قال: بالسامري. قال: وما [فعل] السامري؟ قال: قد صاغ لهم من خلطهم عجلاً.  
قال: يا رب، إن خلطهم لا يحتمل أن يصاغ منه غزال أو تمثال أو عجل، فكيف فتنهم؟ قال: إنه  
صاغ لهم عجلاً، فخار.

قال: يا رب ومن أخاره؟ قال: أنا. فقال عندها موسى ﷺ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ  
وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾.<sup>٢</sup>

١. شحالة الشيء: بُراده، وهو ما يتساقط من الحديد أو نحره في أثناء برده.

٢. الأعراف: ١/١٥٥.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٨٣.

قال: فلما انتهى موسى ﷺ إلى قومه وزأهم يعبدون العجل، ألقى الألواح من يده فكسرت.  
قال أبو جعفر ﷺ: «كان ينبغي أن يكون ذلك عند إخبار الله تعالى إياه. قال: فعمد موسى ﷺ فيرد العجل من أنفه إلى طرف ذنبه، ثم أحرقه بالنار فذره في اليم. قال: فكان أحدهم ليقع في الماء وما به [إليه] من حاجة، فيتعرض بذلك للرماد<sup>١</sup> ويشربه، وهو قول الله تعالى: «وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ»<sup>٢</sup>.

أقول: ظاهر الرواية أن حُبهم للعجل صار سبباً لشربهم من الماء، ويمكن كون حُب العجل سبباً للشرب، ثم صار الشرب سبباً لرُسوخ حُبّه وثباته في قلوبهم.  
ثم لما كان ارتكابهم هذه القبائح مبطلاً لدعائهم الإيمان بالتوراة ويموسى وشريعته؛ أمر الله نبيه بتقريعهم، بقوله: «قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ» وساء ما يبتغىكم إليه «إيمانكم» بالتوراة من فعل هذه القبائح، ومن الكفر بالله واليوم الآخر وبرسالي «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بها.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلْمُوتَ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَلَنْ يَتَمَتُّوهَ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
بِالظَّالِمِينَ [٩٥ و ٩٤]

ثم لما كان من عقائدهم السخيفة ودعائهم الباطلة أن الجنة وتعيمها في الآخرة خالصة لهم ومختصة بهم لدعائهم أنهم أولياء الله المخلصون وعباده الصالحون، ولذا قالوا: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا»<sup>٣</sup> فردّ الله عليهم بقوله: «قُلْ لهم يا محمد: «إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ» من جنتها وتعيمها «عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً» ومختصة «مِنْ دُونِ» سائر «النَّاسِ» قيل: المراد من الناس محمد ﷺ وأهل بيته وأصحابه<sup>٤</sup>.

«فَتَمَتُّوا أَلْمُوتَ» الذي به تصلون إليها قلّة نعم الدنيا بالنسبة إلى نعم الآخرة، مع كون نعم الدنيا مُنْعَصَةً مشوبة بالآلام والمكاره بخلاف نعم الآخرة، فكل من أيقن بفلاحه ونجاة، لا بد له من أن يشاق إلى الموت ويتمناه، كما قال أمير المؤمنين ﷺ: «والله لا ابن أبي طالب أتش بالمولي من الطفلي

٢. تفسير العياشي ١: ١٤٤/١٧٨.

١. في النسخة: بذلك إليها.

٤. تفسير الصافي ١: ١٤٨.

٣. البقرة: ١١١/٢.

بِئْذِي أُمِّهِ<sup>١</sup>.

وقال عَمَّارٌ يَوْمَ صَفْيَيْنَ:

اليَوْمَ أَلْقَى الْأَحْبَبَةَ مُحَمَّدًا وَحِرْزَهُ<sup>٢</sup>

عن الصادق عليه السلام: «سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: بماذا أَحْبَبْتَ لِقَاءَ رَبِّكَ؟ قال: لَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ اخْتَارَ لِي دِينَ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، عَلِمْتُ أَنَّ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِهَذَا لَيْسَ يُنْسَانِي، فَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ»<sup>٣</sup>.

فَمَنْ كَانَ صَادِقًا فِي الْحُبِّ لَا مُحَالَةً يَتَمَنَّى لِقَاءَ الْحَبِيبِ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي دَعْوَى حُبِّكُمْ لِلَّهِ وَتَوَلِّيَكُمْ إِيَّاهُ وَاخْتِصَاصِكُمْ بِالْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا. ثُمَّ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّمَنِّي، التَّمَنِّي الْقَوْلِي، كَقَوْلِي: رَبَّنَا آمِنْنَا أَوْ عَجِّلْ فِي وَفَاتِنَا وَأَمْنَالِ ذَلِكَ، دُونَ التَّمَنِّي الْقَلْبِيِّ الَّذِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ. رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [أَنَّهُ] قَالَ لَهُمْ بَعْدَ مَا عَرَضَ هَذَا عَلَيْهِمْ: «لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا غَضَّ بِرِيقِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ» وَكَانَتِ الْيَهُودُ عُلَمَاءَ بَأْتِهِمْ كَافِيُونَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ هُمُ الصَّادِقُونَ، فَلَمْ يَجْتَرِئُوا أَنْ يَدْعُوا بِهِ<sup>٤</sup>.

شَبَّهَ رَرْنَهَا إِنَّ قُلْتُ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مَا وَجَدَ مِنْهُمْ هَذَا الْقَوْلُ؟

قُلْتُ: لَوْ قَالُوا ذَلِكَ لَتَقِلَّ إِلَيْنَا نَقْلًا مُتَوَاتِرًا، لِأَنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لِأَنَّهُ بِقَوْلِهِمْ مَا يُشْعِرُ بِالتَّمَنِّي، كَانَ النَّبِيُّ مُحْجُوجًا، وَكَانَ يُبْطَلُ دَعْوَاهُ وَتُبُوتهُ، وَيَعْدَمُهُ يَتَبَيَّنُ صِحَّةُ نُبُوتهُ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مِنَ الْوَقَائِعِ الْعَظِيمَةِ، فَوَجَبَ أَنْ يُنْقَلَ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا.

وَأَيْضًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي كَانَ أَعْقَلَ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْعَالَمِ بِالْإِخْبَارِ بِعَدَمِ وَقُوعِ أَمْرِ جَزْمًا إِلَّا بِالْإِخْبَارِ بِاللَّهِ بِعَدَمِ وَقُوعِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْبَرَ بِأَمْرٍ لَا يَأْمَنُ وَلَا يُثَبِّتُ بِتَحْقِيقِهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ، مَعَ أَنَّهُ وَرَدَتْ رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَظَاهِرَةٌ بِأَنَّهُمْ مَا قَالُوا، وَلَوْ قَالُوهُ لَمَاتُوا مُقَاعِدَهُمْ وَرَأَوْا مُقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، بَلْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الْإِخْبَارَ بَلَغَ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ.

وَهَذَا مِنَ الْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ، حَيْثُ أَخْبَرَ عَنْ جَزْمٍ بِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ كَلِمَةً دَالَّةً عَلَى تَمَنِّي الْمَوْتِ مَعَ شَهْوَلَتِهَا عَلَيْهِمْ، بَلْ أَخْبَرَ بِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَهَا أَبَدَ الدَّهْرِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

١. نهج البلاغة: ٥٢/٥. ٢. وقعة صفين: ٣٤١، تفسير أبي السعود: ١/١٣٢. ٣. الخصال: ١/٣٣.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٩٤/٤٤٣.

وروي عن (تفسير الإمام) وعن ابن عباس: أَنَّ الْمُرَادَ بِتَمَنِّي الْمَوْتَ أَنْ يَدْعُو الْفَرِيقَانِ بِالْمَوْتِ عَلَى الْكَاذِبِ مِنْهُمَا فَيَكُونُ تَطْيِيرُ الْمُبَاهِلَةِ<sup>١</sup>. وهذا خلافُ المشهور بين المفسرين.

روي عن نافع أَنَّهُ جَلَسَ إِلَيْنَا يَهُودِيٌّ يُخَاصِمُنَا، فَقَالَ: إِنَّ فِي كِتَابِكُمْ ﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ﴾ وَأَنَا أَتَمَنَّى، فَمَا لِي لَا أَمُوتُ؟ فَسَمِعَ ابْنُ عُمَرَ هَذَا فَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَخَذَ السِّيفَ ثُمَّ خَرَجَ، فَقَرَأَ الْيَهُودِيَّ حِينَ رَأَاهُ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَدْرَكْتُهُ لَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، تَوَهُمَ هَذَا الْجَاهِلُ أَنَّهُ لِلْيَهُودِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، إِنَّمَا هُوَ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يُعَايِدُونَهُ وَيَجْحَدُونَ نَبُوَّتَهُ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ<sup>٢</sup>.

إِنْ قِيلَ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ، ثُمَّ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، فَكَيْفَ وَجِهَ الْاِحْتِجَاجَ عَلَى الْيَهُودِ؟

قُلْتُ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَدْعُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ خَالِصَةٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَمَا أَذْعَاهَا الْيَهُودُ.

ثُمَّ بَعْدَ الْمَحَاجَّةِ عَلَيْهِمْ وَتَبْكِيَتِهِمْ، هَدَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ وَالطُّغْيَانِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوْءُ حَالِهِمْ وَشَنَاعَةُ أَعْمَالِهِمْ، فَيُجَازِيهِمْ بِأَسْوَأَ مُجَازَاةٍ.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ [٩٦]

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ مَأْيُوسُونَ عَنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ طَوِيلَةٍ فِي الدُّنْيَا، بَلْ ﴿و﴾ أَحْرَصَ عَلَيْهَا مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بِاللَّهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِالْمَعَادِ، فَإِنَّهُمْ لِيُزْعِمَ أَنَّ الدُّنْيَا جَنَّةٌ لَهُمْ، يَكُونُونَ أَكْثَرَ حُبًّا لِلْحَيَاةِ وَأَشَدَّ حِرْصًا عَلَى التَّعِيشِ فِيهَا.

وهؤلاء اليهود مع اعتقادهم بالمعاد والجنة، واذعانهم أَنَّهَا خَالِصَةٌ لَهُمْ، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ مُحْرَمُونَ عَنِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا وَصَانِرُونَ إِلَى النَّارِ وَأَشَدَّ الْعَذَابِ بِسَبَبِ وَضُوحِ كُفْرِهِمْ عِنْدَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ لِلْحَقِّ، يَكُونُونَ أَحْرَصَ عَلَى التَّعِيشِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِحَيْثُ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ وَيَتَمَنَّى ﴿لَوْ يُعَمَّرَ﴾ فِيهَا ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قِيلَ: تَخْصِيصُ أَلْفِ سَنَةٍ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ عَادَةَ الْمَجُوسِ الْقَاتِلِينَ بِالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ أَنَّهُمْ

١. تفسير الرازي ٣: ١٩١، تفسير ابن كثير ١: ١٣٢، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٤٤٣.

٢. تفسير روح البيان ١: ١٨٤.

عند العطاس يقولون: عِشْ أَلْفَ سَنَةٍ، أَوْ أَلْفَ نَوْرٍ<sup>١</sup>.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي التَّعْمِيرُ الطَّوِيلُ ﴿بِمَرْحَجِهِ﴾ ومُبايَعِهِ ﴿مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ لِأَنَّ الْعُمَرَ الطَّوِيلَ بعد انقضاءه كطَرَفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ بَعْدَهُ يَكُونُ الْعَذَابُ الدَّائِمَ.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فِي أَعْمَارِهِمْ فَيُشَدُّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فَيَكُونُ طَوْلُ الْعُمَرِ شَرًّا لَهُمْ، حَيْثُ لَا يَنَالُونَ فِيهِ إِلَّا زِيَادَةَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فَيَزِدُّهُمُ عَذَابُهُمْ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ الْعُمَرِ يَكْتَسِبُونَ خَيْرًا كَثِيرًا لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

عن النبي ﷺ قال: «طَوْبُ لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»<sup>٢</sup>.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ \* مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ [٩٧ و ٩٨]

ثُمَّ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ مِنَ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ لِلْيَهُودِ وَمِنْ مَسَاوِي أَقْوَالِهِمْ اعْتِقَادَهُمْ وَقَوْلُهُمْ: بَأَنَّ جِبْرِئِيلَ عَدُوٌّ لَنَا؛ لِأَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَحْنُ تُعَادِيهِ، أَبَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ سَخَافَةَ هَذَا الْاِعْتِقَادِ وَشُنَاعَةَ هَذَا الْقَوْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ وَبُخْصَالَهُ، فَإِنَّهُ مُبْطَلٌ إِذْ لَا وَجْهَ لِعُدْوَانِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّ الْعَدَاوَةَ بِسَبَبِ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْكَ ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ مُتَدَرِّجًا ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ الَّذِي هُوَ مَوْضِعُ فَهْمِكَ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَبِأَمْرِهِ، لَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَهُوَ مَأْمُورٌ وَمُحْسِنٌ إِلَيْهِمْ بِتَبْلِيغِهِ الْكِتَابَ الْمُبِينِ الَّذِي يَكُونُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ وَمُؤَافِقًا ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَبُشْرَى﴾ بِبَنُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ جِبْرِئِيلُ مَحْبُوبًا مَشْكُورًا لَا مَبْغُوضًا مَنفُورًا.

عن القمّي رحمه الله: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا الرُّسُولُ اللَّهُ ﷺ: لَوْ كَانَ الْمَلَكُ الَّذِي يَأْتِيكَ مِيكَائِيلَ لَأَمَّا بِكَ، فَإِنَّهُ مَلَكُ الرَّحْمَةِ وَصَدِيقُنَا، وَجِبْرِئِيلُ مَلَكُ الْعَذَابِ وَهُوَ عَدُوُّنَا<sup>٣</sup>.

١. تفسير روح البيان ١: ١٨٦.

٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٤٢/٢٨٣، تفسير روح البيان ١: ١٨٦.

٣. تفسير الغمي ١: ٥٤.



عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [٩٩ و ١٠٠]

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ دَالَاتٍ عَلَى صِدْقِكَ فِي نُبُوتِكَ وَفِي جَمِيعِ مَا تُخْبِرُ بِهِ، مُوضَّحَاتٍ عَنِ كُفْرٍ مَنِ شَكَّ فِيهَا ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾ وَمَا يَجْحَدُهَا ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَوَلَايَتِهِ، وَالْمُتَجَاوِزُونَ عَنْ كُلِّ حَدٍّ مُسْتَخْسِنِينَ فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، فَإِنَّ مَنْ يَكُونُ بِصِفَةِ التَّمَرُّدِ مُجْتَرِئًا عَلَى الْكُفْرِ بِالْآيَاتِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الْأَوَسِّ وَالْخَزْرَجِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَبْعَاثِهِ، فَلَمَّا بُعِثَ مِنَ الْعَرَبِ كَفَرُوا بِهِ وَجَحَدُوا مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِمُوا، فَقَدْ كُتِبَ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَنَحْنُ أَهْلُ الشَّرْكِ، وَتُخْبِرُونَنَا أَنَّهُ مَبْعُوثٌ، وَتُصِفُونَ لَنَا صِفَتَهُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا جَاءَ لَنَا بِشَيْءٍ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَمَا هُوَ بِالَّذِي كُنَّا نَذْكُرُ لَكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ<sup>١</sup>.

وَلَعَلَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْمُعْجِزَاتِ، مِثْلَ امْتِنَاعِهِمْ عَنِ الشُّبَاهِلَةِ، وَعَنِ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ، وَاشْبَاعِ الْخَلْقِ الْكَثِيرِ مِنَ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ، وَتُبُوعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، وَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ كُفْرَهُمْ بِالْآيَاتِ إِعْظَامًا لَهُ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ تَوْبِيخَهُمْ عَلَى نَقْضِ عَهْدِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا ظَهَرَ، وَتَعَاهَدَهُمْ عَلَى إِخْرَاجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ إِذَا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَأَنْ لَا يُعِينُوا عَلَيْهِ أَحَدًا بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ مِنَ الْعُهُودِ الْمَرْبُورَةِ ﴿نَبَذَهُ﴾ وَنَقَضَهُ ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ حَيْثُ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَعَانُوا قَرِيشًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَلَيْسَ هَذَا الْفَرِيقُ قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِنُبُوَّتِهِ أَبَدًا بَغْيًا وَحَسَدًا.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابِ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١٠١]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بِالْمُعْجِزَاتِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ، وَتَخْبِرُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِالثَّوَرَةِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي هُوَ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ وَمُطَابِقٌ [فِي] صِفَاتِهِ ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ مِنَ الثَّوَرَةِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ﴿نَبَذَ﴾ وَرَمَى



﴿فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ من التوراة وغيرها ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأعرضوا وتركوا العمل به ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الكتاب كتاب الله، وأن ما فيه حق. فكما أن الجاهل بأن التوراة كتاب الله، لا يرى ترك العمل به قبيحاً لا يرى هؤلاء العالمون بأن التوراة كتاب الله ترك العمل بها قبيحاً وشينها<sup>١</sup> على أنفسهم، وهذا من غاية كفرهم وخبايئهم فمثلهم ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَخِيلُ أَشْفَاراً﴾<sup>٢</sup>.

وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَفُوا لَمْثُوتهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [١٠٢ و ١٠٣]

ثم ذكر الله تعالى نوعاً آخر من قبائح أعمالهم، وهو إقبالهم إلى السحر وعملهم به بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ بعد ترك اتباع كتب الله ﴿مَا تَتْلُوا﴾ وتقرأه ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ وكفرة الجن من كتب السحر ﴿عَلَى﴾ عهد ﴿مُلْكٍ سَلِيمَانَ﴾ وسلطته، أو افتروا على ملكه بأن ألقوا الملائكة إسرائيل أن سليمان بن داود عليه السلام إنما وجد ذلك الملك بسبب هذا العلم.

ثم لما كان السحر بمنزلة الكفر في القباحة والمغصية نزه الله سبحانه سليمان عنه بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ بعمل السحر ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ حيث عملوا بالسحر وعلموه الناس. ولعل اليهود في زمان سليمان أنكروا نبوته، ونسبوا جميع ما كان له من خوارق العادة وتسخير الرياح وعلمه بمَنَظِق الطير وسائر معجزاته إلى السحر، كما أنكروا يهود عصر النبي ﷺ نبوته، ونسبوا الآيات والمعجزات من القرآن المجيد، وشق القمر، وطاعة الجمادات له، وتسييح الحصاة في كفه وغير ذلك إلى السحر. وقالوا: نحن أيضاً نظهر العجائب بالسحر، ونستغني عن الانقياد لمحمد، ولذا

١. كذا، والظاهر وشينه، أي شينى الترك.

٢. سورة الجمعة: ٥/٦٢.

كَفَرُوا بِالْآيَاتِ وَنَبَذُوا الْعَهْدَ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ «مَا كَفَرُوا» وَمَا سَحَرَ سَلِيمَانُ «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا» إِذْ «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ» وَيُعَلِّمُونَهُمْ «مَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ» الَّذِينَ نَزَلُوا «بِبَابِلَ» وَهُوَ بَلَدٌ بِالْعِرَاقِ. وَقِيلَ: جَبَلٌ دَمَانِد. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ<sup>١</sup>، وَكَانَ اسْمُ أَحَدِهِمَا «هَارُوتَ» وَاسْمُ الْآخَرِ «مَارُوتَ».

نَصَةُ هَارُوتَ عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَثُرَ السَّحَرَةُ وَالْمَوْهُونُ<sup>٢</sup>، فَبَعَثَ اللَّهُ مَارُوتَ تَعَالَى مَلَائِكِينَ إِلَى نَبِيِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ يَذْكُرُ مَا يَسْحَرُ بِهِ السَّحَرَةُ وَذِكْرُ مَا يُطِيلُ بِهِ سِحْرَهُمْ وَيُرَدُّ بِهِ كَيْدُهُمْ. فَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ عَنِ الْمَلَائِكَةِ وَأَدَّاهُ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقِفُوا بِهِ عَلَى السَّحَرِ، وَأَنْ يُطِيلُوهُ، وَنَهَاَهُمْ أَنْ يَسْحَرُوا بِهِ النَّاسَ. وَهَذَا كَمَا يَدُلُّ عَلَى السِّمِّ مَا هُوَ، وَعَلَى مَا يَدْفَعُ بِهِ غَائِلَةُ السِّمِّ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَتَعَلِّمِ: ذَلِكَ السِّمُّ، فَمَنْ رَأَيْتَهُ سَمٌّ فَادْفَعْ غَائِلَتَهُ بِكَذَابٍ، وَإِنَّا أَنْ تَقْتُلَ بِالسِّمِّ أَحَدًا. قَالَ: وَذَلِكَ النَّبِيُّ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَظْهَرَا لِلنَّاسِ بِصُورَةِ بَشَرَيْنِ وَيُعَلِّمَاهُمَا مَا عَلَّمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ وَيُعِظَاهُمَا<sup>٣</sup>».

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اتَّقُوا الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا تَسْحَرُ بِإِدِّهِهَا لَأَسْحَرَ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ»<sup>٤</sup>. رَوَى عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: إِنَّ قَوْمًا عِنْدَنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مَلَكَانِ اخْتَارَهُمَا الْمَلَائِكَةُ، فَلَمَّا كَثُرَ عَصِيَانُ بَنِي آدَمَ أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ مَعَ ثَالِثٍ لَهُمَا إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّهُمَا افْتَتَنَّا بِالزُّهْرَةِ وَأَرَادَا الزُّنَا بِهَا، وَشَرِبَا الْخَمْرَ، وَقَتَلَا النَّفْسَ الْمُحَرَّمَةَ، وَأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُهُمَا بِبَابِلَ، وَأَنَّ السَّحَرَةَ مِنْهُمَا يَتَعَلَّمُونَ السَّحَرَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَسَخَ تِلْكَ الْمَرْأَةَ بِالْكَوْكَبِ الَّذِي هُوَ الزُّهْرَةُ.

فَقَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَعَادُ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ مَلَائِكَةَ اللَّهِ مَعْصُومُونَ مَحْفُوظُونَ عَنِ الْكُفْرِ وَالْقَبَاحِ بِالطَّائِفِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: «لَا يَغْضُونَ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»<sup>٥</sup> وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ» يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ» \* يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ<sup>٦</sup>، وَقَالَ فِي الْمَلَائِكَةِ: «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ» \* لَا يَسْجُدُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ<sup>٧</sup>، إِلَى قَوْلِهِ: «مُشْفِقُونَ»<sup>٨</sup>.

١. تفسير أبي السعود ١: ١٣٨، مجمع البيان ١: ٣٣٨. ٢. في النسخة: والموهمون.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٤٧٣. ٤. كنز العمال ٣: ١٨٢/٦٠٦٣.

٥. التحريم: ٦٦/٦. ٦. الأنبياء: ٢١/١٩ و ٢٠.

٧. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٤٧٥، والآيات من سورة الأنبياء: ٢١/٢٨-٢٦.

وفي رواية عن الرضا عليه السلام أنه مثل عمار يرويه الناس من أمر الزهرة، وأنها امرأة فبين بها هاروت وماروت، وما يزؤونه من أمر شهيل وأنه كان عشاراً باليمن<sup>١٩</sup>

فقال عليه السلام: «كُتِبُوا فِي قَوْلِهِمَ إِنَّهُمَا كُوكِبَانِ، إِنَّهُمَا كَانَتَا ذَابَّتَيْنِ مِنْ دَوَابِّ الْبُخْرِ، فَغَلَطَ النَّاسُ وَظَنُوا أَنَّهُمَا الْكُوكِبَانِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَمْسَخَ أَعْدَاءَهُ أَنْوَاراً مُضِيئَةً ثُمَّ يَبْقِيَهَا مَا بَقِيََتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَأَنَّ الْمُسَوِّخَ لَمْ تَبْقَ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ حَتَّى مَاتَتْ، وَمَا تَنَاسَلَ مِنْهَا شَيْءٌ، وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِسَخٌ، وَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ الْمُسَوِّخِيَّةِ مِثْلُ الْقِرْدِ وَالْخَنَزِيرِ وَالْذَّبِّ وَأَشْبَاهِهَا إِنَّمَا هِيَ مِثْلُ مَا مَسَخَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى صُورِهَا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ بِأَنكَارِهِمْ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ.

وأما هاروت وماروت، فكانا ملكَيْنِ عَلِمَا النَّاسَ السَّحْرَ لِيُخْتَرِزُوا بِهِ عَنْ سِحْرِ السَّحْرَةِ وَيُطِيلُوا بِهِ كَيْدَهُمْ<sup>٢٠</sup> الحديث.

ولا يخفى أَنَّ الروايات التي تكون موافقة لما اشتهر بين العامة، لابدَ مِنْ حَمْلِهَا عَلَى التَّقِيَّةِ لِمُخَالَفَتِهَا الْكِتَابَ وَالْعَقْلَ.

وقال بعضُ العامة: إِنَّ مَدَارَهَا مَارَوْتَهُ الْيَهُودُ<sup>٢١</sup>. وَأَمَّا تَوْجِيهَهَا بِالَّذِي تَكَلَّفَهُ الْفَيْضُ عليه السلام<sup>٢٢</sup> وبعضُ العامة، ففي غاية البُعْدِ<sup>٢٣</sup>. وَحَمْلُهَا عَلَى كَوْنِهَا أَسْرَاراً لَا يُنَاسِبُ رَوَاتُهَا كَعَطَاءُ<sup>٢٤</sup> وَابْنُ الْكَوَّازِ<sup>٢٥</sup> لِبِدَاهَةِ عَدَمِ كَوْنِهَا مِنْ أَهْلِ السَّرِّ وَالْفَهْمِ.

والحاصل: أَنَّ الروايات الدَّالَّةَ عَلَى عَصِيَانِ الْمَلَكَيْنِ بِالشُّرْكِ وَالزِّنَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَمَسْخِ الزُّهْرَةِ، مِمَّا يَجِبُ رَدُّهَا أَوْ رَدُّ عِلْمِهَا إِلَيْهِمْ عليه السلام<sup>٢٦</sup> لَوْ لَمْ يُمَكِّنْ حَمْلَ جَمِيعِهَا عَلَى التَّقِيَّةِ.

«وَمَا يَعْلَمَانِ السَّحْرَ وَابْطَالَهُ مِنْ آخِدٍ مِنْ النَّاسِ حَتَّى يَقُولَا: لِلْمُتَعَلِّمِ: اْعْلَمْ (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) وَامْتِحَانٌ مِنَ اللَّهِ لِلْعِبَادِ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ فِيمَا يَتَعَلَّمُ بِأَعْمَالِهِ فِي إِبْطَالِ السَّحْرِ مِمَّنْ يُعْصِيهِ

١. عبون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٧١/٢.

٢. تفسير أبي السعود ١: ١٣٨، تفسير روح البيان ١: ١٩١.

٣. قال الفَيْضُ عليه السلام: «وَأَمَّا مَا كَذَّبُوهُ مِنْ أَمْرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَسْخِ زَهْرَةٍ وَقَصَّتْهُمُ الْمَشْتَهَرَةُ بَيْنَ النَّاسِ فَقَدْ وَرَدَ عَنْهُمْ عليه السلام<sup>٢٧</sup> فِي صَحَّتِهَا أَيْضاً رَوَايَاتٌ، وَالْوَجْهُ فِي الْجَمْعِ وَالتَّوْفِيقِ أَنْ تَحْمِلَ رَوَايَاتُ الصَّحَّةِ عَلَى كَوْنِهَا مِنْ مَرْمُوزَاتِ الْأَوَائِلِ وَأَشَارَاتِهِمْ وَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ حَكَاتِهَا كَانُوا يَحْمِلُونَهَا عَلَى ظَاهَرِهَا كَذَّبُوهَا وَلَا بَأْسَ بِإِرَادِهَا وَحَلِّهَا فَإِنَّ هَاهُنَا

مَحْلُهَا. الصَّافِي ١٥٦: ١٦٠.

٤. تفسير روح البيان ١: ١٩١.

٦. تفسير العياشي ١: ١٤٩/١٨١.

٥. تفسير العياشي ١: ١٤٥/١٨٠.

بإستعماله في إضرار الناس ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بإستعماله للإضرار.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ النَّاسُ ﴿مِنْهُمْ﴾ أَي مِنَ الْمَلَكَيْنِ، أَوْ مِنَ الصَّنَفَيْنِ؛ مِنَ السُّحْرِ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ؛ الْأَقْسَامَ الْمُضَيَّرَةَ أَظْهَرَهَا وَأَشْبَعَهَا ﴿مَا يَفْرُقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَزَوْجِهِ﴾ مِنَ الْجِيلِ وَالتَّمَوِيَّاتِ.

﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ مَا هُمْ ﴿أَي السُّحْرَةُ﴾ بِضَارِّينَ بِهِ ﴿أَي بِالسُّحْرِ﴾ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَتَعْلِيمِهِ أَوْ بِسَبَبِ تَخْلِيَّتِهِ بَيْنَ السَّاحِرِ وَإِرَادَتِهِ النَّاشِئَةِ مِنْ خُبْتِ ذَاتِهِ وَعَمَلِهِ الْقَبِيحِ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ لَا يَصْدُرَ مِنْهُ لِأَعْجَزِهِ عَنْهُ وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ مِنَ السُّحْرِ ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ حَيْثُ إِنَّ ضَرَرَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ الْآخِرَوِيَّةِ أَشَدَّ بِمَرَاتِبٍ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَصِلُ إِلَى الْمَسْحُورِ ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ وَلَا يَنْفَعُهُمْ فَائِدَةٌ يَتَعَدُّ بِهَا الْعُقُلَاءَ.

﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ﴾ لَقَدْ عَلِمُوا ﴿سَبَبَ تِلَاوَتِهِمُ التَّوْرَةَ الْمَكْتُوبَ فِيهَا﴾ أَنَّهُ وَاللَّهُ ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ وَعَاوَضَ بِكُتُبِ السُّحْرِ وَتَعْلُمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ وَأَحْكَامَهُ ﴿مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ وَنَصِيبٍ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَوْ خَلَاصٍ مِنْ عِقَابِهِ ﴿وَاللَّهُ﴾ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا ﴿هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ مِنَ الْعَمَلِ بِالسُّحْرِ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ حَيْثُ عَرَّضُوهَا لِلْهَلَاكِ الْأَبَدِ.

وهؤلاء اليهود ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ فِي هَذَا الْاِسْتِدَالَ خُسْرَانًا وَبِالْأَمْرِ مَا فَعَلُوهُ. ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى التَّجَارَةِ الْمُرِيحَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بِالنَّبِيِّ وَأَنفَادُوا لَهُ ﴿وَأَتَّقُوا﴾ اللَّهَ فِي أَعْمَالِهِمْ بِاللَّهِ ﴿لَمْ تَوْبَهُ﴾ وَأَجَزَ وَاصِلٌ إِلَيْهِمْ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَلَوْ كَانَ أَقَلُّ قَلِيلٍ فِي الْآخِرَةِ ﴿خَيْرٌ لَهُمْ﴾ وَأَنْفَعٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، لِبَقَائِهِ وَزَوَالِهِ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وَيُدرِكُونَ حَقَائِقَ الْأُمُورِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا زَاعِنًا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

ثم ذكر الله تعالى في عداد قبائح أعمال اليهود إساءتهم الأدب بساحة النبي ﷺ حيث كانوا يحاطيونهم بقولهم: راعينا.

قيل: كانت هذه اللفظة في اصطلاحهم بمعنى اسمع غير مسمع<sup>١</sup>.

وقيل: كانت مستعملة عندهم في الهزء والسخرية<sup>٢</sup>.

روي أن سعد بن عباد سَمِعَهَا منهم، فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سَمِعْتُها من رجلٍ يقولها لرسول الله ﷺ لأخبرنَّ عُنُقَهُ. قالوا: أَوَ لَسْتُمْ تقولونها؟ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا - لِلنَّبِيِّ ﷺ - رَاعِنَا﴾<sup>٣</sup>.

قيل: إن المؤمنين كانوا إذا سَمِعُوا من النبي ﷺ شيئاً من العلم، قالوا: راعينا يا رسول الله، أي أنظرنا وتأن بنا حتى نفهم، فلما سَمِعَ اليهود ذلك من المؤمنين اتَّخذوه ذريعةً لسب النبي ﷺ فنَهَى الله المؤمنين عن هذه الكلمة تعريضاً على اليهود، بقوله: ﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا﴾ أي انظر إلينا.

ثم وعظهم بقوله: ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ لما يحكم به الله ويأمركم به الرسول ﷺ سماع طاعة وقبول، ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾<sup>٤</sup>.

ثم هددهم بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يسلكون معه مسلك الإعظام والتخليل، بل أهانوه بتعريضه للسب والاستهزاء كاليهود ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

روي عن ابن عباس: أن الله كان يُخاطب في التوراة بقوله: يا أيها المساكين<sup>٥</sup>.

قيل: كرامة هذه الأمة اقتضت مخاطبتهم بأشرف الأوصاف وهو الإيمان، ولما خاطب بني إسرائيل أولاً بقوله: يا أيها المساكين؛ أثبت عليهم أجراً المسكنة بقوله: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾<sup>٦</sup> ولما خاطب أمة محمد ﷺ أولاً بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يُرْجى أن يخيم لهم بالإيمان والأمان من العذاب والهوان<sup>٧</sup>.

ثم نبه الله الرسول والمؤمنين بغاية حسد أهل الكتاب والمُشركين عليهم، وشدة عداوتهم لهم بقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ وما يحبون،

١. تفسير الطبري ١: ٣٧٤.

٢. تفسير الرازي ٣: ٢٢٤.

٣. تفسير أبي السعود ١: ١٤١.

٤. تفسير روح البیان ١: ١٩٧.

٥. البقرة: ٩٣/٢.

٦. تفسير الرازي ٣: ٢٢٣.

٧. البقرة: ٦١/٢.

٨. تفسير الرازي ٣: ٢٢٣ «نحوه».

بَلْ يُغْنِضُونَ ﴿أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مِنَ الْوَحْيِ وَالنَّبُوءَةِ وَالْآيَاتِ  
وَالنُّصْرَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَدَعَانَهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَالنَّاشِثُونَ فِي مَهَابِطِ الْوَحْيِ، فَهَمُ أَوْلَى بِتِلْكَ الْفَضَائِلِ  
مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ أَعْيُونُ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَلْيُغْرَوْهُمْ بِالْجَاهِ وَالْمَالِ، وَظَنَّهُمْ أَنَّ مَنْ لَهُ الرِّئَاسَةُ  
الدُّنْيَوِيَّةُ أَوْلَى بِالرِّئَاسَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَمِنَ الْبُدْيَهِيِّ أَنَّ الْحَسَدَ لَا أَثَرَ لَهُ.

﴿وَاللَّهُ﴾ الَّذِي بِيَدِهِ كُلُّ خَيْرٍ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى  
حَسَبِ قَابِلِيَّتِهِ وَاسْتِعْدَادِهِ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ عَلَى نَبِيِّهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَمْنَعُهُ حَسَدُ  
الْحَاسِدِينَ.

مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٠٦]

ثُمَّ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ مِنْ عَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدةِ امْتِنَاعٌ وَقَوَعِ النَّسْخِ فِي التَّبَوَاتِ وَالْأَحْكَامِ الْإِلَهِيَّةِ، وَبِهَذَا  
الْمَبْنَى طَعَنُوا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِأَمْرٍ ثُمَّ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ، وَيَقُولُ الْيَوْمَ قَوْلًا  
وَفِي الْغَدِ يَرْجِعُ عَنْهُ؛ رَدُّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ﴾ بِرَفْعِ حُكْمِهَا ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ بِرَفْعِ  
رِسْمِهَا وَاسْتِلَابِ ذِكْرِهَا وَحِفْظِهَا عَنِ الْقُلُوبِ<sup>٢</sup> ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وَأَصْلَحَ ﴿مِنْهَا أَوْ﴾ نَأْتِ بِآيَةٍ ﴿مِثْلَهَا﴾  
فِي الصَّلَاحِ وَالنَّفْعِ وَالْحِكْمَةِ؛ لظُهُورِ أَنَّ الْوُظَانِفَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْأَحْكَامَ الْإِلَهِيَّةَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَمْرَاضِ  
الْقَلْبِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ، كَالْأَدْوِيَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَمْرَاضِ الْجِسْمَانِيَّةِ. فَكَمَا أَنَّ نَفْعَ الْأَدْوِيَةِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ  
الْأَمْرِجَةِ وَالْأَوْقَاتِ، كَذَلِكَ الْأَعْمَالُ وَالْوُظَانِفُ الشَّرْعِيَّةُ، لِبَدَاهَةِ اخْتِلَافِ مَصَالِحِهَا بِاخْتِلَافِ الْقُرُونِ  
وَالْأَزْمَنَةِ وَتَغْيِيرِ الْجِهَاتِ.

فِي بَيَانِ جَوَازِ      إِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَصِحُّ النَّسْخُ فِي الْآيَاتِ وَمَخَوُّ رِسْمِهَا بِالْكَلْبَةِ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا  
النَّسْخَ      أَلَذَّكَرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ٣

قُلْنَا: صِدْقُ الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ لَا يُلَازِمُ صِدْقَ طَرَفِهَا، وَهَذَا كَقَوْلِنَا إِنَّ عُدْمَتَ هَذِهِ الشَّمْسِ يَأْتِ اللَّهُ

٢. فِي النِّسْخَةِ: وَاسْتِلَابِ عَنِ الْقُلُوبِ ذِكْرُهَا وَحِفْظُهَا.

١. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٣: ٢٢٦.

٣. الْحَجَرِ: ٩/١٥.

بشمسٍ أخرى، مع أنه معارضٌ بقوله: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ \* إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ<sup>١</sup>.  
وروي أن قوماً من الصحابة قاموا ليلةً ليقروا سورة فلم يذكروا منها إلا البسملة، فغدوا إلى النبي ﷺ وأخبروه، فقال ﷺ: «ذلك سورة رفعت بيلاتها وأحكامها»<sup>٢</sup>.  
وأما الآية فيتمكن أن يكون المراد منها أن الله حافظٌ له من تغيير الخلق لا من تغيير نفسه إذا اقتضته الحكمة والمصلحة.  
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادرٌ على تصريف المكلّف تحت مشيئته وحكمته وحكمه، لا دافعٍ لما أراد، ولا مانعٍ لما يختار، ويُنزِلُ الخير، ويختصُّ به من يشاء، ويسنيح الحكم ويبدل الآيات، ولا يسئل عما يفعل.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا  
نَصِيرٍ [١٠٧]

ثم قرّر سعة قدرته وأنه مرّاحٍ لإصلاح المؤمنين وخيرهم ما هو أنفع بحالهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾  
بثورانية قلبك وكمال معرفتك ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالملكية الحقيقية الإشرافية، له  
التصرف فيهما وفيما خلق بينهما تصرف السلطان المطلق في مملكته ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومن  
ما سواه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ وقِيم بالأمور ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومعين فهو يقلّبكم بمشيئته ويتصرف فيكم بإرادته،  
فلا ناصر لكم غيره، ولا قادر في الوجود إلا ذاته.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ  
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ [١٠٨]

ثم إنه قيل: لما اقترح اليهود على النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، كما حكى الله عنهم في  
سورة النساء بقوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ  
مِنْ ذَلِكَ﴾<sup>٣</sup> الآية، واقترح عليه المشركون وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

يَتَّبِعُوا<sup>١</sup> إِلَى آخِرِهِ؛ وَجَّهَ اللَّهُ الْخِطَابَ إِلَى جَمِيعِهِمْ بَنَحْوِ الْإِضْرَابِ عَنْ ذِكْرِ سَائِرِ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ إِلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْاِقْتِرَاحَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ وَهَلْ تَعْرِضُونَ أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ ﴿أَنْ تَسْتَأْذِنُوا رَسُولَكُمْ﴾ وَتَقْتَرِحُوا عَلَيْهِ ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى﴾ وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بِقَوْلِهِمْ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَهَرْنَا<sup>٢</sup> وَقَوْلِهِمْ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾<sup>٣</sup> فَإِنَّ هَذِهِ الْاِقْتِرَاحَاتِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِيمَانِ.

﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ أَلْكَفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ وَيَخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ عِوَضًا عَنْهُ ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وَأَخْطَأَ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وَوَسَطَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُوصِلُهُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَإِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَنَعِيمِ الْآبِدِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَخَذَ فِي الطَّرِيقِ الْمُوْذِي إِلَى نِقْمَةِ اللَّهِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ.

وَدَكْثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَزُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَأَعْقَبُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٠٩]

ثُمَّ إِنَّهُ رَوَى أَنَّ فِنْحَاصَ<sup>٤</sup> بْنَ عَازُورٍ وَزَيْدَ بْنَ قَيْسٍ وَنَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا لِحَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ: أَلَمْ تَرَوْا مَا أَصَابَكُمْ؟ وَلَوْ كُنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ مَا هَزَمْتُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى دِينِنَا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَفْضَلُ، وَنَحْنُ أَهْدَى مِنْكُمْ سَبِيلًا.

فَقَالَ عَمَّارٌ: كَيْفَ نَقُضُ الْعَهْدَ فَيْكُمْ؟ قَالُوا: شَدِيدٌ. قَالَ: فَإِنِّي عَاهَدْتُ أَنْ لَا أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مَا عِشْتُ. فَقَالَتِ الْيَهُودُ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَبَأَ.

وَقَالَ حَذِيفَةُ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا، وَبِالْكَعْبَةِ قِبْلَةً، وَبِالْمُؤْمِنِينَ إِخْوَانًا.

ثُمَّ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: «أَصْبَحْتُمَا خَيْرًا وَأَفْلَحْتُمَا»<sup>٥</sup>. فَنَزَلَتْ: ﴿وَدَكْثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وَتَمَنَّا ﴿لَوْ يَزُدُّونَكُمْ﴾ وَيُصَيِّرُونَكُمْ بِشَبَاهَتِهِمْ وَجِيلَهُمْ وَتَسْوِيلَاتِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ بِالرَّسُولِ وَمَعْرِفَتِكُمْ الْحَقَّ وَوُضُوحَ آيَاتِهِ ﴿كُفْرًا﴾ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكِتَابِهِ مُرْتَدِّينَ عَنِ دِينِ الْإِسْلَامِ

٤. في النسخة: فنيحاص.

٣. الأعراف: ١٣٨/٧.

٢. النساء: ١٥٣/٤.

١. الإسراء: ٩٠/١٧.

٥. تفسير الرازي ٣: ٢٣٦، تفسير أبي السعود ١: ١٤٥.



مع علمكم ببهاية شناعة الكفر بعد الإيمان الراسخ.  
ومن البديهي أن هذا الوذ والتمني ليس لأجل تدنيهم ومعرفتهم بحقائقة مذهبهم ونصحهم لكم، بل كان «حسداً» عليكم وتشهياً «من عند أنفسهم» ومن حُبِّ ذاتهم «من بعد ما تبين» وظهر «لهم الحق» من نبوة محمد ﷺ وحقانية دينه وكتابه بدلالة المعجزات الساطعة والآيات الباهرة، ولما عاينوا من إخبار التوراة بظهوره وأوصافه وعلائمه المنطقية عليه.

رُوي أن جماعة استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يقتلوا هؤلاء اليهود الذين كفروا بانفسهم، ودعوا المسلمين إلى الكفر<sup>١</sup>، فنزل: «فاغفوا» من عقابهم «واصفحوا» عن ثريبهم وعتابهم «حتى يأتي الله بأمره» فيهم من القتل والتعذيب «إن الله على كل شيء» في كل وقت «قدير» لا يعجز عن الانتقام إذا حان حينه وأن أوأته، فلا تعجل عليهم.  
روي عن ابن عباس: أنه منسوخ بأية السيف<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: أنه لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتال حتى نزل جبرئيل عليه السلام بقوله: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»<sup>٣</sup>، وقلده سيفاً، فكان أول قتال قتال أصحاب عبد الله بن جحش ببطن نخل، وبعده غزوة بدر<sup>٤</sup>.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [١١٠]

ثم إنه بعد تكليف المؤمنين بالعفو والصفح لإصلاح حالهم وسلامة أنفسهم من رخصة الكفار، كلَّهم في حال الفراغ بالعبادات البدنية التي أهمها الصلاة بقوله: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» المفروضة، ثم بالعبادات المالية التي أهمها الزكاة بقوله: «وَآتُوا الزَّكَاةَ» الواجبة، لإصلاح حالهم وسلامة أنفسهم من نعمة الله. ثم بسائر العبادات بقوله: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ» وعمل صالح من النوافل والزكاة المستحبة وسائر أنواع البر «تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» إما بصورته وحقيقته المثالية، بناءً على تجسّم

٢. تفسير أبي السعود ١: ١٤٦.

١. تفسير روح البیان ١: ٢٠٤.

٣. الحج: ٣٩/٢٢. ٤. تفسير الرازي ٣: ٢٤٥.

الأعمال كما هو مدلول كثير من الأخبار<sup>١</sup>، أو بنوابه وجزائه.  
ثم لزيادة التَّوْبِ على العمل أَكَّدَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مُطْلَعٌ، لا يَخْفَى عليه شيء من أعمالكم، فيُجَازِيكم على القليل كما يُجَازِي على الكثير.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [١١٢ و ١١١]

ثم نُقِلَ أَنَّ وَفَدَ نَجْرَانٌ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مع اليهود، فكذب بعضهم بعضاً، فقالت اليهود لِبَنِي نَجْرَان: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا الْيَهُودُ. وقال بنو نَجْرَان [للْيَهُود]: لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا النَّصَارَى<sup>٢</sup>. فحكى الله عنهم الدَّعْوَى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وإتيان (كَانَ) مُفْرَداً باعتبار لَفْظِ الْمُوصُولِ وخبره وهو هود، والنصارى جمعاً باعتبار معنى الموصول وهو جمع، و (أو) التَّوْبِ دِيَّةً بلحاظ اختلاف القائِلين، كما روي في شأن النزول<sup>٣</sup>. ولَمَّا كَانَ دَعْوَى كُلِّ طَائِفَةٍ مَبْنِيَّةً عَلَى حَقَائِقٍ دِينِيَّةٍ، رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ المَقَالَةُ الَّتِي يَدْعُونَهَا «أَمَانِيَّتُهُمْ» وأهواؤهم الباطلة، ومن جُمْلَةِ مُشْتَهَاتِهِم الزَّانِغَةِ الَّتِي لَا حُجَّةَ لَهُمْ عَلَيْهَا. ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: «هَاتُوا» وَأَحْضِرُوا «بُرْهَانَكُمْ» وَحُجَّتَكُمْ عَلَى دَعْوَاكُمْ «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فِيمَا تَدْعُونَهُ.

في عدم صحة التمسك بالاستصحاب لإثبات بقاء الشريعة ونسب النبي السابق  
إن قيل: بُرْهَانُهُمْ عَلَى اخْتِصَاصِ الْجَنَّةِ بِهِمْ ثُبُوتُ حَقَائِقٍ دِينِيَّةٍ، وَعَدَمُ ثُبُوتِ نَسْخِهِ. قُلْتُ: لَا يَكْفِيهِمْ هَذَا، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ إِقَامَةُ الْبُرْهَانِ عَلَى بَقَاءِ دِينِهِمْ، فَكَمَا أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْجَدِيدَةَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ، كَذَلِكَ بَقَاءُ الشَّرْعِ السَّابِقِ مُحْتَاجٌ إِلَى الْحُجَّةِ وَالذَّلِيلِ السَّاطِعِ، وَلَا يَكْفِي اسْتِصْحَابُ بَقَاءِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ السَّابِقِ وَشَرِيعَتِهِ، لِأَنَّ الاسْتِصْحَابَ إِنْ كَانَ حُجَّةً فِي الشَّرْعِ السَّابِقِ فَبَقَاؤُهُ أَوَّلُ الْكَلَامِ، وَإِنْ كَانَتْ حُجَّتُهُ فِي الشَّرْعِ الْآخِقِ، فَالْمَقْرُوضُ أَنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِهِ لَا يَعْتَرِفُ بِالشَّرْعِ الْآخِقِ، مَعَ أَنَّهُ عَلَى فَرْضِ حُجَّتِهِ فِي الشَّرِيعَتَيْنِ فَإِنَّمَا

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٠٦.

٤. في النسخة: مبنياً.

١. راجع: بحار الأنوار ٧٤: ٤/٤٤.

٣. راجع تفسير الرازي ٤: ٣.

هو في الفروع والأحكام العملية لا في أصول الدين؛ لأنه لا يحد فيها من القطع واليقين، ولا يفيد الظنّ والتخمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾<sup>١</sup>.

نفي إبطال القول      فإن قيل: هذا مبني على إمكان النسخ، واليهود قائلون بامتناعه لأنه يؤول إلى البداء،  
بامتناع النسخ في      وهو محال على الله.

الأحكام  
قلنا: أولاً: ليس في الحقيقة والواقع نسخ في الأحكام والشرائع بلي الشرع السابق  
مقيّد بقاؤه بعدم نفي النبي اللاحق المبشّر به، فإذا بعثت انقضت مدته مع أنه منقوض بنسخ شرع  
إبراهيم عليه السلام بشرع موسى عليه السلام، مضافاً إلى أن من البديهي اختلاف مصالح الأحكام باختلاف  
الأشخاص والقرون والأزمان، فقد يكون لحكم مصلحة في زمان، أو لطائفة دون زمان آخر وطائفة  
أخرى.

نعم، إذا أخبر النبي ﷺ ببقاء أحكامه واستمرارها إلى يوم القيامة، كما أخبر نبيّنا ﷺ بذلك، كشف  
عن جامعية أحكامه لمصالح عموم البشر إلى يوم القيامة بخلاف ما إذا لم يُخبر بأبدية دينه، بل كان  
بيانه مطلقاً، فإنه يتحمل وقوع التغيير والنسخ وإن ظن من جهة الإطلاق عموم حكمه للأزمنة  
المتأخرة، وحينئذٍ فإذا دلّ دليل معتبر على النسخ كشف عن خطأ العرف في فهم الاستمرار، ودلّ  
على كونه مغيّياً.

وأما ما نقله اليهود من قول موسى عليه السلام: تمسكوا بالسبب أبداً فغير ثابت، مع أنه يمكن أن يراد منه  
دوامه ما دام بقاء شريعته، فيرجع إلى الإخبار بأن السبب لا يتغير ولا ينسخ ما دام بقاء دينه، مع أنه  
معارض بإخباره في عدة مواضع من التوراة بمجيئ نبي آخر بعده.

فقول اليهود بأن الحق منحصّر في اليهودية، وقول النصارى بمثل ذلك، ودعوى كل طائفة منهم أنه  
لا يدخل الجنة غيرهم، بقول بلا ثرهان، بل الثرهان على خلافه، حيث قال الله تعالى: ﴿بلى﴾ يدخل  
الجنة غيرهم بل هم لا يفوزون بها.

ثم كأن قائل يقول: فمن يدخل الجنة؟ فقال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وبذل نفسه ﴿لله﴾ بالانقياد  
والخضوع والتذلل في طاعته، والتجنب عن اللجاج والعناد والمعاصي خالصاً لله بلا شوب شرك  
وهو ﴿مُحْسِنٌ﴾ لا يكون خضوعه بالأعمال القبيحة، كما نقل عن بعض المرتاضين في الهند

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ وثوابه العظيم الذي أدناه الدخول في الجنة حال كونه ثابتاً ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ اللطيف به، المالك لأمره.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من انقطاع الثواب وزوال النعم ومما يشاهدون من عقاب الكفار ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ على فائت عند الموت، حيث يبشّرونهم برحمة منه ورضوانٍ وهم يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾<sup>١</sup> وهذه نهاية السعادة وغاية الاسترباح والاستفادة. وافراد الضمير أولاً باعتبار لفظ الموضوع وجمعه<sup>٢</sup> آخراً باعتبار المعنى.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ \* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١١٣ و ١١٤]

ثم أنه لما حكى الله تعالى دعوى اليهود والنصارى صحة دينهم، وكونهم على الحق، واختصاص الجنة بهم، وتوافقهم على أن المسلمين على الباطل حكى الله تعالى اختلافهم فيما بينهم، وأن كل واحد من الفريقين ينسب الآخر إلى الكفر والضلال من غير تأمل في كتاب الله الذي بينهم حتى يرشداهم إلى الحق بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ من دين الحق، بل ما اعتقدوه باطلاً وكفراً. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من دين الحق، بل هم على كفر وضلال ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الذي أنزله الله ليرفع الاختلاف من التوراة والإنجيل، ولا يتأملون فيها حق التأمل حتى يعرفوا الحق ويعلموا دين الله بدلائله، بل ما يقولونه ليس إلا عن تقليد وعصية.

﴿كَذَلِكَ﴾ القول الباطل ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدين والكتاب من المشركين ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ إذ هم أيضاً يكفرون بعضهم بعضاً ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الذي هو يوم فصل القضاء ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا بأن يدخل جميعهم في النار ويريههم أن الحق مع غيرهم، ويبين لهم

ضَلَّاهُمْ وَفَسَقَهُمْ.

في تحاكم اليهود  
والنصارى إلى  
النبي ﷺ

عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّمَا نَزَلَتْ لِأَنَّ قَوْمًا مِنَ الْيَهُودِ وَقَوْمًا مِنَ  
النَّصَارَى جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، اقْضِ بَيْنَنَا. فَقَالَ ﷺ: قُضُوا  
عَلَيَّ قَضَتُكُمْ. فَقَالَتِ الْيَهُودُ: نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْحَكِيمِ، وَأَوْلِيَاءَهُ، وَلَيْسَتْ  
النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ وَالْحَقِّ. وَقَالَتِ النَّصَارَى: بَلْ نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْحَكِيمِ،  
وَأَوْلِيَاؤُهُ، وَلَيْسَتْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ وَالَّذِينَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّكُمْ مُخْطِئُونَ، مُبْطِلُونَ، فَاسِقُونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: وَكَيْفَ  
نَكُونُ كَافِرِينَ وَفِينَا كِتَابُ اللَّهِ التَّوْرَةُ نَقْرَاهُ؟ وَقَالَتِ النَّصَارَى: كَيْفَ نَكُونُ كَافِرِينَ وَفِينَا كِتَابُ اللَّهِ  
الْإِنْجِيلُ نَقْرَاهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّكُمْ خَالَفْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى كِتَابَ اللَّهِ فَلَمْ تَعْمَلُوا بِهِ، فَلَوْ كُنْتُمْ  
عَامِلِينَ بِالْكِتَابَيْنِ لَمَا كَفَرْتُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَنْزَلَهَا شِفَاءً مِنَ الْعَمَى، وَبَيَانًا مِنَ  
الضَّلَالَةِ، يَهْدِي الْعَامِلِينَ بِهَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَكِتَابُ اللَّهِ إِذَا لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كَانَ زِيْلًا عَلَيْكُمْ، وَحُجَّةً  
اللَّهُ إِذَا لَمْ تَتَّقُوا لَهَا كُنْتُمْ لِلَّهِ عَاصِينَ وَلِسَخَطِهِ مُتَعَرِّضِينَ.

ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْيَهُودِ، فَقَالَ: احْذَرُوا أَنْ يَنَالَكُمْ لَخْلَافُ أَمْرِ اللَّهِ وَخِلَافُ كِتَابِهِ مَا  
أَصَابَ أَوَّلَكُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى  
الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، الْخَبَرُ<sup>١</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمَّا تَنَازَعُوا وَاكْتَفَوْا بِالذُّعَا بِغَيْرِ إِقَامَةِ حُجَّةٍ وَبِرَهَانٍ، أَجَابَهُمْ ﷺ بِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَنْزَلَ  
لِرَفْعِ الْاِخْتِلَافِ، فَلَوْ تَأَمَّلْتُمْ فِيهِ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَتَرَكْتُمْ الْعَصْبِيَّةَ وَالتَّقْلِيدَ، وَأَعْطَيْتُمُ النَّظَرَ فِيهِ حَقَّهُ، لَارْتَفَعَ  
الْخِلَافُ مِنْ بَيْنِكُمْ وَهَدَيْتُمْ جَمِيعًا إِلَى الْحَقِّ.

وَيُقَالُ أُنْ وَفَدَ تَجَرَّانَ لَمَّا قَامَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمَا أَحْبَبَا الْيَهُودَ فَتَنَازَرَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ  
أَصَوَاتُهُمْ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، وَكَفَرُوا بِعِيسَى عليه السلام وَالْإِنْجِيلِ. وَقَالَتِ النَّصَارَى  
لَهُمْ نَحْوَهُ، وَكَفَرُوا بِمُوسَى عليه السلام وَالتَّوْرَةِ<sup>٢</sup>.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَمَ عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ دَعَا كُلَّ وَاحِدٍ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّهُمْ

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٢٥/٥٤٤، والآية من سورة البقرة: ٥٩/٢.

٢. تفسير الرازي ٤: ٧.

أولياء الله وأحبّاءه، ردهم بأنهم أظلم الناس، بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وهي مساجد خيار المؤمنين، أو بلدة مكة، أو المسجد الحرام، أو جميع وجه الأرض لقول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً».

﴿أَنْ يَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بالمنع من عبادة الله فيها، حيث إن تعمير المساجد بكثرة العبادة «أولئك» المائعون عن ذكر الله الساعون في تخريب بيوت الله «مَا كَانَ» يحق «لَهُمْ» يعذّب الله وحكمته «أَنْ يَدْخُلُوهَا» إن كان المراد بلدة مكة والمسجد الحرام، أو يسكنوها إن كان المراد جميع وجه الأرض «إِلَّا خَائِفِينَ» من سيوف المؤمنين وسياطهم، فهو وعد للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد من سلطة الكفار.

وقيل: إن المراد ما كان لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع، فضلاً عن الاجترار على تخريبها<sup>٢</sup>. ومع ذلك «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ» فصيح بطردهم عن الحرم، ومنعهم أن يعودوا إليه، أو يضرب الجزية في حق أهل الذمة منهم، وبالقتل في حق أهل الحرب «وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» في النار بما ارتكبوا من الظلم العظيم، وهو أشد من خزي الدنيا ومن كل عذاب. روي أن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة.

عن علي بن الحسين عليه السلام: «ولقد كان من المنافقين والضّعفاء وأشباه المنافقين قصدوا إلى تخريب المساجد بالمدينة وتخريب مساجد الدنيا كلها بما هموا [به] من قتل علي عليه السلام بالمدينة وقتل رسول الله ﷺ في طريقهم إلى العقبة» يعني [في] غزوة تبوك.

وقيل: إن سبب نزول الآية أن طيطوس<sup>٣</sup> الرومي ملك النصارى وأصحابه غزوا بني إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذراريهم، وأحرقوا التوراة، وأخربوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ولم يزل خراباً حتى بناه أهل الإسلام في أيام عمر بن الخطّاب<sup>٤</sup>.

وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [١١٥]

ثم أنه تعالى لما ذكر المساجد وتخريبها، أشار إلى أنه لا ينبغي أن يصير تخريب المساجد أو المنع

٢. تفسير أبي السعود ١: ١٤٩، تفسير روح البيان ١: ٢٠٩.

٤. تفسير أبي السعود ١: ١٤٩.

١. مجمع البيان ١: ٣٦١.

٣. في تفسير أبي السعود: طيطوس.

من دخول الحرم أو المسجد الحرام صاراً للمؤمن عن الصلاة والاستيغال بذكر الله بقوله: ﴿وَقِهِ﴾ بالملكية الإيحادية ﴿الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وجميع الجهات، لا تختص به جهة ومكان ﴿فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا﴾ في أي مكان، وتوجهوا بقلوبكم، وتقبلوا بوجوهكم إلى الله بالدعاء والصلاة النوافل ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وذاته المقدسة، إذ لا يخلو منه مكان. أو المراد: فتم مرضاته، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ ذاتاً وقدرَةً وفضلاً ورَحمةً على عباده، يبين لهم ما فيه صلاحهم كي يصلوا إلى رضوانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بحقائق الأمور وما يصدر عن العباد من القيام بوظائف العبودية والتفرط فيها.

نبي بيان معنى عن (التوحيد) عن سلمان الفارسي، في حديث الجاثليق الذي سأل أمير وجه الله المؤمنين عليه السلام عن مسائل فأجابها عنها، أن فيما سأله أن قال: أخبرني عن وجه الرب تبارك وتعالى؟ فدعا علي عليه السلام بنارٍ وحطّ فاضرمه، فلما اشتعلت، قال عليه السلام: «أَيْنَ وَجْهَ هَذِهِ النَّارِ؟ قَالَ النَّصْرَانِي: هِيَ وَجْهٌ مِنْ جَمِيعِ حُدُودِهَا.

قال علي عليه السلام: «هَذِهِ النَّارُ مَدْبُرَةٌ مَصْنُوعَةٌ لَا يَعْرِفُ وَجْهَهَا، وَخَالِقُهَا لَا يُشَبِّهُهَا ﴿وَقِهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ لَا يَخْفَى عَلَى رَبِّنَا خَافِيَةٌ».

عن القمي عليه السلام: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي صَلَاةِ النَّافِلَةِ، تُصَلِّيْهَا حَيْثُ تَوَجَّهْتَ إِذَا كُنْتَ فِي السَّفَرِ، وَأَمَّا الْفَرَائِضُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾<sup>٢</sup> يعني الفرائض لا تُصَلِّيْهَا إِلَّا إِلَى الْقِبْلَةِ<sup>٣</sup>.  
عن (الفقيه) عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عن الرجل يقوم في الصلاة ثم ينظر بعد ما فرغ، فيرى أنه قد انحرف عن القبله يميناً أو شمالاً؟

فقال: «قَدْ مَضَتْ صَلَاتُهُ، وَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي قِبْلَةِ الْمُتَحَيِّرِ ﴿وَقِهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾»<sup>٤</sup> الخبير<sup>٥</sup>.

في وجه رفع اليد قيل: لَمَّا نَزَلَ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾<sup>٦</sup> قالوا: أَيْنَ نَدْعُوهُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: وَالنَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ عند الدعاء

إِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى رَفْعِ الْيَدِ وَالنَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدُّعَاءِ مَعَ أَنَّ اللَّهَ مُنْزَعٌ عَنِ الْجَهَةِ؟

٣. تفسير القمي ١: ٥٩.

٥. غافر: ٦٠/٤٠.

١. التوحيد: ١٨٢/١٦. ٢. البقرة: ١٤٤/٢.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ١٧٩/٨٤٦.

٦. تفسير روح البيان ١: ٢١١.

قلنا: ليس رَفَعَ الْيَدَ لِأَنَّ اللَّهَ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ، بَلْ لِأَنَّ فِي السَّمَاءِ خِزَائِنَ رَحْمَتِهِ، وَالْعَرْشُ مَظْهَرُ اسْتِوَاءِ صِفَةِ رَحْمَانِيَّتِهِ.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لَهٍ قَانِتُونَ [١١٦]

ثمَّ أَنَّهُ بَعْدَ مَا حَكَّمَ اللَّهُ تَعَالَى تَنَازُعَ كُلِّ فَرِيقٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي الْحَقِّ وَالذِّينِ وَوَعْدِ الْحُكُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الْقِيَامَةِ، حَكَّمَ عَلَى بَطْلَانِ دَعْوَى جَمِيعِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِقَوْلِ كُلِّ طَائِفَةٍ، بِمَا يَحْكُمُ عَلَى خِلَافِهِ بِدِيهَةِ الْعَقْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ إِذْ قَالَتِ الْيَهُودُ: عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ. ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ إِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّجَسُّمِ وَالْمَاهِيَةِ وَالسَّنْخِيَةِ<sup>١</sup> مَعَ خَلْقِهِ ﴿بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كُلَّهُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ.

﴿كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ﴾ مُتَّفَادُونَ مُقَرَّرُونَ بِعُبودِيَّتِهِ طَبْعًا وَجِبِلَّةً، لَا يُجَانِسُونَهُ وَلَا يُسَانِخُونَهُ. وَالْحَالُ أَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنَ السَّنْخِيَةِ بَيْنَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ، وَلَمَّا كَانَ الْقَنُوتُ فِي أَصْلِ اللَّغَةِ بِمَعْنَى الدَّوَامِ، كَانَ فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَاوُضِهِ سُبْحَانَهُ لَا تَنْقُطِعُ حَاجَتُهُ عَنْهُ، وَالتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ ﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهَا عَقْلَاءٌ لِلتَّحْقِيرِ بِشَائِنِهَا.

بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [١١٧]

ثمَّ أَنَّهُ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُلْكُهُ وَمَخْلُوقُهُ، بَيَّنَّ أَنَّهُ أَيْضًا ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمُنْشِئُهُمَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام فِي تَفْسِيرِ الْبَدِيعِ: «ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِعِلْمِهِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَانَ قَبْلَهُ، فَابْتَدَعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُنَّ سَمَاوَاتٌ وَلَا أَرْضُونَ. أَمَّا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾؟ الْخَبَرُ<sup>٢</sup>.

ثُمَّ بَيَّنَّ كَيْفِيَةَ الْإِبْدَاعِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ وَأَرَادَ شَيْءًا، كَانِنًا مَا كَانَ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ لَا

١. الكافي ١: ٢/٢٠٠، والآية من سورة هود: ٧/١١.

٢. السنخ: الأصل من كل شيء.



بَصَوْتٍ يُفْرَعُ، وَلَا بِنْدَاءٍ يُسْمَعُ، بَلْ بِصَرْفِ إِرَادَتِهِ «فَيَكُونُ» وَيُوجَدُ بِمَجْرَدِ نَفَاذِ قُدْرَتِهِ، وَلَا يَحْتَاجُ فِي خَلْقِهِ إِلَى فِكْرٍ، وَاسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ، وَتَحَقُّقِ مَادَّةٍ، وَمُضِيِّ مَدَّةٍ، فَتَمَّ الثَّرَهَانِ الْقَاطِعِ عَلَى امْتِنَاعِ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِمَّا سِوَاهُ وَلَدًا لَهُ، حَيْثُ إِنَّ لَازِمَ الْوِلَادَةِ هُوَ الْحُدُوثُ وَالْمُسَبُّوقِيَّةُ بِالْعَدَمِ، وَكُلُّ مُسَبُّوقٍ بِالْعَدَمِ مَخْلُوقٌ بِإِفَاضَةِ الْوُجُودِ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبِ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا لِخَالِقِهِ، وَالْوَالِدُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَوْجِدًا وَمَالِكًا. وَلِذَا احْتَجَّ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ عَلَى الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ وَلَدًا بِأَنَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَبِيدُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [١١٨]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ شِرْكَهُمْ وَاتَّخَذَهُمُ الْوَلَدَ لَهُ، عَقَبَةً بِذِكْرِ شُبُهَاتِهِمُ السَّخِيفَةِ فِي النُّبُوَّةِ، وَإِنْكَارِهِمْ لَهَا عَنْ تَعَمُّتٍ وَعِنَادٍ، بِقَوْلِهِ: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» مِنْ جَهْلَةٍ قُرَيْشٍ وَالْمُشْرِكِينَ وَسَفَهَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ «لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ» كَمَا تَدْعِي أَنَّهُ كَلَّمَ مُوسَى فِي الطُّورِ وَكَلَّمَكَ فِي مِعْرَاجِكَ «أَوْ تَأْتِينَا» مِنَ السَّمَاءِ. «آيَةٌ» مِنْ كِتَابٍ وَصَحِيفَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً»<sup>١</sup> وَقَالَ: «يَسْتَلِّكُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ»<sup>٢</sup>.

وَتَقْرِيرِ الشُّبُهَةِ أَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ، وَالْحَكِيمُ إِذَا أَرَادَ الْوُصُولَ إِلَى غَرَضٍ لَاجِدٌ أَنْ يَخْتَارَ أَقْرَبَ طَرِيقٍ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى هِدَايَتَنَا، فَأَقْرَبُ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا أَنْ يُكَلِّمَنَا بِنَفْسِهِ مُشَافَهَةً، كَمَا كَلَّمَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى التَّصَدِيقِ وَأَبْعَدُ مِنَ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ، أَوْ يُنَزَّلَ عَلَيْهَا كِتَابًا يُصْرِّحُ فِيهِ بِنُبُوتِكَ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «كَذَلِكَ» الْقَوْلُ السَّخِيفُ «قَالَ الَّذِينَ» كَاتَبُوا أَنْبِيََاءَهُمْ «مِنْ قَبْلِهِمْ» مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ «مِثْلَ قَوْلِهِمْ» مِنَ التَّعَتُّاتِ وَالْاِقْتِرَاحَاتِ، بَلْ فَأَقْوَاهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِمْ: «أَرَأَيْتُمْ» اللَّهُ جَهْرَةً<sup>٣</sup> وَقَالُوا لِيَسِي: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ»<sup>٤</sup> فَهَؤُلَاءِ وَالسَّابِقُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُصْرِئِينَ عَلَى الْكُفْرِ «تَشَابَهَتْ» وَتَمَثَّلَتْ «قُلُوبُهُمْ» فِي الْعَمَى وَالْعِنَادِ وَعَدَمِ التَّفَقُّهِ، لِأَنَّ الْمُكَلِّبِينَ لِلرُّسُلِ طَبِئَتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ مُتَمَاثِلَةٌ.

«قَدْ بَيَّنَّا آيَاتٍ» الْبَاهِرَاتِ، وَأَوْضَحْنَا صِدْقَكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجَزَاتِ،

وَمَجْبِيءِ الشَّجَرِ بِأَمْرِكَ، وَتَسْيِجِ الحَصَاةِ فِي كَفْكَ، وَتَكْلُمُ الذِّئْبِ مَعَكَ، وَاشْبَاعِ الخَلْقِ الكَثِيرِ بالطعام القليل ﴿لَقَوْمٌ يُؤْتُونَ﴾ بالحقائق.

فحاصل الجواب: أنا قد أئدنا محمداً ﷺ بالآيات الباهرات والمُعْجِزات الظاهرات، فإن كنتم طالِبِينَ للثبوت فقد جاءكم بأزهد مما تَحْتَاجُونَ إليه من الدلالات والبراهين، وإن كنتم تُعْتَشُونَ فلا يُحْسِنُ إجابَتكم.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ [١١٩]

ثم لما كثر إصرارهم على الكفر والعناد، وأغتم قلب النبي ﷺ لذلك، سَلَى سُبْحَانَهُ وتعالى قَلْبَ حَبِيبِهِ حُبًّا لَهُ، وَرَحْمَةً عَلَيْهِ، بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إليهم إرسالاً مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أو مُصَاحِبًا للكتاب المشتمل على حقائق المعارف ودقائق العلوم، لِيَكُونَ أو حال كونه ﴿بَشِيرًا﴾ بالثواب لِمَنْ أطاعك ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب لِمَنْ كفر وعصى، فَلَيْسَ عليك إِتْعَابُ نَفْسِكَ في ازدياد الدُّعْوَةِ والمبالغة في التَّبْلِغِ، فَإِنَّهُ لَا مَزِيدَ عَلَى مَا فَعَلْتَ، فلا يَكْثُرُ هَمُّكَ مِنْ إصرارهم على الكفر، ومُكَابَرَتِهِمْ للحق، لَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةُ سَيِّئَاتِهِمْ.

﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿وَلَا تُؤَاخِذُ بَعْضُهُمَ الْآخَرِينَ﴾، فَإِنْ ضَرَرَهُمَا رَاجِعٌ إِلَى أَنْفُسِهِمْ لَا إِلَيْكَ.

عن الباقر عليه السلام: «أَنَّهُ عَلَى النَّهْيِ»<sup>١</sup>.

أقول: قرأ به نافع أيضاً<sup>٢</sup>، وعلى هذا يكون نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ السُّؤَالِ لِأَجْلِ الإِشْعَارِ بِأَنَّ شِدَّةَ عَذَابِهِمْ وَسُوءَ حَالِهِمْ مِمَّا لَا يَسْتَعْنَهُ الْبَيَانُ.

ثم أَعْلَمَ أَنَّ مِنْ أَغْلَاطِ كَثِيرٍ مِنَ الْعَامَّةِ أَنَّ النَّهْيَ كَانَ عَنْ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ حَالِ أَتُوبِهِ حَيْثُ رَوَوْا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَتُوبِي» فَتَزَلْتُ<sup>٣</sup>.  
أقول: لَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ يُمَكِّنُ خَفَاءَ كَذِبِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى مَرْتَبَةٍ [مِنْ] الشُّعُورِ وَالِدِّرَايَةِ، لِبِدَاهَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِأَنَّ الْكُفَّارَ مُعَذَّبُونَ بِالنَّارِ، وَكَانَ أَعْرَفَ النَّاسِ بِعَقَائِدِ أُتُوبَةٍ، فَمَعَاطِلُهُ بِكُفْرِهِمَا - تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ - كَيْفَ يَجُوزُ

في تغليب ما روتهُ العامة في كفر والذي النبي ﷺ والاستدلال على براءة آباءه وأمهاته من الشرك

عليه إظهار الشك والترديد في حالهما في الآخرة بقوله: «ليت شعري ما فعل أبواي؟» مع أن الأنبياء خصوصاً خاتمهم لابد من كونهم مُتَرَهِّين من كل شَيْءٍ، وأَيُّ شَيْءٍ أعظم من كُفْرِ الأبوين! مع أن الله تعالى أَمَرَ خَلِيلَهُ إبراهيم عليه السلام بتطهير بيته الخاص بعبادته من لُوثِ الْمُشْرِكِينَ وأرجاس الأوثان للطائفتين والعاكفين والزَّكَّعِ السُّجُودِ، وكيف يُمكن أن لا يُطَهَّرَ بيتاً خَصَّهُ بأنوار أنبيائه ونُطِفَ أصفِيائه من أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأمهاتِ من دَنَسِ الشُّرْكِ وَرِجْسِ الوُثْنِيَّةِ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع كَوْنِهِمْ أَفْضَلُ الرَّاكِعِينَ وَالسَّاجِدِينَ<sup>١</sup> وَالْعَاكِفِينَ!

فَآيَةً «طَهَّرَ بَيْتِي»<sup>٢</sup> دَالَّةٌ بِالْفَحْوَى عَلَى طَهَارَةِ آباءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمَاتِهِمْ مِنَ الشُّرْكِ، وَنَزَاهَتِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ، هَذَا مضافاً إِلَى دَلَالَةِ أَخْبَارٍ كَثِيرَةٍ عَلَى أَنَّهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَتَوَلَّدُوا إِلَّا مِنَ الْأَصْلَابِ الشَّامِخَةِ الطَّاهِرَةِ، وَالْأَرْحَامِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجَّسْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا<sup>٣</sup>.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَسْبَحَ مِنْهُمْ قُلٌ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ  
الْهُدَى وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلِّمْ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ  
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [١٢٠]

ثُمَّ أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ رَاحَةً لِقَلْبِ حَبِيبِهِ عَنْ كَثْرَةِ التَّنْبِيهِ لِهِدَايَةِ الْيَهُودِ وَالسَّعْيِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْحَقِّ، وَلَمْ يُمكن أَنْ يَحْصُلَ لَهُ الْإِنْصِرَافُ مَا دَامَ لَهُ رَجَاءٌ فِيهِمْ، بِالْعِ سُبْحَانَهُ فِي إِنْطِاقِ رَسُولِهِ عَنْ إِيْمَانِهِمْ وَقَطَعَ رَجَائِهِ فِي أَتْبَاعِهِمْ لِلدِّينِ الْحَقِّ، بِقَوْلِهِ: «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى» بِشَيْءٍ مِنْ

١. في النسخة: الرَكَمِينَ وَالسَّاجِدِينَ.

٢. الحج: ٢٦/٢٢.

٣. ونضيف هنا ما أوردته الشيخ ابن شهر آشوب في (متشابه القرآن ٢: ٦٤) حول هذه المسألة حيث قال في تفسير قوله تعالى: «الَّذِي بَرَأَكَ حِينَ تَقُومُ» وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿[الشعراء: ٢٦/٢٦ و ٢١٩]﴾ التعلبي والواحدى وابن بطه في كتبهم عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس: يعنى نذيرك من أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة، وما زال يتقلب في أصلاب الأنبياء والصالحين حتى ولدته أمه، وقد جاء في الخبر: فما زال ينقله من الآباء الأخايير والأمهات الطواهر، وقد من الله عليه بالآباء الطاهرة الساجدة، ولو عنى شيئاً من الأصنام لما مَنَّ عليه، لَأَنَّ الصَّنَّ بِالْكَفْرِ قَبِيحٌ.

وقوله سبحانه: «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ» [التوبة: ٨٤/٩] يدل على أن أمة بنت وهب كانت مؤمنة، لأنه روى مسلم في صحيحه في حديث بريدة: أن النبي ﷺ أتى إلى رسم قبر وجلس، وجلس الناس معه حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فقل: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: هذا قبر أمة بنت وهب، وقد استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن فروروا القبور تذكركم الموت.

المُداراةَ معهم والإحسانَ إليهم ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ الْيَهُودِيَّةَ وَتَوَافِقَهُمْ فِي الْعَقَائِدِ الْفَاسِئَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَيْفَ تَتَوَقَّعُ أَنْ يَتَّبِعُوا مِلَّتَكَ الْحَقَّ؟

فَإِنْ سَأَلُوا مِنْكَ الدُّخُولَ فِي دِينِهِمْ ﴿قُلْ﴾ رَدًّا عَلَيْهِمْ: لَيْسَتْ الْيَهُودِيَّةُ دِينَ اللَّهِ وَهُدَاهُ، بَلْ «إِنَّ هُدَى اللَّهِ» وَدِينَهُ الَّذِي رَضِيَ بِهِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ﴿هُوَ﴾ حَقِيقٌ بِأَنْ يُقَالَ لَهُ: «الْهُدَى» وَطَرِيقٌ مُؤَدٍّ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَمَّا الْيَهُودِيَّةُ فَإِنَّ أَتْبَاعَهَا أَتْبَاعَ الْهَوَى وَعَيْنِ الضَّلَالِ، وَاللَّهُ مِنْهَا بَرِيءٌ.

ثُمَّ هَدَّدَ اللَّهُ عَلَى أَتْبَاعِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ أَتَّبِعَتْ﴾ وَأَنْتَ أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وَأَشْرَفُ الْمُحْكَمَاتِ لَدَيَّ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ النَّفْسَانِيَّةَ وَعَقَائِدَهُمُ النَّاشِئَةَ عَنِ الْقَوَى الشَّهْوَانِيَّةِ الَّتِي سَمَّوْهَا دِينَ الْيَهُودِيَّةَ ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بِدِينِ الْحَقِّ عَلَى الْفَرَضِ الْمَحَالِّ، يُعَاقِبُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَ﴿مَالِكَ مِنَ اللَّهِ﴾ وَبِأَسْمِهِ ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ وَصَدِيقِي يَشْفَعُ لَكَ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ وَمُعِينٍ يَدْفَعُ الْعِقَابَ عَنْكَ. وَفِيهِ نِهَايَةُ التَّهْدِيدِ عَلَى أَتْبَاعِ الْهَوَى بَعْدَ وَضُوحِ الْهُدَى وَقِيَامِ الْحُجَّةِ، كَمَا أَنَّ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ عَصَيْتُ لَهْوَيْ»<sup>١</sup>. غَايَةَ الْوَعِيدِ لِلْعَصَاةِ.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [١٢١]

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا كَانَ مَجَالُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مِلَّةَ الْيَهُودِيَّةِ هِيَ الْهُدَى لِأَنَّهَا مِمَّا جَاءَ بِهِ مُوسَى ﷺ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ التَّوْرَةُ، فَالْيَهُودُ آخِذُونَ بِمِلَّتِهِمْ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ وَكِيَابِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُدًى اللَّهِ، دَفَعَ اللَّهُ هَذَا التَّوَهُّمَ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الْمَعْهُودِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى، وَهُمْ «يَتْلُونَهُ» مُتَذَكِّرًا فِيهِ وَيَقْرَأُونَهُ مُتَفَكِّرًا فِي مَعَانِيهِ وَحَقَائِقِهِ، وَذَلِكَ يَكُونُ «حَقَّ تِلَاوَتِهِ» عِلْمًا بِدَلَالَتِهِ أَنَّ دِينَ مُوسَى وَكِتَابَهُ مَسْخُوحَانِ، وَعَرَفُوا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيٌّ، وَكِتَابُهُ حَقٌّ، فَالْإِيمَانُ بِالتَّوْرَةِ مَلَازِمٌ لِلْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ.

فَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ «أُولَئِكَ» الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِكِتَابِ التَّوْرَةِ وَ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَيَخْتَصُّونَ مِنْ بَيْنِ الْيَهُودِ بِأَتْبَاعِهِ، كِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْرَابِهِ.

وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِكِتَابِهِ مَعَ دَلَالَةِ التَّوْرَةِ عَلَى صِدْقِهِمَا، فَهُوَ كَافِرٌ بِكِتَابِ التَّوْرَةِ، وَمَكْذُوبٌ لَهُ «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ» وَلَا يَتَّبِعُ مَا فِيهِ «فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» فِي صَفَقَتِهِمْ، الْمَغْبُونُونَ فِي تِجَارَتِهِمْ،

٣٢٢ ..... تفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

إذ لا دين لهم ولا إيمان، لا بموسى ولا بمحمد ﷺ، وهذا جارٍ في هذه الأمة الذين أوتوا القرآن، حيث إن المؤمنين به هم الذين يملونه حق تلاوته، ويتدبرون فيه، ويتبعون أحكامه.  
عن (المجمع) و(العباشي) عن الصادق عليه السلام: «يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ بِالْوَقُوفِ عِنْدَ ذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ يَسْأَلُ فِي الْأُولَى، وَيَسْتَعِذُّ مِنَ الْآخِرَى»<sup>٢</sup>.  
وعن (الكافي) و(العباشي): «هَمُّ الْأُمَّةِ ﷺ»<sup>٣</sup>.

يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فَضَلْتُمْ عَلَى  
الْعَالَمِينَ \* وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ  
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ [١٢٣، ١٢٤]

ثم أنه تعالى لما بدأ عند محاجة اليهود بتذكيرهم بنعمته التي أنعم بها عليهم إجمالاً، ختم محاجتهم به لتأكيد الحجّة، وإبلاغ النّضح، والدّعوة إلى اتباع الحقّ، والتّسليم لدينه وأحكامه، وتّصديق نبيه ﷺ وكتابه المجيد بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فَضَلْتُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ثم أردفه بالتهديد بما هدّهم به أولاً من قوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقد مرّ تفسيرهما<sup>٤</sup>.  
قيل: نكثت تقديم عدم قبول الفديّة في الذكر هنا على عدم قبول الشّفاعَة وتأخيرها عليه في الآية السابقة، هي الإشارة إلى اختلاف الناس في حبّ المال وعلوّ النّفس، فمن كان حبه للمال أكثر، يقدم الاستشفاع على بذل المال، ومن كان بالعكس كان عمله بالعكس.

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ  
وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [١٢٥]

ثم لما كان مشركو قريش ويهود المدينة من ولد إبراهيم عليه السلام وكان هو عليه السلام عظيماً عندهم، بل عند

١. تفسير العياشي ١: ١٥٢/١٨٩.

٢. مجمع البيان ١: ٣٧٥.

٣. الكافي ١: ١٦٨/٤، تفسير العياشي ١: ١٥٢/١٨٨.

٤. تقدم في تفسير الآية (٤٨).

جميع الأمم أشار سبحانه وتعالى إلى أنه ﷺ لم يَنْلْ هذه الكرامة إلا بالتوحيد والطاعة، وأنه مع علو مقامه سأل الله تعالى كرامته لذُرِّيَّتِهِ، فَمَا أُجِيبَ في حق الظَّالِمِينَ والعاصين منهم لعدم قابليَّة الظالم والعاصي نَيْلَهَا، بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ﴾ وامتَحَن ﴿إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ برأفة ربوبيِّه له، وكمال عنايته به ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾.

نفي ابتلاء إبراهيم ﷺ قيل: المراد بها التكاليف الشاقة، والمصائب العظيمة، كالقائه في النار، والختان وهو ابنُ مائة وعشرين سنة، والهجرة من الوطن المألوف، وبناء البيت، وذبح الولد<sup>١</sup>.  
بكللمات، والمراد منها وعن ابن عباس ؓ: ابتلاه الله بثلاثين خُصْلَةً من خصال الإسلام<sup>٢</sup>؛ عشر منها في سورة براءة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾<sup>٣</sup> إلى آخره، وعشر في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾<sup>٤</sup> إلى آخره، وعشر في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾<sup>٥</sup>.

وما عن القمي ؓ: - هو ما ابتلاه به ممَّا أراه في نومه من ذبح ولده فأتَمَّها إبراهيم ﷺ وعَزَم عليها وسلم<sup>٦</sup> - فَمَحْمُولٌ على بيانِ أحدِ أفرادِ الكلمات.

وعن (الخصال) عن الصادق ؓ: «هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتأب عليه، وهو أنه قال: يارب أسألك بمحمد<sup>٧</sup> وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تُبَّتْ عليّ، فتأب [الله] عليه إنه هو الثواب الرحيم<sup>٨</sup> الخبر.

﴿فَاتَمَّهُنَّ﴾: إبراهيم ﷺ وامتثلهنَّ وقامَ بهنَّ حقَّ القيام.

عن الصادق ؓ قال: «يعني أتمهنَّ إلى القائم ؓ اثني عشر إماماً، تسعة من ولد الحسين<sup>٩</sup>». وعن (العياشي) قال: «أتمهنَّ بمحمد ﷺ وعلي والأئمة من ولد علي صلوات الله عليهم<sup>١٠</sup>». أقول: الظاهر أنَّ المراد من ابتلاء إبراهيم ﷺ بالأسماء المباركات تكليفه بمعرفة ذواتهم المقدسة والتصديق بفضلهم عليه وعلى سائر الخلق، فلما امتثله وكرملت معرفته بهم إلى قائمهم، صار قلبه

١. تفسير الرازي ٤: ٣٧ و٣٨ «نحوه».

٢. النوبة: ١١٢/٩. ٣. الأحزاب: ٣٥/٣٣.

٤. مجمع البيان ١: ٣٧٨، والآيات من سورة المؤمنون: ١٠-١/٢٣.

٥. في المصدر: بحق محمد.

٦. الخصال: ٨٤/٣٠٥، معاني الأخبار: ١/١٢٦.

٧. تفسير العياشي ١: ١٩٣/١٥٣.

٨. تفسير القمي ١: ٥٩.

مَخْرَجَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَوِعَاءَ عِلْمِهِ، فَاسْتَعْرَقَ فِي بَحَارِ أَنْوَارِ رَحْمَتِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِغَايَةِ الْكَرَامَةِ، وَشَرَفَهُ بِمَنْصِبِ الْإِمَامَةِ، وَ«قَالَ» لَهُ ثَوَاباً عَلَى الْقِيَامِ بِالطَّاعَةِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا: «إِنِّي جَاعِلُكَ» وَنَاصِبُكَ «لِلنَّاسِ» كَافَّةً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ «إِمَاماً» وَثُمَّتُي يَأْتُمُونَ بِكَ، وَيَهْتَدُونَ بِهَدَاكَ، فَلِذَلِكَ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ كُلُّهُمْ عَلَى تَعْظِيمِهِ وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً»<sup>١</sup>.

عن الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ إِمَامًا، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الْأَشْيَاءَ قَالَ: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً» فَمَنْ عَظَّمَهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»<sup>٢</sup>.

وفي رواية عن الرضا عليه السلام: «فَقَالَ الْخَلِيلُ ﷺ سُرُورًا بِهَا «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»»<sup>٣</sup>. «قَالَ» اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ «لَا يَنَالُ» وَلَا يَصِلُ «عَهْدِي» وَالْإِمَامَةُ الَّتِي أَمْرُهَا بِيَدِي «الظَّالِمِينَ» مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، وَالْعَصَاةُ مِنْ نَسْلِكَ، فَإِنَّ الْإِمَامَ مَانِعٌ عَنِ الظُّلْمِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ظَالِمًا.

قال الرضا عليه السلام: «فَابْطَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِمَامَةً كُلِّ ظَالِمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَصَارَتْ فِي الصُّفُوفِ»<sup>٤</sup>.

وفي رواية: «مَنْ عَبْدٌ صَمًّا أَوْ ثَنًا لَا يَكُونُ إِمَامًا»<sup>٥</sup>.

وفي أخرى، قال عليه السلام: «لَا يَكُونُ السُّفِيَّةُ إِمَامًا تَقِيًّا»<sup>٦</sup>.

وفي هذه الروايات من التعريض ما لا يخفى.

وفي رواية القمي عليه السلام: «ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْحَنِيفِيَّةُ، وَهِيَ الطَّهَارَةُ، وَهِيَ عَشْرَةُ أَشْيَاءَ؛ خَمْسَةٌ فِي الرَّأْسِ، وَخَمْسَةٌ فِي الْبَدَنِ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الرَّأْسِ: فَأَخَذَ الشَّارِبَ، وَإِعْفَاءَ اللَّحْيِ، وَطَمَّ الشَّعْرَ، وَالسُّوَاكَ، وَالْخِلَالَ.

وَأَمَّا الَّتِي فِي الْبَدَنِ: فَحَلَقَ الشَّعْرَ مِنَ الْبَدَنِ، وَالْخِثَانَ، وَقَلَّمَ الْأَظْفَارَ، وَالْغُسْلَ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَالطَّهْوَرِ

١. النحل: ١٢٣/١٦. ٢. الكافي: ١/١٣٣، الاختصاص: ٢٢.

٣. الكافي: ١/١٥٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/٢١٧.

٤. الكافي: ١/١٥٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/٢١٧.

٥. الكافي: ١/١٣٣، الاختصاص: ٢٣. ٦. الكافي: ١/١٣٣، الاختصاص: ٢٢.

بالماء. فهذه الخيفية الطاهرة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام فلم تُنسخ ولا تُنسخ إلى يوم القيامة<sup>١</sup>.  
 ثم لا يذهب عليك أن هذه الآية أقوى الأدلة على أن الإمامة وهي الولاية العامة والمطاعنة المطلقة لابد أن تكون بجعل الله ونصبه، ليس للناس نصيب للتصريح فيها، على أنها عهد الله، فلا يُعقل أن يكون جاعله غيره، ولدالاتها على أنها مرتبة شامخة فلا يليق أن يكون جاعلها غير الله، مع أنه لو أمكن جعلها من قبل الناس لما سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعلها لذريته، لإمكان أن يُوصي لأمنته أن يجعلوها فيهم.  
 ثم اعلم أن في الآية دلالة واضحة على لزوم كون الإمام معصوماً من المعاصي والزَّلَل لوجهين:  
 الأول: أن معنى لفظ الإمام هو مَنْ يجب الانتماء به في جميع أقواله وأفعاله، وأتباعه في جميع أوامره وحركاته وسكناته، ومن البديهي أن مَنْ يمكن صدور المعصية منه لا يمكن وجوب اتباعه على الإطلاق، للزوم إمكان اجتماع الأمر والنهي، وهو بديهي البطلان كوقوعه.

والثاني: قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ حيث إن الظالم صادق على مَنْ تلبس بمعصيته ولو كانت صغيرة، فصدق عنوان الظالم والعاصي على أحد في زمانٍ مُلَازِمٍ لجرمانه عن ثيل هذا المقام الشامخ أبداً.

ثم اعلم أنها كما تدل على لزوم كونه معصوماً عن المعاصي، تدل على لزوم كونه معصوماً عن الخطأ والسهو والنسيان لعدم إمكان وجوب اتباع مَنْ أمكن في حقه ذلك على الإطلاق لما ذكر.  
 ثم لابد أن يكون الإمام عالماً بجميع الأحكام حتى لا يأمر بخلاف ما أمر الله ولا يحكم بغير حكمه، بل لابد أن يكون عالماً بجميع مصالح الخلق ومقاصدهم، حتى لا يأمر أحداً بما فيه فساده، ولا ينهأ عما فيه صلاحه، وأن يكون أعلم الناس، وإلا لا يكون إماماً لجميعهم، بل يكون مأموماً لمن يكون هو أعلم منه.

إذا تمهد ذلك فاعلم أنه لم تكن هذه الصفات بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا في علي عليه السلام وأحد عشر من ولده، ولم يدعها أحد لغيرهم، بل ثبت بالضرورة واتفاق الأمة أن غيرهم كانوا فاقدين لها، فوجب أن تكون



الإمامة مختصة بهم، وعدم صلاحية غيرهم لها.

في أن الشيخين لم يكونا صالحين  
والحاصل: أن الآية الكريمة ظاهرة بالدلالة باتفاق أصحابنا الإمامية رضوان الله عليهم على عدم صلاحية أبي بكر وعمر للإمامة لوجوه:

منها: أنهما كانا مشركين باتفاق الأمة، والشرك ظلم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشُّرَكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ﴾<sup>١</sup> فوجب عدم صلاحيتهما للإمامة بهذه الآية.

إن قيل: إنهما لم يكونا مشركين في زمان الإمامة؟

قلنا: صدق مفهوم الظالم عليهما في زمانٍ مخرج لهما عن صلاحيتهما أبداً، كما أن صدق السارق على أحدٍ في زمانٍ موجب لقطع يده أبداً، وليس الحكم دائراً مدار صدق العنوان، لأنه علة محدثة لا متبقية حتى يبقى ببقائه ويتنفي بانتفاؤه، والشاهد على ذلك حكم العقل بعدم تناسب الذوات التي فيها شائبة الخبائة والدناءة مع هذه المرتبة الشامخة الإلهية.

ومنها: أن من كان مذنياً في الباطن والسر، كان ظالماً في الواقع وإن لم يطلع عليه أحد، وإذا لم تُعرف طهارة باطنة لا يجوز أن يحكم بإمامته، فوجب أن يكون معصوماً حتى يعلم عدم كونه ظالماً في الباطن، ولا تعلم العصمة إلا بنص الله ورسوله ﷺ، ولما لم يُعرف أن أبا بكر وعمر ماكانا ظالمين في الظاهر والباطن لاتفاق الأمة على أنهما لم يكونا معصومين، لم يجوز أن يُنصب للإمامة، ووجب أن لا تتحقق إمامتهما.

قال الفخر الرازي: استدلل الشيعة بهذه الآية على وجوب عصمة الإمام عن المعصية ظاهراً وباطناً، وأما نحن فنقول: مقتضى الآية ذلك، إلا أننا تركنا اعتبار الباطن، فتبقى العدالة الظاهرة معتبرة<sup>٢</sup>.

أقول: في هذا الجواب ما لا يخفى من الوهن.

في أن الآيات الدالة على عصيان الأنبياء مؤولة  
إن قيل: إن الله تعالى حكى عن يونس عليه السلام أنه قال: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>٣</sup> وعن آدم عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾<sup>٤</sup> وعن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾<sup>٥</sup> فلا يكون الظلم منافياً للنبوة.

قلنا: إن إطلاق الظلم وإن كان منصرفاً إلى ارتكاب المنهيات التحريمية، إلا أنه لا بد من تأويله في

٤. الأعراف: ٢٣/٧.

٣. الأنبياء: ٨٧/٢١.

٢. تفسير الرازي ٤: ٤٢.

١. لقمان: ١٣/٣١.

٥. النمل: ٤٤/٢٧.

مُورِدِهِمْ إِلَى ارْتِكَابِ النَّوَاهِي التَّنْزِيهِيَّةِ بِالْقَرِينَةِ الْقَطْعِيَّةِ، وَهُوَ ثُبُوتُ عَصْمَتِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَإِذْ جَعَلْنَا آلِإِبْرَاهِيمَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى  
وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْنِنَا لِّلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ  
السُّجُودِ [١٢٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنْصِبَ الْإِمَامَةِ وَأَكْرَمَهُ بِهِ، شَرَفَهُ بِتَشْرِيفَاتٍ لَمْ يُشْرَفْ بِهَا أَحَدٌ  
مِّنْ أَنْبِيَائِهِ، مِنْهَا: أَنَّهُ جَعَلَ الْبَيْتَ الَّذِي بَنَاهُ بِيَدِهِ وَالْحَجَرَ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ شَرْفًا عَظِيمًا وَفَضْلًا جَسِيمًا،  
فَلِذَا نَبَّهَ سُبْحَانَهُ بِشَرَفِهِمَا بَعْدَ تَشْرِيفِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِمَامَةِ، يَقُولُ: ﴿وَقَدْ أَذْكَرُ﴾ [وَإِذْ جَعَلْنَا آلِإِبْرَاهِيمَ مَثَابَةً] الَّذِي بَنَاهُ  
إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ الْكَعْبَةُ الْمُعْظَمَةُ ﴿مَثَابَةً﴾ وَمَرْجِعًا وَمَعَادًا، أَوْ مَعْبَدًا ﴿لِّلنَّاسِ﴾ كَافَّةً مِنَ الْمُوَحِّدِينَ  
وَالْمُشْرِكِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ [عَنْهُ] أَحَدٌ إِلَّا وَ[هُوَ] يَتَمَنَّى الْعَوْدَ إِلَيْهِ<sup>١</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَثَابَةَ هِيَ<sup>٢</sup> مَحَلُّ الثَّوَابِ، حَيْثُ إِنَّ النَّاسَ يَحْجُونَ إِلَيْهِ فَيُثَابُونَ بِهِ<sup>٣</sup>.

﴿وَقَدْ جَعَلْنَاهُ مَثَابَةً﴾ وَمَأْمَنًا، عَنِ (الْكَافِي): عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ دَخَلَ الْحَرَمَ مِنَ النَّاسِ مُسْتَجِيرًا  
[بِهِ] فَهُوَ آمِنٌ مِّنْ سَخَطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ دَخَلَهُ مِنَ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ كَانَ آمِنًا مِّنْ أَنْ يُهَاجَ حَتَّى  
يُخْرِجَ مِنَ الْحَرَمِ»<sup>٤</sup>.

وَنَقَلَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِتَحْرِيمِهِ لَا يَهَيِّجُونَ عَلَى أَحَدٍ التَّجَاؤَ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَخَذُوهُ مِنْ  
دِينِ إِسْمَاعِيلَ<sup>٥</sup>.

وَنُقِلَ أَنَّ كَلْبَ الصَّيْدِ كَانَ يَهْمُ بِالضَّبِيِّ فَيَفِرُّ الضَّبِّيُّ مِنْهُ فَيَتَّبِعُهُ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الضَّبِّيُّ الْحَرَمَ لَمْ يَتَّبِعْهُ  
الْكَلْبُ<sup>٦</sup>.

وَالرَّوَايَاتُ فِي تَحْرِيمِ مَكَّةَ كَثِيرَةٌ جَدًّا، رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنَّهَا لَمْ تَحُلَّ  
لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أَحَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا كَمَا كَانَتْ»<sup>٧</sup>.

٣. مجمع البيان ١: ٣٨٣.

١. تفسير الرازي ٤: ٤٦. ٢. في النسخة: مثابة هو.

٤. الكافي ٤: ١/٢٢٦. ٥. تفسير الرازي ٤: ٤٧. ٦. تفسير الرازي ٤: ٤٧. ٧. تفسير الرازي ٤: ٤٧.

وقيل: إنه موضع آمين من القحط والجذب لقوله تعالى: ﴿يُجَبِّى إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾<sup>١</sup>.  
 ﴿و﴾ قلنا: ﴿اتَّخِذُوا﴾ يا عبادي، وأختاروا ﴿مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي عليه أُنزل عليه  
 ﴿مُصَلًّى﴾.

شرح مقام إبراهيم عليه السلام عن الباقر عليه السلام في رواية: «ولقد وُضِعَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَلَمَهُ عَلَى صَخْرَةٍ، فَأَمَرَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ نَتَّخِذَهَا مُصَلًّى»<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «يعني بذلك رُكْعَتَي طَوافِ الْفَرِيضَةِ»<sup>٣</sup>.  
 روي أنه لما أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر، ووضعهما بمكة وأتت على ذلك مدة ونزلها  
 الجرهميون، وتزوج إسماعيل منهم امرأة وماتت هاجر، استأذن إبراهيم عليه السلام سارة في أن يأتي هاجر،  
 فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل.

فقدِم إبراهيم عليه السلام وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامراته: أين صاحبتك؟ قالت:  
 ذهب بتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم بتصيد. فقال لها إبراهيم عليه السلام: هل عندك ضيافة؟ قالت:  
 ليس عندي. سألهما عن عيشهم فشكت إليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرنيه السلام وقولي له: فليغير  
 عتبة بابه.

وذهب إبراهيم عليه السلام، فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه، فقال لامراته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني  
 شيخ صفتُه كذا وكذا - كالمستخفة بشأنه - قال: فما قال لك؟ قالت: قال: اقربي زوجك السلام وقولي  
 له فليغير عتبة بابه. قال: ذلك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى.  
 فلبث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة في أن يزور إسماعيل، فأذنت له وشرطت  
 عليه أن لا ينزل. فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل عليه السلام فقال لامراته: أين صاحبتك؟  
 قالت: ذهب بتصيد وهو يجيئ الآن إن شاء الله، فانزل رحمك الله.

قال: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم. فجاءت باللبن واللحم، وسألهما عن عيشهم. قالت: نحن في  
 خير وسعة. فدعا لهما بالبركة، ولو جاءت يومئذ ببخير [أو بُر] أو شعير أو تمر، لكانت أكثر أرض الله  
 بُرًا أو شعيرًا أو تمرًا، وقالت له: انزل حتى أغسيل رأسك. فلم ينزل، فجاءت بالمقام فوضعت على

شَقَّه الْأَيْمَنُ فَوَضَعَ قَلَمَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَغَسَلَتْ شِقَّ رَأْسِهِ الْأَيْمَنَ، ثُمَّ حَوَّلَتْ إِلَى شِقِّ رَأْسِهِ الْأَيْسَرِ فَبَقِيَ<sup>١</sup> أَثَرُ قَلَمِهِ<sup>٢</sup> عَلَيْهِ<sup>٣</sup>.

وروي أن إبراهيم عليه السلام قام على هذا الحجر وأذَّن بالحج<sup>٤</sup>.

وفي رواية: أن الرُّكْنَ والمَقَامَ ياقوتتان من يَاقُوتِ الجَنَّةِ، ولولا مَعاشُهُ أَيْدِي المُشْرِكِينَ لَأَضَاءَا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ<sup>٥</sup>.

وروي أنه نزلت ثلاثة أحجارٍ من الجنة: مقام إبراهيم عليه السلام، وحجر بني إسرائيل، والحجر الأسود<sup>٦</sup>. ثم من تَشْرِيفَاتِهِ عليه السلام ما ذكره الله ثانياً بقوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وأمرناهما أمراً أكيداً وألزمنا عليهما إلزاماً شديداً ﴿أَنْ طَهَّرَا﴾ ونَزَّهَا ﴿بَيْنَتِي﴾ من الأصنام والأوثان. عن الصادق عليه السلام: «نَحْيَا عَنْهُ المُشْرِكِينَ»<sup>٧</sup>.

وقيل: إن المراد نَزَّهَاهُ عن جميع ما لا يَلِيقُ بِهِ<sup>٨</sup>.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ وهم الذين يطوفون به ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ وهم الذين يقيمون فيه للعبادة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وهم المُصَلِّونَ فيه.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ: أَيْتَسَلَّلْنَ النِّسَاءُ إِذَا أَتَيْنَ الْبَيْتَ؟ قال: «نعم، إن الله عز وجل يقول: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْنَتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فينبغي للعبد أن لا يَدْخُلَ إِلَّا وهو طاهر قد غسل عنه العَرَقَ والأَذَى وتَطَهَّرَ»<sup>٩</sup>.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [١٢٦]

ومن تَشْرِيفَاتِهِ عليه السلام أنه اسْتَجَابَ دَعْوَتَهُ فِي حَقِّ سَاكِنِي مَكَّةَ وَأَهْلِهَا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

٣. مجمع البيان ١: ٣٨٣.

١. زاد في السخنة: فيها. ٢. في مجمع البيان: قدمه.

٥. تفسير روح البيان ١: ٢٢٦.

٤. تفسير روح البيان ١: ٢٢٦.

٨. تفسير الرازي ٤: ٥١.

٧. تفسير القمي ١: ٥٩.

٦. مجمع البيان ١: ٣٨٣.

٩. تفسير العياشي ١: ٢٥٥/٢٠٠، علل الشرائع ١/٤١١.

إِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْمَكَانَ ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ قيل: أي مأموناً من الخُسْفِ والمسَخ والقَتْل.<sup>١</sup>  
 ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ﴾ وساكينيه ﴿مِنَ الشَّجَرَاتِ﴾ والمأكولات التي تخرج من الأرض والشجر، من  
 الأطعمة والفواكه، فجمع في دعائه لأهله بين الأمن والسعة وطيب العيش.  
 ثم أنه ﷺ لما رأى احتياج دُعائه بالإمامة لِدُرُيَّتِهِ في حَقِّ الظالمين منهم، كأنه احتمل احتياج  
 هذا الدعاء أيضاً في حقهم، فخصه بالمؤمنين بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.  
 وأخرج الظالمين عن مسألة دَرِ الرِّزْقِ عليهم، فدفع الله هذا التوهم، وكأنه ﴿قَالَ﴾: لا أُحْصِ الرِّزْقَ  
 بالمؤمنين منهم، بل أَرْزُقُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ حيث إن النعم الدنيوية ليست كالإمامة، بل نعم  
 الكافر والمؤمن، إلا أن المؤمن تنصل نِعْمَةُ الدُّنْيَا بالنعم الأخروية، وأما الكافر ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ تمتعاً  
 ﴿قَلِيلاً﴾ من النعم الدنيوية التي لا قَدْرَ لها في المدة القليلة من عمره، ثم أقطعها عنه بموته ﴿ثُمَّ  
 أَضْطَرَّهُ﴾ وألجته ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ ثَلَّارٍ﴾ الذي لا انقطاع له ﴿وَيَسَّسَ الْمَصِيرَ﴾ والمرجع ذلك العذاب  
 الشديد الدائم.

عن (العلل): عن الرضا ﷺ: ﴿لَمَّا دَعَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ أَنْ يَرْزُقَ أَهْلَهُ مِنَ الشَّجَرَاتِ، أَمَرَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْدُنِّ  
 فَسَارَتْ بِثَمَارِهَا حَتَّى طَافَتْ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ أَمَرَهَا أَنْ تَنْصَرِفَ إِلَىٰ هَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي سَمِّيَ بِالطَّائِفِ،  
 وَلِذَلِكَ سَمِّيَ طَائِفًا﴾.<sup>٢</sup>

قال بعض: الأردن، بضمين: كورة بالشام.<sup>٣</sup>

قيل: إن وجه اختلاف هذه الآية مع ما في سورة إبراهيم<sup>٤</sup> - حيث قال هنا: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا﴾ بغير  
 الكلام، وهناك مع الكلام - أن دعوته هنا كانت قبل بناء البلد، وهناك بعد بنائه.<sup>٥</sup>

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ  
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا  
 مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ  
 يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

٢. علل الشرائع: ٢/٤٤٢.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٢٧.

٣. معجم البلدان ١: ١٧٦، لسان العرب ١٣: ١٧٨.

٤. في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إبراهيم: ٣٥/١٤.

٥. تفسير الرازي ٤: ٥٥.

### الْحَكِيمُ [١٢٧-١٢٩]

نسي شرح بناء الكعبة وفضلها ومن تشريفاته ﷺ أنه أمر ببناء الكعبة، فذكر الله نبيه ﷺ به بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ والأساس من الكعبة، وكان أساسه من زمان آدم ﷺ ثم خرب بنيانه، فرفع إبراهيم ﷺ البنيان على ذلك الأساس.

روي أن آدم ﷺ أهبط بالهند فقال: يا رب، مالي لا أسمع صوت الملائكة كما كنت أسمعها في الجنة؟ قال: بخرطيتك، فانطلق إلى مكة فابن بها بيتاً تطوف به كما رأيتم يطوفون<sup>١</sup>. أقول: يعني كما رأيتم يطوفون حول العرش، أو بيت المعمور. قال: فانطلق إلى مكة فبنى البيت، فكان موضع قدمي آدم قرى وأنهاراً وعمارة، وما بين خطاه مقارن، فحج آدم البيت من الهند أربعين سنة.

ونقل أنه سأل عمر كعباً، فقال: أخبرني عن هذا البيت. فقال: إن هذا البيت أنزله الله تعالى من السماء ياقوته مجوفة مع آدم ﷺ، فقال: يا آدم، إن هذا بيتي، فطفت حوله، وصل حوله كما رأيتم ملائكتي يطوفون حول عرشي ويصلون. ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة فوضع البيت على القواعد، فلما أغرق الله قوم نوح، رفعه الله وبقيت قواعده<sup>٢</sup>.

وروي أن أمير المؤمنين ﷺ قال: «البيت المعمور بيت في السماء يقال له الضراح، وهو بجبال الكعبة من فوقها، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، لا يعودون فيه أبداً»<sup>٣</sup>.

وروي عنه ﷺ قال: «مر عليه الدهر بعد بناء إبراهيم ﷺ فانهدم فبنته العمالة، ومر عليه الدهر فانهدم فبنته جزمهم، ومر عليه الدهر فانهدم فبنته قرش، ورسول الله ﷺ يومئذ شاب. فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه، فقالوا: يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، وكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوا الحجر في ميزط ثم ترفعه جميع القبائل، فرفعوا كلهم فأخذ رسول الله ﷺ قوضه»<sup>٤</sup>.

وروي: أن الكعبة إنما سميت بيت [الله] الحرام، لأنه حرّم على المشركين<sup>٥</sup>. وسمي

١. تفسير الرازي ٤: ٥٠. ٢. تفسير الرازي ٤: ٥٠. ٣. تفسير الرازي ٤: ٥١. ٤. تفسير الرازي ٤: ٥١. ٥. علل الشرائع: ١/٣٩٨.

الكعبة لأنها مربعة، وصارت مربعة لأنها بجذاء البيت المعمور وهو مربع، وصار البيت المعمور مربعاً لأنه بجذاء العرش وهو مربع، وصار العرش مربعاً لأن الكلمات التي بُني عليها الإسلام أربع، وهي: شِجَانُ الله، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، والله أكبر<sup>١</sup>.

وعن الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَ صَفُوحٍ فِي كُلِّ صَفْحٍ مِنْهَا كِتَابٌ، فِي الصَّفْحِ الْأَوَّلِ: أَنَا اللهُ ذُو بَكَّةَ، صَنَعْتُهَا يَوْمَ صَنَعْتُ [الشمس] وَالْقَمَرَ<sup>٢</sup>، وَالْخَبِرَ.

فِي وَجْهِ تَسْمِيَةِ عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «لَمَّا بَلَغَ إِسْمَاعِيلُ مَبْلَغَ الرِّجَالِ، أَمَرَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَبْنِيَ الْبَيْتَ بِالْعَتِيقِ الْبَيْتَ الْحَرَمَ، وَلَمْ يَذَرْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ يَبْنِي، فَإِنَّ الْقُبَّةَ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى آدَمَ كَانَتْ قَائِمَةً إِلَى أَيَّامِ الطُّوفَانِ أَيَّامِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَلَمَّا غَرِقَتِ الدُّنْيَا رَفَعَ اللهُ تِلْكَ الْقُبَّةَ وَبَقِيَ مَوْضِعُهَا لَمْ يَغْرُقْ، وَلِهَذَا سُمِّيَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ لِأَنَّهُ أُعْتِقَ مِنَ الْغُرُقِ. فَبَعَثَ اللهُ جِبْرِئِيلَ فَحَطَّ لَهُ مَوْضِعَ الْبَيْتِ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَانَ الْحَجَرُ لَمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ الثَّلْجِ، فَلَمَّا سَنَّهَ أَيْدِي الْكُفَّارِ أَسْوَدَ، فَبَنَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَيْتَ<sup>٣</sup> الْخَبِرَ.

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يُعَاوَنُهُ، أَوْ يَرْفَعُهَا مَعَهُ. عَنْ (الكافي) فِي رَوَايَةٍ: «فَلَمَّا أْذِنَ اللهُ لَهُ فِي الْبِنَاءِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، قَدْ أَمَرْنَا اللهُ بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ. وَكَشَفْنَا عَنْهَا، فَإِذَا هُوَ حَجَرٌ وَاحِدٌ أَحْمَرُ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ ضَعْ بِنَاءَهَا عَلَيْهِ. وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعَةَ أَمْلَاقٍ يَجْمَعُونَ إِلَيْهِ الْحِجَارَةَ، فَكَانَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَضَعَانِ الْحِجَارَةَ، وَالْمَلَائِكَةُ تُنَاقِلُهُمَا حَتَّى تَمُتَ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعاً<sup>٤</sup>.

وَفِي رَوَايَةٍ: بَنَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلُ الْبَيْتَ كُلُّ يَوْمٍ سَافاً حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ<sup>٥</sup>. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَنَادَى أَبُو قَبَيْسٍ [إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]: إِنَّ لَكَ عِنْدِي وَدِيعَةً، فَأَعْطَاهُ الْحَجَرَ فَوَضَعَهُ مَوْضِعَهُ<sup>٦</sup>.

وَعَنْ (العلل) وَ(العياشي): عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الْحَجَرَ [الْأَسْوَدَ] لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١. علل الشرائع: ٢/٣٩٨.

٢. تفسير الرازي ٤: ٥١.

٣. تفسير القمي ١: ٦١.

٤. الكافي ٤: ٣/٢٠٣.

٥. الكافي ٤: ٤/٢٠٥.

٦. في النسخة: إليه أصنع.

٧. الكافي ٤: ٤/٢٠٥.

من الجنة إلى البيت دُرّة بيضاء، فرفعه الله إلى السماء، وبقي أشه. فهو بجبال هذا البيت، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يرجعون إليه أبداً، فأمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببنيان البيت على القواعد<sup>١</sup>.

في أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانا شريكين في رفع القواعد، وأن إسماعيل أول من نطق بالعربية

واعلم أن ظاهر الآية المباركة والروايات شركة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في رفع القواعد وبناء البيت.

وفي عدة روايات آخر: أن إبراهيم كان متفرّداً في بناء البيت، وإسماعيل كان يُناوله الأحجار<sup>٢</sup>، كما عن (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «أن إسماعيل أول من شق لسانه بالعربية، وكان أبوه يقول وهما يَبْنِيان: هاي ابني<sup>٣</sup>، أي أعطني حجراً، فيقول له إسماعيل بالعربية: يا أبه، هاك حجراً، فإبراهيم يبني وإسماعيل يُناوله<sup>٤</sup>.

ولعل وجه الجمع أن إبراهيم عليه السلام كان شغله مُنْخَصِراً برفع البناء، وإسماعيل يُشاركه في الرفع ويُناوله الحجر أيضاً، والملائكة كانوا يُعاونونهما بإعطاء الحجر.

وهما في هذا الحال يدعوان ويقولان: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا» «عَمَلْ بِنَاء بَيْتِكَ» «إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ» «لُدْعَانَا وَمَسْأَلُنَا» «الْعَلِيمُ» بنياتنا والمشقة التي نتحملها خالصاً لك، وتقرباً إليك.

وفي تخصيص الوصفين به تعالى إشعاراً بالتوحيد الصفاتي، كأنهما قالا: إِنْ سَمِعَ كُلُّ سَمِيعٍ وَعِلْمٌ كُلُّ عِلْمٍ مِنْكَ وَرَاجِعٌ إِلَيْكَ، وصفات غيرك مُتَذَكَّة في صفاتك.

وأما الدعوة الثانية، فقولهما: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا بِتَوْفِيقِكَ وَتَأْيِيدِكَ» «مُسْلِمِينَ» مُتَقَادِينَ «لَكَ» مُسْلِمِينَ لأوامرك وحُكْمِكَ، راضين بِقَضَائِكَ وَقُدْرِكَ، خَالِصِينَ لَوُجْهِكَ، لَا نَعْبُدُ سِوَاكَ وَلَا نَتَوَجَّهُ إِلَى غَيْرِكَ «وَوَجْعَلْ بَعْضاً مِنْ دُورَيْنَا» وَنَسْلِنَا «أُمَّةً» وَجَمَاعَةً «مُسْلِمَةً لَكَ».

وإنما خصّ الدعاء ببعض ذريتهم لعلمهم من قوله: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»<sup>٥</sup> بأنه لا بد أن يكون بعضهم ظالماً، ولم يعلموا أن فيهم أهل التسليم والثقوى، ولذا سألوا أن يجعل الله بعضهم مسلماً مُخْلِصاً مُتَقَاداً كي يكون صالحاً للإمامة.

٢. تفسير الرازي ٤: ٤٨.

١. تفسير العياشي ١: ٢٠٣/١٥٦، علل الشرائع ١/٣٩٨.

٤. مجمع البيان ١: ٣٨٩.

٣. في مجمع البيان: يا إسماعيل هات ابن.

٥. البقرة: ١٢٤/٢.



وإنما خصاً ذرّيتهما بالدعاء لزيادة شفقتهم بهم، وكثرة ثوابهما بعبادتهم، ولأن في صلاح أولادهم وكونهم أنبياء صلاح عامة الخلق.

عن (العباشي): عن الصادق عليه السلام: «أراد بالأمّة بني هاشم خاصة»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ولم يزل في ذرّيتهما الأنبياء والرسل والأئمة والهداة»<sup>٢</sup>.

وأما الدّعوة الثالثة فقولهما: «وَأَرِنَا» وعرفنا «مَنَاسِكَنا» وعباداتنا التي تُلزِمنا في هذا المقام.

نقل أن جبرئيل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام المناسك كلها حتى بلغ عرفات، فقال: يا إبراهيم، أعرفت ما أُرثك من المناسك؟ قال: نعم، فسميت عرفات، فلما كان يوم النحر أراد أن يزور البيت، عرض له إبليس فسد عليه الطريق، فأمره جبرئيل عليه السلام أن يزيمه بسنن حصيات، ففعل، فذهب الشيطان، ثم عرض له في اليوم الثاني والثالث والرابع، كل ذلك يأمره جبرئيل عليه السلام برمي حصيات<sup>٣</sup>.

وأما الدّعوة الرابعة فقولهما: «وَتَبَّ عَلَيْنَا» معاً فرط منا من ترك الأولى، والتوجه إلى غيرك فإن توبة الأنبياء لا تكون من ذنب بل من أحد الأمرين.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ لِي غَاناً<sup>٤</sup> عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ»<sup>٥</sup> إلى آخره.

«إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ» لِمَنْ تَابَ إِلَيْكَ «الْرَّحِيمُ» بِمَنْ أَسْتَزَحَمَكَ.

ثم ختما دعاهما بقولهما: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ» أي في ولّد إسماعيل، أو في الأمّة المسلمة «وَرَسُولاً» كائناً «مِنْهُمْ» روي أنه لم يبعث فيهم غير نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم<sup>٦</sup>.

وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا دعوة [إبراهيم]»<sup>٧</sup> وإنما سألا أن يكون الرسول في مكة من ذرّيتهم ليكون بسبب النسب أراف وأشفق بهم، وأحرص على دعوتهم وهدايتهم وتربيتهم، وليكون له عزاً وشفراً فوق الشرف، فيقوم بدعوتهم وهدايتهم.

«يَتْلُوا» ويقرأ «عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ» ودلائل توحيدك وكمال صفاتك «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ» المنزل

٢. تفسير الصافي ١: ١٧٣.

١. تفسير العياشي ١: ٢٠٦/١٥٧، مجمع البيان ١: ٣٩٣.

٣. تفسير الرازي ٤: ٦٢. ٤. القَيْن: القيم، وقيل: الغين شجر ملتف.

٦. تفسير الصافي ١: ١٧٣.

٥. صحيح مسلم ٤: ٢٧٠٢/٢٠٧٥.

٧. تفسير القمي ١: ٦٢، مجمع البيان ١: ٣٩٥.

من عندك بمعانيه وحقائقه بعد التلاوة عليهم ﴿و﴾ يعلمهم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ وما تكمل به نفوسهم من المعارف والأخلاق وتُمَيِّزُ الْحَقَّ من الباطل ﴿وَيُزَكِّهِمْ﴾ عن الرذائل والعيوب وسيئات الأخلاق حتى يقوموا بطاعتك وعبوديتك.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيُّزُ﴾ القادرُ الْغَالِبُ الذي لَا يُغْلَبُ على ما يُريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لَا يَجْهَلُ شيئاً، ولا يفعل على غير صلاح.

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [١٣٠]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا وَصَفَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَوْنِهِ إِمَاماً وَمَتَّبِعاً لِلْعَالَمِينَ وَمَشْرِفاً بِتَشْرِيفَاتٍ لَمْ يُشْرَفْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَكَوْنِهِ أَكْمَلَ الْمُوحِّدِينَ، وَأَسْلَمَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ اللَّازِمُ أَنْ يَحْكُمَ الْعَقْلُ بِوَجُوبِ اتِّبَاعِ مِثْلِ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَالشَّخْصِ الْعَظِيمِ، مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ حَاكِمٌ بِمُخْتَارِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّسْلِيمِ، نَبَهَ سَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُعْرِضَ عَنْ اتِّبَاعِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّ الْمُعْرِضُ فِي زُمَرَةِ السُّفَهَاءِ وَالْمَجَانِينِ، بِقَوْلِهِ فِي مَقَامِ التَّعَجُّبِ لِمَنْ كَانَ أَهْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ﴾ وَيُعْرِضُ ﴿عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَهُوَ التَّوْحِيدِ وَالتَّسْلِيمِ ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ﴾ وَاسْتَخَفَّ وَأَمْتَنَ ﴿نَفْسَهُ﴾ إِذْ كُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ طَرِيقِ يَرْغَبَ فِيهِ الْعُقَلَاءُ وَيُوصِلُ السَّاعِي فِيهِ إِلَى عِزِّ الدُّنْيَا وَشَرَفِ الْآخِرَةِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْسَبَ فِي زُمَرَةِ الْعُقَلَاءِ، بَلْ هُوَ أَسْفَهُ النَّاسِ.

ثمَّ الْعَجَبُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْيَهُودِ الَّذِينَ أَعْظَمَ مَفَاخِرَهُمُ بِالِاتِّسَابِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي قَالَ سَبْحَانَهُ فِي حَقِّهِ: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ وَاجْتَبَيْنَاهُ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ إِذْ جَعَلْنَاهُ أُمَّةً قَانِتاً، وَمَفْخَرًا، وَمُطَاعًا لِلأُمَمِ الْعَظِيمَةِ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾<sup>١</sup>.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ أَكْرَمُ النَّاسِ مَزَلَةً، وَأَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً، إِنَّهُمْ كَيْفَ تَرَكُوا مِلَّتَهُ وَلَمْ يُسَلِّمُوا الرُّسُولَ اسْتِجَابَ اللَّهِ بِهِ وَبِعِثَّتِهِ دَعْوَتَهُ

نفي الاستدلال      ثمَّ اعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا بَعْدَهَا حُجَّةً بِالِغَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى نُبُوْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
على النبوة      وصدق دعواه، وأَنَّهُ الْمَبْعُوثُ مِنَ اللَّهِ لِلرُّسَالَةِ، حَيْثُ إِنَّ دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَبْعَثَ

الله رسولاً في مكة كان من المسلمّات، ولم يظهر فيها مدّع للنبوّة إلا وجوده المقدّس، وكانت هذه الآيات بفصاحتها واشتمالها على الأخبار الغيبيّة مُعجزة ظاهرة له، إذ لم يكن ﷺ قارئاً للكُتب ومُجالساً لعلّماء أهل الكتاب، فثبت أنّه ﷺ هو مسوّل إبراهيم عليه السلام.

إن قيل: كيف يُمكن القطع بأن جميع ما أخبر به من قصّة إبراهيم، من إتمامه الكلمات، وبناء البيت، وسائر الدّعوات، كان مسلماً بين أهل الكتاب، ومسطوراً في الكتب؟

قلنا: لو لم يكن بينهم من الوضوح بمكان، لتسارعوا إلى تكذيبه مع شدّة عداوتهم وحزبهم على إطفاء نوره، ولو كذبوه في هذه الأمور لتُقلّ إلينا، ولو بأخبار الأحاد.

عن (المجمع): عن السجّاد عليه السلام: <sup>١</sup> «ما أحدٌ على ملّة إبراهيم إلا نحن وشيعتنا، وسائر الناس منها براء» <sup>٢</sup>.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ \* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ [١٣١ و ١٣٢]

ثمّ ذكر الله علّة اصطفاؤه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ حين خرج من الغار على ما قيل، بالإلهام في قلبه، وتقويّة عقله، وتنفيذ بصيرته، وإراءة الآيات الباهرات ﴿أَسْلِمَ﴾ وأُخْلِصَ وَجْهَكَ لله ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مُبادراً إلى الطاعة والانقياد باستعداده الكامل: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ وَجْهِي وَأَخْلَصْتُ قَلْبِي ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالتوحيد الكامل، والعرفان التام.

والظاهر أنّه كان إقراره بلسان حاله ورُسوخ المعرفة في شراشر وجوده، لا بلسان قاله، فلما كملت نفسه بمعرفة الله بادّر إلى الدّعوة إلى ملّة التوحيد والإسلام.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ قبل سائر الناس شفقة بهم، قيل: كانوا أربعا وقيل: ثمان <sup>٣</sup>.

﴿وَيَعْقُوبُ﴾: وصّى بها بنيه أيضاً كجده إبراهيم عليه السلام وكانت وصيته أن قال: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

١. في المحاسن: الحسين بن علي عليه السلام.

٢. المحاسن ١: ٥٤/١٤٧، تفسير الصافي ١: ١٧٣، ولم نعثر عليه في مجمع البيان.

٣. تفسير أبي السعود ١: ١٦٣.

أَصْطَلَيْتُمْ، وَاسْتَخْلَصَ ﴿لَكُمْ الدِّينَ﴾ الْمَرْضَى لَهُ، وَصَفَوْهُ الْأَدْيَانِ الَّذِي اخْتَارَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْخَلَصُونَ مِنْ عِبَادِهِ، بَأَنْ نَصَبَ الدَّلَائِلَ الظَّاهِرَةَ عَلَيْهِ، وَدَعَاكُمْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ عَيَّنَ ذَلِكَ الدِّينَ صَرِيحاً، وَأَكَّدَ فِي وَجوبِ الْإِثْرَامِ بِه بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿إِلَّا وَانْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ اللَّهُ، مُؤَخِّدُونَ لَهُ. وَالْمَعْنَى: لَا تُفَارِقُوا دِينَ الْإِسْلَامِ فِي أَنْ، كَيْ لَا يُبَادِرَكُمْ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَى غَيْرِهِ فَيُدْرِكْكُمْ غَايَةُ الْخُسْرَانِ.

قِيلَ: فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ دَلَالَةٌ قَوِيَّةٌ عَلَى أَنَّ الْإِثْرَامَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ أَهَمُّ الْأُمُورِ، حَيْثُ أَمَرَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ بِعَنْوَانِ الْوَصِيَّةِ، وَهُوَ أَكَّدُ مِنَ الْأَمْرِ، وَخَصَّ بِهَا بَنِيهِ الَّذِينَ كَانَ أَشْفَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَمَا مَزَجَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَصِيَّةً أُخْرَى، وَعَبَّرَ عَنْ حَقَانِيَّتِهِ بِأَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ لَكُمْ، وَعَمَّهُمْ بِتِلْكَ الْوَصِيَّةِ، وَمَا قَيَّدَهَا بِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَحَالٍ دُونَ حَالٍ، وَزَجَّرَهُمْ عَنْ أَنْ يَمُوتُوا غَيْرَ مُسْلِمِينَ<sup>١</sup>.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ ﷺ مُشْهُوراً بِالْفَضْلِ وَالْعَقْلِ وَالصَّلَاحِ وَخَسَنِ الطَّرِيقَةِ وَمَنَاقَةِ السَّيْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَهْتَمَّ بِلُزُومِ هَذَا الدِّينِ نِهَايَةَ الْإِهْتِمَامِ، عَرَفَ أَنَّهُ أَوْلَى الْأُمُورِ وَأَحَقُّهَا بِهِ.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ أَلَمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي  
قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَائُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ  
لَهُ مُسْلِمُونَ [١٣٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ وَصِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ ﷺ، بَيَّنَّ أَنَّ يَعْقُوبَ ﷺ مَا اكْتَفَى بِالْوَصِيَّةِ، بَلْ أَخَذَ مِنْ أَوْلَادِهِ الْإِقْرَارَ وَالْعَهْدَ عَلَى الْإِثْرَامِ بِه بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بَلْ أَكْتُمُ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْحَاضِرُونَ، أَوْ مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ ﴿شُهَدَاءَ﴾ حُضَّاراً ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ أَلَمَوْتُ﴾ وَحِينَ احْتَضَرَ وَقَرَّبَ وَفَاتَهُ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ عَلَى الْإِنْكَارِ، وَالْمَعْنَى - وَاللَّهُ الْعَالِمُ - مَا كُنْتُمْ حَاضِرِينَ عِنْدَ يَعْقُوبَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، بَلْ إِنْ عَلِمْتُمْ بِهِ فَبِالْوَحْيِ.

﴿إِذْ قَالَ﴾ حِينَئِذٍ شَفَعَةً ﴿لِبَنِيهِ﴾ وَهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ وَأَيُّ شَيْءٍ تَتَّخِذُونَهُ إِلَهاً بَعْدَ مُفَارَقَتِي إِيَّاكُمْ بِالْمَوْتِ؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَائُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ قِيلَ: عَدَّ إِسْمَاعِيلَ فِي الْأَبَاءِ لِأَنَّ الْعَمَّ صِنُّ الْأَبِ، وَيَمْتَزِلُهُ فِي التَّعْظِيمِ<sup>٢</sup>.

ثم بعد هذا الإقرار الإجمالي صرّحوا بالتوحيد لاطمئنان قلب يعقوب، بقولهم: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لا شريك له ﴿وَتَحْتَ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مُقَادُونَ.

قيل: إن اليهود قالوا الرسول الله ﷺ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ يَعْقُوبَ أَوْصَى بَنِيهِ بِالْيَهُودِيَّةِ يَوْمَ مَاتَ؟ فنزلت<sup>١</sup>. وعلى هذا يمكن أن تكون كلمة (أم) وصلية. والتقدير: أتدعون هذا أم كنتم شهداء؟ يعني أكان أوائلكم شاهدين وأنتم علمتم ذلك، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه براء؟ وعن بعض التفاسير: أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى أهلها يعبدون الثيران والأوثان خاف على بنيه الشرك بعد وفاته، فوصاهم بهذه الوصية، وأخذ منهم الإقرار تحريصاً لهم على التمسك بعبادة الله<sup>٢</sup>.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٣٤]

ثم لما كان اليهود يفتخرون بأبائهم إبراهيم وإسحاق، ويَزَوْنَ أنهم لصلاح آبائهم لا يُعَذَّبُونَ؛ ردّهم الله تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ وجماعة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت، حال كونه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وعملت، لا يرجع إليكم نفع أعمالهم ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من أعمالكم، لا يرجع إليهم ثوابها ونفعها ﴿وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون به. فلا تفخروا بأوائلكم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليه السلام إذ لا ينفعكم حسناتكم، ولا يضرّكم سيئاتهم.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [١٣٥]

ثم أنه تعالى بعد إقامة البراهين على ضلالة اليهود والنصارى، بين أنهم مع تلك الحجج القاطعة مُصِرُّونَ على كفرهم وضلالهم واتباع المسلمين لهم بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ للمسلمين ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ يعني قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، حتى ﴿تَهْتَدُوا﴾ وتُصِيبُوا طريق الحق.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ردّاً عليهم: لا نتبع اليهودية والنصرانية ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ حيث كان

﴿حَنِيفًا﴾ ومائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق.

وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعرض عليهم وعلى غيرهم من أهل الشرك، لأن كلَّ منهم كانوا يدعون ملَّة إبراهيم عليه السلام والحال أنهم كاذبون، لأنه ثبت أن إبراهيم عليه السلام كان على التوحيد، واليهود كانوا مشركين بقولهم: عزير ابن الله، والنصارى بقولهم بالثليث، أو إن المسيح ابن الله. عن (العياشي): عن الصادق عليه السلام قال: «[إن] الحنيفية هي الإسلام»<sup>١</sup>.

وعن الباقر عليه السلام، قال: «ما أبقت الحنيفية شيئاً حتى إن منها قصَّ الشارب، وقلمَ الأظفار، والخِتان»<sup>٢</sup>.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [١٣٦]

ثم أنه تعالى لما ردَّ قول اليهود والنصارى بأنهم متبعون دين اليهودية والتَّصانيف عن تقليد وبغير دليل، وأنه لو كان بناء الدِّين على التقليد كان تقليد إبراهيم عليه السلام الذي عُرف بالاستقامة أولى وأقرب إلى السلامة، بين بطلان دينهم بالبرهان، بقوله: ﴿قُولُوا﴾ أيها المؤمنون.

عن (الكافي) و(العياشي): عن الباقر عليه السلام [قال]: «إنما عني بذلك علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجرت بعدهم في الأئمة عليهم السلام»<sup>٣</sup>.

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وهو أول الواجبات العقلية ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من الله، وهو القرآن بدلالة المعجزات الباهرات، وفيه الإيمانُ بنبوة من جاء به، وهو محمد ﷺ ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ من الله ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم أحفاد يعقوب من أولاده الاثني عشر، وكان منهم كثير من الأنبياء.

عن (العياشي): عن الباقر عليه السلام أنه سُئل: هل كان ولد يعقوب أنبياء؟ قال: «لا، ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدنيا إلا سعداء»<sup>٤</sup>. والظاهر أن المراد أنه لم يكن جميعهم أنبياء.

١. تفسير العياشي ١: ٢٠٨/١٥٨.

٢. تفسير العياشي ١: ٢٠٩/١٥٨.

٣. الكافي ١: ٣٤٤، تفسير العياشي ١: ٢١٢/١٥٩.

٤. تفسير العياشي ١: ٢١١/١٥٩.

﴿وَمَا أَوْتِي﴾ من قِبَلِ اللَّهِ ﴿مُوسَى﴾ بن عمران من التَّوراة ﴿وَعِيسَى﴾ بن مريم من الإنجيل ﴿وَمَا أَوْتِي النَّبِيُّونَ﴾ من الصُّحُفِ وَالْمُعْجِزَاتِ حال كَوْنِ جَمِيعِهَا مُنْزَلًا ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَنَحْنُ ﴿لَا نَفَرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بِالْإِيمَانِ بِالْبَعْضِ وَالْكَفْرِ بِالْبَعْضِ، كَمَا أَنْتُمْ تَفَرِّقُونَ بَيْنَهُم بِالْإِيمَانِ وَالتَّكْذِيبِ، مَعَ أَنَّهُمْ سَوَاءٌ فِي الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ لَوْ أَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي أَصُولِ الدِّيَانَاتِ، وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ عَلَى أَصُولِ الْإِسْلَامِ.

﴿وَنَحْنُ﴾ بِاللَّهُ مُؤْمِنُونَ، وَ﴿لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مُقَادُونَ، نَتَّبِعُ مَا أَمَرَنَا رَبُّنَا، وَلَا نَتَّبِعُ هَوَى أَنْفُسِنَا، فَكُلُّ مَنْ ظَهَرَ دَلَالٌ صِدْقِهِ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ تُصَدِّقُهُ وَتُؤْمِنُ بِهِ، فَلِذَا نُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أَظْهَرَ الْمُعْجِزَاتِ وَأَقَامَ الدَّلَالَ عَلَى صِدْقِهِ كَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهَتُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ  
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [١٣٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ حَقِيقَةَ الْهُدَى الَّتِي تَحْكُمُ الْعُقُولَ السَّلِيمَةَ بِهَا، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَتَوْا بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، عَارِضَ قَوْلِهِمْ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾<sup>١</sup> بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَسَائِرُ الْكُفَّارِ ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَمَا يُشَابِهُهُ فِي الصِّحَّةِ وَالْإِسْقَامَةِ وَالسُّدَادِ، وَأَتَى لَهُمْ بِتَحْصِيلِ مِثْلِ هَذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿مِثْلَ مَا آمَنْتُمْ﴾، هُوَ مَا آمَنْتُمْ.

﴿فَقَدْ آهَتُوا﴾ إِلَى طَرِيقِ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ كُنْوَ مِنْ تَحْصِيلِ دِينٍ مِثْلِهِ، فَلَا يَجِدُ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَأَعْرَضُوا عَنْ هَذَا الدِّينِ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ﴾ ثَابِتُونَ مُسْتَقَرُّونَ ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ وَعِنَادٍ وَكُفْرٍ وَمُشَاقَّةٍ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّقَاقُ مِمَّا يُوْدِي إِلَى الْجِدَالِ وَالْقِتَالِ لَا مُحَالَةَ، أَرَدَفَ ذَلِكَ بِتَسْلِيَةِ الرُّسُولِ ﷺ وَتَقْوِيَةِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِوَعْدِ النَّصْرِ وَالْعَلَبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ وَيُدْفَعُهُمْ عَنْكَ.

قِيلَ: مَعْنَى السَّيْنِ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ، وَإِنْ تَأَخَّرَ إِلَى حِينٍ<sup>٢</sup>. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ النُّبُوَّةِ لِإِنْجَازِ

الله وَعَدَهُ، فَوَافَقَ الْمُخْبِرَ الْخَبِرَ.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا يَنْطِقُونَ بِهِ وَمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِمَا يُضْمِرُونَ، فَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي نَيْتِكَ وَإِرَادَتِكَ مِنْ إِظْهَارِ الدِّينِ، وَهُوَ مُسْتَجِيبٌ لَكَ. وَفِي هَذَا التَّذْيِيلِ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ مِنْ وَعْدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالنُّصْرَةِ وَالْغَلَبَةِ، وَوَعْدِ الْكُفَّارِ بِالْقَتْلِ وَالْخِزْيِ.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ [١٣٨]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ دَأْبُ النَّصَارَى تَغْسِيلِ أَوْلَادِهِمْ بِمَاءٍ أَصْفَرٍ، وَيُسَمُّوهُ الْمَعْمُودِيَّةَ، وَلَعَلَّهُ الْمَشْهُورُ بِغُسْلِ التَّعْمِيدِ، وَكَانَ دَأْبُ الْيَهُودِ عَلَى مَا قِيلَ صِبْغُ أَوْلَادِهِمْ بِالصُّفْرَةِ، وَكَانَ كُلُّ طَائِفَةٍ يُعَدُّونَ وَيَحْسَبُونَ ذَلِكَ الْغُسْلَ وَالصَّبْغَ طَهَارَةً لأَوْلَادِهِمْ، وَصَفَ سُبْحَانَهُ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي حَقِيقَتُهُ الْإِيمَانُ بِالْأُمُورِ الْمُفْصَلَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: قُولُوا: صَبَّغَنَا اللَّهُ صِبْغَتَهُ<sup>١</sup>. وَفَسَّرَهَا الصَّادِقُ ﷺ بِالْإِسْلَامِ كَمَا عَنْ (الْكَافِي)<sup>٢</sup>. وَقِيلَ: هِيَ فِطْرَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا<sup>٣</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ ﷺ: «هِيَ صِبْغُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوِلَايَةِ فِي الْمِيثَاقِ»<sup>٤</sup>. قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا: آمَنَّا، وَصَبَّغَنَا اللَّهُ بِصِبْغَةِ الْإِيمَانِ، وَأَنْتُمْ صَبَّغْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِصِبْغِ الصُّفْرَةِ، وَصَبَّغْنَا تَطَهَّرَ دُونَ صِبْغِكُمْ، حَيْثُ طَهَّرْنَا مِنْ دَنَاسَةِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ وَالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، بِنُورِ التَّوْحِيدِ وَالتَّسْلِيمِ وَالْوِلَايَةِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ إِطْلَاقَ الصَّبْغَةِ عَلَى الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ مِنْ جِهَةِ ظُهُورِ أَثَرِهَا عَلَيْهِمْ ظُهُورُ الصَّبْغِ عَلَى الْمَصْبُوغِ وَتَدَاخُلِهَا قُلُوبَهُمْ تَدَاخُلَ الصَّبْغِ الثُّوبِ<sup>٥</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ بَابِ مَجَازِ الْمُشَاكَلَةِ وَالْإِزْدِجَاجِ، لِزَعْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّ الصَّبْغَ بِالصُّفْرَةِ طَهَارَةٌ كَمَا مَرَّ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ إِطْلَاقَ الصَّبْغِ فِي الْآيَةِ حَقِيقَتِي بِجَمِيعِ تَفَاسِيرِهِ، حَيْثُ إِنَّ لِلْعَقَائِدِ الصَّبْغَةَ عَلَى الْحَقَّةِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْوِلَايَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ وَضِيَاءً فِي النَّفْسِ. وَكَلَّمَا اشْتَدَّ الْيَقِينُ بِهَا، اشْتَدَّ ذَلِكَ النُّورُ حَتَّى يُحِيطَ بِجَمِيعِ الْجَوَارِحِ، كَمَا أَنَّ لِلْكَفْرِ وَالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ ظُلْمَةً مُحِيطَةً. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ لَوْنَ النُّورِ فِي الْأَنْظَارِ هُوَ الْبَيَاضُ، وَلَوْنَ الظُّلْمَةِ

١. تفسير البضاوي ١: ٩٠. ٢. الكافي ٢: ١٢/٢. ٣. تفسير البضاوي ١: ٩٠.

٤. تفسير العياشي ١: ٢١٤/١٥٩، تفسير الصافي ١: ١٧٦.

٥. تفسير البضاوي ١: ٩٠، تفسير الصافي ١: ١٧٦. ٦. تفسير أبي السعود ١: ١٦٨.



هو السواد، ولذا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾<sup>١</sup>.

وروي: أن المؤمنين في القيامة غرٌ مُحَجَّلُونَ<sup>٢</sup>.

وفي رواية: إن عَمِلَ خيراً ظَهَرَ فِي قَلْبِهِ نَقْطَةٌ بِيضَاءٍ، ثُمَّ تَزْدَادُ حَتَّى تُحِيطَ بِهِ، وَمَنْ عَمِلَ سَوْءاً ظَهَرَ فِيهِ نَقْطَةٌ سَوْدَاءُ<sup>٣</sup>.

ومن الواضح أن المراد من السواد والبياض في الآية والروايات هو النور والظلمة، وعلى هذا فالمؤمنون يبيضُ الوجوه في الدنيا والآخرة، وسيماهم ذلك البياض، كما أن سيماء الكفار أنهم سودُ الوجوه فيهما، ويُعرفان في الآخرة بسيماهما، وأما في الدنيا فلا يرى سيماهما إلا مَنْ لَهُ عَيْنُ الْبَصِيرَةِ. ثُمَّ لَمَّا كَانَ النَّورُ مِنْ قِبَلِ كَمَالِ الْوُجُودِ الَّذِي هُوَ بِإِفَاضَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَجُودُهُ يُضَافُ الْبِيَضُ وَالصَّبْغُ الْحَاصِلُ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَصَحَّ أَنْ يُقَالَ لِلذَّكَاءِ الْبِيَضُ: صِبْغَةُ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ ظُلْمَةَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ وَالْمَاهِيَةِ، وَصَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا صِبْغَةُ النَّفْسِ وَالطَّبِيعَةِ، حَيْثُ إِنَّ النَّفْسَ مَبْدَأَ الْإِحْتِجَابِ عَنِ عَالَمِ الْأَنْوَارِ وَمُنْشَأَ الْإِنْعِمَاءِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالضَّلَالِ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا كَانَ صِبْغُ الْبِيَضِ أَحْسَنَ الْأَصْبَاحِ، سَيِّمًا إِذَا كَانَ حَاصِلًا مِنَ النَّورِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْمَوْجُودَاتِ، خُصُوصاً إِذَا كَانَ حَاصِلًا مِنَ الْإِيمَانِ وَالْوَلَايَةِ، أَنْكَرَ اللَّهُ شَبَاحَهُ كَوْنِ صِبْغٍ أَحْسَنَ مِنْهُ، يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْإِيمَانُ مُلَازِماً لِلْقِيَامِ بِوُظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ، كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى تَحَقُّقِ صِبْغِ الْإِيمَانِ فِيهِمْ لِدَلَالَةِ التَّلْبَسِ بِشِعَارِ الْعِبَادَةِ عَلَى تَنَوُّرِ الْقَلْبِ بِنُورِ الْإِيمَانِ، وَصِبْغِ النَّفْسِ بِأَحْسَنِ الْأَصْبَاحِ، فَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ مَجَالٌ لِنَكَارِهِ. وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ مُمْتَحَضِينَ بِالْعِبَادَةِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾<sup>٤</sup>، فَكَانَ ذَكِيلٌ صِدْقِ دَعْوَاهُمْ مَعَهُمْ.

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُخْلِصُونَ [١٣٩]

١. آل عمران: ١٠٦/٣. ٢. سعد السعدي: ١٠٩ «نحوه».

٤. الفتح: ٢٩/٤٨.

٣. الكافي: ٢٠/٢٠٩ «نحوه».

ثُمَّ يَقُولُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَانُوا يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِكَرَامَةِ اللَّهِ وَمَنْصِبِ النَّبُوَّةِ لِادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ الدِّينِ وَالكِتَابِ، وَأَنَّ الْعَرَبَ عَبْدَةُ الْأَصْنَامِ، فَعَلَّمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ رَدَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي﴾ أَمْرِ ﴿اللَّهِ﴾ وَتُبَّوْتُهُ الَّتِي اصْطَفَانَا بِهَا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ سِوَاهُ إِلَهِ نَسْبُنَا وَنَسْبُكُمْ، لَا قَرَابَةَ وَلَا رَحِمَةً بَيْنَ أَحَدٍ وَبَيْنَهُ، وَلَا كَرَامَةً لِأَحَدٍ عِنْدَهُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

﴿وَلَنَا﴾ كَمَا تَرَوْنَ ﴿أَعْمَالَنَا﴾ الْحَسَنَةَ الصَّالِحَةَ ﴿وَلَكُمْ﴾ كَمَا تَعْلَمُونَ ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ السَّيِّئَةَ الشَّنِيعَةَ، وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى جَمِيعِهَا، هَذَا مَعَ أَنَّ فَضْلَ الْأَعْمَالِ وَكَرَامَةَ الْعَامِلِ بِخُلُوصِ النِّيَّةِ.

﴿وَنَخْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنْتُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ فِيهَا، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَبْعِدُوا أَنْ نَكُونَ أَكْرَمَ عِنْدَهُ مِنْكُمْ، وَأَحَقُّ بِالتَّشْرِيفِ بِمَنْصِبِ النَّبُوَّةِ، وَأَوَّلَى بِالتَّفْضِيلِ بِمَرْتَبَةِ الرُّسَالَةِ، فَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ حُجَّةٌ عَلَى وُجُوبِ تَخْصِصِكُمْ بِهِمَا، بَلْ لَنَا الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى أَوْلَئِنَّا مِنْكُمْ.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ \* تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٤٠ و ١٤١]

ثُمَّ مِنْ شُبُهَاتِهِمْ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ وَتَدْعُونَ أَنْ دِينَكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ دِينُ اللَّهِ لِادِّعَائِكُمْ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وَأَنْتُمْ مُقْتَدُونَ بِهِمْ فِي دِينِهِمْ.

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ رَدًّا عَلَيْهِمْ، وَأَسْأَلُهُمْ تَقْرِيرًا مِنْهُمْ: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بِدِينِهِمْ ﴿أَمْ اللَّهُ﴾ أَعْلَمُ؟ فَإِنْ ثَبَّرُوا أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ فَإِنَّهُ شَهِدٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْعِلَّةِ الْخَفِيَّةِ وَدِينِ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِلَّةَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ خُلِّدَتَا بِأَهْوَاءِ أَهْلِ الزُّيغِ بَعْدَهُمْ، وَأَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ، وَالْعَالِمُونَ بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ، وَتَكْتُمُونَهَا لِحُبِّ الْجَاهِ وَالرَّنَاسَةِ وَالْحُطَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّاسِ ﴿مِمَّنْ كَتَمَ﴾ وَسَتَرَ وَأَخْفَى مِنَ الْعَوَامِّ ﴿شَهَادَةً﴾ ثَابِتَةً ﴿عِنْدَهُ﴾ صَادِرَةً ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ وَأَظْهَرَ خِلَافَهَا بَيْنَ الْخَلْقِ؟

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بَلْ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وَحَافِظٌ لَجَمِيعِ سَيِّئَاتِكُمْ، مِنْ إِنْكَارِ الْحَقِّ، وَادِّعَاءِ

الآبِطِل، وَكِمَان شَهَادَتِهِ، فَبُعَاثِكُمْ عَلَيْهَا أَشَدَّ الْعِقَاب، فَكُونُوا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ وَوَجَلٍ فِي جَمِيعِ الْأَنَاتِ<sup>١</sup> وَالْحَالَاتِ، وَلَا تَغْتَرُوا بِصَالِحِ أَعْمَالِ آبَائِكُمُ الْأَنْبِيَاءِ وَحُسْنِ سِيرَتِهِمْ، فَإِنَّ «تِلْكَ» الْآبَاءَ الْكِرَامَ «أُمَّةٌ» وَجَمَاعَةٌ صُلَحَاءُ «قَدْ خَلَتْ» وَمَضَتْ مِنَ الدُّنْيَا، يَكُونُ «لَهَا مَا كَسَبَتْ» مِنْ نَفْعِ أَعْمَالِهَا وَالْثَوَابِ الْمَوْعُودِ عَلَيْهَا «وَمَا يَكُونُ لَكُمْ» فِي الْآخِرَةِ «مَا كَسَبْتُمْ» مِنْ مَنَافِعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَجْرِهَا وَتَبْعَاتِهَا، فَلَا تُصِيبْ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ بَشْيءٌ، كَمَا لَا ضَرَرَ عَلَيْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ «وَلَا تُسْتَلُونَ» فِي الْقِيَامَةِ «عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فِي مَدَّةِ أَعْمَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وحاصل الاحتجاج أنكم يا أهل الكتاب بأي حجة تتمدّدون على دعوى أوليائكم بفضل الله وكرامته مثلاً فإن تتمدّدوا بأنكم مؤخّدون فقد كذبتُمْ، لبّادّة أنا مؤخّدون دونكم، وإن تتمدّدوا بأنكم أتباع دين إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء والصّالحاء بعده فنحن المتّبعون لهم دونكم، وإن تتمدّدوا باتباعكم إليهم فليس النسب موجباً للكرامة عند الله، ونافعاً في القيامة، كما قال تعالى: «فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ»<sup>٢</sup>.

حكاية هارون حكي أن هارون الرشيد لما انصرف من الحجّ، أقام بالكوفة أياماً، فلما خرج وقف بهلول على طريقه وناداه بأعلى صوته: يا هارون - ثلاثاً - فقال هارون تعجباً: من الذي يتناديني؟ فقيل له: بهلول المجنون. فوقف هارون وأمر برفع الستر - وكان يكلم الناس من وراء الستر - فقال له: ألم تعرّفني؟ قال: بلى أعرفك. فقال: من أنا؟ قال: أنت الذي لو ظلم أحدٌ في المشرق وأنت في المغرب سألك الله عن ذلك في القيامة. فبكى هارون وقال: كيف ترى حالي؟ قال: أعرضه على كتاب الله، وهي: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ \* وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ»<sup>٣</sup>. قال: وأين أعمالنا؟ قال: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»<sup>٤</sup> قال: وأين قرأنا من رسول الله ﷺ؟ قال: «فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ»<sup>٥</sup>.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ أَلْتَنِيَ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١٤٢]

١. كذا، والظاهر الآباء. ٢. المؤمنون: ٢٣/١٠. ٣. الانفطار: ١٣/٨٢ و١٤.

٤. المائدة: ٢٧/٥. ٥. تفسير روح البيان ١: ٢٤٥.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ اعْتِرَاضَاتِ الْيَهُودِ عَلَى النَّبُوَّةِ وَرَدَّهَا، أَخْبَرَ بِأَنَّهُمْ سَيَعْتَرِضُونَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ بِوُقُوعِ النَّسْخِ فِيهِ بِتَغْيِيرِ الْقِبْلَةِ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى جِهَةِ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ وَالْخِفَافُ الْعَقُولُ ﴿مِنْ النَّاسِ﴾ الرَّاغِبِينَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالْيَهُودِ.

في اعتراض اليهود  
على دين الإسلام  
بوقوع النسخ فيه،  
وعلى النبي ﷺ  
بتغيير القبلة من  
بيت المقدس إلى  
الكعبة

قِيلَ: إِنَّهُمْ ابْتَدَعُوا بِالْاعْتِرَاضِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْنَسُونَ بِمُوَافَقَةِ الرَّسُولِ ﷺ مَعَهُمْ فِي الْقِبْلَةِ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ الْمُوَافَقَةَ رِيْعًا تَدْعُوهُ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ بِالْكَلْبَةِ، وَلَمَّا تَحَوَّلَ عَنْهَا اغْتَمَوْا وَاعْتَرَضُوا عَلَيْهِ. ثُمَّ وَافَقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَأَذِّينَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَقَالُوا: رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ آبَائِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا. ثُمَّ تَبِعَهُمُ الْمُتَافِقُونَ لِحُزْزِهِمْ عَلَى الْاسْتِزْهَاءِ بِالذِّينِ، فَعَاثُوا جَمِيعَهُمْ عَلَى الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ وَأَيَّ صَارِفٍ صَرَفَهُمْ ﴿عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا﴾ مُوَاطِّبِينَ ﴿عَلَيْهَا﴾ مُتَوَجِّهِينَ فِي صَلَاتِهِمْ إِلَيْهَا، وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ.

عَنْ (الاحتجاج) وَ (تفسير الإمام علي عليه السلام): أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَتَوَجَّهَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي صَلَاتِهِ، وَجَعَلَ الْكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِذَا أَمَكْنَ، وَإِذَا لَمْ يُمَكْنَ اسْتَقْبَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ كَيْفَ كَانَ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ طَوْلَ مَقَامِهِ بِهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا كَانَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ مُتَعَبِّدًا بِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ اسْتَقْبَلَهُ وَانْحَرَفَ عَنِ الْكَعْبَةِ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا. وَجَعَلَ قَوْمٌ مِنْ مَرَدَةِ الْيَهُودِ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَصْلِي حَتَّى صَارَ يَتَوَجَّهُ إِلَى قِبْلَتِنَا، وَيَأْخُذُ فِي صَلَاتِهِ بِهَدْيِنَا وَتُسْكِنَا<sup>١</sup>. وَرَوَى مِنْ طَرُقٍ الْعَامَّةِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى إِلَى نَحْوِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ نَحْوًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ شَهْرًا، تَأْلِيْفًا لِقُلُوبِ الْيَهُودِ ثُمَّ صَارَتْ الْكَعْبَةُ قِبْلَةً لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى نَفْخِ الصُّورِ<sup>٢</sup>.

وَحَاصِلُ اعْتِرَاضِ الْيَهُودِ: أَنَّ الْبَدْعَ مُحَالٌّ عَلَى اللَّهِ بِالْإِتِّفَاقِ لِأَنَّهُ مُسْتَلَزِمٌ لِحُجْلِهِ بِالْمَصَالِحِ، وَأَمَّا النَّسْخُ فَإِنْ كَانَ وَاقِعًا حَقِيقِيًّا فَهُوَ عَيْنُ الْبَدْعِ، وَإِنْ كَانَ صُورِيًّا ظَاهِرِيًّا، بِمَعْنَى أَنَّ الْحُكْمَ الْوَاقِعِيَّ وَصَلَاتَهُ كَانَ فِي الْوَاقِعِ مُقْتَدِرًا بِوَقْتٍ مُحْدُودٍ، فَعَدَمُ إِظْهَارِ الْحَدِّ وَإِطْلَاقِ الْحُكْمِ فِي ظَاهِرِ اللَّفْظِ بَحِثٌ يَفْهَمُ الْغُرْفَ أَبَدِيَّتَهُ، مُسْتَلَزِمٌ لِلتَّجْهِيلِ، وَهَذَا قَبِيحٌ وَمُحَالٌّ عَلَى اللَّهِ، فَردُّهُمْ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الْمَشْرِقُ

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١٢/٤٩٢، الاحتجاج: ٤٠.

٢. تفسير روح البیان ١: ٢٤٧.

وَالْمَغْرِبُ» وبه تختص جميع الجهات، ليس أحدها أقرب إليه وأخص به من الأخرى، وهو «يَهْدِي» بأمره «مَنْ يَشَاءُ» هدايته من أهل العالم «إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» والطريق الموصِل إلى قُرْبِهِ وِرْضوانه، وهو التوجُّه إلى الجَهَّة التي فيها الحِكْمَةُ ومُصلَحَةُ العبادِ، فَتَارَةً تَكُونُ بَيْتُ الْمُقَدِّسِ، وأُخْرَى الكَعْبَةُ، وإنما كان التوجُّه إلى الكعبة صِرَاطاً مُسْتَقِيماً لَأَنَّهُ غير مائل إلى قِبْلَةِ الْيَهُودِ وهو بَيْتُ الْمُقَدِّسِ، وإلى قِبْلَةِ النَّصَارَى وهو الْمَشْرِقُ، فَإِنَّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ مَضَلَّةٌ حَيْثُ إِنَّ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهِمَا مَظَنَّةُ التَّوَجُّهِ إِلَى الشَّمْسِ وَعِبَادَتِهَا.

وقيل: وَجِهَ تقديم هذه الآية على آية: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ»<sup>١</sup> والابتیان فيها بفعل المضارع، تقدّم نزولها على تحويل القِبْلَةِ وحُصولِ الاعتراض، حيث إِنَّ قَبْلَ الرُّمِّي يُرَاشُ السَّهْمُ، وقبل توجُّه الاعتراض يُعْلَمُ الْمُؤْمِنُونَ بَيَانُ رَدِّهِ، وفيها دلالة على إمكانِ النَّسْخِ ووقوعه.

وحاصلُ تَقْرِيرِ الْحَوَابِ: أَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ مُلْكُ اللَّهِ، وَنَسَبَتُهَا إِلَيْهِ تَعَالَى سَوَاءً، لَيْسَ مَكَانٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَخْصَ بِهِ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ، وَإِنَّمَا الْمُصْلَحَةُ فِي جَعْلِ جِهَةٍ الْقِبْلَةِ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَرْضِ، فَقَدْ تَكُونُ الْمُصْلَحَةُ فِي الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدِّسِ فِي بَرٍّ مِنْ الزَّمَانِ، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ وَتَكُونُ فِي الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَتَغْيِيرُ الْحُكْمِ لَيْسَ مِنْ جِهَةِ انْكِشَافِ الْخَطَأِ فِي تَشْخِصِ الْمُصْلَحَةِ حَتَّى يُلْزَمَ الْبَدَاءُ الْمُحَالَ.

وأما شُبُهَةُ التَّجْهِيلِ فَوَاضِحَةُ الْبُطْلَانِ، فَإِنَّ عَدَمَ الْإِعْلَامِ لَيْسَ تَجْهِيلاً قَبِيحاً لِبَدَاهَةِ عَدَمِ وَجُوبِ الْإِعْلَامِ بِالتَّكْلِيفِ بِقِيُودِهِ وَغَايَتِهِ قَبْلَ وَقْتِ الْحَاجَةِ.

في بيان حكمة      ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ ذَكَرَ بَعْضُ لَتَعْيِينِ الْقِبْلَةِ حِكْماً عَدِيدَةً:  
جعل القبله      إِحْدَاهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ فِي الْإِنْسَانِ قُوَّةً عَاقِلَةً مُدْرِكَةً لِلْمُجَرَّدَاتِ وَالْمَعْقُولَاتِ، وَقُوَّةً خَيَالِيَّةً مُتَصَرِّفَةً فِي عَالَمِ الْأَجْسَامِ وَالْمَحْسُوسَاتِ، وَقَلَمًا تَنْفُكُ الْقُوَّةَ الْعَاقِلَةَ عَنْ مُقَارَنَةِ الْقُوَّةِ الْخَيَالِيَّةِ وَمُصَاحَبَتِهَا وَالِاسْتِعَانَةَ بِهَا.

فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلي مجرد، وجب أن يضع له صورة خيالية حتى تكون تلك الصورة الخيالية مهيئة على إدراك ذلك المعنى العقلي، ولذلك يضع المهندس - إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير - صورة معينة وشكلاً معيناً، ليصير الجسّ والخيال معينين على إدراك ذلك

الحَكِيمُ الْكَلِيمُ.

ولمّا كَانَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ إِذَا دَخَلَ فِي مَجْلَسِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ لَابَدَ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِوَجْهِهِ وَلَا يَكُونَ مُعْرِضاً عَنْهُ، وَأَنْ يُبَالِغَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالتَّضَرُّعِ لَهُ وَالْقِيَامِ بِخِدْمَتِهِ، كَانَ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ جَارِياً مَجْرَى كَوْنِهِ مُسْتَقْبِلاً لِلْمَلِكِ، غَيْرَ مُعْرِضٍ عَنْهُ، وَالْقِرَاءَةُ وَالتَّسْبِيحَاتُ جَارِيةٌ مَجْرَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ جَارِيَانِ مَجْرَى خِدْمَتِهِ.

ثانيها: أَنَّ الْمُقْصُودَ مِنَ الصَّلَاةِ حُضُورَ الْقَلْبِ، وَلَا يَحْصُلُ إِلَّا مَعَ السَّكُونِ وَتَرْكِ اللَّاتِفَاتِ وَالْحَرَكَةِ، وَهَذَا لَا يَتَأْتَى إِلَّا إِذَا بَقِيَ فِي جَمِيعِ صَلَوَاتِهِ مُسْتَقْبِلاً لِجِهَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى التَّعْيِينِ، فَإِذَا اخْتَصَّ بَعْضُ الْجِهَاتِ بِشَرْفٍ كَانَ اسْتِقْبَالُ إِلَيْهَا أَوْلَى.

ونقل عن زَرْدُشْتِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: اجْعَلْ لَنَا قِبْلَةً إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ نَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا؟ قَالَ: أَشْرَفَ الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ هُوَ النَّوْرُ، فَتَوَجَّهُوا لَهُ، فَبَنُوا بُيُوتَ النَّارِ فَتَوَجَّهُوا إِلَيْهَا بِعُنْوَانِ أَنَّهَا قِبْلَةٌ.

ثالثها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ الْمُوَافَقَةَ وَالْأُلْفَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمِئْتَةُ بِهَا عَلَيْهِمُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾<sup>١</sup>. وَلَوْ تَوَجَّهَ كُلُّ وَاحِدٍ فِي صَلَوَاتِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ أُخْرَى، لَكَانَ ذَلِكَ يُوْهِمُ اخْتِلَافاً ظَاهِراً، فَعَيَّنَ اللَّهُ لَهُمْ جِهَةً وَاحِدَةً، وَأَمَرَهُمْ جَمِيعاً بِالتَّوَجُّعِ إِلَيْهَا، لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْمُوَافَقَةُ بِسَبَبِ ذَلِكَ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُوَافَقَةَ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ<sup>٢</sup>.

فِي حِكْمَةِ جَمْعِ النَّاسِ ذَكَرُوا التَّعْيِينَ جِهَةَ الْكَعْبَةِ حِكْماً: أَحَدُهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ الْكَعْبَةَ بِإِضَافَتِهَا إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿طَهَّرَ بَيْتِي﴾<sup>٣</sup> وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِإِضَافَتِهِمْ بِصِفَةِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَيْهِ، وَكَلِمَاتِ الْإِضَافَتَيْنِ لِلتَّكْرِيمِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: يَا مُؤْمِنُ، أَنْتَ عَبْدِي، وَالْكَعْبَةُ بَيْتِي، وَالصَّلَاةُ خِدْمَتِي، فَأَقْبِلْ بِوَجْهِكَ إِلَى بَيْتِي فِي خِدْمَتِي، وَبَقْلِبِكَ إِلَى عِظَمَتِي.

ثانيها: أَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ اسْتَقْبَلُوا إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّ الشَّمْسَ جَاءَتْ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قَضَيْنَا﴾<sup>٤</sup> وَالتَّصَارُّفُ اسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ لِأَنَّ جِبْرِئِيلَ ذَهَبَ إِلَى مَرْيَمَ مِنْ جَانِبِ الْمَشْرِقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً

شَرِيقًا<sup>١</sup> فأمر الله المؤمنين بالتوجه إلى الكعبة لأنها قبله خَلِيلِهِ.

وقيل: إنَّ النَّصَارَى اسْتَقْبَلُوا مَطْلَعَ الْأَنْوَارِ، وَالْمُؤْمِنُونَ اسْتَقْبَلُوا مَطْلَعَ سَيِّدِ الْأَنْوَارِ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي خَلَقَ مِنْ نُورِهِ جَمِيعَ الْأَنْوَارِ.

ثالثها: أَنَّ الْكَعْبَةَ سُرَّةُ الْأَرْضِ وَوَسْطُهَا، وَفِي الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ التَّوَسُّطُ وَالْعَدَالَةُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ<sup>٢</sup>.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَسْبَغَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [١٤٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا مَنَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِجَعْلِ الْكَعْبَةِ الَّتِي هِيَ الْوَسْطُ قِبْلَةً لَهُمْ، وَبَهْدَايَتِهِمْ إِلَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، مَنْ عَلَيْهِمْ أَيْضًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ جَعْلِكُمْ مُتَّبِعِينَ ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ وَنَصَبْنَاكُمْ ﴿أُمَّةً﴾ وَجَمَاعَةً ﴿وَسَطًا﴾ وَخِيَارًا، أَوْ مُتَوَسِّطِينَ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْرِيطِ لَا يَتَجَاوِزُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا يَمِيلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ.

وَهُمْ خُصُوصُ الْأُتَمَّةِ الْمُعَصُومِينَ ﷺ لِشَهَادَةِ الْوُجْدَانِ وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ عَلَى عَدَمِ اتِّصَافِ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لِظَهْوَرِ كَوْنِ أَكْثَرِهِمْ فُسَاقًا، فَلَا يَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْأُمَّةِ بَعْضُهُمْ، نَظِيرَ قَوْلِ مُوسَى لِتِنِّي إِسْرَائِيلَ: ﴿يَا قَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾<sup>٣</sup> مَعَ وَضُوحِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ مُلِكًا.

عَنِ الْقَمِيِّ ﷺ: يُعْنِي الْأُتَمَّةُ<sup>٤</sup>.

وَعَنِ (الْكَافِي) وَ(الْعِيَّاشِي): عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «نَحْنُ الْأُمَّةُ الْوَسْطُ»<sup>٥</sup>.

وَعَنِ (الْمَنَاقِبِ): عَنْهُ ﷺ: «فِينَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾» الْخَبَرُ<sup>٦</sup>.

١. مريم: ١٦/١٩. ٢. تفسير الرازي ٤: ٩٥. ٣. المائدة: ٢٠/٥. ٤. تفسير القمي ١: ٦٣.

٥. الكافي ١: ٤١٤/٤، تفسير العياشي ١: ٢١٥/١٦٠. ٦. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٧٩.

فَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ عَلَى حُجِّيَّةِ الْإِجْمَاعِ كَمَا ادَّعَاهَا بَعْضُ الْعَامَّةِ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ اسْتِحْمَالِهِ عَلَى قَوْلِ الْمَعْصُومِ أَوْ كَشْفِهِ بِالْحَدِّسِ الْقَطْعِيِّ عَنْ مُوَافَقَةِ قَوْلِ الْمُجْمَعِينَ لِقَوْلِ رَئِيسِهِمْ، وَوَافَقَنَا الْفَخْرُ الرَّازِي وَبَعْضُ آخَرٍ مِنَ الْعَامَّةِ فِي الْقَوْلِ بِعَدَمِ حُجِّيَّةِ الْإِجْمَاعِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ اسْتِحْمَالِهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ هُوَ الْوَسْطُ فِي الْأُمَّةِ، وَقَالُوا: إِنَّا لَمَّا لَا نَعْرِفُ مَنْ يَكُونُ بِهِذِهِ الصِّفَةِ، نَحْتَاجُ إِلَى الْإِتِّفَاقِ، إِلَّا أَنَّهُمْ فَارَقُونَا فِي أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ بِوَجْهِ، وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمِيتَةِ نَعْرِفُهُ بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ ﷺ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأُمَّةِ الْوَسْطُ خُصُوصَ الْهُدَاةِ الْمَعْصُومِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتَكُونُوا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ بِأَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغُوهُمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيَّنُّوا لَهُمُ الْحَقَّ وَالذِّينَ.

فِي رِوَايَةِ (الْمَنَاقِبِ) قَالَ: «وَلَا يَكُونُ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا الْأُمَّةُ وَالرُّسُلُ، فَأَمَّا الْأُمَّةُ فَإِنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَسْتَشْهِدَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَفِيهِمْ مَنْ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى حُرْمَةِ بَقْلِ»<sup>١</sup>.

رَوَى أَنَّ الْأُمَمَ يَجْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْلِغَ الْأَنْبِيَاءِ، فَيُطَالِبُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيُؤْتِي بِأَمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْهَدُونَ لَهُمْ، وَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُزَكِّيهِمْ<sup>٢</sup>، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ فِي الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ<sup>٣</sup> - أَيْ حُجَجًا عَلَيْهِمْ - ثَبِيْتُونَ لَهُمُ الْحَقَّ وَالذِّينَ، وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَوْدِيًّا لِلشَّرْعِ وَمُبَيِّنًا لَكُمْ أَحْكَامَ دِينِهِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى حِكْمَةَ جَعْلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قِبْلَةً لِلْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ لِلصَّلَاةِ﴾ ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ مُسْتَوِرًا عَلَيْهَا﴾ وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ ﴿وَلَا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿الرَّسُولُ﴾ وَتُمَيِّزُهُ ﴿يَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ وَيَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ الْحَقِّ، وَيَرْجِعَ الْقَهْقَرَى إِلَى كُفْرِهِ السَّابِقِ.

عَنْ (تَفْسِيرِ الْإِمَامِ) وَ(الاحتجاج): عَنْهُ ﷺ: «يَعْنِي إِلَّا لِنَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ مَوْجُودًا بَعْدَ أَنْ عَلِمْنَاهُ سَيُوجَدُ». قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّ هَوَى أَهْلِ مَكَّةَ كَانَ فِي الْكُفَّةِ، فَأَرَادَ [اللَّهُ] أَنْ يُبَيِّنَ مَتَبِعُ<sup>٤</sup> مُحَمَّدٍ ﷺ مَعَن

١. تفسير الرازي ٤: ١٠٠.

٢. في الاحتجاج: متبعي.

٣. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٧٩.

٤. تفسير أبي السعود ١: ١٧٣.



خالفه<sup>١</sup> باتباع القبلة التي كرهها ومحمد ﷺ يأمره<sup>٢</sup> بها. ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها والتوجه إلى الكعبة، ليتبين من يوافق محمداً ﷺ فيما يكرهه وهو مصدقه وموافقه<sup>٣</sup>.

وروى بعض العامة أن النبي ﷺ قبل الهجرة يصلي إلى الكعبة، ثم بعد الهجرة - لكون غالب أهل المدينة اليهود - حول القبلة إلى بيت المقدس تأليفاً لهم، ثم رجع إلى القبلة التي كان عليها وهي الكعبة<sup>٤</sup>.

وعلى هذا حصل الامتحان المذكور في الآية بمجموع التحويلين، حيث إن العرب بتحويل القبلة إلى بيت المقدس، واليهود بتحويلها عنه إلى الكعبة، صاروا متزجرين عن النبي ﷺ ودينه.

وقيل أنه رجع جمع عن الإسلام وقالوا: لو كان محمد على يقين من أمره لما تغير رأيه. وكانوا يقولون: مرة هاهنا ومرة هاهنا وقال المشركون: تحير محمد في دينه. وقال اليهود: اشتاق إلى بلد أبيه ومولده<sup>٥</sup> ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْبَيْتَ الْمَقْدِسَ فَأْتُوا بِهِ فِي مِلَّةِ أَبِيكُمْ الْأَوَّلِ وَالْمِلَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهِ خَالِدِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فِي شَأْنِ اللَّهِ وَلَئِنْ جُمِعَ الشُّرَكَاءُ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْيِ ضَلُّوا سَبِيلًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فِي شَأْنِ اللَّهِ وَلَئِنْ جُمِعَ الشُّرَكَاءُ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْيِ ضَلُّوا سَبِيلًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فِي شَأْنِ اللَّهِ وَلَئِنْ جُمِعَ الشُّرَكَاءُ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْيِ ضَلُّوا سَبِيلًا﴾.

ثم وعد المؤمنين الثابتين على الإيمان والمطيعين للرسول ﷺ في الصلاة إلى بيت المقدس بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ أُمَّةً أَدْبَارُهَا هِيَ﴾. وليس من شأنه ﴿لِيُضِلَّ أُمَّةً أَدْبَارُهَا هِيَ﴾. وثباتكم على تصديق الحق أو صلاحكم آتلي صليتم إلى الصخرة.

عن الصادق ﷺ في رواية: «ولما أن صرف نبيه ﷺ إلى الكعبة عن بيت المقدس، قال المسلمون للنبي ﷺ: أرايت صلواتنا التي كنا نصلي إلى بيت المقدس، ما حالنا فيها وحال من مضى من أمواتنا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ أُمَّةً أَدْبَارُهَا هِيَ﴾. فسمى الصلاة إيماناً. فمن لقي الله حافظاً لجوارحه، موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عليه، لقي الله مستكمل لإيمانه

١. في تفسير العسكري ﷺ: من مخالفه.

٢. في تفسير العسكري ﷺ والاحتجاج: يأمر.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ: ٣١٢/٤٩٥، الاحتجاج: ٤٢.

٤. تفسير الكشاف: ١: ٢٠٠، تفسر الرازي: ٤: ١٠٣.

٥. تفسير الرازي: ٤: ١٠٤.

وهو من أهل الجنة، ومن خان في شيء منها، أو تعدى ما أمر الله فيها، لقي الله ناقص الإيمان<sup>١</sup>.  
 وقيل أن جماعة من المسلمين كأبي أمامة، وسعد بن زُرارة، وبراء بن عازب، وبراء بن مغرور  
 وغيرهم، ماتوا على القبلة الأولى، فتوهم عشائروهم أن الصلاة التي أتوا بها على القبلة الأولى كانت  
 ضائعة، لتوهم أن الحكم الأول كان باطلاً. فقالوا: يا رسول الله، توفي إخواننا على القبلة الأولى،  
 فكيف حالهم وحال صلواتهم؟ فنزلت<sup>٢</sup>.

فحاصل مقادير الآية والله أعلم: أن التكليف الأول كالتكليف الثاني، كلاهما عن مصلحة تامة في  
 وقتها، والمتمسك بكل تكليف في وقته متمسك بدين الله فيؤقيه أجره، إنه لا يضيع أجر  
 المحسنين.

ثم علل سبحانه تغيير القبلة وعدم الإضاعة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءَوْفٌ﴾ فلا يرضى بضياع  
 أعمالهم ﴿رَحِيمٌ﴾ مفضل عليهم بتقليلهم من صلاح إلى ما هو أصح، ومن نافع إلى ما هو أنفع لهم  
 في الدين والدنيا. والمراد أنه تعالى يعطيهم زيادة على أجر أعمالهم من رحمته وفضله ما لا يتصور  
 ولا يحصى.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ  
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا  
 الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ [١٤٤]

ثم أنه روي عن العسكري عليه السلام: «أنه بعد حكاية مقالات اليهود في اتباع النبي ﷺ قبلتهم، قال:  
 فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ لما اتصل به منهم، وكره قبلتهم، وأحب الكعبة فجاءه جبرئيل، فقال  
 له رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، لوددت لو صرفتني الله عز وجل عن بيت المقدس إلى الكعبة، فلقد  
 تأذيت بما اتصل بي من قبل اليهود. فقال جبرئيل عليه السلام: فسأل ربك أن يحولك إليها، فإنه لا يردك عن  
 طاعتك، ولا يخيبك عن بُغيتك. فلما استتم دعاء صعد جبرئيل عليه السلام ثم عاد من ساعتِه، فقال: اقرأ يا  
 محمد ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾<sup>٣</sup> وشاهد تردده في جهتها إلحاحاً في الدعاء وتطلعاً

٢. تفسير الرازي ٤: ١٠٦.

١. تفسير العياشي ١: ٢٢٠/١٦١.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام ٣١٢/٤٩٢.

للوحي.

وروي من طرق العامة أنه صلوات الله عليه وآله كان يقَع في رُوعه ويتوَقَّع من ربِّه أن يُحوِّله إلى الكعبة، لأنها قِبْلَةُ أبيه إبراهيم عليه السلام وأقدم القِبْلَتَيْنِ. وأدعى للعرب إلى الإيمان من حيث إنها كانت مَنخَرَةً لهم وأماناً ومزاراً ومطافاً، ولمُخالفة اليهود، فإنهم كانوا يقولون إنه يُخالِفنا في ديننا، ثم إنه يتَّبِع قِبْلَتنا، ولولا نحن لَمْ يَذَرِ أين يستَقْبِل. فعند ذلك كَرِه أن يتوجَّه إلى قِبْلَتهم - إلى أن قال - إنه عليه السلام جعل يَدِيم النَّظَرَ إلى السَّمَاءِ رَجاءً أن يَأْتِيَهُ جَبْرِئِيلُ بالذي سأل ربَّه، فأُنْزِلَ الله هذه الآية<sup>١</sup>.

ثم اعْلَمْ أن تَوْضِيحَ معنى كراهة النبي ﷺ التَّوجُّه إلى الصَّخْرَةِ بعد ما اتَّصَلَتْ به مَقَالَتُ اليهود، أنه لا اتِّصَالُ نَفْسِهِ المَقْدَسَةِ بِاللُّوْحِ المَحْفُوظِ، وإطلاعه على انقِضاء عِدَّةِ الصَّلَاحِ العَارِضِيِّ الذي كان في التَّوجُّه إلى الصَّخْرَةِ، وتحقُّقِ الصَّلَاحِ المُلْزَمِ في التَّوجُّه إلى الكعبة، كَرِه التَّوجُّه إلى الأوَّل، وأَحَبَّ التَّوجُّه إلى الثاني، فكان ينتظر الوحي وضدور الأمر من الله.

ثم لما كان تمام الصَّلَاحِ في حُكْمِهِ تعالى متوقِّفاً على أن يقَع التَّحْوِيلُ باستدعائه وإظهارِ رضاه به، وكراهيته عن التَّوجُّه إلى قبلة اليهود، وكان ذلك مُصَادِفاً لِمَقَالَتِهِم الشَّيْعَةَ، أَظْهَرَ ﷺ تلك الكراهة وذلك الرِّضا، وسأل ودعا، فأبان الله عَظَمَةَ شَأْنِ حَبِيبِهِ عنده بإجَابَةِ دُعَائِهِ ومُوَافَقَةِ رِضَاهِ بقوله: ﴿فَلَنُؤَيِّدَنَّكَ﴾ ولَنُعْطِيَنَّكَ ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ولنَجْعَلَنَّكَ مَتَمَكِّناً من اسْتِيقْبَالِ جِهَةٍ تُحِبُّهَا لِمَصَالِحِ دِينِيَّةٍ من غير [ادواعي] الهوى الفسائنية.

قيل: إنه تعالى قال: ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ولم يقل قِبْلَةً أَرْضَاهَا للإشارة إلى أن جميع الكائنات يطلب رضاي وأنا أطلب رضاك في الدارين، أما في الدنيا فبتحويل القبلة، وأما في الآخرة فبالعفو عن أمتك حتى ترضى<sup>٢</sup>.

﴿قَوْلٌ﴾ وَحَوَّلَ ﴿وَجْهَكَ﴾ مع جميع مقادير بَذْنِكَ في حال صَلَاتِكَ ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ونحوه، وفي ذكر الشُّطْرِ إشعاراً بِكِفَايَةِ مُرَاعَاةِ الْجِهَةِ وعدم لزوم الاستقبال الحقيقي لَعَيْنِ الكعبة بحيث إذا خُطَّ مُسْتَقِيماً انتهى إليها.

وقيل: إن فيه إشعاراً بوجوب التَّوجُّه إلى العَيْنِ لوقوع الكعبة في شَطْرِ الْمَسْجِدِ وهو نِصْفُهُ، والحق هو الأوَّل.

٢. تفسير الرازي ٤: ٩٥.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٥١.

في تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة عن (الفقيه) في رواية: «ثم عيّره اليهود فقالوا: إنك تابع لقيبلتنا. فاعتنم لذلك غمًا شديدًا، فلما كان في بعض الليل خرج يقلّب وجهه في آفاق السماء، فلما أصبح صلى الغداة، فلما صلى من الظهر ركعتين جاءه جبرئيل، فقال له: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ» الآية. ثم أخذ بيد النبي ﷺ فحوّل وجهه إلى الكعبة، وحوّل من خلفه وجوههم حتى قام الرجال مقام النساء، والنساء مقام الرجال. فكان أول صلاحه إلى بيت المقدس وأجرها إلى الكعبة. وبلغ الخبر مسجداً بالمدينة وقد صلى أهله من العصر ركعتين فحوّلوا نحو الكعبة، فكانت أول صلاحهم إلى بيت المقدس وأجرها إلى الكعبة، فسمي ذلك المسجد: مسجد القبلتين<sup>١</sup>.

وقيل: كان تحويل القبلة في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين، ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة. فسمي المسجد مسجد القبلتين<sup>٢</sup>.

ثم لئلا يتوهم متوهم أن وجوب التوجه إلى الكعبة مختص ببكّة المدينة وبشخص النبي ﷺ وأصحابه الحاضرين عنده، عمّم سبحانه وتعالى الخطاب ثانياً بقوله: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ» أيها المسلمون، وفي أي مكان صليتم «فَوَلُّوا» وحوّلوا «وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» ونحوه.

ثم أنه تعالى لاطمئنان قلوب المؤمنين بأن هذا التحويل من قِبَلِ الله، أخبرهم بأنه مكتوب في الكتب السماوية، بقوله: «وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ» بقرائهم في التوراة والإنجيل [يعلمون] أن من علام حاتم النبيين ﷺ أنه يُصَلِّي إلى القبلتين، والله «لَيَعْلَمَنَّ أَنَّهُ الْحَقُّ» النازل «مِنْ رَبِّهِمْ» فإذا كان ذلك حالهم، فلا ينبغي أن تَخْلِجُ الشبهة في قلوبكم أيها المؤمنون، مع علمكم بصديق نبيكم بالمعجزات الباهرة.

«وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» من اتباعكم النبي ﷺ وتسلمكم لأمره، فيجازيكم عليه أحسن جزاء العاملين.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ [١٤٥]

٢. تفسير أبي السعود ١: ١٧٤.

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٨٤٣/١٧٨.

ثم أنه تعالى بعد ما ذكر أن أهل الكتاب عالمون بأن تحويل القبلة حق، بين أن إصرارهم على المخالفة من جهة العناد واللجاج بقوله: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِكُلِّ آيَةٍ بِاهِرَءٍ وَبُرْهَانٍ قاطِعٍ على أن التوجه إلى الكعبة حق﴾ «مَا تَبْهَوُا قِبَلَتَكَ» لأن مخالفتهم ليست عن شبهة حتى يزبها البرهان، بل عن عناد ولجاج ومكابرة، لعلهم بكونها حقاً، والمكابرة لا تنفعه الدلائل ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ﴾ فليس لهم أن يطمعوا في رجوعك إليها.

نقل أنهم كانوا يتناجون في ذلك ويقولون: لو ثبت محمد على قبلتنا، لكننا نرجو أن يكون صاحبنا الذي نتظيره. وكانوا يطمعون في رجوعه إلى قبلتهم<sup>١</sup>.

ثم ويخبرهم الله في قوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ﴾ بأنهم مع اتفاقهم على مخالفة النبي ﷺ في قبلته ليسوا متفقين على قبله واحدة، حيث إن اليهود كانوا يستقبلون إلى الصخرة، والنصارى إلى المشرق، بل كل معرض عن قبله الآخر، لتصلب كل في التي يهواها بهواه.

ثم أنه تعالى بعد بيان أن دينهم وثباتهم على قبلتهم صرف متبعة الهوى، وأنها من أشد المعاصي، بالغ في تهديدهم بالكناية التي هي أبلغ من التصريح، حيث وجه الخطاب إلى نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَيْنَ﴾ وافقت أهل الكتاب و﴿أَتَبْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ومشتبهات نفوسهم في أمر القبلة ﴿مِنْ بَغْدٍ مَا جَاءَكَ﴾ بفضل الله ورحمته ﴿مِنْ الْعِلْمِ﴾ بأن قبله الله هي الكعبة ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على نفسك بتعريضها للهلاك وأشد العذاب، مع أنك أشرف الكائنات عند الله، وأحب الخلق إليه، فكيف بهؤلاء الكفرة وهم أبغض الخلق عنده!

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ

الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [١٤٦]

ثم أكد سبحانه أن مخالفتهم للنبي ﷺ في دينه مطلقاً، قبله كان أو غيرها، ليست إلا عن عناد وعصبية وهوى، لا للشبهة في نبوته وصدقه، بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وكان لهم فهم دراسته، كالأخبار والرهبان ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ بالرسالة لمعرفتهم بعلائمه المذكورة في الكتب السماوية

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَنْبَاءَهُمْ﴾ لَا يَشْتَبِهُونَهُمْ<sup>١</sup> بغيرِهِمْ. وَالتَّكْنِيَةُ عَنْ الرَّسُولِ ﷺ بِالضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ سَبْقٍ ذِكْرِهِ لَتَعْظِيمِهِ وَلِلإِذْنِ بِشَهْرَتِهِ غَايَةِ الْاِشْتِهَارِ وَمَعْرِفَتِهِ غَايَةِ الْمَعْرِفَةِ.

قِيلَ: رَجَعْتُ تَخْصِيصُ الْأَنْبَاءِ بِالذِّكْرِ دُونَ الْبَنَاتِ، أَنَّهُمْ بِضَخْبَةِ الْأَبَاءِ الْأَزْمَ وَيُثْلَوِيهِمْ أَلْصَقُ. وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: كَمَا يَعْرِفُونَ أَنْفُسَهُمْ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ إِلَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ بَرَهَةٍ مِنَ الزَّمَانِ مِنْ وَلَادَتِهِ، وَلَكِنْ يَعْرِفُ وَلَدَهُ حِينَ وَلَادَتِهِ<sup>٢</sup>.

نَقَلَ أَنَّهُ سُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي بَابَنِي، لِأَنِّي لَسْتُ أَشْكُ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَمَّا وَلَدِي فَلَعَلَّ وَالِدَتَهُ خَانَتْ<sup>٣</sup>.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ وَهُمْ الْمُصْرُونَ عَلَى اللَّجَاجِ دُونَ فَرِيقٍ آخَرَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْرَابِهِ ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ عِنَادًا وَتَحَفُظًا لِرِئَاسَتِهِمُ الْبَاطِلَةَ ﴿وَهُمْ يَغْلَمُونَ﴾ أَوْ مُحَمَّدًا نَبِيًّا، وَأَنَّ الْكَعْبَةَ قِيلَةُ اللَّهِ، وَأَنَّ كَيْمَانَ الْحَقِّ مِنْ أَقْبَحِ الْمَعَاصِي.

### الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [١٤٧]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ تَغْيِيرُ الْقِبْلَةِ غَرِيبًا فِي الْأَنْظَارِ، وَمَجَالًا لِشِهَاتِ الْكُفَّارِ وَمَقَالَاتِهِمْ، وَكَانَتْ قُلُوبُ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَعْرُضًا لِلتَّرْزُلِ وَالشُّكِّ فِي دِينِهِمْ، أَكَّدَ اللَّهُ أَمْرَ الْقِبْلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿الْحَقُّ﴾ الَّذِي أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْقِبْلَةِ نَازِلٌ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ الْلطِيفُ، بَلِ الْمُتَفَضَّلُ عَلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ فِيهِ ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وَالشَّاكِّينَ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ نَهْيِهِ نَهْيَ أُمَّتِهِ عَنِ الْاِمْتِرَاءِ، مِنْ بَابِ (إِيَّاكَ أَعْنِي) وَأَسْمَعِي يَا جَارَةَ) وَمَرَجَعَ نَهْيِهِمْ عَنْهُ أَمْرُهُمْ بِضِدِّهِ الَّذِي هُوَ الْيَقِينُ وَطُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ.

قِيلَ: إِنَّ الْحَقَّ مَفْعُولٌ لِيُغْلَمُونَ، وَمَنْصُوبٌ بِهِ.

إِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْرَفَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بَيِّنَاتٌ جَمِيعٌ شَخْصَاتِهِ؛ مِنْ صِفَاتِهِ، وَصُورَتِهِ، وَشِمَائِلِهِ، وَاسْمِهِ، وَاسْمِ أَبِيهِ، وَأُمِّهِ، وَنَسَبِهِ، وَقَبِيلَتِهِ، وَزَمَانِ ظُهُورِهِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ هُوَ ﷺ مَعْرُوفًا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِمَعْرِفَةِ الْكِتَابَيْنِ فِي أَطْرَافِ الْعَالَمِ. فَإِذَا لَمْ يُمَكِّنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِنْكَارَهُ.

٢. روح البيان ١: ٢٥٢.

١. كذا، وفي روح البيان ١: ٢٥٢ لا يشبهه عليهم كما لا يشبهه أبناؤهم.

٣. تفسير الرازي ٤: ١٢٨.

قلت: يكفي في تعريفه ﷺ بيان جُمْلَةٍ من صفاته في الْكِتَابَيْنِ مُنْصَمَةً إلى مُعْجَزَاتِهِ الْبَاهِرَاتِ الْمَشْهُورَاتِ فِي الْمَدِينَةِ وَنَوَاحِيهَا، فلم يكن لأهل الكتابِ السَّاكِنِينَ فِيهَا مَجَالٌ لِلرَّيْبِ فِي أَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ، خُصُوصاً مع التَّصْرِيحِ بِاسْمِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي التَّوْرَةِ وَاسْمِهِ أَحْمَدُ فِي الْإِنْجِيلِ، مع إخبار جمع من الكَهَنَةِ بِقُرْبِ زَمَانِ ظُهُورِهِ، أو ظهوره<sup>١</sup>.

وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُهَا فَاسْتَطَبُّوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً  
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١٤٨]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى قَرَّبَ أَمْرَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْأَذْهَانِ، وَرَفَعَ اسْتِعَادَ تَخْصِيصِ الْمُسْلِمِينَ بِوُجُوبِ التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ﴾ من الْأُمَمِ، وَلَايٍ مَلَّةٍ مِنَ الْمَلَلِ ﴿وَجْهَةٌ﴾ مَعِينَةٌ، وَقِبْلَةٌ مَخْتَصَةٌ مَقْرَرَةٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ﴿هُوَ مُوَلِّيُهَا﴾ إِيَّاهُمْ، وَأَمَرَ بِالتَّوَجُّهِ وَالاسْتِيقْبَالَ إِلَيْهَا كُلِّهْمَا. بل قال بعض: إِنَّ لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَيْضاً قِبْلَةً خَاصَّةً بِهِمْ: الْعَرْشُ قِبْلَةُ الْحَمَلَةِ، وَالْكُرْسِيُّ قِبْلَةُ الْبَرَّةِ، وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورُ قِبْلَةُ السُّفَرَةِ<sup>٢</sup>.

وقال آخر: الْعَرْشُ قِبْلَةُ الْمُقْرَبِينَ، وَالْكُرْسِيُّ قِبْلَةُ الرُّوحَانِيِّينَ، وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورُ قِبْلَةُ الْكَرَّوْبِيِّينَ، وَالْحَقُّ قِبْلَةُ الْمُتَحَرِّرينَ، حَيْثُ قَالَ: ﴿أَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَشَمُّ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ قِبْلَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْكَعْبَةُ قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ<sup>٣</sup>. فَأَمَرُ الْقِبْلَةَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ، وَالْعِبَادَةُ وَالْإِنْقِيَادُ رَاجِعٌ إِلَى الْعِبَادِ.

إِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ ﴿فَاسْتَطَبُّوا﴾ وَتَسَارَعُوا أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَى ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ وَالطَّلَاعَاتِ وَمُوجِبَاتِ الْمُتَوَاتِرَاتِ الَّتِي مِنْهَا التَّزَامُ التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ وَالصَّلَاةِ إِلَيْهَا.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ مِنْ أَطْرَافِ الْعَالَمِ تُصَلُّونَ ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ وَيَجْمَعُ صَلَواتِكُمْ إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الْكَعْبَةُ، عَلَى مَا قِيلَ<sup>٤</sup>. أَوْ أَيْنَمَا مَثَّمٌ مِنَ الْبِلَادِ يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ إِلَى الْمَحْشَرِ فَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ جَمْعِكُمْ فِي الْمَحْشَرِ، وَجَمَعَ أَعْمَالَكُمْ وَتَأْوِيدَةً مَا تَسْتَحِقُّونَ مِنْ

٢. تفسير الرازي ٤: ٩٥. ٣. تفسير الرازي ٤: ١٣١.

١. كذا، والظاهر أو بظهوره.

٤. تفسير أبي السعود ١: ١٧٧.

الثواب ﴿قَدِيرٌ﴾.

عن (الاكمال) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام: «لقد نزلت هذه الآية في أصحاب القائم عليه السلام وإنهم المفتقدون من قُرُشِهِمْ لِبِلَاءٍ، فَيُصْبِحُونَ بِمَكَّةَ، وَبَعْضُهُمْ يَسِيرُ فِي السُّحَابِ نَهَاراً، نَعْرِفُ اسْمَهُ وَاسْمَ أَبِيهِ وَاسْمَ جَلِيلِيهِ وَنَسَبِهِ»<sup>١</sup>.

وقرب منها روايات محمولة على بيان التأويل والبطن<sup>٢</sup>.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ  
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ \* وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ  
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ  
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ  
تَهْتَدُونَ [١٤٩ و ١٥٠]

ثم أنه تعالى لتأكيد أمر القبلة وبيان أنه لا يوجب اختلاف مكان المصلي تغييراً فيه، وأنه أبدي لا يطرؤه النسخ، كرّر الحكم بقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يا نبي الرحمة، وإلى أي مكان سافرت ﴿قَوْلٌ وَاصْرِفْ وَجْهَكَ﴾ حال صلاحك ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وجانيه، واعلم في هذا التولي باله ﴿لِلْحَقِّ﴾ الموافق للحكمة والمصلحة، الثابت ﴿مِنْ﴾ قيل ﴿رَبِّكَ﴾ لا يطرؤه التغيير والنسخ أبداً.

ثم أردف الله التأكيد بالوعيد والطاعة والمخالفة بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من التزامكم بامثال أمره، وتجرّيكم عليه بعصيانه، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم كرّر سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أيها الرسول ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. قيل: في تكرار الحكم في الآيات الثلاث فوائد:

١. اكمال الدين: ٢٤/٦٧٢، تفسير العياشي ٢: ٢٢٤/١٦٦، تفسير الصافي ١: ١٨٣.

٢. راجع البرهان في تفسير القرآن ٢: ٢٠ - ٣١.



منها: أن في الآية الأولى - وهي قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾<sup>١</sup> - بيان حُكْم أهل المسجد، وفي الآية الثانية بيان حُكْم أهل المدينة، وفي الثالثة بيان حُكْم مَنْ كان في خارج المدينة وأقطار العالم. ومنها: أن المرة الأولى تَوْطئة لبيان أن أهل الكتاب يعلمون أن أمر نبوة محمد ﷺ وأمر القبلة حق. والمرة الثانية لبيان أن الله يعلم أنه الحق، والمرة الثالثة لبيان ذكر عِلِّله، فلا خِلاف الفوائد حَسَن التكرار.

ومنها: أن في المرة الأولى بيان حُكْم القبلة، وفي الثانية التنبية على أنه ليس لِمُخْضِرٍ رِضاك بغير ملاحظة صلاح فيه، بل لعلم الله بأنه الحق وذو صلاح تام. وفي الثالثة بيان دوام هذا الحُكْم، بحيث لا يتطرق إليه الشُّخ.

وقيل: إن في المرة الأولى إشارة إلى أن أحد عِلَل التحويل حب النبي ﷺ إياها من حيث إنها قِلة إبراهيم ﷺ وأشرف بقاع الأرض، ومورد توجه العرب.

وفي الثانية إشعار بأن لكل صاحب دعوة وشريعة قِلة مخصصة، فاختر الله لهذه الأمة التي هي أفضل الأمم أشرف البقاع والجهات.

وفي الثالثة دلالة على أن فيه قُطْع حُجَج اليهود والمُشْرِكِينَ<sup>٢</sup> حيث قال: ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَعَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ واعتراض، حيث إن مُشْرِكِي العرب كانوا يقولون إن محمداً ليس على ملة إبراهيم ﷺ إذ قِلة إبراهيم ﷺ بيت الكعبة وقِلة محمد ﷺ بيت المقدس، وإن اليهود كانوا يقولون: إن النبي الموعود من صفاته أنه يُصَلِّي إلى الكعبة بعد أن كان يُصَلِّي إلى الصخرة، فلو دُثِم على الصلاة إلى بيت المقدس صِرْتُمْ مُلْزَمِينَ بِحُجَّةِ الْفَرِيقَيْنِ. وكان يَقَعُ الطَّعَنُ في نبوة محمد ﷺ ودينه، فبتغيير القِلة انْقَطَعَت مقالات الناس<sup>٣</sup>.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفسهم وعاندوا الدين الحق من مُشْرِكِي العرب الذين يقولون: بدا لمحمد فرجع إلى قِلة آبائه، فثبوت أن يرجع إلى دينهم. ومن اليهود الذين يقولون: إن محمداً ما ترك قِبلتنا إلا حُباً لَبَنَدِهِ، وميلاً إلى دين قومه، ولو كان على الحق لَلَزِمَ قِلة الأنبياء ولم يُعْرِض عنها. ومن الواضح أن هذه الأباطيل غير لائقة للجواب، وإطلاق الحُجَّة عليها تهكُّم أو جري على اعتقادهم حيث إنهم يسوقونها مساقها.

وعن القمي عليه السلام: إن (إلا) هاهنا بمعنى ولا<sup>١</sup>.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخافوا من طغيهم عليكم، فإنه لا يضرهم شيئاً ﴿وَأَخْشَوْنِي﴾ في مخالفة أمري، وأحذروا عقابي في عُدولكم عما أُلزمتكم عليه من التوجه إلى بيتي.

ثم ذكر لتحويل القبلة علة ثانية بقوله: ﴿وَلَا تَيْمَّ﴾ بالتحويل ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ حيث وجهتكم إلى القبلة الوسط بعدما أنعمت عليكم بنبي وسط، وجعلتكم أمة وسطاً.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «تَمَامُ النِّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ»<sup>٢</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «تَمَامُ النِّعْمَةِ الْمَوْتُ عَلَى الْإِسْلَامِ»<sup>٣</sup>.

أقول: أتم النعم نعمة الولاية، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾<sup>٤</sup> والتلازم بين دخول الجنة والاسلام الحقيقي والولاية واضح، وأمر القبلة بعض مَتَمَّاتِ النعم.

قيل: إن المسلمين كانوا يفتخرون باتباع إبراهيم عليه السلام أصولاً وفروعاً، فلما أمروا بالتوجه إلى بيت المقدس حصل الإنكسار والضعف فيهم والتكدر في قلوبهم، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وآله يُحِبُّ التَّحَوُّلَ إلى الكعبة، فبالتحويل تمت النعمة بالنسبة والإضافة<sup>٥</sup>.

ثم ذكر الله تعالى العلة الثالثة بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ بالاهتداء إلى التوجه إلى الكعبة «تَهْتَدُونَ» إلى ما فيه خيركم وصلاحتكم وحسن عاقبتكم.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ  
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ \* فَادْكُرُونِي أذكركم وأشكروا لي

وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥١ و ١٥٢)

ثم أنه تعالى بعد ما ذكر أن في تغيير القبلة إتمام النعمة، بين أنه في التمامية لإرسال الرسول بقوله: ﴿كَمَا﴾ أنمنا عليكم النعمة حيث ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ عظيم الشأن كائناً «مِنْكُمْ» جنساً ونسباً حتى يكون لكم شرفاً، وهو ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على نبوته التي هي مبدأ جميع الخيرات الدنيوية والأخروية.

٢. كنز العمال ٢: ١٧/٢٩٦٥، تفسير الصافي ١: ١٨٤.

٤. المائدة: ٣/٥. ٥. تفسير الرازي ٤: ١٤١.

١. تفسير القمي ١: ٦٣، تفسير الصافي ١: ١٨٤.

٣. تفسير الرازي ٤: ١٤١، تفسير الصافي ١: ١٨٤.

﴿وَيُزَكِّيْكُمْ﴾ بترقيته ويطهر نفوسكم من رذائل الأخلاق بتقوية عقولكم وتضعيف شهواتكم الحيوانية، وترهيدكم عن الدنيا وزينتها، وقطع علائقكم عنها، حتى تكونوا باتباعه مهتدين من النواقص الأخلاقية، مهتدين عن الأهول، المنسلطين، من بسيت ادبرت من بسيم.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ المجيد والقرآن الحميد. وفيه إشارة إلى أن تعليم حقائقه ودقائقه بعد تلاوته نعمة فوق نعمة، وفي تقديم التزكية هنا على التعليم إشعاراً بتقديم التخليّة على التخليّة، وبأنها العلة الغائية، وهي مقدم في القصد واللساط ومؤخر في الوجود والفعل، ولذا أخرت في دعوة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْحِكْمَةَ﴾ قيل: هو العلم بأحكام الشريعة<sup>١</sup> ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ بطريق الوحي ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من العلوم بغيره، ولا سبيل لكم إلى إدراكه واستكشافه.

وقيل: إن التشبيه راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ فعلى هذا يكون المعنى على ما قيل: كما ذكرتكم بإرسال الرسول فاذكروني بالطاعة والانقياد ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب. أو فاذكروني بقلوبكم أذكركم برحمتي. أو اذكروني بالدعاء أذكركم بالاجابة. أو اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات. أو اذكروني بمجاهدتي أذكركم بهدايتي. أو اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص. أو اذكروني بالربوبية أذكركم بالرحمة والعبودية.

عن الصادق عليه السلام في حديث: «يا عيسى، اذكروني في نفسك أذكرك في نفسي، واذكروني في ملكك اذكرك في ملاخيخ من ملا الأدميين»<sup>٢</sup>.

وعن (العباشي) عن الباقر عليه السلام قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله: إِنَّ الْمَلِكَ يُنْزِلُ الصَّحِيفَةَ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ وَأَوَّلَ اللَّيْلِ يَكْتُبُ فِيهَا عَمَلَكُمْ، فَاْمَلُوا فِي أَوَّلِهَا خَيْراً وَفِي آخِرِهَا خَيْراً، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ [لكم] مَا بَيْنَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: ﴿أَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾»<sup>٣</sup>.

وعنه عليه السلام: «ذَكَرَ اللَّهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ، أَلَا تَرَى إِنَّهُ يَقُولُ: ﴿أَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾»<sup>٤</sup>.  
وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «اذكروا الله في كل مكان فإنه معكم»<sup>٥</sup>.

٢. الكافي ٢: ٣٦٤، تفسير الصافي ١: ١٨٤.

١. تفسير الرازي ٤: ١٤٣.

٣. تفسير العياشي ١: ٢٢٥/١٦٧، تفسير الصافي ١: ١٨٤.

٤. في تفسير القمي: لأهل الصلاة أكبر، وفي تفسير الصافي: لأهل الطاعة أكبر.

٥. تفسير القمي ٢: ١٥٠، تفسير الصافي ١: ١٨٤. ٦. الخصال: ١٠/٦١٣، تفسير الصافي ١: ١٨٤.

قال لقمان لابنه: يا بني، إذا رأيت قوماً يذكرُونَ الله تعالى فاجلس معهم، فإنك إن تكلّمَ عالمًا يتفكّرَ علمك. وإن تكلّمَ جاهلاً علّموك. ولعلّ الله يطلّع عليهم برحمته فيصيبك معهم<sup>١</sup>.

في أنسام ذكر الله قيل: الذكرُ قد يكونُ باللسان، وقد يكونُ بالقلب، وقد يكونُ بالجوارح. فالذكرُ باللسان: وأنواعه أن يَخْمَدوه وَيُسَبِّحوه وَيُحْمَدوه وَيَقْرَأُوا كتابه. والذكرُ بالقلبِ على ثلاثة أنواع:

أحدها: أن يتفكّروا في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته، ويتفكّروا في الجواب عن الشبهة العارضة في ملك الله<sup>٢</sup>.

وثانيها: أن يتفكّروا في الدلائل الدالة على كيفية تكاليفه وأحكامه، وأوامره ونواهيه ووعدته وعيده، فإذا عرّفوا كيفية التكليف وعرفوا ما في الطاعة من الوعد وفي تركها من الوعيد سهّلت عليهم.

وثالثها: أن يتفكّروا في أسرار مخلوقات الله تعالى حتّى تصيرَ كلّ ذرّة من ذرات المخلوقات كالمرآة المجلّوة المحاذية لعالم القدس، فإذا نظر [العبد] إليها انعكس شعاعُ بصره منها إلى عالم الجلال، وهذا المقام مقام لا نهاية له.

وأما الذكر بالجوارح فهو أن تكون جوارحهم مُستَغْرِقة في الأعمال التي أمروا بها، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها. وعلى هذا الوجه سمّى الله تعالى الصلاة ذكراً، بقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾<sup>٣</sup> فالأمر في قوله: ﴿اذْكُرُونِي﴾ مُتَضَمِّن لجميع الطاعات.

كما نقل عن سعيد بن جبّير، أنّه قال في تفسيره: اذكُرُونِي بِطَاعَتِي<sup>٤</sup>.

ثم أنّه تعالى بعد الأمر بالذكر الذي هو بأحد الوجوه أهمّ العبادات وروحها، أمر بالشكر بقوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ على جميع نعمي، ظاهرة كالصحة والأمنية وغيرها. وباطنية: كإرسال الرسول والهداية إلى الدين القويم والطريق المستقيم الذي منها تحويل القبلّة.

وهذا أمرٌ بجميع الطاعات، فإنّ من الشكر القيام بالواجبات، والاهتمام بترك المحرّمات، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «شكر كلّ نعمةٍ الورع عن محارم الله<sup>٥</sup>». وأقلّ مراتب الشكر ثناؤه تعالى

١. تفسير روح البيان ١: ٢٥٧. ٢. في تفسير الرازي: الشبهة القادحة في تلك الدلائل.

٣. الجمعة: ٩/٦٢. ٤. تفسير الرازي ٤: ١٤٣، تفسير روح البيان ١: ٢٥٦.

٥. في الخصال وتفسير الصافي: عمّا حرّم. ٦. الخصال: ٥٠/١٤، تفسير الصافي ١: ١٨٥.

وَحَمْدُهُ.

كما عن (العباشي): عن الصادق عليه السلام أنه سئل: هل للشكر حد إذا فعله الرجل كان شاكرًا؟ قال: «نعم». قيل: وما هو؟ قال: «الْحَمْدُ لله على كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا عَلَيَّ، وإن كان له فيما أَنْعَمَ به عليه حَقٌّ أَدَّاهُ، ومنه قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام في رواية: «عند النعمة الشكر فريضة»<sup>٢</sup> الخبر.

وإنما لم يُقَلَّ: اشكروني، لما في قوله: ﴿اشْكُرُوا لِي﴾ إشعارًا باختصاص الشكر به تعالى، وعدم استحقاق غيره له، لأن جميع النعم بفضلِهِ ومُتَّهِيَّةٌ إليه.

ثم لتأكيد ذلك الأمر نهى عن زيده بقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُون﴾ نعيي بخجلها، وعصيان أمري، بل عليه يكون ترك الشكر كفرًا.

وقيل: إن المراد لا تكفرون بي، ولا تجحدون وحدانيتي وألوهيتي، وإنما خص الكفر به تعالى بالنهاي عنه، للتنبيه على أنه أعظم قباحة بالنسبة إلى كفر نعمة<sup>٣</sup>.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ [١٥٤ و ١٥٣]

ثم لما كان حقيقة شكره وهو تذكر نعمة والقيام بجميع أوامره وترك ارتكاب جميع منهياته شاقًا على النفوس وثقيلًا على الطباع، أمر بالصبر والتوجه إلى عظمته وسعة رحمته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ على طاعة الله والتوكل عن محاربه وأداء حق شكره ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على تحمل مشاق الأمور ويكف النفس عن مخالفة أحكام الله واتباع الشهوات، فإن قوة تحمل المشاق من غير جزع واضطراب ذريعة إلى فعل كل خير، ومبدأ كل فضل.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ»<sup>٤</sup>.

وقال: «الصَّبْرُ خَيْرٌ كُلِّهِ، فَمَنْ تَحَلَّى بِحِلْيَةِ الصَّبْرِ سَهَّلَ عَلَيْهِ الْقِيَامَ بِالطَّاعَاتِ، وَالاجْتِنَابَ عَنِ

١. تفسير العياشي ١: ٢٢٦/١٦٧، تفسير الصافي ١: ١٨٥، والآية من سورة الزخرف: ٤٣/١٣.

٢. الخصال: ١٧/٨٦، تفسير الصافي ١: ١٨٥.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٥٦.

٤. الكافي ٢: ٣/٧٢، تفسير روح البيان ١: ٢٥٧.

الْمُنْكَرَاتِ، وَتَحْمِلُ الْبَلَايَا وَالْمُصِيبَاتِ»<sup>١</sup>.

عن النبي ﷺ في حديث: «ثم ينادي مُنَادٍ: أَيْنَ أَهْلُ الصَّبْرِ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ يَسِيرُونَ سِرَاعاً إِلَى الْجَنَّةِ فَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ: إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعاً إِلَى الْجَنَّةِ، فَمَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الصَّبْرِ. فَيَقُولُونَ: مَا كَانَ صَبْرُكُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا نَصْبِرُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَنَصْبِرُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ. فَيَقَالُ لَهُمْ: أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ»<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام<sup>٣</sup> في رواية: «عند البلاء من الله الصبرُ فَرِيضَةٌ»<sup>٤</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالصَّبْرِ هُنَا، الصَّبْرُ عَلَى الصَّوْمِ<sup>٥</sup>.

ثم لما كان التوجه إلى الله وحضور القلب عنده في الصلاة أكمل وأتم، أمر بالاستيعانة بها بقوله: ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ التي روي أنها معراج المؤمن<sup>٦</sup>، وقربان كل تقي<sup>٧</sup>، وأنها الناهية عن الفحشاء والمنكر<sup>٨</sup>.

وعنه عليه السلام<sup>٩</sup>: كان إذا حزبه<sup>١٠</sup> أمرٌ فزع إلى الصلاة، وتلا هذه الآية<sup>١١</sup>.

ثم لما كان الصبر على الطاعة متضمناً للاهتمام بالصلاة والقيام بسائر العبادات أكد الأمر بالاستيعانة به بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالتوفيق وإجابة الدعوة والنصرة على الأعداء.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالصَّبْرِ فِي آيَةِ الصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ بِشَهَادَةٍ إِرَادِيَةٍ بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وجهاد أعدائه ونصرة دينه وإعلاء كلمته، أنهم «أَمْوَاتٌ» مُنْقَطِعُو الْأَثَرِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْمَيِّتَ لَا يَبْقَى مِنْهُ أَثَرٌ «بَلْ» هُمْ «أَحْيَاءٌ» حيث إنهم أحيوا دين الإسلام وسنة الجهاد، فَمَا دَامَ الْإِسْلَامُ بَاقِيًا فِي الدُّنْيَا، أَثَارَهُمْ بَاقِيَةٌ وَثَوَابُ عَمَلِهِمْ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ عَنْهُمْ، لِأَنَّ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرٌ مِنْ عَمَلِهَا.

﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بِالْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ هَذَا النُّحُو مِنَ الْحَيَاةِ، حَيْثُ إِنَّهَا أَمْرٌ مَعْنَوِي لَا يَدْرِكُ إِلَّا

في عدد قتلى بدر بالعقل السليم أو بالوحي من الله وإخبار أنبيائه.

روي عن ابن عباس أنها نزلت في قتلى بدر من المسلمين، وهم يومئذ أربعة عشر وأسمائهم

رَجُلَانِ سَنَّةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ: عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٥٨.

٤. الخصال: ١٧/٨٦، تفسير الصافي ١: ١٨٥.

٦. بحار الأنوار ٨٢: ٣٠٣.

٨. كما ورد في سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩.

١٠. تفسير الرازي ٤: ١٤٥.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٥٧.

٣. في الخصال وتفسير الصافي: الباقر عليه السلام.

٥. تفسير الرازي ٤: ١٤٤.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٦/٧.

٩. حزبه الأمر: نابه واشتد عليه.

بن عبدالمطلب، وعمر بن أبي وقاص، وذو الشمالين، وعمر بن نُفَيْلَة، وعامر بن بَكْر، ومُهَجِّج بن عبد الله. ومن الأنصار سعيد بن خَيْثَمَة<sup>١</sup>، وقيس بن عبدالمُنْزِر، وزيد بن الحارث، وتميم بن الهمام، ورافع بن المُعَلَّى، وحارثة بن سُرَّاقَة، ومُعَوِّذ بن العَفْرَاء، وعوف بن العَفْرَاء وكانوا يقولون: مات فلان، ومات فلان، فَهَيَّ الله تعالى أن يقال فيهم أنهم ماتوا.

وقيل: إِنَّ الْكُفَّارَ والمنافقين قالوا: إِنَّ النَّاسَ يَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ طلباً لمرضاة محمد من غير فائدة، فنزلت هذه الآية<sup>٢</sup>.

وعن (الكافي) (والتهذيب): عن يونس بن ظبيان، عن الصادق عليه السلام أنه قال له: «ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟» قال: يقولون في حواصل طيور خضر في قناديل تحت العرش.

فقال عليه السلام: «سُبْحَانَ الله المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير يا يونس، إذا كان ذلك أتاها محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والملائكة المقربون، فإذا قبضه الله تعالى صير تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون، فإذا قِيم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت له في الدنيا»<sup>٣</sup>.

وعن (التهذيب): عنه عليه السلام أنه سُئِلَ عن أرواح المؤمنين فقال: «في الجنة على صور أبدانهم، لو رأيته لقلت: فلان»<sup>٤</sup>.

نسي بيان حال أقول: ظهر أن المراد من الحياة في الآية هي الحياة البرزخية، التي عبارة عن تعلق المؤمن في البرزخ الروح بالجسد المثالي الذي هو جُزْءٌ من هذا الجسد الدنيوي، في عالم البرزخ الذي هو عالم بين العالمين، كما دلَّت عليه الأخبار المتواترة، وضرورة المذهب أو الدين. وإنما اختص هذه الحياة بالشهداء والمؤمنين مع كونها للكفار والعصاة أيضاً؛ لأن حياة الشهداء مقرونة باللذة والنعمة والبهجة والكرامة دون حياة غيرهم، حيث إنها مقرونة بالعذاب والتعاسة، فكأنها ليس بحياة، كما قال تعالى في حق أهل النار: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾<sup>٥</sup>.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

١. في النسخة: سعيد بن خثيمة، وما أثبتناه من تفسير الرازي.

٢. تفسير الرازي ٤: ١٤٥.

٣. الكافي ٣: ٦٢٤٥، التهذيب ١: ١٥٢٦/٤٦٦.

٤. التهذيب ١: ١٥٢٦/٤٦٦.

٥. في النسخة: فكأنه.

٦. طه: ٧٤/٢٠.

## وَالْتَمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [١٥٥]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لِطَوِيلِ الْعِبَادِ نَفْسَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي الْمَكَارِهِ بَعْدَ أَمْرِهِم بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، نَبِيَهُمْ عَلَى أَنْ جَمِيعِ الْبَلَايَا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ لَطْفٌ بِهِمْ وَامْتِحَانٌ لَهُمْ يَقُولُهُ: ﴿وَاللَّهُ﴾ «وَلْتَبْلُوْنَكُمْ» وَلْتَحْزِنُوْكُمْ كَمَا لَ نَفْسِكُمْ وَقُوَّةَ إِيْمَانِكُمْ «بِشْنِءٍ» قَلِيلٍ «مِّنَ الْخَوْفِ» مِنْ أَعْدَائِكُمْ «وَالْجُوعِ» الْعَارِضِ لَكُمْ بِسَبَبِ الْفَقْرِ وَالْقَحْطِ «وَتَقْصِصَ مِنَ الْأَمْوَالِ» بِالْثَّلَفِ بِالسَّرِقَةِ وَالْغَارَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ «وَالْأَنْفُسِ» بِالْقَتْلِ وَالْمَرَضِ وَالْمَوْتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآفَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ «وَالْأَلْسِمَاتِ» وَحَاصِلِ الْأَشْجَارِ وَالزَّرْعِ بِالْجَذْبِ وَسَائِرِ الْآفَاتِ.

قِيلَ: فِي تَوْصِيفِهَا بِالْقَلَّةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهَا وَإِنْ كَثُرَتْ فَقَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَوْقَهَا.<sup>١</sup>  
وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْخَوْفِ خَوْفُ اللَّهِ، وَمِنَ الْجُوعِ الصِّيَامُ، وَمِنَ نَقْصِ الْأَمْوَالِ الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَاتُ، وَمِنَ نَقْصِ الْأَنْفُسِ الْجِهَادُ<sup>٢</sup>، وَإِنَّمَا صَارَتْ الْبَلَايَا امْتِحَانًا لِأَنَّ الْإِحْلَاصَ حَالَ الْبَلَاءِ لِلْمُؤْمِنِ أَكْثَرَ مِنَ الْإِحْلَاصِ حَالَ الرَّفَاهِ وَالرِّخَاءِ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لِازْدِيَادِ رَغْبَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّيَمُّنِ الصَّبْرِ، وَعَدَّهُمُ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ إجمالاً يَقُولُهُ: «وَبَشِّرِ» يَا رَسُولَ اللَّهِ «الصَّابِرِينَ» عَلَى الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ طَلِبًا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ بِالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ وَالنِّعَمِ الدَّائِمَةِ وَالْفَضْلِ الَّذِي لَا يَسْغُهُ الْبَيَانُ.

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي وَصِيَّةٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ، قَالَ: «أَلْقِ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهَمُومِ بِغَزَائِمِ الصَّبْرِ، وَعَوْدِ نَفْسِكَ الصَّبْرَ، فَيَنْعَمَ الْخَلْقُ الصَّبْرَ، وَأَحْمِلْهَا عَلَى مَا أَصَابَكَ مِنْ أَهْوَالِ الدُّنْيَا وَهَمُومِهَا»<sup>٣</sup>.  
وَعَنْ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ<sup>٤</sup> فِي حَدِيثٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَجُمَلَ<sup>٥</sup> بِالصَّبْرِ مَعَ الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَاصْبِرْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ خَيْرًا كَثِيرًا»<sup>٦</sup> الْخَيْرِ.

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: «يَا حَفْصُ، إِنَّ مَنْ صَبَرَ صَبَرَ قَلِيلًا، وَإِنْ مَنْ جَزَعَ جَزَعَ قَلِيلًا» ثُمَّ قَالَ:

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٠.

٣. لا يحضره الفقيه ٤: ٨٣٠/٢٧٦.

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٠.

٤. في المشكاة والبحار: عبدالله بن العباس.

٦. مشكاة الأنوار: ٢٠، بحار الأنوار ٧٠: ٥٢/١٨٣.

٥. في المشكاة والبحار: تعمل.



«عليك بالصَّبْرِ في جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ وَالرَّفْقِ» الخبر<sup>١</sup>.  
وعنه عليه السلام في رواية: «فَمَنْ صَبَرَ كَرْهًا وَلَمْ يَشْكُ إِلَى الْخَلْقِ وَلَمْ يَخْزَعْ بِهَنْتِكَ بَيْنَهُ فَهُوَ مِنَ الْعَامِ، وَنَصِيْبُهُ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَشَرِ الْأَصَابِرِينَ﴾» الخبر<sup>٢</sup>.

نسي أَنَّ الْبَلَاءَ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْآيَةَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْبَلَاءَ وَالرُّخَاءَ وَالنِّعْمَةَ وَالشَّدَّةَ كُلُّهَا مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ الْمَصِيبَةَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمُصِيبَةَ مِنَ أَلْطَافِهِ تَعَالَى بِالْمُؤْمِنِ؛ لِأَنَّهُ مَقْدَمَةٌ لِلصَّبْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْضَلِ أَلْطَافِ اللَّهِ بِالْمُؤْمِنِ الصِّفَاتِ وَأَكْمَلِ الْخِصَالِ وَالْمَلَكَاتِ لِلنَّفْسِ.

روي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ، فَإِذَا صَبَرَ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ تَزَوُّلِ الشَّدَائِدِ كَانَ لَهُ دَرَجَاتٌ» الخبر<sup>٣</sup>.

نعم، قد يكون كَفَّارَةً لِلْسَّيِّئَاتِ كَمَا رَوَى عَنْ (النهج) «أَنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ؛ لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مَقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكَّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ»<sup>٤</sup>.

نسي بَيَان وَجْهِ أَفْضَلِيَةِ الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ مِنَ عَمَلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ<sup>٥</sup>، لَوْضُوحِ أَنَّهُ مُتَوَقِّفٌ عَلَى قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَشِدَّةِ الْيَقِينِ، حَيْثُ إِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاقِلَ الْبَالِغَ الْمُكَلَّفَ لَهُ قُوَّةُ شَهْوَةِ تَدْعُوهُ إِلَى اللَّذَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ الْعَاجِلَةِ وَالِاسْتِغْيَالِ بِهَا، وَقُوَّةٌ عَاقِلَةٌ تَدْعُوهُ إِلَى اللَّذَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ الْبَاقِيَةِ، وَلَوْ كَانَتْ آجِلَةً، وَالتَّجَنُّبَ عَمَّا يَصُدُّ عَنْهَا، فَإِذَا عَرَفَ الْعَقْلُ أَنَّ الْاسْتِغْيَالَ يَطْلُبُ اللَّذَاتِ الْغَايَةِ يَمْتَنِعُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى اللَّذَاتِ الْبَاقِيَةِ تَكُونُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ صَادَّةً وَمَانِعَةً لِدَاعِيَةِ الشَّهْوَةِ، فَيُسَمَّى ذَلِكَ الْمَنَعُ وَالصَّدُّ صَبْرًا.

ثُمَّ مِنَ الْعَجَائِبِ، أَنَّ قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي فِي (تفسيره): إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغِذَاءَ لَا يُفْقِدُ الشَّيْءَ، وَشُرْبُ الْمَاءِ لَا يُفْقِدُ الرَّيَّ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِمَا أُجْرِيَ اللَّهُ الْعَادَّةُ بِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ صَرِيحٌ فِي إِضَافَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ، انْتَهَى<sup>٦</sup>.

١. الكافي ٢: ٣/٧١، بحار الأنوار ٩: ٦٦/٢٠٢. ٢. مصباح الشريعة: ١٨٦، تفسير الصافي ١: ١٨٥.

٣. تفسير الرازي ٤: ١٤٩، إلى قوله: شكر.

٤. نهج البلاغة: ١٩٩ الخطبة ١٤٣، تفسير الصافي ١: ١٨٦. ٥. بحار الأنوار ٧٦: ١٦.

٦. تفسير الرازي ٤: ١٥٣.

وفيه من الوهن ما لا يخفى، إذ يكفي في إضافة هذه الأمور إليه تعالى على وجه الحقيقة، إضافة إيجاد أسبابها إليه. وأما قوله: إن إضافتها بواسطة الأسباب إليه مجاز لا يصار إليه إلا بعد تعدد الحقيقة، فممنوع أشد المنع، لو صرح كون إسناد الكتابة التي تحصل بتوسط القلم إلى الكاتب الشاعر المختار حقيقة عند العرف. نعم، لو كان الواسطة فاعلاً عاقلاً مختاراً، أمكن أن يكون الإسناد إلى غير المباشر مجازاً، كإسناد فتح البلد إلى الأمير.

### الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [١٥٦]

ثم أنه تعالى وصف الصابرين بأنهم ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ﴾ ووصلت إليهم ﴿مُصِيبَةٌ﴾ وبليّة وكرهية ﴿قَالُوا﴾ تسكيناً لقلوبهم، وتسهيلاً لتحملها على أنفسهم ﴿إِنَّا﴾ مملوكون ﴿لِلَّهِ﴾ مخلوقون بقدرته، مهرورون تحت إرادته، متقلبون في قبضته بمشيئته ﴿وَأَنَّا﴾ بعد الموت والخروج من هذه الدنيا الغاية ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ورحمته وقدرته وسلطانه ﴿رَاجِعُونَ﴾ كما كنا قبل ولاذينا ودخلنا في تكفل الآباء تحت قدرته وسلطته، لم يكن لأحد علينا في العوالم السابقة من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات تصرف وتبدير وإرادة وتقدير، بل كنا نتقلب وتعيش فيها بالعيش المناسب لها بمشيئته وحكمته وقضائه وقدره.

ففي الجملة الأولى إقراراً بالمبدأ، وفي الثانية: بالمعاد. ولا ريب أن معرفتهما من أكمل المسكنات للقلب عند نزول ما يشق عليه تحمله، ورؤية ما لا يلائم طبعه، حيث إن العبد إذا عرف أنه لا وجود له إلا بإفاضة الله، ولا إرادة له عند إرادته، ولا تصرف له في شيء من أموره، ولا معرفة له بمصالحه ومقاصده، وأن هذه الحياة الدنيا منقطعة، ونعمها زائلة، وأنه منتقل منها إلى دار الجزاء وعالم البقاء، رضي برضا الله، وسلم الأمر إليه، وهان عليه جميع ما يرد عليه من البلايا والمكاره.

عن ابن مسعود رضي الله عنه: لئن أجزئ من السماء أحب إلي من أن أقول في شيء قضاء الله: لئن لم يكن<sup>١</sup>. وروي أنه كلما اشتد الأمر على الحسين بن علي عليه السلام في يوم الطف أشرق وجهه سروراً<sup>٢</sup>. وأن حبيب بن مظاهر كان يضحك في ذلك اليوم. فقيل له في ذلك، فقال: أي موضع أحق بالسرور من

هذا الموضع والله ما هو إلا أن يُقِيلَ عَلَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بِأَسْبَافِهِمْ، ثُمَّ تُعَانِقُ الْحُورُ الْعَيْنُ.<sup>١</sup>  
وعن سعيد بن جبير، قال: ما أُعْطِيَ أَحَدٌ فِي الْمُصِيبَةِ مَا أُعْطِيَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ - يعني الاسترجاع - وَلَوْ  
أَعْطِيَهُ أَحَدٌ لِأَعْطِي يَعْقُوبَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِهِ فِي قِصَّةِ يُوْسُفَ «يَا أَسْفَى عَلَى يُوْسُفَ»؟<sup>٢</sup>  
عن النبي ﷺ أَنَّهُ طَفِقَ سِرَاجَهُ فَقَالَ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» فَقِيلَ: «أَمْصِيبَةُ [هِيَ]؟» قَالَ: «نَعَمْ، مَا<sup>٣</sup>  
يُؤْذِي الْمُؤْمِنَ فَهُوَ لَهُ مُصِيبَةٌ».<sup>٤</sup>

### أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [١٥٧]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا يُبَشِّرُ بِهِ الصَّابِرُونَ تَفْضِيلًا بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ» الصَّابِرُونَ الْمُسْتَرْجِعُونَ «عَلَيْهِمْ  
صَلَوَاتٌ» كَثِيرَةٌ وَعَطُوفَاتٌ خَاصَةٌ مُتَتَالِيَةٌ كَانَتْ «مِنْ رَبِّهِمْ» وَمَلِيكَهُمْ لِلطَّيْفِ بِهِمْ «وَرَحْمَةٌ»  
عَظِيمَةٌ دَائِمَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ، وَهِيَ شَامِلَةٌ لِإِبْصَالِ جَمِيعِ الْمَسَارِّ إِلَيْهِمْ، وَدَفْعِ جَمِيعِ الْمَضَارِّ عَنْهُمْ فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ «وَأُولَئِكَ» الْمُكْرَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ «هُمُ» بِالْخُصُوصِ «الْمُهْتَدُونَ» إِلَى كُلِّ حَقٍّ  
وَصَوَابٍ وَخَيْرٍ وَفَلَاحٍ، الْمُرْشَدُونَ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ وَطَرِيقِ الْجَنَّةِ وَالنِّعَمِ الدَّائِمَةِ.  
عن ابن عباس، قال: أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا سَلَّمَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَجَعَ وَاسْتَرْجَعَ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ كَتَبَ  
اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ، وَالرَّحْمَةُ، وَتَحْقِيقُ سَبِيلِ الْهُدَى.<sup>٥</sup>  
عن (الخِصَالِ) وَ(الْعِبَاشِيِّ) عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ): «أَرْبَعُ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ، كَانَ فِي نَوْرِ  
اللَّهِ الْأَعْظَمِ: مَنْ كَانَ عَصَمَةً أَمْرِهِ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَمَنْ [إِذَا] أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ قَالَ:  
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَمَنْ إِذَا أَصَابَ خَيْرًا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَمَنْ إِذَا أَصَابَ خَطِيئَةً قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ  
وَأَتُوبُ إِلَيْهِ».<sup>٦</sup>

وعن (الكافي): عَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَسْتَرْجِعُ عِنْدَ ذِكْرِهِ الْمُصِيبَةَ وَيَصْبِرُ  
حِينَ يَفْجَعُ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَلَّمَا ذَكَرَ مُصِيبَتَهُ فَاسْتَرْجَعَ عِنْدَ ذِكْرِ الْمُصِيبَةِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ

١. رجال الكشي: ١٣٣/٧٩.

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦١، والآية من سورة يوسف: ٨٤/١٢.

٣. في تفسير الرازي: نعم كل شيء.

٤. تفسير الرازي ٤: ١٥٥.

٥. زاد في الخصال: رب العالمين.

٦. تفسير الرازي ٤: ١٥٥.

٧. الخصال: ٤٩/٢٢٢، تفسير العياشي ١: ٢٣٤/١٦٩.

كُلِّ ذَنْبٍ [اِكْتَسَبَ] فِيمَا بَيْنَهُمَا<sup>١</sup>.

وعن (الخصال) و(العياشي): عن النبي ﷺ: قال الله تعالى: «إِنِّي جَعَلْتُ الدُّنْيَا بَيْنَ عِبَادِي قَرْضًا، فَمَنْ أَقْرَضَنِي مِنْهَا [قَرْضًا] أُعْطِيَتْهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَا شِئْتُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ لَمْ يَقْرَضْنِي [مِنْهَا قَرْضًا] فَأُحْذِثُ مِنْهُ قَسْرًا أُعْطِيَتْهُ ثَلَاثُ خِصَالٍ، لَوْ أُعْطِيَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ مَلَائِكَتِي لَرُضُوا: الصَّلَوَاتُ، وَالْهَدَايَةُ، وَالرَّحْمَةُ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ» إِلَى آخِرِهِ<sup>٢</sup>.

وفي رواية عن النبي ﷺ: «أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الْبُلْوَى، يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ، وَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ، يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا، ثُمَّ قَرَأَ «إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»<sup>٣</sup>.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ [١٥٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي صَلَاتِهِمْ، وَاتِّبَاعَ مَلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قِيْلَتِهِ، أَمْرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي اتِّبَاعِ شَيْئِهِ الْأُخْرَى بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ» وَهُمَا جَبَلَانِ بِمَكَّةَ. قِيلَ: سُمِّيَ أَحَدُهُمَا بِالصَّفَا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَيْهِ آدَمُ صَفِيٌّ لِلَّهِ، وَالْأُخْرَى بِالْمَرْوَةِ لِأَنَّهُ جَلَسَتْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ حَوَاءُ<sup>٤</sup>.

«مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» وَأَعْلَامَ مَنَاسِكَهَ وَطَاعَتِهِ. قِيلَ: مَا بَيْنَهُمَا قَبْرُ سَبْعِينَ أَلْفَ نَبِيٍّ<sup>٥</sup>.  
«فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ» وَقَصَدَهُ «أَوْ اعْتَمَرَ» وَزَارَهُ لِلتَّشْكِينِ الْمَعْرُوفِينَ. رَوَى أَنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ عِلْمَانِ كَالنَّجْمِ وَالْبَيْتِ فِي الْأَعْيَانِ<sup>٦</sup>.  
«فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ» وَلَا إِثْمَ لَهُ فِي «أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» وَأَنْ يَدُورَ وَيَسْعَى بَيْنَهُمَا.

١. الكافي ٣: ٢٢٤/٥. ٢. في الخصال والعياشي: أُعْطِيَتْ.

٣. الخصال: ١٣٥/١٣٥، تفسير العياشي ١: ٢٣٢/١٦٩.

٤. تفسير روح البيان ١: ٢٦١، والآية من سورة الزمر: ١٠/٣٩.

٥. تفسير روح البيان ١: ٢٦٢. ٦. تفسير روح البيان ١: ٢٦٣.

٧. جوامع الجامع: ٣٠.

في وجوب السعي بين الصفا والمروة، ونكتة التعبير عنه بنفي الجناح

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ أُنَ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَرِيضَةٌ أَمْ سُنَّةٌ؟ فقال: «فريضة».

قيل: أو ليس قال [الله] عز وجل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ قال: «كان ذلك في عُمُرَةِ الْقَضَاءِ، إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْفَعُوا الْأَصْنَامَ مِنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَتَشَاغَلَ رَجُلٌ عَنِ السَّعْيِ حَتَّى انْقَضَتِ الْأَيَّامُ، وَأُعِيدَتِ الْأَصْنَامُ، فَجَاءُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ فَلَانًا لَمْ يَسْعَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَدْ أُعِيدَتِ الْأَصْنَامُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [أَي] وَعَلَيْهِمَا الْأَصْنَامُ»<sup>١</sup>.

وعن القمي: «أَنْ قُرَيْشًا كَانَتْ وَضَعَتْ أَصْنَامَهُمْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَكَانُوا [يَتَمَسَّحُونَ بِهَا إِذَا سَعَوْا، فَلَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ مَا كَانَ، وَصَدَّوه عَنِ الْبَيْتِ، وَشَرَطُوا لَهُ أَنْ يُخْلُوا لَهُ الْبَيْتَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ حَتَّى يَقْضِيَ عُمُرَتَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهَا، فَلَمَّا كَانَتْ عُمُرَةُ الْقَضَاءِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ دَخَلَ مَكَّةَ، وَقَالَ لِقُرَيْشٍ: ارْفَعُوا أَصْنَامَكُمْ [مِنْ بَيْنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ] حَتَّى أَسْعَى فَرَفَعُوهَا» الحديث<sup>٢</sup>. كما [رواه] في (الكافي) بأدنى تَفَاوُتٍ<sup>٣</sup>.

وفي (الكافي): عنه عليه السلام: «أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يظُنُّونَ [أَنَّ] السَّعْيَ مَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ شَيْءٌ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ»<sup>٤</sup>.

قيل: إِنَّهُ كَانَ عَلَى الصَّفَا صَنْمٌ يُقَالُ لَهُ إِسَافٌ، وَعَلَى الْمَرْوَةِ صَنْمٌ يُقَالُ لَهُ نَائِلَةٌ، وَإِنَّمَا كَانَا رَجُلًا وَامْرَأَةً زَنْبًا فِي الْكَعْبَةِ فَمُسِخَا حَجَرَيْنِ، فَوُضِعَا عَلَيْهِمَا لِيُغْتَبَرَ بِهِمَا، فَلَمَّا طَالَتِ الْمُدَّةُ عُيِدَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا سَعَوْا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مَسْحُوهُمَا تَعْظِيمًا لَهُمَا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَكُتِرَتِ الْأَوْتَانُ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا لِأَنَّهُ فِعْلٌ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الطَّوَافِ بَيْنَهُمَا، وَأَخْبَرَ أَنََّّهُمَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ<sup>٥</sup>.

وروي أَنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ بَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَوْضِعَانِ مِنْ مَوَاضِعِ الْإِجَابَةِ، وَسَعْيُهُمَا يَعْدِلُ سَبْعِينَ رَقِيَةً<sup>٦</sup>.

١. الكافي ٤: ٤٣٥. ٢. تفسير القمي ١: ٦٤. ٣. راجع الكافي ٤: ٤٣٥.

٤. الكافي ٤: ٢٤٥. ٥. تفسير روح البيان ١: ٢٦٢.

٦. تفسير روح البيان ١: ٢٦٣.

في حكمة تشريع قيل في حكمة تشريع السَّعْيِ: أَنَّهُ لَمَّا اشْتَدَّ الْعَطَشُ عَلَى هَاجِرَ وَابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ، سَعَتْ السَّعْيَ بَيْنَ الصُّفَا وَالْمَرْوَةِ لَطَلَبَ الْمَاءَ، فَأَغَاثَهَا اللَّهُ بِالْمَاءِ الَّذِي أَنْبَعَهُ مِنْ زَمْزَمَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ بِالسَّعْيِ بَيْنَ الصُّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيَتَذَكَّرُوا هَذِهِ الْقِصَّةَ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ لَا يُخْلِي أَوْلِيَاءَهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَنْ الْمَحَنِّ وَالْبَلَايَا، إِلَّا أَنَّ فَرْجَهُ قَرِيبٌ مِمَّنْ دَعَاهُ، فَإِنَّهُ غِيَاثُ الْمُسْتَغِيثِينَ. فَنَظَرَ إِلَى حَالِ هَاجِرَ وَإِسْمَاعِيلَ كَيْفَ أَغَاثَهُمَا اللَّهُ، ثُمَّ جَعَلَ أَعْمَالَهُمَا طَاعَةً لَجَمِيعِ الْمَكْلُفِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

وقيل: إِنَّ ذَلِكَ تَحْقِيقٌ لِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ أَنَّهُ يَتَّكِلِي عِبَادَةَ بَشِيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ إِلَى آخِرِهِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ نَالَ السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ، وَفَارَ بِالْمَقْصِدِ الْأَعْلَى فِي الْمَنْزِلَيْنِ<sup>١</sup>.  
عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «جُعِلَ السَّعْيُ بَيْنَ الصُّفَا وَالْمَرْوَةِ مَذَلَّةً لِلْجَبَّارِينَ»<sup>٢</sup>.

قيل: فِي إِيْرَادِ التَّطَوُّفِ الَّذِي هُوَ مِنْ بَابِ التَّفَعُّلِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ مِنْ حَقِّ السَّاعِي أَنْ يَتَحَمَّلَ الْكُلْفَةَ فِي السَّعْيِ وَيَبْذُلَ جُهْدَهُ فِيهِ<sup>٣</sup>.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ وَتَبَرَّعَ بِفِعْلِ الْمُسْتَحَبَّاتِ أَوْ أَتَى بِالطَّوْعِ وَالرَّغْبَةِ عَمَلًا ﴿خَيْرًا﴾ مِنَ الْخَيْرَاتِ مِنَ السَّعْيِ الزَّائِدِ عَلَى الْقَدْرِ الْوَاجِبِ، أَوْ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الصَّالِحَاتِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ لَهُ، مُجَازٍ عَلَى عَمَلِهِ. وَفِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْجَزَاءِ بِالشُّكْرِ إِشْعَارٌ بِكَمَالِ اللَّطْفِ بِعَبِيدِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِعَمَلِهِ وَحُسْنِ نِيَّتِهِ وَمِقْدَارِ جَزَائِهِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَسَّ مِنْهُ شَيْئًا.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ \* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [١٥٩ و ١٦٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا بَيَّنَّ عِدَّةً مِنَ الْأَحْكَامِ، حَذَرَ النَّاسَ عَنْ كَيْفَانِهَا وَكَيْفَانِ كُلِّ حَقٍّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ وَيُخْفُونَ عَنْ تَعَمُّدٍ وَعِنَادٍ ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْمُؤْضِحَاتِ لِأَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ دِينِهِ، وَمِنْ ﴿الْهُدَى﴾ وَالرَّشَادِ إِلَى كُلِّ حَقٍّ وَصَوَابٍ.

٢. الكافي ٤: ٥٤٣٤.

١. تفسير الرازي ٤: ١٥٨.

٣. تفسير أبي السعود ١: ١٨١، تفسير روح البيان ١: ٢٦٣.

﴿مِنْ بَغْدٍ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ وَأَوْضَحْنَاهُ وَفَضَّلْنَاهُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ كَافَّةً، الْكَاتِمِينَ وَغَيْرِهِمْ ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ السَّمَاوِيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَغَيْرِهِمَا، بَحِثْ يَتْلَقَاهُ وَيَفْهَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شُبُهَةٌ وَرَيْبٌ

﴿أُولَئِكَ﴾ الْكَاتِمُونَ ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ وَيُبْعِدُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ فِي الدَّارَيْنِ ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ، بَلْ كُلُّ مَا يَتَأْتِي مِنْهُ اللَّغْنُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجَمَادَاتِ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَقَدَرِ شُعُورِهِمْ، بَلْ حَتَّى نَفْسِ الْكَاتِمِ حَيْثُ إِنَّهُ يَقُولُ: لَعَنَ اللَّهُ الْكَاتِمِينَ. عَنْ الْعِيَّاشِيِّ عَنِ الصَّادِقِ (ع) فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّاعِنُونَ﴾ قَالَ: «نَحْنُ هُمْ، وَقَدْ قَالُوا: هَوَامُ الْأَرْضِ»<sup>١</sup>. عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (ر) مَا تَلَا عَنْ أَثْنَانِ إِلَّا أَرْفَعَتِ اللَّعْنَةُ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ اسْتَحَقَّ أَحَدُهُمَا وَالْآخَرُ رَجَعَتْ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ (ص) <sup>٢</sup>.

عَنْ (الاحتجاج) وَ(تفسير الإمام) عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ (ع) قَالَ: «قِيلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: مَنْ خَيْرٌ خَلَقَ اللَّهُ بَعْدَ أَثَمَةِ الْهُدَى وَمَصَابِيحِ الدُّجَى؟ قَالَ: الْعُلَمَاءُ إِذَا صَلَحُوا.

قِيلَ: وَمَنْ شَرٌّ خَلَقَ اللَّهُ بَعْدَ إِبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ وَنَمُودَ؟ وَبَعْدَ الْمُتَسَمِّينَ بِأَسْمَائِكُمْ وَالتَّوَلَّيْبِينَ بِالْقَابِكُمْ وَالْآخِزِينَ لِأَمَكِيَّتِكُمْ وَالتَّاتِرِينَ فِي مَمَالِكِكُمْ؟ قَالَ: الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا، الْمُظْهِرُونَ لِلْأَبَاطِيلِ، الْكَاتِمُونَ لِلْحَقَائِقِ، فَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾»<sup>٣</sup>.

فِي حَرَمَةِ كِتْمَانِ عَنْ الْقَمِيِّ مَرْفُوعاً: عَنِ النَّبِيِّ (ص) «إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ فِي أُمَّتِي فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، الْعِلْمُ مِنَ الْمَحْتَجِ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ»<sup>٤</sup>. الْأَمِينُ

وَعَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَثِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكْتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»<sup>٥</sup>.

وَعَنِ الْعِيَّاشِيِّ عَنِ الْبَاقِرِ (ع) «إِنْ رَجُلًا أَتَى سُلَمَانَ الْفَارِسِيِّ، فَقَالَ: حَدِّثْنِي فَسَكْتُ، ثُمَّ عَادَ فَسَكْتُ، ثُمَّ عَادَ فَسَكْتُ، فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، إِنَّا لَوْ وَجَدْنَا أَمِينًا لَحَدَّثْنَاكَ، الْخَبَرُ»<sup>٦</sup>.

فَدَلَّتِ الزَّوَايَةُ عَلَى أَنَّ مُطْلَقَ الْكِتْمَانِ لَا يَكُونُ مُحَرَّمًا، بَلْ يَكُونُ مُشْرُوطًا بِكَوْنِ الطَّالِبِ أَمِينًا عَلَى

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٥.

١. تفسير العياشي ١: ٢٤٧/١٧٣.

٣. فِي الْاِحْتِجَاجِ وَتَفْسِيرِ الْاِمَامِ: وَنَمْرُودَ.

٤. الْاِحْتِجَاجُ: ٤٥٨، التَّفْسِيرُ الْمُنْسُوبُ إِلَى الْاِمَامِ الْعَسْكَرِيِّ (ع) ٣٠٢/١٤٤. ٥. الْكَافِي ١: ٢/٤٤.

٦. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ١: ٤٤٢، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ١٨٩. ٧. تَفْسِيرُ الْعِيَّاشِيِّ ١: ٢٤٤/١٧٢، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ١٨٩.

العلم، حافظاً له كما سمعته، غير مبدل ولا مُعَيَّر، وأن لا يكون في إظهار العلم ضررٌ على المُظهِر ولا على المُسْتَمِع، وأن يكون العلم ممّا يحتاج إليه السائل في عَقِيدَتِهِ وَعَمَلِهِ، بحيث يجب عليه تحصيله. ودلت الروايات أيضاً على أن حُكْم الآية عامٌ، وإن قيل أنها نزلت في رؤساء اليهود وأجبارهم<sup>١</sup>.

كما روي عن ابن عباس أنه سأل جماعة من الأنصار نفراً من اليهود عما في التوراة من صفات النبي ﷺ ومن الأحكام، فكتّموا فنزلت<sup>٢</sup>.  
وعنه أيضاً أنه قال: نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى. الخبير<sup>٣</sup> للوضوح أن خصوصية المورد لا يُخصّص عموم الحكم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا عن كفرهم، وتلّموا على كتمانهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ نيّاتهم وأعمالهم وتداركوا ما أفسدوه ﴿وَيَتَّبِعُوا﴾ للناس ما في الكتب السماوية من نُعُوتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وعلائمه. ﴿فَأُولَئِكَ﴾ التائبون الصالحون ﴿آتُوبُ﴾ وأرجع ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يقبُولُ التَّوْبَةَ وَالرَّحْمَةَ الْمَغْفِرَةَ ﴿وَأَنَا أَتُوبُ﴾ السَّريخُ الْقَبُولُ لِلتَّوْبَةِ، الْوَاسِعُ الْمَغْفِرَةُ لِلتَّائِبِينَ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ\* خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ [١٦٢ و ١٦١]

ثم لما لم تكن في الآية السابقة دلالة على استمرار اللعنة عليهم، صرح سبحانه وتعالى بكونهم ملعونين بعد الموت إذا استمروا على كفرهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبآياته وكتّموها عن الناس ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يرتدّوا عن عقائدهم الفاسدة، ولم يتوبوا من أفعالهم الشنيعة. ﴿أُولَئِكَ﴾ المُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ وَمُعَانِدَةِ الْحَقِّ، مُسْتَقَرِّرٌ عَلَيْهِمْ ﴿بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ وَطَرْدُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَرُ﴾ لعنة ﴿أُولَئِكَ﴾ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿حَتَّى الْكَفَّارُ مِنْهُمْ﴾ حيث إنهم يلعنون الكفار في الدنيا لادّعتهم أنهم ليسوا منهم، وقد أخبر الله تعالى بأن يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً.

٢. تفسير الرازي ٤: ١٦٢.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٤.

٣. تفسير الرازي ٤: ١٦٢.



وقيل: إن المراد بالناس في الآية المؤمنون منهم لأنهم المستقيمون بالإنسانية، وأما الكفار فهم كالأنعام بل هم أضل<sup>١</sup>، فاللغة مُحيطَةٌ بهم حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين ﴿فِيهَا﴾ لا خلاصَ لهم منها، فلازِم دوام اللعنة عليهم أنه ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ كيفية ولا يهون عليهم ساعة ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وَيُنْظَرُونَ لحظة.

وقيل: إن المراد أنه لا يُنظر إليهم ربهم نظر الرُحمة<sup>٢</sup>.

### وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ [١٦٣]

ثم أنه لما كان الشرك سارياً في اليهود والنصارى وغيرهم من العرب، دعا الله تعالى جميعهم بعد حاجتهم في الشبهة إلى التوحيد الخالص بقوله: ﴿وَاللَّهُمَّ﴾ ومعبودكم أو مفزعكم أيها الناس ﴿إِلَهَ وَاحِدٌ﴾ ومفزع أو معبود فاردة لا تعدد له حتى تباينوا في المقصد وتشعبوا في المسلك.

ثم قرر وحدانيته وأكدها بقوله: ﴿لَا إِلَهَ﴾ موجود ومُتَّصِرٌ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا تعبدوا إلا إياه، ولا ترجوا ولا تخافوا ما سواه.

وفي الإتيان بضمير الغائب إشعاراً بأنه تعالى من غاية إبهام ذاته وكنه صفاته، يكون غيب الغيوب وحقيقته من العقول والأوهام مستوراً ومحجوباً، لا تُدرِكُه الأبصار والقلوب، وهو يُدرِك الأبصار والألباب، ليس له دُون خَلْقِهِ سِتْرٌ ولا حِجَابٌ، محيطٌ بذرات الكائنات، قَيُّومٌ على جميع المُمكنات، فهو بذاته مع قطع النظر عن نعمه مُستَجِقٌ لأن يعبدَه جميع الموجودات.

ثم أضاف إلى استحقاقه الذاتي استحقاقه الصفاتي بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المولى بجميع النعم، أصولها وفروعها، حيث إن جميع ما سواه إما نعمة وإما منعم عليه من فضله ورحمته، فلا يستحق غيره العبادة.

روي عن أسماء بنت يزيد أنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إن في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾<sup>٣</sup>. ثم أنه روي أنه: لما قَدِم النبي ﷺ المدينة، نزلت عليه آية: ﴿اللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ﴾ فسمع [كفاراً]

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٥.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٦٥.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٦٧ والآية من سورة البقرة: ٢٥٥/٢، وآل عمران: ٢/٣.

قُرَيْشٌ فقالوا: كَيْفَ يَسْعَ النَّاسُ إِلَهَ وَاحِدًا؟ فنزل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ ۚ

وَرَوِي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانَ لَهُمْ حَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، فَلَمَّا سَمِعُوا آيَةَ ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. قالوا: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأْتِ بآيَةٍ نَعْرِفَ بِهَا صِدْقَكَ، فَنَزَلَ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ ۚ .. الآية ٢. وروى عن سعيد<sup>٣</sup> بن مسروق، قال سألت قريش اليهود، فقالوا: حدثونا بما جاءكم [به] موسى من الآيات فحدثوهم بالعصا واليَدِ الْبَيْضَاءِ، وسألوا النصارى عن ذلك فحدثوهم بإبراهيم الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

فَقَالَتْ قُرَيْشٌ عِنْدَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُوا اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصُّفَا ذَهَبًا فَتَزِدَادًا يَقِينًا وَقُوَّةً عَلَى عَدُوِّنَا فَسَأَلَ رَبَّهُ ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِنْ كَذَّبُوكَ بَعْدَ ذَلِكَ لِأَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ

فَقَالَ ﷺ «ذَرْنِي وَقَوْمِي أَدْعُوهُمْ يَوْمًا فَيَوْمًا»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ مَبِينًا لَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ أَجْعَلَ لَهُمُ الصُّفَا ذَهَبًا لِيَزِدَادًا يَقِينًا، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَائِرَ مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ أُعْظَمَ<sup>٤</sup>.

أَقُولُ: ظَاهِرُ الرِّوَايَةِ أَنَّ قُرَيْشَ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصُّفَا ذَهَبًا، كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، حَيْثُ قَالُوا: فَتَزِدَادًا يَقِينًا وَقُوَّةً عَلَى عَدُوِّنَا، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ أَجْسَرُ مِنْ صَنَمِيهِمْ.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [١٦٤]

١. تفسير الرازي ٤: ١٧٩، والآية من سورة البقرة: ١٦٤/٢.

٢. تفسير أبي الفتوح ١: ١٨٤، تفسير روح البيان ١: ٢٦٧.

٣. في النسخة: شعبة، وهو سعيد بن مسروق الثوري، راجع: تهذيب الكمال ١١: ٦٠.

٤. تفسير الرازي ٤: ١٧٩.

ثُمَّ شَرَعَ اللهُ تَعَالَى فِي إِقَامَةِ الْبُرْهَانِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْأَسْتِدْلَالَ بِالْأَكْثَارِ عَلَى وُجُودِ الْمُؤَثِّرِ أَقْرَبُ إِلَى فَهْمِ الْعَامَّةِ، وَلِذَا جَرَتْ سِيرَتُهُ تَعَالَى فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِالْأَسْتِدْلَالِ عَلَى وُجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ بِمَخْلُوقَاتِهِ الْعَجِيبَةِ وَمَصْنُوعَاتِهِ الْبَدِيعَةِ، مَعَ أَنَّ مَنْ تَوَغَّلَ فِي التَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ تَعَالَى كَانَ أَكْثَرَ عِلْمًا بِجَلَالِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ أَظْهَرِ الْآيَاتِ وَأَعْظَمِهَا فِي أَنْظَارِ الْعَامَّةِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ، بَدَأَ بِذِكْرِهِ، يَقُولُهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ السَّيِّعِ أَوْ التَّسْعِ وَإِنْشَائِنَاهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِرَاعِ وَالْإِبْدَاعِ بِلَا عَمْدٍ تَمَتُّعُهَا مِنَ السَّقُوطِ، وَعِلَاقَةٍ تَحْبِسُهَا عَنِ الْوُقُوعِ.

ثُمَّ تَنَازَعَتْ فِي ذِكْرِ الْآيَةِ الَّتِي هِيَ دُونَ السَّمَاوَاتِ وَفَوْقَ غَيْرِهَا فِي الْعَظَمَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ أَعَاجِيبَ وَيَدَافِعِ الصَّنَاعِ الَّتِي يَعْجَزُ عَنْ فَهْمِهَا عُقُولُ الْبَشَرِ.

قِيلَ: إِنَّمَا جُمِعَ السَّمَاوَاتُ وَأَفْرَدَ الْأَرْضُ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ كُلَّ مَسَاءٍ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الْأُخْرَى بِخِلَافِ الْأَرْضَيْنِ، فَإِنَّهَا كُلُّهُمَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَهُوَ التُّرَابُ<sup>١</sup>.

ثم ذكر الآية الأخرى التي تكون من ثواب خلق السماوات بقوله: ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾<sup>١</sup> وتعاقيهما بحيث يخلف كل واحد منهما الآخر، أو المراد اختلافاً بالجنس والهيئة والصفات والمنافع، حيث إن الليل يجعل سكناً وراحة لظلمته لأن لا ينهك الأبدان بشدة الكد والتعب، والنهار مبصراً لطلب المعاش وأتبعه فضل الله.

ثم ذكر الآية التي تكون من خواص الأرض بقوله: ﴿وَالْقُلُوكِ﴾ وهي السفن ﴿الَّتِي تَجْرِي﴾ وتسير ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ مصحوبة ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الأمثلة.

وإِنَّمَا جَعَلَ خَلْقَ الْقُلُوكِ وَسَيْرَهَا مِنْ آيَاتِهِ مَعَ أَنَّهَا مَصْنُوعَاتٌ خَلَقَهُ؛ لِأَنَّ فِي خَلْقِ أَجْزَائِهَا بَحِثٌ تَسْتَقَرُّ عَلَى الْبَحْرِ فِي أَمَدٍ بَعِيدٍ لَا تَغْرُقُ وَلَا تَغْوِسُ فِيهِ، كَمَا إِذَا كَانَ كُلُّهَا مِنْ حَدِيدٍ، وَتُسَخِّرُ الْبَحْرَ لَهَا بَحِثٌ تَجْرِي فِيهِ بِسَهُولَةٍ، وَتُعَلِّمُ صَنْعَهَا حُمُولَةً<sup>٢</sup> فِي وَجْهِ كَوْنِ الْقُلُوكِ وَسَيْرِهَا فِي الْبَحْرِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

البعيدة، من ظهورِ قُدْرَةِ الله وحكمته ورحمته ما لا يُخفى على ذي لُبٍّ، حيث إنّه لولا تبعيّة السُّفُن بتعليم الله وجزيانها في البحار، وحفظهما من ثلاثم الأمواج، ووكوف الأمطار<sup>١</sup>، ومُصادمة الحيوانات العظيمة، والجبال والأشجار من خَرَق الألواح، ومُخالفة عواصف الرياح، لَمَا وَصَلَتْ سَفِينَةٌ إِلَى ساحِلٍ سَلِيمَةٍ، وَلَمَا كَثُرَتْ فِي الْبِلَادِ نِعْمَةٌ وَوَقَعَ<sup>٢</sup> الْخَلْقُ فِي مَشَقَّةٍ عَظِيمَةٍ وَكُلْفَةٍ وَخِيمَةٍ.

﴿وَمَا أَتَزَلُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ﴾ الْمُطَلَّةُ أَوْ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ، الْأَمْطَارُ الَّتِي تَكُونُ ﴿مِنْ﴾ جِنْسِ ﴿مَاءٍ﴾ عَظِيمِ النِّفْعِ بِهِ حَيَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَيَقَاوُهُ وَرِزْقُهُ، فَإِنَّ دِلَالَةَ خَلْقِ الْمَاءِ الْبَارِدِ الْعَذْبِ وَإِنْزَالِهِ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يُحِيطَ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى الْبَيَانِ.

نسي أن غالب الأمطار نازل من السماء، لا أن كلها السحاب، ومنه إلى الأرض.

وقال الطَّبِيعِيُّونَ: إِنَّهُ مِنْ أُنْخَرَةٍ مُتَصَاعِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْجَوِّ الْبَارِدِ بِتَأْثِيرِ الشَّمْسِ فِيهَا

فَتَبْرُدُ حَيْثُ تَبْدُو وَتَقْلِبُ بِذَرَّاتِ الْمَاءِ فَتَتَّصِلُ الذَّرَّاتُ فَتَكُونُ قَطَرَاتٍ، وَلَيْسَ السَّحَابُ إِلَّا تِلْكَ الْأُبْخُرَةُ الْمُتَرَاكِمَةُ. وَأَدَّعَوْا أَنَّهُ مَحْسُوسٌ لِمَنْ مَارَسَ، وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَّا أَنَّهُ مُخَالَفٌ لظواهر الآياتِ وَضَرِيحُ الرِّوَايَاتِ، وَلَا وَجْهَ لِرَفْعِ الْبَدِّ عَنْهَا بَعْدَ إِمْكَانِ تَحَقُّقِ مَضْمُونِهَا. نَعَمْ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْأَغْلَبَ أَنَّهُ نَازِلٌ مِنَ السَّمَاءِ الْمَعْرُوفَةِ، وَقَدْ يَوْجَدُ بِالْمَبَادِئِ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَاللهُ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ.

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وَأَنْبَتَ فِيهَا بِهِ أَنْوَاعَ النَّبَاتَاتِ وَالْأَزْهَارِ وَالزَّرْعِ وَالْأَشْجَارِ، وَحَصَلَ لَهَا بِهِ

حُسْنٌ وَرَوْثٌ وَنُصْرَةٌ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وَيُؤَسِّسُهَا حَسَبَ مَا

تَقْتَضِيهِ طَبِيعَتُهَا.

قِيلَ: إِنَّ إِبْطَاقَ الْحَيَاةِ عَلَى حُصُولِ النَّمَاءِ وَالْإِثْمَارِ اسْتِعَارَةٌ بِعِلَاقَةِ أَنَّ الْحَيَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ - وَهِيَ الرُّوحُ فِي الْأَحْيَاءِ - مُشْتَأً لَوْجُودِ الْأَكْثَارِ وَالنَّمَاءِ وَالتَّزْهِةِ وَالْبَهَاءِ، وَفِيهِ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ لَفْظَ الْحَيَاةِ حَقِيقَةٌ فِي كَوْنِ الشَّيْءِ مَبْدَأً لِلْأَكْثَارِ الْمُتَوَقَّعةِ مِنْهُ. وَبِهَذَا الْمَعْنَى يُطْلَقُ الْحَيُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى الْقُلُوبِ، وَالْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ضِدُّهُ حَقِيقَةٌ فِي سَقُوطِ الشَّيْءِ عَنْ قَابِلِيَّةِ تِلْكَ الْأَكْثَارِ.

وَلَمَّا كَانَ الرُّوحُ مَبْدَأً لِلْأَكْثَارِ يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْجَمَادَاتِ،

٢. كَذَا، وَالظَّاهِرُ: وَلَوْ قَطَر.

١. وَكَفَ الْمَطَرُ: سَالَ وَقَطَرَ.

## حياة وموت.

﴿وَبِذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتِ الْكُبْرَى﴾ في الأرض وفروق ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ﴾ من الانسان وسائر الحيوانات التي تدب وتتحرك على وجه الأرض، فإن من تفكر في خلق الحيوانات خصوصاً الانسان، تحصل له معرفة كاملة بؤخدانية صانعه وكمال حكمته، فلينظر العاقل إلى بذو خلقه؛ كان نطفة متشابهة الأجزاء، ثم بعد استقرارها في الرحم صارت دماً متشابه الأجزاء، ثم صار بعد مدة بعضه عظماً، وبعضه لحماً، وبعضه عصباً، وبعضه عروقاً، وبعضه شحمًا، وبعضه جلدًا، مع كون جميع هذه الأجزاء متخالفات بالطبع والوصف والفائدة، حيث إن لكل منها فوائد عظيمة غير ما للأخرى.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «سبحان من بصر بشحم، وأسمع بعظم، وانطق بلحم»<sup>١</sup>.

في بيان بعض عجائب خلق الانسان  
ثم لينظر إلى عجائب تركيب جسده، فإن من راجع علم التشريح وجد فيه من العجائب ما تحار فيه العقول وتضل فيه الأفهام، ثم ليتفكر في أنه بعد انفصاله عن أمه طفلاً لو وضعت على فمه وأنفه خرقة تمنعه من التنفس لمات في ساعته، ومع ذلك بقي في رحم أمه حياً من غير تنفس مدة قريبة من خمسة أشهر ولم يمُت.

ثم من عجائب خلق الانسان أنه بعد ولادته يكون من أضعف الحيوانات بطشاً وأقلها إدراكاً، حيث إنه لا يميز بين أمه وغيرها، ولا بين الماء والنار، والنافع والمضر، والمُلدِّ والمؤذي، ثم يصير بعد استكمال عقله من سائر الحيوانات وأذكى من جميع موجودات عالم الأجسام، بل يصير بإعمال القوة النظرية العملية جوهراً قديماً وعالماً عقلياً، مع أن أولاد سائر الحيوانات أقوى شعوراً وأشدَّ بطشاً منه حال صغره. ومقتضى الطبع أن كل ما كان في صغره وبذو أمره أذكى وأعقل وأبطش، كان في كبره وأوان استكماله أكمل في تلك الصفات، وليس هذه المزية للإنسان إلا من عطايا القادر الحكيم المتأن.

ثم من عجائب خلق الانسان كثرة اختلاف ألوانهم وطبائعهم وأمزجتهم وأخلاقهم، وكيفية أشكالهم وأصواتهم بحيث لا يكاد يرى فردان من الإنسان متماثلين في الشكل وكيفية

١. تفسير الرازي ٤: ١٩٩.

٢. والانسان على الضد من ذلك، ويؤيده ما جاء في الحديث عن العبد الصالح عليه السلام: «تستحب عرامة الصبي في صغره ليكون حليماً في كبره، ثم قال: ما ينبغي أن يكون إلا هكذا» الكافي ٦: ٢٠١.

الصُّوت، مُتَوَافِقِينَ فِي الْمَزَاجِ وَخُصُوصِيَّاتِ الْأَخْلَاقِ بَحِثٌ لَا يَتِمَّازُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، مَعَ أَنَّ غَالِبَ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ أَوْ الْبَحْرِيَّةِ لَا يَكُونُ بَيْنَ أَكْثَرِ أَفْرَادِ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا تَعَمُّيزٌ ظَاهِرٌ، وَلَيْسَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ فِي أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ إِلَّا لِلتَّعَارُفِ، وَلَوْلَاهُ لَاسْتَحْتَلَّتْ مَعَانِشُهُمْ وَنِظَامُ أُمُورِهِمْ. وَاسْتِقْصَاءُ الْكَلَامِ فِي عَجَائِبِ خَلْقَةِ الْإِنْسَانِ بَلْ كُلِّ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانَاتِ لَا مَطْمَعٌ فِيهِ لِأَحَدٍ، حَيْثُ إِنَّهُ بَخْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ<sup>١</sup>.  
فِي حِكْمَةِ تَمَوِجِ الرِّيحِ ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَتَحْرِيكِهَا وَتَمَوِجِهَا، فَإِنَّ فِيهِ حِكْمَةً بِالْغَةِ وَالنِّظَامِ  
الرِّيحِ الْأَتَمِّ، حَيْثُ إِنَّ فِيهِ كَمَالَ النُّفْعِ لِلنَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، إِذْ لِكُلِّ مِنْهَا تَنْفَسٌ بِهَا، فَلَوْ لَمْ يَتَغَيَّرَ الْهَوَاءُ بِهُبُوبِ الرِّيحِ لَفَسَدَ، وَيَفْسَادُهُ هَلَكَتِ الْحَيَوَانَاتُ وَالنَّبَاتَاتُ.

قال بعض: لو لم تكن الرياح والذباب لأتنت الدنيا<sup>٢</sup>.

فِي وَجْهِ تَسْبِيَةِ قِيلَ: سَمَّيْتُ الرِّيحَ رِيحاً لِأَنَّ فِي هُبُوبِهَا الرِّيحَ وَالرَّاحَةَ، وَفِي انْقِطَاعِهَا الْكَرْبَ  
الْهَوَاءَ الْمَسْمُوجَ وَالْغَمَّ<sup>٣</sup>.  
وَأَمَّا سَمَى اللَّهُ تَعَالَى الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ؛ لِأَنَّ فِيهَا مَعَ عَظَمِ مَنَافِعِهَا تَحْرِيكَ السَّحَابِ  
وَبَيَانِ أَقْسَامِ الرِّيحِ الْمُغْطِرِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، وَبَحْيَاةُ حَيَاةِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ، فَإِنَّ بِالْعُشْبِ تَعْيِشَ  
الدَّوَابِّ، وَبِالنَّمَارِ يَتَقَوَّى الْإِنْسَانُ.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ لِلرِّيحِ أَقْسَاماً أَرْبَعَةً:

أَحَدُهَا: الصُّبَا، وَيُقَالُ لَهَا: الْقَبُولُ لِاسْتِقْبَالِهَا الدُّبُورَ، وَهِيَ شَرْقِيَّة.

وِثَانِيهَا: الدُّبُورَ، وَهِيَ غَرْبِيَّة.

وِثَالِثُهَا: الشَّمَالُ وَهِيَ شَمَالِيَّة.

وِرَابِعُهَا: الْجَنُوبُ وَهِيَ جُنُوبِيَّة.

وَكُلُّ رِيحٍ هَبَّتْ مِنْ بَيْنِ الْمَهَبِّينِ مِنَ الْمَهَابِ الْأَرْبَعَةِ تُسَمَّى نَكْبَاءً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مَنَافِعٌ لَا تُحْصَى.

رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا هَبَّتْ رِيحٌ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحاً، وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحاً»<sup>٤</sup>.

وَلَعَلَّ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هُبُوبَ الرِّيحِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ إِحَاطَةُ الرَّحْمَةِ بِالْخَلْقِ، وَأَنَّ لِكُلِّ رِيحٍ

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٦٨.

٤. تفسير الرازي ٤: ٢٠٢.

١. تفسير الرازي ٤: ٢٠٠.

٣. تفسير الرازي ٤: ٢٠١.

فائدة لا تيمم إلا بسائر الرياح.

وأما القسم الخامس فهو الريح العقيم التي أهلك الله بها عاداً، وهي من آيات غضبه تعالى. عن ابن عباس، قال: أعظم جنود الله الريح والماء<sup>١</sup>.

﴿و﴾ في ﴿السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المَذْلَلِ تحت إرادته وأمره ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فبأنه لا يمسكه مع ثقله بحمل الماء عن السقوط على الأرض إلا إرادة الله، ولا يسوقه من بلد إلى بلد إلا أمره، فلو انقطع عن بلد عظم الضرر بسبب القحط وفقد الغشب والزرع والشمار، ولو دام وقوفه عليه عظم الضرر بسبب استتار ضوء الشمس وكثرة الأمطار، فهو مسخر تحت حكم الله يأتي به وقت الحاجة ويرده عند زوالها.

ثم لما كان كل واحد من الأمور الثمانية أية عظيمة ودلالة واضحة على وجود الصانع في بيان وجه دلالة الآيات الثمانية على وجوده تعالى وقدرته وإرادته وحكمته وتوحيده ووجوب عبادته

الواحد القادر المدبر الحكيم ووجوب طاعته وعبادته، قال: ﴿لَا يَأْتِ﴾ بينات ودلائل واضحة نافعات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دلالتها، ويتفكرون فيها بالإدراك السليم والفهم المستقيم.

أما دلالتها على وجوده تعالى وقدرته، فبأنه لما كان امتناع حدوث الحادث من غير علّة من البديهيّات، كان حدوث هذه الموجودات بعد عدمها دليلاً على وجود موجد قادر لها. وأما دلالتها على اختياره وإرادته، فبأنه لو كان المؤثر موجباً لدام الأثر، فتغيّر الأثر دليل على كون المؤثر مريداً مختاراً.

وأما دلالتها على حكمته تعالى، فيظهر كون وجود هذه الموجودات وتغييراتها على وفق الحكمة والصّلاح.

وأما دلالتها على وحدانيته تعالى، فيكون جميع أمورها على نحو الاتساق والانتظام، ولو كان موجدها والمتصرف فيها متعدداً لاختل نظامها.

وأما دلالتها على وجوب شكره وعبادته، فبأن كل واحد منها نعمة عظيمة، ووجوب شكر المنعم من ضروريات العقل، ومن شكره طاعته وعبادته. وإنما خص الآيات بالعقلاء لكونهم المتفهمين بها دون غيرهم، كما أن ذوي الأمزجة الصحيحة والحواس غير العليّة مختصون بالانتفاع بالأطعمة

## الذَّيْذَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْمَحْسُوسَاتُ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرِيَّةِ.

في بيان دلالة جميع ذرات الموجودات على الصانع ووجوب وجوده وكماله. ثم أعلم أنَّ الدلالة على وجوده تعالى وكماله في الصفات غير مُختَصِّ بتلك الآيات المعدودة في الآية، بل كلُّ موجودٍ من الموجودات، حتَّى الثُّمْلَةُ والذَّرَّةُ من آياتِ وجوده وكماله.

وأنتم أنحاء الاستدلال بها وأقصرها أن نقول: إِنَّا نَتَصَوَّرُ جميع ماله حظَّ من الوجود بحيث لا يشيذ منه شيء، وحيثيذ فإما أن نحكم بأن جميعه واجب قديم، وإما أن نحكم بأن جميعه مُمكنٌ حادث، وإما أن نحكم بأن بعضه واجب وبعضه مُمكن. ولا سبيل إلى الأول لامتناع تعدد الواجب القديم، حيث إنَّ التعدد مُستلزمٌ للتركب ممَّا به الاشتراك وما به الامتياز، والتركب مُستلزمٌ للحدوث والحاجة.

أما الحدوث فلأنَّ المركب متأخر بالطبع وجوداً عن وجود أجزائه، وأما الحاجة فلأنه لو لم تكن الأجزاء لم يكن المركب، والواجب قديم بالذات، مع أنَّ قديم الجميع خلاف الحس والوجدان، ولا سبيل إلى الثاني لبدهية أنَّ الحادث محتاجٌ إلى العلَّة، والمفروض أنَّه لا موجود غير ما فرضناه حتَّى يكون علَّةً له، وفرض كون جميع الموجودات حادثاً مُستلزمٌ لعدم كونها معلولة لعلَّة، وهو مُحال، فتعين الثالث وهو كونه بعضه واجباً وبعضه مُمكناً.

وقد ثبت امتناع تعدد الواجب، فثبت وحدته، وأنَّ ماسواه أثره وصنعه، فتحصل من جميع ذلك أنَّ جميع العالم مرآة جمال الله وجلاله، والانسانُ العاقلُ هو المشاهد فيها بعين بصيرته، وإنما خُصَّ سبحانه وتعالى الآيات الثماني بالذكر لظهور عظميها في الأنظار، وإنها جامعةٌ بين كونها دلالة على معرفته وتعماه على الخلق أجمعين على أوفر حظ ونصيب. وإذا كانت الدلائل كذلك، كانت انجع في القلوب وأشدَّ تأثيراً في النفوس.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ \* إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ \* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُنَا إِلَى سَفَرٍ مَعْنَاكُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ فَنَجَّيْنَاكُمْ مِنَ الْغَمِّ وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى الْغُلَامِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُنَا إِلَى سَفَرٍ مَعْنَاكُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ فَنَجَّيْنَاكُمْ مِنَ الْغَمِّ وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى الْغُلَامِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُنَا إِلَى سَفَرٍ مَعْنَاكُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ فَنَجَّيْنَاكُمْ مِنَ الْغَمِّ وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى الْغُلَامِ



تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ

النَّارِ [١٦٥-١٦٧]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا قَرَّرَ تَوْحِيدَ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةَ بِالذَّلَائِلِ الْقَاهِرَةِ وَالْبَرَاهِينِ الظَّاهِرَةِ، أَرَدَفَهُ بِتَقْيِيحِ الشِّرْكِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ التَّوْحِيدِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْجُدُ وَيَخْتَارُ ﴿مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ﴾ وَمِمَّا سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَرُؤَسَاءِ الضَّلَالِ وَالْمَطَاعِينَ الَّذِينَ لَمْ يُخَصِّبْنَاهُمْ اللَّهَ لِلطَّاعَةِ وَالْإِتْبَاعِ ﴿أَنْدَادًا﴾ وَأَمْثَالَهُ فِي الْأَلْهِيَّةِ، وَشُرَكَاءَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، حَالُ كَوْنِ الْمُتَخَذِينَ لِلْأَنْدَادِ ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ حُبًّا كَانَتْهُمْ ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ وَيُسَوِّونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فِي التَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ، بَلْ يَتَّبِعُونَهُمْ فِيمَا خَالَفَ رِضَاهُ.

عن (الكافي) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام: «هم وآله أولياء فلان وفلان، اتَّخَذُوهُمْ أئمةً [من] دون الإمام الذي جعله الله للناس إماماً»<sup>٢</sup> الخبر.

وعن بعض الغُرَفَاءِ: كُلُّ شَيْءٍ شَغِيفٌ قَلْبُكَ بِهِ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ جَعَلْتَهُ نِدًّا لَهُ<sup>٣</sup>.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي رواية: هم آل محمد عليه السلام «أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ» من هؤلاء الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ إِنَّهُمْ بِمَعْرِفَتِهِمْ عِظَمَ الرِّبَوِيَّةِ لَا يَمْلِكُونَ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَا سِوَاهُ، بِخِلَافِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ يَهْوَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ صَنِمٍ إِلَى صَنِمٍ.

عن ابن عباس: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ صَنَمًا، فَإِذَا رَأَوْا صَنَمًا<sup>٤</sup> أَحْسَنَ مِنْهُ تَرَكُوا ذَلِكَ وَأَقْبَلُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَحْسَنِ، انْتَهَى<sup>٥</sup>.

وبِخِلَافِ أَتْبَاعِ رُؤَسَاءِ الضَّلَالَةِ وَأئمةِ الْكُفْرِ فَإِنَّهُمْ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، وَيَتَّبِعُونَ كُلَّ نَاعِقٍ.

روى أَنَّهُ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ عليه السلام فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ عليه السلام: «مَا أَعَدَّدْتُ لَهَا»، فَقَالَ: مَا أَعَدَّدْتُ كَثِيرَ صَلَوَاتٍ وَلَا صِيَامٍ، إِلَّا أَنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ عليه السلام: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». فَقَالَ أَنَسٌ: فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرَحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُمْ بِذَلِكَ<sup>٦</sup>.

وروي أَنَّ عِيسَى عليه السلام مَرَّ بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ وَقَدْ تَحَلَّتْ أَبْدَانُهُمْ وَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا الَّذِي بَلَغَ بِكُمْ

٢. الكافي ١: ١١/٣٠٦، تفسير العياشي ١: ٢٤٨/١٧٣.

١. في الكافي: عن الباقر.

٣. في تفسير الرازي وتفسير روح البيان: شغلت.

٤. تفسير الرازي ٤: ٢٠٤، تفسير روح البيان ١: ٣٩١.

٥. تفسير العياشي ١: ٢٤٩/١٧٤، تفسير الصافي ١: ١٩١.

٦. في تفسير الرازي: شيئاً.

٧. تفسير الرازي ٤: ٢٠٨.

٨. تفسير الرازي ٤: ٢٠٥.

إلى ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار. فقال: [حق] على الله أن يؤمن الخائف.

ثم تركهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدُّ تحولاً وتغيراً. فقال لهم: ما الذي بلغ بكم إلى هذا المقام؟ قالوا: الشوق إلى الجنة. فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون.

ثم تركهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدُّ تحولاً وتغيراً، كأن وجوههم المرأيا من النور، فقال: كيف بلغتم إلى هذه الدرجة؟ قالوا: بحب الله. فقال ﷺ: أنتم الموقربون إلى الله يوم القيامة<sup>١</sup>.

ونقل عن بعض الكتب: عبدي أنا وحقك، لك محجب، فبحقي عليك، كن لي محباً<sup>٢</sup>.

ثم شرع الله تعالى في تهديد المشركين بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَىٰ﴾ ويعلم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم باعتمادهم الشرك واتخاذهم الأنداد لله - والأمثال لمحمد وآله الأبرار (صلوات الله عليهم) - من الكفار والفجار ﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ ويوم يشاهدون فيه ما أعد لهم من العقاب والنكال، وعجز أنفسهم عن الدفاع ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ على الأمور ﴿جَمِيعاً﴾ لا قوة ولا قدرة لأحد غيره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ عليهم، فيدخلهم من الندم والتحسر ما لا يدخل تحت الوصف، ويخرج عن حد التصور. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ الأصنام ورؤساء الضلال ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وأطيعوا في الباطل ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ هم وأفنوا أعمارهم في عبادتهم وطاعتهم باعتماد أنهم أوكد أسباب نجاتهم في الآخرة ﴿وَالْحَالُ أَنَّ الْمُنْبُوعِينَ﴾ رَأَوْا ﴿وَعَايَنُوا﴾ الْعَذَابَ الْمُعَدَّ لَهُمْ على إضلالهم ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وزالت عنهم وسائل النجاة من الشدائد، من القرابة والمواودة والمعاودة والتابعة، فعند ذلك لا يقدرّون على خلاص أنفسهم، فكيف بخلاص أتباعهم؟ ولهذا يتبرّؤون منهم.

ويحتمل أن تكون الجملة بياناً لحال الأتباع، ويكون المعنى: والحال أن الأتباع رأوا العذاب وانقطعت عنهم الوسائل، فتوسلوا بالرؤساء في نهاية استئصالهم وشدة الحاجة إليهم، طمعاً في إعانتهم لهم، وشفاعتهم عنهم. فإذا رأوا تبرؤ الرؤساء منهم، يدخلهم نهاية الحسرة وغاية الندامة، ﴿وَحَيْثُ﴾ قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴿وَأَطَاعُوا رُؤَسَاءَ الضَّلَالِ، تَمَنَّى: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ وَرَجَعْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَتَنَّبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ فيها عند ابتلائهم بالشدائد وحاجتهم إلينا ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ في الآخرة.

﴿كَذَلِكَ﴾ الإراءة الفطرية ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ حال كونها ﴿حَسَرَاتٍ﴾ مُسْتَوَلِيَةٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَنَدَامَاتٍ وَارِدَةٍ بِهِمْ، فكانهم لا يزرون أعمالهم، بل يزرون مكانها الحسرة والندامة.

نقل أنهم مع ما رأوا من العذاب وتبرؤ الرؤساء منهم، تُرْفَع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله، فيقال لهم: **تِلْكَ مَسَاكِنُكُمْ لَوْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ**. ثم تقسم بين المؤمنين<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾** «هو الرجل يدع المال لا يُنْفِقْهُ في طاعة الله بخلاً، ثم يموت فيدعه لمن يعمل به في طاعة الله أو [في] مَعْصِيَةِ الله، فإن عَمِلَ به في طاعة الله يَرَاهُ في ميزانٍ غَيْرِهِ فَيَرَاهُ حَسْرَةً، وقد كان المَالُ له، وإن كان عَمِلَ به في مَعْصِيَةِ الله، قَوَاهُ بِذَلِكَ المال حتى عَمِلَ به في مَعْصِيَةِ الله»<sup>٢</sup>.

**﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** أبداً. روي أنه يُسَاق أهل النار إلى النار، فلا يبقى منهم عضو إلا لَزِمَهُ عذاب، إما حَيْة تَنْهَشُهُ، أو مَلَكٌ يَضْرِبُهُ. فإذا ضربه المَلَكُ هوى في النار مقدار أربعين يوماً لا يَبْلُغُ قَرَارَهَا. ثم يرفعُه اللَّهَبُ ويضربه المَلَكُ فيهبوي، فإذا بدأ رأسه ضربه - إلى أن قال - فإذا عطش أحدهم طلب الشراب فيؤتى بالحميم، فإذا دنا من وجهه سقط وجهه، ثم يدخل في فيه فتسقط أضرأسه، ثم يدخل بطنه فيقطع أمعاءه ويتضح جلده<sup>٣</sup>.

وعن سعيد بن جبير: أن الله تعالى يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه [في الدنيا] على ربيبة الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم، فلا يدخلون لعلهم أن عذاب جهنم على الدوام. ثم يقول للمؤمنين بين أيدي الكفار: **إِنْ كُنْتُمْ أَحْبَابِي فادخلوا جهنم فيفتحجون فيها، ويتنادي مناد من تحت العرش: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾**<sup>٤</sup>.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ [١٦٨ و ١٦٩]

ثم أنه تعالى بعد ما بين قُبْحِ الشُّرْكِ، وشَوْءَ عَاقِبَتِهِ، وَكَوْنَ الْمُشْرِكِينَ مُعَذِّبِينَ بالنار، مُحْرَمِينَ من نِعَمِ الْآخِرَةِ، يَبَيِّنُ أن نِعَمَ الدُّنْيَا نِعْمُهُمْ وَلَا تَخْتَصُّ بِخُصُوصِ الْمُؤْمِنِينَ، بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾**

١. تفسير روح البيان ١: ٢٧١.

٢. الكافي ٤: ٢/٤٢، تفسير العياشي ١: ٢٥٠/١٧٤، تفسير الصافي ١: ١٩١.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٧١.

٤. تفسير روح البيان ١: ٢٧١، والآية من سورة البقرة: ١٦٥/٢.

وَانْتَفِعُوا ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ النِّعَمِ، حَالِ كَوْنِهَا ﴿حَلَالًا﴾، وَمُبَاحًا لَكُمْ، لَيْسَ مِنَ اللَّهِ عَقْدَةُ الْحَظَرِ وَالْحُرْمَةِ ﴿طَيِّبًا﴾ لِذِيذٍ أَوْ طَاهِرًا مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وَلَا تَطَاوُا عَلَى عَقِبِهِ وَلَا تَقْتَدُوا بِهِ، ثُمَّ عَلَّلَ النَّهْيَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ عِنْدَ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ نَافِذَةٌ، فَلَا تَتَعَدَّوْا عَنِ الْحَلَالِ إِلَى مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنَ الْحَرَامِ.

عن ابن عباس: نزلت الآية في الذين حرّموا على أنفسهم السّوانب والوصائل والبّهائر<sup>١</sup>، وهم قوم من ثقيف وبني عامر بن صعصعة وخزاعة وبني مُدَلِج<sup>٢</sup>.

ثم ذكر الله تفصيلَ عداوة الشيطان بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ وَيَدْعُوكُمْ إِلَى الْمَغْصِيَةِ ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ قِيلَ: هُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي، وَلِذَا يُقَالُ لِلزُّنَا فَاحِشَةٌ<sup>٣</sup>.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ وَتَقْتَرُوا ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ قَالَهُ وَأَمْرُهُ، وَهُوَ أَقْبَحُ مِنَ الْفَحْشَاءِ، فَيَدْخُلُ فِي آيَةِ الصَّغَائِرِ وَالْكِبَائِرِ وَالشُّرْكِ وَالْبِدْعَةِ فِي الدِّينِ.

عن (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «إِتَاكَ وَخَصَلَتَيْنِ ففِيهِمَا هَلَكٌ مَن هَلَكَ، إِتَاكَ أَنْ تُفْتِيَ النَّاسَ بِرَأْيِكَ، أَوْ تُدِينَ بِمَا لَا تَعْلَمُ»<sup>٤</sup>.

وعن الباقر عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ حَقِّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، قَالَ: «أَنْ يَقُولُوا مَا يَعْلَمُونَ، وَيَقِفُوا عِنْدَ مَا لَا يَعْلَمُونَ»<sup>٥</sup>.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ [١٧٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِيحَاةِ نِعَمِهِ الطَّيِّبَةِ لَجَمِيعِ خَلْقِهِ، الَّتِي هِيَ مُوجِبَةٌ لِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَنَهْيِهِ عَنْ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ، أَخَذَ فِي ذَمِّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ أَخْصَصَ النَّاسَ بِاتِّبَاعِهِ، وَبَيَّنَّ نِهَايَةَ حَقِّقِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ وَغَطًّا وَنُضْحًا ﴿أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ وَالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ.

١. السائبة: الناقة التي كانت تسبب في الجاهلية لنذر ونحوه، والوصيلة في الجاهلية: الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن. والبحيرة: الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقوا أذنهما.

٢. تفسير الرازي ٥: ٢.

٣. تفسير روح البیان ١: ٢٧٢.

٤. الكافي ١: ٢/٣٣، تفسير الصافي ١: ١٩٢.

٥. الكافي ١: ٧/٣٤، تفسير الصافي ١: ١٩٢.

وفي التَّكْنِيَةِ عنهم بضمير الغائب إشعارٌ بالإعراض عنهم لعدم قابليتهم للمُخاطَبَةِ لَفَرْطِ حَمَاقَتِهِمْ، فكانَهم تعالى وَجَّهَ الحِطَابَ إلى العُقلاء، وقال: انظُّروا أَيُّهَا العُقلاء إلى هؤلاء الحمقى السُّفَهَاء، أَنَّهُمْ مع قيام البَراهِينِ القاطعة على توحيد الله واستحقاقه العبادة؛ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اعْمَلُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَتَدِينُوا بِتَوْحِيدِهِ وَخُصُّوهُ بِالْعِبَادَةِ ﴿قَالُوا﴾: لَا نَتَّبِعُ كِتَابَ اللَّهِ، وَلَا نَتَدِينُ بِدِينِهِ ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وَوَجَدْنَا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأنداد، وتحريم الطِّيبَاتِ، وَارْتِكَابِ الْفَحْشَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ مِنَّا. فعَارَضُوا الأدلَّةَ القاطعة بالتقليد، فردَّ الله عليهم بِقَوْلِهِ تَوْبِيخاً وَتَقْرِعاً لَهُمْ: ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَلَا يَدْرِكُونَ ﴿شَيْئاً﴾ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى شيءٍ من الصُّوَابِ. مع ذلك لَا يُمكن جَوَازِ اتِّبَاعِهِمْ في حُكْمِ الْعَقْلِ.

قيل: إِنَّمَا نَزَلَتْ في مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَكُفَّارِ قُرَيْشٍ، أَمَرُوا بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ وَسَانَرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْبَيِّنَاتِ الْبَاهِرَةِ، فَجَنَحُوا لِلتَّقْلِيدِ<sup>١</sup>.

ونُقلَ عن ابن عباس: أَنَّمَا نَزَلَتْ في الْيَهُودِ، وَذَلِكَ حِينَ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالُوا: نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا<sup>٢</sup>.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صَمٌّ بِكُمْ  
عَمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [١٧١]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لِتَوْضِيحِ نِهَايَةِ حِمَاةِ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةِ لَجَمِيعِ النَّاسِ حَتَّى لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ فِيهَا زُنْبٌ، شَبَّهَهُم بِالْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَحَالَهُم الْعَجِيئَةُ مِنْ عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ، وَعَدَمُ فَهْمِهِمْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ، وَعَدَمُ اسْتِمَاعِهِمْ لِلدَّعْوَةِ الرَّشْلِ ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ وَيَصِيحُ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ مِنَ الدَّاعِي، وَلَا يَدْرِكُ مِنْ كَلَامِهِ ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ وَغَيْرَ صَوْتٍ وَصِياحٍ مِنْ غَيْرِ فَهُمْ شَيْءٌ مِنْ مَعْنَاهُ. قيل: إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالنِّدَاءِ، أَنَّ الدُّعَاءَ لِلْقَرِيبِ، وَالنِّدَاءَ لِلْبَعِيدِ<sup>٣</sup>.

عن (المَجْمَعِ): عن الباقر عليه السلام: «أَيُّ مَثَلُهُمْ فِي دُعَائِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، كَمَثَلِ النَّاعِقِ فِي دُعَائِهِ الْمَنْعُوقَ بِهِ مِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَفْهَمُ، وَإِنَّمَا تَسْمَعُ الصَّوْتَ»<sup>٤</sup>.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٧٤.

٢. تفسير الرازي ٥: ٦.

٣. تفسير روح البيان ١: ٢٧٤.

٤. مجمع البيان ١: ٤٦٣، تفسير الصافي ١: ١٩٣.

وقيل: إن المراد أن مثل داعيهم كَمَلِ داعي البهائم<sup>١</sup>. حيث إنها لا تسمع إلا الصوت ولا تدرك المراد من الأنفاذ ومدالبها، فكأنهم «صَمٌّ» لا يسمعون الكلام أصلاً «بُكْمٌ» لا يقدرون على إجابة الداعي «عُمى» لا يتصورون الطريق حتى يحضروا عند الداعي.

وحاصل المراد - والله أعلم - أنهم لشدة إعراضهم عن الدلائل والمعجزات؛ كأنهم لا يشاهدونها ولا يدركونها بالحواس.

ثم بين أن عدم تأثير الدعوة والبراهين في قلوبهم، لقلة إدراكهم، بقوله: «فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» البرهان ولا يدركون الحق بنور العقل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ \* إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن أَضْطَرَّ غَيْرُ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [١٧٢ و ١٧٣]

ثم أنه تعالى بعد ترخيص عموم الناس بالانقياد من النعم التي خلقها في الأرض، وجه الخطاب إلى خصوص المؤمنين، تشريفاً لهم ولطفاً بهم، وخصهم بالدعوة إلى طيبات نعيمه والأرشاد إلى شكرها بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا» وتمتعوا «مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» ومستلذات ما أنعمنا عليكم، فإنها مباحة لكم «وَاشْكُرُوا لِلَّهِ» على إنعامها وإحلالها، وأنثوا عليه، وأعملوا بمرضاته «إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» وله بالعبودية تقرون، وبالإلهية تؤمنون، وينعمه تدعون حيث إن عبادته لا تيم إلا بالشكر.

عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: إني والجن والإنس في نأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»<sup>٢</sup>.

في بيان جملة من  
المأكولات  
والمشروبات  
المحرمة والمحللة

عن الحسن<sup>٣</sup> بن علي بن شعبة، عن الصادق عليه السلام في حديث: «وأما ما يحل للإنسان أكله مما أخرجت الأرض فثلاثة صنوف من الأغذية: صنف منها جميع الحب كله من الجنطة والشعير والأرز والجصص وغير ذلك من صنوف الحب وصنوف

٢. تفسير الرازي ٥: ١٠، تفسير أبي السعود ١: ١٩٠.

١. تفسير الصافي ١: ١٩٣.

٣. في النسخة: الحسين. راجع: نواحي الرواة: ٩٣.

السَّماسِمَ وَغَيْرَهَا، كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْحَبِّ مِمَّا [يَكُونُ] فِيهِ غِذَاءُ الْإِنْسَانِ فِي بَدَنِهِ وَقُوَّتُهُ فَحَلَالٌ أَكَلُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ [تَكُونُ] فِيهِ الْمَضَرَّةُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي بَدَنِهِ وَقُوَّتُهُ فَحَرَامٌ أَكَلُهُ إِلَّا فِي حَالِ الصُّرُورَةِ. وَالصَّنْفُ الثَّانِي: مِمَّا اخْرَجَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِ الثَّمَارِ كُلُّهَا مِمَّا يَكُونُ فِيهِ غِذَاءُ الْإِنْسَانِ وَمَنْفَعَةٌ لَهُ وَقُوَّتُهُ بِهِ فَحَلَالٌ أَكَلُهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ الْمَضَرَّةُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي أَكْلِهِ فَحَرَامٌ أَكَلُهُ.

وَالصَّنْفُ الثَّالِثُ: جَمِيعُ صُنُوفِ الْبَقُولِ وَالنَّبَاتِ، وَكُلُّ شَيْءٍ ثَنِيَتْ [الْأَرْضُ] مِنْ الْبَقُولِ كُلِّهَا مِمَّا فِيهِ [مَنَافِعُ الْإِنْسَانِ وَغِدَاءٌ لَهُ فَحَلَالٌ أَكَلُهُ، وَمَا كَانَ مِنْ صُنُوفِ الْبَقُولِ مِمَّا فِيهِ الْمَضَرَّةُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي أَكْلِهِ نَظِيرُ بَقُولِ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ وَنَظِيرُ الذَّفَلِيِّ<sup>١</sup> وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ السُّمِّ الْقَاتِلِ فَحَرَامٌ أَكَلُهُ. وَأَمَّا مَا يَجَلُّ أَكَلُهُ مِنْ لَحُومِ الْحَيَّوَانِ فَلَحُومُ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ وَالْإِبِلِ، وَمَا يَجَلُّ مِنْ لَحُومِ الْوَحْشِ، وَكُلُّ مَا لَيْسَ لَهُ نَابٌ وَلَا لَهُ مَخْلَبٌ.

وَمَا يَحِلُّ أَكَلُهُ مِنْ لَحُومِ الطَّيْرِ كُلِّهَا مَا كَانَتْ لَهُ قَانِصَةٌ فَحَلَالٌ أَكَلُهُ، وَمَا لَمْ تَكُنْ لَهُ قَانِصَةٌ فَحَرَامٌ أَكَلُهُ، وَلَا بِأَسْ بِأَكْلِ صُنُوفِ الْجَرَادِ.

وَأَمَّا مَا يَجُوزُ أَكَلُهُ مِنَ الْبَيْضِ، فَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ طَرَفَاهُ فَحَلَالٌ أَكَلُهُ، وَمَا اسْتَوَى طَرَفَاهُ فَحَرَامٌ أَكَلُهُ. وَمَا يَجُوزُ أَكَلُهُ مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ مِنْ صُنُوفِ السَّمَكِ؛ فَمَا كَانَ لَهُ قُشُورٌ فَحَلَالٌ أَكَلُهُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُشُورٌ فَحَرَامٌ أَكَلُهُ.

وَمَا يَجُوزُ مِنَ الْأَشْرِيَةِ مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِهَا، فَمَا لَا يَغْتَبِرُ الْعَقْلُ كَثِيرُهُ فَلَا بِأَسْ بَشْرِيهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَغْتَبِرُ الْعَقْلُ كَثِيرُهُ فَالْقَلِيلُ مِنْهُ حَرَامٌ<sup>٢</sup>.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَحْلِيلِهِ الْإِنْتِفَاعَ بِعُمُومِ نَعْمِهِ، ذَكَرَ بَعْضُ أَنْوَاعِهَا الْمَحْرَمَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وَالْإِنْتِفَاعَ بِمَا فَارَقَتْهُ الرُّوحُ بِغَيْرِ ذِكَاةٍ بِالْإِنْتِفَاعَاتِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ، كَأَكْلِ لَحْمِهِ، ﴿وَحَرَّمَ الدَّمَ﴾ الْمَسْفُوحَ لَا الْمُتَخَلَّفَ فِي النَّبِيحَةِ بَعْدَ ذِكَاةِهَا، ﴿وَالْحَمَّ الْخَنِزِيرِ﴾ وَتَخْصِيصَ التَّحْرِيمِ بِلَحْمِهِ مَعَ حُرْمَةِ بَعْضِ الْإِنْتِفَاعَاتِ بِسَائِرِ أَجْزَائِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ لِلْغَالِبِ هُوَ أَكْلُ لَحْمِهِ.

﴿وَحَرَّمَ﴾ مَا أَهْلًا، وَرَفَعَ الصَّوْتُ ﴿بِهِ﴾ عِنْدَ ذَبْحِهِ ﴿لَقِيرَ اللَّهِ﴾.

قِيلَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا إِذَا ذَبَحُوا لِإِلَهَتِهِمْ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِذِكْرِهَا وَيَقُولُونَ: بِاسْمِ اللَّاتِ

١. الذَّفَلِيُّ: نَبَتٌ مُزَّ زَهْرُهُ كَالْوَرْدِ الْأَحْمَرِ، يَتَخَذُ لِلزَّيْنَةِ.

٢. تحف العقول: ٣٢٧.

والعزى<sup>١</sup>.

قيل: وَجَهٌ تَخْصِيصُ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْمُحَرَّمَاتِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهَا وَيَقُولُونَ: تَأْكُلُونَ مَا أَمُّكُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مَا أُمَّاتُهُ اللَّهُ وَكَانُوا يَشْرُونَ الدَّمَ وَيَأْكُلُونَهُ، وَكَانُوا يَأْكُلُونَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَذَبَائِحِ الْأَصْنَامِ، فَنَهَى اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْأَرْبَعَةَ.

فِي جَوَازِ أَكْلِ ثَمَّ مَنْ عَلَيْهِمْ بِلَاحَةٍ أَكَلَهَا فِي الْمَخْمَصَةِ<sup>٢</sup> بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ أَضْطَرَّ» وَالتَّجَاؤُ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِنَ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ لِمَجَاعَةٍ أَوْ إِكْرَاهٍ، حَالُ كَوْنِهِ «غَيْرَ بَاغٍ» قِيلَ: يَعْنِي غَيْرَ ظَالِمٍ عَلَى الْمَخْمَصَةِ وَالضَّرُورَةِ مُضْطَرَّ<sup>٣</sup> آخِرَ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ عَلَيْهِ<sup>٤</sup> «وَلَا عَادٍ» وَمُجَاوِزٍ فِي أَكْلِهِ عَنْ حَدِّ سَدِّ الرَّمَقِ وَالْجُوعِ الشَّدِيدِ. وَرَوَى أَنَّ الْبَاغِي: الظَّالِمُ، وَالْعَادِي: الْغَاصِبُ<sup>٥</sup>.

وَعَنْ (الْفَيْهِي): عَنْ [مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ] الرِّضَا عليه السلام عَنْ أَبِيهِ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْنا نَكُونُ بِأَرْضٍ فَتَصِيبُنَا الْمَخْمَصَةُ، فَمَتَى تَحِلُّ لَنَا الْمَيْتَةُ؟ قَالَ: مَا لَمْ تَضْطَبِحُوا أَوْ تَغْتَبِقُوا أَوْ تَحْتَفِنُوا<sup>٦</sup> بَقَلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَذَا<sup>٧</sup>.

قَالَ فِي (الْمَجْمَعِ): الْأَصْطِيَاخُ: أَكْلُ الصُّبُوحِ وَهُوَ الْغَدَاءُ، وَالْعَبُوقُ: أَكْلُ الْعِشَاءِ، وَأَصْلُهُمَا الشَّرْبُ ثُمَّ اسْتَعْمِلَا فِي الْأَكْلِ<sup>٨</sup>.

قَالَ عَبْدِ الْعَظِيمِ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ؟» قَالَ: «الْعَادِي: السَّارِقُ، وَالْبَاغِي: الَّذِي يَبْغِي الصَّيْدَ بَطْرًا أَوْ لَهْوًا لَا لِيَعُودَ [إِلَيْهِ] عَلَى عِيَالِهِ، لَيْسَ

١. تفسير روح البيان ١: ٢٧٧.

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٧٧، تفسير أبي السعود ١: ١٩١.

٣. تفسير العياشي ١: ٢٥٧/١٧٦، تفسير الصافي ١: ١٩٤.

٤. فِي التَّهْذِيبِ: (أَوْ تَحْتَفِنُوا) مِنْ احْتَفَى الْبَقْلَ: أَخَذَهُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ مِنْ قَصْرِهِ وَقَلَّتْهُ، كَمَا فِي الْمَغْرِبِ ١: ١٣١، وَفِي الْقَامُوسِ ٤: ٣١٨، احْتَفَى الْبَقْلَ: اقْتَلَعَهُ مِنَ الْأَرْضِ.

٥. وَنَقَلَ ابْنُ الْأَثِيرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الضَّرِيرِ أَنَّهُ قَالَ: صَوَابُهُ (تَحْتَفِنُوا) بِغَيْرِ هَمْزٍ، مِنْ أَحْفَى الشَّعْرَ، وَمَنْ قَالَ: تَحْتَفِنُوا مَهْمُوزًا هُوَ مِنَ الْحَفَا، وَهُوَ الْبَرْدِيُّ، فَبَاطِلٌ، لِأَنَّ الْبَرْدِيَّ لَيْسَ مِنَ الْبَقُولِ.

٦. وَنَقَلَ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ قَوْلَهُ: هُوَ مِنَ الْحَفَا، مَهْمُوزٌ مَقْصُورٌ، وَهُوَ أَصْلُ الْبَرْدِيِّ الْأَبْيَضِ الرُّطْبِ مِنْهُ، وَقَدْ يُوْكَلُ، يَقُولُ مَا لَمْ تَقْتُلُوا هَذَا بَعِينَهُ فَتَأْكُلُوهُ. وَيُرْوَى (تَحْتَفِنُوا) بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ، مِنْ احْتَفَفْتُ الشَّيْءَ: إِذَا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ، كَمَا تَحْفُ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا مِنَ الشَّعْرِ. النِّهَايَةُ ١: ٤١١.

٧. مِنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَيْهِي ٣: ٢١٧/١٠٠٧، التَّهْذِيبُ ٩: ٣٥٤/٨٣، وَفِي مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَيْهِي: فَشَأْنُكُمْ بِهَا.

٨. مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ٢: ١٠٠٣.



لَهُمَا أَنْ يَأْكُلَا الْمَيْتَةَ إِذَا اضْطُرَّا، هِيَ حَرَامٌ عَلَيْهِمَا فِي حَالِ الْاضْطِرَارِ<sup>١</sup> الْخَبَرِ.  
وعن (العياشي): عن الصادق عليه السلام: «الباغي الضَّيْد، والعادي: السارق، ليس لهما أَنْ يَأْكُلَا الْمَيْتَةَ إِذَا اضْطُرَّا، هِيَ حَرَامٌ عَلَيْهِمَا، ليس هي عليهما كما هي على المسلمين»<sup>٢</sup>.  
وعن (الكافي) عنه عليه السلام: «الباغي: الذي يخرج على الإمام، والعادي: الذي يقطع الطريق، لا تُجْلَ لهما الْمَيْتَةُ»<sup>٣</sup>.

أقول: ظاهِرُ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ سَوَى النَّبَوِيِّ، حُرْمَةُ أَكْلِ الْمَيْتَةِ عَلَى كُلِّ مَنْ اضْطُرَّ فِي طَرِيقِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَفِي السَّفَرِ الْحَرَامِ، وَفِيهِ إِشْكَالٌ لِمُعَارَضَتِهَا لِأَدْلَةٍ نَفَى الْحَرَجَ وَالضَّرَرَ مَعَ كَوْنِهَا أَبْيَةَ عَنِ التَّقْيِيدِ وَالتَّخْصِصِ، وَعَلَى أَيْ حَالٍ ﴿فَلَا إِنْهُمْ عَلَيْهِ﴾ فِي تَنَاوُلِ مِقْدَارٍ يَحْفَظُ نَفْسَهُ.  
ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِيهِ مَقْتَضَى الْحُرْمَةِ الْمُزَاحِمَ بِالْأَهَمِّ فِي الرَّعَايَةِ، زِيلَ التَّرْخِصُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ وَسِتَّارٌ لَجَمِيعِ الْمَعَاصِي وَالْقَبَائِحِ﴾ «رَحِيمٌ» بَعِيادِهِ، لَا يَرْضَى بِضَرَرِهِمْ وَعَظِيمِهِمْ وَهَلَاقِهِمْ.

في حكم حرمة لحم الخنزير والدُم والميتة  
عن (العلل) و(العيون): عن الرضا عليه السلام فيما كُتِبَ مِنْ جَوَابِ مَسْأَلٍ: «وَحُرْمُ الْخَنزِيرِ لِأَنَّهُ مُنَوَّهٌ جَعَلَهُ اللَّهُ عِظَةً لِلْخَلْقِ<sup>٤</sup> وَدَلِيلًا عَلَى مَا مُسِخٌ عَلَى خَلْقَتِهِ، وَلِأَنَّهُ غِذَاءُهُ أَقْذَرُ الْأَقْذَارِ، مَعَ عِلَلٍ كَثِيرَةٍ».

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَحُرْمَةُ الْمَيْتَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ فَسَادِ الْأَبْدَانِ وَالْآفَةِ، وَلِمَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ التَّسْمِيَةَ سَبَبًا لِلتَّحْلِيلِ وَفَرْقًا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَحُرْمُ اللَّهِ الدَّمَ كَتَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ لِمَا فِيهِ مِنْ فَسَادِ الْأَبْدَانِ، وَلِأَنَّهُ يُورِثُ الْمَاءَ الْأَصْفَرَ، وَيُبَيِّرُ اللَّحْمَ، وَيُتَيْنُ الرِّيحَ، وَيُسِيءُ الْخُلُقَ، وَيُورِثُ الْقِسْوَةَ لِلْقَلْبِ وَقِلَّةَ الرَّافَةِ وَالرَّحْمَةَ حَتَّى لَا يُؤْمَنَ أَنْ يَقْتُلَ وَلَدَهُ وَوَالِدَهُ وَصَاحِبَهُ»<sup>٥</sup> الْخَبَرِ.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا

١. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢١٦/١٠٧.

٢. التهذيب ٣: ٢١٧/٥٣٩، تفسير العياشي ١: ٢٦٢/١٧٧ «نحوه»، تفسير الصافي ١: ١٩٤.

٣. الكافي ٦: ٢٦٥/١. ٤. في العلل والعيون: وعبرة وتخويفاً.

٥. علل الشرائع: ٤/٤٨٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٩٤.

أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ \* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي  
الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [١٧٤ - ١٧٦]

ثم لما كان من دلائل صِدْقِ النَّبِيِّ موافقة أحكام شريعته للعقول السليمة والأذهان المستقيمة، كانت تلك الأحكام دليلاً على صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ في دعوى نبوته. وعلى أنه المبشر به في التوراة، ومع ذلك أنكر عليه اليهود وكتموا ما يدل على نبوته في كتابهم، فلذلك هدّهم على كتمانهم طلباً للزخارف الدنيوية بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ ويطلبون بدل كتمانهم نعوذ محمد ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وعوضاً يسيراً من متاع الدنيا.

﴿أُولَئِكَ﴾ الكاتمون ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ وما يجرون بالمأكل التي<sup>١</sup> يُصيبونها من سفلتهم ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ شيئاً ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ في الآخرة عقوبة على أكلهم الرشا.

قيل: إن إطلاق النار على ما أكلهم من باب إطلاق المُسَبَّب على السبب<sup>٢</sup>. ويمكن أن يكون الإطلاق من باب الحقيقة باعتبار أن الأموال المحرمة صورتها البرزخية صورة النار، ولكن لا يشعرون بحقيقتها وصورتها المعنوية، حتى إذا هبت عليهم ريح عالم البرزخ والآخرة، فعند ذلك تشتعل في بطونهم.

ويؤيده أنه قيل أن عالماً حضر في محضر سلطان ظالم فأمر السلطان بإحضار الطعام، فأحضروا الأطعمة الطيبة، فأمر السلطان العالم بأكلها، فأبى العالم، فأصر السلطان، فقال العالم: هذه الأطعمة دماء المظلومين. فقال السلطان مستهزئاً به: كيف تكون هذه الأطعمة اللذيذة دماء؟ فأخذ العالم لقمعة منها فعصرها فصّب الدّم من بين أصابعه، وعلى ذلك يُحمّل ما روي من أن الشارب في أنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم<sup>٣</sup>.

﴿وَلَا يَكْلَمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بكلام فيه لطف وعطوفة كما يكلم به أهل الجنة.

وقيل: إن ترك الكلام كناية عن نهاية الإعراض، حيث إن عادة الملوك أنهم لا يكلمون من يعرضون عنه عند الغضب، ويكلمون من يعرضون عنه بالبشر واللطف<sup>٤</sup>.

﴿وَلَا يَزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهرهم من دنس المعاصي كما يطهر المؤمنين، لعدم قابلية الكافر للتطهير.

٣. تفسير الرازي ٥: ٢٧.

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٧٩.

٥. تفسير الرازي ٥: ٢٧.

٤. كذا. وقياس المصدر: غطّف أو غطوف.

وقيل: إن المراد بتزكيتهم المَدَحُ والثناء عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعقوبةٌ مُوجِعَةٌ بالنار.  
 ﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون عن العقل والإدراك هُمُ ﴿الَّذِينَ﴾ من شِدَّةِ حُمُقِهِمْ وَخُبْثِ ذَاتِهِمْ ﴿أَشْتَرُوا﴾  
 واختاروا لأنفسهم ﴿الضَّلَالَةَ﴾ والجَهْلَ واستبدَّلوها ﴿بِالْهُدَى﴾ والعِلْمَ بالحقِّ في الدُّنْيَا، حيث إنهم  
 مع حصوله لهم ووضوح صدق النبي ﷺ وصحة دين الإسلام عندهم، ادَّعَوْا الجَهْلَ واختاروا الكُفْرَ،  
 فكأنَّهم رَفَعُوا اليَدَ عن الهدايةِ الحاصلة، وأخذوا الضَّلَالَةَ بدلاً منها. وهذا العملُ الشُّنِيعُ لا يمكنُ أن  
 يَصْدُرَ مِنَّنْ شَمِّ رائحةِ العقلِ، ﴿و﴾ اشْتَرُوا ﴿الْعَذَابَ﴾ الأبدِيَّ ﴿بِالْمَغْفِرَةِ﴾ والرحمةِ الدائمةِ في  
 الآخِرَةِ، وذلك غايَةٌ الخَسَارَةِ. فإِذَنْ يَنْبَغِي أن يُقالَ تعجباً: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾! وما أجراًهم  
 عليها، وكلمةُ التعجبِ كنايةٌ عن استِعظامِ الأمرِ.

عن (الكافي) و(العياشي): ما أَصْبَرَهُمْ على فِعْلٍ ما يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُصَيِّرُهُم إلى النَّارِ.  
 ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَابُ مُعَلَّلٌ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الْمَجِيدَ وَالْقُرْآنَ الْحَمِيدَ حَالِ كَوْنِهِ مَقْرُوناً  
 ﴿بِالْحَقِّ﴾ وشواهدِ الصِّدْقِ، وهم مع وَضوحِ أمرِهِ عندهم اتَّفَقُوا على رَفْضِهِ وَتَكْذِيبِهِ، واختَلَفُوا في  
 وَجْهِهِ، فقال بعضٌ: إِنَّهُ سِخَرٌ، وبعضٌ: إِنَّهُ كِهَانَةٌ، وبعضٌ: إِنَّهُ شَيْعَرٌ، وبعضٌ: إِنَّهُ أَسَاطِيرُ.  
 ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ في أَقَاوِيلِهِمْ ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ وَعِنَادٍ ﴿بِعِيدٍ﴾ عن  
 الصُّوَابِ، أَوْ لَفِي خِلَافٍ بَعِيدٍ عَنِ الْجَمَاعِ عَلَى الْحَقِّ.

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ  
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي  
 الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ  
 الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ  
 وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [١٧٧]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الضَّلَالِ وَثَبَاتِهِمْ عَلَى مُعَادَاةِ الْحَقِّ، وَكَانَ مِنْ ضَلَالَةِ الْيَهُودِ  
 وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ الْخَوْضَ فِي أَمْرِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَقُولُ: إِنَّ الْبِرَّ هُوَ  
 التَّوَجُّعُ إِلَى قِبْلَتِنَا؛ فَزَدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ وَالطَّاعَةُ الَّتِي تَسْأَلُونَ بِهَا رِضَا اللَّهِ وَغُفْرَانَهُ،

وَتَسْتَخِفُّونَ بِهَا الْجَنَّةَ وَنَعِمَ بِهَا ﴿أَنْ تَوَلَّوْا﴾ وَتَصْرِفُوا بِهَا مَعَشر اليهود والنصارى ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿قَبِلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وَطَرَفَهُمَا.

عن السَّجَّاد عليه السلام: «قَالَتِ الْيَهُودُ: قَدْ صَلَّيْنَا إِلَى قِبَلَتِنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ الْكَثِيرَةَ، وَفِينَا مِنْ يُحْيِي اللَّيْلَ صَلَاةً إِلَيْهَا. وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ: أَتَرَى رَبَّنَا يُطِيلُ أَعْمَالَنَا هَذِهِ الْكَثِيرَةَ وَصَلَّوَاتِنَا إِلَى قِبَلَتِنَا لِأَنَّا لَا نَتَّبِعُ مُحَمَّدًا عَلَى هَوَاءٍ فِي نَفْسِهِ»<sup>١</sup> الْخَيْرَ.

ثمَّ بعد ذلك أَرشَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ الْبِرُّ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ وَالْخَيْرَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُهْتَمَّ بِهِ بِرُّ «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» وَأَقْرَبُ بَوَحْدَانِيَّتِهِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ، وَلَكِنْ ذِي الْبِرِّ وَالْبَارِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ<sup>٢</sup> وَعَرَفَ مَبْدَأَهُ «وَالْيَوْمَ الْآخِرَ» وَمَعَادَهُ «وَالْمَلَائِكَةَ» كُلَّهُمْ، وَأَنَّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ لَا أَوْلَادَهُ وَلَيْسُوا بِذُكُورٍ وَلَا إِنَاثٍ، وَهُمْ مُكْرَمُونَ عِنْدَهُ مُطِيعُونَ لِأَمْرِهِ «وَالْكِتَابَ» الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِتَوْسِطِ رُسُلِهِ، وَمِنَ الْقُرْآنِ «وَالنَّبِيِّينَ» جَمِيعاً ذَوِي الشَّرَائِعِ وَعَبِيدِهِمْ.

هَذَا مِنْ حَيْثُ الْعَقَائِدِ، فَجَمَعَتِ الْآيَةُ الْإِيمَانَ بِالْأُمُورِ الْخَمْسَةِ: الْإِيمَانَ بِالْمَبْدَأِ، وَالْمَعَادِ، وَصِحَّةِ الشَّرَائِعِ الَّتِي نَزَلَتْ بِتَوْسِطِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْكِتَابَ السَّمَاوِيَّ الْمُنْزَلَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ [وَالْإِيمَانَ بِالْأَنْبِيَاءِ]، وَالْيَهُودَ قَدْ أَخْلَوْا بِجَمِيعِهَا، حَيْثُ قَالُوا بِالْإِنْسَانِ<sup>٣</sup> وَالْبُخْلِ فِي الْمَبْدَأِ، وَأَنَّهُ «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ» فِي الْآخِرَةِ «إِلَّا أَتْيَانًا مَغْدُودَةً»<sup>٤</sup> وَقَالُوا: إِنَّ جَبْرَائِيلَ عَدُونَا وَنَحْنُ تُعَادِيهِ، وَأَنكَرُوا الْكِتَابَ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهَا، وَاقْتَصَرُوا بِالْإِيمَانِ بِالتَّوْرَةِ، بَلْ كَفَرُوا بِكَثِيرٍ مِمَّا فِيهَا، وَقَتَلُوا كَثِيراً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ الْبِرَّ لَا يَكُونُ إِلَّا الْإِيمَانُ بِالْأُمُورِ الْخَمْسَةِ، ثُمَّ تَتِمِّيمُهُ بِالْعَمَلِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ عَلَى قِسْمَيْنِ: مَالِيَّةٍ وَبَدَنِيَّةٍ، وَكَانَتِ الْأَعْمَالُ الْمَالِيَّةُ أَشَقَّ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ؛ قَدَّمَ ذِكْرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ وَأَعْطَاهُ «عَلَى حُبِّهِ» وَالشَّعْبَ بِهِ. وَقِيلَ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ<sup>٥</sup>. وَقِيلَ: عَلَى حُبِّ الْإِيْتَاءِ<sup>٦</sup> بِأَنْ يَكُونَ طَيْبُ النَّفْسِ بِإِعْطَائِهِ «ذَوِي الْقُرْبَى» وَأُولِي الْأَرْحَامِ صَدَقَةً وَبِرّاً وَصِلَةً.

٢. مجمع البيان ١: ٤٧٦.

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٥٣/٥٨٩.

٣. في النسخة: بِالْإِنْسَانِ.

٤. يَرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ...» [الْمائدة: ٦٤/٥].

٥. البقرة: ٨٠/٢.

٦. جوامع الجامع: ٣٢. ٧. جوامع الجامع: ٣٢.

عن النبي ﷺ أنه سئل: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تؤتيها وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر»<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد بذوي القرى قرابة النبي ﷺ إلا إنهم يعطون هدية وبراً، لا صدقة<sup>٢</sup>.

«وَالْيَتَامَى» قيل: إن المراد بهم يتامى بني هاشم<sup>٣</sup> «وَالْمَسَاكِينَ» الكافين عن سؤال الناس «وَأَبْنِ السَّبِيلِ» وهو المسافر المنقطع به ولا نفقة له «وَالسَّائِلِينَ» الذين أحتاجهم الحاجة إلى أن يتكفؤا الناس.

روي أن للسانل حقاً وإن جاء على فرس<sup>٤</sup>.

«وَفِي» تخلص «الرَّقَابِ» عن قيد الرقبة بشرائها واعتاقها، أو بإعانتها على أداء مال الكتابة، وفي ترتيب ذكر الأصناف إشعاراً بترتيبهم في أولوية الرعاية والإحسان.

عن الشعبي، قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة، وتلا هذه الآية<sup>٥</sup>. ولا يخفى أن صرّف المال في هذه الأصناف مستحب إلا إذا توقف صلة الرّحم أو حفظ النفس عليه.

ثم ذكر سبحانه جملة من الأعمال البدنية مبتدئاً بأهمها بقوله: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» المفروضة بخودها وشرائطها، فإنها عمود الدين. ثم أردفها بذكر الزكاة المفروضة بقوله: «وَأَتَى الزَّكَاةَ» وأعطاه المؤمنين لكونها كالصلاة معاني عليه الاسلام. وقيل: ذكر إتياء المال أولاً لبيان المصارف، وثانياً لبيان الوجوب<sup>٦</sup>.

«وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» سواء كان العهد بينهم وبين الله كالنذر والأيمان، أو بينهم وبين الرسول كالبيعة وأمثالها، أو بينهم وبين الناس كالعقود والمعاملات، وهذا وإن كان شاملاً للموااعدات إلا إنه قد ادعى الإجماع من الخاصة والعامة على عدم وجوب الوفاء بها.

«وَالصَّابِرِينَ» قيل: إن التقدير: وأخص بالذكر لفضيلة الصبر الصابرين، الذين صبروا «فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» عن ابن عباس: البأساء: الفقر، والضراء: المرض، وحين البأس، قال: يريد القتال في سبيل الله<sup>٧</sup>. واليهود أخذوا بجميع ذلك فليسوا بآبرين، بل «أُولَئِكَ» الموصوفون

٢. تفسير الصافي ١: ١٩٦.

٤. جوامع الجامع: ٣٢. ٥. جوامع الجامع: ٣٢.

٧. تفسير الرازي ٥: ٤٥.

١. تفسير البيضاوي ١: ١٠١.

٣. تفسير الصافي ١: ١٩٦.

٦. تفسير أبي السعود ١: ١٩٤.

بتلك الأوصاف المحموده هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في دعوى الإيمان واتباع الحق وطلب البر، فإن العمل من أعظم شواهد صدق القبول.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر والرذائل في الظاهر والباطن، وفي تكرير الإشارة إشارة إلى عظمة شأنهم وعلو منزلتهم، وفي توسيط الضمير دلالة على اختصاص التقوى بهم.

في بيان جميع ما فالآية جامعة لبيان الكمالات الإنسانية، حيث إنها بكثرتها وتشتعها منحصرة في به كمال الإيمان ثلاثة: صحة الاعتقاد، وتهذيب النفس، وحسن المعاشرة.

وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخر الآية. وإلى الثالث بقوله: ﴿وَاتَى الْمَالَ﴾ إلى قوله: ﴿وَفَى الزَّكَاةَ﴾. ولذا زوي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ بهذه الآية، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإيمان».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ\* وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [١٧٨ و ١٧٩]

ثم أنه تعالى بعد ذكر وظائف العبودية، شرع في جملة من الأحكام السياسية، ولما كان أهمها قانون تحفظ به الدماء والنفس قدمه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ في اللوح المحفوظ، أو فرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ والمماثلة في مجازاة جنایة القتل والجرح بأن يفعل بالجاني مثل ما فعله. أما الفرض على الجاني فتسليم نفسه، وأما على المجنى عليه أو وليه فعدم التجاوز عن حد المساواة، وأما على سائر المؤمنين فإعانة الجاني في عدم التعدي عليه، وإعانة المجنى عليه في استيفاء حقه.

ولكن يشترط في عدم التراجع المساواة في الحرية والرقية والذكورة والأنوثة بأن يقتل ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ قيل في سبب النزول: إنه كان بين حيتين من أحياء العرب دماء في الجاهلية، وكان لأحدهما طول<sup>٢</sup> على الآخر فأقسموا: لنقتل الحر منكم بالعبد، والذكر بالأنثى

٢. أي قوة وفضل.

١. تفسير أبي السعود ١: ١٩٥.

والاثنتين بالواحد. فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأمرهم الله أن يتساووا ويتعادلوا<sup>١</sup>.

نسي نُسْبَ مَنْ أَحكام القصاص

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ أَنَّ بَيْنَ الْحُرِّينَ وَالْعَبْدَيْنِ وَالذَّكَرَيْنِ وَالْإِثْنَيْنِ يَقَعُ الْقِصَاصُ، وَيَكْفِي ذَلِكَ فَقَطْ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَاتِلُ لِلْعَبْدِ حُرًّا أَوْ لِلْحُرِّ عَبْدًا فَإِنَّهُ يَجِبُ مَعَ الْقِصَاصِ التَّرَاجُعُ، وَأَمَّا حُرٌّ قَتَلَ عَبْدًا فَهُوَ قَوْدُهُ، فَإِنْ شَاءَ مَوْلَى الْعَبْدِ أَنْ يَقْتُلُوا الْحُرَّ قَتْلَهُ، بِشَرْطِ أَنْ يُسْقَطُوا ثَمَنُ الْعَبْدِ مِنْ دِيَةِ الْحُرِّ، وَيَرُدُّوا إِلَى أَوْلِيَاءِ الْحُرِّ بِقِيَّةِ دِيَّتِهِ.

وَأَنْ قَتَلَ عَبْدٌ حُرًّا فَهُوَ بِهِ قَوْدٌ، فَإِنْ شَاءَ أَوْلِيَاءُ الْحُرِّ قَتَلُوا الْعَبْدَ وَأَسْقَطُوا قِيَمَةَ الْعَبْدِ مِنْ دِيَةِ الْحُرِّ وَأَخَذُوا الدِّيَةَ الْكَامِلَةَ، وَإِنْ شَاءُوا أَخَذُوا كُلَّ الدِّيَةِ وَتَرَكَوا قَتْلَ الْعَبْدِ.

وَأَنْ قَتَلَ رَجُلٌ امْرَأَةً فَهُوَ بِهَا قَوْدٌ، فَإِنْ شَاءَ أَوْلِيَاءُ الْمَرْأَةِ قَتَلُوهُ وَأَذَا نِصْفَ الدِّيَةِ. وَإِنْ قَتَلَتِ الْمَرْأَةُ رَجُلًا فَهِيَ بِهِ قَوْدٌ، فَإِنْ شَاءَ أَوْلِيَاءُ الرَّجُلِ قَتَلُوهَا وَأَخَذُوا نِصْفَ الدِّيَةِ، وَإِنْ شَاءُوا أَخَذُوا كُلَّ الدِّيَةِ وَتَرَكَوْهَا»<sup>٢</sup>.

عن الصادق عليه السلام قال: «لَا يَقْتُلُ حُرٌّ عَبْدًا، وَلَكِنْ يُضْرَبُ ضَرْبًا شَدِيدًا وَيُعْرَمُ دِيَةُ الْعَبْدِ نِصْفَ الدِّيَةِ، وَلَا يَقْتُلُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ إِلَّا إِذَا أَدَّى [أَهْلَهَا] إِلَى أَهْلِ نِصْفِ الدِّيَةِ»<sup>٣</sup>.

«فَمَنْ عَفَى لَهُ» أَيِ إِنْ حَصَلَ الْعَفْوُ لِلْقَاتِلِ وَالْجَانِي «مِنْ أَخِيهِ» وَهُوَ وَلِي الدَّمِ «شَيْءٌ» قَلِيلٌ مِنَ الْعَفْوِ وَيَعْضُهُ أَنْ يَعْنِي عَنْ بَعْضِ الدَّمِ أَوْ يَعْوِضَ الدِّيَةَ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْ وَلِيِّ الدَّمِ بِالْأَخِ إِشْعَارًا بِحُسْنِ تَعَطُّفِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ.

«فَاتَّبَعَ بِالْمَغْرُوفِ» وَالْمُسْتَحْسَنُ عِنْدَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلُ أَنَّ يُعَامَلَ الْعَافِي مَعَ الْمَعْفُو عَنْهُ مُعَامَلَةً حَسَنَةً وَلَا يُطَالَبُ بِالْأَدْيَةِ إِلَّا بِمُطَالَبَةِ جَمِيلَةٍ مِنْ غَيْرِ تَضْيِيقٍ وَتَشْدِيدٍ «وَأَذَاءً» مِنَ الْجَانِي الدِّيَةَ «إِلَيْهِ» مُلْتَبِسًا «بِإِحْسَانٍ» فِي الْأَدَاءِ بِأَنْ لَا يَبْتَخَسَّ مِنْهَا، وَلَا يُعَامِلُ فِيهِ.

«ذَلِكَ» الْحُكْمُ وَالتَّخْيِيرُ بَيْنَ الْقِصَاصِ وَالْعَفْوِ بِالْأَدْيَةِ «تَخْفِيفٌ» وَتَوْسِيعَةٌ عَلَيْكُمْ، كَأَنَّ «مِنْ رَبِّكُمْ» حَيْثُ إِنَّ أَهْلَ الثَّوَرَةِ كَانَ عَلَيْهِمُ الْقِصَاصُ أَوْ الْعَفْوُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَخْذُ الدِّيَةِ، وَكَانَ عَلَى أَهْلِ الْإِنْجِيلِ الْعَفْوُ وَأَخْذُ الدِّيَةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْقِصَاصُ «وَرَحْمَةً فَمَنْ اغْتَدَى» وَتَجَاوَزَ عَلَى الْجَانِي بِأَنْ قَتَلَهُ «بَعْدَ ذَلِكَ» الْعَفْوُ أَوْ الصَّلَاحُ بِالْأَدْيَةِ «فَلَهُ» فِي الْآخِرَةِ «عَذَابٌ أَلِيمٌ» وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا أَيْضًا لِقَوْلِ

النبي ﷺ: «لَا أَعَافِي أَحَدًا قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِهِ الدِّيَةَ»<sup>١</sup>.

ثم أشار سبحانه إلى حكمة حكم القصاص وغيابه، بقوله: «وَلَكُمْ» أيها الناس «فِي الْقِصَاصِ» من الجاني «حَيَاةٌ» عظيمة. وفي هذا الكلام من كمال الفصاحة ما لا يخفى، حيث إن حكم القصاص الذي هو موجب لتفويت الحياة يجعل ظرفاً ومقراً لها.

قيل: إن العرب كانوا يقتلون بالواحد جماعة، وبالمقتول غير القاتل، فكانت تقع الفتنة ويكثر القتل، فبهذا الحكم سلم الناس من القتل، وحصل الارتداع عنه، فسلمت النفوس لخوف القود، بل النفوس الكثيرة.

وعن (الأمالي): عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أربعة قلت فأُنزل الله تصديقي في كتابه - وعد منها - قلت: القتل يُقْتَلُ القتل، فأُنزل الله تعالى «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»<sup>٢</sup>.

«يَا أُولَى الْأَلْبَابِ» والعقول. قيل: في ندائهم إشعاراً بكمال حكمة الحكم من حفظ النفوس واستيقاظ الأرواح<sup>٣</sup> «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» القتل، أو المراد: لكي تعملوا عمل أهل التقوى، فإن من أعظم حقوق الناس الدماء. وفي رواية: أنها أول ما يحاسب به<sup>٤</sup>.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ  
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ \* فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ  
عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنْ أَلَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا  
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ [١٨٢ - ١٨٠]

ثم شرع في بيان حكم آخر منها، بقوله: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» وظهر لنفس أمارته «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» أو مالا قليلاً أو كثيراً «الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ» مِمَّنْ يَرِثُ وَمِمَّنْ لَا يَرِثُ «بِالْمَعْرُوفِ» والمستحسن في الشرع والعقل، وذلك يحق «حَقًّا» ثابتاً «عَلَى الْمُتَّقِينَ» وهم الذين اتَّخَذُوا التَّقْوَى طَرِيقَةً وَمَذْهَبًا لأنفسهم فيشمل عامة المؤمنين، فدلَّت الآية بظاهرها على وجوب الوصية للأرحام، ويؤيده ما روي عن الصادق عليه السلام عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «مَنْ

٣. كنز العرفان ٢: ٣٥٨.

١. تفسير الرازي ٥: ٥٥. ٢. أمالي الطوسي: ١٠٨٢/٤٩٤.

٤. تفسير روح البيان ١: ٢٨٦.



لم يُوص عند موته [لذوي قرابته] مَن لا يرث، فقد ختم عمله بمعصية<sup>١</sup>.

نعم روى العياشي عن أحدهما عليه السلام: «أُتِيَها منسوخةً بآية الموارث»<sup>٢</sup>.

وقال بعضُ الأصحاب: إنه لا يُنسخ القرآن بخبر الواحد. وفيه: أنه قد حقق في الأصول جوازُ نسخِه به إذا كان جامعاً لشرائط الحجّة، كما أنه يجوز تخصيصه به حيث إن النسخ نوع من التخصيص.

نسي استحباب الوصية وكراهة تركها  
ويمكن حمل الخبر الأول على شدة الكراهة، والخبر الثاني على نسخ الوجوب مع بقاء استحبابه جمعاً بين الروايات، وقد حمّله الشيخ على التقية.

وعن الصادق عليه السلام: «أُتِيَ شَيْءٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لَصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ». قيل: هل لذلك حد؟ قال:

«أدنى ما يكون ثلث الثلث»<sup>٣</sup>.

وعن الباقر عليه السلام أنه سُئِلَ عن الوصية للوارث، قال: «تَجُوزُ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ<sup>٤</sup>.

والحاصل: أنه لا شبهة في استحباب الوصية وعدم وجوبها، وإن ظاهر الآية محمولٌ على تأكيد الاستحباب.

«فَمَنْ يَدَّلْهُ» مِنَ الْوَصِيِّ وَالشَّاهِدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَغَيْرِ الْإِيصَاءِ عَنِ الْوَجْهِ الَّذِي أَوْصَى بِهِ الْمُوصِي «بَعْدَ مَا سَمِعَهُ» وَحَقَّقَهُ، وَثَبَّتَ عِنْدَهُ «فَانْتَابَ» عِصْيَانُ التَّبْدِيلِ وَ«إِثْمُهُ» مَحْمُولٌ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ لَا عَلَى الْمُوصِي وَلَا عَلَى الْمُوصَى لَهُ.

ثُمَّ هَدَّدَ الْمُبَدِّلِينَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» لِمَقَالِهِمْ «عَلِيمٌ» بِأَفْعَالِهِمْ، فَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا.

عن (الكافي): عن أحدهما عليه السلام و(العياشي): عن الباقر عليه السلام: فِي رَجُلٍ أَوْصَى بِعَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْطَاهُ لِمَنْ أَوْصَى لَهُ، وَإِنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ» وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ<sup>٥</sup>.

ثُمَّ لَا شَبْهَةَ أَنْ إِطْلَاقَهَا وَإِطْلَاقَ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ مُقَيَّدَ بِالثَّلَاثِ فَمَا دُونَهُ، لِلرِّوَايَاتِ الْمُتَضَافَةِ، مِنْهَا: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلْثِ أَمْوَالِكُمْ فِي آخِرِ أَعْمَارِكُمْ زِيَادَةً لَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ»<sup>٦</sup>.

«فَمَنْ خَافَ» وَتَوَقَّعَ، أَوْ عَلِمَ «مِنْ مُوصٍ» فِي وَصِيَّتِهِ «جَنَفًا» وَمَيْلًا عَنِ الْحَقِّ. عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «يَعْنِي إِذَا اعْتَدَى فِي الْوَصِيَّةِ وَزَادَ عَلَى الثَّلْثِ»<sup>٧</sup>.

٢. تفسير العياشي ١: ٢٧٣/١٨٠.

٤. مجمع البيان ١: ٤٨٣.

٦. تفسير روح البيان ١: ٢٨٨.

١. تفسير العياشي ١: ٢٧٢/١٨٠.

٣. تفسير العياشي ١: ٢٧٤/١٨٠.

٥. الكافي ٧: ٢/١٤، تفسير العياشي ١: ٢٧٥/١٨١.

٧. تفسير العياشي ١: ٢٧٩/١٨٢، علل الشرائع: ٤/٥٦٧.

وفي بعض الروايات: تفسير الجَنَفِ بالوصية بغير ما أمر الله<sup>١</sup>، أو في ما لا يرضى الله به<sup>٢</sup>.

﴿أَوْ﴾ خَافَ ﴿إِثْمًا﴾ من الموصي في وصيته، كأن أوصى بمعصيته من عِمارة بُيُوت النيران، أو تشييد الكُفَر، أو ترويح الباطل.

﴿فَأَصْلَحَ﴾ الوَصِيَّ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: يعني بين الموصي له وورثته الموصي<sup>٣</sup>، بأن يردَّ الوصية إلى الحقِّ والجائز ويبدلها إلى ما هو الصواب ﴿فَلَا إِثْمَ﴾ وَلَا وِزَرَ ﴿عَلَيْهِ﴾ في هذا التغيير والتبديل، لأنه تبديل الباطل بالحقِّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للعصاة ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعباد. قيل: ذكرَ المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم به<sup>٤</sup>. وفي هذا التذييل وعدٌ للمُصلِحِ بالثواب والرحمة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \* أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ \* شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ [١٨٣-١٨٥]

ثمَّ عاد سبحانه إلى بيان الأحكام العبادية، وذكر حكم الصوم الذي هو من أفاضل العبادات بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي تخصيص الخطاب بالمؤمنين مع عدم اختصاص الحكم بهم، تهييجُ المُكلفين على العمل، لأنَّ في ذكر هذا الوصف تشریف وإكرام وإشعار بأنَّ القيام بأداء التكليف من وظائف الايمان ولوازمه، وإشارة إلى اختصاص التكليف بالبالغين العاقلين دون الصغار والمجانين. ولما كان في هذا التكليف مشقَّة على النفوس، وجَّه إليهم الخطاب بكلمة النداء كي يَهَوُّ عليهم

٣. تفسير ابن عباس: ٣٥.

١. تفسير القمي ١: ٦٥. ٢. تفسير العياشي ١: ٢٧٨/١٨٢.

٤. تفسير أبي السعود ١: ١٩٨.

العناء، كما روي عن الصادق عليه السلام قال: «لَذَّةُ [ما في] الِئْدَاءِ أَزَالَ تَعَبَ الْعِيَادَةِ وَالْعَنَاءِ»<sup>١</sup>.

في وجوب صوم شهر رمضان وجملة من أحكامه  
﴿كُتِبَ﴾ وفُرض ﴿عَلَيْكُمْ الصَّيَامُ﴾ وهو الإمساك عن الأشياء المُعِينة بِنِيَّةِ الْغَرَةِ، من طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ.

قيل: هذا صَوْمٌ عامٌّ، وأما الصُّومُ الخاصُّ فالإمساكُ عن المُنْهَيْتَاتِ التَّحْرِيمِيَّةِ والتَّنْزِيهِيَّةِ، وأما الأَخْصُ فالإمساكُ عَمَّا سِوَى اللَّهِ<sup>٢</sup>.

ثم لتسهيل الأمرِ عليهم، قال: «كَمَا كُتِبَ» الصُّومُ «عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» من الأنبياءِ وأُمَمِهِمْ من لَدُنْ آدَمَ، فلا يَخْتَصُّ هذا التَّكْلِيفُ وتَحْمِيلُ هذه المَشَقَّةِ بِكُمْ، والأمرُ الشَّاقُّ إذا عَمَّ سَهْلٌ. قيل: إنَّ النَّصَارَى كُتِبَ عَلَيْهِمْ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَأَصَابَهُمْ مَوْتَانِ فَرَأَوْا عَشْرًا قَبْلَهُ وَعَشْرًا بَعْدَهُ، فَصَارَ صَوْمُهُمْ خَمْسِينَ.

وقيل: كان وقوعه في الْحَرِّ الشَّدِيدِ أو الْبَرْدِ الشَّدِيدِ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَارِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ فَخَوَّلُوهُ إِلَى الرَّبِيعِ، وزادوا فيه عِشْرِينَ يَوْمًا كَقَارَةِ لِلتَّحْوِيلِ.

وأما اليهودُ ففُرضَ عَلَيْهِمْ صِيَامُ هذا الشَّهْرِ، فَتَرَكُوهُ وَصَامُوا يَوْمًا مِنْ السَّنَةِ زَعَمُوا أَنَّهُ يَوْمَ غَرَقِ نُوحٍ وَفُزَعُونَ. وعن الصادق عليه السلام <sup>٣</sup>: «أَنْ صُومَ شَهْرُ رَمَضَانَ كَانَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ دُونَ أُمَّتِهِ، وَإِنَّمَا وَجِبَ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ عليه السلام حُبَّةً لَهُمْ»<sup>٤</sup>، وعلى هذا يكون المراد من «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» خُصُوصُ الْأَنْبِيَاءِ. ثم أشار إلى فائِدَةِ الصُّومِ بقوله: «لَعَلَّكُمْ» بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ وَتَعْظِيمِهِ «تَتَّقُونَ» الْعَذَابَ أَوْ الْمَعَاصِي، فَإِنَّ الصَّائِمَ أَرَدَعَ لِنَفْسِهِ مِنْ مَوَاقِعَةِ السُّوءِ، وَلَوْضُوحِ أَنَّ الصُّومَ كَابِرُ الشَّهْوَةِ، رَوَى: أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَاهُ فَلْيَصُمْ، فَإِنَّ الصُّومَ لَهُ وَجَاءٌ<sup>٥</sup>.

وفي الآية إشارة إلى أَنَّ الواجبات السَّعْيِيَّةَ أَلْطَافٌ ومَقَرِّباتٌ إِلَى الطَّاعَةِ وَاجْتِنَابِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَاصِي، كما قال تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»<sup>٦</sup>.  
عن ابن عباس رضي الله عنه بعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عليه السلام بِشَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا صَدَّقَ زَادَ الصَّلَاةَ، فَلَمَّا صَدَّقَ زَادَ الزَّكَاةَ، فَلَمَّا صَدَّقَ زَادَ الصَّيَامَ<sup>٧</sup>.

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٨٩.

٤. كنز العرفان ١: ٣/٢٠٠.

٦. العنكبوت ٢٩/٤٥.

١. مجمع البيان ٢: ٤٩٠.

٣. في كنز العرفان: الباقر.

٥. تفسير الصافي ١: ٢٠٠.

٧. تفسير روح البيان ١: ٢٩١.

قيل: كان وجوبه بعد الهجرة بثلاث سنين.

ثم بين الله تعالى زمان الصيام ووقته، بقوله: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ قيل: يعني مقدرات بعدد معين<sup>١</sup>. وقيل: إن المراد صوموا أيَّاماً قلائل، فإن الشيء القليل يعد عدداً، والكثير يهال هيلاً<sup>٢</sup>.

ثم بين حكم ذوى الأعذار بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ يضربه الصوم بشديد مرضه أو إبطائه أو عسر علاجه ﴿أَوْ﴾ كان راعياً ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ إذا تلبس به قبل الزوال ﴿فَعِدَّةٌ﴾ موافقة لأيام مرضه أو سفره ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ واجبة عليه قضاءً، ولا يجوز له الصوم في الحالين.

عن الباقر (عليه السلام) قال: «سمى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوماً صاموا حين أفطر وقصر عصياناً»<sup>٣</sup>. وعن الصادق (عليه السلام) أنه سئل عمن صام في السفر؟ فقال: «إن كان بلغه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نهى عن ذلك فعليه القضاء، وإن لم يبلغه فلا شيء عليه»<sup>٤</sup>.

وفي رواية أخرى: «وإن صام بجهالة، لم يقض»<sup>٥</sup>. والمشهور نصاً وقنواً أن السفر ثمانية فراسخ، امتدادية، أو ثلثية.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ ويتدبرون عليه مع المشقة والعسرة، كالشيخ والشبيخة وذوي العطاش والحايل المقرب ﴿فِدْيَةٌ﴾ مقدرة واجبة عليهم إن أفطروا، وهي «طعام مسكين» واحد وإشباعه عوضاً عن الصوم الذي فات منه.

روي عن الصادق (عليه السلام) أن معناه: «وعلى الذين كانوا يطيقون الصوم ثم أصابهم الكبر أو العطاش أو شبه ذلك، فذية لكل يوم مد من الطعام»<sup>٦</sup>.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ وتبرع ﴿خَيْرًا﴾ وزاد في الفدية المقررة ﴿فَهُوَ﴾ عند ربه ﴿خَيْرٌ﴾ وأنفع ﴿لَهُ﴾ وأكثر متوبة في الآخرة.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأفضل من الفدية والتطوع بالزيادة، وأنتم أيها المؤمنون ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة اخترتموه لا محالة. في الحديث القدسي: «الصوم لي، وأنا أجزي به»<sup>٧</sup>.

١. تفسير الرازي ٥: ٧٣، وفيه: بعدد معلوم.

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٩٠.

٣. الكافي ٤: ١٢٧، تفسير الصافي ١: ٢٠٠، وفيهما: وقصر عصاة.

٤. الكافي ٤: ١٢٨، تفسير الصافي ١: ٢٠٠.

٥. الكافي ٤: ١٢٨، تفسير الصافي ١: ٢٠٠.

٦. جوامع الجامع: ٣٤.

٧. تفسير روح البيان ١: ٢٩١.

٤٠٢ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

والأنيام المتعدودات هي ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ قيل: سُمِّيَ هذا الشهر بِرَمَضَانَ لَارْتِمَاضِ الْأَكْبَادِ واحتراقها من الجُوع والعَطَش، وأما لَارْتِمَاضِ الذُّنُوبِ بالصَّيَامِ فيه<sup>١</sup> وما لغير ذلك من الوجوه التي ذكرت في محلها.

وروي أن رَمَضَانَ اسمٌ من أسماءِ الله تعالى، والشَّهرُ مُضَافٌ إليه. وروي: لا تقولوا: جاء رَمَضَانَ، وَذَهَبَ رَمَضَانَ، ولكن قولوا: جاء شَهْرُ رَمَضَانَ، فان رمضان اسمٌ من أسماءِ الله تعالى<sup>٢</sup>.

ثم أشار سبحانه إلى حِكْمَةِ تَخْصِيسِ هذه العبادة العظيمة بهذا الشَّهرِ العظيم، بقوله: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ابتداءً أو بيبائه أو تأويله أو جميعه دُفْعَةً إلى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ في ليلةِ الْقَدَرِ منه.

روي عن (الكافي): عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألتُه عن قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وإِنَّمَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ في عشرين سَنَةً بين أوله وآخره؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «نَزَلَ [القرآن] جملةً واحدةً في شَهْرِ رَمَضَانَ إلى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ نَزَلَ في طُولِ عِشْرِينَ سَنَةً»

ثم قال: «قال النبي ﷺ: نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ في أول ليلة من شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضِينَ من شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لثَلَاثِ عَشْرَةٍ [ليلة] خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِ عَشْرَةٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ في ليلة ثلاث وعشرين من شَهْرِ رَمَضَانَ»<sup>٣</sup>.

وقد تضافرت الروايات بأنَّها ليلة الْقَدَرِ، فَتُصِيفُ هذا الشَّهرَ بِذلك الوَصفِ لِيَبَانَ أن هذا الشَّهرَ لِفَضِيلَتِهِ وَشَرَفِهِ الذَّاتِيَةِ خُصَّ بِنُزُولِ الرَّحْمَةِ وَوُفُورِ الْبَرَكَاتِ التي أتمها نُزُولُ الْقُرْآنِ الذي وَصَفَهُ بِكُونِهِ «هُدًى» وَذَلِيلًا «لِّلنَّاسِ» إلى الْحَقِّ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بما فيه من الإعجاز.

﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ قيل: يعني آياته موضحات<sup>٤</sup> «مِّنَ الْهُدَى» الذي يكون في سائر الكتب السماوية، وكاشفات عن مَبْهَمَاتِ سائر الصُّحُفِ التي نَزَلَتْ لِهَدَايَةِ النَّاسِ «وَالْفُرْقَانِ» الذي يكون فيها.

والحاصل: أن جميع الكتب السماوية، وإن كان هادياً إلى الخير ومفرقاً بين الحقِّ والباطل، إلا أنه لا تتمُّ هدايتها وتفريقها إلا بتوضيحات من القرآن، فالقرآن يبيِّن بنفسه ومبينٌ لغيره من الكتب. فلذا كان أهدى وأفضل وأشرف من سائر الكتب. وهذا الشَّهرُ أَفْضَلُ وأشرف بسبب نُزُولِ الْقُرْآنِ فيه. فَحَقُّ

٢. تفسير روح البيان ١: ٢٩٢.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٩٢.

٣. الكافي ٢: ٦٧/٤٦٠.

٤. تفسير روح البيان ١: ٢٩٢.

على العباد أن يشكروا لله فيه ويعبدوه.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ وحضر في وطنه أو أقام في مكانٍ ولم يكن مريضاً ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ وليُخصمه بهذه العبادة الفاضلة.

﴿وَمَنْ كَانَ﴾ في هذا الشهر ﴿مَرِيضاً﴾ وإن كان مقيماً أو حاضراً ﴿أَوْ﴾ كان ﴿عَلَى سَفَرٍ﴾ وإن كان صحيحاً سليماً فليُفطره في الحالين، فإذا أفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ غير شهر رمضان، يصوم قضاءً لما أفطر.

قيل: في تكرير هذا الحكم تأكيد الأمر بالإفطار، وإشعاراً بكونه عزيمة لا يجوز تركه.<sup>١</sup>  
ثم أشار إلى حكمة الحكم بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بياحة الإفطار ﴿بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ والتسهيل ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ والمشفقة بالصوم في الحالين لغاية رافته، وسعة رحمته.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل تصدق على مرضى أمتي ومُسافريها بالتقصير والإفطار، أيسرُ أحدكم إذا تصدق بصدقة أن تردَّ عليه؟»<sup>٢</sup>.

وعن (الخصال): عن النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أهدى إليَّ [وإلى] أمتي هدية لم يَهْدِها إلى أحدٍ من الأممِ كرامةٍ من الله لنا». قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «الإفطار في السفر، والتقصير في الصلاة، فمن لم يفعل ذلك فقد ردَّ على الله عز وجل هديته»<sup>٣</sup>.

ثم أشار إلى حكمة الأمر بالقضاء بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ المعينة من أيام الصيام بقضاء الصوم في غيرها. ثم أشار إلى حكمة الحكمين بقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ وتَعْظُمُوهُ وتُجَدُّوهُ ﴿عَلَى مَا هَدَاكُم﴾ وأرشدكم إليه من أحكامه وطريق امتثالها.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أما إن في الفِطْرِ تكبيراً، ولكنه مسنون»<sup>٤</sup>.  
قال: قلت: وأين هو؟ قال: «في ليلة الفِطْرِ في المغرب، والعشاء الآخرة، وفي صلاة الفجر، وفي صلاة العيد، ثم يقطع».

قال: قلت: كيف أقول؟ قال: «تقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر [والله أكبر] والله الحمد، الله أكبر على ما هدانا. وهو قول الله عز وجل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم﴾»<sup>٥</sup>.

٣. الخصال: ٤٣/١٢.

٢. الكافي: ٤/١٢٧.

١. تفسير الصافي: ١/٢٠٣.

٤. في المصدر: مستور. ٥. الكافي: ٤/١٦٦.

عن (الفقيه): عن الرضا عليه السلام: «وإنما جعل التكبير في صلاة العيد أكثر منه في غيرها من الصلوات؛ لأن التكبير إنما هو تعظيم الله وتمجيدته على ما هدى وعافى، كما قال عز وعلا: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ﴾»<sup>١</sup> الخبر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لله على أفضاله وألطافه من إيجاب الصوم الذي هو موجب لنهذيب النفوس في الشهر الذي هو أفضل الشهور وتسهيل الأمر فيه، فإن من تفكر في أن الله تعالى مع كمال جلالة واستغنايه راعى صلاح عبده ومن عليهم بالأنطاف العظيمة، علم أنه مستحق لغاية الشكر والثناء، فيجب عليه المواظبة والاهتمام به بمقدار قدرته وطاقته.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [١٨٦]

ثم أنه تعالى بعد ما أمر بالتكبير والشكر، رغب عبده في الدعاء وطلب الخواص لتبنيهم بأنه تعالى كما يطلب منكم الطاعة والتكبير والشكر، كذلك هو مع كونه منعماً عليكم بنعم لا تخصي مجيب لطلبائكم ومستجيب لدعائكم.

قيل: إنه تعالى لما فرض الصوم وكان من أحكامه أن الصائم إذا نام حرم عليه الإفطار؛ شق ذلك على بعضهم حتى عصوا. ثم تدبوا وسألوا النبي صلى الله عليه وآله عن ثوبتهم<sup>٢</sup>، فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ وروي أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: أقرئ ربنا فتناجيه، أم بعيد فتناديه<sup>٣</sup>.

﴿فَأَنِّي قَرِيبٌ﴾ منهم لا بالمكان، بل بالقيومية والإحاطة العلمية وسعة الرحمة، حيث إنه إذا كان القرب بالمكان مراداً لامتنع أن تتساوى نسبته إلى جميع خلقه.

نقل كلام الفخر الرازي في تنزيهه  
نقل الفخر الرازي<sup>٤</sup> [يرى أن إمام الحرمين] نزل ببعض الأكابر ضيفاً، فاجتمع عنده العلماء وسائر الأكابر، فقال بعض أهل المجلس: ما الدليل على تنزيهه تعالى عن المكان وهو قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>٥</sup>؟

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٣٣١/١٤٨٨.

٢. تفسير الرازي ٥: ٩٤.

٣. مجمع البيان ٢: ٥٠٠، تفسير الرازي ٥: ٩٤، لباب النقول: ٣٣.

٤. وجدناه في روح البيان، ولم نجد عن الفخر الرازي.

٥. طه: ٥/٢٠.

فقال: الدليل عليه قول يونس في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>١</sup>. فتعجب منه الناظرون، فالتمس صاحب الضيافة بيانه.

فقال الإمام<sup>٢</sup>: ها هنا فقير مديون بالغ دهرهم، أدّعه دية حتى أتته. فقيل صاحب الضيافة دية، فقال: إن رسول الله ﷺ لما ذهب في المعراج إلى ما شاء الله من العلى، قال: «رب لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ولما ابتلي يونس عليه السلام بالظلمات في قعر البحر بطن الحوت، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فكل منهما خاطبه بقوله: (أنت) وهو خطاط الحضور، فلو كان الله في مكان لما صح ذلك<sup>٣</sup>.

ثم قال الله تعالى تقيراً للقرية وترغيباً للعباد في دعائه: ﴿أَجِيبْ دُعَاةَ الدَّاعِ﴾ وأعطى ما سأل السائل (إذا دعان) وسألني حاجته باللسان والقلب في السر والجهر. ومن الواضح أنه إذا لم يخالف إجابته القضاء المبرم ولم يكن في إسعاف حوائجهم مفسدة في دينهم ودنياهم.

فإذا كنت مجيباً لدعائهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ وليبادروا إلى إجابة دعائي إلى الإيمان والأعمال الصالحة، فكأنه تعالى قال: أنا مع غنائي عنكم أجيب دعاءكم، فأنتم مع نهاية حاجتكم إلي في جميع أموركم أحق وأولى بإجابة دعائي.

ثم بين استجابتهم الواجبة بقوله: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ فكأنه قال: إجابة دعائي الإيمان بوحداً نبيي وبرسولي بجميع ما جاء به.

عن الصادق عليه السلام: «أَنْ مَعَاهُ لِيَحَقَّقُوا أَنِّي قَادِرٌ عَلَىٰ إعطائهم ما سألوهم»<sup>٤</sup>.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ويصيرون الحق ويهتدون إليه، ويمكن أن يكون من وجوه نظم الآية أن من وظائف الصائم الدعاء، كما روي أن دعوة الصائم لا ترد<sup>٥</sup>.

في بيان بعض  
موجبات عدم  
استجابة الدعاء

روي أن الصادق عليه السلام قرأ: ﴿أَمْنٌ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا﴾<sup>٦</sup> فمثل: ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال: «لأنكم تدعون من لا تعرفون، وتسالون ما لا تفهمون فلاضطروا»

١. الأنبياء: ٨٧/٢١.

٢. في النسخة: فقال فخر، وما أثبتناه من روح البيان، إذ المراد إمام الحرمين لا الفخر الرازي.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٥.

٤. في النسخة: الواجب.

٥. مجمع البيان ٢: ٥٠٠، تفسير الصافي ١: ٢٠٤.

٦. عدة الداعي: ١٢٨، بحار الأنوار ٩٦: ٣٦/٢٥٦.

٧. النمل: ٦٢/٢٧.



عَيْنَ الدِّينِ، وَكَثْرَةُ الدُّعَاءِ مَعَ الْعَمَى عَنْ اللَّهِ مِنْ عَلَامَةِ الْخِذْلَانِ، مَنْ لَمْ يَشْهَدْ ذِلَّةَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَسِرَّهُ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ حَكَمَ عَلَى اللَّهِ بِالسُّؤَالِ، وَظَنَّ أَنَّ سُؤَالَهُ دُعَاءَ، وَالْحُكْمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى اللَّهِ»<sup>١</sup>.

وفي رواية: قِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وَإِنَّا نَدْعُو فَلَا يَسْتَجَابُ لَنَا؟ فَقَالَ: «لَأَنْتُمْ لَا تُؤْفُونَ بَعْدَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُؤْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾<sup>٢</sup> وَاللَّهُ لَوْ وَفَيْتُمْ [لَهُ] لَوْفَى اللَّهِ لَكُمْ»<sup>٣</sup>.

في دفع توهم عدم ثم اعلم أن بعض الجهال قالوا: إن الدعاء عديم الفائدة؛ لأن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع عند الله تعالى كان واجب الوقوع، وإن كان غير معلوم الوقوع كان ممتنع الوقوع، فلا فائدة في الدعاء على التقديرين.

وهو واضح الفساد، إذ قد يكون أمر معلوم الوقوع على تقدير الدعاء حيث إن للدعاء دخالة تامة في مصلحة ذلك الأمر، فقد لا تكون المصلحة في إيجاد المطلوب، وبالدعاء يوجد فيه الصلاح والآيات والأخبار المتواترة ناصة على فائدته، بل هي من ضروريات الدين فمُنْكَرُهَا كَافِرٌ.

في دفع المناقاة بين وأما ما قيل من أنه: ثَبَّتْ بِشَوَاهِدِ الْعَقْلِ وَالْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ مِنْ الدُّعَاءِ وَالرِّضَا أَجَلَ مَقَامَاتِ الصَّدِّيقِينَ وَأَعْلَاهَا، وَالدُّعَاءُ مُنَافٍ لِلرِّضَا، حَيْثُ إِنَّ فِيهِ تَرْجِيحَ مُرَادِ النَّفْسِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ، وَطَلَبَ حُظُوظِ الْبَشَرِيَّةِ.

ففيه: أَنَّ الدُّعَاءَ إِظْهَارَ لِحِجَّةِ الْعُبُودِيَّةِ مِنَ الْحَاجَةِ وَالدَّلَّةِ وَالْمُسْكِنَةِ مَعَ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ لِعَدَمِ الْمُنَافَاةِ بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَقَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، بَلِ الْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ نَاصَّةٌ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، بَلِ فِي تَرْكِهِ مَظَنَّةٌ الْإِسْتِكْبَارِ، وَلِذَا قَالَ شُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾<sup>٤</sup>.

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ

١. تفسير الصافي ١: ٢٠٤.

٢. البقرة: ٤٠/٢.

٣. تفسير القمي ٤٦: ١، تفسير الصافي ١: ٢٠٥.

٤. غافر: ٦٠/٤٠.

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ  
الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُواهُنَّ وَأَنْتُمْ  
عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ  
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [١٨٧]

ثم أنه روي أن الأكل كان محرماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار، وكان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له مطعم بن جبير، نام قبل أن يفتطر وحضر حفرة الخندق فأغمي عليه، وكان قوم من الشبان ينيحون بالليل سراً في شهر رمضان، فنزلت: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ﴾ وأُبيح لكم فيها ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ قالوا: الرَّفَثُ كناية عن المباشرة والجماع. ثم أشار سبحانه إلى علة الترخيص والإباحة بقوله: ﴿هِنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ ومتمصلات بكم اتصال الثياب بالأبدان ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيضاً ﴿لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ ومخاطبون بهن.

قيل: وجه شبهة المخالطة والمخرمية باللباس أن الإنسان كما لا يفارق لباسه، ولا يستر عنه عورته، بل يستر عورته به عن غيره، كذلك الزوج والزوجة، والصديق الحافظ لأسرار صديقه المؤانس له، فصارت شدة مخالطة الزوج والزوجة سبباً لإكمال المشقة في كف النفس عن المقاربة والاستمتاع. ثم أخبر الله ببعضين كثير من المسلمين فيه بقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ وتظلمون ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بتعريضها للعقاب بسبب غلبة الشهوة وارتكاب المعصية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما ثبتتم ﴿وَعَفَا﴾ ومحا أثر الحياة ﴿عَنْكُمْ﴾ بقبول التوبة.

وروى البيضاوي: أن عمر باشر بعد العشاء مع علمه بحرمة ٢، فقدم وأتى النبي ﷺ واعتذر إليه. وقال النبي ﷺ: «ما كنت جديراً به» ٣ فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء ٤. وفي رواية: أنه أراد الجماع، فقالت امرأته: إني نمت. فلم يقبل منها، ثم أخبر رسول الله ﷺ فنزلت ٥.

﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ وجامعوا معهن في أي وقت أردتم من الليل ﴿وَابْتَغُوا﴾ بالمباشرة وأطلبوا بها

١. جوامع الجامع: ٣٤. ٢. (مع علمه بحرمنه) ليس في تفسير البيضاوي.

٣. (وقال النبي ﷺ: ما كنت جديراً به) ليس في تفسير البيضاوي.

٤. تفسير البيضاوي ١: ١٠٦.

٥. الدر المنثور ١: ٤٧٥.

﴿مَآكَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، وما قَدَّرَهُ ﴿لَكُمْ﴾ من الولدِ، ولا يَكُنْ غَرْضُكُمْ مِنْهَا حِرْزٌ قَضَاءِ الشُّهُوةِ.

في نقل بعض العامة  
اعتذار عمر  
من عصيانه  
ولعلَّ فيه التعريض على عَمَرٍ، حيث نقل صاحب (روح البيان) أن عمر اعتذر عند النبي ﷺ وقال: إني رجعتُ إلى أهلي بعد العشاء، فَشَمَمْتُ رَانِحَةً طَيِّبَةً، فَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. ثُمَّ قَالَ بعد ثَقْلِهِ: وَصَارَتْ زَكَّتَهُ سَبَباً لِلرَّحْمَةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ<sup>١</sup>. وذلك من عجائب الكلام، وليتَّ شعري كيف يكون لمن لم يقدِّر على كَفِّ نَفْسِهِ بِسَبَبِ اسْتِشْمام رَانِحَةٍ مِنْ زَوْجَتِهِ عن الْمُغْصِيَةِ الْكَبِيرَةِ، كرامة عند الله! ولعلَّ هذه الرَّحْمَةُ كانت بسبب رجالِ شُبَّانٍ اعترفوا بِالْحَطِيئَةِ وَكَانُوا مَعْدُورِينَ فيها.

﴿وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا﴾ من أَوَّلِ لَيَالِي الصَّيَامِ ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ﴾ وَيَبْضَحَ ﴿لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ وهو كناية عن البياض المُعْتَرِض في الْأَفَقِ ﴿مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وهو كناية عن ظُلْمَةِ عَسَقِ اللَّيْلِ الْمُتَمَدِّةِ فوق الْبَيَاضِ، حال كون ذلك الْبَيَاضُ ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ وانشقاق الصُّبْحِ الصَّادِقِ.

روي عن سهل السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ نَزَلَتْ وَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ وَكَانَ رِجَالٌ [إِذَا صَامُوا] يَشْدُونَ فِي أَرْجُلِهِمْ خَيْوطاً بَيَضاءَ وَسَوْدَاءَ، فَلَمْ يَزَالُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ حَتَّى يَبَيَّنَا لَهُمْ، ثُمَّ نَزَلَ الْبَيَانُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾<sup>٢</sup>.

وعن عِدِّي بن حَاتِمٍ أَنَّهُ قَالَ: أَخَذْتُ عِقَالَيْنِ أبيضَ وَأَسْوَدَ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ إِسَادَتِي، وَكُنْتُ أَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَأَنْظُرُ إِلَيْهِمَا فَلَمْ يَبَيِّنْ لِي الْأَبْيَضُ مِنَ الْأَسْوَدِ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَضَحِكَ وَقَالَ: إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا<sup>٣</sup>، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ<sup>٤</sup>.

في ردِّ قول بعض  
العامة بحصر  
مفطرات الصوم في  
ثلاثة  
ثمَّ اعْلَمْ أَنَّ وَجْهَ الْاِقْتِصَارِ فِي الْآيَةِ عَلَى خُرْمَةِ الْجِمَاعِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، هُوَ كَثْرَةُ الْاِبْتِلَاءِ بِهَا، وَكَوْنُهَا مَرْغُوباً إِلَيْهَا لِتَوَعُّدِ الْمُكَلَّفِينَ دُونَ سَائِرِ الْمُفْطَرَاتِ كَالْحَقْنَةِ وَالْقِيَاءِ وَالْإِرْتِمَاسِ فِي الْمَاءِ - عَلَى الْقَوْلِ بِمُقْطَرِئَتِهِ - وَأَنْكَرَ بَعْضُ الْعَامَّةِ مُفْطَرِّيَّةَ غَيْرِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ لِثَبُوتِ مُفْطَرِّيَّةِ غَيْرِهَا بِالرَّوَايَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ.

٢. كنز العرفان ١: ٢١٥/٧.

١. تفسير روح البيان ١: ٢٩٩.

٣. قيل: هو كناية عن طول النوم وكثرته، وقيل: كناية عن السَّمن. راجع: النهاية ٣: ٢١٠.

٤. تفسر الرازي ٥: ١٠٩.

في منع الملازمة وعن بعض العامة: أن الآية دالة على صحة صوم من أصبح جنباً، حيث إن (حتى) بين إباحة الجماع في الليل وإباحة الإصباح جنباً

غاية لجواز المباشرة والأكل والشرب إلى طلوع الفجر، وجواز تأخير الغسل إلى الصبح لازم إباحة المباشرة في الزمان المتصل بالصبح<sup>١</sup>.

وفيه منع الملازمة، فإن حرمة الإصباح جنباً لا ينافي جواز المباشرة قبل الفجر، لأنه إذا باشر قبل الصبح لم يرتكب حراماً من حيث تلك المباشرة، بل بالإصباح جنباً.

والحاصل: أنه لو دلّ الدليل على مفطرية الإصباح جنباً، لا يعارضه ظهور الآية، بل الآية ساكية عن مفطرية البقاء على الجنابة نفيًا وإثباتاً.

﴿ثُمَّ آتَمُوا﴾ وَأَدِيمُوا ﴿الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فَإِنْ أَوَّلَهُ آخِرَ وَقْتِهِ، وَيَعْلَمُ بِزَوَالِ الْحُمَرَةِ الْمَشْرِقِيَّةِ عَنْ قِمَّةِ الرَّأْسِ.

ثم بعد بيان حرمة مباشرة النساء في زمان الصيام، بين حرمتها في حال الاعتكاف بقوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ لَيْلاً وَنَهَاراً بِالْجَمَاعِ وَمَقْدَمَاتِهِ ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ وَمُقِيمُونَ بِقَصْدِ الْعِبَادَةِ الْمَعَهُودَةِ ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾ عموماً على قول، وفي كل مسجد جامع على قول آخر، أو خصوص مسجد جمع فيه النبي ﷺ أو الوصي جمعة أو جماعة على قول ثالث، فإن باشر أحد في حال الاعتكاف ليلًا أو نهاراً يبطل على ما ذهب إليه بعض الأصحاب.

ثم بالغ في الرّدع عن مخالفة أحكامه بقوله: ﴿تِلْكَ الْأَحْكَامُ﴾ حُدُودُ اللَّهِ وَحُرْمَاتُهُ ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فَإِنَّ النَّهْيَ عَنِ الْقُرْبِ أْبْلَغُ فِي التَّحْرِيمِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْمُخَالَفَةِ.

عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ جَمِيٍّ، وَإِنْ جِئِيَ اللَّهُ مُحَارِمُهُ، فَمَنْ رَعَى حَوْلَ الْجَمِيِّ يَوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»<sup>٢</sup>.

﴿كَذَلِكَ﴾ التَّبَيُّنُ وَالتَّوَضُّيْحُ الَّذِي لَا يَتَقَيُّ الشُّكُّ مَعَهُ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ وَيُوضِّحُ ﴿آيَاتِهِ﴾ وَحُجَجَهُ عَلَى تَوْجِيهِهِ وَنُبُوَّةِ نَبِيِّهِ وَسَائِرِ أَحْكَامِهِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ كَافَةً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عِقَابَهُ وَيَحْتَرِزُونَ عَنِ مُخَالَفَتِهِ.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [١٨٨]

ثم أنه تعالى بعد نهى الناس عن أكل أموال أنفُسهم في أيام شهر رَضَّان، نهى عن أكل أموال الغير على خلاف حكمه وبغير الوجه الذي شرعه في جميع الأوقات، بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يتصرف بعضكم في أموالك بعض آخر، ولا تتعاملوا ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ وبالوجه الذي يكون منهياً ومحرمًا، كأكلها بشهادة الزور، أو اليمين الكاذبة، أو بالصلح، مع العلم بعدم الحق أو غير ذلك من الوجوه غير الجائزة.

قيل: نزلت في رجلين تخاصما في أرض بينهما، فأراد أحدهما أن يحلف على أرض أخيه بالكذب، فقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوحَى إِلَيَّ وَأَنْتُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ شَيْئًا مِنْ حَقِّ أَخِيهِ، فَإِنَّمَا أَقْضِي لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ، فَبُكِّيًا، وَقَالَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا أَحِلُّ لَصَاحِبِي. فَقَالَ: «اذْهَبَا فْتَوَخَّيَا ثُمَّ اسْتَهِمَا، ثُمَّ لِيَحْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ»<sup>١</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «كَانَتْ قَرِيشٌ تَقَامِرُ الرَّجُلَ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَهَنَاهُمْ اللَّهُ»<sup>٢</sup>.

وعن (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «يَعْنِي بِالْبَاطِلِ الْيَمِينَ الْكَاذِبَةَ، يَتَقَطَّعُ بِهَا الْأَمْوَالُ»<sup>٣</sup>.

وعن (الفتية) و(العياشي): عن الصادق عليه السلام أنه سئل: الرَّجُلُ مَنَّا يَكُونُ عِنْدَهُ الشَّيْءُ يَتَبَلَّغُ بِهِ، وَعَلَيْهِ الدِّينُ، أَيْطَعُهُ عِيَالَهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِمَيْسَرَةٍ فَيَقْضِي دَيْنَهُ، أَوْ يَسْتَقْرِضُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي حُبِّ الزَّامَانِ وَشِدَّةِ الْمَكَاسِبِ، أَوْ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ؟

فقال: «يَقْضِي بِمَا عِنْدَهُ دَيْنَهُ، وَلَا يَأْكُلُ أَمْوَالَ النَّاسِ إِلَّا وَعِنْدَهُ مَا يُؤْذِي إِلَيْهِمْ<sup>٤</sup>، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾<sup>٥</sup> - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَلَا يَسْتَقْرِضُ عَلَى ظَهْرِهِ [إِلَّا وَعِنْدَهُ]

فسي جواز وفاة<sup>٦</sup> الخبر.

ولعله لهذه الرواية ذهب أبو الصلاح إلى حرمة الاقتراض على من لا يكون عنده ما يفتضيه ولا يتقدر لو طوَّلب على القضاء<sup>٧</sup>.

الاستقراض مع عدم القدرة على الوفاء

١. تفسير أبي السعود ٢٠٢: ١، تفسير روح البيان ٣٠٢: ١.

٢. تفسير العياشي ١: ٣١٠/١٩١، مجمع البيان ٥٠٦: ٢.

٣. زاد في تفسير العياشي: حقوقهم.

٤. تفسير العياشي ١: ٣١٣/١٩٢، من لا يحضره الفقيه ٣: ٤٧٦/١١٢.

٥. الكافي ٥: ٢/٩٥.

٦. الكافي في الفقه: ٣٣٠.

٧. مجمع البيان ٥٠٦: ٢.

وفيه: أَنَّهَا مُعَارَضَةٌ برواية موسى بن بكر<sup>١</sup>، عن أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام: «مَنْ طَلَبَ هَذَا الرِّزْقَ مِنْ حِلِّهِ لِيَعُودَ بِهِ [عَلَى] نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ، كَانَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ غُلِبَ عَلَيْهِ فَلْيَسْتَدِينْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى رَسُولِهِ مَا يَقُوتُ بِهِ عِيَالَهُ، فَإِنْ مَاتَ وَلَمْ يَقْضِهِ كَانَ عَلَى الْإِمَامِ قَضَاؤُهُ، فَإِنْ لَمْ يَقْضِهِ كَانَ عَلَيْهِ وَرْؤُهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْفَارِيقِينَ﴾<sup>٢</sup> فَهُوَ فَقِيرٌ مَسْكِينٌ مُتْعَزٌ<sup>٣</sup> ونحوه غيره، والترجيحُ معه لتأيدِهِ بِإِطْلَاقِ كَثِيرٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ وَفَتَاوَى جُلِّ الْأَصْحَابِ فَلَا يَدُّ مِنْ حَمْلِ الرِّوَايَةِ الْمَانِعَةِ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْكَرَاهَةِ. ثُمَّ لِكَمَالِ شِدَّةِ حُرْمَةِ إعْطَاءِ الْأَمْوَالِ رَشْوَةً خَصَّهُ بِالذِّكْرِ مَعَ دُخُولِهِ فِي عُمُومِ النَّهْيِ السَّابِقِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا﴾ وَتَلَقُّوْهَا «إِلَى الْحُكَّامِ» وَالْقَضَاءِ السَّوِّ بِعِنَانِ الرِّشْوَةِ ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بِأَحْكَامِهِمُ الْبَاطِلَةَ وَالرِّشْوَةَ وَالْمُصَانَعَةَ «فَرِيقًا» وَقِسْمَةً «مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ» مُلَابَسًا «بِالْإِثْمِ» وَالْمَعْصِيَةِ وَالظُّلْمِ، أَوْ بِسَبَبِ الْإِثْمِ مِنَ الْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنْتُمْ مُبْطِلُونَ ظَالِمُونَ، وَمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّ ارْتِكَابَ الْقَبِيحِ مَعَ الْعِلْمِ يَقْتَضِيهِ أَفْتَحَ. فِي حُرْمَةِ التَّرَافُعِ عَنْ الْقَمِيِّ عليه السلام: قَالَ الْعَالِمُ عليه السلام: «قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ حُكَّامٌ يَحْكُمُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، عِنْدَ قَضَاءِ الْجُورِ فَتَنَى أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَحْكُمُونَ بِالْحَقِّ فَتَبْطُلُ الْأَمْوَالُ»<sup>٥</sup>. وَقِيلَ: إِنَّ الرُّمَادَ أَنْ لَا تُلْقُوا أَمْوَالَكُمْ وَالْحُكُومَةَ فِيهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا وَتَأْخُذُوا بِالْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ وَشَهَادَةِ الزُّورِ وَالصُّلْحِ - مَعَ الْعِلْمِ بَعْدَ الْحَقِّ - طَائِفَةٌ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ عِصْيَانًا وَظُلْمًا، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الرُّمَادُ مِنَ الْحُكَّامِ عُمُومُ الْقَضَاءِ، وَالنَّهْيُ رَاجِعٌ إِلَى أَخِذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْدَّعْوَى الْبَاطِلَةِ. عَنْ (الْعِبَاشِيِّ) عَنِ الرُّضَا عليه السلام أَنَّهُ كَتَبَ فِي تَفْسِيرِهَا: «إِنَّ الْحُكَّامَ الْقَضَاءُ» ثُمَّ كَتَبَ تَحْتَهُ: «هُوَ أَنْ يَعْلَمَ الرَّجُلُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَيَحْكُمَ لَهُ الْقَاضِي، فَهُوَ غَيْرُ مَعْذُورٍ فِي أَخِذِهِ ذَلِكَ الَّذِي حَكَمَ لَهُ [بِهِ] إِذَا كَانَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ ظَالِمٌ»<sup>٦</sup>.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا  
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ أَنْتَقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ

١. في النسخة: موسى بن بكر، راجع: معجم رجال الحديث ٩: ٢٢.  
٢. التوبة: ٦٠/٩٠.  
٣. الكافي ٥: ٣/٩٣. ٤. في المصدر: يتحاكم.  
٥. تفسير القمي ١: ٦٧.  
٦. تفسير العباسي ١: ٣١٢/١٩١، التهذيب ٦: ٥١٨/٢١٩.

## لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ [١٨٩]

ثم أنه روي أن معاذ بن جبل وتعلبة بن غنم، وهم كانا من الأنصار، قالوا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال يتقص حتى يعود كما بدأ؟ لم لا يكون على حالة واحدة كالشمس؟ [فنزلت هذه الآية].<sup>١</sup>

ولما جرى ذكر شهر رمضان لتعيين وقت الصوم، ذكر الله هذا السؤال وجوابه هنا بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ حَكْمَةِ اخْتِلَافِ حَالِ الْأَهْلِ﴾ بزيادة نورها وتقصانها.

قيل: وجه إطلاق الهلال على أول ما يبدو من نور القمر إلى ثلاث ليال أن العرب كانوا يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته.<sup>٢</sup>

وروي عن معاذ: أن اليهود سألت عن الأهلة<sup>٣</sup>، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ الْأَهْلَةَ هِيَ مَوَاقِيتُ وَمَعَالِمُ جَعَلَتْ لِلنَّاسِ يُوقَتُونَ بِهَا تِجَارَاتِهِمْ وَذِيُونَهُمْ وَعِدَّةُ نِسَانِهِمْ، وَعِبَادَاتِهِمْ مِنْ صَوْمِهِمْ وَفِطْرِهِمْ وَصَلَوَاتِ جَمْعِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ، وَسَائِرُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى التَّوْقِيتِ مِنْ أُمُورِ مَعَايِهِمْ وَمَعَادِهِمْ.

ثم لكثرة الاهتمام بالحج خصه بالذكر بقوله: ﴿وَالْحَجَّ﴾ يُعَرَفُ بِهَا وَقْتُهُ، حَيْثُ إِنَّهُ مَخْتَصٌّ بِالشَّهْرِ الْمُعَيَّنَةِ، وَلَا يَجُوزُ نَقْلُهُ إِلَى غَيْرِهَا كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي السَّنَةِ.

ثم لما جرى ذكر الحج في المقام، ذكر الله تعالى بدعة من بدع المشركين في حال الإحرام استطراداً.

روي عن الباقر عليه السلام: «أَنَّهُمْ إِذَا أَحْرَمُوا كَانُوا لَمْ يَدْخُلُوا دَاراً وَلَا أَسْطَاطاً مِنْ بَابِهِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَنْتَقِبُونَ فِي ظُهُورِ بِيُوتِهِمْ نَقَباً يَدْخُلُونَ وَيَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَيُسَمُّونَهُ بَرّاً، فَهَاجَهُمُ اللَّهُ عَنِ التَّدْيِينِ بِهِ»<sup>٤</sup> بقوله: ﴿وَأَنَسَ الْبِرَّ﴾ وَلَا الثَّرْبَةَ إِلَى اللَّهِ ﴿بِأَنْ تَأْتُوا﴾ وَتَدْخُلُوا ﴿الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وَخَلْفَهَا ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ مَا يَقْرُبُ إِلَى جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ بِرٍّ ﴿مَنْ اتَّقَى﴾ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. كَذَا رَوَى عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.<sup>٥</sup>

١. تفسير الرازي ٥: ١٢٠، تفسير روح البيان ١: ٣٠٣.

٢. تفسير روح البيان ١: ٣٠٣.

٣. تفسير الرازي ٥: ١٢٠.

٤. تفسير الصافي ١: ٢٠٨.

٥. تفسير الصافي ١: ٢٠٨.

قِيلَ فِي وَجْهِ ارْتِيَاطِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِمَا قَبْلَهَا: إِنَّهُمْ لَمَّا سَأَلُوا عَنْ حِكْمَةِ تَغْيِيرِ حَالِ الْقَمَرِ، وَدَعَوْهُمْ اللَّهَ عَنِ السُّؤَالَاتِ غَيْرِ الْمُفِيدَةِ لِلدِّينِ، كَأَنَّهُ قَالَ شَبَّحَانَا: لَا تَسْأَلُوا عَمَّا لَا يَبْتَغِيكُمْ، بَلِ اسْأَلُوا عَمَّا الْبَحْثُ فِيهِ أَهَمُّ، وَهُوَ أَنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنَّ إِيَّانَا الثَّبُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا بَرًّا، وَهَذَا خَطَأٌ مَخْصُصٌ، بَلِ الْبَرُّ هُوَ تَعْوَى اللَّهِ ۚ

وقيل: إنهم لما سألوا عن حِكْمَةِ اختلاف حال القَمَرِ<sup>٢</sup>، علمهم الله طريقَ تَحْصِيلِ العلم، بقوله: ﴿وَأَتُوا الْبَيِّنَاتِ مِنْ أَرْبَائِهِنَّ﴾ وهي كناية عن وجوب السؤال عَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ والأحكامِ من قِبَلِ اللَّهِ وهو النبي وأوصيائه صلوات الله عليهم، الذين وَصَّاهُمُ اللَّهُ بالِرَّاسِخِينَ في العلم، والعُلَمَاءُ الذين أَخَذُوا الْعِلْمَ منهم، دون من يكون عِلْمُهُ مَتَّبِعًا عَلَى الْخَرَصِ وَالظَّنِّ وَالْقِيَاسِ والاستِحْسَانِ، وأقوال الرجال الذين لَا يُؤْمِنُونَ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

عن (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قد جعل الله للعلم أهلاً، وفَرَضَ على العباد طاعتهم بقوله: ﴿وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ والْبُيُوتُ هي بيوتُ العلم الذي استودعَه الأنبياء، وأبوابها أوصياؤهم»<sup>٣</sup>.

وعنه عليه السلام: «نَحْنُ الْبُيُوتُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ [بِهَا] أَنْ تُؤْتَى مِنْ أَبْوَابِهَا، نَحْنُ بَابُ اللَّهِ وَبُيُوتُهُ الَّتِي يُؤْتَى مِنْهَا، فَمَنْ تَابَعَنَا وَأَقْرَبَ بِلَايَتِنَا فَقَدْ أَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَمَنْ خَالَفَنَا وَقَصَّلَ عَلَيْنَا غَيْرَنَا فَقَدْ أَتَى الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا»<sup>٤</sup>.

وفي رواية: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ شَاءَ عَرَفَ النَّاسَ نَفْسَهُ حَتَّى يَعْرِفُوهُ [وَحَدَهُ] وَيَأْتُوهُ مِنْ بَابِهِ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَنَا أَبْوَابَهُ وَصِرَاطَهُ وَسَبِيلَهُ وَبَابَهُ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ» قال: «فَمَنْ عَدَلَ عَنْ وَلَايَتِنَا وَفَضَّلَ عَلَيْنَا غَيْرَنَا، فَقَدْ أَتَى الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَإِنَّهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاقُونَ»<sup>٥</sup>، الخبر.

ويمكن أن يكون المراد من إتيان الثبوت من أبوابها، البيوت الظاهرية المسكونة، والبيوت المعنوية العلمية بإرادة القدر المشترك بين المعنى الحقيقي والمجازي.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَاحْزَرُوا مُخَالَفَةَ أَحْكَامِهِ وَتَغْيِيرَهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَتَقْوِزُونَ بِجَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ وَالْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ.

۲. تفسیر البیضاوی ۱: ۱۰۸.

٥. الإحتجاج: ٢٢٨.

٤. الإحتجاج: ٢٢٧.

٣. الإحتجاج: ٢٤٨.

٥. الإحتجاج: ٢٢٨.



وقيل في تأويل الآية: إنه كان في الجاهلية من هم بسفر أو أمر يصنعه فمنع من ذلك، لم يدخل داره من الباب حتى يحصل له ذلك. وكانت قريش وقبائل العرب من خرج لسفر أو حاجة ثم رجع ولم يظفر بذلك، كان ذلك طيرة، فتهاهم الله عن ذلك، وأخبر أن الطيرة ليس ببر، والبر [بر] من توكل على الله ولم يخف غيره<sup>١</sup>.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ \*  
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ  
مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ  
فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ \* فَإِنْ أَسْتَهْوُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَقَاتِلُوهُمْ  
حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَسْتَهْوُوا فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى  
الظَّالِمِينَ [١٩٠-١٩٣]

ثم أنه تعالى لما أمر بالتقوى، عَظَمَ بِالْأَمْرِ بِأَشَدِّ أَقْسَامِهِ وَأَشَقَّهَا عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ قِتَالُ أَعْدَاءِ اللَّهِ، بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَلَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وَنُصْرَةِ نَبِيِّهِ، وَإِعْزَازِ دِينِهِ.  
روي أنه سئل النبي ﷺ عَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: «هُوَ مَنْ قَاتَلَ لِكَلِمَةِ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَلَا يُقَاتِلُ رِيَاءً وَلَا [سَمْعَةً]»<sup>٢</sup>.

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ. عَنِ (الْمَجْمَعِ) عَنْهُمْ ﷺ: «هِيَ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾»<sup>٣</sup>.

وقيل: هذه الآية أول آية نزلت في القتال، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عن قتال من تركه، وبقي على هذه الحالة إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>٤</sup>.  
وقيل: إنه لما رجع رسول الله ﷺ عن الْحُدَيْبِيَّةِ وعاد إلى المدينة، ثم تجهز في السنة القابلة، خاف أصحابه أن لا يثقوا قريش بالعهد ويصدوهم ويقاتلوهم، وكانوا كارهين لمقاتلتهم في الشهر الحرام

٢. تفسير الرازي ٥: ١٢٨.

١. تفسير روح البيان ١: ٣٠٤.

٣. مجمع البيان ٢: ٥١٠، والآية من سورة النساء: ٧٧/٤.

٤. تفسير الرازي ٥: ١٢٧، والآية من سورة التوبة: ٥/٩.

في الحَرَمِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ كَيْفِيَّةَ الْمُقَاتَلَةِ إِلَى أَنْ احْتَاجُوا إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بِابْتِدَاءِ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ مُخْرِمِينَ، وَبِقَتْلِ الصَّبِيَةِ وَالنِّسَاءِ، وَبِالْمَثَلَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا يُرِيدُ بِهِمْ خَيْرًا.

ثُمَّ شَدَّدَ سُبْحَانَهُ فِي قِتَالِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْجَلِّ أَوْ الْحَرَمِ وَحَدَّثَهُمْ.

رَوَى عَنْهُمْ عليه السلام: «أَنَّهَا نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾»<sup>٢</sup>.  
﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ مَكَّةَ، وَقَدْ فَعَلَ عليه السلام بِمَنْ لَمْ يُسْلِمِ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْفَتْحِ.

وَرَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عليه السلام أَجْلَى كُلِّ مُشْرِكٍ مِنَ الْحَرَمِ. ثُمَّ أَجْلَاهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَقَالَ: «لَا يَجْتَمِعُ دِينَارٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»<sup>٣</sup>.

ثُمَّ أَنَّهُ رَوَى أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ كَانَ قَتَلَ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَعَابَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ فَنَزَلَتْ<sup>٤</sup>:

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ وَهِيَ مِحْنَةُ الْإِخْرَاجِ وَجَلَاءِ الْوَطَنِ<sup>٥</sup>. وَقِيلَ: هِيَ الشُّرْكُ<sup>٦</sup> وَصَدُّهُمْ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْحَرَمِ ﴿أَشَدُّ﴾ وَأَصْعَبُ ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ لِدَوَامِ تَعْبِهَا وَبَقَاءِ أَلَمِ النَّفْسِ بِهَا.

سُئِلَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: الَّذِي يُتِمَّنَى فِيهِ الْمَوْتُ<sup>٧</sup>.  
وَقِيلَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْتَعْظِمُونَ الْقَتْلَ فِي الْحَرَمِ، وَيَعْيَبُونَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الْكُفْرَ وَالشُّرْكَ بِاللَّهِ فِي الْحَرَمِ أَشَدُّ قُبْحًا مِنَ الْقَتْلِ<sup>٨</sup>.

ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ شَرْطَ جَوَازِ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ أَنْ يَكُونَ بِعُنْوَانِ الدَّفَاعِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ﴾ بِأَدِينٍ بِهِ ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وَلَا تَهْتِكُوا بِالْقِتَالِ فِيهِ حُرْمَتَهُ ﴿حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ وَيَبَادِرُوا إِلَى

١. تفسير الرازي ٥: ١٢٧.

٢. مجمع البيان ٢: ٥١٠، والآية من سورة الأحزاب: ٤٨/٣٣.

٣. تفسير الرازي ٥: ١٣٠.

٤. مجمع البيان ٢: ٥١١، تفسير الرازي ٥: ١٣٠.

٥. كذا، والظاهر: والجلاء من الوطن.

٦. تفسير البيضاوي ١: ١٠٩.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٦.

٨. الكشف ١: ٢٣٦.

تَالِكُمْ.

﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ﴾ فيه بادين به ﴿فَقَاتِلُوهُمْ﴾ فيه دِفاعاً، ولا تبالوا هَتَكَ حُرْمَةِ الْحَرَمِ، لَأَنَّهُمُ الَّذِينَ هَتَكُوا حُرْمَتَهُ وَأَنْتُمْ تُدَافِعُونَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿كَذَلِكَ﴾ الْقَتْلُ ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ عَلَى مُبَادَرَتِهِمْ بِالْقِتَالِ، فَإِنَّهُ يُفَعَّلُ بِهِمْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا.

﴿فَإِنْ أَتَتْهُمُ﴾ وَأَنْصَرَفُوا عَنِ الْقِتَالِ وَاعْتَقَادَ الشُّرْكَ بِاللَّهِ وَتَابُوا إِلَيْهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يَغْفِرُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُ عَفَّوٌّ لِلْعَصَاةِ وَسَتَّارٌ لِلسَّيِّئَاتِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ التَّائِبِينَ.

ثُمَّ أَكَّدَ اللَّهُ الْأَمْرَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ مُجْدِّدِينَ فِيهِ ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿فِتْنَةٌ﴾ الشُّرْكَ، وَحَتَّى يُسْلِمُوا ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ﴾ فِي الْأَرْضِ خَالِصاً ﴿لِلَّهِ﴾ لَا شِرْكَ لِلشَّيْطَانِ وَالْأَصْنَامِ فِيهِ ﴿فَإِنْ أَتَتْهُمُ﴾ وَرَجَعُوا عَنِ الشُّرْكَ إِلَى التَّوْحِيدِ ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ جَائِزٌ مُسْتَحْسَنٌ عَلَى أَحَدٍ ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِاخْتِيَارِ الْكُفْرِ.

قيل: تَسْمِيَةُ الْجَزَاءِ عُدْوَاناً مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ وَالْإِزْدِوَاجِ<sup>١</sup>.

عن (العياشي): عن أحدهما عليه السلام: «أَيُّ لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ذُرِّيَّةِ قَتَلَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام»<sup>٢</sup> وقريب منه رواية أخرى<sup>٣</sup>.

وعن (العياشي): عن الرضا عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي حَدِيثِ رَوَى عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا خَرَجَ الْقَائِمُ قَتَلَ ذُرَارِي قَتَلَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام بِفِعَالٍ أَبَانَهُمْ؟» فَقَالَ عليه السلام: «هُوَ كَذَلِكَ».

فقيل: فقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾<sup>٤</sup> ما معناه؟ فقال: «صَدَقَ اللَّهُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ، لَكِنْ ذُرَارِي قَتَلَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام رَضُوا بِفِعَالٍ أَبَانَهُمْ، وَيَفْتَخِرُونَ بِهَا، وَمَنْ رَضِيَ شَيْئاً كَانَ كَمَنْ أَتَاهُ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي الْمَشْرِقِ فَرَضِيَ [بِقَتْلِهِ] رَجُلٌ فِي الْمَغْرِبِ، لَكَانَ الرَّاضِي عِنْدَ اللَّهِ شَرِيكَ الْقَاتِلِ. وَإِنَّمَا يَقْتُلُهُمُ الْقَائِمُ إِذَا خَرَجَ لِإِصْهَامِهِمْ بِفِعَالٍ أَبَانَهُمْ»<sup>٥</sup>.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ

١. تفسير الصافي ١: ٢١٠.

٢. تفسير العياشي ١: ٣٢٢/١٩٣.

٣. الزمر: ٧/٣٩.

٤. علل الشرائع: ١/٢٢٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥/٢٧٣.

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ  
\* وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ [١٩٥ و ١٩٤]

ثم أنه تعالى بعد ما رخص المسلمين في قتال المشركين في الحرم دفاعاً؛ رخصهم فيه في الأشهر الحرم قصاصاً، بقوله: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ» يُقَابِلُ «بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ» فلا تُبَالُوا بهنَّكِهِ بإزاء هَتَاكِ المشركين إيَّاه.

روي: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي عَامِ الْحَدِيثِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ<sup>١</sup>. ونقل أن بعد صدَّ المشركين المسلمين، وقَعَ بينهم تَرَامٍ بِسِهَامٍ وَحِجَارَةٍ، وَلَمَّا اتَّفَقَ خُرُوجَ الْمُسْلِمِينَ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ كَرِهُوا أَنْ يِقَاتِلُوهُمْ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ<sup>٢</sup>.

ثُمَّ عَمَّ حُكْمُ الْقِصَاصِ بِقَوْلِهِ: «وَالْحُرُمَاتُ» وَجَمِيعُ الْأُمُورِ الَّتِي يَجِبُ رِعَايَةُ حُرْمَتِهَا، يَجْرِي فِيهَا «قِصَاصٌ» وَحُكْمُ الْمُعَامَلَةِ بِالْمِثْلِ، فَإِنْ صَدَّكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَنْ دُخُولِ الْحَرَمِ عُنُوَّةً فَادْخُلُوا أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ عُنُوَّةً، وَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فِي الْحَرَمِ وَفِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَقَاتِلُوهُمْ، حَيْثُ إِنَّ الْحُرُمَاتِ لَا تُرَاعَى فِي حَقِّ مَنْ لَا يُرَاعِيهَا.

عن (التهديب) و(العباشي): أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَيْبَتْنَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟ فَقَالَ: «إِذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ ابْتَدَوْهُمْ بِاسْتِحْلَالِهِمْ ثُمَّ رَأَى الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ»<sup>٣</sup>.

ثم أنه تعالى لِتَقْرِيرٍ مَا بَيَّنَّ مِنَ الْحُكْمِ ذَكَرَ فَذَلَكَةَ لَهُ بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ اعْتَدَى» وَتَجَاوَزَ عَلَيْكُمْ نَفْساً أَوْ عِرْضاً أَوْ مَالاً «فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» وَعَاقِبُوهُ «بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» مِنَ الْجَنَایَةِ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا عَنْ الْحَدِّ الثَّرْخِصِ فِيهِ.

عن الصادق عليه السلام في رجل قَتَلَ رجلاً في الحرم، وسَرَقَ في الحرم، فقال: «يَقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ [في الحرم] صَاحِراً، إِنَّهُ<sup>٤</sup> لَمْ يَزَلْ لِحَرَمٍ حُرْمَةً، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

٢. تفسير روح البيان ١: ٣٠٧.

١. تفسير الصافي ١: ٢١٠.

٣. التهديب ٦: ٢٤٣/١٤٢، تفسير العباسي ١: ٣٢١/١٩٣.

٤. في النسخة: وصغار له، لأنه.

مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» يعني في الحَرَم، وقال: «فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ»<sup>١</sup>.

«وَاتَّقُوا اللَّهَ» وأحذروا غَضَبَهُ، فلا تَتَجَاوَزُوا عَمَّا رَخَّصَ لَكُمْ، ولا تَتَمَاتِحُوا بِالْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ وَفِي

الشَّهْرِ الْحَرَامِ «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ» بِالنُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ وَالْحِفْظِ «مَعَ الْمُتَّقِينَ».

ثم روي أنه لما نَزَلَتْ «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ» قال رجلٌ من الحاضرين: يا رسول الله،

مالنا زَادَ، وليس أحدٌ يَطْعِمُنَا، فأمر رسول الله ﷺ أن يُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وأن يَتَصَدَّقُوا، وأن لَا يَكْفُوا

أَيْدِيَهُمْ عَنِ الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ تَحْمَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فنزلت [هذه الآية] على وَفْقِ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ<sup>٢</sup>.

«وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَنُصْرَةَ دِينِهِ، وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ مِنَ الْجِهَادِ وَسَانِرِ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، وَهَذَا أَمْرٌ

بِالْجِهَادِ بِالْمَالِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ بِالنَّفْسِ.

في وجوب الاقتصاد «وَلَكِنْ» لَكِنْ «لَا تُلْقُوا» أَنْفُسَكُمْ، وَلَا تَطْرَحُوهَا «بِأَيْدِيكُمْ» وَبِمُبَاشَرَتِكُمْ «إِلَى

فِي الْإِنْفَاقِ

التَّهْلُكَةِ» وَالتَّلْفِ بِسَبَبِ الْإِسْرَافِ فِي الْإِنْفَاقِ وَتَضْيِيعِ أَمْرِ الْمَعَاشِ وَسَانِرِ مَا يُوْذِي

إِلَى الْهَلَاكِ.

عن أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَعَزَّ دِينَهُ وَنَصَرَ رَسُولَهُ ﷺ قُلْنَا فِيمَا بَيْنَنَا: إِنَّا قَدْ

تَرَكْنَا أَهْلَنَا وَأَمْوَالَنَا حَتَّى فَشَا الْإِسْلَامُ وَنَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَلَوْ رَجَعْنَا إِلَى أَهْلِنَا وَأَمْوَالِنَا فَأَقَمْنَا فِيهَا

وَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنَّا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. فَالتَّهْلُكَةُ مَا كَانَ سَبَباً لِلْهَلَاكِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ

وَتَرِكَ الْجِهَادِ<sup>٣</sup>.

في وجوب طاعة «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ» قَالَ: «طَاعَةُ السُّلْطَانِ وَاجِبَةٌ، وَمَنْ تَرَكَ طَاعَةَ السُّلْطَانِ فَقَدْ تَرَكَ طَاعَةَ

السُّلْطَانِ

اللَّهُ تَعَالَى، وَدَخَلَ فِي نَهْيِهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»<sup>٤</sup>.

عن (الكافي): عَنِ الصَّادِقِ ع قَالَ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَنْفَقَ مَا فِي يَدَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، مَا [كَانَ]

أَحْسَنَ وَلَا وَفَّقَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»<sup>٥</sup>.

ثم أَكَّدَ شُبْحَانَهُ الْأَمْرَ بِالْإِنْفَاقِ، بِالْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ، مِنَ الْإِنْفَاقِ وَسَانِرِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِقَوْلِهِ:

١. الكافي ٤: ٢٢٧، تفسير الصافي ١: ٢١٠.

٢. تفسير الرازي ٥: ١٣٥.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٠٩.

٤. أمالي الصدوق: ٤١٨/٥٥٣.

٥. الكافي ٤: ٧/٥٣.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَتَفَضَّلُوا عَلَيْهِمْ مُرَاعِيَيْنَ لِلِاِقْتِصَادِ، أَوْ التَّزِمُوا بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَمِنْهُمْ الْمُتَّقِدُونَ فِي الْإِنْفَاقِ.

وَقِيلَ: إِنَّ مِمَّا يُوْدِي إِلَى الْهَلَاكِ تَرْكُ الْإِنْفَاقِ فِي أَصْحَابِ الْجِهَادِ، فَيَسْتَوِلِي عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ فَيُهْلِكُهُمْ<sup>١</sup>.

وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِيتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَيُؤْتِي الْحَجَّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [١٩٦]

ثُمَّ أَنَّهُ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ إِلَى مَكَّةَ فَمَنَعَهُ الْكَفَّارُ عَنِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَنَزَلَتْ: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾<sup>٢</sup> وَأَتَوْا بِهِمَا كَامِلَيْنِ بِشَرَائِطِهِمَا وَأَرَاكَهُمَا خَالِصَيْنِ لَوَجْهِهِ اللَّهِ.

عَنِ (الكَافِي) وَ(الْعِيَّاشِي) سَتَلَ الصَّادِقُ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «هُمَا مَقْرُوضَانِ»<sup>٣</sup>.

وَعنه ﷺ قَالَ: «الْعُمْرَةُ وَاجِبَةٌ عَلَى الْخَلْقِ بِمَنْزِلَةِ الْحَجِّ عَلَى مَنْ اسْتَطَاعَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾»<sup>٤</sup>.

وَفِي رَوَايَةٍ، قَالَ: يَعْنِي بِتَمَامِهَا آدَاءُ هُمَا وَاتِّقَاءُ مَا يَنْتَقِي الْمُحَرِّمُ فِيهِمَا<sup>٥</sup>.

وَعَنِ (الْمَجْمَعِ): عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ وَالسَّجَّادِ ﷺ: «يَعْنِي أَقِيمُوهُمَا إِلَى آخِرِ مَا فِيهَا»<sup>٦</sup>.

وَفِي رَوَايَةٍ: «تَمَامُهُمَا احْتِثَابُ الرَّفَثِ، وَالْفُسُوقِ، وَالْجِدَالِ فِي الْحَجِّ»<sup>٧</sup>.

وَعَنِ (الكَافِي): عَنْهُ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحْرَسْتَ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَذَكَرِ اللَّهَ كَثِيرًا، وَقِلَّةَ الْكَلَامِ إِلَّا بِخَيْرٍ،

فِي أَنَّ زِيَارَةَ الْإِمَامِ فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ أَنْ يَحْفَظَ الْمَرْءُ لِسَانَهُ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ»<sup>٨</sup>.

تَمَامِ الْحَجِّ  
وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «تَمَامُ الْحَجِّ لِقَاءُ الْإِمَامِ»<sup>٩</sup>.

١. مجمع البيان ٢: ٥١٦.

٢. الكافي ٤: ٢٦٥، تفسير العياشي ١: ٣٣٠/١٩٥.

٣. الكافي ٤: ٢٦٥، تفسير الصافي ١: ٢١١.

٤. الخصال: ٩/٦٠٦.

٥. الكافي ٤: ٣٣٧.

٦. عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ٢٩/٢٦٢.

٧. تفسير الرازي ٥: ١٤٤.

٨. علل الشرائع ١/٤٠٨.

٩. مجمع البيان ٢: ٥١٨.

وعن الصادق عليه السلام: «إِذَا حَجَّ أَحَدُكُمْ فَلْيَخْنِمِ حَجَّهُ بِزِيَارَتِنَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْحَجِّ»<sup>١</sup>.  
أقول: وذلك لأنَّ الْحَجَّ زِيَارَةُ اللَّهِ فِي بَيْتِهِ، وَلَمَّا كَانَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنَ اللَّهِ النَّاطِقَةِ، وَبِدَّةِ الْبَاسِطَةِ، وَجَنَّةِ، وَبَابَةِ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ، وَخَازِنَ عِلْمِهِ، وَمُعَدِّنَ حِكْمَتِهِ، كَانَتْ زِيَارَتُهُ زِيَارَةَ اللَّهِ فِي عَرْشِهِ، وَلِذَا عُدَّتْ مِنْ تَمَامِ الْحَجِّ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْمَحْضُورِ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: «فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ» وَمِنْغَمْتُمْ مِنَ الْحَجِّ بَعْدَ إِحْرَامِهِ لَخَوْفٍ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ لِمَرَضٍ، وَأَزْدْتُمْ التَّحْلِيلَ مِنَ الْإِحْرَامِ «فَمَا اسْتَيْسَرَ» وَمَا تَيْسَّرَ لَكُمْ «مِنْ الْهَدْيِ» وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ، أَعْلَاةُ الْبَغِيرِ، وَأَوْسَطُهُ الْبَقَرَةُ، وَأَقْلَاهُ الشَّاةُ. وَقِيلَ: كُلُّ مَا تَيْسَّرَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَذَا لِأَنَّهُ بِمِيزَةِ الْهَدْيَةِ الَّتِي يُهْدِيهَا الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ<sup>٢</sup>، وَمَا تَيْسَّرَ مِنْ شَيْءٍ وَاجِبٍ عَلَيْكُمْ.

«وَلَا تَخْلُقُوا» أَيُّهَا الْمَحْضُورُونَ «رُءُوسَكُمْ» وَلَا تَحْلُوا مِنْ إِحْرَامِكُمْ «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ» وَتَعْلَمُوا أَنَّ هَدْيَكُمْ الَّتِي يَعْشَمُوهَا قَدْ بَلَغَتْ مَنَى الَّذِي يَجِبُ النَّحْرُ أَوْ الذَّبْحُ فِيهِ إِنْ كَانَ الْإِحْرَامُ بِالْحَجِّ، أَوْ مَكَّةَ إِنْ كَانَ الْإِحْرَامُ بِالْعُمْرَةِ.

فِي حُكْمِ الْمَحْضُورِ عَنْ (الكَافِي) عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْمَصْدُودُ يَذْبَحُ حَيْثُ صُدَّ، وَيَرْجِعُ صَاحِبُهُ فَيَأْتِي بَعْدَ الْإِحْرَامِ النِّسَاءَ، وَالْمَحْضُورُ يَبْعَثُ بِهِدْيِهِ وَيَعْدُهُمْ يَوْمًا، فَإِذَا بَلَغَ الْهَدْيُ أَحْلَ هَذَا فِي مَكَانِهِ»<sup>٣</sup>.

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَجْزِيهِ شَاةٌ، وَالْبَدَنَةُ وَالْبَقَرَةُ أَفْضَلُ»<sup>٤</sup>.

«فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ» فِي حَالِ الْحَضَرِ «مَرِيضًا» يَحْتَاجُ إِلَى خَلْقِ الرَّأْسِ «أَوْ بِهِ أَذًى» وَالْمُكَانِ «مِنْ رَأْسِهِ» كَقَمَلٍ أَوْ صُدَاعٍ «فَقَدْ ذِيَّةٌ» مَعْنَى عَلَيْهِ إِذَا حَلَقَ، كَانَتْ الْفِذْيَةُ «مِنْ صِيَامٍ» فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ «أَوْ صَدَقَةٍ» وَهِيَ إِطْعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ مُدَّانٍ، أَوْ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مُدٍّ «أَوْ تُسْلِكُ» وَهُوَ الذَّبِيحَةُ، أَقْلَاهُ شَاةٌ، وَأَوْسَطُهَا بَقَرَةٌ، وَأَعْلَاهُ بَدَنَةٌ.

عَنِ (الكَافِي) وَ(الْعِيَّاشِي): عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، وَالْقَمَلِ يَنْتَازِرُ مِنْ رَأْسِهِ وَهُوَ مُحْرِمٌ، فَقَالَ لَهُ: أَتُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَأَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْلِقَ، وَجَعَلَ الصِّيَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَالصَّدَقَةَ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ مُدَّانٍ وَالتُّسْلُكُ

٢. تفسير روح البيان ١: ٣١١.

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٢/٢٨.

٣. الكافي ٤: ٣٧١/٩.

٤. تفسير العياشي ١: ١٩٦/٣٣٣.

شاة<sup>١</sup>.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «وكل شيء في القرآن (أو) فصاحبه بالخيار، يختار ما شاء، وكل شيء في القرآن (فمن) لم يجد كذا فعليه كذا) فالأولى الخيار»<sup>٢</sup> الخبر. والظاهر من الخيار الأخير الجري بالاختيار.

نسي حكم حج ثم أنه لما ذكر حكم المحصور لعدو أو مريض، بين حكم حال الأمن والسعة بقوله: التمتع في الأمن «فإذا أمئتم» من خوف العدو وبرئتم من المرض «فمن تمتع بالعمرة» وانتفع بما كان يحرم عليه بعد التحليل من إحرامها مستمراً عليه «إلى الحج» وإحرامه به «فما استيسر من الهدي» عليه، وهو شاة، على ما روي عن الصادق عليه السلام<sup>٣</sup>.

«فمن لم يجد الهدي» فصيام ثلاثة أيام واجب عليه في وقت الحج، أو أيام اشتغاله به. عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام في المتمتع لا يجد الهدي؟ قال: «يصوم قبل التروية [يوم ويوم التروية] ويوم عرفة».

قيل: قد قدم يوم التروية؟ قال: «يصوم ثلاثة أيام بعد الشريق».

قيل: لم يقيم عليه جماله؟ قال: «يصوم [يوم] الحصبة<sup>٤</sup> وبعده يومين».

قيل: وما الحصبة؟ قال: «يوم نفرة».

قيل: يصوم وهو مسافر؟ قال: «نعم، أليس [هو] يوم عرفة مسافراً! إنا أهل بيت نقول ذلك لقول الله عز وجل: «فصيام ثلاثة أيام في الحج» يقول: في ذي الحجة»<sup>٥</sup>. «وسبعة إذا رجعتم» إلى أهاليكم «تلك» الجملة «عشرة كاملة» وفيه زيادة توصية بصيامها.

في (التهذيب): عن الصادق عليه السلام أنه سأل شفيان الثوري: «أي شيء يعني بكاملة؟» قال: سبعة وثلاثة. قال: «أو [يختل] إذا على ذي حجاب، إن سبعة وثلاثة عشرة».

قال: فأني شيء هو أصلحك الله؟ قال: «أنظراً» قال: لا أعلم لي، فأني شيء هو أصلحك الله؟ قال: «الكاملة كمألفاً كمال الأضحية، سواء أتيت بها أو لم تأت»<sup>٦</sup> انتهى. وعلى هذا يكون المعنى أنه لا

١. الكافي ٤: ٢/٣٥٨، تفسير العياشي ١: ٣٣٦/١٩٧.

٢. الكافي ٤: ٢/٣٥٨، تفسير العياشي ١: ٣٣٦/١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢١٣.

٣. الكافي ٤: ١/٥٠٦، تفسير الصافي ١: ٢١٣.

٤. في النسخة: الخطيئة. ٥. في النسخة: الخطيئة. ٦. الكافي ٤: ١/٥٠٦، تفسير الصافي ١: ٢١٣.

٧. التهذيب ٥: ١٢٠/٤٠، تفسير الصافي ١: ٢١٤، وفي التهذيب: أتيت بها أو أتيت بالأضحية تماماً كمال الأضحية.



تَنْفُصُ ثَوَابَ صِيَامِ الْعَشْرَةِ عَنْ الْأُضْحِيَّةِ.

و﴿ذَلِكَ﴾ التَّمَنُّعُ بِمَحْرَمَاتِ الْإِحْرَامِ جَانِزٍ بَيْنَ الْعُمْرَةِ وَالْحَجِّ ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بَأَن يَكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ اثْنِي عَشَرَ مِيلاً فَمَا دُونَهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.  
عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «مَنْ كَانَ مَتَرُ لَهُ عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِيلاً مِنْ [بَيْنَ يَدَيْهَا، وَثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِيلاً مِنْ] خَلْفِهَا، وَثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِيلاً عَنْ يَمِينِهَا، وَثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِيلاً عَنْ يَسَارِهَا، فَلَا تُنْعَى لَهُ، مِثْلُ مَرٍّ<sup>١</sup> وَأَشْبَاهِهَا»<sup>٢</sup>.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما فرض عليكم، كما عن ابن عباس<sup>٣</sup> «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ تَهَاوَنَ بِحُدُودِهِ وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَى أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ  
فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَغْلُمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى  
وَأَتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ [١٩٧]

في بيان أشهر ثم بين الله تعالى زمان الحج بقوله: ﴿الْحَجُّ﴾ وَقْتُهُ «أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» مُعَيَّنَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، معروفاتٌ عند النَّاسِ، وهي: شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، على ما روى عن الصادقين عليه السلام: قالوا: «ليس لأحدٍ أَنْ يُحْجَّ فيما سِوَاهُنَّ، وَمَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ فِي غَيْرِ أَشْهُرِ الْحَجِّ فَلَا حَجَّ لَهُ»<sup>٤</sup>.

﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ «فِيهِنَّ الْحَجَّ» بَأَن اشْتَغَلَ بِهِ وَشَرَعَ فِيهِ.  
عن (الكافي) و(العياشي) قال: قال الصادق عليه السلام: «الْفَرَضُ: التَّلْبِيَةُ وَالْإِشْعَارُ وَالتَّغْلِيدُ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَقَدْ فَرَضَ الْحَجَّ»<sup>٥</sup>.

أقول: فيه دلالة على وجوب إتمام الحج بالاشتغال به والدخول فيه وإن كان مندوباً ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ جَانِزٍ ﴿فِي﴾ وَقْتِ «الْحَجِّ» وَزَمَانِ الْإِشْغَالِ بِمَنَاسِكَهِ.

١. مَرٌّ: واد في بطن إضم، وقيل: بطن إضم، والمَرُّ أيضاً: أرض بالنجد من بلاد مَهْرَةَ بأقصى اليمن.

٢. الكافي ٤: ٣/٣٠٠، ٣. تفسير الرازي ٥: ١٦٠.

٤. تفسير العياشي ١: ٣٥٦/٢٠٣ و٣٥٦، تفسير الصافي ١: ٢١٤.

٥. الكافي ٤: ٢/٢٨٩، تفسير العياشي ١: ٣٥٨/٢٠٣.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «الرُّث: الجِماع، والفُسوق: الكَذِب والسَّبَاب، والجِدال: قَوْل الرِّجَال: لا والله، وبلى والله»<sup>١</sup>.

وقال: «في الجِدال شاة، وفي [السَّبَاب] والفُسوق بَدَنَةٌ<sup>٢</sup>، والرُّث فساد الحَج»<sup>٣</sup>.  
والمُرَاد من التَّهْي، التَّهْي بِأَبْلَغ بيان، وتَخْصِص تحريم الثلاثة بالحَج مع كونها حراماً مطلقاً لكون الحرمة فيه أشد، كلبس الحرير في الصلاة.

ثم حث المؤمنين إلى الأعمال الحسنة بعد التَّهْي عن القَبائح بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ وعملٍ صالحٍ وبرٍّ ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ فيجازيكم به أحسن الجزاء ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ بالأعمال الصالحة لسفر الآخرة ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ﴾ فيه ﴿التَّقْوَى﴾.

أو المراد التزود بالمؤونة في السفر الدنيوي ولو بسبب التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَسْتَقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً \* وَيَزِدْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾<sup>٤</sup>. ثقل أنهم كانوا يحجون بغير زاد، فيكونون كلاً على الناس، فأمر الله المؤمنين بالتزود للسفر، لأنه لا ينبغي استيعام الناس والتثقل عليهم<sup>٥</sup>.  
ثم بعد بيان فائدة التقوى، وأنه خير الزاد، أمر به بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا﴾ في مخالفتي واحترزوا عقابي ﴿يَا أُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وتوجيه الخطاب إلى ذوي العقول السليمة، لأنَّ العقل يحث العاقل على التقوى وملازمته، فمن لا تقوى له لا عقل له، لأنه ترك ما فيه خير الدنيا والآخرة.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِزِينَ  
[الصَّالِحِينَ (١٩٨)]

ثم أنه روي عن ابن عباس أنه كان ناس من العرب يحترزون [من] التجارة في أيام الحج، وإذا دخل العشر بالغوا في ترك البيع والشراء بالكلفة، وكانوا يسمون التاجر في الحج الداج، ويقولون: هؤلاء الداج وليسوا بالحاج، ومعنى الداج المكتسب الملتقط.

وبالغوا في الاحتراز عن الأعمال إلى أن امتنعوا عن إغائَةِ الملهوفين، وإعائَةِ الصُّعفاء، وإطعام

١. الكافي ٤: ٣/٣٣٨. ٢. في الكافي: بقره. ٣. الكافي ٤: ٦/٣٣٩. ٤. الطلاق: ٢/٦٥ و٣.

٥. تفسير الصافي ١: ٢١٥.

الجائع، فأزال الله هذا الوهم<sup>١</sup>، بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وبأش في ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً﴾ وربحاً كائناً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وتطلبوا مالاً بالتجارة المحللة.

قيل: إن عكاظ ومجئة وذا المجاز كانوا يتجرون في أيام المَوسِم فيها، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يتجروا في الحج بغير الإذن، فسألوا رسول الله ﷺ فنزلت<sup>٢</sup>.

عن (العياشي): عن الصادق عليه السلام: «﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني الرزق، إذا أحل الرجل من إحرابه وقضى نسكه فليبع وليشتر في المَوسِم»<sup>٣</sup>.

وفي رواية أخرى «﴿فَضْلاً﴾ أي مغفرة»<sup>٤</sup>.

وروي عن الباقر عليه السلام: «﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هو أن يتبغى الإنسان حال كونه حاجاً أعمالاً أخرى تكون موجهة لاستحقاق فضل الله ورحمته، مثل إغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وإطعام الجائع»<sup>٥</sup>.

وقال بعض علماء العامة معترضاً عليه: إن هذه الأعمال بين واجبٍ ومندوبٍ، ولا يصح أن يقال فيها: (لا جناح) فإن هذا التعبير مختص بالمباحات<sup>٦</sup>.

وفيه: أن استعمال (لا جناح) في الواجبات غير عزيز إذا كان في مورد توهم الحضر كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾<sup>٧</sup>.

ثم أعلم أنه لا تعارض بين الروايات المفسرة للفضل، لأن كل واحدٍ منها محمول على بيان نوعٍ من أنواعه.

﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ﴾ ودفعتم أنفسكم للرجوع ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ بكثرةٍ ومضيئهم منها إلى المزدلفة، [كما] عن (تفسير الإمام عليه السلام)<sup>٨</sup> وعرفات علمٌ للموقف.

روي: أنه تمثّل جبرئيل لإبراهيم فيه، فلما رآه عرفه، فسمي ذلك الموضع عرفات<sup>٩</sup>.

وثقل: أن جبرئيل كان يدور به في المشاعر، ويقول: عرفت؟ فلما رآه، قال: عرفت<sup>١٠</sup>.

١. تفسير الرازي ٥: ١٧١.

٢. تفسير الرازي ٥: ١٧١.

٣. تفسير العياشي ١: ٣٦٦/٢٠٦.

٤. عوالي اللآلي ٢: ٢٤٦/٩٢.

٥. تفسير الرازي ٥: ١٧٢.

٦. تفسير الرازي ٥: ١٧٢.

٧. النساء: ١٠١/٤.

٨. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام ٦٠٥/٣٥٨.

٩. تفسير روح البيان ١: ٣١٦.

١٠. تفسير روح البيان ١: ٣١٦.

وَتَقِيلُ أَيْضاً: أَنَّ آدَمَ وَحَوَاءَ اجْتَمَعَا بِعَرَفَاتٍ وَتَعَارَفَا<sup>١</sup>.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وجوباً بالدعاء والتكبير والتهليل «عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ» وهو جَبَلٌ سُمِّيَ قُرْحٌ<sup>٢</sup>، وَلَقِبَ بِالْمَشْعَرِ لِأَنَّهُ مَعْلَمُ الْعِبَادَةِ، وَوُصِفَ بِالْحَرَامِ لِحُرْمَتِهِ<sup>٣</sup>.

روي عن جابر: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا صَلَّى الْفَجْرَ بِالْمَزْدَلِغَةِ بَغَلَسَ، رَكِبَ نَاقَتَهُ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَدَعَا وَكَبَّرَ وَهَلَّلَ، وَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ<sup>٤</sup>.

﴿وَاذْكُرُوهُ﴾ ذِكْرًا حَسَنًا، عَلَى مَا قِيلَ<sup>٥</sup> «كَمَا هَذَا كُمْ» هِدَايَةً حَسَنَةً إِلَى الْمَنَاسِكَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ. أَوْ الْمَرَادُ اذْكُرُوهُ لِأَنَّهُ عَلَّمَكُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ، أَوْ عَلَّمَكُمْ كَيْفَ تَذْكُرُونَهُ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي قَبْلَ الْهُدَى أَوِ التَّعْلِيمِ «لَمِنَ الضَّالِّينَ» بِكَيْفِيَةِ ذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى النَّاسِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَقَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا أَدْرَكُوا هَذِهِ لَمْ يَنَامُوا<sup>٦</sup>.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* فَإِذَا فَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدُّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ \* أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ

مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [١٩٩-٢٠٢]

ثُمَّ أَنَّهُ قِيلَ أَنَّ قُرَيْشًا وَجَمَاعَةً مِنْ خُلَفَائِهِمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِالْحَمْسِ لِتَشَدُّدِهِمْ فِي دِينِهِمْ، لَمْ يَكُونُوا يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، بَلْ كَانُوا يَتَجَاوَزُونَ عَنْهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَرَفَّعُونَ عَلَى النَّاسِ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ، وَلَا نَحِلُّ حَرَمَ اللَّهِ، وَأَنَّ الْحَرَمَ أَشْرَفَ مِنْ غَيْرِهِ، فَالْقُوفُ بِهِ أَوْلَى، وَسَائِرُ النَّاسِ كَانُوا يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُوفِ بِعَرَفَاتٍ<sup>٧</sup>، يَقُولُهُ: «ثُمَّ أَفِيضُوا» وَارْجِعُوا. وَكَلِمَةُ (ثُمَّ) لِلتَّرْتِيبِ فِي الرُّتْبَةِ، وَلَكِنَّ إِفَاضَتَكُمْ «مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ».

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «يَعْنِي بِالنَّاسِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ أَفَاضَ مِنْ

١. تفسير روح البيان ١: ٣١٦.

٢. في النسخة: بقرح.

٣. تفسير البيضاوي ١: ١١٢.

٤. تفسير أبي السعود ١: ٢٠٨.

٥. تفسير الرازي ٥: ١٧٨.

٦. تفسير البيضاوي ١: ١١٢.

٧. مجمع البيان ٢: ٥٢٧.

عرفات»<sup>١</sup>.

وعن (الكافي): عن الحسين بن علي عليه السلام: «نحن الناس»<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في حديث حج النبي صلى الله عليه وآله قال: «ثم عدا والناس معه، وكانت قريش تفيض من المزدلفة وهي جمع، ويمنعون الناس أن يفيضوا منها. فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وقريش ترجو أن تكون إفاضته [من] حيث كانوا يفيضون، فأنزل الله تعالى: «ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ»<sup>٣</sup>.

«وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ» من تغييركم المناسك في الجاهلية، ومن سائر المعاصي «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ وَسِتَارٌ لِلذُّنُوبِ» رَجِيمٌ بعباده المؤمنين، لا يقطع عنهم إحسانه.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنَّ اللَّهَ يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ، ويقول: أَنْظَرُوا إِلَى عِبَادِي جَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ شُعْنًا غَيْرًا [اشهدوا] أَنِّي غَفَرْتُ لَهُمْ»<sup>٤</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أَعْظَمَ النَّاسُ ذَنْبًا مَنْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ فَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ»<sup>٥</sup>.

«فَإِذَا قَضَيْتُمْ» وأديتم أيها المؤمنون «مَنَاسِكَكُمْ» وأعمال حجكم، وفرغتم منها «فَاذْكُرُوا اللَّهَ» والآلاء ونعماءه عندهم، وإحسانه إليكم، وبالغوا فيه «كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ».

عن ابن عباس: أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْ حَجِّهِمْ بَعْدَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، يَقِفُونَ بَيْنَ مَسْجِدِ مِنَى وَبَيْنَ الْجَبَلِ، وَيَذْكُرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَضَائِلَ آبَائِهِ فِي الشَّجَاعَةِ<sup>٦</sup> وَالْحَمَاسَةِ وَصَلَةِ الرَّحِمِ، وَيَتَأَشَّدُونَ فِيهَا الْأَشْعَارَ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِالْمَثُورِ مِنَ الْكَلَامِ، وَيُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ حُصُولَ الشُّهُرَةِ وَالتَّرَفُّعِ بِمَآثِرِ سَلَفِهِ، فَلَمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ [عليهم] بِالْإِسْلَامِ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُهُمْ لِرَبِّهِمْ كَذِكْرِهِمْ لِآبَائِهِمْ<sup>٧</sup> «أَوْ أَشَدَّ» وَأَبْلَغَ «ذِكْرًا».

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «خَيْرُهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَمْ يُلْزِمَهُمْ أَنْ يَكُونُوا [لَهُ] أَشَدَّ ذِكْرًا مِنْهُمْ لِآبَائِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْ نِعْمَةِ آبَائِهِمْ»<sup>٨</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَمَا لَا يَنْسَى ذِكْرَ أَبِيهِ، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ<sup>٩</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمَعْنَى: اذْكُرُوا اللَّهَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَوْ تُسِبَّ إِلَى

١. تفسير الصافي ١: ٢١٦. ٢. الكافي ٨: ٣٣٩/٢٤٤. ٣. الكافي ٤: ٢٤٧/٤.

٤. تفسير روح البيان ١: ٣١٨. ٥. تفسير روح البيان ٥: ١٨٣.

٦. في تفسير روح البيان: السباحة. ٧. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.

٨. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام ٦٠٦/٣٥٨. ٩.

والدين لتأذى واستنكف، ومع ذلك يثبت لنفسه آلهة، والحال أن المبالغة في التوحيد أولى<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد أن الطفل كما يرجع إلى أبيه في طلب المهيمات، ويكون ذاكراً له بالتعظيم، فكونوا أنتم كذلك في ذكر الله<sup>٢</sup>.

وروي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: هو أن تغضب له لو عصي أشد من غضبك لو إلك إذا ذكر بسوء<sup>٣</sup>.

وحاصل جميع الوجوه أنه يجب على العبد أن يكون دائم الذكر، ودائم التعظيم، ودائم الرجوع إلى ربه، ودائم الانقطاع عن سواه.

قيل: معنى «أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا» بل أشد ذكراً، لأن موجبات ذكر آبائهم قليلة، وصفات الله الكمالية وحقوقه على عباد غير متناهية<sup>٤</sup>.

ثم أنه لما كان ينبغي للعبد بعد أداء مناسك الحج - الذي به تنكسر النفس وثرع عنها غواشي الشهوات، وتوجهه إليه بذكره الذي به تنجلي في القلوب أنوار عظمتها وإشراقات جلالة - أن يشتغل بالدعاء والطلب للمهيمات، ولذا بين الله تعالى اختلاف هيم الناس بقوله: «فَعَن النَّاسِ» الذين يشهدون هذا الموقف العظيم الذي تستجاب فيه الدعوات «مَنْ يَقُولُ» في مقام الدعاء افتتاناً بلذات الدنيا، ونسياناً للآخرة ونعيمها «وَبُنَا آتِنَا» نصيبنا، وأعطنا حظنا «فِي الدُّنْيَا» من الجاه، والغنى، بدلاً من الآخرة.

ويجب الله مسؤوله إن شاء «وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» ونصيب من كرامة الله ورحمته ونوابه، لأن هممه كان مقصوراً على الدنيا الدنية الزائلة ولذا يذها الفانية، وأعرض عن النعم الدائمة الباقية لقصور العقل، وعدم اليقين بالمعاد.

عن ابن عباس: أن المشركين كانوا يقولون، إذا وقفوا: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا ابلاً وَغَنماً وَبَقِراً وَعِيِداً وَإِماءً، وكانوا لا يطلبون التوبة والمغفرة لأنهم كانوا ينكرون البعث والمعاد<sup>٥</sup>.

أقول: وذلك جارٍ في حق بعض المؤمنين الذين يكون همهم في الدنيا، ويعملون لها، وذلك

٢. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.

٤. تفسير الرازي ٥: ١٨٦.

١. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.

٣. تفسير الرازي ٥: ١٨٥.

٥. تفسير الرازي ٥: ١٨٧.

تَبَلَّغَهُم مِنَ الْعِلْمِ، مع أَنَّ مَقْتَضَى الْإِيمَانِ الْإِعْرَاضَ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَالسَّعْيَ فِي تَحْصِيلِ النِّعَمِ الْبَاقِيَةِ وَالرَّاحَةَ الدَّائِمَةَ، فَلَا يَطْلُبُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَقْدَاراً يَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا﴾ وَهَبْ لَنَا ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وَهِيَ كُلُّ مَا فِيهِ السَّعَادَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ، وَهِيَ: رُوحَانِيَّةٌ وَجِسْمَانِيَّةٌ دَاخِلِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ.

نَفْسِ أَنَّ السَّعَادَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ رُوحَانِيَّةٌ وَأَمَّا السَّعَادَةُ الرُّوحَانِيَّةُ: فَكَمَالُ الْقُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ بِالْعِلْمِ، وَكَمَالُ الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ بِالْأَخْلَاقِ وَالْجَمِيلَةِ الْفَاضِلَةِ، فَإِنَّهُمَا زِينَةُ الْمَرْءِ فِي الدَّارَيْنِ، وَأَمَّا السَّعَادَةُ الْجِسْمَانِيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ وَجِسْمَانِيَّةٌ وَهِيَ السَّعَادَةُ الْبَدَنِيَّةُ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْجَمَالِ.

وَأَمَّا السَّعَادَةُ الْخَارِجِيَّةُ فَهِيَ: الْمَالُ وَالْجَاهُ وَالْأَقَارِبُ وَالْأَوْلَادُ، وَهَذِهِ السَّعَادَاتُ كَمَا أَنَّهَا حُطُوظٌ فِي الدُّنْيَا [فَهِيَ] مُقَدِّمَاتُ وَوَسَائِلُ لِتَحْصِيلِ حُطُوظِ الْآخِرَةِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْحَسَنَةِ جَمِيعَ مَا لَهُ نَفْعٌ فِي الْآخِرَةِ، وَلَيْسَ حُبُّهَا وَطَلَبُهَا مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَطَلَبِهَا، بَلْ عَيْنُ حُبِّ الْآخِرَةِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا دَعَا رَبَّهُ فَقَالَ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ سَأَلَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا».

فَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، [إِنَّهُ] قَالَ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ يَقُولُ: آتِنَا فِي الدُّنْيَا عَمَلًا صَالِحًا»<sup>١</sup>.

وَعَنْ الصَّادِقِ ﷺ فِي رِوَايَةٍ: «السَّعَةُ فِي الرِّزْقِ [وَالْمَعَاشِ] وَحُسْنُ الْخُلُقِ فِي الدُّنْيَا»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ: «[أَنَّ الْحَسَنَةَ] فِي الدُّنْيَا الْمَرَّةُ الصَّالِحَةُ»<sup>٣</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْحَسَنَةِ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ<sup>٤</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ جَمِيعَ الْمَذْكُورَاتِ أَنْوَاعُهَا، وَالْجَامِعُ مَا ذَكَرْنَا، وَهُوَ جَمِيعُ مَا يَكُونُ لَهُ نَفْعٌ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا يَكُونُ مُعِينًا عَلَى تَحْصِيلِهَا.

ثُمَّ أَنَّهُ لِإِظْهَارِ شِدَّةِ الْإِهْتِمَامِ بِالْآخِرَةِ، وَأَنَّهَا الْمَطْلُوبُ النَّفْسِي، خَصَّ نِعَمَهَا أَوَّلًا بِالذِّكْرِ صَرِيحًا، بِقَوْلِهِ: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ وَهِيَ الثَّوَابُ وَالرَّحْمَةُ<sup>٥</sup>. وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ: «هِيَ الْحَوَرَاءُ»<sup>٦</sup>.

١. تفسير الرازي ٥: ١٨٩.

٢. مجمع البيان ٢: ٥٣٠، تفسير الصافي ١: ٢١٧.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣١٩، تفسير الصافي ١: ٢١٧.

٤. تفسير روح البيان ١: ٣١٩، تفسير الصافي ١: ٢١٧.

٥. تفسير روح البيان ١: ٣١٩.

٦. تفسير روح البيان ١: ٣١٩، تفسير الصافي ١: ٢١٧.

وعن الصادق عليه السلام: «رِضَاؤُ اللَّهِ وَالْجَنَّةُ»<sup>١</sup>.

وتنكيرُ الحَسَنَةِ لعلَّه لإظهارِ المَذَلَّةِ وعدمِ القابِلِيَّةِ لَجَمِيعِ حَسَنَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ولإظهارِ جنسِها كأنَّه يقول: يُغْنِيَنِي حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ، فكيف بأكثرِ منها؟ وملخصه: أكثرُوا من ذكرِ الله واسألُوا سَعَادَتَكُمْ فِي الدَّارَيْنِ.

ثم لإظهارِ أَنَّ أَهَمَّ الْأُمُورِ النُّجَاةَ مِنَ الْعِقَابِ، خَصَّهُ بِالذِّكْرِ بقوله: «وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» بالمُحَافَظَةِ من ارتِكَابِ الشُّهُوَاتِ وَاللَّذَاتِ الْمُؤَذِّبَةِ إِلَيْهِ وَبِشُمُولِ الْعَقُوبِ وَالْمَغْفِرَةِ.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هُوَ عَذَابُ امْرَأَةٍ [السَّوَاءِ] الْخَبِيرِ<sup>٢</sup>. وَلَعَلَّهُ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ السَّوَاءَ تَوْقَعُ الرُّوحَ فِي الْمَعَاصِي.

﴿أُولَئِكَ﴾ الدَّاعُونَ بِهَذَا الدُّعَاءِ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وَافِرٌ حَاصِلٌ وَكَانَتْ ﴿وَيْمًا كَسَبُوا﴾ وَهُوَ الدُّعَاءُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ، أَوِ الْمُرَادُ: لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ جَنْسٍ مَا كَسَبُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْحَسَنَةِ، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ مَا يُسَانِئُهُ مِنَ الْأَجْرِ.

فِي كَيْفِيَةِ الْحِسَابِ ﴿وَأَلَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ دُفْعَةً كَمَا يَرْزُقُهُمْ دُفْعَةً»<sup>٣</sup>.

وَعَنْ (تَفْسِيرِ الْإِمَامِ عليه السلام) «لَأَنَّهُ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا مُحَاسَبَةٌ عَنْ مُحَاسَبَةٍ، فَإِذَا حَاسَبَ وَاحِدًا فَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ مُحَاسِبٌ لِلْكَلِّ، يَتِمُّ حِسَابُ الْكَلِّ بِتِمَامِ حِسَابِ الْوَاحِدِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَغْنُتُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ﴾»<sup>٤</sup>.

وَتَوْصِيفِ نَفْسِهِ تَعَالَى بِسُرْعَةِ الْحِسَابِ لَعَلَّهُ لِأَنَّهُ لَا يَخَافُ الدَّاعِيَ مِنْ طَوْلِ الْوُقُوفِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، بَلْ يَطْمَئِنُّ بِوُصُولِهِ إِلَى مَا أَعَدَّ لَهُ فِي الْقِيَامَةِ بِأَسْرَعِ زَمَانٍ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْحِسَابِ مُجَازَاةَ الْخَلْقِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ<sup>٥</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ الْخَلْقُ، يَعْلَمُ بِهِ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ<sup>٦</sup>.  
عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ سئل: كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ شَبَحَانَهُ الْخَلْقَ وَلَا يَزَوِّنُهُ؟ قَالَ: «[كَمَا] يَرْزُقُهُمْ

١. التهذيب ٦: ٣٢٧/٩٠٠.

٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٠٩، تفسير روح البيان ١: ٣١٩.

٣. مجمع البيان ٢: ٥٣١.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٥٨/٦٠٦، والآية من سورة لقمان: ٢٨/٣١.

٥. تفسير الرازي ٥: ١٩١.

٥. مجمع البيان ٢: ٥٣١.



ولا يَزُوْنَهُ<sup>١</sup>.

ونقل عن ابن عباس أنه قال: لا حِسابَ على الخَلْقِ، بل يَقِفون بين يدي الله تعالى، وَيُعْطَوْنَ كُتُبَهُمْ بأَعمالِهِمْ، فيها سَيِّئَاتُهُمْ، فيُقال لهم: هذه سَيِّئَاتُكُمْ قد تَجَاوَزَتْ عنها، ثُمَّ يُعْطَوْنَ حَسَنَاتِهِمْ، ويقال: هذه حَسَنَاتُكُمْ قد ضَاعَفْتُهَا لَكُمْ<sup>٢</sup>.

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ  
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [٢٠٣]

ثم أنه تعالى لما ذَكَرَ الوقوف في عرفات والمَشْعَرِ، وَبَيَّنَ جملةً من وظائفهما، ذكر بعض أحكام الوقوف بِمِنَى، بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالكسبيرة في أعقابِ خَمْسَةِ عَشْرَةِ صلاةً من ظَهْرِ يومِ النَّحْرِ إلى صلاةِ الفَجْرِ من اليومِ الثالثِ ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ قَلِيلَاتٍ مُسَمَّيَاتٍ بِأَيَّامِ الشَّارِقِ لِمَنْ كَانَ بِمِنَى، وَعَشْرَ صَلَوَاتٍ لِمَنْ كَانَ بِغَيْرِ مِنَى. وَكَيْفِيَّةُ التَّكْبِيرِ: «اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، واللهُ الحَمْدُ. اللهُ أَكْبَرُ على ما هَدَانَا، اللهُ أَكْبَرُ على ما رَزَقَنَا مِنْ نَهْمَةٍ الْأَنْعَامِ» كذا روي عَنْهُمْ عليه السلام<sup>٣</sup>. وروي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ مُتَأَدِّياً بِنَادِي: «الحَجَّ عَرَفَةَ، مَنْ جَاءَ لَيْلَةَ جَمْعٍ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ، وَأَيَّامٌ مِنِّي ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ» الْخَيْرُ<sup>٤</sup>.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ فِي النَّفْرِ وَطَلَبَ الْخُرُوجَ مِنْ مِنَى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ، إِذَا فَرَغَ مِنْ رَمَى الْجِمَارِ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فِي التَّعَجُّلِ ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ النَّفْرَ حَتَّى رَمَى فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بِالتَّأخِيرِ، فَيَكُونُ الْحَاصِلُ التَّخْيِيرُ بَيْنَ الْأَقْلِ وَالْأَكْثَرِ.

وقالوا: هَذَا رَدٌّ عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى وَعَيَّبَ الْمُتَعَجِّلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَيَّبَ الْمُتَأَخِّرَ وَأَثَمَهُ، فَردَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بَأَنَّهُ لَا إِثْمَ فِي التَّعَجُّلِ وَالتَّأخِيرِ<sup>٥</sup>.

عن الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «لَيْسَ هُوَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ وَاسِعٌ، إِنْ شَاءَ صَنَعَ ذَا وَإِنْ شَاءَ صَنَعَ ذَا، لَكِنَّهُ يَرْجِعُ مَغْفُوراً لَهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَلَا ذَنْبَ لَهُ»<sup>٦</sup>.

٢. تفسير الرازي ٥: ١٩٠.

١. نهج البلاغة: ٥٢٨/٣٠٠.

٣. تفسير الصافي ١: ٢١٨.

٤. جَمْعٌ: عِلْمٌ لِلْمَزْدَلِفَةِ، سَمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّ آدَمَ عليه السلام وَحَوَاءَ لَمَّا أَهْبَطَا اجْتَمَعَا بِهَا. ٥. تفسير الرازي ٥: ١٩٢.

٦. تفسير روح البيان ١: ٣٢١، تفسير الصافي ١: ٢١٩. ٧. من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٨٩/١٤٢٧.

وهذا الترخيص والتخيير ثابت ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ الله عز وجل. روي عن الباقر والصادق عليهما السلام قال: «لِمَنِ اتَّقَى الصَّيْد - يعني في إحرامه - فإن أصابه لم يكن له أن ينصرف<sup>١</sup> في التفر الأول»<sup>٢</sup>. وعن الباقر عليه السلام: «لِمَنِ اتَّقَى منهم الصَّيْد، واتَّقَى الرِّفْت والفُسُوق والجِدال وما حرَّم الله عليه في إحرامه»<sup>٣</sup>.

والحاصل: أنَّ التَّخْيِير ليس مطلقاً بالنسبة إلى كلِّ حاجٍّ، بل هو لِمَنِ اتَّقَى. واختلف فيه على قولين: الأول: من اتَّقَى الصَّيْد والنِّسَاء في إحرامه.

والثاني: من اتَّقَى سائر المحرَّمات في الإحرام<sup>٤</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «اتَّقَى الكِبَر، وهو أن يجهل الحقَّ ويطعن على أهله»<sup>٥</sup>.

عن الباقر عليه السلام أنه سُئِلَ عن هذه الآية، قال: «أنتم والله هم، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا يثبت على ولاية علي عليه السلام إلا المتَّقون»<sup>٦</sup>.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها الحاجَّ المغفور لهم ذُنُوبهم، فلا تعاودوا الموبقات فتعود إليكم أثقالكم، فإنَّ السيئات تذهب بالحسنات ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُخْشَوْنَ﴾ فيجازيكم بما تعملون. قيل: كانوا إذا رجعوا من الحجَّ يجترئون على الله بالمعاصي، فشدد في تحذيرهم<sup>٧</sup>.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ  
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ \* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ  
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ  
فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ [٢٠٤-٢٠٦]

ثمَّ أنه تعالى لما أمر الناس بالتقوى، وكانت حقيقته هو اليقين بالله واليوم الآخر، والخوف الكامن في القلب، الباعث على العمل بإخلاص النية وصميم القلب، ذكر حال المنافقين المظهرين للإيمان

١. في التهذيب والصادق: ينفر.

٢. التهذيب ٥: ٩٣٣/٢٧٣، وتفسير الصافي ١: ٢١٩ عن الصادق عليه السلام.

٣. تفسير العياشي ١: ٣٨٤/٢١٠، تفسير الصافي ١: ٢١٩.

٤. كنز العرفان ١: ٣٢٠/٤.

٥. تفسير الصافي ١: ٢٢٠.

٦. تفسير العياشي ١: ٣٨٩/٢١١.

٧. تفسير روح البيان ١: ٣٢١.

والتقوى، المبطلين للكفر واليناد بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾ ويروك ويَعْظُم في قلبك ﴿قَوْلُهُ﴾ بسبب تزيين البيان بالورع والتقوى لِيُطْلَبَ حَقًّا، إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ إِعْجَابُهُ وَحْسَهُ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من غير أن يكون لكلامه المُعْجَب أثر في الآخرة، فَإِنَّ الظَّوَاهِرَ تَغِيدُ فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَأَمَّا الآخِرَةُ فَبِهِ عَالَمٌ كُشِفَ الْحَقَائِقُ وَالْوَاقِعَاتُ، لَيْسَ فِيهَا سِتْرٌ وَاشْتِيَاءٌ.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ من اليقين والإخلاص، ويحلف بالله أَنَّ بَاطِنَهُ شَطَائِبُ لَظَاهِرِهِ، وَمُضَدَّقٌ لِّكَلَامِهِ ﴿وَهُوَ﴾ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وَشَدِيدُ الْمُعَارَضَةِ وَالْعَدَاوَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

في نفاق الأخنس      نقل أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ التَّقْفِي، وَهُوَ حَلِيفُ لَبْنِي زُهْرَةَ، أَقْبَلَ إِلَى  
 بِنِ شَرِيْقٍ التَّقْفِي      النَّبِيِّ ﷺ وَأَطَهَرَ الْإِسْلَامَ وَالْمَحَبَّةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ  
 الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ إِلَى آخِرِهِ.

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ كَفَّارَ قُرَيْشٍ بَعَثُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: أَنَا قَدْ أَسْلَمْنَا، فَبَعَثَ إِلَيْنَا نَقْرًا مِنْ عُلَمَاءِ أَصْحَابِكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ جَمَاعَةً فَنَزَلُوا بِطَنْ الرَّجِيعِ، وَوَضَلَ الْخَيْرَ إِلَى الْكُفَّارِ، فَزَكَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَاكِبًا وَأَحَاطُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ وَسَلَبُوهُمْ، فَبِهِمْ نَزَلَتْ<sup>١</sup>. وَبُرِّجَ الْأَوَّلُ.

قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ وانصرف من عندك، وَإِذَا صَارَ غَالِيًا وَوَالِيًا ﴿سَعَى﴾ وَاجْتَهَدَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ جَمِيعَهَا، لَا يَتَفَاوَتْ فِي نَظَرِهِ مَكَانٌ ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾، نُقِلَ أَنَّ الْأَخْنَسَ لَمَّا انصرف من عند النَّبِيِّ ﷺ وخرج من المدينة، مَرَّ بِزَرْعِ الْمُسْلِمِينَ فَأَحْرَقَ الزَّرْعَ وَقَتَلَ الْخُمُرَ<sup>٢</sup>.  
 وَقِيلَ: كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَمِيمٍ عَدَاوَةٌ، فَأَتَاهُمْ لَيْلًا فَأَحْرَقَ زَرْعَهُمْ وَأَهْلَكَ مَوَاشِيَهُمْ<sup>٣</sup>.  
 فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَوْفَقَ بِمَا رَوَى عَنِ الْأَخْنَسِ مِمَّا يَرَوْنَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وقيل: إِنَّ الْأَخْنَسَ سَعَى فِي إِدْخَالِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَقْوِيَةِ الْكُفْرِ، وَتَضْعِيفِ الْإِسْلَامِ. وَهَذَا هُوَ السَّعْيُ لِلْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ لِأَنَّهُ مُوجِبٌ لِلَاخْتِلَافِ بَيْنَ النَّاسِ وَتَفْرِيقِ كَلِمَتِهِمْ، فَيَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيَتَقَطَّعُونَ أَرْحَامَهُمْ، وَيَشْتَغِلُونَ بِالْحَرْبِ، فَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ.

١. تفسير الرازي ٥: ١٩٧.

٢. تفسير الرازي ٥: ١٩٧.

٣. تفسير الرازي ٥: ٢٠٠.

٤. تفسير روح البيان ١: ٣٣٣.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ**» بظلمه وسوء سيرته<sup>١</sup> الخبير، ويَحْتَمِلُ كَوْنُ المراد أَنَّ الظلم موجب لانقطاع الرحمة وارتفاع البركة.

وعن الصادق عليه السلام: «**الْحَرْثُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الدِّينَ، وَالنَّسْلُ: النَّاسُ**»<sup>٢</sup>.

«**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ**» ولا يريد بالإرادة التشريعية «**الْفَسَادَ**» في الآفاق والأنفس، أو لا يريد بالإرادة التكوينية والتشريعية الفساد المخض الذي لا يشوبه صلاح.

«**وَإِذَا قِيلَ لَهُ: عِظْهُ وَنُصْحاً**» أَتَى الله، وخَفَّ عَذَابُهُ، وَاتَزَكَّى الفساد، وَأَحْذَرُ شَوْءَ عَاقِبَتِهِ «**أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ**» وَالْأَنَّةُ «**بِالْإِثْمِ**» وَحَمَلَتْهُ عَلَيْهِ لَجَاجاً «**فَحَسْبُهُ**» وَكَافِيهِ «**جَهَنَّمُ**» جَزَاءً وَنِكَالاً عَلَى شَوْءٍ فَعَالَه «**وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا الْفِرَاشُ الْمَثْمُودُ**» وَالْمُسْتَقَرُّ الْمَوْدِيُّ هِيَ.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ [٢٠٧]

ثم أَنَّهُ تَعَالَى لِمَا بَيْنَ حَالِ الْمُنَافِقِ الَّذِي بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا، عَقَبَهُ بِذِكْرِ حَالِ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ الَّذِي بَاعَ دُنْيَاهُ بِدِينِهِ، بِقَوْلِهِ: «**وَمِنْ النَّاسِ**» الْمُؤْمِنِينَ «**مَنْ يَشْرِي**» وَيَبِيعُ «**نَفْسَهُ**» مِنْ اللَّهِ «**ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**» وَيَبْذُلُ شَرَاثِيرَ وُجُودِهِ<sup>٣</sup> فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَطَلَباً لِرِضْوَانِهِ «**وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**» الْمُؤْمِنِينَ، يَدْفَعُ عَنْهُمْ كُلَّ ضَرٍّ، وَيَنْزِلُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ خَيْرٍ.

عَنْ (تَفْسِيرِ الْإِمَامِ عليه السلام): «هَؤُلَاءِ خِيَارُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَذَّبَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ لِيُضْلَوْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَمِنْهُمْ بِلَالٌ وَصَهْبِيُّ وَخَبَّابٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَأَبُوهُ»<sup>٤</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي صَهْبِيِّ بْنِ سِنَانٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ<sup>٥</sup>، وَفِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَفِي شَمِيَّةِ أُمِّهِ، وَفِي يَاسِرِ أَبِيهِ، وَفِي بِلَالٍ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ، وَفِي خَبَّابِ بْنِ الْأَزْتِ، وَفِي عَابِسِ مَوْلَى خُوَيْطِبٍ، أَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَعَذَّبُوهُمْ، فَأَمَّا صَهْبِيُّ فَقَالَ لِأَهْلِ مَكَّةَ: إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ، وَلِي مَالٌ وَمَتَاعٌ، وَلَا يَضُرُّكُمْ كُنْتُ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، تَكَلَّمْتُ بِكَلَامٍ وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَنْزِلَ عَنْهُ، وَأَنَا أُعْطِيكُمْ مَالِي

١. تفسير العياشي ١: ٢١١/٣٩٤، الكافي ٨: ٢٨٩/٤٣٥.

٢. تفسير الفقي ١: ٧١، مجمع البيان ٢: ٥٣٤.

٣. أي جميع وجوده وكيانه، والشرائير: أطراف الأجنحة، والجسم بجملته ويقال: ألقى عليه شرارشره، أي أعباه وهمومه، أو ألقى عليه نفسه حرصاً ومحبة.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٢١/٣٦٥.

٥. في النسخة: عبدالله بن صرحان.

ومتاعي، واشتري منكم ديني، فَرَضُوا مِنْهُ بِذَلِكَ وَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فانصرف راجعاً إلى المدينة، فنزلت. وأما حَبَابُ بْنُ الْأَرْثِ، وأبو ذَرٍّ، فقد قَرَأَا وَأَتَيَا الْمَدِينَةَ. وَأَمَّا سُمَيَّةُ فَرُيْطَتْ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ ثُمَّ قُتِلَتْ، وَقُتِلَ يَاسِرٌ. وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَأَعْطُوا بِسَبَبِ الْعَذَابِ بَعْضُ مَا أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ فَتَرَكُوا. الْخَبِيرُ<sup>١</sup>.

وعنه أيضاً: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ<sup>٢</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ الْمُرَادَ بِالآيَةِ الرَّجُلَ يُقْتَلُ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ»<sup>٣</sup>.

نسي قصة ليلته وقال الفخر في (تفسيره): والرواية الثالثة: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بَاتَ الْمَبِيتَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ خُرُوجِهِ إِلَى الْغَارِ.

قال: وَيُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا نَامَ عَلَى فِرَاشِهِ قَامَ جَبْرِئِيلُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَمِيكَائِيلُ عِنْدَ رِجْلِهِ، وَجَبْرِئِيلُ يَنَادِي:

يَحْيَا، مَن مِثْلُكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ، يُبَاهِي اللَّهُ بِكَ الْمَلَائِكَةَ؛ وَنَزَلَتِ الْآيَةُ<sup>٤</sup>.

وقال الفيض عليه السلام: رَوَتْ الْعَامَّةُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالْعِيَّاشِيِّ، وَعَدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ

أَنَّمَتْنَا عليه السلام فِي عَدَّةِ أَخْبَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام حِينَ بَاتَ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ. الْخَبِيرُ<sup>٥</sup>.

ويمكن الجمع بين الروايات بالقول بتكرّر نزول الآية بعد نزولها أولاً في مكة في أمير

المؤمنين عليه السلام لَيْلَةَ الْمَبِيتِ.

وأما قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الْمُرَادُ الرَّجُلُ يُقْتَلُ» إِلَى آخِرِهِ، فَلَعَلَّ الْمُرَادَ أَنَّ مُورِدَ نَزُولِهِ وَإِنْ كَانَ

خَاصًّا، إِلَّا أَنَّ عُنْوَانَ الْآيَةِ بِعُمُومِهِ يَشْمَلُ هَذَا الْمَقْتُولَ، بَلْ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ نَصَرَ دِينَ اللَّهِ، وَبَذَلَ نَفْسَهُ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ أَفْضَلُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَمُقْتَدَاهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام.

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ يَمَنُ يَرَوِي قَوْلَ جَبْرِئِيلَ فِي عَلِيِّ عليه السلام: مَن مِثْلُكَ، إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ يُفَضِّلُ غَيْرَهُ

عليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ [٢٠٨ و ٢٠٩]

٢. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤.

٤. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤.

١. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤.

٣. مجمع البيان ٢: ٥٣٥.

٥. تفسير الصافي ١: ٢٢١.

ثم أنه تعالى لما حكى عن بعض الناس مضادة الإسلام، وعن بعض الخلوَص فيه، أمر كلهم بالانقياد، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ والطَّاعَةِ، والانقيادِ لله ورسوله ﴿كَافَّةً﴾ وجميعها. أو المراد: التزموا أحكام الإسلام بالسِّلْمِ وقلوبكم جميعاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بالترقيق والتفريق، أو بمخالفة ما أمرتم به.

قيل: نزلت في طائفة من مسلمي أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام وأصحابه، وذلك لأنهم حين آمنوا بالنبي ﷺ أقاموا بعده على تعظيم شرائع موسى ﷺ فعظموا السَّبَّ، وكَرِهوا لَحْمَ الْإِبْلِ وألبانها، وكانوا يقولون: ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التَّوْرَةِ، فنحن نتزكها احتياطاً، فكَّرَ الله ذلك منهم وأمرهم أن يدخلوا في السِّلْمِ كافَّةً، أي في كافة شرائع الاسلام<sup>١</sup>.

وعن (تفسير الإمام ﷺ): «[يعني] في السلام<sup>٢</sup> والمسالمة إلى دين الإسلام ﴿كَافَّةً﴾ جماعة<sup>٣</sup> فيه، وادخلوا في جميع الإسلام، فتقبلوه وأعملوا به، ولا تكونوا ممن يقبل بعضه ويعمل به، ويأبى بعضه ويهجره. ومنه الدَّخُولُ في ولاية علي ﷺ فإنه كالدَّخُولِ في نبوة رسول الله ﷺ، فإنه لا يكون مسلماً من قال إن محمداً رسول الله، ولم يعترف بأن علياً وصيه وخليفته وخير أمته. ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ما يتخطى بكم إليه من طرق الغي والضلالة، ويأمركم [به] من ارتكاب الآثام والموبقات»<sup>٤</sup>.

وعن (العباشي): عن الصادق ﷺ: «ولاية علي ﷺ والأئمة الأوصياء من بعده، وخُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: ولاية فلان وفلان»<sup>٥</sup>. وفي رواية: «الثاني والأول»<sup>٦</sup>.

عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى أظهر الشكاية من أمتي، وقال: إني طردت الشيطان لأجلهم، [فهم] يعصوني ويطيعون الشيطان»<sup>٧</sup>.

وأعلموا ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ وأخطأتم الحق، وكفتم أنفسكم عن الدخول في السلم ﴿مِنْ بَغْدٍ مَا جَاءَكُمْ﴾ الآيات ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ والحجج الظاهرات، على أن ما دُعيت إليه حق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجز عن الانتقام، ولا يمنع عن مراده شيء، لكمال قدرته،

١. تفسير الرازي ٥: ٢٠٧. ٢. في المصدر: السلم. ٣. زاد في المصدر: ادخلوا.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ ٣٦٦/١٢٦.

٥. تفسير العباشي ١: ٣٩٨/٢١٣. ٦. تفسير العباشي ١: ٤٠٣/٢١٤.

٧. تفسير روح البيان ١: ٣٢٦.

وقوة سلطانه ﴿حَكِيمٌ﴾ لَا يَنْتَقِمُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَعْذَبُ إِلَّا بِالْإِسْتِحْقَاقِ.

## هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ضُلُوبِهِمُ الْمَنَامُ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [٢١٠]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ انْهِمَاكَ بَيَانِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فِي الْعِنَادِ وَاللَّجَاجِ، وَثَبَاتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ، أَعْرَضَ عَنْ مُخَاطَبَتِهِمُ بِالْإِنْفَاتِ إِلَى الْعَيْبَةِ كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ الْعَقْلَاءَ وَيَسْتَفْتِهِمْ عَنْ سَبَبِ عِنَادِهِمْ، تَوْبِيخاً وَإِنْكَاراً عَلَيْهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وَيَسْتَفْتُونَ مِنْ عَدَمِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْوُقُوفِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِنْفَاقِ بَعْدَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ، وَمُشَاهَدَةِ مَا يُمَكِّنُ ظُهُورَهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ وَقَطْعِ الْعُذْرِ فِي التَّمَرُّدِ وَالْمُخَالَفَةِ ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بِأَسْبَهِ وَعَذَابِهِ الْكَائِنِ ﴿فِي ظُلُلٍ﴾ وَقَطْعِ مُظَلَّلَاتٍ ﴿مِنْ أَلْغَمَامٍ﴾ وَالسُّحَابِ الَّذِي يَتَوَقَّعُ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، فَيَنْزِلُ بِهِ الْعَذَابَ وَالنَّقْمَةَ، ﴿وَيَأْتِيَهُمُ﴾ «الْمَلَائِكَةُ» الَّذِينَ هُمْ وَسَانِطُ الْعَذَابِ. أَوْ الْمَرَادُ: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فِي جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وَتَمَّ إِهْلَاكُهُمْ، وَفُرِغَ مِنْهُ، وَبَدَأَ لَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَخْتَسِبُونَ وَيَتَوَقَّعُونَ، فَوَضَعَ الْمَاضِيَ مَوْضِعَ الْمُسْتَقْبَلِ لِتَحَقُّقِ الْوُقُوعِ. وَمُلَخَّصُهُ أَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ قَامَتْ وَتَمَّتْ عَلَيْهِمْ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ انْتِظَارٌ إِلَّا نُزُولُ عَذَابِ الْإِسْتِنْصَالِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: بَلْ يَنْظُرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَشَقَّقُ فِيهِ الْعَمَامُ، وَتَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً.

﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ «تُرْجَعُ الْأُمُورُ» كُلُّهَا، وَمِنْهَا تَعَذِيبُ أُولَئِكَ الْمَصْرِينَ عَلَى الْكُفْرِ. وَالتَّعْبِيرُ بِرَجُوعِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ مَلَكَ النَّاسَ أُمُوراً فِي الدُّنْيَا امْتِحَاناً، فَبِإِذَا جَاءَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَرَجَّعَ جَمِيعُ الْأُمُورِ فِي الظَّاهِرِ وَالْوَاقِعِ مِنْ غَيْرِهِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، لَا قُدْرَةَ لغيرِهِ عَلَى شَيْءٍ وَلَوْ فِي الظَّاهِرِ.

عَنْ (تفسير الإمام عليه السلام) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: «أَيُّ هَلْ يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ بَعْدَ إِضْجَاجِنَا لَهُمُ الْآيَاتِ، وَقَطْعِنَا مَعَاذِيرَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْعَمَامِ وَتَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، كَمَا كَانُوا اقْتَرَحُوا عَلَيْكَ اقْتِرَاحَهُمُ السُّحَالِ فِي الدُّنْيَا، فِي إِتْيَانِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِتْيَانُ، وَاقْتِرَاحَهُمُ الْبَاطِلِ فِي إِتْيَانِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَأْتُونَ إِلَّا مَعَ رِوَالِ هَذَا التَّعَبُّدِ لِأَنَّهُ وَقْتُ مَجِيءِ الْأَمْلَاقِ بِالْإِهْلَاكِ، فَهَمُ

في اقتراحهم مجيء الأملاك جاهلون ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي هل ينظرون [إلا] مجيء الملائكة، فإذا جاءوا وكان ذلك ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بهلاكهم «الخير».

وأما ما عن القمي عليه السلام عن الباقر عليه السلام قال: «إن الله إذا بدا له أن يبين خلقه ويجمعهم لِمَا لا بد منه، أمر منادياً ينادي فاجتمع الجن والإنس في أسرع من طرفة عين، ثم أذن لسماء الدنيا فنزل فكان من وراء الناس، وأذن للسماء الثانية فنزل، وهي ضعفت التي تليها، فإذا رآها أهل السماء الدنيا، قالوا: جاء ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت - يعني أمره - حتى تنزل كل سماء، تكون كل واحدة منها من وراء الأخرى، وهي ضعفت التي تليها.

ثم ينزل أمر الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى ربك ترجع الأمور. ثم يأمر [الله] منادياً ينادي ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾<sup>٢</sup> فلا ظهور له في تفسير الآية، بل هو بيان بعض أهوال يوم القيامة، وإن عبر عن بعضها بعبارة الآية.

وأما ما عن العياشي عليه السلام عنه عليه السلام في هذه الآية، قال: «ينزل في سبع قباب من نور، لا يعلم في أيها هو حين ينزل في ظهر الكوفة، فهذا حين ينزل»<sup>٣</sup>. فهو تأويل للآية، كالرواية الأخرى، عنه عليه السلام قال: «كأنني بقاءم أهل بيتي قد علا نجفكم، فإذا علا فوق نجفكم نشر راية رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا نشرها انحطت عليه ملائكة بدر»<sup>٤</sup>.

وقال: «إنه نازل في قباب من نور حين ينزل بظهر الكوفة على الفاروق، فهذا حين ينزل، وأما ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فهو الوشم على الخراطيم يوم يؤسم الكافر»<sup>٥</sup> فتأويل.

ويمكن أن يكون المعنى: هل ينتظر هؤلاء الكفرة في تأخيرهم الإيمان مجيء وقت لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يستعقبون؟ وهذا الوقت إما وقت نزول عذاب الاستئصال بالغمام والملائكة، كعذاب قوم شعيب، أو وقت ظهور القائم المنتظر عليه السلام، ورفع التوبة، وهو القيامة الصغرى، أو يوم القيامة الكبرى.

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٧/٦٢٩.

٢. تفسير القمي ٢: ٧٧، والآية من سورة الرحمن: ٣٣/٥٥.

٣. تفسير العياشي ١: ٤٠٥/٢١٤.

٤. تفسير العياشي ١: ٤٠٦/٢١٤.

٥. تفسير العياشي ١: ٤٠٧/٢١٥.



وإن كان الأظهر والأشهر ما ذكرنا من حُمل رواية التفسير، أو هي مع رواية القمي عليه السلام عن الباقر عليه السلام على التفسير، وحمل رواية العياشي وما هو على مضمونه على البطن والتأويل.

سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ  
فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [٢١١]

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان حال الكفار والمنافقين، وشدة لجاحهم على الباطل، وتهديد المعاندين للحق على الزلل والعصيان؛ ذكر حال أمة موسى عليه السلام وشدة جهلهم وعنادهم للحق بعد ظهور الآيات لهم مُبالغة في زجر حاضري عصر النبي صلى الله عليه وآله وتسلية لقلبه الشريف بقوله: «سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ» لا لتحصيل العلم، بل لأخذ الاعتراف منهم والتبكيك والتقريع عليهم «كَمْ آتَيْنَاهُمْ» وأنزلنا إليهم «مِن آيَةٍ» ومعجزة أو دلالة «بَيِّنَةٍ» ظاهرة واضحة على صدق الأنبياء، إذ [إن] في الكتب السماوية التي عندهم دلالة ظاهرة على صدق محمد صلى الله عليه وآله.

ومن الواضح أن كل واحد من المعجزات الدالة على صدق الأنبياء، والآيات الدالة على صحة دين الإسلام وصدق محمد صلى الله عليه وآله نعمة عظيمة موجبة لهدايتهم إلى الحق، ونجاتهم من الضلال، فبدلوا هذه النعمة بأن جعلوها سبباً لضلالهم، إن كان المراد من الآية معجزات الأنبياء، أو بأن حرّفوها، إن كانت آيات الكتب، وشاهد صدق النبي صلى الله عليه وآله ودينه.

«وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ» ويغيرها عن جهتها أو يحرفها «مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ» النعمة، يُعاقبه الله بعقوبة شديدة «فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» لأنه عظيم الجرم.

رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا  
فَوَلَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٢١٢]

ثم ذكر الله سبحانه سبب تغييرهم النعمة وتبديلهم الآيات بقوله: «رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» بنعمة الله، وحسنت في أعينهم «الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» وأمتعها ولذا نذاها لصغف عقولهم وقوة شهواتهم «وَالَّذِينَ اتَّقَوْا» «وَالَّذِينَ آمَنُوا» ويستهنون بهم حيث تركوا الدنيا وزهدوا فيها واختاروا الآخرة.  
عن ابن عباس: نزلت في أبي جهل وروساء قريش، كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعبدالله

بن مسعود، وعَمَّار، وَحَبَّاب، وسالم مولى أبي حَذَيْفَةَ، وعامر بن قُھَيْزَةَ، وأبي عُثَيْدَةَ بن الْجَرَّاح، بسبب ما كانوا فيه من الفقر والضر، والصبر على أنواع البلاء، مع أن الكفار كانوا في النعم والراحة<sup>١</sup>. وقيل: نزلت في رؤساء اليهود وعلماهم من بني قُرَيْظَةَ والنضير والقيثاق، سَخَرُوا من فقراء المسلمين المهاجرين حيث أخرجوا من ديارهم وأموالهم<sup>٢</sup>.

وقيل: نزلت في المنافقين عبدالله بن أبي وأصحابه، كانوا يسخرون من ضعفاء المسلمين و[فقراء] المهاجرين<sup>٣</sup>.

أقول: ويمكن القول بنزولها في جميعهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وَاجْتَنَبُوا مخالفة أحكام الله من المؤمنين ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لَأَنَّ الْمُتَّقِينَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ والدرجة الرفيعة من الجنان، والساخرين في أسفل السافلين من النار وخضيض الذلة والهوان. ويحتمل أن يكون فوقهم من حيث السخرة، فإن سخرية المؤمنين في القيامة فوق سخرية الكفار في الدنيا.

ثم أنه لما كان للكفار أن يقولوا: إذا كان المؤمنون المُنْتَقُونَ أكرم عند الله فلم يعيشون في الشدة والفقر؟ فردهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه في الدنيا ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتقدير، فيوسع استدراجاً تارة، وإبتلاءً أخرى، أو المراد أن رزق الدنيا قليل، ويرزق في الآخرة من يشاء من عباده بغير حساب وينعم المؤمنين في الجنة بلا إحصاء.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٢١٣]

ثم بين الله تعالى أن هذه المعاندة والمشاقة مع الأنبياء ليست مما حدث في هذا الأوان أو بعد موسى، بل كانت من قديم الزمان قبل نوح وبعد آدم، بقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ﴾ جميعهم في أول الأمر بعد وفاة آدم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجماعة مجتمعين على الجهل، لا يدرون ما الإيمان وما الكفر وما

الشرك، وكانوا على الفطرة والاستعداد لقبول الحق، كما عن (المجمع) عن الباقر عليه السلام: «أنهم كانوا قبل [نوح] أمة واحدة على فطرة الله، لا مهتدين ولا ضالّين<sup>١</sup> الخبر.

«فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ «النَّبِيِّينَ» حال كونهم «مُبَشِّرِينَ» للمؤمنين بوحاياته وأنبياؤه وشرائعه، بفضله وتوابعه «وَمُنْذِرِينَ» للكافرين بها من عقابه.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام قال: «كان [الناس] قبل نوح أمة ضلال، فبدأ الله ببعث النبيين، وليس كما يقولون: لم يزل، [أو] كذبوا، يقرئ [الله] في ليلة القدر ما كان من شدة أو رخاء أو مطر بقدر ما شاء أن يقدر إلى مثلها<sup>٢</sup>» الخبر.

لعل المراد أن الله لم يترك الخلق شدي، وما كانت يده مغلوطة، فكما أنه يدبر أمور معاشهم في كل آن ويقدرها في كل سنة، كذلك يدبر أمور دينهم ببعث الرسل. إشكال وحل فإن قلت: يلزم على الروايين أن يكون زمان [ما] خالياً من الحجة، وهو خلاف ما عليه الإمامية وما دلّت عليه الروايات المتظاهرة إن لم تكن متواترة.

قلت: لعل الترتيب المستفاد من الفاء هو الترتيب العقلي لا الزمني، فإن النبي وإن كان قبل الخلق، ولكن البعث لا يتحقق إلا بعد وجود المبعوث إليه، فيكون مفاد الآية - والله العالم - أنه لو لم يكن بعث النبيين، لم يكن اختلاف بين الناس لأن كلهم كانوا جهالاً وضالّين، فلما بعث الرسل حدث الاختلاف بينهم، ولم يحدث إلا بوجود الاخلاق الرذيلة من الحسد والبغى على النبي صلى الله عليه وآله. توضيح بتشيل وهذا نظير ما قيل من أن الأجسام ليس لها لون وإنما اللون إذا أشرقت الأجسام، فإذا

وقع الشعاع على الجسم فيحسب الاستعداد الذي يكون للجسم يحصل للنور لون مناسب لما في كون الجسم من الاستعداد والخصوصية، ففي الحقيقة الألوان المختلفة تكون للنور للجسم، وإنما يظهر كل لون من الألوان للنور بسبب انعكاسه على الجسم الذي تكون فيه خصوصية مناسبة لذلك اللون، فكذلك النفوس البشرية ليس فيها فعلية الاختلاف في الإيمان والكفر، ولو لم يكن إشراق نور شمس النبوة والهداية، كانت جميع النفوس متساوية. فإذا أشرقت نور النبوة ظهر الاختلاف فيهم بالإيمان والكفر على حسب اختلاف الاستعدادات والخصيصات، فمن كانت نفسه مستعدة لقبول الحق، ولم يغلب عليها الحسد والبغى يكون من أهل الإيمان على اختلاف مراتبه، ومن فيه الخباثة

والحسد وحبّ الجاه يكون من أهل الكفر والعناد على اختلاف مراتبهما.

ويمكن أن يقال كما قيل: إِنَّ الْخَلْقَ قَبْلَ بَعَثِ الرَّسْلِ - حَتَّى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - كانوا على العقائد العقلية، كوحدة الصانع، والأحكام العقلية كوجوب شكره وقبح الظلم والكذب، وحسن العدل والاحسان وغير ذلك، فلما نزلت الأحكام الشرعية من العبادات والسياسات على آدم عليه السلام وبعث على أولاده انتقادوا له، ثم حصل الاختلاف بين قابيل وهابيل، وأبدع الكفر.

ثم بعد وفاة آدم عليه السلام وبعد برهوه من الزمان نسوا الشرائع الالهية ورجعوا إلى الشرائع العقلية، ثم بعث الله النبيين، ثم اختلفوا لأسباب مفصلة، وللأخلاق الرذيلة.

وأشير إلى هذا المعنى فيما روي عن الصادق عليه السلام قال: «[كان] هذا قبل بعث نوح، كانوا أمة واحدة فبدا لله فأرسل الرسل قبل نوح».

قيل: أعلى هدى كانوا أم على ضلال؟ قال: «بل كانوا ضللاً، لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين»<sup>١</sup>. وفي رواية عنه عليه السلام قال: «ذلك أنه لما انقضى آدم وصالح ذريته، بقي شيث وصيه لا يقدر على إظهار دين الله الذي كان عليه آدم وصالح ذريته، وذلك أن قابيل توعده بالقتل كما قتل أخاه هابيل، فسار فيهم بالتيمة والكتمان فازدادوا كل يوم ضللاً حتى لحق الوصي بجزيرة في البحر يعبد الله، فبدا لله تبارك وتعالى أن يبعث الرسل. ولو شئنا هؤلاء الجهال لقالوا: قد فرغ من الأمر، وكذبوا، إنما شيء يحكم به الله في كل عام [ثم قرأ]: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾<sup>٢</sup> فيحكم الله تعالى ما يكون في تلك السنة من شدة أو رخاء، أو مطر أو غير ذلك».

قيل: أفي ضلالة كانوا قبل النبيين أم على هدى؟ قال: «لم يكونوا على هدى، كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها لا تبدل لخلق الله، ولم يكونوا ليهدوا حتى يهديهم الله، أما تسمع قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾<sup>٣</sup> أي ناسياً للميثاق»<sup>٤</sup> الخبر.

وسيذكر في غيبة شيث كغيبه القائم المنتظر عليه السلام في آخر الزمان، ولا يلزم منها منع القائم عليه السلام وعدم استلزامها منع اللطف والأوصياء بعد الأنبياء، الذين هم ذوو الشرائع كوصي خاتم النبيين ﷺ حفاظ

٢. الدخان: ٤٤/٤.

١. تفسير العباسي ١: ٢١٥/٤١٠، تفسير الصافي ١: ٢٢٤.

٢. الأنعام: ٧٧/٦. ٣. تفسير العباسي ١: ٢١٦/٤١٣، تفسير الصافي ١: ٢٢٤.

للشرع، فإذا منعوا عن إظهار الحق وحفاظته، وأثّموا من الجبّارة، لم يكن للناس على الله حجة لكون ذلك بسوء اختيارهم، مع أن بركاتهم في غيبتهم متصلة إلى المواد المستعدة، لو توجّهوا إليهم واستمدّوا منهم.

ثم توصيفهم [في كتاب] الله تعالى بأنهم مبشّرين ومُنذرين دلالة على أن الأحكام والشرائع لو لم يقرنا بالتبشير بالثواب والأجر والإنذار بالعذاب أو العقاب لكان جعلها لغواً، حيث إنه لو لم يكن الطمع والخوف، لم يعمل أحد بحكم من الأحكام، ولا يجري شرع من الشرائع في الأنام. ثم بين سبحانه أنه لم يمتنع في الهداية بإرسال الرُّسل، بل ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ مُتَكَبِّراً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق.

والظاهر أن المراد بالكتاب جنسه، فإن المروي أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً، والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكور منهم في القرآن [باسم العلم] ثمانية وعشرون<sup>١</sup> ولم ينزل مع كل واحد منهم كتاب، بل الأنبياء بعد موسى ﷺ كان كتابهم هو التوراة، وكانوا حافظين لأحكامها، وكذلك الأنبياء بعد عيسى ﷺ كان كتابهم الإنجيل، وكانوا حافظين له، وإن كان لبعض النبيين كداود ﷺ كتاب ولكن لم يكن فيه أحكام.

﴿لِيُخَكِّمَ﴾ النبي أو الكتاب المنزل عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ وليكون المرجع عندهم ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الحق والذين ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وأنزل إليهم لرفع الاختلاف من بينهم، فجعلوا الكتاب الذي أنزل لرفع الاختلاف وسيلة لشدة الاختلاف ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ والدلائل الواضحات على الحق بحيث لم يكن مجالاً لأن يشتبه عليهم، وإنما كان الاختلاف ﴿بَغِيّاً﴾ وظُلماً وحسداً ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لجزصهم على الدنيا وزخارفها.

﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم، وهم أمة محمد ﷺ ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا﴾ سائر الناس ﴿فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِأُذُنِهِ﴾ وتبينه وتوفيقه لفهمه وقبوله.

روي أنه ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، ونحن أول الناس دخولاً في الجنة يوم القيامة» بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم، فهذا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي هدانا الله<sup>٢</sup>، والناس لنا فيه تبع، وغداً لليهود، وبعد غدٍ للنصارى<sup>٣</sup>.

٢. في تفسير الرازي: هدانا له.

١. راجع: تفسير البضاوي ١: ١١٥.

قيل: إن الناس اختلفوا في القبيلة، فصَلَبَ اليهود إلى بيت المقدس، والنصارى إلى المشرق، فهدانا الله للكهبة، واختلفوا في الصيام، فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً. فقلنا: إنه كان حنيفاً مسلماً. واختلفوا في عيسى عليه السلام فاليهود فرطوا، والنصارى أفرطوا، وقلنا القول العَدْلُ<sup>٤</sup>.

﴿وَأَقِمْ وَفَضِّلْهُ﴾ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿بِحَسَبِ الْإِسْتِعْدَادِ وَالطَّيِّبَةِ﴾ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿مُوصِلٍ إِلَى الْحَقِّ الْقَوِيمِ﴾ فَإِنَّ الْهَدَايَةَ وَالضَّلَالَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَجَدْلَانِهِ.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ  
الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ  
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [٢١٤]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ - وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْعَقَائِدَ الْحَقَّةَ لَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ مُوَثَّرًا فِي الْقَلْبِ بَحَيْثُ تَبَعَتْ الْجَوَارِحُ عَلَى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ فِي جَنْبِ اللَّهِ، فَالْفَتُورُ فِي الْجَوَارِحِ عَنِ الْقِيَامِ بِالزَّوَائِفِ الْإِلَهِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِضَعْفِ الْيَقِينِ وَعَدَمِ رِسْخِ الْحَقِّ فِي الْقَلْبِ - بَيَّنَّ أَنَّ امْتِحَانِ الْمُهْتَدِينَ إِلَى الْحَقِّ الْمَوْجِبَ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ كَمَا صَبَرَ السَّابِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

قيل: إنَّ التَّنْذِيرَ: فَصَّرَ الَّذِينَ هَدَوْا إِلَى الْحَقِّ عَلَى الشَّدَائِدِ، فَتَسَلَّكُونَ سَبِيلَهُمْ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ مِنْ دُونِ تَحْمِلِ الْمَشَاقِّ ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْكُمْ بَعْدَ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ وَمَضَوْا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تَتَحْمَلُوا مِثْلَ مَا تَحْمَلُوهُ مِنَ الْبَلَايَا الَّتِي كَانَتْ فِي الشَّدَّةِ مِثْلًا. ثُمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ كَانَ مِثْلُهُمْ؟ فَبَيَّنَّ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءِ﴾ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَاقَةِ ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَمْرَاضِ، وَالْخُرُوجِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ وَأَزْعَجُوا إِزْجَاجًا شَدِيدًا لَمَّا دَهَمَتْهُمُ الْأَهْوَالُ وَالْأَفْرَاقُ ﴿حَتَّى﴾ بَلَغَتْ الشَّدَّةُ إِلَى أَنْ ﴿يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ مَعَ أَنَّهُ أَصْبَرَ النَّاسِ وَأَعْلَمَهُمْ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وَأَقْتَدَوْا بِهِ: ﴿مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾ وَأَيَّ وَقْتٍ يَكُونُ عَوْنُهُ؟ قَدْ أَبْطَأَ إِنْجَازَ وَعْدِهِ وَطَالَ زَمَانُ الشَّدَّةِ وَالْعَنَاءِ بِنَا، وَعَجَزَ الصَّبْرُ عَنْ تَحْمِيلِ الْبَلَاءِ. فَإِذَا بَلَغَتْ

بهم المِحَنَّةُ إلى الغايةِ وَالضَّرُّ والبُؤْسُ إلى هذه الدَّرَجَةِ العظيمة، قيل لهم: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». والحاصل: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ خَلَوْا، كانوا في هذه المَرَتَبَةِ من البلاءِ والمِحَنِّ، وصَبَرُوا ولم يَتَغَيَّرْ دينُهُمْ حَتَّى أَتَاهُم النَّصْرُ والْفَرَجُ، فكَوْنُوا أَنِهَا المسلمون كذلك.

روي أَنَّهُ ﷺ قال: «خُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَخُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»<sup>١</sup>.

وروي عن خُبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ، قال: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا نَلْقَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فقال: «إِنْ مِنْكَ قَبْلُكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا يُعَذِّبُونَ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ، فَلَمْ يَصْرِفْهُمْ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِمْ، حَتَّى أَنْ الرَّجُلَ يَوْضِعَ عَلَى رَأْسِهِ الْمِنْشَارَ فَيُشَقَّ فَيُلْقَتَيْنِ، وَيُمَشِّطُ الرَّجُلَ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ فَيَمَازِ دُونَ الْعَظْمِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَصَبِ، وَمَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَإِيْمَ اللَّهُ لِيَمُنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ وَالذِّنْبَ عَلَى عَنَتِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ»<sup>٢</sup>.

وعن ابن عباس: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَشَدَّتْ الضَّرَرُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا بِمَا لَمْ يَتْرَكُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ، وَأُظْهِرَتِ الْيَهُودُ الْعِدَاةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ «أَمْ حَسِبْتُمْ»<sup>٣</sup>.

وقيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ حِينَ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالْحُزَنِ، وَكَانَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: «بَلَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ»<sup>٤</sup>.

وقيل: نَزَلَتْ فِي حَرْبِ أَحَدٍ لَمَّا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لَاصِحَابٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِلَى مَتَى تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَرْجُونَ الْبَاطِلَ؟ وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ [نَبِيًّا] لَمَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْأَسْرَ وَالْقَتْلَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>٥</sup>. ويمكن الجمع بينهما بالقول بتكرُّر النزول.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِبِينَ وَآلِيتَامَى  
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ [٢١٥]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الضَّرَاءِ مِنْ وَطَائِفِ الْإِيمَانِ، وَكَانَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيْضاً مِنْ وَطَائِفِ الْإِيمَانِ، حَكَى اللَّهُ تَعَالَى سُؤَالَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ خُصُوصِيَّاتِهِ بَعْدَ حَثِّ النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ:

١. نهج البلاغة: ٢٥١ الخطبة ١٧٦. ٢. تفسير الرازي ٦: ٢٠. ٣. تفسير الرازي ٦: ١٩.

٤. تفسير الرازي ٦: ١٩، والآية من سورة الأحزاب: ١٠/٣٣. ٥. تفسير الرازي ٦: ١٩.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾.

عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخاً كبيراً هرمًا، وهو الذي قُتل يوم أحد وعنده مَالٌ عظيم، فقال: ماذا تُنفِق من أموالنا وأين نضعها؟ فنزلت هذه الآية<sup>١</sup>. فأجاب الله عن السؤالين بقوله: ﴿قُلْ مَا تَنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ أَيْ خَيْرٍ كَانَ ﴿فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ﴾ وقد مرَّ تفسير جميعها ووجه ترتيبها<sup>٢</sup>.

وعن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رجلٍ أتى النبي ﷺ فقال: إن لي ديناراً. فقال: «أنفقهُ على نفسك» قال: إن لي دينارين، قال: «أنفقهما على أهلِكَ» قال: إن لي ثلاثة. قال: «أنفقها على خادمك». قال: إن لي أربعة؟ قال: «أنفقها على والدَيْكَ». قال: إن لي خمسة. قال: «أنفقها على قرابَتِكَ». قال: إن لي ستة. قال: «أنفقها في سبيل الله، وهو أحسنُها»<sup>٣</sup>.

وعدم التعرُّض في الآية للسائلين وفي الرقاب لعلَّ لدخولها تحت عموم قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ فإنه عامٌ لكلِّ ما فيه مَرْضاة الله من العبادات والصدقات، وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وعد بالثواب العظيم.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرَّةٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ  
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [٢١٦]

ثم أنه سبحانه بعد الترغيب في الإنفاق في سبيل الله - الذي هو الجهاد بالأموال - حثَّ على الجهاد بالأنفس.

قيل: لم يكن النبي ﷺ مأذوناً في القتال مدة إقامته في مكة، فلما هاجر إلى المدينة أُذن له في قتال من يُقاتله من المشركين، ثم أُذن له في قتال عامتهم، وفرض الله عليه الجهاد بقوله: ﴿كُتِبَ﴾ وفرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ مع الكفار ﴿وَهُوَ كُرَّةٌ لَكُمْ﴾ غير مُلائم لطباعكم البشرية، لأن فيه الإقدام على بذل المهج وتحمل المشاق، وخطر الزوج، وإن كان المؤمن بعد أمر الله يُحبُّه ويشتاقي إليه على خلاف الطبيعة، وإطلاق الكُرِّ للمبالغة وهو بمعنى المَكْرُوه.

٣. تفسير الرازي ٦: ٢٢.

١. تفسير الرازي ٦: ٢٣. ٢. الآية (١٧٧) من هذه السورة.

٤. تفسير الرازي ٦: ٢٦.



﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ لِمَا تَرَوْنَ فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالضَّرَرِ عَلَى النَّفْسِ وَالْمَالِ مِنْ غَيْرِ صَلاَحٍ ظَاهِرٍ ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فِي الْحَقِيقَةِ، وَصَلاَحُكُمْ فِي الْوَاقِعِ، كَمَا أَنَّ الْمَرِيضَ إِذَا كَانَ جَاهِلًا بِنَتِجَةِ شُرْبِ الدَّوَاءِ الْمُرَاتِلِينَ، لَا يَتَحَمَّلُ شُرْبَهُ إِلَّا بِكُرْهِ وَجَبْرٍ، بِخِلَافِ مَا إِذَا عَلِمَ بِكَوْنِ شِفَاؤِهِ فِي شُرْبِهِ، فَإِنَّهُ يَشْتَأِقُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ اشْتِيَاقِهِ إِلَى شُرْبِ الْأَشْرَبَةِ الْحُلُوةِ الطَّيِّبَةِ.

﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وَتَشْتَأِقُوا إِلَيْهِ لِجَهْلِكُمْ بِضَرِّهِ وَشُرِّهِ، وَتُؤَافِقْتَهُ لَطِبَاعِكُمْ ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ يَكُونُ فِيهِ فَسَادُكُمْ وَهَلَاكُكُمْ، فَإِنَّ الطِّفْلَ يَشْتَأِقُ إِلَى أَنْ يَلْعَبَ بِالْحَبِيَّةِ لِحُسْنِ مَظْهِرِهَا وَلِينِ لَمْسِهَا، وَجَهْلِهِ بِأَنَّهَا قَاتِلَةٌ، وَأَنْ فِي قُرْبِهَا هَلَاكُهُ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ وَاقِعَ صَلاَحِ الْأَشْيَاءِ وَفَسَادِهَا ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شَيْئًا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ، فَمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا أَنْ فِيهِ خَيْرٌ لَكُمْ وَصَلاَحُكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى كَوْنِهِ مَكْرُوهًا لَطِبَاعِكُمْ أَوْ مُفْسِدَةً فِي اعْتِقَادِكُمْ، فَعَلِيكُمْ الْبِدَارُ إِلَى طَاعَةِ أَوَامِرِهِ وَلَوْ كَانَ بِالْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ فِي الْمَهَالِكِ وَتَحْتَ أَظْلَةِ السَّيْفِ.

فِي دَفْعِ تَرْكِهِ  
التَّكْلِيفِ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ وَالْحَرَجِ وَالضَّرَرِ يُنَافِي قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾<sup>١</sup> وَقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾<sup>٢</sup> وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ»<sup>٣</sup>.

الْحَرَجُ  
قُلْنَا: الْمُرَادُ مِنَ الْعُسْرِ وَالْحَرَجِ وَالضَّرَرِ، مَا يَكُونُ بِجِهَاتٍ طَارِئَةٍ عَلَى مُتَعَلِّقِ التَّكْلِيفِ، لَا مَا هُوَ فِي نَوْعِ الْمُكْلَفِ بِهِ وَحَقِيقَتِهِ، مَثَلًا التَّكْلِيفُ بِالْجِهَادِ وَالزَّكَاةِ يَكُونُ فِي نَوْعِهِمَا الضَّرَرُ وَالْحَرَجُ، وَهَذَا بِاللَّحَظِ الْأَوَّلِيِّ مُقْتَضِي ثُبُوتِ التَّكْلِيفِ لَا رَافِعَ لَهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضِي الشَّيْءِ مَانِعًا عَنْهُ أَوْ رَافِعًا لَهُ، بِخِلَافِ الْعُسْرِ وَالْحَرَجِ وَالضَّرَرِ الطَّارِئِ عَلَى التَّكْلِيفِ، كَأَنْ يَكُونَ الْمُكْلَفُ مَرِيضًا أَوْ يَكُونَ آدَاءُ الزَّكَاةِ مُوجِبًا لِمُتَّفَاعًا لَضَرَرٍ يَزِيدُ مَالَ آخِرٍ فِي إِيصَالِهِ إِلَى الْفَقِيرِ، فَإِنَّ دَلِيلَ نَقْيِ الْحَرَجِ وَالضَّرَرِ رَافِعٌ لِلتَّكْلِيفِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَلَا مَنَافَاةَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَفَادَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ أَمَرَكُمْ بِهِ، الصَّنَفَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَشَقَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى مَا أَقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ ذَلِكَ الْعَمَلِ، وَلَمْ يُرِدْ مِنْكُمْ الصَّنَفَ الَّذِي فِيهِ الضَّرَرُ وَالْعُسْرُ الزَّائِدَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ الطَّبِيعَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا، مَثَلًا الْوُضُوءَ بِالْمَاءِ، مَعَ كَوْنِ الْمَشَقَّةِ الْعَظِيمَةِ فِي تَحْصِيلِهِ وَإِنْ كَانَ مُوجِبًا لِلطَّهَارَةِ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ بِتَحْمُلِ تِلْكَ الْمَشَقَّةِ

لعباده إذا كان في التَّيْمُ بالتراب مصلحةً مَقْصُودَةً لِبَدَلَيْتِهِ عن الوضوء في تلك الحال، ففي صورة عدم وجدان الماء لم يكلِّفنا الله بِتَحْصِيلِ الماء وَتَحْمِلِ الْمَشَقَّةَ وَالْحَرَجَ لَهُ، بل اِكْتَفَى بِعَمَلِ الطُّهُورِ السَّهْلِ الذي لا مَشَقَّةَ فِيهِ، وهو التَّيْمُ بالتراب.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ  
الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ  
يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ  
هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ [٢١٧ و ٢١٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالْقِتَالِ وَأَوْجَبَهُ، سَأَلَ الْكُفَّارَ عَنْ حُكْمِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، فَحَكَى اللَّهُ ذَلِكَ  
السُّؤَالَ تَوْتَةً لَجَوَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ عَنْ ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ وَقِيلَ: إِنَّ السَّالِينَ هُمُ  
الْمُسْلِمُونَ، وَكَانَ السُّؤَالُ بَعْدَ وَاقِعَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ الْأَسَدِيِّ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>١</sup>.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ قَبْلَ قِتَالِ بَدْرَ بَشْهَرَيْنِ، وَبَعْدَ  
سَبْعَةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ فِي ثَمَانِيَةِ زَهْطٍ، وَكُتِبَ لَهُ كِتَابًا وَعَهْدًا دَفَعَهُ إِلَيْهِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَفْتَحَهُ  
بَعْدَ مَرَّتَيْنِ، وَيَقْرَأَهُ عَلَى أَصْحَابِهِ وَيَعْمَلُ بِمَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَيَسِّرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ بِمَنْ اتَّبَعَكَ  
حَتَّى تَنْزِلَ بَطْنُ نَخْلٍ فَرْتَضِدْ بِهَا عَيْرَ قُرَيْشٍ لَعَلَّكَ أَنْ تَأْتِيَتَا مِنْهُ بِخَيْرٍ».

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: سَمِعًا وَطَاعَةً لِأَمْرِهِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ الشَّهَادَةَ فَلْيَنْطَلِقْ مَعِيَ فَإِنِّي مَاضٍ  
لِأَمْرِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ التَّخَلُّفَ فَلْيَتَخَلَّفْ، فَمَضَى حَتَّى بَلَغَ بَطْنَ نَخْلٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ. فَمَرَّ عَلَيْهِمْ  
عَمْرُو بْنُ الْحَضَرَمِيِّ وَثَلَاثَةٌ مَعَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَلَقُوا رَأْسَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَأَوْهَمُوا  
بِذَلِكَ أَنَّهُمْ قَوْمُ عُمَارٍ<sup>٢</sup>، ثُمَّ أَتَى وَاقِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْظَلِيَّ - وَهُوَ أَحَدُ مَنْ كَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ -  
وَرَمَى عَمْرُو بْنُ الْحَضَرَمِيِّ قَتْلَهُ، وَأَسْرَوْا اثْنَيْنِ وَسَاقُوا الْبَعِيرَ بِمَا فِيهِ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَصَجَّتْ قَرِيشٌ وَقَالُوا: قَدْ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدُ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، شَهْرًا يَأْتُن فِيهِ الْخَائِفُ، فَيَسْفِكُ فِيهِ الدَّمَاءَ، وَالْمُسْلِمُونَ أَيْضًا قَدْ اسْتَبَعَدُوا ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «إِنِّي مَا أَمَرْتُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ».

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَتَلْنَا ابْنَ الْحَضَرَمِيِّ، ثُمَّ أَمْسَيْنَا فَنَطَرْنَا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ، فَلَا نَدْرِي أَفِي رَجَبٍ أَصْبَاهُ أَمْ [فِي] جُمَادَى. فَوَقَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَبِيرَ وَالْأَسَارَى فَتَرَلَتْ [هَذِهِ الْآيَةُ]، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَنِيمَةَ<sup>١</sup>.

وَعَنِ الْقَمِيِّ ﷺ فِي رِوَايَةٍ: فَكُتِبَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ اسْتَحَلَلْتَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَسَفَكْتَ فِيهِ الدَّمَ، وَأَخَذْتَ الْمَالَ. وَكَثُرَ الْقَوْلُ فِي هَذَا. قَالَ الصَّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْحَلُ الْقَتْلُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟ فَتَرَلَتْ<sup>٢</sup>.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ [أَنَّهُ] قَالَ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا كَانُوا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا سَأَلُوهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثِ عَشْرَةِ مَسْأَلَةٍ حَتَّى قُبِضَ، كُلُّهُمْ فِي الْقُرْآنِ، مِنْهَا «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ»<sup>٣</sup> أَيِ عَنِ قِتَالٍ فِيهِ.

وَقِيلَ: سَأَلَ الْكُفَّارُ عَنْ هَذَا حَتَّى لَوْ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ حَلَالٌ فَتَكُوبُوا بِهِ وَاسْتَحَلُّوا قِتَالَهُ فِيهِ<sup>٤</sup>، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: «قِتَالٌ فِيهِ» أَيِ قِتَالٍ كَانَ هُوَ إِيَّاهُمْ «كَيْبَرٌ» وَذَنْبٌ عَظِيمٌ.

وَقِيلَ: إِنَّ تَنْكِيرَ الْقِتَالِ فِي الْجَوَابِ لِإِظْهَارِ أَنَّ الْقِتَالَ الَّذِي هُوَ إِيَّاهُمْ كَيْبَرٌ لَيْسَ قِتَالُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ الَّذِي كَانَ لَا شُبُهَاءَ الشَّهْرِ، أَوْ لُصْرَةَ الْإِسْلَامِ وَإِذْلالِ الْكُفْرِ أَوْ لِلدَّفَاعِ، بَلْ قِتَالٌ آخَرُ، وَهُوَ الْقِتَالُ الَّذِي فِيهِ هَدَمَ الْإِسْلَامَ، أَوْ سَائِرِ الْأَغْرَاضِ الْفَاسِدَةِ<sup>٥</sup>. «وَصَدٌّ» مَخْصُوصٌ «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» وَهُوَ مَنَعَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَوْ مَنَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ مَنَعَهُمْ عَنِ الْعُمْرَةِ عَامَ الْحَدِيثِيَّةِ، وَعَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ يَكُونُ إِخْبَارًا بِمَا وَقَعَ بَعْدَ مَدَّةٍ «وَكُفْرٌ بِهِ» أَيِ بِاللَّهِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ: الْكُفْرُ بِأَنَّهُ مُرْسِلُ الرُّسُولِ وَكَوْنُهُ مُسْتَحَقًّا لِلْعِبَادَةِ وَقَادِرًا عَلَى الْبَعْثِ<sup>٦</sup>.

«وَصَدٌّ» عَنِ «الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» بِنَاءٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْمُرَادُ: وَالْكَفْرُ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِهِ عَطْفًا عَلَى الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ قَبْلَهُ. وَالْمُرَادُ مِنَ الْكُفْرِ بِالْمَسْجِدِ: مَنَعَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَزِيَارَةِ الْبَيْتِ وَالطَّوَافِ بِهِ «وَأَخْرَاجُ أَهْلِهِ» وَهُمْ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ

١. تفسير الرازي ٦: ٢٩. ٢. تفسير القمي ١: ٧٢. ٣. تفسير الرازي ٦: ٣٠. ٤. تفسير الرازي ٦: ٣٠.

٥. تفسير الرازي ٦: ٣١. ٦. تفسير الرازي ٦: ٣٤.

﴿مِنَهُ﴾ أي من المسجد، كل واحدٍ من هذه الأمور إنَّه من قريش ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي علمه من قتال سرية وقَتَلَ ابن الحَضَرَمِيِّ في الشَّهْرِ الْحَرَامِ؛ لِأَنَّ الْقِتَالَ فِيهِ قَدْ يَحِلُّ وَالْكَفْرُ بِاللَّهِ لَا يَحِلُّ بِحَالٍ. قيل: إنَّ عَذَّةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَسْجِدِ مَعَ كَوْنِهِمْ خَارِجِينَ عَنْ مَكَّةَ، لَكَوْنِهِمْ قَائِمِينَ بِأَدَاءِ وَظَائِفِهِ حَافِظِينَ لِحُدُودِهِ<sup>١</sup>.

﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ والفساد في الأرض، وقيل: إنَّ الشَّرَادَ مِنْهَا الشَّرْكَ بِاللَّهِ وإخراج أهل المسجد<sup>٢</sup> ﴿أَكْبَرُ﴾ وزراً، وَأَشَدُّ قُبْحاً ﴿مِنْ الْقَتْلِ﴾ الصَّادِرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى سَبِيلِ الْخَطَا، وَيَنْظُرُ عَدَمَ دُخُولِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ.

نَقَلَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ، كَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُتَيْسٍ إِلَى مُؤْمِنِي مَكَّةَ: إِذَا عَرَّكُمُ الْمُشْرِكُونَ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَعَيِّرُوهُمْ أَنْتُمْ بِالْكَفْرِ وإخراج رسول الله ﷺ من مَكَّةَ، وَمَتَّبِعِهِمُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْبَيْتِ<sup>٣</sup>. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ، أَنَّهُمْ كَيْفَ يُعَيِّرُونَكَ عَلَى قَتْلِ وَاحِدٍ ﴿وَوَ﴾ هُمْ ﴿لَا يَزَالُونَ﴾ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وَيُدِيمُونَ عَلَى عَدَاوَتِكُمْ وَلَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا ﴿حَتَّى يَرَدَّوْكُمْ﴾ وَكَيْ يَصْرِفُوكُمْ ﴿عَنْ دِينِكُمْ﴾ الْحَقُّ إِلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ ﴿إِنْ أَسْتَطَاعُوا﴾ وَأَتَى لَهُمْ ذَلِكَ لِتَصْلِيحِكُمْ فِي إِيْمَانِكُمْ، وَثِبَاتِكُمْ فِي دِينِكُمْ، وَفِيهِ تَطْيِيبٌ لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ اسْتِعْيَادِ ارْتِدَادِ أَهْلِ الْإِيْمَانِ، أَخَذَ فِي تَحْذِيرٍ مَنِ يَرْتَدُّ بِإِضْلَالِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَزِيدْ﴾ وَيَنْصَرَفُ ﴿مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ﴿عَنْ دِينِهِ﴾ الْحَقُّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَعَنِ التَّوْحِيدِ إِلَى الشَّرْكَ ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وَلَمْ يَنْبَغِ عَنْ ارْتِدَادِهِ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَفِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الرَّجُوعِ إِلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْارْتِدَادِ وَقَبْلَ الْمَوْتِ، وَدَلَالَةٌ عَلَى قَبُولِ تَوْبَةِ الْمُرْتَدِّ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الْمُرْتَدُّونَ الْبَعِيدُونَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿حَبِطَتْ﴾ وَضَاعَتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصَّالِحَةُ الَّتِي عَمِلُوهَا حَالَ إِسْلَامِهِمْ، وَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا نَعْمٌ وَأَثَرٌ خَيْرٍ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ فَإِنَّ لِلْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ أَثَاراً وَقَوَائِدَ دُنْيَوِيَّةَ كَحُسْنِ الذِّكْرِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ لَهُ مِنْهُمْ، وَجَوَازِ الْمُنَاقَحَةِ، وَالْمَوَادَّةِ، وَالطَّافِ خَاصَّةً مِنَ اللَّهِ فِي أَعْقَابِهِ.

رَوَى عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ اللَّهَ لِيُصْلِحَ لِصَاحِبِ<sup>٤</sup> الْمُؤْمِنِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ، وَيَحْفَظَهُ فِي دَوَائِرِهِ وَدَوَائِرِ حَوْلِهِ، فَلَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللَّهِ لِكِرَامَتِهِ عَلَى اللَّهِ<sup>٥</sup> الْخَيْرِ. فَبِالْإِرْتِدَادِ تَزُولُ تِلْكَ الْأَثَارُ

١. تفسير الرازي ٦: ٣٤. ٢. و٥. تفسير روح البيان ١: ٣٣٥.

٤. في تفسير العياشي: بصلاح الرجل. ٥. تفسير العياشي ٣: ٢٦٨٧/١٠٦.

والكرامات الدنيوية، بل يجب قتله عند الطفر به.

﴿و﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ فإنهم لا يتأبون عليها فيغوثهم ثوابها في الدارين، وفيه دلالة على اشتراط حَبِطُ الأعمال، وثوابها، والخلود في النار، بالموت على الكفر.

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا مناص ولا خلاص لهم منها أبداً.

ثم روي أنه قال عبدالله بن جحش: يا رسول الله، هَبْ أَنَّهُ لَا عِقَابَ عَلَيْنَا فِيمَا فَعَلْنَا، فَهَلْ نَطْمَعُ مِنْهُ أَجْراً وَثَوْباً؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى <sup>١</sup> ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقيل: إنه قال قوم: إِنَّ أَصْحَابَ السَّرِيَةِ إِنْ سَلِمُوا مِنَ الْإِثْمِ فَلَا أَجْرَ لَهُمْ، فنزلت: <sup>٢</sup> ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مِنْ أَوْطَانِهِمْ طَلَبَ صُحْبَةِ الرَّسُولِ ﷺ ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ - وَفِي ذِكْرِ الْأَوْصَافِ إِيْمَةً إِلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَصْحَابِهِ حَيْثُ إِنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مُهَاجِرِينَ مُجَاهِدِينَ - ﴿وَأُولَئِكَ يَرْجُونَ﴾ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ﴿رَحِمَتُ اللَّهِ﴾ وَثَوْبَهُ. وَالتَّعْبِيرُ بِالرَّجَاءِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَزَالُ فِي خَوْفٍ وَرَجَاءٍ، وَلَا يَقْطَعُ بِالْفَلَاحِ إِلَّا عِنْدَ الْاِحْتِضَارِ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِرِزَالِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ بِاجْزَالِ الْأَجْرِ.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ أَلْعَفُو كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ \* فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٢٠ و ٢١٩]

والسؤال الرابع من المسلمين، ما بيته الله بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ وعن حكم شرب المسكر، أحلال شربه أم حرام؟

قيل: نزلت في الخمر أربع آيات، نزلت بمكة آية ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ <sup>٣</sup> فطَفِقَ الْمُسْلِمُونَ يَشْرِبُونَهَا، ثُمَّ إِنَّ جَمْعاً مِنَ الصَّحَابَةِ قَالُوا: أَفْتِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْخَمْرِ، فَإِنَّهَا مَذْهَبٌ لِلْعَقْلِ؟ فنزلت هذه الآية، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن

عوف ناساً منهم، فَشَرِبُوا وَسَكَرُوا، وقام أحدهم فقراً: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، إلى آخر الخبر<sup>١</sup>.

﴿و﴾ عن «الميسر» وهو كل ما قُومِرَ عليه، عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الميسر: «كل ما ألهى عن ذكر الله فهو [من] الميسر»<sup>٢</sup>.

﴿قُلْ فِيهِمَا﴾ وفي استعمالهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وَذَنْبٌ عَظِيمٌ.

في ذكر مفاسد روي عن الصادق عليه السلام قال: «الْخَمْرُ رَأْسُ كُلِّ إِثْمٍ، وَفِتْنَةُ كُلِّ شَرٍّ»<sup>٣</sup>.  
شرب الخمر وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنَّ الْمَلَانِكَةَ لَتَنْفِرُ عِنْدَ الرَّهَانِ، وَتَلْعَنُ صَاحِبَهُ، مَا خَلَا الْحَافِرَ، وَالْقَمَارَ  
[والخف] والرَّيشَ، والنُّصْلَ»<sup>٤</sup> الخبر.

واعلم أن مقاسيد الخمر والميسر أظهر من أن تخفى على ذي مُشْكَةٍ<sup>٥</sup>، أما الخمر فأظهر مقاسيدها أنها مذهبة للعقل.

نقل عن العباس بن مرداس أنه قيل له في الجاهلية: لِمَ لَا تَشْرَبَ الْخَمْرَ فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي جَرَأَتِكَ؟ فقال: ما أنا بأخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قوم وأمسي سفيهم<sup>٦</sup>.  
وقال بعض: لو كان العقل يشري ما كان شيء أنفس منه، فالعجب لمن يشتري الحمق بماله فيدخله في رأسه فتية في جيبه ويسلخ في ذيله<sup>٧</sup>.

وأما الميسر، فأظهر مقاسيده أنه مذهب للمال لا<sup>٨</sup> عن ذكر الله، ومن مقاسيدهما أن تعاطيهما موقع في العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾<sup>٩</sup>.

ثم ذكر سبحانه مقتضى إباحتها بقوله: ﴿و﴾ فيهما «مَنَافِعُ» كثيرة جسمانية ومادية «لِلنَّاسِ». قيل: إن من منافع الخمر أن الناس كانوا يتعاملون<sup>١٠</sup> بها إذا جلبوها من النواحي، وكان المشتري إذا ترك المماكة<sup>١١</sup> في الثمن، كانوا يعدون ذلك فضيلة له فكانت تكثر أرباحهم<sup>١٢</sup>.

٢. أمالي الطوسي: ٢٨١/٣٣٦.

١. تفسير أبي السعود ١: ٢١٨.

٤. من لا يحضره الفقيه ٣: ٨٨/٣٠.

٣. الكافي ٦: ٤٠٣، تفسير الصافي ١: ٢٢٧.

٧. تفسير روح البيان ١: ٣٤٠.

٥. المشكّة: العقل. ٦. تفسير الرازي ٦: ٤٦.

٨. المائدة: ٩١/٥. ٩. في تفسير الرازي: يتغالون، أي يبيعونها بثمن غالٍ.

١١. تفسير الرازي ٦: ٤٧.

١٠. أي التقليل من الثمن.

ومنها: أَنَّهُ يَقْوِي الضَّعِيفَ، وَيَهْضِمُ الطَّعَامَ، وَيُعِينُ عَلَى الْبَاءِ<sup>١</sup>، وَيُسَلِّي الْمَحْزُونَ، وَيَشْجَعُ الْجَبَانَ. وقيل: إِنَّ مِنْ مَنَافِعِ الْمَيْسِرِ التَّوْبَةُ عَلَى ذَوِي الْحَاجَةِ<sup>٢</sup>.

نقل عن الواقدي أَنَّهُ قَالَ: كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ رِمَا قَمَرٍ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ بَعِيرٍ، فَيَحْصُلُ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ ثُمَّ يَصْرِفُهُ فِي الْمُحْتَاجِينَ، فَيَكْتَسِبُ مِنْهُ الْمَدْحَ وَالثَّنَاءَ<sup>٣</sup>.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ مُقْتَضَى الْحَرَمَةِ فِيهِمَا أَنَّهُمْ وَأَقْوَى مِنْ مُقْتَضَى الْإِبَاحَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنفُسُهُمَا﴾ وَضَرَرُهُمَا ﴿أَكْبَرُ﴾ وَأَعْظَمُ ﴿مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لِأَنَّ ضَرَرَهُمَا رُوحَانِي وَنَفْعُهُمَا جِسْمَانِي، وَلَا يُعَادِلُ أَضْعَافٌ مَا يَتَوَصَّرُ لَهُمَا مِنَ النَّفْعِ لِأَقَلِّ قَلِيلٍ مِنْ غَيْرِهِمَا.

روي من طَرُقِ الْعَامَّةِ أَنَّ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَكَرَ لَجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْبَعَ خِصَالٍ كَانَ عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ عَلَيْهَا فِي الْإِسْلَامِ. فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعْفراً عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَطْلَعَكَ عَلَيْهَا لَمَّا أَخْبَرْتُكَ بِهَا: مَا شَرِبْتُ الْخَمْرَ قَطُّ، لِأَنِّي رَأَيْتُهَا تُزِيلُ الْعَقْلَ، وَأَنَا إِلَى أَنْ أُزِيدَ فِيهِ أَخْرَجَ مِنِّي إِلَى أَنْ أُزِيلَهُ، وَمَا عِبَدْتُ صَنَماً قَطُّ لِأَنِّي رَأَيْتُهُ لَا يَصُغَّرُ وَلَا يَنْفَعُ، الْخَبِيرُ<sup>٤</sup>.

فِي تَنْزِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَقُولُ: بَعْدَ وَضُوحِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَأَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَانَا أَعْقَلَ وَأَكْمَلَ مِنْهُ، كَانَا أَجَلَ وَأَنْزَرَهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَا صَنَماً أَوْ يَشْرَبَا خَمْراً. وَمِنْ بَعْضِ الْعَامَّةِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «لَوْ وَفَعَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الْخَمْرِ فِي بَخْرٍ ثُمَّ

جَفَّ فَنَبَتَ فِيهِ الْكَلَالُ لَمْ أَزْعِهِ»<sup>٥</sup>. وَبِإِلَهِ أَنْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ مَرْوِي بِطَرُقِ أَصْحَابِنَا. وَعَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَ[فِي] عِلْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَكْمَلَ [لَهُ] دِينَهُ كَانَ فِيهِ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، وَلَمْ يَزَلِ الْخَمْرُ حَرَاماً، وَإِنَّمَا يُتَقَلَّبُونَ مِنْ خَصْلَةٍ ثُمَّ خَصْلَةٍ<sup>٦</sup>، وَلَوْ حَمَلَ<sup>٧</sup> ذَلِكَ عَلَيْهِمْ جَمْلَةٌ لَقَطَعَ بِهِمْ دُونَ الدِّينِ»<sup>٨</sup>.

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا أَحَدٌ أَرْفَقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمِنْ رَفَقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَنْقَلِبُ مِنْ خَصْلَةٍ إِلَى خَصْلَةٍ، وَلَوْ حَمَلَ عَلَيْهِمْ جَمْلَةٌ لَهْلَكُوا»<sup>٩</sup>.

١. فِي النِّسْخَةِ: الْبَاءُ. ٢. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٦: ٤٧. ٣. وَكَذَا. ٤. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١: ٣٣٩. ٥. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ١: ٢١٨، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١: ٣٤٠. ٦. فِي الْكَافِي: مِنْ خَصْلَةٍ إِلَى خَصْلَةٍ. ٧. زَادَ فِي النِّسْخَةِ: مِنْ. ٨. الْكَافِي ٦: ٣٩٥، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٢٢٨. ٩. الْكَافِي ٦: ٣٩٥، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٢٢٨.

وعنهم عليهم السلام: «أَنْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ أَحَسَّ الْقَوْمُ بِتَحْرِيمِهَا [وتحريم الميسر] وعلِمُوا أَنَّ الْأَثْمَ مِمَّا يَنْبَغِي اجْتِنَابَهُ، وَلَا يَحْمِلُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَةً أُخْرَى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فَكَانَتْ هَذِهِ آيَةُ أَشَدَّ وَأَعْلَظَ فِي التَّحْرِيمِ، ثُمَّ ثَلَاثُ بَايَةٍ أُخْرَى فَكَانَتْ أَعْلَظَ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَأَشَدَّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ﴾<sup>١</sup> فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِاجْتِنَابِهِمَا الْخَبَرُ<sup>٢</sup>.

وعن بعض العامة: لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَةُ، قَالَ عُمَرُ: قَدْ انْتَهَيْنَا يَا رَبَّ<sup>٣</sup>.

أَقُولُ: فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَشْرِبُهُ.

قِيلَ: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ بِأَيَّامٍ<sup>٤</sup>.

وَقِيلَ فِي وَجْهِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ: إِنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا أَلْفَوْا شُرْبَ الْخَمْرِ، وَكَانَ انْتِفَاعُهُمْ بِهِ كَثِيرًا، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ مَنَعَهُمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً لَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَلَا جَرَمَ اسْتَعْمَلَ فِي التَّحْرِيمِ التَّدرِجَ وَالرَّفْقَ.

ثُمَّ لَمَّا أُنْزِلَ التَّحْرِيمُ أَرِيَقَتِ الْخَمْرُ<sup>٥</sup>. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: خَرَجْنَا بِالْحِجَابِ إِلَى الطَّرِيقِ فَمِنَّا مَنْ كَسَرَ حُبَّهُ، وَمِنَّا مَنْ غَسَلَهُ بِالْمَاءِ وَالطَّيْنِ، وَلَقَدْ غَوْدَرَتْ أَزْقَةُ الْمَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ حِينًا كَلَّمَا مَطَرَتْ اسْتَبَانَ فِيهَا لَوْنُ الْخَمْرِ، وَفَاحَتْ مِنْهَا رِيحُهَا، [وَحُرِّمَتِ الْخَمْرُ] وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ لِلْعَرَبِ عَيْشٌ أَعْجَبَ مِنْهَا، وَمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شَيْئًا أَشَدَّ مِنَ الْخَمْرِ<sup>٦</sup>.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ السُّؤَالَ الْخَامِسَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وَأَيُّ مِقْدَارٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ يَبْذُلُونَ؟ قِيلَ: إِنَّ السَّائِلَ عَمْرُو بْنَ الْجَمُوحِ، حَيْثُ سَأَلَ أَوَّلًا عَمَّا يُنْفَقُ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَعَنْ مَضْرَفِهِ، ثُمَّ سَأَلَ عَمَّا يُنْفَقُ مِنْ حَيْثُ الْمِقْدَارِ وَالْكَمِّيَّةِ<sup>٧</sup>، فَاجَابَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الْغَفْوُ﴾ قِيلَ: إِنَّهُ الزَّائِدُ عَمَّا

١. المائدة: ٩١ و ٩٠/٥. ٢. الكافي ٦: ٢/٤٠٦، تفسير الصافي ١: ٢٢٨.

٣. تفسير الرازي ٦: ٤٠، تفسير روح البيان ١: ٣٣٩. ٤. تفسير روح البيان ١: ٣٣٩.

٥. تفسير روح البيان ١: ٣٣٩. ٦. تفسير روح البيان ١: ٣٣٩.

٧. تفسير أبي السعود ١: ٢١٩.



يحتاج إليه المنفق<sup>١</sup>. وقيل: أن يُنفق ما يسهل ويتيسر<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «العَفْوُ الوَسْطُ»<sup>٣</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبَقَتْ غِنًى وَلَا يَلَامُ عَلَى كَفَافٍ»<sup>٤</sup>.

وعن جابر بن عبد الله، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ جاء رجل بمثل البَيْصَةِ مِنْ ذَهَبٍ، فقال: يا رسول الله، خُذْهَا صَدَقَةً، فوالله لا أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أتاه من بين يديه فقال: «هايِهَا» مُغَضَّباً، فأخذها منه ثم حذفه بها بحيث لو أصابته لا وجعته، ثم قال: «يأنيبي أحدكم بماله لا يملك غيره ثم يجلس يتكفف الناس، إنما الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، خُذْهَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهَا»<sup>٥</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ الْعَفْوَ مَا يَفْضُلُ عَنْ قُوْتِ السَّنَةِ»<sup>٦</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يحبس لأهله قُوْتِ سَنَةٍ<sup>٧</sup>.

قال بعض الحكماء: الْفَضِيلَةُ بَيْنَ طَرَفَيْ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْرِيطِ، فَلَا بُنْفَاقَ الْكَثِيرُ هُوَ التَّبْذِيرُ، وَالتَّقْلِيلُ جَدًّا هُوَ التَّقْتِيرُ، وَالْعَدْلُ هُوَ الْفَضِيلَةُ<sup>٨</sup>.

﴿كَذَلِكَ﴾ التَّيْبِينَ وَالتَّوْضِيحَ لِأَحْكَامِ الْإِنْفَاقِ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ وَيُوضِّحُ ﴿لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ﴿الْآيَاتِ﴾ الدَّالَّةَ عَلَى سَائِرِ الْأَحْكَامِ الَّتِي نَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَلَكِي تَنْظُرُوا وَتَتَأَمَّلُوا ﴿فِي﴾ أُمُورِكُمُ الرَّاجِعَةِ إِلَى ﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وَتَعْلَمُوا مَصَالِحَكُمْ فِيهِمَا، وَتَخْتَارُوا مَا هُوَ أَصْلَحُ وَأَنْفَعُ لَكُمْ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ كَيِّانَ الْأَحْكَامِ فِي كِمَالِ الْوُضُوحِ، يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ دَلَائِلَ الْمَعَادِ، لَكِي تَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّ أَيُّهُمَا خَيْرٌ وَأَبْقَى فَتَعْمَلُونَ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ وَأَصْلَحُ لَكُمْ<sup>٩</sup>.

والسؤال السادس: ما حكاها الله بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ﴾ مَخَالِطَةِ ﴿الْيَتَامَى﴾ وَحُكْمِ التَّصَرُّفِ فِي أُمُورِهِمْ.

وعن الصادق عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾<sup>١٠</sup> خَرَجَ كُلُّ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ

٣. تفسير العياشي ١: ١٨/٢١٩.

٦. مجمع البيان ٢: ٥٥٨.

٩. تفسير أبي السعود ١: ٢٢٠.

٥. تفسير الرازي ٦: ٤٨.

٥. تفسير الرازي ٦: ٤٩.

٧ و ١١. تفسير الرازي ٦: ٤٩.

١٠. النساء: ١٠/٤.

يتيم، وسألوا رسول الله ﷺ في إخراجهم<sup>١</sup>.

قيل: كان سبب ذلك أن الناس في الجاهلية كانوا قد اعتادوا الانتفاع بأموال اليتامى، وربما تزوجوا باليتيمة طمعاً في مالها، ثم لما نهى الله تعالى عن مقارنة مالهم وحرمة أكله، وهدد وشدّد عليه، ترك المؤمنون<sup>٢</sup> مخالطة اليتامى والمقاربة من أموالهم، والقيام بأموالهم، فعند ذلك اختلت مصالح اليتامى وساءت معاشهم<sup>٣</sup>، فتقل ذلك على الناس<sup>٤</sup>.

روي: لما نزلت الآيات اعتزلوا أموال اليتامى واجتنبوا مخالطتهم في كل شيء حتى كانوا يضعون لليتيم طعاماً فيفضل منه شيء فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد، وكان صاحب اليتيم يقرّده له منزلاً وطعاماً وشراباً، فعظم ذلك على ضعفاء المسلمين، فقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله، ما ليكلنا منازل تسكنها الأيتام، ولا كلنا يجد طعاماً وشراباً يقردهما لليتيم<sup>٥</sup>. فنزلت ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿إِصْلَاحْ لَهُمْ﴾، ومدّختهم على نحو يكون فيها صلاح حالهم وأموالهم ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ولليتامى من إخراجهم ومجانبتهم.

﴿وَلَا تَخَالَطُوهُمْ﴾ وتعاشرؤهم وتصرّفوا في أموالهم بجهة الإصلاح والاسترباح لهم ﴿فَأَخَوَانُكُمْ﴾ في الدين.

ومن المعلوم أن علاقة الأخوة الدينية أقوى من علاقة الأخوة النسبية، وحقّ الأخوة رعاية صلاح الأخ والسعي في إيصال النفع إليه وحسن المخالطة والعشرة معه.

﴿وَاللَّهُ يَغْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لمال اليتامى، وغيره ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ له إذ هو وليّ اليتيم، فعليه أن يطالب المفسد ويجازيه على إفساده، ويشكر المصلح ويثيبه على إصلاحه.

عن (الكافي) عن الصادق عليه السلام أنه قيل له: إنا ندخل على أخ لنا في بيت أيتام ومعهم خادم [لهم]، فنقتد على بساطهم ونشرب من مائهم ويخدمنا خادمهم، وربما طعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا وفيه من طعامهم، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إن كان في دخولكم عليهم منفعة لهم فلا بأس، وإن كان فيه ضرر فلا».

١. تفسير القمي ١: ٧٢. ٢. في تفسير الرازي: القوم.

٣. في تفسير الرازي: معيشتهم.

٤. تفسير الرازي ٦: ٥٠. ٥. تفسير الرازي ٦: ٥١.

وقال: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ»<sup>١</sup> فأنتم لا تخفى عليكم، وقد قال الله عز وجل: «وَأَن تَعْلَمَ الْفُسُودُ مِنَ الْمُضْلِحِ»<sup>٢</sup>.

«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ» إعتانكم وإيقاعكم في المشقة «لَأَعَثَّتْكُمْ» وأوقعكم فيها بتحریم المداخلة والمعاشرة عليكم، ولم يجوز لكم المخالطة بهم «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» غالب على أمره لا يعجز من الإعانت «حَكِيمٌ» لا يفعل إلا ما فيه حسن وصلاح من غير حرج.

وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ  
أَعَجَبْتَكُمْ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ  
وَلَوْ أَعَجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ  
وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [٢٢١]

ثم أنه لما كان النكاح مربوطاً بإصلاح أمور اليتامى كما قال في سورة النساء: «وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ»<sup>٣</sup> ذكر الله تعالى حكم النكاح بقوله: «وَلَا تَنكِحُوا» ولا تتزوجوا النساء «الْمُشْرِكَاتِ» في حالٍ من الحالات، ووقتٍ من الأوقات «حَتَّى يُؤْمِنَ» بالله.

عن ابن عباس: أن النبي ﷺ بعث مرثد بن أبي مرثد - وكان حليفاً لبني هاشم - إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين سراً، فعند قدومه جاءته امرأة يقال لها: عناق - خلييلة له في الجاهلية، أعرضت عنه عند الإسلام - فالتصقت الخلوة فعرفها أن الإسلام يمنع من ذلك، ثم وعدّها أن يستأذن الرسول ﷺ ثم يتزوج بها. فلما أنصرف إلى رسول الله ﷺ عرفه ما جرى من أمر عناق، وسأله: هل يحلّ له التزوج بها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية<sup>٤</sup>.

وروي أنها منسوخة بالنسبة إلى الكايبة - التي هي داخلة في المشركات - بقوله تعالى في المائدة: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»<sup>٥</sup> وسورة المائدة كلها ثابتة غير منسوخ منها شيء<sup>٦</sup>، وباقية على الحرمة في غيرها.

١. الفياضة: ١٤/٧٥. ٢. الكافي: ٥: ١٢٩/٤. ٣. النساء: ٣/٤. ٤. تفسير الرازي: ٦: ٥٤.

٥. المائدة: ٥/٥. ٦. تفسير الرازي: ٦: ٥٨، تفسير أبي السعود: ١: ٢٢١، تفسير روح البيان: ١: ٣٤٥.

ثم علل سبحانه الحكم بقوله: ﴿وَلَا مَئْمَنَةٌ مِّمَّنْ﴾ موحدة مع ما بها من حسنات الرِّقِّ وفقدانها الشَّرَفَ والمال، لكونها مترتبة بزينة الإيمان والتوحيد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿مِنْ﴾ امرأة حُرَّةٍ ﴿مُشْرِكَةٍ﴾ مع مالها من شرف الحرية ورفعة الشَّان وكثرة المال ﴿وَلَوْ أَغَبَّكُمْ﴾ تلك المشركة بسبب جمالها ومالها ونسبها وشرفها، حيث إن حِكْمَةَ النِّكاح المودة بين الزوج والزوجة، وطيب الولادة، وكلاهما مُتَنَبِّيان في نكاحهن لعدم حصول المودة بين المؤمن والمشركة كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾<sup>١</sup> ولعدم تحقق طيب الولادة في نسليهن؛ لأن في خبائث الأم ونجاسة لبنها أثر عظيم في خبائث الولد كما قال: ﴿الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾<sup>٢</sup>.

ولذا أكد سبحانه القضية بلام الابتداء التي تشبه لام القسم، ثم لعين ما ذكر من الملاك نهى الله تعالى عن إنكاح المشركين بقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا﴾ ولا تزوجوا النساء المؤمنات كنَّ حُرَّاتٍ أو إماء ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ ويصدقوا بالله ورسوله ويدخلوا في دين الإسلام، ولا خلاف في هذا الحكم بين المسلمين.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به من ذل العبودية وفقد المال والشرف وكونه كلاً على مولاه ﴿خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ﴾ مع ماله من عز الحرية والثروة وتغوذ التصرفات ﴿وَلَوْ أَغَبَّكُمْ﴾ جماله وماله وعزه وخصاله.

ثم بعد النهي عن مزوجة الكفار وبيان عدم الصلاح فيها، وأن الصلاح في مواصلة المؤمنين، بين مفسدة عظيمة في مزوجة الكفار هي عُمدة علل النهي عنها، بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المشركون والمُشْرِكَات ﴿يَدْعُونَ﴾ من يعاشرهم إلى الشُّرْك والفِسْق والعِصْيَان الذي يؤدي ﴿إِلَى النَّارِ﴾ فلا ينبغي للعاقل أن يقاربههم ويواليهم.

نَقْلُ أُنْ مُسْلِمًا رَأَىٰ نَصْرَانِيَّةً سَمِيَّةً فَمَتَىٰ أَنْ يَكُونَ [هَو] نَصْرَانِيًّا حَتَّىٰ يَتَزَوَّجَهَا بِكَفَرٍ<sup>٣</sup>.  
﴿وَأَنَّهُ﴾ بِرَحْمَتِهِ وَلَطْفِهِ ﴿يَدْعُوا﴾ بالنهي عن مواصليهم، وأمرهم بالإيمان ومواصلة أهله ﴿إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ قدم الجنة لمُقابلة النار، وهذه الغاية القصوى لا تحصل لأحدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ وتوفيقه.

١. المجادلة: ٢٢/٥٨. ٢. النور: ٢٦/٢٤.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٤٦. وفيه: يكفر وهذا من حماقته...

ثم لما كانت هذه الأحكام المحكمات آيات ربوبية ورحمته لكونها جامعة لصالح العباد، قال: **«وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ»** ودلائل ربوبية ورحمته **«لِلنَّاسِ»** كافة **«لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»** بها، ويتفكرون فيها، فيعملون بما هو صلاحهم ونجاحهم.

قيل: إن إيراد التذكّر هنا للإشعار بأنه لوضوحها غير محتاجة إلى التفكر والتدبر<sup>١</sup>.

**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ**  
**التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [٢٢٢]**

ثم لما بين سبحانه حكم النكاح الذي هو غير مُنْفَكٍّ عن المواقعة غالباً، حكى السؤال السابع الذي كان عن حكم المواقعة في حال الحيض بقوله: **«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ»** وعن مخالطة النساء في حال تلوّثهنّ بالدم الخاص الخارج من الرحم.

قيل: إن حكاية الأسئلة الثلاثة مقتربة بواو العطف لكون جميعها في وقت واحد بخلاف ما عداها فإنهم سألوها في أوقات متفرقة<sup>٢</sup>.

وقيل: إن سبب السؤال أن اليهود والمجوس كانوا يتباعدون عن المرأة الحائض بحيث لا يساكنونها ولا يؤاكلونها، والنصارى كانوا يخلاف ذلك حتى إنهم لم يبالوا بجماعها، وأهل الجاهلية كانت رؤيتهم رؤية اليهود، فسأل أبو

الدّحاح ونفّر من الصحابة عن الحكم، فنزلت<sup>٣</sup> **«قُلْ هُوَ أَذًى»** وقُدّارة مؤذية لمن يقربهنّ **«فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ»** واجتنبوا مجامعتهنّ **«فِي الْمَحِيضِ»** ومجرى الدم الخاص، وهو الفرج.

عن أبي عبد الله عليه السلام في رواية: «أَنْ دَمَ الْحَيْضِ حَارًّا غَيْطًا أَسْوَدَ لَهُ دَفْعٌ وَحَرَارَةٌ»<sup>٤</sup>. الخبر.

وفي حكمه ما يخرج في أيام العادة ولو كان فائداً للصفات، لقول النبي ﷺ لزَيْنَب بنت جحش<sup>٥</sup>: **«دَعِيَ الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَانِكَ»**<sup>٦</sup>.

١. تفسير أبي السموء ١: ٢٢٢، تفسير روح البيان ١: ٣٤٦.

٢. تفسير الرازي ٦: ٦٢، تفسير أبي السموء ١: ٢٢٢. ٣. تفسير الرازي ٦: ٦٣. ٤. الكافي ٣: ١/٩١.

٥. في تفسير الرازي: لفاطمة بنت أبي حبيش. ٦. تفسير الرازي ٦: ٦٧.

قيل: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أَخَذُوا بِاطِّلاقِ الْإِعْتِزَالِ<sup>١</sup> فَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ، فَقَالَ جَمْعٌ مِنَ الْأَعْرَابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْبَرْدُ شَدِيدٌ وَالثِّيَابُ قَلِيلَةٌ، فَإِنْ أَتَرْنَا هُنَّ بِالثِّيَابِ هَلَكَ سَائِرُ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِنْ أَشْتَأْتْنَا هَانَا هَلَكْتَ الْحَانُضُ. فَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَعْتَزِلُوا مُجَامَعَتَهُنَّ إِذَا حِضْنَ، وَلَمْ أَمُرْكُمْ بِإَخْرَاجِهِنَّ مِنَ الْبُيُوتِ كَيْفَ لِ الْأَعَاجِمِ» فَلَمَّا سَمِعَ الْيَهُودُ ذَلِكَ، قَالُوا: هَذَا الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ لَا يَدَعَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِنَا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ.

ثُمَّ جَاءَ عِبَادُ بَنِ بَشِيرٍ وَأُسَيْدُ بْنُ حُصَيْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ بِذَلِكَ، وَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنْكِحُهُنَّ فِي الْمَحِضِ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ غَضِبَ عَلَيَّهِمَا، فَقَامَا فَجَاءَا تَهْ هَدِيَّةً مِنْ لَبَنٍ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَغْضَبْ عَلَيَّهِمَا<sup>٢</sup>.

ثُمَّ أَنَّهُ وَرَدَ فِي أَخْبَارٍ كَثِيرَةٍ أَنَّ أَقْلَ الْحَيْضِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَأَكْثَرُهُ عَشْرَةٌ<sup>٣</sup>.  
ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ غَايَةَ وَجُوبِ الْإِعْتِزَالِ بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ» بِالْمُجَامَعَةِ فِي الْقُبُلِ «حَتَّى يَطْهُرْنَ» مِنَ الْحَيْضِ وَيَنْقَطِعَ الدَّمُ عَنْ بَاطِنِ الْفَرْجِ، وَيَعْلَمَ ذَلِكَ بِالِاخْتِبَارِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: (حَتَّى يَطْهُرْنَ) بِالتَّشْدِيدِ، أَيِ يَغْتَسِلْنَ.  
عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام [سُئِلَ]: مَا لِصَاحِبِ الْمَرْأَةِ الْحَانُضِ مِنْهَا؟ فَقَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ مَا عَدَا الْقُبْلَ بَعَيْنُهُ»<sup>٤</sup>.  
وَعَنْهُ عليه السلام قَالَ: «تَرَى هَؤُلَاءِ الْمُشَوَّهِينَ فِي خَلْقِهِمْ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَبَاؤُهُمْ يَأْتُونَ نِسَاءَهُمْ فِي الطَّمْثِ»<sup>٥</sup>.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ جَامَعَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ فَخَرَجَ الْوَلَدُ مُجْذُوماً أَوْ أَمْرَصاً فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»<sup>٦</sup>.

«فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» وَاعْتَزَلْنَ غُسْلَ الْحَيْضِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ: إِذَا طَهَّرْنَ «فَأَتَوْهُنَّ» وَجَامِعُوهُنَّ، وَلَيْكُنَّ الْإِتْيَانُ وَالْمُجَامَعَةُ «مِنْ حَيْثُ أَمَرْتُكُمْ اللَّهُ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَنِ حَيْثُ أَمَرَكُمْ اللَّهُ بِتَجَنُّبِهِ، وَهُوَ مَحَلُّ الْحَيْضِ، أَعْنَى الْقُبْلِ<sup>٧</sup>.

وَقِيلَ: مِنْ حَيْثُ الطَّهَرُ دُونَ الْحَيْضِ<sup>٨</sup>.

١. فِي تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ: أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِظَاهِرِ الْآيَةِ. ٢. تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ ٦: ٦٣. ٣. تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ ٦: ٦٧.

٤. تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ ٦: ٦٨. ٥. الْكَافِي ٥: ٥٣٨/١. ٦. الْكَافِي ٥: ٥٣٩/٥.

٧. مِنْ لَا يَحْضِرُهُ الْفَقِيه ١: ٢٠١/٥٣. ٨. كُنْزُ الْعُرْفَانِ ١: ٦٤٥/٦.

وعن محمد بن الحنفية: من قبل النكاح دون الفجور<sup>١</sup>.

وقيل: من الجهة التي يحل أن يؤتين منها، ولا تقربوهن من حيث لا يحل، بأن يكنّ مخبرات، أو معتكفات، أو صائمات<sup>٢</sup>.

فسي جواز إتيان  
النساء بعد النقاء  
وقبل الغسل على  
كراهة

ثم أن مقتضى ظهور قوله: ﴿هُوَ أَذَى﴾ في كونه علةً لحُرمة الوقاع المستنزومة لدوران الحكم مدارها، وظهور الأمر باعتزالهن في المَحِيض في حالِ خَصْرِهِ بحالِ الْخَبْضِ، وظهور قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بناءً على قراءة التَّخْفِيفِ في كَوْنِ غاية

النَّهْيِ النَّقَاءِ مِنَ الدَّمِ؛ هو جَوَازُ التَّوَاقُعِ بَعْدَ النَّقَاءِ وَقَبْلَ الْغُسْلِ، فَيُعَارِضُ ظُهُورَ قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا طَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ﴾ بناءً على إرادة الغسل من التطهير، حيث إن مقتضاه عَدَمُ جَوَازِ الْإِيتْيَانِ قَبْلَهُ، فَلَا بُدَّ مِنْ حَمْلِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ عَلَى كَوْنِهَا شَرْطًا لِلِإِبَاحَةِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْمَرْجُوحَةِ، أَوْ حَمْلِ يَطْهُرْنَ عَلَى مَعْنَى طَهَّرْنَ كَمَا قِيلَ.

وأما الزوايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام فعدة منها دالة على جواز الإتيان بعد النقاء وقبل الغسل، كرواية عبدالله بن بكير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إِذَا انْقَطَعَ [الدَّم] وَلَمْ تَغْتَسِلِ، فَلْيَأْتِهَا زَوْجُهَا إِنْ شَاءَ»<sup>٣</sup>.

وعدة منها دالة على الحرمة كما روي عنه عليه السلام قال: سألته عن امرأة حاضت في السفر، ثم طهرت ولم تجد ماءً يوماً أو اثنين، أيجلّ لزوجها أن يجامعها قبل أن تغتسل؟ قال: «لا يصلح حتى تغتسل»<sup>٤</sup>. وفي رواية: قلت: فإتيها زوجها في تلك الحال - أي في السفر مع عدم وجدان الماء - قال: نعم، إذا غسلت فرجها وتيممت فلا بأس<sup>٥</sup>.

فلا بد من حمل التواهي على الكراهة، خصوصاً مع ظهور لا يصلح فيها، وشهادة ما روي عن أبي الحسن عليه السلام عليها قال: سألته عن الحائض ترى الطهر، أيقع عليها زوجها قبل أن تغتسل؟ قال: «لا بأس، وبعد الغسل أحب إلي»<sup>٦</sup>. وعلى هذا يتعين القول بالكراهة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ حيث إن التوبة تطهير للنفس من رِجْسِ الْمَعَاصِي ﴿وَيُحِبُّ

٣. الاستبصار ١: ٤٦٤/١٣٥.

٥. الكافي ٣: ٨٢/٣.

٢. مجمع البيان ٢: ٥٦٣.

٤. الاستبصار ١: ٤٦٥/١٣٦، التهذيب ١: ٤٧٨/١٦٦.

٦. التهذيب ١: ٤٨١/١٦٧، الاستبصار ١: ٤٦٨/١٣٦.

الْمُتَطَهِّرِينَ» من أرجاس الأحداثِ ونَجاساتِ الأقدارِ الجسمانيّة.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُتَقَرَّبَ<sup>٢</sup> التَّوَّابِ، وَمَنْ لَا يَكُونُ<sup>٣</sup> ذَلِكَ مِنْهُ كَانَ أَفْضَلَ»<sup>٤</sup>.

وعن (العلل) و(العياشي) عنه عليه السلام قال: «كَانَ النَّاسُ يَسْتَنْجُونَ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الْبَسْرَ فَكَانُوا يَبْعَثُونَ بَعْزاً، فَأَكَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الدُّبَّاءَ فَلَانَ بَطْنُهُ وَاسْتَنْجَى بِالْمَاءِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: فَجَاءَ الرَّجُلُ وَهُوَ خَائِفٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَزَلَ فِيهِ أَمْرٌ يَسُوؤُهُ فِي اسْتِنْجَائِهِ بِالْمَاءِ، فَقَالَ ﷺ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ فِي يَوْمِكَ هَذَا شَيْئاً؟ فَقَالَ: [نَعَمْ] يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا حَمَلَنِي عَلَى الْاسْتِنْجَاءِ بِالْمَاءِ إِلَّا أَنِّي أَكَلْتُ طَعَاماً فَلَانَ بَطْنِي فَلَمْ تُغْنِ عَنِّي الْحِجَارَةُ شَيْئاً، فَاسْتَنْجَيْتُ بِالْمَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَنِيئاً لَكَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ [قَدْ] أَنْزَلَ فِيكَ آيَةً، فَأَبَشِّرْ» [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ]» فَكَنتَ أَنْتَ أَوَّلَ مَنْ صَنَعَ هَذَا، وَأَوَّلَ التَّوَّابِينَ، وَأَوَّلَ الْمُتَطَهِّرِينَ<sup>٥</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ: الْمُتَزَهِّينَ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْأَقْدَارِ، كَمُجَامَعَةِ الْحَائِضِ<sup>٦</sup>. وَلَعَلَّهُ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِ الصَّادِقِ عليه السلام: «وَمَنْ لَا يَكُونُ<sup>٧</sup> ذَلِكَ مِنْهُ كَانَ أَفْضَلَ»<sup>٨</sup>.

نَسَاؤُكُمْ حَزَتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَزَنَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ  
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ [٢٢٣]

ثُمَّ لَمَّا أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْإِنْتِفَاعِ بِالنِّسَاءِ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْحَيْضِ حَالَتِهِ، وَفِيهِ أَيْضاً: بَعْدَ النِّقَاطِ مِنْهُ، صَرَّحَ بِتَعْمِيمِ الْإِبَاحَةِ مِنْ حَيْثُ مَكَانُ الْإِنْتِفَاعِ وَكَيْفِيَّتُهُ بِقَوْلِهِ: «نَسَاؤُكُمْ» وَأَزْوَاجُكُمْ «حَزَتْ لَكُمْ» وَمَوَاضِعَ الْإِقَاءِ بِذَوْرِكُمْ مِنْهُنَّ، تَحْرُثُونَ الْوَلَدَ وَاللَّدَّةَ. وَوَجْهَ الشُّبْهِ بَيْنَ الطُّفَةِ وَالبَذْرِ ظَاهِرٌ، فَكَمَا أَنَّ صَاحِبَ الْحَزْتِ لَهُ أَنْ يَأْتِيَ حَزَنَهُ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ وَبِأَيِّ كَيْفِيَّةٍ، كَذَلِكَ الزَّوْجِ.

ثُمَّ لَمَّا شَبَّهَ الْأَزْوَاجَ بِامِكَةِ الْحَزْتِ عَبَّرَ عَنْ مُجَامَعَتِهِنَّ بِالِاتِّبَانِ فِي قَوْلِهِ: «فَأَتُوا حَزَنَكُمْ أَنْتُمْ

١. أَيِ الْمُتَمَتِّعِينَ، يَمْتَحِنُهُ اللَّهُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَعُودُ ثُمَّ يَتُوبُ.

٢. الكافي ٢: ٩/٣١٦. ٣. تفسير العياشي ١: ٤٣٢/٢٢٣، علل الشرائع: ١/٢٨٦.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٥٩/٢٠، تفسير الصافي ١: ٢٣٢.

٥. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧. ٦. الكافي ٢: ٩/٣١٦.

٧. في الكافي: لم يكن.



سِثْثُمْ» ومن أي مكان وبأي كيفية أُرْثِثُمْ.

عن الصادق عليه السلام عن الرجل يأتي المرأة في دُبْرِها، قال: «لا بأس إذا رَضِيت».

قيل فأين قول الله عز وجل: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ؟» قال: «هذا في طلب الولد، فاطلبوا الولد مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى سِثْثُمْ»<sup>١</sup> الخبر.

والظاهر أَنَّ الاستشهاد بقوله: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ» لِجَوَازِ الْإِتْبَانِ فِي الدُّبْرِ، وَالرَّوَابِاتِ الْكَثِيرَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِهِ مَعَ كَرَاهَةِ شَدِيدَةٍ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ أَيَّ كَيْفِيَّةٍ سِثْثُمْ، وَمِنْ أَيِّ جِهَةٍ أُرْثِثُمْ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْمَأْنِي قُبْلًا<sup>٢</sup>.

ثُمَّ نَقُلُ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي قُبْلِهَا مِنْ دُبْرِهَا يَأْتِي وَلَدَهُ أَحُولَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلرَّسُولِ ﷺ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ رَدًّا عَلَيْهِمْ<sup>٣</sup>.

وعن الرضا عليه السلام: «أَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ تَقُولُ: إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ مِنْ خَلْفِهَا خَرَجَ وَلَدُهُ أَحُولَ، فَانْزَلَ اللَّهُ: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى سِثْثُمْ» مِنْ خَلْفٍ أَوْ قَدَامَ، خِلَافًا لِقَوْلِ الْيَهُودِ، وَلَمْ يَغْنِ فِي أَدْبَارِهِمْ»<sup>٤</sup>.

قيل: كَانَتْ الْأَنْصَارُ تُشْكِرُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ مِنْ دُبْرِهَا فِي قُبْلِهَا، وَكَانُوا أَخَذُوا ذَلِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَفْعَلُ ذَلِكَ، فَانْكَرَتْ الْأَنْصَارُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ<sup>٥</sup>.

وَنَقُلُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَمَرَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ، وَحَكَنِي وَقُوعَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «أَيَّ مَتَى سِثْثُمْ فِي الْقَرْجِ»<sup>٧</sup>.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «مَنْ قَدَّامِهَا وَمَنْ خَلْفِهَا فِي الْقُبْلِ»<sup>٨</sup>.

وفي أخرى عنه عليه السلام: «أَيَّ سَاعَةٍ سِثْثُمْ»<sup>٩</sup>.

٢. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧.

٤. تفسير العياشي ١: ٤٣٧/٢٢٤.

٧. تفسير القمي ١: ٧٣.

٩. تفسير العياشي ١: ٤٣٩/٢٢٥.

١. التهذيب ٧: ١٦٥٧/٤١٤.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧.

٥. تفسير الرازي ٦: ٧١. ٦. وكذا.

٨. تفسير العياشي ١: ٤٣٦/٢٢٤.

وروى العامة عن النبي ﷺ في حديث: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»<sup>١</sup>. والأظهر ما ذكرنا من الجواز مع الكراهة الشديدة.

ثم لما ذكر الله تعالى أن النساء حرث، أشار إلى أن الدنيا أيضاً حرث الآخرة، بقوله: ﴿وَقَدْذُمُوا﴾ من الأعمال الصالحة ﴿لأنفسكم﴾ في الدنيا ما تتعبدون به في الآخرة، وأعملوا ما يكون ثوابه ذخراً لكم ليوم حاجتكم.

قيل: إن المراد طلب الولد من إتيان النساء، حيث إنه ينفع الوالد في الآخرة، ولا تكونوا في قيد قضاء الشهوة<sup>٢</sup>.

وعن ابن عباس: أن المراد التسمية قبل الجماع<sup>٣</sup>.

ثم بعد الأمر بالطاعة أمر بالاجتناب عن المعاصي، بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عقابه في مخالفة أوامره ونواهيه التي من جملتها ما ذكر من الأمور ﴿وَأَعْلَمُوا أَنكُمْ﴾ في الآخرة ﴿مُتْلَقُونَ﴾ وترون جزاءه، فتزودوا ما لا تفتضحوا به عنده، وفيه بيان علة وجوب التقوى حيث إنه لولا الثواب والعقاب لكان تحمل المشقة عبثاً.

ثم أردف الوعيد بالوعيد بقوله: ﴿وَنُشِّرْ﴾ بثواب يقصر عنه البيان، وبالكرامة العظيمة عند الله ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يتلقون أوامر الله ونواهيه بحسن القبول والامتثال.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٢٤]

ثم لما أمر سبحانه عباده بالطاعة والتقوى، ذكر أن الحلف بالله على تركهما لا أثر له ولا يكون مانعاً عنهما بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً﴾ ومانعاً وحاجزاً ﴿لأيمانكم﴾ ولأجل حلفكم به على ترك عمل برٍّ من ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

روي أن بشير بن ثعمان الأنصاري كان قد طلق زوجته التي هي أخت عبدالله بن ربيعة، وأراد أن يتزوجها بعد ذلك، وكان عبدالله قد حلف على أن لا يدخل على بشير ولا يكلمه، ولا يصلح بينه وبين أخته، فإذا قيل له في ذلك، قال: [قد] حلف بالله على أن لا أفعل، ولا يحل لي إلا أن أحفظ

٢. تفسير الرازي ٦: ٧٤. ٣. أيضاً.

١. تفسير روح البيان ١: ٣٤٧.

يَمِينِي وَأَنزَرَفِيهِ، فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ<sup>١</sup>.

وعن بعض العامة: أَنَهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ حِينَ حَلَفَ أَنْ لَا يَنْفِقَ عَلَى مِسْطَحَ لَخَوْضِهِ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في تفسيرها: «إِذَا دُعِيَتْ لَصْلَحٍ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ فَلَا تَقُلْ: عَلَيَّ يَمِينٌ أَنْ لَا أَفْعَلَ»<sup>٣</sup>. وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ مَعْرُضاً لِأَيْمَانِكُمْ بِكَثَارَةِ الْيَمِينِ بِهِ<sup>٤</sup>. وَعَلَّةَ هَذَا النَّهْيُ إِرَادَةُ أَنْ تَبَرُّوا، أَيْ تَكُونُوا بَارِينَ مُتَّقِينَ مُصْلِحِينَ بَيْنَ النَّاسِ حَيْثُ إِنَّ مِنْ عَرْفَةِ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى يَقْبَلُونَ قَوْلَهُ فِي مَقَامِ الْإِصْلَاحِ.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «لَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ صَادِقِينَ وَلَا كَاذِبِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾»<sup>٥</sup> الخبر.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِأَيْمَانِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِصَّمَائِرِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ \* لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٢٥-٢٢٧]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَدَمَ كَوْنِ الْجَلْفِ مَانِعاً عَنْ عَمَلِ الْخَيْرِ، ذَكَرَ بَعْضُ أَحْكَامِ الْجَلْفِ مِنْ عَدَمِ الْعُقُوبَةِ وَالْكَفَّارَةِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهُ لَغَواً وَسَاقِطاً عَنِ الْإِعْتِبَارِ، بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِ الْعَرَبِ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ، وَذَلِكَ مَرْوِيٌّ عَنِ الصَّادِقِينَ عليه السلام<sup>٦</sup>. فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَعَهُ قَصْدٌ وَعَقْدٌ فِي الْقَلْبِ عَلَى الْجَلْفِ، بَلْ يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ عَلَى حَسَبِ الْعَادَةِ أَوْ بِقَصْدٍ تَأْكِيدِ الْكَلَامِ.

وقيل: إِنَّهُ حَلَفَ الرَّجُلِ بِاللَّهِ عَلَى شَيْءٍ يَظُنُّ أَنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ<sup>٧</sup>.

وقيل: فِي وَجْهِ تَسْمِيَةِ الْجَلْفِ بِالْيَمِينِ: إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا حَلَفُوا تَصَافَحُوا بِالْيَمِينِ. أَوْ أَنَّ أَحَدَ

١. تفسير روح البيان ١: ٣٤٩.

٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٢٣.

٣. تفسير العياشي ١: ٢٢٦/٤٤٤، تفسير الصافي ١: ٢٣٤.

٤. جوامع الجامع ٥: ٤٠.

٥. مجمع البيان ٢: ٥٦٧، تفسير الصافي ١: ٢٣٤.

٦. مجمع البيان ٢: ٥٦٨، تفسير الصافي ١: ٢٣٤.

٧. تفسير روح البيان ١: ٣٥٠.

معاني اليمين: القوة، والحالف يتقوى بحلفه على العمل بما حلف عليه<sup>١</sup>.

﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ﴾ الله ويعاقبكم على حنث الحلف في الدنيا بإيجاب الكفارة، وفي الآخرة على تقدير عدم التكفير بالعذاب ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وَأَنْطَوَتْ عليه ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وضمائرهم من الجذب واقتربت من الكذب فيه.

قيل: كَسَبَ الْقَلْبُ هو التعمد، وكَسَبَ اللِّسَانُ هو الخطأ فيه.

قيل: إِنَّ الْمُواخِذَةَ في هذه الآية عقوبة الآخرة. وفي قوله: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾<sup>٢</sup> المواخذة بالكفارة<sup>٣</sup>.

﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ وَسَتَارٌ لِلذُّنُوبِ، كثير الإغماض عن العقوبة، فلا يؤاخذ على يمين اللغو مع كونه ناشئاً من عدم المبالة والتقصير في التحفظ ﴿حَلِيمٌ﴾ غير عجول بالعقوبة في مورد استحقاتها غير في بيان شرائط الصالح للعفو.

الإبلاء ثم لما ذكر سبحانه القسمين لليمين، ذكر حكم نوع خاص منه، وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ وَيَحْلِفُونَ عَلَى التَّبَاعِ ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ بِتَرْكِ الْمُجَامَعَةِ ﴿تَرْئِصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وانتظار انقضائها من زمان الحلف.

﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ وَرَجَعُوا عَنْ حِلْفِهِمْ بِأَنْ جَامَعُوهُمْ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ مع أداء الكفارة ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمَوْلَى، وَسَتَارٌ لِمَعْصِيَةِ حَيْثُ الْيَمِينِ وَقَصْدُهُ الإِضْرَارَ بِالْمَرْأَةِ إِذِ الْفَيْئُ مع الكفارة توبة له ﴿رَجِيمٌ﴾ بعباده.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا﴾ وَقَصَدُوا «الطَّلَاقَ» وَطَلَّقُوهُمْ ﴿فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لِمَقَالِهِمْ فِي الطَّلَاقِ وَلِسَانِ الْمَقَالَتِ التي لا يخلو الطلاق منها عادة ﴿عَلِيمٌ﴾ بِضَمَائِهِمْ وَأَغْرَاضِهِمْ، وفيه تهديد ووعد.

قال بعض الفقهاء: يستفاد من الآية وجوب مُجَامَعَةِ الزَّوْجِ زَوْجَتَهُ في أربعة أشهر مرة<sup>٤</sup>. وفيه: أَنَّ الاسْتِفَادَةَ مَوْقُوفَةً عَلَى تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ مِنْ زَمَانِ الْجَمَاعِ لَا مِنْ زَمَانِ الْحِلْفِ، أَوْ الرِّفْعِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَهُوَ خِلَافُ ظَاهِرِ آيَةِ وَالزَّوَايَاتِ.

٢. المائدة: ٨٩/٥.

٤. كنز العرفان ٢: ٢٩٣.

١. تفسير روح البيان ١: ٣٥٠.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٥٠.

عن (العبّاشي) عن الرضا عليه السلام في رواية: «أَنْ أَجَلَ الْإِبْلَاءِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ بَعْدَمَا يَأْتِيَانِ السَّلْطَانُ»<sup>١</sup>.  
وعن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ آلَى مِنْ أَمْرَاتِهِ - وَالْإِبْلَاءُ: أَنْ يَقُولَ:  
وَاللَّهِ لَا أَجَامِعُكَ كَذَا وَكَذَا، وَاللَّهِ لَا غِيْضَ لَكَ، ثُمَّ يَغَاضِبُهَا - فَإِنَّهُ يَتَرَبَّصُ بِهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِعَدِ  
الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ فَيُوقِفُ فَإِذَا فَاءَ - وَهُوَ أَنْ يُصَالِحَ أَهْلَهُ - فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ غَفَوْرٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ أَجْبِرَ عَلَى  
الطَّلَاقِ، وَلَا يَقَعُ بَيْنَهُمَا طَلَاقٌ حَتَّى يُوقَفَ»<sup>٢</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يُجْعَلُ لَهُ حَظِيرَةٌ مِنْ قَصَبٍ وَيُحْبِسُ فِيهَا<sup>٣</sup>، وَيَحْتَمِلُ مِنَ  
الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى يُطْلَقَ»<sup>٤</sup>.

وعنه عليه السلام في المولى: «إِمَّا أَنْ يَقْبَلَ أَوْ يُطْلَقَ، فَإِنْ قَبِلَ وَإِلَّا ضَرَبَتْ عُنُقُهُ»<sup>٥</sup>.

وعن الباقر عليه السلام في رواية قال: «لَا يَكُونُ إِبْلَاءٌ حَتَّى يَحْلِفَ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ»<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في رواية: «لَا إِبْلَاءَ<sup>٧</sup> حَتَّى يَدْخُلَ بِهَا»<sup>٨</sup>.

وعن الرضا عليه السلام قال: سَأَلْتُهُ عَنْ الرَّجُلِ يُؤَلِي مِنْ أَمَتِهِ؟ فَقَالَ: «لَا، كَيْفَ يُؤَلِي وَلَيْسَ لَهَا طَلَاقٌ؟»<sup>٩</sup>.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ  
فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعُولُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ  
إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ  
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٢٨]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطَّلَاقَ، تَعَرَّضَ لِبَيَانِ بَعْضِ أَحْكَامِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ مِنَ النِّسَاءِ  
الْحَرَّانِ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ، غَيْرِ الْحَامِلَاتِ إِذَا كُنَّ ذَوَاتِ أَقْرَاءٍ ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ وَيَتَنَظَّرْنَ ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ بِأَنْ  
يَحْمِلْنَهَا عَلَى تَرْكِ التَّزْوِيجِ ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وَهِيَ الْأَطْهَارُ عِنْدَنَا.  
عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «الْأَقْرَاءُ هِيَ الْأَطْهَارُ»<sup>١٠</sup>.

٢. الكافي ٦: ١٣٠/٢.

١. تفسير العياشي ١: ٢٢٧/٤٥٠.

٣. في النسخة: يحفر له حفيرة من قصب ويجعله.

٤. الكافي ٦: ١٣٣/١٠. ٥. الكافي ٦: ١٣٣/١١.

٦. التهذيب ٨: ١٢٦/١٢، الاستبصار ٣: ٢٥٣/٩٠٧. ٧. في الكافي: لا يقع الإبلاء.

٨. الكافي ٦: ١٣٤/٢. ٩. قرب الإسناد: ٣٦٣/١٢٩٩. ١٠. الكافي ٦: ٨٩/٤.

وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «الْقَرْءُ مَا بَيْنَ الْخَيْضَتَيْنِ»<sup>١</sup>.

وفي التعبير عن الأمر بصيغة المضارع دلالة على تأكيد الوجوب؛ لأن فيه إشعاراً بأن هذا الوجوب ملازمٌ للعمل، ويكون امتثاله معه، كما أن في تقديم المطلقات على فعل (يَتَرَيَّصُن) دلالة على قوة الوجوب.

ثم لما كان انقضاء العدة بالأقراء، ولا يمكن الاطلاع عليها إلا من قبل النساء، نهاهن عن كتمانها بقوله: «وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ» ويخفين «مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ» من الحيض والحبل بأن تقول المرأة: لست بحامل؛ لحب تعجيل الطلاق، حيث إن الزوج إذا علم أنها حامل يمنعه حب الولد عن الطلاق. أو تقول: لست بحائض؛ وهي حائض، لكرهية التعجيل، حيث إنها إذا كانت في طهرِ المواقعة لا يجوز طلاقها، ولا بد من انتظار خيضها وطهرها بعده، وقد يكون كتمان الولد لحب سرعة انقضاء العدة إذا كانت عدة الوضع أطول من مدة الأقراء، وكتمان الحيض لكرهية الانقضاء، فتدعي بقاء العدة وتأخير الحيض حتى يرجع إليها الزوج.

في حجية قول      ثم أنه استدلَّ بحرمة الكتمان على حجية قول النساء بالنسبة إلى الحيض والطهر  
المرأة في الحمل      والحمل إثباتاً وثقياً، ولا شبهة فيها نصاً وفتوى، وليس تعليق الحكم على الإيمان  
والحيض والطهر      بالمبدأ والمعاد في قوله تعالى: «إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» لبيان اشتراط

حرمة الكتمان به، بل إنما هو لزيادة الترغيب على تركه، والتهديد على فعله، فيكون المفاد أن الإيمان مانع عن الكتمان، وأن الكاتمة لا إيمان لها.

ثم بين الله تعالى الحكم الثاني في الطلاق بقوله: «وَيُؤْمَلَّتُهُنَّ» وهم الأزواج الذين طلقوهن رجعيّاً كما يثبت عن التعبير بالبعولة التي هي جمع بعل، وهو في الأصل المالك للأمر «أَحَقُّ» وأملك «بردةً» إلى الزوجية بإنشاء الرجوع، أو بالتمتع التي لا تنبغي إلا للزوج، كالقبلة والجماع «فِي ذَلِكَ» الزمان والأجل المضروب للترئص «إِنْ أَرَادُوا» الأزواج بالرجوع إليهن «إِضْلاًحاً» لما بينهم وبينهن، أو إحساناً إليهن، ولم يريدوا مضارتهن، وليس هذا الشرط لتأثير الرجوع في عود العلة وزوال أثر الطلاق، بل للحث على الإحسان، والرَّجْرَجِ عن الإضرار.

«وَلَهُنَّ» على أزواجهن من الحقوق «مِثْلُ» الحق «الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ» لأزواجهن في تحتم

المحافظة ووجوب الرعاية والحقوق المقررة ملايسات «بالمعروف» المقرّر عند الشرع والمقلاء، فلا يكلف أحدهما الآخر بما ليس له بحق.

عن ابن عباس: إني لأتزّين لامرأتي كما تنزّين لي، لقوله تعالى: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ»<sup>١</sup>.  
«وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ» في الحقوق «دَرَجَةٌ» زائدة، ومزنية فاضلة، لكونهم قَوّامين عليهن.  
سئل الصادق عليه السلام عن حق المرأة على زوجها. قال: «يُشْبِعُ بَطْنُهَا، وَيَكْسُو حُجَّتَهَا، وَإِنْ جَهِلَتْ غَفَرَ لَهَا»<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما حق الزوج على المرأة؟

فقال لها: أن تُطيعه ولا تُعصيه، ولا تصدّق من بيته شيء إلا بإذنه، ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قَبْ<sup>٣</sup>، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها.

فقالت: يا رسول الله من أعظم الناس حقاً على الرجل؟ قال: والداه.

قالت: فمن أعظم الناس حقاً على المرأة؟ قال: زوجها.

قالت: فما لي من الحق عليه مثل ماله علي؟ قال: لا، ولا من كل مائة واحدة.

فقالت: والذي بعثك بالحق نبياً لا يملك رقبتني رجل أبداً<sup>٤</sup>.

وفي حديث: «جهاد المرأة حسن التعلُّل»<sup>٥</sup>.

«وَاللهُ عَزِيزٌ» وغالب على خلقه، لا يعجز عن الانتقام ممن خالفه «حَكِيمٌ» يشرع الأحكام على طبق الصلاح.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ  
تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

١. تفسير الرازي ٦: ٩٤. ٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٧٩/١٣٢٧، تفسير الصافي ١: ٢٣٦.

٣. القتب: الرجل الصغير يوضع على سنام البعير.

٤. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٧٦/١٣١٤، الكافي ٥: ١/٥٠٦، تفسير الصافي ١: ٢٣٧.

٥. تفسير روح البيان ١: ٣٥٥.

يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا  
وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ\* فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ  
حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ  
يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [٢٢٩ و ٢٣٠]

ثم لما ذكر الطلاق الرجعي، بين عدده بقوله: «الطَّلَاقُ» الرجعي الذي للزوج حق الرّد في عِدَّتِهِ  
«مَرَّتَانٍ» ودفعتان لا أزيد، وفيه دلالة على عدم وقوع الطَّلَاقين دفعةً، بل لابد من التفريق فيهما.  
في حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال له: «إِنَّمَا السِّنَّةُ أَنْ تَسْتَقْبِلَ الطُّهْرَ اسْتِقْبَالاً فَيُطَلِّقَهَا بِكُلِّ  
طَهْرٍ تَطْلِيقَةً»<sup>١</sup> وبه وردت روايات أهل البيت عليهم السلام من طرق أصحابنا، وفيه أيضاً دلالة على شرعية  
الرجوع لأن طلاق المطلق غير متصور عقلاً.

قيل: كان الرجل في الجاهلية يطلق المرأة<sup>٢</sup> ثم يراجعها قبل أن تنقضي عِدَّتُها، ولو طلقها ألف مرة  
كانت القدرة على المراجعة ثابتة له، فجاءت امرأة إلى عائشة، فشكت أن زوجها يطلقها ويراجعها  
ويضارها بذلك، فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ فنزلت «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ»<sup>٣</sup> لا يزيد الرجل  
عليهما، وأن يؤذي جميع حقها ولا يذكرها بسوء.

ثم إذا وقع التلطيقان، يكون الواجب على الزوج أحد الأمرين:  
أحدهما: ما ذكره الله تعالى بقوله: «فَامْسَاكُ» للزوجة وأخذ بعلاقة الزوجية بالرجوع إليها مقروناً  
«بِمَعْرُوفٍ» وحسن العشرة، ولطف السيرة، والالتزام بحقوق الزوجية.

وثانيهما: ما ذكره بقوله: «أَوْ تَسْرِيحٌ» وإرسال مقرون «بِإِحْسَانٍ» بأن لا يراجعها حتى تنقضي  
عِدَّتُها، ويحتمل أن يراد منه التلطيق الثالثة، كما روي عن النبي ﷺ: سئل: أين الثالثة؟ فقال ﷺ: «أَوْ  
تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»<sup>٤</sup>.

قيل: إن المراد منه أن لا يضرها حتى تبدل شيئاً وتعدي نفسها.

ثم بين الحكم الرابع بقوله: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ» أيها الأزواج «أَنْ تَأْخُذُوا» بعوض الطلاق أو لسانر  
الأسباب «مِمَّا آتَيْتُمُوهُمْ» وأعطيتهم بعنوان الصداق أو غيره «شَيْئاً» قليلاً أو كثيراً «إِلَّا»

٢. في تفسير الرازي: يطلق امرأته.

١. تفسير الرازي ٣٠: ٣٠.

٣. تفسير الرازي ٩٦: ٩٦.

٤. تفسير البيضاوي ١: ١٢٢.



بِسَبَبِ «أَنْ يَخَافَا» الزَّوْجَانِ «أَلَّا يَقِيمَا» وَلَا يَزْعِبَا «حُدُودَ اللَّهِ» وَحُقُوقَهُ الَّتِي جَعَلَهَا فِيمَا بَيْنَهُمَا مِنْ وَظَائِفِ الزَّوْجِيَّةِ، وَفِيهِ الْبَقَاتُ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْعَيْتَةِ.

نَسِيَ طَلَاقَ الْخُلْعِ «فَإِنْ خِفْتُمْ» أَيْهَا الْحُكَّامُ مِنَ الزَّوْجَيْنِ «أَلَّا يَقِيمَا» وَلَا يَزْعِبَا «حُدُودَ اللَّهِ» مِنْ حَقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ وَأَحْكَامِهَا الْوَاجِبَةِ، بَأَن أظْهَرَتِ الزَّوْجَةُ الْبِدَاءَ وَسُوءَ الْخُلُقِ وَالتَّعَدِّيَ فِي الْقَوْلِ، بَأَن تَقُولُ لَهُ: لَا أَبْرُكَ لَكَ قِسْمًا، وَلَا أُطِيعُ لَكَ أَمْرًا، وَلَأُوطِئَنَّ فِرَاشَكَ مَنْ تَكْرَهَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَيُخَافُ مِنَ الزَّوْجِ التَّعَدِّيَ عَلَيْهَا وَإِذَاؤَهَا وَحَصَلَ مِنَ الزَّوْجَةِ أَيْضًا خَوْفُ التَّعَدِّيِ بِظُهُورِ الْكَرَاهَةِ مِنْهَا لَزَوْجِهَا وَهُوَ أَمَارَةٌ قَوِيَّةٌ مُوجِبَةٌ لَخَوْفِ الْفِتْنَةِ، إِذَا كَانَ ذَلِكَ «فَلَا جُنَاحَ» وَلَا بَأْسَ «عَلَيْهِمَا فِيمَا أَفْتَدَتِ» الزَّوْجَةُ «بِهِ» مِنْ نَفْسِهَا لِطُلُقِهَا زَوْجَهَا، وَفِي اخْتِزَافِ الزَّوْجِ مِنْهَا الْفِدَاءَ بِعَوَضِ طَلَاقِهَا [سواء أكان الفداء مساويًا للصِّدَاقِ أَوْ أَزِيدَ مِنْهُ أَوْ أَنْقَصَ].

رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَمِيلَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَفِي زَوْجِهَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَكَانَتْ تَبْغِضُهُ أَشَدَّ الْبَغْضِ، وَكَانَ يُحِبُّهَا أَشَدَّ الْحُبِّ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: فَرَّقْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَإِنِّي أَبْغِضُهُ، وَلَقَدْ رَفَعْتُ طَرَفَ الْحِجَابِ فَرَأَيْتُهُ يَجِيءُ فِي أَقْوَامٍ، فَكَانَ أَقْصَرُهم قَامَةً وَأَقْبَحُهم وَجْهًا، وَأَشَدُّهم سُودَادًا، وَإِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرَّهَا فَلْتَرَدْ عَلَيَّ الْحَدِيقَةَ الَّتِي أُعْطِيتُهَا. فَقَالَ لَهَا: «مَا تَقُولِينَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ وَأَزِيدُهُ. فَقَالَ ﷺ: «لَا، حَدِيقَتُهُ فَقَطْ». فَقَالَ: لِثَابِتٍ: «خُذْ مِنْهَا مَا أُعْطِيتُهَا وَخَلِّ سَبِيلَهَا» فَفَعَلَ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ خُلْعٍ فِي الْإِسْلَامِ.<sup>١</sup>

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ حَفْصَةَ بِنْتُ سَهْلِ الْأَنْصَارِيَّةِ.<sup>٢</sup>

وَعَنْ (الْعِيَّاشِيِّ) عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام فِي الْمُخْتَلِعَةِ، قَالَ: «لَا يَحِلُّ خُلْعُهَا حَتَّى تَقُولَ: وَاللَّهِ لَا أَبْرُكَ لَكَ قِسْمًا، وَلَا أُطِيعُ لَكَ أَمْرًا، وَلَا أُوطِئَنَّ فِرَاشَكَ، وَلَا دُخْلَنَّ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنِكَ، إِذَا هِيَ قَالَتْ ذَلِكَ حَلَّ خُلْعُهَا وَحَلَّ [لَهُ] مَا أَخَذَ مِنْهَا مِنْ مَهْرٍ وَمَا زَادَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَفْتَدَتِ بِهِ» إِذَا فَعَلَتْ<sup>٣</sup> ذَلِكَ فَقَدْ بَاءَتْ مِنْهُ بِطَلِيقَةٍ، وَهِيَ أَمَلَكُ بِنَفْسِهَا، إِنْ شَاءَتْ نَكَحَتْهُ، وَإِنْ شَاءَتْ فَلَا، فَإِنْ نَكَحَتْهُ فِيهِ عِنْدَهُ عَلَى ثِنْتَيْنِ<sup>٤</sup>».

١. تفسير الرازي ٦: ١٠٠.

٢. تفسير الرازي ٦: ١٠٠.

٣. فِي الْمَصْدَرِ: وَإِذَا فَعَلَ.

٤. تفسير العياشي ١: ٢٣٢/٤٧٠.

عن النبي ﷺ قال: «وَمَنْ أَضْرَّ بِأَمْرَاتِهِ حَتَّى تَقْتَدِيَ مِنْهُ نَفْسَهَا، لَمْ يَرْضَ اللَّهُ لَهُ بِعَقُوبَةٍ دُونَ النَّارِ، لِأَنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِلْمَرْأَةِ كَمَا يَغْضَبُ لِلْيَتِيمِ».

إلى أن قال: «وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ خُلِعَتْ مِنْ زَوْجِهَا لَمْ تَزَلْ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَمَلَانِكَتِهِ [ورسله] والناس أجمعين حتى إذا نزل بها مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ لَهَا: أَبْشِرِي بِالنَّارِ. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَرِئَانِ مِنَ الْمَخْتَلَعَاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَرِئَانِ مِنْ أَمْرٍ أَضْرَّ بِأَمْرَاتِهِ حَتَّى تُخْلَعَ مِنْهُ»<sup>١</sup>.

في حرمة أخذ  
المعوض للطلاق مع  
عدم كراهة الزوجة  
تُعْتَمَدُ عَلَيْهَا؛ لكونها اجتهداً في مقابل النص.

ثُمَّ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ وَكَثِيرٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ حُرْمَةُ اخْتِيارِ الْعَوَاضِ لِلطَّلَاقِ عَلَى الزَّوْجِ، وَعَدَمُ صَحَّةِ طَلَاقِ الْخُلْعِ مَعَ عَدَمِ كَرَاهَةِ الزَّوْجَةِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ ذَهَبَ بَعْضُ الْأَصْحَابِ إِلَى جَوَازِ الطَّلَاقِ بِالْعَوَاضِ مَعَ عَدَمِ تَحَقُّقِ شُرَاطِطِ الْخُلْعِ وَالْمُبَارَاةِ لَوْجُوهٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهَا؛ لكونها اجتهداً في مقابل النص.

فعلى هذا يكون نفي الجناح في الآية عن الزوج والزوجة باعتبار أن الزوج عند خوف الفتنة يجلب له أخذ الفدية، ولا بأس عليه فيه، ويصح طلاق الزوجة خلعاً، ولا بأس عليها بالتزوج بالغير.

و«تِلْكَ» الأحكام «حُدُودُ اللَّهِ» التي يجب رعايتها، والمحافظة عليها، والعمل بها «فَلَا تَعْتَدُوهَا» أيها المؤمنون بالفرض وعدم المحافظة.

ثُمَّ اتَّبَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّوَعِيدِ بِقَوْلِهِ: «وَمَنْ يَتَعَدَّ» ويتجاوز «حُدُودَ اللَّهِ» وأحكامه «فَأُولَئِكَ» المتعدون «هُمُ الظَّالِمُونَ» أنفسهم بتعريضها لِسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

في حرمة المرأة  
المطلقة ثلاثاً على  
زوجها إلا بعد  
المحلل وجملة من  
أحكام

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الْحُكْمَ الْخَامِسَ مِنْ أَحْكَامِ الطَّلَاقِ بِقَوْلِهِ: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» ثالثة، وهو اختيار التفسير بالإحسان بعد التخيير بينه وبين الإمساك «فَلَا تَحِلُّ لَهُ» المرأة المطلقة بالرجوع أو بالعقد «مِنْ بَعْدِ» الطلاق الثالث. هذا إذا كانت المطلقة حرة، وأما إذا كانت أمة فمقتضى الروايات أنها بعد الطلاق الثاني لا تحل «حَتَّى تَنْكِحَ» وتزوج تلك المرأة «زَوْجاً غَيْرَهُ» وتذوق عسئلته<sup>٢</sup>، لِمَا رُوِيَ أَنَّ امْرَأَةً رَفَاعَةَ<sup>٣</sup> قَالَتْ لِرَسُولِ

١. عقاب الأعمال: ٢٨٥ و ٢٨٧.

٢. التسمية: تصغير العسل، قطعة منه، والمراد لذّة الجماع، والتصغير إشارة إلى القدر القليل الذي يحصل به الجلب.

٣. هي عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك زوجة رفاعة بن وهب بن عتيك، وهو ابن عمها. أسد الغابة ٢: ١٨٥.

الله ﷻ: «إِنْ رِفَاعَةُ طَلَّقَنِي فَتَبَّ طَلَاقي»<sup>١</sup>، وَإِنْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الزُّبَيْرِ تَزَوَّجَنِي، وَإِنْ مَا مَعَهُ مِثْلُ هَذِهِ الثَّوبِ<sup>٢</sup> فَقَالَ ﷻ: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ ﷻ: «إِلَّا أَنْ تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَبِذُوقِ عُسَيْلَتِكَ»<sup>٣</sup>.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام في الرَّجُلِ يَطْلُقُ امْرَأَتَهُ الطَّلَاقَ الَّذِي لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، ثُمَّ تَزَوَّجَ رَجُلًا وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا. قَالَ عليه السلام: «لَا، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا»<sup>٤</sup>. وفي التعبير عن الجَمَاعِ بِذُوقِ الْعُسَيْلَةِ دَلَالَةٌ عَلَى اعْتِبَارِ الْوَطْءِ فِي الْقَبْلِ لِعَدَمِ كَوْنِ الْوَطْءِ فِي الدُّبْرِ ذَوْقَ الْعُسَيْلَةِ. قيل: إِنْ اشْتَرَطَ الْوَطْءَ يَسْتَفَادُ مِنْ لَفْظِ النِّكَاحِ الْمَوْضُوعِ لِلْوَطْءِ، وَالْعَقْدُ يُسْتَفَادُ مِنْ إِسْنَادِهِ إِلَى الزَّوْجِ<sup>٥</sup>.

وعن (الكافي): عنه عليه السلام أَنَّهُ سِئِلَ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ طَلَاقًا لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ وَتَزَوَّجَهَا رَجُلٌ شَعْفًا. أَيْحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْكِحَهَا؟ قَالَ: «لَا، حَتَّى تَدْخُلَ فِي مِثْلِ مَا خَرَجْتَ مِنْهُ»<sup>٦</sup>. وفي روايةٍ أُخْرَى: «الْمَتْعَةُ لَيْسَ فِيهَا طَلَاقٌ»<sup>٧</sup> ففيها دَلَالَةٌ عَلَى أَنْ اشْتَرَطَ الدَّوَامَ فِي عَقْدِ الْمُحَلِّلِ مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» الزَّوْجُ الثَّانِي الْمُحَلَّلِ وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا» أَيِ الزَّوْجِ الْأَوَّلِ وَالْمَرْأَةِ «أَنْ يَتَرَاجَعَا» بِالْعَقْدِ الدَّائِمِ، أَوْ الْإِنْتِقَاعِ «إِنْ طَلَّقَا» وَحَسِبَا «أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» الَّتِي وَجِبَ رِعَايَتُهَا مِنْ حَقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ «وَتِلْكَ» الْأَحْكَامُ الْمُبَيَّنَةُ «حُدُودُ اللَّهِ» وَشَرَائِعُ الْمُتَمِنَةِ الَّتِي يَحْفَظُهَا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْمُخَالَفَةِ، وَهُوَ بِذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ «يُبَيِّنُهَا» وَيُوضِّحُهَا «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» حُسْنَ الطَّاعَةِ، وَقُبْحَ الْمَعْصِيَةِ، وَيَقْبَلُونَ أَنْ فِي الْعَمَلِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّهُمْ الْمُسْتَفْعُونَ بِهَا، وَإِنْ كَانَتْ الْأَحْكَامُ عَامَّةً.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَقْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَفْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَفْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ

١. البتُّ في الطلاق: هو تطليق الزوجة طلاقاً لا رجعة فيه.

٢. هَذِبَةُ الثَّوبِ: طرفُهُ الَّذِي لَمْ يُنْسَجْ، تَرِيدُ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا.

٣. تفسير البيضاوي ١: ١٢٣.

٤. الكافي ٥: ٤/٤٢٥.

٥. في المصدر: تَزَوَّجَهَا رَجُلٌ آخَر.

٦. التهذيب ٨: ١٠٣/٣٤.

٧. الكافي ٥: ٢/٤٢٥.

٨. تفسير أبي السعود ١: ٢٢٧.

## وَالْحِكْمَةُ بِعَظْمِهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٢٣١]

ثم أنه لما كان الإضرار بالمرأة الضعيفة من القبايح السخيفة - ومن أقسام الإضرار: أن يطلق ثم يعبر عليها حتى إذا بلغت العدة آخرها راجعها، ثم يطلقها، فتكون مدة عدة الطلقات الثلاث ما يقرب من تسعة أشهر - نهى الله تعالى عنه، وكرّر التخيير السابق توطئة للزجر عنه، بقوله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنْفِقْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وما يقرب آخر عدتهن فأنتم بالخيار، فإذا أحببتم إمساكنهن ومراجعتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ مقروناً ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ والإحسان إليهن غير مضارين بهن ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ وخلوهن على حالهن متكسبين ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وإصالي نفع وخير. وهذا التعليق لبيان لزوم مراعاة الصلاح في تجديد العقد، لا لبيان اشتراط الصحة به.

في حرمة الأضرار  
بالزوجة  
﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ ولا ترجعوا إليهن لتضارهن من غير رغبة فيهن بل  
﴿لِتَعْتَدُوا﴾ وتظلموا، وتتجاوزوا عليهن بالتضييع في المعيشة وسوء المعاشرة  
وتطويل العدة.

عن (الفقيه): سئل الصادق عليه السلام عن هذه الآية فقال: «الرُّجُلُ [يُطْلَقُ] حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَخْلُو أَجْلُهَا [راجعها] ثُمَّ طَلَّقَهَا، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، فَنَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ»<sup>٢</sup> الخبر.  
قيل: نزلت في ثابت بن يسار الأنصاري، طلق امرأته، حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها بقصد مضارها<sup>٣</sup>.

ثم لشدّة الاهتمام بترك الإضرار، عَقَّبَ اللهُ النِّهْيَ بِالْتَّهْدِيدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الإضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ﴾ وأضر ﴿نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لسخط الله وعذابه، وبتفويت المنافع الدنيوية والأخروية عليها.

ثم بالغ سبحانه في التهديد على الإضرار وترك مراعاة الحقوق الواجبة بقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ سواء كانت متضمنة الأحكام أو غيرها ﴿هُزُوءًا﴾ ولعباً؛ بأن تكونوا مستخفين بها متهاونين فيها، معرضين عنها. فإن أشقى الأشقياء المتجرّئون على الله، المستخفون بأحكامه.  
رؤي أنه كان الرجل في الجاهلية يطلق ويقول: طلقت وأنا لا عب، ويعتق وينكح ويقول مثل ذلك.

١. كذا، والعبارة غير واضحة، والذي في أكثر التفاسير: ثم يمسيك عنها.

٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٥٦٧/٣٢٣.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٦٠.

فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقرأها رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ طَلَّقَ، أَوْ حَزَرَ، أَوْ نَكَحَ، فزَعَمَ أَنَّهُ لَا عَيْبَ، فَهُوَ جِدٌّ»<sup>١</sup>.

ثُمَّ بَعْدَ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّهْدِيدِ بَيِّنَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ رَغَّبَهُمْ فِي الطَّاعَةِ بِتَذْكِيرِ نِعَمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْكُمْ﴾ فَإِنَّ مِنْ أَمْتِهَا وَأَكْمَلِهَا هِدَايَتَكُمْ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴿مِنْ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ﴾ وَالْحِكْمَةِ مِنَ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ وَكَشَفِ الْحَقَائِقِ، وَالْعُلُومِ الْعَمَلِيَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْأَخْلَاقِ، لِأَنَّ ﴿يُعِظُّكُمْ بِهِ﴾ وَيُؤَدِّ بِكُمْ بَادِيَهُ. فَقَابِلُوا نِعَمَهُ بِالشُّكْرِ، وَأَطِيعُوا أَحْكَامَهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَاحْذَرُوا فِي مَخَالَفَتِهِ وَعِصْيَانِهِ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا﴾ مِنْ مَصَالِحِكُمْ وَمَقَاسِدِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ وَيَتَارِكُمْ ﴿عَلَيْمٌ﴾ لَا تُخْفِي عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَيَجَازِيكُمْ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ. وَهَذَا تَهْدِيدٌ فَوْقَ التَّهْدِيدَاتِ السَّابِقَةِ.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [٢٣٢]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الْحُكْمَ السَّادِسَ مِنْ أَحْكَامِ الطَّلَاقِ، وَهُوَ حُكْمُ طَلَاقِ الْمَرَأَةِ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ النِّسَاءَ وَالْأَزْوَاجَ، بَأَنَ وَقَعَ الطَّلَاقُ مِنْ بَعْضٍ - وَهَذَا مِنْ بَابِ نَسْبَةِ الْفِعْلِ إِلَى الْقَبِيلَةِ بِوُقُوعِهِ مِنْ أَحَدِهِمْ - «قَبْلَ أَنْ يَنْكِحْنَ» وَاسْتَوْفَيْنَ «أَجْلَهُنَّ» الْمَضْرُوبَ لِعِدَّتِهِنَّ «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ» وَلَا تَمْنَعُوهُنَّ مِنْ «أَنْ يَنْكِحْنَ» وَيَتَزَوَّجْنَ «أَزْوَاجَهُنَّ» الَّذِينَ طَلَّقُوهُنَّ.

فَيَكُونُ حَاصِلُ الْمَعْنَى، وَاللَّهُ الْعَالِمُ: إِذَا صَدَرَ مِنْ أَحَدِكُمْ طَّلَاقٌ، فَلَا يَصُدِّرُ مِنْ أَحَدِكُمْ مَنَعَ عَنِ التَّزْوُجِ بِأَزْوَاجِهِنَّ ظُلْمًا «إِذَا» كَانَ الزَّوْجَانِ «تَرَاضَا» بِالْمُوَاصِلَةِ «بَيْنَهُمَا» مُتَلَابِسِينَ «بِالْمَعْرُوفِ» وَالْمُسْتَحْسَنِ عِنْدَ الشَّرْعِ بِإِقْبَاعِ الْعَقْدِ وَحِفْظِ شَرَائِطِ الصَّحَةِ وَرِعَايَةِ الْأَحْكَامِ وَالْحَقُوقِ.

وَرَوَى أَنَّ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ زَوْجَ أُخْتِهِ جَمِيلَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَاصِمٍ، فَطَلَّقَهَا ثُمَّ تَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، ثُمَّ نَدِمَ فَجَاءَ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ، فَרَضِيَتْ الْمَرَأَةُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهَا مَعْقِلٌ: إِنَّهُ طَلَّقَكَ ثُمَّ تُرِيدِينَ

مُراجَعَتَهُ، وَخَهِىَ مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ رَاجَعْتَهُ. فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْقِلَ بْنِ يَسَارٍ وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ [مَعْقِلٌ]: رَغِمَ أَنْفِي لِأَمْرِ رَبِّي، اللَّهُمَّ رَضِيَتْهُ وَسَلَّمْتُ لِأَمْرِكَ. وَأَنْكَحَ أُخْتَهُ زَوْجَهَا<sup>١</sup>.

وَرَوَى أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ بِنْتُ عَمٍّ، فَطَلَّقَهَا زَوْجَهَا وَأَرَادَ رَجْعَتَهَا بَعْدَ الْعِدَّةِ، فَأَبَى جَابِرٌ، فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، وَكَانَ جَابِرٌ يَقُولُ: فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>٢</sup>.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنَ التَّرَاضِي بِالْمَعْرُوفِ، هُوَ التَّرَاضِي بِمَا فِيهِ الصَّلَاحُ، فَإِذَا تَرَاضَوْا عَلَى شُرُوطٍ يَكُونُ لِلْمَرْأَةِ فِيهَا فَسَادٌ، فَلَيْسَ مِنْهُ الْوَلِيُّ عَنِ التَّرْوَيجِ مِنْهَا.

﴿ذَلِكَ﴾ النَّهْيُ بِمَا «يُوعَظُ» وَيَرْتَدِعُ «بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فَإِنْ مَنْ كَانَ مِنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَنْتَفِعُ وَيَنْتَهِي بِهِ، وَفِيهِ تَهْدِيدٌ مُؤَكَّدٌ لِلنَّهْيِ.

ثُمَّ اتَّبَعَهُ بِالْتَّرْغِيبِ عَلَى الطَّاعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَمَلُ بِحُكْمِ اللَّهِ «أُزَكِّي لَكُمْ» وَأَثَرٌ فِي تَهْذِيبِ نَفْسِكُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ «وَأُطَهِّرُ» لِقُلُوبِكُمْ مِنَ أَدْنَابِ الْآثَامِ «وَاللَّهُ يَعْلَمُ» مَا بِهِ تَرْكِيَةُ نَفْسِكُمْ وَتَطْيِيرُ قُلُوبِكُمْ «وَأَنْتُمْ» لِقُصُورِ عُقُولِكُمْ «لَا تَعْلَمُونَ» وَلَا تَدْرِكُونَ نَتَائِجَ الْأَعْمَالِ وَمُقْتَضَيَاتِ الْأَفْعَالِ.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى  
الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ  
وَالِدَةٌ بَوْلِدًا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ  
تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا فِصَالَهُمْ فَلَا  
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [٢٣٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ جُمْلَةٍ مِنْ أَحْكَامِ الطَّلَاقِ، بَيَّنَّ بَعْضَ أَحْكَامِ الْأَوْلَادِ، لِمُنَاسِبَةِ أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ التَّشَاجُرُ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ فِيهِمْ، فَإِنَّهُ قَدْ يُرِيدُ الزَّوْجُ أَنْ يَأْخُذَ الْوَلَدَ مِنَ الزَّوْجَةِ، أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِعَهُ مَجَانًّا وَلَا أَجْرًا، وَقَدْ تُرِيدُ الزَّوْجَةُ الْاسْتِنْكَافَ عَنْ إِرْضَاعِ الْوَلَدِ بَعْضًا لَزَوْجِهَا، أَوْ تُرِيدُ الْإِزَامَ الزَّوْجِ

بإعطاء الزائد على ما هو المعروف من الأجر.

فبين الله تعالى أنه ليس للزوج أخذ الرضيع من أمه بقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ [سواء أكن مزوجات أو مطلقات] «يُرضعن أولادهن» وجوباً إن توقفت حياتهم على إرضاع الوالدات، كان لهن تكن مرضعة أخرى، أو لهن يأخذوا ندي غيرهن، أو كان لبن غيرهن مضمراً. أو جوازاً في غير الصور [المذكورة] مع حق الأولوية لهن، فلا يجوز للزوج أخذ الولد منهن «حولين كاملين» تأمين بالتدقيق، لا على المسامحة والتصرف.

هذا «لمن أراد» من الوالد والوالدة «أن يئتم» ويكمل «الرضاعة» إذ تمام الحولين أقصى مدة الرضاع، ويجوز أنقص منهما.

وروي أنه: «ما نقص عن أحد وعشرين [شهراً] فهو جزو على الصبي»<sup>١</sup>.

وروي عن ابن عباس: «أن هذا الحد ليس لكل مولود، ولكن لمن ولد لستة أشهر، وإن ولد لسبعة [أشهر] ثلثة وعشرون، وإن ولد لستة [أشهر] فأحد وعشرون شهراً»<sup>٢</sup>. فإن لم يردن تكميل الرضاع فليس للآباء إلزامهن على الارضاع في تمام الحولين».

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «لا تُجبر الحرة على إرضاع الولد، وتُجبر أم الولد»<sup>٣</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «ليس للصبي لبن خير من لبن أمه»<sup>٤</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من لبن أرضع به الصبي أعظم بركة [عليه] من لبن أمه»<sup>٥</sup>.

«وعلى المولود له» عبّر به عن الوالد للإشارة إلى أن الولد للوالد، والأم وعاء، وتجب نفقته عليه، وأجر إرضاعه هو «ورقته» وماكولهن «وكسوتهن» وملبوسهن «بالمعروف» بين الناس مما يناسب حال المرأة.

ثم لما كان مجال أن يقال: لم تجب مؤنة الأمهات على أنفسهن ولم يُفد إيجاب الإنفاق على الوالد بكونه بالمعروف؟ فأجاب سبحانه بقوله: «لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ» من كل من الوالدين الأخرى «إلا وسعها» وما يسهل تحمله عليها، فإن إلزام الأم على مؤنة نفسها، مع ضعفها وعدم قدرتها على

٢. مجمع البيان ٢: ٥٨٦.

١. مجمع البيان ٢: ٥٨٦.

٥. في الكافي: يُرضع.

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٩/٣٤.

٣. الكافي ٦: ٤/٤٠.

٦. الكافي ٦: ١/٤٠.

التَّكْسِبُ، إلزامٌ بما هو خارجٌ عن وُسْعِها.

وكذا إلزام الأب على الإنفاق، فوق حدِّ المعروف، إلزامٌ بما هو خارجٌ عن وُسْعِه، ولعلَّه للإشارة إلى ذلك قال: «لَا تُضَارَّ وَالِدَتُهُ» والدَّاءُ «يُولِّدُهَا» بأن تطلَّبَ منه ما ليسَ بعَهْدٍ مِنَ الرِّزْقِ والكُفُوَةِ، أو تمنعَ زوجها من نفسها مخافةَ الحمل «وَلَا مَوْلُودُهُ» والدَّةُ بولده بأن يأخذ الولدَ منها، أو يمنعها شيئاً من حقِّها «يُولِّدُهُ».

وقيل: إنَّ المعنى أنَّه لا يجوزُ أن يُغَيِّظَ أحدهما صاحبه بسببِ الولد، مثل أن ينزعَ الأبُّ الولدَ من أمِّه مع رغبتها في إمساكه، أو يُضَيِّقَ عليها في الرِّزْقِ والكُفُوَةِ، أو تطلَّبَ منه المواقعةَ ويتمنعَ عليها، وإضرارُ الأمِّ على الأبِّ مثل أن تمتنعَ من إرضاعه غيظاً على الأبِّ وثقليةً إليه، أو تطلَّبَ منه فوق العَدْلِ والمعروف، أو تمتنعَ من التَّمَكِينِ للزوج.

عن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، سُئِلَ عن هذه الآية، فقال: «كَانَتْ الْمَرَاضِعُ تَدْفَعُ إِحْدَاهُنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَرَادَ الْجَمَاعَ، تَقُولُ: لَا أَدْعُكَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَحْبِلَ، فَأَقْتُلَ وَلَدِي هَذَا الَّذِي أَرْضِعُهُ. وَكَانَ الرَّجُلُ تَدْعُوهُ الْمَرْأَةُ، فَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَجَاعِيكَ فَأَقْتُلَ وَلَدِي، فَيَدْعُهَا فَلَا يُجَاوِبُهَا. فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ أَنْ يُضَارَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ، وَالْمَرْأَةُ الرَّجُلَ»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حُبْلَى، أَنْفَقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا، فَإِذَا أَرْضَعَتْهُ أَعْطَاهَا أَجْرَهَا وَلَا يُضَارُّهَا، إِلَّا أَنْ يَجِدَ مَنْ هُوَ أَرْخَصَ أَجراً مِنْهَا، فَإِنْ رَضِيَ بِذَلِكَ الْأَجْرَ فَهِيَ أَحَقُّ بِابْنِهَا، حَتَّى تَقْطِعَهُ»<sup>٢</sup> الخبر.

ثُمَّ بَيَّنَّ الْحَكَمَ بَعْدَ مَوْتِ الْأَبِّ بِقَوْلِهِ: «وَعَلَى الْوَارِثِ» مِنَ الْوَالِدِ، يَجِبُ «مِثْلُ ذَلِكَ» الرِّزْقِ وَالْكُفُوَةِ الْوَاجِبِينَ عَلَى الْأَبِّ مِنْ نَصِيبِ الْوَلَدِ مِنْ تَرِكَةِ أَبِيهِ.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أَنَّهُ قَضَى فِي رَجُلٍ تُوْفِيَ وَتَرَكَ صَبِيئاً، وَاشْتَرَضَ لَهُ: «أَنْ أَجْرَ رِضَاعِ الصَّبِيِّ مِمَّا يَرِثُ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ»<sup>٣</sup>.

وعن (الكافي): عن الصادق عليه السلام، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ»: «أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُضَارَّ بِالصَّبِيِّ، أَوْ تُضَارَّ أُمُّهُ فِي رِضَاعِهِ. وَلَيْسَ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ فِي رِضَاعَةٍ فَوْقَ حَوَلَيْنِ كَامِلَيْنِ»<sup>٤</sup>.

١. الكافي ٦: ٦٤١. ٢. الكافي ٦: ١٠٣. ٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٠٩/١٤٨٧.

٤. الكافي ٦: ١٠٣.



وعنه عليه السلام، أنه سئل عنه فقال: «لا ينبغي للوارث أن يضارَ المرأة، فيقول: لا أدعُ ولدها يأتيتها، ويضارَ ولدها، إن كان لهم عنده شيء، فلا ينبغي [له] أن يقرَّ عليه»<sup>١</sup>. ويحتمل أن يراد من الوارث وارث الرضيع من رَجَمِه الذي تجبُّ عليه نَفَقَتُهُ.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ ويطاماً عن الرضاع، قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ - كما روي عن الصادق عليه السلام<sup>٢</sup> - صادراً ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ مَبْنِيٍّ عَلَى صَلَاحِ الْوَلَدِ، كَانِيٍّ ﴿وَمِنْهُمَا﴾ لَا مِنْ أَحَدِهِمَا، ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ كَامِلٍ مِنْ كُلِّ مَعَ الْآخَرِ؛ لِأَنَّ الْأَبَ وَلِيَّ وَالْأُمَّ شَفِيقَةً، أَوْ تَشَاوُرَهُمَا مَعَ أَهْلِ التَّجَارِبِ، وَاسْتِجْمَاعِ الْآرَاءِ عَلَى صَلَاحِ فِطَامِ الْوَلَدِ، وَعَدَمَ تَضَرُّرِهِ بِهِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فِي الْفِطَامِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَتَّفِقُ أَنْ تَمَلَ الْأُمُّ مِنَ الرُّضَاعِ، وَالْأَبُ مِنَ إِعْطَاءِ الْأَجْرِ، فَيَتَوَافَقَانِ عَلَى الْفِطَامِ، مَعَ كَوْنِهِ ضَرَرًا عَلَى الْوَلَدِ، وَلَكِنْ قَلَمَا يَتَّفِقُ هَذَا الرَّافِعِيهِمَا عَلَى الْوَلَدِ، سَيِّمًا مَعَ الْمُشَاوَرَةِ مَعَ أَرْبَابِ التَّجَارِبِ، فَيَسْتَدَ بَابَ احْتِمَالِ الضَّرَرِ عَلَى الْوَلَدِ.

قيل: يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الشَّرَاطِ أَنْ رِعَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِلضَّعْفَاءِ أَكْثَرُ، وَعَيْنَاتِهِ بِهِمْ أَشَدُّ، وَرَحْمَتُهُ عَلَيْهِمْ أَوْفَرُ. ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْوَالِدَاتِ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ، أَوْهَمَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اسْتِرْضَاعُ غَيْرِهِنَّ مُطْلَقًا، حَتَّى مَعَ رِضَا الْأُمِّ، أَوْ تَعَذُّرِهَا عَلَيْهَا، لَا نَقْطَاعَ اللَّبَنِ وَأَمثَالِهِ، فَازَالَ التَّوَهُّمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْآبَاءُ ﴿أَنْ تَنْتَرِضِعُوا﴾ الْمَرَاضِعَ ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ وَتَسْتَاجِرُوا لِإِرْضَاعِهِمْ عِنْدَ سُقُوطِ حَقِّ أُولَوِيَةِ الْأُمِّ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ وَلَا إِنْتُمْ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فِي اسْتِرْضَاعِ غَيْرِ الْأُمِّ ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إِلَى الْمَرْضِيعَةِ ﴿مَا أَتَيْتُمْ﴾ وَأَعْطَيْتُمْ لِلْوَالِدَاتِ، أَوْ مَا أَلَزَمْتُمْ وَشَرَطْتُمْ إِعْطَاءَهُ لِلْمَرْضِعَاتِ مَقْرُونًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَالْوَجْهَ الْمُتَعَارَفَ الْمُسْتَحْسَنَ شَرْعًا.

وليس التسليم هنا شرطاً لجواز الاسترضاع، بَلِ الْغَرَضُ مِنَ التَّعْلِيقِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْمَرْضِيعَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَيِّبَةِ النَّفْسِ حَتَّى تَقْبَلَ الطِّفْلَ بِقَلْبِهَا وَتَرَاعِيَ مَصْلَحَتَهُ حَقَّ الْمُرَاعَاةِ. عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «انْظُرُوا مَنْ تُرْضِعُ أَوْلَادَكُمْ، فَإِنَّ الْوَلَدَ يَشَبُّ عَلَيْهِ»<sup>٣</sup>. وَعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ وَالْعَمَشَاءَ<sup>٤</sup>، فَإِنَّ اللَّبْنَ يَغْدِي»<sup>٥</sup>. ثُمَّ حَتَّى سَبَّحَانَهُ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا شَرَعَ فِي أَمْرِ الْأَطْفَالِ وَالْمَرَاضِعِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَاحْذَرُوا

٢. مجمع البيان ٢: ٥٨٨.

١. تفسير العياشي ١: ٤٨٧/٢٣٧.

٣. الكافي ٦: ١٠٤/٤٤. ٤. العمشاء: هي الضعيفة البصر.

٥. عيون أخبار الرضا ٢: ٦٧/٣٤.

عقابه في التهاون في ما شرع من أحكام الأولاد والمراضع.

ثم أرفده بالتهديد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجاذبك به إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا  
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [٢٣٤]

ثم أنه تعالى بعد ما ذكر عِدَّة المطلقَّة، وأنها ثلاثة قُرُوء بين عِدَّة المتوفى عنها زوجها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ وتقبض أرواحهم بالموت ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون من بعدهم ﴿أَزْوَاجًا﴾ كبريات أو صغيرات، حائلات أو حاملات - إذا وضعت قبل المدة - دانمات أو متقطعات على قول، حرائر أو إماء على المشهور المنصور، مدخولاً بهن أو غير مدخول بهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ويمتنعن عن التزويج ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ ويعتدذن ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ من زمان العلم بالموت، أو ببلوغ خبره. عن (العباشي): عن الصادق عليه السلام: «لما نزلت هذه الآية، جنن النساء إخصامن رسول الله ﷺ، وقلن: لا نصبر. فقال لهن رسول الله ﷺ: كانت إحداكن إذا مات زوجها أخذت بغرة فآلقته خلفها في دويرها<sup>١</sup> ثم قعدت، فإذا كان مثل ذلك اليوم من الحول أخذتها ففشتها، ثم اكتحلت بها، ثم تزوجت. فوضع الله عنكن ثمانية أشهر<sup>٢</sup>».

عن الصادق عليه السلام: «لأن حُرقة المطلقة تسكن في ثلاثة أشهر، وحُرقة المتوفى عنها [زوجها] لا تسكن إلا في أربعة أشهر وعشراً<sup>٣</sup>».

وقيل: إن الحكمة في هذا التقدير أن الجنين في الغالب يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة أشهر إن كان أنثى، فأغثير أقصى الأجلين، وزيد عليه العشر استظهاراً، وبما تضعف حركته في البادية فلا يحس بها<sup>٥</sup>.

٢. تفسير العياشي ١: ٤٨٩/٢٣٧.

٤. في تفسير البيضاوي: إذ ربا.

١. زاد في المصدر: في خدرها.

٣. علل الشرائع: ٢/٥٠٨.

٥. تفسير البيضاوي ١: ١٢٦.

﴿فَإِذَا بَلَغَ النِّسَاءَ أَجَلَهُنَّ﴾ الْمَضْرُوب لِعِدَّتِهِنَّ، وَانْقَضَتْ الْمُدَّةُ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَالْأَوْلِيَاءُ، وَالْحُكَّامُ ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ مِنَ التَّرْيِيبِ وَالتَّرْوِيجِ إِذَا كَانَ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ الْمُقَرَّرُ فِي الشَّرْعِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهَا مِنَ التَّعَرُّضِ لِلتَّرْوِيجِ، وَسَائِرُ مُحَرَّمَاتِ الْمُعْتَدَةِ ﴿وَأَنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمُ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ \* لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ \* وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [٢٣٥- ٢٣٧]

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ أَحْكَامِ عِدَّةِ الْبَائِنَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ﴾ وَلَوْ حَتْمٌ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ الْمُعْتَدَاتِ، وَطَلَبِ نِكَاحِهِنَّ.

فِي جَوَازِ التَّعَرُّضِ وَحَاصِلِ الْآيَةِ - وَاللَّهُ الْعَالِمُ - أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِإِظْهَارِ الْمَيْلِ إِلَى نِكَاحِ الْمُعْتَدَاتِ فِي عِدَّتِهِنَّ، بِالْإِشَارَةِ مِنْ غَيْرِ صَرَاحَةٍ، كَمَا يَقُولُ لَهَا: إِنَّكَ جَمِيلَةٌ، أَوْ صَالِحَةٌ، وَإِنِّي رَاغِبٌ إِلَى نِكَاحِ امْرَأَةٍ مُتَّصِفَةٍ بِصِفَةٍ كَذَا، وَيَذْكُرُ بَعْضَ صِفَاتِهَا، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْهِمُ أَنَّهُ رَاغِبٌ إِلَى نِكَاحِهَا، وَلَا يُصْرِّحُ بِالنِّكَاحِ.

﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ﴾ وَأَضْرَمْتُمْ ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وَقُلُوبِكُمْ مِنَ التَّصْمِيمِ عَلَى تَرْوِجِهِنَّ ﴿عِلْمُ اللَّهِ أَنَّكُمْ﴾ لَا مُحَالَةَ ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ وَتَنْطِقُونَ بِرَغْبَتِكُمْ فِي نِكَاحِهِنَّ لِجَمَالِهِنَّ أَوْ جَمَالِهِنَّ، وَلَا تَصْبِرُونَ عَلَى السُّكُوتِ وَعَدَمِ إِظْهَارِ الرِّغْبَةِ فِيهِنَّ، لِخَوْفِ أَنْ يَسْقِ إِلَيْهِنَّ غَيْرُكُمْ، وَفِيهِ تَغْرِيزٌ عَلَى ضَعْفِ تَقْوِيهِمْ، وَقَوْلُهُ ثَبَاتِهِمْ.

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَادْكُرُوهُنَّ بِالْعَرِيسِ وَالتَّلْوِيحِ ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ﴾ فِي مَكَانٍ ﴿سِرًّا﴾ لِلنَّصْرِيحِ بِالْخُطْبَةِ، وَلَا يَصْدُرُ مِنْكُمْ شَيْءٌ فِي الْمَوْعِدِ ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا﴾ فِيهِ لَهُنَّ ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ لَا يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ، وَهُوَ التَّعْرِيسُ بِالنِّكَاحِ.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ فَقَالَ: «هُوَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِلْمَرْأَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا: أَوَاعِدُكَ بَيْتَ آلِ فُلَانٍ، لِيَعْرِضَ لَهَا بِالْخُطْبَةِ. فَعَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ التَّعْرِيسُ بِالْخُطْبَةِ»<sup>١</sup>.

قِيلَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَهُوَ يُعْرِضُ بِالنِّكَاحِ، فَيَقُولُ لَهَا: دَعِينِي أَجَامِعُكَ، فَبِذَا أَتَمَمْتَ عِدَّتَكَ أَظْهَرْتُ نِكَاحَكَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى نَهَى عَنْ ذَلِكَ<sup>٢</sup>.

ثُمَّ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِيقَاعِ عَقْدِ النِّكَاحِ بِنَحْوِ أَيْلَافِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَغْرِمُوا﴾ وَلَا تَقْصِدُوا، أَوْ لَا تَوَاجِعُوا ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ وَرَابِطَتَهُ وَعَلَاقَتَهُ ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ﴾ وَهُوَ الْعِدَّةُ الْمَكْتُوبَةُ ﴿أَجَلُهُ﴾ وَأَخْرَجَهُ، فَبِذَا بَلَغَ فَلَا بَأْسَ فِي إِجْبَابِ الْعَقْدِ.

ثُمَّ أَرَدَفَ النَّهْيَ بِالْتَهْدِيدِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَغْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وَقُلُوبِكُمْ مِنْ بَيِّنَاتِ السُّوءِ ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ فِي مُخَالَفَتِهِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ فِي مَوْرِدِ الْمَغْفِرَةِ ﴿حَلِيمٌ﴾ فِي مَوْرِدِ الْعُقُوبَةِ، لَا يَعْجَلُ بِهَا، فَلَا تَغْتَرَّوْا بِتَأْخِيرِهَا.

فِي أَنَّ الْمَطْلَقَةَ لَيْسَ لَهَا مَهْرٌ إِذَا طُلِقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ، وَإِنَّمَا يَجِبُ إِسْتِئْذَانُهَا بِشَيْءٍ  
ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا بَيَّنَّ جُمْلَةً مِنْ أَحْكَامِ الْمَطْلَقَةِ، الْمَدْخُولَ بِهَا، الْمُسَمَّى لَهَا الْمَهْرُ، ذَكَرَ حُكْمَ الْمَطْلَقَةِ الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهَا، وَلَمْ يُسَمَّ لَهَا مَهْرٌ، بِقَوْلِهِ: ﴿لَا جُنَاحَ﴾ وَلَا تَبِعَةٌ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مِنْ حَيْثُ الْمَهْرُ، بَلْ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْإِنْتِظَارِ وَالتَّرْبِصِ بِالْأَطْهَارِ، فَإِنْ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا طُلُقَ عَلَى كُلِّ حَالٍ ﴿إِنْ طَلَّقْتُمْ﴾ وَفَارَقْتُمْ ﴿النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُجَامِعُوهُنَّ ﴿أَوْ تَفْرِضُوا﴾ أَيَّ إِلَّا أَنْ تُقَدِّرُوا وَتُسَمَّوْا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةٌ﴾ وَمَهْرٌ مُقَدَّرٌ فِي ضِمْنِ الْعَقْدِ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ لَا تَسْتَحِقُّ الزَّوْجَةُ الْمَهْرَ إِلَّا بِاشْتِرَاطِ الْمَهْرِ فِي الْعَقْدِ، أَوْ بِالْإِدْخَالِ مَعَ عَدَمِ الْإِشْتِرَاطِ، فَإِنْ اشْتَرَطَ وَطُلِقَ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا فَلَهَا النِّصْفُ، وَإِنْ لَمْ يَشْتَرِطْ وَدَخَلَ بِهَا فَمَهْرُ الْجِلْسِ. هَذَا مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ النَّصُّ وَالْفَتْوَى.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ نَفْيِ اسْتِحْقَاقِ الْمَهْرِ، اثْبَتَ لَهُنَّ حَقَّ الْمُتْعَةِ وَجُوباً بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَتَّوهُنَّ﴾ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَأَعْطَوْهُنَّ مِنْهَا مَا يَتَّقِينَ بِهِ.

فِي رِوَايَةٍ عَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «فَإِنَّهُنَّ يَرْجِعْنَ بِكَابَةِ وَخُرْقَةٍ<sup>١</sup> وَهَمَّ عَظِيمٍ وَسَمَاتَةٍ مِنْ أَعْدَائِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي، وَيُجِبُّ أَهْلَ الْحَيَاءِ، إِنْ أَكْرَمَكُمْ أَشَدُّكُمْ إِكْرَاماً لِحَلَالِهِمْ»<sup>٢</sup>.

وَعَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّ مُتْعَةَ الْمُطَلَّقةِ فَرِيضَةٌ»<sup>٣</sup>.

وَعَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، أَنَّهُ شَبَّلَ عَنِ الرَّجُلِ يُرِيدُ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، قَالَ: «يَمْتَعُهَا قَبْلَ أَنْ يُطَلِّقَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَمَتَّوهُنَّ﴾»<sup>٤</sup> الْآيَةُ.

وَهَذِهِ الْمُتْعَةُ وَاجِبَةٌ «عَلَى الْمُوسِعِ» وَالْغَنِيِّ الَّذِي هُوَ فِي سَعَةِ مِنَ الْمَالِ «قَدْرُهُ» وَحَدِّ سَعَتِهِ «وَعَلَى الْمُفْقِرِ» وَالْفَقِيرِ «قَدْرُهُ» وَوُسْعِهِ، وَعَلَى قَدْرِ حَالِهِ «مَتَاعاً» أَيْ تَمَتُّعاً مَقْرُوناً «بِالْمَعْرُوفِ» وَبِالْوَجْهِ الَّذِي تَسْتَحْسِنُهُ الشَّرِيعَةُ وَالْمَرْوَةُ.

وَهَذَا التَّمَتُّعُ يُحَقُّ «حَقّاً» وَيُفْرَضُ فَرْضاً «عَلَى الْمُحْسِنِينَ» عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي.

عَنِ (فَقْهِ الرِّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ)): «يَمْتَعُهَا بِشَيْءٍ قَلٍّ أَوْ كَثَرٍ، عَلَى قَدْرِ يَسَارِهِ، فَالْمُوسِعُ يَمْتَعُ بِخَادِمٍ أَوْ دَابَّةٍ، وَالْوَسْطُ بِتَوْبٍ، وَالْفَقِيرُ بِدِرْهَمٍ أَوْ خَاتَمٍ»<sup>٥</sup>.

وَعَنِ (الْفَقِيهِ)، زَوْيَ أَنَّ الْغَنَى يَمْتَعُ بِدَارٍ أَوْ خَادِمٍ، وَالْوَسْطُ بِتَوْبٍ، وَالْفَقِيرُ بِدِرْهَمٍ أَوْ خَاتَمٍ<sup>٦</sup>.

وَزَوْيَ أَنَّ أَدْنَاهُ الْخِمَارُ وَشِبْهُهُ<sup>٧</sup>.

فِي أَنَّ الْمُطَلَّقةَ غَيْرُ الْمَدْخُولِ بِهَا إِذَا فُرِضَ لَهَا مَهْرٌ، لَا تَسْتَحِقُّ أَزِيدَ مِنْ نِصْفِ الْمَهْرِ الْمَفْرُوضِ فِي خَبَرِ الْحَلْبِيِّ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مُوسِعاً؛ عَلَيْهِ أَنْ يَمْتَعَ امْرَأَتَهُ الْعَبْدَ وَالْدَّابَّةَ، وَالْفَقِيرَ يَمْتَعُ بِالْحَنْطَةِ وَالزَّبِيبِ وَالتَّوْبِ وَالدِّرْهَمِ...» الْخَبَرُ<sup>٨</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ جَمِيعَ مَا ذُكِرَ فِي الرِّوَايَاتِ خَارِجٌ مَخْرُجَ التَّمَثُّلِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبَّاحَانَهُ حُكْمَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنَ الْمُطَلَّقاتِ مِنْ حَيْثُ الْمَهْرُ وَهِيَ الَّتِي لَمْ يَدْخُلَ بِهَا وَقَدْ سُمِّيَ لَهَا الْمَهْرُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾

٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٢٧/١٥٨٠.

٤. التهذيب ٨: ١٤١/٤٨٩.

٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٢٧/١٥٨٢.

٨. في الكافي: وَالْمُفْقِرُ. ٩. الكافي ٦: ١٠٥/٣.

١. في من لا يحضره الفقيه: وَوَحْشَةٌ.

٣. التهذيب ٨: ١٤١/٤٩٠.

٥. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ٢٤٢.

٧. من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٢٧/١٥٨٣.

وَتَدْخُلُوا بِهِنَّ ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ وَسَمِّيتُمْ فِي ضِمْنِ عَقْدِ النِّكَاحِ ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةٌ﴾ وَمَهْرًا مُقَدَّرًا ﴿فَيُضْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ مِنَ الْمَهْرِ يَسْتَقِرُّ فِي يُلْكِهِنَّ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ النِّصْفُ الْآخَرُ. فحيتنئذٍ يجب عليكم إعطاء ما استقر للمطلقات في كل حال ﴿إِلَّا أَنْ يَغْفُونَ﴾ أزواجهن من النصف، بأن يبذلنها لهن ولا يطالبنهم إن كنَّ كياراً غير مولى عليهن ﴿أَوْ يَغْفُوا﴾ من النصف الزلي ﴿الَّذِي يَبْدِيهِ﴾ وفي سلطته ﴿عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الأب، والجُدُّ للأب، إذا كنَّ قاصراتٍ عَن التَّصْرُفِ، كالصغيرة والمجنونة، هذا هو المعروف بين الإمامية، وتضافرت به أخبار أهل البيت عليهم السلام.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هو الزوج»<sup>١</sup>. وعليه جُلُّ العامة، سيوى الشافعي<sup>٢</sup>. ومعنى عفو الزوج إعطاء جميع المهر.

وعن جبير بن مطعم، أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدُّخُول، وأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعفو<sup>٣</sup>.

﴿وَأَنْ يَغْفُوا﴾ أيها المطلقات والأولياء، ويمكن إدخال الزوج في الخطاب على التفسير الثاني، وتذكير الخطاب لتغليب جانب الذكور، فيكون المراد أن العفو من الزوج والزوجة وأوليائها ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فَإِنَّ مَنْ سَمَحَ بِحَقِّهِ الْحَلَالَ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى تَرْكِ الظُّلْمِ، وَالتَّجَنُّبِ عَنِ الْمَالِ الْحَرَامِ وَسَائِرِ الْمَعَاصِي.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام، أنه حلف على ضرب غلامه، فلم يَفِ به، فلما سُئِلَ عنه قال: «أليس الله يقول: ﴿وَأَنْ يَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾...؟» الخبر<sup>٤</sup>. وفيه تنبيه على أن حُسن العفو لا يختص بالمهر، بل يَعْمُ جَمِيعَ مَا يَلِيقُ لِلْعَفْوِ.

ثم لما كان الطلاق قَبْلَ الْمَيْسِ سَبَباً لِتَأْذِي الْمَرْأَةِ، وَإِعْطَاءِ نِصْفِ الْمَهْرِ قَبْلَ الدُّخُولِ مُوجِباً لِتَأْذِي الزَّوْجِ، أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ بِالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ بِالنَّهْيِ عَنِ تَرْكِ التَّفْضِيلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْسُوا﴾ وَلَا تَنْزَكُوا ﴿الْفَضْلَ﴾ وَالْإِحْسَانَ فِيمَا ﴿بَيْنَكُمْ﴾.

ثم بَعْدَ التَّأْكِيدِ أَرْدَفَهُ بِالْوَعْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَلَا يَكَادُ يَضِيعُ عَمَلُكُمْ مِنَ التَّفْضِيلِ وَالْإِحْسَانِ. وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ تَهْدِيداً عَلَى تَرْكِ التَّفْضِيلِ.

٢. مجمع البيان ٢: ٥٩٧.

٤. الكافي ٧: ٤٦٠/٤.

١. تفسير الصافي ١: ٢٤٥.

٣. تفسير البيضاوي ١: ١٢٨.

٤٨٤ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

عن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: يأتي [على الناس] زمانٌ عَصُوضٌ يَعْصُرُ كُلَّ أَمْرٍ، على ما في يَدَيْهِ، وَيَنْسُونَ الْفَضْلَ بَيْنَهُمْ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾»<sup>١</sup>.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ \* فَإِنْ خِفْتُمْ  
فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا  
تَعْلَمُونَ [٢٣٨ و ٢٣٩]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ شِبْحَانَهُ مَا يُوجِبُ الْفَضْلَ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ وَأَحْكَامِهِ، ذَكَرَ مَا يُوجِبُ الْوَضْلَ بَيْنَ ذَاتِهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ بقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾.

وَيَحْتَمِلُ وَجْهٌ آخَرٌ لِلنَّظْمِ، هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ جُمْلَةً مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَبَالَغَ فِي التَّهْدِيدِ عَلَى مُخَالَفَتِهَا، بَيَّنَّ مَا يَسْتَعَانُ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَزَوَالَ كُلِّفَةِ امْتِثَالِهَا؛ وَهُوَ الصَّلَاةُ كَمَا قَالَ: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾<sup>٢</sup> الآية، وما يُوجِبُ الرِّذْعَ عَنْ مُخَالَفَتِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>٣</sup>.

وَالْمُرَادُ مِنَ الْمَحَافَظَةِ الْمُدَاوِمَةِ عَلَيْهَا، وَمُرَاعَاةَ أَوْقَاتِهَا وَشَرَائِطِهَا وَحُدُودِهَا.

وعن الصادق عليه السلام: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ الْمَقْرُوضَاتُ، مَنْ أَقَامَ حُدُودَهُنَّ، وَحَافِظَ عَلَى مَوَاقِيتِهِنَّ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ عِنْدَهُ عَهْدٌ يَدْخُلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ حُدُودَهُنَّ، وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَى مَوَاقِيتِهِنَّ لَقِيَ اللَّهَ وَلَا عَهْدَ لَهُ، إِنْ شَاءَ عَذْبُهُ وَإِنْ شَاءَ عَقَرُ لَهُ<sup>٤</sup>.

وعن (الكافي): عن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ ذَعِرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ مَا حَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، فَإِذَا ضَيَّعَهُنَّ تَجَرَّأَ عَلَيْهِ فَأَدْخَلَهُ فِي الْعِظَانِمِ»<sup>٥</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ الصَّلَاةَ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي<sup>٦</sup> وَقْتِهَا، رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيَاضٌ مُشْرِقَةٌ، تَقُولُ: حَفِظْتَنِي حِفْظَكَ اللَّهُ، وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا، بَغَيْرِ حُدُودِهَا، رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا سَوْدَاءَ مُظْلِمَةٍ، تَقُولُ: ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللَّهُ»<sup>٧</sup>.

وعن الثَّقَمِيِّ، عن الصادق عليه السلام، فِي رِوَايَةِ تَفْسِيرِ الْمَحَافَظَةِ، قَالَ: «هُوَ إِقْبَالُ الرَّجُلِ عَلَى صَلَاتِهِ حَتَّى

١. تفسير العياشي ١: ٥١٧/٢٤٤.

٢. البقرة: ٤٥/٢.

٣. العنكبوت: ٤٥/٢٩.

٤. زاد في الكافي: أول.

٥. الكافي ٣: ٢٦٦/١.

٦. الكافي ٣: ٢٦٩/٨.

٧. الكافي ٣: ٢٦٨/٤.

لا يُلْهيه ولا يَشْغَلُهُ عنها شيء<sup>١</sup>.

في تعيين المراد من الصلاة الوسطى **﴿وَالصَّلَاةَ الْوُسْطَى﴾** التي هي أفضل الصلوات المفروضة.

في (الكافي) و(التهذيب): عن الباقر عليه السلام، قال: «هي صلاة الظهر، وهي أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ، وهي وسط النهار، ووسط صلاتين بالنهار؛ صلاة الغداة وصلاة العصر<sup>٢</sup>».

وفي بعض القراءات: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى<sup>٣</sup> وصلاة العصر وقوموا لله قانتين)<sup>٤</sup> والعطف دالٌّ على المغايرة.

قال<sup>٥</sup>: «نزلت هذه الآية يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ في سفرٍ، فنُت في فيها رسول الله ﷺ وتركها على حالها في السفر والحضر، وأضاف للمقيم ركعتين، وإنما وُضعت الركعتان اللتان أضافهما النبي ﷺ يوم الجمعة للمقيم، لِمكان الخطبة مع الإمام، فمن صلى يوم الجمعة في غير جماعة، فليصلها أربع ركعات، كصلاة الظهر في سائر الأيام<sup>٦</sup>، الخبر.

وبهذا التفسير وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات متضاربة، وادّعى عليه بعض الأساطين إجماع الإمامية.

وقيل: إنها صلاة الفجر، واشتدوا عليه بقوله تعالى: **﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾**<sup>٨</sup> حيث إنه فُسر بصلاة الفجر<sup>٩</sup>.

وقيل: إنها صلاة العصر، ورواه العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام<sup>١٠</sup>.

وروي عنه عليه السلام قال: «أن النبي ﷺ قال يوم الخندق: شغلونا عن الصلاة الوسطى، ملائكة يوتئهم ويؤثروهم ناراً<sup>١١</sup>».

وفي رواية: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر<sup>١٢</sup>».

١. تفسير القمي ١: ٧٩. ٢. الكافي ٣: ٢٧١/٢١، التهذيب ٢: ٢٤١/٩٥٤.

٣. (و) ليس في الكافي والتهذيب. ٤. الكافي ٣: ٢٧١/٢١، التهذيب ٢: ٢٤١/٩٥٤.

٥. أي الإمام الباقر عليه السلام في تنمة الرواية المتقدمة. ٦. (رسول الله ﷺ) ليس في التهذيب.

٧. الكافي ٣: ٢٧١/١، التهذيب ٢: ٢٤١/٩٥٤. ٨. الإسراء: ١٧/٧٨. ٩. مجمع البيان ٢: ٥٩٩.

١٠. مجمع البيان ٢: ٥٩٩، تفسير الرازي ٦: ١٥٠. ١١. تفسير الرازي ٦: ١٥٠.

١٢. تفسير الرازي ٦: ١٥٠.



٤٨٦ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

واستدلوا أيضاً بما روي فيها من التأكيدات مما لم يرد في غيرها، قال عليه السلام: «مَنْ فَاتَهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»<sup>١</sup>.

وايضاً أقسم الله تعالى بها فقال: ﴿وَالْعَصْرِ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَىٰ خُسْرٍ﴾<sup>٢</sup> فدلَّ على أنها أحب الساعات إلى الله تعالى<sup>٣</sup>، وأيدوه بوجوه اعتبارية.

والحق هو الأول، وما سواه في غاية الوهن.

وقيل: إن الله تعالى أخفاها في الصلوات الخمس، ليصير اختصاصها بالفضل موجباً لزيادة الاهتمام بجميع الصلوات.

ثقل عن الربيع بن خثيم أنه سئل عنها فقال: يابن عم، الوسطى واحدة منهن، حافظ على الكل تكن محافظاً على الوسطى. ثم قال الربيع: لو علمتها بعينها لكنت محافظاً لها ومضيعاً لسانهين<sup>٤</sup>.

﴿وَقُومُوا﴾ خالصين ﴿لِلَّهِ﴾ في صلواتكم حال كونهن ﴿قَائِمَاتٍ﴾ داعين في قيامكم. وهو مروي عن الصادق عليه السلام<sup>٥</sup>.

وقيل: أي، مطيعين، روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «كُلُّ قُنُوتٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ الطَّاعَةُ»<sup>٦</sup>.

ثم بيّن الله تعالى أن المحافظة على الأجزاء والشرائط مخصوصة بحال الأمن، بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ إِيصٍّ أَوْ سَيْحٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَرِجَالًا﴾ مَاثِبِينَ صَلُّوا ﴿أَوْ زُكَّانًا﴾ سَائِرِينَ.

عن (الفقيه): عن الصادق عليه السلام، في صلاة الزحف، قال: «تَكْبِيرٌ وَتَهْلِيلٌ»، ثم تلا الآية<sup>٧</sup>.

وعنه عليه السلام: «إِنْ كُنْتَ فِي أَرْضٍ مَخُوفَةٍ، فَخَشِيتَ لِيصًّا أَوْ سَبْعًا، فَصَلِّ الْفَرِيضَةَ [وَأَنْتَ] عَلَى دَابَّتِكَ»<sup>٨</sup>.

وفي رواية: «الَّذِي يَخَافُ لِلصُّلُوحِ يُصَلِّيَ إِيمَاءً عَلَى دَابَّتِهِ»<sup>٩</sup>.

﴿فَإِذَا أَيْتَمْتُمْ﴾ على أنفسكم من المخوفات ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وصلُّوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُمُ﴾ من صلاة الأمن ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

قيل: إنما عبر سبحانه عن الصلاة بالذكر لكونه مُعْظَم أركانها، أو لأنه روحها.

٢. العصر: ١/١٠٣. ٣. تفسير الرازي ٦: ١٥١.

٥. مجمع البيان ٢: ٦٠٠ «نحوه».

٧. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٤/٢٩٥.

٩. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٦/٢٩٥.

١. تفسير الرازي ٦: ١٥١.

٤. تفسير الرازي ٦: ١٤٧.

٦. تفسير الرازي ٦: ١٥٢.

٨. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٤٥/٢٩٥.

وقيل: إن المراد: فاشكروا الله شكراً يوازي تعلّمكم الشرائع، التي منها كيفية صلاة الحزف والأمن<sup>١</sup>.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ \* كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٢٤٠-٢٤٢]

ثم بين سبحانه حكم نفقة المتوفى عنها زوجها، بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ ويشرفون على الموت ﴿مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون من بعدهم ﴿أَزْوَاجاً﴾ يجب عليهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً﴾ نافعة ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ وهي أن يتمتعن من تركه أزواجهن ﴿مَتَاعاً﴾ ونفقاً كافياً لهن ﴿إِلَى الْحَوْلِ﴾ الكايل من حين الوفاة، حال كونهن مقيمات في بيوت أزواجهن ﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ أي مخرجات منها. فلا تدل الآية إلى هنا على أن عدة الوفاة كانت سنة، بل ظاهرها وجوب الوصية على الزوج، بالإنفاق والإسكان إلى الحول، وهذا منسوخ بآية الإزث، وإن قلنا بعدم الدلالة على الوجوب بل على الجواز والاستحباب، فحكمها باقي بلا نسخ.

ولكن قوله تعالى: -﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من منزل أزواجهن باختيارهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ الزينة والزواج، وهو ما لا يكون في الشرع منهن، بناءً على كون المراد من عدم الجناح بعد الخروج: عدم وجوب نهيهن عن الزينة والتزوج، إن خرجن بعد تمام الحول - يدل على وجوب الجداد وترك التزوج قبل تمام الحول، وجوب نهيهن عنهما، فتكون عدة الوفاة تمام الحول، ويكون منسوخاً بآية: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾<sup>٢</sup>. وإن كان المراد من الخروج: قبل تمام الحول، يكون محمولاً على ما بعد ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ ولا نسخ أيضاً.

وفي عدة روايات عن الباقر والصادق (عليهما السلام): «هي منسوخة، نسختها آية: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ

أَشْهَرُ وَعَشْرًا<sup>١</sup>، وَنَسَخَهَا آيَةُ الْمِيرَاثِ<sup>٢</sup>.

وَرُوي بِطَرِيقِ عَامِيٍّ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ حَكِيمٌ بَيْنَ الْحَارِثِ هَاجِرٍ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَهُ أَوْلَادٌ، وَمَعَهُ أَبَوَاهُ وَأَمْرَاتُهُ وَمَاتَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَأَعْطَى النَّبِيَّ ﷺ وَالِدَيْهِ وَأَوْلَادَهُ مِنْ مِيرَاثِهِ، وَلَمْ يُعْطِ أَمْرَاتُهُ شَيْئًا، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهَا مِنْ تَرَكَةِ زَوْجِهَا حَوْلًا.

وَكَانَتْ عِدَّةُ الْوَفَاةِ فِي بَدْوِ الْإِسْلَامِ حَوْلًا، وَكَانَ يَحْرُمُ عَلَى الْوَارِثِ إِخْرَاجُهَا مِنَ الْبَيْتِ قَبْلَ تَحَامِ الْحَوْلِ، وَكَانَتْ تَقَعُّهَا وَسُكْنَاهَا وَاجِبَةً مِنْ مَالِ زَوْجِهَا مَا لَمْ تَخْرُجْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِيرَاثٌ، فَإِنْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا سَقَطَتْ تَقَعُّهَا، وَكَانَ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يُوصِيَ بِهَا، فَكَانَ كَذَلِكَ حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ<sup>٣</sup> فَنَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى نَقْعَ الْحَوْلِ بِالرُّنْعِ عِنْدَ عَدَمِ الْوَلَدِ، وَالثَّمَنِ مَعَ الْوَلَدِ<sup>٤</sup>.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وَغَالِبٌ عَلَى خَلْقِهِ، قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ خَالَفِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ يُرَاعِي مَصَالِحَ الْعِبَادِ فِي أَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ مَتَاعِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجِهَا -وَإِنْ كَانَ مَسْخُوحًا- بَيِّنَ مَتَاعِ الْمُطَلَّقةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللُّمُطَلَّقَاتِ﴾ الْبَائِنَاتِ، أَوْ مُطْلَقًا، وَلَوْ كُنَّ رَجَعِيَّاتٍ ﴿مَتَاعٌ﴾ وَتَمَتَّعَ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ عِنْدَ الشَّرْعِ، وَالْعَادَةِ. وَهَذَا التَّمَتُّعُ يَحِقُّ ﴿حَقًّا﴾ وَيَتَّبَتُّ ثُبُوتًا ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، فَإِنْ مِنْ لَوَازِمِ التَّقْوَى التَّبَرُّعُ بِالْمَتَاعَةِ نَظِيرًا لِقُلُوبِهَا وَإِزَالَةُ لَضَعْفِهَا.

فِي اسْتِحْبَابِ امْتِنَاعِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فِي رَجُلٍ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ أَيْمَنُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَمَّا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، أَمَّا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ»<sup>٥</sup>.

عَنِ الْحَلَبِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فِي الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، قَالَ: «عَلَيْهِ نِصْفُ الْمَهْرِ إِنْ كَانَ فَرَضَ لَهَا شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَرَضَ لَهَا شَيْئًا فَلْيَمْتَنِعْهَا عَلَى نَحْوِ مَا يَمْتَنِعُ بِهِ مِثْلُهَا مِنَ النِّسَاءِ»<sup>٦</sup> الْخَبَرِ، وَهَذَا مُحْمُولٌ عَلَى إِرَادَةِ مِثْلِهَا بِاعْتِبَارِ حَالِ الزَّوْجِ.

عَنِ الطَّبْرَسِيِّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ»<sup>٧</sup> قَالَ: «إِنَّمَا

١. تفسير العياشي ١: ٥٢٩/٢٤٧، مجمع البيان ٢: ٦٠٢، تفسير الصافي ١: ٢٤٨.

٢. في تفسير روح البيان: نزلت آية الميراث.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٧٥، وفيه: الولد وولد الابن والثمن عند وجودهما.

٤. تفسير العياشي ١: ٤٩٩/٢٤٠، الكافي ٦: ١٠٤/١. ٥. الكافي ٦: ١٠٦/٣. ٦. البقرة: ٢٣٦/٢.

تجب المُنْعَةُ لِلَّيْ لَمْ يَسْمُ لَهَا صَدَاقُ خَاصَّةً<sup>١</sup>. وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ [قَدْ] سَمِيَ لَهَا مَهْرًا، فَإِذَا فَرَضَ لَهَا صَدَاقٌ فَلَهَا يَضْفُهُ، وَلَا تَسْتَحِقُّ الْمُنْعَةَ. قَالَ: وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ أُمِّمَيْنَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَعَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ<sup>٢</sup>، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا فَلَهَا نَصْفُ مَهْرِهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَرَضَ لَهَا مَهْرًا فَمَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ»<sup>٣</sup> الْخَبَرِ. وَهَذَا إِذَا لَمْ يَدْخُلَ بِهَا، وَإِلَّا فَمَهْرُ الْمِثْلِ.

فَعَلَى هَذَا، فَالْآيَةُ وَالْأَخْبَارُ الْمُطْلَقَةُ مَحْمُولَةٌ فِي غَيْرِ الْمَوْضِعِ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ الْمُؤَكَّدِ، كَرَوَايَةِ الْحَلْبِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللِّمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ: «مَتَاعًا بَعْدَ مَا تَقْضِي عِدَّتَهَا عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ. وَكَيْفَ [لَا] يُمْتَنَعُهَا وَهِيَ فِي عِدَّتِهَا تَرْجُوهُ وَيَرْجُوها، وَيُحْدِثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَهُمَا مَا يَشَاءُ»<sup>٤</sup> الْحَدِيثِ.

﴿كَذَلِكَ﴾ التَّبَيُّنُ وَالتَّوْضِيحُ ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَصِفَاتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بِدَلَالِهَا تَخْرُجُونَ عَنْ حَدِّ السَّفَاهَةِ ﴿تَفْقَهُونَ﴾ وَتَفْهَمُونَ إِنْ لَكُمْ إِلَهًا<sup>٥</sup> مِنْهُ بَدْءُكُمْ، وَإِلَيْهِ عَوْدُكُمْ وَإِيَابُكُمْ، وَعَلَيْهِ حِسَابُكُمْ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ  
\* وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٤٤ و ٢٤٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَحْكَامِ، ذَكَرَ قَضِيَّةً دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَصِدْقِ نَبِيِّهِ فِي دَعْوَى نَبَوْتِهِ، لِأَنَّهَا إِبْخَارٌ بِالْغَيْبِ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى إِمْكَانِ الْمَعَادِ، لِتَفْيِيدِ الْمُسْتَمِعِ الْيَقِينَ وَالْإِعْتِبَارَ، وَالتَّجَنُّبَ عَنِ التَّمَرُّدِ وَالْعِنَادِ، وَزِيَادَةَ الْخُضُوعِ وَالْإِتِقَادِ.

وَلَمَّا كَانَ إِبْخَارُ اللَّهِ تَعَالَى - لِقُوَّةِ تَأْثِيرِهِ فِي الْعِلْمِ - بِمَنْزِلَةِ الرُّؤْيَا وَالْمُشَاهَدَةِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَكَانَ نُورٌ

١. مجمع البيان ٢: ٥٩٥، تفسير الصافي ١: ٢٤٩.

٢. في النسخة: أَبِي الصَّلَاحِ، وَمَا أَتْبَعْنَاهُ مِنْ تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ، رَاجِعِ مَعْجَمِ رِجَالِ الْحَدِيثِ ٢١: ١٨٩.

٣. تفسير العيَّاشي ١: ٥٠٠/٢٤٠.

٤. الكافي ٦: ٣/١٠٥.

٥. كَذَا، وَلَعَلَّهَا: وَتَفْهَمُونَ بِهَا أَنْ.

نَبِيِّهِ ﷺ فِي عَالَمِ الْأَشْبَاحِ مُحِيطاً وَمُشَاهِداً لِّجَمِيعِ وَقَائِعِ هَذَا الْعَالَمِ، خَاطَبَ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وَلَمْ تَنْظُرْ ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَلَمْ يَتَّخِذْ عَلَيْكَ إِلَهُهُمْ؟<sup>١</sup> ﴿وَهُمْ أَلَوْفٌ﴾ كَثِيرَةٌ ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وَلِأَجْلِ الْفِرَارِ مِنْهُ ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ﴾ أَوْ بِلِسَانِ مَلَكٍ ﴿مُوتُوا﴾ وَإِسْنَادُهُ إِلَى ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ لِلتَّهْوِيلِ وَالتَّخْوِيفِ، أَوِ الْمُرَادُ مِنَ الْقَوْلِ وَصُورَةُ الْأَمْرِ تَعَلُّقُ إِرَادَتِهِ التَّكْوِينِيَّةِ بِمَوْتِهِمْ، كَمَا كَتَبَ عَنْ إِرَادَةِ الْإِبْجَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿كُنْ﴾ فَمَاتُوا جَمِيعاً دَفْعَةً فِي مَكَانِهِمْ ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

عَنِ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ (عليه السلام): «أَنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلَ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الشَّامِ، وَكَانُوا سَبْعِينَ أَلْفَ بَيْتٍ، وَكَانَ الطَّاعُونَ يَقَعُ فِيهِمْ فِي كُلِّ أَوَانٍ، فَكَانُوا كُلَّمَا أَحْسَوْا بِهِ خَرَجَ مِنْ الْمَدِينَةِ الْأَغْنِيَاءُ لِقَوْتِهِمْ، وَبَقِيَ فِيهَا الْفُقَرَاءُ لَصُغْفِهِمْ، فَكَانَ الْمَوْتُ يَكْثُرُ فِي الَّذِينَ أَقَامُوا، وَيَقِلُّ فِي الَّذِينَ خَرَجُوا، فَيَقُولُ الَّذِينَ خَرَجُوا: لَوْ كُنَّا أَقْمَنَّا لَكُنَّا فِيْنَا الْمَوْتَ. وَيَقُولُ الَّذِينَ أَقَامُوا: لَوْ كُنَّا خَرَجْنَا لَقُلْنَا فِيْنَا الْمَوْتَ. فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ جَمِيعاً عَلَى أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ طَاعُونَ [فِيهِمْ] وَأَحْسَوْا بِهِ خَرَجُوا كُلُّهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا أَحْسَوْا بِالطَّاعُونَ خَرَجُوا جَمِيعاً، وَتَنَحَّوْا عَنِ الطَّاعُونَ حَذَرَ الْمَوْتِ، فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ مَا شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ أَنَّهُمْ مَرَوْا بِمَدِينَةٍ خَرِبَةٍ قَدْ جَلَا أَهْلُهَا عَنْهَا وَأَفْنَاهُمُ الطَّاعُونَ، فَتَزَلُّوا بِهَا، فَلَمَّا خَطَوْا رِحَالَهُمْ وَأَطْمَأَنَّنُوا قَالَ لَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مُوتُوا جَمِيعاً، فَمَاتُوا مِنْ سَاعَتِهِمْ وَصَارُوا رَمِيماً يَلُوحُ، وَكَانُوا عَلَى طَرِيقِ الْمَارَةِ، فَكَتَسَهُمُ الْمَارَةُ وَنَحَوَهُمْ وَجَمَعَهُمْ فِي مَوْضِعٍ، فَمَرَّ بِهِمْ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ خَزْقِيلُ، فَلَمَّا رَأَى تِلْكَ الْعِظَامَ بَكَى وَاسْتَعْبَرَ وَقَالَ: يَا رَبِّ لَوْ شِئْتَ لَأَحْيَيْتَهُمُ السَّاعَةَ كَمَا أَمْتُهُمْ، فَعَمَرُوا بِإِلَادِكَ وَلِلَّذَلِكَ عِبَادَكَ وَعَبَدُوكَ مَعَ مَنْ يَعْبُدُكَ مِنْ خَلْقِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: أَفْتَحِبَّ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا رَبِّ، قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [إِلَيْهِ] أَنْ قُلْ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقُولَهُ - قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) - وَهُوَ الْأَسْمُ الْأَعْظَمُ - فَلَمَّا قَالَ خَزْقِيلُ ذَلِكَ نَظَرَ إِلَى الْعِظَامِ يَطِيرُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَعَادُوا أَحْيَاءً يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؛ يَسْبَحُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُكَبِّرُونَهُ وَيُهَلِّلُونَهُ، فَقَالَ خَزْقِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام): «فِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ»<sup>٢</sup>.

أَقُولُ: تَذَلُّ الرِّوَايَةِ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ كَانَتْ عَقُوبَةً لَهُمْ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الْبَاقِرِ (عليه السلام)، أَنَّهُ سُئِلَ: أَمَ أَمَاتَهُمْ، أَمْ رَدَّهُمْ إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى سَكَنُوا الدُّورَ، وَأَكَلُوا الطَّعَامَ؟

قال: «لَا بَلْ رَدَّاهُ اللهُ حَتَّى سَكَنُوا الدُّورَ، وَأَكَلُوا الطَّعَامَ، وَنَكَحُوا النِّسَاءَ، وَمَكَّنُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ مَاتُوا بِأَجَالِهِمْ»<sup>١</sup>.

وَرُوِيَ أَنَّ حَزْقِيلَ نَذَبَ قَوْمَهُ إِلَى الْجِهَادِ فَكَرَهُوا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَلَمَّا كَثُرَ فِيهِمْ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَاراً مِنَ الْمَوْتِ، فَلَمَّا رَأَى حَزْقِيلُ ذَلِكَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِلَهَ يَعْقُوبَ وَإِلَهَ مُوسَى تَرَى خَطِيئَةَ عِبَادِكَ، فَأَرْهِمَ آيَةً فِي أَنْفُسِهِمْ تَذَلُّهُمْ عَلَى تَفَادٍ قُدْرَتِكَ، وَأَنْهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ قَبْضَتِكَ. فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، ثُمَّ أَنَّهُ ﷺ صَاقَ صَدْرَهُ بِسَبَبِ مَوْتِهِمْ، فَدَعَا مَرَّةً أُخْرَى، فَأَحْيَاهُمُ اللهُ<sup>٢</sup>.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَمَرَ عَسْكَرَهُ بِالْقِتَالِ، فَخَافُوا الْقِتَالَ، وَقَالُوا لِمَلِكِهِمْ: إِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَيْهَا فِيهَا الْوَبَاءُ، وَنَحْنُ لَا نَذْهَبُ إِلَيْهَا حَتَّى يَزُولَ ذَلِكَ الْوَبَاءُ، فَأَمَّا تَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِأَسْرِهِمْ، وَبَقُوا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حَتَّى انْتَفَخُوا. وَبَلَغَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَوْتَهُمْ، فَخَرَجُوا لِدَفْنِهِمْ، فَعَجَزُوا مِنْ كَثْرَتِهِمْ فَخَطَرُوا عَلَيْهِمْ حَظَايِرَ. فَأَحْيَاهُمُ اللهُ بَعْدَ الثَّمَانِيَةِ، وَبَقِيَ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ، وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي أَوْلَادِهِمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ<sup>٣</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّ حَزْقِيلَ هُوَ ذُو الْكِفْلِ؛ لِأَنَّهُ تَكَفَّلَ بِشَأْنِ سَبْعِينَ نَبِيًّا وَأَنْجَاهُمْ مِنَ الْقَتْلِ<sup>٤</sup>. وَلَعَلَّ الْمُرَادَ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - فِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ - هُوَ حَزْقِيلُ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ ثَالِثُ أَوْصِيَاءِ مُوسَى ﷺ، وَكَانَ أَوَّلُهُمْ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَثَانِيَهُمْ كَالْبُ بْنُ يُوْحَنَّا، وَثَالِثُهُمْ حَزْقِيلُ بْنُ يُوْزَ، وَيُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَجُوزِ، لِأَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ عَجُوزًا، فَسَأَلَتْ اللهُ وَلَدًا بَعْدَ مَا كَبُرَتْ وَعَقِمَتْ، فَوَهَبَهُ اللهُ لَهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ جَمِيعاً، حَيْثُ إِنَّهُ بَتَلَكَ الْإِمَانَةَ وَالْإِحْيَاءَ عَرَفَهُمْ نَفْسَهُ بِالْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ، وَالرَّحْمَةَ الشَّامِلَةَ، وَحَثَّهُمْ عَلَى التَّوَكُّلِ وَالتَّسْلِيمِ وَالْإِذْعَانِ بِالْمَعَادِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَنْهَكُهُمْ فِي الشَّهَوَاتِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ، وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَلَا يَسْتَفِيدُونَ بِهَا. وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ شَبَّحَانَهُ سَاقِ الْقِصَّةِ لِلْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ، لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَنُصْرَةِ دِينِهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، فَإِنَّ الْفِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ لَيْسَ بِمُنْجٍ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَسْمَا تَكُونُوا

٢. تفسير الرازي ٦: ١٦٣.

٤. تفسير الرازي ٦: ١٦٤.

١. مجمع البيان ٢: ٦٠٥.

٣. تفسير الرازي ٦: ١٦٢.

يَذِكُرْكُمْ الْمَوْتَ<sup>١</sup> فلا تتركوا الجهاد بسبب خوف الموت ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمَّا لَكُمْ في التَّوْبَةِ إلى الجهاد والترهيب منه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم من الدَّوَاعِي الدُّنْيَا والدُّنْيَا.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢٤٥]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ مَوْقُوفًا عَلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَلَى غَيْرِهِ [مِنْ] الْعَاجِزِينَ عَنْ نَفَقَةِ السَّفَرِ وَثَوْنَةِ الْجِهَادِ، أَرَدَفَ الْأَمْرَ بِالْجِهَادِ بِالتَّوْبَةِ الْأَكِيدِ فِي آدَاءِ الصَّدَقَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ وَطَيْبِ النَّفْسِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ وَمَالًا حَلَالًا طَيِّبًا. وَإِطْلَاقَ الْقَرْضِ عَلَى الصَّدَقَةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الصَّدَقَةَ قَطْعُ قِطْعَةٍ مِنَ الْمَالِ عَنْ نَفْسِهِ، بِعَوَضِ الْأَجْرِ الْمَوْعُودِ مِنَ اللَّهِ.

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَلَهُ مِثْلُهَا فِي الْجَنَّةِ». فَقَالَ أَبُو الدَّخْدَاحِ - وَاسْمُهُ عَمْرُ بْنُ الدَّخْدَاحِ -: [يَا رَسُولَ اللَّهِ] إِنْ لِي حَدِيقَتَيْنِ، إِنْ تَصَدَّقْتُ بِأَحَدَاهُمَا فَإِنْ لِي مِثْلُهَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَأَمَّ الدَّخْدَاحُ مَعِيَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»<sup>٢</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: وَالصَّبِيَّةُ مَعِيَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَتَصَدَّقَ بِأَفْضَلِ حَدِيقَتَيْهِ<sup>٣</sup>. وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتْ تُسَمَّى الْحَنِينَةَ، فَدَفَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَاعَفَ اللَّهُ صَدَقَتَهُ أَلْفِي أَلْفَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

قَالَ: فَرَجَعَ أَبُو الدَّخْدَاحِ، فَوَجَدَ أُمَّ الدَّخْدَاحِ وَالصَّبِيَّةَ فِي الْحَدِيقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا صَدَقَةً، فَقَامَ عَلَى بَابِ الْحَدِيقَةِ، فَكَّرَهُ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَنَادَى: يَا أُمَّ الدَّخْدَاحِ، قَالَتْ: لَيْتَكَ يَا أَبَا الدَّخْدَاحِ، قَالَ: إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ حَدِيقَتِي صَدَقَةً، [وَأَشْرَيْتُ مِثْلَهَا فِي الْجَنَّةِ وَأُمَّ الدَّخْدَاحِ مَعِيَ وَالصَّبِيَّةُ مَعِيَ] قَالَتْ: بَارَكَ اللَّهُ فِي مَا شَرَيْتَ وَفِي مَا أَشْرَيْتَ. فَخَرَجُوا مِنْهَا، وَأَسْلَمُوا الْحَدِيقَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ<sup>٤</sup>.

﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ﴾ فِي الْأَجْرِ وَالتَّوْبَةِ ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ. وَقِيلَ: الْوَاحِدُ بِسَبْعِمِائَةٍ: نَظَرًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾<sup>٥</sup>.

٣ و (٣) مجمع البيان ٢: ٦٠٨.

١. النساء: ٧٨/٤. ٢. في مجمع البيان: عمرو.

٥. مجمع البيان ٢: ٦٠٨، تفسير الرازي ٦: ١٦٦. ٦. البقرة: ٢٦١/٢.

وعن (المعاني): عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾<sup>١</sup> قال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ زِدْنِي، فأنزل الله سبحانه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾<sup>٢</sup>. فقال رسول الله ﷺ: اللَّهُمَّ زِدْنِي، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. فَعَلِمَ رسول الله ﷺ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ اللَّهِ لَا يُحْصَى وَلَيْسَ لَهُ مُتَهَيِّ<sup>٣</sup>.

وعن (الكافي): عنه عليه السلام، قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ اخْرَاجِ الدَّرْهَمِ إِلَى الْإِمَامِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَخْضَلُ لَهُ الدَّرْهَمُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ جَبَلٍ أَحَدٍ».

ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. قَالَ: هُوَ وَاللَّهُ فِي [صَلَةِ] الْإِمَامِ<sup>٤</sup> الْخَبِرُ.

ثم أزال خَوْفَ الْفَقْرِ عَنِ الْقُلُوبِ، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ وَيَمْنَعُ عَنِ الْخَلْقِ ﴿وَيَبْسُطُ﴾ وَيُوسِعُ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْغِنَى وَالْفَقْرَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَبِيَدِهِ، فَلَا يُفَقِرُكُمْ الْإِعْطَاءُ، وَلَا يُغْنِيَكُمْ التَّخْلُفُ، فَتَزَوَّدُوا فِي يَوْمِكُمْ هَذَا لِيَوْمِ لِقَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّكُمْ إِلَيْهِ تَعْلَبُونَ ﴿وَالَّذِينَ تَرَجَعُونَ﴾ فَيُؤْفَى مَا اقْتَرَضَ مِنْكُمْ بِأَحْسَنَ وَفَاءٍ، وَيُجَازِيكُمْ بِأَوْفَرِ جَزَاءٍ.

وفيه تنبيه على أَنَّ الْغِنَى يُفَارِقُ مَالَهُ بِالْمَوْتِ، فَلْيَبَادِرْ إِلَى الْإِنْفَاقِ قَبْلَ الْقَوْتِ، وَفِي تَأْخِيرِ الْبَشْطِ عَنِ الْقَبْضِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُوسِعُ عَلَى الْعَبْدِ بَعْدَ التَّقْتِيرِ، فَفِيهِ التَّسْلِيَةُ لِلْفُقَرَاءِ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا  
مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا  
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ  
عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ \* وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ  
اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ  
بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَا عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً  
فِي أَعْلَامِهِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٢٤٦ و ٢٤٧]

٣. معاني الأخبار: ٣٩٧/٥٤.

١. النمل: ٨٩/٢٧. ٢. الأنعام: ١٦٠/٦.

٤. الكافي ١: ٢٤٥١، تفسير الصافي ١: ٢٥١.



ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالْقِتَالِ، ذَكَرَ قِصَّةَ مُخَالَفَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَغَلَبَةَ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْهُمْ فِتْنَةً كَثِيرَةً، لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ فَتْحَ مُخَالَفَةِ أَمْرِ الْجِهَادِ، وَلِيَكُونُوا فِي النُّصْرَةِ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى الْكَثَرَةِ وَالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ. وَلَعَلَّهُ لِإِظْهَارِ إِحَاطَةِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ - فِي عَالَمِ الْأَشْيَاءِ - بِجَمِيعِ وَقَائِعِ الْعَالَمِ مِنْ بَدْءِ الْخَلْقَةِ كَمَا مَرَّ، قَالَ مُخَاطَبًا لَهُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ حَالِ ﴿الْمَلَأَمِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وَأَشْرَافِهِمْ؟ وَهَذَا الْاسْتِفْهَامُ لِتَقْرِيرِ مَنْ بَلَغَ إِلَيْهِمُ الْقِصَّةَ بِالتَّوَاتُرِ، أَوِ الْعَجَبِ مِنْ شَأْنِ الْمَلَأَمِ وَهُمْ كَانُوا ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ وَفَأَةً ﴿مُوسَى﴾ ابْنِ عِمْرَانَ ﴿إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ﴾ قِيلَ: هُوَ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَصِيِّ مُوسَى، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ يُوْشَفَ. وَقِيلَ: سَمِعُونَ مِنْ وَلَدِ لَاوِي بْنِ يَعْقُوبَ. وَقِيلَ: إِشْمُونُ بْنُ بَنِي هَارُونَ<sup>١</sup>.

ثُمَّ قِيلَ أَنَّهُ لَمَّا ادَّعَى النَّبِيُّ كَذِبَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأْتِنَا بِآيَةٍ. وَلَمَّا كَانَ قِيَامُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْاجْتِمَاعِ عَلَى الْمُلُوكِ، وَطَاعَةِ الْمُلُوكِ لِأَتْبَاعِهِمْ، وَكَانَ الْمَلِكُ يُسَيِّرُ الْجُمُوعَ، وَالنَّبِيُّ يَقِيمُ أَمْرَهُ، وَيُشِيرُ عَلَيْهِ، قَالُوا لَهُ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ﴿أَبْعَثْ﴾ وَانْهَضَ ﴿لَنَا مَلِكًا﴾ وَأَمِيرًا تُصَدِّرُ عَنْ رَأْيِهِ وَتُدِيرُهُ فِي قِتَالِ كُفَّارِ الْعَمَالِقَةِ، حَتَّى ﴿تُقَاتِلَ﴾ مَعَهُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَنُصْرَةِ دِينِهِ.

عَنْ (الْعَبَّاسِيِّ): عَنْ الصَّادِقِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَلِكَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ بِالْجُودِ، وَالنَّبِيُّ

يَقِيمُ لَهُ أَمْرَهُ وَيُنْصِتُ بِالْخَبَرِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ»<sup>٢</sup>.

عَنْ الْبَاقِرِ ﷺ: «أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَمِلُوا بِالْمَعَاصِي، وَغَيَّرُوا دِينَ اللَّهِ، وَغَوَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَكَانَ فِيهِمْ نَبِيٌّ يَأْتِرُهُمْ وَيُنْهَاهُمْ، فَلَمْ يُطِيعُوهُ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جَالُوتَ، وَهُوَ مِنَ الْقَبِيطِ، فَأَذَاهُمْ وَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، وَاسْتَعْبَدَ نِسَاءَهُمْ، فَفَرَّعُوا إِلَى نَبِيِّهِمْ، وَقَالُوا: أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَبْعَثَ لَنَا

مَلِكًا يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَكَانَتِ الثَّبُوتُ - فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ - فِي بَيْتٍ، وَالْمُلْكُ فِي بَيْتٍ آخَرَ، لَمْ يَجْمَعْ اللَّهُ لَهُمُ الثَّبُوتَ وَالْمُلْكُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، فَمِنْ ذَلِكَ قَالُوا: ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا»<sup>٣</sup> الْخَيْرِ.

﴿قَالَ﴾ النَّبِيُّ ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وَقَارَبْتُمْ ﴿إِنْ كُتِبَ﴾ وَوَجِبَ ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ جُنُبًا وَخَوْفًا، فَإِنِّي أَظُنُّ وَأَتَوَقَّعُ جُنُبَكُمْ عَنِ الْقِتَالِ.

﴿قَالُوا وَمَا﴾ الْعَذْرُ ﴿لَنَا﴾ وَأَيُّ دَاعٍ يَتَصَوَّرُ فِي ﴿أَلَّا تُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَأَنْ تَتْرَكَ نُصْرَةَ دِينِهِ

٢. تفسير العباسي ١: ٥٤١/٢٥٠.

١. تفسير الرازي ٦: ١٧٠.

٣. تفسير القمي ١: ٨١، بحار الأنوار ١٣: ٤٣٩/٤.

﴿وَالْحَالِ أَنَا قَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا﴾ وَطَرِدْنَا مِنْ أَوْطَانِنَا، وَأَغْرَبْنَا مِنْ أَهْلِنَا ﴿وَأَبْنَانِنَا﴾ وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْمَصَائِبِ وَالْبَلِيَّاتِ أَقْوَى الْمُهَيِّجَاتِ إِلَى الْقِتَالِ.

وقيل: إِنَّ جَالُوتَ كَانَ رَأْسَ الْعَمَالِقَةِ وَمَلِكِهِمْ، وَهُوَ مِنْ أَوْلَادِ عَمَلِيقَ بْنِ عَادَ، وَكَانَ هُوَ وَالْعَمَالِقَةُ يَسْكُنُونَ سَاحِلَ بَحْرِ الرُّومِ بَيْنَ مِصْرَ وَفِلَسْطِينَ، وَظَهَرُوا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَخَذُوا دِيَارَهُمْ، وَسَبَّوْا أَوْلَادَهُمْ، وَأَسْرَوْا مِنْ أَبْنَاءِ مَلُوكِهِمْ أَرْبَعَانَةً وَأَرْبَعِينَ نَفْسًا وَضَرَبُوا عَلَيْهِمُ الْجَزْيَةَ وَأَخَذُوا تَوَارِثَهُمْ<sup>١</sup>.  
﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ وَفَرِضَ ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ بَعْدَ دُعَاءِ النَّبِيِّ وَبَغْتِ الْمَلِكِ، أَلَّ أَمْرَهُمْ إِلَى أَنْ ﴿تَوَلَّوْا﴾ وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْقِتَالِ. قِيلَ: لِأَنَّهُمْ عَلَّلُوا قِتَالَهُمْ بِحُطُوظِ النَّفْسِ، فَخَذَلُوا وَظَلَمُوا عِنْدَ الْإِمْتِحَانِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وَهُمْ ثَلَاثَانَةٌ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ، بَعْدَ أَصْحَابِ بَدْرَ، وَأَصْحَابِ الْقَانِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّقَاعُدِ عَنِ الْجِهَادِ.

في اصطفاء طالوت عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى تَفْصِيلَ بَغْتِ الْمَلِكِ، وَتَوَلَّى الْقَوْمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بَعْدَ مُرَاجَعَةِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فَأَطِيعُوهُ وَقَاتِلُوا عَدُوَّكُمْ مَعَهُ.

رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَلِكًا، أَتَى بَعْضًا يَقَاسُ بِهَا مَنْ يَمْلِكُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُسَاوِهَا إِلَّا طَالُوتُ<sup>٢</sup>.  
قِيلَ: إِنَّ إِشْمُونَ<sup>٣</sup> جَاءَ بَعْضًا وَقَرْنَ فِيهِ دُهْنُ الْقُدْسِ، قَالَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ الَّذِي يَكُونُ مَلِكًا طُولُهُ طُولُ هَذِهِ الْعَصَا، وَتَقُلُّ أَنَّهُ ضَلَّتْ حَمِيرُ لَأَبِي طَالُوتَ، فَأَرْسَلَهُ أَبُوهُ فِي طَلَبِهَا، فَمَرَّ بِبَيْتِ إِشْمُونَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنِ الْحَمِيرِ، فَقَاسَهُ طَالُوتَ بِالْعَصَا، فَكَانَ عَلَى طُولِهَا، فَقَالَ لَطَالُوتَ: قَرَّبَ رَأْسُكَ فَقَرَّبَهُ، فَدَهَنَهُ بِدُهْنِ الْقُدْسِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَنْتَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أُمْلِكَهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ: بَأَيِّ آيَةٍ؟ قَالَ: بِآيَةِ أَنَّكَ تَرْجِعُ وَقَدْ وَجَدَ أَبُوكَ حَمِيرَهُ، فَكَانَ كَذَلِكَ<sup>٤</sup>. ثُمَّ أَخْبَرَ إِشْمُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتَضَبُّبِ طَالُوتَ لِلسُّلْطَانَةِ.

وقيل: لَمَّا كَانَتِ السُّلْطَانَةُ فِي بَيْتِ يَهُودَا، وَكَانَ طَالُوتُ مِنْ سِبْطِ بَنِيَامِينَ، وَكَانَ سِبْطُ بَنِيَامِينَ قَلِيلًا مُسْتَخَفًّا بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿قَالُوا﴾ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ، وَشُكْرِينَ لَهُ: ﴿إِنِّي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ﴾ وَالسُّلْطَانَةُ ﴿عَلَيْنَا﴾ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ﴿وَنَحْنُ﴾ لِشَرَفَةِ بَيُوتِنَا ﴿أَحَقُّ﴾ وَأَوَّلَى ﴿بِالْمُلْكِ﴾ وَالسُّلْطَانَةِ ﴿مِنْهُ﴾ فَتَقَدِّمُ

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٤٠.

٢. تفسير روح البيان ١: ٣٨٣.

٣. تفسير أبي السعود ١: ٢٣٩.

٤. في النسخة: الشموئل.

غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ عَلَى مَنْ هُوَ أَحَقُّ قَبِيحٌ، كتقديم أبي بكر على علي أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة. ثم اعترضوا ثانياً، بقولهم: ﴿وَالْحَالُ أَنْ طَالُوتَ﴾ **لَمْ يُوْتْ** ثُرْوَةٌ وَلَمْ يَغْطُ **سَعَةً مِنَ الْمَالِ** فيُشْرَفُ بِالْمَالِ إِذَا فَاتَهُ شَرْفُ الْحَسَبِ، بَلْ هُوَ فَقِيرٌ مُغْلِمٌ، لا مال له كي يَتَقَوَّى به في تأسيس مملكته وسلطانه. قيل: كان راعياً، وقيل: مكارياً<sup>١</sup>، وقيل: دَبَاغاً، وقيل: سَقَاءً<sup>٢</sup>.

﴿قَالَ﴾ النَّبِيُّ رِذَاءً عَلَيْهِم: **إِنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِهِ أَصْطَفَاكَ** واستخلصه للملك واختاره **عَلَيْكُمْ** وليس لكم أن تعترضوا على الله في ما اختاره واصطفاه.

ثم بعد الجواب الإجمالي، شرع في الجواب التفصيلي بقوله: **﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً وَسِعَةً فِي الْعِلْمِ﴾** بأحكام الدين وسياسة الملك وشؤون الحرب، **﴿وَبَسْطَةً فِي الْجِسْمِ﴾** وعظمة في الجنة، وطولاً في القامة، وشدة في البطش.

في أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام كَانَ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ غَيْرِهِ وتوضيح الجواب: أَنَّ شَرَفَةَ النَّسَبِ، وكثرة المال ليستا من الكمالات الحقيقية، ومما له دخل في لياقة الملك وأهلية الإمامة، وإنما الدخيل في استحقاق هذا المنصب العلم بأحكام الدين، وسياسة الملك، وعظمة الجسم، وكَمَالُ الْقُوَى، والشجاعة.

فبِالْعِلْمِ تُدَبَّرُ الْمَمْلَكَةُ وتُنظَّمُ الْأُمُورُ، وبِالْجَسَامَةِ تُعْظَمُ مَهَابَتُهُ فِي الْأَنْظَارِ، وبِالشَّجَاعَةِ يُكَادِي الْأَعْدَاءَ، وَيَقَاوِمُ فِي الْهَيْجَاءِ، ولذا كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَعْلَمَ وَأَزْهَدَ وَأَشْجَعَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فكان بخلافته أولى، وهذا مع قُطْعِ النَّظَرِ عَنْ أَصْطِفَائِهِ [من قبل] الله ونَصْبِهِ بِالنَّصِّ الصَّرِيحِ عَلَى وِلَايَتِهِ.

قيل: كان طالوت أطول من جميع بني إسرائيل برأسه ومُنْكِيهِ، حتى إِنَّ الرَّجُلَ الْقَائِمَ كَانَ يَمُدُّ يَدَهُ فَيَنَالُ رَأْسَهُ، وكان أجمل وأقوى من جميعهم.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ﴾ **﴿يُؤْتِي مَلَكَةً مَنْ يَشَاءُ﴾** من عياده. وفيه دلالة على أن لا مُلْكَ لغيره **﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾** حِكْمَةً وَفَضْلاً وَرَحْمَةً، فيوسع على الفقير ويغنيه **﴿عَلِيمٌ﴾** بمصالح العالم وقابليات بني آدم.

قال الفخر: هذه الآية تدلُّ على بطلان قول من يقول: إِنَّ الْإِمَامَةَ مَوْرُوثَةٌ<sup>٣</sup>، ولعل

١. المُكَارِي: هو الذي يُكْرِي، أي: يؤجر الدواب - من البغال والحمير - لغيره.

٢. تفسير الرازي ٦: ١٧٣.

٣. تفسير الرازي ٦: ١٧٣.

اعتراضه على أصحابنا الإمامية.

وفيه: أنهم لا يقولون بأنها مَوْزُوثة، بل يقولون بأنها مَنْصُوصَةٌ لِمَن كان في الأصْلَابِ الشَّامِخَةِ والأَرْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ والنَّفُوسِ الزَّكِيَّةِ التي طَهَّرَهَا اللهُ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ.  
ثُمَّ إِنَّا نَقُولُ: إِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ إِمَامَةِ مَنْ اخْتَارَهُ الْخَلْقُ، وَعَدَمِ أَهْلِيَّةِ غَيْرِ الْأَعْلَمِ وَالْأَفْضَلِ، وَمَنْ يَقُولُ: أَقِيلُونِي، وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ وَعَلَيَّ فِيكُمْ لَهَا.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٢٤٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى -بَعْدَ نَضْبِ طَالُوتَ لِلسُّلْطَنَةِ؛ بِإِخْبَارِ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَ قَوْلُهُ حُجَّةً- جَعَلَ لِقَطْعِ الْعُذْرِ، وَدَفْعِ اعْتِرَاضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، دَلِيلًا وَآيَةً عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ، وَكَوْنِ سُلْطَنَةِ جَالُوتَ بَنَصْبِهِ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، وَعَلَامَةِ سُلْطَنَةِ الْإِلَهِيَّةِ ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾.

وقيل: إِنَّهُ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ طَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّبِيِّ آيَةً عَلَى سُلْطَنَةِ طَالُوتَ.

في ذكر خصوصيات  
تابوت بني إسرائيل  
وأثاره  
قيل: كان التَّابُوتُ صُنْدُوقًا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى ﷺ، فَوَضَعَهُ أُمَّهُ فِيهِ فَأَلْقَتْهُ فِي النَّيْمِ، فَلَمَّا حَضَرَ مُوسَى ﷺ الْوَفَاةَ، وَضَعَ فِيهِ أَلْوَاحَ التَّوْرَةِ وَدَرَّعَهُ وَمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ آيَاتِ النَّبُوءَةِ، وَأَوْدَعَهُ يُوْسُفَ بْنَ نُونٍ وَصِيَّهُ.

وَيُقَالُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى آدَامَ تَابُوتًا، فِيهِ صُورُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ أَوْلَادِهِ، فَتَوَارَثَهُ أَوْلَادُ آدَمَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى يَعْقُوبَ، ثُمَّ بَقِيَ فِي أَيْدِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَكَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ تَكَلَّمُوا وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِذَا حَضَرُوا الْقِتَالَ قَدَّمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يَسْتَفْتِيهِونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ [تَحْمِلُهُ] فَوْقَ الْعَسْكَرِ وَهُمْ يُمَاقِلُونَ الْعَدُوَّ، فَإِذَا سَمِعُوا مِنَ التَّابُوتِ صَوْتًا اسْتَفْتَوْا بِالنُّصْرَةِ<sup>١</sup>.

وَرُوي أَنَّ سَعْتَهُ كَانَتْ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ<sup>٢</sup>.

وَرُوي أَنَّهُ إِذَا وَضِعَ التَّابُوتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ، فَإِنْ تَقَدَّمَ التَّابُوتُ رَجُلًا، لَا يَرْجِعُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ

يَغْلِبُ، وَمَنْ يَرْجِعْ عَنْهُ كَفَرٌ، وَقَتْلُهُ الْإِمَامُ<sup>١</sup>. فَلَمَّا عَصَوْا وَفَسَدُوا وَاسْتَخَفُّوا بِهِ - حَتَّى إِنَّ الصُّبْيَانَ كَانُوا يَلْعَبُونَ بِهِ فِي الطَّرِيقَاتِ وَيَسْتَخَفُّونَ بِهِ - سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَمَالِقَةَ، فَغَلَبَهُمْ عَلَى التَّابُوتِ، وَسَلَّوْهُ، فَلَمَّا سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ آيَةً عَلَى مُلْكِ طَالُوتَ، قَالَ ذَلِكَ النَّبِيُّ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْتُمْ تَجِدُونَ التَّابُوتَ فِي دَارِهِ. ثُمَّ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ سَلَّوْا ذَلِكَ التَّابُوتَ، كَانُوا قَدْ جَعَلُوهُ فِي مَوْضِعِ الْبُؤْسِ وَالْغَائِطِ، فَدَعَا النَّبِيُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَى أَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ الْبَلَاءَ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ مَنْ بَالَ عِنْدَهُ أَوْ تَغَوَّطَ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالْبُؤْسِ.

وَيُقَالُ أَنَّهُ هَلَكَ مِنْ بِلَادِهِمْ خَمْسُ مَدَائِنَ، فَعَلِمَ الْكُفَّارُ أَنَّ ذَلِكَ لِأَجْلِ اسْتِخْفَافِهِمُ بِالتَّابُوتِ، فَأَخْرَجُوهُ وَوَضَعُوهُ عَلَى ثَوَرَيْنِ فَأَقْبَلَ الثَّوْرَانِ يَسِيرَانِ، وَكَلَّ اللَّهُ بِهِمَا أَرْبَعَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَسْقُونَهَا حَتَّى أَتَوْا مَنَزِلَ طَالُوتَ، ثُمَّ أَنَّ قَوْمَ ذَلِكَ النَّبِيِّ رَأَوْا التَّابُوتَ، فَعَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِ مَلِكًا. فَعَلَى هَذَا، نِسْبَةُ الْإِتْيَانِ إِلَى التَّابُوتِ مِنْ بَابِ التَّوَسُّعِ وَالْمَجَازِ، كَمَا يُقَالُ رِبَحْتَ التَّجَارَةَ<sup>٢</sup>. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ التَّابُوتَ صُنْدُوقٌ، كَانَ مُوسَى يَضَعُ فِيهِ التَّوْرَةَ، وَكَانَ مِنْ خَشَبٍ، وَكَانُوا يَغْرِفُونَهُ، ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ بَعْدَ مَا قَبَضَ مُوسَى؛ لَسَخَطِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ نَبِيُّ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِ طَالُوتَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ مِنَ السَّمَاءِ<sup>٣</sup>.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «حَيْثُمَا دَارَ التَّابُوتُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ دَارَ الْمُلْكِ، وَأَيْنَمَا دَارَ السِّلَاحِ فِينَا دَارَ الْعِلْمِ»<sup>٤</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ مَثَلَ السِّلَاحِ فِينَا مَثَلُ التَّابُوتِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، أَيُّ أَهْلِ بَيْتٍ وَجَدَ التَّابُوتَ عَلَى بَابِهِمْ أَوْ ثَوْرًا ثَبُوتًا، فَمَنْ صَارَ إِلَيْهِ السِّلَاحُ مِمَّا أُوتِيَ الْإِمَامَةُ»<sup>٥</sup>.  
«فِيهِ سَكِينَةٌ» كَائِنَةٌ «مِنْ رَبِّكُمْ» سَمِعَ الْكَاسِمُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَنْ السَّكِينَةِ؟ فَقَالَ: «رِيحٌ تَخْرُجُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَهَا صُورَةٌ كَصُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَرَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَهِيَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، فَأَقْبَلَتْ تَدُورُ حَوْلَ أَرْكَانِ الْبَيْتِ وَهِيَ يَضَعُ الْأَسَاطِينَ»<sup>٦</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: عَنْهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، قِيلَ: وَمَا السَّكِينَةُ؟ قَالَ: «رُوحُ اللَّهِ يَتَكَلَّمُ، كَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ

٣. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.

٢. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.

١. تفسير القمي ١: ٨٢.

٦. قرب الإسناد: ٣٧٣/١٣٢٧.

٥. الكافي ١: ١٨٥.

٤. الكافي ١: ٢/١٨٥.

كَلِمَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ بَيَانَ مَا يَرِيدُونَ<sup>١</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ السُّكَيْنَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ رِيحٌ هَفَافَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، لَهَا وَجَةٌ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ»<sup>٢</sup>.

«و» فِيهِ «بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ» عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام: «أَنَّ الْبَقِيَّةَ عَصَا مُوسَىٰ وَرُضَاضُ<sup>٣</sup> الْأَلْوَابِ»<sup>٤</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ الرِّضَا عليه السلام، قَالَ: «كَانَ فِيهِ أَلْوَابٌ مُوسَىٰ الَّتِي تَكْسَرُ، وَالطُّسْتُ الَّتِي يُغْسَلُ فِيهَا قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>٥</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ: «الْبَقِيَّةُ دُرِّيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>٦</sup> وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الدَّرِّيَّةِ، مَا بَقِيَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ كَيْفِيَّةَ إِيْتَانِ التَّابُوتِ بِقَوْلِهِ: «تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ».

عَنْ (الْكَافِي): عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام: «فَجَاءَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُهُ»<sup>٧</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَحْمِلُهُ نُورَانٌ وَالْمَلَائِكَةُ تَشُوقُهُمَا»<sup>٨</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَمْ تَحْمِلْهُ الْمَلَائِكَةُ وَلَا الثَّورَانِ، بَلْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَحْفَظُونَهُ»<sup>٩</sup>.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ» الْمَذْكُورِ مِنْ إِيْتَانِ التَّابُوتِ فِي مَنْزِلٍ طَالَوْتَ بِحَمْلِ الْمَلَائِكَةِ «لَايَةً» عَظِيمَةً، وَمُعْجِزَةً بَاهِرَةً «لَكُمْ» يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بِشَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ.

ثُمَّ لَمَّا أَدْعَاوَاهُ بِالْمَلِكِ جَهَّزَ الْجَيْشَ لِقِتَالِ الْعَمَالِقَةِ. رُوي أَنَّ طَالُوتَ قَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ مَعِيَ رَجُلٌ بَيْنِي وَبَيْنَ بَنَاءِ لَمْ يَفْرَغْ مِنْهُ، وَلَا تَاجِرٌ مُشْتَغِلٌ بِالتَّجَارَةِ، وَلَا مُتَزَوِّجٌ بِامْرَأَةٍ لَمْ يَتَنَ عَلَيْهَا، وَلَا أَبْغِي إِلَّا الشَّابَّ النَّشِيطَ الْفَارِغَ. فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِمَّنْ اخْتَارَ ثَمَانُونَ أَلْفًا<sup>١٠</sup>.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

١. معاني الأخبار: ٢/٢٨٥.

٢. مجمع البيان ٢: ٦١٤.

٣. في النسخة: رِضَاضٌ، وَالرِّضَاضُ: هُوَ فُتَاتُ الشَّيْءِ وَقَطْعُهُ الْمَتَقِيَّةُ بَعْدَ تَحْطَمِهِ وَتَكْسَرُهُ، أَمَّا الرِّضَاضُ: فَهُوَ الصَّغِيرُ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْحَصَى.

٤. مجمع البيان ٢: ٦١٤ عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام.

٥. تفسير العباسي ١: ٥٤٦/٢٥٣.

٦. تفسير العباسي ١: ٥٤٥/٢٥٢.

٧. الكافي ٨: ٤٩٨/٣١٦.

٨. تفسير الرازي ٦: ١٧٦.

٩. تفسير الرازي ٦: ١٧٩.

وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ  
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ  
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ  
مَعَ الصَّابِرِينَ [٢٤٩]

﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ وفارَق وجَاوَز ﴿طَالُوتَ﴾ البلد، وقيل: هُوَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ مُصَاحِبًا ﴿بِالْجُنُودِ﴾  
والعسََاكِر. قيل: كانوا ثَمَانِينَ أَلْفًا، وقيل: سبعون أَلْفًا، وقيل: ثَلَاثُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ.

في بيان كيفية ﴿قَالَ﴾ طَالُوتُ عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ النَّبِيِّ. وَرُوي أَنَّ الْقَائِلَ لِلْجُنُودِ هُوَ النَّبِيُّ<sup>١</sup>  
ابْتِلَاءً بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ وَمُتَحَنِّكُمْ ﴿بَنَهَرٍ﴾ حَتَّى يَغْلِمَ الْمُجَاهِدِينَ وَالصَّابِرِينَ.

عن ابن عباس: أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ<sup>٢</sup>.

وقيل: كَانَ الْوَقْتُ قَيْظًا، فَسَلَكُوا مَقَازَةً فَسَالُوا أَنْ يُجْرِيَ اللَّهُ لَهُمْ نَهْرًا فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِمَا  
أَفْتَرَحْتُمُوهُ مِنَ النَّهْرِ<sup>٣</sup> ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ وَمِنْ أَصْحَابِي الْمُطِيعِينَ ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ وَلَمْ  
يَذُقْهُ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وَمِنْ أَصْحَابِي، وَأَهْلَ طَاعَتِي ﴿إِلَّا مَنْ أَغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ مِنَ الْمَاءِ ﴿بِيَدِهِ﴾ فَلَا بَأْسَ  
بِشُرْبِ غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ، فَاخْتَصَّ الْمَنْعُ بِشُرْبِ يَكُونُ بَوْضَعُ الْمَمِّ فِي مَاءِ النَّهْرِ.

رُوي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتِ الْغُرْفَةُ يَشْرَبُ مِنْهَا هُوَ وَدَوَابُّهُ وَخَدَمُهُ، وَيَحْمِلُ مِنْهَا الْخَبِيرُ، وَلَعَلَّهُ  
لِبَرَكَةِ اللَّهِ بِإِعْجَازِ النَّبِيِّ.

فَلَمَّا انْتَهَى الْجُنُودُ إِلَى النَّهْرِ وَابْتَلَوْا بِهِ ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ كَالدَّوَابِّ، وَلَمْ يَقْنَعُوا بِالْغُرْفَةِ فَضَلَّ عَنْ أَنْ لَا  
يَشْرَبُوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

وعن الرضا عليه السلام في رواية: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ [بِنَهَرٍ] فِي هَذِهِ الْمَقَازَةِ،  
فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي جِزْبَ اللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ فَهُوَ مِنْ جِزْبِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ أَغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ.  
فَلَمَّا وَرَدُوا النَّهْرَ أَطْلَقَ اللَّهُ لَهُمْ أَنْ يَغْتَرِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ غُرْفَةً [بِيَدِهِ]، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.  
فَالَّذِينَ شَرِبُوا مِنْهُ كَانُوا سِتِينَ أَلْفًا»<sup>٥</sup>.

وَيُقَالُ أُنْ مَنْ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الْغُرْفَةِ غَلَبَ عَطَشُهُ، وَاسْوَدَّتْ شَفَتُهُ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَمْضِيَ، وَبَقِيَ عَلَى

١. تفسير القمي ١: ٨٣، تفسير الرازي ٦: ١٧٩. ٢. الدر المنثور ١: ٧٥٩. ٣. تفسير الرازي ٦: ١٨٠.

٤. تفسير الرازي ٦: ١٨٢. ٥. تفسير القمي ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٢٥٦.

شَطَّ النَّهْر. فَغَرَفَ طَالُوتُ الْمُوَافِقَ مِنَ الْمُخَالِفِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا مَثَلُ هَذَا النَّهْرِ، فَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْكَفَافِ لَا يَسْبَحْ إِلَّا بِثَرَابِ الْقَبْرِ.

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «الْقَلِيلُ - الَّذِينَ لَمْ يَشْرَبُوا، وَلَمْ يَغْتَرَفُوا - ثَلَاثُمِائَةِ وَثَلَاثَةِ عَشَرَ رَجُلًا»<sup>١</sup>.  
**«فَلَمَّا جَاوَزَهُ»** أَي عَبَرَ النَّهْرَ **«هُوَ»** أَي طَالُوتُ **«وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ»** رَأَوْا قُوَّةَ جَالُوتَ وَكَثْرَةَ جُنُودِهِ، خَافُوا **«وَقَالُوا»** عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام، فِي رِوَايَةٍ: «قَالَ الَّذِينَ شَرَبُوا مِنْهُ»<sup>٢</sup>: **«لَا طَاقَةَ»** وَلَا قُوَّةَ **«لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ»** وَبِمُحَارَبَتِهِمْ.

قِيلَ: كَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ، كُلُّهُمْ شَاكِي السَّلَاحِ<sup>٣</sup>، وَكَانَ جَالُوتُ رَأْسَ الْعِمَالِقَةِ وَمَلِكِهِمْ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ وَأَقْوَاهِمَ، وَكَانَ يَهْزِمُ الْجُيُوشَ وَحْدَهُ.

**«قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ»** وَيَتَّقُونَ بِالْمَعَادِ وَلِقَاءِ كَرَامَةِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ، وَلَمْ يُلْهِهِمْ حُبُّ الدُّنْيَا وَلذَاتِهَا، لِلْمَرْغُوبِينَ مِنْ كَثْرَةِ عِدَّةِ الْعَدُوِّ وَشَوْكَتِهِمْ: اثْبَتُوا فِي الْقِتَالِ وَلَا تَنْظُرُوا كَثْرَةَ الْعَدُوِّ فَإِنَّهُ **«كَمْ مِنْ فِئَةٍ»** وَفِرْقَةٍ **«قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ»** وَهَزَمَتْ **«فِئَةً»** وَجَمَاعَةً **«كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ»** وَإِرَادَتِهِ وَتَضَرَّتْهُ **«وَاللَّهُ»** بِتَأْيِيدِهِ وَمُعُونَتِهِ **«مَعَ الصَّابِرِينَ»** فِي طَاعَتِهِ وَقِتَالِ عَدُوِّهِ، فَلَا عِزَّةَ بِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ **«إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ»**<sup>٤</sup>

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَنْفِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَفْئِدَنَا  
 وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ \* فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ  
 اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ  
 لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [٢٥٠ و ٢٥١]

**«وَلَمَّا بَرَزُوا»** فِي مَيْدَانِ الْحَرْبِ **«لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ»** وَتَهَيَّأُوا لِقَاتِهِمْ مَعَ مَا رَأَوْا مِنْ قُوَّةِ عَدَدِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ، تَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الْإِعَانَةِ وَالنُّصْرَةِ **«قَالُوا»**<sup>٥</sup> **«رَبَّنَا»** وَيَا مَنْ بِيَدِهِ تَدْبِيرُ أُمُورِنَا عَلَى وَفْقِ صَلَاحِنَا **«أَنْفِغْ»** وَاصْبَبْ **«عَلَيْنَا صَبْرًا»** فِي مُنَازَلَتِهِمْ، وَأَعْطِنَا

١. تفسير القمي ١: ٨٣. ٢. تفسير القمي ١: ٨٣.

٣. تفسير روح البيان ١: ٣٨٨، وَرَجُلٌ شَاكِي السَّلَاحِ: نَامُ السَّلَاحِ كَامِلُ الاسْتِعْدَادِ. ٤. آل عمران: ١٦٠/٣.

٥. فِي النُّسخَةِ: بِقَوْلِهِمْ.



قُوَّةَ تَحْمِلُ الْبَلَايَا وَالْمَكَارِهَ وَالْآلَامَ فِي مَقَاتِلِهِمْ ﴿وَوَيْتَتْ أَفْدَانَنَا﴾ فِي مُرَاوَلَةِ الرُّثَالِ، وَمُعَرَّكَةِ الْقِتَالِ ﴿وَأَنْصُرْنَا﴾ بِاعَانَتِكَ وَتَأْيِيدِكَ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يَلْقَوْنَ لِرَحْمَتِكَ وَرَأْفَتِكَ. فَحَقَّقَ اللَّهُ ظَنَّهُمْ، وَأَجَابَ لَهُمْ دَعْوَتَهُمْ ﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ وَفَرَّقُوا جَمْعَهُمْ وَكَسَرُوا شُكْرَهُمْ ﴿يَا ذُنَّ اللَّهِ﴾ وَنَضَرَهُ.

نَضَرَهُ قَتَلَ جَالُوتَ عَنْ الْقَمِي، عَنِ الرُّضَائِيِّ: «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِ: أَنْ جَالُوتَ يَقْتُلُهُ مَنْ يَسْتَوِي عَلَيْهِ وَانْهَزَامَ عَسْكَرُهُ دِرْعَ مُوسَى عَلَيْهِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ لَؤَيَ بْنِ يَعْقُوبَ، اسْمُهُ دَاوُدُ بْنُ آسَى، وَكَانَ آسَى

رَاعِيًا، وَكَانَ لَهُ عَشْرَةٌ بَيْنَ أَصْغَرِهِمْ دَاوُدَ. فَلَمَّا بُعِثَ طَالُوتُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَمَعَهُمْ لِحَرْبِ جَالُوتَ، بَعَثَ إِلَى آسَى أَنْ احْضِرْ وَأَحْضِرْ وَلَدَكَ، فَلَمَّا حَضَرُوا دَعَا وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ وَلَدِهِ، فَأَلْبَسَهُ الدَّرْعَ - دِرْعَ مُوسَى - فَمِنْهُمْ مَنْ طَالَثَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَصُرَتْ عَنْهُ، فَقَالَ لآسَى: هَلْ خَلَفْتُ مِنْ وَلَدِكَ أَحَدًا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَصْغَرَهُمْ تَرَكْتُهُ فِي الْعَتَمِ رَاعِيًا. فَبِعِثَ إِلَيْهِ [ابْنَهُ] فَجَاءَ بِهِ، فَلَمَّا دُعِيَ أَقْبَلَ وَمَعَهُ مِقْلَاعٌ<sup>١</sup>. قَالَ: فَنَادَتْهُ ثَلَاثُ صَخْرَاتٍ فِي طَرِيقِهِ، فَقَالَتْ: يَا دَاوُدُ خُذْنَا، فَأَخْذُهَا فِي مَخْلَاتِهِ<sup>٢</sup>، وَكَانَ شَدِيدَ الْبَطْشِ قَوِيًّا فِي بَدَنِهِ شَجَاعًا، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى طَالُوتَ أَلْبَسَهُ دِرْعَ مُوسَى، فَاسْتَوَتْ عَلَيْهِ<sup>٣</sup>.

وَفِي رِوَايَةِ الْعِيَّاشِيِّ: «أَنَّ دَاوُدَ لَمَّا دَخَلَ الْعَسْكَرَ، سَمِعَهُمْ يَتَعَزَّوْنَ أَمْرَ جَالُوتَ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا تُعَظِّمُونَ مِنْ أَمْرِهِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ عَايَنْتُهُ لَأَقْتُلَنَّ. فَحَدَّثُوا بِخَبَرِهِ حَتَّى أَدْخَلَ عَلَى طَالُوتَ، فَقَالَ: يَا فَتَى، وَمَا عِنْدَكَ مِنَ الْقُوَّةِ، وَمَا حَزَبْتَ مِنْ نَفْسِكَ؟ قَالَ: كَانَ الْأَسَدُ يَغْدُو عَلَى الشَّاةِ مِنْ غَنَمِي فَأَذْرِكُهُ، فَأَخْذُ بَرَأْسِهِ فَأَفُكُّ لَحْيَتَهُ<sup>٤</sup> مِنْهَا، فَأَخْذُهَا مِنْ فِيهِ. قَالَ: فَقَالَ: اذْخَعْ إِلَيَّ بِدِرْعٍ سَابِغَةٍ<sup>٥</sup>، قَالَ: فَأَتَى بِدِرْعٍ، فَقَدَفَهَا فِي عُنُقِهِ فَنَمَلًا<sup>٦</sup> مِنْهَا. قَالَ: فَقَالَ طَالُوتُ: وَاللَّهِ لَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَهُ بِهِ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحُوا وَارْجَعُوا إِلَى طَالُوتَ، وَالتَقَى النَّاسُ...»<sup>٧</sup>.

وَفِي رِوَايَةِ الْقَمِي: «وَوَقَّفَ دَاوُدَ بِجِذَاءِ جَالُوتَ، وَكَانَ جَالُوتَ عَلَى الْفِيلِ، وَعَلَى رَأْسِهِ النَّجَاجُ، وَفِي جَبْهَتِهِ يَاقُوتَةٌ يَلْمَعُ نُورُهَا، وَجُنُودُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ دَاوُدَ مِنْ تِلْكَ الْحِجَارَةِ حَجَرًا فَرَمَى بِهِ [فِي] مَيْمَنَةِ جَالُوتَ، فَمَرَّ فِي الْهَوَاءِ وَوَقَعَ عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا، وَأَخَذَ حَجَرًا آخَرَ فَرَمَى بِهِ [فِي] مِيسَرَةِ جَالُوتَ فَانْهَزَمُوا، وَرَمَى جَالُوتَ بِحَجَرٍ<sup>٨</sup> فَصَلَّ الْيَاقُوتَةُ فِي جَبْهَتِهِ، وَوَصَلَ إِلَى دِمَاعِهِ، وَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ

١. المِقْلَاعُ: مَا يَرْمَى بِهِ الْحَجَرُ.

٢. تَعَزَّوْنَ الْقَمِي ١: ٨٢، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١: ٢٥٥.

٣. اللَّحْيَانِ: الْعِظْمَانِ اللَّذَانِ فِيهِمَا الْأَسْنَانُ.

٤. سَابِغَةٌ: أَيْ وَسَاعَةٌ. ٥. أَيْ امْتَلَأَتْ بِهِ، وَاسْتَوَتْ عَلَيْهِ فَكَانَتْ بِقَدْرِ حَجْمِهِ.

٦. زَادَ فِي الْمَصْدَرِ: ثَالِثٌ.

٧. تَفْسِيرُ الْعِيَّاشِيِّ ١: ٤٤٥/١٣٤، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ١: ٢٥٦..

ميتاً<sup>١</sup>.

رُوي عن ابن عباس: أَنَّ دَاوُدَ كَانَ رَاعِيًا، وَلَهُ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ مَعَ طَالُوتَ، فَلَمَّا أَبْطَأَ خَبَرَ إِخْوَتَهُ عَلَى أَيْبِهِمْ إِيشَا، أَرْسَلَ ابْنَهُ دَاوُدَ إِلَيْهِمْ لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِهِمْ، فَأَتَاهُمْ وَهُمْ فِي الْمَصَافِّ<sup>٢</sup>، وَبَدَرَ جَالُوتَ الْجَبَّارِ - وَكَانَ مِنْ قَوْمِ عَادٍ - إِلَى الْبِرَازِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، فَقَالَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَوْ كُنْتُمْ عَلَى حَقٍّ لَبَارَزْتَنِي بَعْضُكُمْ. فَقَالَ دَاوُدُ لِإِخْوَتِهِ: أَمَّا فَيْكُمْ مَنْ يَخْرُجُ إِلَى هَذَا الْأَغْلَفِ<sup>٣</sup>؟ فَسَكَتُوا، فَذَهَبَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الصَّفِّ لَيْسَ فِيهَا إِخْوَتُهُ، فَمَرَّ بِهِ طَالُوتُ وَهُوَ يُحَرِّضُ النَّاسَ؛ فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: مَا تَصْنَعُونَ بَعَنَ يَقْتُلُ هَذَا الْأَغْلَفُ؟ فَقَالَ طَالُوتُ: أَنْكِحَ ابْنَتِي وَأَعْطِيَهُ نِصْفَ مُلْكِي، فَقَالَ دَاوُدُ: فَأَنَا خَارِجٌ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَادَتُهُ أَنْ يَقَاتِلَ بِالْمِغْلَاقِ الذَّنْبِ وَالْأَسَدِ فِي الْمَرْعَى، وَكَانَ طَالُوتُ عَارِفًا بِجَلَادَتِهِ. فَلَمَّا هَمَّ دَاوُدُ بِأَنْ يَخْرُجَ إِلَى جَالُوتَ مَرَّ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، فَقُلْنِ: يَا دَاوُدُ، خُذْنَا مَعَكَ، فَفِينَا مَيْتَةٌ جَالُوتَ. ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ إِلَى جَالُوتَ رَمَاهُ فَأَصَابَهُ فِي صَدْرِهِ، وَنَفَذَ الْحَجَرَ فِيهِ<sup>٤</sup> «وَقَتْلَ دَاوُدُ جَالُوتَ» وَكَتَلَ بَعْدَهُ نَاسًا كَثِيرًا، فَهَزَمَ اللَّهُ جُنُودَ جَالُوتَ.

وفي رواية العياشي: «وَقَالَ النَّاسُ: قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ، وَمَلَكَ النَّاسَ حَتَّى لَمْ يَكُنْ يُسَمَّعُ لَطَالُوتَ ذِكْرُ، وَاجْتَمَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى دَاوُدَ»<sup>٥</sup> الخبر.

وفي رواية ابن عباس: فَحَسَدَهُ طَالُوتُ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ مَمْلَكَتِهِ، وَلَمْ يَفِ لَهُ بِوَعْدِهِ، ثُمَّ نَدِمَ فَذَهَبَ يَطْلُبُهُ إِلَى أَنْ قُتِلَ<sup>٦</sup>.

«وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكُ» وَالسُّلْطَنَةُ عَلَى عَامَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاسْتَمَلَكَ جَمِيعَ أَرْضِهِمْ، وَلَمْ يَتَجَمَّعُوا قَبْلَ دَاوُدَ عَلَى مَلِكٍ وَاحِدٍ «وَقَدْ آتَاهُ الْحِكْمَةُ» قِيلَ: هِيَ النُّبُوَّةُ، وَلَمْ يَجْتَمِعِ الْمُلْكُ وَالنُّبُوَّةُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَهُ إِلَّا لَهُ، بَلْ كَانَ الْمُلْكُ فِي سَبْطِ يَهُودَا، وَالنُّبُوَّةُ فِي سَبْطِ لَافِي. وفي رواية: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الرِّبُورَ<sup>٧</sup>.

١. تفسير القمي ١: ٨٣، تفسير الصافي ١: ٢٥٦.

٢. المَصَاف: جَمْعُ مَصَفٍّ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحَرْبِ؛ حَيْثُ يَقِفُ وَيَصْطَفِ الْمَقَانِلُونَ صُفُوفًا مُتَقَابِلَةً مَعَ الْعَدُوِّ.

٣. الْأَغْلَفُ: الَّذِي لَمْ يَخْتَن.

٤. تفسير الرازي ٦: ١٨٨.

٥. تفسير العياشي ١: ٥٤٩/٢٥٥، تفسير الصافي ١: ٢٥٧.

٦. تفسير العياشي ١: ٥٤٩/٢٥٥.

٧. تفسير الرازي ٦: ١٨٨.

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ وفي رواية: علّمه صنعة الحديد، وليته له<sup>١</sup>. وقيل: منطبق الطير والنمل. وقيل: الحكم والقضاء. وقيل: الألحان<sup>٢</sup>. ولا يتعد أن يكون المراد هو الجميع.

ثم بعد بيان منتهى على بني إسرائيل بدفع جالوت وجنوده عنهم وبغيمه عليهم، بين أن هذه النعمة عامة لجميع أهل العالم بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ الْكَفَّارَ﴾ **بِبَعْضٍ** المؤمنين.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أي يدفع الهلاك بالبر عن الفاجر»<sup>٣</sup> الخبر. ولعل المراد أن الله يدفع البلاء ببركة الأخيار عن الفجار، فيسلم ويعيش أهل الفسق والفجور بسبب وجود عباد الصالحين، ولولاهم لمئنت السماوات والأرض تركايتها.

ويحتمل أن يكون المراد: لولا دفع الله الناس بعضهم عن المنكرات؛ ينهي بعضهم **لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ** بمن فيها **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** جميعاً، فيدفع بفضله هذا النحر من الدفع حتى لا يعصمهم الفساد، فيمتنع الكافر بكفره قليلاً، ويربح المؤمن بكسبه جزيلاً.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [٢٥٧]

﴿تِلْكَ﴾ القصص العجيبة الخارقة للعادة **﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾** ودلائل صنعه، وتوجيهه، وحكمته **﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾** وخياً، أو نزلها إليك بتوسط جبرئيل حال كونها مقرونة **﴿بِالْحَقِّ﴾** المطابق للواقع، لا يعتريه شك ولا ريب **﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** فأن تل تلك الآيات على الناس ليختبروا ويهتدوا، وإن أصروا على الكفر، فإنما عليك البلاغ المبين، وفيه إشعار بأنه غني عن الاعتبار بتلك الآيات، فإن الشهود والعيان مغني عن الدليل والبرهان، وإنما عليه تلاوتها على الناس؛ لأن وظيفته الرسالة.

تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتِ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ [٢٥٨]

٢. مجمع البيان ٢: ٦٢١، تفسير روح البيان ١: ٣٩١، تفسير الرازي ٦: ١٨٩.

٣. مجمع البيان ٢: ٦٢١، تفسير الصافي ١: ٢٥٧.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى اخْتِلَافَ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَوُقُوعَ الْقِتَالِ بَيْنَهُمْ، مَعَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا فِي كَمَالِ الْعَظَمَةِ وَعُلُوِّ الْمَقَامِ تَسْلِيَةً لِقَلْبِ حَبِيبِهِ، يَقُولُ: ﴿تِلْكَ جَمَاعَةٌ الرُّسُلُ﴾ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ لِإِصْلَاحِ الْأَرْضِ، وَدَفْعِ الْفَسَادِ، وَهِدَايَةِ الْعِبَادِ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ فِي الْمَقَامَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَمَرْتَبَةِ الرِّسَالَةِ ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ آخَرَ ﴿مِنْهُمْ مَن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ وَشَافَهُ بِالْمُخَاطَبَةِ كَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ فِي لَيْلَةِ الْمِغْرَاجِ وَغَيْرِهَا، وَكَمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كَثِيرَةً، لَا يُقَاسُ بِغَيْرِهِ.

في أفضلية خاتم النبيين ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ولعلَّ التَّرْقِيَّ بَيْنَ التَّفْضِيلِ الْمَذْكُورِ فِي الصَّدْرِ، وَالرَّفْعِ الْمَذْكُورِ هُنَا، أَنَّ الْأَوَّلَ لِبَيَانِ أَفْضَلِيَّةِ بَعْضِ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ، وَتَفَاوُثِ مَرَاتِبِ بَعْضِهِمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى [بَعْضٍ] آخَرَ، وَهَذَا لِبَيَانِ الرَّفْعَةِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ وَنِسْبَةٍ إِلَى بَعْضٍ آخَرَ، كَمَا أَنَّ رِفْعَةَ السُّلْطَانِ رِفْعَةٌ مُطْلَقَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَقِيرِ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ السُّلْطَانَ أَرْفَعَ قَدْرًا مِنَ الْفَقِيرِ الصُّعْلُوكِ، فَإِنَّ رُتْبَةَ الْفَقِيرِ لَيْسَ بِقَابِلٍ أَنْ تَتَعَ [فِي] طَرَفِ النِّسْبَةِ لِرُتْبَةِ السُّلْطَانِ، بِخِلَافِ رُتْبَةِ السُّلْطَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سُلْطَانٍ آخَرَ.

وهذه المَرْتَبَةُ مِنَ الرَّفْعَةِ لَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ، حَيْثُ إِنَّهُ أَوْتِيَ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَلَوْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا فِي زَمَانِهِ ﷺ لَمْ يَسْعَوْا إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِ دِينِهِ. عَنِ (الْعِمِّيْنِ): عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَفْضَلَ مِنِّي، وَلَا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنِّي».

قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ أَفْضَلُ أَمْ جِبْرِيلُ؟»

فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَ أَنْبِيََاءَهُ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ، وَفَضَّلَنِي عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْفَضْلُ بَعْدِي لَكَ يَا عَلِي، وَلِلْأَمَّةِ مِنْ بَعْدِكَ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَخِدَامُنَا، وَخِدَامُ مُحِبِّينَا»<sup>١</sup>. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا فُخِرَ: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَكَانَ النَّبِيُّ قَبْلِي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ أَمَامِي مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُجِلَّتْ لِي الْعَنَانُ وَلَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ فَادْخَرْتُهَا لِأُمَّتِي، فِيهِ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»<sup>٢</sup>.

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي (فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ) عَلَى مَا نَقَلَهُ الْفَخْرُ الرَّازِي مَعَ نِهَايَةِ عَصِيَّتِهِ: أَنَّهُ ظَهَرَ عَلِيٌّ ﷺ مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا سَيِّدُ الْعَرَبِ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَلَسْتَ أَنْتَ سَيِّدُ الْعَرَبِ؟ فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ

العالمين»<sup>١</sup>.

وقال بعض العلماء: إنَّ كُلَّ أمير تكون مؤنته على قَدَر رَعِيَّتِهِ، وَسَعَةِ مَمْلَكَتِهِ. فالأمير الذي تكون إمارته على قَرْيَةٍ تكون مؤنته بقَدَر تلك القرية، وَمَنْ مَلَكَ المَشْرِقَ والمَغْرِبَ احتاج إلى أموالٍ و ذخائرٍ أكثر من أموال أمير القَرْيَةِ، فكَذَلِكَ كُلُّ رَسولٍ يُعْثَ إلى قَوْمِهِ، أُعْطِيَ مِنْ كُنُوزِ التَّوْحِيدِ وَجَواهِرِ المَعْرِفَةِ على قَدَر ما حُمِّلَ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَالْمُرْسَلُ إلى قَوْمِهِ فِي طَرَفٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الأَرْضِ، إِنَّمَا يُعْطَى مِنْ كُنُوزِ الرُّوحَانِيَّةِ بقَدَر ذلك المَوْضِعِ، والمُرْسَلُ إلى كُلِّ أَهْلِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ إِنْهُمْ وَجَنَّهُمْ، لا بَدَّ وَأَنْ يُعْطَى مِنَ المَعْرِفَةِ بقَدَر ما يُمكنه أَنْ يَقومَ بِأُمُورِ أَهْلِ الشَّرْقِ والغَرْبِ.

وإذا كان كذلك، كانت نِسْبَةُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إلى نُبُوَّةِ سائر الأنبياء، كَنِسْبَةِ مُلْكِ كُلِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ إلى مُلْكِ بَعْضِ البلادِ المَخْصُوصَةِ<sup>٢</sup>، فلا جَرَمَ بَلَغَ فِي العِلْمِ والحِكْمَةِ والمَعْرِفَةِ إلى حَدٍّ لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنَ البَشَرِ، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾<sup>٣</sup> وفي الفَصَاحَةِ -إلى أن قال: «أَوْحَيْتُ جَواِمِعَ الكَلِمِ» وصار كتابه مُهْمِيناً على سائر الكُتُبِ، وصارَتْ أُمَّتُهُ خَيْرَ الأُمَمِ<sup>٤</sup>.

ثُمَّ خَصَّ اللهُ تعالى عيسىَ بنَ مَرْيَمَ بالذكرِ، بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ الآياتِ ﴿البَيِّنَاتِ﴾ والمعْجِزاتِ البَاهِراتِ كإِحياءِ الطَّيْرِ المَسْوِيِّ مِنَ الطِّينِ بالتَّنْفِخِ فِيهِ، وإِحياءِ المَوْتَى وَغَيْرِ ذلك، مع كَوْنِ مُعْجِزاتِ موسى ﷺ أَكثَرَ لَتَوْبِيخِ اليَهُودِ على عَدَمِ الإِيمانِ بِهِ، مع وَفُورِ مُعْجِزاتِهِ ﴿وَأَيُّذُنَا؟﴾ وأَعْيَاهُ ﴿بِرُوحِ القُدُسِ﴾ قِيلَ: إِنَّ القُدُسَ هُوَ اللهُ، وَرُوحَهُ جَبْرِئِيلُ.

والإِضافة تَشْرِيفِيَّةٌ، فَإِنَّ اللهُ أَعانَهُ بِجَبْرِئِيلَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ، حَيْثُ قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾<sup>٥</sup> وَفِي وَسَطِهِ حَيْثُ عَلَّمَهُ العُلُومَ، وَفِي آخِرِهِ حَيْثُ إِنَّهُ رَفَعَهُ إلى السَّمَاءِ<sup>٦</sup>.

وهؤلاء النَّبِيُّونَ مع عُلُوِّ شَأْنِهِمْ وإِتِّيانِهِمُ المُعْجِزاتِ البَاهِراتِ، اِخْتَلَفَتْ أُمَّمُهُمْ فِي الكُفْرِ والإِيمانِ حَتَّى تَقَاتَلُوا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ وأَرَادَ -إِرادةُ تَكْوِينِيَّةٍ- تَوافُقَهُمْ على الحَقِّ، وَتَسَالُمُهُمْ عَلَيْهِ، وَتَرَكَ مُقَاتَلَتَهُمْ، لَانْفِصَالَهُمْ عَنِ الإِيمانِ بالقَهَرِ والجَبَرِ ﴿مَا أَقْتَتَلُ﴾ أُمَّمَهُمُ ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وَغِبَّ<sup>٧</sup> وَفَاتِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نُهُمُ﴾ مِنْ قِبَلِ رُسُلِهِمُ، الآياتِ ﴿البَيِّنَاتِ﴾ وشاهدوا المُعْجِزاتِ،

١. تفسير الرازي ٦: ١٩٨.

٢. زاد في تفسير الرازي: ولما كان كذلك لا جرم أُعْطِيَ مِنْ كُنُوزِ الحِكْمَةِ والعِلْمِ ما لَمْ يَعبُط أَحَدٌ قَبْلَهُ.

٣. النجم: ١٠/٥٣. ٤. تفسير الرازي ٦: ١٩٨.

٥. التحريم: ١٢/٦٦.

٦. تفسير الرازي ٦: ٢٠٣. ٧. أي بَعْدَها.

ووضّحت لهم دلائل الحقّ الموجبة لاتفاقهم واجتماعهم على الإيمان بهم، والمؤاودة بينهم. ﴿وَلَكِنْ﴾ مع ذلك - حيث لم يشأ الله قهرهم على التوافق في الإيمان لكونه خلاف الحكمة، وأنتم النظام - ﴿اختلفوا﴾ بأهوائهم الزائغة اختلافاً شديداً فاحشاً ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ بالرّسل وما جاءوا به، وأطاع ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ بهم، وعصى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بعد وقوع الاختلاف بينهم، عدم افتتالهم ﴿مَا أَفْتَتَلُوا﴾ بأن لم يتحرّك منهم عضو للقتال، ولم يحدث في قلوبهم داع إليه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من الخذلان والعصاة عدلاً وفضلاً.

عن (الكافي): عن الباقر عليه السلام: «في هذه الآية دلالة على أن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قد اختلفوا من بعده، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر»<sup>١</sup>.

عن العياشي: سئل أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل: كبر القوم وكبرنا، وهلك القوم وهلكنا، وصلى القوم وصلينا، فعلام نقاتلهم؟ فتلا هذه الآية، ثم قال: «نحن الذين من بعدهم»، وقال: «فنحن الذين آمنّا، وهم الذين كفروا»<sup>٢</sup>.

وفي رواية، قال: «فلما وقع الاختلاف كنّا نحن أولى بالله عز وجلّ وبالنبيّ والكتاب وبالحقّ، فنحن الذين آمنوا، وهم الذين كفروا، وشاء الله تعالى قتالهم بإرادته ومشيئته»<sup>٣</sup>.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِمَّا زَرَفْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِعِّ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٢٥٤]

ثمّ لما كان في الآية السابقة إشعاراً بلزوم القتال بين المؤمنين والكافرين، ومن الواضح أنّه متوقف على صرف المال، أردفه بالمرأى بإتفاقه، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا﴾ في الجهاد، وسائر سبل الخير، شيئاً ﴿مِمَّا زَرَفْنَاكُمْ﴾ وتفضلنا به عليكم إحساناً وكرماً.

وفيه دلالة على أن كلّ ما بأيدي الناس من الأموال، من مَوَاهِبِ الله وإنعامه عليهم وليس لهم شيء منها، وعلى هذا لا ينبغي أن يصعب على أحد إنفاقه، بل عليه أن ينفقه بسهولة وبلا مِنة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ﴾ يوم فاقّة جميع الناس، وغاية استنصالحهم، وهو يوم القيامة، حيث إنه ﴿يَوْمٌ لَا بِنِعِّ﴾ ولا [

١. الكافي ٨: ٣٩٨/٢٧٠، تفسير الصافي ١: ٢٥٨.

٢. تفسير العياشي ١: ٥٥٢/٢٥٦، تفسير الصافي ١: ٢٥٨.

٣. أمالي الطوسي: ٣٣٧/١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٥٨.

تِجَارَةً يَكْتَسِبُ بِهَا ﴿فِيهِ﴾ مَالٌ يُفِيدُ أَحَدًا، ويكون فداءً لِنَفْسٍ ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ وَصَدَاقَةً فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ، بَلِ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ نَافِعَةٌ إِذِ الشُّعَاءُ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَى. والحاصل: أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ أَسْبَابُ جَلْبِ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا مُنَحْصَرَةً بِالْمَعَاوِضَاتِ، وَعُنْدَتِهَا الْبَيْعُ، وَبِالْمَوَادَّةِ بِالصَّلَاتِ وَالْهَدَايَا، وَبِالْمُعَاوَنَةِ لِلغَيْرِ، وَعُنْدَتِهَا الشُّفَاعَةُ، وَالْإِنْسَانُ مُقَطَّعٌ عَنْ جَمِيعِهَا فِي الْآخِرَةِ، فَعَلِيهِ أَنْ يَكْتَسِبَ نَفْعَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا بِالْإِنْفَاقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْإِنْفَاقِ بِذَلِكَ جَمِيعُ مَا كَانَ وَاجِبًا لَهُ بَعَاءُ اللَّهِ مِنَ النَّفْسِ فِي الْجِهَادِ، وَالْقُوَى فِي الطَّاعَاتِ، وَالْعِلْمُ فِي هِدَايَةِ الْخَلْقِ، وَالْمَالُ لِلْفُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْجَاهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ الْعِبَادِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُمْكِنُ صَرْفُهُ فِي تَحْصِيلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ.

﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بَنَزَكَ الطَّاعَةَ وَعَدَمَ الْإِنْفَاقِ ﴿هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلِبُلُوغِهِمْ فِي هَذَا الْوَصْفِ غَايَتُهُ، كَأَنَّ الْمُتَصَفِّ بِهَذَا الْوَصْفِ صَارَ مُنَحْصِرًا بِهِمْ، لَا يَشْرِكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ.

وقيل: المراد مِنَ الْكَافِرِينَ الْمُؤْمِنُونَ التَّارِكُونَ لِلزَّكَاةِ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِالْكَافِرِينَ لِلإِشْعَارِ بِأَنْ تَرُكَ الزَّكَاةَ بِمَنْزِلَةِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ. وَقَالَ بَعْضُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ الظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ<sup>١</sup>.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [٢٥٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا ذَكَرَ جُمْلَةً مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ، عَادَ إِلَى بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَصِفَاتِهِ الْكَامِلَةِ الْجَلَالِيَّةِ، لِيَحْصُلَ لِلْقُلُوبِ نُورٌ وَنَشَاطٌ، وَلِلصُّدُورِ انْشِرَاحٌ وَانْبِسَاطٌ، بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ﴾ وَفِي ذِكْرِ اسْمِ الْجَلَالَةِ أَوَّلًا إِنْشَارَةً إِلَى التَّوْحِيدِ الذَّاتِيِّ، لِإِشْعَارِ ذِكْرِهِ بَانْفِرَادِهِ بِأَنَّ الْمَوْجُودَ الْقَابِلَ لِلذِّكْرِ هُوَ الذَّاتُ الْمُتَقَدِّسَةُ، وَمَا سِوَاهُ عَدَمٌ مَحْضٍ وَلَيْسَ صَرْفٌ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾<sup>٢</sup> الْآيَةَ.

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى التَّوْحِيدِ الصِّفَاتِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ﴾ وَلَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ بِذَاتِهِ عِبُودِيَّةَ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ

﴿إِلَّا هُوَ﴾ وخده، لا شريك له في الألوهية، وفيه تنزيهه من جميع النقص.

ثم بعد إثبات الصفات الجلالية إجمالاً، أثبت له الصفات الجمالية بذكر الصفة الجامعة لها، وهي ﴿الْحَيُّ﴾ قيل في معناه: الدائم، الباقي، الفعال، المريد. وقيل: إنه المدرك بذاته، والقادر بإرادته.

و﴿الْقَيُّومُ﴾ وهو المتقوم بذاته، المتقوم لكل ما عداه في ماهيته ووجوده، والعالم بتدبير جميع الخلق وحفظهم، فبدل هذا الوصف على كونه ذاته المقدسة قديمة، أزلية، دائمة، غنية، قادرة، عالمة. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لما كان يوم بدر قاتلت، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظر ماذا يصنع - قال - فجنثت وهو ساجد، يقول: يا حي يا قيوم؛ لا يزيد على ذلك، ثم رجعت إلى القتال، ثم جنت وهو يقول ذلك، فلا أزال أذهب وأرجع وأنظر إليه، وكان لا يزيد على ذلك، إلى أن فتح الله له»<sup>١</sup>. وقال بعض: إنه الاسم الأعظم<sup>٢</sup>.

روي عن ابن عباس أنه كان يقول: أعظم أسماء الله الحي القيوم<sup>٣</sup>.

وثقل أن عيسى عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى يقول: يا حي يا قيوم<sup>٤</sup>.

وقيل: دعاء من خاف الغرق في البحر: يا حي يا قيوم<sup>٥</sup>.

ثم قرر تعالى صفة القيومية بذكر لازمها، بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ ولا تغتر به ﴿سِئَةً﴾ وقتور، أو نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ قيل: هو كناية عن عدم غفلته عن تدبير الخلق<sup>٦</sup>، كما أنه يقال لمن غفل عن شيء وضيعه: إنك وسنان نائم.

ثم أكد قيومته، واحتج على تفرد بالتدبير بأن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إذ هو خالق جميع الممكنات ومبدعها، فكلها ملكه وتحت قدرته وسلطانه، ليس لغيره في عوالم الوجود نصرف ولا حكم ولا نفوذ إرادة.

ثم لما كانت قرينش يعبدون الأصنام بزعم أنها شفعاء عند الله، عظم كبريائه، وأثبت توحيده في العبادات، وأنكر عليهم اعتقاد كونهم شفعاء بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ في شيء من الأشياء وأمر من الأمور ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وإجازته ورضاه، ومن الواضح أنه لا إذن إلا لمن له كرامة لديه، ومقام محمود عنده، كالنبي وخلفائه وصلحاء أمته، دون الأصنام والكفار.

٣. تفسير الرازي ٧: ٣.

٦. تفسير الرازي ٧: ٦.

١. تفسير الرازي ٧: ٣. ٢. تفسير روح البيان ١: ٤٠٠.

٤. تفسير الرازي ٦: ١٧٦. تفسير روح البيان ١: ٤٠٠.



عن النبي ﷺ، قال: «أتاني آت [من عند ربي] فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة»<sup>١</sup>.

ثم بين سعة علمه، وقصور غيره عن معرفة شيء بغير إفاضة منه بقوله: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» قيل: المراد ما كان قبلهم في الوجود، ومن قوله: «وَمَا خَلْفَهُمْ» ما لم يكن بعد.

وهو مروى عن الرضا عليه السلام<sup>٢</sup>، وقيل: «ما بين أيديهم» أي الآخرة: لأنهم يقدمون عليها «وَمَا خَلْفَهُمْ» أي الدنيا: لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم<sup>٣</sup>.

«وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ» ولا يطلعون على جزء من مغلوماته «إِلَّا بِمَا شَاءَ» أن يعلمه غيره، ويطلع عليه.

عن القمي عليه السلام: «إلا بما يوحى إليهم»<sup>٤</sup>. وفيه دلالة واضحة على أن جميع العلوم بإفاضة تعالى، ولولا إفاضة لم يعلم أحد شيئاً حتى نفسه.

ثم أوضح سبحانه سعة ملكه، وعظمة سلطانه، وكمال إحاطته وعلمه بقوله: «وَسِعَ» وأحاط «كُرْسِيُّهُ» وهو اسم للسماء، الذي دون العرش، وفوق سائر الموجودات «السَّمَاوَاتِ» وما فيها «وَالْأَرْضِ» وما عليها. فعليه يكون الكرسي محيطاً بجميع الموجودات سوى العرش، وإنما سميت تلك السماء باسم الكرسي تشبيهاً له بمقر سلطنته.

وعن العياشي، عنه عليه السلام: «أنه سُئِلَ: إن السَّمَاوَاتِ والأرضَ وَسِعَ الكرسي، أم الكرسي وَسِعَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ؟ فقال: «إِنْ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْكُرْسِيِّ»<sup>٥</sup>.

وعن القمي عليه السلام: «أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام سئل عن هذه الآية، فقال: «السَّمَاوَاتِ والأرضَ وما فيهما في جَوْفِ الْكُرْسِيِّ، وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله»<sup>٦</sup>.

وفي الحديث النبوي: «ليس<sup>٧</sup> السَّمَاوَاتِ السَّنْع، والأرضون السَّنْع مع<sup>٨</sup> الكرسي إلا كحَفَظَةٍ مُلْقَاةٍ فِي فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَفَظَةِ»<sup>٩</sup>.

١. تفسير روح البيان ١: ٤٠٢.

٢. تفسير القمي ١: ٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٥٩.

٣. تفسير الرازي ٧: ١٠. ٤. تفسير القمي ١: ٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٥٩.

٥. تفسير العياشي ١: ٥٥٨/٥٥٨، تفسير الصافي ١: ٢٦٠.

٦. تفسير القمي ١: ٨٥، تفسير الصافي ١: ٢٦٠. ٧. في تفسير روح البيان: ما.

٨. في تفسير روح البيان: من. ٩. تفسير روح البيان ١: ٤٠٤.

عن (التوحيد): عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عَنِ الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ مَا هُمَا؟ فَقَالَ: «الْعَرْشُ فِي وَجْهِهُ هُوَ جُحْمَةُ الْخَلْقِ، وَالْكَرْسِيُّ عِزُّهُ. وَفِي وَجْهِ [آخِر] الْعَرْشِ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَحُجَجَهُ، وَالْكَرْسِيُّ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ»<sup>١</sup>.

ثُمَّ بَيَّنَّ شُجْبَانَهُ كَمَا لَقَدْ رَتَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَتُودُّهُ﴾ وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ إِقَامَةُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ﴿حِفْظُهُمَا﴾ عَنِ الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ كَمَالَ تَعَالِيهِ وَعَظَمَتَهُ بِعَدِّ ذِكْرِ تِلْكَ الصِّفَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بِذَاتِهِ عَنِ الْأُنْدَادِ، وَبِصِفَاتِهِ عَنِ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ الْمُتَعَالِي بِالْقَدْرِ وَالشَّانِ عَنِ جَمِيعِ مَا سِوَاهُ، وَهُوَ «الْعَظِيمُ» بِالْمَهَابَةِ وَالْقَهْرِ وَالْكَِبَرِيَاءِ، تَرْتَعِدُ مِنْ خَشْيَتِهِ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ.

فِي بَيَانِ وَجْهِ فَضِيلَةٍ ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ آيَةُ الْكَرِيمَةِ حَاطِيَةً لَجَمِيعِ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ، مُتَضَمِّنَةً لَأَمْهَاتِ مَسَائِلِ آيَةِ الْكَرْسِيِّ عَلَى الْغُلُومِ الزَّيْنَانِيَةِ - لَكُونِهَا نَاطِقَةً بِوُجُودِهِ تَعَالَى وَتَقَرُّدِهِ، وَوُجُوبِ ذَاتِهِ وَحَيَاتِهِ، وَكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَتَنَزُّهِهِ عَنِ التَّحَيُّزِ وَالْحُلُولِ وَالتَّغْيِيرِ وَالْفُتُورِ، وَكَوْنِهِ مُوَجِّدًا لَجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ قَائِمًا بِتَدْبِيرِهَا، وَكَوْنِهِ مَالِكُ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ، وَمُبْدِعُ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ، ذَا الْبَطْشِ الشَّدِيدِ، لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذْنُ لَهُ، عَالِمًا بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ جَلِيلًا وَخَفِيًّا، وَاسِعُ الْمُلْكِ وَالْقُدْرَةِ، وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ شَأْنٌ، وَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنِ شَأْنٍ، مُتَعَالِيًا عَمَّا تَنَالَهُ الْأَوْهَامُ، عَظِيمًا لَا تُدْرِكُهُ الْعُقُولُ وَالْأَفْهَامُ - كَانَتْ لَهَا فَضِيلَةٌ فَائِقَةٌ، وَعَظْمَةٌ كَامِلَةٌ عَلَى سَائِرِ الْآيَاتِ.

كَمَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ آيَةُ الْكَرْسِيِّ، مَنْ قَرَأَهَا بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَكْتُبُ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَيَمْحُو مِنْ سَيِّئَاتِهِ إِلَى الْغَدِّ مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ»<sup>٢</sup>.

وَرَوَى كَثِيرٌ مِنَ الْعَامَّةِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ تَذَاكُرُ الصَّحَابَةِ أَفْضَلُ مَا فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: «أَيُّنَ أَنْتُمْ مِنْ آيَةِ الْكَرْسِيِّ؟»<sup>٣</sup>.

ثُمَّ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَلِيُّ، سَيِّدُ الْبَشَرِ آدَمُ، وَسَيِّدُ الْعَرَبِ مُحَمَّدٌ وَلَا فَخْرَ» إِلَى أَنْ قَالَ: «وَسَيِّدُ الْكَلَامِ الْقُرْآنُ، وَسَيِّدُ الْقُرْآنِ الْبَقْرَةُ، وَسَيِّدُ الْبَقْرَةِ آيَةُ الْكَرْسِيِّ»<sup>٤</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، عَنْهُ عليه السلام: «يَا عَلِيُّ، عَلِمَهَا وَلَدُكَ وَأَهْلُكَ وَجِيرَانُكَ، فَمَا نَزَلَتْ آيَةُ أَعْظَمَ مِنْهَا»<sup>٥</sup>.

١. معاني الأخبار: ١/٢٩، تفسير الصافي: ١/٢٦٠. ٢. تفسير أبي السعود: ١/٢٤٩.

٣. تفسير الرازي: ٧/٣. ٤. تفسير روح البيان: ١/٤٠٦.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ  
فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٥٦]

ثم أنه بعد ما بين الله تعالى أصول المعارف الحقّة - من تفرّده بذاته وتعالى به بالشؤون الجليّة الجَميلة التي تحكّم بها العقول السليمة، وجُملة من الأحكام التي توافّق العادات والحكّم الكاملة، وكان فيها الدلالة الواضحة على صحّة دين الإسلام، بحيث لم يكن لأحد مجال الشك والترديد فيه - بين أنه لا عُدْر في الإقامة على الشّرك وعدم قبول الإسلام بقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي﴾ **﴿الدِّينِ﴾** الغريم الذي جاء به محمد ﷺ، ولا مصداق لمفهومه، حيث إنه بالأدلة العقليّة والآيات الباهرة: **﴿قَدْ تَبَيَّنَ﴾** واتّضح **﴿الرُّشْدُ﴾** وسبيل الحقّ، وهو ملة التوحيد ودين الإسلام، وتميّز **﴿مِنَ الْغَيِّ﴾** وطريق الضلال، وهو مذهب الوثنيّة، وسائر الأديان الباطلة.

إن قيل: في تشريع الجهاد إكراه الكفار، فكيف يُنفى مصداقه؟

قلنا: ليس الإكراه إلزام الغير بما لا يرى فيه صلاحاً وخيراً، وبعد وضوح الحقّ يكون الامتناع عن قبوله عناداً ولجاجاً، فيكون قتل المعاندين الجاحدين عقوبة له كسائر الحدود المشروحة لا إكراهاً على قبول الدّين، فالإسلام للكافر ثوبة من تلك المعصية.

قيل: إن الآية نزلت في المجوس، وأهل الكتاب فإنهم لا يكرهون على الإسلام، بل تُقبل منهم الجزية.

وفيه: أنه لا يندفع به الإشكال، لوّضح صدق الإكراه عند الإلزام بأحد الأمرين تَخييراً، مع أن الإكراه على الإسلام يتحقّق بتوعّد المكرّه وتخييره بين القتل وبذل المال مع الصغار.

رُوي أنه كان لأنصاري من بني سالم بن عوف ابنان، قد تنصرا قبل مبعثه ﷺ، ثم قديما المدينة فالزّهمما أبوهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تُسليما، فأبيا، فاخصّصوا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت، فخلّاهما<sup>١</sup>.

أقول: هذا محمول على ما قبل تشريع الجزية على أهل الكتاب، ويمكن أن يُراد بالدّين التشييع والولاية.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ ويعرض عن كل معبود غير الله، وكل مُطغٍ عن طاعة الله من الشياطين والأصنام ومردة الجن والإنس وأئمة الضلال.

وعن القمي: هم الذين غصبوا آل محمد حقهم<sup>١</sup>.

﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً صادقاً. ومن المعلوم أن الإيمان الحقيقي به سبحانه مُستلزم للإيمان بكتبه ورُسله وحججه وأحكامه، والعمل بها، وفي تقديم الكفر بالطَّاغُوت على الإيمان بالله إشعاراً بتقدم التخليه على التحلية والتبري على التولي ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ وبالعقيدة الوثائقية ﴿بِالْعَزْوَةِ الْوُثْقَى﴾ والحلقة الوثيقة التي ﴿لَا انْقِصَامَ﴾ ولا انقطاع ﴿لَهَا﴾ أبداً.

وكما أن المُتمسك بالحلقة الوثيقة، والخبيل المُحكَم مأمون من التردّي في البئر، أو الغرق في البحر، كذلك المُلازم للعقائد الحقّة من التوحيد والرّسالة والولاية مأمون من التردّي في جَبّ الهوى وبحر الفتن، وأمواج الشّهوات في الدُّنيا، وفي نار جهنّم في الآخرة.

عن النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِالْعَزْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْقِصَامَ لَهَا، فَلْيَتَمَسَّكْ بِوَلَايَةِ أَخِي وَوَصِيِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَنْ أَحَبَّهُ [وَتَوَلَّاهُ]، وَلَا يَنْجُو مَنْ أَبْغَضَهُ وَعَادَاهُ»<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «هِيَ مَوْدَّتُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»<sup>٣</sup>.

ثم وَعَدَ الله المؤمنين وأوعَدَ الكافرين بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقال المؤمنين والكافرين من إظهار الإيمان والكفر ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم وقلوبهم من العقائد الحقّة والباطلة، والنّيّات الحسنة والسيّئة، ومن حُبّ الله وبُغضه، وولاية رُسوله وأوليائه ومُعاداتهم، فيجزي كلّاً على وفق قَوْلِهِ وَعَقْد قَلْبِهِ وَعَمَلِهِ. وفيه غاية التّغريب إلى الإيمان والطّاعة، والتّرهيب من الكفر والمَعْصية.

وعن ابن عباس عليه السلام، قال في تفسيره: كان رَسولُ الله ﷺ يُحِبُّ إِسْلَامَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ ذَلِكَ سِرّاً وَعَلَانِيَةً. فمعنى قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يُريد: لِدَعَائِكَ يَا مُحَمَّدَ بِحِرْصِكَ عَلَيْهِ واجتهادك<sup>٤</sup>.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمْ

١. تفسير القمي ١: ٨٤، تفسير الصافي ١: ٢٦١. ٢. معاني الأخبار: ١/٣٦٨، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.

٣. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٣، تفسير الصافي ١: ٢٦٢. ٤. تفسير الرازي ٧: ١٧.

## الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ التُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ مَنْ فِيهَا خَالِدُونَ [٢٥٧]

ثُمَّ بَالِغُ شَبْحَانِهِ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّزْهِيْبِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى بَلَّغَهُمْ وَإِحْسَانَهُ ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْأَلُ﴾<sup>١</sup> وَمُتَدَبِّرُ أُمُورِ الَّذِينَ أَرَادَ إِيمَانَهُمْ. أَوْ الْمُرَادُ مُجِبُ الَّذِينَ التَّزَمُوا بِالْإِيمَانِ وَنَاصَرَهُمْ.

وَمِنْ تَدْبِيرِهِ لِأُمُورِهِمْ، أَوْ مِنْ ثَمَرَاتِ حُبِّهِ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ: ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾ بِتَوْفِيقِهِ وَتَكْمِيلِ عَقُولِهِمْ ﴿مِنْ الظُّلُمَاتِ﴾ ظُلْمَةُ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ وَالتَّعَاصِي ﴿إِلَى التُّورِ﴾ الَّذِي يُنْعَمُ نُورُ الْإِيمَانِ وَالْإِيقَانِ، وَالطَّاعَةِ وَالْعِلْمِ.

عَنِ الصَّادِقِ، عَنْ أَبَانِهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: «الْمُؤْمِنُ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ التُّورِ: مَذْخَلُهُ تُورٌ، وَمَخْرَجُهُ تُورٌ، وَعِلْمُهُ تُورٌ، وَكَلَامُهُ تُورٌ، وَمَنْظَرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى التُّورِ»<sup>٢</sup>.

وَقَالَ بَعْضُ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثُ طَوَائِفٍ: عَوَامُهُمْ، وَخَوَاصُّهُمْ، وَخَوَاصُّ الْخَوَاصِّ مِنْهُمْ. فَالْعَوَامُ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْهِدَايَةِ، وَالْخَوَاصُّ يُخْرِجُهُمُ مِنَ ظُلُمَاتِ الصِّفَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْجِسْمَانِيَّةِ إِلَى نُورِ الرُّوحَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَخَوَاصُّ الْخَوَاصِّ يُخْرِجُهُمُ مِنَ ظُلُمَاتِ وُجُودِهِمْ إِلَى نُورِ الْفَنَاءِ فِي اللَّهِ، وَكُلُّهَا مِنْ شُؤْنِ رُبُوبِيَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ لَهُمْ<sup>٣</sup>.

﴿وَأُولَئِكَ كَفَرُوا﴾ وَخَبِثَتْ فِطْرَتُهُمْ، وَسَبَقَ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ضَلَالَتُهُمْ، فَيَكِلُهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ «أُولِيَاؤُهُمْ» وَمُتَدَبِّرُ أُمُورِهِمْ «الطَّاغُوتُ» مِنَ الشَّيَاطِينِ وَزُوسَاءِ الضَّلَالِ.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «أُولِيَاؤُهُمُ الطَّوَاغِيتُ»<sup>٤</sup>.

وَعَنِ الْقَمِيِّ عليه السلام: هُمُ الظَّالِمُونَ لِأَلِ مُحَمَّدٍ «أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ» وَهُمْ الَّذِينَ تَبِعُوا مَنْ غَضِبَهُمْ<sup>٥</sup>. وَمِنْ شُؤْنِ وَلَايَتِهِمْ لِأَهْلِ الْكُفْرِ أَنَّهُمْ «يُخْرِجُونَهُمْ» بِوَسَائِسِهِمْ وَتَسْوِيْلَاتِهِمْ وَسَائِرِ وَسَائِلِ الْإِضْلَالِ ﴿مِنْ التُّورِ﴾ الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَقَائِدُ الْحَقَّةُ «إِلَى الظُّلُمَاتِ» الثَّلَاثُ الْمَذْكُورَةُ.

قِيلَ: إِنَّ الْقَضِيَّةَ الْأُولَى نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالنَّبِيِّ، وَالْأُخْرَى فِي قَوْمٍ ارْتَدَّوْا عَنِ الْإِسْلَامِ.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «التُّورُ آلُ مُحَمَّدٍ عليه السلام، وَالظُّلُمَاتُ عَدُوَّهُمْ»<sup>٥</sup>.

١. الخصال: ٢٧٧/٢٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.

٢. الكافي ٨: ٤٣٦/٢٨٩، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.

٣. تفسير العباسي ١: ٥٦٥/٢٦٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.

٤. تفسير روح البيان ١: ٤٠٩.

٥. تفسير القمي ١: ٨٥، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.

وعن ابن أبي يعقوب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخطأ الناس، فيكثر عَجَبِي من أقوام لا يتولونكم، و يتولون فلاناً وفلاناً، لهم أمانةٌ وصِدْقٌ وَوَفَاءٌ، وأقوام يتولونكم ليست لهم تلك الأمانة ولا الوفاء والصِدْق!

قال: فاستوى أبو عبد الله عليه السلام، فأقبل عليّ كالمغضب<sup>١</sup>. ثم قال: «لا دين لمن دَانَ الله بولاية إمامٍ جائرٍ ليس من الله، ولا عَتَبَ على مَنْ دَانَ الله بولاية إمامٍ عادلٍ من الله».

قلت: لا دين لأولئك، ولا عَتَبَ على هؤلاء؟ قال: «نعم، لا دين لأولئك، ولا عَتَبَ على هؤلاء». ثم قال -: «ألا تسمع لقَوْلِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؟﴾ يعني ظُلمات الدُّنْيَا إلى نُورِ التَّوْبَةِ والمَغْفِرَةِ بولايَتهم كُلِّ إمامٍ عادلٍ مِنَ الله عزَّ وجلَّ، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾. إِنَّمَا عَنِي بهذا أَنَّهُمْ كَانُوا على نُورِ الإسلام، فلَمَّا أَن تَوَلَّوْا كُلَّ إمامٍ جائرٍ ليس مِنَ الله، خَرَجُوا بولايَتهم مِنَ نُورِ الإسلام إلى ظُلمات الكُفْرِ، فَأَوْجَبَ اللهُ تعالى لَهُمُ النَّارَ مَعَ الْكُفْرِ»<sup>٢</sup>.

وزاد العياشي بقَدِّ قوله: إلى الظلمات، قال: قلت: أليس الله عَنِي بهذا الكافر<sup>٣</sup> حين قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا؟﴾ قال: فقال: «وأي نُورٍ للكافر وهو كافر به<sup>٤</sup> فأُخْرِجَ منه إلى الظُّلمات؟! إِنَّمَا عَنِي بهذا ...»<sup>٥</sup> إلى آخر الحديث.

﴿أُولَئِكَ﴾ الكافرون بالله ورُسُلِهِ، أو بولاية وَلاَةِ الْحَقِّ ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وَمَلَاذِمُهَا ﴿هُمُ﴾ خَاصَّةٌ ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَا يَكُونُونَ أَبَدًا.

وفي رواية: «فأعداء أمير المؤمنين عليه السلام هُمُ الْخَالِدُونَ فِي النَّارِ، وَإِنْ كَانُوا فِي أَدْيَانِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ»<sup>٦</sup>.

قيل: إِنَّهُ تعالى لَمْ يَثَلْ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ تَعْظِيمًا لِّشَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ وإِشْعَارًا بِأَنَّ الْبَيَانَ<sup>٧</sup> لَا يَفِي بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ<sup>٨</sup>.

١. الكافي ١: ٣٠٧/٣، تفسير الصافي ١: ٢٦٢.

٢. أي بالإسلام.

٣. في الكافي وتفسير الصافي: كالغضبان.

٤. في تفسير العياشي: بها الكفار.

٥. تفسير العياشي ١: ٥٦٤/٢٥٩، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.

٦. تفسير العياشي ١: ٥٦٦/٢٦١، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.

٧. زاد في تفسير روح البيان: اللفظي.

ثُمَّ اعْلَمَ أَنَّ الْأَشَاعِرَةَ اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِخَلْقِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَأْثِيرٍ لِإِرَادَةِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ. وَالْمُعْزِلَةَ اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ وَالْعِصْيَانَ مُسْتَبْدَانِ إِلَى الْخَلْقِ اسْتِقْلَالًا، مِنْ غَيْرِ دَخَلِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا، وَكِلَاهُمَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ لَوْضُوحِ اسْتِنَادِ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ إِلَى إِرَادَةِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ وَانْتِهَانِهِمَا بِالتَّسْيِيبِ إِلَى إِرَادَةِ اللَّهِ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى  
الَّذِى يُخِينُ وَيُعِيدُ قَالَ أَنَا أُخِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ  
مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ \* أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي  
هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ  
بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ  
إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا  
لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٢٥٨ و ٢٥٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى اسْتَشْهَدَ عَلَى وِلَايَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوِلَايَةِ الطَّاغُوتِ لِلْكَافِرِينَ بِقِصَّةِ مُحَاجَّةِ إِبْرَاهِيمَ  
وَمِلْكِ زَمَانِهِ حَيْثُ قَالَ مُخَاطَبًا لِنَبِيِّهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قَدْ مَرَّ سَابِقًا أَنَّ فِي هَذَا التَّعْيِيرِ إِشْعَارًا بِإِحَاطَتِهِ  
نَفْسِي مُحَاجَّةَ نَعْرُودِ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي عَالَمِ الْأَشْيَاحِ بِجَمِيعِ وَقَائِعِ هَذَا الْعَالَمِ، وَخُضُورِهِ عِنْدَهَا.  
وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: أَلَمْ يَنْتَهَ عِلْمُكَ الَّذِي يُضَاهِي الرُّبُوبِيَّةَ وَالْعِيَانِ، الْحَاصِلُ بِسَبَبِ

إِخْبَارِنَا، الْمَوْجِبِ لِكَمَالِ الْإِيْقَانِ «إِلَى» نَعْرُودِ بْنِ كَنْعَانَ «الَّذِى حَاجَّ» وَجَادَلَ وَخَاصَمَ  
«إِبْرَاهِيمَ» لِأَدْعَائِهِ الرُّبُوبِيَّةِ لِنَفْسِهِ «فِي» شَأْنِ «رَبِّهِ» وَفِي التَّعْرِيفِ لِعُقُوبَةِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إِضَافَتِهِ  
إِلَيْهِ ﷺ تَشْرِيفَ لَهُ، وَإِذْ بَأْيَيدِهِ بِالْحُجَّةِ. وَكَانَتْ مُحَاصِمَةً نَعْرُودَ لِأَجْلِ «أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ»  
وَالسُّلْطَانَةَ الرَّابِعَةَ الْعَظِيمَةَ فَاعْتَرَجَ بِهَا وَيَطِرُ حَتَّى ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ.

عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّهُ لَمْ يَمْلِكِ الدُّنْيَا إِلَّا أَرْبَعَةً: مُسْلِمَانِ وَكَافِرَانِ، فَالْمُسْلِمَانِ: سُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَينِ،

والكافران: نمرود ويُنْتَصَر، وهو شداد بن عاد الذي بنى إرم في بغض صحاري عدن<sup>١</sup>.  
وعن البرقي، مرفوعاً، ما يقرب منه، إلى قوله: ويُنْتَصَر<sup>٢</sup>.  
ويُثقل: أن نمرود أول من وضع التاج وتجبر، ودعا الناس إلى عبادته<sup>٣</sup>.  
وقيل: أن المراد أنه حاج إبراهيم عليه السلام شكر الله لأجل أن آتاه الملك، على طريقة العكس، كقولك:  
عاديتني لأنني أحسنت إليك.

قيل: إن المحاجة كانت بعد كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام، وقيل إلقائه في النار.  
رؤي من طروق العامة أنه عليه السلام لما كسر الأصنام سجنه نمرود، ثم أخرجه ليحرقه، فقال: من ربك  
الذي تدعوننا إليه؟<sup>٤</sup>

وعن الصادق عليه السلام أنه كان بعد إلقائه في النار<sup>٥</sup>.  
ثم شرح الله المحاجة بقوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ بعد سؤال نمرود عن ربه: ﴿رَبِّي﴾ القادر ﴿الَّذِي يُخَيِّئُ الْمَوْتِ﴾ ﴿وَالْحَيِّ﴾، فاستدل بفعله الذي لا يُشاركه فيه أحد من الخلق. وتقديم الإحياء  
لكون القدرة فيه أظهر.  
فعارضه نمرود و﴿قَالَ﴾ لغاية بلادته، أو للتَمْويه والتلبيس على الناس: ﴿أَنَا﴾ أيضاً ﴿أُحْيِي﴾  
الْمَوْتِ ﴿وَأُمِيتُ﴾ الْحَيِّ.

رؤي أنه دعا برجلين قد حبسهما، فقتل أحدهما، وأطلق الآخر، فقال: قد أحْيَيْتُ هذا وأمْتُ هذا<sup>٦</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام قَالَ لَهُ: أَخِي مَنْ قَتَلْتَهُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا»<sup>٧</sup>.  
ثم أعرض عن جواب معارضة الفايذة، لكون بطلانها من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد،  
وأنى بحجة لا يقدر الأحق على معارضتها بمثل هذا التَمْويه ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عليه السلام: إِنْ كُنْتُ قَادِرًا  
عَلَى مِثْلِ مَقْدُورَاتِ اللَّهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ إِلَى الْمَغْرِبِ قَسْرًا، بمشيئته وقدرته،  
لَوْضُوحِ أَنَّ الْحَرَكَةَ لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِ الْجِسْمِ، وَإِلَّا لَمْ يُوجَدْ جِسْمٌ مُنْفَكًّا عَنِ الْحَرَكَةِ، وَهُوَ خِلَافُ  
الْجَسِّ وَالْوُجْدَانِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّكَ جُزْمِ الشَّمْسِ مَعَ كَمَالِ عَظَمَتِهِ هُوَ خَالِقُهَا، وَلَيْسَ إِلَّا اللَّهُ

١. تفسير روح البيان ١: ٤١٠. ٢. الخصال: ١٣٠/٢٥٥، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤١٠، وفيه: وتجبر، وادعى الربوبية.

٤. مجمع البيان ٢: ٦٣٥، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.

٥. تفسير روح البيان ١: ٤١٠.

٦. مجمع البيان ١: ٦٣٦، تفسير الصافي ١: ٢٦٣.

٧. تفسير روح البيان ١: ٤١٠.



الذي هو خالق سائر الموجودات، فهو بقدرته يسيّرُها ويحكمته يحركها إلى المغرب. فإن كنت تدعي الألوهية الملازمة للقدرة الكاملة «فأت» وسير «بها من المغرب» إلى المشرق.

«فبُهِتَ» وتحير المليك «الَّذِي كَفَرَ» في الجواب، وصار كالمدهوش، لم يجد للردّ مقالاً، وللمعاضة مجالاً؛ لبداية أنه ليس للبشر التصرف في الفلكيات، سيما مثل هذا التصرف «وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي» ولا يوفق للرشد إلى صراط الحق وطريق الجنة «الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» على أنفسهم باختيار الكفر والضلال؛ لخبث طبيعتهم، وشوء سريرتهم، فاستحقوا الخذلان والنكال.

نصّة النبي الذي ثمّ أنه تعالى - بعد إقامة البرهان على التوحيد؛ بذكر مُحاجة إبراهيم عليه السلام - أخذ في مرّ على قرية إقامة البرهان على إمكان المعاد بذكر قصّة مُتضمنة لوقوع نظيره الذي هو أقوى

البراهين على إمكانه، بقوله: «أَوَ» رأيت «ك» النبي «الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ» بيّت المقدّس. وهل اطلعت على لطيف ربك باحدٍ مثل لطفه بذلك النبي؟ حيث إنّ الله هداه إلى المعرفة الكاملة بالمعاد، وكيفية البعث وإحياء الرّم، حتى بلغ من مرتبة علم اليقين إلى درجة عين اليقين، وذلك من شؤون ولايته للمؤمنين.

رؤي أنّ بني إسرائيل لما بالغوا في تعاطي الفساد سلط الله عليهم بُخْت نَصْر، فسار إليهم في سبعمائة ألف راية، حتى وطئ الشام، وخرّب بيت المقدّس، وجعل بني إسرائيل أثلاثاً: ثلثاً منهم قتلهم، وثلثاً منهم أقرهم بالشام، وثلثاً منهم سباهم. وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع، فقسّمهم بين الملوك الذين كانوا معه، فأصاب كلّ ملك منهم أربعة غلّة، وكان عزير من جملتهم<sup>١</sup>.

وعن ابن عباس: أنّه كان من علمائهم<sup>٢</sup>، وجاء بهم إلى بابل، فلما نجاه الله منهم بعد حين مرّ بحماره على بلدة بيت المقدّس، فرآها «وَهِيَ خَاوِيَةٌ» وساقطة بغيطانها «عَلَى عُرُوشِهَا» وسقوفها، خالية من أهلها. فلما رأى العزير الأجساد البالية «قَالَ» - استعظاماً لقدرة الله، واعتراضاً بقصور فهمه عن كيفية الإحياء، أو تلهّفاً على القرية وأهلها، وتشوقاً إلى عمارتها مع استئثار اليأس عنها، لاشكاً وإنكاراً -: «أَتُنِي يُخَيِّى هَذِهِ الْعِظَامَ، أَوْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ، وَكَيْفَ يَبْعَثُهَا اللَّهُ» أو يُعَمِّرُهَا «بَعْدَ مَوْتِهَا» وبلائها، أو بعد خرابها وعفوّ آثارها.

عن ابن عباس عليه السلام: أنّ عزيراً دخل يوماً تلك القرية، ونزل تحت شجرة وهو على حمار، فربط

حماره، وطاف في القرية، فلم ير فيها أحداً، فعَجِبَ من ذلك، وقال: ﴿أَتُنِيحِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لا على سبيل الشك في القُدرة، بل على سبيل الاستبعاد بحسب العادة، وكانت الأشجار مثيرة، فتناول من الفاكهة الثين والعنب، وشرب من عصير العنب، ونام<sup>١</sup> ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ وقَبَضَ رُوحه في مَنامه، وأبقاه على المَوت ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾.

وعن النبي ﷺ، في حديث: «بَعَثَ اللَّهُ عَزِيزاً نَبِيّاً إلى أهل القُرَى التي أمات الله عز وجل [أهلها]، ثم بعثهم، وكانوا من قُرَى شَتَّى، فهربوا فَرَقاً مِنَ المَوْتِ فنزلوا في جَوَارِ عَزِيرٍ، وكانوا مؤمنين، وكان [عزير] يَخْتَلِفُ إليهم ويسمَعُ كلامهم وإيمانهم فأحبهم على ذلك وأخاهم عليه، فغاب [عنهم] يوماً واحداً، ثم أتاهم فوجدهم صَرَعى مَوْتى، فحزن عليهم وقال: ﴿أَتُنِيحِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تعجباً من<sup>٢</sup> حَيْثُ أصابهم، وقد ماتوا أجمعين في يومٍ واحد، فأماته الله<sup>٣</sup> الحديث.

وفي رواية ذكر فيها تسلط بخت نصر على بني إسرائيل، وقتله إياهم، وسببه ذراريهم، واصطفى من السبي دانيال وعزيراً، وهما صغيران، وكان دانيال أسيراً في يده سبعين<sup>٤</sup> سنة - إلى أن قال -: «وفوض بخت نصر إليه أمور ممالكه، والقضاء بين الناس، ولم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وأفضى الأمر بعده إلى عزير، فكانوا يجتمعون إليه ويستأيسون به، يأخذون عنه معالم دينهم، فغيب الله عنهم شخصه مائة عام، ثم بعثه<sup>٥</sup>. والظاهر أن المراد بالغيبية المَوْت.

وفي رواية القمي والعمياشي: عن الصادق عليه السلام: «أن البار على القرية هو أرميا<sup>٦</sup>. وعليه بعض المفسرين من العامة، ثم أنهم اختلفوا فقال بعضهم: إنه أرميا بن حلقام<sup>٧</sup>، وبعضهم قالوا: إن أرميا هو الخضر بعينه<sup>٨</sup> والأشهر الأقوى هو الأول.

وعن (المجمع): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن عزيراً خرج من أهله وامرأته حاميل، وله خمسون سنة، فأماته الله مائة عام<sup>٩</sup>.

١. تفسير الرازي ٧: ٣١. ٢. في كمال الدين وتفسير الصافي: منه.

٣. كمال الدين: ٢٦٦/٢٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٨. ٤. في كمال الدين وتفسير الصافي: تسعين.

٥. كمال الدين: ١٥٧ و ١٥٨/١٧، تفسير الصافي ١: ٢٦٩.

٦. تفسير القمي ١: ٨٦، تفسير العمياشي ١: ٢٦٢/٥٧٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٤.

٧. في تفسير أبي السعود: أرميا بن حلقام. ٨. تفسير أبي السعود ١: ٢٥٢.

٩. مجمع البيان ١: ٦٤١، تفسير الصافي ١: ٢٦٩.

وفي رواية: أَمَى اللهُ تعالى عنه عُيُونُ الْمَخْلُوقَاتِ فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا مَضَى مِنْ مَوْتِهِ سَبْعُونَ سَنَةً وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَعَلَّاءُ مَلِكاً عَظِيماً مِنْ مَلُوكِ فَارِسَ، يُقَالُ لَهُ: يَوْشَكَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ لِيَعْمُرَهُ، وَمَعَهُ أَلْفُ قَهْرْمَانٍ<sup>١</sup>، وَمَعَ كُلِّ قَهْرْمَانٍ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ عَامِلٍ، فَجَعَلُوا يَعْمُرُونَهُ، وَأَهْلَكَ اللهُ بَخْتِ نَصْرٍ بِبَعْوَضَةٍ دَخَلَتْ فِي دِمَاغِهِ، وَنَجَّى اللهُ مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَدَّاهُمْ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَتَرَجَعَ مَنْ تَفَرَّقَ مِنْهُمْ، فَعَمَّرُوهُ ثَلَاثِينَ [سنة]، فَلَمَّا تَمَّتِ الْمِائَةُ مِنْ مَوْتِ عَزْرِيَرِ أَحْيَاهُ اللهُ<sup>٢</sup>، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُ﴾ وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْإِحْيَاءِ بِالْبَعْثِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى السَّرْعَةِ، وَشَهْوَلَتِهِ عَلَى اللهِ، مَعَ كَوْنِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ.

وفي رواية القمِّي: عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ لَمَّا سَلَطَ اللهُ بَخْتَ نَصْرٍ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ هَرَبَ أَرَمِيَا، وَدَخَلَ فِي عَيْنٍ وَغَابَ فِيهَا، وَبَقِيَ مِتّاً مِائَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَحْيَاهُ [الله تعالى] وَأَوَّلَ مَا أَحْيَاهُ مِنْهُ عَيْنِيهِ فِي مِثْلِ غَرْزِيَّةٍ<sup>٣</sup> الْبَيْضِ، فَنَظَرَ<sup>٤</sup> ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ اللهُ وَحْياً ﴿كَمْ لَبِثْتُ﴾ وَبَقِيَتْ مِيتاً.

وفي رواية ابن عباس عليه السلام: وَتُودِي مِنَ السَّمَاءِ: يَا عَزْرِيَرُ كَمْ لَبِثْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ؟<sup>٥</sup> قِيلَ: كَانَ السُّؤَالُ لِأَجْلِ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ عَجْزُهُ عَنِ الْإِحْيَاءِ بِشُؤْنِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلِيَعْلَمَ بِالْبَرَاهَانِ أَنَّ إِحْيَاءَهُ كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ حَتَّى تَنْحَسِمَ مَادَّةُ اسْتِيعَادِهِ بِالْمَرَّةِ<sup>٦</sup>.

﴿قَالَ﴾ عَزْرِيَرُ أَوْ أَرَمِيَا - عَلَى وَجْهِ الْحُسْنَانِ وَالتَّخَمِينِ -: ﴿لَبِثْتُ يَوْماً﴾ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى ضَوْءِ الشَّمْسِ بَاقِياً فِي رُؤُوسِ الْجُدْرَانِ كَمَا رَوَى، فَقَالَ: ﴿أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ﴾ وَقِيلَ: إِنَّهُ قَالَ: يَوْماً أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ، اقْتِصَاراً لِمُدَّةِ لَبْثِهِ<sup>٧</sup>.

ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ اللهُ مَا لَبِثْتَ الْمُدَّةَ الْيَسِيرَةَ ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ قِيلَ: فَإِنَّهُ إِمَّا مِائَةُ عَامٍ وَإِعْلَامُهُ بِهَا - مَعَ كِفَايَةِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ مَوْتِ سَاعَةِ ثَبُوتِ الْمَطْلُوبِ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ - أَنَّ الْإِحْيَاءَ بَعْدَ مِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ أَدْلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّ إِحْيَاءَ الْعِظَامِ الرَّيْسِ أُنْبَدَ فِي الْعُقُولِ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ. ثُمَّ كَأَنَّهُ قَالَ اللهُ: إِنْ شِئْتُ أَنْ يَزِيدَ عِزْفَانُكَ بِكَمَالِ قُدْرَتِي ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ مِنَ التَّيْنِ وَالْعِنَبِ اللَّذِينَ يَفْسِدَانِ مِنْ غَايَةِ اللَّطَافَةِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ﴿وَشَرَابِكَ﴾ مِنَ الْعَصِيرِ أَوْ اللَّبَنِ، مَعَ أَنَّهُمَا يَتَغَيَّرَانِ

٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٥٣.

١. القَهْرْمَانُ: أَمِينُ الْمَلِكِ وَوَكِيلُهُ الْخَاصُّ.

٣. الغَرْزِيَّةُ: الْقَشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الْمَلْنَزَقَةُ بِبَيَاضِ الْبَيْضِ.

٤. تفسير القمِّي ١: ٩٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٧.

٥. تفسير الرازي ٧: ٣٦.

٦. تفسير روح البيان ١: ٤١٣.

٧. تفسير روح البيان ١: ٤١٣.

في بغض يومٍ واحدٍ ﴿لَمْ يَنْتَسِهْ﴾ ولم يتغير في السنين المتطاولة.

رُوي أنه رأى تينة وعنبه كما جنى، وعصيره كما عصر<sup>١</sup>، ثُمَّ لَمَّا رَأَى ذَلِكَ، وَكَانَ مَجَالُ تَوْهُمِ الاستِدلال به على قِصَرِ مُدَّةِ مَوْتِهِ، دَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ التَّوَهُّمَ بِإِقَامَةِ دَلِيلٍ قَاطِعٍ عَلَى طُولِ مُدَّةِ مَوْتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى عِظَامٍ حِمَارِكَ﴾ كَيْفَ صَارَ رَمِيمًا، لِيَتَبَيَّنَ لَكَ مَوْتُكَ فِي الْمُدَّةِ الْمَدِيدَةِ، وَإِنَّمَا فَعَلْنَا مَا رَأَيْتَ مِنَ الْإِمَاتَةِ وَإِحْيَاءِ الرُّمَمِ، وَحِفْظِ الثَّيْنِ وَالْعَصِيرِ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْفَسَادِ، لِشَاهِدِ كَمَالِ قُدْرَتِنَا وَتَزْدَادَ يَقِينًا بِالْمَعَادِ ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾ نَافِعَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا، حَيْثُ يَزِدَادُونَ بِغَضَبِكَ مَعْرِفَةً وَيَقِينًا.

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَهُ أَوَّلًا بِالنَّظَرِ إِلَى الْحِمَارِ الْبَالِي؛ لِيَتَبَيَّنَ طُولُ مُدَّةِ مَوْتِهِ، أَمَرَهُ ثَانِيًا بِالنَّظَرِ إِلَى عِظَامِ نَفْسِهِ، أَوْ عِظَامِ حِمَارِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ الْمُتَفَرِّقَةِ الرَّمِيمَةِ﴾ كَيْفَ تَنْشِئُهَا، وَنَرَفَعَ بَعْضُهَا إِلَى بَغْضٍ، وَنَزَّاهَا إِلَى أَمَانِهَا مِنَ الْجَسَدِ ﴿ثُمَّ نَكْشُوهَا﴾ وَتَلْبِسُهَا ﴿لَحْمًا﴾ وَنَسْتُرُهَا بِهِ؛ لِشَاهِدِ بِهِ كَيْفِيَّةِ الْإِحْيَاءِ فِي نَفْسِهِ، أَوْ فِي غَيْرِهِ، بَعْدَمَا شَاهَدَهَا فِي نَفْسِهِ.

فِي رِوَايَةٍ عَنِ الثَّقَمِيِّ، عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْعِظَامِ الْبَالِيَةِ الْمُتَفَرِّقَةِ تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَإِلَى اللَّحْمِ الَّذِي قَدْ أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ، يَتَأَلَّفُ إِلَى الْعِظَامِ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا وَيَلْتَزِقُ بِهَا، حَتَّى قَامَ وَقَامَ حِمَارُهُ»<sup>٢</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: وَنَظَرَ إِلَى عِظَامِهِ كَيْفَ تَلْتَمِصُ وَتَلْبِسُ اللَّحْمَ، وَإِلَى مَفَاصِلِهِ وَعُزُوقِهِ كَيْفَ تُوَصِّلُ، فَاسْتَوَى قَاعِدًا<sup>٣</sup> ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ كَمَالُ قُدْرَةِ اللَّهِ بِمَا عَايَنَ مِنْ إِحْيَاءِ الرُّمَمِ ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ الْآنَ بِالشُّهُودِ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا أَمَكُنَ وَأَرَادَ قَدِيرٌ﴾ لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ أَمْرٌ.

نُصَّةُ عَزِيزِ النَّبِيِّ رُوي أنه رَكِبَ حِمَارَهُ وَأَتَى مَحَلَّتَهُ، فَأَنكَرَهُ النَّاسُ، وَأَنكَرَ النَّاسُ، وَأَنكَرَ الْمَنَازِلَ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَهْمٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ، فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَمِيَاءٍ مُتَعَدَّةٍ قَدْ أَدْرَكَتْ زَمَنَ عَزِيرٍ، فَقَالَ لَهَا عَزِيرُ: يَا هَذِهِ، هَذَا مَنْزِلُ عَزِيرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. وَأَيْنَ ذِكْرِي عَزِيرُ وَقَدْ فَقَدْنَاهُ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا!! فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، قَالَ: فَأَيْ عَزِيرُ، قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَتَى بِكَوْنِ ذَلِكَ؟ قَالَ: قَدْ أَمَاتَنِي اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ، ثُمَّ بَعَثَنِي.

قَالَتْ: أُنْ عَزِيرًا كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فَادَّعَى اللَّهُ بَرْدَ بَصَرِي حَتَّى أَرَاكَ، فَدَعَا رَبَّهُ، وَمَسَحَ بَيْنَ عَيْنَيْهَا فَفَتَحَتْهَا، فَأَخَذَ بِيَدِهَا، فَقَالَ: قَوْمِي بِإِذْنِ اللَّهِ، فَقَامَتْ صَحِيحَةً كَأَنَّهَا أَنْشَطَتْ مِنْ عِقَالٍ<sup>٤</sup>، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ،

٢. تفسير القمي ١: ٩٠، تفسير الصافي ١: ٢٦٧.

٤. أَنْشَطَتْ مِنْ عِقَالٍ: أَيِ أَطْلَقَتْ مِنْ قِيدِهَا.

١. تفسير روح البيان ١: ٤١٣.

٣. الاحتجاج: ٣٤٤، تفسير الصافي ١: ٢٦٨.

فقلت: أشهد أنك عزيز. فانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم، وكان في المجلس ابن الغزير، قد بلغ مائة وثمانين سنة وبثو بينه ثيوخ، فنادت: هذا عزيز قد جاءكم، فكذبوها، فقلت: انظروا؛ فإنني بدعانه رجعت إلى هذه الحالة، فنهض الناس، فأقبلوا إليه، فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كفيته مثل هذا الهلال، فكشف فإذا هو كذلك، وقد كان قتل بخت نصر بيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل، ولم يكن بينهم يومئذ نسخة من التوراة، ولا أحد يعرف التوراة، فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفاً - أي ينقص ويقطع - فقال رجل من أولاد المسيح، ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر: حدثني أبي، عن جدي أنه دفن التوراة يوم سبينا في خابية في كرم، فإن أريثموني كرم جدي أخرجتها لكم، فذهبوا إلى كرم جده ففتشوه فوجدوها، وعارضوها<sup>١</sup> بما أملى عليهم عزيز عن ظهر القلب، فما اختلفا في حرف واحد، فعند ذلك قالوا: عزيز ابن الله<sup>٢</sup>.

وعن (المجمع): عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن عزيزاً خرج من أهله، وامراته حامل، وله خمسون سنة، فأما الله مائة عام ثم بعته، فرجع إلى أهله ابن خمسين، وله ابن له مائة سنة، فكان ابنه أكبر منه، فذلك من آيات الله»<sup>٣</sup>.

اعلم أن الروايات في هذه القضية، وإن كانت مختلفة من جهات عديدة، إلا أنه لا يهتنا الجمع بينها بالتكليف، لعدم حججها، وعدم ترتب أثر عليها، وأنها كانت تدل على قدرة الله وصحة المعاد الجسماني.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَزْوَاجَهُنَّ مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْلَجْلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٦]

ثم أنه تعالى - لزيادة يقين المؤمنين بالمعاد حتى يخرجوا من ظلمات الجهل أو ضعف اليقين إلى نور حق اليقين - أردف قصة عزيز بقصة نضاهيها عن إبراهيم عليه السلام، وكان دليلاً آخر على ولايته تعالى

٢. تفسير أبي السعود ١: ٢٥٥، تفسير روح البيان ١: ٤١٤.

١. عارضوها: أي قابلوها.

٣. مجمع البيان ١: ٦٤١، تفسير الصافي ١: ٢٦٩.

لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَال: ﴿وَوَ أَلَمْ تَرَ، أَوْ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ اسْتِغْثَاءً وَاسْتِغْثَاءً: ﴿رَبِّ أَرْنِي﴾ بِطُفْلِكَ عَلَى أَنَّكَ ﴿كَتَيْفٌ تُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ وَبَصُرَنِي كَيْفِيَّةَ الْإِحْيَاءِ وَهَيْئَتَهُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَصْلِهِ إجمالاً.

قيل: إِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ اسْمَ إِبْرَاهِيمَ هُنَا لِإِظْهَارِهِ الْعُبُودِيَّةَ، وَحِفْظَهُ لِلْأَدَبِ، حَيْثُ أَتَى عَلَى اللَّهِ أَوَّلًا بِتَوْصِيْفِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، بِخِلَافِ النَّبِيِّ الَّذِي مَرَّ عَلَى الْقَرْيَةِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ الْإِمَامَةَ وَالْإِحْيَاءَ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الطُّيُورِ، وَفِي قِصَّةِ النَّبِيِّ فِي نَفْسِهِ. وَتُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَظَمَةً شَأْنَهُ وَكَرَامَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ، زِيَادَةً عَلَى غُزَيْرٍ وَعَلَى مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

وَفِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: (رَبِّي) إِشْعَارٌ بِأَنْ مِنْ كَمَالِ الدُّعَاءِ وَمَوْجِبَاتِ سِرْعَةِ الْإِجَابَةِ، الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ الدُّعَاءِ.

وَعَنْ جَمْعٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ رَأَى جَنِيَّةً مَطْرُوحَةً فِي شَطِّ الْبَحْرِ، فَإِذَا مَدَّ الْبَحْرُ أَكَلَ [مِنْهَا] دَوَابَّ الْبَحْرِ، وَإِذَا جَزَرَ جَاءَتْ السَّبَاعُ فَأَكَلَتْ، وَإِذَا ذَهَبَتْ السَّبَاعُ جَاءَتْ الطُّيُورُ فَأَكَلَتْ وَطَارَتْ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تَجْمَعُ أَجْزَاءَ الْحَيَوَانِ مِنْ طُيُونِ السَّبَاعِ وَالطُّيُورِ وَدَوَابِّ الْبَحْرِ.<sup>١</sup>

﴿قَالَ﴾ اللَّهُ وَخِيًّا: أَلَمْ تَعْلَمْ ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بِأَنِّي قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ كَيْفَ أَشَاءُ؟! ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿بَلَى﴾ أَمَنْتُ وَأَيَقَنْتُ ﴿وَلَكِنْ﴾ سَأَلْتُ هَذَا ﴿لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ وَيَنْصَمَّ عِلْمِي بِالْبَرَاهَانِ؛ بِالشُّهُودِ وَالْعَيَانِ.

قيل: إِنَّ سَوَالَ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ عِلْمِهِ بِقُوَّةِ إِبْرَاهِيمَ؛ لِتَعْلِيمِ النَّاسِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ عَلَى شَكٍّ، وَلِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي طَلَبِ زِيَادَةِ الْيَقِينِ وَالْإِرْتِقَاءِ إِلَى دَرَجَةِ الشُّهُودِ.

عَنِ الْعِيَاثِيِّ: سُئِلَ الرُّضَائِيُّ أَكَانَ فِي قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ شَكٌّ؟ قَالَ: «لَا، كَانَ عَلَى يَقِينٍ»<sup>٢</sup>، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ مِنَ اللَّهِ الزِّيَادَةَ فِي يَقِينِهِ»<sup>٣</sup>.

وقيل: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ مُنَاطَرَتِهِ مَعَ نَمْرُودَ لَمَّا قَالَ: ﴿رَبِّي الَّذِي يُخَيِّ وَيُحْيِي قَالَ أَنَا أَخِي وَأُمِّيْتُ﴾<sup>٤</sup> فَأُطْلِقَ مَحْبُوساً<sup>٥</sup> وَقَتْلَ رَجُلًا، قَالَ [إِبْرَاهِيمُ]: لَيْسَ هَذَا بِإِحْيَاءٍ وَإِمَامَةٍ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرْنِي

١. تفسير الرازي ٧: ٣٨. ٢. (كان على يقين) ليس في المصدر.

٣. تفسير العياشي ١: ٥٧٦/٢٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٠.

٥. أي نمرود.

كَيْفَ تُخَيِّى الْمَوْتَى» لتكشف هذه المسألة عند نمرود.<sup>١</sup>

وقيل: إن نمرود قال له: قُلْ لِرَبِّكَ حَتَّى يُجِيبِي وَإِلَّا قَتَلْتُكَ، فسأل الله ذلك. وقوله: ﴿لِيَطْمِئِنَّ قُلُوبِي﴾ أي بنجاتي من القتل، أو ليطمئن قلبي بقوة حجتي وبرهاني.<sup>٢</sup>

عن ابن عباس، وسعيد بن جبير: أن الله أوحى إليه: أَنِّي مُتَّخِذٌ بَشَرًا خَلِيلًا، فاستعظم ذلك إبراهيم عليه السلام وقال: إلهي ما علامة ذلك؟ فقال: علامته أن يحيا الميت بدعائه. فلما عظم مقام إبراهيم عليه السلام في درجات العبودية، وأداء الرسالة، خطر بباله: إِنِّي لَعَلِّي أَكُونُ ذَلِكَ الْخَلِيلَ. فسأل إحياء الميت، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ تَوْتِنِ قَالًا بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمِئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ بَأَنِّي خَلِيلٌ لَكَ<sup>٣</sup>

فإذن ﴿قَالَ﴾ الله مستجيباً لدعائه: إن أردت ذلك ﴿فَتُخَذُ أُزْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل: إنما خص الطير؛ لأنه أقرب إلى الإنسان، وأجمع لخواص الحيوان<sup>٤</sup> ﴿فَصُرْمَةً﴾ وضممهم ﴿إِلَيْكَ﴾ كي تتأملها وتعريف أشكالها مفصلة حتى لا يلتبس عليك أحدٌ منها بعد الإحياء.

عن الرضا عليه السلام: «أخذ إبراهيم عليه السلام نسرًا وبطًا وطاوسًا وديكًا»<sup>٥</sup> وفي رواية: بدل البط: الغراب<sup>٦</sup>. وفي أخرى: الهدد<sup>٧</sup>. وفي ثالثة: بدل النسر: الحمامة<sup>٨</sup>. وفي رابعة: النعامة<sup>٩</sup>. وفي خامسة: الصرد<sup>١٠</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «فدبحهن وعزل رؤوسهن، ثم نحر<sup>١١</sup> أبدائهن في المنحاز بريشهن ولحومهن وعظامهن حتى اختلطت»<sup>١٢</sup>.

وعنه عليه السلام، في حديث: «أن إبراهيم دعا بمهراس فدق فيه الطير جميعاً، وحبس الزؤوس عنده»<sup>١٣</sup>. وفي رواية (الكافي): «فقطعنهم واخطلطن كما اختلطت هذه الجيفة في هذه السباع التي أكل

١. تفسير الرازي ٧: ٣٨. ٢. تفسير الرازي ٧: ٣٨. ٣. تفسير الرازي ٧: ٣٨.

٤. تفسير أبي السعود ٢٥٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٧١.

٦. تفسير الرازي ٧: ٤٠.

٨. تفسير الرازي ٧: ٤٠.

٧. تفسير العياشي ١: ٥٧٩/٢٦٧، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.

٩. تفسير العياشي ١: ٥٧٥/٢٦٥.

١٠. تفسير العياشي ١: ٥٨١/٢٦٩، والصرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات.

١١. النحر: الدق والسحق والهرس بأداة كالهاون والمهراس.

١٢. الخصال: ١٤٦/٢٦٥، تفسير الصافي ١: ٢٧١. ١٣. تفسير العياشي ١: ٥٧٧/٢٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٧١.

بعضها بعضاً<sup>١</sup>.

﴿ثُمَّ﴾ غِبَّ<sup>٢</sup> اخْتِلَاطَهُنَّ ﴿أَجْعَلْ﴾ وضع ﴿عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ من الجبال التي حَوَّلَكَ - عن الصادق عليه السلام: «أنها عشرة»<sup>٣</sup>. وقيل: كانت سبعة، وقيل: أربعة<sup>٤</sup> - ﴿مِنْهُمْ جُزْءٌ أ﴾ من الأجزاء المختلطة ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ﴾ بأسمائهنَّ إليك، وقل لهنَّ: تعالين بإذن الله، فإذا دَعَوْتَهُنَّ ﴿يَأْتِيَنَّكَ﴾ ويسعَيْنَ إليك ﴿سَعْيًا﴾ سريعا طيرانا، أو مشيا.

عن الرضا عليه السلام: «جعل مناقيرهنَّ بين أصابعه، ثُمَّ دعاهنَّ باسمائهنَّ، ووضع عنده حنبا وماء، فتطايرت تلك الأجزاء بعضها إلى بعض حتى استوت الأبدان، وجاء كُلُّ بَدَنٍ حتى انضمَّ إلى رَقَبته ورأسه، فخلَّى إبراهيم عن مناقيرهنَّ فطرنَّ، ثُمَّ جَنَّنَ وَشَرَبْنَ من ذلك الماء، والتقطنَّ من ذلك الحبَّ وقلنَّ: يا نبي الله أحييتنا أحياك الله، فقال إبراهيم عليه السلام: بَلَّ الله يُحيي وَيُميت، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير»<sup>٥</sup>. وعن الصادق عليه السلام، - في حديثٍ ذكر فيه أخذ إبراهيم الطيور الأربعة، وخلط أجزائهنَّ، وجعلها على عشرة أجبل - قال: «هذا تفسيره في الظاهر، وتفسيره في الباطن: خُذْ أَرْبَعَةً مِمَّنْ يَحْتَمِلُ الكلام فاستودِعْهم عِلْمَكَ، ثُمَّ ابْعَثْهم في أطراف الأرضين حُجَجًا<sup>٦</sup>، وإذا أردت أن يأتوك دَعَوْتَهُم بالاسم الأكبر يأتونك سَعْيًا بإذن الله» الخير<sup>٧</sup>، هذا أحد بطون الآية.

وقيل: إنَّ منها أنَّ إبراهيم عليه السلام سأل من الله حياة قلبه؛ فأشار إليه بَدْيِ الطيور: الطاووس كناية عن الزينة، والغراب عن الأمل، والدِّيك عن الشهوة، والبَطَّ عن الجِرْص. فأشار إلى أنَّه ما لَمْ يَذْبَح نفسه بالمجاهدة، ولم يقلع هذه الرذائل عن النَّفس، لم يحي قلبه بالمجاهدة<sup>٨</sup>.

﴿وَأَعْلَمَ﴾ بالشُّهود بعد البرهان ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غَالِبٌ على أمره، قَادِرٌ على إنفاذ إرادته ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، لا يصدر عنه من العاديَّات وخوارقها إلَّا ما فيه الصَّلاح التام.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ

١. الكافي ٨: ٤٧٣/٣٠٥، تفسير الصافي ١: ٢٧٠.

٢. أي بعد.

٣. تفسير العياشي ١: ٥٧٤/٢٦٥.

٤. تفسير الرازي ٢: ٤٢، تفسير أبي السمود ١: ٢٥٧.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٧١.

٦. زاد في الخصال: لك على النَّاس.

٧. الخصال: ١٤٦/٢٦٥، تفسير الصافي ١: ٢٧١.

٨. تفسير روح البيان ١: ٤١٦.



### سُئِلَ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٢٦١]

ثُمَّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَصُولِ الْعِلْمِ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَالِاسْتِدْلَالَ بِالْوَقَائِعِ الْمُسْتَلَمَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى صِحَّتِهِمَا، شَرَعَ فِي بَيَانِ جُمْلَةٍ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَشَقِّهَا التَّكْلِيفُ بِتَذَلُّ الْمَالِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَفِي سَائِرِ وَجُوهِ الْخَيْرِ، بَدَأَ بِتَرْغِيبِ الْعِبَادِ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِثْلُ﴾ نَفَقَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ وَيَصْرِفُونَ ﴿أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَطَرِيقِ الْخَيْرِ، وَوَجُوهِ الْبِرِّ ﴿كَمِثْلِ حَبَّةٍ﴾ وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِثْلَ الْمُتَنَفِّقِينَ كَمِثْلِ بَاذِرِ حَبَّةٍ صَحِيحَةٍ، زُرِعَتْ فِي أَرْضٍ عَامِرَةٍ مُغْلَةٍ<sup>١</sup>، فَيَعْدُ ذَلِكَ ﴿أُنْبِتَتْ﴾ وَأَخْرَجَتْ تِلْكَ الْحَبَّةَ سَبْعَةَ سَوَاقٍ، لِكُلِّ سَاقٍ شُبْلَةٌ، فَيَكُونُ الْمَجْمُوعُ ﴿سَنَعٌ سَنَابِلُ فِي كُلِّ شُبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ كَمَا يَشَاهَدُ فِي الدُّرَّةِ وَالذَّخْنِ، مَعَ أَنَّهُ تَمَثِيلٌ لِتَصَوِيرِ مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ، وَيَكْفِي فِيهِ كَوْنُهُ مَعْقُولًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِصْدَاقٌ فِي الْوُجُودِ، مَعَ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ زَرَعَ الْخُطَّةُ كَانَ شُبْلُهُ فِي بَدْوِ الْخِلْقَةِ أَوْ فِي بَعْضِ الْأَرْضِ الْمُغْلَةِ كَذَلِكَ.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ ثَوَابَ الْمُتَنَفِّقِ زَائِدًا عَلَى تِلْكَ الْمُضَاعَفَةِ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يُضَاعِفَ لَهُ بِفَضْلِهِ، وَعَلَى حَسَبِ حَالِ الْمُتَنَفِّقِ وَالْإِنْفَاقِ، مِنْ إِخْلَاصِهِ وَتَعَبِهِ وَخَصَاصَتِهِ وَمَضْرُوفِ إِتْفَاقِهِ، كَكَوْنِهِ فِي الْجِهَادِ، أَوْ عَلَى الْوَالِدِينَ، أَوْ الْعُلَمَاءِ، أَوْ ذُرَارِي الرُّسُولِ، فَإِنَّهُ يَتَفَاوَتُ ثَوَابُ الْأَعْمَالِ يَتَفَاوَتُ الْجِهَاتِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «هَذَا لِمَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِذَا أَحْسَنَ الْعَبْدُ عَمَلَهُ ضَاعَفَ اللَّهُ عَمَلَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ سَبْعِمِائَةَ ضِعْفٍ»<sup>٣</sup>.

وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْمُضَاعَفَةَ جَارِيَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ جُودًا وَفَضْلًا لَا يَضِيقُ عَلَيْهِ إِعْطَاءُ الرِّيَازَةِ كَانَتْ أَمَا كَانَ

﴿عَلِيمٌ﴾ بِهِ، وَبَيِّنَةُ الْمُتَنَفِّقِ وَخُلُوصِهِ وَمِقْدَارِ إِتْفَاقِهِ.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٢٦٢]

٢. تفسير القمي ١: ٩٢، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.

١. المُغْلَةُ: الأرض المنتجة للغلات.

٣. ثواب الأعمال: ١٦٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى مَا يُعْتَبَرُ فِي صِحَّةِ الْإِنْفَاقِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ جِهَادٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ وَجْهِ الْخَيْرِ ثُمَّ﴾ بعد التوفيق بهذا العمل الصالح النافع ﴿لَا يَتَّبِعُونَ﴾ ولا يتبعون ﴿مَا أَنْفَقُوا مَتًّا﴾ وإظهار حقَّ على المتفق عليه، وحسن اصطلاح به ﴿وَلَا أَذَى﴾ وإساءة بكلام أو فعل فيسؤوه، كأن يقول للفقير: تأذينا منك، أو: لا نستريح من شركك وزحمتك، أو يتطاوَل عليه، وأمثال ذلك. وتقديم ذِكْرِ الْمَنِّ لِكَوْنِهِ أَكْثَرَ وَقَوْعاً مِنَ الْأَذَى، وَذِكْرُ كَلِمَةِ (ثُمَّ) لِإِظْهَارِ مُبَايَنَةِ الْإِنْفَاقِ لِهَمَّا، وَكَمَالِ التَّعَدُّ بَيْنَهُمَا.

عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَسَدَى إِلَى مُؤْمِنٍ مَعْرُوفاً، ثُمَّ أَذَاهُ بِالْكَلَامِ، أَوْ مَنَ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ صِدْقَهُ»<sup>١</sup>.

فَتَحَصَّلَ مِنَ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ وَالرَّوَايَةِ الشَّرِيفَةِ أَنَّ الصَّدَقَةَ، بَلْ كُلُّ مَعْرُوفٍ، كَزَرْعِ الْمُؤْمِنِ، وَالْمَنِّ وَالْأَذَى أَفْئَةٌ، فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَحْفَظُوا زَرْعَهُمْ مِنَ الْآفَةِ، فَإِذَا حَفِظُوهُ مِنْهَا كَانَ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وَثَوَابُهُمُ الْمَوْعُودُ، فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، الْمَذْخُورُ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وَمَلِيكَهُمُ اللَّطِيفُ بِهِمْ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِنْ نَقْصِ الْأَجْرِ، وَالْإِبْتِلَاءِ بِالْعَذَابِ ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا خَلَفُوهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فَاتَهُمْ مِنْ مَطْلُوبٍ.

رَوَى الْعَامَّةُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، بِأَلْفٍ بَعِيرٍ بِأَقْبَاتِهَا وَأَحْلَاسِهَا، وَأَلْفٍ دِينَارٍ<sup>٢</sup>. وَفِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ حَيْثُ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ عَلَى رَوَايَةٍ، أَوْ دِينَارٍ عَلَى أُخْرَى، أَوْ بِنِصْفِ مَالِهِ عَلَى ثَلَاثَةٍ<sup>٣</sup>.

وَعَلَى هَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي ذِكْرِ الْمَنِّ وَالْأَذَى التَّعْرِيزُ عَلَيْهِمَا، وَالْإِشَارَةُ إِلَى مَنَّهُمَا عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَالْمُؤْمِنِينَ بِصِدْقَتِهِمَا، كَمَا يُسْتَفَادُ مِمَّا زَوَى عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَرُ فِي رَدِّ مَا رَوَتْهُ الْعَامَّةُ فِي نَضْبَةِ أَبِي بَكْرٍ

عَلَيْنَا فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِيهِ مِنْ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ<sup>٤</sup>. أَنَّهُ مَنَ بِإِسْلَامِهِ وَصُحْبَتِهِ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَكَانَ مِنْ مُصَادِقِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا»<sup>٥</sup>.

وَقَدْ أَوَّلَ بَعْضُ الْعَامَّةِ الْمَنَّ فِي الْحَدِيثِ بِكَثْرَةِ إِنْعَامِهِ بِمَالِهِ. وَفِيهِ: أَنَّهُ مَا تَقِلُّ مِنْ أَحَدٍ

١. تفسير القمي ١: ٩١، تفسير الصافي ١: ٢٧٢.

٢. الأحلاس جمع جلس: وهو كل ما على ظهر الدابة تحت الرجل والقنَّب والسرَّج.

٣. تفسير الرازي ٧: ٤٥، تفسير أبي السعود ١: ٢٥٨، تفسير روح البیان ١: ٤١٩.

٤. تفسير الرازي ٧: ٤٦.

٥. الحجرات: ١٧/٤٩.

أَنَّهُ كَانَ قَتْلَ الْبَغْتَةِ وَبَعْدَهَا غَنِيًّا ذَا ثَرْوَةٍ، مَعَ وَضُوحِ كَوْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَنَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ، حَيْثُ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَّلَ فِي مَحَبَّتِهِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ. وَكَيْفَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ كَثِيرَ الْإِنْعَامِ مَعَ بُخْلِهِ بِصَدَقَةِ ذَرَاهِمَ لِنَجْوَى النَّبِيِّ ﷺ؟! وَلِذَلِكَ تَرَكَ مُكَالَمَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَجَّاهُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ إِلَّا عَلَى اشْتِرَاطِ أَجْرِ الصَّدَقَةِ بِخُلُوقِهَا عَنِ الْمَنِّ وَالْأَذَى، وَإِنَّمَا مُبْطِلَانِ لَهَا وَمُحْطِطَانِ لِأَجْرِهَا، وَكَوْنُهَا عِنْدَ الْاِقْتِرَانِ بِهِمَا خَسْرَةً وَوَبَالًا، وَلَا صِرَاحَةً بَلْ لَا ظَهْرَ لَهَا فِي الْمَدْحِ، وَإِنَّمَا الصَّرَاحَةُ فِيمَا نَزَلَ فِي صَدَقَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾<sup>١</sup>.

رواية عامة في روى بعض العامة - في شأن نزول الآية - أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ اشْتَهَى طَعَامًا، فَبَاعَ قَمِيصَ فَاطِمَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسِتَّةِ دَرَاهِمٍ، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ فَأَعْطَاهَا، ثُمَّ لَقِيَ رَجُلًا يَبِيعُ نَاقَةً، فَاشْتَرَاهَا بِأَجَلٍ وَبَاعَهَا مِنْ آخَرَ، فَأَرَادَ أَنْ يَدْفَعَ الثَّمَنَ إِلَى بَائِعِهَا فَلَمْ يَجِدْهُ. فَحَكَّى الْقَضِيَّةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَمَّا السَّائِلُ فِرِضْوَانٌ، وَأَمَّا الْبَائِعُ فَمِيكَائِيلُ، وَأَمَّا الْمُشْتَرِي فَجَبْرَائِيلُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...﴾ الْآيَةُ<sup>٢</sup>.

أقول: الرواية قرينة على سؤق الآية في غاية المدح.

### قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفُورَةٍ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ [٢٦٣]

ثُمَّ أَكَّدَ شَبْحَانَهُ اشْتِرَاطَ قَبُولِ الصَّدَقَةِ بَعْدَ اقْتِرَانِهَا بِالْمَنِّ وَالْأَذَى بِقَوْلِهِ: ﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ﴾ وَرَدُّ جَمِيلٍ عِنْدَ عَدَمِ الْإِنْفَاقِ، كَأَن يَقُولُ لِلْفَقِيرِ: أَنَا مُنْفَعِلٌ مِنْكَ، وَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ وَاللَّهُ يَرْزُقُكَ، وَيُوسِعُ عَلَيْكَ، حَتَّى يُسَرَّ قَلْبُهُ وَيَطْلُبَ خَاطِرُهُ ﴿وَمَغْفُورَةٍ﴾ وَسَتَّرَ لِلْإِنْخَافِ السَّائِلِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَعَفَوْ عَنْ تَعَدُّيهِ فِي الْقَوْلِ وَبَذَاءِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَ عَنْ إِسَاءَتِهِ ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، وَأَنْفَعُ ﴿مِنْ صَدَقَةٍ﴾ تَحْسِبُونَهَا خَيْرًا، إِذَا كَانَ ﴿يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ وَإِسَاءَةٌ؛ لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ الْجَمِيلِ مَسْرَّةَ قَلْبِ الْفَقِيرِ بِلا ضَرَرٍ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ الْإِعْطَاءِ مَعَ الْمَنِّ وَالْأَذَى، فَإِنَّ فِيهِ ضَرَرًا بِمَا يَكُونُ تَحْمُلُهُ أَشَقُّ عَلَيْهِ مِنْ تَحْمِلِ مَرَارَةِ الْفَقْرِ ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عَمَّنْ يُنْفِقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالُهُ، وَعَنْ إِنْفَاقِكُمْ، حَيْثُ إِنَّهُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، بَلْ أَنْتُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْإِنْفَاقِ حَتَّى يَكُونَ دُخْرًا لَكُمْ، وَهُوَ ﴿حَلِيمٌ﴾ غَيْرُ عَجُولٍ

بَعْقُوبَةَ الْمَآءِ وَالْمُؤْذِي فِي صَدَقَتِهِ، وَفِيهِ مِنَ الشُّخْطِ وَالْوَعِيدِ لَهُمْ مَا لَا يَخْفَى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ  
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ  
وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكَافِرِينَ [٢٦٤]

ثُمَّ أَكَّدَ شَبَحَانَهُ اشْتِرَاطَ صِحَّةِ الْإِنْفَاقِ وَحُسْنِهِ بِعَدَمِ الْإِثْبَاعِ بِالْمَنْ وَالْأَذَى، بِالنَّهْيِ الصَّرِيحِ،  
والتَّنْصِيصِ بِالْبَطْلَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ وَلَا تُحْطُوا أَجْرَهَا وَتَوَابَهَا  
الْمَوْعُودَ لَكُمْ ﴿بِالْمَنْ وَالْأَذَى﴾ وَفِي التَّوَجُّهِ مِنَ الْعَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ، وَتَوْصِيفِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْإِيمَانِ  
غَايَةَ التَّهْنِجِ وَكَمَالِ التَّرْغِيبِ إِلَى الْعَمَلِ بِمُوجِبِ النَّهْيِ اهْتِمَامًا بِهِ.

ثُمَّ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَوْضِيحِ الْبَطْلَانِ ضَرْبَ اللَّهِ مَثَلًا مَعْقُولًا، وَهُوَ مَا أَفَادَ مِنْ أَنَّ إِطْلَالَ الْمَآءِ وَالْمُؤْذِي  
إِنْفَاقَهُمَا ﴿كَالَّذِي﴾ أَيُّ مِثْلِ إِطْلَالِ الْمُتَافِقِ الَّذِي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ﴾ فِي وَجْهِ الْبَرِّ وَشُبُلِ الْخَيْرِ، حَالُ كَوْنِهِ  
مُرِيدًا بِإِنْفَاقِهِ ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾ وَإِنْفَاقِهِمْ، غَيْرَ قَاصِدٍ لَوَجْهِ اللَّهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُصَدِّقُ بَقَلْبِهِ ﴿وَلَا  
يُؤْمِنُ﴾ فِي ضَمِيرِهِ ﴿بِاللَّهِ﴾ حَتَّى يَكُونَ فِي طَلَبِ رِضَايِهِ ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَدَارِ الْجَزَاءِ، حَتَّى يَهْتَمَّ فِي  
تَحْصِيلِ التَّوَابِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ. فَبَطْلَانِ هَذَا الْمُتَافِقِ لَكُفْرِهِ وَفَسَادِ نِيَّتِهِ أَظْهَرَ مِنَ الشَّمْسِ،  
فَكَذَلِكَ بَطْلَانِ عَمَلِ الْمَآءِ وَالْمُؤْذِي.

عَنِ الْعِيَّاشِيِّ: عَنْهُمَا عليهما السلام: «نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ، وَجَرَتْ فِي مُعَاوِيَةَ وَأَتْبَاعِهِمَا»<sup>١</sup>.

ثُمَّ مَعَ وَضُوحِ خَبَرِ الصَّدَقَاتِ بِالرِّيَاءِ، بِالْغِثِ شَبَحَانَهُ فِي تَوْضِيحِ خُسْرَانِ الثَّرَاثِيِّ، بِضَرْبِ مَثَلِ  
مَحْسُوسٍ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ وَحَالِهِ الْمُعْجَبِ فِي إِطْلَالِهِ إِنْفَاقَهُ بِالرِّيَاءِ ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وَحَجَرٍ صُلْبٍ  
أَمْلَسَ كَانَ ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يَسِيرُ ﴿فَأَصَابَهُ﴾ وَانصَبَ عَلَيْهِ ﴿وَابِلٌ﴾ وَمَطَرٌ شَدِيدٌ عَظِيمُ الْقَطْرِ، فَغَسَلَ  
كُلَّ مَا عَلَى الْحَجَرِ مِنَ التُّرَابِ ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْعُبَارِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ وَجْهَ شَبَاهَةِ أُولَئِكَ الْمُبْطِلِينَ لِإِنْفَاقِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ أُولَئِكَ الْخَاسِرُونَ بِسَبَبِ الْمَنْ  
وَالْإِيذَاءِ وَالرِّيَاءِ ﴿عَلَى﴾ ثَوَابٍ ﴿شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ وَعَمِلُوا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ [عَلَى] الْإِنْفَاقِ بِمَا فَعَلُوا؛

لخبط أعمالهم وضآيعها، وعدم استحقاقهم الأجر عليها.

فالكافر المنافق كالحجر الأملس، وإنفاقه كالتراب على الحجر، والكفر والرياء كالمطر الشديد، وكذلك المنافق والمؤذي كالحجر، والمن والأذى كالمطر الشديد يذهبان بما للإنفاق من الأجر والثواب.

ثم أشار سبحانه إلى سبب هذا الخسران بقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوفق لسئوك طريق الخير والرشاد ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وفيه تغريض على المان المؤذي في إنفاقه، وإشعار بأن الخصال المزبورة من خصال الكفار، والمؤمن منزّه عنها، أو إيماء على أن المان المؤذي والمرائي يمتوتن كفاراً، وبحشرون كفاراً. ثقل عن بعض أن مثل من يقصد بالطاعة الرياء والسُّمعة، كمثل رجل خرج إلى السوق وملاكيه حصصاً، فيقول الناس: ما أملاً كيس هذا الرجل! ولا منفعة له سوى مقالة الناس، فلو أراد أن يشتري به شيئاً لا يعطى به شيئاً.

يقول أن بعضاً بالغوا في إخفاء الصدقة، وكانوا يطلبون فقيراً أعمى لا يعلم من المتصدق، أو كانوا يربطون في ثوب الفقير وهو نانم، أو كانوا يلقونها في طريق الفقير ليأخذها. عن النبي ﷺ قال: «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكَ الشُّرْكُ الْأَصْغَرُ» قالوا: يا رسول الله، وما الشُّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قال: «الرياء»، يقول الله لهم حين يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كُتبت ثراؤن لهم، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟<sup>٢</sup>

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْبِيهًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ  
جَنَةٍ بَرْنَوْهَ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [٢٦٥]

ثم أنه سبحانه بعد ذكر المثل لإنفاق المان والمؤذي والمرائي، ذكر مثلاً لإنفاق المؤمن المخلص في إنفاقه وكثرة ثوابه بقوله: ﴿وَمَثَلُ﴾ إنفاق المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في وجوه الخير قاصدين بإنفاقهم ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وطلب ثوابه ﴿وَتَشْبِيهًا﴾ لبعض ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وجعلاً

لمقدارٍ منها مُستَقَرّاً عَلَى الإيمان، وترسخاً لليَقينِ في قُلُوبِهِم.

قيل: إِنَّ الْعَلَاتِقَ الدُّنْيَوِيَّةَ تَعْلُقُ الْقَلْبَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فَمَا لَمْ يَقْطَعْ الْمُؤْمِنُ جَمِيعَ الْعَلَاتِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ قَلْبِهِ لَا يَسْتَقِرَّ قَلْبُهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَيَتَمَحَّضُ لِلْآخِرَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مِنَ الْعَلَاتِقِ حُبَّ الْمَالِ، وَمِنْهَا حُبُّ الْحَيَاةِ، وَمِنْهَا حُبُّ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ، فَكَلَمَا قَطَعَ عِلَاقَةً مِنْهَا حَصَلَ لَهُ بَعْضُ الثَّبَاتِ، أَوْ حَصَلَ لِبَعْضِ نَفْسِهِ الْاسْتِقْرَارُ عَلَى الْإِيمَانِ، وَلِبَعْضِ قَلْبِهِ التَّوَجُّهُ إِلَى الْحَقِّ.

أقول: لَا رَيْبَ أَنَّ الْمُوَاطَّعَةَ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالرِّيَاضَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ تُورِثُ الْقَلْبَ نُوراً وَضِيَاءً تَزُولُ بِهِ ظُلْمَةُ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ وَيَزْدَادُ بِهِ الْيَقينُ فِيهَا حَتَّى تَكُونَ الْمَعَارِفُ وَالْعَقَائِدُ الْحَقَّةُ رَاسِخَةً فِيهَا فَتَكُونَ كُلُّ عِبَادَةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ مُوجِبَةً لَزِيَادَةِ مَرْتَبَةٍ مِنَ الْيَقينِ، وَثَبَاتِ بَعْضِ الْقَلْبِ عَلَى الْإِيمَانِ.

فَالِإِنْفَاقَ لِهَذَيْنِ الْعَرَضَيْنِ يَكُونُ مِثْلُهُ فِي كَثَرَةِ النِّفْعِ وَالثَّوَابِ ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ وَاقِعَةٍ ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ وَنَظِيرِ بُسْتَانٍ كَائِنٍ فِي مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ مَصُونٍ مِنْ أَنْ يَفْسِدَهُ الْبَرْدُ لِلطَّافَةِ الْهَوَاءِ وَهُبُوبِ الرِّيَّاحِ.

قيل: إِنَّ الْأَشْجَارَ الْوَاقِعَةَ فِي الرَّبْوَةِ تَكُونُ أَحْسَنَ مَنَظَراً وَأَزْكَى ثَمَراً، وَأَمَّا الْأَرَاضِي الْمُنْخَفِضَةُ فَقَلَمَا تَسَلَّمَ ثِمَارُهَا مِنَ الْبَرْدِ، لِكثَافَةِ هَوَائِهَا بِرُكُودِ الرِّيَّاحِ<sup>١</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الرَّبْوَةِ الْأَرْضَ اللَّيِّنَةَ الْجَيِّدَةَ، بِحَيْثُ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَطَرُ انْتَفَخَتْ وَنَمَتْ، فَإِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ كَذَلِكَ يَكْثُرُ رَيْثُهَا، وَتَكْمُلُ ثِمَارُهَا وَأَشْجَارُهَا<sup>٢</sup>، بِخِلَافِ الْأَرَاضِي الْمُرْتَفِعَةِ، فَإِنَّهَا يَقِلُّ انْتِفَاعُهَا مِنَ الْأَنْهَارِ، وَتَكْثُرُ فِيهَا الرِّيَّاحُ الْمُضِرَّةُ.

وَعَلَى أَيِّ تَقْدِيرٍ يُفْرَضُ أَنَّ تِلْكَ الْجَنَّةَ الْعَالِيَةَ ﴿أَصَابَهَا﴾ وَنَزَلَ عَلَيْهَا ﴿وَابِلٌ﴾ مَطَرٌ نَافِعٌ عَظِيمٌ الْقَطَرُ ﴿فَآتَتْ﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ صَاحِبَهَا حَيْثُذِ ﴿أُكْلَهَا﴾ وَثِمَارُهَا ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ قِيلَ: يَعْنِي مِثْلِي مَا كَانَ يَعْهَدُ مِنْ هَذَا الْبُسْتَانِ مِنَ الثَّمَرِ<sup>٣</sup>.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: حَمَلْتُ فِي سَنَةٍ مِنَ الرَّيْعِ مَا يَحْمِلُ غَيْرُهَا فِي سَتَيْنِ. وَقِيلَ: الضَّعْفُ: مِثْلِي الشَّيْءِ، وَضِعْفَيْهِ: أَرْبَعَةُ أَمْثَالِهِ<sup>٤</sup>.

﴿فَإِنْ لَمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ وَمَطَرٌ صَغِيرٌ الْقَطَرِ، يَكْفِيهَا لِمُضَاعَفَةِ ثَمَرِهَا، لِكِرَامَةِ مُنْبِتِهَا، وَجُودَةِ

١. تفسير روح البيان ١: ٤٢٥.

٢. وكذا.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤٢٥.

٤. تفسير روح البيان ١: ٤٢٥.

محلّها، ويُرَوِّدُه هوانها.

قيل: إنّ المَطَر الخَفِيف ورُطوبية الهواء إذا داماً يُفيدان فائدة المَطَر العَظِيم.

وقيل: إنّ المراد أنّ الطَّل يكفي لأن يكون لها ثَمَر، إن كان ثمرها دون الضَّعْف، وعلى أي تقدير لا تبقى بلا ثمر.

عن العَبَّاسِي: عن الباقر عليه السلام: «أُنْهَازَتْ فِي عَلِيٍّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ»<sup>١</sup>.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإنفاقات وسائر العبادات ﴿بَصِيرٌ﴾ وَمُطَّلِعٌ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَخْفَى عَنْهُ قَلِيلَةٌ وَكَثِيرَةٌ؛ فَيَجَازِي بِأَضْعَافِ الْجَزَاءِ وَأَحْسَنَهُ.

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ [٢٦٦]

ثمّ أنّه تعالى للمبالغة في توضيح بطلان صدقات المان والمؤذي وحسرتهما على خطيئتهما، مع كمال الحاجة إليها، ضَرَبَ مَثَلًا آخر بقوله: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ﴾ أيّها المؤمنون الغفلاء ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ وبستان تكون أكثر أشجارها ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هما أنفع الأشجار وأشرفها، ومع ذلك ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فإذن تكون في غاية الحسن والنظارة والنفع، ثمّ مع هذين الجنتين من الأشجار الجامعة لفنون المنافع يكون ﴿لَهُ فِيهَا﴾ رِزْقٌ وافٍ، وَحَظٌّ مُتَكَثِرٌ ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الأخر. وتخصيص النخل والعنب - مع دخولهما في عموم الثمرات - وتقديّمهما، لكونهما الأصل والركن فيها، وأكرم الأشجار وأنفعها.

ثمّ بعد بيان صفة الجنة، وكمال نفعها بحيث لا يتصوّر أحسن وأنفع منها، بيّن شدة حاجة صاحبها إليها، وإلى منافعها بقوله: ﴿وَإِنَّ الْحَالَ أَنَّهُ﴾ «أَصَابَهُ الْكِبَرُ» والهَرَمُ والضَّعْف الذي هو مقتضى لشدة الحاجة إلى منافعها، والعجز عن تدارك أسباب المعاش من غيرها ﴿وَلَهُ﴾ مع ذلك الهَرَم والضَّعْف ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ وأولاد ﴿ضُعَفَاءُ﴾ عَجْزَةٌ عن تحصيل الثوت الذي يسدون به الرُّقَّ، لأجل الصَّغَر والضَّعْف، فكلّهم صاروا كلاً على والديهم الضَّعِيف، وحياتهم ومعايشهم على هذا القَرَضِ مَنْوُطَانِ

بِشَارِ تِلْكَ الْجَنَّةِ وَمَنَافِعِهَا، بِحَيْثُ لَوْ لَمْ تَكُنْ لَوْ قَعُوا جَمِيعاً فِي الْمَخْمَصَةِ وَالْهَلَاكِ ﴿فَأَصَابَهَا إِفْصَارٌ﴾ وَرِيحٌ عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ تَسْتَدِيرُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ تَنْعَكِسُ مِنْهَا سَاطِعَةٌ إِلَى السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الْعَمُودِ. قِيلَ: يُسَمَّى الْعَرَبُ الرَّوْبَعَةَ<sup>١</sup>، وَالْعَجَمُ (كَزْد بَاد).

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذِهِ الرِّيحَ بِنَفْسِهَا قَالِعَةٌ لِلْأَشْجَارِ وَمُعْدِمَةٌ لِلْجَنَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ شَدِيدَةٌ مُحْرِقَةٌ ﴿فَاقْتَزَقْتُ﴾ بِهَا الْجَنَّةَ وَأَشْجَارَهَا، وَذَهَبَتْ ثِمَارُهَا، وَخَرِبَتْ وَمَحَتْ أَثَارُهَا. فَانْظُرْ كَيْفَ يَبْقَى صَاحِبُ هَذِهِ الْجَنَّةِ مُتَحِيرًا، حَيْثُ إِنَّهُ لَا يَجِدُ مَا يَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ، وَلَا يَقْوَى أَنْ يَغْرُسَ مِنْهَا وَلَا يُعَيِّنَ أَحَدًا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، إِذَنْ لَكُونَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ، فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الْهَلَاكِ. كَذَلِكَ مَنْ يَنْفَقَ مَالَهُ، أَوْ يَفْعَلَ الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ، ثُمَّ يُحِيطُ أَجْرَهَا بِالْمَنِّ وَالرَّيَاءِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْآفَاتِ، لَا يَنْتَفِعُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، فَكَمَا لَا يَوْزُ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَأْنُ تِلْكَ الْجَنَّةِ، كَذَلِكَ لَا يَوْزُ أَنْ يُحِيطَ أَجْرَ أَعْمَالِهِ وَصَدَقَاتِهِ، لَكُونُ حَسْرَتِهِ وَأَسْفَهُ أَشَدَّ مِنْ صَاحِبِ الْجَنَّةِ. ﴿كَذَلِكَ﴾ التَّيْسِينَ الْوَاضِحَ لِسُوءِ عَاقِبَةِ الْمَنِّ وَالرَّيَاءِ فِي الصَّدَقَاتِ وَالْعِبَادَاتِ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ وَيُوضِّحُ ﴿لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الذَّالَّةَ عَلَى وِلَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالذَّلَالَاتِ الْمُثْبِتَةَ لِلشَّرْعِ الْمُتَيْنِ، وَالْعِبَارَاتِ الْمُثْبِتَةَ لِجَهَنَّمَ أَحْكَامِ الدِّينِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فِيهَا، وَلَكِي تَنْدَبِرُوهَا، وَتَعْتَبِرُوا بِهَا، وَتَتَلَذَّزَمُوا بِاتِّبَاعِهَا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [٢٦٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا بَيَّنَّ شَرَائِطَ صِحَّةِ الْإِنْفَاقِ، مِنْ حَيْثُ يَبْتَغِي الْمُنْفِقُ وَأَخْلَاقَهُ وَسُلُوكَهُ مَعَ الْفَقِيرِ، بَيَّنَّ شَرْطَ صِحَّتِهِ أَوْ كَمَالِهِ، مِنْ حَيْثُ نَفْسُ الْمَالِ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ وَتَصَدَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ بِالتَّجَارَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَمِنْ جِيَادِ مَا اسْتَفْذَنْتُمْ مِنَ الْأَرْبَاحِ. زُوي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ لَهُمْ مَالٌ مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانُوا يَتَصَدَّقُونَ مِنْهُ، فَهَاجَمَهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَهُمُ بِالصَّدَقَةِ بِالْحَلَالِ<sup>٢</sup>.

وَعَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «كَانَ الْقَوْمُ قَدْ كَسَبُوا مَكَاسِبَ [سُوءٍ] فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا أَرَادُوا أَنْ



يُخْرِجُوهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِيَتَصَدَّقُوا بِهَا، فَأَبَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ طَيْبٍ<sup>١</sup> مَا كَسَبُوا<sup>٢</sup>.  
وَرُوي أَنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ<sup>٣</sup>، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْآيَةُ فِي بَيَانِ شَرْطِ صِحَّةِ الْإِنْفَاقِ.  
وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا يَأْتُونَ بِالْحَشَفِ فَيَدْخِلُونَهُ فِي ثَمَرِ الصَّدَقَةِ»<sup>٤</sup>.  
وَعَلَيْهِ تَكُونُ بَيَانًا لَشَرْطِ كَمَالِهِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الطَّيِّبِ الْقَدَرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْحَالِلِ  
وَالْحَيِّدِ.

وَقِيلَ: إِنَّ شَرْطَ الْحِلَّةِ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْأَمْرِ حَيْثُ إِنَّ الْإِنْفَاقَ مِنَ الْحَرَامِ لَا يُؤْمَرُ بِهِ، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى  
بَعْدَهُ: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ وَالْخَبِيثُ هُوَ الرَّذِيءُ الْمُسْتَحْبَذُ، وَاعْتِبَارُ جَوْدَةِ الْمَالِ  
يُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿طَيِّبَاتٍ مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

اعترض ودفع إن قيل: قد ثبت في الشرع على مذهب الإمامية وجوب أداء الخمس من المال

المختلط بالحرام، إذا لم يعلم مالكوه وقدره - وهو منافي لمَدْلُولِ الْآيَةِ مِنْ اعْتِبَارِ الْحِلَّةِ

فِي الْمَالِ - فَإِنَّ الْأَمْرَ بِأَدَاءِ الْخُمْسِ مِنَ الْمَالِ الْمُخْتَلَطِ بِالْحَرَامِ، أَمْرٌ بِالْإِنْفَاقِ مِنَ الْمَالِ الْحَرَامِ.  
قُلْنَا: يُسْتَفَادُ مِنْ تَشْرِيعِ الْخُمْسِ تَحَقُّقُ الْمُعَاوَضَةِ الْقَهْرِيَّةِ مِنْ مَالِكِ الْمُلُوكِ الَّذِي هُوَ وَلِيُّ  
الْمُؤْمِنِينَ، بَأَنْ يَصِيرَ مَالُ الْحَرَامِ حِينَ الْاِخْتِلَاطِ مِلْكًا لِلْمُتَصَرِّفِ بِعَوَضِ الْخُمْسِ الَّذِي يَصْرِفُهُ فِي  
مَصَارِفِهِ.

﴿وَأَنْفَقُوا﴾ وَمِمَّا مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا «أَخْرَجْنَا» وَأَنْبَتْنَا «لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» مِنَ الْحُبُوبِ وَالشُّمَارِ  
وَالْمَعَادِنِ «وَلَا تَتِمَّمُوا» وَلَا تَقْصِدُوا حِينَ إِرَادَةِ الْإِنْفَاقِ «الْخَبِيثَ» مِنَ الْمَالِ، وَهُوَ الْمَالُ الْحَرَامُ، أَوْ  
الْمَعْيُوبُ حَالُ كَوْنِهِمْ «مِنْهُ» خَاصَّةً «تُنْفِقُونَ» فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَخْتَارُونَ لَأَنْفُسِكُمُ الْحَالِلَ وَالْحَيِّدَ.  
وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ لَا بَأْسَ بِالْإِنْفَاقِ مِنَ الرَّذِيءِ إِذَا كَانَ كُلُّ الْمَالِ رَذِيئًا.

وَقِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ: «مِنْهُ تُنْفِقُونَ» بِتَقْدِيرِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيِّ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَمِينَ الْخَبِيثِ  
تُنْفِقُونَ؟! «وَالْحَالُ أَنَّكُمْ «لَنْتُمْ بِأَخْذِيهِ» مِنْ أَخْذِهِ عَوَضًا مِنْ خُفُوقِكُمْ، أَوْ فِي مُعَامَلَاتِكُمْ فِي  
وَقْتِ مِنَ الْأَوْقَاتِ، أَوْ يَوْجِهِ مِنَ الْوُجُوهِ «إِلَّا أَنْ تُفْمِضُوا» وَتُسَامِحُوا «فِيهِ» مَخَافَةَ فُتُوتِ حَقِّكُمْ، أَوْ  
لَا حَتِياجَكُمْ إِلَيْهِ.

١. فِي الْكَافِي: أَطِيب. ٢. الْكَافِي ٤: ١٠/٤٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٢٧٤.

٣. صَحِيحُ مُسْلِمٍ ٢: ١٠١٥/٧٠٣. ٤. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٢: ٦٥٥، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٢٧٥.

وقيل: إن المراد أنه لو أهدي إليكم الرديء لا تأخذونه إلا عن استحياءٍ وإغماضٍ.  
عن الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالنخل أن يُزكى، يجيء أقوام بالوان من الثمر هو من أردأ الثمر، يؤذونه من زكاتهم، ثمرة يقال لها الجُفُور<sup>١</sup> والمعارفة، قليلة اللحاء، عظيمة الثواة، وكان بعضهم يجيء بها عن [التمر] الجيد، فقال رسول الله ﷺ: لا تخرصوا هاتين الثمرتين، ولا تجينوا منهما بشيء. وفي ذلك نزل: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيْثَ﴾»<sup>٢</sup> الخبر.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ﴾ عن إنفاقكم، وأمره به ليس لحاجةٍ إليه، بل إنما هو لتنعيمكم وحاجتكم إليه في تكميل نفوسكم ﴿حَمِيدٌ﴾ قيل: يعني مُستحقٌّ للحمد على نعمه عليكم، وقيل: إن معناه أنه حامدٌ على إعطاء الجيد، وثبت عليه.

وفي الأمر بالعلم إشعارٌ بأن إعطاء الرديء لا يكون إلا لأجل الجهل بغناه تعالى، ولتوهم حاجته واضطراره إلى هذا الرديء، فيقبله البتة، وأما إذا علم أن ما يعطيه بمنزلة البذر، ليحصد حاصله في يوم فقره وفاقته، فلا بد من أن يبالغ في جودته.

### الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٢٦٨]

ثم لما رغب سبحانه في الإنفاق بجياد المال، وكان الشيطان يمنع عنه بوسوسته، ويردعه عنه بتسويله، نبه المؤمنين به، وبفتح طاعته بقوله: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ» ويؤسوس في قلوبكم أن عاقبة إنفاقكم عدم المال، وصفر اليد، والابتلاء بشدة الحاجة ﴿وَيَأْمُرُكُم﴾ بتسويله ويغريكم ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ والقَبَاحِ العقلية من البخل ومنع الحقوق الواجبة ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في إنفاقكم ﴿مَغْفِرَةً﴾ وسترًا كائناً ﴿مِنْهُ﴾ لذنوبكم ﴿وَفَضْلاً﴾ وزيادة في المال والأجر.

عن ابن مسعود: أن للشيطان لمة<sup>٣</sup>؛ وهي الإبعاد بالشر، وللملك لمة؛ وهي الوعد بالخير، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأول فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم قرأ هذه الآية<sup>٤</sup>.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ ومنبسطٌ فضله على المتفقيين في وجوه الخير ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقدار إنفاقهم وخلوص

١. الجُفُور: ضربٌ من التمر صغار لا يُتَنَفَعُ به.

٢. الكافي ٤: ٤٨/٩، تفسير الصافي ١: ٢٧٥.

٣. لمة الشيطان: هي همته وخطره في قلب الإنسان.

٤. تفسير الرازي ٧: ٦٤.

يَنَاتِهِمْ؛ فَيُنْجِزُ مَا وَعَدَهُ عَلَىٰ إِنْفَاقِكُمْ، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَكُمْ.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا  
أُولُو الْأَلْبَابِ [٢٦٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ عَلَى وَعْدِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ، وَوَعْدِ الرَّحْمَنِ وَالْهَامِهِ - أَشَارَ إِلَى أَنَّ تَرْجِيحَ  
الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْعَقْلِ السَّلِيمِ وَالْعِلْمِ وَالتَّوْفِيقِ لِلْعَمَلِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُؤْتِي﴾ اللَّهُ ﴿الْحِكْمَةَ﴾  
قِيلَ: هِيَ الْعِلْمُ، وَتَوْفِيقُ الْعَمَلِ<sup>١</sup>.

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْحِكْمَةُ: الْمَعْرِفَةُ، وَالْفَهْمُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ فَعِيَ مِنْكُمْ فَهُوَ حَكِيمٌ، وَمَا [مِنْ] أَحَدٍ  
يَمُوتُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ فَقِيهِ»<sup>٢</sup>.  
وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «طَاعَةُ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ الْإِمَامِ»<sup>٣</sup>.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «مَعْرِفَةُ الْإِمَامِ، وَاجْتِنَابُ الْكِبَائِرِ»<sup>٤</sup>.  
وَقِيلَ: هِيَ الْقُرْآنُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاطِعِ وَعَجَائِبِ الْأَسْرَارِ<sup>٥</sup>. وَمَرَّجَ الْجَمِيعَ إِلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ، وَهُوَ  
مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَالْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ طَرِيقَهُمَا مُنْحَصِرٌ بِمَعْرِفَةِ النَّبِيِّ وَالْإِمَامِ، وَالْعِلْمُ بِحَقِيقَةِ  
الْقُرْآنِ وَأَسْرَارِهِ.

وَالتَّوْفِيقُ لِلْعَمَلِ مُلَازِمٌ لِهَذِهِ الْمَعَارِفِ، فَإِنَّ جَمِيعَهَا هُوَ الْحِكْمَةُ الَّتِي تَكُونُ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ يُعْطِيهِ  
﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وَيَخْتَارُهُ مِنَ الثَّقُوسِ الزَّكِيَّةِ وَالذَّوَاتِ الطَّيِّبَةِ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ،  
وَبِإِفَاضَتِهِ وَتَفَضُّلِهِ ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا﴾ وَنَفْعًا ﴿كَثِيرًا﴾ لَا يَعْدِلُهُ خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.  
عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْحِكْمَةُ ضِيَاءُ الْمَعْرِفَةِ، وَمِيرَاثُ التَّقْوَى، وَثَمَرَةُ الصَّدْقِ. وَمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ  
بِنِعْمَةِ أَنْعَمَ وَأَعْظَمَ وَأَرْفَعَ وَأَبْهَى مِنَ الْحِكْمَةِ»<sup>٦</sup>.

قِيلَ: إِنَّمَا سَمَّى اللَّهُ الدُّنْيَا بَاسِرًا قَلِيلًا حَيْثُ قَالَ: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾<sup>٨</sup>. وَسَمَّى الْحِكْمَةَ خَيْرًا

١. تفسير روح البيان ١: ٤٣١.

٢. تفسير العياشي ١: ٢٧٦/٦٠٣، تفسير الصافي ١: ٢٧٦.

٣. الكافي ١: ١١/١٤٢، تفسير الصافي ١: ٢٧٦.

٤. الكافي ٢: ٢٠/٢١٦، تفسير الصافي ١: ٢٧٦.

٥. تفسير الرازي ٧: ٦٧. ٦. في مصباح الشريعة: وميزان.

٧. مصباح الشريعة: ١٩٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٦، وفي مصباح الشريعة: الحكمة للقلب.

٨. تفسير الرازي ٧: ٦٧، والآية من سورة النساء: ٧٧/٤.

كثيراً؛ لأن الدنيا محدودة من جميع الجهات، والعلم لا نهاية لمراتبه ومدة بقائه، فالعلم والحكمة خير من الدنيا وما فيها.

﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ لئلك الفضيلة، ولا يتنبه لهذه المزية للحكمة أحد ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وذوو العقول السليمة، الخالصة عن شوائب الأوهام، الغالية على الشهوات. وهم الحكماء الربانيون والعلماء بالله، لوضوح أن من لا غلبة لعقله على هواه ليس له ذلك التنبه والاتعاظ.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [٢٧٠]

ثم أنه تعالى - لشدّة الاهتمام بالإنفاق الذي هو أحسن الأعمال وأنفعها - أكد أمره به بالوعد بالثواب العظيم، والتحذير عن تركه بالعقاب الشديد، بقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾ في سبيل الله ﴿مِنْ نَفَقَةٍ﴾ وبأي شيء تصدقتم من قليل أو كثير، في حق أو باطل، في سر أو علانية ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ﴾ والتزمتم على أنفسكم ﴿مِنْ نَذْرٍ﴾ والقيام معلق أو مطلق، في طاعة كنذر أمير المؤمنين وفاطمة عليها السلام صيام ثلاثة أيام لشفاء ولدهما، أو معصية كنذر نشوة من قبيلة بني أود أن تنحر كل واحدة منهن عشر فلانص<sup>١</sup> إن قُتل الحسين عليه السلام، على ما نقله ابن أبي الحديد<sup>٢</sup> ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فينب على مستحسنها، وتُعاقب على قبيحها. وفيه - مع كمال اختصاره - وعد عظيم ووعيد شديد.

ثم أكد الوعيد بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بترك الإنفاق الواجب، أو إبطاله بالرياء والسُّمعة أو المن والأذى، أو بالصُّرف في تشييد الكفر وتضعيف الحق، أو بتدبره في المعصية ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وأعوان مدافعين عنهم بأس الله وعذابه، فلا شفاعاة ولا مدافعة. وإيراد (الأنصار) بصيغة الجمع لمقابلة الجمع وهو (الظالمين) وعطف النذر على الإنفاق، لغلبة استلزامه إياه.

إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [٢٧١]

١. القلائص: جمع قلوص، والقلوص من الإبل: الفتية من حين تركب إلى التاسعة من عمرها.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٦١.

ثم بين سبحانه مراتب رُحجان الصدقات من حيث الإعلان والإسرار، وتفاوتهما في الأجر بقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ وتظهروا ﴿الْصَّدَقَاتِ﴾ المفروضة والمندوبة، كما هو ظاهر عموم اللفظ ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾ أي شيء مندوح، ذلك الإبداء عند الله إن سلم من السُّعَةِ والرِّياءِ.

﴿وَإِنْ تُخْفَوْهَا﴾ من الناس ﴿وَتُؤْتُوهُا﴾ الذين علمتموهم ﴿الْفُقَرَاءَ﴾ وغير المالكين مؤنة سنتهم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأحسن وأفضل عند الله من الإبداء، حيث إن الإعطاء في الخفاء أبعد من الرِّياءِ، وأحفظ لعرض الفقراء.

قيل: وجه التصريح عند الإخفاء بالإيتاء للفقراء - مع أنه واجب في الإبداء أيضاً - أن الإخفاء مظنة الالتياس، فإن الغي ربما يدعي الفقر ويقبل الصدقة سراً، ولا يفعل ذلك عند الناس<sup>١</sup>.

﴿وَيُكْفِّرُ﴾ الله ويسرّ ﴿عَنكُم﴾ بعفوه بعضاً ﴿مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وشيئاً من ذنوبكم، وقيل: إن (من) زائدة، والمعنى: يمحو عنكم جميع ذنوبكم<sup>٢</sup>. فجعل الله يسر الذنوب جزاءً لستر الصدقات.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الصدقات وسائر العبادات، ولو كان في السر والخفية ﴿خَبِيرٌ﴾ ومطلع، فمن يطلب بها مرضاة الله يحصل مطلوبه بإتيانها في السر، إذ لا تخفى على الله خافية.

عن النبي ﷺ: «صَدَقَةُ السَّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَتُدْفَعُ<sup>٣</sup> الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَتُدْفَعُ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْبَلَاءِ»<sup>٤</sup>.

وعنه ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ بِظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ بَيْتُهُ مَا أَنْفَقَ بِشِمَالِهِ»<sup>٥</sup>.

وعن الباقر عليه السلام، في قوله عز وجل: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ﴾ قال: «يعني الزكاة المفروضة» قال: قلت: ﴿وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ﴾؟ قال: «يعني النافلة»<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، في قوله: ﴿تُخْفَوْهَا﴾ قال: «هي سيوى الزكاة، إن الزكاة علانية خير له»<sup>٧</sup>.

وعنه عليه السلام: «فَإِنْ كُلُّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَأِعْلَانِهِ أَفْضَلُ مِنْ إِسْرَارِهِ [وَكُلُّ مَا كَانَ تَطَوُّعاً فإِسْرَارُهُ أَفْضَلُ مِنْ إِعْلَانِهِ] وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا حَمَلَ زَكَاتَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، فَقَسَمَهَا عَلَانِيَةً، كَانَ ذَلِكَ حَسَنًا جَمِيلًا»<sup>٨</sup>.

١. تفسير روح البيان ١: ٤٣٢ و ٤٣٣.  
٢. تفسير الرازي ٧: ٧٦.  
٣. في مجمع البيان: وتطفئ.  
٤. مجمع البيان ٢: ٣٨٥. طبعة شركة المعارف الإسلامية.  
٥. مجمع البيان ٢: ٦٦٣.  
٦. الكافي ٤: ١/٦٠.  
٧. الكافي ٣: ١٧/٥٠٢، وفيه: علانية غير سر.  
٨. الكافي ٣: ١٦/٥٠١.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: صدقة السر في الطلوع تغفل عنايتها بسبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة عنايتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً<sup>١</sup>.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ  
وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا  
تُظْلَمُونَ [٢٧٢]

ثم أنه قيل: لما كثر المسلمون<sup>٢</sup> نهى رسول الله ﷺ عن الإنفاق على المشركين حتى تحيلهم الحاجة على الدخول في الإسلام، فنزلت<sup>٣</sup> ﴿لَيْسَ﴾ بالواجب ﴿عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وإرشادهم جبراً، وإدخالهم في دين الإسلام اضطراراً، بل إنما عليك البلاغ والإرشاد بالبيان والدعوة إلى الحق، والمجادلة بالتي هي أحسن والوعظ والنصح ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بتوفيقه وتأيدته ﴿يَهْدِي﴾ ويوصل إلى الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته وإصاله إليه من النفوس الزكية والدوات المستعدة القابلة للتأدية للعقل. وزوي أن نبيلة أم أسماء بنت أبي بكر جاءت إلى ابنتها تسألها، وكذلك جدتها - وهما مشركان - فقالت: لا أعطيكما حتى أستمروا رسول الله ﷺ، فإنكما لستم على ديني، فاشتأمرته في ذلك، فنزلت [الآية] فأمرها رسول الله ﷺ أن تصدق عليهما<sup>٤</sup>.

وقيل: كان أناس من الأنصار لهم قرابة من قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم، ويقولون ما لم نسلموا لا نعطيكم شيئاً<sup>٥</sup>.

وقيل: جيء بها على طريق تلوين الخطاب، وتوجيهه إلى شخص النبي ﷺ للمبالغة في إقبال المؤمنين على الامتثال.

ثم صرح بتأكيد رجحانه وكثرة الثواب عليه لعنوم المؤمنين بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ وأي شيء تصدقوا أيها المسلمون ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ ومال، كان المنفق عليه كافراً أو مسلماً ﴿فَلَا تُنْفِسْكُمْ﴾ نفعه ونوائبه، لا لغيركم، ولا يضركم كفر الفقير.

١. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٤، تفسير روح البيان ١: ٤٣٣.

٢. في تفسير أبي السعود وتفسير روح البيان: كثر فقراء المسلمين.

٣. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٤، تفسير روح البيان ١: ٤٣٤.

٤. تفسير الرازي ٧: ٧٦.

٥. تفسير الرازي ٧: ٧٦.

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ﴾ ولا تصدقون على المشركين - ولو كانوا من أرحامكم وأقاربكم - لعلّة من الليل، أو وجع من الوجوه، **﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾** وطلباً لمرضاته، لا لتأييدهم في كفرهم، ولا للركون إليهم في باطلهم، فإن الله عالم بما في قلوبكم من الإخلاص، وقصد صلة الرّجيم، وسدّ خلّة المضطر. وأما تلبّسهم بالكفر فليس بمانع عن الإنفاق، إلا إذا كان من الصدقات المفروضة كالزكاة والفيطرة، أو كان في الإنفاق عليهم تقوية الباطل وتضعيف الحقّ، ففي صورتين لا يجوز الإنفاق على غير أهل الحقّ. ثم بالنظر إلى العداوة الدنيّة بين المسلمين والكفار الزادعة للمسلمين عن الإنفاق عليهم، وقوّة توهم مرجوحية الإنفاق عليهم في نظر المسلمين، أكد الله سبحانه فضله وكثرة ثوابه بقوله: **﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾** ومالٍ على المسلم أو الكافر **﴿يُؤْتِ الْيَكْمُ﴾** أجره المضاعف، ويؤفر لكم ثوابه، مضافاً إلى ما يخلفه كما روي عنه عليه السلام: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِلْمُنْفِقِ خَلْفاً، وَلِلْمُسْكِ تَلْغاً»**١. **﴿وَأَنْتُمْ﴾** أيها المنفقون لوجه الله **﴿لَا تَظْلَمُونَ﴾** في حقكم، ولا تفتنون من أجركم، فلا ينبغي التسامح فيه.

قال بعض: لو كان الفقير شرّ خلق الله، لكان لك ثواب تفقّتك ٢.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ  
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ يَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا  
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ [٢٧٣]

ثمّ أنّه تعالى لما بيّن تغميم استحباب الصدقة للمؤمن والكافر، بيّن أولويّة المؤمنين الخُلص؛ بالإنفاق، وأفضليّة التصدّق عليهم بقوله: **﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾** من المؤمنين الخُلص، اجعلوا صدقاتكم، وهم **﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾** وحبسوا عن تحصيل المعاش، لاستغراق أوقاتهم بالعبادات من الجهاد **﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** ونصرة الدين، ومنهم العلّماء المروّجون للشرع، والمشتغلون بتحصيل العلوم الدنيّة، فإنهم **﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾** لكثرة اشتغالهم بالعبادات والمهام الإسلامية **﴿ضَرْباً﴾** وسيراً **﴿فِي الْأَرْضِ﴾** للتجارة، وطلب المعيشة.

أوصانهم قيل: نزلت في فقراء المهاجرين، وكانوا نحواً من أربعمان، لم يكن لهم مسكن

وعشائر بالمدينة، وكانوا ملازمين للمسجد ساكنين في صفته<sup>١</sup>؛ وهي مُسَقَّفة، يتعلَّمون القرآن بالليل، ويستفرون أوقاتهم بالتعلُّم والعبادة والجهاد، ويخرجون في كلِّ غزوة وسريَّة بعثها رسول الله ﷺ.<sup>٢</sup>

عن ابن عباس، قال: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أصحاب الصفَّة، فرأى فقرهم وجهدهم<sup>٣</sup>، فطَّيَّب قلوبهم فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفَّة، فَمَنْ لَقِيتِي مِنْ أُمَّتِي عَلَى الثُّغْتِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ: راضياً بما فيه، فَإِنَّهُ مِنْ رِفقائي»<sup>٤</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، في تفسير الآية قال: هؤلاء قومٌ<sup>٥</sup> حبَّسهم الفقر عن الجهاد في سبيل الله، فعذرهم الله<sup>٦</sup>.

ثمَّ بعد بيان واقع حالهم، بيَّن حال عشرتهم وشلوكتهم مع الناس بقوله: ﴿يَحْسَبُهُمْ﴾ ويطَّئهم ﴿الْجَاهِلُ﴾ بحالهم وشأنهم غير المُختبر لأمرهم كؤنهم ﴿أَعْيَاءٌ مِنْ﴾ أجل غاية ﴿التَّعَفُّفِ﴾ وكَفَّ النفس عن مسألة الناس، وإظهار الحاجة إليهم. روي أنَّهم كانوا يقومون بالليل للتهجُّد، ويحيطون بالنَّهار للتَّعَفُّفِ<sup>٧</sup>.

ثمَّ كأنه قيل: فكيف يُعرَف فقرهم؟ فقال سبحانه: ﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ بالفقر والفاقة ﴿بِسِمَاهُمْ﴾ وعلامات الفقر فيهم من صُفرة اللون، وتحوُّل الجِسم، وضعف القوى، ورثانة الثَّياب، وأمثال ذلك. ثمَّ لما كان الإنسان لا يكاد يخلو عن الاضطراب إلى السؤال وطلب الحاجة من الغيَر، ولو بالغ في التَّعَفُّف، وصفهم سبحانه - بعد توصيفهم بالمبالغة في التَّعَفُّف - بأنهم قومٌ إذا اضطروا إلى سؤال حاجة دنيوية ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ﴾ حاجتهم ﴿إِلْحَافاً﴾ والحاحاً.

عن ابن مسعود: أن الله يُحِبُّ العَفِيفَ الْمُتَّعِفَّ، وَيُبْغِضُ الفَاحِشَ الْبَذِيءَ.

وقيل: السائل المُلجِف: الذي إن أُعطي كثيراً أفرط في المَدَح، وإن أُعطي قليلاً أفرط في الذَّمَّ<sup>٨</sup>. وعن رسول الله ﷺ: «لَا يَفْتَحُ أَحَدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يَغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يَغْفِرْ لَهُ اللهُ، لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلاً يَحْتَبِطُ فِيهِ يَبْعَثُهُ بِمَدٍّ مِنْ ثَمَرٍ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ

١. الصُّفَّة: المكان المظلل في مسجد المدينة، حيث كان يأوي إليه فقراء المهاجرين وبرعاهم الرسول ﷺ، وهم

أصاب الصُّفَّة. ٢. تفسير الرازي ٧: ٧٩. ٣. في تفسير الرازي: وجدهم.

٤. تفسير الرازي ٧: ٧٩، وفيه: من رفاقي. ٥. زاد في تفسير الرازي: من المهاجرين.

٦. تفسير الرازي ٧: ٨٠. ٧. تفسير الرازي ٧: ٨١. ٨. تفسير الرازي ٧: ٨١.



الناس»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيذهب فيأتي بخزمة خطبٍ على ظهره، فيكف بها وجهه، خيّر له من أن يسأل الناس أشياءهم؛ أعطوه أو متّعوه».

وعنه عليه السلام: «إن الله يحب الحيي الحليم المتعفف، ويبغض البذيء السائل المثلج»<sup>٢</sup>.  
وقيل: إن المراد من الآية نفي السؤال والإلحاف جميعاً، أي لا يسألون الناس أصلاً فيكون إلحافاً.<sup>٣</sup>  
ثم حثّ سبحانه على مطلق الإنفاق، سيما على الموصوفين بتلك الصفات، بأبلغ بيانٍ وأخصره وأوجزه بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ وَمَالٍ، أَوْ مِنْ كُلِّ مَا وَجَدْتُمُوهُ، مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ الْغَيْرُ؛ عَلِمًا أَوْ جَاهًا أَوْ مَالًا﴾ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ، فيجازيكم به أحسن الجزاء.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ [٢٧٤-٢٧٦]

ثم بين شمول حسن الإنفاق لجميع الأوقات والأحوال بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في أي وقتٍ من الأوقات كان ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وفي أي حالٍ من الأحوال كان ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لا يخصون إنفاقهم بوقتٍ دون وقت، وبحالٍ دون حال. ولعل وجه تقديم الليل والنهار، مَرَّتَهُمَا على النهار والعَلَانِيَةِ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثوابهم الموعود المدخر ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ومليكمهم اللطيف بهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروهم آت ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من محبوبٍ فات.

ذكر فضيلة لأمر عن ابن عباس عليه السلام: أن علياً عليه السلام ما كان يملك غير أربعة دراهم؛ فتصدق بذرهم ليلاً، والمؤمنين عليه السلام وبذرهم نهاراً، وبذرهم سراً، وبذرهم علانية. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «ما حملك على هذا»

١. وكذا. ٢. تفسير روح البيان ١: ٤٣٥.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤٣٥.

فَقَالَ ﷺ: «اسْتَوْجِبْ مَا وَعَدَنِي رَبِّي» فقال صلوات الله عليه: «لَكَ ذَلِكَ» فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>١</sup>.

وعن العياشي والطبرسي: عن الصادقين<sup>٢</sup> ﷺ، ما يَقْرُبُ مِنْهُ<sup>٣</sup>.

وَمِنْ عَجَائِبِ الرِّوَايَاتِ مَا عَنِ الزَّمْخَشَرِيِّ، وَبَعْضِ الْعَامَّةِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ حِينَ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ؛ عَشْرَةَ أَلْفٍ فِي اللَّيْلِ، وَعَشْرَةَ أَلْفٍ فِي النَّهَارِ، وَعَشْرَةَ أَلْفٍ فِي السَّرِّ، وَعَشْرَةَ أَلْفٍ فِي الْعَلَانِيَةِ<sup>٤</sup>. فَإِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ فِي زَمَانِ شِرْكَهَ غَنِيًّا، بَلِ الْمَقُولُ أَنَّهُ وَأَبَاهُ كَانَا فِي مَكَّةَ مِنَ الْفُقَرَاءِ، وَلَيْتَ شِعْرِي، مِنْ أَيْنَ وَجَدَ فِي الْمَدِينَةِ تِلْكَ الثَّرْوَةَ الْعَظِيمَةَ؟

وعن بعض العامة: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بَعَثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ إِلَى أَصْحَابِ الصُّفَّةِ بِدَنَانِيرٍ، وَبَعَثَ عَلَيَّ ﷺ بِوَسْقٍ<sup>٥</sup> مِنْ تَمْرٍ لَيْلًا، فَكَانَ أَحَبَّ الصَّدَقَتَيْنِ إِلَى اللَّهِ صَدَقَتَهُ<sup>٦</sup>. وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِوُقُوعِ كُلِّمَا الصَّدَقَتَيْنِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ.

وعن الفقيه: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النِّفْقَةِ عَلَى الْخَيْلِ<sup>٧</sup>.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ إِذَا مَرَّ بِفَرَسٍ سَمِينٍ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>٨</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ لِاتِّفَاقِ رِوَايَاتِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ عَلَيْهِ، فَلَا يُعْبَأُ بِغَيْرِهَا. بَيَانُ مَعْنَى الرِّبَا ثُمَّ لَمَّا كَانَ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالرِّبَا مُنَاسِبَةُ التَّضَادِّ - حَيْثُ إِنَّ الْإِنْفَاقَ مُوجِبٌ لَتَقْيِصِ الْمَالِ وَأَقْسَامِهِ - مَعَ رُجْحَانِهِ وَالْأَمْرِ بِهِ، وَالرِّبَا مُوجِبٌ لَزَيَْادِ الْمَالِ مَعَ مَبْعُوضِيَّتِهِ وَالنَّهْيُ عَنْهُ - عَقَّبَ سُبْحَانَهُ بَيَانُ أَحْكَامِ الثَّقَاتِ بَيَانِ جُمْلَةٍ مِنْ أَحْكَامِ الرِّبَا بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ وَيَتَعَامَلُونَ فِي مَتَحْدِي الْجِنْسِ بِزِيَادَةٍ وَيَأْخُذُونَهَا. قِيلَ: عَبَّرَ عَنِ التَّصَرُّفِ بِالْأَكْلِ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْهُ، وَلِشُيُوعِهِ فِي الْمَطْعُومَاتِ.

قَالَ الْفَاضِلُ الْمُقَدِّدُ ﷺ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حَلَّ لَهُ ذَنْبٌ عَلَى غَيْرِهِ وَطَالَبَهُ، يَقُولُ لَهُ الْغَرِيمُ: زِدْنِي فِي الْأَجَلِ [حَتَّى] أَزِيدَكَ فِي الْمَالِ<sup>٩</sup>.

١. تفسير الرازي ٨٣: ٧. ٢. في تفسير العياشي: عن أبي إسحاق.

٣. تفسير العياشي ١: ٢٧٧/٦٠٧، مجمع البيان ٢: ٦٦٧.

٤. الكشف ١: ٣١٩، تفسير الرازي ٨٣: ٧، تفسير روح البيان ١: ٤٣٥.

٥. الوُسْقُ: مِكْلَةٌ مَعْلُومَةٌ، وَهِيَ سِتُونَ صَاعًا، وَالصَّاعُ خَمْسَةُ أَرْطَالٍ وَثَلَاثُونَ.

٦. تفسير الرازي ٨٣: ٧. ٧. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٨٨/٨٥٢، تفسير الصافي ١: ٢٧٨.

٨. تفسير الرازي ٨٣: ٧. ٩. كنز العرفان ٢: ٣٥.

أقول: الربا في الشرع قسمان: ربا المعاوضة، وربي القرض.

أما الأول: فهو معاوضة جنس بجنسه - إذا كانا مكيالين أو موزونين - مع الزيادة في أحد العوضين. فيعتبر في الربا المعاملي أمران: اتحاد الثمن والمثمن في الجنس، وكونه مكيالاً أو موزوناً. فإذا تحقق الشرطان تعتبر المساواة، وتحرم الزيادة، بلا خلاف نصاً وقَوِيٍّ، سواء كانت المعاملة بصيغة البيع أو الصلح أو غيرهما على الأظهر، لإطلاق الروايات وعموم العلة.

وأما الثاني: فهو إقراض مال - مكيالاً كان أو موزوناً، أو غيرهما - مع شرط النفع بالعين، أو الصفة، أو تمديد أجل الدين بشرط النفع.

ولا ريب أنه بكلا قسميه من الكبائر، حيث أوعد الله الآكلين له والمتصرفين فيه بأنهم ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم حين بغيهم منها ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ المَصْرُوعُ ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ ويصرعه ﴿الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قيل: إن من عذاب أكل الربا أنه يُحْتَرَّ في القيامة مَجْنُوناً، ويكون ذلك سبباً لهم يعرفون به في المَحْشَرِ.

وقيل: إن التعبير عن الجُنُونِ أو الصُّرَعِ بالخبط الحاصل من مَسِّ الشَّيْطَانِ، مَبْنِيٌّ على زعم العرب من كَوْنِ الجُنُونِ والصُّرَعِ حاصلين من مَسِّ الشَّيْطَانِ والجنِّ.

وقيل: إن أكل الربا يعظم بطلته في المَحْشَرِ، بحيث يقوم ويسقط من ثقله، وسائر الناس يوفضون إلى المَحْشَرِ، وهو لا يقدر على شُرعة المَشْيِ، بل لِعَظَمِ بَطْنِهِ وثقله بسبب أكل الربا، ينهض ويسقط كالمَصْرُوعِ<sup>١</sup>، لا أنه يصير مَصْرُوعاً أو مَجْنُوناً.

عن القسَمِيِّ رحمته الله و (المجمع): عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لَمَّا أُسْرِيَ بي إلى السماء رأيتُ قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر لِعَظَمِ بَطْنِهِ، فقلتُ: مَنْ هؤلاء يا جَبْرِئِيلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا، لا يقومون إِلَّا كَمَا يقوم الذي يتخبطه الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، فإذا هَمَّ بِسَبِيلِ آلِ فِرْعَوْنَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ غُدُوّاً وَعَشِيّاً، يقولون: رَبَّنَا متى تقوم الساعة» الخبر<sup>٢</sup>. وفيه دلالة على وجود عالم الصُّور والمِثَالِ.

﴿ذَلِكَ﴾ العَذَابُ الْمُقَرَّرُ لِلْمُرْبِينَ<sup>٣</sup> مُعَلَّلٌ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بَنَوْا عَلَى حِيلَةٍ الربا، حتى جعلوه أصلاً، وشبهوا

١. تفسير روح البيان ١: ٤٣٦.

٢. تفسير القمي ١: ٩٣، مجمع البيان ٢: ٦٦٩، تفسير الصافي ١: ٢٧٨.

٣. المُزْبِي: من يأتي الربى.

البيع به في الحِلَّةِ و﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ﴾ في الحِلَّةِ، وفي الفائدة ﴿مِثْلَ الرِّبَا﴾ فكما يجوز بيع سلعة تكون قيمتها درهماً بذرهمن، كذلك يجوز بيع عَيْن الدَّرْهَمِ بِدَرْهَمَيْنِ، وكما يجوز بيع ما يساوي درهماً بِدَرْهَمَيْنِ إلى شهر، يجوز بيع درهم أو قَرْض درهم بِدَرْهَمَيْنِ أو بشرط أداء درهمين إلى شهر لَعَدَمِ الْفَرْقِ عَقْلاً. فَظَنُّوا الرِّبَا وَالبَيْعَ فِي سِلْكٍ وَاحِدٍ، لِإِفْضَانِهِمَا إِلَى الرِّبْحِ، فَخَالَفُوا اللَّهَ بِهَذِهِ التَّشْبِيهِ الْعَيْتَارِيَةِ الَّتِي لَا اعْتِبَارَ بِهَا.

فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ﴾ الْعَالَمَ بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، وَوَأَقْبَعِيَّاتِ مَصَالِحِ الْأُمُورِ وَمَفَاسِدِهَا ﴿الْبَيْعُ﴾ لَوْجُوبِ مِلَاكِ حُسْنِ تَرْتِيبِ الْأَثَرِ فِيهِ، وَمُعَامَلَةِ الصَّحَّةِ مَعَهُ ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لَوْجُودِ مِلَاكِ الشُّبْحِ فِيهِ، وَتَرْتُّبِ الْفَسَادِ عَلَيْهِ. فَعَلَيْكُمْ التَّسْلِيمُ وَالْإِتْيَادُ لِقُصُورِ عَقْلِكُمْ، وَالذِّينُ وَالْأَحْكَامُ لَا يُصَابُ بِالْعُقُولِ الْقَاصِرَةِ.

عن (الكافي): «إِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ الرِّبَا لِئَلَّا يَمْتَنِعَ النَّاسُ مِنْ اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ»<sup>١</sup>.

أقول: الظَّاهِرُ أَنَّ الشَّرَادَ بِالْمَعْرُوفِ هُنَا الْقَرْضُ الْحَسَنُ وَالْمُوَاسَاةُ وَالْإِحْسَانُ بِالْإِخْوَانِ.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ وَبَلَّغَهُ ﴿مَوْعِظَةً﴾ وَزَجَرَ ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ عَنْ أَكْلِ الرِّبَا لِتَرْبِيَّتِهِ بِالْخِصَالِ الْحَسَنَةِ، وَصَرَّفَهُ عَنِ الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ عَلَى حَسَبِ وَظِيفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ ﴿فَانْتَهَى﴾ عَنْهُ وَاتَّعَظَ بِالْمَوْعِظَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَاتَّبَعَ النَّهْيَ وَتَابَ ﴿فَلَهُ﴾ مِنْ تِلْكَ الزِّيَادَةِ ﴿مَا سَلَفَ﴾ أَخْذَهُ، وَأَخَذَهُ قَبْلَ الْعِلْمِ بِالنَّهْيِ.

عن (الكافي) و(الفتحية): عَنْ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «كُلَّ رِبَاً أَكَلَهُ النَّاسُ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا، فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِذَا عُرِفَ مِنْهُمْ التَّوْبَةُ».

وَقَالَ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَرِثَ مِنْ أَبِيهِ مَالاً، وَعَرَفَ أَنَّ فِي ذَلِكَ الْمَالِ رِبَاً، وَلَكِنْ قَدْ اخْتَلَطَ فِي التَّجَارَةِ بغيره حلالاً<sup>٢</sup>، كَانَ حَلَالاً طَيِّباً فَلْيَأْكُلْهُ، وَإِنْ عَرَفَ مِنْهُ شَيْئاً مَعْرُوْلاً<sup>٣</sup> [أَنَّهُ رِبَاً] فَلْيَأْخُذْ رَأْسَ مَالِهِ وَلْيَرْدُ الرِّبَا، وَإِنَّمَا رَجُلٌ أَفَادَ مَا أَكْثَرُ أَوْ قَدْ أَكْثَرَ فِيهِ [مِنْ] الرِّبَا، فَجَهِلَ ذَلِكَ ثُمَّ عَرَفَهُ بَعْدُ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْزِعَهُ، مَضَى فَلَهُ، وَيَدَّعِهِ فِيمَا يُسْتَأْنَفُ»<sup>٤</sup>.

﴿وَأَمْرُهُ﴾ وَشَأْنُهُ رَاجِعٌ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يُجَازِيهِ فِي الْآخِرَةِ بِحَسَبِ مَا عِلِمَ مِنْ صِدْقِ نِيَّتِهِ فِي الْإِنْتِهَاءِ، وَقِيلَ: يَحْكُمُ فِي شَأْنِهِ فِي الْقِيَامَةِ<sup>٥</sup>. وَلَيْسَ مِنْ أَمْرِهِ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ فَلَا تُطَالِبُوهُ بِهِ.

١. الكافي ٥: ١٤٦/٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٩.

٢. في الكافي: حلال.

٣. الكافي ٥: ١٤٥/٤، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٧٥/٧٨٧ و٧٨٨، تفسير الصافي ١: ٢٧٩.

٤. جوامع الجامع: ٥٠.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى مُعَامَلَةِ رَبِّوَيْهِ، وَأَخَذَ الرِّبَا مُسْتَحِلًّا لَهُ، بَعْدَ عِلْمِهِ بِالنَّهْيِ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الْمُسْتَحِلُّونَ  
﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وَمِلَازِمُهَا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُقِيمُونَ أَبَدًا.

عن النبي ﷺ: «إِذَا هُمْ مِنَ الرِّبَا أَكْثَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سَبْعِينَ زَنْبَةً بِذَاتِ مَحَرَّمٍ، فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ»<sup>١</sup>.  
وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الرِّبَا خَمْسَةً: أَكْلَهُ، وَمُوكَلَّهُ، وَشَاهِدِيهِ، وَكَاتِبِيهِ»<sup>٢</sup>.  
ثُمَّ بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ أَكْلِهِ، وَبَيَانِ عَقُوبَتِهِ الْمَتْرُتَةِ عَلَيْهِ، بَيْنَ شُبْحَانِهِ عَدَمِ نَفْعِ دُنْيَوِي فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَمْحَقُ  
اللَّهُ الرِّبَا﴾ وَيَذْهَبُ بِهِ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ يَنْتَفَعُ بِهِ.  
قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُ بَرَكَتَهُ، وَيُهْلِكُ الْمَالَ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَلَدُهُ، وَتَبْقَى عَلَى الْمُرَبِّي  
تَبِعَتُهُ وَعِقَابُهُ.

﴿وَيُزَيِّرُ﴾ اللَّهُ وَيُضَاعِفُ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ وَيَزِيدُ فِي ثَوَابِهَا فِي الْآخِرَةِ، بَلْ تَكُونُ الصَّدَقَةُ الَّتِي هِيَ  
تَنْقِصُ فِي الْمَالِ سَبَبًا لِرِيَادَتِهِ، بِخِلَافِ الرِّبَا الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لَتَكْثِيرِ الْمَالِ، فَإِنَّهُ بِالْمَالِ مُوجِبٌ لَتَنْقِصِهِ،  
حَيْثُ إِنَّهُ يَتَلَفُ بِنَفْسِهِ، وَيَتَلَفُ الْمَالَ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ.

عن النبي ﷺ: «مَا نَقَصَ مَالٌ عَنْ صَدَقَةٍ»<sup>٣</sup>.

وَرُوي عَنْهُ ﷺ: «أَنَّ الْمَلَكَ يَتَادَى كُلَّ يَوْمٍ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِكُلِّ مُتَّقٍ خَلْفًا»<sup>٤</sup>.

وعنه ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيُرِييَهَا، كَمَا يُرِيِّي أَحَدَكُمْ مَهْرَهُ»<sup>٥</sup>.

وعن الصادق عليه السلام مثله<sup>٦</sup>.

وعنه ﷺ: «مَا نَقَصَتْ زَكَاةٌ مِنْ مَالٍ قَطُّ»<sup>٧</sup>.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ بَلْ يَبْغُضُ ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مُصِرٍّ عَلَى تَحْلِيلِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَكُلَّ ﴿أَيْمٍ﴾ مُنْهَكٍ فِي  
الْمَعَاصِي وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، فَيُعَاقِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِأَشَدِّ الْعُقُوبَاتِ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٢٧٧]

٢. مجمع البيان ٢: ٧٧١.

٤. تفسير الرازي ٧: ٩٥.

٥. تفسير روح البيان ١: ٤٣٦، تفسير أبي السعود ١: ٢٦٧، والمُهَرُّ: أَوَّلُ مَا يُنْتَجُ مِنَ الْخَيْلِ وَالْحُمْرِ الْأَهْلِيَةِ وَغَيْرِهَا.

٧. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٧، تفسير روح البيان ١: ٤٣٦.

١. من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٦٦/٨٢٤.

٣. جوامع الجامع: ٥٠، تفسير الصافي ١: ٢٨٠.

٦. تفسير العياشي ١: ٢٧٩/٦١٥.

ثُمَّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ إِعْرَاضَهُ عَنِ الْكُفْرِ الْعَصَاةِ وَبَغْضَهُ إِيَّاهُمْ، أَعْلَنَ بِحُبِّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَاقْبَالَه بِرَحْمَتِهِ وَتَوَابِهِ إِلَى الْمُطِيعِينَ وَمُعْطِيِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، بِالله، وَرَسُولِهِ، وَكِابِهِ، وَدِينِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، الَّتِي تَكُونُ مِنْ وَظَائِفِ الْإِيمَانِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وَأَتَوْا بِهَا بِحُدُودَهَا مِنْ أَجْزَائِهَا وَشَرَائِطِهَا وَمَا يُعْتَبَرُ فِي صِحَّتِهَا ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ وَصَرَفُوهَا فِي مَصَارِفِهَا الْمُقَرَّرَةِ وَفِي تَخْصِيصِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ بِالذِّكْرِ مَعَ دُخُولِهِمَا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، دَلَالَةً عَلَى كَمَالِ الْإِهْتِمَامِ بِهِمَا وَكَوْنِهِمَا مِنْ أَعْظَمِ الْوَاجِبَاتِ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وَتَوَابِهِمُ الْمُوَعُودُ، حَالُ كَوْنِهِ مَذْخُوراً ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَمَالِكُهُمُ الزُّوْفُ بِهِمْ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، مِنْ لِقَاءِ مَكْرُوهٍ، وَنَقْصِ أَجْرِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، عَلَى مُفَارَقَةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَتَنْزُلِ الدَّرَجَةِ فِي الْآخِرَةِ.

عن ابن عباس رضي الله عنه: لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ بِسَبَبِ مَا تَرَكَوهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ النِّعَمِ الزَّائِدَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لِغَيْرِهِمْ مِنَ السُّعْدَاءِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ \* وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٢٧٨ - ٢٨٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حِلْيَةِ الرِّبَا الَّذِي كَانَ قَبْلَ النِّهْيِ عَنْهُ، بَيَّنَّ اخْتِصَاصَهَا بِالرِّبَا الْمَقْبُوضِ مِنَ الْغَرِيمِ دُونَ غَيْرِ الْمَقْبُوضِ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وَاخْذَرُوهُ فِي مُخَالَفَةِ حُكْمِهِ وَضُوءِنَا أَنْفُسَكُمْ مِنْ عِقَابِهِ ﴿وَذَرُوا﴾، وَاتَّزَكُوا ﴿مَا بَقِيَ﴾، عِنْدَ الْغَرِيمِ ﴿مِنْ الرِّبَا﴾، بِالْكَلْيَةِ، وَلَا تُطَالِبُوا مِنْهُ مَا لَمْ تَقْبِضُوهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّ لَزِمَ الْإِيمَانَ الْإِلْتِمَامُ بِأَحْكَامِ اللهِ، وَتَرَكَ مُطَالَبَةَ بَقِيَّةِ الرِّبَا. وَفِيهِ غَايَةُ التَّهْدِيدِ، لِدَلَالَتِهِ عَلَى أَنَّ مُطَالَبَةَ الْبَقِيَّةِ خَارِجٌ عَنِ الْإِيمَانِ.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ الْوَلِيدَ بِنَ الْمُغْيِرَةِ كَانَ يُرَبِّي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَبَقِيَ لَهُ بَقَايَا عَلَى ثَقِيفٍ، فَأَرَادَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمُطَالَبَةَ بِهَا - بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ - فَزَلَّتْ [الْآيَةُ]»<sup>١</sup>.

١. تفسير الرازي ٧: ٩٧. ٢. في مجمع البيان وتفسير الصافي: عن أبي جعفر الباقر.

٣. مجمع البيان ٢: ٦٧٣، تفسير الصافي ١: ٦٧٣.

وقيل: كان العباس بن عبد المطلب وخالد شريكَيْن في الجاهلية يُسلفان في الربا، فجاء الإسلام، ولهما أموال عظيمة [في الربا] فأنزل الله [هذه] الآية، فقال النبي ﷺ: «ألا إن كل ربا في الجاهلية مَوْضُوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب، وكل دم في الجاهلية مَوْضُوع، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب»<sup>١</sup>.

وعن القمي رحمه الله: لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ قام خالد بن الوليد، فقال: يا رسول الله ربا<sup>٢</sup> أبي في ثقيف، وقد أوصاني عند موته بأخذه، فأنزل الله<sup>٣</sup>: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أيرتم به من الاتقاء، وتترك بقايا الربا، فقد عارضتم الله، وتجرأتم عليه ﴿فَأَذِّنُوا﴾ واعلموا ﴿يَحْزَبٌ﴾ عظيمة، وغضب شديد، وعذاب أليم، كائن ﴿مِنْ أَفْءٍ﴾ بالنار ﴿وَوَ﴾ مِنْ ﴿رَسُولِهِ﴾ بالقتال والسيف.

رُوي أنه كان لثقيف مال على بغض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، فنزلت الآية، فقالت ثقيف: لا بد لنا بحزب الله ورسوله<sup>٤</sup>.

﴿وَإِنْ تُبْتِغُوا﴾ مِنْ أَخْذِ الرِّبَا بَعْدَ مَا سَمِعْتُمُوهُ مِنَ النَّهْيِ وَالزَّعِيدِ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ﴾ أن تأخذوها كاملاً ﴿لَا تَغْلِبُونَ﴾ غرماكم بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أنتم مِنْ قِبَلِهِمْ بالتقصيص والمطالبة.

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ وَوُجِدَ فِي غُرْمَانِكُمْ ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ وغير متمكن مِنْ تَهْنِئَةِ المال - زائداً على المستثنيات المعهودة في الفقه - بسبب التلف، أو كساد المتاع، أو انقطاع تصرفه عنه مع وجوده، بظلم ظالم ونحوه ﴿فَتَنْظِرَةٌ﴾ وإمهال واجب عليكم ﴿إِلَى﴾ زمان حُصُولِ ﴿مَيْسَرَةٍ﴾ وقُدرة على الأداء، فلا يجوز مطالبته بالدين.

عن الصادق عليه السلام، قال: «خَلَوْا سَبِيلَ الْمُغِيرِ كَمَا خَلَاهُ اللهُ»<sup>٥</sup>.

رُوي أنه لما نزلت آية ﴿فَأَذِّنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قالت الإخوة الأربعة الذين كانوا يُعاملون بالربا: كل نتوب إلى الله، فإنه لا طاقة لنا بحزب الله ورسوله، فرضوا برأس المال، وطالبوا بني المغيرة بذلك، فشكا بنو المغيرة العُسرة، وقالوا: آخرونا إلى أن تُدرك الغلات، فأبوا أن يؤخروهم، فنزلت

٢. كذا، والظاهر رابي بمعنى أعطى ماله بالربا.

٤. تفسير أبي السعود ١: ٢٦٧.

١. مجمع البيان ٢: ٦٧٣.

٣. تفسير القمي ١: ٩٣، تفسير الصافي ١: ٢٨١.

٥. الكافي ٤: ٣٠٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

﴿وَأِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾<sup>١</sup>.

وفي التعبير بـ(ذو عُسْرَةٍ) ذُون (ذا عسرة) دلالة على عُمُوم الحُكْم لِعُمُوم الصَّدِيقِينَ، وعدم اختصاصه بالرُّبَا.

عن النبي ﷺ: «لَا يَجِلْ ذَيْنَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فَيُؤَخَّرَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ»<sup>٢</sup>.

وعنه ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ، أَنْجَاهُ اللَّهِ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>٣</sup>.

عن الصادق عليه السلام قال: «صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمِنْبَرَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى أَنْبِيَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ، أَلَا وَمَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً، كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ بِجَلِّ مَالِهِ، حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ - ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام -: ﴿وَأِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾»<sup>٤</sup> الخبر<sup>٥</sup>.

عن العياشي: عن الرضا عليه السلام أَنَّهُ سِئِلَ عَنْ هَذِهِ النَّظِرَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ، لَهَا حَدٌّ يُعْرِفُ، إِذَا صَارَ هَذَا الْمُعْسِرُ لَابِذَ لَهُ مِنْ أَنْ يُنْظَرَ، وَقَدْ أَخَذَ مَالَ هَذَا الرَّجُلِ وَأَنْفَقَهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَلَيْسَ لَهُ غَلَّةٌ يَنْتَظِرُ إِدْرَاكَهَا، وَلَا ذَيْنَ يَنْتَظِرُ مَحِلَّةَ، وَلَا مَالَ غَائِبٍ يَنْتَظِرُ قُدُومَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَنْتَظِرُ بِقَدَرِ مَا يَنْتَهِي خَبَرُهُ إِلَى الْإِمَامِ، فَيَقْضِي عَنْهُ مَا عَلَيْهِ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ، إِذَا كَانَ أَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانَ أَنْفَقَهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَا شَيْءَ لَهُ عَلَى الْإِمَامِ» قِيلَ: فَمَا لِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي أَتَمَّنَّهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ فِيمَا أَنْفَقَهُ، فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَمْ فِي مَعْصِيَتِهِ؟ قَالَ: «يَسْعَى لَهُ فِي مَالِهِ، فَيُرَدُّهُ وَهُوَ صَاحِرٌ»<sup>٥</sup>.

وعن القمي عليه السلام: عن النبي ﷺ: «مَا مِنْ غَرِيمٍ ذَهَبَ بِغَرِيمِهِ إِلَى وَالٍ مِنْ وُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاشْتَبَانَ لِلْوَالِي عُسْرَتَهُ، إِلَّا بَرَى هَذَا الْمُعْسِرَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَصَارَ ذَنْبُهُ عَلَى وَالِي الْمُسْلِمِينَ فِيمَا فِي يَدَيْهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ»<sup>٦</sup>.

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ على الْمُعْسِرِينَ بِإِبْرَاءِ ذَمِّهِمْ مِنَ الدَّيْنِ كُلِّهِ، فَهُوَ «خَيْرٌ لَكُمْ» وَأَكْبَرُ ثَوَاباً مِنَ الْإِنْظَارِ وَ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك عَمَلْتُمْ بِهِ.

عن الصادق عليه السلام: «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُعْسِرٌ، فَتَصَدَّقُوا بِمَا لَكُمْ عَلَيْهِ»<sup>٧</sup>.

١. تفسير الرازي ٧: ١٠٢.

٢. تفسير الرازي ٧: ١٠٣.

٣. مصابيح السنة ٢: ٢١٣١/٣٤١، تفسير روح البيان ١: ٤٣٨.

٤. تفسير العياشي ١: ٦٢٥/٢٨١، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

٥. تفسير القمي ١: ٩٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

٦. تفسير القمي ١: ٩٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

٧. تفسير الصافي ١: ٢٨٢.



وعنه عليه السلام: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُظِلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - قَالَهَا ثَلَاثًا، فَهَابَهُ النَّاسُ أَنْ يَسْأَلُوهُ، فَقَالَ -: فَلْيَنْظُرْ مُعْصِرًا، أَوْ لِيَدْعُ لَهُ مِنْ حَقِّهِ»<sup>١</sup>.

رُوي أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: يَا [أَبَا] عَبْدِ اللَّهِ قَرَضْتُ إِلَى مَيْسَرَةٍ. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِلَى غَلَّةٍ تَذْرُكُ» فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا وَاللَّهِ. قَالَ: «فَالِي تِجَارَةٍ تُؤَوِّبُ» قَالَ: لَا وَاللَّهِ. قَالَ: «فَالِي عَقْدَةٍ<sup>٢</sup> تُبَاعُ» فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «فَأَنْتَ مِمَّنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْوَالِنَا حَقًّا» ثُمَّ دَعَا بِكَيْسٍ فِيهِ دَرَاهِمٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ، فَنَاولَهُ مِنْهُ قَبْضَةً<sup>٣</sup>.

### وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٢٨١]

ثُمَّ خَتَمَ سُبْحَانَهُ أَحْكَامَ الرُّبَا والمُعْصِرَ بالتَّوَعِيدِ بالعِقَابِ عَلَى الْمُخَالَفَةِ، وَالْوَعْدَ بِالنَّوَابِ عَلَى الطَّاعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ عَظِيمًا، كَثِيرَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وَتُرْدُونَ ﴿فِيهِ﴾ قَهْرًا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وَحُكْمِهِ، فَيُحَاسِبُ فِيهِ أَعْمَالَكُمْ ﴿ثُمَّ تُوَفَّى﴾ وَتُعْطَى كَامِلًا ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنَ الْمُطِيعِ وَالْعَاصِي ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وَحَصَلَتْ مِنْ جِزَاءِ أَعْمَالِهَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بِتَنْقِصِ ثَوَابٍ أَوْ زِيَادَةِ عِقَابٍ. وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لِتَوْفِيَةِ الْجَزَاءِ، وَإِشْعَارٌ بِأَنَّ الْعَذَابَ - وَإِنْ كَانَ مُؤَبَّدًا، وَفِي أَعْلَى مَرْتَبَةِ الشَّدَةِ - لَا يَكُونُ ظُلْمًا، بَلْ هُوَ عَلَى حَسَبِ الْإِسْتِحْقَاقِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: هَذِهِ آيَةٌ أُخْرَى نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ﷺ لَمَّا حَجَّ نَزَلَتْ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾<sup>٤</sup> وَهِيَ آيَةُ الْكَلَالَةِ، ثُمَّ نَزَلَ وَهُوَ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾<sup>٥</sup> ثُمَّ نَزَلَ ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فَقَالَ جَبْرِئِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، ضَعُهَا عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ آيَةٍ وَمَاتِي آيَةً مِنَ الْبَقَرَةِ، وَعَاشَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهَا أَحَدًا وَثَمَانِينَ يَوْمًا<sup>٦</sup>.

أَقُولُ: قِيلَ: أَحَدًا وَعِشْرِينَ، وَقِيلَ: سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ سَاعَاتٍ<sup>٧</sup>. وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ مَا رُويَ مِنْ أَنَّ سُورَةَ النَّصْرِ آخِرُ مَا نَزَلَ؛ لِأَنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ، وَهَذِهِ آخِرُ آيَةٍ.

١. الكافي ٤: ١٣٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

٢. المُقَدَّةُ: كُلُّ مَا يَمْتَلِكُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ ضَيْعَةٍ، أَوْ عَقَارٍ، أَوْ مَتَاعٍ، أَوْ مَالٍ ...

٣. الكافي ٣: ١٤/٥٠١، تفسير الصافي ١: ٢٨٢.

٤. النساء: ٤/١٧٦.

٥. المائدة: ٥/٣.

٦ و ٧. تفسير الرازي ٧: ١٠٤.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ  
كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي  
عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا  
أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ  
مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ  
أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا  
تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ  
لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ  
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ  
تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* وَإِنْ  
كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانًا مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ  
الَّذِي أَوْثُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ  
قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [٢٨٣ و ٢٨٢]

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان حكم دين المتغير من وجوب إنظاره، واستحباب التصديق عليه، بين طريق  
حفظ الدين عن التورى<sup>١</sup> والتلف بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ وتعاملتم ﴿بِدِينٍ﴾  
وبعوض في الدَّمة، سلماً كانت المعاملة أو نسيئة ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ وأمدٍ ﴿مُسَمًّى﴾ ومُعَيَّنٍ مشروط في  
العقد كالإيؤم والشَّهر والسنة، دون غير المُعَيَّن عند المتعاملين كالحصاد والدياس<sup>٢</sup> وقدوم الحاج لعدم  
الخلافاً ظاهراً في أن التوقييت بأمثالها مُفسِدٌ للمعاملة.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في السلف؛ لأن النبي ﷺ قَدِمَ المدينة وهم يُسْلِفون في التَّحَرُّ  
السَّيِّئِينَ والثلاث، فقال ﷺ: «مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزَنٍ مَعْلُومٍ»<sup>٣</sup>.  
قيل: في ذِكْرِ الدَّيْنِ مُتَكَرراً دلالة على أن اشتراط كَوْنِ الدَّيْنِ في المعاملة واجداً، ثَمَنًا كان أو مُثْمَنًا،

١. التَّورَى: أي الهلاك والتلف.

٢. الدِّيَّاس: دوس الحصيد ليخرج الحب منه، وذلك بوطئه بالأرجل أو غيرها.

٣. تفسير الرازي ٧: ١٠٨.

وعليه لا يجوز بيع الدين بالدين؛ لأنه معاملة بدئيتين لا بدئتين، وهو المعروف بالكالي<sup>١</sup>، ولا خلاف في بطلانه.

قيل: ما من لذة، ولا منفعة، يوصل إليها بطريق محرم، إلا جعل الله سبحانه للوصول إلى تلك اللذة والمنفعة طريقاً حلالاً، وسبيلاً مشروعاً<sup>٢</sup>. ولما حرم الله الاستفادة الرئج بطريق الربا، أذن في بيع السلم والنسيئة؛ لوجود جميع المنافع المطلوبة في الربا فيهما.

ثم بين سبحانه طريق الاحتياط في الأجل والكيل والوزن في الدين بقوله: ﴿فَاكْتِثُوهُ﴾ بجنسه وصفاته ووزنه وأجله؛ لتكون الكتب أوثق وأدفع للتراخ. ولا شبهة أن الأمر هنا ليس للوجوب النفسي، بل للإرشاد أو الاستحباب.

عن (العِلَل): عن الباقر عليه السلام: «أن الله عز وجل عرض على آدم أسماء الأنبياء وأعمارهم، قال: فمر بآدم اسم داود النبي، فإذا عمره في العالم أربعون سنة، فقال آدم: يا رب ما أقبل عمر داود وأكثر عمري يا رب إن أنا زدته<sup>٣</sup> داود ثلاثين سنة ثبت ذلك له؟ قال: نعم يا آدم، قال: فاني قد زدته من عمري ثلاثين سنة، فأنفذ ذلك وأثبتها له عندك، وأطرحها من عمري».

قال أبو جعفر عليه السلام: «فأثبت الله عز وجل لداود في عمره ثلاثين سنة، وكانت له عند الله<sup>٤</sup> مئبته. فذلك قوله عز وجل: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾<sup>٥</sup> فمحا الله ما كان عنده مئباً لآدم، وأثبت لداود ما لم يكن عنده مئباً.

قال: فمضى عمر آدم فهبط ملك الموت لقبض روحه، فقال له آدم: يا ملك الموت إنه قد بقي من عمري ثلاثون سنة، فقال له ملك الموت: يا آدم ألم تجعلها لابنك داود النبي، وطرحتها من عمرك حين عرض عليك أسماء الأنبياء من ذريتك، وعرضت عليك أعمارهم، وأنت يومئذ بوادي الأحياء<sup>٦</sup>؟ فقال له آدم: ما أذكر هذا.

قال: فقال له ملك الموت: يا آدم لا تتخذ، أفلم تسأل الله عز وجل أن يثبتها لداود ويمحوها من عمرك، فأثبتها لداود في الزبور ومحاها من عمرك في الذكر؟ قال آدم: حتى أعلم ذلك».

٣. في النسخة: ازدادت.

١. الكالي: أي المتأخر. ٢. تفسير الرازي ٧: ١٠٨.

٥. الرعد: ٣٩/١٣.

٤. في النسخة: عند ذلك.

٦. في المصدر: بوادي الدخياء.

قال أبو جعفر عليه السلام: «وكان آدم صادقاً» قال: «لَمْ يَذْكُرْ، وَلَمْ يَجْحَدْ، فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعِبَادَ أَنْ يَكْتُبُوا بَيْنَهُمْ إِذَا تَدَايَنُوا وَتَعَامَلُوا إِلَى أَجَلٍ، لِأَجْلِ نِسْيَانِهِ<sup>١</sup> وَجُحُودِهِ [مَا] عَلَى نَفْسِهِ» انتهى<sup>٢</sup>.

أقول: مع وَضُوح مَصْلَحَةِ كِتَابَةِ الدَّيْنِ عَلَى كُلِّ ذِي مُشْكَةٍ<sup>٣</sup>، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْإِطْلَاعِ عَلَى وَقُوعِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنْ آدَمَ، فِي تِلْكَ الرِّوَايَةِ وَجُوهٌ مِنَ الْإِشْكَالِ:

أَحَدُهَا: دَلَالَتُهَا عَلَى نِسْيَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ ثُبُوتِ عِصْمَتِهِ مِنْهُ عَقْلاً.

وِثَانِيهَا: جُحُودُ آدَمَ مَا أَخْبَرَ الْمَلَكَ الْمَعْصُومَ بِثُبُوتِهِ، مَعَ أَنَّهُ مُوجِبٌ لِلْقَطْعِ بِهِ.

وِثَالِثُهَا: أَنَّ آدَمَ كَيْفَ بَدَّلَ سِنِينَ مِنْ عُمْرِهِ لِدَاوُدَ بِسَبَبِ إِطْلَاعِهِ عَلَى قِصْرِ عُمْرِهِ، وَلَمْ يَبْذُلْ يَوْماً مِنْهُ لِيَحْيَى وَعِيسَى، مَعَ أَنَّهُمَا أَفْضَلُ وَأَقْصَرُ عُمْراً مِنْ دَاوُدَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الرِّوَايَةَ مِنَ الْمَشْكَلاتِ الَّتِي يَجِبُ رَدُّ عِلْمِهَا إِلَى الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا أَمَرَ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ الْمُتَوَجَّلِ إِجْمَالاً، بَيَّنَّ كَيْفِيَّتَهَا وَالصِّفَةَ الْمُعْتَبَرَةَ فِيَمَنْ يَتَوَلَّاهَا بِقَوْلِهِ: «وَلْيَكْتُبْ» كِتَابَ الدَّيْنِ «بَيْنَكُمْ» أَيُّهَا الْمُتَعَامِلُونَ «كَاتِبٌ» كَانَ مِنْ كَانَ، وَلَكِنْ لَا بَدْ مِنْ كَوْنِ كِتَابِهِ مُتَبَسِّئاً «بِالْعَدْلِ» وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الدَّائِنِ وَالْمَذْيُونِ، مِنْ غَيْرِ مِثْلِ إِلَى أَحَدِهِمَا، بِحَيْثُ لَا يُزِيدُ فِي مِقْدَارِ الدَّيْنِ وَالْأَجَلِ وَلَا يُنْقِصُ وَلَا يُغَيِّرُ.

وَقِيلَ: إِنَّ مِنْ عَدْلِ الْكَاتِبِ أَنْ لَا يُجْجِلَ وَلَا يُهْجِلَ فِي عِبَارَةِ الْكِتَابِ، وَأَنْ يَكْتُبَهُ عَلَى نَحْوِ تَكُونِ صِحَّتِهِ مُتَّفَقاً عَلَيْهَا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى لَا يَتَرَدَّدَ فِيهَا عَالِمٌ.

وَقِيلَ: فِي ذِكْرِ (بَيْنَكُمْ) إِشْعَارٌ بِأَنَّ لِلْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ السَّنَدَ، مَعَ حُضُورِ الْمُتَدَايِنَيْنِ، وَلَا يَكْتَفِي بِتَقْرِيرِ أَحَدِهِمَا.

فَإِذَا دَعَا الْمُتَعَامِلَانِ كَاتِباً يَنْبَغِي لَهُ إِجَابَتُهُمَا «وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ» مِنَ الْكِتَابِ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْ «أَنْ يَكْتُبَ» كِتَابَ الدَّيْنِ «كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ» وَمِثْلَ مَا عَرَفَ بِفَضْلِهِ تَعَالَى مِنْ كِتَابَةِ الْحَقِّجِ وَالْوَثَائِقِ، مِنْ إِضْاحِ مَدَالِيلِهِ وَشَرَائِطِهِ، بِلَا إِغْلَاقٍ وَلَا خَلَلٍ.

٢. علل الشرائع: ١/٥٥٣.

١. في المصدر: إلى أجل مسمى لنسيان آدم.

٣. المُسْكَة: الرأي والعقل.

وقيل: إن المراد من أن لا يَأْب الكَاتِب، من أن يتنفع النَّاس بِكِابته، كما نَفَعَهُ اللهُ بِعِلْمِها وَعَلِمَهُ إِياها، فيكون نظير: أَحْسَنَ كما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ.

ثم أكد سبحانه الأمر بالكاتب بالعدل؛ بقوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكَاتِبُ كِتَابَ الدِّينِ مُطَابِقاً لِإِمْلَاءِ المَدْيُونِ، المُسْتَفَادِ مِنْ قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ المُطَالِبُ، وَلْيَقْرَها على الكَاتِبِ المعامِلُ ﴿الَّذِي﴾ ثَبَتَ ﴿عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ واستقرَّ على ذِمَّةِ الدَّيْنِ؛ لَأَنَّهُ الْمُقَرَّرُ والمَشْهُودُ عليه ﴿وَلْيَتَّقِ﴾ المَدْيُونُ الْمُمْلِيَّ في إِمْلَائِهِ ﴿أَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ﴾.

وفي الجَمْعِ بَيَّنَّ اسْمُ الجَلَالَةِ والنُّعْتُ الجَبِيلُ مُبَالَغَةٌ في التَّحْذِيرِ مِنَ الإِمْلَاءِ بِخَوْفٍ يَكُونُ فِيهِ ضَبَاعٌ حَقُّ الدَّائِنِ، لِمَا فِي الْمُمْلِيِّ مِنَ الدَّاعِي النَّفْسَانِي إِلَى تَغْيِيرِ الدَّيْنِ، وَدَفْعِ الصَّرَرِ عَنْ نَفْسِهِ، وَتَخْفِيفِ مَا فِي ذِمَّتِهِ.

ولذا أكد الأمر بالإنهاء بالنهي عن البُخْسِ بقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ مِنَ الدَّيْنِ وَلَا يَنْقُصْ ﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾ وَإِنْ كَانَ يُمْتَلَأُ ذَرَّةً مِنْ خَزْدَلٍ ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ العَامِلُ ﴿الَّذِي﴾ اسْتَقَرَّ ﴿عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وَالدَّيْنُ ﴿سَفِيهاً﴾ نَاقِصُ الْعَقْلِ غَيْرُ مُمَيَّزٍ بَيْنَ الْمُعَامَلَةِ النَّافِعَةِ وَالْمُضَرَّةِ.

عن الصادق عليه السلام: «السَّيْفُ: الَّذِي يَشْتَرِي الدَّرْهَمَ بِأَضَاعَةٍ»<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد المُبَدَّرُ الَّذِي يَصْرِفُ الْمَالِ فِي الْأَغْرَاضِ غَيْرِ الْعَقْلَانِيَّةِ<sup>٢</sup>.

﴿أَوْ﴾ كَانَ «ضَعِيفاً» لَصَبَاوَةً أَوْ شَيْخُوخَةً أَوْ هَرَمَ بَحِثَ صَارَ مُخْتَلِ الحَوَاسِ.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «يَعْنِي ضَعِيفاً فِي بَدَنِهِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُعِلَّ، أَوْ ضَعِيفاً فِي فَهْمِهِ وَعِلْمِهِ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يُعِلَّ وَيُمَيِّزَ الْأَلْفَافِ الَّذِي هِيَ عَدْلٌ عَلَيْهِ وَلَهُ، مِنَ الْأَلْفَافِ الَّتِي هِيَ جَوْرٌ عَلَيْهِ وَعَلَى حَمِيمِهِ»<sup>٣</sup>.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِلَّ هُوَ﴾ مَقْصُودُهُ عَلَى الْكَاتِبِ، لَخَرَسٍ أَوْ جَهْلٍ.

عن (تفسير الإمام عليه السلام): «هُوَ بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ شَغُولاً فِي مَرَمَةِ المعاش<sup>٥</sup>، أَوْ تَرَوُّدِ المعاد<sup>٦</sup>، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مَحْرَمٍ. فَإِنَّ تِلْكَ الْأَشْغَالَ الَّتِي لَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَشْرَعَ فِي غَيْرِهَا»<sup>٧</sup>.

أقول: الظاهر أن المراد مُطْلَقٌ مَنْ يَتَعَدَّرُ أَوْ يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِ الْحُضُورُ عِنْدَ الْكَاتِبِ، أَوِ الْبَيَانُ وَالْإِمْلَاءُ

١. التهذيب ٩: ١٨٢/٧٣١، تفسير الصافي ١: ٢٨٤. ٢. في النسخة: العقلانية.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٩/٦٣٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٤.

٤. مَرَمَةُ المعاش: إصلاحه والسعي فيه. ٥. في المصدر: لمعاش.

٧. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٦٩/٦٣٤، تفسير الصافي ١: ٢٨٤.

٦. في المصدر: لمعاد.

عليه، مع استجماعه شرائط نفوذ الإقرار، من البلوغ والعقل.

وحديثه ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ ولتقرر على الكاتب بدلاً من المدّيون ﴿وَلِيَّتُهُ﴾ ومن إليه أموره شرعاً، من الأب والجَد للأب، في السّفيه الذي بلغ فاسد العقل وفي الصّبي، ومن الفقيه العادل، في السّفه والجُنون المنفصلين الطّارئين بعد البلوغ - على الأظهر الأشهر -، ومن عدول المؤمنين عند فقد أولئك الأولياء، ومن الزكيل والمترجم في غير الأضعاف المذكورة. ولا بدّ من أن يكون إملأوهم مُلتبساً ﴿بِالْعَدْلِ﴾ والتوسط من غير نقص ولا زيادة ولا تغيير.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾ وأحضروا لتحمل الشهادة على الدّين وخصوصياته، عند الكتابة ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ كائنين ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ وأهل دينكم، من البالغين العاقلين، فلا تقبل شهادة الصّبي، والكافر. وعلى مدّهنبا يعتبر فيها أن يكونا من أهل الولاية، فلا تقبل شهادة غيره. وإطلاق الشّاهد قبل تحمّل الشهادة مجاز بعلاقة المشاركة.

وعن بعض الفضلاء: الفرق بين الشاهد والشّاهد: أنّ الشاهد بمعنى الحُدوث، والشّاهد بمعنى الثبوت، فإذا تحمّل الشهادة فهو شاهد باعتبار الحُدوث والتحمّل، فإذا ثبت تحمّله زمانين أو أكثر فإنه شهيد<sup>٢</sup>.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ لإغواهما، أو لعلّة أخرى ﴿فَرَجُلٌ﴾ واجد ﴿وَأَمْرَاتَانِ﴾ كافٍ في الشهادة، وإثبات الحق، حيث إنهم يقومون مقام رجلين ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشّٰهَدَاءِ﴾. روي في تفسيره عليه السلام: «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ دينه وأمانته، وصّلاحه وعفته، وتيقظه في ما يشهد به، وتحصيله وتمييزه، فما كل صالح مُميّز ولا مُحصل، ولا كل مُحصل مُميّز صالح، وإن من عباد الله لمن هو أهل لصّلاحه وعفته، ولو شهد لم تقبل شهادته لقلّة تميّزه»<sup>٣</sup> الخبر. وتخصيص الرجل وامرأتين بالوصف - مع اعتباره في الشاهد مطلقاً - لقلّة انصاف النساء به.

ثمّ بين سبحانه علّة اعتبار التعدّد في النساء بقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ وتنسى الشهادة ﴿إِخْدَاهُمَا﴾ ذلك توطئة لبيان العلّة الحقيقيّة ومحقّق لموضوعها، وهي قوله: ﴿فَتَذَكَّرُ﴾ النّاسية ﴿إِخْدَاهُمَا الْآخَرَى﴾ لوضوح أنّه لو لا النسيان لا يتحقّق التذكّار.

١. في كنز العرفان: حدوث تحمله وإذا.

٢. كنز العرفان ٢: ٥٠.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧٥/٦٧٢، تفسير الصافي ١: ٢٨٤.

وحاصل الآية أن اعتبار التعدد لأجل أن تذكّر إحداهما الأخرى، إن ضلّت الأولى ونسيّت الشهادة.

في أن المراد من  
نهي الشهادة من  
الإباء، الإباء من  
التحمل، وإمكان  
إرادة الأعم  
ثم أنه تعالى - كما نهى الكاتب عن الامتناع من الكتابة - نهى الشاهد عن الإباء عن  
الحضور لتحمل الشهادة أو لأدائها، بقوله: ﴿وَلَا يَأْتِ الشَّهَدَاءُ﴾ عن التحمل أو أداء  
الشهادة ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾ إلى التحمل أو الأداء.  
في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتِ الشَّهَدَاءُ﴾ قال:  
«قيل الشهادة»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام، في تفسير الآية، قال: «لا ينبغي لأحد إذا دعي إلى شهادة ليشهد عليها، أن يقول: لا أشهد  
لكم عليها»<sup>٢</sup>.

وقريب منها أو يثقلها عدة روايات أخر، الظاهرة في كون المراد حرمة الإباء عن التحمل<sup>٣</sup>. ولا  
معارض لها، إلا ما عن (تفسير الإمام عليه السلام): عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «تفسير هذه الآية: مَنْ كَانَ فِي  
عَقْه شهادة، فلا يَأْتِ إذا ما دعي لإقامتها»<sup>٤</sup>.

ومن الواضح أن هذه الرواية مع ضعف السند، لا تكافئ الروايات الكثيرة المعتبرة، مع إمكان  
الجمع بالقول بأن متعلق ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾ أعم من التحمل والأداء، ولا يرد عليه ما قاله الفاضل  
المقداد عليه السلام من استلزامه استعمال المشترك في أكثر من معنى<sup>٥</sup>، لوضوح أنه على تقدير جعل المقدار  
الأعم من التحمل والأداء، لم يستعمل لفظ الدعوة في غير معناه الظاهر، وتكون الكثرة في  
المحذوف، وهو المدعو إليه.

ويمكن أن يكون نظره عليه السلام إلى أنه على تقدير إرادة الأعم، لزم استعمال لفظ الشهادة في المعنى  
الحقيقي والمجازي، حيث إن استعماله في مَنْ لَمْ يَتَحَمَّلْ بَعْدَ، مجازٌ بعلaque المشارفة، فتأمل.

ثم إن النهي عن الإباء دالٌّ بالالتزام على الأمر بالإجابة، فتكون الإجابة واجبة، ولا بد من القول بكون  
وجوبها كفاً لِمَعْلُومِيَةِ الغرض، كما أن وجوب الكتابة على الكاتب كذلك، ولا منافاة بين كون أمر  
المدّيون بالاستيكتاب والاستيكتاب إرشادياً أو نذيباً، وبين كون الأمر بالكتابة وتحمل الشهادة على

١. الكافي ٧: ٣٨٠، ٤؛ تفسير الصافي ١: ٢٨٥. ٢. الكافي ٧: ٣٧٩، ١؛ تفسير الصافي ١: ٢٨٥.

٣. الكافي ٧: ٣٨٠، ٣-٦.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧٨/٦٧٦؛ تفسير الصافي ١: ٢٨٥.

٥. كنز العرفان ٢: ٥٤.

الكاتب والشاهد وجوباً مؤلّوياً، كما لا يخفى.

ثم وجه شبحانه الخطاب إلى المديونين ونهاهم عن التواني في الكتابة بقوله: ﴿وَلَا تَسْتُمُوا﴾ ولا تملّوا لكثرة مدايناتكم، أو لقلّة هذا الدّين، من ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ سواء كان «صغيراً» وقليلاً كدينار أو «أكبراً» وكثيراً كمائة أو ألف، حال كونه مستقراً في الدّمة ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ المعيّن، ووقته المعلوم.

قال بعض: الملالة والكسالة من الشيطان.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقول المؤمن كسلت»<sup>١</sup>.

ثم بين شبحانه فوائد الكتّاب بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الكتّاب ﴿أَقْسَطُ﴾ وأعدّل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي حكمه، حيث إنّ فيه حفظ الحقّ ﴿وَأَقْوَمُ﴾ وأثبت ﴿لِلشَّهَادَةِ﴾ وأعوان على إقامتها ﴿وَأَذْنَى﴾ وأقرب إلى ﴿أَنْ﴾ تكونوا مؤقنين به ﴿لَا تَرْتَابُوا﴾ ولا تشكّوا فيه من حيث الجنس والمقدار والوصف والأجل، وسائر ما اعتبر فيه.

فتحصّل من الآية أنّ للكتابة ثلاث فوائد:

الأولى: كونها أقسط باعتبار أنّ المتدائنين إذا وجدوا كتاباً، فلا بدّ لهم من العمل، فلا يقع التّعدي من أحدهما على الآخر.

والثانية: أنّ الشاهدين إذا نسوا القضيّة، تكون الكتابة سبباً لحفظها وتذكرها، ثمّ أنّه قد يكون المتدائنان حاضرين لأداء الحقّ، ولكن قد يكون في قلبهما ريّب؛ إمّا في أصله، أو في مقداره، أو أجله.

والفائدة الثالثة: أن تكون الكتابة موجهة لزوال ريبهما.

فيل: إنّ تعالى بالغ في هذه الآية المباركة في التأكيد، والبسط الشديد في الأمر بكتابة الدّين والإشهاد عليه، بعد المنع عن تحصيل المال بالرّبّا، مع بئانه تعالى في بيان الأحكام في الكتاب المجيد على الاختصار، نظراً إلى حفظ المال الحلال عن الصّياح والبوار، حتى يتمكن المؤمن من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مسأخطته من طلب المال بالرّبّا، وسائر الوجوه المحرّمة. ثمّ بين شبحانه عدم الرّجحان للكتابة في المعاملة التّقديّة بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ المعاملة «تجارة»



حَاضِرَةً ﴿ وَمُعَامَلَةٌ تَقْدِيَّةٌ ﴾ تَدِيرُوهَا ﴿ وَتَعَاطُونَهَا ﴾ بَيْنَكُمْ ﴿ يَدًا بِيَدٍ ﴾ فَإِنْ كَانَتِ الْمُعَامَلَةُ هَكَذَا ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ وَضَرَرٌ ﴿ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا ﴾ لِتُعْجِلَهَا عَنْ الشَّيْءِ وَالتَّنَازُعِ ﴿ وَ ﴾ لَكِنْ ﴿ أَشْهَدُوا ﴾ شَهِدَيْنِ ﴿ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كَانَ الْبَيْعُ تَقْدِيًّا أَوْ سَلَمًا أَوْ سَيْنَةً، لَكُونَهُ أَحْفَظَ ﴿ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ يَحْتَمِلُ كَوْنُ الْفِعْلِ مَبْنِيًّا عَلَى الْفَاعِلِ، وَعَلَى الْمَفْعُولِ؛ فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ نَهْيًا لِلكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ عَنِ الْإِضْرَارِ بِالْمُتَدَايِنِينَ، بِتَرْكِ الْإِجَابَةِ، أَوْ التَّغْيِيرِ، أَوْ التَّحْرِيفِ فِي الْكُتُبِ وَالشَّهَادَةِ. وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ نَهْيًا لِلْمُتَدَايِنِينَ عَنِ الْإِضْرَارِ بَعِثًا، بِأَنْ يُعْجِلَاهُمَا عَنْ مَهِمَّاتِهِمَا، أَوْ يُلْزِمَاهُمَا عَلَى الْخُرُوجِ عَنِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْكِتَابَةِ وَالشَّهَادَةِ، أَوْ لَا يُعْطِيَا الْكَاتِبَ جَعْلَهُ، وَالشَّاهِدَ مُؤَنَةً مَجْبِيهَةً. وَالثَّانِي هُوَ الْأَطْهَرُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَهُ، مُخَاطِبًا لِلْمُتَدَايِنِينَ: ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا ﴾ مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ مِنَ الْإِضْرَارِ ﴿ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ ﴾ وَخُرُوجٌ عَنِ حُدُودِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، مُلْتَبِسٌ ﴿ بِكُمْ ﴾.

ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فِي مُخَالَفَةِ أَحْكَامِهِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا حُرْمَةُ الْإِضْرَارِ ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ مَا فِيهِ صَلَاحٌ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ مَصَالِحِ الْأُمُورِ وَمَقَابِدِهَا، وَحُسْنِ الْأَشْيَاءِ وَتُبْحِهَا ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

وَتَكْرِيرَ لَفْظِ الْجَلَالَةِ فِي الْجُمْلَةِ الثَّلَاثِ، لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ وَقِيلَ: لِلتَّيْنَةِ عَلَى اسْتِقْلَالِ كُلِّ مِنْهَا بِمَعْنَى عَلَى حِيَالِهِ، حَيْثُ إِنَّ الْأَوَّلَى حَتٌّْ عَلَى التَّقْوَى، وَالثَّانِيَةِ وَعَدٌّ بِالْإِنْعَامِ، وَالثَّلَاثَةَ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ تَعَالَى. أَقُولُ: فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ إِشْعَارٌ بِحُكْمَةِ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى، وَإِنَّهُ لَصَلَاحٌ رَاجِعٌ إِلَى الْعِبَادَةِ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، وَفِي الثَّلَاثَةِ ذَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ امْكَانِ الْخَطَا وَالْإِشْتِيََاءِ مِنْهُ تَعَالَى فِي مَا عَلِمَهُ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْآيَةَ الْمُبَارَكَةَ أَطْوَلَ آيَةٍ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَفِيهَا ذَلَالَةٌ عَلَى كَمَالِ لُطْفِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَنِهَايَةِ رَفْعِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ حَافِظًا لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ مِنَ الْإِهْتِمَامِ، يَكُونُ لِمَصَالِحِ آخِرَتِهِمْ أَحْفَظَ بِمَرَاتِبٍ، وَأَنَّهُ لَا يَرْضَى بَوُقُوعَ الظُّلْمِ وَالتَّنَازُعِ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْقِيَامَ بِخَوَائِجِهِمْ وَإِعَانَتَهُمْ عَلَى إِحْقَاقِ حُقُوقِهِمْ.

عَنِ الْقَمِيِّ رحمته الله فِي [سُورَةِ] الْبَقَرَةِ خَمْسَمَانَةَ حُكْمٍ، وَفِي [هَذِهِ] الْآيَةِ خَمْسَةُ عَشَرَ حُكْمًا ٢.

فِي شَرْعِيَّةِ أَخْذِ ثَمَّ بَيِّنِ شَبَحَانَهُ طَرِيقًا آخَرَ لِحِفْظِ الدُّيُونِ، أَوْثَقُ مِنَ الْكِتَابَةِ، وَهُوَ أَخْذُ الرَّهْنِ وَالْوَثِيقَةِ الرَّهْنِ لِلدِّينِ وَعَدَمِ عَلَيْهَا، بِقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ ﴾ رَاكِبِينَ ﴿ عَلَى سَفَرٍ ﴾ وَمُتَلَبِّسِينَ بِهِ، أَوْ مُشْرِفِينَ عَلَيْهِ اخْتِصَاصًا بِالسَّفَرِ

ومتوجهين إليه، واختجتم إلى الدائن ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب الدين بحيث تستوثقون بكتابته ﴿فَرِهَانٌ﴾ ووثائق من الأعيان ﴿مقبوضة﴾ ومسلمة إليكم، قائمة مقام الكتابة، بل أحفظ منها للدين. وإنما شرط السفر في جواز الرهن - مع عدم كونه مشروطاً به، بل يجوز في الحضر إجماعاً - لكون السفر مظنة شدة الحاجة إليه، وانحصار طريق الاستيثاق به، لغلبة إعواز الكاتيب فيه. فالكلام خرج على الأعم الأغلب، وليس في الواقع على سبيل الاشتراط.

رؤي أنه رهن رسول الله ﷺ دَرَعه في المدينة من يهودي بعشرين صاعاً من شعير، وأخذه لأهله<sup>١</sup>.

في بيان اشتراط صحة الرهن بالقبض، ويعضده ما روي عن الصادق عليه السلام: «لا رهن إلا مقبوضاً»<sup>٢</sup>، وأدعي شهرته بين الأصحاب. والإشكال في دلالة الآية، بالقبض وسند الرواية - بل ودلالاتها - ضعيف في الغاية.

ثم بين سبحانه القسم الثالث من الدين، وهو ما لم يؤخذ عليه كتاب ولا رهن، بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ﴾ الدائن الذي هو ﴿بَغْضُكُمْ﴾ ومن جملتكم ﴿بَغْضًا﴾ آخر، وهو المديون، وإطمأن قلبه به، بحيث لا يخاف منه الجحود والإنكار، حتى يحتاج إلى الاستيثاق بالكتاب والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الْمَدْيُونُ الَّذِي آوْتُمْنَ﴾ على الدين إلى الدائن ﴿أَمَانَتَهُ﴾ وحقه. وإطلاق الأمانة عليه، لمعاملة الدائن مع المديون ودينه معاملة الأمين والأمانة، من عدم أخذ الكتاب والرهن والشهود عليه ﴿وَلْيَسْتَقِ الْمَدْيُونُ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ وَرَبَّهُ﴾ ومليكه اللطيف بإنكار هذا الدين الذي هو بمنزلة الأمانة، والمطالبة في أدائه.

ثم لما كانت الشهادة على الدين بمنزلة أمانة الدائن عند الشاهد، أمر سبحانه بأدائها ونهى عن كتمانها بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا﴾ أيها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ على حقوق الناس إذا دعيتم لأدائها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾ وأمتنع من أدائها عند الحاجة إليها ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ قيل: إن إسناد الإثم إلى القلب، لا شتراطه إثم جميع الجوارح، لكون القلب رئيسها، فمن كان قلبه آثماً كانت جميع جوارحه آثمة. عن الباقر عليه السلام، قال: «كافِرٌ قلبه»<sup>٣</sup>.

١. تفسير أبي السعود ٢: ٢٧٢.

٢. تفسير العياشي ١: ٢٨٣/٦٣٠، التهذيب ٧: ١٧٦/٧٧٩ عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٥/٣٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

وقيل: كيمان الشهادة هو أن يضيئها ولا يتكلم بها، فلما كان<sup>١</sup> مقترباً بالقلب أسيد إليه، لوضوح أن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، كما يقال: هذا مما أبصرته عيني، وعرفه قلبي<sup>٢</sup>.  
وقيل: هذا الإسناد: لئلا يظن أنه من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وليعلم أن القلب أصل متعلقه، ومتمدن اقترافه، واللسان تزجمان عنه، ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال الجوارح، إذ هي لها كالأصل الذي تنشعب منه. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب، فإذا جعل كيمان الشهادة من آثام القلب، فقد شهد له بأنه من معظّمات الذنوب<sup>٣</sup>.  
عن ابن عباس رضي الله عنه: أكبر الكبائر الإشراك بالله، لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾<sup>٤</sup> وشهادة الزور، وكيمان الشهادة<sup>٥</sup>.

وفي حديث مناهي النبي صلى الله عليه وسلم: «نهى عن كيمان الشهادة ... بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ﴾<sup>٦</sup>.  
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والمعصية، والخيانة في الأمانة وزدها، وكيمان الشهادة وأدائها **﴿عليهم﴾** فيجازيكم أوفق الجزاء. وفيه غاية التهديد.

لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُ  
يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ [٢٨٤]

ثم لزيادة الترهيب على المخالفة والكتمان، ذكر العباد سعة قدرته وإحاطة علمه، ونبههم بهما. أما سعة قدرته فبقوله: ﴿لَهُ﴾ بالملكية الحقيقية الإشرافية، لا الاعتبارية الإضافية ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جميعاً، لا يخرج موجود من الموجودات - في عوالم الملك والمملوكات، قويها وضعيفها وعظيمها وحقيقها - من تحت قدرته وسلطانه، فلا عجز له من عقوبة من عصاه، وإثابة من أطاعه، هذا سعة قدرته.

وأما إحاطة علمه سبحانه فبقوله: ﴿وَإِنْ تُبْذَرُوا﴾ تُظهروا بالقول أو الفعل ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾

١. أي الكتمان. ٢. تفسير روح البيان ١: ٤٤٣.

٣. تفسير روح البيان ١: ٤٤٣. ٤. المائدة: ٧٢/٥.

٥. تفسير روح البيان ١: ٤٤٣. ٦. من لا يحضره الفقيه ٤: ١/٧، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

وَقُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَالْإِرَادَاتِ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ ﴿أَوْ تُخَفَّوْهُ﴾ وَتَسْتَرَوْهُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْعَزَمَاتِ، دُونَ الْوَسَاوِسِ وَخَطُورَاتِ النَّفْسِ الَّتِي لَا عَقْدَ وَلَا عَزِيمَةَ فِيهَا، لَعَدَمِ الْوُشْعِ فِي دَفْعِهَا ﴿يُحَاسِبُكُمْ﴾

وَيُؤَاخِذُكُمْ ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ يَوْمَ الْحِسَابِ.

عن ابن عباس رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ [هَذِهِ] الْآيَةُ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَنَاشَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلفْنَا مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا نَطِيقُ، إِنْ أَحَدُنَا لَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمَا لَا يُحِبُّ أَنْ يُثَبِّتَ فِي قَلْبِهِ، وَأَنْ لَهُ الدُّنْيَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلْعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا». وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَكَثُوا فِي ذَلِكَ حَوْلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>٢</sup> فَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، مَا فِيهِ رَدٌّ اسْتِدْلَالٍ لَمْ يَعْمَلُوا وَيَتَكَلَّمُوا بِهِ»<sup>٣</sup>.

أقول: فِي الْإِعْتِرَاضِ وَفِي الْجَوَابِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى فُسَادِ ضَمَائِرِ الْمُعْتَرِضِينَ مَا لَا يَخْفَى. بِظُلَانِ مَذْهَبِ الْغَاثَةِ  
قيل: إِنَّمَا قَدَّمَ الْإِبْدَاءَ عَلَى الْإِخْفَاءِ؛ لِأَنَّ الْمُتَعَلِّقَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ هُوَ الْمُحَاسِبَةُ، وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَعْمَالُ الْبَادِيَةُ<sup>٤</sup>.

وَقَالَ جَمْعٌ مِنَ الْعَامَّةِ: إِنَّ فِي الْآيَةِ رَدًّا عَلَى مُنْكَرِي الْمُحَاسِبَةِ بِمَا فِي النَّفْسِ، مِنَ الْإِمَامِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ<sup>٥</sup>. وَفِيهِ: أَنَّهُ إِنْ أُريدَ بِمَا فِي النَّفْسِ الْخَطُورَاتُ الْقَلْبِيَّةُ وَحَدِيثُ النَّفْسِ، فَأَصْحَابُنَا الْإِمَامِيَّةُ مُتَّفِقُونَ عَلَى عَدَمِ الْمُحَاسِبَةِ بِهِ، وَمَا مِنْ ذِي مُشْكَةٍ يُخَالِفُهُمْ فِي ذَلِكَ. وَلَا تُشْبِهُهُ أَنَّ عُمُومَ الْآيَةِ - بِقَرِينَةِ حُكْمِ الْعَقْلِ بِقُتْحِ الْمَوَازِئَةِ عَلَى مَا لَا يُطَاقُ - مَخْصُوصٌ بِغَيْرِهِ.

وَأِنْ أُريدَ بِهِ<sup>٦</sup> الْعَزْمُ وَالْإِرَادَةُ، فَانْكَارُ الْمُحَاسِبَةِ لَيْسَ مِمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْإِمَامِيَّةُ، لِذَهَابِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى ثُبُوتِ الْمُحَاسِبَةِ بِهِ، وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ، مُسْتَدْلِلِينَ بِحُكْمِ الْعَقْلِ، وَكَثِيرٍ مِنَ الرُّوَايَاتِ. وَأَمَّا ذَهَابُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى الْمَعْقُوفِ عَنْهُ، فَلْتَقْيِيدُهُمُ الْآيَةَ بِطَائِفَةٍ أُخْرَى مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُعْتَبَرَةِ، وَحُكْمِ إِطْلَاقِهَا عَلَى الْكَفْرِ

١. زاد في تفسير الرازي: ومعاد.

٢. البقرة: ٢٨٦/٢.

٣. تفسير الرازي ٧: ١٢٥.

٤. تفسير أبي السعود ١: ٢٧٢، تفسير روح البيان ١: ٤٤٤.

٥. تفسير أبي السعود ١: ٢٧٢.

٦. أي وإن أُريدَ بِمَا فِي النَّفْسِ.

والعقائد الباطلة، أو مع النِّيات السيئة بالنسبة إلى غير المؤمن.

وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وَعَدًّا بِالمَغْفِرَةِ لِمَن تَابَ وَأَمَنَ، فلا يُوَاخِذُ بِنِيتِهِ المعاصي الجَوَارِحِيَّةَ، ما لَمْ يَقْتَرِفْهَا، وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تَعْذِيبِهِ، وَعِيدًا لِمَن مَاتَ عَلَى الكُفْرِ والعقائد الباطلة.

في الاستدلال على العفو عن نيات المؤمنين  
السابقة: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثوا به أنفسهم، ما لَمْ يَعْمَلُوا، أو يتكلموا به»<sup>١</sup>.  
فإنه نَصٌّ صريح في عُموم العفو للنيات والارادات المجردة عن العمل

ورواية ابن عباس: أَنَّ الله تعالى إذا جمع الخلائق يُخبرهم بما كان في نفوسهم، فالمؤمن يُخبره ثم يعفو عنه، وأهل الذنوب يُخبرهم بما أخفوا من التكذيب والذنوب<sup>٢</sup>.

وأما ما عَنِ أمير المؤمنين (عليه السلام) في (نهج البلاغة) من قوله: «وَيْمًا فِي الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادَةُ»<sup>٣</sup>. فالظاهر أَنَّ المراد أَنَّ العباد بِنِياتِهِمْ يُجَازَوْنَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فمساقه مساوق قوله (عليه السلام): «الأعمال بالنِّيات»<sup>٤</sup>.

وتوضيح المَرَامِ أَنَّ حُسْنَ الأعمال والعبادات وَقُبْحَهَا، دائران مَدَارِ الْقُضْدِ وَالنِّتَةِ، لَوْضُوحُ أَنَّ ضَرْبَ الْيَمِّمِ بِقُضْدِ التَّأْدِيبِ حَسَنٌ، وَبِقُضْدِ الْإِذْيَاءِ قَبِيحٌ، وَكَذَا الْكُذْبُ بِقُضْدِ الْإِصْلَاحِ حَسَنٌ، وَبِغْيَرِهِ قَبِيحٌ، وَالْعِبَادَاتُ بِقُضْدِ الْإِحْلَاصِ تَكُونُ حَسَنًا، وَبِقُضْدِ الرِّيَاءِ وَالسُّنْعَةِ تَكُونُ شِرْكًَا وَقَبِيحًا.

فظهر أَنَّ حُسْنَ الأعمال وَقُبْحَهَا بِحَسَبِ النِّتَاتِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، فالاعتراض على الإمامية - تَمْسُكًا بِإِطْلَاقِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ - نَاشِئٌ عَنْ عَدَمِ فَهْمِ السُّنَةِ وَعَدَمِ التَّمَسُّكِ بِالتَّقْلِيدَيْنِ اللَّذَيْنِ [هُمَا] كُلُّ مُبَيِّنٍ لِلْآخِرِ.

ثُمَّ قَرَّرَ شَبَّاحُهُ تَعَالَى سَعَةَ قُدْرَتِهِ وَأَكْدَاهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهَّابٌ﴾ مِنَ الْمَحَاسِبَةِ، وَالتَّعْذِيبِ، وَالمَغْفِرَةِ، وَغَيْرَهَا يَمَّا يَكُونُ فِي حَيِّزِ الْإِمْكَانِ ﴿قَدِيرٌ﴾ وَلَا قُصُورَ فِي قُدْرَتِهِ، وَلَا مَانِعَ عَنْ نُفُوذِ إِرَادَتِهِ.

رَوَى الطَّبْرَسِيُّ (رحمته الله) فِي (الاحتجاج)، عَنْ أمير المؤمنين (عليه السلام)، فِي ضَمَنِ بَيَانِ قِصَّةِ الْمِغْرَاجِ: «كَانَ

٢. تفسير الرازي ٧: ١٢٦.

١. تفسير الرازي ٧: ١٢٥.

٤. التهذيب ١: ٢١٨/٨٣.

٣. نهج البلاغة: ١٠٣/الخطبة ٧٥، تفسير الصافي ١: ٢٨٦.

قَاب قَوْسَيْنِ بَيْنَهُمَا أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، فَكَانَ فِيهَا أَوْحَى إِلَيْهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ  
البقرة: ﴿فِيهَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وكانت الآية مِمَّا عَرِضَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - مِنْ لَدُنْ  
آدَمَ إِلَى أَنْ بَعَثَ (تَبَارَكَ اسْمُهُ) مُحَمَّدًا ﷺ - وَعَلَى الْأُمَمِ، فَأَبْنَاوْا أَنْ يَقْبَلُوهَا مِنْ ثِقَلِهَا، وَقَبِلَهَا رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ، وَعَرَضَهَا عَلَى أُمَّتِهِ فَقَبِلُوهَا<sup>٢</sup>.

أقول: المراد مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي قَبِلَتْهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ وَالْأَوْحَدِيُّ مِنْ أَصْحَابِهِ، لظُهُورِ أَنَّ الَّذِينَ شَكَّوْا  
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ ثِقَلِ الْآيَةِ، فَقَالَ لَهُمْ: «لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا،  
قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» - عَلَى مَا فِي الرِّوَايَةِ السَّائِقَةِ - لَمْ يَكُونُوا يَمْنَنُ قَبْلِهَا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا  
وَأَطَعْنَا، بَلْ رَوَى أَنَّهُ أَشْتَدَّ ذَلِكَ [عَلَيْهِمْ]، فَمَكَّنُوا فِي ذَلِكَ حَوْلًا<sup>٣</sup>.

أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ  
وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ  
الْمَصِيرُ [٢٨٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - لِمَا بَيَّنَّ التَّكْلِيفَ الْكَثِيرَةَ، ثُمَّ عَقَبَهَا بِآيَةِ الْمُحَاسَبَةِ - مَدَحَ النَّبِيَّ ﷺ وَالتَّوْحِيدَ بِهِ  
بِكَمَالِ الْإِيمَانِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ﴾ حَقَّ الْإِيمَانِ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْعِيَانِ، لَا بِالذَّلِيلِ  
وَالْبَرَّهَانِ ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْحُكْمِ وَالْأَسْرَارِ وَحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمَكِّنُ  
تَحْمُلَهَا، الْمُنْطَوِيَّةَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

قِيلَ: إِنَّهُ تَعَالَى لِمَا بَيَّنَّ فِي فَاتِحَةِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ، هَدًى  
لِلْمُتَّقِينَ الْمُتَصِفِينَ بِالصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ مُصَدِّقًا لَهُمْ، عَيْنَ فِي خَاتِمَتِهَا الْمُتَصِفِينَ بِهَا، وَحَكَمَ  
بِعُتْوَانِ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِكَمَالِ الْإِيمَانِ وَخُسْنِ الطَّاعَةِ، وَإِنَّمَا بَدَأَ تَعَالَى بِذِكْرِ ﷺ بِطَرِيقِ الْغَيْبَةِ، مَعَ ذِكْرِهِ  
هُنَاكَ بِطَرِيقِ الْخِطَابِ، لِمَا أَنَّ حَقَّ الشَّهَادَةِ الْبَاقِيَةَ مَرَّ الدُّهُورِ أَنْ لَا يُخَاطَبَ بِهَا الْمُشْهُودُ لَهُ.

وَإِيرَادُهُ بِعُتْوَانِ الرِّسَالَةِ الْمُنْبِتَةِ عَنْ كَوْنِهِ ﷺ صَاحِبَ كِتَابٍ وَشَرَعَ تَهْمِيدًا لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾،  
وَالْتَعَرُّضَ لِعُتْوَانِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ تَشْرِيفَ لَهُ، وَتَثْبِيهِ عَلَى أَنْ إِنْزَالُهُ إِلَيْهِ تَرْبِيَّةٌ وَتَكْمِيلٌ لَهُ ﷺ.  
ثُمَّ أَتْبَعَ مَذْحَهُ بِمَذْحِ تَابِعِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الْمَعْهُدُونَ الْمَعْرُوفُونَ، الْخَاصُّونَ الصَّدِّيقُونَ

﴿كُلُّ﴾ مِنْهُمْ بِبَرَكَهٖ هِدَايَةُ ذَلِكَ الرَّسُولِ الْمُكَرَّمِ ﴿أَمَّنْ بَاقِي﴾ وَبِوَحْدَانِيَّتِهِ وَبِصِفَاتِهِ الْجَلَالِيَّةِ وَالْجَمَالِيَّةِ، بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَصَمِيمِ الْقَلْبِ، كَمَا قَالَ سَيِّدُهُمْ وَأَمِيرُهُمْ<sup>١</sup>: «لَوْ كَثِيفَ الْغِطَاءُ مَا أَزْدَدْتُ يَقِينًا»<sup>٢</sup>. ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى عِنْدَ تَفْصِيلِ الْعَقَائِدِ الْمُعْتَبَرَةِ فِي الْإِيمَانِ وَمَنْحِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، قَدَّمَ الْإِيمَانَ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ فِي الذِّكْرِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَهُ، لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ، وَمِنْ شَأْنِهِمُ التَّوَسُّطُ بَيْنَهُ تَعَالَى وَبَيْنَ الرُّسُلِ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ وَالْقَاءِ الْوَحْيِ ﴿وَكُتُبِهِ﴾ الْمُنَزَّلَةِ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ وَإِقَامَتِهِمُ بِالْقِسْطِ ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الْمَبْعُوثِينَ مِنْ قِبَلِهِ تَعَالَى، لِتَرْبِيَةِ النَّفْسِ، وَاتِّمَامِ الْحُجَّةِ، وَتَبْيِينَ الْأَحْكَامِ.

مَعَ أَنَّ الرُّسُلَ أَرْفَعَ شَأْنًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بِمَقْتَضَى الرُّوَايَاتِ الْمُتَضَافَةِ، بَلِ الْمُؤْمِنُونَ أَكْرَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَسَانِطُ الْوَحْيِ، وَالْكِتَابَ مَنْشُورُ اللَّهِ وَوَحْيِهِ، فَتَرْتِيبُ النَّظْمِ مُقْتَضِي لِتَقْدِيمِ الْمُرْسِلِ، ثُمَّ وَاسِطَةِ الْإِسْالِ، ثُمَّ الرَّسَالَةِ وَالْمُرْسُولِ، ثُمَّ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا تَغْيِيرُ الْأَسْلُوبِ بِإِضَافَةِ إِيْمَانِ الرَّسُولِ إِلَى مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ - مَعَ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ دَاخِلًا فِيهِ بَنَحْوِ الْإِجْمَالِ، وَذَكَرَ التَّفْصِيلِ فِي إِيْمَانِ الْمُؤْمِنِينَ - فَإِنَّمَا هُوَ لِتَعْظِيمِ الرَّسُولِ وَتَشْرِيفِهِ، بِحَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِي التَّعْيِيرِ: الْمَلَائِكَةُ وَالرُّسُلُ آمَنُوا بِالرُّسُولِ، فَتَعْظِيمُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ اقْتَضَى الْاِكْتِفَاءَ فِي بَيَانِ مَا آمَنَ بِهِ بِذَلِكَ الْإِجْمَالِ الَّذِي يُعْلَمُ تَفْصِيلُهُ مِنْ تَفْصِيلِ مَا آمَنَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ الرَّسُولِ.

ثُمَّ بَعْدَ وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ الْعَقَائِدِ وَالْمَعَارِفِ، وَصَفَهُمْ مِنْ حَيْثُ الْمَقَالِ بِأَنَّهُمْ قَائِلُونَ: نَحْنُ ﴿لَا نَفَرُقُ﴾ وَلَا نُمَيِّزُ ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ مِنْ حَيْثُ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَالتَّصَدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ الْيَهُودُ: نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ ﴿وَقَالُوا﴾ إِظْهَارًا لِلانْقِيَادِ لِأَحْكَامِ اللَّهِ: رَبَّنَا ﴿سَمِعْنَا﴾ نِدَاءَ مُنَادِي الْإِيمَانِ، وَتِلَاوَةَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَفِيهِمَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَالْأَحْكَامِ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أَوْامِرَكَ وَنَهَايَكَ، وَأَجَبْنَا ذَلِكَ الْمُنَادِي بِالْإِيمَانِ وَالْاِتِّقَادِ وَالطَّاعَةِ، فَإِذَنْ نَسَأَلُ ﴿عُفْرَانَكَ﴾ خَطَايَانَا وَذُنُوبَنَا يَا رَبَّنَا ﴿وَمَالِكَ﴾ أَمَرْنَا اللَّطِيفَ بِنَا، فَإِنَّكَ مَرْجِعُنَا فِي الْقِيَامَةِ ﴿وَالَّذِيكَ أَلْمَصِيْرُ﴾ وَالْمُنْقَلَبِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعِنْدَ الْحَشْرِ.

قِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ قَالَ جَبْرِئِيلُ لِلرَّسُولِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ، فَسَلِّ تَعَطُّ، فَقَالَ:

١. أَيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢. مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٦٩: ٢٠٩.

[الرسول ﷺ]: «غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا»<sup>١</sup>.

وفي يدانه بعنوان الرُّبُوبِيَّةِ مُضَافاً إلى أنفسهم مُبَالِغَةً في التَّضَرُّعِ، وَجَلْبَ العُطُوفَةِ<sup>٢</sup>. وتقديم ذِكْرِ السَّمْعِ والطَّاعَةِ على سُؤالِ المَغْفِرَةِ، لِكَوْنِهِ أَدْعَى إلى القَبُولِ والإِجَابَةِ، وفي الإِقْرَارِ بِالْمَعَادِ بقوله: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ بَيَانٌ لِعِلَّةِ كَمَالِ الْحَاجَةِ إِلَى المَغْفِرَةِ.

وفي رواية (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام في قِصَّةِ مِغْرَاجِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «فَلَمَّا أَنْ صَارَ إِلَى سَاقِ الْعَرْشِ كَرَّرَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ لِيَفْهَمَهُ، فَقَالَ: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، فَأَجَابَ ﷺ مُجِيباً عَنْهُ وَعَنْ أُمَّتِهِ فَقَالَ: وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: لَهُمُ الْجَنَّةُ وَالْمَغْفِرَةُ عَلَى أَنْ فَعَلُوا ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَا إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِنَا فَعُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ - يَعْنِي الْمَرْجِعُ فِي الْآخِرَةِ - قَالَ: فَأَجَابَهُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ»<sup>٣</sup>.

لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا  
إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا  
رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا  
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [٢٨٦]

ثمَّ بعدما بَيَّنَّ اللهُ طَاعَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْقِيَادَهُمْ لَهُ، ذَكَرَ مِثْلَهُ عَلَيْهِمُ بِالتَّسْهِيلِ فِي الْأَحْكَامِ بقوله: ﴿لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ وَلَا يُلْزِمُ عَلَى نَسْمَةِ عَمَلًا ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وما يَسْهَلُ عَلَيْهَا، وَتَسَّعَ لَهُ قُدْرَتُهَا؛ بَحِثْ لَا يَكُونُ عَلَيْهَا فِيهِ ضَيْقٌ وَلَا حَرْجٌ، فَضْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ.

عن الصادق عليه السلام: «مَا أَمَرَ الْعِبَادَ إِلَّا دُونَ سَعَتِهِمْ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَمَرَ النَّاسَ بِأَخْذِهِ فَهُمْ مُتَّبِعُونَ [لَهُ]، وَمَا لَا يَتَّبِعُونَ [لَهُ] فَهُوَ مَوْضُوعٌ عَنْهُمْ، وَلَكِنْ النَّاسَ لَا خَيْرَ فِيهِمْ»<sup>٤</sup>.

ثمَّ بَعْدَ بَيَانِ الْيَمَّةِ عَلَيْهِمُ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّسْهِيلِ فِي التَّكْلِيفِ، رَغَّبَ فِي الطَّاعَةِ بقوله: ﴿لَهَا﴾ ثَوَابٌ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ وَعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَطَاعَةٍ، لَا لغيرِهَا. ثُمَّ رَهَّبَ عَنِ الْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ بقوله: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ عِقَابٌ ﴿مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وَحَصَلَتْ مِنَ الشَّرِّ وَالضَّرِّ وَالْمَعْصِيَةِ، لَا عَلَى غَيْرِهَا.

٢. كَذَا، وَقِيَاسُ الْمَصْدَرِ: الْعَطْفُ أَوْ الْعُطُوفُ.

٤. التَّوْحِيدُ: ٦/٣٤٧.

١. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ١: ٤٤٧.

٣. الْاِحْتِجَاجُ: ٢٢١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٢٨٩.



ثم عاد سبحانه إلى بيان مقال المؤمنين في مقام الدعاء والتضرع والخوف بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وفي رواية الميراج: «قال النبي ﷺ لما سمع ذلك: أما إذا فعلت [ذلك] بي وبأمتي فردني، قال: سل، قال: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، قال الله تعالى: لست أؤاخذ أمتك بالنسيان والخطأ لكرامتك علي. وكانت الأمم السابقة، إذا نسوا ما ذكروا به، فتحت عليهم أبواب العذاب، وقد رفعت [ذلك] عن أمتك. وكانت الأمم السابقة إذا أخطئوا أو أخذهم بالخطأ وعوقبوا عليه، وقد رفعت [ذلك] عن أمتك لكرامتك علي» الخبر<sup>١</sup>.

توضيح المراد من  
رفع الخطأ والنسيان  
توضيح الآية والرؤية: أن المراد من النسيان والخطأ العمل الذي صدر عن النسيان والخطأ في الحكم أو الموضوع، لوضوح أن صفة النسيان والخطأ ليستا من متعلقات التكليف، ولا قابلتين للمواخذة عليهما حتى يرفع عنهما، وما ليس قابلاً للوضع ليس قابلاً للرفع.

إن قيل: كما لا يمكن جعل المواخذة على نفس الصفتين، لا يمكن جعلها على العمل الصادر عنهما، فكيف يصح الاتيان برفعها عنه؟

قلت: نعم، ولكن يمكن جعل المواخذة على عدم المبالاة وعدم المحافظة المؤدبين إلى الخطأ والنسيان، لكونهما مستنديين إلى الاختيار والتقصير، ويصح جعل العقوبة عليهما بجعل وجوب الاحتياط وإيجاب التحفظ. فمعنى رفع المواخذة والعقوبة على العمل الصادر عن الخطأ والنسيان، رفع إيجاب التحفظ.

وقيل: إن المراد من النسيان ترك العمل، ومن الخطأ الذنب.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن معناه لا تعاقبنا إن عصيناك جاهلين، أو متعمدين<sup>٢</sup>.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ ولا تجعل ﴿عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ وتكليفاً شاقاً قليلاً ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ﴾ وجعلته ﴿عَلَيْ﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِنَا﴾.

ذكر الأصار التي  
كانت على الأمم  
وفي الرواية الميراجية السابقة: «قال النبي ﷺ: اللهم: إذا أعطيتني ذلك فردني، فقال الله تعالى: سل، قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾»

قَبْلِنَا﴾ يعني بالإضر الشدائد التي كانت على مَنْ كان قبلنا، فأجابه الله تعالى [إلى] ذلك، فقال تبارك اسمه: قد رفعتُ عن أمتك الأصار التي كانت على الأمم السالفة، كنت لا أقبل صلاتهم إلا في بقاع من الأرض المَعْلُومَة<sup>١</sup> اخترتها لهم وإن بُعِثت، وجعلت الأرض كُلَّهَا [لأمتك] مَسْجِداً وطَهُوراً، فهذه من الأصار التي كانت على الأمم قبلك، فرفعتها عن أمتك.

وكانت الأمم السالفة إذا أصابهم أذى من نجاسة قرضوها من أجسادهم، وقد جعلت الماء طهوراً لأمتك، فهذه من الأصار التي كانت عليهم، فرفعتها عن أمتك.

وكانت الأمم السالفة تحيل قرايبتها على أعناقها إلى بيت المقدس، فمن قبلت ذلك منه أرسلت إليه ناراً فأكلته فرجع مسروراً، ومن لم يقبل ذلك منه رجع مثبوراً، وقد جعلت قربان أمتك في بطون قُرَّانها ومساكينها، فمن قبلت ذلك منه أضعفت ذلك له أضعافاً مضاعفة، ومن لم يقبل منه رفعت عنه عقوبات الدنيا.

إلى أن قال: وكانت الأمم السالفة صلواتها مقروضة عليها في ظلم الليل وأنصاف النهار، وهي من الشدائد التي كانت عليهم، فرفعتها عن أمتك، وفرضت عليهم صلواتهم في أطراف الليل والنهار، وفي أوقات نشاطهم.

وكانت الأمم السالفة قد فرضت عليهم خمسين صلاة في خمسين وقتاً، وهي من الأصار التي كانت عليهم، فرفعتها عن أمتك، وجعلتها [خمساً] في خمسة أوقات<sup>٢</sup>.

وقيل: إن من الأصار: قتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وحرمة أكل الصائم بعد التوم وبغض الطيبات عليهم بالذئوب، وكتابة ذنب الليل على الباب بالصبح، وكَوْن الزكاة رُبْع ما لهم، وغير ذلك من الشدائد. وقد عصم الله عز وجل هذه الأمة من أمثال ذلك، وأنزل في شأنهم ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>٣</sup>، وقال ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْخَيْفَةِ السَّهْلَةِ السَّيِّئَةِ»<sup>٤</sup>.

ثم كرر النداء بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهاراً لمزيد الصراعة ﴿وَلَا تُحْمَلْنَا﴾ ولا تنزل بدؤوبنا وإسرافنا على أنفسنا ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ولا صبر لنا عليه، من البلايا والعقوبات النازلة على الأمم السالفة. واستدل الأساعيرة به على جواز التكليف بما لا يطاق.

١. في المصدر: بقاع معلومة من الأرض. ٢. الاحتجاج: ٢٢١، تفسير الصافي: ١: ٢٨٩.

٣. الأعراف: ١٥٧/٧. ٤. تفسير روح البيان: ١: ٤٤٩.

وفيه: أنه لا موقع لاستدعاء عدم تحميل التكليف بغير المقدور، بعد سؤال عدم تحميل الإضر الذي هو التكليف الشاق، وإجابته منه تعالى.

إن قيل: إن المراد بالإضر البلاء والعقوبات.

قلنا: مضافاً إلى أنه خلاف المشهور بين المفسرين، وكثير من الروايات، لا يمكن حمل ما لا يُطاق على غير المقدور؛ لحكم العقل بفتح التكليف به، فلا بد من حمله على غير المقدور العزفي، وهو ما يكون فيه حرج ومشقة.

وفي الرواية المعراجية: «قال: فقال النبي ﷺ: إذا أعطيتني ذلك فزدني، قال: سل: قال: ﴿وَلَا تُحْمَلُونَ مَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ﴾ قال تبارك اسمه: قد فعلت ذلك بك وبأمتك، وقد رفعت عنهم عظيم بلاء الأُمم؛ وذلك حُكمي في جميع الأُمم أن لا أكلف خلقاً فوق طاقتهم»<sup>١</sup>.

ثم أنه تعالى بعد حكاية سؤال المؤمنين أُمم حوائجهم في الدنيا، حكى عنهم سؤال أُمم حوائجهم في الآخرة بقوله: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ دُوبنا ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ سيئاتنا ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾.

والفرق بين العفو والمغفرة والرحمة، أن العفو: هو التجاوز عن عقوبة الذنب. والمغفرة: هي ستر الذنب أو مطلق الستر، ذنباً كان المستور أو نقصاً وغيباً، بحيث لا يطلع عليه أحد. والرحمة: هي التعطف بإعطاء الثواب، أو بالأعم منه ومن دفع البلاء والمحن والكروب وأحوال القيامة.

ثم حكى ختمهم الدعاء بأهم الحوائج بقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفيه دلالة على أن إعلاء كلمة الحق والجهد في سبيل الله، والغلبة على الكفار، والنصرة على أعداء الدين بالسيف والحجة، غاية آمال المؤمنين.

ولما كان في الأدعية الثلاثة الأول مقام إظهار غاية الضراعة، كان الأنسب توصيفه تعالى بصفة الربوبية؛ لإشعارها بكمال ذلة الداعي، وتأثيرها في شرعة إجابة الدعاء.

وأما في السؤال الرابع؛ وهو طلب النصرة على الكفار، فلما كان مقام الاستعانة والانتصار، كان المناسب توصيفه تعالى بالمولوية، حيث إن المولى إن كان بمعنى الناصر والمعين، أو بمعنى المالك والسيد، فالمناسبة ظاهرة، حيث إن من وظيفة السيد والمالك أن يكون ناصراً لعتده وحافظاً له، وإن كان بمعنى متولي الأمور فيدخل فيه النصرة على الأعداء.

وفي الرواية المِغْراجية: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال عليه السلام: «وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا» قال الله تعالى: قد فعلت ذلك بتأنيي أمتك. قال عليه السلام: «فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قال الله جلَّ اسمُهُ: إِنَّ أَمْتَك فِي الْأَرْضِ كَالشَّامَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثُّورِ الْأَسْوَدِ، هُمُ الْقَادِرُونَ، وَهُمُ الْقَاهِرُونَ، يَسْتَخْدِمُونَ وَلَا يُسْتَخْدَمُونَ لِكِرَامَةِ أَمْتِكَ<sup>١</sup> عَلَيَّ، وَحَقُّ عَلَيَّ أَنْ أَظْهَرَ دِينِكَ عَلَى الْأَدْيَانِ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا دِينَ إِلَّا دِينِكَ، وَيُؤَدُّونَ إِلَى أَهْلِ دِينِكَ الْجِزْيَةَ»<sup>٢</sup>.

وَرُوي مِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ أَنَّهُ لَمَّا أَسْرَى بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيَقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيَقْبَضُ مِنْهَا. قَالَ: «إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى»<sup>٣</sup> قَالَ: فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم ثَلَاثًا:

أَعْطَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأَعْطَى خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغَفَرَ لِمَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أَمَتِهِ<sup>٤</sup>.

قَالَ عليه السلام: «قَرَّبَنِي اللَّهُ وَأَدْنَانِي إِلَى سِدْرَةِ الْعَرْشِ، ثُمَّ أَلْهَمَنِي اللَّهُ أَنْ قُلْتُ: «أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرْقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» كَمَا فَرَّقَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى».

قَالَ: فَمَا قَالُوا؟ قُلْتُ: «قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، وَالْمُؤْمِنُونَ قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا». فَقَالَ: صَدَقْتَ، فَسَلْ ثَغْطًا، فَقُلْتُ: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» قَالَ: قَدْ رَفَعْتَ عَنْكَ وَعَنْ أَمْتِكَ الْخَطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ.

فَقُلْتُ: «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» يَعْنِي الْيَهُودَ. قَالَ: لَكَ ذَلِكَ وَلَأَمْتِكَ.

قُلْتُ: «وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ.

قُلْتُ: «وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ<sup>٥</sup>.

عَنْ مَعَاذٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَتَمَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ يَقُولُ: آمِينَ<sup>٦</sup>.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ مُقْتَضَى هَذِهِ الرُّوَايَاتِ: أَنَّ آيَةَ «أَمَّنَ الرَّسُولُ» إِلَى قَوْلِهِ «وَالِإِيكَ الْمَصِيرُ»، وَمِنْ قَوْلِهِ:

١. في المصدر: لكرامتك. ٢. الاحتجاج: ٢٢٢، تفسير الصافي ١: ٢٩١.

٣. النجم: ١٦/٥٣. ٤. تفسير روح البيان ١: ٤٤٩.

٥. تفسير روح البيان ١: ٤٤٩. ٦. تفسير روح البيان ١: ٤٥٠.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ من كلام الرسول في ليلة المعراج، وإنما حكاه الله في كتابه؛ وليس بكلام الله. مع أن الإجماع والضرورة من الدين حاكمان بأن جميع ما بين الدفتين كلام الله، ليس كلام المخلوق، إلا أن يقال: أن الله تعالى حكى المعاني بكلام نفسه، والمعصوم حكاها بكلام الله.

ثم أنه تعالى حكى الدعاء، ولم يَخْلِكِ الإجابة؛ لظهورها بقرينة سعة الرحمة، وظهور استحقاق الداعي للإجابة.

## في تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَمْ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [١ و ٢]

وجه إرداف البقرة      ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَتَمَ السُّورَةَ الْمُبَارَكَةَ بِالْدُّعَاءِ بِالنَّصْرَةِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِالسَّيْفِ  
بِآلِ عِمْرَانَ      وَالْحُجَّةِ، وَكَانَ رُبُّعُهَا أَوْ أُزِيدَ تَقْرِيْبًا فِي الْمُحَاجَّةِ مَعَ الْيَهُودِ، اقْتَضَى حُسْنَ النُّظْمِ  
إِرْدَافَهَا بِسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، الْمُتَضَمِّنَةِ لِجَابَةِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ، مِنْ جِهَةِ دَلَالَتِهَا عَلَى غَلْبَةِ النَّبِيِّ وَالْمُسْلِمِينَ؛  
بُنْصُرَتِهِ تَعَالَى، عَلَى النَّصَارَى، بِالْحُجَّةِ وَالْمِبَاهِلَةِ؛ وَبِشَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِغَلْبَتِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ، وَنُصْرَتِهِ لَهُمْ  
بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَّيْسَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَنْصُرُونَهُمْ﴾<sup>١</sup>، وَاشْتِمَالِهَا عَلَى خِذْلَانِ الْكُفَّارِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَكَوْنِهَا إِلَى بَضْعِ  
وِثْمَانَيْنِ آيَةٍ فِي الْمُحَاجَّةِ مَعَ النَّصَارَى.

قصه وفند نصارى      رُوي أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَدَّ نَجْرَانَ، وَكَانُوا سِتِّينَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةُ عَشَرَ  
نَجْرَان      رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ؛ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ أَكْبَرُ، إِلَيْهِمْ يُؤْوِلُ أَمْرُهُمْ، أَحَدُهُمْ أَمِيرُهُمْ وَصَاحِبُ  
مَشُورَتِهِمْ الْعَاقِبِ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ، وَثَانِيهِمْ وَزِيرُهُمْ وَثِيْبِيرُهُمُ السَّيِّدُ، وَاسْمُهُ الْأَيْهَمُ، وَثَالِثُهُمْ  
خَبَرُهُمْ وَأَسْقَفُهُمْ وَصَاحِبُ مَدَارِسِهِمْ يُقَالُ لَهُ أَبُو حَارِثَةَ بْنِ عُلْقَمَةَ أَحَدِ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ، وَقَدْ كَانَ  
مُلُوكَ الرُّومِ شَرَفُوهُ وَمَوْلُوهُ وَأَكْرَمُوهُ لِمَا بَلَغَهُمْ مِنْ عِلْمِهِ وَاجْتِهَادِهِ فِي دِينِهِمْ، وَبَنَوْا لَهُ كَنَائِسَ، فَلَمَّا  
خَرَجُوا مِنْ نَجْرَانَ رَكِبَ أَبُو حَارِثَةَ بَغْلَتَهُ، وَكَانَ أَخُوهُ كُرْزُ بْنُ عُلْقَمَةَ إِلَى جَنْبِهِ، فَبَيْنَمَا بَغْلَةُ أَبِي حَارِثَةَ  
تَسِيرُ إِذْ عَثَرَتْ، فَقَالَ كُرْزُ تَغَسُّمًا لِلْأُبْعَدِ - يُرِيدُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ لَهُ أَبُو حَارِثَةَ: بَلْ تَعِيسَتْ أُنْثَى،  
فَقَالَ كُرْزُ: وَلَيْمَ يَا أَخِي؟ [فَقَالَ أَبُو حَارِثَةَ:] إِنَّهُ وَاللَّهِ النَّبِيُّ الَّذِي كُنَّا نَنْتَظِرُهُ.

فَقَالَ أَخُوهُ كُرْزُ: فَمَا يَمْنَعُكَ عَنْهُ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ هَذَا؟! قَالَ: لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكَ أَعْطَوْنَا أَمْوَالًا كَثِيرَةً

وأكرمونا، فلو آمنّا به لأخذوا مِنّا كُلّ هذه الأشياء، فوَقَعَ ذَلِكَ فِي قَلْبِ كُرْز، وكان يُضْمِرُهُ إِلَى أَنْ أَسْلَمَ، فكان يُحَدِّثُ بِذَلِكَ.

فأتوا المدينة، ثُمَّ دَخَلُوا مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ خَيْرَاتٍ، مِنْ حُبِّبِ أُرْدِيَةِ فَاجِرَةٍ، يَقُولُ بَعْضُ مَنْ رَأَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَأَيْنَا وَفْدًا مِثْلَهُمْ. وَقَدْ حَانَتْ صَلَاتُهُمْ فقاموا لِيَصَلُّوا فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ ﷺ: «دَعُوهُمْ» فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا تَارَةً: عَيْسَى هُوَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَيُزِيلُ الْأَسْقَامَ، وَيُخْبِرُ بِالْغُيُوبِ، وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ؛ فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَطِيرُ، وَتَارَةً أُخْرَى: هُوَ ابْنُ اللَّهِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ يَعْلَمُ، وَتَارَةً أُخْرَى: إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (فَعَلَنَاهُ) وَ(فَعَلْنَا) وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا لَقَالَ: فَعَلْتُ وَقُلْتُ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْلَمُوا». فَقَالُوا: أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ. قَالَ ﷺ: «كَذَّبْتُمْ، كَيْفَ يَصِحُّ إِسْلَامُكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَبِّهُونَ اللَّهَ وَلَدًا، وَتَعْبُدُونَ الصُّلْبَ، وَتَأْكُلُونَ الْخِنْزِيرَ؟»

قَالُوا: إِنْ لَمْ يَكُنْ وَلَدُ اللَّهِ فَمَنْ أَبُوهُ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ أَوَّلَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ «الْم» وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ الْبَسْمَلَةِ، وَتَأْوِيلُ الْحُرُوفِ الْمُفْطَعَةِ، وَإِنَّمَا بَدَأَ السُّورَةَ بِهَا لِتَوَجِيهِ الْأَذْهَانِ إِلَى إِصْغَاءِ مَا بَعْدَهَا مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَإِبْطَالِ الشُّرْكِ. وَلَمَّا كَانَ مَقَامَ الْاِحْتِجَاجِ مَعَ النَّصَارَى، بَدَأَ شَبْحَانَهُ - عَلَى قَائِنِ الْجَدَلِ - بِبَيَانِ التَّوْحِيدِ الذَّاتِيِّ، الَّذِي هُوَ الْمُدْعَى الْأَوَّلُ يَقُولُهُ: «اللَّهُ» حَيْثُ إِنَّهُ عِلْمٌ لِلذَّاتِ الْوَاجِبِ، الْمُسْتَجْمِعُ لِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ، الْمُمْتَنِعُ تَعَدُّدُهُ وَتَكَثُّرُهُ، ثُمَّ ثَنَاهُ بِبَيَانِ التَّوْحِيدِ الْعِبَادِيِّ يَقُولُهُ، مُخْبِرًا عَنْ ذَاتِهِ بِأَنَّهُ «لَا إِلَهَ» وَلَا مَعْبُودَ مُتَصَوِّرَ أَوْ مَوْجُودَ «إِلَّا هُوَ».

فَالْجُمْلَةُ الْخَبَرِيَّةُ دَلَّتْ عَلَى نَقْيِ أَلُوهِيَّةِ عَيْسَى وَمَعْبُودِيَّتِهِ، رَدًّا عَلَى النَّصَارَى، حَيْثُ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: عَيْسَى هُوَ الْخَالِقُ وَالْمَعْبُودُ لَا غَيْرُهُ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى يَقُولُونَ: هُوَ أَحَدُ الْمَعْبُودِينَ الثَّلَاثَةِ، وَثَالِثَةٌ يَقُولُونَ: هُوَ أَحَدُ الْمَعْبُودِينَ لَكُونِهِ ابْنِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَخَذَ شَبْحَانَهُ فِي الْاِسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ ذَاتِهِ بِقَوْلِهِ مُخْبِرًا عَنْهُ بِأَنَّهُ «الْحَقُّ» الَّذِي لَا يَمُوتُ

و﴿الْفَيُّومُ﴾ الذي بيده تدبير كل شيء، فإذا حكّم العقل بأن خالق العالم لا بد من أن يكون واحداً لهذين الوصفين، حكم بفساد القول بكون عيسى إلهاً؛ لضرورة حياته بعد موته، وموته بعد حياته، وعجزه عن الاستقلال بتدبير نفسه، فضلاً عن تدبير السماوات والأرض وما فيها.

وفي الرواية السابقة لما قالوا: فمن أبوه؟ فقال ﷺ: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ وَلَدٌ إِلَّا وَيَشْبِهُ أَبَاهُ؟» فقالوا: بلى، قال ﷺ: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَأَنَّ عِيسَى يَأْتِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قَيُّومٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «فَهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً؟» قالوا: لا.

وَرُوي أَنَّ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ<sup>٢</sup>.

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ \* مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ  
وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ [٤ و ٣]

ثم استدللّ شبحانه على انحصار استحقاق العبادة فيه، بنعمه العظام التي أهمها إنزال الكتب السماوية لهداية البشر إلى العقائد الحقّة، والمحسنات العقلية، والمصالح الدنيوية، بقوله مخبراً عن ذاته المقدّسة بأنه ﴿نَزَّلَ﴾ ثَجُوماً وتدرّجاً ﴿عَلَيْكَ﴾ يا مُحَمَّد: لهداية الخلق إلى يوم القيامة ﴿الْكِتَابَ﴾ المجيد والقرآن الحميد.

قيل: عبر شبحانه عنه باسم الجنس للإشعار بتفوّقه في الكمالات الجِنسيّة كأنّه الحَقِيق بهذا الاسم دون غيره من الكتب.

ثم استدللّ على كونه مُنزَلاً من الله بكونه مُلتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعَدَل، أو بالصدّق في أخباره، التي من جُمَلتها خَبَر التَّوْحِيد، وسائر المعارف، وما فيه من الوَعْد والوَعِيد، أو مَقَرُّونا بِدَلالِلِ الصَّدَق: من إعجاز البيان، والإخبار بالمُتَعَيَّبات، والاشتمال على العُلُوم غير المُتَنَاهِيَةِ، مع كَوْن مَنْ أَنبَأَ بِهِ أَمَباً، حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا﴾ نَزَلَ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية؛ حيثُ إِنَّهُ أَخْبَرَ جَمِيعَهَا بِبَغْتَةِ نَبِيٍّ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، له ثَعُوت وصِفَات خاصّة، وكِتَاب ناسِخ لسانِ الْكُتُب.



وجميع هذه العلائم المذكورة في الكتب منطبعة على مُحَمَّد ﷺ وكتابه، فلو لم يكن صادقاً في دعوى رسالته وكتابه منزلاً من الله، لكان إخبار الكتب السماوية كذباً، فجميع الكتب المنزلة شواهد صدق القرآن، وأدلة كونه منزلاً من الله، فكل من آمن بها يلزمه الإيمان به.

ثم استدَلَّ سبحانه بينعه السابقة على الأمم السالفة بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ﴾ سبحانه دُفْعَةً ﴿التَّوْرَةَ﴾ على موسى بن عمران ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ على عيسى بن مريم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على نزول القرآن؛ لأجل أن يكون كل واحدٍ منهما ﴿هُدًى﴾ ودليلاً مرشداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ المكلفين باتباعهما إلى الحق والرُّشاد.

ولا يذهب عليك أنه ظهر من تفسيرنا الفرق بين التنزيل والإنزال، وأن التنزيل متضمن للكتابة والتدريج في النزول دون الإنزال. ولما كان القرآن جامعاً بين الجهتين، باعتبار نزوله دُفْعَةً إلى البيت المعمور، وتدرجاً إلى الأرض، أسند إليه التنزيل في أول الآية.

ثم للدلالة على كونه أعظم شأنًا، وأتم نعمة من غيره، أعاد ذكره بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ﴾ الكتاب الذي جعله ﴿الْفُرْقَانَ﴾ بين الحق والباطل، والمائز بين الضلال والرشاد، والمبين لمشتبهات سائر الكتب السماوية، والمهيم عليها.

عن الصادق عليه السلام: «القرآن جُمْلَةُ الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به»<sup>١</sup>.

وفي رواية: «الفرقان كُلُّ آية مُحْكَمَةٌ»<sup>٢</sup>.

وعن النبي ﷺ «سُمِّيَ القرآن فُرْقَانًا؛ لأنه متفرق الآيات، والسور أنزلت في غير الألواح وغير الصحف»<sup>٣</sup>، والتوراة [والإنجيل] والزبور أنزلت كلها جُمْلَةً في الألواح والأوراق»<sup>٤</sup>.

أقول: لا منافاة بين هذه الأخبار، لإمكان إطلاق هذا الوصف عليه بكل الاعتياريين، فتحصل من الآيات أن من كان كمال قدرته، وسعة لطفه ورحمته، وقور نغمته بهذه المرتبة، كان هو المعبود بالاستحقاق دون عيسى وغيره من الخلق.

ثم بعد وضوح الحق وإبطال الشرك بالبراهين القاطعة، أخذ سبحانه في التهديد على الكفر

١. الكافي ٢: ٤٦١/١١، تفسير الصافي ١: ٢٩٢. ٢. جوامع الجامع ٥٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٢.

٣. في علل الشرائع: وغيره من الصحف.

٤. علل الشرائع: ٣٣/٤٧٠، تفسير الصافي ١: ٢٩٢، وفيهما: الألواح والورق.

والشُّرك، وإنكار كُلِّ حَقٍّ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والحدوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحده، ومعجزات نبيه، من القرآن وغيره، قد هيأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ غاية الشدة، خارج عن حدِّ البيان ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ على أمره، قاهرٌ على خلقه ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ عظيمٌ من أعدائه، ومُنْكَرِي توحيده، ورسالة رسله، ودينه.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ \* هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٥ و ٦]

ثم عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيد ذاته - المُلَازِم لاستحقاقه العبادة دون غيره، بسعة علمه، وكمال إحاطته بجميع ذرات الكائنات وخفايا أحوالها - بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ من الأشياء، وذرة من الذرات، وحال من أحوالها، لا ما كان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حتَّى خَطَرَاتِ الْقُلُوبِ، ومكتونات الضمائر، من التوحيد والشُّرك والإيمان والكفر، والإرادات الحسنة والسينة ﴿وَلَا﴾ ما كان ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ حتَّى ضمائر الملائكة، ومكتوماتهم.

وفيه مزيّد تهديد، حيث إنَّ القُدرة الكاملة على العقوبة غير كافية في الرُّدع عن المعاصي الخفية والعقائد السيئة، إلّا إذا عُلِمَ أنَّ المُتَنَبِّه مُطَّلِعٌ على الخَفِيَّاتِ، عالِمٌ بالسَّرَائِرِ والمُسْتُورَاتِ.

والتعبير عن علمه بعمْد خفاء شيء عليه، للإشعار بأنَّ علمه بالأشياء بحُضورها عنده، والإحاطة التامة القيومية عليها، لا بالصُّور الذهنية، فلا يشبه علمه علم المخلوقين.

وفي ذِكْر الأرض والسما تأكيّد لسعة علمه، وتَضَرُّعٌ بِشُؤله، ولَدَفْعُ تَوْهَمِ اخْتِصاصِ علمه بخصّوص ما في الأرض، وفي تقديم ذِكْر الأرض إشعارٌ بكمال الاعتناء بإحاطته بأحوال أهلها.

وفي رواية مُحَاجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ مع وَفَدِ نَجْرَانَ: قَالَ ﷺ: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ ﷺ: «فَهَلْ يَعْلَمُ عِيسَى شَيْئًا إِلَّا مَا عُلِّمَ؟» قَالُوا: لَا.

ثم أوضح سبحانه كمال قُدْرته، وسعة إحاطته بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ ويخلقكم على هيئة خاصة، وشكّل مَخْصُوص، وأنتم ﴿فِي﴾ مَضَانِقِ ﴿الْأَرْحَامِ﴾ وظلماتها الثلاث: ظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وظلمة الرَّحِمِ ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لكم من الصُّور، من الذُّكُورَة والأُنثَى، والتَّامِّم والنَّقْصِ،

والطول والقصْر، والخصن والقنح.

وفي رواية المُحاجة: قال ﷺ: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيسَى فِي الرُّحْمِ كَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ رَبَّنَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَلَا يَجِدُ؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عِيسَى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَمَا تَحْمِلُ الْمَرْأَةُ، وَوَضَعَتْهُ كَمَا تَضَعُ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا، ثُمَّ غَذَى كَمَا يُغْذَى الصَّبِيُّ، ثُمَّ كَانَ يَطْعَمُ الطَّعَامَ، وَيَشْرَبُ الشَّرَابَ، وَيُحَدِّثُ الْحَدَّثَ؟» قالوا: بلى، قال: «فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا كَمَا زَعَمْتُمْ؟ فَسَكْتُوا، فَأَبَوْا إِلَّا جُحُودًا»<sup>١</sup>.

وفي الآيتين أيضاً تَفرُّدٌ لِصِفَتَيْ حَيَاتِهِ وَقِيَمِيَّتِهِ.

ثم أعاد سبحانه ذِكْرَ الْمُدْعَى وَهُوَ التَّوْحِيدَ - بعد إقامة البرهان عليه تفصيلاً، لإشراجه في القلوب - بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فَنَزَهَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ عَنْ أَنْ يَكُونَ عِيسَى مِثْلَهُ وَشَبِيهِهِ فِي الْإِلَهِيَّةِ.

ثم أعاد حاصِلَ الْبَرَهَانَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، بقوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ غَيْرَ الْمُتَنَاهِي فِي قُدْرَتِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ وَالْمُتَّقِنُ فِي أَعْمَالِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ. فَعِيسَى مَقْهُورُهُ وَمَغْلُوبُهُ وَبَدِيعُ صُنْعِهِ، لَكُونَهُ مُرَكَّباً مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ، وَمُتَحَاجِجاً إِلَى الْمُرَكَّبِ، وَمُعْرَضاً لِلانْجِلَالِ وَالْفَنَاءِ.

وحاصِلُ مَا اسْتَفِيدَ مِنَ الْآيَتَيْنِ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى: أَنَّهُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا فِي الْإِلَهِيَّةِ عِيسَى بِعِلْمِهِ بِالْمُغَيَّبَاتِ، حَيْثُ كَانَ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَدْخِرُونَ. فَفِيهِ: أَنَّ عِلْمَهُ كَانَ مَقْصُوراً بِتَغْضُضِ الْأُمُورِ الْجُزْئِيَّةِ، وَالْعِلْمُ اللَّائِقُ بِمَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ الْعِلْمُ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ جُزْئِيَّاتِ الْكَائِنَاتِ، وَأَجْزَاءِ الْمَوْجُودَاتِ، وَصِفَاتِهَا، وَأَحْوَالِهَا، وَإِنْ كَانَ يُثْقَلُ حَيَّةً مِنْ خَزْدَلٍ فِي صَخْرَةٍ فِي الظُّلُمَاتِ، وَبِالضَّرُورَةِ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْعِلْمُ الشَّامِلَ، لِعِيسَى وَلَا لغيره.

وإن تَمَسَّكُوا بِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وَخَلْقِ الطَّيْرِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فَفِيهِ: أَنَّهَا قُدْرَةٌ نَاقِصَةٌ مُفَاضَّةٌ إِلَيْهِ مِنْ خَالِقِهِ وَمُصَوِّرِهِ، إِذْ مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ مَصْنُوعٌ غَيْرُهُ، صَوْرُهُ قَادِرٌ مُطْلَقٌ فِي رَحْمِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي، لِبَدَاهَةِ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَخْلُقْ أُمُّهُ، وَلَمْ يُصَوِّرْ نَفْسَهُ فِي رَحْمِهَا.

ففي كيفية خلق الجنين في الرحم ومقدماته

عن (الكافي): قال: «إن الله تعالى إذا أراد أن يخلق الطُّفْلَةَ، الَّتِي هِيَ مِمَّا أَخَذَ عَلَيْهِ<sup>٢</sup> الْمِيثَاقَ، مِنْ<sup>٣</sup> صُلْبِ آدَمَ، أَوْ مَا يَبْدُو لَهُ فِيهِ، وَبِجَعْلِهَا فِي الرَّحِمِ، حَرَكَ الرَّجُلَ لِلْجَمَاعِ، وَأَوْحَى إِلَى الرَّحِمِ أَنْ افْتَحِي بَابَكَ حَتَّى يُلِجَ فِيكَ خَلْقِي وَقَضَائِي

٢. في المصدر: عليها. ٣. في المصدر: في.

١. تفسير روح البيان ٢: ٣.

النَّافِذِ وَقَدَرِي، فتفتح الرِّجَمُ بابها، فتصل النُّطْفَةُ إلى الرِّجَمِ، فتردَّد فيه أربعين يوماً، ثمَّ تصير عِلَقَةً أربعين يوماً، ثمَّ تصير مُضْغَةً أربعين يوماً، ثمَّ تصير لَحْماً تجري فيه عُرُوقٌ مُشْتَبِكَةٌ، ثمَّ يبعث الله إليه مَلَكَيْنِ خَلَّاقَيْنِ يَخْلُقَانِ فِي الْأَرْحَامِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ، يَتَّقِمَانِ فِي بَطْنِ الْمَرْأَةِ مِنْ قَمِّ الْمَرْأَةِ فَيَصِلَانِ إِلَى الرَّحْمِ، وفيها الرُّوحُ الْقَدِيمَةُ الْمَقُولَةُ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، فَيَنْفَخَانِ فِيهَا رُوحَ الْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ، وَيَشْقَانِ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَجَمِيعَ الْجَوَارِحِ وَجَمِيعَ مَا فِي الْبَطْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى<sup>١</sup> الْخَبِرِ.

أقول: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: (وَمَا يَبْدُو لَهُ) مَنْ يُرِيدُ خَلْقَهُ يَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ الْمِيثَاقُ، وَهُمُ الَّذِينَ يَمُوتُونَ قَبْلَ الْبُلُوغِ والتعبير بالبداء لَكَوْنِ الْغَرَضِ فِي خَلْقِهِمْ مُرْتَبِئاً عَلَى الْغَرَضِ مِنْ خَلْقِ مَنْ أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ، وَمُتَأَخِّراً عَنْهُ فِي الرَّثْبَةِ، فَكَأَنَّهُ حَدَثَتْ إِرَادَتُهُ بَعْدَ إِرَادَتِهِ.

وَمِنْ قَوْلِهِ: (حَرَكِ الرَّجُلَ لِلْجَمَاعِ) أَنَّهُ أَوْجَدَ مَبَادِي هَيَّجَانِ الشَّهْوَةِ. وَمِنْ قَوْلِهِ: (فَأَوْحَى إِلَى الرَّحْمِ) جَعَلَ قُوَّةَ الْإِنْفِتَاحِ فِيهِ، وَتَعَلَّقَتْ الْإِرَادَةُ التَّكْوِينِيَّةُ بِفَتْحِهِ. وَمِنْ قَوْلِهِ: (فَتَرَدَّدَ فِيهِ) تَغَيَّرَ شَيْئاً فَشَيْئاً، وَمِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، حَتَّى تَصِيرَ عِلَقَةً.

وَمِنْ قَوْلِهِ: (الرُّوحُ الْقَدِيمَةُ) اسْتِعْدَادُ صَبْرٍ وَرُتَةِ إِنْسَاناً. وَمِنْ قَوْلِهِ: (الْبَقَاءُ) هُوَ رُوحُ الْبَقَاءِ، وَقُوَّةُ التَّغْذِيَةِ وَالتَّنْمِيَةِ. وَأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: (وَيَشْقَانِ) الْجَمْعُ الْمَطْلُوقُ، كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَطْفِ بِهِ، لَا التَّرْتِيبَ، فَلَا يُنَافِي تَسْوِيَةُ الْأَعْضَاءِ وَالْأَحْشَاءِ قَبْلَ وُلُوجِ الرُّوحِ.

إِلَى أَنْ قَالَ ﷺ: «ثُمَّ يُوحِي اللَّهُ إِلَى الْمَلَكَيْنِ اكْتُبَا عَلَيْهِ قَضَائِي وَقَدَرِي وَنَافِذَ أَمْرِي، وَاشْتَرِطَا لِي الْبَدَاءَ فِيمَا تَكْتُبَانِ. فَيَقُولَانِ: يَا رَبَّ مَا نَكْتُبُ؟ قَالَ: فَيُوحِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمَا: أَنْ ارْزُقَا رُؤُوسَكُمَا إِلَى رَأْسِ أُمِّهِ، فِيرْفَعَا [رُؤُوسَهُمَا]، فَإِذَا اللَّوْحُ يَفْرَعُ جِهَةً أُمَّهُ، فَيَنْظُرَانِ فِيهِ فَيَجِدَانِ فِي اللَّوْحِ صُورَتَهُ وَزِينَتَهُ وَأَجَلَهُ وَمِثَاقَهُ، شَقِيئاً أَوْ سَعِيداً، وَجَمِيعَ شَأْنِهِ.

قَالَ: فَيَمْلِكِي أَحَدَهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَيَكْتُبَانِ جَمِيعَ مَا فِي اللَّوْحِ، وَيَشْتَرِطَانِ الْبَدَاءَ فِيمَا يَكْتُبَانِ، ثُمَّ يَخْتِمَانِ الْكِتَابَ، وَيَجْعَلَانِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ يَقِيمَانِهِ قَائِماً فِي بَطْنِ أُمِّهِ. قَالَ: فَرُبَّمَا عَتَا فَاثْقَلَبَ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي كُلِّ عَاتٍ أَوْ مَارِدٍ<sup>٢</sup>.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ، فِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقاً جَمَعَ كُلَّ صُورَةٍ مَا بَيْنَهُ

٢. الكافي ٦: ١٤/٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٣.

١. الكافي ٦: ١٣/٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٣.

وبين آدم<sup>١</sup>، ثم خلقه على صورة إحداهن<sup>٢</sup>، فلا يقولن أحد لولد: هذا لا يشبهني ولا يشبه أحداً من آبائي<sup>٣</sup>.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ  
مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ  
ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ  
مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [٧]

ثم أنه روي أن الوفد قالوا: يا محمد، ألسنت ترغم أن عيسى كلمة الله وروح منه؟ قال ﷺ: «بلى»  
قالوا: حسبتا<sup>٤</sup>.

والظاهر من قولهم: (حسبتا) أنك اعترفت بقولك: (إنه كلمة الله) أنه ابنه، وبقولك: (أنه روح منه)  
بأنه ثالث ثلاثة.

فنزل في ردهم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾ هذا ﴿الْكِتَابَ﴾ المجيد المسمى بالقرآن،  
حال كونه مشتملاً على نوعين: نوع ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قَلْعِيَّاتُ الدَّلَالَةِ، نَاصَاتُ فِي الْمُرَادِ، أَوْ  
ظَاهِرَاتُ فِيهِ، بِنَفْسِهَا أَوْ بِالْقَرَائِنِ الْمُتَّصِلَةِ: مِنَ اللَّفْظِيَّةِ أَوْ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ الْمَقَابِيَةِ.

وتلك الآيات ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وأصل فيه، باعتبار وجوب إرجاع سائر إلهيا، فقلوه: ﴿وَمَا كَانَ  
رَبُّكَ نَسِيًّا﴾<sup>٥</sup> مرجع لقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾<sup>٦</sup>، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾<sup>٧</sup> مرجع لقوله:  
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾<sup>٨</sup>، وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾<sup>٩</sup> مرجع  
لقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾<sup>١٠</sup> لَوْضُوحُ أَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جُزْءَ الْخَالِقِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

ونوع منه آيات ﴿وَأُخَرُ﴾ هُنَّ آيَاتُ ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الدَّلَالَةِ، مُحْتِمِلَاتُ لِمَعَانِي مُتَعَدِّدَةٍ، لَا رُجْحَانَ  
لبعضها على بعض في استحقاق الإرادة بها، وَلَا يَتَضَحُّ الْمَقْصُودُ مِنْهَا إِلَّا بِالْقَرَائِنِ الْمُنْفَصِلَةِ،  
كَالْمُجْمَلَاتِ وَالْمُبْهَمَاتِ، أَوْ الظَّوَاهِرِ الَّتِي يَكُونُ مَدْلُولُهَا مُخَالَفَةً لِلْعَقْلِ السَّلِيمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ

١. في الملل: صورة بينه وبين أبيه إلى آدم. ٢. في الملل: أحدهم.

٣. علل الشرائع: ١/١٠٣، باب ٩٣، تفسير الصافي: ١/٢٩٣.

٤. مريم: ٦٤/١٩. ٥. التوبة: ٦٧/٩. ٦. الأعراف: ٢٨/٧. ٧. الإسراء: ١٦/١٧.

٨. الإسراء: ٨٥/١٧. ٩. النساء: ١٧١/٤.

أَيَّدِيهِمْ<sup>١</sup>، وقوله: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ<sup>٢</sup>﴾ وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى<sup>٣</sup>﴾ لِحُكْمِ الْعَقْلِ بِتَنْزُهُ خَالِقِ الْأَجْسَامِ وَالْأَمَكَةِ عَنِ الْجِسْمِ وَالصُّورَةِ وَالْمَكَانِ وَالْحَرَكَةِ.

في معنى المحكم عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن المُحَكَّمِ والمُتَشَابِهِ، فقال: «المُحَكَّم: ما يُعْمَلُ بِهِ، والمُتَشَابِه: ما اشْتَبَهَ عَلَى جَاهِلِهِ»<sup>٤</sup>.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: (ما يعمل به) ما لا يتوقف العرف في مدلوله ومفاده.

وعن (الكافي): عنه عليه السلام، في تأويله: «أَنَّ الْمُحَكَّمَاتِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمُتَشَابِهَاتِ فَلَانٌ وَفُلَانٌ»<sup>٥</sup>.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ تَقْسِيمَ الْكِتَابِ بِجَعْلِ بَعْضِهِ مُحَكَّمًا وَبَعْضُهُ مُتَشَابِهًا، لَا يُنَافِي تَسْمِيَةَ كُلِّهِ مُحَكَّمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ<sup>٦</sup>﴾، وَأَنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ اتَّيَقَنَتْ مَطَالِيهِ، بَحِيثٌ لَا يُتَوَهَّمُ التَّنَاقُضُ فِيهَا، وَخُفِضَتْ مِنْ أَنْ يَغْتَرِبَ فِيهَا الْخَلَلُ وَالتَّحْرِيفُ وَالتَّشْوِشُ، وَلَا تُوصَفُ كُلُّهُ بِالْمُتَشَابِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ<sup>٧</sup>﴾ لِأَنَّ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ هُنَا: الْمُتَمَاثِلُ الْآيَاتِ فِي صِحَّةِ الْمَعَانِي، وَجَزَالَةِ النَّظْمِ، وَحَقِّقَةِ الْمَدْلُولِ.

وَقَدْ سَبَقَ فِي الطَّرْفَةِ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ بَيَانُ فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ وَحِكْمٌ وَفِيرَةٌ فِي جَعْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ مُتَشَابِهًا، وَعَدَمُ جَعْلِ جَمِيعِهَا مُحَكَّمَاتٍ، مَنْ أَرَادَ الْأَطْلَاعَ عَلَيْهَا فَلْيُرَاجِعْهَا، وَعُمْدَةٌ حُكْمُهَا ابْتِلَاءُ الْخَلْقِ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الثَّابِتِ عَلَى الْحَقِّ وَأَهْلِ الرُّنْغِ.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ﴾ كَانَ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ رَنَغٌ﴾ وَمِثْلُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَانْحِرَافٍ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى شُعْبِ الضَّلَالِ ﴿فَيَسْتَعْوْنُ﴾ مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ وَيَتَمَسَّكُونَ - لِإثْبَاتِ عَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَأَعْمَالِهِمُ الْبَاطِلَةَ - بِظَاهِرِ آيَاتٍ مُخَالَفٍ لِلْمُحَكَّمَاتِ، أَوْ بِمُجْمَلَاتٍ غَيْرِ ظَاهِرَةِ الدَّلَالَةِ، وَيُؤْزِلُونَهَا بِالظُّنُونِ وَالِاسْتِحْسَانَاتِ، لَا تَحَرُّيًا لِلْحَقِّ وَطَلَبًا لِلصَّوَابِ، بَلْ ﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ وَقَصْدَ إِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِ ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ وَالْإِيمَانِ، وَسَعْيًا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ﴿وَأَبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وَطَلَبًا لِتَطْيِيقِهِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَإِرْجَاعِهِ إِلَى مَا هُوَ مُشْتَبِهٌ أَنْفُسِهِمْ مِنْ

١. الفتح: ١٠/٤٨. ٢. الفجر: ٢٢/٨٩. ٣. طه: ٥/٢٠.

٤. تفسير العياشي ١: ٦٤٣/٢٩٢، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.

٥. الكافي ١: ١٤٣/٣٤٣، تفسير العياشي ١: ٦٤٢/٢٩٢، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.

٦. هود: ١/١١.

٧. الزمر: ٢٣/٣٩.

الخرافات، وإرجاعه إلى معنى يوافق ما رآموه من الكفر، لُحِبَ الغلبة على الخضم، وحفظ الجاه والمال، كتمسك الوفد بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ فِيهِ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾<sup>١</sup> ويقول: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَوُجِّهَتْهُ﴾<sup>٢</sup> لإثبات أن عيسى ابن الله، أو ثالث ثلاثة، مع قصور دلالتها ومعارضة ما لحكم العقل ومحكم الآيات من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾<sup>٣</sup> وقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾<sup>٤</sup> و﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾<sup>٥</sup>.

﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ وحقبة المراد من المشابهة أحد ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ العالم بحقائق الأمور ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ الثابتون المتمكنون ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ المستغرقون في بخر الحكمة والمعرفة، المتأولون بتأييد الله عن العثرة في مزال الأقدام، السالكون بنور الهداية في ظلمات الأهواء والأوهام، وهم النبي وأوصياؤه الكرام.

نسي تعريف عن (الكافي): «الراسخون في العلم مَنْ لَا يَخْتَلِفُ فِي عِلْمِهِ»<sup>٦</sup>.  
الراسخين نسي أقول: الظاهر أن المراد منه مَنْ لَا يَكُونُ عِلْمُهُ عَنْ رَأْيٍ وَاجْتِهَادٍ، حَتَّى تَتَغَيَّرَ فَتَوَاهُ الْعِلْمُ وَيَخْتَلِفُ حُكْمُهُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَكُونُ عِلْمُهُمْ بِإِفَاضَةِ اللَّهِ وَالْهَامِ، كَالنَّبِيِّ وَأَوْصِيَائِهِ وَخُلَفَائِهِ.

رُوي أَنَّهُ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِي حَنِيفَةَ: «أَنْتَ فَتْيَةُ أَهْلِ الْعِرَاقِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَبَأَيِّ شَيْءٍ تَفْتِي؟» قَالَ: بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، قَالَ: «يَا أَبَا حَنِيفَةَ، تَعْرِفُ كِتَابَ اللَّهِ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ [و] تَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «يَا أَبَا حَنِيفَةَ، لَقَدْ أَدْعَيْتَ عِلْمًا، وَتِلْكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ، وَتِلْكَ مَا هُوَ إِلَّا عِنْدَ الْخَاصِّ مِنْ ذُرِّيَّةِ نَبِيِّنَا، وَمَا وَرَثَتُكَ اللَّهُ مِنْ كِتَابِهِ حَرْفًا»<sup>٧</sup>.

في (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام، في حديث قال: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ - لِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَعِلْمِهِ بِمَا يُحْدِثُ الْمُبْدِلُونَ، مِنْ تَغْيِيرِ كَلَامِهِ»<sup>٨</sup> - قَسَمَ كَلَامَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ؛ فَجَعَلَ قِسْمًا مِنْهُ يَعْرِفُهُ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ، وَقِسْمًا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ صَفَا ذَهْنُهُ وَلَطَّفَ حِسَّهُ وَصَحَّ تَمِيْزُهُ، مِمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ

١. آل عمران: ٤٥/٣. ٢. النساء: ١٧١/٤. ٣. مريم: ٣٥/١٩. ٤. الإسراء: ١١١/١٧.

٥. الأنعام: ١٠١/٦. ٦. الكافي ١: ١٩٠، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.

٧. علل الشرائع: ٥/٨٩، تفسير الصافي ١: ٢٢. ٨. في الاحتجاج: كتابه.

صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ، وَقِسْماً لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْبِيََاؤُهُ<sup>١</sup> وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا فَعَلَ [اللَّهُ] ذَلِكَ لِئَلَّا يَدَّعِيَ أَهْلُ الْبَاطِلِ - مِنَ الْمُسْتَوَلِينَ عَلَى مِيرَاثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ لَهُمْ، وَلِيُقَوِّدَهُمَ الْاضْطِرَارَ إِلَى الْإِثْمَارِ بِمَنْ وَلَّاهُ أَمْرَهُمْ، فَاسْتَكْبَرُوا عَنْ طَاعَتِهِ تَعَزُّزاً وَافْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَافْتِرَاءً بِكَثْرَةِ مَنْ ظَاهَرَهُمْ، وَعَاوَنَهُمْ، وَعَانَدَ اللَّهُ جَلَّ اسْمُهُ وَرَسُولُهُ<sup>٢</sup>.

وَرَوَى الْفَخْرُ الرَّازِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ لَا يَسَعُ أَحَدًا جَهْلُهُ، وَتَفْسِيرٌ تَعَلَّمَهُ الْعَرَبُ بِأَلْسِنَتِهِمَا، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ<sup>٣</sup>.

عَنْ (الْكَافِي): عَنْ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «نَحْنُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ»<sup>٤</sup>.  
وَفِي رِوَايَةٍ: «فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، قَدْ عَلَّمَهُ اللَّهُ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ التَّنْزِيلِ وَالتَّأْوِيلِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْزِلَ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يُعَلِّمْهُ تَأْوِيلَهُ، وَأَوْصِيَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ يَعْلَمُونَهُ كُلَّهُ»<sup>٥</sup>.

ثُمَّ وَصَفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ - مَعَ عِلْمِهِمْ بِالتَّأْوِيلِ، وَفَهْمِهِمْ حَقِيقَةَ الْمُتَشَابِهِ كَالْمُحَكَّمِ - «يَقُولُونَ» بِأَلْسِنَتِهِمْ طَيْقاً لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ: «أَمَّا بِهِ» وَصَدَّقْنَا بِحَقِيقَةِ الْمُرَادِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ «كُلٌّ» مِنَ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ، أَوْ مِنْهَا وَمِنْ الْمُحَكَّمَاتِ، حَقٌّ نَازِلٌ «مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا».

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةَ هَذَا الْقَوْلِ عَنْهُمْ، لِتَعْلِيمِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ أَنْ يَقُولُوا مِثْلَهُ، وَلَا يُشْكُوا - لَعَلَّاهُمْ فَهَمُ الْمُرَادِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ - فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَا يَخْوضُوا فِي تَفْسِيرِهِ بِالظُّنُونِ وَالِاسْتِحْسَانَاتِ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيُسَلِّمُوا لَهُ، وَيَفُوضُوا عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى خَزَائِنِ عِلْمِهِ وَمَهَابِطِ وَحْيِهِ.

ذَكَرَ قَوْلَ بَعْضِ قِيلَ: إِنَّ «الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ» مُبْتَدَأٌ، وَقَوْلُهُ: «يَقُولُونَ أَمَّا بِهِ» خَبَرُهُ، وَإِنَّ الْمُتَشَابِهَ الْعَامَّةَ وَرَدَهُ  
هُوَ مَا اشْتَأَثَرُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَبِعَمْرِكَ الْجِئْمَةِ فِيهِ، كَعَدَدِ الرُّبَايَةِ، وَعِدَّةِ بَقَاءِ الدُّنْيَا، وَوَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ<sup>٦</sup>.

وَهَذَا الْقَوْلُ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ، إِذْ يُلْزَمُهُ أَنْ يَكُونَ الرُّشُولُ جَاهِلًا بِكَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، وَغَيْرِ مُطَّلِعٍ بِالْمُرَادِ مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لِيَسْتَفِيعَ النَّاسُ بِهِ، وَلَوْ بَيَّانَ حَمَلَتِهِ وَأَوْعِيَةِ عِلْمِهِ، فَلَوْ كَانَ فِيهِ مَا لَا

٢. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.

٤. الكافي ١: ١٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.

٦. تفسير روح البيان ٢: ٥.

١. في الاحتجاج: وأمناؤه.

٣. تفسير الرازي ٧: ١٧٨.

٥. الكافي ١: ١٦٦، تفسير الصافي ١: ٢٩٥.



يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ لَكَانَ تَنْزِيلُهُ لِقَوْمًا، لَعَدَمَ انْتِفَاعِ أَحَدٍ بِهِ، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ ولا يفهم حقيقة تأويل المتشابهات، وحكمة نزولها حتى التذكر والتفهم أحد ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول السليمة من غلبة الشهوات، وذوو الأفهام المستقيمة الخالصة عن شوائب الأهواء الزائغات.

ومن الواضح أن هذا المدح الفائق، والثناء الرائق، لا يليق إلا بمن يُصيب الحق، ويهتدي إلى حقيقة المراد، ويصل إلى أصل المقصود من كلام الملك العلام، بجودة الذهن، وإصابة النظر، وتور الفكر، وتجرّد العقل عن غواشي الجس والأوهام.

رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ  
\* رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ [٨ و ٩]

ثم لما كان جميع الخيرات والكمالات خدوئاً وبقاءً بإفاضة الله ولطفه وتوفيقه، كان على المؤمن اللبيب أن لا يغترّ بوجدان خير، ولا يطمنّ ببقاء كمال ودوام فضيلة، بل عليه أن يتضرّع إلى الله، ويسأل إدامته منه تعالى.

فلذا مدح الله الراسخين في العلم بأنهم الذين يقولون، تضرّعاً واستيكانة: ﴿رَبَّنَا﴾ وبما من بلطفه تكميل ثقتنا، وتوفيق هدايتنا ﴿لَا تَزِغْ﴾ ولا تمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن نهج الحق، في تأويل المتشابهات وغيره، إلى الباطل والضلال ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والصواب، في العقائد والأعمال والتأويل والتفسير.

وقيل: إن المراد: لا تبتلينا ببلاءٍ تزيغ منه قلوبنا.

رؤي عن النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق، وإن شاء أزاغه عنه»<sup>١</sup>.

والظاهر أن كلمة (الإصبعين) كناية عن رضا الله وغضبه، أو عن الملك المرشد والشيطان المغوي، أو عن التوفيق والخذلان.

ثم أنهم - بعد سؤال أن لا يسلب الله عنهم ما ألبسهم من الكمال، ولا يستردّ ما أعطاهم من العلم

وَتَوْفِيقَ الرَّشْدِ إِلَى الْحَقِّ - سَأَلُوا زِيَادَةَ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالتَّوْفِيقِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَمِنْ خَزَائِنِ جُودِكَ ﴿رَحْمَةً﴾ نَفُوزِهَا إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ قُرْبِكَ وَرِضْوَانِكَ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ لِلخَيْرَاتِ، الْمُعْطَى الْمُعْطَى لِلْمَسْئُولَاتِ. وَالتَّذْيِيلُ بِهِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذَا الْمَسْئُولَ فِي جَنْبِ عَطَايَاهُ الْكَثِيرَةِ، فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ.

عَنِ الْكَاطِمِ عليه السلام، فِي حَدِيثٍ: «يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَكَمَ عَنِ قَوْمٍ صَالِحِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ حِينَ عَلِمُوا أَنَّ الْقُلُوبَ تَزِيغٌ وَتَعُودُ إِلَى عَمَاهَا وَرَدَاهَا، إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ لَمْ يَعْقِلِ عَنِ اللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلِ عَنِ اللَّهِ لَمْ يَعْقِدْ قَلْبَهُ عَلَى مَعْرِفَةٍ نَائِبَةٍ يَبْصُرُهَا وَيَجِدُ حَقِيقَتَهَا فِي قَلْبِهِ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ كَذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ قَوْلُهُ لِفِعْلِهِ مُصَدِّقًا، وَسِرُّهُ لِعَلَانِيَتِهِ مُوَافِقًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَذَلَّ عَلَى الْبَاطِنِ الْخَفِيِّ مِنَ الْعَقْلِ إِلَّا بِظَاهِرٍ مِنْهُ، وَنَاطِقٍ عَنْهُ»<sup>٢</sup>.

عَنِ الْعِيَّاشِيِّ، عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَكْثَرُوا مِنْ أَنْ تَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وَلَا تَأْمَنُوا الزَّيْغَ»<sup>٣</sup>. وَفِي آيَةِ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ الْهُدَايَةَ وَالضَّلَالَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَخِذْلَانِهِ.

ثُمَّ لَيَّانَ شِدَّةَ افْتِقَارِهِمْ إِلَى التَّحْفُظِ عَنِ الزَّيْغِ وَثُمُولِ الرَّحْمَةِ، عَرَضُوا عَلَى رَبِّهِمْ كَمَالَ اطمْنَانِهِمْ وَقُوَّةَ يَقِينِهِمْ بِالْمَعَادِ وَالْحَشْرِ فِي الْقِيَامَةِ، لِلْجَزَاءِ عَلَى الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ وَعَدْتَ الْعِبَادَ فِي كِتَابِكَ الْحَقَّ، وَبِلِسَانِ نَبِيِّكَ الصَّادِقِ، أَنَّكَ ﴿جَامِعُ النَّاسِ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَحَاشِرِهِمْ ﴿لِيَوْمٍ﴾ عَظِيمٍ، حَتَّى تُحَاسِبَ فِيهِ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، وَتُثَبِّتَ فِيهِ الْمُؤْمِنَ الْمُطِيعَ، وَتُعَاقِبَ فِيهِ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَ، وَ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لَنَا، وَلِكُلِّ عَاقِلٍ بَصِيرٍ مِنْ حَيْثُ وَقُوعُهُ وَعَظَمَتُهُ وَشِدَّةُ أَهْوَالِهِ، وَإِنَّ مَنْ زَاغَ قَلْبُهُ لَيَبْتَلِي بِعَذَابٍ أَلِيمٍ دَائِمٍ، وَمَنْ أَعْطَيْتَهُ التَّوْفِيقَ وَالْهُدَايَةَ وَشَجَلْتَهُ الرَّحْمَةَ، يَنَالُ السَّعَادَةَ وَالْكَرَامَةَ وَالتَّعَمُّقَ الْبَاقِيَةَ كَمَا وَعَدْتَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ الْجَلَالَةِ لَيَّانَ مُبَايَنَةَ خُلْفِ الْوَعْدِ لِأَلُوهِيَّتِهِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِلْحِكْمَةِ وَالْغِنَى وَالتَّنَزُّهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ

٢. الكافي ١: ١٢/١٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٦.

١. فِي الْكَافِي: إِنَّهُ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ مِنْ.

٣. تفسير العياشي ١: ٦٤٩/٢٩٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٧.

## وَقُودُ النَّارِ [١٠]

ثم - لما علم أن هذا الإيمان همهم في طلب الهداية إلى الحق في الدنيا، وتبيل الرحمة، والفوز بالسعادة في الآخرة، لا في المال والأولاد والحطام الفانية، بخلاف الكفار وأهل الزينج المتبئين للمتشابهات، كما قيل أن بعض الوفد<sup>١</sup> بعد اعترافه بأن محمداً ﷺ هو النبي الموعود المنتظر، قال: إن آمنا به أخذ منا أموالنا وذهب جاهنا عند الملوك - بين الله حال الكفار في الآخرة، وهددهم بشديد عقابه، وأن أموالهم لا تنجيهم منه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من نصارى نجران، وسائر صنوف المعاندين للحق، تنقطع عنهم وسائل النجاة من العذاب في الآخرة، حيث إنه ﴿لَنْ تُغْنِيَ﴾ ولا تجزي أبداً ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي جمعوها واكتسبوها في الدنيا، بقصد جلب المنافع ودفع المضار عن أنفسهم بها ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الذين يعملون عليهم في الخطوب، ويتناصرون بهم في دفع الكرب ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿الله﴾ أو من عند الله ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً من الإغناء، أو من العذاب.

وتخصيص الأموال والأولاد من وسائل الدفاع والنجاة بالذكر، لكونهما من أهمها وأقواها، وتقديم ذكر الأموال لأنها أول عدة يفرع إليها عند المليئات.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ البعيدون عن رحمة الله، بعد قطع آمنيات الخلاص ﴿هُمْ﴾ خاصة ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ فتشعل نار جهنم فيهم كاشتعالها في الحطب والحشايش. وهذا أوضح بيان لكمال ملبستهم بالنار، ولسوء حالهم، وتهويل شأنهم.

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ

## الْمِهَادُ [١١ و ١٢]

ثم بين الله تعالى أن عادة هؤلاء الكفار وشأنهم؛ في التماذي في الكفر، وتكذيب الرسل، والتمرد عن الحق ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ومثل شأنهم ﴿و﴾ شأن ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الغتاة والمردة ومعاملتهم معكم كمعاملتهم مع موسى ﷺ وسائر الأنبياء العظام ﷺ.

١. وفد نصارى نجران المتقدم ذكره في أول السورة.

ثم كانه قيل: كيف كان شأنهم وحالهم مع الأنبياء؟ فأجاب سبحانه: بأنهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وجحدوا المعجزات التي أظهرها، وأعرضوا عن البراهين العقلية التي أقاموها، فنسبوا المعجزات الباهرات إلى السحر، والبراهين الساطعات إلى أساطير الأولين وتلفيقات المجانين ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ وعذبهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ المؤبقة في الدنيا بأنواع العذاب؛ من العرق والخسف والصيحة وغيرها ﴿وَأَلْفَهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذكر اسم الجلالة وتكراره لإظهار الروعة وترية المهابة.

ثم أكد سبحانه تهديد الكفار والمردة - لازدياد الرعب في قلوبهم - بتوعيدهم بعذاب الدنيا؛ من القتل والتشريد، مع عذاب الآخرة، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وبما أنزل إليك؛ من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان: إنكم أيها الطغاة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ عن قريب، وتقهرون بأيدي المسلمين وسيوفهم في الدنيا ﴿وَتُخْشَرُونَ﴾ من قُبوركم، وتساقون في الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُشَسُّ الْمِهَادُ﴾ والفراش، وساء المقر الذي هيأتموه لأنفسكم من النار.

رؤي أنها نزلت قبل وقعة بدر، فإنه ﷺ قال لمشركي قريش يوم بدر: «إن الله غاليكم وحاشركم إلى جهنم، ويش المهاد»<sup>١</sup>.

وعن ابن عباس: أن يهود المدينة لما شاهدوا وقعة بدر، قالوا: والله هذا هو النبي الأمي الذي بشرنا به موسى في التوراة، ونعته بأنه لا ترد له راية، وهموا باتباعه، فقال بعضهم: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى له. فلما كان يوم أحد شكروا - وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوه - وانطلق كعب بن أشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة، فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ، فنزلت [الآية]<sup>٢</sup>.

ورؤي عن بعض العامة، ونسب أيضاً إلى روايات أصحابنا: أنه لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في شوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود، أحدىروا من الله بجمل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، وقد عرفتم أنني نبي مرسل» فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً أغماراً<sup>٣</sup> لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، أما والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس، فنزلت [الآية]<sup>٤</sup>.

١. تفسير أبي السعود ٢: ١١.

٢. مجمع البيان ٢: ٧٠٦.

٣. الأغمار: جمع غمر، وهو من لم يجرب الأمور، ولا علم له بها.

نفي إخبار القرآن وعلى أي تقدير، فهذه الآية دالة على إخبار الله بغلبة المسلمين على اليهود وسائر بالغب وهم ودفع المشركين، قبل وقوعها، عن جزم ويقين، مع وجود الأمارات العادية - من ضعف المسلمين، وشوكة الكفار - على خلافه.

ثم صدق الله الوعد بقتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح خيبر، ووضع الجزية على من بقي منهم، وإخلاق المشركين ومغلوبيتهم وطردهم وتشريدهم مع كثرة شوكتهم. فلا شبهة أن هذا الإخبار - إخبار عيسى عليه السلام بما يأكلون وما يدخرون - من آيات النبوة، وصدق النبي في دعوته. إن قيل: لعل وقوع ما أخبر به كان من الاتفاقيات، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

قلنا: من المتفق عليه بين العقلاء أن محمدًا ﷺ كان أعقل أهل عصره، لو لم يكن أعقل عقلاء العالم، ولا ريب أن العاقل إذا ادعى أمرًا كالنبوة، وكان ظهور كذبه في خبر مبطلاً لدعواه، يمتنع أن يخبر عن الجزم واليقين بأمر يكون في نفسه احتمال خلافه، وقد أخبر النبي ﷺ بغلبته على الكفار عن جزم ويقين، مع تراكم الأمارات العادية على خلافها، وعدم إمكان الجزم إلا بالوحي.

فإن قيل: لعل الجزم به حصل له بطريق الجفر والحساب، أو علم النجوم، أو الكهانة. قلنا: مضافاً إلى أن هذا الاعتراض وارد على إخبار عيسى عليه السلام - وغيره من الأنبياء - بالمعجزات، فما كان دافعاً لهم في إخبارهم كان دافعاً له في إخباره ﷺ، فإنه لا شبهة أن تحصيل هذه العلوم محتاج في العادة إلى التعلم من أهلها، والحضور عندهم، ومن المسلم أنه ﷺ كان أمياً لم يحضر عند عالم، ولم يتعلم من أحد، ولم يراجع كتاباً، فلا بد من اليقين بكون إخباره بالمعجزات بالوحي.

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِي الثَّقَاتِ فِتْنَةً تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي

### الْأَبْصَارِ [١٣]

ثم استشهد سبحانه على صدق هذا الإخبار الذي كان معدوداً من المحالات، وتحقق وقوعه فيما بعد بتأييده تعالى ونصره، لا بكثرة العدد والغدة، بقضية بذر التي أشار إليها إجمالاً بقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها اليهود في وقعة بذر ﴿آيَةٌ عظيمة، ودلالة واضحة على نبوة محمد ﷺ وصدق الإخبار بغلبة المسلمين، وهي ما وقع ﴿في﴾ شأن ﴿فِتْنَتَيْنِ﴾ وفترتين مبارزتين، حين ﴿الثَّقَاتِ﴾ وتراءتا في

وادي بدر؛ إحداهما **«فِتْنَةٌ»** مؤمنة، قليلة العُدَّة والعدَد، وهم الرُّسول ﷺ، وثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه، وكانت تلك الفِتْنَةُ **«تُقَاتِلُ»** وتجاهد **«فِي سَبِيلِ اللَّهِ»** وطاعته، وطَلَباً لمرزاته، **«وَفِتْنَةٌ أُخْرَى»** منهما **«كَافِرَةٌ»** بالله ورَّسوله، وهي طائفة قُرَيْش، وفيها صناديدهم وشجعانهم، حيث صمَّموا على قتال الرُّسول ﷺ وأصحابه حين سمعوا أَنَّهُ ﷺ قصد غيرهم.

وإنَّما لَمْ يوصَف قتال الفِتْنَةُ الكافرة بِكَوْنِهِ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ؛ لَوْضُوح أَن قِتَالَهُمْ كَانَ عَلَى ضِدِّ قِتَالِ الفِتْنَةِ الْمُؤْمِنَةِ، ولَعَدَمَ الِاعْتِدَاد بِقِتَالِهِمْ، ولِلإِشْعَار بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَاصِدِينَ لَهُ لِمَا اغْتَرَاهُمْ مِنْ الرُّغْبِ.

رُوي أَن الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْعَمَانِ وَخَمْسِينَ رَجُلًا مُقَاتِلًا، وَكَانَ رَأْسُهُمْ عُثْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَفِيهِمْ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَأَبُو جَهْلٍ، وَقَادُوا مِائَةَ فَرَسٍ، وَكَانَ فِيهِمْ سَبْعُمِائَةِ بَعِيرٍ، وَأَهْلُ الْخَيْلِ كَانُوا كُلُّهُمْ دَارِعِينَ، وَكَانَ فِي الرِّجَالِ دُرُوعٌ سِوَى ذَلِكَ، وَمِنْ أَصْنَافِ الْأَسْلِحَةِ عَدَدٌ لَا يُحْصَى. وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا؛ سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَمِائَتَانِ وَسِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ صَاحِبُ رَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَصَاحِبُ رَايَةِ الْأَنْصَارِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ الْخَزْرَجِيُّ، وَكَانَ فِي الْعَسْكَرِ تِسْعُونَ بَعِيرًا وَفَرَسَانِ، أَحَدُهُمَا لِلْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو وَالْآخَرُ لِمَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ، وَسِتُّ أَدْرَعٍ وَثَمَانِيَةُ سِوْفٍ<sup>١</sup>.

فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ كَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا نَظَرُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ **«يَرْوُونَهُمْ»** مَعَ كَوْنِهِمْ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِهِمْ **«مِثْلَيْهِمْ»** وَضِعْفَ عَدَدِهِمْ - أَيِ سِتْمِائَةٍ وَتِسْعًا وَعَشْرِينَ، بِنَاءً عَلَى إِرْجَاعِ ضَمِيرٍ (مِثْلَيْهِمْ) إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَحْتَمِلُ رُجُوعُهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَيَكُونُ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ فِي نَظَرِهِمْ أَلْفًا وَتِسْعُمِائَةً<sup>٢</sup> - رُؤْيَةً ظَاهِرَةً لِكَوْنِهَا **«رَأْيُ الْعَيْنِ»** لَا يَحْتَمِلُ الْإِلْتِيَّاسَ فِيهَا، كَمَا يَحْتَمِلُ فِي سَائِرِ الْمَعَانِيَاتِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ رُؤْيَا الْمَعَانِيَةِ، مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ.

قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَلَّلَ الْمُسْلِمِينَ أَوَّلًا فِي أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ، حِينَ أَلْقَتْ الْفِئَتَانِ، لِيَتَجَرَّأُوا عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ، لِئَلَّا يَتَخَذَلُوا فِي قِتَالِهِمْ **«لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا»**<sup>٣</sup> كَمَا فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ، فَلَمَّا تَبَارَزُوا لِلْقِتَالِ، وَاشْتَبَكَتِ الْحَزْبُ، كَثَّرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ

١. تفسير الرازي ٧: ١٨٩، تفسير أبي السعود ٢: ١٣. ٢. في النسخة: ألفاً وست مائة.

٣. الأنفال: ٤٢/٨.

المشركين، ليخذلهم بالرعب، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، وكان أبلغ في القدرة وإظهار الآية<sup>١</sup>.

رؤي عن سعد بن أوس أنه قال: أسر المشركون رجلاً من المسلمين، فسألوه: كم كُتُم؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر. قالوا: ما كُتّا نراكم إلا نضعقون علينا<sup>٢</sup>.

ويُحتمل أن يكون المراد أن الله قلل المشركين في أعين المسلمين حتى رأوا أنفسهم مثلي المشركين، ويمكن كُؤن تكثير المسلمين في نظرهم أو في نظر المشركين بدخول الملائكة فيهم، أو بالتصرف في القوة الواهمة.

في بيان معجزات النبي ﷺ في تلك الواقعة آيات كثيرة، ومعجزات عديدة ظاهرة. منها: إخبار النبي ﷺ أصحابه بنصرتهم على قريش قبل الواقعة. وقعة بدر

ومنها: التقليل والتكثير اللذان حكاهما الله تعالى في هذه الآية وفي سورة الأنفال. ومنها: إخباره ﷺ قبل القتال بأن هُنا مَضْرَعُ فلان، وهُنا مَضْرَعُ فلان، فلما أُنْقَضَت الواقعة رأوا ما وقع مطابقاً لما أخبر به.

ومنها: تأييد الله تعالى المسلمين بألفٍ من الملائكة مُردفين<sup>٣</sup> رؤي أنه كان سيماء الملائكة أنه كان على أذنان خيولهم ونواصيها صُوقَ أبيض<sup>٤</sup>.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ وَيُقَوِّي ﴿بِنَصْرِهِ﴾ وَعَوْنِهِ، بِإِلَاطِاسِطِ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ نَصْرَهُ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا أَيْدِ أَصْحَابِ بَدْرٍ بِالمَلَايِكَةِ، وَأَيْدِ الرُّشُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُفَّارِ بِالْحَجَجِ الْبَالِغَةِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنْ إِرَاءَةِ الْجَمْعِ الْقَلِيلِ كَثِيراً ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ عَظِيمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ وَهُدَايَةٌ ظَاهِرَةٌ كَائِنَةً ﴿لَأَوَّلَى الْأَبْصَارِ﴾ الصَّحِيحَةِ، وَذَوِي الْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ، وَالْعُقُولِ السَّالِمَةِ.

زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ  
وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [١٤]

٢. تفسير أبي السعود ٢: ١٣، تفسير روح البيان ٢: ٨.

٤. تفسير الرازي ٧: ١٩٠.

١. تفسير روح البيان ٢: ٨.

٣. كما في سورة الأنفال: ٩/٨.

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى - بَعْدَ بَيَانِ آيَةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّبَوُّةِ الظَّاهِرَةِ فِي قِصَّةِ بَدْرِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى لُزُومِ اعْتِبَارِ ذَوِي الْأَبْصَارِ بِهَا - بَيَّنَّ عِلَّةَ عَمَى الْقُلُوبِ وَعَدَمَ تَأَثَّرِهَا بِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿زُيِّنَ﴾ وَحُسْنَ بَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَاقْتِضَاءِ الطَّبِيعَةِ لِلنَّاسِ ﴿نَوْعًا﴾ حُبُّ الشَّهَوَاتِ وَتَعَلُّقُ الْقُلُوبِ بِالنَّفْسَانِيَّاتِ وَالْمُسْتَلَذَّاتِ.

وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهَا بِالشَّهَوَاتِ دُونَ الْمُشْتَهَاتِ إِذْ بَانَ أَنَّهَا مِنْ شِدَّةِ حُبِّهَا، كَانَتْهُمْ يُحِبُّونَ شَهْوَتَهَا، وَإِشْعَارًا بِغَايَةِ رَذَالَتِهَا، لَوْضُوحِ أَنَّ الشَّهْوَةَ مِنْ صِفَاتِ الْبَهَائِمِ.

وَتَزَيَّنَ حُبُّهَا بِخُسْبَانِهِمْ أَنَّ حُبَّهَا مُقْتَضَى الْعَقْلِ وَكَمَالِ النَّفْسِ، وَلِذَا يَلُومُونَ الْمُعْرِضَ عَنْهَا وَيُنْسِبُونَهُ إِلَى السُّفْهِ، مَعَ وَضُوحِ أَنَّ حُبَّهَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ صُغْفِ الْعَقْلِ وَغَلَبَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَفَقْدِ الْبَصِيرَةِ بِحَقَائِقِهَا.

ثُمَّ فَصَّلَ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْمُشْتَهَاتِ بِأَنَّهَا ﴿مِنْ﴾ قَبِيلِ جِنْسِ ﴿النِّسَاءِ﴾ اللَّاتِي لِعِرَاقَتِهِنَّ فِي مَعْنَى الشَّهْوَةِ عُدُدُنَّ مِنْ حِبَائِلِ الشَّيْطَانِ، وَقُدْرَتُنَّ فِي الذُّكْرِ.

ثُمَّ أَرَادَ فَرَّقَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَيْنِينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ، كَمَا قِيلَ: أَوْلَادُنَا فِتْنَةٌ، إِنْ عَاشُوا فَتَنُونَا، وَإِنْ مَاتُوا أَحْزَنُونَا<sup>١</sup>.

وَتَخْصِيصُ الْبَيْنِينَ بِالذُّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْأَوْلَادِ، لَكُونِ حُبِّهِمْ - مِنْ جِهَةِ السُّرُورِ وَالتَّكَثُّرِ - أَكْثَرَ مِنْ حُبِّ الْبَنَاتِ، بَلْ كَانَ الْعَرَبُ يَكْرَهُوهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾<sup>٢</sup>.

وَالِافْتِتَانُ بِهِمْ يَشْغَلُ الْقَلْبَ بِهِمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالِاهْتِمَامُ بِحِفْظِ خَاطِرِهِمْ بِالْعَرَضِ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْجُرْصُ عَلَى جَمْعِ الْأَمْوَالِ لَهُمْ مِنَ الْحَلَالِ أَوْ الْحَرَامِ، وَلِذَا عَقَّبَ ذِكْرَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْقَنَاطِيرُ﴾ وَهُوَ جَمْعُ قِنْطَارٍ.

رَوَى عَنْ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ (عليهما السلام): «أَنَّهُ<sup>٣</sup> مِْلٌ يَشْكُ ثَوْرٌ مِنَ الذَّهَبِ<sup>٤</sup>، وَقِيلَ: مَانَةُ أَلْفٍ دِينَارٍ. وَقِيلَ: ثَمَانُونَ أَلْفَ. وَقِيلَ: سَبْعُونَ أَلْفَ. وَقِيلَ: أَرْبَعُونَ أَلْفَ يُمْتَلَأُ مِنَ الذَّهَبِ. وَقِيلَ: أَلْفٌ وَمِائَتَا يُمْتَلَأُ. وَقِيلَ: أَلْفَا دِينَارٍ<sup>٥</sup>. وَقِيلَ: أَلْفٌ. وَقِيلَ: اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ<sup>٦</sup>. وَعَلَى أَيِّ تَقْدِيرٍ هِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَالِ الْكَثِيرِ.

١. تفسير روح البيان ٢: ١٠.

٢. النحل: ٥٨/١٦.

٣. أي القنطار.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٤.

٥. مجمع البيان ٢: ٧١٢، تفسير الصافي ١: ٢٩٨.

٦. تفسير الرازي ٧: ١٩٦.



﴿الْمُقَنْطَرَةُ﴾ مأخوذة من القنطار، قيل: جيء بها للتأكيد. وقيل: معناها: الكثيرة، المنصدة بعضها على بعض. وقيل: المضروبة المنقوشة، حال كونها ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾.

وعلة خُتِما كونهما ثَمَن سائر الأشياء، فمالكهما كمالك جميع الأشياء، ولذا قدَما شَبَاحَهُ بِالذِّكْرِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ والأفراس المرسلة من كثرتها، للرعي ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الثلاثة مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالنَّعَمِ، بأصنافها ﴿وَالْحَرْثِ﴾ مِنَ الْغُرْسِ وَالزَّرْعِ.

وحُب هذه الأشياء وإن كان مما يقوم به نظام العالم ويتم عيش بني آدم، إلا أنها لما كانت في الأغلب مُلْهِمة عن ذِكْرِ اللَّهِ وشاغِلة عن طاعته، ذَمَّها شَبَاحُهُ بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من المشتبهات ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الدنية الفانية، وملذاتها اليسيرة الزائلة.

فلا ينبغي للعاقل المؤمن أن يتوجّه إليها، ويتعلّق قلبه بها، ويصرف همه فيها، بل عليه أن يتوجّه بكُله إلى الله والدار الآخرة، ويجعل حُب هذه الأمور تابِعاً لِحُبِّ اللَّهِ، وتحصيلها وُضْلةً إلى طاعة الله ومَرْضَاتِهِ؛ لَوْضُوحِ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ النِّعَمِ مُقَدِّمَاتٌ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ووسائلٍ لِتَحْصِيلِ الدَّرَجَاتِ الْآخِرِيَّةِ.

فالمؤمن اللبيب يُحِبُّ الْمَالَ وَيَكْتَسِبُهُ لِلْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِرْفَاقِ بِعِبَادِهِ؛ وَيَحْرُثُ لِأَنْ يَوْفُقَ لِأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَيَتَجَرَّ لِلتَّوَسُّعَةِ عَلَى الْعِيَالِ وَالصَّدَقَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَيتَزَوَّجُ لِتَحْصِيلِ الْفَرْجِ مِنَ الْحَرَامِ وَحِفْظِ الْإِيمَانِ وَتَكْثِيرِ النُّسْلِ وَتَثْقِيلِ الْأَرْضِ بِالْوَلَدِ الْمُوَحَّدِ الصَّالِحِ، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ لِلتَّقْوَى عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْقِيَامِ بِوُطْأَنِ الْعُبُودِيَّةِ.

والحاصل: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُحِبُّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِفَرْضِ تَحْصِيلِ الْآخِرَةِ، وَلِذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾<sup>١</sup> بِالْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ. فَاتَّضَحَ أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا لِحُبِّ اللَّهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، لَيْسَ الْحُبُّ الْمَذْمُومُ، بَلْ هُوَ مَمْدُوحُ غَايَتِهِ، لَكَوْنُهُ عَيْنَ حُبِّ اللَّهِ وَحُبِّ طَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ، فَإِنْ مَنَّ يَتَحَمَّلُ شُرْبَ الدَّوَاءِ الْمَرْبُوءِ مِنَ الْمَرَضِ وَطَلَبَ السَّلَامَةَ مِنْهُ، لَا يَعْدُ مُحِبّاً لِلدَّوَاءِ، بَلْ هُوَ مُحِبٌّ لِلْبُرْءِ مِنَ الْمَرَضِ، وَطَالِبٌ لَهُ.

والحاصل: أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ لَا يَنَالُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا لِنَيْلِ الْآخِرَةِ، وَالْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَمَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ ذَلِكَ يَكُونُ مُبْغِضاً لَهَا وَمُعْرِضاً عَنْهَا، وَتَكُونُ عِنْدَهُ أَهْوَى مِنْ عِرَاقٍ<sup>٢</sup> خِزْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْدُومٍ، وَأَضَرُّ مِنْ

السَّم، فكيف يَلْتَذُّ المؤمن بلذائذ الدنيا، ويشتاق إليها، وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ مُفَارِقُهَا، وتبقى عليه تبعاتها؟ التي أقلها أن يقال له في الآخرة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾<sup>١</sup>.  
﴿وَأَفَاءَهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ والمرجع مِنَ الْجَنَّةِ وَيَعْمَهَا الْبَاقِيَةُ.

قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [١٥]

ثم بعد الإشارة الإجمالية إلى فضيلة نِعَمِ الآخرة على نعم الدنيا، ذَكَرَ سبحانه أَسْوَالَ نِعَمِ الآخرة تفصيلاً بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد، لَأَمْنِكَ: ﴿أُوْنِبْتُكُمْ﴾ وهل أَخْبِرْكُمْ ﴿بِخَيْرٍ﴾ وأَحْسَنَ ﴿مِنْ ذَلِكَمُ﴾ الْمُشْتَهَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ؟

ثم لما كَانَ السُّؤال مُقتَضِياً للجواب، فكأنه قيل في الجواب: نَعَمْ أَنبِئْنَا وَأَخْبِرْنَا، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله، وخافوا عقابه في مُخالفة أحكامه وَعِصْيَانِ تَكْلِيفِهِ، وأعرضوا مِنَ الدُّنْيَا، وأقبلوا إلى الآخرة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم تَفَضُّلاً مِنْهُ عَلَيْهِمْ ﴿جَنَّاتٌ﴾ مُتَعَدِّدَةٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. وقيل: إِنَّ التَّعَدُّدَ يُلْحَظُ تَعَدُّدُ الْأَشْخَاصِ.

ثم وصف نَصَارَتَهَا بأن لها أشجاراً ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة المَعْهُودَةُ، حال كَوْنِهِمْ ﴿خَالِدِينَ﴾ ومُتَقِيمِينَ ﴿فِيهَا﴾ أبداً، غير خَائِفِينَ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا، وَزَوَالِ نِعْمِهَا. عن النبي ﷺ: «شَبَّرتُ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»<sup>٢</sup>.

ثم لما كَانَ مِنْ تَمَامِ النُّعْمَةِ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ الْمُوَافِقَةُ الْأُنْثَى، بَشَّرَ الله الْمُؤْمِنِينَ بِهَا بقوله: ﴿وَلَهُمْ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ مُزَوَّجَةٌ، طَهَّرَهُنَّ اللهُ مِنْ دَسَسِ الْخَفِضِ وَالنَّفَاسِ وَالكِثَافَاتِ<sup>٣</sup> الْجِسْمَانِيَّةِ، وَنَزَّهَهُنَّ مِنَ الْغُيُوبِ وَالْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ؛ كَالْحَسَدِ وَالْغَضَبِ وَالطَّمَعِ وَالنُّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ.

ثم بَشَّرَهُمْ بَعْدَ النُّعْمِ الْجِسْمَانِيَّةِ بِأَعْلَى النُّعْمِ الرُّوحَانِيَّةِ بقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ عَظِيمٌ لَا يُوصَفُ بَيَّاناً، كَائِنْ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ مِنْ تَجَلِّيِ أَنْوَارِ جَلَالِهِ تَعَالَى، الَّذِي هُوَ أَقْصَى الْأَمَالِ، وَأَعْلَى الْحُطُوطِ، وَمُسْتَهَيِّ كَرَامَةِ الْمُؤْمِنِ ﴿وَأَفَاءَهُ بِصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ الْمُتَّقِينَ، فَيُثَبِّتُهُمْ عَلَى حَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ، وَيُجَازِيهِمْ عَلَى قَدْرِ زُهْدِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وإِقْبَالِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَقِيَامِهِمْ بِوُظَائِفِ الْعِبَادَةِ.

٣. يريد بها الأوساخ.

١. الأحقاف: ٤٦/٢٠. ٢. تفسير روح البيان ٢: ١٠.

## الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ \* الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِلِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالشَّجَرِ [١٦ و ١٧]

ثم عَرَفَ الله سبحانه عِبَادَهُ الْمُتَمِّينَ، الْمُعَذِّلَهُمْ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ، وَمَدَحَهُمْ أَوَّلًا بِالْيَقِينِ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بِلِسَانٍ قَالَهُمْ وَحَالَهُمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ بِوَحْدَانِيَّتِكَ، وَثَبُوتِ نَبِيِّكَ، وَصِدْقِ كِتَابِكَ، وَدَارِ ثَوَابِكَ وَعِقَابِكَ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بِحُرْمَةِ الْإِيمَانِ ﴿ذُنُوبَنَا﴾ وَاسْرَافِنَا عَلَى أَنْفُسِنَا، وَاسْتَرْخَاطِنَا يَوْمَ كُتِفَ السَّرَائِرُ ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وَاحْفَظْنَا مِنْهُ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَهْمَ حَوَائِجِ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا غُفْرَانُ الذُّنُوبِ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ.

ثم بعدما مدحهم الله بالإيمان والخوف، مجدهم بكمال الأخلاق النفسانية ثانياً بقوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ عَلَى تَحْمُلِ مَشَاقِّ الطَّاعَاتِ، مِنْ آدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، الْحَاسِبِينَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْجَزَعِ مِمَّا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْمِحَنِ وَالشَّدَائِدِ وَالْبَلِيَّاتِ. وَفِي ذِكْرِ صِفَةِ الصَّبْرِ - مِنَ الصُّفَاتِ الْكَمَالِيَةِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْإِقْتِصَارِ عَلَيْهَا - دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا أَكْمَلُ الصُّفَاتِ، وَكَوْنُهَا جَامِعَةٌ لِسَائِرِ الْكَمَالَاتِ. ثُمَّ وَصَفَهُمْ ثَالِثًا بِحُسْنِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ، عَلَى مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الصَّدْقَ، كَمَا يَكُونُ فِي الْقَوْلِ بِمُطَابَقَتِهِ لِلْوَاقِعِ، يَكُونُ فِي الْفِعْلِ بِالْجِدِّ بِإِتِمَامِهِ وَعَدَمِ الْانْصِرَافِ عَنْهُ، وَيَكُونُ فِي النِّيَّةِ بِإِنْفَازِ الْإِرَادَةِ وَإِمْضَاءِ الْعَزْمِ ﴿وَالْقَائِلِينَ﴾ الْمَوَاضِيينَ عَلَى الطَّاعَاتِ الْمُدَاوِمِينَ عَلَى الْعِبَادَاتِ ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ مَا زَادَ عَنْ كَفَافِهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي الْقُرْبَاتِ ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالشَّجَرِ﴾.

عن (المجمع): عن الصادق (عليه السلام): «المُصَلِّينَ وَفِي السَّحَرِ»<sup>١</sup>.

وعنه (عليه السلام): «مَنْ قَالَ فِي وَثَرِهِ إِذَا أَوْتَرَ: اسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، سَبْعِينَ مَرَّةً، وَهُوَ قَائِمٌ، فَوَاطَبَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تَمْضِيَ لَهُ سَنَةٌ، كَتَبَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالشَّجَرِ، وَوَجَّهَتْ لَهُ الْمَغْفِرَةُ مِنَ اللَّهِ»<sup>٢</sup>.

فسي أن أفضل  
أوقات الدعاء وقت  
وفي رواية: «مَنْ اسْتَغْفَرَ سَبْعِينَ مَرَّةً<sup>٣</sup>، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ»<sup>٤</sup>.  
وفي تخصيص الاستغفار بالشجر إشعاراً بأنها أفضل أوقات الدعاء والعبادة، لأنَّ  
السحر

١. مجمع البيان ٢: ٧١٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٩. ٢. الخصال: ٣/٥٨١، تفسير الصافي ١: ٢٩٩.

٣. في مجمع البيان: استغفر الله سبعين مرة في وقت السحر.

٤. مجمع البيان ٢: ٧١٤، تفسير الصافي ١: ٢٩٩.

النفس فيها مُصَفَّاةٌ وَالْعِبَادَةُ أَشَقُّ.

وعن مُجاهد: في قول يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾<sup>١</sup> أخره إلى وقت السحر، فإن الدعاء فيه مُستجاب. وقال: إن الله لا يشغله صَوْتٌ عن صَوْتٍ، لكنَّ الدعاء في السحر دَعْوَةٌ فِي الْخَلْوةِ، وهي أَبْعَدُ مِنَ الرِّبَاةِ وَالسُّمْعَةِ فَكَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْإِجَابَةِ<sup>٢</sup>.

## شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [١٨]

ثُمَّ عَلَّمَ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ جَعْلِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ أَوَّلًا فِي الْمُحَاجَّةِ مَعَ النَّصَارَى، مُدْعِيًا لِتَوْحِيدِهِ الَّذِي وَالصَّفَاتِي - وإقامة البراهين العقلية القطعية عليه، والحُكْمُ بِكَفْرِ جاحديه، وتهديدهم بالعقوبة الدنيوية والأخروية، وتنبيه الناس بعلّة اختيار الكُفْرِ، من تزيين مُشْتَهِيَاتِ الدُّنْيَا فِي نَظَرِهِمْ، وَأَمْرُ نَبِيِّهِ بِإِشَارَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ، وَمَدْحُهُم بِالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الْفَائِضَةِ جَعَلَ ثَانِيًا نَبِيَّهُ مُدْعِيًا. ثُمَّ أَقَامَ الشُّهُودَ الَّذِينَ<sup>٣</sup> لَا يُمْكِنُ رَدُّهُمْ، عَلَى صِدْقِ دَعْوَاهُ، تَائِيدًا لِلْبَرَهَانِ بِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ عَنْ عِلْمِهِ الْخُصُورِيِّ، وَأَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ التَّكْوِينِيِّ بِدَلَالَةِ كَلِمَاتِهِ التَّامَةِ - الَّتِي هِيَ صَنَائِعُهُ الْبَدِيعَةُ، وَأَتَّسَقَ نِظَامُهَا الْأَتَمُّ - عَلَى ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وَلَا خَالِقَ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، ﴿وَ﴾ شَهِدَتْ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ، وَبَدَلَالَةِ الْأَفْعَالِ، لِمُعَايَنَتِهِمْ عَظَمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ، ﴿وَ﴾ شَهِدَ ﴿أُولُوا الْعِلْمِ﴾ مِنْ عِبَادِهِ، عَنْ الْعِلْمِ الْبَرَهَانِيِّ وَالْعِيَانِيِّ، بِمَا شَهِدَ بِهِ سُبْحَانَهُ.

رَوَى عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام: «أَنَّ أُولَى الْعِلْمِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ»<sup>٤</sup>.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمُعْتَبَرُ عَدَالَةَ الشَّاهِدِ، وَعَدَمَ جَوْرِهِ فِي الشَّهَادَةِ، أَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَقَامِ بِكَوْنِهِ ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وَعَامِلًا بِالْعَدْلِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، مِنْ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ، وَالْإِثَابَةِ، وَالتَّعْذِيبِ. وَمِنْ عَدْلِهِ أَنْزَلَ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ، وَعَدَمَ رِضَاهُ بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ. وَفِيهِ بَيَانُ كَمَالِهِ تَعَالَى فِي أَفْعَالِهِ، إِثْرَ بَيَانِ كَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ.

وَفِي الرِّوَايَةِ السَّابِقَةِ، عَنْ الْبَاقِرِ عليه السلام بَعْدَ تَفْسِيرِ ﴿أُولُوا الْعِلْمِ﴾ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ، قَالَ: «وَهُمْ قِيَامُ

٣. في النسخة: التي.

١. يوسف: ٩٨/١٢. ٢. تفسير روح البيان ٢: ١١.

٤. تفسير العياشي ١: ٦٥٨/٢٩٦، تفسير الصافي ١: ٢٩٩.

بالبَـقِـسْطِ<sup>١</sup>.

والظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْصِيَاءَ، لَمَّا كَانُوا مَظَاهِيرَ صِفَاتِهِ تَعَالَى، كَانَ ظُهُورُ صِفَةِ قِيَامِهِ تَعَالَى بِالْبَـقِـسْطِ فِي قِيَامِهِمْ بِهِ، فَكَانَ قِيَامُهُ تَعَالَى بِالْبَـقِـسْطِ عَيْنَ قِيَامِهِمْ بِهِ، وَيُمْكِنُ كَوْنُ (قَانِماً) حَالاً لِأَوَّلِي الْعِلْمِ وَأَفْرَادِهِ بِلِحَازٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

ثُمَّ كَرَّرَ سُبْحَانَهُ ذِكْرَ التَّوْحِيدِ الْمَشْهُودِ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَأْكِيداً لَهُ، وَاهْتِمَاماً بِهِ، وَتَقْرِيراً لِقِيَامِهِ بِالْبَـقِـسْطِ، حَيْثُ إِنَّ الْأَلَوَهِيَّةَ لَا تَجَامِعُ الظُّلْمَ وَالْجَوْرَ، وَتَوَطُّنَ لِلشَّهَادَةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ الْمَنْعُوتُ بِهِمَا دُونَ غَيْرِهِ.

وَتَقْدُمُ صِفَةُ الْعَزِيزِ لَتَقْدُمُ الْعِلْمُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الْعِلْمِ بِحِكْمَتِهِ. وَفِيهِ تَهْدِيدٌ بِالْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ لَا يُؤْخِذُهُ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَبِالْحُكْمِ بِمَا يُرِيدُ فِي خَلْقِهِ.

قِيلَ: نَزَلَتْ الْآيَةُ حِينَ جَاءَ رَجُلَانِ مِنْ أَحْبَابِ الشَّامِ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَنْتَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقَالَ: أَنْتَ أَحْمَدُ؟ قَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ» قَالَ: أَخْبِرْنَا عَنْ أَعْظَمِ الشَّهَادَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَأَخْبَرَهُمَا<sup>٢</sup>.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَجْسَادِ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ، وَخَلَقَ الْأَرْزَاقَ قَبْلَ الْأَرْوَاحِ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ، فَشَهِدَ لِنَفْسِهِ قَبْلَ خَلْقِ الْخَلْقِ، حِينَ كَانَ وَلَمْ تَكُنْ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ، وَلَا بَرٌّ وَلَا بَحْرٌ، فَقَالَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ...﴾ الْآيَةُ<sup>٣</sup>.

رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ كَانَ حَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ خَرَوْا سَجْداً<sup>٤</sup>.

رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ لِعَبْدِي هَذَا عِنْدِي عَهْداً، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفَى بِالْعَهْدِ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ»<sup>٥</sup>.

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمْ أَلْعَلِمُوا بَعْضُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [١٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِثْبَاتِ تَوْحِيدِ ذَاتِهِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَشَهَادَةِ الشُّهُودِ الْعُدُولِ، أَشَارَ إِلَى النَّتِيجَةِ

٤. تفسير أبي السعود ٢: ١٧.

٢ و ٢. تفسير روح البيان ٢: ١٢.

١. وإيضاً.

٥. أي صاحب الشهادة. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ١٧.

بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ الْحَقَّ الْمَرْصِيَّ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنْ لَدُنْ أَدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ هُوَ ﴿الْإِسْلَامُ﴾ والانتقاد له، والالتزام بالتوحيد الخالص عن شُوبِ الشُّرْكَ، المُستلزم للاعتقاد بالمعاد والإيمان بالرُّسل والشَّرَائِعِ، بالضرورة مِنَ الْعَقْلِ ودلالة الأدلة القاطعة، بحيث لا مجال للشك فيه.

ففيه دلالة على أَنَّ أصل الدين في جميع الأزمنة واحد، وإنما الفَرْقُ في بعض الفُرُوع والأحكام. ومع ذلك اختلف النَّاسُ فيه، وأنكروا التوحيد وتدينوا بالشُّرْكَ ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ فيه الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وما اختاروا الشُّرْكَ بقولهم: عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ، أَوِ الْمَسِيحِ ابْنُ اللَّهِ، أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، أَوْ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ﴾ بالتوحيد، وصحة دين الإسلام، وثبوت مُحَمَّدٍ ﷺ.

ولم يكن اختلافهم لَحْفاءَ الْحَقِّ والشُّبْهَةِ فيه، بَلْ كَانَ ﴿بَغْيًا﴾ وَحَسَدًا كَانْنَا فِيهَا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حيث إن الاختلاف بعد وَضُوحِ الْحَقِّ غَايَةٍ، لا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهُ إِلَّا لِأَجْلِ الْأَخْلَاقِ الدَّيْمَةِ، وَحُبِّ الدُّنْيَا والرِّئَاسَةِ. وفيه غاية الشُّنِيعِ، ودلالة على تَرَامِي حَالِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ.

ثُمَّ هَدَّدَ الْجَا حِدِينَ بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدَّلَالَتِ عَلَى الْحَقِّ، وَيُعْرِضَ عَنِ الْحُجَجِ السَّاطِعَةِ عَلَى الصَّوَابِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يُحَاسِبُهُ وَيُجَازِيهِ بِأَشَدِّ الْعِقَابِ مِنْ غَيْرِ بَطْءٍ وَمُهْلَةٍ، حيث إنه ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يُحَاسِبُ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ فِي أَقَلِّ مِنْ لَمْحَةٍ.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ

### بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [٢٠]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ظُهُورِ لَجَاجِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ، بِحَيْثُ لَا تَنْفَعُهُمُ الْحُجَجُ، قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ فِي التَّوْحِيدِ، وَجَادَلُوكَ فِي الْحَقِّ، وَعَارِضُوكَ فِي الثُّبُوتِ ﴿فَقُلْ﴾ فِي جَوَابِهِمْ، مُعْرِضًا عَنْهُمْ: إِنِّي ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ وَأَخْلَصْتُ قَلْبِي وَنَفْسِي وَشَرَائِرِي وَجُودِي ﴿لِلَّهِ﴾ وَحَدَّهُ لَا أَشْرِكَ فِيهِ اتِّقِيَادِي [إِلَيْهِ] غَيْرِهِ. ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ لَهُ﴾ أَيْضًا ﴿مَنْ اتَّبَعَنِي﴾ وَأَمَّنْ بِي وَاهْتَدَى بِهَدَايِ ﴿وَقُلْ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ وَلَا كِتَابَ، مِنْ مُشْرِكِي

العرب، تقريراً: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بعد وَضُوحِ الْحَقِّ، وَتَمَامِ الْحُجَّةِ، وَظُهُورِ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ، كَمَا أَسْلَمَ أَتْبَاعِي، أَمْ أَقْنَعْتُمْ بَعْدَ لَجَاجٍ وَعِيَادٍ عَلَى كُفْرِكُمْ؟ وَفِيهِ تَغْيِيرُهُمْ عَلَى اللَّجَاجِ بِقَلَّةِ الْإِنصَافِ، وَتَوَيُّخِهِمْ بِالْبِلَادَةِ وَالْجَهْلِ، وَتَهْيِيجِهِمْ عَلَى الْإِتْقَادِ وَالتَّبَعَةِ.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ اللَّهُ، وَالتَّرَمُّوا بِالتَّوْحِيدِ، وَاعْتَرَفُوا بِبَيِّنَاتِكُمْ وَصَحَّةِ دِينِكُمْ ﴿فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾ إِلَى الْحَقِّ، وَسَلَكُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَفَازُوا بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَأَصَابُوا جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنْ قَبُولِ قَوْلِكَ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ بِكَ، فَلَيْسَ لَكَ مَسْئُولِيَّةٌ، وَمَا عَلَيْكَ مِنْ نَبْئَةٍ ﴿فَإِنَّمَا﴾ الْوَاجِبُ ﴿عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، وَالدَّعْوَةُ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ، وَإِبْصَاحُ الْحَقِّ، وَقَدْ أُذِيتَ مَا عَلَيْكَ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَبَالِغَتْ فِي تَبْلِيغِكَ بِلَا تَوَانٍ وَلَا تَقُورٍ ﴿وَاللَّهُ بِصَيْرُورِ الْإِعْبَادِ﴾ وَمُطَّلَعٌ عَلَى فِطْرَتِهِمْ، وَسَجِيَّتِهِمْ، وَشَوْءِ أَخْلَاقِهِمْ، وَقَبَاحِ أَعْمَالِهِمْ. وَفِيهِ غَايَةُ التَّهْدِيدِ.

رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالُوا: أَسْلَمْنَا، فَقَالَ ﷺ لِلْيَهُودِ: «أَتَشْهَدُونَ أَنَّ عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ وَعَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؟» فَقَالُوا: «مَعَاذَ اللَّهِ.

وَقَالَ ﷺ لِلنَّصَارَى: «أَتَشْهَدُونَ أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؟» فَقَالُوا: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عِيسَى عَبْدًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾».

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [٢١ و ٢٢]

ثُمَّ اُعْلَمَ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَهْدِيدِ الْمُصْرِّينَ عَلَى الْكُفْرِ، الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْإِسْلَامِ - بِنَحْوِ الْإِجْمَالِ - هَدَدَهُمْ بَعْدَ بَيَانِ خُبْرِ ذَاتِهِمْ، وَشَنَاعَةِ أَعْمَالِهِمْ تَفْصِيلاً بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ﴾ تَوْحِيدِ ﴿اللَّهِ﴾ وَيَجْحَدُونَ الْحَقَّ وَدَلَالِهِ، وَيُنْكِرُونَ ثُبُوتَ نَبِيِّهِ وَمُعْجَزَاتِهِ ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ لِعِنَادِهِمُ الْحَقَّ ﴿النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يُصَوِّرُ، وَمِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ فِي نَظَرِهِمْ، كَمَا قَتَلَهُمْ أَسْلَافُهُمْ. ٥

وَرَوَى أَنَّ نِسْبَةَ الْقَتْلِ إِلَى الَّذِينَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِاعْتِبَارِ رِضَاهُمْ بِفِعْلِ أَوَائِلِهِمْ. ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾. وَيَدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ﴿مِنَ النَّاسِ﴾.

عن أبي عبيدة [بن] الجراح: قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشدَّ عذاباً يومَ القيامة؟ قال: «رجُلٌ قتل نبيّاً أو رجلاً أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر» ثم قرأها، ثم قال: «يا أبا عبيدة، قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّاً من أوّل النهار، في ساعةٍ واحدة، فقام مائة رجلٍ واثنى عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل، فأمرُوا مَنْ قتلَهُم بالمعروف، ونهَوْهُم عن المنكر، فقتلُوهم جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم، وهو الذي ذكره الله»<sup>١</sup>.

قيل: إن تكرير الفعل للإشعار بالتفاوت بين القَتْلَيْنِ مِنَ الفِطَاعَةِ، أو باختلافهما في الوقت. ثم لما كان اشتياق هؤلاء إلى الفَحْشاءِ والمنكر بمنزلة اشتياقهم إلى العذاب، عبّر عن إنذارهم بالعذاب بالتبشير بقوله: «فَبَشِّرْهُمْ» يا نبي الرحمة «بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» في الآخرة. «أُولَئِكَ» البعيدون عن رَحْمَةِ الله، المَبْتَلُونَ بأسوأ الأحوال، هُم «الَّذِينَ خَسِطَتْ» وبَطَلَتْ «أَعْمَالُهُمْ» الخيرية وأفعالهم الحسنة في الدارين، فلا يترتب عليها الأثر المرغوب منها، مِنَ المَدْحِ والثناء والعزِّ والرِّفاهِ والبركة والسلامة «فِي الدُّنْيَا» - بل يذمّون عليها ويُلْعَنون بها ويُقتلون ويُعَارِ عليهم<sup>٢</sup> وَيُسَبَّوْنَ وَيُسْتَرْقَوْنَ - «وَلَا فِي» «الْآخِرَةِ» مِنَ الْخَلَّاصِ مِنَ النَّارِ، وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ، بَلْ يُحْرَمُونَ مِنْهَا، وَيُسَاقُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَأَشَدَّ الْعَذَابِ «وَمَا لَهُمْ» حيثنّ «مِنْ نَاصِرِينَ» يُنْصِرُونَهُمْ عَلَى الله، أَوْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَهُ، أَوْ يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ عَذَابَهُ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ  
ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ [٢٣]

ثم أنه تعالى - لتوضيح غاية خُبث ذاتهم، وشِدَّةَ لجاجهم، ودَفْعَ العجب من نهاية تمردهم عن الإيمان بخاتم النبيين ﷺ وبكتابه المُشْتَمِلِ على الإعجاز - ذَكَرَ تمردَ عُلَمائِهِم عن أحكام التَّوْرَةِ التي كانوا مُعْتَرِفِينَ بِكَوْنِهَا الْحَقَّ الْمُنَزَّلَ مِنَ الله؛ بقوله: «أَلَمْ تَرَ» يا مُحَمَّدُ «إِلَى» ما يعجبك من صنيع أحبار اليهود «الَّذِينَ أُوْتُوا» مِنْ جَانِبِ الله «نَصِيباً» وافراً، وحظاً مُتَكَاثِراً «مِنْ» الْعُلُومِ التي في «الْكِتَابِ» الذي عَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنَ الله تعالى، وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَأَعْتَرَفُوا بِصِحَّةِ جَمِيعِ مَا فِيهِ. وقد أخبر الله فيه بِعِثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَاتِهِ وَتَعَوُّتِهِ وَحَقَانِيَةِ دِينِهِ.

٢. في النسخة: ويغارون.

١. تفسير الرازي ٧: ٢١٤، وفيه: اليوم فهم الذين ذكرهم الله تعالى.



ثم كانه قيل: ماذا يصنعون من العجائب حين ينظر اليهم؟ فأجاب سبحانه: ﴿يُذْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذي أوتوا نصيباً منه، وأموا به ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ذلك الكتاب بأوضح بيان (فيما) وقع الاختلاف فيه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين النبي والمسلمين.

﴿ثُمَّ﴾ يقع منهم ما هو في غاية المباينة من إيمانهم بالكتاب، وهو أنه ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ عن تلك الدعوة ولا يجيبها ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، والالتزام بما فيه ﴿وَهُمْ﴾ في هذا الحال ﴿مُغْرِضُونَ﴾ عن ذلك الكتاب وأحكامه بقلوبهم.

وقيل: إن المراد: أن ديدنهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل.

رؤي أن رسول الله ﷺ دخل مدارس اليهود، فدعاهم إلى الإيمان، فقال له رئيسهم نعيم بن عمرو: وعلى أي دين أنت؟ قال ﷺ: «على ملة إبراهيم» قال: إن إبراهيم كان يهودياً، قال ﷺ: «إن بيئتنا وبينكم التوراة فهاتوها»، فأبوا، فنزلت<sup>١</sup> [الآية].

وعن الكلبي: أنها نزلت في الرجم: فجر رجل وامرأة من أهل خيبر، وكانا في شرف منهم، وكان في كتابهم الرجم، فأتوا رسول الله ﷺ رجاء رخصة عنده، فحكم عليهم بالرجم، فقالوا: جرت علينا، ليس عليهما الرجم، فقال ﷺ: «بيتي وبينكم التوراة» قالوا: قد أنصفتنا، قال: «فمن أعلمكم بالتوراة؟» قالوا: ابن صوريا، فأرسلوا إليه، فدعا النبي ﷺ بشيء من التوراة فيه الرجم دلّه على ذلك ابن سلام، فقال له: «اقرأ» فلما أتى على آية الرجم وضع كفه عليها، وقام ابن سلام فرفع إصبعه عنها، ثم قرأ على رسول الله ﷺ وعلى اليهود: إن المحصن والمحصنة إذا زنيا، وقامت عليهما البيّنة رجمًا، وإن كانت المرأة حبلً تربص حتى تضع ما في بطنها. فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين فرجمًا، فغضب اليهود لذلك، فرجعوا مكفّاراً، فأنزل الله هذه الآية<sup>٢</sup>.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا

يُفْتَرُونَ [٢٤]

ثم بين الله سبحانه علة توليهم عن الكتاب، وجراتهم على الله بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ التولي عن إجابة الدعوة، والإعراض بالقلب عن الكتاب، كان ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ اختلافاً من عند أنفسهم، وافتراءً على الله

﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ في الآخرة بسبب الكُفر والمعصية أبداً ﴿إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ قلائل. رُوي أنهم كانوا يقولون: مُدة عذابنا سبعة أيام، وقيل: هي أربعون يوماً، مقدار عبادة بني إسرائيل العجّل<sup>١</sup>.  
فهوّن عليهم الذُّنوب والخطُوب رُشوخ اعتقادهم على ذلك ﴿وَعَزَّاهُمْ﴾ وخذعهم ﴿فِي﴾ مخالفة ﴿وَيْنَهُمْ﴾ وأحكامهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله من قولهم: أنه تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أولاده إلا نَجَلَةً قَسَمَ<sup>٢</sup>.

عن ابن عباس رضي الله عنه: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة: أن ما بين طَرْفِي جَهَنَّمَ أربعون سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزُّقُوم، وإنما نَعَذَّبَ حَتَّى نَأْتِيَ إلى شجرة الزُّقُوم، فتذهب جهنم وتهلك، وأصل الجحيم سقر، وفيها شجرة الزُّقُوم، فإذا اقْتَحَمُوا مِنْ باب جهنم وتبادروا في الْعَذَابِ حَتَّى انْتَهَوْا إلى شجرة الزُّقُوم وملأوا البُطُونَ قال لهم خازِن سَقَر: زَعَمْتَ أَنَّ النَّارَ لَنْ تَمْسَكَمْ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ، قد حَلَّتْ أربعون سنة وأنتم في الأبد<sup>٣</sup>.

أقول: فيه دلالة على أن المراد مِنَ الأيام المَعْدُودَاتِ أربعون سنة وعَبَّرَ عنها بها تَقْلِيلًا لها.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٢٥]

ثم أبطل الله سبحانه ما غرهم باستِعْظَامِ عذابهم، وتهويل ما يَحِيقُ بِهِمْ بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ يَكُونُ حالهم ﴿إِذَا﴾ أخرجناهم مِنْ قُبُورِهِمْ و﴿جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ عظيم شديد الأحوال يكون وَقُوعُهُ مِمَّا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لِعَاقِلٍ.

روي أن أول راية تُرْفَعُ يومَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَايَاتِ الْكُفْرِ رَايَةُ الْيَهُودِ، فَيُفْصَحُهم الله عَزَّ وَجَلَّ على رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ<sup>٤</sup>.

﴿وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ وَأُعْطِيَتْ مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنَ النَّفْسِ جِزَاءً ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ وَحَصَلَتْ مِنْ عَمَلٍ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتنقيص الثواب، أو زيادة العقاب. وفيه دلالة على أَنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ يَكُونَانِ بِالْإِسْتِحْقَاقِ.

٢. تفسير روح البيان ٢: ١٦.

١. تفسير الرازي ٧: ٢١٨.

٤. تفسير روح البيان ٢: ١٦.

٣. نفس المصدر.

وأستدل بعض العامة به على أن العبادة لا تحبط<sup>١</sup>. وفيه: أن إيفاء جزاء المعصية يكون بحبط ثواب العبادة، كما أن إيفاء ثواب العبادة يكون بالمعفو عن عقوبة المعصية.

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ  
مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* تُولِجُ اللَّيْلَ  
فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ  
الْحَيِّ وَتُزَكِّى مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٢٦ و ٢٧]

ثم - لما كان من أباطيل اليهود قولهم: بأنه لا بد أن تكون النبوة والملك فيهم، وأنهم أحق بهما  
لكونهم من بيوت الأنبياء، ومن أهل العلم والكتاب، ولا يجوز أن يكونا في العرب لكونهم أميين -  
أمر الله نبيه ﷺ بأن يخبره بالقدرة الكاملة والفضل الشامل الدالين على بطلان قولهم، بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا  
مُحَمَّدُ ﴿اللَّهُمَّ﴾ يا ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ ملكاً حقيقياً إشراقياً ويا سلطان عالم الوجود، لا شريك لك فيه  
ولا معادل، تصرف فيه كيف تشاء، إيجاداً وإعداداً وإحياءً وإماتةً وفضلاً ومنعاً وتعذيباً وإثابةً، وتذبره  
كيف تريد؛ ومن تدبيرك وسلطانك أنك ﴿تُؤْتِي﴾ وتهب ﴿الْمُلْكَ﴾ والسلطنة أو النبوة ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾  
أن تملكه وتشرفه بقضلك ﴿وَتَنْزِعُ﴾ وتسلب ﴿الْمُلْكَ﴾ والسلطنة الدنيوية والدينية، وهي النبوة  
﴿مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ أن تنزعها عنه، وتنقلها إلى قوم آخرين. وفيه إشعار بأن السلطنة الحقيقية محتصة به  
تعالى، وسلطنة غيره بطريق المجاز.

﴿وَتُعِزُّ﴾ في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ أن تعزّه في الدنيا بمنصب النبوة،  
والمطاعية المطلقة، والفضائل الكريمة، والهداية والتوفيق، والنصر والغلبة، وفي الآخرة بالجنة العالية،  
والمقامات الرفيعة، والنعم الدائمة ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ذلةً في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما،  
بالخذلان والبعد عن الرحمة، والكفر والضلال والأخلاق الرذيلة، والفقر والمسكنة واللغة الدائمة  
﴿بِيَدِكَ﴾ وقد تركت خاصة دون غيرك ﴿الْخَيْرُ﴾ كله، قبضاً وبسطاً، على حسب مشيئتك وحكمتك،  
وعلى ما تقتضيه قابلية القوابل، واستعداد الممكّنات.

وإنما خص الخير بالذكر - مع أن جميع الأمور بيده حتى الشر - لكون الكلام في ما يسوقه سبحانه

إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْهَدَايَةِ وَالكِتَابِ، أَوْ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، مِنَ النَّافِعِ وَالصَّارِ، عَيْنِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَمُوَافِقِ لِلْحِكْمَةِ وَالنَّظَامِ الْأَتَمِّ، أَوْ لِأَنَّ الشُّرُورَ مِنْ قِبَلِ الْمَاهِيَّاتِ وَالْخَيْرَاتِ، مِنْ قِبَلِ الْوُجُودِ الْمَفَاضِ مِنْهُ تَعَالَى، أَوْ لِمُرَاعَاةِ الْأَدَبِ، لَوْضُوحِ مُتَنَفَاتِهِ لِحُطَابِهِ: بِأَنَّ الشَّرَّ مِنْكَ.

رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَطَّ الْخَنْدَقَ عَامَ الْأَحْزَابِ، وَقَطَعَ لِكُلِّ عَشِيرَةٍ<sup>١</sup> مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعاً، وَجَمِيعَ مَنْ وَافَى الْخَنْدَقَ مِنَ الْقَبَائِلِ عَشْرَةَ آلَافٍ، فَأَخَذُوا يَحْفِرُونَهُ، خَرَجَ مِنْ بَطْنِ الْخَنْدَقِ صَخْرَةٌ كَالْفِيلِ الْعَظِيمِ، لَمْ تَعْمَلْ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَوَجَّهُوا سُلَمَانَ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُهُ.

فَجَاءَ ﷺ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ مِنْ سُلَمَانَ، فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً صَدَعَتْهَا بِمِقْدَارِ ثُلُثِهَا، وَبَرِقَ مِنْهَا بَرْقاً أَضَاءَ مَا بَيْنَ لَا بَيْتِهَا<sup>٢</sup>، كَأَنَّهُ مِصْبَاحٌ فِي<sup>٣</sup> بَيْتٍ ظُلْمٍ، فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَقَالَ: «أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا قُصُورُ الْجَنَّةِ كَأَنَّهَا أَنْيَابُ الْكِلاَبِ»، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «أَضَاءَتْ [لِي] مِنْهَا قُصُورُ الْحُحُرِ فِي أَرْضِ الرُّومِ» ثُمَّ ضَرَبَ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ: «أَضَاءَتْ لِي قُصُورَ صَنْعَاءَ، وَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ ﷺ أَنَّ أُمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَى الْأَمَمِ كُلِّهَا؛ فَايْبُرُوا».

فَقَالَ الْمُتَأَفِّقُونَ: أَلَا تَعْجَبُونَ؟ يُثَبِّتُكُمْ وَيَعِدِّكُمْ الْبَاطِلُ، وَيُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ يُبْصِرُ<sup>٤</sup> قُصُورَ الْجَنَّةِ، وَمَدَائِنَ كِسْرَى، وَأَنَّهُا تُفْتَحُ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ إِنَّمَا تَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ مِنَ الْفَرَقِ<sup>٥</sup>، لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَبْرَزُوا، فَفُزَلْتُ [الآيَةُ]<sup>٦</sup>.

ثُمَّ قَرَّرَ شَبْحَانَهُ سَعَةً قُدْرَتِهِ، وَأَكْدَاهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهٍ﴾ مِنْ إِبْنَاءِ الْمُلْكِ وَنَزْعِهِ، وَالْإِعْزَازِ وَالْإِدْلالِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَشَكِّكَةِ ﴿قَدِيرٌ﴾ لَا يَتَصَوَّرُ فِيكَ عَجْزٌ وَلَا قُصُورٌ.

﴿تَوَلَّجٌ﴾ وَتَدَجَّلَ ﴿الَّذِي فِي النَّهَارِ﴾ بِتَعْقِيبِهِ إِيَّاهُ، أَوْ تَقْيِصِ الْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ الثَّانِي، حَتَّى يَصِيرَ النَّهَارُ خَمْسَ عَشْرَ سَاعَةً، وَاللَّيْلُ تِسْعَ سَاعَاتٍ<sup>٧</sup> وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ، إِدْخَالُ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ فِي ثَوْرِ الْفِطْرَةِ ﴿وَتَوَلَّجَ فِي النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ﴾ بِالتَّعْقِيبِ، أَوْ الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصِصِ، بِعَكْسِ الْأَوَّلِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَطُونِهِ<sup>٨</sup>

١. فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ: عَشْرَةٌ.

٢. أَيْ لَا بَيْتِي الْمَدِينَةَ، مَثْنًى لَابَةً، وَهِيَ الْحَرَّةُ، أَيْ الْأَرْضُ ذَاتُ الْحِجَارَةِ السُّودِ، وَالْمَدِينَةُ تَقَعُ بَيْنَ لَا بَيْتَيْنِ.

٣. زَادَ فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ: جَوْفٌ.

٤. زَادَ فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ: مَنْ يَثْرِبُ.

٥. أَيْ الْخَوْفِ. ٦. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٢: ١٨.

٧. فِي النُّسخَةِ: آيَاتٍ.

٨. أَيْ مِنْ بَطُونِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، بِمَعْنَى التَّأْوِيلِ.

إدخال نور الإيمان أو نور الموجود في ظلمة الماهية.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ وتخلقه ﴿مِنْ﴾ الجِسم ﴿الْمَيِّتِ﴾ ومن مادة لا حياة لها من تراب، أو نطفة، أو بيضة. أو المراد: تخلق العالم من الجاهل ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ كالنطفة والتراب وغيرهما ﴿مِنْ﴾ المبدأ ﴿الْحَيَّ﴾ كالإنسان وغيره من الحيوانات.

وعن (المعاني): عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ لَمْ يَكُنْ مَيِّتًا، وَأَنَّ الْمَيِّتَ هُوَ الْكَافِرُ»، ثم فسر الآية: بأنَّ المؤمن يخرج من الكافر، والكافر من المؤمن<sup>١</sup>.

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾ أن ترزقه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتعَبٍ، أو بغير تفتير.

عن أبي العباس المقرئ، قال: وردَ لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه: بمعنى التعب، قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وبمعنى المدد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>٢</sup>، وبمعنى المطالبة، قال تعالى: ﴿فَانشَأْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>٣</sup>.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ [٢٨]

ثم بعدما بين الله سبحانه أنَّ الملوك والعزة والخير والرزق كله بيد الله، نهى المؤمنين عن موالاة الكفار بطمع الخير والعزة والمال بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ ولا يختار ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ لقرابة، أو صداقة جاهلية، أو جوار أو غيرها من الأسباب ﴿الْكَافِرِينَ﴾ الذين هم أعداء الله، وأعداء دينهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأجباء لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم أولياء الله وأجباؤه، وبدلاً منهم، مع كونهم للأخوة الحقيقية المعنوية أحقاء بالموالاة، والكفار أحقاء بالمعاداة للمباينة الدينية.

فليس للمؤمن أن يؤثر ولاية أعداء الله والمباينين له في الدين على ولاية أحيائه وأخوتهم الدينية ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الفعل الشنيع من اتخاذ أعداء الله أولياء ﴿فَلَيْسَ مِنْ﴾ ولاية ﴿اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يصح أن يطلق عليه اسم الولاية، ويكون خارجاً عنها ومسلخاً منها رأساً، لكمال التنافي بين ولاية

١. معاني الأخبار: ١٠/٢٩٠، تفسير الصافي ١: ٣٠١. ٢. الزمر: ٣٩/١٠.

٣. تفسير روح البيان ٢: ١٨، والآية من سورة ص: ٣٨/٣٩.

المتعديتين.

فلا يُجوز أن تتولوا الكُفَّارَ ظاهراً وباطناً في حالٍ مِنَ الأحوال ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾ وتُخافوا ﴿مِنْهُمْ﴾  
وتَحذَرُوا مِنْ شَرِّهِمْ وَضَرِّهِمْ ﴿تَقَاةً﴾ باطنيةً وحَذراً واقعياً، فلا بأس بإظهار مواليتهم مع اطمئنان  
النفس بعدواتهم وبُغضهم، حتَّى يزول مقتضى التَّقِيَّة، فيجِب عند ذلك مُعاداتهم ظاهراً وباطناً.  
نسي وجوب التقية  
عن (الاحتجاج): عن أمير المؤمنين عليه السلام، في حديث: «وَأَمْرُكَ أَنْ تَسْتَغِيلَ التَّقِيَّةَ فِي دِينِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَإِنَّكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَعْرِضَ لِلْهَلَاكِ، وَأَنْ تَتْرِكَ التَّقِيَّةَ الَّتِي أَمَرْتُكَ بِهَا، فَإِنَّكَ شَانِطٌ بِدَمِكَ<sup>١</sup> ودياء إخوانك، معرضٌ لِنِعْمِكَ وَنِعْمِهِمُ لِلزَّوَالِ، تَذِلُّهُمْ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ دِينِ اللَّهِ، وَقَدْ أَمَرَكَ اللَّهُ بِإِعْزَازِهِمْ<sup>٢</sup>.  
وعن العياشي: عن الصادق عليه السلام قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا تَقِيَّةَ لَهُ»<sup>٣</sup>.  
وعنه عليه السلام: «التَّقِيَّةُ تُرْسُ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ»<sup>٤</sup>.  
وفي رواية: «التَّقِيَّةُ دِينِي وَدِينِ آبَائِي»<sup>٥</sup>.  
ثُمَّ أَرَدَفَ اللَّهُ شَبَّانَهُ النَّهْيَ بِالْهَيْدِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وَيُخَوِّفُكُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، كَيْ لَا تَعْصُوهُ فَتَسْتَحِقُّوا عِقَابَهُ.  
ثُمَّ أَكَّدَ الْهَيْدَ وَالتَّحْذِيرَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وَالتَّغَلُّبَ لِعَامَةِ الْخَلْقِ، فَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ عَنْ سُلْطَانِهِ وَ[مِنْ] تَحْتِ قُدْرَتِهِ. وَفِي تَكْرِيرِ اسْمِ الْجَلَالَةِ إِدْخَالَ الرُّوْعَةِ وَتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ.

قُلْ إِنْ تُخَفُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَغْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٢٩]

ثُمَّ لَمَّا أَذِنَ شَبَّانَهُ وَتَعَالَى فِي التَّقِيَّة، وَإِظْهَارِ الْمَوْلَا لَهُمْ، وَكَانَ مَدَارَهَا الْخَوْفُ الْقَلْبِي - وَهُوَ أَمْرٌ بَاطِنٌ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَقَدْ يُجْعَلُ مَدْوَحَةً لِلْمُعَاشَرَةِ وَالْمَوَدَّةِ فِي الظَّاهِرِ، مَعَ عَدَمِ تَحَقُّقِ خَوْفِ مِنْهُمْ فِي الْبَاطِنِ، بَلِ الْمَوْلَا الْبَاطِنِيَّةُ صَارَتْ مَنَشَأً لِلْمَوْلَاةِ الظَّاهِرِيَّةِ، وَلَكِنْ عِنْدَ اعْتِرَاضِ الْمُؤْمِنِينَ

١. شاط دمه: أي ذهب هدرأ. ٢. الاحتجاج: ٢٣٩، تفسير الصافي ١: ٣٠٢.

٣. تفسير العياشي ١: ٦٦٤/٢٩٧، تفسير الصافي ١: ٣٠٢.

٤. الكافي ٢: ١٩/١٧٥، تفسير الصافي ١: ٣٠٢. ٥. جامع الأخبار: ٦٥٧/٢٥٣.

الصادقين عليهم، يعتذرون لهم بالخوف - أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بإعلام المنافقين المحتالين في موالاتهم بسعة علمه تعالى بالسرائر كالظواهر، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ تَخْفَوْا﴾ أيها المنافقون ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وضمائرهم من نيات السوء وموالات الكفار ﴿أَوْ تَبْدُوهُ﴾ وتظهروه للناس ﴿يَعْلَمَهُ﴾ الله، ويطلع عليه.

فإنه لا سر إلا وهو عنده تعالى علانية، ولا باطن إلا وهو عنده ظاهر، وكيف يخفى عليه سرائرهم ﴿وَهُوَ﴾ هو ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخفايا والدقائق، فإن وجود جميع ما فيها بإفاسته وتدبيره، فإذا كانت إحاطته بهذه المرتبة من الكمال، يجب على العباد أن يحذروا من مخالفته في الباطن والسر أيضاً؛ لأنه يعلمها ويعاقب عليها ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من العقوبة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾ وفيه غاية التهديد والوعيد.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ زَوْفٌ بِالْعِبَادِ \* قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٣٠ و ٣١]

ثم بين الله تعالى صفة اليوم الذي يكون مصير الخلق فيه إليه، ويجب على الناس الحذر منه تعالى فيه، بقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المكلفة ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وصالح ﴿مُحْضَرًا﴾ عندها، أحضره الله بصورته المثلية التي تكون لذلك العمل في عالم المثل والصور، لما حُقق في محله من أن لكل شيء في هذا العالم - ولو كان من الأعراس - صورة جوهريّة في عالم الصور والمثل المتعلقة، كما هو مستفاد من كثير من الأخبار. أو المراد إحضاره بوجوده الكسبي في صحيفة الأعمال، أو بجزائه وآثاره.

﴿وَكَذَا تَجِدُ مَا عَمِلْتَ﴾ النفس ﴿مِنْ﴾ عمل ﴿سُوءٍ﴾ وبيع محضراً عندها بصورته الجوهريّة أو بجزائه، فتضجر وتستوحش منه، بحيث ﴿تَوَدُّ﴾ قيل: كأنه يقال: حال النفس التي عملت الخير معلوم أنها في شرور وأمن، فما حال النفس الشريرة التي عملت السوء؟ فقال تعالى: تَوَدُّ وتتمنى تلك النفس، حين ترى السوء ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا﴾ وبؤناً ﴿بَعِيدًا﴾ من سوء المنظر وخامة

الأثار.

وقيل: معنى الآية: تَوَدُّ وَتَتَمَنَّى كُلَّ نَفْسٍ، يَوْمَ تُجَدِّ صَحَائِفُ أَعْمَالِهَا، أَوْ جِزَاءُ أَعْمَالِهَا، مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ حَاضِرَةً، لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلُهُ أَمَدًا بَعِيدًا.

وقيل: المعنى: اذْكُرُوا يَوْمَ تُجَدِّ كُلُّ نَفْسٍ وَ(تَوَدُّ) حَالٌ مِنَ الصَّمِيرِ فِي (عَمِلَتْ) أَوْ خَبَرَ ل (مَاعَمِلَتْ مِنْ شَوْءٍ).

ثُمَّ بِالْبَالِغِ سُبْحَانَهُ فِي التَّحْذِيرِ وَأَكَّدَهُ بِتَكَرُّارِ قَوْلِهِ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ فَاحْذَرُوا سَخَطَهُ وَبَأْسَهُ. ثُمَّ لِتَرْبِيَةِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فِي الْقُلُوبِ أَرْدَفَ الْوَعِيدَ بِالْوَعْدِ، وَأَعْلَنَ بِرَأْفَتِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ زَوُّوفٌ﴾ سَرِيعُ الرِّضَا، وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ ﴿بِالْعِبَادِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ.

وَيُحْتَمَلُ كَوْنُ التَّذْيِيلِ بِهِ، لِبَيَانِ عِلَّةِ التَّحْذِيرِ، وَهِيَ الرَّأْفَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْهُ بِهِمْ، حَيْثُ يَكُونُ تَحْذِيرُهُ تَحْذِيرَ الْوَالِدِ الشَّفِيقِ وَلَدَهُ عَمَّا يُؤْبِقُهُ وَيَضُرُّهُ.

فَإِنِ انَّ حَبَّ اللَّهِ ثُمَّ لَمَّا قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِرَدِّهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ كَمَا تَقُولُونَ، فَلَا زِمَ حُبِّ طَاعَتِهِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ، وَطَلَبَ الْقُرْبِ مِنْهُ بِالْقِيَامِ بِمَرْضَاتِهِ، حَيْثُ إِنَّ الْحُبَّ هُوَ مِثْلُ النَّفْسِ إِلَى شَيْءٍ، لِإِحْرَازِهَا كَمَالًا وَحُسْنًا فِيهِ، بِحَيْثُ يَحْمِلُهَا إِلَى مَا يَقْرُبُهَا إِلَيْهِ.

فَإِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ مُسْتَجِمِعَةٌ لِمَجِبَّةِ لِكُلِّ الْكَمَالَاتِ، بَلْ لَا كَمَالَ لِأَحَدٍ إِلَّا هُوَ مِنْهُ وَبِإِفَاضَتِهِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْهَا الْمُدْعُونَ لِمَحَبَّتِهِ أَنْ تَطْلُبُوا رِضَاهُ وَقُرْبَهُ بِطَاعَتِهِ.

ثُمَّ لَمَّا تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنِّي رَسُولُهُ إِلَيْكُمْ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يَقْرُبُكُمْ إِلَيْهِ إِلَّا [وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِهِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ يُبْعِدُكُمْ عَنْهُ إِلَّا وَأَنَا نَاهِيكُمْ عَنْهُ، إِذَنْ] فَاتَّبِعُونِي ﴿فِي مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَأَمْرُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِرِسَالَتِي، وَالْعَمَلِ بِأَحْكَامِي، فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ﴾ يُخَبِّرُكُمْ اللَّهُ ﴿وَيَرْضَى عَنْكُمْ، وَيَقْرِبُكُمْ إِلَيْهِ.

وَهَذَا أَجْزَلُ الْأَجُورِ وَأَعْظَمُ الْمُثُوبَاتِ، لَوْضُوحِ أَنَّ أَقْصَى آمَالِ الْمُحِبِّ كَوْنَهُ مُحَبُّوبًا عِنْدَ حَبِيبِهِ، وَلَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِإِتْيَانِ مُحَبُّوبَاتِهِ، وَحُبِّ أَحِبَّائِهِ.

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ رَسُولُهُ وَخَلِيفَتُهُ، وَلِذَا قَالَ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «هَلْ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ»<sup>١</sup>، وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ وَأَوْلِيَانَهُ وَخُلَفَاءَهُ، أَطَاعَهُمْ وَأَوْفَقَ رِضَاهُمْ.



وفي (الكافي): عنه عليه السلام، في حديث: «مَنْ سَرَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ، فَلْيَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَلِيَتَّبِعْنَا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾»<sup>١</sup> والله لَا يُطِيعُ اللَّهَ عَبْدٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي طَاعَتِهِ أَتْبَاعًا، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَتَّبِعُنَا عَبْدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ<sup>٢</sup> اللَّهُ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْعُ أَحَدٌ أَتْبَاعَنَا أَبَدًا إِلَّا أَبْغَضْنَا عَدُوَّنَا<sup>٣</sup>، وَلَا وَاللَّهِ لَا يُبْغِضُنَا أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ مَاتَ عَاصِيًا لِلَّهِ أَخْرَاهُ اللَّهُ، وَأَكْبَهَ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ<sup>٤</sup>.

ثم أشار سبحانه إلى أدنى ثمرات حبه له، بقوله: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» ويسر بعفوه سيئاتكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ لِّلْمَعَاصِي، وَسَنَارٌ لِّلْقَبَاحِ﴾ «رَحِيمٌ» لِمَنْ تَحَبَّبَ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَأَتْبَاعَ رُسُلِهِ وَخُلَفَائِهِ. قيل: نزلت حين دعا رسول الله ﷺ كُتَيْبَ بْنَ أَشْرَفٍ وَمَنْ تَابَعَهُ إِلَى الْإِيمَانِ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ.

وقيل: نزلت في وفد نجران، لما قالوا: إِنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ حُبًّا لِلَّهِ<sup>٥</sup>. وقيل: نزلت في أقوام زعموا على عَهْدِهِ ﷺ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ، فَأَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا قَوْلَهُمْ مُطَابِقًا لِعَمَلِهِمْ<sup>٦</sup>.

وعن ابن عباس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ عَلَى قُرَيْشٍ وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَقَدْ عَلِقُوا عَلَيْهَا بَيْضُ النَّعَامِ، وَجَعَلُوا فِي آذَانِهَا الشُّنُوفَ<sup>٧</sup>، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ خَالَفْتُمْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام» فقالت قُرَيْشٌ: إِنَّمَا نَعْبُدُهَا حُبًّا لِلَّهِ لِيَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، فَقَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ وتعبدون الأصنام لتقربكم إلى الله ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أَيِ اتَّبِعُوا شَرِيعَتِي وَسُنَنِي ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ فَأَنَا رَسُولُهُ إِلَيْكُمْ، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكُمْ<sup>٨</sup>.

### قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [٣٢]

ثم أنه روي أنه لما نزلت آية ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾، [قال] عبدالله بن أبي: إن محمداً يجعل

١. في النسخة: لمحبة. ٢. في الكافي والصابي: لَا يَدْعُ أَحَدٌ أَتْبَاعَنَا أَبَدًا إِلَّا أَبْغَضْنَا.

٣. الكافي ٨: ١/١٤، تفسير الصافي ١: ٣٠٤.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ٢٥.

٥. تفسير أبي السعود ٢: ٢٥.

٦. الشُّنُوفُ: جمع شُنف، وهو القرط من الدر أو الذهب والفضة وكل ما يعلّق في شحمة الأذن أو فوقها من الزينة.

٧. تفسير أبي السعود ٢: ٢٥.

طاعته كطاعة الله، وبأمرنا أن نُحِبَّه كما أَحَبَّتِ النَّصَارَى عيسى، فنزلت<sup>١</sup> ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد، رَدًّا لَشُبْهِهِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ لَكُونَهُ بِالذَّاتِ مُسْتَحِقًّا لِلطَّاعَةِ، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لَكُونَهُ رَسُولًا وَمُبْلَغًا عَنْ اللَّهِ، لَا لِأَمَلِيَّةٍ نَفْسِهِ، كما تقول النَّصَارَى في عيسى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن طاعة الله في أحكامه التي جاء بها رسوله، فقد كَفَرُوا بِنِعْمِهِ، واستَوْجِبُوا سَخَطَهُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ به وبِنِعْمِهِ، بَلْ يَبْغِضُهُمْ وَيُعَذِّبُهُمْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ.

ففيه دلالة على أن وُجُوب طاعة النَّبِيِّ، لَكُونِهَا مِنْ شُؤْنِ وَجُوب طاعة الله، فَمَنْ أَدْعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَخَالَفَ أَوَامِرَ نَبِيِّهِ وَنَوَاهِيهِ، فَهُوَ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهِ.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ \* ذُرِّيَّةَ  
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٣٣ و ٣٤]

ثُمَّ أَنَّهُ لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَحَبَّتَهُ لَا تَنفَكُ عَنْ طَاعَةِ الرَّسُلِ، بَيَّنَّ عُلُوَّ دَرَجَاتِهِمْ، وَشَرَفَ مَنَاصِبِهِمْ، تَحْرِيسًا عَلَيْهَا؛ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ واختار من جميع خَلْقِهِ ﴿آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأشرف ولده، وَهُمْ إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا، وَلَا شُبْهَةَ أَنْ أَشْرَفَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَذُرِّيَّتُهُ الطَّيِّبَةُ.

عن الباقر عليه السلام، أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ: «نَحْنُ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ بَقِيَّةُ تِلْكَ الْعِثْرَةِ»<sup>٢</sup>  
وعن الصادق عليه السلام، قَالَ: «قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَشْعَثَ بْنِ قَيْسٍ الْكِنْدِيُّ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ لِلْحُسَيْنِ عليه السلام: يَا حُسَيْنُ بْنُ فَاطِمَةَ آيَةُ حُرْمَةِ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْسَتْ لغيرِكَ؟ فَتَلَا الْحُسَيْنُ عليه السلام هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا ﷺ لَمَنْ آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّ الْعِثْرَةَ الْهَادِيَةَ لِمَنْ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ»<sup>٣</sup>.  
وفي (العيون)، فِي حَدِيثٍ: فَقَالَ الْمَأْمُونُ: هَلْ فَضَّلَ اللَّهُ الْعِثْرَةَ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ، فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبَانَ فَضْلَ الْعِثْرَةِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ».

فَقَالَ الْمَأْمُونُ: أَيْنَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّضَا عليه السلام: «فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ

١. تفسير الرازي ٨: ١٩. ٢. تفسير العياشي ١: ٦٦٩/٢٩٩، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٣. أمالي الصدوق: ٢٣٩/٢٢١.

وَتَوْحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴿الآية﴾<sup>١</sup>. وقد فسر آل إبراهيم بآل محمد ﷺ.

﴿وَأَلَّ عِمْرَانُ﴾ قيل: هم موسى، وهارون؛ ابنا عمران بن يصر بن فاهث<sup>٢</sup> بن لاوي بن يعقوب، وأولادهما النبيون.

وقيل: عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان، وإن ماثان كان من نسل سليمان بن داود، وكان ينتهي بسبعة وعشرين أباً إلى يهودا بن يعقوب. وبين العِمْرَانَيْنِ ألف وثمانمائة سنة<sup>٣</sup>.

وفي رواية: هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين، فوضعوا اسماً مكان اسم<sup>٤</sup>. وعن (المجمع): وآل محمد على العالمين<sup>٥</sup>.

وعن القمي رحمه الله: قال: قال العالم ﷺ: «نزل آل إبراهيم<sup>٦</sup>، وآل عمران، وآل محمد ﷺ على العالمين»<sup>٧</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: قال: «آل محمد كانت فمخوها»<sup>٨</sup>.

وفي تخصيص آل عمران أو آل محمد ﷺ بالذكر مع دخولهم في آل إبراهيم، إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنهم وشرَفهم.

فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالنفس القدسية، والملكات الجميلة الروحانية، والفضائل الجسمانية، فضلهم الله بمنصب الرسالة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وجميع الخلق أجمعين من أول الدنيا إلى يوم الدين من الملائكة والجن والأنس وسائر موجودات عالم الملك والملكوت، حال كونه جميع المصطفين ﴿ذُرِّيَّةً وَاحِدَةً مُسَلَّسَةً مُنْشِئَةً بِتَقْضَاهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ اللَّهُ؛ بَعْضُهُمْ مِنْ نَسْلِ بَعْضٍ»<sup>٩</sup>.

وعن (العياشي): عنه عليه السلام: قيل: ما الحجة في كتاب الله أن آل محمد ﷺ هم أهل بيته؟ قال: «قول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ وَآلَ مُحَمَّدٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) هكذا

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٣٠/١، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٢. في تفسير البضاوي: فاهث. ٣. تفسير البضاوي ١: ١٥٦.

٤. تفسير العياشي ١: ٢٩٩/٦٧٠، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٥. مجمع البيان ٢: ٧٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٠٥. ٦. (آل إبراهيم) ليس في المصدر.

٧. تفسير القمي ١: ١٠٠، تفسير الصافي ١: ٣٠٥. ٨. تفسير العياشي ١: ٣٠١/٦٧٤، تفسير الصافي ١: ٣٠٥.

٩. مجمع البيان ٢: ٧٣٥، تفسير الصافي ١: ٣٠٦.

نَزَلَتْ (ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وَلَا تَكُونِ الدُّرِّيَّةُ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا تَسْلَهُمْ مِنْ أَسْلَابِهِمْ<sup>١</sup>.  
والظاهر أنَّ السَّائِلَ احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَلِّ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا عَلَيْهِ بَعْضُ الْمُفْسِّرِينَ مِنَ  
الْعَامَّةِ، مُسْتَشْهِدِينَ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لَأَقْوَالِ النَّاسِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِضَمَائِرِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَمَلَكَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، فَيَخْتَارُ مِنْهُمْ  
مَنْ هُوَ أَحْسَنُ قَوْلًا، وَأَصْلَحُ عَمَلًا، وَأَزْكَى قَلْبًا، وَأَخْلَصَ نِيَّةً، وَأَقْوَى بَصِيرَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ  
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾<sup>٣</sup>.

نَقَلَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْحَلِيمِيِّ كَلَامًا يُعْجِبُنِي أَنْ أَذْكُرَهُ بِطَوْلِهِ، لِاشْتِمَالِهِ  
عَلَى ذِكْرِ مُعْجَزَاتٍ عَدِيدَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَفَضِيلَةٍ فَائِقَةٍ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّهِ  
قَالَ الْحَلِيمِيُّ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا يَدَّ أَنْ يَكُونُوا مُخَالِفِينَ لِغَيْرِهِمْ فِي الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةِ،  
وَالْقُوَى الرُّوحَانِيَّةِ. أَمَّا الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةُ، فَهِيَ إِمَّا مُدْرِكَةٌ وَإِمَّا مُحَرَّكَةٌ. أَمَّا الْمُدْرِكَةُ فَهِيَ  
إِمَّا الْحَوَاسِ الظَّاهِرِيَّةُ، وَإِمَّا الْحَوَاسِ الْبَاطِنِيَّةُ. أَمَّا الْحَوَاسِ الظَّاهِرِيَّةُ؛ فَهِيَ خَمْسَةٌ:

أَحَدُهَا: الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّشُولُ ﷺ مَخْصُوصًا بِكَمَالِ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهَانِ:  
الأَوَّلُ: قَوْلُهُ ﷺ: «زُيِّنَ لِي الْأَرْضُ فَأَرَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا»، وَالثَّانِي: قَوْلُهُ ﷺ: «أَقِيمُوا  
صُفُوفَكُمْ وَتَرَاوُا، فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِي». وَنَظِيرُ هَذِهِ [الْقُوَّةُ] مَا حَصَلَ لِإِبْرَاهِيمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>٤</sup> ذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِهِ: أَنَّهُ تَعَالَى قُوَى  
بَصَرِهِ حَتَّى شَهِدَ جَمِيعَ الْمَلَكُوتِ مِنَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ.

قَالَ الْحَلِيمِيُّ: إِنَّ<sup>٥</sup> الْبَصَرَاءَ يَتَفَاوَتُونَ، فَرُوي أَنَّ زُرْقَاءَ الْيَمَامَةِ كَانَتْ تُبْصِرُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَلَا  
يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَصَرُ النَّبِيِّ أَقْوَى مِنْ بَصَرِهَا.

وِثَانِيهَا: الْقُوَّةُ السَّامِعَةُ، وَكَانَ أَقْوَى النَّاسِ فِي هَذِهِ الْقُوَّةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا:  
قَوْلُهُ ﷺ: «أُطِطَ<sup>٦</sup> السَّمَاءُ وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَنْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ قَدَّمَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ تَعَالَى» فَسَمِعَ  
أَطِيطَ السَّمَاءِ وَالثَّانِي: أَنَّهُ سَمِعَ دَوْبًا، وَذَكَرَ أَنَّهُ هَوِيَ صَخْرَةً قَذَفَتْ فِي جَهَنَّمَ، فَلَمْ تَبْلُغْ قَعْرَهَا إِلَى

١. تفسیر العیاشی: ١/ ٦٧٥/ ٣٠١، تفسیر الصافی: ١/ ٣٠٦.

٢. تفسیر الرازی: ٨/ ٢٢، والآية من سورة المؤمن: ٤٠/ ٤٦.

٣. الأنعام: ٦/ ٧٥.

٤. زوی الشیء: قبضه وجمعه.

٥. الأنعام: ٦/ ٧٥.

٦. فی المصدر: وهذا غير مستبعد لأن.

الآن.

قال الحلبي: ولا سبيل للفلاسة إلى استبعاد هذا، فإنهم زعموا أن فيثاغورس راضٍ نفسه حتى سيم حفيف الملك<sup>١</sup>. ونظير هذه القوة لسليمان عليه السلام في قصة النمل: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾<sup>٢</sup> قاله تعالى أسمع سليمان كلام النملة وأوقفه على معناه. وهذا داخل أيضاً في باب تقوية الفهم، وكان حاصلاً لمحمد ﷺ حين تكلم مع الذئب ومع البعير.

وثالثها: تقوية قوة الشم، كما في حق يعقوب عليه السلام، فإن يوسف لما أمر بحمل قميصه إليه وإلقائه على وجهه، فلما فصلت البعير قال يعقوب: إِنِّي أَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ، لَوْلَا أَن تَفْتَدُونَ. فأحسن بها من مسيرة أيام.

ورابعها: تقوية قوة الذوق، كما في حق رسول الله ﷺ حين قال: «إِنَّ هَذَا الذَّرَاعَ يُخْبِرُنِي أَنَّهُ مَسْمُومٌ».

وخامسها: تقوية القوة اللامسة، كما في حق الخليل، حيث جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه، وكيف يستبعد هذا، ويُشاهد مثله في السمندل<sup>٣</sup> والنعامة<sup>٤</sup>.

وأما الحواس الباطنة، فمنها قوة الحفظ، قال تعالى: ﴿سَتَقْرِئُكَ فَلَا تُنْسِي﴾<sup>٥</sup> ومنها: قوة الذكاء، قال علي عليه السلام: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَاسْتَنْبَطَ مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ». فإذا كان هذا حال الولي، فكيف حال النبي؟

وأما القوى المحركة، فيمثل: غُزُوجُ النبي ﷺ إلى المعراج، وغُزُوجُ عيسى حياً إلى السماء، ورفع ادريس وإلياس، على ما وردت به الأخبار، وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾<sup>٥</sup>.

وأما القوى الروحية العقلية فلا بد أن تكون في غاية الكمال، ونهاية الصفاء.

اعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية مخالفة بما هيته لسائر النفوس، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء والفطنة والحرية، والاستيعلاء والترفع عن الجسمانيات

١. في المصدر: خفيف الفلك.

٢. النمل: ٢٧/١٨.

٣. السمندل: طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا، ونسج من ريش بعض الطيور لا يحترق.

٤. الأعلى: ٨٧/٦.

٥. النمل: ٢٧/٤٠.

والشهوات، فإذا كانت الرُّوح في غاية الصُّفاء والشُّرف، وكان البدن في غاية النُّقاء والطَّهارة، كانت هذه الثُّوى المُحرَّكة والمُدرِّكة في غاية الكمال؛ لأنها جارية مُجرى الأنوار الفايضة من جَوْهر الرُّوح، الواصلة إلى البدن، ومتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال، كانت الآثار في غاية القُوَّة والشُّرف والصفاء.

ثم أن الله تعالى بعدما اصطفى آدم بالقُوَّة الكاملة، وَضَعَ كمال القُوَّة الرُّوحانية في شُعبة معيَّنة من أولاد آدم ﷺ هم شيث وأولاده إلى إدريس، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم حصل من إبراهيم شُعبتان: إسماعيل وإسحاق، فجعل إسماعيل مُبداً لظهور الرُّوح القدسيَّة لمحمد ﷺ، وجعل إسحاق مُبداً لشُعبتين: يعقوب وعيسى<sup>١</sup>، فوَضَعَ النُّبُوَّة في نَسْل يعقوب، ووضع المُلك في نَسْل عيسى<sup>٢</sup>، واستمرَّ ذلك إلى زمان محمد ﷺ، فلما ظهر محمد ﷺ نُقِل نُور النُّبُوَّة ونور المُلك إلى محمد ﷺ، وبقياً - أعني الدِّين والمُلك - لأتباعه إلى يوم القيامة، ومن تأمل في هذا الباب وصلَّ إلى أسرار عجيبة، انتهى<sup>٣</sup>.

وفيه مواضع للنُّظر والتَّخيط، والعَجَب أنه التَّزَمَ بانتقال نُور النُّبُوَّة والمُلك في نَسْل المصطفىين إلى محمد ﷺ، ولم يلتزم به في ذُرِّيَّة محمد ﷺ بل جعله لأتباعه.

إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَآلَهُ أَغْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ \* فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٣٥-٣٧]

ثم ذكر سبحانه [و] تعالى قصَّة ولادة مريم وعيسى - استشهادهما على اصطفايهما آل عمران، ورداً على النُّصارى القائلين بالوحيَّة عيسى، أو أنه ثالث ثلاثة، أو أنه ابن الله - بقوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ قيل: الظُّرف مُتعلِّق بـ(السميع العليم) والمعنى: والله سميع للدُّعاء، عليم بالضَّراعة، حين دَعَتْ وتضرَّعتْ

حَنَّة بِنْتُ فَاوُذَ ﴿أَمْرَأْتُ عِمْرَانَ﴾ ابن ماثان، أم مريم.

نسي نضبة ولادة عن عِكْرَمَةَ: أنها كانت عاقراً لا تلد، وكانت تغيب النساء بالأولاد.<sup>١</sup>  
مريم وعن محمد بن إسحاق: أنها ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت، وكانت يوماً في ظل شجرة فرأت طائراً يطعم فرخاً له، فتحرّكت نفسها للولد، فدعت ربّها أن يهب لها ولداً، فحملت بمریم، وهلك عمران، فلما عرفت حملها جعلته الله بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ مِنَ الْوَلَدِ ﴿مُحَرَّراً﴾ وعاهدت أن أجعله خادماً للمسجد، أو لمن يدرس الكتاب، أو مخلصاً للعبادة، أو عتيقاً من أمر الدنيا لطاعة الله.

قيل: كان الأمر في دين بني إسرائيل أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه، كان يجب عليه خدمة الأيوين، فكانوا بالتدريج يتزكون ذلك النوع من الانتفاع، ويجعلونه محرراً لخدمة المسجد، وطاعة الله.<sup>٢</sup>

وقيل: كان المحرّر يجعل في الكنيسة، يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير بين الذهاب والمقام، فإن أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار. ولم يكن نبي إلا ومن نسله محرّر في بيت المقدس، ولم يكن التحرير جائزاً إلا في الغلمان.<sup>٣</sup>  
قيل: إن تحرير حنة كان بإلهام الله ثم أنها لإظهار أن هذا التدبير كان لطلب مرضاة الله وتقرباً إليه، قالت: ﴿فَتَقَبَّلَ﴾ هذا التحرير، وتلقاه ﴿بِئْسَى﴾ بالرضا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بخُلُوص بئس حقيقة ضراعتي، وفي تخصيص الوصفين به تعالى إظهار لقوة يقينها، وإشعار باختصاص دعائها به تعالى، وانقطاع رجائها من غيره.

ثم أنه كان في ظنها أن النشمة التي في بطنها غلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ ورأت أنها أنثى، ولم تكن الجارية صالحة للتحرير؛ لخدمة المسجد، وملازمته، لما يصيبها من الخيض والأذى ﴿قَالَتْ﴾ تحزناً وتحسراً على خيبة رجائها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾ حال كونها ﴿أُنْثَى﴾.

ثم لما كانت جاهلة بقدرها وشأنها، قال سبحانه تعظيماً لها وإظهاراً لجلالها: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ من غيره ﴿بِمَا وَضَعْتَ﴾ حنة، وبما علق بها من عظام الأمور.

وقرئ (وَضَعْتَ) على الخطاب، والمعنى أنك لا تعلمين قدر هذه الموهوبة، ومالها من علو الشأن

وَسَمِعُوا الْمَقَامَ. وَفِي قِرَاءَةِ (وَضَعَتْ) عَلَى الْمُتَكَلِّمِ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَلَامِهَا، تَسْلِيَةٌ لِنَفْسِهَا، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام <sup>١</sup>.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى زَادَ فِي تَبْيِينِ عَظَمَةِ مَوْضِعِهَا وَرَفَعَهُ مَنَزِلَتِهَا وَمَقَامَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الَّذِي كَانَتْ تَطْلُبُهُ، وَتَتَمَنَّى أَنَّهُ يَكُونُ كَوَاحِدٍ مِنْ سَدَنَةِ الْمَسْجِدِ ﴿كَالْأُنْثَى﴾ الَّتِي وَهَبَتْهَا لَهَا، فِي الْفَضِيلَةِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ عِنْدِي.

عَنْ (الكَافِي) وَ(الْقَمِي): عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى عِمْرَانَ أَنِّي وَاهِبٌ لَكَ ذَكَرًا سَوِيًّا مُبَارَكًا يَرِي الْأَحْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِي، وَجَاعِلُهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَحَدَّثَ عِمْرَانُ امْرَأَتَهُ حَتَّى بَذَلَكَ - وَهِيَ أُمُّ مَرْيَمَ - فَلَمَّا حَمَلَتْ بِهَا كَانَ حَمْلُهَا عِنْدَ نَفْسِهَا غَلَامًا، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ: [رَبِّ] إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَى وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى، [أَي] لَا تَكُونُ الْبِنْتُ رَسُولًا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ فَلَمَّا وَهَبَ لِمَرْيَمَ عَيْسَى، كَانَ هُوَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِمْرَانُ وَوَعَدَهُ إِيَّاهُ <sup>٢</sup>.

وَعنه عليه السلام: «أَنَّ الْمُحَرَّرَ يَكُونُ فِي الْكَنِيسَةِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا [أُنْثَى] قَالَتْ: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَى <sup>٣</sup> وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى، إِنَّ الْأُنْثَى تَحِيضُ، فَتَخْرُجُ مِنَ الْمَسْجِدِ» <sup>٤</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ عليه السلام: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى فِي الْخِدْمَةِ» <sup>٥</sup>. وَمَقْتَصَصُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْمُعْتَرِضَةَ فِي آيَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ فَقَطْ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ مِنْ كَلَامِ حَتَّى، وَهُوَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

قِيلَ: إِنَّ مَرْيَمَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ بِمَعْنَى: الْعَابِدَةُ أَوْ خَادِمَةُ الرَّبِّ، وَإِنْ إِظْهَارُ تَسْلِيَتِهَا بِهَذَا الْاسْمِ لِإِظْهَارِ بَقَائِهَا عَلَى نِيَّةٍ وَقَفْهَا لِعِبَادَةِ رَبِّهَا؛ غَيْرَ رَاجِعَةٍ عَنْهَا، فَكَأَنَّهَا قَالَتْ: إِنَّ هَذِهِ الْأُنْثَى، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ خَلِيقَةً لَوْقَفَهَا لَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ وَسِدَانَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَتَكُنْ مِنَ الْعَابِدَاتِ فِيهِ.

وَفِي تَصْدِيقِهَا لِلتَّسْمِيَةِ إِشْعَارًا بِمَوْتِ عِمْرَانَ قَبْلَ وِلَادَةِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى الْعَادَةِ أَنَّ الْأَبَ يَتَوَلَّى تَسْمِيَةَ الْوَلَدِ إِذَا كَانَ حَيًّا <sup>٦</sup>.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ حَتَّى عَالِمَةً بِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَطْمَعُ فِي إِغْوَاءِ كُلِّ مَوْلُودٍ خُصُوصًا لِلنِّسَاءِ، قَالَتْ: ﴿وَإِنِّي

١. جوامع الجامع: ٥٧. ٢. تفسير القمي: ١/١٠١، الكافي: ١/٤٤٩، تفسير الصافي: ١/٣٠٧.

٣. زاد في العياشي: والله أعلم بما وضعت. ٤. تفسير العياشي: ١/٣٠٢، ٦٧٧، تفسير الصافي: ١/٣٠٧.

٥. تفسير العياشي: ١/٣٠٢، ٦٧٨، تفسير الصافي: ١/٣٠٧. ٦. تفسير روح البيان: ٢/٢٧.



أَعِيذُهَا بِكَ» وَأَجِيرُهَا بِلُطْفِكَ وَالْجَنِّهَا بِحِفْظِكَ، ﴿وَوَكَذًا ذُرِّيَّتَهَا﴾ وَنَسْلَهَا ﴿مِنْ﴾ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿الْمَطْرُودِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ﴾.

عن النبي ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا، إِلَّا مَرِيَمَ وَابْنَهَا».<sup>٢</sup>

قيل: لما قالت حَتَّةُ هذه الكلمات، وتضرعت إلى الله في قَبُولِ مَرِيَمَ لِعِبَادَتِهِ، وحَفِظَهَا مِنْ إِغْوَاءِ الشَّيْطَانِ، لَفَتْهَا فِي خِرْقَةٍ، وَحَمَلَتْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَوَضَعَتْهَا عِنْدَ الْأَحْبَارِ، أَبْنَاءِ هَارُونَ، وَهُمْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَالْحَكْبَةِ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَقَالَتْ: خُذُوا هَذِهِ التَّذِيرَةَ، فَتَنَافَسُوا فِيهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ بِنْتُ إِمَامِهِمْ، وَكَانَ بَنُو مَائِثَانَ رُؤُوسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ زَكَرِيَّا: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، عِنْدِي خَالَتُهَا، فَقَالُوا: لَا حَتَّى تُفَرِّعَ عَلَيْهَا، فَانْطَلَقُوا - وَكَانُوا سَبْعًا وَعَشْرِينَ - إِلَى نَهْرٍ فَأَلْقَوْا فِيهِ أَقْلَامَهُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي النَّهْرِ. وَقِيلَ: نَهْرُ الْأُرْدُنِّ. فَنَفِيَ كُلُّ مَرَّةٍ ارْتَفَعَ قَلَمُ زَكَرِيَّا فَوْقَ الْمَاءِ وَرَسَبَتْ أَقْلَامُهُمْ، فَسَلَّمُوا إِلَى زَكَرِيَّا.

قيل: هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ وَمَلِيكَهَا، وَمُكَمِّلُ نَفْسِهَا بِكَمَالَاتٍ لَانْقَةِ بِهَا ﴿بِقَبُولِ حَسَنِ﴾ فَكَأَنَّهُ أَخَذَهَا رَبُّهَا مِنْ أُمِّهَا وَسَلَّمَهَا لَزَكَرِيَّا.<sup>٣</sup>

قيل: إِنَّ الْحُكْمَ فِي تِلْكَ الشَّرِيعَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ التَّحْرِيرُ جَائِزًا، إِلَّا فِي غُلَامٍ عَاقِلٍ قَادِرٍ عَلَى خِدْمَةِ الْمَسْجِدِ، وَمِنْ حُسْنِ الْقَبُولِ أَنَّ اللَّهَ بَعْدَ تَضَرُّعِ حَتَّةٍ، قَبِلَ تَحْرِيرَ بِنْتِهَا حَالَ صِغَرِهَا، وَعَدَمَ قُدْرَتِهَا عَلَى خِدْمَةِ الْمَسْجِدِ<sup>٤</sup> وَفِي لَفْظِ التَّجَبُّلِ إِشْعَارٌ بِشِدَّةِ الْاعْتِنَاءِ بِقَبُولِهَا.

﴿وَأَنْبَتَهَا رَبُّهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وَرَبَّاهَا تَرْبِيَةً صَالِحَةً كَامِلَةً، وَهَيَّا لَهَا جَمِيعَ مَا يُصْلِحُهَا.

قيل: إِنَّهَا تَكَلَّمَتْ فِي صِبَاهَا كَمَا تَكَلَّمَ الْمَسِيحُ، وَلَمْ تَلْتَمِمْ تَذْيَا قَطُّ، وَكَانَتْ تَنُمُو فِي الْيَوْمِ مِثْلَ مَا يَنُمُو الْمَوْلُودُ فِي عَامٍ ﴿وَوَكَّفَلَهَا﴾ اللَّهُ ﴿زَكَرِيَّا﴾ وَجَعَلَهُ ضَامِنًا لِمَصَالِحِهَا، وَقَانِمًا بِتَدْبِيرِ أُمُورِهَا.

وَفِي عِدَّةِ رَوَايَاتٍ مِنْ طُرُقِ أَصْحَابِنَا أَنَّهُ ﷺ كَانَ زَوْجَ أُخْتِهَا، لَا زَوْجَ خَالَتِهَا.

وَرُوي أَنَّهَا لَمَّا صَارَتْ شَابَةً، بَنَى زَكَرِيَّا لَهَا غُرْفَةً، وَفِي رِوَايَةٍ: مِحْرَابًا فِي الْمَسْجِدِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمِحْرَابَ وَالْغُرْفَةَ وَاحِدٌ، وَلَا يُصْعَدُ إِلَيْهَا إِلَّا بِسُلَّمٍ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا غَيْرُهُ، وَإِذَا خَرَجَ أَغْلَقَ عَلَيْهَا سَبْعَةَ

١. زاد في تفسير الرازي: من مَسَّ الشَّيْطَانُ. ٢. تفسير الرازي ٨: ٢٨. ٣. تفسير الرازي ٨: ٢٨.

٤. تفسير الرازي ٨: ٢٨.

أبواب<sup>١</sup>

ومَعَ ذَلِكَ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ رُوي أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الشَّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشَّتَاءِ<sup>٢</sup>، فَتَعْجَبُ زَكَرِيَّا وَقَالَ لَهَا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ الرِّزْقُ، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَكَ، وَمَنْ أَتَاكَ بِهِ، وَالْأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ عَلَيْكَ؟ فَقَالَتْ مَرْيَمُ فِي جَوَابِهِ: ﴿هُوَ﴾ نَازَلَ عَلَيَّ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فَلَا تَعْجَبْ وَلَا تَسْتَبِعِذْ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يَرْزُقَهُ ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وَتَقْدِيرٍ لِكَثْرَتِهِ، أَوْ بَغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، قِيلَ: إِنَّ الدُّبِيلَ<sup>٣</sup> مِنْ كَلَامِهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فِي نَزُولِ مَائِدَةٍ ثُمَّ أَنَّهُ رَوَى أَبُو السُّعُودِ وَالبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِمَا أَنَّ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عليها السلام أَهْدَتْ إِلَى الْجَنَّةِ لِفَاطِمَةَ عليها السلام رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَغِيفَيْنِ وَبَضْعَةَ لَحْمٍ، فَرَجَعَ بِهَا إِلَيْهَا، فَقَالَ: «هَلُمِّي يَا بِنْتِي» فَكَشَفَتْ كَمَا نَزَلَتْ لِمَرْيَمَ عَنِ الطَّبَقِ، فَإِذَا هُوَ مَمْلُوءٌ خُبْرًا وَلَحْمًا، وَقَالَ لَهَا: «أَنَّى لَكَ هَذَا؟» قَالَتْ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فَقَالَ ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ شَبِيهَةً لِسَيِّدَةِ نَسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، ثُمَّ جَمَعَ عَلَيْهِمَا وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهما السلام وَجَمِيعَ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا، وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ، فَأَوْسَعَتْ عَلَى حَبِيرَانِهَا<sup>٤</sup>.

وَعَنِ الْعِيَّاشِيِّ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام ضَمِنَتْ لِعَلِيِّ عليه السلام عَمَلَ الْبَيْتِ وَالْعَجْنَ وَالْخَبْزَ وَقَمَّ الْبَيْتِ<sup>٥</sup>، وَضَمِنَ لَهَا عَلِيُّ عليه السلام مَا كَانَ خَلْفَ الْبَابِ [مِنْ] ثَقْلِ الْحَطَبِ، وَأَنْ يَجِيءَ بِالطَّعَامِ. فَقَالَ لَهَا يَوْمًا: يَا فَاطِمَةُ، هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَالَّذِي عَظَّمَ حَقَّكَ، مَا كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ شَيْءٍ تُفْرِكُ<sup>٦</sup> بِهِ، قَالَ: أَفَلَا أَخْبَرْتَنِي؟ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَهَانِي أَنْ أَسْأَلَكَ شَيْئًا، فَقَالَ: لَا تَسْأَلِي ابْنَ عَمِّكَ شَيْئًا، إِنْ جَاءَكَ بِشَيْءٍ عَفْوًا وَإِلَّا فَلَا تَسْأَلِيهِ.

قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيَّ عليه السلام فَلَقِي رَجُلًا فَاسْتَعْرَضَ مِنِّي دِينَارًا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ وَقَدْ أَمْسَى، فَلَقِي الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسَدِ فَقَالَ لِلْمِقْدَادِ: مَا أَخْرَجَكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: الْجُوعُ، وَالَّذِي عَظَّمَ حَقَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عليه السلام: [فَهُوَ أَخْرَجَنِي، وَقَدْ اسْتَعْرَضْتُ دِينَارًا، وَسَأَوْتُهُ بِهِ: فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ فَوَجَدَ رَسُولَ

١. تفسير الرازي ٨: ٣٠، تفسير روح البيان ٢: ٢٩.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٢٩.

٣. الدبيل هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٤. تفسير أبي السُّعُودِ ٢: ٣٠، تفسير البيضاوي ١: ١٥٨.

٥. أي كسبه.

٦. مِنَ الْفِرَاقِ، وَهُوَ مَا يُقَدَّمُ إِلَى الضَّيْفِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ.

الله ﷺ جالساً وفاطمة عليها السلام تُصَلِّي، ويتنهما شيء مُعْطَى، فلَمَّا فَرَعَتْ اجْتَرَتْ<sup>١</sup> ذلك [الشيء]، فإذا جَفَنَتْ مِنْ خُبْرٍ وَلَحْمٍ، قال: يا فاطمة، أَتَى لَكَ هَذَا؟ قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: أَلَا أَحَدُثُكَ بِمِثْلِكَ وَمِثْلَهَا؟ قال: بلى، قال: يُمِثِلُ زَكَرِيَّا إِذْ دَخَلَ عَلَى مَرْيَمَ الْمِحْرَابِ فَوَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. فَأَكَلُوا مِنْهَا شَهْراً، وَهِيَ الْجَفْنَةُ الَّتِي يَأْكُلُ مِنْهَا الْقَانَمُ، وَهِيَ عِنْدُنَا<sup>٢</sup>.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ  
\* فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيْحِينَ  
مُصَدَّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ [٣٨ و ٣٩]

ثُمَّ لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا كَرَامَةَ مَرْيَمَ عِنْدَ اللَّهِ، وَنَزَلَتْهَا لَدَيْهِ، تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ أَشْيَاعِ زَوْجَتِهِ وَلَدٌ مِثْلَ وَلَدِ حَتَّةَ فِي الْجَلَالَةِ وَالْكَرَامَةِ، وَهُوَ عِنْدَ مَرْيَمَ ﴿هُنَالِكَ﴾ وَفِي مَكَانِهِ ذَلِكَ ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ وَكَانَ دُعَاؤُهُ أَنْ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي﴾ وَأَعْطَانِي ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ وَمِنْ مَخْضٍ قُدْرَتِكَ ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وَوَلَدَ صَالِحاً مُبَارَكاً تَقِيّاً مَرْضِيّاً، تُسْتَطَابُ أَخْلَاقُهُ وَأَفْعَالُهُ، كَمَا وَهَبَتْ لِحَتَّةَ ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وَتُجِيبُهُ ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾ لَرَبِّهِ ﴿فِي الْمِحْرَابِ﴾ الَّذِي كَانَ مَكَانَ مَرْيَمَ فِي الْمَسْجِدِ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بِزَكَرِيَّا بَوْلَدٍ ذَكَرَ يَكُونُ مُسَمًّى ﴿بَيْحِينَ﴾.

قِيلَ: إِنَّهُ سُمِّيَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يَحْيَا بِهِ رَحِمَ أُمِّهِ، حَيْثُ كَانَتْ عَجُوزاً عَاقِراً، أَوْ تَحْيَا [بِهِ] الْقُلُوبَ وَيَحْيَا بِهِ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَالتَّارَ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَذْبَحُ الْمَوْتَ حِينَ يُجَاءُ بِهِ بِصُورَةِ الْكَنْشِ الْأَمْلَحِ فِي الْمَخْشَرِ.

فِي أَنْ يَحْيَى أَوَّلَ وَمِنْ كَمَالَاتِ ذَلِكَ الْوَلَدُ أَنَّهُ يَكُونُ ﴿مُصَدَّقاً﴾ بِرِسَالَةِ عِيسَى الْمُلَقَّبِ ﴿بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾. مِنْ صَدَقَ بِنَبْوَةِ رُؤْي أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ تَصْدِيقٍ يَحْيَى بَعِيسَى أَنَّهُ كَانَ لَا يَصْعَدُ إِلَى مَرْيَمَ فِي صَوْمَعَتِهَا غَيْرَ عِيسَى عليه السلام زَكَرِيَّا، وَهُوَ يَصْعَدُ إِلَيْهَا بِسَلَمٍ، فَإِذَا نَزَلَ أَقْفَلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ فَتَحَ لَهَا مِنْ فَوْقِ الْبَابِ كُوَّةً صَغِيرَةً يَدْخُلُ عَلَيْهَا مِنْهَا الرِّيحُ، فَلَمَّا وَجَدَ مَرْيَمَ وَقَدْ حَبِلَتْ، سَاءَ ذَلِكَ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا كَانَ يَصْعَدُ إِلَى هَذِهِ أَحَدٌ غَيْرِي

١. فِي تَفْسِيرِ الصَّافِي: اجْتَرَتْ، وَاجْتَرَتْهُ: أَيَّ جَذَبَتْهُ نَحْوَهَا.

٢. تَفْسِيرُ الْعِيَّاشِيِّ ١: ٣٠٣/٦٨١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ١: ٣٠٨.

وقد حبلت! والآن افضح في بني إسرائيل لا يشكون أنني أحبلتها، فجاء إلى امرأته وقال لها ذلك، فقالت: يا زكريا، لا تخف، فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، فأتني مريم حتى انظر إليها وأسألها عن حالها.

فجاء بها زكريا إلى امرأته، فكفى الله مريم مؤنة الجواب عن السؤال. ولما دخلت إلى أختها، وهي الكبرى ومريم الصغرى، لم تقم إليها امرأة زكريا فأذن الله تعالى ليحيى، وهو في بطن أمه، فنحس<sup>١</sup> بيده في بطنها وأزعجها، وناداه: يا أمّتي، تدخل إليك سيّدة نساء العالمين، مشتجلة على سيّد رجال العالمين فلا تقومي [إليها]! فانزعجت وقامت إليها، وسجد يحيى وهو في بطن أمه لعيسى بن مريم، فذلك كان أول تصديقه له، فلذلك قال رسول الله ﷺ في الحسن والحسين: «إنهما سيّدَا شُباب أهل الجنّة، إلّا ما كان من ابني الخالة عيسى ويحيى»<sup>٢</sup>.

﴿وَسَيِّدًا﴾ فإنما على قومه، وعلى سائر الناس في أنه لم يهّم بمعصية.

رُوي عن النبي ﷺ: «ما من نبيّ إلّا وقد عصى أو همّ بمعصية، غير يحيى فإنه لم يعص، ولم يهّم»<sup>٣</sup>.

والمراد بالمعصية، على تقدير صحّة الرواية، هو ترك الأولى.

وعن تفسير الإمام [العسكري عليه السلام]: «في تفسير (السيّد) قال: «رئيساً في طاعة الله على أهل طاعته»<sup>٤</sup>.

وعن ابن عباس: السيّد: الحليم. وقيل: الفقيه: العالم، وقيل: المتقدّم المَرْجوع إليه<sup>٥</sup>.

﴿وَحَصُورًا﴾ مُبَالِغاً في حبس نفسه عن مُشْتَهَاتِهَا مع القُدرة عليها.

رُوي أنه مرّ في صباه بصبيان فدعوه إلى اللّعب، فقال: ما للّعب خلقت<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في تفسير (الحَصُور): «هو الذي لا يأتي النساء»<sup>٧</sup>.

﴿وَنَبِيًّا﴾ صالِحاً معدوداً ﴿مِنَ﴾ الأنبياء ﴿الصّٰلِحِينَ﴾ أو ناشئاً منهم؛ لأنّه كان من أصلاب الأنبياء والصّالحاء.

١. تحسّ الدابة: طعن مؤخرها بعود أو نحوه. ٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٦٠.

٣. تفسير الرازي ٨: ٣٧. ٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧٤/٦٦٠.

٥. تفسير الرازي ٨: ٣٦. ٦. تفسير أبي السعود ٢: ٣٢، تفسير الصافي ١: ٣١٠.

٧. مجمع البيان ٢: ٧٤٢، تفسير الصافي ١: ٣١٠.

٦١٨ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

قيل: إِنَّ تَوْصِيفَهُ بِكَوْنِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ، مع أَنَّ جميع الأنبياء صَلَحَاء، مُشِيرٌ بِأَنَّ صَلَاحَهُ كَانَ أَتَمَّ مِنْ صَلَاحِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، فيكون المعنى: أَنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ. وفي الصُّلَاحِ يَنْظِمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ.

وعن تفسير الإمام عليه السلام: «ما ألحق الله صبيانا برجالٍ كاملِي العقول إلا هؤلاء الأربعة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، والحسن، والحسين عليهما السلام»<sup>١</sup>.

قَالَ رَبِّ أَتُنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ \* قَالَ رَبِّ أَجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [٤٠ و ٤١]

ثم لما كان قول جبرئيل عن الله، وجكاية لقوله، خاطب زكريا ربه **﴿قَالَ﴾** استيعاباً عادياً، أو تعجباً، أو استيفهاماً وشروراً بالولد: **﴿رَبِّ أَتُنِي يَكُونُ﴾** وكيف يحصل **﴿لِي﴾** بحسب العادة **﴿غُلَامٌ﴾** وولد ذكر **﴿و﴾** الحال أَنَّهُ **﴿قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾** في السِّنِّ، وأدركني الهرم؟

قيل: كان له ستون سنة. وقيل: خمس وستون. وقيل: سبعون. وقيل: خمس وسبعون. وقيل: خمس وثمانون. وقيل: اثنان وتسعون. وقيل: تسع وتسعون. وقيل: مائة وعشرون.

وفيه إشعارٌ بأنَّ كِبَرَ السِّنِّ، من حيثُ إِنَّهُ طَلَّاعُ الْمَوْتِ، طَالِبٌ لِلْإِنْسَانِ. ثم بعدَ ذِكْرِ قُصُورِ نَفْسِهِ، ذَكَرَ قُصُورَ زَوْجَتِهِ بقوله: **﴿وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾** لَمْ تَلِدْ أَبَدًا، والكِبَرُ والعَقْمُ مُتَافِيَانِ لِلْوِلَادَةِ غَايَةُ الْمُتَافَاةِ.

قيل: كان لزوجه مع عقمها، ثمان وتسعون سنة<sup>٢</sup>.

**﴿قَالَ﴾** الله تعالى، أَوِ الْمَلَكُ **﴿كَذَلِكَ﴾** الفعل العجيب من خَلَقَ الْوَلَدَ مِنْ شَيْخٍ فَإِنْ وَعَجُوزٍ عَاقِرٍ **﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾** أن يفعلهُ مِنْ تَعَاجِيبِ الْأَفَاعِيلِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ.

ثم ثَقُلَ أَنَّهُ جَاءَ الشَّيْطَانُ زَكْرِيَّا عِنْدَ سَمَاعَةِ الْبَشَارَةِ، فقال: إِنَّ هَذَا الصَّوْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وقد سَجَرَ مِنْكَ، فَلِذَا اشْتَبَهَ الْأَمْرُ عَلَى زَكْرِيَّا<sup>٣</sup> **﴿قَالَ رَبِّ أَجْعَلْ لِي آيَةً﴾** علامة دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ يَلِكُ الْبَشَارَةُ مِنْ

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧٤/٦٥٩، تفسير الصافي: ١: ٣١٠.

٢. تفسير الرازي: ٨: ٣٩. ٣. تفسير الرازي: ٨: ٣٩.

الوحي وكلام الملائكة، لا من لقاء الشيطان.

وقيل: إن المراد: اجعل لي علامة تدل على تحقق مسؤولي، ووقوع الحبل والعلوق؛ لأنه أمر خفي، حتى أتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حصولها<sup>١</sup>.

وقيل: إن سؤال الآية كان بعد البشارة بثلاثة أشهر. وقيل: بثلاث سنين. وهذا الاختلاف مبني على الاختلاف في التفاوت بين بين يحيى وعيسى أنه ستة أشهر أو ثلاث سنين.

ثم عقيب سؤال الآية بلا فضل ﴿قَالَ﴾ الله تعالى، أو الملك: ﴿أَتَيْتَكَ أَلَّا تَكْلَمَ النَّاسَ﴾ ولا تقدير على التلطف بغير الذكر والتسبيح والشكر ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ متواليات بلياليها ﴿إِلَّا زَمْرًا﴾ وإشارة بيد، أو رأس، أو غيرهما.

قيل: إنما جعل عجزه عن الكلام النبوي آية ليخلص أوقاته بالذكر والشكر قضاء لحق هذه النعمة العظيمة<sup>٢</sup>.

عن العياشي: عن الصادق عليه السلام: «أَنْ زَكِرًا لِمَا دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ وَلَدًا<sup>٣</sup> وَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِمَا نَادَتْهُ بِهِ، أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ اللَّهِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ آيَةَ ذَلِكَ أَنْ يُحَسِّكَ لِسَانَهُ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا أَمْسَكَ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>٤</sup>.

عن العياشي: عن أحدهما عليه السلام: «أَنَّهُ كَانَ يُؤْمِنُ بِرَأْسِهِ»<sup>٥</sup>.

وقيل: إن المراد من التكلم: كل ما أذى المراد ولو كان غير اللفظ، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً. وقيل: إنه عليه السلام عوقب بذلك من حيث سؤال الآية بعد بشارة الملائكة، فأخذ الله لسانه، وصيره بحيث لا يقدر على الكلام<sup>٦</sup>.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ في حَسْبِ لِسَانِكَ ذِكْرًا ﴿كَثِيرًا﴾ أداءً لَشُكْرِ النُّعْمَةِ ﴿وَسَبِّحْ﴾ رَبَّكَ ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وَهُوَ مِنَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ وَهُوَ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى الضُّحَى. وقيل: إن المراد بالتسبيح هو الصلاة<sup>٧</sup>.

١. تفسير روح البيان ٢: ٣١.

٢. في المصدر: ذكرًا. ٤. تفسير العياشي ١: ٦٨٣/٣٠٥، تفسير الصافي ١: ٣١١.

٥. تفسير العياشي ١: ٦٨٤/٣٠٥، تفسير الصافي ١: ٣١١.

٦. تفسير الرازي ٨: ٤١.

٧. تفسير الرازي ٨: ٤٢، تفسير أبي السعود ٢: ٣٤.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

الْعَالَمِينَ [٤٢]

ثم عاد سبحانه إلى قصة اصطفا، مريم، عطفاً على قوله: «إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ» بقوله: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ» وفي العُدُول عن (نَادَتْ) إلى (قَالَتْ) إشعاراً بأن مريم رأت جبرئيل، فخطبها وشافها بقوله: «يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ» أولاً بأن تقبلك من أمك لخدمة المسجد بقبول حسن، وأنتبكت نباتاً حسناً، ورباك في حجر زكريا، ورزقك من فواكه الجنة، وأكرمك بكرامات سنية.  
عن الباقر عليه السلام: «معنى الآية: اصطفاكِ من ذُرِّيَةِ الأنبياء»<sup>٢</sup>.

«وَطَهَّرَكِ» من رجس الكُفْرِ، ودَسِّ المعاصي، وردائِل الأخلاق الرُّوحانية، وذمائم الصفات النُّفسانية، والشَّهوات الحيوانية، ومُسيِس الرُّجَال، والأنجاس الجِسمانية مِنَ الحَيْضِ والنَّفَاسِ وغيرهما مِنَ الأذى.

وعن الباقر عليه السلام: «طَهَّرَكِ مِنَ السَّفَاحِ»<sup>٣</sup>.

«وَاصْطَفَاكِ» آخِراً وَفَضَّلَكِ «عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» بأن وَهَبَ لكَ عَيْسَى مِنْ غَيْرِ أَب - كما عن الباقر عليه السلام ما يَقْرُبُ مِنْهُ<sup>٤</sup> - وَشَرَّفَكَ بِشُجْبَتِهِ وَخِدْمَتِهِ إِيَّاكَ، وَجَعَلَكَ وَابِتَكَ آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

في نقل كلام الفخر قال الفخر الرازي: رَوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ، وَأَسِيَّةُ الرَّازِي وَرَدَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ، وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِنَّ السَّلَامُ».

ثم قال: فقيل: هذا الحديث دلٌّ على أن هؤلاء الأربع أفضل من سائر النساء، وهذه الآية دلَّت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل، وقول مَنْ قال: المراد أنها مصطفاة على عالمي زمانها، فهذا ترك للظاهر<sup>٥</sup>.

أقول: بل هو عمَلٌ بِنَصِّ النَّبِيِّ ﷺ، في الرواية التي تَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، من قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ شَبِيهَةً بِسَيِّدَةِ [نساء] بَنِي إِسْرَائِيلَ»<sup>٦</sup> فإنه صريحٌ في أن سيادتها مُتَخَصَّةٌ بِنِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وقد دلَّت الروايات الكثيرة من طرق أصحابنا على أن فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ أفضل من الكل.

١. آل عمران: ٣٥/٣. ٢. مجمع البيان ٢: ٧٤٦، تفسير الصافي ١: ٣١١.

٣. مجمع البيان ٢: ٧٤٦، تفسير الصافي ١: ٣١١. ٤. نفس المصدر.

٥. تفسير الرازي ٨: ٤٣.

٦. البداية والنهاية ٦: ١١٥، الدر المنثور ٢: ١٨٦.

في أن فاطمة كانت (العلل) عن الصادق عليه السلام: «سَمِيتُ فاطمة مُحَدَّثَةً؛ لأنَّ الملائكة كانت تهبط من أفضل من مريم السماء ثنّادها كما ثنّادي مريم بنت عمران، فتقول: يا فاطمة، إنَّ الله اضطفاك وطهرَك واضطفاك على نساء العالمين، يا فاطمة اقنتي لرَبِّك وأشجدي وأزكعي مع الرَّاكعين، فثدَّنهنَّ ويحدِّثونهنَّ، فقلتُ لهنَّ ذات ليلة: أليست المفضَّلة على نساء العالمين مريم بنت عمران؟ فقالوا: إنَّ مريم كانت سيِّدة نساء عالمها، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ جعلك سيِّدة نساء عالمك وعالمها، وسيِّدة نساء الأوَّلين والآخريين»<sup>١</sup>.

مُضافاً إلى أنَّ فضائلها الخاصَّة بها - من كُؤن وإلدها رسول الله ﷺ وخاتم النَّبيِّين، وأنها زُوجه التي بينَ جَنَّتَيْهِ، وأحبَّ الخلق إليه، وأنَّ وإلدها خديجة سيِّدة نساء العالمين، وتربَّتها في حجرهما، وأنَّ زُوجها علي بن أبي طالب، وهو بَصَّ الكتاب نفس الرُّسول، وبَصَّ النبي ﷺ سيِّد العَرَب، ووَلَّداها الحَسَنُ عليه السلام والحُسَيْنُ عليه السلام سيِّدا شباب أهل الجَنَّة، ومعارِفها وعِلْمها معارف أبيها مُقتبسة ومأخوذة منه، وشريعتهما أكمل الشَّرائع، ودُرَّتِيهما أفضل الدَّراري، وكونها أعبد أهل زمانها، وكانت مشيتها مشية أبيها، وكونها مُطهِّرة بَصَّ آية التُّطهير - تدلُّ على أنَّها أفضل، حيثُ إنَّه لا تقاس هذه الفضائل بفضائل مريم التي هي بنت عمران وحَنَّة، والمربَّاة في حجر زكريَّا، والوالدة لعيسى المُنطع تَسْلها به، العالمة بشريعة وإلدها وشريعة مَنْ قَبْلها.

مع أنَّ فضيلة هذه الأُمَّة على سائر الأمم مُقتضية لأنَّ يكون نبيُّها أفضل من سائر الأنبياء، ووَصِيُّ نبيِّها أفضل من سائر الأوصياء، وشَرَعُها أكمل من سائر الشَّرائع، ومعارِفها أَتَمُّ من معارف سائر الأمم، وسيِّدة نساها أفضل من سيدات نساء سائر الأمم.

### يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِمِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [٤٣]

ثمَّ ناداها جبرئيل بعدَ تذكيرها بالنَّعم، ترغيباً لها في الطَّاعة: «يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي» وقُومي إلى العبادة، أو أطيلي القيام فيها شكراً «لِرَبِّكِ» الذي أنعم عليك بالنَّعم العظام «وَأَسْجُدِي» وعفري خدك خُضوعاً له. وإنَّما قدَّم الأمر بالسُّجود على الأمر بالرُّكُوع بقوله: «وَأَزْكِمِي» لكون السُّجود غاية الخُضوع، حال كونك «مَعَ الرَّاكِعِينَ» وفي جماعتهم، وقيل: إنَّ المعنى: ازكعي كركوعهم<sup>٢</sup>. وفيه



إشعاراً بكمالها، حيث عدّها في عدّاد الرجال، حيث قال: (مَعَ الرَّاكِعِينَ) وَلَمْ يَقُلْ: (مَعَ الرَّاكَعَاتِ).  
وقيل: إنّ المراد بالقُتُوت: إدامة العبادة، وبالسُّجود: خصوص الصلاة، والتَّكَيُّ عنها، لكونه أفضل أركانها، وبالرُّكُوع: الخُشُوع والإخبات.<sup>١</sup>  
رُوي أنّها لما أُمِرَتْ بذلك قَامَتْ في الصَّلَاة حَتَّى تَوَرَّتَ قَدَمَاهَا<sup>٢</sup>، وكذلك رُوي في حَقِّ فاطمة عليها السلام<sup>٣</sup> كما رُوي في حَقِّها كُلِّ فضيلة كانت لمريم مِنْ نُزُول مائدة الجَنَّة لها، ومُحادثة الملائكة<sup>٤</sup>، والاجتهاد في العبادة، والرُّهْد في الدنيا، وغير ذلك.

ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ  
يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ [٤٤]

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة حَنَّة وزكريّا، ومريم وعيسى، يكون ﴿مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ لا طريق لأخذ إلى العلم به إلاّ الوحي، ونحن ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونُزِّلُهُ بواسطة جِبْرِيل بَيَان فيه الإعجاز.  
ثمّ أنّه تعالى - بعدَ وَضُوح انحصار طريق العلم بالقضايا الماضية في قراءة الكُتُب والسَّماع مِنْ العالم، أو المشاهدة، أو الوحي، وبداهة كَوْنِهِ عليه السلام أَمِيّاً لم يقرأ كتاباً، ولم يصحّب عالماً - قَرَّرَ كَوْنُ عِلْمِهِ عليه السلام بهذه القضايا بالوحي بنفْيِ مشاهدته بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ حاضراً ﴿لَدَيْهِمْ﴾ حَتَّى تَطْلُعَ على قَضايَاهم بالمشاهدة، وما كُنْتَ شَاهِداً ﴿إِذْ يَقُولُونَ﴾ وَحِينَ يَتَذَكَّرُونَ في الماء ﴿أَفَلَا مَهْمُ﴾ التي كانوا يَكْتُبُونَ بها التَّوْرَةَ، لِيَقْرَعُوا بها، وليَعْلَمُوا ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ويتشَرَّفَ بِخِصانتها وخدمتها، قيل: اختاروا تلك الأقلام للقرعة تَبَرُّكاً بها ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ حاضراً ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وَحِينَ يَتَنَازَعُونَ في شأنها تنافساً في كُفَّائَتِها، والتَّعَهُّد للقيام بتدبير أمورها، وحِفْظ مَصَالِحها.  
ويَحْتَمَلُ أن يكون هذا الكلام مَسْوقاً لِبَيَان إظهار نهاية غرابته، ونهاية أعجوبته.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٣٥، تفسير روح البيان ٢: ٣٣.

٣. المناقب/لابن شهر آشوب ٣: ٣٤١، مقتل الحسين/للخوارزمي ١: ٨٠، ربيع الأبرار/للزمخشري ٢: ١٠٤.

٤. الدر المنثور ٢: ١٨٦، البداية والنهاية ٦: ١١٥، أمالي الطوسي: ٦١٤ - ١٢٧١/٦١٥ و١٢٧٢.

٥. علل الشرائع ١: ٢١/١٨٢، دلائل الإمامة: ٢٠/٨٠.

### مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [٤٥]

ثم أنه تعالى بعد ذكر اصطفاء مريم بالكلمات النفسانية والكرامات الفارقة، شرع في بيان قصة ولادة عيسى بقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ﴾ وقد مر أن المراد خصوص جبرئيل - على ما قيل -: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ ويُسَرِّ قَلْبِكَ بِالْإِخْبَارِ ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ تامة كائنة ﴿مِنْهُ﴾ ويُفَرِّحُكِ بِوَلَدٍ يَهَبُهُ لَكَ، بإرادته التكوينية التي يُعَبِّرُ عنها بكلمة (كُنْ) من غير مبادئ عادية ﴿أَسْمُهُ﴾ عند الله ﴿الْمَسِيحُ﴾ قيل: هو مُعَرَّبٌ مَشِيخاً بالعبرية، ومعناه: المبارك<sup>١</sup>.

والمراد من لفظ الاسم هنا، ما يحكى عن ذاتٍ مُعَيَّنَةٍ، ولو كان لقباً وأما علمه فهو ﴿عِيسَى﴾ قيل: هو مُعَرَّبٌ إِيشوع<sup>٢</sup>، وكُنْيَتُهُ ﴿أَبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهو يكون ﴿وَجِهَاً﴾ وشرافاً ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بِمَنْصِبِ النُّبُوَّةِ، ومطاعية النَّاسِ، ﴿وَوِي﴾ فِي ﴿الْآخِرَةِ﴾ بِالشَّفَاعَةِ، وَعُلُوِّ الدَّرَجَةِ فِي الْجَنَّةِ، وَمَعْدُوداً ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله، قيل: فيه إشارة إلى رَفَعِهِ إِلَى السَّمَاءِ<sup>٣</sup>.

### وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ [٤٦]

ثم بشرها بكمال علمه بقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بكلمات الأنبياء الجامعة للحكمة والموعظة، حال كونه طفلاً كائناً ﴿فِي الْمَهْدِ وَ﴾ كونه ﴿كَهْلًا﴾ بالغاً إلى كمال البشرية، من غير تفاوت بين الحالين، وهذا من أعظم معجزاته.

بل يُقَالُ أَنَّهُ قَالَتْ مَرْيَمُ: إِذَا خَلَوْتُ أَنَا وَعِيسَى، حَدَّثَنِي وَحَدَّثْتُهُ، فَإِذَا شَغَلَنِي عَنْهُ إِنْسَانٌ كَانَ يُسَبِّحُ فِي بَطْنِي وَأَنَا أَسْمَعُ<sup>٤</sup>.

وفي ذكر أحواله المختلفة إشارة إلى أنه بمنزلة من الألوهية.

في نقل إنكار النصارى تلکم عيسى في المهد وردة  
قيل: إن النصارى أنكرت تكلمه في المهد، ولو كانت هذه المعجزة لتواترت بينهم، وكانوا أحق بمعرفتها من غيرهم، ولا يمكن منهم إخفاؤها مع إفراطهم في محبته، حتى ذهبوا إلى ألوهيته.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٣٧.

٥ و ٦. تفسير الرازي ٨: ٥٢.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.

وفيه: أَنَّ الْقَدَرَ الثَّابِتَ مِنْ تَكْلَمِهِ فِي الْمَهْدِ، مَا كَانَ مِنْهُ لِبَرَاءَةِ أَمِّهِ مِنَ الْفَحْشَاءِ<sup>١</sup> بَعْدَ اعْتِرَاضِ الْيَهُودِ عَلَيْهَا وَإِشَارَتِهَا إِلَيْهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾<sup>٢</sup> إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ. وَعَلَى هَذَا يُمَكِّنُ كَوْنُ الْحَاضِرِينَ عِنْدَهُ قَلِيلاً مِنَ الْيَهُودِ الْمُعَانِدِينَ، فَأَخَفُوا هَذِهِ الْمُعْجِزَةَ عِبَاداً، أَوْ خَوْفاً مِنْ تَكْذِيبِ سَائِرِ الْيَهُودِ.

وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ بُلُوغِهِ فِي الْعُمُرِ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ، وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ لَمْ يَطْلُبُوا عَلَى كَرَامَاتِهِ السَّابِقَةِ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ مُكْتَوِماً إِلَى أَنْ أَخْبِرَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ أَنَّهُ يُقَالُ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ عَلَى النَّجَاشِيِّ سُورَةَ مَرْيَمَ، قَالَ النَّجَاشِيُّ: لَا تَفَاوَتْ بَيْنَ وَاقِعَةِ عِيسَى وَبَيْنَ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْكَلَامِ بِدَرَجَةٍ<sup>٣</sup>.

وَأَمَّا تَكْلَمُهُ فِي الْكُهُولَةِ، فَقَدْ قَالَ جَمَعَ: إِنَّهُ يَكُونُ بَعْدَ نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ: حَيْثُ إِنَّ سِنَ الْكُهُولَةِ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَهُوَ ﷺ [قَدْ] رُفِعَ قَبْلَ بُلُوغِهِ ذَلِكَ السِّنَّ<sup>٤</sup>.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ عُمُرُهُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَكَثَ فِي رِسَالَتِهِ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، وَفِي قَوْلٍ: ثَلَاثَ سِنِينَ وَسِتَّةَ أَشْهُرَ، ثُمَّ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ<sup>٥</sup>. وَلِذَا قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ نَقْصٌ فِي نُزُولِهِ مِنَ السَّمَاءِ<sup>٦</sup>. وَقَالَ جَمَعَ: إِنَّ الْكَهْلَ فِي اللُّغَةِ: مَا اجْتَمَعَ قُوَّتُهُ وَكَمَلَتْ شَبَابُهُ<sup>٧</sup>، وَهَذَا الْحَالُ فِي الْإِنْسَانِ يَبْلُوغُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَى حَالِ الزُّوْفِ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ إِلَى أَرْبَعِينَ، فَمَبْدَأُ الْكُهُولَةِ ثَلَاثُونَ، وَمُنْتَهَاهَا أَرْبَعُونَ. وَعَلَى هَذَا، كَانَ بَعَثُهُ فِي الْكُهُولَةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ وَالْأَوْفَقُ بِالْآيَةِ.

ثُمَّ مَدَحَهُ شَبَّاحَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَ﴾ هُوَ ﴿مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ قِيلَ: فِي ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ بَعْدَ الْحَالَاتِ الثَّلَاثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَعْظَمُهَا: حَيْثُ إِنَّ الْمَرْءَ لَا يَكُونُ صَالِحاً عَلَى الْإِطْلَاقِ، إِلَّا بِكَوْنِهِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَثُرُوكِهِ مُوَاضِئاً عَلَى النَّهْجِ الْأَصْلَحِ الْأَكْمَلِ<sup>٨</sup>. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ ذَلِكَ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ، وَكَمَالَ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ.

قَالَتْ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَكْ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [٤٧]

٢. مريم: ٣٠/١٩. ٣. تفسير الرازي ٨: ٥٢. ٤. ٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.

٦. تفسير الرازي ٨: ٥٢. ٧. تفسير الرازي ٨: ٥١. ٨. تفسير روح البيان ٢: ٣٥.

ثم كانه قيل: فما قالت مريم بعد تلك الإشارة؟ فقال سبحانه: ﴿قَالَتْ﴾ مريم - استيعاداً لوقوع هذا الأمر الخارق للعادة، واستيعظاماً لقدرة الله، أو استيفساراً من أنه [قد] يكون الولد بسبب التزويج، أو بغيره -: ﴿رَبِّ أُنْثَىٰ يَكُونُ﴾ ومن أين يوجد ﴿لِي وَلَدٌ﴾؟ إذ هو متوقّف على مباشرة الفحل ﴿وَ﴾ أنا إلى الآن ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي﴾ ولم يقربني ﴿بَشْرٌ﴾ وهذه حالة ثنافية للولادة على حسب العادة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو جبرئيل عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الخلق العجيب الخارق للعادة ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أن يخلقه. ولما كان لفظ الخلق مشعراً بالاختراع - ولذا كان ذكره أنسب بولادة العذراء من غير أب، من ولادة عَجُوزٍ عاقرٍ من شَيْخٍ فإن هَرَمَ - عقبه ببيان كيفية الاختراع بقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ﴾ الله وحتم ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور بالإرادة التكوينية، وتمّ صلاح وجود شيءٍ من الأشياء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ وهو كناية عن تعلق الإرادة التكوينية بوجوده ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجد من غير توقّف على مادة ومدة، ومن غير حاجة إلى

في كيفية احتمال مؤنة وعدة.

مريم ومكالمه يوسف معها  
عن ابن عباس عليه السلام: أن مريم كانت في غرفة، قد ضربت دونها سترًا، إذا هي برجل عليه ثياب بيض، وهو جبرئيل عليه السلام تمثل لها بشراً سويّاً، أي تام الخلق، فلما رآته قالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾<sup>١</sup> ثم نفخ في جيب درعها، حتى وصلت النفحة إلى الرّيح فاحتبلت<sup>٢</sup>.

وعن وهب: أنه كان معها ذو قرابة يقال له يوسف النّجار، وكان يوشف هذا يستعظم ذلك، فإذا أراد أن يتهمها ذكر صلاحها، وإذا أراد أن يبرئها رأى ما ظهر عليها، فكان أول ما كلمها أن قال لها: قد دخل في صدري شيء أردت كتمان، فغلبني ذلك، فرأيت الكلام أشفى لصدري. قالت: قل. قال: فحدثني هل يبث الزرع من غير بذر؟ قالت: نعم. قال: فهل يبث شجر من غير أصل؟ قالت: نعم. قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، والبذر يومئذ إنما صار من الزرع الذي أنبت الله من غير بذر، ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير أنثى ولا ذكر. فلما قالت له ذلك، وقع في نفسه أن الذي بها شيء أكرمها الله به<sup>٣</sup>.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ \* وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ

فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِيَ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ  
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ [٤٨ و ٤٩]

ثُمَّ أَنْ جَبْرَيْلُ بَعْدَ أَنْ بَشَّرَهَا بِوِلَادَةِ عِيسَى بِقَوْلِهِ: ﴿يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾<sup>١</sup> عَطَفَ عَلَيْهِ تَبَشِيرَهَا  
بِكَمَالِهِ الْعِلْمِيِّ، وَمَرْتَبَةِ رِسَالَتِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ﴾ السَّمَاءِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى آدَمَ وَمَنْ بَعْدَهُ،  
وَقِيلَ: الْمُرَادُ: الْكِتَابَةُ وَالْخَطُّ<sup>٢</sup>، ﴿وَيَعْلَمُ الْحِكْمَةَ﴾ وَالْعُلُومَ الْعَقْلِيَّةَ وَالشَّرْعِيَّةَ، وَتَهْذِيبَ الْأَخْلَاقِ  
﴿وَالنُّوْرَ﴾ وَالْإِنْجِيلَ، وَإِفْرَادَهُمَا بِالذِّكْرِ بَعْدَ ذِكْرِ جِنْسِ الْكِتَابِ الشَّامِلِ لِهَٰمَا، لِزِيَادَةِ فَضْلِهِمَا،  
وَأِنَاْفَتِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا.

رُوي أَنَّ عِيسَى ﷺ حَفِظَ التَّوْرَةَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَكَانَتْ مَرْيَمُ تَسْمَعُ عِيسَى وَهُوَ يَدْرُسُ فِي  
بَطْنِهَا<sup>٣</sup>.

نَسِيَ بَيَانَ زَهْدٍ ثُمَّ لَمَّا شَرَفَ عَالَمُ الشُّهُودِ أَعْطَاهُ [اللَّهُ] الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ الشَّعْرَ، [وَأَنَّ  
عِيسَى ﷺ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَسْتَنِيرُ الْقَمَرَ، وَقَدْ كَانَ لَهُ قَدَحٌ يَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ، (وَيَتَوَضَّأُ) فِيهِ فَرَأَى  
رَجُلًا يَشْرَبُ بِيَدِهِ. فَقَالَ لِنَفْسِهِ: يَا عِيسَى، هَذَا أَزْهَدُ مِنْكَ، فَرَمَى الْقَدَحَ وَكَسَرَهُ.

وَاسْتَظَلَّ يَوْمًا فِي ظِلِّ خَيْمَةِ عَجُوزٍ؛ وَكَانَ قَدْ لَحِقَهُ حَرٌّ شَدِيدٌ، فَخَرَجَتْ الْعَجُوزُ فطَرَدَتْهُ، فَقَامَ وَهُوَ  
يَضْحَكُ فَقَالَ: يَا أُمَّةَ اللَّهِ، مَا أَنْتِ أَقَمْتِنِي، وَإِنَّمَا أَقَامَنِي الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ لِي نَعِيمًا فِي الدُّنْيَا وَلَمَّا رُفِعَ إِلَى  
السَّمَاءِ، وَجَدَ عِنْدَهُ إِثْرَةَ كَانَ يَرْفَعُ [بِهَا] تَوْبَهُ، فَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ نَزُولَهُ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ<sup>٤</sup>.

﴿وَيَبْعَثُهُ﴾ (رَسُولًا) فِي حَالِ الصَّبَا، أَوْ بَعْدَ الْبُلُوغِ، أَوْ بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ حَالِ  
كُؤُونِهِ قَائِلًا: ﴿أَتَى قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿بِآيَةٍ﴾ عَظِيمَةٍ، وَمُعْجَزَةٍ بَاهِرَةٍ، دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ تَبَوُّتِي،  
كَأَنِّي مِنْ رُؤُسِكُمْ، وَمُكْمَلُ ثَقُوسِكُمْ، وَمُصْلِحُ أُمُورِ دُنْيَاكُمْ وَأَخِيرَتِكُمْ.  
قِيلَ: إِنَّ أَوَّلَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُوشَفَ، وَأَخِيرَهُمْ عِيسَى<sup>٥</sup>.

رُوي فِي (الْإِكْمَالِ): عَنْ الْبَاقِرِ ﷺ: «أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ خَاصَّةً، وَكَانَتْ تُبَوُّتُهُ بَيْتِ

١. آل عمران: ٤٥/٣. ٢. تفسير الرازي ٨: ٥٤، تفسير روح البيان ٢: ٣٧. ٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٦.

٤. تفسير روح البيان ٢: ٣٦. ٥. تفسير أبي السعود ٢: ٣٨، تفسير روح البيان ٢: ٣٧.

المقدس»<sup>١</sup>.

ثم بين الآية وفصلها بقوله: ﴿أَنِّي أَخْلَقْتُ﴾ وَأَصَوَّرَ وَأَسَوَّيَ ﴿لَكُمْ﴾ شَيْئاً ﴿مِّنَ الطَّيْنِ﴾ بِهَيْئَةٍ وَصُورَةٍ ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ ومثل صورته ﴿فَأَنْفَعُ فِيهِ﴾ فَنَلِجُ فِيهِ الرُّوحَ ﴿فَيَكُونُ طَيْراً﴾ حَيّاً طَيَّاراً كسائر الطيور ﴿يَاذَنُ اللَّهُ﴾ وأمره وقدرته، لا بقُدْرَةِ مَنِي.

رُوي أَنَّهُ ﷺ لَمَّا ادَّعَى النَّبُوَّةَ، وَأَظْهَرَ الْمُعْجَزَاتِ، طَالَبُوهُ بِخَلْقِ الْخَفَاشِ، فَأَخَذَ طَيْناً وَصُورَةً وَنَفَخَ فِيهِ، فَإِذَا هُوَ يَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، قَالَ وَهَبَ: كَانَ يَطِيرُ مَا دَامَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَإِذَا غَابَ عَنِ أَعْيُنِهِمْ سَقَطَ مَيْتاً، لِيَتَمَيَّزَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى<sup>٢</sup>.

قيل: إِنَّمَا طَلَبُوا خَلْقَ الْخَفَاشِ؛ لِأَنَّهُ أَكْمَلَ الطَّيْرَ خَلْقاً، وَأَبْلَغَ دَلَالَةً عَلَى الْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَذَيَّأْ وَأَسْنَاناً، وَهِيَ تَجِيضُ وَتَطْهَرُ وَتَلِدُ كسائر الْحَيَوَانَاتِ، وَتَضَحَّكُ كَمَا يَضْحَكُ الْإِنْسَانُ، وَتَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ، وَلَا يُبْصَرُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ وَلَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا يَرَى فِي سَاعَتَيْنِ سَاعَةً بَعْدَ الْغُرُوبِ، وَسَاعَةً بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ<sup>٣</sup>.

قيل: لَمْ يَخْلُقْ عَيْسَى غَيْرَ الْخَفَاشِ. وَقِيلَ: خَلَقَ أَنْوَاعاً مِنَ الطَّيْرِ<sup>٤</sup>.  
﴿وَأُتِرِئُ الْأَكْمَةَ﴾ وَمَنْ وُلِدَ أَعْمَى، أَوْ أَعْوَجَ الْعَيْنِ ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وَهُوَ الْمُبْتَلَى بِمَرَضِ الْبَرَصِ، وَهُوَ لَوْنٌ مُخْتَلِطٌ حُمْرَةً وَبَيَاضاً أَوْ غَيْرَهُمَا، وَلَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنْ فَسَادِ الْمِزَاجِ وَخَلَلٍ فِي الطَّبِيعَةِ، وَلَمْ تَنْفِرِ الْعَرَبُ مِنْ شَيْءٍ نَفَرَتْ مِنْهُ وَتَخْصِيصِ هَذَيْنِ الدَّاءَيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا مِمَّا أُعِيى الْأَطْيَاءُ، مَعَ كَوْنِهِمْ فِي غَايَةِ الْحَذَاقَةِ [فِي] زَمَنِهِ ﷺ.

قيل: كَانَ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ﷺ أُلُوفٌ مِنَ الْمَرْضَى، مَنْ أَطَاعَ مِنْهُمْ أَتَاهُ، وَمَنْ لَمْ يُطِيعْ أَتَاهُ عَيْسَى ﷺ، وَمَا يَدَاوِيهِمْ إِلَّا بِدُعَاءٍ<sup>٥</sup>.

﴿وَأُخِي الْمَوْتَى يَاذَنُ اللَّهُ﴾ وَتَكَرَّرَ (يَاذَنُ اللَّهُ) لِلْإِهْتِمَامِ بِدَفْعِ تَوَهُمِ الْآلُوهِيَةِ.

قيل: سَأَلُوا جَالِثُوسَ عَنْهُ ﷺ، فَقَالَ: الْمَيِّتُ لَا يُحْيَا بِالْعِلَاجِ، فَإِنْ كَانَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِطَبِيبٍ. فَطَلَبُوا أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى، فَأَحْيَا أَرْبَعَةً أَنْفُسَ: [أَحْيَا] فِي أَنْ عَيْسَى أَحْيَا أَرْبَعَةً مِنَ الْأَمْوَاتِ

١. كمال الدين: ٢/٢٢٠، تفسير الصافي ١: ٣١٢.

٢. تفسير الرازي ٨: ٥٦، تفسير روح البيان ٢: ٣٧، وفي تفسير روح البيان: لِيَتَمَيَّزَ فِعْلُ الْخَلْقِ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ.

٣. تفسير روح البيان ٢: ٣٧. ٤. تفسير الرازي ٨: ٥٦. ٥. تفسير روح البيان ٢: ٣٨.

العاذر، وكان صديقاً له، فأرسل أخته إلى عيسى عليه السلام أن احاك العاذر يموت فاته، فكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه، فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطليقي بنا إلى قبره [فانطلقت معهم إلى قبره] وهو [في] صخرة مطبقة، فقال عيسى عليه السلام: اللهم رب السماوات [السبع] والأرضين السبع، إنك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك، وأخبرهم أنني أحبي الموتى، فأخبي العاذر، فقام العاذر وودعه<sup>١</sup> يقطر، فخرج من قبره، وبقي وولد له.

وأحيا ابن عجوز مَرَّ به ميتاً على عيسى عليه السلام، على سرير يحمله، فدعا الله عيسى عليه السلام، فجلس على سرير، ونزل عن أعناق الرجال وليس ثيابه، وحمل السرير على عنقه، ورجع إلى أهله، فبقي وولد له. وأحيا ابنة العاشر الذي يأخذ العشور، قيل له: أخيها، وقد ماتت أمس، فدعا الله تعالى، فعاشت، وبعثت وولدت لها.

فقالوا: يخبي من كان قريب العهد من الموت، فلعلهم لم يموتوا، بل أصابهم سكتة، فأخبي لنا سام بن نوح، فقال عيسى: دُلوني على قبره، فخرج والقوم معه حتى انتهى إلى قبره، فدعا الله تعالى بالاسم الأعظم، فخرج من قبره وقد شاب رأسه، فقال عيسى: كيف شاب رأسك، ولم يكن في زمانك شيب؟ قال: يا روح الله، لما دعوتني سمعت صوتاً يقول: أجب روح الله، فظننت أن القيامة قد قامت، فمِنَ هَؤُلَ ذَلك قد شاب رأسي. فسأله عن النزع، فقال: يا روح الله، إن مرارته لم تذهب من حنجرتي وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدقوه فإنه نبي، فأمن به بعضهم وكذبه آخرون، ثم قال له: شت، قال: بشرط أن يعيدني الله سكرات الموت، فدعا الله ففعل<sup>٢</sup>.

وعن (الكافي) والعياشي: عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ هل كان عيسى بن مريم [قد] أحيا أحداً بعد موته، حتى كان له أكل وِرْزُق ومُدَّة وولَد؟ فقال: «نعم، إنه كان له صديق مؤاخ له في الله تعالى، وكان يمر به وينزل عليه، ثم إن عيسى غاب عنه حيناً، ثم مر به ليسلم عليه، فخرجت إليه أمه فسألها عنه، فقالت: مات يا رسول الله، فقال: أفتحيين أن تَرِيه؟ قالت: نعم، فقال لها: فإذا كان غداً فأتيك حتى أخبيه لك بإذن الله تعالى، فلما كان من الغد أتاه، فقال لها: انطليقي معي إلى قبره، فانطلقا حتى إذا أتيا قبره، فوقف [عليه] عيسى عليه السلام ثم دعا الله، فانفرج القبر وخرج ابناً حياً، فلما رآته أمه وراها بكيا فرجهما عيسى عليه السلام فقال: أتحب أن تبقى مع أمك في الدنيا؟ فقال: يا نبي الله، بأكل وِرْزُق ومُدَّة، أم

١. وذلك الميت: ما يسيل منه.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٨.

بغير أكلٍ ولا رزقٍ ولا مدّة؟ فقال له عيسى: بأكلٍ ورزقٍ ومدّة، وتعمّر عشرين سنة، وتزوّج ويولد لك. قال: نعم [إذا] قال: فدفعه عيسى إلى أمّه، فعاش عشرين سنة، [وتزوّج] وولد له<sup>١</sup>.  
ثقل أنّه كان يحيي الموتى بـ(يا حيّ ويا قيوم)<sup>٢</sup>.

نبي إحياء خاتم  
عليه السلام<sup>٣</sup>، وفي (التوحيد): عن الرضا عليه السلام، في حديث: «لقد اجتمعت قُرَيْش إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يحيي لهم موتاهم، فوجه معهم علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له: أذهب إلى الجبّانة<sup>٤</sup>، فنادِ بأسماء هؤلاء الرّفط الذين يسألون عنهم بأعلى صوتك: يا فلان، [ويا فلان و] يا فلان، يقول لكم محمّد [رسول الله ﷺ]: قوموا بإذن الله، فقاموا ينفضون الثراب عن رؤوسهم، وأقبلت قُرَيْش تسألهم عن أمورهم، ثم أخبروهم أن محمّداً ﷺ قد بعث نبياً، وقالوا: ودّدنا أنّا كنّا أدركناه، فتؤمّن به» الخبر.

ومن المعلوم أن هذا الإحياء أعجب من إحياء عيسى عليه السلام بمراتب.  
وزوّي عنهم عليه السلام أنّه ﷺ أبرا الأكمّة والأبرص والمجانين، وكلّمه البهائم والطير [والجن] والشياطين<sup>٥</sup>.

ثم أخبر الله بأعظم معجزاته الباهرة، وهو إخباره بالمُعْجِيّات، بقوله: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ﴾ وأخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من أنواع المأكولات ﴿وَمَا تَدْخُلُونَ﴾ من شيء، وتخفونه من مَناع ﴿فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من الخَوَارِق للعادات ﴿لَايَةً﴾ عظيمة ودليلاً واضحاً ﴿لَكُمْ﴾ على صدق دعواي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بآية من الآيات.

عن القمّي: عن الباقر عليه السلام: «أنّ عيسى عليه السلام كان يقول لبني إسرائيل: إنّي رسول الله إليكم، وإنّي «أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ» والأكمه: هو الأعمى، قالوا: ما نرى الذي تصنع إلّا سِحْراً، فأرنا آية تعلم أنّك صادق، قال: أرايتكم إن أخبرتكم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ يقول: ما أكلتم في بيوتكم قبل أن تخرجوا، وما

١. الكافي ٨: ٥٣٢/٣٣٧، تفسير العياشي ١: ٦٩٠/٣٠٨، تفسير الصافي ١: ٣١٣.

٢. تفسير روح البيان ١: ٤٠٠.

٣. كذا في تفسير الصافي ١: ٣١٤ أيضاً، والحديث الآتي مروى في الاحتجاج عن الامام الرضا عليه السلام.

٤. الجبّانة: المقبرة. ٥. التوحيد: ١/٤٢٣، الاحتجاج: ٤١٩، تفسير الصافي ١: ٣١٤.



٦٣٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

اذخرتم بالليل، تعلمون أنني صادق؟ قالوا: نعم، وكان يقول: أنت أكلت كذا وكذا، وشربت كذا وكذا، ورفعت كذا وكذا، فمنهم من يقبل منه فيؤمن، ومنهم من [ينكر] فيكفر<sup>١</sup>.

قيل: ويخير الصبيان وهو في المكتب، بما يصنع أهلهم، وبما يأكلون ويخشون لهم، وكان الصبي ينطلق إلى أهله ويكي عليهم حتى يغطوه ما خباؤاله، ثم قالوا الصبيانهم: لا تلعبوا مع هذا الساحر. الخبر<sup>٢</sup>.  
وَمَنْ وَدَّعَ      ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ صُدُورَ هَذِهِ الْمُعْجَزَةِ مِنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى.

فإن قيل: إن طُرُقَ الإخبار بالغيب لا تنحصر بالوحي والإعجاز، بل يمكن بطريق علم التَّجْوِم والجُفَر.

قلنا: هذه الطُّرُق محتاجة إلى التَّعَلُّم والاستيعانة بالآيات، وتقدُّم السؤال، والتَّفَكُّر في الحِساب، وكل ذلك كان مُستغنياً في إخبار الأنبياء، فلا بد أن يكون بالوحي والإلهام.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ  
وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا  
صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ [٥٠ و ٥١]

ثم أنه ﷺ بعدما أخبر بمعجزاته وأتى بها، بين ما أرسل به بقوله: ﴿وَإِنِّي جِئْتُكُمْ لَأَكُونَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ وما تقدمني ﴿مِنَ التَّوْرَةِ﴾ وتقرير غالب أحكامها، وبيان أسرارها، وحل مشكلاتها وغوامضها، وإزالة شُبُهات مُنْكَرِهَا، ودفع التَّخْرِيفِ مِنْهَا ﴿وَلَأَحِلَّ﴾ وأرخص ﴿لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أكله في شريعة موسى من لحوم السمك، ولحوم الإبل، والشُّحُوم.

قيل: كان الأخبار قد وُضِعُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ شَرَائِعَ باطِلَةٍ، ونسبوا إلى موسى ﷺ، فجاء عيسى ﷺ ورفعها وأبطلها، وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى ﷺ<sup>٣</sup>.

ثم أن الله قد حرَّم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجِنَايَات، ثم جاء عيسى ﷺ ورفع بعض التَّشْدِيدَات عنهم.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٣٨، تفسير الرازي ٨: ٥٧.

١. تفسير القمي ١: ١٠٢، تفسير الصافي ١: ٣١٣.

٣ و ٣. تفسير الرازي ٨: ٥٩.

وقيل: إنَّ عيسى عليه السلام رَفَعَ كثيراً من أحكام التَّوراة، ولم يكن قَادِحاً في كَوْنِهِ مُصَدِّقاً بالتَّوراة<sup>١</sup>.  
عن العياشي: عن الصادق عليه السلام قال: «كان بين داود وعيسى بن مريم أربعمان سنة، وكانت شريعة عيسى عليه السلام أَنَّهُ بُعِثَ بالتَّوْحِيدِ والإِخْلَاصِ، وبما أَوْصَى به نُوح وإِبْرَاهِيمَ ومُوسَى عليه السلام، وأنزِلَ عليه الإنجيل، وأُخِذَ عليه الميثاق الذي أُخِذَ على النَّبِيِّينَ، وَشُرِّعَ لَهُ في الكِتَابِ إِقَامُ الصَّلَاةِ مع الدِّينِ، والأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَحْرِيمُ الْحَرَامِ وَتَحْلِيلُ الْحَلَالِ، وَأُنزِلَ عَلَيْهِ في الإنجيل مَوَاعِظُ وَأَمْثَالُ وَحُدُودٌ، لَيْسَ فِيهَا قِصَاصٌ وَلَا أَحْكَامُ حُدُودٍ، وَلَا فَرْصُ مَوَارِيثَ، وَأُنزِلَ [عليه] تَخْفِيفٌ مَا كَانَ [أنزل] عَلَى مُوسَى في التَّوراة، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الذي قَالَ عيسى بن مريم لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وَأَمْرُ عيسى مَنْ مَعَهُ مِمَّنْ يَتَّبِعُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَن يُوْمِنُوا بِشَرِيعَةِ التَّوراةِ وَالْإِنْجِيلِ»<sup>٢</sup>.

ثمَّ أعاد قوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ عظيمة، شاهدة على رسالتي، كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ للإِنْجِاعِ في القُلُوبِ، وازدياد التأثير في الطَّبَاعِ المألوفة بالعادات.

ثمَّ حَوَّفَهُمْ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخَافَوْهُ في تَكْذِيبِي وَمُخَالَفَةِ أَحْكَامِي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في أوامري ونواهي.

ويُحْتَمَلُ أَن يُرَادَ مِنَ الْآيَةِ التي جَاءَ بِهَا قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَضِيَ وَرَبُّكُمْ﴾ وفيه دَعْوَةٌ إلى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، وإشعارٌ بأنَّ أَوَّلَ الْكَمَالِ وأَعْلَى الْفَضَائِلِ هُوَ الْحِكْمَةُ النَّظَرِيَّةُ التي غَايَتُهَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ذَاتاً وَصِفَاتاً وَأَفْعَالاً، وفي قوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دَعْوَةٌ إلى الْكَمَالِ الثَّانِي، وَهُوَ الْحِكْمَةُ الْعَمَلِيَّةُ، وهي الْقِيَامُ بِالطَّاعَةِ، وَوُضَائِفُ التَّوْبَةِ.

ثمَّ قَرَّرَ ذَلِكَ بقوله: ﴿هَذَا﴾ الذي هَدَيْتُكُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وطريق سَوِيٍّ يُوْصِلُكُمْ إلى مَحَلِّ الْقُرْبِ، وَأَوْجِ الْكَرَامَةِ، وَمُسْتَقَرِّ الرَّحْمَةِ، وَنِعَمِ الْجَنَّةِ. وَوَجْهٌ كَوْنُهُ آيَةٌ صِدْقُهُ أَنَّ مَا دَعَا إِلَيْهِ مِمَّا يَشْهَدُ بِهِ الْعَقْلُ الْمَيِّينَ وَالْحَقُّ الذي اتَّفَقَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ

أَنْصَارُ اللَّهِ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ \* رَبَّنَا أَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ  
فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ \* وَمَكْرُؤًا لِمَكَرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [٥٢-٥٤]

ثم أنه - بعد الإشارة بولادته، وعلو مقامه، وبهور معجزاته، وحسن دعوته - بين أن الناس مع جميع ذلك، عارضوه بالكفر والجحود، بقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ وشاهد ﴿عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ بأن سيع منهم صريح الإنكار، أو يتقن به بحيث صار كالمحسوس له، وعرف عزمهم على قتله.

فيبدو ظهور أمر عيسى عليه السلام قيل: إن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة، وأنه ينسخ دينهم، فأخذوا في الطعن عليه، وصموا على قتله، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم، وأصرّوا في إيذائه وإحاشه، وطلب قتله<sup>١</sup>.

وقيل: إنه تعالى لما بعثه رسلاً إلى بني إسرائيل، جاءهم ودعاهم إلى دين الله، فتمردوا وعصوا، فخافهم واختفى عنهم، وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد عليه السلام وهو بمكة، فكان مستضعفاً، وكان يختفي من بني إسرائيل، كما اختفى النبي صلى الله عليه وآله في الغار وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله. ثم أنه عليه السلام خرج مع أمه يسحان في الأرض، فاتفق أنه نزل [في] قرية على رجل فأحسن الرجل ضيافته، وكان في المدينة ملك جبار، فجاء ذلك الرجل يوماً حزناً، فسأله عيسى عليه السلام عن السبب، فقال: ملك هذه المدينة رجل جبار، ومن عادته أنه جعل على كل رجل منا يوماً يطعمه ويسقيه هو وجنوده، وهذا اليوم نوبتي، والأمر متعذر عليّ.

فلما سمعت مريم ذلك قالت: يا بني أذع الله ليكفي ذلك، فقال: يا أمّاه، إن فعلت ذلك كان فيه الشر، فقالت: قد أحسن وأكرم، ولا بد من إكرامه. فقال عيسى عليه السلام: إذا قرب مجيء الملك فاملا قُدُورَك وخوابيك ماءً ثم أعلمني، فلما فعل ذلك دعا الله تعالى، فتحوّل ما في القُدُور طيّحاً، وما في الخوابي خمرأ، فلما جا الملك أكل وشرب، وسأله: من أين هذا الخمر؟ فتعلّل الرجل في الجواب، فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتّى أخبره بالواقعة.

فقال: إن من دعا الله حتّى جعل الماء خمرأ، إذا دعا أن يحيي الله ولدي لا بد وأن يُجاب. وكان ابنه قد مات قبل ذلك بأيام، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك، فقال عيسى عليه السلام: لا تفعل، فإنه إن عاش

كَانَ شَرًّا، فَقَالَ: مَا أَبَالِي مَا كَانَ إِذَا رَأَيْتَهُ، وَإِنْ أَحْيَيْتَهُ تَرَكْتُكَ عَلَى مَا تَفْعَل، فَدَعَا اللَّهَ عَيْسَى، فَعَاشَ الْغَلَامُ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ قَدْ عَاشَ تَبَادَرُوا بِالسَّلَاحِ وَاقْتَتَلُوا، وَصَارَ امْرُؤُ عَيْسَى مَشْهُورًا فِي الْخَلْقِ، وَقَصَدَهُ الْيَهُودُ<sup>١</sup>، وَأَظْهَرُوا الطُّغْنَ فِيهِ، وَالْكَفْرَ بِهِ<sup>٢</sup>.

فَإِذَنْ ﴿قَالَ﴾ عَيْسَى ﷺ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ وَأَعَوَانِي مِنْكُمْ؛ حَالُ كَوْنِهِ سَالِكًا وَ مُتَوَجِّهًا إِلَى اللَّهِ ﴿بِطَاعَتِهِ وَتُضَرَّةِ دِينِهِ؟﴾ ﴿قَالَ الْخَوَارِئُونَ﴾ وَهُمْ صَفْوَةُ أَصْحَابِهِ وَخُلَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

في وجه تسمية اثني عشر من أصحاب عيسى بالحواريين عن (العيون): عن الرضا ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ لِمَ سُمِّيَ الْخَوَارِئُونَ خَوَارِئِينَ؟ قَالَ: «أَمَّا عِنْدَ النَّاسِ، فَإِنَّهُمْ سَمَوْا خَوَارِئِينَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَصَارِينَ يُخْلَصُّونَ الثِّيَابَ مِنَ الرَّسَخِ بِالْعُشَلِ، وَهُوَ اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخَبْزِ الْخَوَارِ<sup>٣</sup>، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَسُمِّيَ الْخَوَارِئُونَ خَوَارِئِينَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُخْلِصِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَمُخْلَصِينَ غَيْرَهُمْ مِنْ أَوْسَاخِ الذُّنُوبِ بِالْوُغْظِ وَالتَّذْكِيرِ»<sup>٤</sup>.

وعن (التوحيد): عَنْهُ ﷺ: «أَنَّهُمْ كَانُوا اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا، وَكَانَ أَفْضَلُهُمْ وَأَعْلَمُهُمْ لَوْقًا»<sup>٥</sup>. وَقِيلَ: كَانَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ، وَبَعْضُهُمْ مِنْ صِيَادِي السَّمَكِ، وَبَعْضُهُمْ مِنَ الْقَصَّارِينَ<sup>٦</sup>، وَبَعْضُهُمْ مِنَ الصَّبَاغِينَ<sup>٧</sup>.

ثُمَّ قَالَ أَنُ عَيْسَى ﷺ لَمَّا دَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدِّينِ وَتَمَرَّدُوا عَلَيْهِ، فَرَمَاهُمْ وَأَخَذَ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ، فَمَرَّ بِجَمَاعَةٍ مِنْ صِيَادِي السَّمَكِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَمْعُونُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا أَبْنَاءُ زَبْدِي؛ وَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْخَوَارِئِينَ الْاثْنِي عَشَرَ، فَقَالَ عَيْسَى ﷺ: الْآنَ تَصِيدُ السَّمَكَ، فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي صِرْتَ بَحِيثٌ تَصِيدُ النَّاسَ لِحَيَاةِ الْأَبَدِ، فَطَلَبُوا مِنْهُ الْمُعْجِزَةَ، وَكَانَ شَمْعُونُ قَدْ رَمَى شَبَكَتَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَاءِ، فَمَا اضْطَادَ شَيْئًا، فَأَمَرَهُ عَيْسَى ﷺ بِالْقَاءِ شَبَكَتَهُ فِي الْمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى، فَاجْتَمَعَ فِي تِلْكَ الشَّبَكَةِ مِنَ السَّمَكِ مَا كَادَتْ تَمُرَّقُ مِنْهُ، فَاسْتَعَانَ بِأَهْلِ سَفِينَةٍ أُخْرَى، وَمَلَأُوا السَّفِينَتَيْنِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ آمَنُوا بِعَيْسَى ﷺ<sup>٨</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْمُلُوكِ صَنَعَ طَعَامًا وَجَمَعَ النَّاسَ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَيْسَى ﷺ عَلَى قَصْعَةٍ لَا يَزَالُ

١. في تفسير الرازي: وقصد اليهود قتله. ٢. تفسير الرازي ٨: ٦٠.

٣. كذا، والخواري، هو الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق. وخُزِرَ الخواري: الخبز المعمول من هذا الدقيق.

٤. عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ١٠/٧٩، تفسير الصافي ١: ٣١٥.

٥. التوحيد: ١/٤٢١، تفسير الصافي ١: ٣١٥، وفي التوحيد: الرقا، بدل: لوقا. ٦. القصار: المبيض للثياب.

٧. تفسير أبي السعود ٢: ٤٢. ٨. تفسير الرازي ٨: ٦١.

يأكل منها ولا تنقص، فذكروا ذلك للملك، فاستدعاه ﷺ [و] قال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا عيسى بن مريم، فترك ملكه وتبعه مع أقاربه، فأولئك هم الحواريون<sup>١</sup>.

وقيل: إنه سلمته أمه إلى صباغ، فأراد الصباغ يوماً أن يشتغل ببعض مهماته، فقال له ﷺ: ها هنا ثيابٌ مختلفةٌ قد جعلتُ لكل واحدٍ منها علامةً معينةً، فاصبغها ببتلك الألوان فغاب، فجعل ﷺ كلها في جُبٍّ واحدٍ، فقال: كوني بإذن الله كما أريد، فرجع الصباغ فسأله، فأخبره بما صنع، فقال: أفسدت عليّ الثياب! قال: قُمْ فانظُر، فجعل يُخرج ثوباً أحمر، وثوباً أخضر، وثوباً أصفر، إلى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسب ما كان يُريد، فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به ﷺ، وهم الحواريون<sup>٢</sup>.

قيل: إنهم كانوا إذا جاعوا قالوا: جُعبنا يا روح الله، فيضرب بيده الأرض، فيخرج منها لكل واحدٍ رَغيفان، وإذا عطشوا قالوا: عطشنا، فيضرب بيده الأرض فيخرج منها الماء فيشربون، فقالوا يوماً: من أفضل منا؟ قال ﷺ: أفضل منكم مَنْ يعمل بيده، ويأكل من كسبه، فصاروا يغسلون الثياب بالأجرة<sup>٣</sup>. وقيل: إنه ﷺ قال للحواريين الاثني عشر: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟» وهذا لما طلبته اليهود للقتل، وكان هو في الهرب منهم، فأراد: أَيُكْمِ حِجْبٌ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ عَلَى أَنْ يَلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي، فيقتل مكاني؛ فأجابه إلى ذلك بعض، وذلك قوله تعالى: «نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ» وخِصَّةٌ دينه، وأَعْوَانُ أنبيائه في إعلاء كلمته، ودِفَاعُ أعدائه، حيثُ إِنَّا «أَمَنَّا بِاللَّهِ» والإيمان به مُقْتَضِي لمحَبَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لبذل النفس والمال في سبيله «وَأَشْهَدُ» أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَشْهَدُ الرُّسُلُ عَلَى أُمَّهِمْ عِنْدَ اللَّهِ «يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ» لك مُتَقَادُونَ لِأَمْرِكَ، مُخْلِصُونَ فِي مُحِبَّتِكَ وِطَاعَتِكَ.

ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلَى اللَّهِ مُضْطَرِّعِينَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ: «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ» مِنَ الْإِنْجِيلِ «وَأَتَّبَعْنَا» بِقُلُوبِنَا وَجَوَارِحِنَا «الرَّسُولَ» الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَيْنَا بِالْحَقِّ، فِي جَمِيعِ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ.

ثُمَّ أَنَّهُمْ - بَعْدَ عَرْضِ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَإِظْهَارِ الْإِثْقَادِ وَالطَّاعَةِ لَهُ - سَأَلُوا رِفْعَةَ الْمَقَامِ عِنْدَ اللَّهِ، وَالدَّخُولَ فِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ الْكَرَامِ بِقَوْلِهِ: «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» لَكَ بِالْوَحِيدِ، وَلِأَنْبِيَائِكَ بِالتَّصَدِيقِ، أَوْ مَعَ أَوْلِيَ الْعِلْمِ الَّذِينَ قَرَنَتْهُمْ بِنَفْسِكَ فِي آيَةِ «شَهِدَ اللَّهُ»<sup>٤</sup>، أَوْ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمِّتِهِ الَّذِينَ هُمْ شُهَدَاءُ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>٥</sup>، أَوْ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ هُمْ شُهَدَاءُ عَلَى

١. تفسير الرازي ٦٤٨، تفسير أبي السعود ٢: ٤١.

٢. تفسير أبي السعود ٢: ٤٢.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٤١.

٤. آل عمران: ١٨/٣.

٥. مجمع البيان ٢: ٧٥٧.

أَمِهِم.

قيل: إنه تعالى قد أجاب دَعْوَتَهُمْ، وجعلهم أنبياءً ورُسلًا، فأخبروا الموتى وصنعوا ما صنع

عيسى عليه السلام.

ثم إن كفَّار بني إسرائيل أصرُّوا على عداوة عيسى عليه السلام به وسعوا خُفْيَةً في قتلِهِ، بأن وكلُّوا به من يقتله غيلةً ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بأن دبر ما يدفع القتل عنه، من رفعه إلى السماء، والقاء شَبَّهه على أحد مُحِبِّيهِ وَحَوَّارِيهِ، أو على الذي دَلَّ أعداءه عليه منهم.

قيل: إن يهوداً مَلِكَ الْيَهُودِ أراد قتل عيسى عليه السلام، وكان جَبْرَيْلُ لا يفارقه ساعة، فأمره أن يدخل بيتاً فيه رُوزَنَةٌ<sup>٢</sup>، فلما دخلوا البيت أخرجه جَبْرَيْلُ من تلك الرُوزَنَةِ، وكان قد ألقى شَبَّهه على غيره، فأخذوه وصلَّبوه<sup>٣</sup>.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ وأقواهم كيداً وتدبيراً، وأقدرهم على الإضرار بمن يريد الضرر بأوليائه.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَيَّ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ  
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٥٥]

ثم بين الله أن ذلك المكر كان ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ وحين أوحى إليه بلا واسطة جبرئيل: ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَيَّ﴾ وقابضك كاملاً من الأرض، أو متوفِّي أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم ﴿وَرَفَعُكَ إِلَيَّ﴾ وإلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي، برؤسك وجسدك ﴿وَمُطَهَّرُكَ﴾ ومخلصك ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومن سوء جوارهم، وخُبت مُرافقتهم.

قيل: إن اليهود لما عزموا على قتلِهِ، اجتمع الحواريُّون في عُقْفَةٍ، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الثُرفة، فأخبر بهم إبليس جميع اليهود، فركب منهم أربعة آلاف رجلٍ فأخذوا باب الثُرفة، فقال المسيح للحواريين: أيُّكم يخرج ويقتل ويكون معي في الجنة، فقال واحدٌ منهم: أنا يا نبي الله، فألقى عليه يذرعةً من صوفٍ وعمامةً من صوفٍ، وناولهُ عُكَّازةً، وألقى عليه شَبَّه عيسى، فخرج على اليهود

١. تفسير الرازي ٨: ٦٤. ٢. الرُوزَنَةُ: هي الكُوزة في الحائط، غير نافذة يوضع فيها المصباح، وتُسمى بالمِشكاة.

٣. تفسير الرازي ٨: ٦٥.

فَقَتْلُوهُ وَصَلُّوهُ.<sup>١</sup>

وفي رواية عن ابن عباس: فقال المَلِكُ لِرَجُلٍ خَبِثَ مِنْهُمْ: ادْخُلْ عَلَيْهِ فَاقْتِلْهُ، فَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَأَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَبْهَهُ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ، فَقَتْلُوهُ وَصَلُّوهُ.<sup>٢</sup>

وقيل: إِنَّهُ ﷺ جَمَعَ الْحَوَارِيَّينَ لَيْلَةً وَأَوْصَاهُمْ، ثُمَّ قَالَ: لِيَكْفُرَنَّ بِي أَحَدُكُمْ قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ الدَّيْلُكُ وَيَبْيعَنِي بِدَرَاهِمٍ سِيرَةٍ، فَخَرَجُوا وَتَفَرَّقُوا، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَطْلُبُهُ، فَتَأَفَّقَ أَحَدُهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: مَا تَجْعَلُونَ لِي إِنْ دَلَّكُمْ عَلَى الْمَسِيحِ، فَجَعَلُوا لَهُ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَأَخَذَهَا وَذَلَّهْمُ عَلَيْهِ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ شَبْهَ عِيسَى ﷺ، فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَخَذُوا الْمُنَافِقَ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا دَلِيلُكُمْ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِهِ وَصَلُّوهُ، ثُمَّ قَالُوا: وَجْهُهُ يُشَبِّهُ وَجْهَ عِيسَى وَبَدَنُهُ يُشَبِّهُ بَدَنَ صَاحِبِنَا، فَإِنْ كَانَ هَذَا عِيسَى فَأَيْنَ صَاحِبِنَا، وَإِنْ كَانَ صَاحِبِنَا فَأَيْنَ عِيسَى؟! فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ.<sup>٣</sup>

قيل: حَمَلَتْ مَرْيَمُ ﷺ بِعِيسَى ﷺ وَهِيَ بِنْتُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَوَضَعَتْهُ بَيْتَ لَحْمٍ مِنْ أَرْضِ أُورُشَلِيمَ، لَمْضِي خَمْسِ وَسِتِّينَ سَنَةٍ مِنْ عِلْبَةِ الْإِسْكَانْدَرِ عَلَى أَرْضِ بَابِلَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِينَ سَنَةٍ، وَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ لَيْلَةَ الْقَدَرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةٍ، وَعَاشَتْ أُمُّهُ بَعْدَ رَفْعِهِ سِتِّ سِنِينَ.<sup>٤</sup>

وقيل: لَمَّا صُلِبَ الْمَصْلُوبُ جَاءَتْ مَرْيَمُ ﷺ وَمَعَهَا أَمْرَأَةٌ أَبْرَأَهَا اللَّهُ مِنَ الْجُنُونِ بِدُعَاءِ عِيسَى ﷺ، وَجَعَلْنَا تَبَكِّيَّانَ عَلَى الْمَصْلُوبِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِيسَى ﷺ فَجَاءَهُمَا فَقَالَ: عَلَامَ تَبْكِيَانِ؟ [فَقَالَتَا: عَلَيْكَ]. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَنِي، وَلَمْ يُعْصِنِي إِلَّا خَيْرٌ، وَإِنْ هَذَا شَيْءٌ شَبَّهَ لَهُمْ.<sup>٥</sup>

قيل: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَسَاهُ الرِّيشَ وَالتُّورَ، وَأَلْبَسَهُ التُّورَ، وَقَطَعَ عَنْهُ شَهْوَةَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، فَطَارَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ.<sup>٦</sup>

في افتراق أصحاب ثم أن أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ثم صعد عيسى ﷺ بعد رفعه على ثلاث فرق

١. تفسير أبي السعود ٢: ٤٣.

٢. تفسير روح البيان ٢: ٤٠، والرواية ليست عن ابن عباس.

٣. تفسير أبي السعود ٢: ٤٣.

٤. تفسير أبي السعود ٢: ٤٠.

٥. تفسير أبي السعود ٢: ٤٣، تفسير روح البيان ٢: ٤٠.

٦. تفسير أبي السعود ٢: ٤٤، تفسير روح البيان ٢: ٤٠.

إليه، وهُم التَّطَوُّرِيَّةُ<sup>۱</sup>، وقالت فِرْقَةٌ أُخْرَى مِنْهُمْ: كانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَتَظَاهَرَتْ عَلَيْهِمُ الْفِرْقَتَانِ الْكَافِرَتَانِ فَقَتَلُوهُم، فَلَمْ يَزَلْ الْإِسْلَامُ مُتَطَيِّسًا إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ النَّصَارَى مُتَعَدِّينَ بِأَنَّ الْيَهُودَ أَخَذُوا الْمَسِيحَ وَصَلَبُوهُ فِي مَشْهَدٍ جَمَّ غَفِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ وَهُوَ مَصْلُوبٌ، حَتَّى شَهِقَ عَلَى الْحَشْبَةِ شَهَقَةً وَمَاتَ، وَكَانَ قَتْلُ النَّبِيِّ خُصُوصًا بِهَذِهِ الدَّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عَلَى أُمَّتِهِ وَمَنْ يَعْتَقِدُ بِبُتُوتهِ، كَانَ إِخْبَارُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِخْبَارُ الرَّسُولِ بِكَذِبِ الْقَائِلِينَ بِوُقُوعِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَتَخْطِئَةُ النَّصَارَى فِي هَذَا الْإِعْتِقَادِ، وَقَوْلُهُ ﷺ أَنَّهُ مَا قُتِلَ وَمَا صَلَبَ وَمَا أَصَابَهُ وَهَنٌْ وَضَرٌّْ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ حَيًّا فِي غَايَةِ الْكِرَامَةِ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ الْمَقْتُولُ وَالْمَصْلُوبُ عَدُوَّهُ، أَوْ الْمُنَافِقُ الدَّالُّ عَلَيْهِ أَوْ غَيْرُهُمَا، تَسْلِيَةً عَظِيمَةً لِلنَّصَارَى وَمُحِبِّي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَنْطَبِقُ عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ جَمِيعُ مَا أَخْبَرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَارِيَّهِ بِمَجِيءِ مُسَلِّ بَعْدَهُ، وَأَمْرِهِ إِيَّاهُمْ بِطَاعَتِهِ وَاسْتِمَاعِ قَوْلِهِ، حَيْثُ لَمْ يَجِئْ أَحَدٌ بَعْدَهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَّا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﷺ.

في إخبار عيسى      وفي إنجيل يوحنا المترجم بالفارسية: (این سخنان را بشما گفتم و قتیکه با شما بودم،  
بیعت خاتم النبیین      لكن تسلي دهنده؛ یعنی روح القدس، که پدر او را باسم من می فرستند او همه چیز  
را بشما تعلیم خواهد داد و آنچه بشما گفتم بیاد شما خواهد آورد).

إِلَى أَنْ قَالَ: (وَالْآنَ قَبْلَ از وَقُوعِ، بِشَمَا گفتم تا و قتیکه واقع گردد ایمان آوردید، بعد از این بسیار با شما نخواهم گفت، زیرا که رئیس این جهان میاید و در من چیزی ندارد).

إِلَى أَنْ قَالَ: (لكن چون تسلي دهنده که او را از جانب پدر نژد شما می فرستم اید، یعنی روح راستی که از پدر صادر می گردد او بر من شهادت خواهد داد.

إِلَى أَنْ قَالَ: (ومن بشما راست می گویم که رفتن من برای شما مفید است، زیرا اگر نروم تسلي دهنده نزد شما نخواهد آمد، اما اگر بروم او را نزد شما می فرستم، و چون او آید جهان را بر [عدم] گناه و عدالت و داوری ملزم خواهد نمود)<sup>۲</sup>.

۱. کذا، والظاهر أنها التَّطَوُّرِيَّة.

۲. جاء في النسخة العربية من انجيل يوحنا - الاصحاح (١٤ - ١٦): وأما المعزي الروح القدس الذي سيُرسله الأب



إن قيل: إن جَوَزْنَا إلقاء شَبَه إنسان على إنسان لَزِمَ السُّقْطَةُ بحيث يُحْتَمَلُ أَنْ كُلَّ مَنْ تَرَاهُ يكون غيرهَ تصوُّرَ بَصُورته، ويلزِمُ بطلان الشَّرَائع، إذ الشَّرَائع لا تثبت إلا بالأخبار المتواترة عن المحسوسات، فإذا احتُمِلَ الخطأ في الجِسِّ ووُقِيعَ الغَلَطُ فيه، لا تقطع بقولهم: إن النبي قال كذا، أو فعل كذا، وأنهم رأوا النبي، بل يُحْتَمَلُ أنهم رأوا غيرَ النبي بَصُورته.

وفيه: أن وَقُوعَ هذا الأمر بالمُعْجزة في مَوْرِدٍ لا يُوْجِبُ الشُّكَّ في سائر المَوَارد، كما أن مَسْخَ الإنسان قِرْدًا أو خِنْزِيرًا لا يُوْجِبُ احتِمَالَ أَنْ كُلَّ خِنْزِيرٍ تَرَاهُ كان إنسانًا مُتَّصِرًا بِصُورَةِ الخِنْزِير، مع أَنَّ المَسْخَ مُسَلِّمُ الوُقُوعِ في بعض الأُمَم، أو إذا رأينا أن موسى ألقى عصاه فصارت ثُعْبَانًا، لا يُحْتَمَلُ أن يَنْقَلِبَ كُلُّ حَشَبٍ ثُعْبَانًا.

والحاصل: أَنَّ الإعْجَازَ سَبَبُ انْقِلَابِ صُورَةِ بَصُورَةٍ، فإذا لَمْ يُحْتَمَلِ وُجُودُ السَّبَبِ، لا يُحْتَمَلِ وُجُودُ المُسَبَّبِ.

إن قيل: إن جَبَرَيْلَ كان مُلَازِمًا لِعِيسَى، وكان قَادِرًا على إهلاك اليهود، وكذا عِيسَى كان قَادِرًا على إحياء المَوْتَى وإماتة الأحياء، فكانا قَادِرَيْنِ على إهلاك جميع اليهود.

قلنا: كان صَلَاحُ النِّظَامِ في رَفْعِهِ إلى السَّمَاءِ، وَحِفْظُهُ عَنِ الْيَهُودِ بِهَذَا النُّحُو، وكان مِنْ صَلَاحِهِ أَنْ يَكُونَ حُجَّةً عَلَى مَنْ يَنْكَرُ طَوْلَ عُمَرِ الحُجَّةِ بْنِ الْحَسَنِ عليه السلام، لِشُبْهَةِ امْتِنَاعِ بقاء الإنسان في هذا المِقْدَارِ مِنَ الزَّمَانِ الطَّوِيلِ بِلا شَيْبٍ وَهَرَمٍ.

إن قيل: إن النصارى على كَثْرَتِهِمْ في مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَشِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لِلْمَسِيحِ، أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ شَاهَدُوهُ مَقْتُولًا مَصْلُوبًا، فَلَوْ أَنْكَرْنَا ذَلِكَ كَانَ طَعْنًا فِيمَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ، وَهَذَا يُوْجِبُ الطَّعْنَ فِي ثَبُوتِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ.

قلنا: إِنَّمَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ أَنَّهُمْ رَأَوْا مَنْ كَانَ بِصُورَةِ عِيسَى مَقْتُولًا، وَلَوْلا إِخْبَارُ اللَّهِ بِخَطْبِهِمْ فِي الجِسِّ، لَطَعْنَا بِقَتْلِ عِيسَى عليه السلام. وَأَمَّا الإِشْكَالُ فِي جَوَازِ الخطأ فِي الجِسِّ فَهُوَ الإِشْكَالُ الْأَوَّلُ، وَجَوَابُهُ جَوَابُهُ.

لِأَنَّ بِاسْمِي فَهُوَ يَعْلَمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُمْ لَكُمْ - إِلَى أَنْ قَالَ: - وَقُلْتُ لَكُمْ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانُوا يُؤْمِنُونَ. لَا أَنْتَكُمُ أَيْضًا مَعَكُمْ كَثِيرًا لِأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِي شَيْءٍ - إِلَى أَنْ قَالَ: - وَمَتَى جَاءَ الْمُعْزِي الَّذِي سَأَرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الْآبِ رُوحَ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الْآبِ يَنْبِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِي - إِلَى أَنْ قَالَ: - لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ. لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَا يَأْتِيَكُمْ الْمُعْزِي. وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أَرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَيِّنُكَ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيئَةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى ذَنْبُونَةٍ.

إِنْ قِيلَ: إِنَّهُ تَبَتِ بِالتَّوَاتُرِ أَنَّ الْمَصْلُوبَ بَقِيَ حَيًّا زَمَانًا طَوِيلًا، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَيْسَى بَلْ كَانَ غَيْرَهُ لَأُظْهِرَ الْجَزَعُ وَلَقَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِعَيْسَى، بَلْ إِنَّمَا أَنَا غَيْرُهُ، وَلِبَالِغٍ فِي تَعْرِيفِ ذَلِكَ، وَلَوْ ذَكَرَ ذَلِكَ لاشْتَهَرَ عِنْدَ الْخَلْقِ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ أَثَرٌ، وَلَمْ يُوجَدْ فِي دَفْتَرِ، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذُكِرَ.

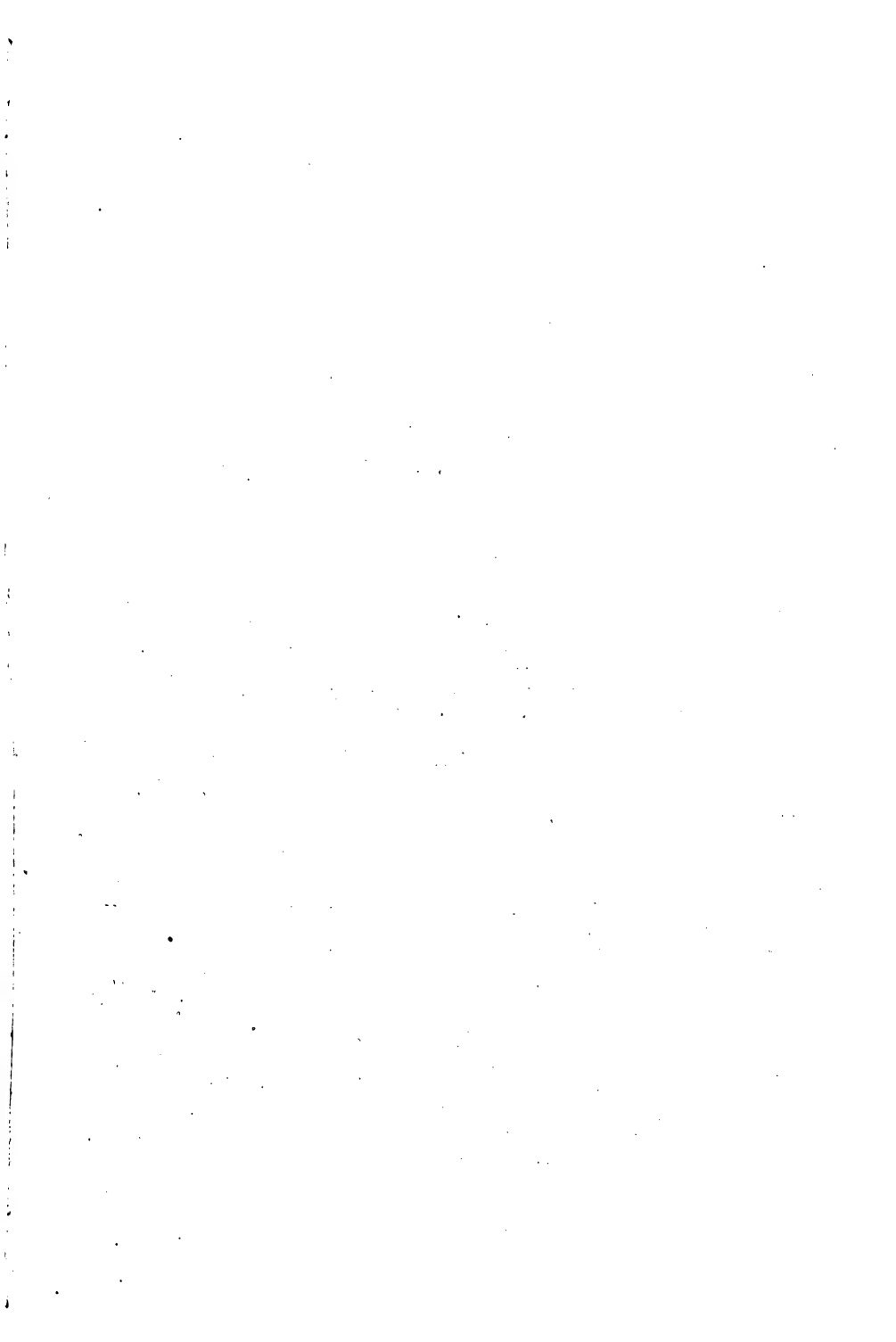
قُلْنَا: أَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ الْمَصْلُوبِ مُؤْمِنًا قَدْ قَبِلَ هَذَا الْأَمْرَ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يُظْهِرُ الْأَمْرَ الْبَيِّنَةَ، وَأَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ عَدُوًّا، أَوْ مُؤْمِنًا مُنَافِقًا، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَظْهَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِعَيْسَى، فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَكَانَ عَاجِزًا عَنْ إِثْبَاتِ دَعْوَاهُ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَمَا بَشَّرَهُ بِالْبِشَارَتَيْنِ الرَّاجِعَتَيْنِ إِلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ، بَشَّرَهُ بِكَرَامَةِ أَتْبَاعِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقَّ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي جَاعِلٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا خَيْرًا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وَأَمَّنُوا بِكَ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَغْلُوا فِيكَ كَمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَتْبَاعِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِكَ مِنَ الْيَهُودِ الْمُكَذِّبِينَ، وَالنَّصَارَى الْغَالِينَ فِيكَ، بِالْغَلْبَةِ عَلَيْهِمُ بِالسَّيْفِ، وَالْعِزَّةِ وَالْحُجَّةِ، مِنَ الْآنَ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وَجَاعِلُ الَّذِينَ خَالَفُواكَ تَحْتَ سُلْطَانِ الْمُؤْمِنِينَ، أَذِلَّةً مُقَهَّورِينَ ﴿ثُمَّ إِلَى﴾ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وَمَرْجِعُ مُخَالِفِيكُمْ بِالْبُغْثِ وَالنُّشُورِ ﴿فَأَحْكُمُ﴾ إِثْرَ رُجُوعِكُمْ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، وَتَتَنَازَعُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ.

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَاصِرِينَ [٥٦]

ثُمَّ بَيَّنَّ شَبْحَانَهُ كَيْفِيَّةَ حُكْمِهِ بَيْنَهُمْ مُفَصَّلًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ، وَجَحَدُوا بِرِسَالَتِكَ وَدِينِكَ ﴿فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ، وَالسَّبْيِ، وَالذَّلَّةِ، وَالْمَسْكَنَةِ، وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ، وَالْأَمْرَاضَ وَالْمَصَائِبَ الَّتِي هِيَ الْعُقُوبَاتُ الزَّائِدَةُ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ عَلَى عُقُوبَاتِ الْآخِرَةِ، وَمِنْ أَلْطَافِهِ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ، لَكُونُهُ ابْتِلَاءً لَهُمْ، وَرَفْعَ دَرَجَةٍ. وَفِي ﴿الْآخِرَةِ﴾ بِالنَّارِ، وَالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، وَسَائِرِ مَا عَذِّبَ لِلْكَفَّارِ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وَحَامِينَ يُنَجِّنُهُمْ مِنْ أَحَدِ الْعَذَابَيْنِ فَضْلًا عَنْ كِلَيْهِمَا.



## فهرس المحتوى

٥	مقدمة المؤسسة .....
٧	مقدمة التحقيق .....
١١	ترجمة المؤلف .....
١٥	هذا الكتاب .....
٢٣	الطُرْفَةُ الأولى .....
٢٧	الطُرْفَةُ الثانية .....
٢٩	الطُرْفَةُ الثالثة .....
٣٦	الطُرْفَةُ الرابعة .....
٤٠	الطُرْفَةُ الخامسة .....
٥١	الطُرْفَةُ السادسة .....
٥٤	الطُرْفَةُ السابعة .....
٥٦	الطُرْفَةُ الثامنة .....
٥٩	الطُرْفَةُ التاسعة .....
٦١	الطُرْفَةُ العاشرة .....
٦٩	الطُرْفَةُ الحادية عشرة .....
٧١	الطُرْفَةُ الثانية عشرة .....
٧١	الطُرْفَةُ الثالثة عشرة .....

٦٤٢ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ١

٧٤ ..... الطُّرْفَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ

٧٥ ..... الطُّرْفَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ

٧٨ ..... الطُّرْفَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ

٨٣ ..... الطُّرْفَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ

٨٥ ..... الطُّرْفَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ

٩٣ ..... الطُّرْفَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ

٩٨ ..... الطُّرْفَةُ الْعِشْرُونَ

١٠٩ ..... الطُّرْفَةُ الْحَادِيَّةُ وَالْعِشْرُونَ

١١٠ ..... الطُّرْفَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْعِشْرُونَ

١١٥ ..... الطُّرْفَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ

١٢٠ ..... الطُّرْفَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

١٢٢ ..... الطُّرْفَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ

١٢٣ ..... الطُّرْفَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ

١٢٨ ..... الطُّرْفَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

١٣٢ ..... الطُّرْفَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ

١٣٤ ..... الطُّرْفَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

١٣٥ ..... الطُّرْفَةُ الثَّلَاثُونَ

١٣٧ ..... الطُّرْفَةُ الْحَادِيَّةُ وَالثَّلَاثُونَ

١٤٢ ..... الطُّرْفَةُ الثَّانِيَّةُ وَالثَّلَاثُونَ

١٤٥ ..... الطُّرْفَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ

١٤٧ ..... الطُّرْفَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ

١٤٩ ..... الطُّرْفَةُ الْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ

١٥١ ..... الطُّرْفَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ

١٥٣ ..... الطُّرْفَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ

فهرس المحتوى ..... ٦٤٣

الطُّرْفَةُ الثَّامِيَّةُ وَالثَّلَاثُونَ ..... ١٥٥

الطُّرْفَةُ الثَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ ..... ١٥٦

الطُّرْفَةُ الْأَرْبَعُونَ ..... ١٦٦

خاتمة ..... ١٧٣

في تفسير الاستعاذة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ..... ١٧٥

في تفسير (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ..... ١٧٩

في تفسير فاتحة الكتاب ..... ١٨٥

[٧-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ..... ١٨٥

في تفسير سورة البقرة ..... ١٩٣

[٣-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ \* ذَلِكَ الْكِتَابُ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ..... ١٩٣

[٥ و ٥٥] وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ..... ١٩٥

[٦ و ٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ..... ١٩٧

[٨ و ٩] وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ..... ٢٠٧

[١٠-١٢] أَمَّا قُلُوبُهُمْ مُرْسِئَاتٌ فَذَاهِبُ اللَّهِ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..... ٢٠٨

[١٣-١٦] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ..... ٢١١

[١٧-٢٠] مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ..... ٢١٥

[٢١ و ٢٢] يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ ..... ٢١٩

[٢٣ و ٢٤] وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ..... ٢٢٢

[٢٥] وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي ..... ٢٢٦

[٢٦-٢٩] إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ..... ٢٣٥

[٣٠-٣٢] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ ..... ٢٤٠

[٣٣] قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ ..... ٢٤٤

[٣٤] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ..... ٢٤٤

[٣٥ و ٣٦] وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ..... ٢٤٦

- [٣٧] نَفَلْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَاتَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَاتُبُ الرَّحِيمُ ..... ٢٥٢
- [٣٨] قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ..... ٢٥٤
- [٣٩] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ..... ٢٥٥
- [٤٠] يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا بَعَثْنَا إِلَيْنَا أَنُكُفِّرُوا بَعِثْنَا إِلَيْنَا أَنُكُفِّرُوا بَعِثْنَا إِلَيْنَا ..... ٢٥٥
- [٤١ و ٤٢] وَأَمِينُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ يَرْجِعُونَ ..... ٢٥٦
- [٤٣] وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ..... ٢٥٧
- [٤٤] أَنُؤْمِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ..... ٢٥٧
- [٤٥ و ٤٦] أَتَسْمِعُونَ بِالضَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ..... ٢٥٩
- [٤٧ و ٤٨] يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا بَعَثْنَا إِلَيْنَا أَنُكُفِّرُوا بَعِثْنَا إِلَيْنَا ..... ٢٦٠
- [٤٩] وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ ..... ٢٦٢
- [٥٠ و ٥١] وَإِذْ قَرَّبْنَا بَحْمِكُمْ الْبَحْرَ فَأَلْبَحَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ ..... ٢٦٣
- [٥٢] وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ..... ٢٦٤
- [٥٣] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ..... ٢٦٤
- [٥٤ و ٥٥] وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ..... ٢٦٥
- [٥٦] وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ..... ٢٦٦
- [٥٨ و ٥٩] وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فكلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ..... ٢٦٧
- [٦٠] وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ ..... ٢٦٨
- [٦١] وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ ..... ٢٦٩
- [٦٢] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ ..... ٢٧٠
- [٦٣ و ٦٤] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ..... ٢٧١
- [٦٥ و ٦٦] وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ..... ٢٧٣
- [٦٧ و ٧٣] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتُحَدِّثُنَا ..... ٢٧٤
- [٧٤] أَنْتُمْ قَسْتُمْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْإِبْرَارَةِ أَوْ أَنتُمْ شُرَكَاءُ ..... ٢٧٧
- [٧٥] أَفَتَضْمَنُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ..... ٢٧٩

- [٧٨-٧٦] وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ ..... ٢٨٠
- [٧٩] فَأَنزِلَ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ..... ٢٨٢
- [٨٠ و ٨١] وَقَالُوا لَنْ نَمُتَنَّا النَّارُ إِلَّا إِنَّمَا مَعْدُودَةٌ قُلْ أَتُخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ ..... ٢٨٣
- [٨٢] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ ..... ٢٨٤
- [٨٣] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالَّذِينَ إِحْسَانًا ..... ٢٨٥
- [٨٤ و ٨٥] وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ ..... ٢٨٩
- [٨٦] أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْشَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ..... ٢٩١
- [٨٧-٨٩] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ..... ٢٩١
- [٩٠] بِسَمَاءٍ أَنْشَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ نَبِيًّا أَنْ يَبْتَغِيَ اللَّهُ ..... ٢٩٣
- [٩١] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِيدٌ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ..... ٢٩٤
- [٩٢ و ٩٣] وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ..... ٢٩٥
- [٩٤ و ٩٥] قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ دَلَالٌ بِالْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةٌ مِنْ ذَوْنِ النَّاسِ ..... ٢٩٦
- [٩٦] وَلَتَجِدَنَّهُمْ خُرُوصًا أَلْفَاظٍ عَلَىٰ حِينٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَدْعُوا أَحَدَهُمْ ..... ٢٩٨
- [٩٧ و ٩٨] قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا ..... ٢٩٩
- [٩٩ و ١٠٠] وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ \* أَوْ كَلَّمَا ..... ٣٠٠
- [١٠١] وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ..... ٣٠١
- [١٠٢ و ١٠٣] وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرُ ..... ٣٠٢
- [١٠٤ و ١٠٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْفَرُّوا وَأَسْمِعُوا ..... ٣٠٥
- [١٠٦] مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ ..... ٣٠٧
- [١٠٧] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذَوْنِ اللَّهِ ..... ٣٠٨
- [١٠٨] أَلَمْ تَرِيدُوا أَنْ تُغْلِبُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَبَّلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ..... ٣٠٨
- [١٠٩] وَدُكِّيَتْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ..... ٣٠٩
- [١١٠] وَاتَّقُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ..... ٣١٠
- [١١١ و ١١٢] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ بَلْكَ ..... ٣١١



- [١١٣ و ١١٤] وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ الْفَصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى ..... ٣١٣
- [١١٥] وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ..... ٣١٥
- [١١٦] وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ..... ٣١٧
- [١١٧] يَدْعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ..... ٣١٧
- [١١٨] وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ ..... ٣١٨
- [١١٩] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ..... ٣١٩
- [١٢٠] وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ ..... ٣٢٠
- [١٢١] الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ الَّذِينَ نَعَّمْتُمُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ..... ٣٢١
- [١٢٢ و ١٢٣] يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَيْ ..... ٣٢٢
- [١٢٤] وَإِذْ نَادَىٰ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهَتْهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ..... ٣٢٢
- [١٢٥] وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ ..... ٣٢٧
- [١٢٦] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ..... ٣٢٩
- [١٢٧ و ١٢٩] وَإِذْ يُزْعِقُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ ..... ٣٢٩
- [١٣٠] وَمَنْ يَزْعِبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ..... ٣٣٥
- [١٣١ و ١٣٢] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ \* وَوَصَّىٰ بِهَا ..... ٣٣٦
- [١٣٣] أَنَّمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ ..... ٣٣٧
- [١٣٤] ذَلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَنْهَا ..... ٣٣٨
- [١٣٥] وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا ..... ٣٣٨
- [١٣٦] قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ..... ٣٣٩
- [١٣٧] فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ..... ٣٤٠
- [١٣٨] صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ..... ٣٤١
- [١٣٩] قُلْ أَتُحِبُّونَنِي فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ ..... ٣٤٢
- [١٤٠ و ١٤١] أَنَّمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ..... ٣٤٣
- [١٤٢] سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ ..... ٣٤٤

- [١٤٣] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ ..... ٣٤٨
- [١٤٤] فَذُرْنِي نَفِلْتُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتَوَلَّيْنِكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلَّ ..... ٣٥١
- [١٤٥] وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِئْتَلَكِ وَمَا أَنتَ بِبَايِعِ ..... ٣٥٣
- [١٤٦] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَغْرِبُونَهُمَا كَمَا يُغْرِقُونَ بُنْيَانَهُمْ وَإِنْ قَرَّبْنَا مِنْهُمْ ..... ٣٥٤
- [١٤٧] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ..... ٣٥٥
- [١٤٨] وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ ..... ٣٥٦
- [١٤٩ و ١٥٠] وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ ..... ٣٥٧
- [١٥١ و ١٥٢] كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ..... ٣٥٩
- [١٥٣ و ١٥٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ..... ٣٦٢
- [١٥٥] وَلَتَبْلُوَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ ..... ٣٦٤
- [١٥٦] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ..... ٣٦٧
- [١٥٧] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخُونَ ..... ٣٦٨
- [١٥٨] إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ ..... ٣٦٩
- [١٥٩ و ١٦٠] إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ ..... ٣٧١
- [١٦١ و ١٦٢] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ ..... ٣٧٣
- [١٦٣] وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ..... ٣٧٤
- [١٦٤] إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوبِ ..... ٣٧٥
- [١٦٥- ١٦٧] وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ..... ٣٨١
- [١٦٨ و ١٦٩] يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنْ ثَمَرِ الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا ..... ٣٨٤
- [١٧٠] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..... ٣٨٥
- [١٧١] وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَبُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ ..... ٣٨٦
- [١٧٢ و ١٧٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ..... ٣٨٧
- [١٧٤- ١٧٦] إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ..... ٣٩٠
- [١٧٧] أَلَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ..... ٣٩٢

- [١٧٨ و ١٧٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ..... ٣٩٥
- [١٨٠-١٨٢] كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا ضَرَأْتُمْ أَصْحَابَكُمْ أَنَّ تَزْوَاجَهُمْ حَرَامٌ ..... ٣٩٧
- [١٨٣-١٨٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ ..... ٣٩٩
- [١٨٦] وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ..... ٤٠٤
- [١٨٧] أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ إِذَا رَأَيْتُمْ مُرْتَابًا لَكُمْ وَتَمْتَعُوا ..... ٤٠٦
- [١٨٨] وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا ..... ٤٠٩
- [١٨٩] يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ مِنْ مَوَاقِيتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْتُمْ ..... ٤١١
- [١٩٠-١٩٣] وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَقْنَطُوا إِنَّ اللَّهَ ..... ٤١٤
- [١٩٤ و ١٩٥] اللَّهُمَّ الْحَرَامَ بِاللَّهُمَّ الْحَرَامَ وَالْحَرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ ..... ٤١٦
- [١٩٦] وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ..... ٤١٩
- [١٩٧] الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْعَ وَلَا نُسُوقَ ..... ٤٢٢
- [١٩٨] أَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ إِذَا أَنْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ ..... ٤٢٣
- [١٩٩-٢٠٢] أَلَمْ يُبَيِّنْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ..... ٤٢٥
- [٢٠٣] تَأَخَّرُ فَلَا يُأْتِيهِمْ لِيَمُنَّ أَوْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ..... ٤٣٠
- [٢٠٤-٢٠٦] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى ..... ٤٣١
- [٢٠٧] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ..... ٤٣٣
- [٢٠٨ و ٢٠٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ..... ٤٣٤
- [٢١٠] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ضَلَالٍ مِنَ النَّعْمِ وَالْمَلَائِكَةُ ..... ٤٣٦
- [٢١١] سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ أَمْرِ نَبِيِّهِ وَمَنْ يَنْبَغِ لَهُمْ نِعْمَةٌ ..... ٤٣٨
- [٢١٢] وَرَبِّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ ..... ٤٣٨
- [٢١٣] كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ ..... ٤٣٩
- [٢١٤] أَلَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ..... ٤٤٣
- [٢١٥] يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الَّذِينَ ..... ٤٤٤
- [٢١٦] كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ ..... ٤٤٥

- [٢١٧ و ٢١٨] يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْهَرَمِ فَقَالَ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ ..... ٤٤٧
- [٢١٩ و ٢٢٠] يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ..... ٤٥٠
- [٢٢١] وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ..... ٤٥٦
- [٢٢٢] وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ..... ٤٥٨
- [٢٢٣] يَسْأَلُكُمْ خَزَنَتُ لَكُمْ لَأَنَّا خَرْنَكُمْ أُنَّى يُشْتَمُ فَقَدْذَمُوا أَنْفُسَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ..... ٤٦١
- [٢٢٤] وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَةً لَأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ..... ٤٦٣
- [٢٢٥-٢٢٧] لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْعَمَى فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ ..... ٤٦٤
- [٢٢٨] وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ..... ٤٦٦
- [٢٢٩ و ٢٣٠] الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ سَكَتَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسَرَّعَ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ ..... ٤٦٩
- [٢٣١] وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ ..... ٤٧٣
- [٢٣٢] وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ..... ٤٧٤
- [٢٣٣] وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الْوَصَاعَةَ ..... ٤٧٦
- [٢٣٤] وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ..... ٤٧٩
- [٢٣٥-٢٣٧] وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَثُمْ فِي ..... ٤٨٠
- [٢٣٨ و ٢٣٩] حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ..... ٤٨٤
- [٢٤٠-٢٤٢] وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى ..... ٤٨٧
- [٢٤٣ و ٢٤٤] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ..... ٤٨٩
- [٢٤٥] مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ ..... ٤٩٢
- [٢٤٦ و ٢٤٧] أَلَمْ تَرَ إِلَى النَّاسِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ ..... ٤٩٣
- [٢٤٨] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ ..... ٤٩٧
- [٢٤٩] فَلَمَّا نَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ..... ٥٠٠
- [٢٥٠ و ٢٥١] وَلَمَّا بَرَوْا الْبَارِثَ وَجَدُوهُ قَالُوا وَتَبْنَا أَفَرَأَيْتُمْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبْتُ ..... ٥٠١
- [٢٥٢] بَلَّكَ آبَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ..... ٥٠٤
- [٢٥٣] بَلَّكَ الرَّسُلُ فَقُلْنَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ ..... ٥٠٥

- [٢٥٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِمَّا زَفَرْنَاكُمْ مِنْ قِتْلٍ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ ..... ٥٠٧
- [٢٥٥] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ..... ٥٠٨
- [٢٥٦] لَا إِكْرَاهَ فِي الَّذِينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالصَّالِحِينَ وَيُؤْمِنْ ..... ٥١٢
- [٢٥٧] اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ..... ٥١٤
- [٢٥٨ و ٢٥٩] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ ..... ٥١٦
- [٢٦٠] وَإِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى ..... ٥٢٣
- [٢٦١] أَمْثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْكَ سَبْعُ سَاكِبِلَ ..... ٥٢٦
- [٢٦٢] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا ذِي ..... ٥٢٧
- [٢٦٣] قَوْلٍ مَعْرُوفٍ وَمَغْفُورٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ..... ٥٢٨
- [٢٦٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ ..... ٥٢٩
- [٢٦٥] وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ إِيَّاهُ مَرْضَاتٍ اللَّهُ وَتُطِيبَاتٍ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..... ٥٣١
- [٢٦٦] أَلَيْدُ أَخَذَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَهُ جُنَّةً مِنْ نَجِيلٍ وَأَغْنَابٍ تُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..... ٥٣٢
- [٢٦٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِنْ طَبَائِعِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ ..... ٥٣٣
- [٢٦٨] الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ..... ٥٣٥
- [٢٦٩] يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا ..... ٥٣٦
- [٢٧٠] وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ ..... ٥٣٧
- [٢٧١] إِنْ يُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَيَعْتَمِدْنَ عَلَيْهَا وَإِنْ يُخْفُواهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ..... ٥٣٨
- [٢٧٢] أَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ..... ٥٣٩
- [٢٧٣] لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ..... ٥٤١
- [٢٧٤- ٢٧٦] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَائِلِ وَالْأَنْهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ..... ٥٤٢
- [٢٧٧] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ ..... ٥٤٧
- [٢٧٨- ٢٨٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الزَّيْنِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ..... ٥٤٨
- [٢٨١] وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ ..... ٥٥٠
- [٢٨٢ و ٢٨٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِذُنُوبِكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاتَّقُوا ..... ٥٥١

[٢٨٤] إِنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ٥٦١

[٢٨٥] أَمَّا الرُّسُولُ فَإِنَّهُ أَنْزَلَ إِلَهُ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ بِالْهُدَى وَمَلَائِكَتُهُ ٥٦٢

[٢٨٦] لَا يَخْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رِئَاءًا ٥٦٦

في تفسير سورة آل عمران ..... ٥٧١

[٢٨٧] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٥٧١

[٢٨٨] أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٥٧٣

[٢٨٩] إِنْ اللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ \* هُوَ الَّذِي ٥٧٥

[٢٩٠] هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ ٥٧٨

[٢٩١] وَرَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٥٨٢

[٢٩٢] إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ ٥٨٣

[٢٩٣] كَذَّابٌ أَلِيٌّ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ٥٨٤

[٢٩٤] فَذَكَرْنَاكَ لَكُمْ آيَةً فِي فِتْنَتِي الثَّقَانِ فَبَقِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ٥٨٦

[٢٩٥] أَرْزُقِ لِلنَّاسِ حُبَّ السَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٥٨٨

[٢٩٦] أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا مِنْ دُونِكُمْ آلَافَ نَجَاتٍ أَوْ تَحْتِهَا ٥٩١

[٢٩٧] الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا رَبَّنَا عَذَابَ النَّارِ ٥٩٢

[٢٩٨] نَسْهَدُ اللَّهَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ ٥٩٣

[٢٩٩] إِنْ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَامٌ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا ٥٩٤

[٣٠٠] فَإِنْ جَاءُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ٥٩٥

[٣٠١] إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٥٩٦

[٣٠٢] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ ٥٩٧

[٣٠٣] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا تَمَنَّاهُ فَالْأَجْمَاعُ مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي وَبْنِهِمْ ٥٩٨

[٣٠٤] نَكْتِفُ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيُؤْمِرَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ ٥٩٩

[٣٠٥] أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمُلُوكَ يُؤْتَوْنَ الْمُلْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَنَتَرُ الْمُلْكَ ٦٠٠

[٣٠٦] لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ٦٠٢

- [٢٩] قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُورِكُمْ أَوْ تُبْغُوا نِعْمَةً مِّنَ السَّمَاوَاتِ ..... ٦٠٣
- [٣٠ و ٣١] يَوْمَ نَجْعِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ ..... ٦٠٤
- [٣٢] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ..... ٦٠٦
- [٣٣ و ٣٤] إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ..... ٦٠٧
- [٣٥ و ٣٧] إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَّيْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ ..... ٦١١
- [٣٨ و ٣٩] هَٰؤُلَٰئِكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ ..... ٦١٦
- [٤٠ و ٤١] قَالَ رَبِّ إِنِّي بَكُونٌ لِّي غُلَامٌ وَفَدَّ بَلْعَنِي الْكَبِيرُ وَأْمُرْ إِنِّي عَاقِرٌ قَالَ ..... ٦١٨
- [٤٢] إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءٍ ..... ٦٢٠
- [٤٣] يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ..... ٦٢١
- [٤٤] ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَنَّمْ ..... ٦٢٢
- [٤٥] إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ..... ٦٢٢
- [٤٦] وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ..... ٦٢٣
- [٤٧] قَالَتْ رَبِّ إِنِّي بَكُونٌ لِّي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ ..... ٦٢٤
- [٤٨ و ٤٩] وَرَبِّعُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ \* وَرَسُولًا إِلَى ..... ٦٢٥
- [٥٠ و ٥١] وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُزِمَ ..... ٦٣٠
- [٥٢ و ٥٤] فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ ..... ٦٣١
- [٥٥] إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَارْتَعْكَ إِلَيَّ وَطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..... ٦٣٥
- [٥٦] فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُهُمْ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ ..... ٦٣٩